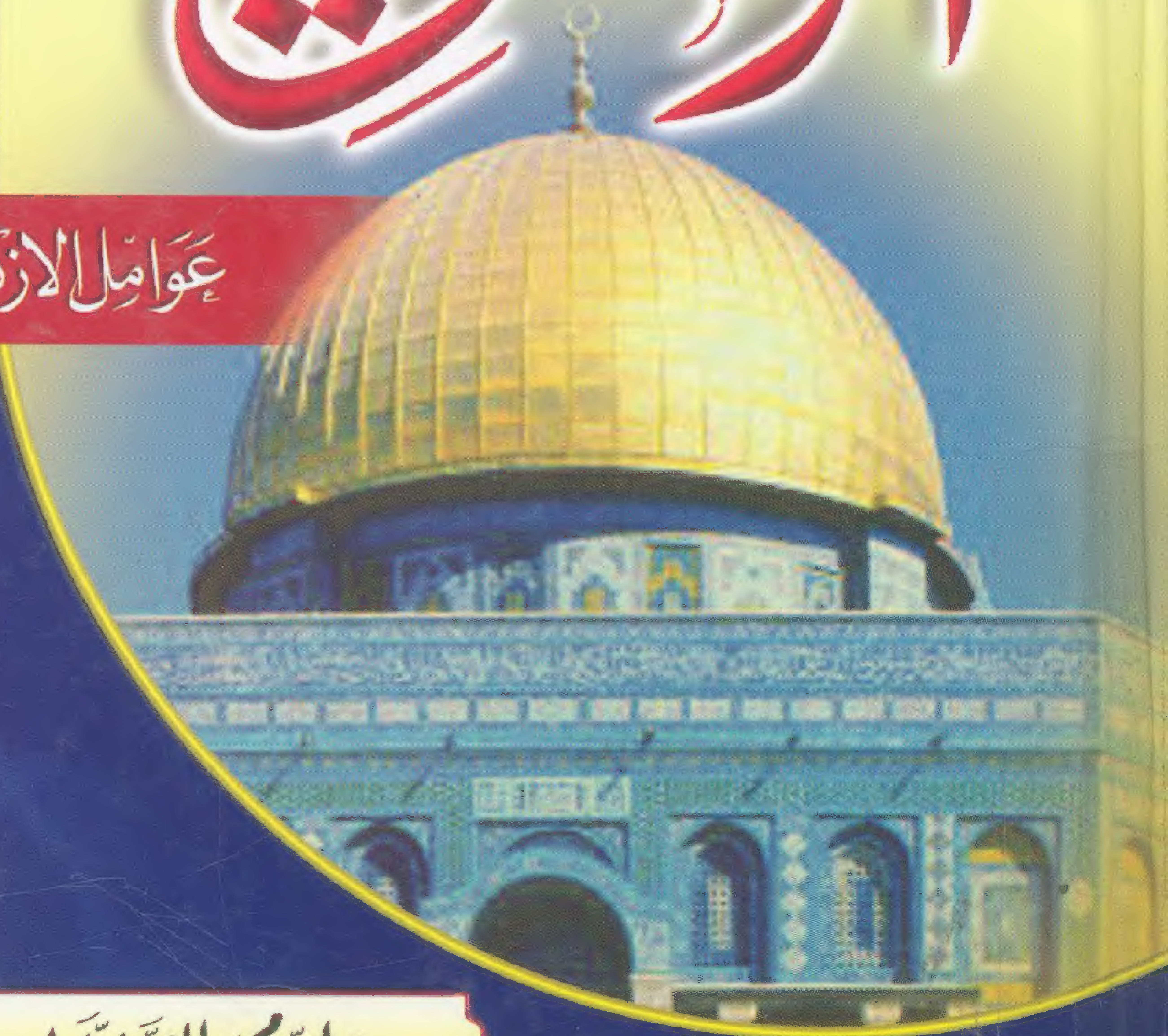
الدولة الأموية

2

معاوية بن أبى سفيان
يزيد بن معاوية
معاوية بن يزيد
مروان بن الحكم
عبد الملك بن مروان
الوليد بن عبد الملك
سليمان بن عبد الملك
عمر بن عبد العزيز

عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

يزيد بن عبد الملك
هشام بن عبد الملك
الوليد بن يزيد
يزيد بن الوليد
مروان بن محمد



د. علي محمد الصلابي

الدولة الأموية

عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار

الجزء الثاني

تأليف الدكتور

علي محمد محمد الصلابي

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٣٧١٧

الترقيم الدولي: I.S.B.N
977-6119-65-4

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ شارع أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط

تليفاكس : ٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠/٥٢٢٤٢٠٧

الفصل الثامن

الفتوحات الإسلامية فى عهد عبد الملك والوليد وسليمان

وتجدر الإشارة إلى أننا فى هذا الفصل سوف نجمع الفتوحات فى عهد عبد الملك والوليد وسليمان لكى نعطى صورة متكاملة عنها بسبب ترابطها ببعضها.

المبحث الأول

الفتوحات فى بلاد الروم

فى أواخر عام ٧٣هـ شعر عبد الملك بأن الدولة استعادت قوتها، وأنها تستطيع أن تستأنف جهادها وتعلى إرادتها، وكانت العلاقات قد ساءت بين دولة الروم والدولة الإسلامية فى هذه الفترة، وأخذ الروم يتأهبون للانقضاض فكان عبد الملك لهم بالمرصاد، وقد أحكم إعداده، فعين أخاه محمد بن مروان واليًا على الجزيرة وأرمينية ليكون القائد فى هذه الجبهة، ومنع عبد الملك إرسال النقود التى كان يدفعها وقت الضرورة فأثار هذا حنق الإمبراطور الرومانى البيزنطى، فأعلن الحرب، وقدم بجيش كبير ليغزو المسلمين من ناحية أرمينية، فلاقاه محمد بن مروان بجيشه ودارت موقعة عنيفة هزم فيها الروم -على كثرة عددهم- هزيمة شنيعة وفر الإمبراطور بنفسه وانفض عنه أكثر جنوده، وكان ذلك عام ٧٤هـ، فزعزعت هذه الوقعة الدولة البيزنطية[1]، واستغل عبد الملك هذا النصر وواصل ضغطه على الدولة البيزنطية عبر الحدود، وانتظمت غزوات الصوائف والشواتى، وشرع فى التوغل داخل الأراضى البيزنطية القريبة فكانت الصوائف تخرج بانتظام للإغارة على هذه الأراضى يقودها محمد بن مروان أو غيره من أمراء بنى أمية. وفى عام ٨١هـ بعث عبد الملك ابنه عبد الله بن عبد الملك ففتح «قاليقالا» وهى إحدى مدن الروم الكبيرة، وفى عام ٨٤هـ تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسية، داخل دولة الروم فى آسيا الصغرى، وهى مدينة «المصيصة»، فبنى حصنها، ووضع بها حامية من ثلاثمائة مقاتل من ذوى البأس، ولم يكن المسلمون يسكنونها من قبل، وبنى مسجدها، وهكذا اندفعت قوة المسلمين إلى الأمام، تفتح المعاقل وتستولى على الحصون داخل أرض العدو فى دولة

(١) عبد الملك بن مروان، محمد ضياء الدين الريّس ٢٠٨.

الروم، منذ تحققت الوحدة فى عهد عبد الملك[١]. ولقد أثبت عبد الملك بعد إعادة الوحدة السياسية أن الدولة بقوّتها الموحدة قادرة على التفوّق وإحراز السيادة، وتحقيق النصر على البيزنطيين، وأن قوتها الموحدة قادرة على الاندفاع فى الجبهات كافة[٢]، واستمرت الجيوش الإسلامية فى جهادها طوال عهد الوليد ثم سليمان، وقد برز مسلمة بن عبد الملك فى تلك الحروب كقائد فذ، ومقاتل عظيم، فكان فى كل سنة يفتح بلدًا أو حصنًا من الحصون العظيمة التى أقامها الروم لتأمين سلامة بلادهم والمحافظة عليها من غارات الأعداء، وكان يغزو معه هذه الغزوات ـ فى عهد الوليد ـ لفتح هذه الفتوح العباس بن الوليد بن عبد الملك، ومن الحصون التى فتحها: حصن عمورية، وهرقلية، وقمونية، وحصن طوانة، وسمطية، والمرزبانين، وطروس، وكثير غير هذه الحصون[٣].

ففى جمادى الآخرة سنة ٨٨هـ ـ ٧٠٧م فتح مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد حصن طوانة وشتوا بها، وهزم المسلمون الأعداء حتى صاروا إلى كنيستهم ثم رجعوا فانهزم الناس، وبقى العباس ومعه نُفير، منهم ابن محيريز الجُمحى، فقال العباس لابن محيريز: أين أهل القرآن. الذين يريدون الجنة؟ فقال ابن محيريز: نادهم يأتوك. فنادى العباس: يا أهل القرآن. فأقبلوا جميعًا، فهزم الله العدو حتى دخلوا طوانة[٤]. وهكذا لا تمر سنة إلا ويغزو المسلمون أرض الروم ويستولون على بعض حصونهم ومعاقلهم، ومن الجدير بالذكر أن معظم الذين كانوا يقودون هذه الحملات هم من أبناء البيت الأموى، أولاد الخليفة الوليد نفسه وأخيه مسلمة الذى لم يكد يتخلف سنة واحدة عن غزو أرض الروم، وهذا أمر له مغزاه؛ فقد كان مسلمة هو الذى قاد الجيش الذى حاصر القسطنطينية الحصار الأخير فى عهد سليمان ـ كما سنذكر قريبًا بإذن الله ـ ومعنى هذا أن اشتراكه المستمر فى غزو بلاد الروم كان مقصودًا ليزداد معرفة وخبرة بالطرق والمسالك إلى عاصمة البيزنطيين، التى كانت أحد الأهداف الرئيسية لهذه الغزوات[٥].

أولاً: البيزنطيون يرصدون تحركات المسلمين العسكرية:

من الطبيعى أن تكون عيون البيزنطيين دائمًا مفتوحة على حدودهم مع المسلمين، فجبهة الحدود دائمًا ملتهبة، والغزو الإسلامى لا يكاد يتوقف، ولكى يتأكد البيزنطيون من نوايا المسلمين وأهدافهم من وراء هذا النشاط العسكرى المستمر، أرسل الإمبراطور البيزنطى

(١) عبد الملك بن مروان، محمد ضياء الدين الريّس، صـ٢٠٩ .

(٢) تجديد الدولة الأموية صـ١٤٩ . (٣) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٤٢٠).

(٤) تاريخ الطبري [illegible] (٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٥٦.

أنسطاس (٧١٣ ـ ٧١٦م) سفارة إلى دمشق لتستطلع الأخبار عن كثب، وتعرض على الخليفة الوليد مشروع عقد هدنة بين الدولتين، ولما وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق، شاهدت عظمة المسلمين فى عاصمتهم ونشاط الخليفة فى إعداد الجيوش لتوجيهها إلى القسطنطينية، وعاد السفير إلى الإمبراطور يؤكد صدق عزيمة المسلمين على الجهاد، وينصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن العاصمة، فأخذ أنسطاس برأى سفيره، وأعلن فى القسطنطينية أخبار الحملة الإسلامية المنتظرة، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات، وأن يخرج من المدينة كل معوز وغير قادر على تدبير مؤونته، ثم ملأ الخزائن الإمبراطورية بكميات كبيرة من القمح وغيره من الحاجيات التى يتطلبها المدافعون عن المدينة، واهتم كذلك بتجديد أسوار المدينة، لاسيما الجهات المطلة منها على المياه، حيث كان التداعى قد دب فيها، ووضع على الأسوار البرية كل الآلات الحربية من المجانيق وغيرها من وسائل الدفاع[١]، وبينما يمضى الخليفة الوليد فى استعداداته للزحف على العاصمة البيزنطية إذ وافته منيته سنة ٩٦هـ، فخلفه أخوه سليمان ليواصل جهوده فى هذا الميدان[٢].

ثانيًا: سليمان بن عبد الملك وحصاره للقسطنطينية:

يبدو أن اهتمام الخلفاء بفتح القسطنطينية، إنما يرجع لرغبتهم الشديدة فى أن يكونوا المقصودين بقوله عليه الصلاة والسلام: «لتفتحن القسطنطينية؛ فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[٣]، ويضاف إلى ذلك رغبة سليمان الشديدة، فى وضع حد للهجمات البيزنطية المتكررة على الشواطئ الشامية والمصرية، والتى من شأنها بث حالة من عدم الاستقرار فى تلك النواحى؛ وبالتالى المساس بسيادة الدولة الإسلامية، فقد هاجم البيزنطيون ساحل جند حمص، وسبوا «امرأة وجماعة»- وللمرأة فيهم ذكر إذ ذاك- فغضب سليمان وقال: ما هو إلا هذا، نغزوهم ويغزوننا، والله لأغزونهم غزوة أفتح فيها القسطنطينية، أو أموت دون ذلك[٤].

١- الاستعداد للحملة: شملت الاستعدادات للحملة معظم العالم الإسلامى، فقد ضمت الحملة البرية نحو مائة وعشرين ألفًا من الشام والجزيرة والموصل، وضمت الحملة البحرية ألف

(١) الأمويون والبيزنطيون، نقلاً عن العالم الإسلامى صـ٢٥٦ .
(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٥٦ .
(٣) مسند أحمد رقم ١٩٦٩ .
(٤) الوافى بالوفيات (١٥/ ٤٠٣)، خلافة سليمان بن عبد الملك صـ١٧٧ .

مركب من أهل مصر وإفريقيا[1] ويبدو أن تقدير المسلمين لحصانة القسطنطينية، وطول أمد الحرب، تقدير سليم وقوى، حيث إنهم أدركوا أن حصارها يتطلب قوات كبيرة، ووقتًا طويلاً، وأسلحة متنوعة؛ لذلك جمعوا آلات الحرب للصيف والشتاء، والمجانيق والنفط وغير ذلك[2].

٢ ـ سير الحملة: تجاذبت قادة المسلمين العسكريين خطتان حول سير الحملة: الأولى طرحها موسى بن نصير، وفحواها أن على المسلمين احتلال المدن والحصون التى دون القسطنطينية، لتجريدها من المواقع الحصينة المحدقة بمسالكها، والتى قد تعوق حركة الجيش الإسلامى، ويستمر الأمر بهذه الخطة حتى تفتح القسطنطينية، وأما الخطة الثانية، فطرحها مسلمة بن عبد الملك، الذى ارتأى أن اتباع خطة موسى، يحتاج إلى أمد بعيد جدًا حتى يتحقق حصار القسطنطينية، وفتحها، لذلك أشار بضرورة التوجه مباشرة إلى القسطنطينية دون التعرض للمدن والحصون المحدقة بجانبى الطريق إلا ما كان ضروريًا، ويبدو أن رأى مسلمة لقى قبولاً لدى الخليفة ومستشاريه العسكريين؛ لذلك تقرر سير الحملة حسب خطته[3]، وسار سليمان من القدس إلى دمشق ومضى حتى نزل دابق[4]، وأقسم ألا ينتقل منها حتى يفتح القسطنطينية، فأقام بها[5]، وفى سنة ٩٨هـ تحركت الحملة بقيادة مسلمة بن عبد الملك من سوريا برًا، وبحرًا باتجاه القسطنطينية، واستمر مسلمة فى سيره، ووصلت الحملة البرية القسطنطينية عام ٩٨هـ، ووصلها الأسطول فى عام ٩٩هـ، وضرب المسلمون الحصار على المدينة، وقاتلوا الروم قتالاً شديدًا واستبسلوا فى جهادهم، ورغم المصابرة التى استمرت قرابة سنة، فإن المحاولة فشلت، وخسر المسلمون خسارة كبيرة فى العدد والعدة[6]، وقد وصفت المصادر الإسلامية الحالة السيئة التى آل إليها الجيش الإسلامى فى الفترة الأخيرة من الحصار، فالفسوى يقول: وقد كان الناس لقوا جهدًا من القسطنطينية من الجوع[7]، ويقول الطبرى: فلقى الجند ما لم يلق جيش، حتى إن كان الرجل ليخاف أن يخرج من العسكر وحده، وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شىء غير التراب[8]، كما أن البيزنطيين داخل القسطنطينية كانوا فى حالة سيئة أيضًا، ولعل من الشواهد التاريخية على ذلك ما يأتى:

(١) البداية والنهاية نقلا عن خلافة سليمان بن عبد الملك صـ١٨١.
(٢) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ١٨١.
(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٦٣٢).
(٤) المصدر نفسه (١٢/ ٦٣٣).
(٥) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٣٣).
(٦) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٢٦١.
(٧) المعرفة والتاريخ (١/ ٦١٨).
(٨) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٣٣).

أ- أن مخاطرة السفن البيزنطية فى الخروج لجلب القمح من شواطئ البحر الأسود وخروج المراكب الصغيرة لجلب الطعام، وصيد الأسماك، دليل قوى على الضنك الاقتصادى عند أهل القسطنطينية بالرغم من انكسار حدة القتال.

ب- سعى البيزنطيين إلى عقد صلح مع مسلمة، حيث عرض بطريقهم، دفع دينار عن كل رجل محتلم فى القسطنطينية، دليل آخر على سوء الأوضاع الداخلية.

ج- الصلح الذى تم إبرامه بين المسلمين والبيزنطيين، قبيل انسحاب الجيش الإسلامى، وتعهد البيزنطيين بموجبه بالمحافظة على المسجد الذى بناه مسلمة[1].

٣- انسحاب الجيش الإسلامى: لما مات سليمان بن عبد الملك تولى عمر بن عبد العزيز أمر الخلافة، فوجه إلى مسلمة وهو محاصر للقسطنطينية أمرًا بالقفول منها بمن معه من المسلمين، ووجه إليه خيلاً عتاقًا وطعامًا كثيرًا وحث الناس على معونتهم، وكان عدد الخيل التى وجهها لمسلمة خمسمائة فرس[2]، لأنه كان قد أصاب المسلمين مجاعة فقواهم بذلك[3]، وكان قرار عمر بن عبد العزيز بانسحاب مسلمة حصيفًا صائبًا، لا لأنَّ عمر غير ميّال إلى حروب الفتح والاستيلاء[4]، بل لأنّ موقف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية كان ميئوسًا منه، فأمر بانسحابهم حقنًا لدمائهم، بعد أن بلغ بهم الجهد[5]، إذ لم يغفل عمر أبدًا عن غزو الروم دفاعًا عن حدود أرض الشام الشمالية الغربية[6]، لقد أحسن عمر بن عبد العزيز فى قراره بانسحاب المسلمين عن القسطنطينية، لأن الموقف العسكرى كان يتطلب إصدار مثل هذا القرار، ولو كانت كفة المسلمين راجحة فى حينه لكان من المستحيل عليه الأمر بانسحاب المسلمين، ولكان هناك مسوِّغ للادعاء بأن عمر بن عبد العزيز غير ميال لحروب الفتح دون تمحيص للموقف العسكرى الراهن[7].

٤- أسباب فشل الحملة:

أ- غدر وخيانة: تناولت الأخبار غزوة القسطنطينية وذكرت أن ليو، حاكم - بطريق - عمورية اتصل بسليمان بن عبد الملك وحرّضه على حرب تيودوسيوس - تيدوس - ووعد ليو سليمان أن يقف إلى جانب المسلمين ويسلمهم أرض الروم، وقيل: إن الذى عرض التحالف على الآخر هو سليمان بن عبد الملك، وقيل: مسلمة بن عبد الملك عرض ذلك

(١) عيون المعارف للقضاعى صـ٣٥٨ .
(٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٥٧) .
(٣)، (٤) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية ص٢٥٦.
(٥) خطط الشام (١/ ٥٥٢) .
(٦) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية صـ٢٥٧ .
(٧) المصدر نفسه صـ٢٥٩

أثناء حصار القسطـنطينية وهو يتظاهر أمام مسلمة أنه يحاول إقناعـهم فى النزول على رغبة مسلمة، وكان مسلمة -حسب هذه الأخبار- قد طلب إليهم ليرحل عنهم أن يملّكوا حليفه ليو عليهم، وأما ليو فكان فى حقيقة الحال يطلب الملك لنفسه ويريد أن ينقذ البلد من خطر المسلمين، ولما اطـمأن الأساقفـة والبطارقة إليـه وحلف لهم انقادوا له واستـوى له الأمر، فخـرج إلى مسلمة وأشـار عليه أن يحرق ما عـنده من الطعام ليـيأسوا من المطاولة ويصح عندهم عزم مسلمة على المناجزة فيـعطوا ما بأيديهم، وقيل: أشار عليه أيضًا أن يأذن لأهل القسطنطينية لليلة واحدة أن يحملوا مما عنده من الغلال ليروا حسن رأيه فيهم وأن أمره وأمر ليو واحـد، وانطلت الخديعـة على مسلمة وأطاع ليـو، وأما ليو فـقد استـولى على الحكم وأعلن الحرب على مسلمة، فى الوقت الذى صار مسلمـة فى حال لا يحسد عليه من سوء الأحوال الجـوية وقلة الميرة لجنده حتى لقـوا من الشدة ما لـم يلق أحد قط، واضطروا إلى أكل الدواب والجلود والميتة وأصول الشجر وغير ذلك[1]، وخلاصة القول، أن هذه الأخبار تلقى مسئولية الفشل على عاتق مسلمـة بن عبد الملك الذى كان - عندها- شجاعًا فحسب ولم يكن من ذوى الرأى والبصـيرة فى الحرب، ولم يكن له رأى فيـها يرجع إليه[2]، ولو صدقنا هذه الأخبار لكانت الدولة -أى سليمان بن عبد الملك ابتداء، ومسلمة بن عبد الملك قائد الجـيوش تاليًا- ربطت مـصير فتح الـقسطنطينية ومـصير الجند المسلمـين هناك بوعود شخص -هو ليـو- مظنة كذب وخـديعة، وهو حـال يتناقض واستعـدادات الدولة فى هذا الوجه[3]، وقد علق الأستاذ محمود شيت خطاب على حصار القسطنطينية فقال: وإذا كان هناك ما يلام عليه مسلمة فى مـعركة حصار القسطنطينية فهو عدم استـفادته كما ينبغى من الصفة الأولى من صـفات حصار «القسطنطينيـة» وهى صفة «المبادرة» فى التركيـز بالهجوم على المدينة المحاصرة وإدامة زخم الهجوم عليها أولاً، وثقته غير المحدودة بحليفه «ليو» لأن الذى يخون بلاده وقومه أولى به أن يخون غير بلاده وغيـر قومه، فكانت هذه الثقة العمياء فى هذا العميل لا مسـوِّغ لها ثانيًا، فالحرب من القضايا المصـيرية، ولا بدّ من إدخال أسوأ الاحتمالات فى كلّ ما يؤثر في نتائجها من قريب أو بعيد[4].

ب- ضـراوة الشتـاء: بخـصوص ضـراوة الشتـاء عام ٩٩هـ قيل إن الثلج غطى وجـه الأرض، وهلك فـيه كـثيـر مما كان مع المسلـمين من الجـمال والخـيل والبغـال، ولابدّ أن

(١) أخبار القضاة لوكيع (٣/٢١٣)، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين ٢٦١ .

(٢) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين ٢٦٢. (٣) المصدر نفسه صـ٢٦٢.

(٤) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية صـ٢٦١.

المسلمين فى هذه الأحوال الجوية القاسية أتوا على أكثر ما كان معهم من الطعام وأصبحوا فى نقص من الميرة وعضّهم الجوع، ولذلك قيل: استطاع ليو أن يفخر بأن ديسمبر (كانون الأول) ويناير (كانون الثانى) وفبراير (شباط) كانوا أعظم قواده(١).

جـ- مناعة أسوار المدينة وتحصيناتها الدفاعية: أخذ حكام بيزنطة فى تحصين أسوار القسطنطينية وتسليحها بالمجانيق، منذ علموا بعزم المسلمين على غزوها، وزادها ليو -الذى تقلد الحكم فيها زمن الحصار- تحصنًا، وأمر حكام بيزنطة بتخزين الطعام بالقدر الذى يكفى أهلها لثلاث سنوات، ومنعوهم من أن يغادروها(٢).

د- استخدام سلاح جديد ضد المسلمين:«النار الإغريقية»: استخدم البيزنطيون النار اليونانية فأثرت فى جيش المسلمين وكبّدتهم خسائر فى الأرواح والسفن والمعدات، وتاريخ الحرب فى جميع العصور يقرر أن من أهم عوامل النصر استخدام سلاح فتاك جديد لا يتوقعه الخصم، أو استخدام أسلوب قتالى جديد لا يتوقعه الخصم، أو استعمالهما معًا فى الزمن والمكان المناسبين بشكل لا يتوقعه الخصم، وكل ذلك يباغت هذا الخصم ويربك قيادته وخطته المرسومة، والمباغتة -كما هو معروف- هى أهم مبادئ الحرب على(٣) الإطلاق، ومن الإنصاف أن نضيف إلى عوامل انتصار الروم فى الدفاع عن القسطنطينية عاملاً آخر هو: كفاية (ليو الثالث) المتميزة فى القيادة، وتشبعه بمزية إدارة القتال(٤).

هـ- التيارات المائية: واجه المسلمون فى البحر صعوبات كثيرة، فقد جعلت التيارات المائية المنحدرة من البحر الأسود إلى بحر مرمرة حركة السفن الإسلامية بطيئة، وأدى تغير الريح إلى اضطرابها، ونالت النار الإغريقية منها وألحقت بها أضرارًا كثيرة(٥).

و- المصالحة بين البيزنطيين والبلغار والخزر: صالح ليو الحاكم البيزنطى أعداءه الخارجين عليه من الخزر والبلغار، وبذلك ضمن الجبهة الشمالية مما جعله يصب جل اهتمامه على القوات الإسلامية بغرض تدميرها وإيقاف زحفها على المدينة(٦).

ز- الاستعجال وعدم التريث: ويبدو أن المسلمين لو تريثوا حتى أتموا فتح البر الآسيوى البيزنطى، ثم تقدموا إلى القسطنطينية من مواقع مجاورة وبأحوال جوية مماثلة ومألوفة

---

(١)، (٢) الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحى عثمان (٢/ ٨٥، ٩١).

(٣) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية صـ٢٦٠.

(٤) المصدر نفسه صـ٢٦٠.

(٥) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين ٢٦٤.

(٦) العلاقات العربية - البيزنطية فى العصر الأموى صـ٦٤.

للمقاتلة وخطوط ومواصلات قصيرة وإمدادات قريبة وأعداد بشرية كثيرة، فربما وجدوا المهمة أيسر، ولكنهم عمدوا إلى صقع من البلاد فى محيط من الأعداء حصين وبعيد فاستعصى عليهم[1].

ح- **ضعف خبرة مسلمة العسكرية:** كان مسلمة بن عبد الملك -القائد الأموى فى حصار القسطنطينية- صغيراً فى السن وأقل تجربة من عظماء الفتح الإسلامى فى ذلك العهد مما أثر فى فشل الحصار.

٥- **نتائج الحملة:** ترتب على حملة القسطنطينية العديد من النتائج، ولعل من أبرزها ما يلى:

أ- تأكد للمسلمين أنهم لا يستطيعون فتح القسطنطينية دون فتح المناطق المجاورة لها، وتثبيت أقدامهم فيها حتى تكون عونًا لهم لا عليهم فى حالة حصار القسطنطينية، وبالرغم من ذلك فقد كانت للمسلمين سيطرة واضحة على العديد من موانئ البحر الأبيض المتوسط خاصة فى حوضه الغربى.

ب- تخلى أباطرة البيزنطيين عن فكرة استعادة شمال إفريقيا، وعدوا الدفاع عن هذه المنطقة فى المرتبة الثانية، بعد الدفاع عن عاصمتهم، وبالتالى أصبحت منطقة شمال إفريقيا ركنًا مهمًا من أركان الدولة الإسلامية قوية الأوتاد[2].

جـ- ولعل من أهم النتائج المباشرة لغزو القسطنطينية، ازدياد نشاط الأسطول البيزنطى فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، فقد قام البيزنطيون بالإغارة على تِنِّيس[3] فى خلافة يزيد بن عبد الملك[4].

٦- **من خطب عبد الملك فى التحريض على قتال الروم:** وفى عهد عبد الملك عندما علم بتحرك الروم بأرض القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم على غزو المسلمين ومفاجأتهم، نادى بالنفير العام، وحين اجتمع لديه جند المسلمين قام فيهم محرضًا فقال لهم بعد أن حمد الله عز وجل وأثنى عليه: أيها الناس، إنكم قد علمتم ما ذكر الله عز وجل فى كتابه من فضل الجهاد وما وعد الله عليه من الثواب، ألا وأنى قد عزمت أن أغزو بكم غزوة شريفة على أليون صاحب الروم؛ فإنه طغى وبغى، وقد بلغنى أنه قد جمع للمسلمين

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين ٢٦٤.
(٢) خلافة سليمان بن عبد الملك، على إبراهيم صـ ٢٠٠.
(٣) تِنِّيس: جزيرة فى بحر مصر، قريبة من البر.
(٤) ولاة مصر للكندى صـ٩١، خلافة سليمان بن عبد الملك صـ ٢٠٠.

جموعًا كثيرة وعزم على غزوكم ومفاجأتكم فى دياركم، وقد علمت أن الله تعالى مهلكه ومبدد شمله وجاعل دائة السوء عليه وعلى أصحابه، وقد جمعتكم من كل بلد وأنتم أهل البأس والنجدة، والشجاعة والشدة، وأنتم من قام لله بحقه ولدينه بنصرته، وهذا ابنى مسلمة، وقد أمرته عليكم، فاستمعوا له وأطيعوا يوفقكم الله ويرشدكم لصالح الأمور. فقال الناس جميعًا. سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين[1]، وعندما سير عبد الملك بن مروان ابنه مسلمة لمحاربة الروم أوصاه بالعسكر بقوله: فكن يا بنىّ بالمسلمين بارًا رحيمًا وأميرًا حليمًا، ولا تكن عنيدًا كفورًا ولا مختالاً فخورًا[2]، كما أوصى عبد الملك قائدًا آخر سيره إلى أرض الروم: أنت تاجر الله لعباده فكن كالمضارب الكيِّس الذى إن وجد ربحًا تاجر، وإلا احتفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرًا من احتيال عدوك عليك[3].

٧ ـ **من أشهر قادة المسلمين ضد الروم: مسلمة بن عبد الملك:** مسلمة بن عبد الملك الأمير الضرغام، قائد الجيوش، أبو سعيد الأموى الدمشقى، ويلقب بالجرادة الصفراء[4]، له مواقف مشهودة مع الروم، وهو الذى غزا القسطنطينية، وكان ميمون النقيبة، وقد ولى العراق لأخيه يزيد، ثم أرمينية[5]، قال عنه الذهبى: كان أولى بالخلافة من سائر إخوته[6]، وقد ظهرت مزايا مسلمة وألمعيته مبكرًا وهو صغير السن، فركز أبوه عبد الملك عليه وبخاصة فى وصيته أبناءه وبنيه وهو على فراش الموت فقال فيه: .. وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه، فإنه نابكم الذى عنه تفترون، ومِجَنُّكم الذى عنه ترمون[7]. فهو قائد من قواد الفكر وقائد من قادة الجهاد بالنسبة لبنى أمية، لا يخالفون له رأيًا، ولا يعصون له أمرًا، ويلجأون إليه فى أيام المحن والحروب[8]، ومسلمة هذا عُرف فى التاريخ مع قصة صاحب النقب، حيث حاصر مسلمة حصنًا، فندب الناس إلى نَقْب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عُرض الجيش، فدخله ففتحه الله عليهم، فنادى مسلمة: «أين صاحب النَّقب؟» فما جاء أحد. فنادى: إنى قد أمرت بالإذن بإدخاله ساعة يأتى، فعزمت عليه إلا جاء، فجاء رجل فقال: استأذن لى على الأمير. فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه، فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال: إن صاحب النقب يأخذ عليكم

(١) الفتوح لابن أعثم (٤/ ١٢٣).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ١٢٣).
(٣) نهاية الأرب (٦/ ١٧٠).
(٤)، (٥)، (٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٤١).
(٧) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية صـ٢٨٩.
(٨) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية صـ٢٨٩.

ثالثًا: ألا تسودوا اسمه فى صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشىء، ولا تسألوه: ممن هو؟ قال مسلمة: فذاك له، قال: «أنا هو». فكان مسلمة لا يصلى بعدها إلا قال: اللهم اجعلنى مع صاحب النقب[1]. وكان مسلمة فى جهاده يحرص على سلامة جنده، وفى قتاله للخزر تكالب عليه الأعداء مما اضطره إلى خداعهم بإشعال النيران ليوهمهم بمكوثه، وجعل خيامه مضروبة بعد العشاء الآخرة، وجعل مسلمة يطوى المراحل طيًا فى العودة، فقد جعل كل مرحلتين فى مرحلة، غير أنه قدم الضعفاء بين يديه واهتم بهم وجعل الأقوياء أهل الجلد والشجاعة على الساقة، فلم يزل كذلك حتى جاوز الخطر[2]. وكان يمقت العجز ويمدح الحزم، فقد قال: ما حمدت نفسى على ظفر ابتدأته بعجز ولا ذممتها على مكروه ابتدأته بحزم[3]، ومن أقواله فى الزهد: إن أقل الناس همًا فى الدنيا أقلهم همًا فى الآخرة[4]. وكانت تجربته العملية غنية إلى أبعد الحدود، فقد شهد كيف تدار الدولة على أعلى المستويات مع أبيه عبد الملك بن مروان ومع إخوته من بعده، وكان الخلفاء من إخوته يحرصون على أن يبقى إلى جانبهم مستشارًا يتعلمون منه أكثر مما يتعلم منهم، إلا إذا حزبهم أمر يهدد أمن الدولة ومصيرها تهديدًا خطيرًا، فيبعثونه، ليقضى على الثورات، وليقمع الاضطرابات، وليعيد الأمن والاستقرار[5]. وكان مسلمة مخلصًا غاية الإخلاص لبنى أمية ويدين بالولاء المطلق للخلفاء، ولم يكن يطمح لتولى الخلافة لأن بنى أمية لم يكونوا يبايعون لبنى أمهات الأولاد، ولم يكن لعبد الملك بن مروان ابن أسدّ رأيًا ولا أذكى عقلاً، ولا أشجع قلبًا، ولا أسمح نفسًا ولا أسخى كفًا من مسلمة، وإنما تركوه لهذا المعنى[6]. وكانت بنى أمية لا تستخلف بنى الإماء، وقالوا: لا تصلح لهم العرب[7]. ولم يكن لمسلمة أمل فى تولى الخلافة مع أنه ـ كما قال الذهبى ـ: كان أحق بالملك من سائر إخوته[8]. وكان ذا عقل راجح ورأى سديد يحولان بينه وبين مغامرة تشق صفوف المسلمين، وكان -بحق- من أكثر الناس حرصًا على رص الصفوف والوحدة، كما أنه كان يعتبر الخلافة (وسيلة) من أجل خدمة الأمة لا (غاية) من أجل أطماع شخصية، وأمجاد أنانية، وهو -بحق- خدم

(1) عيون الأخبار (1/ 172).
(2) الفتوح لابن أعثم (4/ 283).
(3) الشهب اللامعة ص476.
(4) المعرفة والتاريخ (2/ 226).
(5) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية صـ305.
(6) العقد الفريد (6/ 131)، قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية صـ310.
(7) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية صـ310.
(8) سير أعلام النبلاء (5/ 241).

الأمة أجلّ الخدمات، وبذلك حقق (الوسيلة) واستغنى عن (الغاية)[1]، وكان -رحمه الله- جميل الصورة حسن الوجه صبيحًا، من أجمل الناس، وهو معدود من الطبقة الرابعة من تابعي أهل الشام[2]، توفي سنة ١٢٠هـ[3].

- **أبو محمد البطال:** كان من أبطال المسلمين وأمرائهم الشاميين، وكان مع جيش مسلمة ابن عبد الملك، وكان مقره بأنطاكية، أوطأ الروم خوفًا وذلاً. ولكن كذب عليه أشياء مستحيلة في سيرته الموضوعة، وعن عبد الملك بن مروان أنه أوصى مسلمة أن صيِّر على طلائعك البطال ومره فليعس بالليل، فإنه أمير شجاع مقدام[4]، وعقد مسلمة للبطال على عشرة آلاف وجعلهم طلائع للجيش[5]، ومن نوادر ما يحكى عن البطال أنه قال: اتفق لي أنّا أتينا قرية لنغير، فإذا بيت فيه سراج وطفل صغير يبكي، فقالت أمه: اسكت، أو لأدفعنك إلى البطال، فبكى، وقالت: خذه يا بطال، فقلت: هاتيه. وجرت له أعاجيب وفي الآخر أصبح في معركة مثخونًا وبه رمق فجاء الملك ليون، فقال: أبا يحيى، كيف رأيت؟ قال: وما رأيت؟ كذلك الأبطال تقتل ولا تُقتل، فقال: عليَّ بالأطباء، فأتوا فوجدوه قد أنفذت مقاتله،، فقال: هل لك حاجة؟ قال: تأمر من يثبت معي بولايتي وكفني والصلاة عليّ ثم تطلقهم، ففعل، قتل: ١١٢هـ وقيل ١١٣هـ[6]. قال عنه ابن العماد: . . وله حروب ومواقف ولكن كذبوا عليه، فأفرطوا، ووضعوا له سيرة كبيرة، تقرأ كل وقت، يزيد فيها من لا يستحي من الكذب[7].

- **عامر الشعبي سفير عبد الملك لعظيم الروم:** وجه عبد الملك بن مروان الشعبي إلى ملك الروم - يعني رسولاً - فلما انصرف من عنده قال: يا شعبي، أتدري ما كتب به إليّ ملك الروم؟ قال: وما كتب به يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت أتعجب لأهل ديانتك، كيف لم يستخلفوا عليهم رسولك. قلت: يا أمير المؤمنين لأنه رآني ولم يرك، وفي رواية: يا شعبي، إنما أراد أن يغريني بقتلك. وبلغ ذلك ملك الروم فقال: لله أبوه! والله ما أردت إلا ذاك[8]. وفي هذا ما يدل على أن الروم لم تكن نياتهم سليمة مع المسلمين حتى في زمن السلم والمراسلات وعقود الصلح، وأنهم يستخدمون الكيد والمكر لشق الصفوف، والتخلص من الأفذاذ.

---

(١) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية صـ ٣١١.
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٤١).
(٣)، (٤) المصدر نفسه (٥/ ٢٤١)
(٥)، (٦) المصدر نفسه (٥/ ٢٦٩).
(٧) شذرات الذهب (٢/ ٩٣) .
(٨) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٠٤).

المبحث الثاني

الفتوحات في الشمال الإفريقي والأندلس

أولا: فتوحات حسان بن النعمان الغساني:

استشهد زهير البلوى وأصحابه فى معركة مع البيزنطيين فى مدينة درنة بشرق ليبيا ودفن مع أصحابه، وقبورهم هناك معروفة إلى اليوم تسمى مقبرة الشهداء، وكان ذلك عام ٧١هـ[١]، وكان وقع استشهاد زهير بن قيس البلوى ورفاقه عظيمًا على الخليفة عبد الملك بن مروان، لذلك ما إن انتهى من حربه مع ابن الزبير حتى أولى اهتمامًا خاصًا إلى الوضع فى شمال إفريقيا، لذلك نراه يجهز جيشًا كبيرًا قوامه نحو أربعين ألف مقاتل غالبيتهم من أهل الشام، وعهد بقيادته إلى حسان بن النعمان الغسانى الذى كان رجلاً ورعًا تقيًا، يدل على ذلك تسميته بـ«الشيخ الأمين»[٢]، وقد أقر الخليفةُ حسانَ بن النعمان أن يقيم بمصر استعدادًا لإنجاز مهمته، وكتب إليه: إنى قد أطلقت يدك فى أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك من الناس، واخرج إلى جهاد إفريقيا على بركة الله[٣]. وقد وصف ابن الأثير عظمة هذا الجيش من حيث تعداده وعدته بقوله: لم يدخل إفريقيا جيش مثله[٤]، وكان بداية الغزو فى عام ٧٤هـ[٥]، وقد تمكن هذا الجيش من فتح المناطق التى مر بها، وكان على مقدمته كل من محمد بن أبى بكير وهلال بن ثروان اللواتى[٦]، ووجود هذا الأخير كقائد على مقدمة جيش حسان يشير إلى مشاركة البربر بشكل كبير فى هذه الحملة[٧].

١ ـ فتح قرطاجنة: وصل حسان القيروان ودخلها دون أن يواجه أى مقاومة، ثم توجه بعد ذلك إلى الشمال حيث قرطاجنة القاعدة البيزنطية على الساحل[٨]، وسار حسان إلى قرطاجنة، وكان صاحبها أعظم ملوك إفريقية، فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة[٩]، ولم تطل المعركة مع البيزنطيين، ودخل حسان قرطاجنة عنوة، ولم يكد حسان ينصرف منها عائدًا إلى القيروان حتى عاد أهلها للاعتصام بها مرة أخرى، مما اضطر

(١) مصر فى العصر الأموى صـ١٤٠.
(٢) تاريخ إفريقيا والمغرب ص٦٧.
(٣) نهاية الأرب فى فنون الأدب (٢٤/ ٣٤).
(٤) مصر فى العصر الأموى صـ١٤٣.
(٥) الكامل فى التاريخ (٣/ ٨٢).
(٦) فتوح مصر والمغرب ص٢٧٠.
(٧) مصر فى العصر الأموى ص١٤٣.
(٨) نهاية الأرب (٢٢/ ١٩).
(٩) الكامل فى التاريخ (٣/ ٨٢).

حسان لـفتحها مـرة ثانية[1]، فهدم المسلمـون ما أمكنهم منها[2]، لكى لا يعود إليها من يطمع بالتحصن بها. ثم أعقب حسان حملتـه هذه بحملة على ططفورة وبنزرت فافتتحها، ولم يتبع المنهزمين من الروم الذين تحصنوا فى مدينة باجة ولا البربر الذين تحصنوا فى مدينة بونة[3]. وعاد حـسان إلى القيـروان، لأن الجراح قد كـثرت فى أصحـابه فأقام بهـا حتى صحّوا[4].

٢- **هزيمة حسان أمام الكاهنة:** وبعد ضرب الروم التفت حسان إلى زعامة البربر، فقال: دلونى على أعظم مـن بقى من ملوك إفـريقـية، فـدلوه على امـرأة تملك البـربر وتُعـرف بالكاهنة[5]، والتقى حسان بن النعمان بالكاهنة عند نهر يدعى نينى أو مسكيانة على مرحلة من باغاى ومجـانة، فانتصرت الكاهنة وقتل مـن المسلمين خلق كثير وانسـحب حسان إلى قابس[6]، وقامت الكاهنة بالهـيمنة على المغرب كله بعـد حسان خـمس سنين، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت: إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقـية كلها، حتى ييأس منها العرب فلا يكون لهم رجوع إليها إلا آخر الدهر[7]، واستجاب لها قومها من جراوة الذين كـان يغلب عليهم الطابع الـبدوى، فـذهبوا إلى كل ناحـية يقطعـون الشجـر، ويهدمـون الحصون[8]. . فكانت إفريقيـة من طرابلس إلى طنجة ظلا وقرى متصلة فأخـرجت جميع ذلك[9]، وقـد أضر هذا التـخريب بالبـرانس والأفـارقة حـتى ألجأهم إلى الفـرار وطلب المساعـدة، وخرج يومـئذ من النصارى والأفـارقة خلق كـثير مـستـغيثـين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية[10]، وملكت الكاهنة إفريقية وأساءت السيرة فى أهلها وعسفتهم وظلمتهم[11].

٣ ـ **استعادة البيزنطيين قرطاجنة وانسحاب حسان إلى سرت بليبيا:** كان لسقوط قرطاجنة بيد المسلمين أثر بالغ على البـيزنطيين، ووجدوا فى خـروج حسان من إفريقيـة والفوضى التى عمّت البلاد مجالاً لإعادة نفوذهم فى الشمال الإفريقى، فجهز الإمبراطور ليونتوس ـ الذى

(١) رياض النفوس (١/ ٣٢).
(٢) نهاية الأرب (٢٢/ ١٩).
(٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ٨٢).
(٤)، (٥) المصدر نفسه (٣/ ٨٢).
(٦) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٥١).
(٧) المصدر نفسه (١/ ١٥٣).
(٨) الكامل فى التاريخ (٣/ ٨٣).
(٩) نهاية الأرب (٢٢/ ٢١).
(١٠) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٥٤).
(١١) الكامل فى التاريخ (٣/ ٨٣).

خلف جستنيان الثانى ـ سنة ٦٩٥م حملة كبيرة بقيادة البطريق يوحنا إلى إفريقية وأعد أسطولاً كبيرًا لنقل الجند إليها، فتمكنت القوة البيزنطية من استعادة قرطاجنة سنة ٧٨هـ، دون مقاومة تذكر ،واضطر أبو صالح -نائب حسان عليها- أن ينسحب منها مع من كان معه من المسلمين، ودخلها البطريق يوحنا(١)، ويتضح من دراسة حركة الفتح أن مصير المغرب كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالأوضاع فى المشرق، وأقام حسان فى منطقة طرابلس قرب سرت -فى المكان المسمى قصور حسان- خمس سنين، وحين استقرت الأوضاع فى المشرق سارع عبد الملك بإرسال المدد إلى حسان وأمره بالمسير إلى إفريقية فى أواخر سنة ٨١هـ(٢).

٤ ـ مقتل الكاهنة – ٨٢هـ: كان خالد بن يزيد العبسى أسيرًا عند الكاهنة، فأرسل إلى حسان: إن البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأى عندهم فاطوِ المراحل وجد فى السير(٣). ودارت المعركة بين الكاهنة وحسان على مقربة من قابس وانتهت بنصر كبير للمسلمين، وبمقتل الكاهنة عند بئر سميت بئر الكاهنة(٤)، وبعد هذا الانتصار عاد حسان إلى القيروان فى سنة ٨٢هـ، ومنها زحف إلى قرطاجنة وأعاد فتحها(٥). وبهذا النصر المزدوج خلصت أرض إفريقية للمسلمين، تلت ذلك فترة استقرار ثم انطلاق لفتح ما تبقى من المغرب(٦).

٥ ـ سياسة حسان مع البربر:

أ ـ إدخالهم فى قيادة الجيوش: نهج حسان السياسة نفسها التى سار عليها أبو المهاجر وهى تأليف البربر وإشراكهم فى الفتوح، ولعله توسع فى ذلك بإدخالهم فى الجيش على نطاق واسع(٧)، فكانت سياسته خطوة كبيرة فى اكتساب ولاء البربر وإخلاصهم، ففى حملته الأولى عين هلال بن شروان اللواتى قائدًا على مقدمته مع اثنين من العرب هما محمد بن بكير وزهير بن قيس(٨)، كما استعان بالبربر كعيون، فقد أرسل أحد رجالهم -الذى أسلم طوعًا- ليأتيه بالأخبار عما يجرى فى معسكر الكاهنة(٩)، ورحب بولدى الكاهنة وولى أكبرهما قيادة الجيش فى منطقة الأوراس واثقًا بإخلاصه وحسن إسلامه، مما أدى إلى إسلام

(١) فتح العرب للمغرب، حسين مؤنس صـ٣٧٠.
(٢) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٥٥).
(٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ٨٣).
(٤) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٥٧).
(٥) رياض النفوس(١/ ٣٧)، الإسلام والتعريب (١/ ١٥٨).
(٦) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٥٨).
(٧) فتوح مصر وأخبارها صـ٢٠١.
(٨) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٥٨).
(٩) تاريخ إفريقية والمغرب صـ٥٩، ٦٠.

نفر كبير من البتر[١]. ويبدو نجاح سياسته من استغاثة أهل قابس وقفصة وأهل نقراوة به فسره ذلك[٢].

ب ـ المساواة بين البربر والعرب المسلمين:

حين جنَّد حسان البربر ساوى بينهم وبين العرب المسلمين، وذلك وفقًا لمبادئ المساواة فى الإسلام، ففرض لهم ومنحهم نصيبهم من الغنائم[٣]. ثم خطا خطوة كبرى بأن قسم المغرب خططًا للبربر[٤]. ويبدو أن حسان اعتبر أرض المغرب أرضًا أسلم عليها أهلها[٥].

ج ـ الاهتمام بالتنظيم الإدارى: كان حسان قد اعتنى بالتنظيم الإدارى فى المغرب خلال مدة إقامته (٨٢هـ ـ ٨٦هـ). فقد أنشأ الديوان أو ديوان الجند، وهو سجل يحفظ فيه أسماء المقاتلين وأنسابهم وصفاتهم ومقدار أعطياتهم، ونظم ديوان الخراج بأن عنى بتحديد الجزية والخراج. يقول ابن عذارى: فدوَّن الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية[٦]، وكان عامتهم من البرانس إلا قليلاً من البتر[٧].

وقام حسان ببناء دار لصناعة السفن، وأنشأ مدينة إسلامية ثانية وهى تونس أصبحت رباطًا يحمى القيروان ومحرسًا للبحر وميناء جديدًا للبلاد. وصارت تونس ثانية العواصم الإفريقية حين أولاها حسان اهتمامه[٨]، واهتم بالقيروان فجدد بناء مسجدها أحسن مما كان عليه أيام عقبة[٩]، واهتم بتعليم البربر مبادئ الإسلام، وترك معهم ثلاثة عشر رجلاً من علماء التابعين يعلمونهم القرآن وشرائع دينهم[١٠]، وبث الدعاة فى مختلف القبائل لنشر الإسلام بين البربر، فبنوا المساجد، واستلموا المنابر، ومن ذلك بناؤهم لمسجد أغمات سنة ٨٥هـ[١١]، وانتشرت الكتاتيب لتعليم أولاد المسلمين مبادئ القراءة والكتابة[١٢].

٦ ـ عزل حسان عن ولاية إفريقية: فى سنة ٨٥هـ عزل حسان بن النعمان من قبل والى مصر عبد العزيز بن مروان، ويذكر أن خلافًا نشب بين حسان وعبد العزيز على ولايتى

(١) فتوح مصر وأخبارها صـ٢٠١.
(٢) رياض النفوس (١/ ٣٥).
(٣)، (٤) المصدر نفسه (١/ ٣٦).
(٥) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٦٠).
(٦) البيان المغرب (١/ ٣٨).
(٧) فتوح مصر وأخبارها صـ٢٠١ . البرانس والبتر: من قبائل البربر.
(٨) الإسلام والتعريب (١/ ١٦٤).
(٩) رياض النفوس (١/ ٣٧)، الإسلام والتعريب (١/ ١٦٢).
(١٠) البيان المغرب (١/ ٤٣)، الإسلام والتعريب (١/ ١٦٢).
(١١) البيان المغرب (١/ ٤٣).
(١٢) الإسلام والتعريب (٢/ ٣١١).

برقة وطرابلس إثر تعيين عبد العزيز واليًا منفصلاً عليها، فلم يوافق حسان على هذا الأمر[1]، ويبدو أن المشكلة هي أن حسان رأى أنه تابع للخليفة مباشرة وأن إفريقية ولاية[2]، بينما رأى أمير مصر أنها تابعة له وأن حسان يجب أن يراجعه، ولذلك أخذ أغلب الغنائم والهدايا الثمينة التى كان حسان ينوى أن يحملها إلى الخليفة فى دمشق، فحين وصل حسان إلى دمشق شكاه للخليفة وأعطاه ما تبقى من الغنائم[3]، وواضح من شكوى حسان أنه يرى أن عبد العزيز يتهمه بالخيانة المالية ظلمًا، فحين أراد الخليفة مكافأته برده إلى ولاية إفريقية رفض حسان وأقسم ألاّ يولى لبنى أمية أبدًا[4]، ولا يستبعد أن عبد العزيز كان يرغب أن تدار إفريقية من قبل أحد رجاله، وإصرار عبد العزيز على تولية موسى بن نصير دليل على ذلك[5].

قال الذهبى عن حسان بن النعمان الغسّانى: من ملوك العرب، ولى المغرب فهذَّبه وعَمَّره، وكان بطلاً شجاعًا، مجاهدًا لبيبًا، ميمون النقيبة كبير القدر، وجهه معاوية فى سنة ٥٧هـ فصالح البربر، ورتب عليهم الخراج وانعمرت البلاد، وله غزوات مشهودة بعد قتل الكاهنة، وكان يدعى الشيخ الأمين، توفى سنة ٨٠هـ[6].

ثانيًا: فتوحات موسى بن نصير ٨٥هـ:

لا يتفق المؤرخون على تاريخ محدد لتولية موسى بن نصير على المغرب وعزل حسان بن النعمان عنه، ولكن الأقرب إلى تسلسل الأحداث أن يكون عزل حسان وتوليه موسى بن نصير فى سنة ٨٥هـ، قبيل وفاة عبد العزيز بن مروان، الذى ينسب إليه المؤرخون عزل حسان وتولية موسى[7]، ويعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والى مصر حسان بن النعمان والى إفريقية ولَّى مكانه موسى بن نصير، وكان فى أواخر سنة خمس وثمانين من الهجرة أو فى أوائل سنة ست وثمانين، وعندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيبًا، فكان مما قاله: وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى منى حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى منى سيئة، فلينكرها، فإنى أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير -أكرمه الله- لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثًا، فخذوها هنيئًا مريئًا، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان مع المواساة إن شاء الله، ولا

(١) فتوح مصر وأخبارها صـ٢٠٣.
(٢) الإسلام والتعريب (١/ ١٦٥).
(٣) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٦٥).
(٤) المصدر نفسه (١/ ١٦٥).
(٥) المصدر نفسه (١/ ١٦٦).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٤٠).
(٧) الولاة والقضاة صـ٥٢، ٥٣، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٢٩٦.

حول ولا قوة إلا بالله[1]، وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه وأكمل استحضاراته الإدارية، وساوى نفسه برجاله، وسار موسى متوجهًا إلى الغرب، وكان الأمن غير مستتب، فلما وصل إفريقية برز موسى بن نصير قائدًا منتصرًا فى فتح المغرب، ويرجع ذلك إلى السياسة التى اتبعها مع الأهالى، وهى سياسة التعاون والاندماج الكلى مع البربر[2]، فحين كانت تقدم على موسى وفود القبائل ليعلنوا ولاءهم كان يولى عليهم رجلاً منهم ويأخذ رهائن من خيارهم لضمان هذا الولاء، كما فعل مع وفد كتامة[3]، ومع وفد مصمودة وغيرهما[4]، ولكن ما إن اعتنق البربر الإسلام، حتى أقر موسى زعماءهم فى الرئاسة مقابل مساهمة كل قبيلة بعدد كافٍ من المقاتلين للانضمام للمقاتلة العرب. وأعطت سياسة التفاهم هذه ثمارها، فقد استطاع موسى أن يجند أعدادًا كبيرة من قبائل البربر مثل كتامة وهوارة وزناتة ومصمودة[5]، وألحق موسى بن نصير هؤلاء المقاتلة من البربر مع جراوة الذين كانوا قد جندوا فى عهد حسان، ووضعهم جميعًا فى حامية طنجة تحت قيادة طارق بن زياد الذى وليها سنة ٩٠ هـ من قبل موسى بن نصير[6]، ومن الوسائل التى استخدمها موسى فى تأليف القلوب وضبط الأمور، وتقوية الدولة الإسلامية:

١- **عتق بعض السبايا:** كان موسى بن نصير يعتق بعض سباياهم ويتولاهم فى نطاق خطته لتشجيع البربر على الدخول فى الإسلام، فكان يشترى من السبايا من كان فى ظنه أن يقبل الإسلام.

٢- **تطبيق مبدأ المساواة:** فكان يساوى فى النفل بين البربر المسلمين والعرب الذين أبلوا بلاء حسنًا، وذلك تشجيعًا وتقديرًا لبلائهم، وبهذا التصرف تمكن موسى من جلب أعداد كبيرة إلى الإسلام وإشراكهم فى الجيش الإسلامى[7].

٣- **التنظيم الإدارى:** ويبدو أن موسى بن نصير حين دخل إفريقية وجدها فى حاجة ماسة إلى إدارة مستقرة، فقد انفردت كل قبيلة بربرية بناحيتها واستبدت بها دون أن تخضع لولاة أو عمال، فأخذ موسى يعمل على إخضاع كل المغرب إلى الحكم الإسلامى، فبدأ ينقل البيزنطيين من المدن الساحلية والنواحى الداخلية وأسكنهم قرب مراكز الحكم الإسلامى مما يتيح للمسلمين مراقبتهم ودعوتهم وتعليمهم.

(١) مصر فى العصر الأموى صـ١٥٥، ١٥٦ .
(٢) البيان المغرب (١/ ٤٢) .
(٣) الإسلام والتعريب (١/ ١٧٢).
(٤) البيان المغرب (١/ ٤٢) .
(٥)، (٦) المصدر نفسه (١/ ٤٢).
(٧) الإسلام والتعريب (١/ ١٧٤).

٤- **تكوين القوة البحرية:** أنشأ حسان بن النعمان دار صناعة السفن بتونس ثم استكملها بعده موسى بن نصير وعبيد الله بن الحباب، ويذكر أنه صنع بها مراكب مما مكنه من غزو صقلية.

٥- **سك النقود:** ويبدو أنه بادر بسك النقود بإفريقية، إذ يرى حسن حسنى عبد الوهاب أن أول أمير سك النقود بإفريقية، هو موسى بن نصير سنة ٩٥هـ[(١)].

وتتلخص أعمال موسى بن نصير فى حرصه على نشر الإسلام بين البربر؛ ولهذا كان يختار عمالاً يحسنون السيرة فى أهالى المناطق المفتوحة[(٢)]، واختار فئة من أصحابه لتعليم البربر حديثى الإسلام، القرآن ومبادئ الإسلام. فقد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن، وأن يفقهوهم فى الدين[(٣)]، وذكر ابن عذارى أن موسى ترك سبعين رجلاً من العرب فى طنجة يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام. وهذه السياسة هى استمرار لسياسة عقبة بن نافع وحسان بن النعمان[(٤)]. وهذا أدى إلى انتشار الإسلام فى المغرب الأقصى[(٥)]. واستطاع موسى بن نصير -بعد حملات جهادية- منظمة السيطرة على جميع شمال إفريقية من برقة إلى المحيط الأطلسى، وأصبح سيد إفريقية دون منازع، وكان أولاده من ضمن قادته فى فتوحاته الكبرى، وكانت له حملات بحرية على جزر البحر الأبيض المتوسط، ومن أشهر تلك الحملات ما سمى بحملة الأشراف- بسبب اشتراك أشراف الناس فيها -وكانت وجهتها جزيرة صقلية، حيث بلغ عدد مقاتليها بين التسعمائة والألف، وكانت بقيادة ابنه عبد الله الذى حقق نصرًا حاسمًا حتى غنم المسلمون غنائم كثيرة بلغ فيها سهم المقاتل مائة دينار ذهب[(٦)]. ولم تقتصر حملات موسى بن نصير البحرية على مقاتلة إفريقية بل شملت دعم الحملات البحرية فى ولاية مصر[(٧)]، وقد توجت هذه الانتصارات البحرية الرائعة التى حققها الأسطول الإسلامى بفتح بلاد الأندلس الذى خطط له موسى بن نصير ونفذه طارق بن زياد وتم بشكل نهائى بتوفيق الله ثم جهود هذين القائدين العظيمين[(٨)].

*** فتح الأندلس وجهود طارق بن زياد:**

كان الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة الأيبيريَّة (إسبانيا والبرتغال) أمرًا طبيعيًا حسب الخطة التى اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم، وهى تأمين حدودهم ونشر دعوتهم وذلك بالمضى فى

(١) الإسلام والتعريب (١/١٧٦).
(٢) فتوح مصر وأخبارها صـ٢٠٥.
(٣)، (٤) البيان المغرب (١/٤٢).
(٥) الإسلام والتعريب (١/١٧٧).
(٦) مصر فى العصر الأموى ص١٦١.
(٧) المصدر نفسه صـ١٦١.
(٨) المصدر نفسه ص١٦٢.

جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود، لنشر العقيدة الإسلامية التى تقتضى أن يستمر المدُّ الإسلامى ما دامت فيه القوة على الاستمرار، وبعد أن أرسى موسى بن نصير، ومن معه، كلمة الإسلام بجهودهم فى المغرب الكبير، كانت الخطوة التالية الطبيعية هى فتح الأندلس، وقد عمل موسى على إكمال جهود من سبقه من الجند الدعاة - قادة وجيشًا - فى ترسيخ قدم الإسلام فى الشمال الإفريقى، فقد عمل على تثبيت الإسلام فى قلوب الناس ونشط فى تعليمهم وتربيتهم على مبادئ الدين الحنيف، وآتت جهوده الدعوية ثمارها الزكية؛ فقد أصبح البربر فى تلك الديار من أخلص الناس للإسلام والدعوة إليه والجهاد فى سبيل نشر تعاليمه، ولقد كانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الأيبيريَّة من المسلمين البربر، الذين تحمسوا لدعوة الإسلام، حبًا لها وتضحية من أجلها، لا طمعًا فى مغنم أو حرصًا على جاه، فهذا هو هدف جميع الفتوحات الإسلامية التى يكفى الاطِّلاع عليها ومعرفة طبيعتها لرفض الادعاءات وإسقاط المفتريات المزوَّرة، التى تشير - تلميحًا أو تصريحًا - إلى اعتبار الغنائم سبب هذا الفتح، وهو أمر عارٍ من الحجج والبراهين والأدلة، وإنما هى أوهام لا تحمل أى رائحة من الطابع العلمى أو السند التاريخى[1].

١ - فكرة الفتح:

يمكن القول إن فكرة فتح الجزيرة الأيبيريَّة هى فكرة إسلامية تمامًا. بل يُروى أنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فقد كان عقبة بن نافع الفهرى يفكر فى اجتياز المضيق إلى إسبانيا لو استطاع، وسبق للمسلمين نشاط على شواطئ إسبانيا الشرقية وبعض الجزر القريبة منها، وهى مَيورْقة، ومَنورقة، واليابسة، يذكر الذهبى أنه فى سنة ٨٩هـ جهز موسى بن نصير ولده عبد الله، فافتتح جزيرتى مَيورْقة ومَنورقة[2]، أما الاتصال بيُليان حاكم مدينة سبتة أو بغيره من الإسبان فإنه جاء مواتيًا على ما يبدو -فى الوقت الذى كان موسى بن نصير يفكر فى تنفيذ فكرة الفتح، ولكن كيف تم الاتصال بالجانب الإسبانى (يُليان وأنصار الملك المخلوع وغيرهم)؟ اختلفت الأقوال فيما إذا تم الأمر بالمراسلة أو باللقاء الشخصى وأين؟ -إذا كان هذا الاتصال أصلاً قد تمّ وبهذا المستوى- على كل حال فإن اتصالات الجانب الإسبانى بموسى ومساعداتهم - أثناء عمليات الفتح - ربما كانت عاملاً مساعدًا سهّل سير الفتح أو عجّل به. لكن المبادأة ومردّ العمليات وإنجازها

(١) التاريخ الأندلسى صـ ٤٣، ٤٤.

(٢) العبر فى خبر من غبر (١/ ٣٠٤)، نقلاً عن التاريخ الأندلسى صـ٤٥.

كانت من الجانب الإسلامى الذى اندفع مع الفتح بقوة فائقة معتمداً على الله فى تحقيق ما يصبو إليه من هداية الناس، وقد استشار موسى الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) قبل اتصالاته بيُليان، أو اتصال هذا الأخير بموسى. وقد ترددت الخلافة ـ بادىء الأمر ـ بالقيام بمثل هذا العمل الكبير، خوفًا على المسلمين من المخاطرة فى مفاوز أو إيقاعهم فى مهالك، ولكن موسى أقنع الخليفة بالأمر، ثم تمّ الاتفاق على أن يَسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية[١].

٢ ـ الحملة الاستطلاعية، أو حملة طريف:

نفذ موسى أوامر الوليد بأن جهز حملة استطلاعية مؤلفة من خمسمائة جندى منهم مائة فارس بقيادة طريف بن مالك الملقب بأبى زُرعة -وهو مسلم من البربر- وجاز هذا الجيش الزُّقاق ـ اسم يطلق أحيانًا على المضيق[٢]ـ من سبتة بسفن يُـليْان أو غيره، ونزل قرب- أو فى -جزيرة بالوما فى الجانب الإسبانى، وعرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد: جزيرة طريف[٣]، وكان إبحار هذه الحملة من سبتة فى رمضان عام ٩١هـ (تموز ٧١٠م) وقد جال طريف فى المدينة والنواحى المحيطة بها واستطلع أخبار العدو فى تلك الجهات[٤]، وعادت حملة طريف بالأخبار المطمئنة والمشجعة على الاستمرار فى عملية الفتح[٥]، فقد درس أحوال المنطقة وتعرّف على مواقعها وأرسل جماعات إلى عدة أماكن ـ منها جبل طارق ـ لهذا الغرض، فكانت هذه المعلومات عونًا فى وضع خُطة الفتح ونزول طارق بجيشه على الجبل[٦].

٣- العبور:

لما رأى موسى بن نصير ما حققته حملة طريف، وصحّ عنده ما نقل إليه من أحوال الأندلس، بعث طارق بن زياد فى سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم من البربر والموالى وأقلهم من العرب، ولما احتاج طارق إلى أعداد فى فترة تالية أمدّه موسى بخمسة آلاف، فتمّ جيش طارق من السفن لنقل الجنود إلى بر الأندلس، وقد حرص القائمون على الحملة لاستكمال عملية نزول الجند على أن يُعموا أخبار الحملة على الناس، لذلك أحضر يُليان

(١) التاريخ الأندلسى صـ٤٥ .
(٢) المصدر نفسه صـ٤٥، نقلا عن ابن خلدون .
(٣) المصدر نفسه صـ٤٦ .
(٤) الفن العسكرى الإسلامى، د.ياسين سويد صـ٣٣٤، ٣٣٥. .
(٥) التاريخ الأندلسى صـ٤٦ .
(٦) المصدر نفسه صـ٤٦.

السفن إلى سبتة ليلاً، وأخذت تنقل الجنود تباعًا، ويبدو أن عملية إبحار الجند اقتضت أكثر من ليلة، فقيل إن الجند الذين نزلوا بر الأندلس كانوا يكمنـون فى النهار حتى لا يشعر بهم أحد، وكانت السفن تختلف بين سبتة والأندلس وأهل الأندلس، لا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت السـفن تختلف به من المنافع والمتاجر، ولما علم أهل الأنـدلس بالحملة كانت عملية الإبحار قد تمت بسلام فى رجب من عـام اثنين وتسعين للهجرة، ونزل طارق بالجند عند جبل كـالبى، وهو الجبل الذى أخذ اسـم طارق وصار يعرف بجـبل طارق، وقيل: لما ملك رئيس الموحـدين عبـد المؤمن الأندلس وعبـر جبل طارق أمـر ببناء مدينة على الجـبل وسماه جبل الفتح، ولكن الاسم لم يثبت له وظل اسم جبل طارق جاريًا على الألسنة[1]، وسار طارق بالجيش نحو الجزيرة الخضراء ففتحها، وكان لذريق فى شمال الأندلس مشغولاً فى محـاربة البشكنس، وقـيل: فى محاربة الفـرنسيين، فـأرسل خليفتـه يُعْلِمُه بالهـجوم الإسلامى، فـعاد لذريق مسـرعًا لصده، وفى طريقـه لقتال المسلمـين عرّج على العاصـمة طليطلة دون أن يدخلها، وصالح أسرة غيطشة ودعـاهم والقوط المخالفين له إلى الانضمام إليه فى حرب العدو المشترك فساروا معه، وقيل إن لذريق عـهد بقيادة ميمنة جيشه وميسرته إلى ابنى غيطشة[2]، وعلم طارق بالحشود التى حشدها لـذريق لمجابهته فكتب إلى موسى ينبئه بضخامتها ويطلب منـه مددًا، فأمدّه موسى بخمسـة آلاف مقـاتل[3]، ويصـف المقرى -نقلاً عن بعض المؤرخـين- جند طارق بقوله: لقد أقبلوا وعليـهم «الزرد» وفوق رءوسهم «العمائم البيض» وبأيديهم «القسى العربيـة» وقد تقلدوا السيوف وحملوا الرماح فلما رآهم لذريق دخله منهم الرعب[4]، وذكر ابن الأثير: أن طارقًـا لما ركب البحر غلبتـه عينه فرأى النبى ﷺ ـ فى نومه ـ ومعه المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف وتنكّبوا القسى، فقال له النبى ﷺ: «يا طارق تقدم لشـأنك»، وأمره بالرفق بالمسلمين، والوفاء بالعـهد، فنظر طارق فرأى النبى ﷺ وأصحابه قـد دخلوا الأندلس أمامه، فـاستيقظ من نومـه مستبـشرًا، وبشر أصحابه وقويت نفسه ولم يشك فى الظفر[5].

٤ ـ معركة وادى لكّة أو العبور إلى الأندلس:

لم يعد بين طارق وخصمـه لذريق سوى عاملى الزمن، والأرض، وأصبح من الواضح أن طارقًا أكثر حرية من خصمه بعد سقوط ولاية «الجزيرة الخضراء» بيده وهزيمة قائد القوط

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٢٩٩ .

(٢)، (٣) المصدر نفسه صـ٣٠٠ .

(٤) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (١/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٥) الكامل فى التاريخ (٣/ ٢٠٩).

«بنج» وهلاك فرقته بكاملها على يدى جيش طارق، وأصبح قادراً على اختيار المكان المناسب للقتال، فقد كان اختيار ميدان القتال من قبله من أهم عناصر نجاحه فى هذه المعركة[(١)]، إذ كان قد أسند ميمنة جيشه إلى بحيرة خاندا شرقًا، الممتدة عدة كيلومترات، والتى يصب فيها نهر البرباط الذى يمر بوادى البرباط، وأسند ميسرته إلى الوادى المذكور غربًا، كما أسند مؤخرة هذا الجيش إلى جبال «رتينا» العالية جنوبًا، منتظراً أن يأتيه العدو من الشمال بعد أن وضعه فى موضع الاضطرار لا الاختيار[(٢)]، وما إن استكمل لذريق عدة الجيش وعديده حتى تحرك جنوبًا لمواجهة طارق وجيشه فى المكان الذى اختاره هذا الأخير، فوصله فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام ٩٢هـ وعسكر بجيشه على الجهة الشمالية للوادى[(٣)]، والتقى الجيشان على نهر لكة من أعمال شذونة لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢هـ، واتصلت الحرب بين الجانبين ثمانية أيام استشهد فيها ثلاثة آلاف من المسلمين، ولكن الهزيمة دارت على لذريق وجيشه، وقيل إن لذريق غرق وقتل كثير من جيشه، ومما يروى عن أبناء غيطشة أنهم خذلوا لذريق وتركوه هم وأنصارهم أمام المسلمين ظنًا منهم أن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنائم عادوا إلى بلادهم فبقى الملك لهم[(٤)]، ولعل خذلان آل غيطشة وأنصارهم لذريق كان بدافع الانتقام منه[(٥)]، ولا شك أن هذا الفتح -مثل غيره- يعود إلى قوة المسلمين بتمكن العقيدة وتغلغل معانيها فى نفوسهم وحرصهم على الشهادة فى سبيلها[(٦)].

وبعد هذا النصر العظيم تعقب طارق فلول الجيش القوطى التى لاذت بالفرار. وسار الجيش الإسلامى فاتحًا بقية مناطق الجزيرة الأيبيرية[(٧)].

٥ ـ الدروس المستخلصة من معركة وادى لكة:

أ ـ **الحذر واليقظة تجاه الحلفاء:** لم يكتف موسى بن نصير بقول يليان ووعده بالعون والمساعدة فى فتح الأندلس، بل كلفه بمهمة استطلاعية فى تلك البلاد ليختبر صدقه ووفاءه بعهده، وقد كان يليان صادقًا بما قال ووفيًا لما تعهد به، كما كان موسى حذراً ويقظًا ونبهًا.

ب ـ **الاستطلاع قبل الإنزال:** أراد موسى أن يستطلع البيئة التى سوف يقتحمها، والعدو الذى سوف يقاتله، والبقعة التى سوف يتم النزول فيها، وذلك قبل أن يدفع بجيشه

(١)، (٢) الفن العسكرى الإسلامى صـ٣٣٩.
(٣) المصدر نفسه صـ٣٤١.
(٤) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٠٠.
(٥) المصدر نفسه صـ٣٠١.
(٦) التاريخ الأندلسى ص ٥٥.
(٧) المصدر نفسه صـ٥٧.

في مغامرة مجهولة النتائج، فأرسل حملة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك، وما إن عادت تلك الحملة بالمعلومات الوافية عن البيئة والعـدو وبقعة النزول حتى اطمأن إلى سلامة قراره فكتب إلى الخليفة يستأذنه بالفتح[(١)].

ج ـ الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة: رغم ما سبق من اختبار سواء بواسطة الحملة التى قام بها يليان أو حملة طريف، فقد أبى الخليفة إلا أن يكرر الاختبار فقال لموسى: خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال[(٢)].
ولما لفت موسى نظر الخليفة إلى سهولة عملية الإبحار والإنزال أصر الخليفة قائلاً: وإن كان، فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه[(٣)]. وذلك يدل على مدى حرص الخليفة على التأكد من نجاح العملية وسلامتها وتأمين الفوز للمسلمين، بدل أن يغرر بهم فى بحر شديد الأهوال. وهذا الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة قبل الإنزال والاقتحام سهّل عملية الفتح إلى حد كبير، وأعان المسلمين فى مواجهتهم الحاسمة للعدو، إذ أمّن لهم عملية «المباغتة» لعدو لم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة أبدًا[(٤)].

د- أسلوب المباغتة: إن الأسلوب الذى اتبعه طارق فى إيصال المسلمين إلى ساحل الأندلس منفذًا تعليمات الخليفة، كان أسلوبًا بارعًا إلى حد كبير، فهو لم يبحر بالمسلمين دفعة واحدة، بل أبحر بهم على دفعات متتالية، وفى مراكب تجارية، وما إن التأم شمل المسلمين فى تلك البلاد، حتى فوجئوا بالهزيمة الساحقة التى لحقت بهم على يد هؤلاء المسلمين، ومقتل أحد أهم قادتهم «بنج» ابن أخت مليكهم لذريق، فانتزع المسلمون -بهذه المباغتة وهذا الانتصار- المبادرة من يد أعدائهم، وأسقط فى يد القوط، وأصبحت هزيمتهم على يد المسلمين قدرًا محتومًا[(٥)].

هـ- تنفيذ أسلوب «رأس الجسر»: نفذ طارق، فور وصول جيشه إلى الساحل الأندلسى، أسلوب «رأس الجسر»؛ وهو أسلوب يعمل به فى الحروب الحديثة، فأقام على الساحل قاعدة حصينة سوّرها وحماها وانطلق منها فى فتوحاته، تمامًا كما يفعل أى جيش فى أيامنا هذه[(٦)].

و- اختيار ميدان القتال: لقد أحسن طارق اختيار ميدان القتال، وفرض على العدو أن يجابهه من جهة واحدة هى جهة الشمال، ووضعه فى موضع الاضطرار، لا الاختيار.

(١) الفن العسكرى الإسلامى صـ ٣٤٩.
(٢) نفح الطيب (١/ ٢٥٣).
(٣) البيان المغرب (٢/ ٥)، التاريخ الأندلسى ص٤٦.
(٤)، (٥) الفن العسكرى الإسلامى صـ ٣٥٠.
(٦) المصدر نفسه صـ ٣٥٠.

ز- المبادرة بالقتال: كان طارق فى هذه المعركة هو البادئ بالقتال، بل بادر إلى اجتياز النهر لملاقاة عدوه، فناوشه ثلاثة أيام، ثم شن عليه بعد ذلك هجومًا عامًا انتهى بهزيمته.

ح- صدق المسلمين ووفاؤهم بالعهود: كان المسلمون صادقين ووفوا بعهودهم تجاه يليان وأبناء غيطشة، فأعادوا لهؤلاء ضياع أبيهم واحترموا تعهداتهم ليُليان وأنصاره، وكانت نتيجة ذلك أن اعتنقت سلالة كل من يليان وأبناء غيطشة الإسلام، فكان فيها من حسن إسلامه مثل أيوب (توفى سنة٢٢٦ هـ) وسليمان (توفى سنة ٣٧٩ هـ) وأحمد (توفى سنة ٣٨٨ هـ) من سلالة يليان، ومثل أبى بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية صاحب كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» وهو من سلالة سارة بنت المنذر بن غيطشة آخر ملوك القوط(١).

ط- استثمار النصر: طبق طارق -بالبداهة- مبدأ من أهم المبادئ العسكرية الحديثة وهو استثمار النصر، إذ إنه ما إن هزم لذريق فى وادى لكّة حتى لاحق فلول جيشه دون أن يترك لهذا الجيش مجالاً للتجمع وإعادة التنظيم من جديد، وكان طارق قد وضع لنفسه هدفًا أساسيًا هو احتلال طليطلة عاصمة العدو، إذ إنه يعرف -ولا شك- أنه باحتلاله لعاصمة المملكة، تفقد هذه المملكة مركزيّتها، ويفقد الملك قاعدة ملكه وحكمه، ولكن طارقًا -مع ذلك- لم ينس أن يرسل جيشه فى حملات إلى مختلف أنحاء البلاد لكى يحتل المواقع الاستراتيجية فيها فيفقد القوط كل أمل بمتابعة القتال والنصر، فأرسل إحداها إلى داخل البلاد شمالاً نحو قرطبة، وكانت قصبة مهمة فى الأندلس، وأرسل أخرى شرقًا، على الساحل الجنوبى للبلاد، نحو ملقة، وأرسل ثالثة إلى داخل البلاد شمالاً بشرق، نحو غرناطة، وكانت تشكل موقعًا استراتيجيًا مهمًا فى البلاد، ثم توجه بنفسه شمالاً إلى العاصمة طليطلة واستولى عليها، فظل الحكم القوطى، من جراء ذلك، شديدًا طريدًا فى أنحاء الأندلس إلى أن سقط(٢).

٦ ـ الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرق السفن:

يعتقد كثير من المؤرخين أن طارقًا أحرق سفنه، بعد أن أنزل جيشه على الساحل الأندلسى، ثم خطب بجنده الخطبة الشهيرة: أيها الناس، أين المفر؟ البحر وراءكم، والعدو أمامكم وليس لكم -والله- إلا الصدق والصبر. . . ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم، وإن

(١) الفن العسكرى الإسلامى صـ٣٥٢.

(٢) المصدر نفسه ص٢٥٣.

امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تتجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم، وتعوَّضت القلوب من رُعْبها. . . وجاء فى الخطبة: وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات بالدّر والمرجان، والحُلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانًا، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمُجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله إلى إعلاء كلمته، . . إلخ الخطبة[1]، وبالإمكان إيراد الملاحظات التالية حول الخطبة:

أ- لم تكن الخطبة وما فيها من السجع من أسلوب ذلك العصر -القرن الأول الهجرى-، وغير متوقع لقائد جيش أن يعتنى بهذا النوع من الصياغة.

ب- إن المعانى التى تناولتها الخطبة لا تتلاءم وروح الإسلام العالية، التى توافرت لدى الفاتحين، ومقدار حبهم للإسلام وإعلاء كلمته، ورغبتهم فى الاستشهاد من أجل ذلك، فهى لا تشيد بدوافع الفتح وأهدافه ـ وهى معروفة مألوفة ـ التى أنبتتها ورعتها العقيدة الإسلامية، عاملة على ابتغاء مرضاة الله تعالى وحده، لتعلو راية الإسلام وتسود شريعته ويكون الدين كله لله،﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

جـ- يلاحظ فى الخطبة عديد من الأخطاء، ويلاحظ فيها التناقض فى المعانى، وبعض ما فيها مخالف لحقائق تاريخية، كاستعمال «اليونان» -التى ربما جاء ذكرها للسجع- فالمؤرخون الأندلسيون اعتادوا أن يستعملوا فى هذه المناسبة كلمة: القوط أو الروم[2]، وكذلك: العلوج والعجم أو المشركين والكفار[3]، وليس لدينا نص يحتوى مثل هذا الاستعمال، غير أن ابن خلكان ـ وهو مشرقى ـ أورد هذا الاستعمال فى غير الخطبة[4]، ثم قوله: «وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين. . » فالذى انتخبهم موسى بن نصير وليس الوليد[5].

د- كان المتوقع أن تحتوى الخطبة على آيات من القرآن الكريم وأحاديث الرسول الأمين ﷺ، أو وصايا وأحداث ومعان إسلامية أخرى تناسب المقام كالمعهود[6]. وغير ذلك من الملاحظات.

---

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٣٢١، ٣٢٢). (٢) نفح الطيب (١/ ٢٦٤)، التاريخ الأندلسى صـ٦٠.

(٣) نفح الطيب (١/ ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٧٠).

(٤) التاريخ الأندلسى صـ٦٠، وفيات الأعيان (٥/ ٢٢٣).

(٥) التاريخ الأندلسى ص٦٠. (٦) المصدر نفسه صـ٦١.

وكل ما تقدم لا يمنع أن يكون طارق جيد الكلام، وأنه خطب جنده يحثُّهم على الجهاد[1]، ويروى المَقَّرى أبياتًا قالها طارق بهذه المناسبة:

ركبنا سَفينا بالمجاز مُقَيَّرا عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوسًا وأموالاً وأهلاً بجنَّة إذا ما اشتهينا الشيء منها تيسَّرا
ولسنا نُبالى كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذى كان أجْدرا[2]

وقال ابن بشكوال: إن طارقًا كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه[3]. ووجهة هذه الأبيات تغاير وجهة الخطبة، فهى منسجمة والمعانى الإسلامية، ومستمدة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وأما موضوع حرق طارق للسفن التى عبر بها المضيق، كى يقطع على الجيش الإسلامى كل أمل فى العودة، فيَستميت فى الدفاع.. فقد ذكر بعض المؤرخين ذلك.

لكن لماذا يحرق طارق السفن، سواء امتلكها المسلمون أم يُلْيان؟ وكان طارق وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة، وإنهم فى ساعة عبورهم جاءوا مجاهدين مستعدين للشهادة، وطارق متأكد من هذه المعانى، فإذا كانت السفن ليُليان فليس من حق طارق التصرف بها، وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملاً عسكريًا سليمًا أو مناسبًا، ما دام يحتاج إليها وإلى النجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأى غرض، وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة واحتاجها فيما بعد[4]، كما أن طارقًا كان قادرًا على إعادتها إلى الساحل الإفريقى.. إن الدوافع الإسلامية والهدف الذى جاء الجيش من أجله أقوى فى الاندفاع من أى سبب آخر، وما كان المسلمون ليتخلفوا عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله، بل لذلك أتوا، والمصادر الأندلسية - لاسيما الأولى - لا تشير إلى قصة حرق السفن التى لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة[5].

٧ - عبور موسى بن نصير إلى الأندلس:

كان موسى بن نصير من التابعين - رحمهم الله تعالى - وقد روى تميم الدارى رضى الله عنه، أنه كان عالمًا كريمًا شجاعًا ورعًا تقيًا لله تعالى[6]، وكان من رجال العلم حزمًا ورأيًا

(١)، (٢) التاريخ الأندلسى صـ٦١.
(٣) نفح الطيب (١/ ٢٣١)، التاريخ الأندلسى ص٦١.
(٤)، (٥) التاريخ الأندلسى صـ٦٢.
(٦) وفيات الأعيان (٥/ ٣١٨، ٣١٩).

وهمّة ونبلاً وشجاعة وإقداماً[1]، وكان حين وجّه طارقاً لفتح الأندلس يتلقى الأخبار ويراقب الأحداث، منذ بدايتها، ويُهيئ المتطلبات لإنجاز هذا الفتح الكبير، بهمة المؤمن وإخلاص التقى، ويدعو الله أن ينزل نصره على المسلمين[2]. وكان موسى بن نصير يعتقد اعتقاداً كبيراً فى أهمية الدعاء والتضرع لتحقيق النصر على الأعداء، ويعتبر الدعاء من أسباب النصر التى أرشد إليها القرآن الكريم ومارسها رسول الله ﷺ. يقول ابن الكردبوس: وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقاً مُكبّاً على الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالى، والابتهال إليه أن ينصر جيش المسلمين، وما عُلم أنه هزم له جيش قط[3]، وكان طارق بن زياد على صلة بقائده موسى بن نصير، يفتح الفتوحات باسمه وبتعليماته، ويخبره عن كل شيء أولاً بأول منذ بداية الفتح، ويستشيره فيما يحتاج إليه، وقد رأينا كيف طلب المدد قبل معركة وادى لكّة، وكان موسى على علم تام بأحوال الفتوح، وبعد سنة تقريباً من عبور طارق، وتفرق جيشه وتوزيعه على المناطق والمدن التى فتحت، خاف طارق أن يُغلب وأن يستغل القوط قلة جيشه، فأرسل إلى موسى يستنجده، واستخلف موسى على القيروان ولده عبد الله.. ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة فى عسكر ضخم[4]، وتحرك موسى بجيشه نحو شذونة فكانت أول فتوحاته، ثم توجه إلى مدينة قرمونة وليس بالأندلس أحصن منها، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال، فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يُلْيان، دخلوا إليهم كأنهم فُلاّل، وطرقهم موسى بخيله ليلاً ففتحوا لهم الباب، وأوقعوا بالأحراس، فملكت المدينة[5] فافتتحها. وتوجه بعد ذلك إلى إشبيلية جارتها فحاصرها وهى أعظم مدائن الأندلس... فامتنعت شهراً على موسى ثم فتحها الله عليه،.. ثم سار إلى مدينة ماردة وفتح فى طريقه إليها لَبْلَة وباجة ثم فتح ماردة صلحاً بعد قتال وجهاد عظيم[6]، وأقام موسى فى ماردة زيادة على شهر يرتب أحوالها وينظم أمورها ويريح الجند من العناء ويستعد لاستئناف السير[7]، ووجه موسى ابنه عبد العزيز من ماردة إلى إشبيلية، وكانت فلول القوط من لبلة وباجة قد اجتمعت فيها وقتلوا العديد من المسلمين، منتهزين فرصة انشغال موسى بحصار ماردة، وبلغه الخبر خلال الحصار، فأعاد عبد العزيز فتح إشبيلية ثم فتح لبلة وباجة[8]، وأصبحت المدن والقرى تتساقط أمام جيوش الفاتحين كتساقط الأوراق من على الأشجار فى فصل الخريف.

(١) العبر فى خبر من غبر، للذهبى (١/ ١١٦).
(٢)، (٣) التاريخ الأندلسى صـ٦٧.
(٤) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص٦٨.
(٥) نفح الطيب (١/ ٢٣١)، التاريخ الأندلسى ص٧٤.
(٦) التاريخ الأندلسى صـ٧٤ - ٧٦.
(٧)، (٨) المصدر نفسه صـ٧٨ .

٨ ـ لقاء موسى وطارق:

فى بداية ذى القعدة سنة ٩٤هـ ابتدأ موسى بالسير صوب طليطلة، وكتب إلى طارق بالتوجه إليه فى مجموعة من جيشه، ثم جاءه طارق، وذكر البعض أن لقاءهما كان عند طليطلة أو قرطبة، ورجح الدكتور الحجى -العالم البارز فى تاريخ الأندلس- أن اللقاء كان خارج مدينة طلبيرة التى تبعد ١٥٠كم غرب طليطلة[(١)]، ووصل موسى وطارق إلى طليطلة فى ذى القعدة ـ ذى الحجة أو آخر سنة ٩٤هـ وأقاما بالجيش الإسلامى فصل الشتاء -أو جله- فى طليطلة يرتبون أحوالها وينظمون شئونها، ويستريحون ويتهيأون ويخططون لفتح شمال شبه الجزيرة الأيبيريَّة، وكتب موسى والقادة الآخرون إلى الخليفة الوليد ـ وربما ليس لأول مرة ـ أخبار الفتح، وضربت العملة الإسلامية لأول مرة فى الأندلس، وقام بالدعوة إلى الله وتعليم الناس حقائق الإسلام وشرحه لهم ودعوتهم إليه بعد أن رآه أهل البلاد عمليًا فى خلق الفاتحين. ولعلهم أرسلوا فرقًا إلى بعض المناطق، فقد كان طارق خبر أحوال طليطلة لاسيما شمالها، إذ كان قد وصل إلى المدينة المائدة (فى منطقة وادى الحجارة)[(٢)].

وأما ما تحدثت عنه المصادر من قصة الخلاف الذى قيل إنه حدث بين القائدين الكبيرين موسى وطارق، وتبالغ هذه المصادر فترجع أمر هذا الخلاف إلى حسد دب فى نفس موسى على مولاه طارق وعلى ما حققه من نجاح، وتنسب إلى موسى أنه أهان طارقًا بأن وضع السوط على رأسه[(٣)]، فهذه روايات ناقشها عدد من الباحثين وأبانوا ضعفها وسقوطها وتفاهتها، كمحمود شيت خطاب[(٤)]، وعبد الله عنان[(٥)]، ود. عبد الرحمن الحجى[(٦)]، ود. محمد بطاينة[(٧)]، ود. عبد الشافى محمد عبد اللطيف[(٨)]، وغيرهم وإن كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة القضايا أو استفهامه من طارق عن خطته وإبداء الملاحظات عليها، تخوفًا من الأذى، وعندما استفسر موسى من طارق عن سبب الإيغال والتقحم فى بلاد العدو، اعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه، وقبل موسى عذره. وصارا بعدها أخوين مجاهدين، ينشران دين الله ويُعليان

(١) التاريخ الأندلسى صـ٨٣ .
(٢) المصدر نفسه ص٨٥.
(٣) البيان المغرب (٢/ ١٦)، العالم الإسلامى صـ٣١٦ .
(٤) قادة فتح المغرب (١/ ٢٥١ ـ ٢٥٥) .
(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس صـ٩١ ـ ٩٢ .
(٦) التاريخ الأندلسى صـ٩٠ .
(٧) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٠٣ .
(٨) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣١٦.

كلمته ويبلغان للناس شريعته[١]، كما لا ننسى أن طارقًا جندي من جنود موسى، والانتصارات التي حققها طارق إنجازات تكتب في صفحة موسى القيادية[٢].

وعند انتهاء الشتاء وحلول الربيع سنة ٩٥هـ تهيأ الجيش الإسلامي لترك طليطلة ثم أوغل شمالاً ففتح مدن لاردة ووشقة وطركونة وبرشلونة، كما فتح بلنسية وطرطوشة على الساحل الشرقي للأندلس، وفي هذا الوقت وصل مغيث الرومي مبعوثًا من جانب الخليفة الوليد عبد الملك يحمل إلى موسى بن نصير أمر الخليفة بالقدوم إلى دمشق، ولكن فتح الأندلس لم يكن قد اكتمل بعد، لذلك لاطف موسى مغيثًا وسأله إنظاره إلى أن ينفذ عزمه في دخول بلاد جليقية واشتوريس ويكمل فتح الأندلس ويكون مغيث شريكه في الأجر والغنيمة ـ أي يصبح له سهم في الغنيمة ـ ففعل مغيث ومشى في ركاب موسى إلى جليقية وأشتوريس ففتحهما وتعقب موسى وطارق فلول القوط حتى اضطرّ هؤلاء إلى الفرار إلى جبال كنتبرية في أقصى الشمال الغربي من الأندلس[٣]، ولما تأخرت أخبار موسى قلق الخليفة الوليد على مصير الجيش الذي مضى على وجوده في البعوث ما يقارب أربع سنين، لذلك أرسل الوليد رسولاً ثانيًا، فوصل الرسول الأندلس وموسى في مدينة لُكّ بجُليقية يُوجِّهُ السرايا والبعوث التي بلغت صخرة بلاك التي تقع في الشمال الغربي على البحر الأخضر ـ خليج بسكاي ـ من المحيط الأطلسي، فاستجاب موسى إلى الرسول وعاد إلى طليطلة ثم غادرها إلى قرطبة ومنها إلى إشبيلية حيث استخلف فيها ولده عبد العزيز واليًا واتخذ منها عاصمة للبلاد، ولكن إشبيلية لم تمكث طويلاً عاصمة للبلاد، وإنما استعيض عنها بقرطبة منذ عام ٩٧هـ، وظلت قرطبة مركز الديار الأندلسية حتى نهاية عهد الخلافة في الأندلس[٤]، ويبدو أن موسى اختار إشبيلية عاصمة في هذه المرحلة من تاريخ الأندلس لوقوعها في منطقة تتساوى عندها احتمالات الخطر والسلامة، وواجبات الحفاظ على البلاد وحمايتها، فهي لم تخرج إلى الأطراف بعيدًا عن الوسط، ولم تقترب من خطوط المواجهة مع الأعداء بعيدًا عن بلاد المغرب وإمداداتها[٥].

٩ ـ رجوع موسى إلى عاصمة الخلافة دمشق:

غادر ركب موسى وطارق بن زياد الأندلس في ذي الحجة عام ٩٥هـ يحمل معه الأسرى والغنائم الوفيرة والهدايا الثمينة وغيرها من الكنوز، فلما بلغ طنجة ترك ابنه عبد

(١) التاريخ الأندلسي صـ٩٠ . (٢) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٠٣ .
(٣) نفح الطيب (١/ ٢٧٥)، التاريخ الأندلسي صـ٩٦ ـ ٩٨، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٠٨.
(٤) نفح الطيب (٣/ ١٤) . (٥) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٠٨.

الملك فيها حاكمًا، ثم انصرف منها إلى القيروان فأقرّ ابنه عبدالله الذى كان قد استخلفه فى أثناء غيابه فى الأندلس[1]، ثم سار من هناك يريد دمشق، فوصلها فى عام ٩٦هـ قبل وفاة الوليد، وقيل إن سليمان بن عبد الملك بعث إلى موسى بن نصير ألا يدخل دمشق يريد أن ينتظر وفاة أخيه الوليد بن عبد الملك ثم يدخلها، فتكون علامات الفتح ودلائل النصر من الأسرى والغنائم والهدايا فاتحة عهده فيعظم مقامه عند الناس، ولكن موسى خالف سليمان ودخل، فلما ولى سليمان الخلافة حقد على موسى وعزله وحبسه وأغرمه أموالاً كثيرة[2]، ويبدو أن تدخل يزيد بن المهلب وعمر بن عبد العزيز لصالح موسى، لدى سليمان بن عبد الملك أثمر عن رضا سليمان عن موسى، وأصبح فيما بعد عظيم المنزلة، وكان سليمان يستشيره فى بعض الأمور العسكرية، كما هو الحال فى الخطة العسكرية الواجب اتباعها فى سير الحملة المتجهة إلى القسطنطينية، كما أن سليمان كان يخرج إلى بعض أمواله متنزهًا وبرفقته موسى بن نصير[3]، ويبدو أن سعة البلاد التى صارت إلى نظر موسى وتحت سلطانه -وكانت تمتد من غرب مصر إلى جنوب فرنسا- وقيام موسى بتوزيع الحكم فيها على أبنائه، كان مما يثير الشكوك فى نفوس أولى الأمر، لذلك بادر سليمان -حرصًا على وحدة الدولة وسلامتها من الانقسام- إلى عزل موسى بن نصير عما كان تحت يده من الأعمال[4]، ومن الأسباب التى ذكرت فى سبب استدعاء موسى إلى دمشق تخوف الوليد على المسلمين أن يكونوا فى أرض منقطعة، ومحاطة بمناطق غير إسلامية وعلى اتصال بها، هى أقرب إليها من العالم الإسلامى أو مراكز ارتباطه واستمداده، وهو الذى رأيناه عارض فتح الأندلس خوفًا على المسلمين أن يخوضوا المخاطر ويركبوا المهالك، حتى بين له موسى ألا داعى للخوف[5]، ويرى الكثير من المؤرخين أن موسى بن نصير لم يكن يعتزم التوقف فى فتوحاته عند هذا الحد، وإنما كان يخطط لعبور جبال البرانس واجتياح أوربا كلها والوصول إلى القسطنطينية وفتحها من جهة الغرب لولا أن استدعاه الخليفة الوليد إلى دمشق وأمره بالتوقف بالفتح عند هذا الحد، ويؤكد المؤرخون أنه لو قدر لموسى بن نصير أن يمضى قدمًا فى مشروعه هذا لتغير شكل النظام الدولى تمامًا ولقضى على القوى غير الإسلامية، ذلك أنهم باستقرائهم النظام الدولى وقتئذ فإنهم يؤكدون أن احتمالات نجاح مشروعه هذا كانت عالية جدًا، إذا لم تكن الظروف مواتية لنجاحه مثلما كانت مواتية

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٠٨ .
(٢) الكامل فى التاريخ (٣/ ٢١٢) .
(٣) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ١٢٢ .
(٤) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٠٩.
(٥) دولة الإسلام فى الأندلس (١/ ٥٤)، التاريخ الأندلسى صـ١١٣.

وقتها، فمملكة الفرنجة كانت مشغولة -وقتها- بصراعاتها مع الممالك الأخرى، ولم يكن هناك كيان سياسى واحد فى أوربا كلها يعادل قوة الدولة الإسلامية أو حتى بدايتها، ويشير هؤلاء المؤرخون إلى أنه لما قدر للمسلمين فى هذه المنطقة قائد كفء بعد عشرين عامًا من ضياع هذه الفرصة، كانت الظروف الدولية قد تغيرت لغير صالح المسلمين، فلما حاول هذا القائد إحياء مشروع موسى بن نصير هزم هزيمة ضخمة تدخل فى تاريخ العلاقات الدولية بوصفها نقطة تحول وهى معركة بلاط الشهداء(1)، وقد تكرست الآثار السلبية لعدم استكمال موسى بن نصير لمشروعه بفشل حصار المسلمين للقسطنطينية بعد ذلك بسنوات قليلة، وهو ما أغلق أوربا أمام المسلمين من الشرق بعد أن كانت قد أُغلقت أمامهم من الغرب، ولقد فشل المحللون فى تفسير سبب استدعاء الخليفة الوليد لموسى بن نصير، فبعضهم قال إنه أشفق على المسلمين من مخاطر هذا المشروع البحرى، وبعضهم الآخر يؤكد أن الخليفة إنما خاف على سلطانه من تصاعد نفوذ وقوة موسى بن نصير، وسواء صحت هذه التفسيرات أو أخطأت، فإن ما حدث بالفعل بعد استدعاء موسى بن نصير، إلى دمشق، هو تقويض هدف مصيرى للأمة أضاعت فيه فرصة ثمينة فى فتح أوربا وجعلها تحت نفوذ الدولة الإسلامية(2).

١٠ - خاتمة موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله تعالى:

تخبطت الروايات فى الحديث عن نهاية موسى وما لقيه من الخليفة سليمان من الأذى والغمط والنكران، وفى هذه الروايات غموض وتشويش وتناقض ومبالغات كبيرة(3)، والصحيح أن سليمان كان عاتبًا على موسى، لأمر لا نستطيع تحديده على وجه الدقة، ثم رضى عنه سليمان، وقرّبه منه وأصبح من خاصته(4)، وكانت بينه وبين سليمان محاورات وتساؤلات، فقد قال له سليمان يومًا: ما كنت تفزع إليه عند الحرب؟ قال: الدعاء والصبْر، قال: فأى الخيل رأيت أصبر؟ قال: الشُقُر، قال: فأى الأمم أشدُّ قتالاً؟ قال: هم أكثر من أن أصف قال: فأخبرنى عن الرُّوم، قال: أُسْدٌ فى حصونهم عقبان على خيولهم، نساء فى مَراكبهم، إن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأَوْا غلبة، فأوعال تذهب فى الجبال، لا يرون الهزيمة عارًا. قال: فالبربر؟ قال: هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرًا وفروسية، غير أنهم أغدر الناس، قال: فأهل الأندلس؟ قال: ملوك مترفون وفرسان لا يجبنون، قال: فالفرنج؟ قال: هناك العدد والجلد والشدة والبأس، قال: فكيف كانت الحرب بينكم

(1)، (2) الدولة الأموية دولة الفتوحات ص٤٤. (3) التاريخ الأندلسى ص١٢٦.

(٤) خلافة سليمان بن عبد الملك ص١٢٣.

وبينهم؟ قال: أمَّا وهذا فوالله ما هُزمت لي راية قط ولا بُدِّد لي جمع، ولا نُكب المسلمون معي منذ اقتحمت الأربعين إلى أن بلغت الثمانين، ولقد بعثت إلى الوليد بتور[1] زبرجد كان يجعل فيه اللبن حتى ترى فيه الشعرة البيضاء... ثم أخذ يُعدِّد ما أصاب من الجوهر والزبرجد حتى تحير سليمان[2]، وقد وصف الذهبي موسى بن نصر بقوله: الأمير الكبير، أبو عبد الرحمن اللخمي، متولي إقليم المغرب، وفاتح الأندلس، قيل: كان مولى امرأة من لخم، وقيل: ولاؤه لبني أمية. وكان أعرج مهيبًا ذا رأي وحزم[3]، وكان من أصحاب الهمم الكبيرة، فقد قال مرّة: والله لو انقاد الناس لي، لقدتهم حتى أُوقعهم على رُومية ثم ليفتحنها الله على يدي[4]. وكان موسى بن نصير بوسعه أن يستقل عن الخلافة ويقيم ملكًا له ولأولاده في المغرب والأندلس، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك، حتى إن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى: والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفًا، ولكني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة[5]، وقد توفي موسى بن نصير -رحمه الله تعالى- وهو متجه للحج برفقة الخليفة سليمان بن عبد الملك في المدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ أو في وادي القرى - العُلا حاليا - أواخر سنة ٩٧هـ[6] وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد (في سنة ٩٧هـ)[7]، وقال صاحب معالم الإيمان: توفي بالمدينة متوجهًا إلى الحج، وكان قد سأل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة أو يموت بالمدينة، فأجاب الله دعاءه[8]، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك[9]، لقد كانت الدنيا وما فيها صغيرة ولا قيمة لها عند موسى بن نصير، ويرجع الفضل في ذلك إلى الله ثم نصيحة العالم الجليل أبي عبد الله علي بن رباح اللخمي لموسى بن نصير، فقد أورد صاحب كتاب «رياض النفوس» أن موسى بن نصير لما وصل من الأندلس إلىّ القيروان قعد يومًا في مجلسه، فجاءه العرب يسلمون عليه، فلما احتفل المجلس قال: إنه قد صحبتني ثلاث نعم: أما واحدة فإن أمير المؤمنين كتب إلى يهنئني في كتابه وأمر بقراءة الكتاب، فقرئ بذلك، وأما الثانية فإن كتاب ابني قدم علي بأنه فتح له بالأندلس فتح عظيم، وأمر بالكتاب فقرئ فهنئ بذلك، وكان علي بن رباح ساكتًا

(١) التور: الإناء
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٩).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٤٩٦، ٤٩٧).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ٥٠٠).
(٥) المصدر نفسه (٤/ ٤٩٩)، الشرف والتسامي صـ٢٧٩.
(٦) تاريخ علماء الأندلس (٢/ ١٤٦)، التاريخ الأندلسي صـ١٢٧.
(٧) نفح الطيب (١/ ٢٨٣).
(٨) معالم الإيمان (١/ ٢٠)، التاريخ الأندلسي ص١٢٨.
(٩) الشرف والتسامي للصَّلاَّبي صـ٢٨١، قادة فتح المغرب (١/ ٢٢١ ـ ٣٠٩).

فقال له موسى: مالك يا على لا تتكلم؟ فقال: أصلح الله الأمير، قد قال القوم، فقال: وقل أنت أيضاً. فقال: أنا أقول ـ وأنا أنصح القائلين لك ـ إنه ما من دار امتلأت حبرة إلا امتلأت عبرة، وما انتهى شيء إلا رجع، فارجع قبل أن يرجع بك، فانكسر موسى بن نصير وخشع وفرق جوارى عدة. . وقال صاحب الرياض: ونفعه الله -عز وجل- بموعظة أبى عبد الله بن رياح، فصغرت عنده الدنيا وما فيها ونبذها وانخلع مما كان فيه من الإمارة[1]، فرضى الله عن التابعى الجليل، والإدارى الحازم، والبطل المغوار، والقوى الأمين، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمى، الذى فتح المغرب الأقصى، واستعاد فتح المغرب الأوسط، ودعم الفتح الإسلامى فى الشمال الإفريقى، وفتح الأندلس وقسمًا من جنوب فرنسا وكان من أعظم قادة الفتح الإسلامى[2]، لقد مات موسى بن نصير بعد أن ملأ جهاده ـ بقيادة المد الإسلامى المبارك ـ وديان المغرب الإسلامى «الشمال الإفريقى والأندلسى» وجباله وسهوله وهضابه ووجه دعاة الحق لإسماع ساكنيه دعوة الإسلام الخالدة، فكانت سببًا فى إخراجهم من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، أما ترى معى موسى وهو يجوب الصحارى والوديان والسهول والجبال -وقد سلخ من سنى عمره خمسًا وسبعين سنة- ممتطيًا جواده يتحرك فى أعماقه إيمان بالله العلى القدير قد دفعه للجهاد والدعوة والعلم والتربية وإحكام أمور الدولة، رغم ما علا رأسه من الشيب الوقور، منقاد لإصرار العقيدة السمحة، وهمة الإيمان الفتى[3]، التى كانت سببًا فى كل خير أصاب المسلمين.

أما عن البطل الكبير طارق بن زياد، فلا نكاد نعرف ما حدث له بعد وصوله دمشق، غير أن رواية تذكر رغبة سليمان فى تولية طارق الأندلس[4]، وبعد ذلك قضى آخر أيامه مغمورًا[5] فهل عاد إلى المغرب والأندلس؟ أم بقى فى دمشق؟ ولا يستبعد أن يكون عاد إلى الأندلس أو المغرب[6]، كان طارق من البربر، وعامّة جنوده كذلك، فيهم شجاعة وإقدام، فقد تربوا فى أحضان الإسلام، وعلى تعاليم القرآن الكريم، وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال، وقدموا فى سبيل دينهم وعقيدتهم الغالى والنفيس، بل نجزم بأن الجيوش الإسلامية الضاربة التى اصطدمت بالإسبان اعتمدت -بعد الله- على

---

(١) رياض النفوس (١/١١٩، ١٢٠) .
(٢) قادة فتح المغرب (١/ ٢٢١ ـ ٣٠٩) .
(٣) التاريخ الأندلسى صـ١٢٨ .
(٤) نفح الطيب (٣/١٣) .
(٥) المصدر نفسه (٣/١٤)، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٠٩.
(٦) التاريخ الأندلسى صـ١٢٨.

إخواننا من البربر الذين اندفعوا خلف طارق فى سبيل هذا الدين ونشره، إن العقيدة الإسلامية صهرت المنتسبين إليها عربًا وعجمًا فى رحاب الإسلام العظيم[١].

١١ ـ الأندلس بعد موسى بن نصير:

تولى الأندلس منذ عودة موسى بن نصير إلى دمشق وحتى قيام الإمارة الأموية سنة ١٣٨ حوالى عشرين أميرًا، كان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير الذى ألقى أبوه بزمام الأندلس بين يديه، وكان خير خلف لخير سلف، فقد ضبط الأمور وسد الثغور، وافتتح مدائن كثيرة، وكان من خيرة الولاة[٢]، ولكن لم تطل مدة عبد العزيز فى حكم الأندلس، فقد قتله بعض جنده غيلة لأشياء نقموها عليه، وكان ذلك فى مستهل رجب سنة ٩٧هـ[٣]، وأعقب مقتل عبد العزيز بن موسى فترة من الاضطراب، ومكث أهل الأندلس شهورًا لا يجمعهم والٍ. حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير[٤]، وكان أيوب رجلاً صالحًا فاضلاً، ولكن مدة ولايته لم تطل، ويبدو أن الناس هناك هم الذين نصبوه ليدبر الأمور حتى تعين الخلافة واليًا من قبلها، وقد عينت الحر بن عبد الرحمن الثقفى، الذى كان أهم أعماله نقل مقر إمارة الأندلس من إشبيلية ـ حيث كان يحكم عبد العزيز بن موسى ـ إلى قرطبة[٥]. كما كانت له غزوات تجاوز بها حدود بلاد الأندلس إلى بلاد الفرنجة ونواحى أربونة، فسبى وغنم وقفل بالأسارى والغنائم[٦]، وقد أدى انشغال الحر الثقفى بالغزو فى الشمال الشرقى إلى انتعاش حركة المقاومة المسيحية، فى المنطقة التى لم يتمكن المسلمون من فتحها وهى المنطقة الشمالية الغربية بزعامة بلاى[٧]، مما اضطره إلى العودة للقضاء على تلك المقاومة، وبينما هو مشغول بذلك عزله الخليفة عمر بن عبد العزيز ٩٩ ـ ١٠١هـ وعين مكانه السمح بن مالك الخولانى ١٠٠ ـ ١٠٢هـ[٨].



(١) فاتح الأندلس طارق بن زياد صـ٤٥، ٤٦ .
(٢) البيان المغرب (٢/ ٢٤)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٢٠ .
(٣) البيان المغرب (٢/ ٢٤) . (٤)، (٥) المصدر نفسه (٢/ ٢٥) .
(٦) المسلمون فى المغرب والأندلس د. محمد زينون (١/ ١٩٣) .
(٧) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس د. مختار العبادى صـ٤٠، ٤١ .
(٨) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٢١ .

المبحث الثالث

فتوحات المشرق

أولاً: فتوحات المهلب بن أبى صفرة:

كوفئ المهلب بن أبى صفرة على إخلاصه للدولة وتفانيه فى محاربة الخوارج بتوليته أميرًا على خراسان عام ٧٨ هـ بناء على توصية الخليفة عبد الملك، فنزل العاصمة مرو، ثم أخذ يعيد الهدوء والأمن والنظام إلى البلاد، ولأول مرة بعد أربع عشرة سنة، تمّ إرسال جحافل المسلمين من جديد نحو الشرق إلى بلاد تركمان سنة ٨٠ هـ[(١)]، فعبر المهلب بنفسه نهر بلخ «سيحون» ونزل كش[(٢)]، ثم جعل يغزو البلاد غزوًا متواصلاً لا يفتر عن الجهاد، فخيل له بسمرقند، وأخرى ببخارى، وثالثة بطخارستان، ورابعة ببست[(٣)]، وكان كلما فتح فتحًا أخرج الخمس لبيت المال وأرسله إلى الحجّاج، ويقسم الباقى بين أصحابه[(٤)]، وكان على مقدمته أبو الأدهم الزمانى فى ثلاثة آلاف وهو فى خمسة آلاف، ووجه المهلب ابنه يزيد إلى بلاد الختل، وملكها الشبل بناء على ترغيب ابن عم الملك، وفى بلاد الختل تمكن الملك الشبل من ابن عمه فقتله، أما يزيد بن المهلب، فقد استطاع تحقيق أهداف الحملة، فقد اضطره إلى المصالحة ودفع الفدية، بعد أن هزمه عسكريًا وقام بمضايقته فى حصار قلعة الشبل، وأرسل ابنه الثانى حبيب إلى رابنجن، فوافى صاحب بخارى فى أربعين ألفًا، فقام قسم من أهالى بخارى بالهروب والاختباء بإحدى القرى فاجتثهم وعاد حبيب إلى أبيه منتصرًا[(٥)].

١ ـ وفاة المهلب:

كان المهلب من التابعين، فقد ولد عام الفتح الذى كان سنة ثمان من الهجرة، ومات سنة ٨٢ هـ فى ولاية خراسان، وكان يقال: ساد الأحنف بحلمه، ومالك بن مسمع بمحبته للعشيرة، وقتيبة بدهائه، وساد المهلب بهذه الخلال جميعًا[(٦)]. وكان سيدًا جليلاً نبيلاً خطيبًا شجاعًا فقيهًا، وكان على جانب عظيم من السخاء والكرم، ومما يدل على كرمه أنه أقبل

---

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ١٣٨).   (٢) المصدر نفسه (٣/ ١٣٨).

(٣) بست: مدينة عظيمة من سجستان وهراة، تقويم البلدان (٣/ ٦٢٥).

(٤) الفتوح لابن أعثم (٧/ ٥٨).

(٥) الكامل فى التاريخ (٣/ ١٣٨)، تجديد الدولة الأموية صـ١٦٧.

(٦) قادة فتح السند وأفغانستان صـ١٩٢.

يومًا في بعض غـزواته فتلقتـه امرأة فقالت له: أيهـا الأمير، إني نذرت إن أقـبلت سالمًا أن أصوم شهرًا وتهب لي جارية وألف درهم، فضحك المهلب وقال: قد وفينا نذرك فلا تعودى لمثله، فليس كل أحد يفي لك به[1]. ووقف رجل فقال: أريد منك حُويجة. فقال المهلب: أطلب لها رُجيلًا، يعنى أن مثلى لا يسأل إلا عن حاجة عظيمة[2]، وكان حليمًا؛ من أخبار حلمه أنه مرّ يـومًا بالبصرة، فسـمع رجلاً يقول: هذا أعور قد سـاد الناس، ولو خرج إلى السوق لا يسـاوى أكثـر من مائة درهم، فبـعث إليه المهلب بمائة درهم وقـال: لو زدتنا فى الثمن لزدناك فى العطية[3]، وكان قـد فقئت عينه بسـمرقند[4]، وكان بليغًـا فى كلامه، حكيمًـا فى آرائه، له كلمات لطيـفة وإشارات مليـحة تدل على مكارمـه ورغبتـه فى حسن السمعة والثناء الجميل، ومن ذلك قوله: الحـياة خير من الموت، والثناء خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه أحـد لأحببت أن تكون لى أذن أسمع بها مـا يقال فىَّ غدًا إذا مت[5]، وقيل يومًـا للمهلّب: ما خيـر المجالس؟ فقال: مـا بعد فيه مـدى الطرف، وكثر فيـه فائدة الجليس. وقال يومًا: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلى أخلاقه نسيان ما أسرّ إليه[6].

٢- وصيته لأبنائه حين حضرته الوفاة:

دعا ابنه حبيبًا ومن حضره من ولده، ودعا بسهام فحزمت، ثم قال: أفترونكم كاسريها مجتمعة؟ قالوا: لا. فقال: أفترونكم كاسـريها متفرقة؟ قالوا: نعم. قال: فهكذا الجماعة، فأوصـيكم بتـقوى الله، وصلة الرحم، فـإن صلة الرحم تنسئ فى الأجل، وتثـرى المال، وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة؛ فإن القطيعة تعقب النار، وتورث الذلة والقلّة، فتحابوا وتواصلوا وأجمـعوا أمـركم ولا تختلفوا، وتـباروا تجتـمع أموركم. إن بنى الأم يخـتلفون فكيف ببنى العَلات؟ وعليكم بالطاعـة والجماعة، ولتكن فعالكم أفـضل من قولكم، فإنى أحبّ للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه، واتقوا الجواب وزلة اللّسان فإن الرجل تزلّ قدمه فينتعـش من زلّته، ويزلّ لسانه فيهلك. اعرفوا لمن يغشـاكم حقّه، فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له، وآثروا الجود على البخل، وأحـبوا العرب واصطنعوا العرف، فإن الرجل من العـرب تَعده العِـدة فيـموت دونك، فكيف الصنيـعة عنده؟ عليكم فـى الحرب

(١) قادة فتح السند وأفغانستان ص ١٩٢.

(٢) البخلاء للجاحظ صـ١٣٣، نقلاً عن قادة فتح السند صـ١٩٢.

(٣) قادة فتح السند، نقلاً عن سرح العيون صـ١٠٧.

(٤) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٤)، قادة فتح السند صـ١٩٣.

(٥) وفيات الأعيان (٤/ ٤٣٤).

(٦) قادة فتح السند وأفغانستان ص١٩٣.

بالأناة والمكيدة، فإنها أنفع فى الحرب من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخذ الرجل بالحزم فظهر على عدوه قيل: أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فَحُمد، وإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرّط ولا ضيّع، ولكن القضاء غالب، وعليكم بقراءة القرآن وتعلم السنن وأدب الصالحين، وإياكم والخفة وكثرة الكلام فى مجالسكم[1].

وبعد وفاة المهلب ولى الحجّاج ابنه يزيد خراسان، فقام يزيد عام ٨٤هـ بفتح قلعة باذنجس[2]، التى كان يتزلها نيزك، بعد أن وضع عليه العيون، وتأكد من خلو القلعة بخروج نيزك منها، فسار إليها وحاصرها فتم له فتحها، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر، وكانت القلعة على جانب كبير من المنعة بحيث إن صاحبها ينْزك كان يسجد لها[3]، وعزل الحجّاج يزيد بن المهلب وعين أخاه المفضل على ولاية خراسان عام ٨٥هـ فولى المفضل البلاد تسعة أشهر قام خلالها بغزو باذنجس، ففتحها وأصاب منها مغنمًا، فقسم المغانم بين المقاتلين، فأصاب كل رجل منهم ثمانمائة درهم، ثم غزا المفضل أخرون وثومان، فظفر وغنم، وكان يقسم الأموال مباشرة لعدم وجود بيت مال عنده[4].

وفى عام ٨٦هـ عين الحجّاج قتيبة بن مسلم على خراسان[5]. وقبل الحديث عن قتيبة وفتوحاته لابد من الإشارة إلى فتوحات سجستان.

٣- سجستان:

ولى الخليفةُ عبدُ الملك، أميةَ بنَ عبد الملك بن خالد بن أسيد بن أبى العيص، فوجه هذا ابنه عبد الله فصالحه رتبيل القائم على ثلاثمائة ألف درهم، ولما بلغ الخليفة ذلك عزله، ثم ولى الحجّاج عام ٧٨هـ عبيد الله بن أبى بكرة فلبث سنة بلا غزو، وفى السنة التالية تحرك لمناجزة رتبيل الذى كان مصالحًا، ولكنه يؤدى الخراج حينًا ويمنع حينًا آخر، فقام عبيد الله ابن أبى بكرة عام ٧٩هـ، بالمضى إليه غازيًا حتى دخل بلاده، فأصاب منها الغنائم وهدم الحصون وغلب على أرض من أراضيهم، وهرب أتباع رتبيل من الترك أمام جحافل المسلمين، حتى اقتربوا من عاصمتهم كابل، فأخذ الترك على المسلمين الشعاب والمسالك، فسقط فى أيديهم المسلمون حتى شعر الجنود المسلمون بالضيق والهلاك، مما دفع عبيد الله

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٥١).
(٢) المصدر نفسه (٧/ ٢٢٥، ٢٨٤).
(٣) المصدر نفسه (٧/ ٢٨٥).
(٤) تجديد الدولة الأموية صـ١٦٨، تاريخ الطبرى (٧/ ٢٩١).
(٥) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٢٣).

بن أبى بكرة إلى مصالحة رتبيل ليمكن للمسلمين الخروج من أرض الترك سالمين[١]، وكان بين المقاتلين أحد الزهاد ممن يعشق الجهاد، ويعرف باسم شريح بن هانئ، فقام شريح ودعا الجنود إلى الاستمرار فى القتال لطلب الشهادة، ومما جاء فى دعوته: يا أهل الإسلام، من أراد منكم الشهادة فإلىَّ. فاتبعه أُناس من المتطوعة وفرسان الناس، وأهل الحفاظ، فقاتلوا الترك حتى أصيبوا إلا قليلاً، وعادوا من بلاد رتبيل فاستقبلهم الناس بالأطعمة، فكان أحدهم إذا أكل وشبع مات، وبذلك لم تحقق هذه الغزوة أهدافها العسكرية، مما دفع الحجّاج إلى استئذان الخليفة عبد الملك بإرسال جيش جديد[٢]، يعيد للدولة هيبتها ومكانتها[٣]، فأعد الحجّاج فى عام ٨٠هـ جيشًا قويًا من أهل الكوفة بلغ عدد عسكره أربعين ألفًا، عشرون ألفًا من الكوفة ومثلهم من البصرة، وتشجيعًا للجنود ورفعًا لروحهم المعنوية أعطاهم أعطياتهم مسبقة، وأنفق فيها الأموال، وأنجدهم بالخيل والسلاح، حتى سمى هذا الجيش «جيش الطواويس»، فقد بلغت الأموال التى أنفقها على تجهيزه -سوى الأعطيات- مليونى درهم[٤]، واختار لهذا الجيش الكبير عبد الرحمن بن الأشعث الذى سار بهم حتى وصل سجستان[٥]. وقد تحدثنا عن هذا الجيش وما قام به من حروب أهلية عند دراستنا لثورة عبد الرحمن بن الأشعث.

ثانيًا: فتوحات قتيبة بن مسلم فى بخارى وسمرقند وغيرهما:

هو قتيبة بن مسلم الباهلى الأمير أبو حفص، أحد الأبطال والشجعان، ومن ذوى الحزم والدهاء والرأى والغَنَاء، وهو الذى فتح خوارزم وبخارى وسمرقند، وكانوا قد نقضوا وارتدوا. ثم إنه افتتح فرغانة، وبلاد الترك فى سنة ٩٥هـ[٦]، وولى خراسان عشر سنين، وله رواية عن عمران بن حصين، وأبى سعيد الخدرى[٧]، ولم ينل قتيبة أعلى الرتب بالنسب، بل بكمال الحزم والعزم والإقدام، والسَّعد، وكثرة الفتوحات، ووفور الهيبة[٨].

تولى قتيبة خراسان بعد المفضل بن المهلب، وكان من الأبطال الشجعان ذوى الحزم والدهاء والرأى والغناء، ويعتبر -بحق- من أعظم القادة الفاتحين، الذين عرفهم التاريخ الإسلامى عامة وتاريخ الدولة الأموية خاصة[٩]، ففى عشر سنين فتح أقاليم شاسعة، وقد

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٢١٩).
(٢) المصدر نفسه (٧/ ٢٢٣).
(٣)، (٤) المصدر نفسه (٧/ ٢٢٤)، تجديد الدولة الأموية ص١٦٩.
(٥) تاريخ الطبرى (٧/ ٢٢٤).
(٦)، (٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤١٠).
(٨) المصدر نفسه (٤/ ٤١١).
(٩) العالم الإسلامى فى العصر الأموى ص٣٤١.

هدى الله على يديه خلقًا لا يحصيهم إلا الله، فأسلموا ودانوا لله عز وجل[1]، وكانت بداية فتوحاته عندما وصل لخراسان، فقد جمع الناس وخطبهم قائلاً: إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة، والعدو وقمًا - أى ذلاً- ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١] ثم أخبر عمن قتل فى سبيله أنه حى مرزوق، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم، وإياى والهوينى[2]، بهذه الخطبة الموجزة ذكر قتيبة المسلمين برسالتهم، ومسئولياتهم تجاهها، وأهاب بهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المشقة فى سبيل الله، وأن يسيروا فى طريق إسلامهم طريق الجهاد، والعزة فى الدنيا والفوز بالجنة فى الآخرة[3]، وشرع قتيبة فى الفتوحات وفتح منطقة ما وراء النهر، ثم عبر نهر سيحون وفتح أقاليم كبرى، حتى وصل كاشغر، متاخمًا بذلك حدود الصين، وأهم المراحل الكبرى فى هذه الفتوحات:

المرحلة الأولى: استعادة الطالقان[4] والصغانيان وطخارستان[5]:

عرض قتيبة جنده وحثهم على الجهاد وسار غازيًا، فلما كان بالطالقان أتاه دهاقين (بلخ) وساروا معه، فقطع نهر «جيحون» فتلقاه ملك (الصغانيان) بهدايا ومفاتيح من ذهب، ودعاه إلى بلاده وسلّمها إليه، لأنّ ملك شومان[6] وأخرون[7]، كان يسيء جواره، وسار قتيبة منها إلى أخرون وشُومان وهما من الصَغَانيان، فصالحه ملكها على فدية أداها إليه، فقبلها قتيبة ثم انصرف عائدًا إلى (مرو) واستخلف على جنده أخاه صالح بن مسلم، ففتح

(١) البداية والنهاية، نقلاً عن العالم الإسلامى صـ٣٤١ . (٢) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٢٣) .
(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٤٣ .
(٤) بلد فى خراسان بين مرو الروذ وبلخ .
(٥) طخارستان: ولاية واسعة تشمل عدة بلاد وهى من نواحى خراسان .
(٦) شومان: بلد الصغانيان من وراء نهر جيحون معجم، البلدان (٥/ ٣١٠) .
(٧) أخرون: الظاهر أنها مدينة قريبة من شومان .

صالح بعد رجوع قتيبة (كاشان)[1] وأورشت[2]، وفتح أخسيكت[3] وهى مدينة (فرغانة)[4] القديمة[5]، بهذا الفتح الكبير، استهل قتيبة ولايته لخراسان سنة ٨٦هـ[6].

المرحلة الثانية: فتح إقليم بخارى (٨٧ ـ ٩٠هـ):

كانت أول مدينة غزاها فى هذا الإقليم، هى مدينة بيكند، يقول الطبرى: إن قتيبة لما صالح نيزك، أقام إلى وقت الغزو ثم غزا فى تلك السنة - ٨٧هـ - فقطع النهر وسار إلى بيكند، وهى أدنى مدائن بخارى إلى النهر، فلما نزل قريبًا منها استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم، فأتوهم فى جمع كثير، وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول، ولم يصل إليه رسول، ولم يعرف له خبر شهرين، وأبطأ خبره على الحجّاج، فأشفق الحجّاج على الجند، فأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد، وكتب بذلك إلى الأمصار، وهم يقتتلون كل يوم، فكانت بين الناس مشاولة[7]، ثم تزاحفوا والتقوا وأخذت السيوف مأخذها، وأنزل الله على المسلمين الصبر، ثم منح الله المسلمين أكتاف أعدائهم فانهزموا يريدون المدينة، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا، وركبهم المسلمون قتلاً وأسرًا كيف شاءوا، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهم قليل، فوضع قتيبة الفَعَلَة فى أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم، واستعمل عليها رجلاً من بنى قتيبة[8]، ولكنهم سرعان ما نقضوا الصلح، وقتيبة منهم على خمس فراسخ، فرجع إليهم، وقتل من كان فى المدينة، وغنم غنائم كثيرة، ورجع قتيبة إلى مرو، وقوى المسلمون، فاشتروا السلاح والخيل.. وتنافسوا فى حسن الهيئة والعدة[9]، واستمرت حملات قتيبة على إقليم بخارى فى هذه المرحلة بصفة منظمة كل سنة، وكان غزوه يتم فى فصل الصيف، فإذا دخل الشتاء عاد إلى مرو، وفى سنة ٨٨هـ ترك أخاه بشارًا على مرو وعبر النهر ففتح نومشكت ورامشنة من أعمال بخارى صلحًا بناء على طلب أهلها[10]، ولكن هاله حلف من أهل فرغانة والصغد فى مائتى ألف عليهم ابن أخت ملك الصين ـ كور مغايون ـ وواضح من هذا التجمع الكبير أن الأمم فى هذه المناطق قد تداعت وتحالفت على المسلمين، ولكن الله نصر قتيبة وجنده على

---

(١) كاشان: مدينة فيما وراء النهر، معجم البلدان (٧/ ٢٠٧).

(٢) أورشت: مدينة من مدن فرغانة.

(٣) أخسيكت، اسم مدينة مما وراء النهر.

(٤) فرغانة: مدينة متاخمة لبلاد تركستان

(٥) معجم البلدان (٢/ ٨٥).

(٦) قادة الفتح الإسلامى فى ما وراء النهر صـ٣٧٨.

(٧) المشاولة: القتال بالرماح.

(٨) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٣١).

(٩) المصدر نفسه (٧/ ٣٣٢).

(١٠) المصدر نفسه (٧/ ٣٣٦، ٣٣٧).

هذا الحلف، ثم عاد إلى مرو[1]، وفى عام ٨٩هـ استأنف قتيبة فتوحاته وقصد بخارى هذه السنة بناء على أوامر الحجّاج، فلقيه فى طريقه جمع من أهل كش ونسف، فظفر بهم ومضى إلى بخارى، فتصدى له ملكها ـ وردان خذاه ـ فلم يستطع الاستيلاء عليها، فرجع إلى مرو، وكتب إلى الحجّاج يخبره، فطلب منه الحجّاج أن يصورها له، فبعث إليه بصورتها، فنصحه وأمده وعرفه الموضع الذى يأتيها منه، وأمره بالمسير إليها، فسار إليها سنة ٩٠هـ، ومع أن وردان خذاه كان قد استجاش الصغد والترك ليساعدوه فى التصدى لقتيبة، إلا أنه تمكن من الانتصار عليهم بعد معارك شرسة، واستولى على بخارى، وكتب بالفتح إلى الحجّاج[2]، وبهذا استكمل قتيبة فتح إقليم بخارى كله فى ثلاث سنوات.

المرحلة الثالثة من ٩٠ ـ ٩٣هـ، فتح سمرقند:

وهى المرحلة التى فرض فيها قتيبة السيادة الإسلامية على حوض نهر جيحون وتوج عمله فيها بالاستيلاء على مدينة سمرقند، أعظم المدائن فى بلاد الصغد، وكان طرخون ملك الصغد، قد أرسل إلى قتيبة بعد انتصاره فى معركة بخارى سنة ٩٠هـ يطلب الصلح[3]، فأجابه قتيبة وصالحه، ورجع قتيبة[4]، وفى سنة ٩١هـ كان غدر نيزك ـ صاحب قلعة باذغيس ـ وتأليبه ملوك طخارستان ورتبيل ملك سجستان على المسلمين، وقد نكل به قتيبة وغزا سجستان من الشمال، وربما كانت تلك أول مرة يغزو فيها قتيبة سجستان، وربما كان قد أراد تأديب رتبيل ملكها لانضمامه إلى نيزك فى غدره، ولكن رتبيل قدر العواقب وطلب الصلح فقبل قتيبة وصالحه، وانصرف عائداً إلى مرو، وترك عبد ربه بن عبد الله بن عمير الليثى عاملاً على سجستان[5]، وقد توج قتيبة فتوحاته فى هذه المرحلة بفتح سمرقند، وهى أعظم مدائن ما وراء النهر، والذى دعاه إلى ذلك أن طرخون ملكها كان قد نقض الصلح الذى أبرمه معه قتيبة سنة ٩٠هـ، وامتنع عن دفع ما كان قد صالح عليه، فقرر قتيبة أن يضع حداً لهذا العبث، فجمع جنده وأخبرهم بنقض طرخون الصلح وبعزمه على فتح سمرقند بالقوة، وجهز أخاه عبد الرحمن بن مسلم فى عشرين ألف مقاتل وأمره بالسير أمامه، ثم تبعه هو فى أهل خوارزم وأهل بخارى وضرب عليها الحصار وقال: إنا إذا نزلنا بساحة قوم «فساء صباح المنذرين»[6]، متيمنًا بقول رسول ﷺ

---

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٣٧).

(٢) المصدر نفسه، نقلاً عن العالم الإسلامى صـ٣٤٦.

(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٤٦.

(٤) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٥) المصدر نفسه، (٧/ ٣٦٩).

(٦) المصدر نفسه، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٤٨.

عندما حاصر خيبر، فلما رأى أهل سمرقند أن مدينتهم قد حوصرت خافوا طول الحصار فكتبوا إلى ملوك الشاش وفرغانة يستغيثونهم، ويحرضونهم على المسلمين، وقالوا لهم: إن العرب إذا ظفروا بنا عادوا عليكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم[1]، فاستجاب هؤلاء الملوك لنداء أهل سمرقند واختاروا عددًا من أولادهم ومن أهل النجدة والبأس من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال، وأمروهم أن يفاجئوا قتيبة فى معسكره، وهو مشغول بحصار سمرقند، ولكن قتيبة كان يقظًا باثًا عيونه ولم يغب عن باله حدوث مثل هذه المفاجآت، فعلم بخبرهم، وأرسل لهم فرقة من جنده بقيادة أخيه صالح بن مسلم، فبدد شملهم وقتلهم ولم يفلت منهم إلا الشريد، وغنم المسلمون أمتعتهم وأسلحتهم[2]، فلما رأى الصغد ما حل بهؤلاء انكسروا، وضيق عليهم قتيبة الخناق، ونصب المنجنيق على المدينة، واستطاع إحداث ثلمة فيها، وصاح صيحة الأسد: حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان؟! أما والله لئن أصبحت لأحاولنّ من أهلك أقصى غاية، فلما أصبح أمر الناس بالجد فى القتال فقاتلوهم، واشتد القتال، وأمرهم قتيبة أن يبلغوا ثلمة المدينة، ورماهم الصغد بالنشاب فلم يبرحوا، فأرسل الصغد إلى قتيبة، فقالوا له: انصرف عنا اليوم، حتى نصالحك غدًا، فقال: لا نصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة.. فصالحهم من الغد على ألفى ألف ومائتى ألف مثقال فى كل عام، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس وأن يخلو له المدينة فلا يكون فيها مقاتل، فيبنى فيها مسجدًا، ويدخل ويصلى ويخطب ويتغذى ويخرج[3]. دخل قتيبة سمرقند وحطم ما بها من الأصنام ولم يعبأ بمن خوفه منها، حيث قال له أحدهم مدعيًا نصيحته: لا تتعرض لهذه الأصنام فإن منها أصنامًا من أحرقها أهلكته، فقال له: أنا أحرقها بيدى، فأمر بإشعال النار، وكبر ثم أحرقها، فوجدوا من بقايا مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال[4]، وبعد أن أتمّ قتيبة هذا الفتح العظيم عاد إلى مرو، لكى يستريح، ثم يستعد لجولته الأخيرة، التى سيفتح فيها المناطق السيحونية[5].

المرحلة الرابعة: أقاليم الشاش وفرغانة وكاشغر (٩٤هـ ـ ٩٦هـ):

وهى المرحلة التى فتح الله فيها على يديه أقاليم الشاش وفرغانة وكاشغر، وقد بدأ هذه المرحلة سنة ٩٤هـ، حيث سار فى موعد غزوه ـ فى الصيف ـ ومعه عشرون ألفًا من أهل

(١) تاريخ الطبرى، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٤٨ .

(٢) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٤٨ .

(٣) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٧٧) . (٤) المصدر نفسه (٧/ ٣٧٧) .

(٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٤٩ .

بخارى وكش ونسف، وخوارزم[١]، فوجه قسمًا منهم إلى الشاش، وتوجه هو بالقسم الآخر إلى فرغانة، حيث دار بينه وبين الترك قتال عنيف حول مدينة خجنده، ويبدو أن نتيجة المعركة لم تكن حاسمة، حيث توجه قتيبة إلى كاشان قبل أن يحسم أمر خجنده، وهناك أتاه جنوده الذين كان قد أرسلهم إلى الشاش، ويبدو أن قتيبة قد وجد مقاومة شرسة من الأتراك فى هذه البلاد، فقد كتب إلى الحجّاج يطلب مددًا، فأرسل إليه جيشًا من العراق[٢]، ثم أمر محمد بن القاسم الثقفى أن يوجه إليه من السند مددًا[٣] أيضًا، فإمداد قتيبة بهذه الجيوش من العراق ومن السند[٤]، فوق ما معه من قوات كبيرة، يدل على قوة المقاومة التى لقيها فى أقاليم سيحون، كما يدل على قوة عزم المسلمين فى الجهاد، وأنه أراد أن يكون متفوقًا عليهم، حتى يحقق هدفه، وقد نجح بالفعل وفتح أقاليم الشاش وفرغانة ٩٥هـ[٥]، وبعد أن أتم هذا الفتح الكبير، جاءته الأخبار بموت الحجّاج فى شوال فى تلك السنة، فاغتم لموته، لما كان يجد منه من التأييد والتشجيع والمساندة، وقفل راجعًا إلى مرو، وتمثل قول الحطيئة:

لعمرى لنعم المرء من آل جعفر ... بحوران أمسى أعلقته الحبائل

فإن تحيا لا أملل حياتى وإن تمت ... فما فى حياة بعد موتك طائل[٦]

عاد قتيبة إلى مرو وقد ترك حاميات من جنده فى بخارى وكش ونسف، وانتظر ما تأتى به الأقدار بعد موت الحجّاج. وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعرف طبيعة العلاقة بين الحجّاج وقتيبة، وأن للحجّاج دورًا كبيرًا فى نجاح قتيبة فى مهمته، فقدر وقوع نبأ موت الحجّاج عليه، لذلك واساه وأرسل إليه رسالة كلها تشجيع وثناء وتزكية، قال له فيها: قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك فى جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذى يجب لك، فأتمم مغازيك، وانتظر ثواب ربك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، كأنى أنظر إلى بلادك والثغر الذى أنت فيه[٧].

ـ فتح كاشغر وغزو الصين:

أحدثت رسالة الخليفة الوليد بن عبد الملك أثرًا طيبًا فى نفس قتيبة، وأعطته دفعة قوية من العزم والتصميم، فتوجه من مرو ليواصل فتوحاته، فقصد مدينة كاشغر التى يقول عنها

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٨٥) .
(٢) المصدر نفسه (٧/ ٣٨٦) .
(٣) المصدر نفسه (٧/ ٣٨٧) .
(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٤٩ .
(٥)، (٦) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٩٤).
(٧) المصدر نفسه (٧/ ٣٩٥)

الطبرى: إنها أدنى مدائن الصين[1]، ومع أن الوليد بن عبد الملك قد توفى فى جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ، وصل نبأ وفاته إلى قتيبة وهو فى فرغانة[2]، وقبل أن يصل إلى كاشغر، إلا أنه واصل سيره حتى فتحها، وهنا جاءه رسول ملك الصين يطلب منه أن يوجه إليه وفداً ليعرف خبرهم، فاختار قتيبة عشرة ـ وقيل اثنى عشر ـ من خيرة رجاله برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابى، فأرسلهم إلى ملك الصين. . ويقص الطبرى خبر هذه السفارة فى حديث طويل، نكتفى منه بما انتهى إليه الحوار مع ملك الصين، حيث قال لهم مهدداً: . . فانصرفوا إلى صاحبكم، فقولوا له ينصرف، فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه، فرد عليه هبيرة فى شجاعة المؤمن وعزته فقال له: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك، وآخرها فى منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصًا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه، ولا نخافه. أعادت هذه المقالة ملك الصين إلى صوابه، وأيقن أنه أمام قوم لا يجدى معهم التهديد ولا الوعيد فاعتدل فى كلامه، وقال لهبيرة: فما الذى يرضى صاحبكم؟ قال: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملوككم، ويعطى الجزية، قال: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها، قال: فدعا بصحائف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل قتيبة الجزية، وختم الغلمان وردهم، ووطئ التراب[3]، وهكذا انتهت هذه المرحلة من فتوحات قتيبة، التى طوى فيها أقاليم ما وراء جيحون، ثم عبر نهر سيحون، وفتح فرغانة والشاش، وأشروسنه، وكاشغر، وفرض سيادة الإسلام على ملك الصين، وجعل كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وكان قتيبة قائداً عسكريًا فذا، وبطلاً سياسيًا بارعًا، قهر الصعاب، وتغلب على كل المشاكل التى واجهته، ولم يثنه عن عزمه لا صعوبة الطرق ووعورتها ولا قسوة المناخ وشدته، فقد كان عزمه حديداً، وكان هدفه رشيداً، وغايته عظيمة، والعون من الله مكفول للمخلصين لهذا الدين العظيم[4].

١ ـ جهود قتيبة فى نشر الإسلام:

كان قتيبة ومن معه من الفاتحين يحرصون على دعوة الناس للإسلام، وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، فكان قتيبة يهتم ببناء المساجد فى المدن والقرى والأرياف

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٠١) . (٣) المصدر نفسه (٧/ ٤٠٤) .

(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٥٢.

ويجعل فيها العلماء والفقهاء لتربية الناس وتعليمهم الإسلام، وقام بتسكين المسلمين بين السكان الأصليين، ليطلعوا على تعاليم الإسلام وعادات المسلمين وأخلاقهم عن طريق الاحتكاك بهم، مثل ما حدث مع أهل بخارى[1]، فأظهر الإسلام بهذه الطريقة، وأزال آثار الكفر ورسم المجوسية، وبنى ببخارى المسجد الجامع وأمر المسلمين باداء صلاة الجمعة فيه، ومن أساليب قتيبة فى ترغيب الناس فى الدخول فى الإسلام، أنه كان يأمر بمنادٍ كل يوم يقول بأن كل من يأتى لصلاة الجمعة يعطى درهمين[2]، ويعد هذا العمل طريقة جديدة فى ذلك العهد فى تأليف قلوب الناس للإسلام والحفاظ على الذين اعتنقوه[3]، وكان فى جيشه مجموعة من العلماء، كمحمد بن واسع، والقاضى يحيى بن يعمر، والضحاك بن مزاحم صاحب التفسير، فقد أسهم أمثال هؤلاء فى نشر الإسلام، وكان محمد بن واسع ينافس قتيبة فى بناء المساجد، وقد صاحب عمليه انتشار الإسلام بين سكان ما وراء النهر سرعة تعلمهم اللغة العربية، حيث كان قتيبة يصدر أوامره ببناء المساجد ولم تكن تقتصر على إقامة شعائر الصلاة فقط، وإنما فيها حلقات الدرس فى تعليم القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكان للمساجد والعلماء الذين أشرفوا عليها دور عظيم فى تعليم السكان اللغة العربية[4]، وقد قال ابن كثير عن قتيبة: إنه ما انكسرت له راية، وكان من المجاهدين فى سبيل الله، واجتمع له من العسكر ما لم يجتمع لغيره[5]. وكان من نتائج الجهود التى بذلها قتيبة فى نشر الإسلام، أن أصبحت بخارى وسمرقند وإقليم خوارزم مراكز للثقافة العربية ونشر الإسلام فى آسيا الوسطى، كما كانت مرو ونيسابور فى خراسان، ومنها أيضًا دخول كثير من أهل ما وراء النهر فى دين الله أفواجا، فظهر بينهم عدد من الكتاب والمحدثين والفقهاء والمؤرخين، ممن لا يزال ذكرهم خالدًا، وآثارهم عظيمة فى تاريخ الإسلام[6].

٢ - من حكم قتيبة وأقواله المأثورة:

قوله: ملاك الأمر فى السلطان الشدة على المذنب واللين للمحسن[7]، وكان يقول: الخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة، وإن كانت الجماعة لا تخطئ والفرقة لا تصيب[8]. وخاطب قتيبة الحجاج حين ظفر بأصحاب ابن الأشعث فأراد قتلهم فقال: إن

(١) قتيبه بن مسلم الباهلى، غانم السلطانى صـ ١٣٨.
(٢) تاريخ بخارى للبرسخى صـ ٧٤.
(٣) قتيبة بن مسلم الباهلى صـ ١٣٨ .
(٤) المصدر نفسه صـ ١٤٠.
(٥) البداية والنهاية، نقلا عن قتيبة بن مسلم الباهلى صـ ١٤٠.
(٦) قتيبة بن مسلم الباهلى صـ١٤٠.
(٧) بهجة المجالس، ابن عبد البر (١/ ٣٣٤)
(٨) المصدر نفسه (١/ ٤٥٥).

الله قد أعطاك ما تحب من الظفر، فأعطه مايحب من العفو[1]. وقال: الكامل المروءة من أحرز دينه ووصل رحمه وتوقى مايلام عليه[2].

٣ - مدح الشعراء له:

قال نهار بن توسعة يذكر انتصار قتيبة على الأتراك:

أراك الله في الأتراك حكمًا — كحكم في قريظة والنضير

قضاء من قتيبة غير جور — به يُشفى الغليلُ من الصدور[3]

وقال كعب الأشقرى يمدح قيادة قتيبة:

كل يوم يحوى قتيبة نهبًا — ويزيد الأموال مالا جديدا

باهلىٌ قد أُلبس التاج حتى — شاب منه مفارق كنّ سُودا

دوّخ (الصُّغد) بالكتائب حتى — ترك (الصُّغد) بالعراء قُعودا

فوليد يبكى لفقد أبيه — وأب مُوجَعٌ يبكى الوليدا

كلما حلّ بلدة أو أتاها — تركت خيله بها أخدودا[4]

ونهار بن توسعة هو القائل:

أبى الإسلام لا أب لى سواه — إذا هتفوا ببكر أو تميم[5]

٤- مقتل قتيبة ونهايته ٩٦هـ:

انتهت حياة هذا المجاهد الكبير نهاية حزينة أليمة، فقد مات الخليفة الوليد وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك ٩٦- ٩٩هـ، وكانت العلاقة بين سليمان والحجاج ورجاله -ومنهم قتيبة- غير حسنة، قيل: لأنهم كانوا وافقوا الوليد على خلع أخيه سليمان، وتولية ابنه عبد العزيز بن الوليد[6]، فخشى قتيبة أن يعزله سليمان، فأرسل إليه رسائل يعزيه فى الوليد ويهنئه بالخلافة، ويختبر نواياه نحوه، لكن سليمان لم يعزله، بل أرسل له عهدًا بولاية

(١) قتيبة بن مسلم الباهلى صـ ١٩٨.
(٢) المصدر نفسه صـ ١٩٩.
(٣) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ ٤١٩.
(٤) تاريخ الطبرى، نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى صـ ٤١٩.
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٥٣٧).
(٦) البداية والنهاية (١٢/ ٦١٣).

خراسان[1]، مع رسـول خاص من عنده، تكريمًـا له، ولكن قتيبـة تعجل وخلع طـاعة سليمان قبل وصول ذلك العهد، فـغضب الناس واستنكروا خلع سليمان، وثار الجند على قتيبه، فقتلوه[2] يقول الذهبي: ولما بلغه موت الوليد، نزع الطاعة، فـاختلف عليه جيشه، وقام عليه رئيس تميم وكيع بن حسَّان، وألَّب عليـه، ثم شَدَّ عليه في عشرة في فرسان تميم فقتلوه في ذي الحجة سنة ستٍّ وتسعين، وعاش ثمانيًا وأربعين سنة[3]، وقال ابن كثير في سبب مقتل قتيبة بن مسلم: وذلك أنَّه جمع الجند والجيوش، وعزم على خلع سليمان وترك طاعته، وذكر لهـم همّته وفتوحه وعدله فـيهم ودفعه الأموال الجزيلة إليـهم، فلما فرغ من مقالته، لم يجبه أحد منهم إلى مقالته، فشـرع في تأنيبهم وذمِّهم قبيلة قبيلة وطائفة طائفة، فغضـبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرَّقـوا، وعملوا على مخالفـته، وسعوا في مـقتله، وكان القائم بأعباء ذلك رجل يقـال له: وكيع بن أبي سُود، فجمع له جموعًا كـثيرة، ثم ناهضه فلم يزل به حتى قتله في ذي الحـجة من هذه السنة، وقتل معه أحد عـشر رجلا من إخوته وأبناء إخوته، ولم يبق سوى ضرار بن مسلم، وكانت أُمُّـه الغراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبـد بن سعد بن زُرارة، فحماه أخـواله وعمرو بن مسلم، وكان عامل الجـوزجان، وقتل قتيبة وعـبد الرحمن وعبد الله وعبيد الله وصـالح وبشار، وهؤلاء أبناء مسلم، وأربعة من أبنائهم فـقتلهم كلهم وكـيع بن سُود[4]، وقد كـان قتيبـة بن مسلم، من سـادات الأمراء وخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبراء، والشجـعان وذوي الحروب والفتوحات السعيدة والآراء الحميدة، وقد هدى الله على يديه خلقًا لا يُحـصيهم إلا الله فأسلموا ودانوا لله عز وجل، وفتح من البلاد والأقـاليم الكبار والمدن العظام شيئًا كـثيرًا، كما تقدم ذلك مـفصَّلاً مبيَّنا والله سبحانه لا يضيِّعُ سعيه ولا يخيِّبُ تعـبه وجهاده، ولكن زلَّ زلة كان فيها حتفه، وفعل فعلة رغم فيـها أنفه، وخلع الطاعة فبادرت إليـه المنية، وفارق الجماعة، فمـات ميتة جاهلية، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ماقد يكفِّرُ الله بها عنه من سيئاته، ويمحو عنه من خطيَّاته والله يسامحه ويعفو عنه ويتقبَّلُ منه، ما كان يكابده من مُناجزة الأعداء[5].

٥ - بين قتيبة بن مسلم ومحمد بن واسع: أصبعه أحب إلى قتيبة من ألف سيف شهير:

لما صافَّ قتيـبة بن مسلم للترك، وهاله أمرهم، سأل عن محـمد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يبصبص بأصـبعه نحو السماء. قال: تلك الأصبع أحب

(١) تاريخ الطبري، نقلا عن العالم الإسلامي صـ ٣٥٢.
(٢) الكامل في التاريخ (٣/٢٣٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤١٠).
(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٦١٥).
(٥) المصدر نفسه (١٢/ ٦١٦).

إلىّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير[1]، وهذا فهم راسخ من قتيبة بن مسلم الباهلى لأسباب النصر، ألا وهو التوكل على الله تعالى، وتوثيق الصلة به، واستلهام النصر منه، ولقد عبأ جيشه وتأكد من حسن إعداده، ولكنه بحاجة إلى التأكد مما هو أهم من الإعداد المادى، حيث يتجاوز المسلمون بالسلاح المعنوى حدود التكافؤ المادى فى القُوَى بمراحل عديدة، ولما كان محمد بن واسع فى جيشه سارع إلى السؤال عنه، فلما أخبر بأنه مستغرق فى مناجاة الله تعالى ودعائه، اطمأن قلبه وارتفع مستوى الأمل بالنصر عنده، فقال تلك الكلمات الإيمانية الرفيعة: تلك الأصبع أحب إلىّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير[2]. إن قوى الأرض كلها بيد الله تعالى، وإن النظر إلى القوى المادية من حيث العدد والعُدد والمواقع، إنما هو حسابات البشر، والله جل جلاله قادر على تغيير هذه الموازين فى لحظة، وإن من أهم وسائل استجلاب نصر الله تعالى دعاء الصالحين، فلذلك استبشر قتيبة خيرًا حينما علم باستغراق محمد بن واسع فى الدعاء، وهذا الفهم الرفيع من قتيبة -رحمه الله- يبين لنا سببًا مهما من أسباب انتصاراته الباهرة، التى ظلت تتوالى أكثر من عشر سنوات، فبالرغم من كونه بطلا لا يُشَقّ له غبار، وقائدًا مخططا يضع للأمور أقرانها، وسياسيا محنكًا لا يُخدع، فإنه لم يغتر بكل ذلك، بل اعتبر ذلك كله من الأمور الثانوية، ونظر قبل ذلك إلى مدى توثيق الحبل الذى يصل جيشه بالله تعالى، فلما عرف أن محمد بن واسع قد وصل ذلك الحبل بالدعاء، وبما سبق ذلك من شهرته بالإيمان القوى والعمل الصالح، حصل له اليقين وزال عنه سبب من أسباب الخوف المتمثل فى ضعف الصلة بالله تعالى[3].

إن محمد بن واسع -رحمه الله تعالى- معدود من العلماء الربانيين المشهورين بالزهد والورع والخشوع، وهو مدرسة فى معالجة أمراض النفوس وتطهير القلوب، ومن أقواله النيرة فى الزهد والورع واليقين: إنى لأغبط رجلا معه دينه وما معه من الدنيا شىء وهو راض[4]. وإذا كان محمد بن واسع يغبط أهل الدين المجردين من الدنيا فما أكثر من يغبطون أصحاب الأموال! وما أبعد الفرق بين السابقين بالخيرات والمقصِّرين![5]. وقيل إنه قال لرجل: هل أبكاك قط سابق علم الله فيك؟[6] يعنى أن المقربين مع ما يقومون به من الورع والعمل الصالح يخشون من سابق قدر الله فيهم، حيث يخافون من سوء الخاتمة، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن جل جلاله يقلبها كيف يشاء. وقيل له: كيف

(1) سير أعلام النبلاء (6/121).
(2) المصدر نفسه (6/121).
(3) التاريخ الإسلامى (19/99، 200).
(4) سير أعلام النبلاء (6/121).
(5) التاريخ الإسلامى (19/93).
(6) سير أعلام النبلاء (6/121).

أصبحت؟ قال: قريبًا أجلي بعيدًا أملي، سيئًا عملي[1]. وهذا من عمق الإدراك وقوة تصور ما بعد الموت، وإذا كان محمد بن واسع -الذى قيل عنه: إنه أفضل أهل البصرة فى زمنه- يتهم نفسه بطول الأمل وسوء العمل فكيف بحال المقصرين[2]- أمثالي-؟! وذات يوم قال له رجل: أوصنى، قال: أوصيك أن تكون ملكًا فى الدنيا والآخرة، قال: كيف؟ قال: ازهد فى الدنيا[3] ، وهذه وصية نافعة من طبيب ماهر فى طب القلوب؛ فهذا الرجل يطلب الوصية من محمد بن واسع فيوصيه بأعلى مرتبة تطمح لها النفوس عادة، وهى أن يكون ملكًا فى الدنيا والآخرة، فيتعجب الرجل لأنه لم يرد الدنيا حينما طلب منه الوصية، ثم كيف يجمع بين الأمرين؟ فيكون ملكًا فى الدنيا والآخرة؟! فلذلك استفهم منه استفهام تعجب، فكان جواب ابن واسع له: ازهد فى الدنيا[4]، ومن كلامه التربوى العميق قوله: ما آسى على الدنيا إلا على ثلاث: صاحب إذا اعوججت قوّمنى، وصلاة فى جماعة يُحمَل عنى سهوُها وأفوز بفضلها، وقوتٍ من الدنيا ليس لأحد منه فيه منّة ولا لله علىَّ فيه تَبِعة[5]. فهذا العالم الربانى كان من ضمن جنود الفاتحين الذين نفع الله بهم شعوب المشرق، كأهل بخارى، وسمرقند وخراسان وغيرها.

٦ - المشرق بعد مقتل قتيبة بن مسلم:

لم تحدث فتوحات إسلامية فيما تبقى فى عهد الدولة الأموية فى هذه الجهات بعد فتوحات قتيبة، وتوقفه عن كاشغر على حدود الصين، ذلك لأن الظروف التى مرت بها الدولة الأموية منذ هذا التاريخ، وحتى سقوطها سنه ١٣٢هـ، لم تكن تسمح بذلك. فقد انشغلت بالثورات التى بدأت تهب فى وجهها من جديد مثل ثورات الخوارج وثورة يزيد بن المهلب فى عهد يزيد بن عبد الملك ١٠١ - ١٠٥ هـ كما أن الخلافات نشبت من جديد بين العرب فى خراسان، وفى هذا الجو بدأت الدعوة السرية للرضا من آل محمد، وهى الدعوة التى كان يوجهها العباسيون لمصلحتهم بكتمان ومقدرة رائعة، والتى نجحت فى النهاية فى الإطاحة بالدولة الأموية، كما أن التناحر والتنافس والنزاع قد احتدم بين أبناء البيت الأموى أنفسهم، وأصبحوا يقاتل بعضهم البعض، مما أضعف هيبة الدولة فى عيون الناس، كما أن هذه البلاد نفسها التى فتحها قتيبة لم تكف عن التمرد والثورة ونقض العهود، فأصبح جهد الخلفاء والولاة منصبًا - بعد مرحلة قتيبة - على إخضاع الثائرين والمتمردين وردهم إلى

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢١).
(٢) التاريخ الإسلامى (١٩/ ٩٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢١).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ١٢٠).
(٥) التاريخ الإسلامى (١٩/ ٣٩٤).

الطاعة والنظام[1]، وقد نجحت الدولة الأموية فى ذلك، فهى وإن كانت لم تضف جديدًا إلى فتوحات قتيبة فى هذا الجزء من العالم، إلا أنها لم تتراجع ولم تخسر أرضا، واحتفظت بمواقعها، ونهض الولاة فى هذه المناطق بمسئولياتهم، وهيأوها لقبول الإسلام، وجعلها جزءًا لا يتجزأ من العالم الإسلامى[2].

ثالثًا: محمد بن القاسم الثقفى وفتح السند: (٨٩ - ٩٦)هـ:

كان انتصار المسلمين فى معركة القادسية فى عهد عمر بن الخطاب إيذانًا لهم بفتح السند، فقد استنجد كسرى الفرس ببعض ملوك البلاد المجاورة ومنها مملكة السند، حيث أمده ملك السند بالمال والرجال؛ الأمر الذى اضطر المسلمين لمهاجمة السند ردًا على تدخلهم ضدهم فى معركة القادسية[3] ولذلك فإن البلاذرى يحدثنا عن حملات إسلامية مبكرة على السند كان أولها فى عهد عمر بن الخطاب، وكان ثانيها فى عهد على بن أبى طالب، كما نفهم من رواية البلاذرى أن عثمان بن عفان كان أيضا مهتمًا بتقصى تحركات السند[4]، كما أن البلاذرى يوضح الأسباب التى حولت هذه الحملات إلى فتح منظم للسند فيما يلى:

* اكتشاف تحالف آخر بين السند والترك، حيث لقى المهلب فى عهد معاوية بن أبى سفيان ثمانية عشر فارسًا من الترك ببلاد القيقان بالهند[5]، لذلك تلاحقت حملات معاوية فأغار عبد الله بن سوار وسنان بن سلمة بن المحبق الهذلى فأتى الثغر ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها[6].

* أعمال القرصنة البحرية التى كان يقوم بها الهنود، حيث يذكر البلاذرى أن البوارج الهندية قد استولت على سفينة كانت تحمل نساء مسلمات أرسلهن ملك جزيرة الياقوت هدية إلى الحجاج بن يوسف، فنادت امرأة من تلك النسوة وكانت من يربوع: يا حجاج، وبلغ الحجاج ذلك فقال: يا لبيك، فأرسل إلى داهر يسأله تخلية النسوة. فقال: أخذهن لصوص لا أقدر عليهم[7]، لذلك أرسل الحجاج بن يوسف عبيد الله بن نبهان إلى الديبل

(١) فتوح البلدان للبلاذرى صـ٥٢٣ - ٥٢٧ . (٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٣٥٣ .

(٣) العلاقات السياسية بين الهند والخلافة العباسية، محمد النجرامى صـ٣٠ .

(٤) الحضارة الإسلامية، محمد عاد صـ ٢٩٩، فتوح البلدان صـ ٤٢٠ .

(٥) المصدر نفسه صـ ٢٩٩، فتوح البلدان صـ ٤٢١ .

(٦) فتوح البلدان صـ٤٢٣، الحضارة الإسلامية ص٢٩٩ .

(٧) فتوح البلدان صـ ٤٢٣، ٤٢٤ .

«كراتشى اليوم» فقتل، فكتب إلى بديل بن طهفة البجلى وهو بعمان يأمره أن يسير إلى الديبل، لكن الهنود استطاعوا محاصرته وقتله أيضا[١].

١ - تعيين محمد بن القاسم على ثغر الهند وتجهيزات الحجاج لجيشه:

تبدّى للحجاج مدى الإهانة التى تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر، فاختار محمد بن القاسم، وكان بفارس، وكان قد أمره أن يسير إلى (الرىّ)، فردّه إليه[٢]، وعقد له ثغر (السند)، وضمّ إليه ستة الآف من جند أهل الشام، وجهّزه بكلّ ما احتاج اليه - حتى الخيوط والإبر والمال- وأمره أن يقيم بشيراز حتى يكمل حشد رجاله ويوافيه ما أعدّ له[٣]، واهتمّ الحجاج اهتماما بالغًا بإنجاز استحضارات جيش محمد بن القاسم حتى بلغ بذلك حدّ الروعة حقًا، فلم ينس أصغر التفاصيل الإدارية لإكمال استحضارات هذا الجيش، حتى إنه عمد إلى القطن المحلوج فنُقع فى الخل الأحمر الحاذق، ثم جُفِّف فى الظل، وقال لهم: إذا صرتم إلى (السِّند) فإن الخل بها ضيِّق، فانقعوا هذا القطن فى الماء، ثم اطبخوا به واصطبغوا. ويقال: إن محمداً لما صار إلى ثغر السِّند، كتب يشكو ضيق الخلّ عليهم، فبعث الحجاج إليه بالقطن المنقوع فى الخل.

٢ - المعارك التى خاضها محمد بن القاسم:

مضى محمد إلى مكران فأقام بها أيامًا، ثم أتى فنزبور[٤] ففتحها، ثم أتى أرمائيل[٥] ففتحها أيضا، فقدم (الديبل) يوم جمعة، فوافته هناك سفنه التى كانت تحمل الرجال والسِّلاح والعتاد والمهمات، فخندق حيث نزل (الديبل) وأنزل الناس منازلهم ونصب منجنيقًا يقال له: العروس، الذى كان يعمل لتشغيله خمسمائة من الرجال ذوى الكفاية المدربين على استخدامه، فدكّ بقذائفه معبد الهنادكة الأكبر (البد)[٦]، وكان على هذا البد دقل عظيم، وعلى الدقل راية حمراء إذا هبّت الريح أطافت المدينة[٧]، وحاصر محمد الديبل وقاتل حماتها بشدّة، فخرجوا إليه، ولكنه هزمهم حتى ردهم إلى البلد، ثم أمر

(١) فتوح البلدان صـ ٤٢٤، الحضارة الإسلامية صـ ٢٩٩ .

(٢) فتوح البلدان صـ ٤٢٤، قادة فتح السند صـ ٢١٠ .

(٣) فتوح البلدان صـ ٤٢٤، قادة فتح السند صـ ٢١١ .

(٤) فنزبور: مدينة بين مكران والديبل .

(٥) أرمائيل: مدينة كبيرة بين مكران والديبل من أرض السند .

(٦) البد: هو المعبد، وكل شىء عظموه من طريق العبادة فهو عندهم (بد) .

(٧) فتوح البلدان صـ ٤٢٤ .

بالسلالم فنصبت وصعد عليها الرجال، وكان أولهم صعوداً رجل من بنى مراد من أهل الكوفة، ففتحت المدينة عنوة، فاستباحها محمد ثلاثة أيام، ولكنّ عامل (داهر) ملك السند عليها هرب عنها سالمًا[(١)]، فأنزل فيها محمد بن القاسم أربعة آلاف من المسلمين وبنى عليها جامعها، فكان أول جامع بنى فى هذه المنطقة[(٢)]، وسار محمد عن الديبل إلى النيرون[(٣)]، وكان أهلها بعثوا إلى الحجّاج فصالحوه، فلقوا محمداً بالميرة وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصلح[(٤)]، وسار محمد عن (نيرون) وجعل لايمر بمدينة إلا فتحها، حتى عبر نهراً دون «مهران»[(٥)]، فأتاه أهل (سربيدس)[(٦)] وصالحوه، ففرض عليهم الخراج وسار عنهم إلى (سهبان)[(٧)]، ففتحها ثم سار إلى نهر (مهران) فنزل فى وسطه، وبلغ خبره (داهر) فاستعدّ لمجابهته[(٨)]، وبعث محمد إلى (سدوستان)[(٩)]، فطلب أهلها الأمان والصلح، فأمنهم محمد وفرض عليهم الخراج أيضا[(١٠)].

٣ - مقتل داهر ملك الهند:

عبر محمد بن القاسم نهر (مهران) مما يلى بلاد الملك (راسل) ملك (قصة) من الهند على جسر عقده، و (داهر) مستخف به لاهٍ عنه، ولقيه محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة، فاشتد القتال بشكل لم يسمع بمثله، وترجّل (داهر) وقاتل حتى قتل عند المساء، فانهزم أصحابه، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، فقال قاتل داهر[(١١)]:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمد
أنى فرجت الجمع غير معرد[(١٢)] ... حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجندلا ... متعفر الخدين غير موسّد

(١) فتوح البلدان صـ ٤٢٤، ٤٢٥.
(٢) تاريخ الإسلام فى الهند صـ ٧٤ , قادة فتح السند صـ٢١٢ .
(٣) النيرون: مدينة تقع على مسافة (٧٥) ميلاً من مكران .
(٤) فتوح البلدان صـ ٤٢٥ .
(٥) مهران: موضع على نهر السند، معجم البلدان (٨/ ٢٠٩) .
(٦) سربيدس: مدينة بالقرب من مهران على نهر السند .
(٧) سهبان: مدينة فى منطقه سربيس على نهر السند.
(٨) فتوح البلدان صـ٤٢٥ .
(٩) قادة فتح السند وأفغانستان ص ٢١٣ .
(١٠) فتوح البلدان صـ٤٢٥ .
(١١) هو القاسم بن ثعلبة بن عبد الله الطائى، فتوح البلدان صـ ٤٢٦ .
(١٢) معرد: عرد الرجل عن الطريق إذا انحرف عنه.

فلما قتل (داهر) غلب محمد على بلاد السند ففتح (راوَر)[1] عنوة، وكان بها امرأة[2] لداهر فحرقت نفسها وجواريها وجميع مالها[3]، وتقدم المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرقين حتى بلغوا (برهمنآباد)[4] العتيقة على فرسخين من المنصورة[5] وكان موضعها غيضة، وكان المنهزمون من أصحاب داهر بها، ففتحها محمد وقتل بها بشراً كثيراً وخرّبها[6]، وسار محمد يريد(الرور)[7] و(بغرور)، فلقيه أهل ساوندرى[8]، وسألوه الأمان، فأعطاهم إياه، واشترط عليهم ضيافة المسلمين، فأسلم أهلها من بعد ذلك[9]، وتقدم نحو (بسمد)[10]،على مثل صلح (ساوندرى)، فسار عنها حتى انتهى إلى (الرور) وهى من مدائن السند تقع على جبل فحاصرها شهوراً ثم فتحها صلحاً[11]. سار محمد إلى (السكة)[12]، ففتحها ثم عبر نهر (بَياس)[13] رافد نهر السند إلى مدينة (المُلْتان)[14]، أعظم مدن السند الأعلى وأقوى حصونه، فامتنعت عليه شهوراً وقاتله أهلها، فانهزموا فحصرهم، فأتاه رجل مستأمن دلّه على مدخل الماء الذى يشرب منه السكان، فقطعه عليهم، فنزلوا على حكمه، فقتل محمد المقاتلة وسبى الذرية وسبى سدنة (البد) وهم ستة آلاف، وأصاب مالاً كثيراً جمعه فى بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع يلقى إليه فى كوّة فى وسطه، فسميت الملتان: فرج[15] بيت الذهب[16]. وكان (بد) الملتان (بدّاً) تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور ويحجّ إليه السند فيطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده، ويزعمون أن صنمًا فيه هو أيوب النبى عليه السلام[17]، وعظمت فتوح محمد، فراجع الحجّاج حساب نفقاته على هذه الحملة، فكانت ستين ألف ألف درهم، فقال:

---

(١) راور: مدينة كبيرة بالسند، معجم البلدان (٤/ ٢١٤) .

(٢) هى رانى باى، كانت أختاً لداهر بنى بها .

(٣) فتوح البلدان صـ٤٢٥، ٤٢٦ .

(٤) برهمنآباد: مدينة تقع على نهر السند بين كراجى والبنجاب .

(٥) المنصورة: مدينة كبيرة يحيط بها خليج نهر مهران .

(٦) فتوح البلدان صـ٢٢٦ .

(٧) الرور: ناحية بالسند تقرب من (الملتان) فى الكبر .

(٨) مدينة فى منطقة الرور، قادة فتح السند صـ٢١٤ .

(٩) فتوح البلدان صـ٤٢٦، قادة فتح السند صـ٢١٤ .

(١٠) مدينة فى منطقة الرور، قادة فتح السند صـ٢١٤ .

(١١) المصدر نفسه السند صـ٢١٤ .

(١٢) السكة: مدينة فى منطقة الرور .

(١٣) بياس: نهر عظيم بالسند مفضاه إلى الملتان .

(١٤) الملتان: مدينة قرب الهند بها صنم يعظمه الهنود .

(١٥) الفرج: الثغر .

(١٦) فتوح البلدان صـ٤٢٧ .

(١٧) المصدر نفسه صـ٤٢٧، قادة فتح السند صـ٢١٥ .

شفينا غيظنا، وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر(١). لقد أنجز محمد هذا الفتح كله في المدة بين سنة تسع وثمانين من الهجرة وأربع وتسعين من الهجرة(٢).

٤ ـ نهاية محمد بن القاسم:

بينما محمد بن القاسم يدبر أمر السند وينظم أحواله بعد الفتح ويستعد لفتح إمارة قنوج -وهى أعظم الإمارات فى شمال الهند -توفى الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦هـ وتولى أخوه سليمان (٩٦ـ ٩٩ هـ) الذى بدأ يغير ولاة الحجّاج، فعين على العراق رجلاً من ألدِّ أعداء الحجّاج، وهو صالح بن عبد الرحمن، الذى كان الحجّاج قد قتل أخًا له اسمه آدم ابن عبد الرحمن كان يرى رأى الخوارج(٣)، فقرر صالح بن عبد الرحمن أن ينتقم من أقرب الناس إلى الحجّاج -وهو محمد بن القاسم- فعزله عن السند وولى رجلاً من صنائعه وهو يزيد بن أبى كبشة، وأمره بالقبض على محمد، فقبض عليه وأرسله إليه، فحبسه فى واسط فى رجال من آل أبى عقيل(٤)، وقد ادعت ابنة ملك السند الذى قتله ابن القاسم أنه راودها عن نفسها أو نالها قسرًا، ولذا فقد سجن فى واسط وعذب، ثم تضاربت الروايات بشأنه؛ فقيل: إنه مات تحت العذاب، وقيل: إنه أطلق سراحه ثم قتل، وقيل: بل قتل بدسائس من أتباع داهر فاتهم به الخليفة، ثم اعترفت ابنة داهر فيما بعد بأنها كانت كاذبة فى ادعائها(٥)، وهكذا انتهت حياة هذا البطل الفاتح الكبير هذه النهاية الأليمة، وحرمت الأمة الإسلامية من هذه العبقرية الشابة، فإن محمدًا حقق هذه الأمجاد وهو فى مقتبل العمر حتى قال فيه الشاعر:

إن الشجاعة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤددًا من مولد

وقد ساس الجيوش وقادها وعمره سبع عشرة سنة، قال فيه الشاعر يزيد بن الأعجم:

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... ولداته عن ذاك فى أشغال
فغدت بهم أهواؤهم وسمت به ... همم الملوك وسورة الأبطال

(١) قادة فتح السند صـ٢١٥، فتوح البلدان صـ٤٢٧ .
(٢) تاريخ اليعقوبى (٣/ ٣٢)؛ قادة فتح السند صـ٢١٦ .
(٣) فتوح البلدان، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٦٢ .
(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٦٢ . (٥) الدولة الأموية المفترى عليها صـ٢٠٩ .

وكان محمد بن القاسم يهتف فى أعماق سجنه وفى ظلماته:

أتنسى بنو مروان سمعى وطاعتى وإنى على ما فاتنى لصبور
فتحت لهم ما بين (سابور)[1] بالقنا إلى الهند منهم زاحف ومغير
فتحت لهم ما بين جُرجان[2] بالقنا إلى الصين ألقى مرة وأغير[3]
وما وطئت خيل السكاسك عسكرى ولا كان من (عك) علىّ أمير [4]

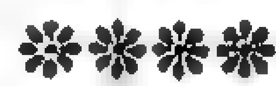
مات محمد بن القاسم بالتعذيب، أو قتل بعد تعذيبه، دون أن يشفع لهذا القائد الشاب، بلاؤه الرائع فى توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ولا مهارته الفذة فى القيادة والإدارة، ولا انتصاراته الباهرة فى السند، ولكنَّ آثاره الخالدة وأعماله المجيدة باقية بقاء الدهر، ولم يختره الله إلى جواره إلا بعد أن أبقى اسمه على كلِّ لسان وفى كل قلب، رمزًا للجهاد الصادق والتضحية الفذّة والصبر الجميل. أما الذين عذبوه فقد ماتوا وهم أحياء، ولانزال حتى اليوم نذكر محمد بن القاسم بالفخر والاعتزاز، ونذكر الذين عذّبوه بالخزى والاشمئزاز[5]، رحم الله محمد بن القاسم الشاب المظلوم، الأمير العادل، الإدارى الحازم، لقد بكاه أهل السند من المسلمين، لأنه كان يساويهم بنفسه ولا يتميز عليهم بشيء، ويعدل بالرعية، ولأنه نشر الإسلام فى ربوعهم فأرسل دعاته شرقًا وغربًا يجوبون البلاد التى فتحها، وكان أكثر من هداهم الله إلى الإسلام من أهل السند على يديه[6]، فمنذ الخطوات الأولى للفتح بدأت شخصيات كبيرة تعتنق الإسلام، فعندما فتح محمد بن القاسم مدينة الديبل واستولى على قلعتها التى كان بها الأسرى من الجنود والتجار المسلمين والنساء المسلمات وقتل حرّاس القلعة بناء على أوامر الحجّاج انتقامًا لشهداء المسلمين، عندئذ جاء مدير السجن الذى كان به المسلمون طالبًا العفو عنه لأنه كان محسنًا للأسرى المسلمين ويعاملهم معاملة كريمة، فلما تأكد محمد بن القاسم من صدقه عفا عنه، بل فوض إليه مهمة الإشراف على الشئون الاقتصادية بمدينة الديبل، ثم أعلن الرجل إسلامه، فقربه محمد أكثر، وعينه مترجمًا لرئيس الوفد الذى أرسله إلى داهر ملك السند لتوجيه الإنذار إليه[7]، وعندما تقدم محمد بن القاسم فى السند، بعد فتح الديبل، وجه الدعوة إلى الأمراء والحكام والوزراء والأعيان وعامة الشعب للدخول فى الإسلام، فاستجاب له

(١) مدينة مشهورة بأرض فارس.
(٢) مدينة مشهورة فى خراسان، معجم البلدان (٣/ ٧٥).
(٣)، (٤) قادة فتح السند صـ٢١١.
(٥) المصدر نفسه صـ٢٢٢.
(٦) المصدر نفسه صـ٢٢١.
(٧) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٤٥.

كثيرون، وبصفة خاصة من البوذيين[١]، وقد كان لسلوك المسلمين وقائدهم الشاب، واهتمامه بإقامة المساجد وأداء شعائر الإسلام، أثر كبير فى جذب الأهلين إلى الإسلام، فلم يكن محمد بن القاسم يدخل مدينة إلا ويبنى فيها مسجداً[٢]، فقد بنى مساجد فى الديبل والرور والبيرون والملتان وغيرها من المدن السندية[٣]، فرحمة الله على هذا الفاتح الكبير.

٥ ـ السند بعد محمد بن القاسم:

توقفت الفتوحات فى هذه الجبهة عند الحدود التى وصل إليها محمد بن القاسم، ولم يستطع ولاة بنى أمية ـ فيما تبقى من عمر دولتهم ـ أن يضيفوا جديداً، ولكنهم استطاعوا المحافظة على ما تحقق من فتوحات، وبذلوا قصارى جهدهم فى تثبيت أقدام الإسلام فى إقليم السند، ووقفوا بالمرصاد لكل حركات التمرد والثورات التى قام بها الأمراء الهندوس، بعد رحيل محمد بن القاسم، فقد حاول هؤلاء الأمراء استرداد إماراتهم، وبصفة خاصة ابن داهر المسمى حليشبة أو جيشبة، الذى حاول الرجوع إلى برهمنآباذ، ولكن حبيب بن المهلب ـ الذى ولاه سليمان بن عبد الملك السند ـ لم يمكنه من ذلك[٤].



(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٤٤٦ .

(٢)، (٣) المصدر نفسه صـ٤٤٧ .

(٤) المصدر نفسه صـ٣٦٤ .

المبحث الرابع

أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات في عهد عبد الملك والوليد وسليمان

أولاً: بماذا انتصر المسلمون؟

إن ما حدث في عهد عبد الملك من فتوحات هو امتداد طبيعي للأسس المتينة والقواعد الراسخة لفقه النهوض الذى أسسه رسول الله ﷺ وأكمل بناءه الخلفاء الراشدون، وكانت الأمة وكثير من حكامها يعيشون لأجل العقيدة والدعوة الإسلامية، وقد انتصر المسلمون بالإسلام نفسه، فهم قد فهموه فهمًا صحيحًا دقيقًا وطبقوه على أنفسهم، فأنشأ منهم خلقًا جديدًا، غيَّر النفوس والقلوب والعقول، وحررها من الوثنية وعبادة غير الله، وفتح أمامهم آفاق الإيمان والعمل، فاندفعوا يحملون رسالة التوحيد إلى الإنسانية كلها، فأقاموا أمة وأنشأوا دولة كبرى وأعلنوا كلمة الله فى الأرض حقًا وصدقًا[1]، لقد صيغت هذه الأمة منذ عهد الرسول ﷺ على أساس واضح من الترابط بين الإسلام والإيمان، والعقيدة والعمل، وفق أصفى مفهوم للتوحيد، وأصدق فهم لإقامة المجتمع الإنسانى، واجتمع لها فى إيمانها العقيدة والشريعة والأخلاق دون أن ينفصل أحدها عن الآخر، وتكامل لها مفهوم المعرفة القائم على القلب والعقل[2]، وقد ظلت سيرة الرسول ﷺ بكل دقائقها وتفاصيلها أمام المسلمين قدوة صادقة وأسوة حسنة، وقد كانت المثل الأعلى أمام القادة والمصلحين والأبطال والمجاهدين، وما زالت وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد انتصر المسلمون بقيم ومقومات ومثل كثيرة تعلموها وتربوا عليها من القرآن الكريم وهدى الرسول الأمين ﷺ، ومن أبرز هذه القيم والمقومات: عقيدة سليمة، وعبادة صحيحة، وكتاب منير، وأسوة حسنة، وشريعة عادلة، وأخلاق حميدة، وجهاد فى سبيل الله، وتربية صالحة مستمرة، ومفهوم شامل للحياة والمجتمع، وبطولة فى المواقف، وصمود فى وجوه العدو[3] وغير ذلك من القيم والمقومات.

---

(١) بماذا انتصر المسلمون، أنور الجندى صـ٥.
(٢) المصدر نفسه صـ٦.
(٣) المصدر نفسه صـ٧ - ٩.

ثانيًا: أسباب دخول الإسلام البلاد المفتوحة:

كانت هناك عدة أسباب أدت إلى هذا، منها:

١ - عالمية الدعوة: الحقيقة الثابتة التي تؤيدها النصوص القاطعة أن الإسلام دين عالمي، ورسالته للجنس البشري كله، لا لأمة دون أمة، ولا لشعب دون شعب، فمحمد رسول الله إلى الناس كافة ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾ [سبأ: ٢٨] ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي توضح أن الرسالة الإسلامية للناس كافة، وأنها خاتمة رسالات السماء إلى أهل الأرض، فليس بعد القرآن الكريم كتاب من الله، وليس بعد محمد ﷺ رسول، ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقد قام بالتبشير بعالمية الدعوة ودعوة الأمم قادة وعلماء كموسى بن نصير، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم وغيرهم كثير.

٢ - المعاملة السمحة الكريمة: إن النماذج التي خرجها الإسلام من القادة والجنود قد اتصفت بأخلاق حميدة وقيم سامية، رفعت من المستوى الإنساني عند معتنقيها، فكان لها أثر كبير في إقبال أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام، فكم من أفواج من البربر دخلوا في الإسلام وقاتلوا في سبيله في عهد موسى بن نصير وكذلك في الهند، وبخارى وسمرقند وغير ذلك من البلدان! فالمسلمون لم يفتحوا البلاد ليدمروها ويذلوا أهلها، وإنما ليعمروها ويعزوا أهلها، ويحرروهم من عبادة العباد إلى عبادة خالق العباد، ويخرجوهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فهم أصحاب رسالة خالدة، تحمل للناس العدل والإنصاف، وتحقق لهم الحرية والمساواة والكرامة الإنسانية، وبمجرد أن عرف الناس في البلاد المفتوحة أهداف المسلمين الحقيقية وتكشفت لهم حقيقة الإسلام أسرعوا إلى اعتناقه بأعداد كبيرة - كما سنعرف فيما بعد - ولقد حرص المسلمون على الوفاء بكل ما التزموا به، ولم يكن هذا من حسن السياسة فقط، فالوفاء بالعهد ليس تبرعًا من المسلمين يمنون به على الناس، ولكنه مسئولية واجبة عليهم[1]، قال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً**﴾ [الإسراء: ٣٤].

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي صـ٣٧٨.

٣ - إشراك أبناء البلاد المفتوحة في إدارة بلادهم: كانت سياسة المسلمين منذ بداية الفتوحات من سعة الأفق والمرونة بحيث أدركوا أن استتباب الأمن وسير الأمور سيرًا حسنًا فى البلاد المفتوحة بما يحقق خير أهلها ومصالحهم يكمن فى الأسلوب الإدارى الذى سيسيرون عليه، فلم يترددوا فى الاستفادة من النظم الإدارية التى وجدوها فى البلاد المفتوحة، سواء كانت خاضعة للبيزنطيين مثل الشام ومصر أو خاضعة للفرس مثل العراق وبلاد فارس نفسها، واستفادوا من الجهاز الإدارى وطبقة الموظفين الذين كانوا يسيّرون دولاب العمل فى البلاد، فقد كان الوالى فى العهد الأموى يتمتع بكل السلطات والصلاحيات الإدارية والمالية والعسكرية فى إقليمه، وكان المسلمون يحتفظون بمناصب القضاء والشرطة والحسبة، أما ما عدا ذلك من الوظائف الإدارية فكان المجال فيها متسعًا أمام أبناء البلاد المفتوحة فى الإدارة، بل إن كثيرًا منهم وصلوا إلى مناصب إدارية فى ظل الحكم الإسلامى كانوا محرومين منها فى ظل حكومات ما قبل الإسلام، كما هو الحال فى مصر، فقد كان البيزنطيون يستحوذون على معظم المناصب الإدارية، بالإضافة إلى المناصب العسكرية العليا، ولا يتركون للمصريين إلا أقل القليل[١]، وقد توسع الأمويون فى استخدام أهل الذمة فى الإدارة، مما أشعرهم بالأمان والاطمئنان تجاه الدولة، فبدأوا يقبلون على اعتناق الإسلام لترتفع مكانتهم أكثر فأكثر[٢].

٤ - الوضع الدينى فى البلاد المفتوحة: ومما جعل أبناء البلاد المفتوحة يقبلون على الإسلام بسرعة، فساد الأديان فى بلادهم وانحلالها، وفساد رجالها، سواء كانت هذه الأديان سماوية، كاليهودية والمسيحية، أو وضعية، كالبوذية والزرادشتية والمانوية والمزدكية وغيرها من الأديان الوثنية التى كانت سائدة فى البلاد المفتوحة[٣].

هذه هى أهم العوامل والأسباب التى ساعدت فى دخول شعوب البلاد المفتوحة فى الإسلام.

ثالثًا: تفسير حركة التعريب بين الشعوب المفتوحة:

نعنى بالتعريب تحول لسان الأهالى فى البلاد المفتوحة إلى اللسان العربى وهجر لغاتهم المحلية، وقد حدث هذا فى عهد الخلافة الراشدة والدولة الأموية فى المنطقة المحصورة بين الخليج والمحيط - والمعروفة حاليًا بمنطقة الدول العربية - فقد هجر أهالى تلك البلدان

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ٣٨٣. (٢)، (٣) المصدر نفسه صـ٣٨٤ .

لغاتهم الأعجمية وحلت اللغة العربية محل الآرامية والسريانية فى الشام والعراق، والقبطية فى مصر، والبربرية فى بلدان المغرب، ومن أهم أسباب التعريب[1]:

١- انتشار الإسلام: ومهما يكن من أمر، فإن انتشار الإسلام بتلك السرعة والسهولة اللتين تم بهما جاء ظاهرة فريدة من نوعها فى التاريخ، ذلك أنه لم تكد تنقضى على وفاة الرسول ﷺ مائة سنة حتى كان الإسلام قد ثبتت ركائزه فى بلاد ممتدة من المحيط الأطلسى وشبه جزيرة أيبيريا غربًا حتى بلاد الهند وحدود الصين شرقًا، وكان لا بد أن يأتى انتشار الإسلام مصحوبًا بالتعريب، لأن معتنقيه كانوا مطالبين بأداء فروضه، ومن الواضح أن النطق بالشهادتين يتطلب نطق بعض الألفاظ العربية وفهم معناها، فضلاً عن أن أداء الصلاة يتطلب معرفة فاتحة الكتاب وحفظ بعض قصار السور من القرآن الكريم، ثم إن الإسلام يطلب من المسلم الإنصات للقرآن الكريم إذا قرئ على مسمع منه، وترتيله وتدبر ما فيه من آيات بينات، وهذه كلها أمور ترتبط بمعرفة اللغة العربية وفهمها. وطبيعى أن يكون من المتعذر على اللغات المحلية أن تستمر، فأخذت تتقلص تدريجيًا، وتنكمش دائرة استعمالها لتفسح المجال أمام العربية[2]. وهناك حالات ترتبط ببلاد فتحها المسلمون وحكموها بضعة قرون، ومع ذلك لم يُعرب أى منها، ونعنى بهذه البلاد فارس والتركستان، فالفرس اعتنقوا الإسلام ولكنهم احتفظوا بلغتهم، وإن جاء هذا الاحتفاظ جزئيًا غير كامل، حيث إن اللغة الفارسية غدت تكتب وتدون بأحرف عربية من ناحية، كما أن كثيرًا من الألفاظ العربية - خاصة تلك المرتبطة بالإسلام وعلوم الدين- دخلت الفارسية من ناحية أخرى[3]، وأما التركستان، فقد كانت حماية ما وراء النهر من عدوان الأتراك الشرقيين من أهم منجزات العصر الأموى التى مكنت السيادة الإسلامية فيما وراء النهر، وأضافوا إلى هذه الجهود جهودًا أخرى فى ميدان الدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة العربية فى البلاد، وقد وضحت هذه الجهود منذ فجر الفتح الأول، فقد كان قتيبة بن مسلم يبنى المساجد فى بخارى وسمرقند، ولم تكن المساجد دورًا للعبادة فحسب، إنما كانت مدارس للثقافة العربية الإسلامية، وأتبع ذلك بتوطين القبائل العربية فى المدن الكبرى، وتتابعت الجهود فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى أسقط الجزية عمن أسلم، وأمر عماله بالدعوة إلى الإسلام، واستمرت هذه الجهود بعد عمر -خاصة فى عهد الوالى أشرس بن عبد الله السلمى (١٠٨

(١) الحضارة الإسلامية صـ١٢٧ . (٢) المصدر نفسه صـ١٢٩ .

(٣) الإسلام والتعريب، سعيد عاشور صـ٢٥١ .

ـ ١١٠هـ)- إذ كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية فى البلاد[١].

ومع كل ذلك فإن اللغة العربية لم تستطع أن تنتشر رغم إسلام الأتراك وحماسهم الشديد له، وكل ما عمله الأتراك أنهم انتحلوا الخط العربى، بحيث لا تجد تركيّاً على شيء من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغة القرآن فى سهولة[٢]، وهنا لابد أن نأتى إلى تلك النتيجة المنطقية؛ وهى أن انتشار الإسلام قد أدى إلى انتشار اللغة العربية، ولكنه لم يؤد -بالضرورة- إلى التعريب[٣] فى المناطق الفارسية والتركية وغيرها.

٢ ـ **هجرة القبائل العربية إلى البلاد المفتوحة:** ساعد على تعريب البلاد المفتوحة أن العرب الذين نزحوا إلى الأرض الجديدة استقر معظمهم فيها، ولم يستمروا طويلاً فى حالة عزلة، وإنما أخذوا يندمجون تدريجيًا مع الأهالى الأصليين، ولعل أول موجة نذكرها جاءت إلى مصر مع عمرو بن العاص، واستمرت الهجرة فى العهد الأموى، وأخذوا يندمجون تدريجيًا مع الأهالى الأصليين[٤].

٣ ـ **تعريب الدواوين:** ومن الأمور التى ساعدت على حركة التعريب، ما قام به عبد الملك من حركة التعريب فى الدواوين، فقد أدى هذا الفعل إلى تعريب اللسان ونشر الخط العربى فى كل البلدان التى توالى فيها بعد ذلك نقل دواوينها إلى اللغة العربية؛ ذلك أن استخدام اللغة العربية فى الشئون الإدارية كان وسيلة فعالة كبرى إلى نشر العلم بطراز معهود فى الكتابة العربية، ومن الثابت أيضًا أن هذا الطراز لم يتم تطوره الكامل إلا بتحقيق حروف الهجاء فى أواخر القرن الأول بعد الهجرة[٥].

٤ ـ **تفوق الحضارة الإسلامية:** ساعد ازدهار الحضارة الإسلامية واتساع نطاقها وتنوع آفاقها على حركة التعريب، فهذه الحضارة أسهمت فى سائر الميادين ذات الخبرة الإنسانية، سواء الدراسات النظرية والعملية، والأطعمة والأشربة والعقاقير والأسلحة والفنون والصناعات والنشاط التجارى والبحرى، وكانت اللغة العربية أداة تلك الحضارة العظيمة[٦]، وقد استفاد

(١) الإسلام والحضارة العربية، حسن أحمد محمود صـ١٢٩، ١٣٠ .
(٢) الإسلام والتعريب صـ٢٥٥ .
(٣) الحضارة الإسلامية صـ١٣٢
(٤) المصدر نفسه صـ١٣٤ .
(٥) المصدر نفسه صـ١٣٦ .
(٦) المصدر نفسه صـ١٣٧ .

العرب من حضــارات الأمم الأخرى، وقد أدى تفوق الحضــارة الإسلامية إلى انتـشار اللغة العربية فى ربوع العالم، ولكنه لم يؤد إلى التعريب[١].

٥ - لغة الغالبين الفاتحين: كانت اللغة العـربية هى لغة الغالبين الفاتحـين، سادة البلاد، وحكامها الجدد، وثمة علاقات متبادلة بين الحاكم والمحكوم تتطلب قدرًا من التفاهم المشترك الذى لا يتـحقق إلا داخل إطار لغــة متفق علـيها بين الـطرفين، ولما كان الحـكام الجدد لا يعرفون لغة إلا العربية، فلم يبق أمام الشـعوب التى خضعت لهم سوى تعلم العربية، هذا فضلاً عما يقال من أن ثمــة عقدة نفسية عند البشر تجعل الضعيف شـغوفًا بمحاكاة القوى، والمغلوب مولعًا -دائمًا أبدًا- بتقاليد الغالب[٢]، وهذا القول ليس على إطلاقه، فهناك أمثلة عديدة فى التاريخ -قـبل حركة الفتوح الإسلامـية وبعدها- تثبت أن تحول شعـوب بأكملها إلى لغة الحكـام الفاتحين ونبـذها لغة الآباء والأجـداد ليست القاعـدة فى التاريخ، فـاللغة العربية -وإن كانت لغة الفاتحين- فإن ذلك لم يؤد إلى تعريب كل الشعوب، وإن أدى ذلك إلى انتشار اللغة العربية فى تلك البلاد المفـتوحة؛ وذلك أن الإسلام لا يجبر الشعوب على ترك لغتها وأعرافهـا وعاداتها ما لم تخالف الشرع[٣]. هذه هى أهم الأسباب التى أسهمت فى انتشار اللغة العربية وحركة التعريب فى بعض البلدان المفتوحة.

رابعًا: الحرص على سلامة الجيوش:

كان عبد الملك بن مروان يوصى قادته بالحذر من البـيات والتيقظ، والحرص على سلامة العسكر، بإقامة الحـرس، فكان قادته لا يسيرون ولا ينزلون إلا على تعبـئة، ويتخذون فى نزولهم الخنادق والمسالح بكل مكان مـخوف، والأرصاد على العقـاب والشعاب[٤]، واهتم عبد الملك بجمع الأخبار عن العدو، فلا يسير له جيش إلا وقد سبقته العيون لترصد أخبار العدو، واسـتطاع قادته اسـتمـالة بعض أبناء البـلاد المفتوحـة ليكونوا عـيونًا يقدمـون لهم المعلومات الصحيـحة عن تحركات العدو، واستعانوا أيضًا بالـتجار فى هذه المهمة[٥]، فكل قادة الفتح لهم عيون يجمعـون لهم المعلومات على الأعداء، وهذا دليل على حرص القيادة على سلامة جنودها وجيوشها.

(١) الحضارة الإسلامية صـ ١٣٧ .

(٢) المصدر نفسه صـ١٣٨ .

(٣) المصدر نفسه صـ١٣٩ .

(٤) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ١٩٨) .

(٥) المصدر نفسه (١/ ٤٠٧) .

خامسًا: أهمية الشورى فى إدارة الصراع:

ومما أوصى به الخليفة عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز عندما أبقاه على ولاية مصر قوله: وإذا انتهى إليك مشكل، فاستظهر عليه بالمشورة؛ فإنها تفتح مغاليق الأمور المبهمة، واعلم أن لك نصف الرأى ولأخيك نصفه ولن يهلك امرؤ عن مشورة[(١)] . كما أوصى أحد قواده بقوله: لا تستعن فى أمر دهمك برأى كذاب ولا معجب، فإن الكذاب يقرب لك البعيد ويبعد عنك القريب، وأما المعجب فليس له رأى صحيح ولا روية تسلم[(٢)]، ومما قاله عبد الملك فى المشورة: لأن أخطئ وقد استشرت أحب إلىّ من أن أصيب وقد استبددت برأى وأمضيته من غير مشورة؛ لأن المقدم على رأيه يزرى به أمران: تصديقه رأيه الواجب عليه تكذيبه، وتركه من المشورة ما يزداد به بصيرة[(٣)]. وعندما تحركت الروم بأرض القسطنطينية حيث عزموا على غزو المسلمين وبلغ أمرهم عبد الملك بن مروان نادى فى أهل الشام وجمعهم فى المسجد الأعظم ثم صعد المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس، إن العدو قد كلب عليكم وطمع فيكم وهنتم عليه لترككم العمل بطاعة الله تعالى واستخفافكم بحق الله، وتثاقلكم عن الجهاد فى سبيل الله، ألا وإنى قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم فماذا عندكم من الرأى؟[(٤)] وهنا نجد أن الخليفة عبد الملك بن مروان شاور المسلمين فى مرحلة الإعداد والإقرار فيبرز بذلك مبدأ الشورى فى اتخاذ القرار العسكرى فى الإدارة العسكرية الأموية، وأخذ قادة الخليفة عبد الملك بن مروان يعملون بالمشورة فيما بينهم فى إدارتهم للمعارك الحربية وبين القيادة العليا المركزية[(٥)]، وحين حضرت الخليفة عبد الملك الوفاة أوصى أبناءه بقوله: وانظروا ابن عمكم عمر بن عبد العزيز فاصدروا عن رأيه ولا تَخَلَّوا عن مشورته، اتخذوه صاحبًا لا تجفوه، ووزيرًا لا تعصوه، فإنه من علمتم فضله ودينه وذكاء عقله، فاستعينوا به على كل مهم، وشاوروه فى كل حادث[(٦)]. وبانتقال الخلافة إلى ابنيه الوليد وسليمان سلكا نهجه فى إدارتهما العسكرية بمبدأ الشورى وأخذهما بها لدى فتوحاتهما الإسلامية فى مرحلة الإعداد والإقرار أو التخطيط والتنفيذ[(٧)].

---

(١) تاريخ ابن خلدون، نقلاً عن الإدارة العسكرية (١/ ٢٨٢).

(٢) المنهج المسلوك للشيرازى صـ٤٩٠ .

(٣) المصدر نفسه صـ٤٨١، الإدارة العسكرية (١/ ٢٨٣) .

(٤) الفتوح لابن أعثم (٤/ ١٢٢)،

(٥) الإدارة العسكرية (١/ ٢٨٣) .

(٦)، (٧) المصدر نفسه (١/ ٢٨٤).

سادسًا: الاهتمام بالحدود البرية:

اهتم الخليفة عبد الملك بالحدود البرية، فقام ببناء عسقلان وحصّنها ورمّ قيسارية، وبنى بها بناءً كثيراً، وبنى مسجدها، وقام بتجديد وترميم صور وعكا وأردبيل وبرذعة لما لهذه الثغور من أهمية حربية[(١)]، وبنى واليه الحجّاج بن يوسف مدينة واسط كقاعدة عسكرية تتوسط بين الأهواز والبصرة والكوفة بمقدار واحد قدره خمسون فرسخًا، وذلك أنه كان حينما يريد غزو خراسان ينزل جيش الشام على أهل الكوفة، فكانوا يتأذون منهم، فبنى واسطًا كمعسكر لهم، ولقد لعبت دوراً مهمًا فى عملية الإمداد لثغور المشرق[(٢)]، وفى عهد عبد الملك فتح حصن سنان[(٣)] من بلاد الروم، حيث استفاد منه بشحنه بالجند لحماية الحدود[(٤)]، واهتم عبد الملك فى إدارته العسكرية بحملات الصوائف والشواتى، فكان يوليها كبار رجالات البيت الأموى، مما يدل على حرصه وعنايته فى حماية وتأمين حدود الدولة الإسلامية ضد هجمات الأعداء، وكان من هؤلاء الأمراء ابنه الوليد، ومن أمراء البيت الأموى الذين تولوا حملات الصوائف والشواتى لعدة سنوات أخو الخليفة عبد الملك؛ محمد بن مروان الذى له الأثر الجميل فى مباشرة تحصين وإنشاء حصن المصيصة وشحنه بالجند، وبنائه لطرندة وتعزيزه إياها بالعسكر، وابنه مسلمة، بالإضافة إلى كبار القادة أمثال يحيى بن الحكم وعثمان بن الوليد وغيرهما[(٥)]، واهتم الخليفة الوليد بالحدود البرية وقام بتحصينات ثغرية كالتى أنشأها بالثغور الشامية على الخط الساحلى للبحر الأبيض المتوسط لحماية حدود الدولة الإسلامية من هجمات الروم، واستحداثه لأربع نقاط حصينة هى حصن سلوقية[(٦)] وإقطاعه الجند للأراضى بها لتعميرها وإلصاقهم بالثغر، وحصن بغراس وعين السلور[(٧)] وبحيرتها، والإسكندرونة[(٨)]، فأصبح هذا الخط الساحلى أكثر مناعة وحصانة فى عهده من ذى قبل[(٩)]، وقام بفتح حصون كثيرة ثم شحنها بالجند المرابطين منها حصن طوانة[(١٠)] وغيره من الحصون، واهتم الوليد بالطرق الموصلة إلى

(١) شذرات الذهب (١/ ٩٥)، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٩) .
(٢) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٩) .
(٣) فى بلاد الروم، فتحه عبد الله بن عبد الملك .
(٤) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٨٠) .
(٥) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٨١)، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٨١) .
(٦) سلوقية: حصن عند الساحل بأرض الروم (تركيا) .
(٧) عين السلور: قرب أنطاكية، والسلور هو السمك البحرى .
(٨) الإسكندرونة: مدينة شرق أنطاكية .
(٩) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٨٣) .
(١٠) طوانة: بلد بثغور المصيصة، معجم البلدان (٤/ ٤٥) .

الثغور وقام بتسهيلها وتأمينها وبنى بها القناطر لعبور الجند عليها فى حملاتهم الصائفة والشاتية[1]، واستمر والى العراق من قبل الوليد؛ الحجّاج بن يوسف بتحصين ثغور المشرق وعمل المراصد بها وبناء القواعد العسكرية فيها كخوارزم[2]، وشيراز وخراسان وغيرها من ثغور المشرق[3]، واستمر الخليفة سليمان على نهج والده وأخيه فى الاهتمام بالحدود البرية[4].

سابعًا: الأثر الاقتصادى والاجتماعى للفتوحات:

من الآثار الاقتصادية والاجتماعية للفتوحات فى عهد الخليفة عبد الملك ظهور التجار برفقة العسكر بشراء بعض ما يغنمه الجند من العدو، فبذلك تنشط الحركة التجارية وتزدهر، كما أنه أثناء سير العسكر نحو العدو وحين يتصادف مرورهم بالمدن والقرى المتواجدة فى طريقهم يقومون بشراء احتياجاتهم[5] منها، وكان والى مصر عبد العزيز بن مروان من قبل عبد الملك يحفر الخلجان بها، وكانت له بمصر ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره، ومائة جفنة يطاف بها على القبائل، تحمل على عجل من أجل الإطعام[6]، وحين انتقلت الخلافة إلى الوليد كانت إدارته من أفضل الإدارات فى تقديم الخدمات الاجتماعية والاقتصادية بين أفراد المجتمع، وسيأتى عنها الحديث فى محلها بإذن الله تعالى.

هذه أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات فى عهد عبد الملك وبنيه.

****

(١) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٨٣).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٨٥).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٨٦).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٤٨٧).
(٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٥).
(٦) الولاة للكندى صـ٣١٣، الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٦).

المبحث الخامس

ولاية العهد وموقف سعيد بن المسيب منها ووصية عبد الملك لأولاده، ووفاته

أولاً: ولاية العهد وموقف سعيد بن المسيب منها:

عقد مروان بن الحكم ولاية العهد لابنه عبد الملك ومن بعده عبد العزيز بعد عودته من مصر، وبعد وفاته سنة ٦٥هـ تولى عبد الملك الحكم، وكانت العلاقة التى تربط بين الخليفة وأخيه وولى عهده -عبد العزيز- يسودها الصفاء، ولم يتوان الأخير فى خدمة الخلافة طيلة حياته، وبعد أن مضى ما يقارب عشرين سنة على هذه الحال بدأت تظهر فكرة تحويل ولاية العهد من عبد العزيز إلى الوليد وأخيه سليمان ابنى الخليفة، وقد تباينت الروايات فى ذكرها لمن أشار بأمر الخلع، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فعلى ما يبدو أن الخليفة عبد الملك بعد أن ظهرت هذه الفكرة لديه كتب إلى أخيه يطلب منه أن يتنازل عن ولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان، فأبى عبد العزيز، وأراد عبد الملك أن ينتقم من عبد العزيز ويضيق عليه[1]، فكتب عبد العزيز إلى أخيه: يا أمير المؤمنين، إنى وإياك قد بلغنا سنًا لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلاً. وإنى لا أدرى ولا تدرى أينا يأتيه الموت أولاً، فإن رأيت ألا تغثث علىّ بقية عمرى فافعل. فقال الخليفة عبد الملك: لعمرى لا أغثث عليه بقية عمره، وقال لابنيه: إن يرد الله أن يعطيكماها لا يقدر أحد من العباد على رد ذلك[2]، وحسم موت عبد العزيز الخلاف مع أخيه وعقد عبدالملك بيعة ولاية العهد للوليد وسليمان من بعده، وأمر ولاته فى جميع الأمصار بأخذ البيعة لهما، فكان موقف سعيد بن المسيب هو الامتناع عن البيعة؛ لأن ذلك التزام بسنة النبى ﷺ فى نظره، لأنه نهى عن البيعة لاثنين، فلا بد من تنفيذ ذلك، مهما كلفه الامتناع من ثمن باهظ. قال عمران بن عبد الله: دعى سعيد للبيعة للوليد وسليمان بعد عبد الملك بن مروان فقال: لا أبايع لاثنين ما اختلف الليل والنهار. قال: فقيل له: ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر، قال: والله لا يقتدى بى أحد من الناس[3].

(١) عبد العزيز بن مروان، بديع محمد الدليمى صـ٢٠٦ - ٢٠٩ .

(٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٣١٣) .

(٣) سعيد بن المسيب سيد التابعين صـ١٥٧، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣١) .

وكانت حجة سعيد بن المسيب فى امتناعه عن البيعة أنه لا يجوز أن يبايع لاثنين بالخلافة فى آن واحد(١). وقال عبد الرحمن بن عبد القارى، لسعيد بن المسيب، حين قدمت البيعة للوليد وسليمان بالمدينة من بعد أبيهما: إنى مشير عليك بخصال ثلاث، قال: وما هى؟ قال: تعتزل مقامك، فإنك تقوم حيث يراك هشام بن إسماعيل ـ والى المدينة ـ قال: ما كنت لأغيّر مقامًا قمته منذ أربعين سنة. قال: تخرج معتمرًا؟ قال: ما كنت لأنفق مالى، وأجهد بدنى فى شىء ليس فيه نية. ثم قال: فما الثالثة؟ قال: تبايع. قال: أرأيت إن كان الله أعمى قلبك، كما أعمى بصرك. قال: فما على!(٢) ـ وكان أعمى ـ قال رجاء بن جميل الإيلى: فدعاه هشام إلى البيعة، فأبى، فكتب فيه إلى عبد الملك، فكتب إليه عبد الملك: مالك ولسعيد؟ ما كان علينا منه شىء نكرهه، فأما إذا فعلت، فاضربه ثلاثين سوطًا، وألبسه تُبَّان(٣) شعر، وأوقفه للناس(٤).

وكان للفقيه الكبير قبيصة بن ذؤيب دور فى ندم الحكام على صنيعهم، ولام الخليفة على ما فعل بابن المسيب، وتم إخلاء سبيله من السجن من قبل والى المدينة الذى سجنه وجلده(٥).

فهذا هو موقف سعيد بن المسيب وتمسكه بفتواه، فقد رفض -بشدة- الخضوع للسلطان وخداع الأمة، فهو يرى أن امتناعه عن البيعة، إذا لم يعلمه الناس فلا جدوى منه، فلابد للعالم والفقيه أن يبين ما يحدد موقفه(٦)، وكان سعيد بن المسيب عنده أمر عظيم من بنى أمية وسوء سيرتهم، وكان لا يقبل عطاءهم(٧)، وقد اختلف المؤرخون فى أمر سعيد بن المسيب، بأن والى المدينة هو الذى عرّضه للعقوبة دون أمر عبد الملك، والبعض الآخر قال: إن عبد الملك هو الذى أمر، فالذى يهمنا هنا هو موقف سعيد من ولاية العهد للوليد وسليمان، وتعرضه للعقوبة والمحنة مما زاد من حدة الخلاف بينه وبين بنى مروان وأسهم فى توسيع الفجوة فى علاقته بهم وولاتهم(٨) وكانت له مواقف صلبة أمام عبد الملك وابنه الوليد من بعده(٩)، ويلحظ المتمعن فى خلاف سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ لبنى أمية وولاتهم، التزامه بآداب جمة يجدر الوقوف عندها وتأملها للإفادة منها، ومن أهم تلك الآداب ما يلى:

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣١).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٣١).
(٣) التبان: سروال صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة.
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣١).
(٥) سعيد بن المسيب سيد التابعين صـ١٦١.
(٦) الفقهاء والخلفاء، سلطان حثلين صـ٧٠.
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٢٨).
(٨) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٣٧٨.
(٩) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٢٦، ٢٢٧).

١- إنه على الرغم مما حدث بينه وبين بعض خلفاء بنى أمية وولاتهم فإنه يعترف بإمامتهم وشرعية خلافتهم، فهو يعترف لعبد الملك بن مروان وابنه الوليد بإمرة المؤمنين، كما ورد ذلك فى قوله لحاجب عبد الملك حين دعاه لمقابلة عبد الملك: ما لأمير المؤمنين[(١)] حاجة. وكذلك قالها للوليد حين قدم الوليد المدينة ودخل المسجد مع عمر بن عبد العزيز، ودار فيه مع عمر حتى قربا من سعيد بن المسيب ووقفا عليه، فقال الوليد لسعيد: كيف أنت أيها الشيخ؟ فقال سعيد: خير والحمد لله. فانصرف وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس، فقال عمر: أجل يا أمير المؤمنين[(٢)]. كما أنه على الرغم مما صنع به والى المدينة ـ هشام بن إسماعيل ـ فإنه كان يصلى خلفه، وكل ما فعله مقابل إساءته له أن قال: الله بينى وبين من ظلمنى، أو اللهم انصرنى من هشام[(٣)]، وكان يمتثل أوامرهم فيه، فحين أخرج من السجن نهوا أن يجالسه أحد، فكان إذا أراد أحد أن يجالسه قال: إنهم قد جلدونى، ومنعوا الناس أن يجالسونى[(٤)].

٢ ـ ومن أدب خلافه أنه لم يشغل نفسه بسب بنى أمية أو ولاتهم، أو التعرض لهم بالقدح وإثارة الناس عليهم، فحين قيل له: ادع على بنى أمية، قال: اللهم أعز دينك وأظهر أولياءك وأخز أعداءك فى عافية لأمة محمد ﷺ[(٥)].

٣ ـ كما لم يدفعه كرهه لبنى أمية أن يضع يده مع كل معارض لهم ويسعى لتأييده نكاية للأمويين.

٤ ـ كما أنه على الرغم من كرهه القرب من خلفاء بنى أمية ـ لاسيما بنى مروان منهم- وربما انتقاده لبعض العلماء الذين خالطوهم كقبيصة بن ذؤيب والزهرى، على الرغم من ذلك إلا أن كرهه لهذا العمل من العلماء لم يمتد ليشمل نظرته وتقويمه لهم، بل كان يقدر لهم علمهم واجتهادهم، فروى عنه قوله فى الزهرى: ما مات من ترك مثلك[(٦)]. فانظر إلى هذا الأدب فى الخلاف بين العلماء حين يختلفون فى قضية من القضايا أو موقف من المواقف، فإنه لا يمتد هذا الخلاف ليفسد ذات بينهم أو يشعل فتيل التهم فيما بينهم[(٧)].

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٢٧). (٢) تاريخ الإسلام للذهبى، نقلاً عن أثر العلماء صـ٣٨٩.
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٠)، الطبقات (٥/ ١٢٦).
(٤)، (٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٢). (٦) المصدر نفسه (٥/ ٣٣٧).
(٧) أثر الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ٣٩٠.

وقد استطاع عمر بن عبد العزيز حين تولى الحجاز في عهد الوليد أن يحسن التعامل مع العلماء بشكل عام، وقدر لهم قدرهم، وجعلهم مستشاريه، وخص سعيدًا بمزيد من التقدير والاحترام، ونتيجة لحسن معاملة عمر بن عبد العزيز له تجاوب سعيد معه، قال ابن كثير: وكان سعيد لا يأتي أحدًا من الخلفاء، وكان يأتي عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة، ومرة أرسل عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى سعيد ليسأله في مسألة، فأخطأ الرسول فدعاه، فلما جاء سعيد قال عمر: أخطأ الرسول، إنما أرسلناه يسألك في مجلسك[1]. فانظر كيف كان حرص عمر على تقديره، وانظر أيضًا كيف سارع سعيد إلى المجيء إليه تقديرًا له[2]. كان عالم المدينة وسيد التابعين مدرسة في الأخلاق والقيم والمبادئ، ومن حياته تستفاد دروس وعبر وفوائد، منها:

١ - تزويجه ابنته: كانت بنت سعيد قد خطبها عبد الملك لابنه الوليد، فأبى عليه[3]، وزوَّج سعيد ابنته لابن أبي وداعة أحد تلاميذه، فعن ابن أبي وداعة قال: كنت أجالس سعيد بن المسيِّب، ففقدني أيامًا، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: تُوُفِّيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناها؟ ثم قال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله، ومن يزوِّجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ قال: أنا، فقلت: أوَ تفعل؟ قال: نعم، ثم تحمَّد، وصلى على النبي ﷺ وزوّجني على درهمين ـ أو قال: ثلاثة- فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي وجعلت أتفكر فيمن أستدين. فصليتُ المغرب، ورجعت إلى منزلي، وكنت وحدي صائمًا، فقدمت عشائي أُفطر، وكان خبزًا وزيتًا، فإذا بابي يقرع، فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد. فأفكرت في كل من اسمه سعيد إلا ابن المسيِّب، فإنه لم يُر أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فخرجت، فإذا سعيد، فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد، ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟ قال: لا، أنت أحق أن تؤتى، إنك كنت رجلاً عزبًا فتزوجت، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب، وردَّ الباب. فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم وضعت القصعة في ظلِّ السراج لكي لا تراه، ثم صعدت إلى السطح فرميت الجيران، فجاءوني فقالوا: ما شأنك؟ فأخبرتهم. ونزلوا إليها وبلغ أمي، فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أُصلحها إلى ثلاثة أيام، فأقمت ثلاثًا ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظ الناس لكتاب الله،

(١) البداية والنهاية، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية صـ٣٩٢ .

(٢) أثر العلماء في الحياة السياسية صـ٣٩٢ . (٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٣).

وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق زوج، فمكثت شهرًا لا آتي سعيد بن المسيب، ثم أتيته وهو في حلقته فسلَّمت، فردَّ عليَّ السلام، ولم يُكلمني حتى تقوَّض المجلس، فلما لم يبق غيري قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: خير يا أبا محمد، على ما يحب الصديق، ويكره العدو، قال: إن رابك شيء فالعصا. فانصرفت إلى منزلي، فوجَّه إليَّ بعشرين ألف درهم[١].

* ـ معرفته بتأويل الرؤى: كان سعيد من أعبر الناس للرؤيا، أخذ ذلك عن أسماء بنت أبي بكر الصِّديق، وأخذته أسماء عن أبيها[٢]، وعن عمر بن حبيب بن قُليع قال: كنت جالسًا عند سعيد بن المسيِّب يومًا، وقد ضاقت بي الأشياء ورهقني دين، فجاءه رجل، فقال: رأيت كأنِّي أخذت عبد الملك بن مروان، فأضجعته إلى الأرض، وبطحته فأفندت في ظهره أربعة أوتاد. قال: ما أنت رأيتها؟ قال: بلى. قال: لا أخبرك أو تخبرني، قال: ابن الزبير رآها، وهو بعثني إليك، قال: لئن صدقت رؤياه قتله عبد الملك، وخرج من صُلب عبد الملك أربعة كلهم يكون خليفة. قال: فرحلت إلى عبد الملك بالشام فأخبرته، فسُرَّ، وسألني عن سعيد بن المسيِّب وعن حاله، فأخبرته وأمر بقضاء ديني وأصبت منه خيرًا[٣]. وعن إسماعيل بن أبي حكيم، قال: قال رجل: رأيت كأنَّ عبد الملك بن مروان يبول في قبلة مسجد النبي ﷺ أربع مرار. فذكرت ذلك لسعيد بن المسيِّب، فقال: إن صدقت رؤياك قام فيه من صلبه أربعة خلفاء[٤]. وعن عمران بن عبد الله، قال: رأى الحسن بن علي كأن بين عينيه مكتوبًا ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فاستبشر به، وأهل بيته، فقصُّوها على سعيد بن المسيِّب، فقال: إن صدقت رؤياه فقلَّ ما بقي من أجله، فمات بعد أيام[٥].

٣ ـ من كلام سعيد بن المسيب: قال: ما أيس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء[٦]، ثم قال لنا سعيد ـ وهو ابن أربع وثمانين سنة قد ذهبت إحدى عينيه وهو يعشو بالأخرى-: ما شيء أخوف عندي من النساء[٧]، وقال: لا تقولوا مصيحف ولا مسيجد، ما كان لله فهو عظيم حسن جميل[٨]، وقال: لا خير فيمن لا يُريد جمع المال من حلِّه، يعطي منه حقه، ويكف به وجهه عن الناس[٩]، وقال: من استغنى بالله، افتقر الناس إليه[١٠]. وقال

(١) سير اعلام النبلاء (٤/ ٢٣٤).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (٤/ ٢٣٥).
(٤) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٦).
(٥)، (٦)، (٧) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٧)
(٨)، (٩) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٨).
(١٠) المصدر نفسه (٣/ ٢٣٩).

برد مولى سعيد بن المسيب له، ما رأيت أحسن ما يصنع هؤلاء! قال سعيد: وما يصنعون؟ قال: يصلى أحدهم الظهر، ثم لا يزال صافًا رجليه حتى يصلى العصر. فقال: ويحك يا برد، أما والله ما هى العبادة، إنما العبادة التفكر فى أمر الله[1]، والكف عن محارم الله. وقال:

ما خفت على نفسى شيئًا مخافة النِّساء، قالوا: يا أبا محمد، إنَّ مثلك لا يريد النساء ولا تريده النساء، فقال: هو ما أقول لكم. وكان شيخًا كبيرًا أعمش[2].

٤ ـ **دعاء مستجاب:** عن على بن يزيد قال: قال لى سعيد بن المسيِّب: قل لقائدك يقوم، فينظر إلى وجه هذا الرجل وإلى جسده، فقام، وجاء فقال: رأيت وجه زنجيٍّ وجسده أبيض. فقال سعيد: إن هذا سبَّ طلحة والزبير وعليًا رضى الله عنهم، فنهيته، فأبى، فدعوت الله عليه، قلت: إن كنت كاذبًا فسوَّد الله وجهك، فخرجت بوجهه قرحة فاسودَّ وجهه[3]. توفى -رحمه الله- عام ٩٤هـ، وسميت السنة التى مات فيها سنة الفقهاء لكثرة من مات منهم فيها[4]. ولما اشتد به الوجع دخل عليه نافع بن جبير يعوده، فأغمى عليه، فقال نافع: وجِّهوه، ففعلوا، فأفاق فقال: من أمركم أن تحولوا فراشى إلى القبلة، أنافع؟ قال: نعم. قال له سعيد: لئن لم أكن على القبلة والملة -والله- لا ينفعنى توجيهكم فراشى[5].

ثانيا: وصية عبد الملك لأولاده ووفاته:

لما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره، فلما فتحت سمع قصَّارًا ـ أى: غسالاً ـ بالوادى، فقال: ما هذا؟ قالوا: قصار، فقال: يا ليتنى كنت قصارًا أعيش من عمل يدى، فلما بلغ ذلك سعيد بن المسيِّب قال: الحمد لله الذى جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم[6].

١ ـ ولما حضره الموت جعل يندم ويندب ويضرب بيده على رأسه ويقول: وددت لو أكتسب قوتى يومًا بيوم واشتغلت بعبادة ربى[7].

٢ ـ وقيل له لما حضره الموت: كيف تجدك؟ قال: أجدنى كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[8] [الأنعام: ٩٤].

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٤١).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٢٤٢).
(٤)، (٥) المصدر نفسه (٤/ ٢٤٥).
(٦)، (٧) البداية والنهاية (١٢/ ٣٩٥).
(٨) المصدر نفسه (١٢/ ٣٩٤).

٣ ـ وقيل إنه لما حضرته الوفاة دعا بنيه فوصاهم فقال: الحمد لله الذى لا يسأل أحدًا من خلقه صغيرًا أو كبيرًا ثم أنشد:

فهل من خالد إما هلكنا ... وهل بالموت للباقين عار؟!

وقيل: إنه قال: ارفعونى، فرفعوه حتى شم الهواء وقال: يا دنيا ما أطيبك! إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإن كنا بك لفى غرور، ثم تمثل بهذين البيتين:

إن تناقش يكن نقاشك يا رب ... عذابًا لا طوق لى بالعذاب

أو تجاوز فأنت رب صفوح ... عن مسىء ذنوبه كالتراب[(١)]

وخطب عبد الملك يومًا خطبة بليغة، ثم قطعها وبكى بكاءً شديدًا، ثم قال: يا رب إن ذنوبى عظيمة، وإن قليل عفوك أعظم منها، اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبى. فبلغ ذلك القول زاهد العراق الحسن البصرى فبكى وقال: لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام[(٢)]، وقال الشعبى: خطب عبد الملك، فقال: اللهمّ إن ذنوبى عظام، وهى صغار فى جنب عفوك يا كريم، فاغفرها لى[(٣)].

٤ ـ جاء ابنه الوليد بباب المجلس وهو غاص بالنساء، فقال: كيف أصبح أمير المؤمنين؟ قيل له: يُرجى له العافية، وسمع عبد الملك ذلك فقال:

وكم سائل عنا يريد لنا الرَّدى ... وكم سائلات والدموع ذوارف

ثم أمر النساء فخرجن، وأذن لبنى أمية فدخلوا عليه وفيهم خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية، فقال لهما: يا ابنَىْ يزيد أتحبان أن أقيلكما بيعة الوليد؟

قالا: معاذ الله يا أمير المؤمنين. قال: لو قلتما غير ذلك لأمرت بقتلكما على حالتى هذه. ثم خرجوا عنه واشتد وجعه، فتمثل ببيت أمية بن أبى الصَّلت:

ليتنى كنت قبل ما قد بدا لى ... فى قلال الجبال أرعى الوعولا[(٤)]

*** وصية عبد الملك لابنه الوليد عند موته تدل على حزمه:**

لما احتضر عبد الملك دخل ابنه الوليد فبكى، فقال له عبد الملك: ما هذا؟ أتحن حنين الجارية والأمة؟! إذا مت فشمر واتزر، والبس جلد النمر وضع الأمور عند أقرانها، واحذر قريشًا، ثم أوصاه بعدة وصايا هى:

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٣٩٦).

(٢) المصدر نفسه (١٢/ ٣٩١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٤٩).

(٤) الأخبار الطوال صـ٢٩٦.

١ ـ يا وليد: اتق الله فيما استخلفك فيه، واحفظ وصيتى.

٢ ـ انظر إلى أخى معاوية فصل رحمه واحفظنى فيه.

٣ ـ وانظر إلى أخى محمد فأمره على الجزيرة ولا تعزله عنها.

٤ ـ انظر إلى ابن عمنا على بن عباس، فإنه قد انقطع إلينا بمودته ونصيحته وله نسب وحق، فصل رحمه، واعرف حقه.

٥ ـ وانظر إلى الحجّاج بن يوسف فأكرمه، فإنه هو الذى مهد لك البلاد، وقهر الأعداء، وخلص لك الملك، وشتت الخوارج.

٦ ـ وأنهاك وإخوتك عن الفرقة، وكونوا أولاد أمٍ واحدة، وكونوا فى الحرب أحراراً، وللمعروف مناراً، فإن الحرب لم تدن منية قبل وقتها، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه، ويميل القلوب بالمحبة، ويذلل الألسنة بالذكر الجميل، ولله در القائل:

إن الأمور إذا اجتمعن فرامها ... بالكسر ذو حنقٍ وبطشٍ مفند

عزت فلم تكسر وإن هى بددت ... فالكسر والتوهين للمتبدد

٧ ـ ثم قال: إذا أنا مت فادع الناس إلى بيعتك، ومن أبى فالسيف، وعليك بالإحسان إلى أخواتك فاكرمهن، وأحبهن إلىَّ فاطمة، وكان قد أعطاها قرطى ماريا، والدرة اليتيمة، ثم قال: اللهم احفظنى فيها[1]، وكان قد تزوجها عمر بن عبد العزيز وهو ابن عمها.

* وصيته لبنيه:

لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة دعا بنيه، فأوصاهم فقال:

١ ـ يا بنى، أوصيكم بتقوى الله، فإنها أحصن كهف، وأزين حلة، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير.

٢ ـ وإياكم والاختلاف والفرقة، فإنها بها هلك الأولون قبلكم، وذل ذوو العدد والكثرة.

٣ ـ وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه، فإنه جنتكم الذى به تستجنون، ونابكم الذى عنه تفترون.

(١) البداية والنهاية (١٢/٣٩٢، ٣٩٣).

٤ ـ أكرموا الحجّاج، فإنه وطأ لكم المنابر، وكونوا عند القتال أحرارًا، وعند المعروف منارًا، وكونوا بنى أم بررة، احلولوا فى مرارة، ولينوا فى شدة. ثم رفع رأسه إلى الوليد فقال:

٥ ـ يا وليد، لأعرفنكم إذا وضعتنى فى حفرتى تمسح عينيك وتعصرهما فعل الأمة، ولكن إذا وضعتنى فى حفرتى فشمر واتزر، والبس جلد النمر، ثم اصعد المنبر فادع الناس إلى البيعة، من قال كذا فقل كذا(١).

*** وفاته ودفنه:**

كان عبد الملك يقول: ولدت فى رمضان، وفطمت فى رمضان، وختمت القرآن فى رمضان، وأتتنى الخلافة فى رمضان، وأخشى أن أموت فى رمضان، فلما دخل شوال وأمن مات(٢)، مات بدمشق سنة ٨٦هـ يوم الجمعة، وقيل: الأربعاء، وصلى عليه ابنه الوليد ولى عهده من بعده، وكان عمره يوم مات ستين سنة، وقيل: ثلاثًا وستين سنة وقيل: ثمانى وخمسين سنة(٣)، ودفن بين باب الجابية وباب الصغير(٤)، وكان نقش خاتمه.. (آمنت بالله مخلصًا)(٥)، وانفرد بالخلافة منذ مقتل ابن الزبير إلى وفاته، والصحيح أنه لما مات كان عمره ستين سنة، حيث ولد عام ستة وعشرين هجرية(٦).

****

(١) المعمرون والوصايا صـ١٦٠، نقلاً عن وصايا وعظات قيلت فى آخر الحياة صـ٩٧، تاريخ ابن عساكر (٦٦/ ١٢٦).

(٢) أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ (٢/ ٢٢).

(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٣٩٦).

(٤) أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ (٢/ ٢٣).

(٥) تاريخ القضاعى صـ٣٤٧.

(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٤٦).

المبحث السادس

خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ)

هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى، الدمشقى، بويع بعهد من أبيه، وكان مترفًا دميمًا، قليل العلم، نهمته فى البناء، أنشأ جامع بنى أمية، وأنشأ أيضًا مسجد رسول الله ﷺ وزخرفه، ورزق فى دولته سعادة، ففتح بوابة الأندلس، وبلاد الترك، وكان لحنة، وحرص على النحو أشهرًا، فما نفع، وغزا الروم مرات فى دولة أبيه، وحج، وقيل: كان يختم فى كل ثلاث، وختم فى رمضان سبع عشرة ختمة، وكان يقول: لولا أن الله ذكر قوم لوط ما شعرت أن أحدًا يفعل ذلك. وكان فيه عسف وجبروت. وقيام بأمر الخلافة، وقد فرض للفقهاء والأيتام والزّمنى والضعفاء، وضبط الأمور(١).

أولاً: أهم أعماله الحضارية والإنسانية:

١- توسيع المسجد النبوى:

كان الوليد بن عبد الملك من اشهر خلفاء بنى أمية، وهو أكثرهم عناية بالبناء والعمران حتى لقب مهندس بنى أمية، وأراد الوليد أن يبنى المسجد النبوى ويشيده بما يليق به وبعظمة الخلافة فى عهده، فصمم على تنفيذ ذلك المشروع- وهو توسعة المسجد النبوى- وأدخل حُجَر أمهات المؤمنين وحجرة فاطمة وحجرة عائشة رضى الله عنهن جميعًا فى المسجد، إضافة إلى أن المؤرخين قد ذكروا أن بعض جدران الحجرة قد بدأ فيه الخلل نتيجة القدم(٢)، وعندما وصل خطابه بذلك إلى واليه على المدينة عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء العشرة(٣) ووجوه الناس، وأخبرهم بما أمر به الوليد فأنكروا ذلك وكرهوه، ورأوا أن بقاء بيوت النبى ﷺ على حالها أدعى للعبرة والاتعاظ(٤)،وقد قال الفقهاء: هذه حجر قصيرة السقوف وسقوفها من جريد النخل، وحيطانها من اللبن، وعلى أبوابها المسوح، وتركها على حالها أولى، ينظر فيها الحجاج والزوار والمسافرون إلى بيوت النبى ﷺ فينتفعوا بذلك ويعتبروا به، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد فى الدنيا، فلا يعمرون فيها إلا بقدر

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٨، ٣٤٩).

(٢) الشامل فى تاريخ المدينة (١/ ٣٩٦)، القبورية فى اليمن ص٧١.

(٣)، (٤) البداية والنهاية (١٢/ ٤١٤).

الحاجة، وهو ما يستر ويكن، ويعرفون أن هذا البنيان العالى إنما هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة، وكل طويل الأمل راغب فى الدنيا وفى الخلود فيها. فعند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة المتقدم ذكرهم، فأرسل إليه يأمره بتجديد البناء، كما أراد الوليد، ويحكى أن سعيد بن المسيِّب أنكر إدخال حجرة عائشة فى المسجد كأنه خشى أن يتخذ القبر مسجداً[1]. ومن الأعمال التى مهدت للبدع حول القبور من البناء عليها والصلاة إليها، ودعاء الأموات، إدخال حجرة النبى ﷺ فى ناحية المسجد فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، وزخرفته وتزيينه بالفسيفساء[2]، ثم تدرج الحال إلى إدخال جميع الحجر فى المسجد، ثم البناء عليها، وبناء القبة، ثم اتخاذها مصلى، واتخاذها ذريعة للبناء على القبور واتخاذها مساجد، والوقوع فيما حذر منه الرسول ﷺ فى قوله: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجدًا، يحذر مما صنعوا[3]. وقال ﷺ: «ألا، لا تتخذوا القبور مساجد، فإنى أنهاكم عن ذلك»[4]، وقد بنى التابعون على القبر حيطانًا مرتفعة مستديرة حوله، لئلا يظهر فى المسجد فيصلى إليه العوام ويؤدى إلى المحظور، ثم بنوا جدارين من ركنى القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن من استقبال القبر[5]. هذا ما فعله أهل العلم وأولو الأمر عندما اضطروا إلى ذلك سترًا للقبر سترًا كاملاً، فلا ينظر، ولا يتمكن أحد من الصلاة إليه، وما ذلك إلا أنهم فهموا الأحاديث الناهية عن الصلاة على القبور وإليها، وعن اتخاذ القبور مساجد، وفهموا العلة فى ذلك النهى فعملوا على إزالة تلك العلة، وفى هذا أبلغ رد على شبهة بعض الناس الذين يحتجون بأن قبر النبى ﷺ فى مسجده[6]، وقد كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يحفر الفوارة بالمدينة، وأن يجرى ماءها، ففعل، وأمره أن يحفر الآبار وأن يسهل الطرق والثنايا، وساق إلى الفوارة الماء من ظاهر المدينة، والفوارة بنيت فى ظاهر المسجد عند بقعة رآها فأعجبته[7].

٢- بناء المسجد الأموى:

قال ابن كثير فى حوادث عام ٩٦هـ: فيها تكامل بناء الجامع الأموى بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان، جزاه الله عن المسلمين خير الجزاء، وكان

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٤١٥).
(٢) دراسة فى الأهواء والفرق والبدع صـ ٢٥٠.
(٣) البخارى رقم ٤٣٥، ٤٣٦.
(٤) مسلم رقم ٥٣٢.
(٥) شرح مسلم (٥/ ١٢ إلى ١٣).
(٦) القبورية فى اليمن صـ ٧٣.
(٧) البداية والنهاية (١٢/ ٤١٥).

أصل موضع هذا الجامع قديمًا معبدًا بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق، وهم الذين وضعوها وعمروها أولاً . . . ثم إن النصارى حولوا بناء هذا المعبد الذى هو بدمشق معظم عند اليونان، فجعلوه كنيسة، واستمر النصارى على دينهم هذا بدمشق وغيرها نحو ثلاثمائة سنة حتى جاء الإسلام، وعندما صارت الخلافة إلى الوليد عزم على تحويلها إلى مسجد، بعد أن تفاوض مع النصارى وقام بترضيتهم مقابل عروض مغرية[1].

ثم أمر الوليد بإحضار آلات الهدم، واجتمع إليه الأمراء والكبراء من رؤساء الناس، وجاء إليه أساقفة النصارى وقساوستهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنا نجد فى كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن. فقال: أنا أحب أن أجن فى الله عز وجل، والله لا يهدم فيها أحد شيئًا قبلى[2]، ثم صعد المنارة، ثم إلى أعلى مكان من الكنيسة وضرب بها فى أعلى حجر فألقاه، فتبادر الأمراء إلى الهدم[3]، فهدم الوليد والأمراء جميع ما جدده النصارى فى تربيع هذا المكان من المذابح والأبنية . . ثم شرع فى بنائه، وقد استعمل الوليد فى بناء هذا المسجد خلقًا كثيرًا من الصناع والمهندسين والفعلة، وكان المستحث على عمارته أخاه، وولى عهده من بعده سليمان بن عبد الملك[4]، وقد أنفق فى مسجد دمشق أربعمائة صندوق فى كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وفى رواية: فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار.

قلت: فعلى الأول يكون ذلك خمسة آلاف ألف وستمائة ألف دينار، وعلى الثانى يكون المصروف فى عمارة الجامع الأموى أحد عشر ألف ألف دينار، ومائتى ألف دينار[5]، وقد نقل إلى الوليد بأن الناس يقولون: أنفق الوليد أموال بيت المال فى غير حقها، فنودى فى الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد الوليد المنبر وقال: إنه بلغنى عنكم أنكم قلتم: أنفق الوليد بيوت الأموال فى غير حقها. ثم قال: يا عمر بن مهاجر، قم فأحضر أموال بيت المال، فحملت على البغال إلى الجامع وبسطت الأنطاع تحت القبة ثم أفرغ عليها المال ذهبًا صبيبًا وفضة خالصة حتى صارت كومًا، حتى كان الرجل لا يرى الرجل من الجانب الآخر، وهذا شىء كثير، فوزنت الأموال، فإذا هى تكفى الناس ثلاث سنين مستقبلة، وفى رواية: ست عشرة سنة مستقبلة، ولو لم يدخل للناس شىء بالكلية، ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك، ثم قال الوليد: يا أهل دمشق، إنكم تفخرون على الناس بأربع: بهوائكم، ومائكم، وفاكهتكم، وحماماتكم، فأحببت أن

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٥٦٦، ٥٦٧).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (١٢/ ٥٦٩).
(٤) المصدر نفسه (١٢/ ٥٧٠).
(٥) المصدر نفسه (١٢/ ٥٧٥).

أزيدكم خامسة وهى هذا الجـامع، فاحمدوا الله تعالى. وانصرفـوا شاكرين داعين[1]. ولما كمل بناء الجامع الأمـوى لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن، ولا أبهى، ولا أجلّ منه، بحيث إذا نظر الناظر إليه، أو إلى أى جـهة منه، أو إلى أى بقعة أو مكان منه، تحيـر فيما ينظر إليه لحـسنه جميـعه، ولا يمل ناظره، بل كلمـا أدمن النظر، بانت له أعجـوبة ليست كالأخرى[2].

٣ ـ المستشفيات فى عهد الوليد:

كان الخليفة الوليد بن عبد الملك أول من أسس مـستشفى خاصًا بالمجذومين، وذلك سنة ٨٨هـ، وجعل فيه أطـباء مهرة، وأجرى عليهم الأرزاق، وأمر بعـزلهم عن الأصحاء كى لا تنتقل العدوى من المصـابين إلى الأصحاء، وهذا ما يعرف فى التـاريخ بدور المجذومين[3]. يقول الأستاذ الدكتـور أحمد شوكت الشطى: . . أول مؤسسة عرفت هى مـجذمة الوليد بن عبـد الملك فى دمشق سنة ٨٨هـ، ثم تعددت الملاجئ بعـد ذلك فى مختلف البلاد العـربية لبذل العناية الإنسـانية لهؤلاء التعسـاء، وتعد المجاذم العـربية أول دور عولج فيهـا المصابون بالجذام معالجة فنية[4]، ويقول أحمد عيسى بكر: قال الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندى: إن أول من اتخذ البيمارستان بالشـام للمرضى الوليد بن عبد الملك، وهو سادس خلفاء بنى أمية. . وقال رشـيد الدين بن الوطواط: أول من عمل البيمارستـان وأجرى الصدقات على الزَمْنَى والمجذومين والعميان والمساكين، واستخدم لهم الخدام الوليد بن عبدالملك. وقال تقى الدين المقريزى: أول من بنى البـيمارستـان فى الإسلام ودار المرضى الوليد بن عـبد الملك، وهو أيضًا أول من عـمل دار الضيـافة وذلك سنة ٨٨هـ، وجـعل فى البيمـارستـان أطباء، وأجرى لهم الأرزاق وأمر بحـبس المجذومين لئلا يخـرجوا، وأجرى عليهم وعلى العـميان الأرزاق، ولم يصل إلينا أى علم أو إشارة عن المكان الذى أنشأ فيه الوليد البيمارستان[5].

٤ ـ كفالة الدولة للمحتاجين وتطوير الطرق:

كان الوليد يخصص الأرزاق للفـقهاء والضعفاء، والفقـراء ويحرم عليهم سؤال الناس، ويفرض لهم ما يكفـيهم، كما فرض على العمـيان والمجذومين[6]، فقد أعطى المجذومين

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٥٧٦). (٢) المصدر نفسه ١٢/ ٥٧٩.

(٣) المستشفيات الإسلامية من العصر النبوى إلى العصر العثمانى صـ ٨٠، الأمويون وآثارهم المعمارية صـ ٩٧.

(٤) المستشفيات الإسلامية صـ٨٠. (٥) المصدر نفسه صـ١٨٨ .

(٦) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ١٥٨.

وقال: لا تسألوا الناس، وأعطى كل مُقعد خادمًا، وكل ضرير قائدًا، وفُتحت فى ولايته فتوح عظام[1]، وقد اهتم الوليد بتعبيد الطرق وبخاصة تلك التى تؤدى إلى الحجاز لتيسير سفر الحُجاج إلى بيت الله الحرام، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز فى تسهيل الثنايا وحفر الآبار وعمل الفوارة فى المدينة، وأمر لها بقوام يقومون عليها وأن يسقى منها أهل المساجد[2].

ثانيًا: ديوان المستغلات:

يعتبر عهد الوليد امتدادًا لأبيه فى النظام السياسى والاقتصادى والإدارى وغيرها، ويبدو أن ديوان المستغلات ظهر ذكره فى عهد الوليد، وكان هذا الديوان ينظر فى إدارة أموال الدولة غير المنقولة من أبنية وعمارات وحوانيت.. ولأول مرة ترد إشارة إلى ديوان المستغلات فى عهد الوليد حيث ذكر أن نفيع بن ذؤيب تقلد للوليد بن عبد الملك ديوان المستغلات، وأن اسمه مكتوب على لوح فى سوق السراجين بدمشق[3]. وهذا يدل على أن الديوان كان قائمًا فى خلافة الوليد، ولعله أحدث قبل هذا الوقت، ووجود اسمه على لوح فى سوق دمشق له دلالته على وجود أملاك عائدة إلى الدولة، وأن نفيعًا كان يشرف على جباية وارداتها[4].

ثالثًا: الوليد والقرآن الكريم:

أخذ الخلفاء الأمويون والأمراء أنفسهم بتلاوة القرآن وختمه من وقت لآخر، وقد شب الوليد على حب القرآن الكريم والإكثار من تلاوته، وحث الناس على حفظه وإجازتهم على ذلك، حدث إبراهيم بن أبى عبلة قال: قال لى الوليد بن عبد الملك يومًا: فى كم تختم القرآن؟ قالت: كذا وكذا، فقال: أمير المؤمنين -على شغله- يختمه فى ثلاث ـ وقيل فى سبع ـ قال: وكان يقرأ فى شهر رمضان سبع عشرة ختمة، قال إبراهيم: رحم الله الوليد، وأين مثله؟ بنى مسجد دمشق، وكان يعطينى قطع الفضة، فأقسمها على قرّاء بيت المقدس[5]، وروى الطبرى أن رجلاً من بنى مخزوم سأل الوليد قضاء دين عليه. فقال: نعم إن كنت مستحقًا لذلك، قال: يا أمير المؤمنين، وكيف لا أكون مستحقًا لذلك مع قرابتى؟ قال: أقرأت القرآن؟ قال: لا، قال: ادن منى، فدنا منه، فنزع عمامته بقضيب كان فى يده وقرعه قرعات بالقضيب، وقال للرجل: ضم إليك هذا فلا يفارقك حتى يقرأ القرآن، فقام إليه عثمان بن يزيد بن خالد... فقال: يا أمير المؤمنين، إن علىَّ دينًا، فقال:

(1) البداية والنهاية (١٢/٦٠٩). (2) تاريخ الطبرى (٧/٣٣٧).
(3) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى صـ٢٠٠.
(4) المصدر نفسه صـ٢٠٠. (5) البداية والنهاية (١٢/٦٠٧).

أقرأت القرآن؟ قال: نعم، فاستقرأه عشر آيات من الأنفال، وعشر آيات من براءة، فقرأ، فقال: نعم نقضى عنكم، ونصل أرحامكم على هذا[1]. وقال عنه ابن كثير: . . فقد كان صينًا فى نفسه حازمًا فى رأيه، يقال: إنه لا تعرف له صبوة. ومن جملة محاسنه ما صح عنه أنه قال: لولا أن الله قص علينا قصة لوط فى كتابه ما ظننت أنَّ ذكرًا يأتى ذكرًا كما تؤتى النِّساء[2].

رابعًا: عروة بن الزبير فى ضيافة الوليد:

عروة بن الزبير بن العوام، ابن حوارى رسول الله ﷺ، الإمام، عالم المدينة، المدنى، الفقيه، أحد الفقهاء السبعة[3]، كان يقرأ القرآن كل يوم فى المصحف نظرًا ويقوم به الليل، فما تركه إلا ليلة قطعت رجله وقصة ذلك أن عروة خرج إلى الوليد بن عبد الملك، حتى إذا كان بوادى القُرى، وجد فى رجله شيئًا، فظهرت به قرحة، ثم ترقّى به الوجع، وقدم على الوليد وهو فى محمل، فقال: يا أبا عبد الله اقطعها، قال: دونك. فدعا له الطبيب وقال: اشرب المُرْقِد[4]. فلم يفعل، فقطعها من نصف الساق فما زاد أن يقول: حسٍّ[5] حسٍّ، فقال الوليد: ما رأيت شيخًا قط أصبر من هذا. وأصيب عُرْوة بابنه محمد فى ذلك السفر، فى إصطبل[6] الوليد فضربته الدواب بقوائمها فقتلته، فأتى عروة رجل يعزيه فقال: إن كنت تُعزِّينى برجلى فقد احتسبتها، قال: بل أُعَزِّيك بمحمد ابنك، قال: وما له؟ فأخبره فقال: اللهم أخذت عضواً وتركت أعضاء، وأخذت ابنًا وتركت أبناء[7]، وجاء فى رواية: اللهم كان لى بنون سبعة، فأخذت واحدًا، وأبقيت لى ستة، وكان لى أطراف أربعة، فأخذت طرفًا، وأبقيت ثلاثة، ولئن ابتليت، لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت[8]. وجاء فى رواية عن ابنه عبد الله: نظر أبى إلى رجله فى الطست، فقال: إنَّ الله يعلم أنِّى ما مشيت بك إلى معصية قط وأنا أعلم[9]، ولما قدم المدينة أتاه ابن المنكدر فقال: كيف كنتَ؟ قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

وجاء عيسى بن طلحة إلى عروة بن الزبير حين قدم، فقال عروة لبعض بنيه: اكشف لعمك رجلى، ففعل، فقال عيسى: إنا -والله- يا أبا عبد الله ما أعددناك للصراع، ولا

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٩٧، ٣٩٨).
(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٤٠٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٢١).
(٤) المرقد: شىء يُشرب فينوّم من يشربه ويرقده.
(٥) حس: تقال عند الألمّ.
(٦)، (٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٣٣).
(٨)، (٩) المصدر نفسه (٤/ ٤٣١).

للسباق، ولقد أبقى الله منك لنا ما كنَّا نحتاج إليه، رأيك وعلمك. فقال: ما عزَّاني أحد مثلك[1]، قال ابن خلّكان: كان أحسن من عزّاه إبراهيم بن محمد بن طلحة فقال: والله ما بك حاجة إلى المشي، ولا أربٌ في السَّعي، وقد تقدّمك عضو من أعضائك وابن من أبنائك إلى الجنَّة، والكل تبع للبعض إن شاء الله، وقد أبقى الله لنا منك ما كنَّا إليه فقراء من علمك ورأيك، والله وليُّ ثوابك والضمين بحسابك[2]، وقد توفى عروة وهو ابن سبع وستين سنة، سنة ٩٣ هـ[3].

خامسًا: الوليد يطلب من الحجّاج أن يكتب له سيرته:

كتب الوليد إلى الحجّاج أن يكتب إليه بسيرته، فكتب إليه: إني أيقظت رأيي وأنمت هواي، وأدنيت السيد المطاع في قومه ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته، وقسمت لكل خصم من نفسي قسمًا يعطيه حظًا من نظري، ولطيف عنايتي، وصرفت السيف إلى النَّطِف[4] المسيء، والثواب إلى المحسن البريء[5]، فخاف المذنب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب[6].

سادسًا: أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك:

هي أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان الأموية أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد ابن عبد الملك، كانت إحدى فضليات النساء في عصرها، وقد ذكرها أبو زرعة في طبقاته فيمن حدَّث بالشام من النساء، فقال: أم البنين ابنة عبد العزيز بن مروان، وروى عنها ابن أبي عَبْلة[7]. وكانت -رحمها الله- دائمة الذكر لله سبحانه وتعالى، موصولة القلب بكتابه الكريم، تتعاهد القرآن صباح مساء فلا تكاد ترى إلا وهي تالية للقرآن خاضعة لذكر الرحمن، وكانت تسابق زوجها الوليد في تلاوة القرآن، ولها مواقف وأقوال محمودة منها:

١- **خشيتها لله عز وجل:** كانت تختلف عما كانت عليه عامّة النساء، فإذا ما ذكر الله عز وجل، استشعرت خشيته ومهابته في قلبها، ورأت بنور بصيرتها أنَّ السعداء هم الذين يخافون الله، ومن أقوالها في هذا: ما تحلّى المتحلّون بشيء أحسن عليهم من عظيم مهابة الله عز وجل في صدورهم، وكانت تتقرّب إلى الله عز وجل بكل ما يرضيه ويقرّبها إليه. ومن صور حياتها المضيئة ما ذكره ابن الجوزي - رحمه الله - أنَّها كانت تعتق في كل

(١)، (٢)، (٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٣٤).

(٤) الشهب اللامعة صـ٦٣٥. النطف: المريب المتهم. (٥)، (٦) المصدر نفسه صـ٦٣٦.

(٧) تهذيب التهذيب (١/ ١٤٢، ١٤٣)، نساء من عصر التابعين صـ ١٩١.

جمعة رقبة، وتحمل على فرس فى سبيل الله عزَّ وجل[١]، وبلغت هذه التابعية درجة عالية من الورع والخوف من الله تعالى؛ فقد كانت تتحرى أمورها بدقة وتعقل، فلا تكاد تقبل عرضًا أو مالاً جاء إلا من وجه شرعى، وترفض كل «هدية» جاءت من أى مصدر غير مشروع ، وإليك هذه القصة: حجَّ الوليد بن عبد الملك، وحجّ محمد بن يوسف من اليمن، وحمل هدايا للوليد، فقالت أم البنين للوليد ـ زوجها ـ: يا أمير المؤمنين اجعل لى هدية محمد بن يوسف، فأمر بصرفها إليها، فجاءت رسل أم البنين إلى محمد بن يوسف فيها فأبى وقال: ينظر فيها أمير المؤمنين، فيرى رأيه ـ وكانت هدايا كثيرة ـ فقالت: يا أمير المؤمنين إنك أمرت بهدايا محمد بن يوسف أن تُصرف إلىَّ، ولا حاجة لى بها، قال: ولم؟ قالت: بلغنى أنّه غصبها الناس، وكلَّفهم عَمَلها وظَلَمهم، وحمل محمد بن يوسف المتاع إلى الوليد. فقال له الوليد: بلغنى أنَّك أصبتها غصبًا. قال: معاذ الله، فأمر الوليد، فاستُحلف بين الرُّكن والمقام خمسين يمينًا بالله ما غصب شيئًا منها، ولا ظلم أحدًا ولا أصابها إلا من طَيِّب، فحلف، فقبلها الوليد ودفعها إلى أم البنين، فمات ابن يوسف باليمن[٢].

٢ ـ **جودها وكرمها:** قيل لأمِّ البنين ـ رحمها الله ـ: ما أحسن شىء رأيت؟ قالت: نعم الله مقبلة علىّ[٣]. ومن أقوالها فى ذم البخل والبخلاء: لو لم يدخل على البخلاء فى بخلهم إلا سوء ظنّهم بالله عز وجل لكان عظيمًا. ومن أخبار جودها أنها كانت تدعو النِّساء إلى بيتها، وتكسوهن؛ الثياب الحسنة، وتعطيهن الدنانير وتقول: الكسوة لكُنَّ والدّنانير اقسمنها بين فقرائكن ـ تريد بذلك أن تعلمهن وتعودهن على البذل والجود. وكانت تقول: أفٍ للبخل! والله لو كان ثوبًا ما لبسته ولو كان طريقًا ما سلكته[٤]، وكانت تقول: البخلُ كل البخل من بخل عن نفسه بالجنة[٥]، ويبدو أن أم البنين قد أحبت بذل المال، وإنفاقه فى طرق مشروعة لتشعر بنعمة الله عليها، ولم تكن الدراهم والدنانير تعرف إلى بيتها سبيلا فسرعان ما تنفقها، ولله در الشاعر فكأنه عناها بقوله:

وإنى امرؤ لا تستقر دراهمى ... على الكف إلا عابرات سبيل[٦]

---

(١) نساء من عصر التابعين (٢/ ١٥٩).

(٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٩٩).

(٣) بهجة المجالس للقرطبى (١/ ١١٩)، نقلاً عن نساء من عصر التابعين (٢/ ١٦٠).

(٤) تاريخ دمشق، نقلاً عن نساء من عصر التابعين (٢/ ١٦٢).

(٥) المحاسن والمساوئ للبيهقى صـ١٨٦.

(٦) نساء من عصر التابعين (٢/ ١٦٢).

وكانت تقول: جُعل لكل قوم نهمة فى شيء وجعلت نهمتى فى البذل والإعطاء، والله للصِّلة والمواساة أحب إلىّ من الطعام الطيب على الجوع ومن الشراب البارد على الظمأ[(١)]، ولشدة حرصها على الإنفاق، ووضع المال فى مواضعه واصطناع آيات المعروف كانت تقول: ما حسدت أحدًا قط على شيء إلا أن يكون ذا معروف، فإنى كنت أحب أن أشركه فى ذلك. ومن روائع أقوالها فى هذا: وهل ينال الخير إلا باصطناعه[(٢)]؟ فمن جملة اصطناعها للمعروف، والإعانة عليه ما ورد أن الثريا بنت على بن عبد الله، لما مات زوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف عنها ـ أو طلقها ـ خرجت إلى الوليد بن عبد الملك وهو خليفة بدمشق فى دين كان عليها، فبينما هى عند زوجه أمّ البنين بنت عبد العزيز، إذ دخل عليها الوليد، فقال: من هذه عندك؟ قالت أم البنين: الثُّريا بنت على جاءتنى أطلب إليك فى قضاء دين عليها وحوائج لها. فقضيت حوائجها وانصرفت شاكرة لأمّ البنين وزوجها الوليد[(٣)].

٣ـ أم البنين والحجّاج: تذكر كتب التاريخ أن الحجّاج بن يوسف قدم على الوليد بن عبد الملك، فأذن له بالدخول، فدخل عليه، وعليه عمامة سوداء وقوس عربية، وكنانة. فبعثت إليه أم البنين فقالت: من هذا الأعرابى المستلئم ـ المتسلح فى السِّلاح ـ عندك، وأنت فى غلالة غررٌ؟ فأرسل إليها أنه الحجّاج بن يوسف الثقفى. فراعها ذلك وأوجست خيفة فى نفسها وقالت: والله، لأن يخلو بك ملك الموت، أحب إلىّ من أن يخلو بك الحجّاج بن يوسف وقد قتل الخلق وأهل الطاعة ظلمًا وعدوانًا، فعرف الحجّاج رأى أم البنين، فقال للوليد: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة، ولا تطلعهن على أمرك، ولا تطلعهن فى سرّك، ولا تستعملهن لأكثر من زينتهن، وإياك ومشاورتهن، فإنّ رأيهن إلى أفن، وعزمهن إلى وهن، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الجلوس معهن، فإنّ ذلك أوفر لعقلك وأبين لفضلك، ثم نهض الحجّاج وخرج من عند الوليد، فدخل الوليد على أم البنين، فأخبرها بمقالة الحجّاج ورأيه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أحبُ أن يأمره أمير المؤمنين بالتسليم على غدًا، قال: أفعل، فغدا الحجّاج على الوليد فقال: ائت أم البنين، فسلم عليها. فقال: أعفنى من ذلك يا أمير المؤمنين، فقال الوليد: لتفعلنّ، فلا

(١) زهر الآداب للحصرى (١/ ٢٥٨)، بتصرف يسير نقلاً عن نساء من عصر التابعين (٢/ ١٦٣).

(٢) نساء من عصر التابعين (٢/ ١٦٣).

(٣) زهر الآداب للحصرى (١/ ٢٥٨)، بتصرف يسير نقلاً عن نساء من عصر التابعين (٢/ ١٦٣).

بدّ من ذلك، وأسقط فى يد الحجّاج، فهو يعلم رأيها فيه، وفى أخيه محمد بن يوسف من قبل، واللقاء معها لا يبشر بخير، ولكن، ليس فى الأمر حيلة، ولا مخرج له من هذا الموقف المحرج. فمضى وأتى مكانها، فحجبته طويلاً، ثم أذنت له، وتركته قائمًا ولم تأذن له فى الجلوس، ثم قالت له: أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث؟ ثم ذكرت له قتل عبد الله بن الزبير، وعددت له فظائعه وأنكرت عليه قوله بالأمس ـ فى النساء ـ مع زوجها الوليد، وذكرت له قبح منظره وسوء خلقه، ثم قالت تعرّض به: قاتل الله الذى يقول وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك:

أسدٌ علىَّ وفى الحروب نعامة ... ربداء تنفر من صفير الصّافر

إلى آخر الأبيات.. ثم أمرت جارية لها، فأخرجته مقبوحًا مذمومًا مدحورًا، فلما دخل على الوليد سأله فقال: ما كنت فيه يا أبا محمد؟ قال: والله يا أمير المؤمنين، ما سكتت حتى كان بطن الأرض أحب إلى من ظهرها، فضحك الوليد وقال: يا حجّاج إنها ابنة عبد العزيز بن مروان[١]، وأما ما ينسب إلى أم البنين فى قصتها المكذوبة مع وضاح اليمنى، فهى ليس لها نصيب من الصّحة[٢]، وما ذكرته كتب الأدب من الأكاذيب والأباطيل فى حق هذه التابعية لا ينظر إليه ولا يعتمد فى تقرير الحقائق التاريخية.

سابعًا: المراسلات بين الوليد وملك الروم:

كانت هناك مراسلات بين الوليد وملك الروم ولاسيما حينما هدم الوليد كنيسة دمشق، فكتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التى رأى أبوك تركها، فإن كان صوابًا فقد أخطأت، وإن كان خطأ فما عذرك؟. فكتب إليه الوليد: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]. وحين قرر الوليد بن عبد الملك فتح القسطنطينية وأعد العدة لذلك أرسل قيصر الروم سفيرًا يدعى دانيا حاكم مدينة سينوب إلى دمشق للتداول مع الخليفة حول إمكانية عقد هدنة بين الطرفين، وزوده بتعليمات سرية ترمى إلى الوقوف على مدى استعدادات المسلمين لحصار القسطنطينية، وعند رجوعه أطلعهم على استعداد العرب للحملة وحث الروم على اتخاذ التدابير الكفيلة لمواجهة الموقف[٣]، وهذا يدل على أن

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٤٤، ٤٥)، نساء من عصر التابعين (٢/ ١٦٩).

(٢) أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية صـ٤١٨.

(٣) السفارات فى التاريخ الإسلامى، يونس السامرائى صـ ٤٠٩.

الروم كانوا يتخذون من السفراء والوفود وسيلة لجمع المعلومات عن الدولة الإسلامية واستعداداتها اتجاه الروم، والتجسس على الدولة الإسلامية مستغلين كونهم رسلاً بين الدولتين مستفيدين من طبيعة المهمة السلمية التى يقومون بها، وكانت هناك مراسلات وتبادل هدايا بين الخليفة الوليد بن عبد الملك وملوك الروم حين أراد بناء الجامع الأموى، فعلى سبيل المثال -لا الحصر- ما أهداه الوليد إلى ملك الروم من كميات الفلفل قدرت قيمتها بعشرين ألف دينار(١)، وهناك روايات كثيرة تشير إلى أن التعامل السلمى وتبادل الخبرات كان موجودًا بين الوليد وقيصر الروم، فقد أراد الوليد الاستفادة من خبرات الروم فى صناعة الفسيفساء والبناء والعمران(٢)، وكانت هناك مراسلات متعلقة بالأسرى والرهائن بين الطرفين، فقد كانت من المسائل المهمة جداً، وكانت المفاوضات بشأنها تجرى إما فى دمشق وإما فى القسطنطينية، وليس فى مدن محلية صغيرة(٣).

ثامنًا: محاولة نزع سليمان من ولاية العهد ووفاة الوليد عام ٩٦ هـ:

وفى سنة ٩٦ هـ كان الوليد يريد الشخوص إلى أخيه سليمان لخلعه، وأراد البيعة لابنه من بعده، وذلك قبل مرضته التى مات فيها، فقد أراد من سليمان أن يبايع لابنه عبد العزيز، فأبى سليمان، فأراده على أن يجعله من بعده فأبى، فعرض عليه أموالاً كثيرة فأبى، فكتب إلى عماله أن يبايعوا لعبد العزيز ـ ابنه ـ ودعا الناس إلى ذلك، فلم يجبه أحد إلا الحجّاج وقتيبة وخواصٌ من الناس(٤)، وطلب الوليد من عمر بن عبد العزيز، فامتنع عمر وقال: لسليمان: فى أعناقنا بيعة، فغضب الوليد، وطيَّن على عمر، ثم فتح عليه بعد ثلاث، وقد ذبل ومال عنقه، وقيل: خنق بمنديل حتى صاحت أمُّ البنين أخت الوليد، فلذلك شكر سليمان لعمر وأعطاه الخلافة من بعده، وقد حج عبد العزيز بن الوليد بالناس وكان لبيبًا عاقلاً، دعا إلى نفسه بالخلافة ـ بعد موت سليمان ـ فلمّا سمع باستخلاف خاله سكن، ودخل فى الطاعة(٥).

وأصرّ الوليد على بيعة ابنه وخلع أخيه سليمان، وكتب إليه يأمره بالقدوم فأبطأ، فاعتزم الوليد المسير إليه وعلى أن يخلعه، فأمر الناس بالتأهب وأمر بحُجَره فأخرجت، فمرض ومات قبل أن يسير وهو يريد ذلك(٦)، وكان آخر ما تكلم به الوليد عند موته: سبحان الله

(١) العلاقات العربية ـ البيزنطية صـ ١٣٠.
(٢) المصدر نفسه صـ١٣٩.
(٣) المصدر نفسه صـ١٤٣.
(٤) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٩٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٨، ١٤٩).
(٦) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٠٠).

والحمد لله، ولا إله إلا الله، وكان نقش خاتمه: يا وليد إنك ميت[١]، وكان عمر بن عبد العزيز ممن حضر دفنه قال: لتنزلنه غير موسد ولا ممهد، قد خلفت الأسباب، وفارقت الأحباب، وسكنت التراب، وواجهت الحساب، فقيرًا إلى ما تقدم، عليه غنيًا عما يخلف[٢].

وكانت وفاة الوليد يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين في قول جميع أهل السير[٣]، واختلف في قدر مدة خلافته، واخترت قول الزهري في ذلك: ملك الوليد عشر سنين إلا شهرًا[٤]، واختلف في سنه لما مات فقيل: ست وأربعون سنة وأشهر، وقيل: توفي وهو ابن خمس وأربعين سنة، وقيل: وهو ابن اثنتين وأربعين سنة وأشهر وقيل: سبع وأربعين سنة[٥]، وقيل: صلى عليه عمر بن عبد العزيز. وكان له تسعة عشر ابنًا: عبد العزيز ومحمد والعباس، وإبراهيم، وتمام، وخالد، وعبد الرحمن، ومبشر، ومسرور، وأبو عبيدة، وصدقة، ومنصور، ومروان، وعنبسة، وعمرو، وروح، وبشر، ويزيد، ويحيى. وأم عبد العزيز ومحمد هي أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، وأم أبي عبيدة فزارية، وسائرهم لأمهات شتى[٦].

****

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦٦/ ١٢٩).

(٢) المصدر نفسه (٦٦/ ١٣٢).

(٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٧/ ٣٩٦).

(٦) المصدر نفسه (٧/ ٣٩٧).

المبحث السابع

خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦هـ - ٩٩هـ)

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، الخليفة أبو أيوب القرشى الأموى، بويع بعد أخيه الوليد سنة ست وتسعين، وكانت له دار كبيرة مكان طهارة جيرون[١]، وكان دينا فصيحًا مفوهًا عادلاً محبًا للغزو[٢]، وكان جميلاً، ويرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله واتباع القرآن والسنة وإظهار الشرائع الإسلامية[٣]، وكان يستعين فى أمر الرعية بعمر بن عبد العزيز، وعزل عُمّال الحجّاج. وكتب: إن الصلاة قد أميتت فأحيوها بوقتها، وهمّ بالإقامة ببيت المقدس، ثم نزل قنسرين للرباط وحجّ فى خلافته، وعن ابن سيرين قال: يرحم الله سليمان افتتح خلافته[٤] بإحياء الصلاة واختتمها باستخلاف عمر[٥]، وكان سليمان ينهى الناس عن الغناء[٦].

أولاً: سياسته العامة:

كان عهد سليمان يمثل بداية المرحلة الجديدة من مراحل الخلافة الأموية، وعلى الأخص المروانية منها، لما امتاز به من خصائص جديدة وتغير فى أسلوب الحكم عن سابقيه منهم، إذ اتسمت سياسته بإيثار السلامة والعافية، والنزوع إلى الموادعة، والأخذ برأى أهل العلم والفضل من باب العمل بمفهوم الشورى والتمسك بالتعاليم والأحكام الإسلامية، والحرص على تنفيذها، وهى الأمور التى وضحها فى خطبته التى خطبها بعد استخلافه، وبين فيها سياسته التى سينتهجها فى الحكم[٧].

١- حض الناس على الرجوع إلى القرآن الكريم: إذ يقول: اتخذوا كتاب الله إمامًا، وارضوا به حكمًا، واجعلوه قائدًا؛ فإنه ناسخ لما قبله، ولن ينسخه كتاب بعده[٨].

٢- مفهومه للخلافة: وقال فى موضع آخر من خطبته مؤكدًا تمسكه بتعاليم الإسلام ورغبته بالموادعة والمسالمة ومبينًا مفهومه للخلافة، وما يترتب على ذلك: جعل الله الدنيا دارًا لا تقوم إلا بأئمة العدل، ودعاة الحق، وإن لله عبادًا يملكهم أرضه، ويسوس بهم

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١١).
(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٦٤٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٢).
(٥)، (٦) المصدر نفسه (٧/ ١١٢).
(٧) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ ٩٥.
(٨) البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٢٤٤)، خلافة سليمان صـ ٩٥.

عباده، ويقيم بهم حدوده ورعاية عباده. . . ولولا أن الخلافة تحفة من الله كفرٌ بالله خلعها، لتمنيت أنى كأحد المسلمين يضرب لى بسهمى، فعلى رسلكم بنى الوليد، فإنى شبل عبد الملك، وناب مروان، لا تضلعنى حمل النائبة، ولا يفزعنى صريف الأجفر[1]، وقد وليت من أمركم ما كنت له مكفيًا، وأصبحت خليفة وأميرًا وما هو إلا العدل أو النار. . فمن سلك المحجة حُذى نعل السلامة، ومن عدل عن الطريق وقع فى وادى الهلكة والضلالة، ألا فإن الله سائلٌ كلا عن كل، فمن صحت نيته ولزم طاعته، كان الله له بصراط التوفيق، وبرصد المعونة، فكتب له سبيل الشكر والمكافأة، فاقبلوا العافية فقد رزقتموها، والزموا السلامة فقد وجدتموها، فمن سلمنا منه، سلم منا ومن تاركنا تاركناه، ومن نازعنا نازعناه، فارغبوا إلى الله فى صلاح نياتكم وقبول أعمالكم وطاعة سلطانكم، فإنى غير مبطل لله حدًا، ولا تارك له حقًا، أنكثها عثمانية عمرية[2]. أى الشدة واللين[3].

٣ ـ مفهوم الشورى عند سليمان: وتأكيدًا على مفهوم الشورى الذى جعله سليمان إحدى دعائم حكمه، وصفة لنهجه الجديد قال: وقد عزلت كل أمير كرهته رعيته، ووليت على أهل كل بلد، من أجمع عليه خيارهم واتفقت عليه كلمتهم[4]. ويقول: رحم الله امرءًا عرف سهو المغفل عن مفروض حق وواجب فأعان برأى[5]. ويقول أيضًا فى موقع آخر: أيها الناس، رحم الله من ذُكِّرَ فاذّكر فإن العظة تجلو العماء[6]. . هذا النهج الجديد، مخالف لما نهجه عبد الملك والوليد فى سياسة الدولة، القائمة على بسط النفوذ والسلطة بالقوة والتضييق على الناس[7]، فعبد الملك بن مروان يقول فى إحدى خطبه: والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه[8]، وكان عبد الملك بن مروان أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وكان الناس قبله يراجعون الخلفاء ويعترضون عليهم فيما يفعلون[9]، ولما حضرته الوفاة قال للوليد وكان يبكى عليه عند رأسه: يا وليد، لا ألفينك إذا وضعتنى فى حفرتى أن تعصر عينيك كالأمة الورهاء[10]، بل ائتزر وشمر، والبس جلد النمر، وادع الناس إلى البيعة ثانيًا، ومن قال برأسه كذا، فقل بالسيف كذا[11]، وقد سار الوليد بن عبد الملك على هذا النهج، فمن خطبته عندما تولى الخلافة

(١) صريف الأجفر: أى صوت الجمال الصغيرة.
(٢) المنتظم (٧/ ١٤، ١٥).
(٣) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ ٩٦.
(٤) المنتظم (٧/ ١٤، ١٥).
(٥) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ ٩٦.
(٦) المنتظم (٧/ ١٣).
(٧) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ ٩٦.
(٨) فوات الوفيات لابن شاكر (٢/ ٤٠٤).
(٩) المصدر نفسه (٢/ ٤٠٤).
(١٠) الوره: الحمق فى كل عمل، ويقال الخرق فى العمل.
(١١) الأخبار الطوال صـ ٣٢٥.

قولـه: . . أيها الناس، من أبدى لنا ذات نفـسه ضـربنا الذى فيـه عيناه ومن سكـت مات بدائه[1]. فهذا النهج الذى وضحه سليمان فى خطبته وسار عليه فى خلافته، تنبه عدد من المؤرخين القدامى إليه، وأشاروا إلى جوانبه المختلفـة فى كتاباتهم، فوصفه بعضهم بأنه من خيار بنى أمية[2]، وحتى المؤرخ الشيعى المسعودى وصفه بإيثار السلامة والعافية ونزوعه إلى الموادعة واستشارة أهل العلم بقوله: كان سليمان لين الجانب. . لا يعجل إلى سفك الدماء ولا يستنكف عن مشورة النصحاء[3]، ووصفه ابن كثير بقوله: يرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله، واتباع القرآن والسنة وإظهار الشرائع الإسلامية، رحمه الله[4]، ووصفه لسان الدين الخطيب بقوله: وكان قائمًـا برسوم الشريعة[5]. وأما ابن قتـيبة فيقول: افتـتح بخير وختم بـخير؛ لأنه رد المظالـم إلى أهلها، ورد المسـيرين، وأخرج المـسجونين الذيـن كانوا بالبصرة، واستخلف عـمر بن عبد العزيز وأغز أخاه الصائفة حتـى بلغ القسطنطينية، فأقام بها حتى مات[6]، وأما أبو زرعة الدمشقى، فقد عد خلافة سليمان، وخلافة عمر بن عبد العزيز واحدة، حيث يقول: كانت خلافة سليمان بن عـبد الملك كأنها خلافة عمر بن عبد العزيز، كان إذا أراد شيئًا قال له: ما تقول يا أبا حفص؟ قالا جميعًا[7].

ثانيًا: سياسة سليمان فى اختيار الولاة:

راعى سليمـان اعتـبارات عدة فى اخـتيـار ولاته على الأمصار، ونظرًا لحـساسـية هذا الموضوع، فقد أوضح جانبًا من سياسته تلك فى خطبـته التى خطبها بعد استخلافه، حيث قال: قد عزلت كل أمير كرهته رعيته، ووليت أهل كل بلد من أجمع عليه خيارهم واتفقت عليه كلمتهم[8].

١ـ استشارة العلماء والنصحاء من ذوى الخبرة: ولعل من هذه الاعتبارات استشارة العلماء والنصحـاء من ذوى الخبرة فى كل أمـور الأمصار، فـقد اتخذ عـمر بن عبـد العزيز وزيرًا

(١) تاريخ الطبرى، نقلاً عن خلافة سليمان بن عبد الملك صـ٩٧.

(٢) فوات الوفيات (٢/ ٦٨)، خلافة سليمان صـ٩٧.

(٣) التنبيه للمسعودى صـ٣١٩ نقلاً عن خلافة سليمان صـ ٩٨.

(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٦٤٢).

(٥) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ ٩٨.

(٦) المعارف صـ٣٦٠، خلافة سليمان بن عبد الملك صـ ٩٨.

(٧) تاريخ أبو زرعة (١/ ١٩٣، ١٩٤)، نقلاً عن خلافة سليمان صـ ٩٩.

(٨) المنتظم (٧/ ١٣، ١٤، ١٥).

ومستشاراً[١]، وقد صدر سليمان عن رأيه فى عزل عمال الحجاج[٢]، وممن كان يستشيرهم رجاء بن حيوة الكندى، فقد ولى سليمان محمد بن يزيد الأنصارى ـ ويقال القرشى ـ إفريقية بمشورته[٣].

٢ـ اختيار العلماء وأهل الصلاح: ومن هذه الاعتبارات فى اختيار الولاة أيضًا اختيار الفقهاء، وأهل الصلاح والزهد، آملاً من ذلك استبدال العدل بالظلم،وبالتالى تغيير نظرة المجتمع الإسلامى آنذاك إلى الخلافة الأموية، وكسب الرأى العام لصالحها، ومن هؤلاء أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى على المدينة، وهو أحد فقهائها، وكان ثقة كثير الحديث[٤]، وكذلك الأمر مع عروة بن محمد بن عطية السعدى[٥]، الذى ولاه سليمان اليمن، وكان من الزهاد [٦]وولى اليمن أيضًا فى عهدى عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك[٧] وخرج من اليمن وما معه إلا سيفه ورمحه ومصحفه[٨]، ويروى أنه لما دخل اليمن قال: يا أهل اليمن، هذه راحلتى، فإن خرجت بأكثر منها فأنا سارق[٩]، والشىء ذاته يمكن أن يقال عن عبد الملك بن رفاعة الفهمى والى مصر، حيث اتصف بحسن السيرة والتدين والعفة عن الأموال والعدل فى الرعية، بالإضافة إلى كونه ثقة أمينًا فاضلاً[١٠]، وكذلك الأمر بالنسبة لمحمد بن يزيد والى إفريقية، حيث اتصف بحسن السيرة والعدل بين الرعية[١١].

٣ـ مصلحة الدولة فوق كل الاعتبارات: فى سنة ٩٦هـ جمع سليمان بن عبد الملك العراق ليزيد بن المهلب، حربها، وصلاتها[١٢]، وأضيفت له خراسان، حربها، وصلاتها سنة ٩٧هـ[١٣]، ويمكن رد أسباب تولية يزيد لعدة اعتبارات منها:

---

(١) المنتظم (٧/١٣، ١٤، ١٥)، خلافة سليمان صـ١٤٨.
(٢) الوافى بالوفيات (١٥/٤٠٣)، خلافة سليمان صـ١٤٨.
(٣) فتوح مصر صـ٢١٣، خلافة سليمان صـ١٤٩.
(٤) تهذيب التهذيب (١٢/ ٣٩).
(٥) تهذيب الكمال للمزى (٢/ ٣٢)، خلافة سليمان صـ١٥٠.
(٦) مرآة الزمان، نقلاً عن خلافة سليمان صـ١٥٠.
(٧) تهذيب الكمال (٢٠/ ٣٤٠)، خلافة سليمان صـ١٥٠.
(٨) خلافة سليمان صـ١٥٠.
(٩) تهذيب التهذيب (٧/ ١٨٧)، خلافة سليمان صـ١٥٠.
(١٠) النجوم الزاهرة (١/ ٢٩٦)، خلافة سليمان صـ١٥٠.
(١١) تاريخ إفريقية للرقيق القيروانى صـ٥٨، خلافة سليمان صـ١٥٠.
(١٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٢٤).
(١٣) المصدر نفسه (٥/ ٤٢٥).

أ- انقطاع يزيد بن المهلب إلى سليمان، بعد أن أجاره سليمان من الحجاج والوليد، وتعاظم ما بينهما لدرجة كبيرة جدًا، فالطبرى يقول: وكان لا تأتى يزيد بن المهلب هدية إلا بعث بها إلى سليمان، ولا تأتى سليمان هدية ولا فائدة إلا بعث بنصفها إلى يزيد بن المهلب، كما أن من دلائل تعاظم حظوة يزيد عند سليمان، أن يزيد كان يجلس على سريره[١].

ب- اتخذ سليمان يزيد مستشارًا له فيما يخص المشرق الإسلامى، ويعزز هذا الرأى أن يزيد كان فى خراسان فى حياة أبيه وواليًا بعد وفاة أبيه حتى عزله الحجاج عن خراسان، وبالتالى فإن الحجاج - باعتباره قائدًا عسكريًا وإداريًا كبيرًا - أحدث بوفاته فراغًا كبيرًا، ووجد سليمان أن يزيد هو الأفضل لملء الفراغ الذى أحدثته وفاة الحجاج[٢]، وكانت مصلحة الدولة عند سليمان تفوق كل اعتبار فى تولية الولاة، فقد ولى يزيد بن المهلب حرب العراق وصلاته، إلا أنه لم يوله الخراج، وإنما عهد بأمره إلى رجل من أهل المعرفة والكفاية والدراية فى أمور الخراج فى العراق وهو صالح بن عبد الرحمن مولى تميم[٣]، كما أنه أقر تولية وكيع بن حميد الدوسى علي خراج خراسان، وهو من أهل المعرفة والكفاية والدراية فى هذا المجال[٤].

ثالثًا: سياسة سليمان تجاه حركات المعارضة:

١- الخوارج: لم يعد لهم قوة تذكر، وكل ما كان منهم فى عهد سليمان لا يعدو كونه عصيان مجموعات صغيرة - أو قل كبيرة - فردية لا تكاد تقوم لها قائمة بمجرد إعلانها، ويذكر لسليمان أنه كان أقل شدة من سابقيه فى تعامله مع الخوارج غير الثائرين، فاكتفى بسجن من يسبون الخلفاء منهم[٥]، وكان يستشير عمر بن عبد العزيز فى أمرهم ويصدع لحكمه فيهم، معلمًا سليمان عدم وجود سبة تحل دم المسلم غير سبة الأنبياء[٦]، وكان عمر يرى حبسهم أو العفو عنهم[٧].

٢- الهاشميون: أما بالنسبة لعلاقة سليمان بالعلويين فقد اتسمت بالمودة والهدوء، حيث كان يقرِّب العلويين ويقضى حوائجهم[٨]، وليس من الثابت أن سليمان تحامى أبا هاشم -

---

(١) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ١٥١، الوزراء والكتاب صـ٥٠.

(٢) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ١٥١.

(٣) المنتظم (١٨/٧) خلافة سليمان صـ١٥٢.

(٤) تاريخ الطبرى، نقلاً عن خلافة سليمان صـ١٥٢.

(٥)، (٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١١٢.

(٧) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ١٣١.

(٨) المصدر نفسه صـ١٣٢.

عبد الله بن محمد بـن على بن أبى طالب، ت ٩٨هـ ـ وأرصد له من سمه، ويبدو لنا من دراسة تلك الروايات المتعلقة بهذه القصة أنها موضوعة للأسباب التالية:

أ- تختلف الروايات اخـتلافًا بينًا فـى تحديد اسم الخليفـة الذى دبر حادثة السم، وبعضـها تنسب ذلك إلى الوليد بن عـبد الملك، وبعضها ينسـبه إلى سليمان بن عـبد الملك، أما الجاحظ فـقد حمّل الأمويين مـسئوليـة سم أبى هاشم دون تحديد الشخص المسـئول عن ذلك.

ب- وحتى هذه المصادر التى صـرحت بأن سليمان سمّ أبا هاشم، فإنهـا تختلف فى تحديد كيفية وحيثيات هذه المؤامرة.

جـ- لا تجمع المصادر - التى بين أيدينا - على أن أبا هاشم توفى مسمومًا، فهناك عدة مصادر يستشف منها أن وفاته كانت طبيعية(١).

د ـ وهناك عدة رجـال وافتهم المنية بعـد عودتهم من عند الخليفـة سليمان أو أثناء إقامـتهم عنده(٢)، ولا يمكن اعتبار وفـاة هؤلاء الرجال جميعًا - أو أحدهـم - من تدبير الخليفة لمجرد وفـاتهم وهم فى صحبـته، أو أثناء عودتهم من عنده. والذى يبـدو، أن وفاة أبى هاشم كانت طبيعية وليست بالسم، وأن ادعاء السم ما هى إلا روايات موضوعة(٣).

٣ ـ الزبيريون: اتسمت علاقة سليمان بالزبيـريين بالمودة، كان سليمان يسأل عن أحوالهم ويتفقدهم، حيث قضى دين جـعفر بن الزبير، عندما علم به(٤)؛ وتَردّ المصادر قوة علاقة سليمان بالزبيـريين إلى يد سلفت لعبد الله بن الزبير على سليمـان، ففى أثناء الصراع بين عبـد الله بن الزبير والأمويين أتى إليـه بسليمان بن عـبد الملك من الطائف - وكان يومـئذ غلامًا صغيراً - فكساه وجهزه إلى أبيـه للشام، بعد أن وصله ووصل جميع من كان معه، فكان سليمان يشكر ذلك لعبد الله بن الزبير، فلمـا ولى أحسن إلى جميع ولده، وكثيراً ما كانوا يأتونه فيبرهم ويصلهم، وكان يعظِّم ثابت بن عبد الله من بينهم(٥). إن عهد سليمان اتسم بهدوء نسبى إلى درجـة كبيرة، فلم يشهد حـركات معارضة عنيفـة، فكانت حركات الخوارج صغيرة ولم تهدد كيان الدولة، ووادع الهاشميين وأحسن إليهم، كما وادع الزبيريين مكافأة لهم على اليد التى كانت لعبد الله بن الزبير عليه(٦).

---

(١)، (٢)، (٣) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ ١٣٤.
(٤) المصدر نفسه صـ ١٣٦.
(٥) المصدر نفسه صـ ١٣٧.
(٦) المصدر نفسه صـ ١٣٨.

رابعًا: سليمان والعلماء:

تميز سليمان بن عبد الملك بحرصه على تقريب العلماء وقبول نصيحتهم والاستماع إليهم، ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين كانوا مستشارين، رجاء بن حيوة، وعمر بن عبد العزيز وغيرهما..

١- رجاء بن حيوة: أبو نصر الكندى،الإمام القدوة، الوزير العادل، الفقيه، من جلة التابعين، حدث عن معاذ بن جبل وأبى الدرداء، وعبادة بن الصامت وطائفة[١]، قال عنه مسلمة بن عبد الملك أمير السرايا: برجاء بن حيوة وبأمثاله ننصر[٢]. وهو من العلماء الذين كان لهم قرب وحظوة عند خلفاء بنى أمية، قال عنه صاحب الحلية: مشير الخلفاء والأمراء[٣]، وقد بدأ اتصاله بهم منذ عهد عبد الملك، وقد بلغت مشاركة رجاء وتأثيره السياسى الذروة فى عهد سليمان بن عبد الملك، فقد اتخذه سليمان وزير صدق له يستشيره فى كثير من الأمور والقضايا المتعلقة بسياسة الدولة وإدارتها، فقال عنه سعيد بن صفوان: وكانت له من الخاصة والمنزلة عند سليمان بن عبد الملك ما ليس لأحد يثق به ويستريح إليه[٤]، وقد كان رجاء ملازمًا لسليمان بن عبد الملك حتى فى سفره، بدليل أنه كان مع سليمان حين خرج إلى دابق[٥]، وكان يخلو معه فى مجلسه، وأشرف بنفسه على تمريضه حتى مات[٦]، على أن أكبر تأثير سياسى لرجاء فى عهد سليمان يظهر فى إشارته عليه باستخلاف عمر بن عبد العزيز من بعده، والتخطيط الدقيق لتنفيذ ذلك بحكمة وحنكة[٧]، وسيأتى الحديث عن ذلك فى محله - بإذن الله -. لقد كان لموقف رجاء فى استخلاف عمر أثر سياسى كبير غيرَّ مجرى التاريخ الأموى بصفة خاصة والإسلامى بصفة عامة، وفى عهد عمر بن عبد العزيز ظل رجاء يتبوأ مكانة كبيرة ومنزلة عالية من خلال قربه من عمر وملازمته له، حيث جعله عمر من خواصه وسماره؛ يستشيره ويستنصحه فى أمور العامة والخاصة[٨]، وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز أقبل على شأنه وترك القرب من الخلفاء، وذلك حين رأى أنه لم يعد لقربه من الخليفة ما كان يهدف إليه من تحقيق المصالح وبذل الخير لعامة الأمة[٩].

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٧).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٥٦١).
(٣) الحلية (٥/ ١٧٠).
(٤) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ١٤٦.
(٥) دابق: قرية قرب حلب.
(٦) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٥٣، ٤٥٤).
(٧) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٤٧.
(٨) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٠).
(٩) أثر الحياة السياسية صـ١٥٦.

٢ـ سليمان ونصيحة أبي حازم: حج سليمان بالناس سنة ٩٧هـ فمرّ على المدينة وهو يريد مكة فقال: أهاهنا أحد يذكّرنا؟ فقيل له: أبو حازم، فأرسل إليه فدعاه، فلما دخل عليه قال له: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟ قال: يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرفتني قبل ولا أنا رأيتك، فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب وقال: أصاب الشيخ وأخطأت أنا. فقال سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب، قال: صدقت. فكيف القدوم على الله عز وجل غدًا؟ قال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه، فبكى سليمان وقال: ليت شعري، ما أنا عند الله؟ قال: يا أمير المؤمنين، اعرض عملك على كتاب الله عز وجل، قال: وأين أجده؟ قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣، ١٤] قال: يا أبا حازم، فأي عباد الله أفضل؟ قال: أولو المروءة والتقى، قال: فأي الأعمال أفضل؟ قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم، قال: فأي الدعاء أسمع؟ قال: دعوة المحسن للمحسن، قال: فأي الصدقة أزكى؟ قال: صدقة السائل البائس وجهد من مقلّ ليس فيها منٌّ ولا أذى، قال: فأي القول أعدل؟ قال: قول الحق عند من يخافه أو يرجوه، قال: فأي الناس أحمق؟ قال: رجل انحط من هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره. قال: صدقت، فما الذي تقول فيما نحن فيه؟ قال: يا أمير المؤمنين، تعفيني من ذلك؟ قال: لا، ولكن نصيحة تلقيها إليّ، قال: إن آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا حتى قتلوا عليه مقتلة عظيمة، وارتحلوا عنها، فلو سمعت ما قالوا وما قيل لهم، فغشي على سليمان، فقال رجل من جلسائه: بئس ما قلت يا أبا حازم، قال أبو حازم: كذبت يا عدو الله إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبيننّه للناس ولا يكتمونه، فأفاق سليمان فقال: يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح للناس؟ قال: تدع الصلف وتستمسك بالمروّة وتقسم بالسويّة، قال سليمان: كيف المأخذ به؟ قال: أن تأخذ المال من حله وتضعه فى أهله، قال سليمان: هل لك أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك؟ قال: أعوذ بالله يا أمير المؤمنين! قال: ولمَ؟ قال: أخشى أن أركن إليكم شيئًا قليلاً فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات، قال: يا أبا حازم ارفع إليّ حوائجك، قال: تنجينى من النار وتدخلنى الجنة، قال: ليس ذلك إليّ، قال: فلا حاجة لى غيرها، قال: فادع لى الله يا أبا حازم، قال: اللهمّ إن كان سليمان وليّك فيسّره بخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوّك فخذ بناصيته إلى ما تحب

وترضى، قال سليمان: زدني، قال: يا أمير المؤمنين، قد أوجزت وأكثرت إن كنت من أهله، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي لي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر، قال: أوصني يا أبا حازم، قال: سأوصيك وأوجز: عظِّم ربك ونزّهه أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك، ثم قام، فبعث إليه سليمان بمائة دينار وكتب إليه أن أنفقها ولك مثلها كثير، فردها عليه وكتب إليه: يا أمير المؤمنين، أعوذ بالله أن يكون سؤالك إياي هزلاً وردّي عليك باطلاً، فوالله ما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي؟ يا أمير المؤمنين، إن كانت هذه المائة عوضًا لما حدثتك فالميتة ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحلُّ من هذه، وإن كانت هذه حقًّا لي في بيت المال فلي فيها نظر، فإن سويت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها، قال له جلساؤه: يا أمير المؤمنين، أيسرّك أن يكون الناس كلهم مثله؟ قال: لا والله[1].

خامسًا: إكرام سليمان لأهل الوفاء، ووفاة ابنه أيوب:

١ـ إكرام سليمان لأهل الوفاء: دعا سليمان بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم وهو موثوق في الحديد، وكان صاحب أمر الحجّاج، فلما دخل عليه ازدراه حين رآه ونبت عنه عيناه، وقال: ما رأيت كاليوم، وكان يزيد لا يملأ العين منظره، ثم قال له سليمان: لعن الله رجلاً أقادك رسَنه وحكمك في أمره، فقال له يزيد: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، إنك ازدريتني والأمر عني مدبر، وعليك مقبل، ولو رأيتني والأمر عليّ مقبل، لاستعظمت من أمري ما استحقرت، واستكبرت منه ما استصغرت، فقال له سليمان: صدقت، ثكلتك أمك! اجلس، فجلس في قيوده، فقال له سليمان: عزمت عليك يا ابن أبي مسلم، لتخبرني عن الحجّاج، أتراه يهوي في جهنم، أم قد قرّبها، قال: يا أمير المؤمنين، لا تقل هذا في الحجّاج، وقد بذل لكم النصيحة، وأخفر دونكم الذمة، وآلى وليكم وأخاف عدوكم، وإنه يوم القيامة لعن يمين عبد الملك ويسار الوليد، فاجعله حيث شئت، فصاح سليمان استكراهًا لكلامه وأمر بإخراجه، ثم التفت إلى جلسائه وقال: ثكلته أمه، ما أحسن بديهته، وأحدَّ قريحته، وأجمل تزيينه لنفسه ولصحابه، لقد أحسن المكافآت على الصنيعة، وراعى اليد الجميلة، خلوا سبيله، وأمر بحل قيوده ولم يتعرض لمضرته[2].

٢- وفاة أيوب بن سليمان: لما حضر أيوب بن سليمان بن عبد الملك الوفاة ـ وكان ولي عهد أبيه ـ دخل عليه أبوه وهو يجود بنفسه، ومعه عمر بن عبد العزيز وسعيد بن عقبة

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٤٢٣).
(٢) الشهب اللامعة صـ٤٥٥.

ورجاء بن حيوة، فجعل سليمان ينظر في وجه أيوب، فخنقته العبرة، ثم قال: إنه ما يملك العبد نفسه أن يسبق إلى قلبه الوجد عند المصيبة، والناس في ذلك أصناف: فمنهم المحتسب، ومنهم من يغلب صبره وجزعه، فذلك الجلد الحازم، ومنهم من يغلب جزعه صبره فذلك المغلوب والضعيف، وإني أجد في قلبي لوعة إن أنا لم أبردها خِفْت أن تصدع قلبي كمدًا، فقال له عمر: يا أمير المؤمنين، الصبر أولى بك فلا يحبطن أجرك، قال سعيد ابن عقبة: فنظر إلي وإليّ رجاء بن حيوة نظر المستغيث يرجو أن نساعده على ما أدركه من البكاء، فأما أنا فكرهت أن آمره أو أنهاه، وأما رجاء فقال: يا أمير المؤمنين، إني لا أرى بذلك بأسًا ما لم يأت الأمر المفرط، وإني قد بلغني أن النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه، فقال: **«تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»**. فبكى سليمان حتى اشتد بكاؤه فظننا أن نياط قلبه قد انقطع، فقال عمر بن عبد العزيز لرجاء بن حيوة: بئس ما صنعت بأمير المؤمنين، فقال: دعه يا أبا حفص يقضي من بكائه وطرًا، فإنه لو لم يخرج من صدره ما ترى خفت أن يأتي عليه، ثم أمسك عن البكاء، ودعا بماء فغسل وجهه، وقضى الفتى، فأمر بجهازه، وخرج يمشي أمام جنازته، فلما دفن وقف ينظر إلى قبره ثم قال:

وقفت على قبر مقيم بقفرة ... متاع قليل من حبيب مفارق

ثم قال: السلام عليك يا أيوب، وقال:

كنت لنا أنسًا ففارقتنا ... فالعيش من بَعدك مرٌّ المذاق

ثم قال: يا غلام، أدن دابتي مني، فركب وعطف دابته إلى القبر، وقال:

فإن صبرت فلم ألفظكَ من شبع ... وإن جزعت فعِلقٌ منفسٌ ذهبا

فقال عمر: بل الصبر أقرب إلى الله عز وجل، قال: صدقت، وانصرف [١].

سادسًا: سليمان والأكل والغناء ومدح الشعراء له:

١ـ سليمان والأكل: قدمت المصادر الشيعية وصفًا للعديد من مناقب سليمان، حيث ذكرت محاسنه الخلقية[٢]، ووصفته بالفصاحة[٣]، والتوقف عن سفك الدماء، وباستشارة

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٣٠٢).
(٢) تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٩٩).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٩)، مروج الذهب، (٣/ ١٩٠).

النصحاء[(١)]، ورد المظالم[(٢)]، وبتوالي الفتوحات في أيامه[(٣)]، وعلى النقيض من ذلك، فإن رواة الشيعة لما لم يجدوا ما يقدح بسيرة سليمان ومنجزاته، نجدهم يركزون جل اهتمامهم على وصفه بالشراهة، وبالغوا في ذلك أيما مبالغة، فتارة يصفونه بأنه لا يكاد يشبع[(٤)]، وتارة يصفونه بأنه المصيبة العظمى في الأكل[(٥)]، وتارة يصفونه بأنه أكول نهم نكاح[(٦)]. ويبدو أن الروايات الموالية للعباسيين، والروايات الشيعية، تناست صعوبة - وربما استحالة - أن من جمع بين هذه المحاسن تكون همته مصروفة إلى النكاح والطعام، ولو كان الأمر على ما يقولون، فلن ينتصف سليمان للمظلومين، ولن يعير السياسة الداخلية والخارجية أي اهتمام، ولكان انكفأ على تلبية ملذاته ورغباته، ولكن سيرته وسياسته ومنجزاته العمرانية والعسكرية كفيلة بالرد على هذا الاتهام[(٧)]، وقد ذكرت قصص في هذا الميدان، تشبه الأساطير، كالتي ذكرها ابن أبي الحديد: وكان سليمان بن عبد الملك المصيبة الكبرى في الأكل، حيث أكل ثلاثين خروفًا بثمانين رغيفًا ثم أكل مع الناس كأنه لم يأكل شيئًا[(٨)]، وغيرها من القصص الغريبة والعجيبة.. ويتبين للدارس المحقق أن المبالغة واضحة جلية في تصوير شره سليمان لعدة أسباب:

أ- مخالفتها للطبيعة البشرية التي لا تستطيع التهام هذا الكم الهائل من الطعام، مع ملاحظة أن المصادر تصفه بنحافة البدن[(٩)] مما يتعارض وشرهه الموصوف في هذه الروايات.

ب- أن هذه الروايات جاءت من طريقين هما:

- المؤرخون ذوو الميول الشيعية مثل: اليعقوبي، والمسعودي، وابن أبي الحديد، وابن الطقطقا.

- المؤرخون ذو الميول العباسية مثل: الواقدي، والمدائني، ويبدو أن الأمر لم يعد كونه وجود شهية قوية للأكل عند سليمان، واستغل خصوم الأمويين - من عباسيين وشيعة - هذا الأمر وضخموه[(١٠)].

(١) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ٢٠٧.
(٢) شرح البلاغة لابن أبي الحديد، نقلاً عن خلافة سليمان صـ٢٠٧.
(٣)، (٤) خلافة سليمان صـ٢٠٧، نقلاً عن الفخري صـ١٢٨.
(٥) شرح البلاغة لابن أبي الحديد نقلاً عن خلافة سليمان صـ٢٠٧.
(٦) خلافة سليمان صـ٢٠٧. (٧) المصدر نفسه صـ٢٠٨.
(٨) شرح ابن أبي الحديد (٥/ ٤٦٥)، خلافة سليمان صـ٦٥.
(٩) تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٩٩)، خلافة سليمان ٦٩. (١٠) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ٦٩.

٢ـ موقفه من الغناء: كان ينهى الناس عن الغناء[١] لوجود شواهد تؤيد ذلك، ويضاف إلى ذلك أن روايات الأصفهانى التى قالت بحب سليمان للغناء اتسم سندها بالضعف، حيث ضم سندها محمد بن زكريا الغلابى[٢]، وهو ضعيف[٣]، وهناك مسألة أخرى متصلة بالغناء، وهى خصى المخنثين كنتيجة مترتبة على الغناء، وهناك من يرى أن سليمان قد أمر بإخصاء المخنثين فتدخل عمر بن عبد العزيز موضحًا أن هذا العمل مثلة ولا يحل، فارتجع عن ذلك[٤].

٣ـ مدح الشعراء له: قال جرير فى مدحه:

سليمان المبارك قد علمتم ... هو المهدى وقد وضح السبيل

أجرت من المظالم كل نفس ... وأديت الذى عهد الرسول[٥]

وقال الفرزدق:

يداك يد الأسرى التى أطلقتهم ... وأخرى هى الغيث المغيث نوالها

وكم أطلقت كفاك من قيد بائس ... ومن عقدة ما كان يرجى انحلالها

كثيرًا من الأسرى التى قد تكنعت ... فككت وأعناقًا عليها غلالها[٦]

سابعًا: ولاية العهد ووفاة سليمان ٩٩هـ:

ذكر الفضل بن المهلب وغيره، أنه لبس فى يوم جمعة حلة صفراء ثم نزعها ولبس بدلها حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر، وقد بسط ما حوله بالخضرة ثم نظر فى المرآة فأعجبه حسنه وشمر عن ذراعيه وقال: أنا الخليفة الشاب، وقيل: إنه كان ينظر فى مرآة من فرقه إلى قدمه ويقول: أنا الملك الشاب[٧]، وفى رواية أنه كان ينظر فيها ويقول: كان محمد نبيًا ﷺ وكان أبو بكر صديقًا وعمر فاروقًا، وكان عثمان حييًا، وكان على شجاعًا، وكان معاوية حليمًا، وكان يزيد صبورًا، وكان عبد الملك سائسًا، وكان الوليد جبارًا، وأنا الملك الشاب[٨]، قالوا: فما دار عليه شهر - وفى رواية: جمعة - حتى مات[٩]، ولما حُمَّ شرع يتوضأ فدعا بجارية فصبت عليه ماء الوضوء ثم أنشدته:

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٢)..
(٢) لسان الميزان (٥/ ١٦٨).
(٣) ميزان الاعتدال (٣/ ٥٥٠)، لسان الميزان (٥/ ١٦٨).
(٤) مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزى، نقلاً عن خلافة سليمان ٢٧٦ .
(٥) ديوان جرير صـ٣٤٦، ٣٤٧.
(٦) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ١٠٣، ديوان الفرزدق (٢/ ٧٦).
(٧) البداية والنهاية (١٢/ ٦٤٨).
(٨)، (٩) المصدر نفسه (١٢/ ٦٤٨).

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أنْ لا بقاء للإنسان

ليس فيما علمته فيك عيب ... كان فى الناس غير أنك فان

فصاح بها وقال: عزتنى فى نفسى، وصرفها، ثم أمر خاله الوليد بن القعقاع العنسى أن يصب عليه وقال:

قرّ وضوءك يا وليد فإنما ... هذه الحياة تعلة ومتاع

فقال الوليد:

فاعمل لنفسك فى حياتك صالحًا ... فالدهر فيه فرقة وجماع

وكان سليمان بمرج دابق من أرض قنسرين، فأمر خاله فوضأه، ثم خرج يصلى بالناس، فأخذته لجة فى الخطبة، ثم نزل وقد أصابته حمى، فاستمر فيها حتى مات فى الجمعة المقبلة[1]، وكان قد أقسم أنه لا يبرح دابقًا حتى يرجع إليه الخبر بفتح القسطنطينية، أو يموت قبل ذلك، فمات قبل ذلك ـ رحمه الله وأكرم مثواه ـ وكان آخر ما تكلم به أن قال: أسألك منقلبًا كريمًا. ثم قضى[2]. وكان لرجاء بن حيوة أثر كبير فى تولية عمر بن عبد العزيز، ولم يكن للشيطان نصيب فى قرار سليمان بتولية عمر الخلافة من بعده، قال عبد الرحمن بن حسان الكنانى: لما مرض سليمان بن عبد الملك المرض الذى توفى فيه - وكان مرضه بدابق - ومعه رجاء بن حيوة، فقال لرجاء بن حيوة: يا رجاء، من لهذا الأمر من بعدى؟ أستخلف ابنى؟ قال: ابنك غائب. قال: فالآخر؟ قال: ذاك صغير. قال: فمن ترى؟ قال: أريٍ أن تستخلف عمر بن عبد العزيز. قال: أتخوف من بنى عبد الملك ألا يرضوا. قال: فولِّ عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك، وتكتب كتابًا وتختم عليه وتدعوهم إلى بيعة مختومة عليها، قال: لقد رأيت، ائتنى بقرطاس. قال: فدعا بقرطاس فكتب فيه العهد لعمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك، ثم ختمه، ثم دفعه إلى رجاء، قال: اخرج إلى الناس فمرهم أن يبايعوا على ما فى هذا الكتاب مختومًا. قال: فخرج إليهم رجاء فجمعهم، وقال: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا لمن فى هذا الكتاب من بعده. قالوا: ومن فيه؟ قال: مختوم، لا تخبرون بمن فيه حتى يموت، قالوا: لا نبايع حتى نعلم ما فيه. قال: فرجع رجاء إلى سليمان، قال: انطلق إلى أصحاب الشرطة والحرس، وناد: الصلاة جامعة، ومر الناس فليجتمعوا، ومرهم بالبيعة على ما فى هذا الكتاب، فمن أبى أن يبايع منهم فاضرب عنقه، قال: ففعل، فبايعوا على ما فيه. قال

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٦٤٩).

(٢) المصدر نفسه (١٢/ ٦٥٠).

رجاء: فلما خرجت إلى منزلى، فبينما أنا أسير فى الطريق، إذ سمعت جلبة موكب فالتفت فإذا هشام، فقال لى: يا رجاء، قد علمت موقعك منا، وإن أمير المؤمنين قد صنع شيئًا لا أدرى ما هو، وأنا أتخوف أن يكون قد أزالها عنى، فإن عدلها عنى فأعلمنى ما دام فى الأمر نفس، حتى أنظر فى هذا الأمر قبل أن يموت. قال: قلت: سبحان الله، يستكتمنى أمير المؤمنين أمرًا أطلعك عليه! لا يكون ذلك أبدًا، فأدارنى وألاصنى[1]، فأبيت عليه، قال: فانصرف، بينما أنا اسير إذ سمعت جلبة خلفى، فإذا عمر بن عبد العزيز فقال لى: يا رجاء إنه قد وقع فى نفسى أمر كثير من هذا الرجل، أتخوف أن يكون قد جعلها إلىَّ، ولست أقوم بهذا الشأن، فأعلمنى ما دام فى الأمر نفس لعلى أتخلص منه ما دام حيًا. قلت: سبحان الله، استكتمنى أمير المؤمنين أمرًا وأطلعك عليه! فأدارنى وألاصنى، فأبيت عليه[2]. قال رجاء: وثقل سليمان، وحجب الناس عنه حتى مات، فلما مات أجلسته وأسندته وهيأته، وخرجت إلى الناس، فقالوا: كيف أصبح أمير المؤمنين؟ فقلت: إن أمير المؤمنين أصبح ساكنًا، وقد أحب أن تسلموا عليه، وتبايعوا على ما فى هذا الكتاب، والكتاب بين يديه. قال: فأذنت للناس فدخلوا عليه وأنا قائم عنده، فلما دنوا قلت: إن أمير المؤمنين يأمركم بالوقوف، ثم أخذت الكتاب من عنده[3] ثم تقدمت إليهم فقلت: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تبايعوا على ما فى هذا الكتاب. قال: فبايعوا، وبسطوا أيديهم، فلما بايعتهم على ما فيه أجمعين وفرغت من بيعتهم قلت لهم: آجركم الله فى أمير المؤمنين، قالوا: فمن؟ فافتتح الكتاب فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فلما نظرت بنو عبد الملك تغيرت وجوههم[4]. وفى رواية أنه لما انتهى رجاء إلى عمر بن عبد العزيز نادى هشام بن عبد الملك: لا نبايعه أبدًا. فقال رجاء: أضرب - والله - عنقك، قم فبايع. فقام يجر رجليه[5]. فلما قرأوا من بعده يزيد بن عبد الملك كأنهم تراجعوا[6]. وقد توفى سليمان يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩هـ، وكانت وفاته بمرج دابق، واختلفَ المؤرخون بنوع مرضه الذى مات فيه. فقسم منهم، قال: إنه أصيب بالتخمة، وهذا رأى ضعيف، وقسم آخر قال: إنه أصيب بذات الجنب[7]، وظهرت له أعراض

---

(١) ألاصه: أى راوده
(٢) أثر الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ١٥٢.
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٥). أخذت الكتاب من جيبه.
(٤)، (٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٥٣.
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٤ ـ ١٢٦).
(٧) تاريخ القضاعى صـ٣٥٨.

المرض فعرضت له سعلة وهو يخطب فنزل وهو محموم، فما جاءت الجمعة التالية حتى مات، كما روى سبط بن الجوزى ما نصه: ما زال سليمان بعد وفاة ابنه يذوب وينحل حتى مات كمداً[1]، وقد توفى وعمره - على الأرجح - ٣٩ سنة[2]، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز[3]. وكان فى نقش خاتمه: آمنت بالله مخلصاً[4]، وقد حفظ لسليمان بعض أبيات الشعر التى نظمها منها:

ومن شيمتى ألا أفارق صاحبى ... وإن ملّنى إلا سألت له رشدا

وإن دام لى بالود ولم أكن ... كآخر لا يراعى ذمامًا ولا عهدا[5]

هذا، وقد كانت خلافته ثلاث سنين إلا أربعة أشهر، وقيل: ثلاث سنين، وقيل: كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر إلا خمسة أيام[6].

****

(١) مرآة الزمان (١٢/ ٢٣٠).

(٢) خلافة سليمان بن عبد الملك صـ٩١.

(٣) تاريخ القضاعى صـ ٣٥٨.

(٤) المصدر نفسه صـ ٣٥٩.

(٥) خلافة سليمان صـ ٥٩، نقلاً عن مرآة الزمان (١٢/٢٣).

(٦) تاريخ الطبرى (٧/٤٤٩).

الفصل التاسع

عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

المبحث الأول

من الميلاد إلى خلافته

أولاً: اسمه ولقبه وكنيته وأسرته:

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد، السيد أمير المؤمنين حقًا أبو حفص القرشى الأموى المدنى ثم المصرى، الخليفة الزاهد الراشد أشج بنى أمية[1]، كان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين[2]، وكان حسن الأخلاق والخُلق، كامل العقل، حسن السمت، جيِّد السياسة، حريصًا على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، طاهر الذكاء والفهم، أوّاها منيبًا، قانتا لله حنيفًا، زاهدًا مع الخلافة، ناطقًا بالحق مع قلة المعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوهُ وكرهوا محاققته لهم، ونقصه أُعطياتهم، وأخذه كثيرًا مما فى أيديهم، مما أخذوه بغير حقٍّ، فمازالوا به حتى سقوه السم فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُدَّ عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين[3]، وكان رحمه الله فصيحًا مُفوَّهًا[4].

١ - والده: هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وكان من خيار أمراء بنى أمية، شجاعًا كريمًا، بقى أميرًا لمصر أكثر من عشرين سنة، وكان من تمام ورعه وصلاحه أنه لما أراد الزواج قال لقيمه: اجمع لى أربعمائة دينار من طيب مالى، فإنى أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح[5]، فتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهى حفيدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقيل اسمها ليلى[6]، كما أن زواجه من آل الخطّاب ما كان ليتم لولا علمهم بحاله وحسن سيرته وخلقه، فقد كان حسن السيرة فى شبابه، فضلاً عن التزامه وحرصه على تحصيل العلم واهتمامه بالحديث النبوى الشريف،

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٤)
(٢) المصدر نفسه (٥/ ١١٤) .
(٣) المصدر نفسه (٥/ ١٢٠) .
(٤) المصدر نفسه (٥/ ١٣٦) .
(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٣١)، الجوانب التربوية فى حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز، نيء عمر صـ١١ .
(٦) عبد العزيز بن مروان وسيرته وأثره فى أحداث العصر الأموى صـ ٥٨ .

فقد جلس إلى أبى هريرة وغيره من الصحابة وسمع منهم، وقد واصل اهتمامه بالحديث بعد ولايته مصر، فطلب من كثير بن مرة فى الشام أن يبعث إليه ما يسمعه من حديث رسول الله ﷺ إلا ما كان من طريق أبى هريرة فإنه عنده[١]، وقد كان والد عمر بن عبد العزيز ذا نفس تواقة إلى معالى الأمور؛ سواء قبل ولايته مصر أو بعدها، فحين دخل مصر أيام شبابه تاقت نفسه إليها وتمنى ولايته فنالها[٢]، ثم تاقت إلى الجود فصار أجود أمراء بنى أمية وأسخاهم[٣]، فكانت له ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل[٤]، ومن جوده كان يقول: إذا أمكننى الرجل من نفسه حتى أضع معروفى عنده فيده عندى أعظم من يدى عنده[٥]. وقد أكثر المؤرخين من الثناء عليه لجوده وهذا الجود كان ممتزجًا باليقين بأن الله سبحانه وتعالى يخلف على من يرزقه، فيقول: عجب لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويخلف عليه، كيف يحبس ماله عن عظيم أجر وحسن ثناء؟، وكان ذا خشية من الله، ونستقرئ هذه الخشية من قوله حين أدركه الموت: وددت أنى لم أكن شيئًا مذكورًا، ولوددت أنى أكون هذا الماء الجارى أو نبتة بأرض الحجاز[٦].

٢ ـ أمه: أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ووالدها عاصم بن عمر بن الخطاب، الفقيه، الشريف أبو عمرو القرشى العدوى، ولد فى أيام النبوة وحدّث عن أبيه، وأمه هى جميلة بنت ثابت بن أبى الأقلح الأنصاريّة، وكان طويلاً جسيمًا، وكان من نبلاء الرجال، دينًا، خيِّرًا، صالحًا، وكان بليغًا، فصيحًا، شاعرًا، وهو جد الخليفة عمر بن عبد العزيز لأُمِّه، مات سنة سبعين، فرثاه ابن عمر أخوه:

فليت المنايا كُنَّ خلَّفن عاصمًا ... فعشنا جميعًا أو ذهبنا بنا معًا[٧]

وأما جدته لأمه فقد كان لها موقف مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فعن عبد الله بن الزبير بن أسلم عن أبيه عن جده أسلم قال: بينما أنا وعمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يَعُسُّ[٨] بالمدينة إذ أعيا فاتكأ على جانب جدار فى جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت لها: يا أمتاه، أو ما علمت ما

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٤٧) .
(٢) الولاة وكتاب القضاة للكندى صـ٥٤ .
(٣) معجزة الإسلام، خالد محمد خالد صـ٥٥ .
(٤) الخطط للمقريزى (١/٢١)، بدائع الزهور (١/٢٨) .
(٥) عبد العزيز بن مروان صـ٥٥ .
(٦) المصدر نفسه صـ ٥٦ نقلاً عن البداية والنهاية .
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/٩٧) .
(٨) العُس: تقصى الليل عن أهل الريبة، معجم مقاييس اللغة (٤/٤٢) .

كان من أمير المؤمنين اليوم؟ قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر مناديًا، فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنتاه قـومى إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادى عـمر، فقالت الصبيـة لأمها: يا أمتاه والله مـا كنت لأطيعه فى الملأ وأعصيه فى الخلاء، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: يا أسلم عَلِّم الباب واعرف الموضع، ثم مضى فى عسه، فلما أصبحا قال: يا أسلم امض إلى الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لهـا، وهل لهم من بعل؟ فـأتيت الموضع فنظرت فـإذا الجـارية أيِّم لا بعل لهـا، وإذا تيك أمها، وإذا ليس لها رجل، فأتيت عـمر فأخبرته، فدعا عمر ولده، فجـمعهم، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه.. فقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لى فزوجنى، فبعث إلى الجارية، فزوجـها من عاصم، فولدت لعـاصم بنتًا وولدت البنت عمر بن عـبد العزيز[1]، ويذكر أن عمـر بن الخطاب رأى ذات ليلة رؤيا، ويقول: ليت شعـرى من ذو الشين[2] من ولدى الذى يملؤها عـدلاً، كما مـلئت جوراً[3]، وكان عـبد الله بـن عمر يـقول: إن آل الخطاب يرون أن بلال بن عبد الله بوجهه شامة فحسـبوه المبشر الموعود حتى جاء الله بعمر ابن عبد العزيز[4].

٣ ـ ولادته ومكانها: اختلف المؤرخون فى سنة ولادته والراجح أنه ولد عام ٦١هـ، وهو قول أكـثر المؤرخـين ولأنه يؤيد مـا يذكر أنه توفى وعـمره أربعـون سنة حيث توفـى عام ١٠١هـ[5]، وتذكر بعض المصادر أنه ولـد بمصر، وهذا القول ضعيف لأن أباه عـبد العزيز ابن مروان بن الحكم إنما تولى مـصر سنة خمس وسـتين للهجـرة، بعد استيـلاء مروان بن الحكم عليها من يد عامل عبد الله بن الزبير رضى الله عنهـما، فولّى عليها ابنه عبد العزيز ولم يعرف لعبد العـزيز بن مروان إقامة بمصر قبل ذلك، وإنما كانت إقـامته وبنى مروان فى المدينة[6]، وذكر الذهبى أنه ولد بالمدينة زمن يزيد[8].

٤ ـ أشج بنى أمية: كان عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يلقب بالأشج، وكان يقال له: أشج بنى مروان، وذلك أن عـمر بن عبد العزيز عـندما كان صغيـراً دخل إلى اصطبل أبيه عندما كان واليًا على مصـر ليرى الخيل؛ فضربه فرس فى وجهه فـشجه، فجعل أبوه يمسح

(١) سيرة عمر لابن الحكم صـ١٩ ، ٢٠، سيرة عمر لابن الجوزى صـ١٠ .
(٢) الشين: العلامة .
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٢) .
(٤) المصدر نفسه (٥/ ١٢٢) .
(٥) البداية والنهاية (١٢/ ٦٧٦) .
(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٥٤) .
(٨) تذكرة الحفاظ (١/١١٨ ـ ١٢٠) .

الدم عنه ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك إذًا لسعيد[1]، ولما رأى أخوه الأصبغ الأثر قال: الله أكبر! هذا أشج بني مروان الذي يملك، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: إن من ولدى رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً[2]. وكان الفاروق قد رأى رؤيا تشير إلى ذلك، وقد تكررت هذه الرؤيا لغير الفاروق حتى أصبح الأمر مشهورًا عند الناس، بدليل ما قاله أبوه عندما رأى الدم في وجهه، وما قاله أخوه عندما رأى الشج في وجهه كلاهما تفاءل لعله أن يكون ذلك الأشج الذي يملأ الأرض عدلاً[3].

٥ ـ **إخوته:** كان لعبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز عشرة من الولد وهم: عمر وأبو بكر ومحمد وعاصم وهؤلاء أمهم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وله من غيرها ستة وهم: الأصبغ وسهل وسهيل وأم الحكم وزبّان وأم البنين[4]، وعاصم هو من تكنى به والدته ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فكنيتها أم عاصم[5].

٦ - **أولاده:** كان لعمر بن عبد العزيز رحمه الله أربعة عشر ذكرًا منهم: عبد الملك وعبد العزيز وعبد الله وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وبكر والوليد وموسى وعاصم ويزيد وزبان وعبد الله،[6] وبنات ثلاث: أمينة وأم عمار وأم عبد الله. وقد اختلفت الروايات عن عدد أولاد وبنات عمر بن عبد العزيز، فبعض الروايات تذكر أنهم أربعة عشر ذكرًا كما ذكره ابن قتيبة، وبعض الروايات تذكر أن عدد الذكور اثنا عشر وعدد الإناث ست كما ذكره ابن الجوزى[7]. والمتفق عليه من الذكور اثنا عشر، وحينما توفى عمر بن عبد العزيز لم يترك لأولاده مالاً إلا الشيء اليسير؛ أصاب الذكر من أولاده من التركة تسعة عشر درهمًا فقط، بينما أصاب الذكر من أولاد هشام بن عبد الملك ألف ألف (مليون)، وما هي إلا سنوات قليلة حتى كان أحد أبناء عمر بن عبد العزيز يحمل على مائة فرس في سبيل الله في يوم واحد، وقد رأى بعض الناس رجلاً من أولاد هشام يُتصدق عليه[8]. فسبحان الله رب العالمين.

---

(١) البداية والنهاية نقلاً عن فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٠).

(٢) المعارف لابن قتيبة صـ٣٦٢.

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز د.محمد شقير (١/ ٢٠).

(٤) المعارف لابن قتيبة صـ٣٦٢.

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٢).

(٦) المصدر نفسه (١/ ٢٣).

(٧) سيرة عمرة بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٣٣٨، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٤).

(٨) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٣٣٨.

٧- زوجاته: نشأ عمر بالمدينة وتخلق بأخلاق أهلها، وتأثر بعلمائها، وأكب على أخذ العلم من شيوخها، وكان يقعد مع مشايخ قريش ويتجنب شبابهم، ومازال ذلك دأبه حتى اشتهر، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده، وقدمه على كثير منهم، وزوجه ابنته فاطمة بنت عبد الملك[١]، وهى امرأة صالحة تأثرت بعمر بن عبد العزيز وآثرت ما عند الله على متاع الدنيا، وهى التى قال فيها الشاعر:

بنت الخليفة والخليفة جدها ... أخت الخلائف والخليفة زوجها

ومعنى هذا البيت أنها بنت الخليفة عبد الملك بن مروان، والخليفة جدها مروان بن الحكم، وأخت الخلائف فهى أخت الخلفاء الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، والخليفة زوجها هو عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، حتى قيل عنها: لا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها[٢]. وقد ولدت لعمر بن عبد العزيز إسحاق ويعقوب وموسى.

ومن زوجاته لميس بنت على بن الحارث وقد ولدت له عبد الله وبكر وأم عمار، ومن زوجاته أم عثمان بنت شعيب بن زبان، وقد ولدت له إبراهيم. وأما أولاده: عبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزبان وأمينة وأم عبد الله فأمهم: أم ولد[٣].

٨ ـ **صفاته الخلقية**: كان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أسمر رقيق الوجه أحسنه، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، بجبهته أثر نفحة دابة وقد خطه الشيب[٤]، وقيل فى صفته: أنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه، جميلاً، نحيفًا، وقيل فى صفته: أنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه، جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية[٥].

ثانيًا: العوامل التى أثرت فى تكوين شخصية عمر بن عبد العزيز:

١ ـ **الواقع الأسرى**: نشأ عمر بن عبد العزيز فى المدينة، فلما شب وعقل -وهو غلام صغير- كان يأتى عبد الله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه، ثم يرجع إلى أمه فيقول: يا أمه أنا أحب أن أكون مثل خالى ـ يريد عبد الله بن عمر ـ فتؤفف به، ثم تقول له: اغرب، أنت تكون مثل خالك، وتكرر عليه ذلك غير مرة. فلما كبر سار أبوه عبد العزيز

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٦٨٠) . (٢) المصدر نفسه (١٢/ ٦٨٠) .
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٣١٤ ـ ٣١٥ .
(٤) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٥٨) .
(٥) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ١١)، الآثار الواردة (١/ ٥٨) .

بن مروان إلى مصر أميراً عليها، ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه وتقدم بولدها، فأتت عمها عبد الله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها عبد العزيز إليها، فقال لها: يا أبنة أخي هو زوجك فالحقي به، فلما أرادت الخروج قال لها: خلفي هذا الغلام عندنا ـ يريد عمر ـ فإنه أشبهكم بنا أهل البيت، فخلفته عنده ولم تخالفه، فلما قدمت على عبد العزيز اعترض ولده، فإذا هو لا يرى عمر، قال لها: وأين عمر؟ فأخبرته خبر عبد الله وما سألها من تخليفه عنده لشبهه بهم، فسرّ بذلك عبد العزيز، وكتب إلى أخيه عبد الملك يخبره بذلك، فكتب عبد الملك أن يجرى عليه ألف دينار فى كل شهر، ثم قدم عمر على أبيه مسلّمًا[1]، وهكذا تربى عمر رحمه الله تعالى بين أخواله بالمدينة من أسرة عمر بن الخطاب، ولا شك أنه تأثر بهم وبمجتمع الصحابة فى المدينة[2].

٢ ـ إقباله المبكر على طلب العلم وحفظه القرآن الكريم: فقد رُزق منذ صغره حب الإقبال على طلب العلم وحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء، كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم، فى المدينة وكانت يومئذ منارة العلم والصلاح زاخرة بالعلماء والفقهاء والصالحين، وتاقت نفسه للعلم وهو صغير، وكان أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته فى الأدب[3]، وجمع عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير وساعده على ذلك صفاء نفسه وقدرته الكبيرة على الحفظ وتفرغه الكامل لطلب العلم والحفظ. وقد تأثر كثيراً بالقرآن الكريم فى نظرته لله -عز وجل- والحياة والكون والجنة والنار، والقضاء والقدر، وحقيقة الموت، وكان يبكى لذكر الموت بالرغم من حداثة سنه، فبلغ ذلك أمه فأرسلت إليه وقالت: ما يبكيك؟ قال: ذكرت الموت. فبكت أمه حين بلغها ذلك[4]، وقد عاش طيلة حياته مع كتاب الله -عز وجل- متدبراً ومنفذاً لأوامره، ومن مواقفه مع القرآن الكريم:

أ ـ عن ابن أبى ذيب: قال: حدثنى من شهد عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة، وقرأ عنده رجل: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣]. فبكى عمر حتى غلبه البكاء وعلا نشيجه، فقام من مجلسه فدخل بيته، وتفرق الناس[5]. ومفهوم هذه الآية: إذا ألقى هؤلاء المكذبون بالساعة من النار مكاناً ضيقاً، قرنت أيديهم

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٢٤، ٢٥ .

(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٥٦/١) .

(٣) البداية والنهاية (٦٧٩/١٢) .

(٤) المصدر نفسه (٦٧٨/١٢) .

(٥) الرقة والبكاء لابن أبى الدنيا رقم ٨٣ .

إلى أعناقهم في الأغلال ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾. والثبور في هذا الموضع: دعاء هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا والإيمان بما جاء به نبي الله ﷺ حتى استوجبوا العقوبة(١).

ب ـ وعن أبي مودود قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قرأ ذات يوم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١]، فبكى بكاءً شديدًا حتى سمعه أهل الدار، فجاءت فاطمة ـ زوجته ـ فجعلت تبكى لبكائه وبكى أهل الدار لبكائهما، فجاء عبد الملك، فدخل عليهم وهم على تلك الحال يبكون فقال: يا أبه، ما يبكيك؟ قال: خير يا بنى، ود أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه، والله يا بنى لقد خشيت أن أهلك، والله يا بنى لقد خشيت أن أكون من أهل النار(٢). ومعنى الآية: أن الله تعالى يخبر نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩]، ولهذا قال تعالى: إذ تأخذون في ذلك الشيء؛ نحن مشاهدون لكم، راءون، سامعون(٣).

ج ـ وعن عبد الأعلى بن أبي عبد الله العنزي قال: رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمعة في ثياب دسمة، ووراءه حبشي يمشي، فلما انتهى إلى الناس رجع الحبشي، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال: هكذا رحمكما الله، حتى صعد المنبر، فخطب فقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، فقال: وما شأن الشمس؟، ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾، حتى انتهى

(١) دموع القراء، محمد شومان صـ١٠٧ نقلاً عن تفسير ابن جرير.
(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا رقم ٩١.
(٣) تفسير ابن كثير.

إلى ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٢، ١٣] فبكى وبكى أهل المسجد، وارتج المسجد بالبكاء حتى رأيت أن حيطان المسجد تبكى معه[(١)]. وهذه السورة جاء فيها الأوصاف التى وصف بها يوم القيامة من الأوصاف التى تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولى الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليتدبر سورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[(٢)]. بل ثبت مرفوعًا من حديث ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾**[(٣)].

د ـ وعن ميمون بن مهران قال: قرأ عمر بن عبد العزيز ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فبكى ثم قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ما أرى المقابر إلا زيارة، ولابد لمن يزورها أن يرجع إلى جنة أو إلى النار[(٤)]، هذه بعض المواقف التى تبين تأثير القرآن الكريم على شخصية عمر بن عبد العزيز.

٣ ـ الواقع الاجتماعى: إن البيئة الاجتماعية المحيطة لها دور فعال ومهم فى صناعة الرجال وبناء شخصيتهم، فعمر بن عبد العزيز عاش فى زمن ساد فيه مجتمع التقوى والصلاح والإقبال على طلب العلم والعمل بالكتاب والسنة، فقد كان عدد من الصحابة ما زالوا بالمدينة، فقد حدَّث عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، والسائب بن يزيد، وسهل ابن سعد، واستوهب منه قدحًا شرب منه النبى ﷺ، وأمّ بأنس بن مالك، فقال: ما رأيت أحدًا أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى[(٥)]، فكان للإقامة بالمدينة آثار نفسية، ومعان إيمانية، وتعلق روحى، وكان لذلك المجتمع قوة التأثير فى صياغة شخصية عمر بن عبد العزيز العلمية والتربوية[(٦)].

---

(١) دموع القراء صـ١١١، ١١٢ .
(٢) تفسير السعدى صـ ٩١٣ .
(٣) أخرجه الترمذى رقم ٣٣٣٣، والحاكم (٢/ ٥١٥)،(٤/ ٥٧٦)، وصححه ووافقه الذهبى، والألبانى فى الصحيحة (٣/ ٧٠).
(٤) الرقة والبكاء لابن أبى الدنيا رقم ٤٢٥ .
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤) .
(٦) الجوانب التربوية فى حياة عمر بن عبد العزيز صـ٢٣ .

٤ ـ تربيته على أيدى كبار فقهاء المدينة وعلمائها: اختار عبد العزيز -والد عمر- صالح بن كيسان ليكون مربيًا لعمر بن عبد العزيز، فتولى صالح تأديبه، وكان يلزم عمر الصلوات المفروضة فى المسجد، فحدث يومًا أن تأخر عمر بن عبد العزيز عن الصلاة مع الجماعة فقال صالح بن كيسان: ما يشغلك؟ قال: كانت مرجّلتى(١) تسكن شعرى، فقال: بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟ فكتب إلى عبد العزيز يذكر ذلك، فبعث أبوه رسولاً فلم يكلمه حتى حلق رأسه(٢)، وحرص على التشبه بصلاة رسول الله ﷺ أشد الحرص، فكان يتم الركوع والسجود ويخفّف القيام، والقعود. وفى رواية صحيحة: أنّه كان يسبح فى الركوع والسجود عشرًا عشرًا(٣)، ولما حج أبوه ومرّ بالمدينة سأل صالح بن كيسان عن ابنه فقال: ما خبرت أحدًا الله أعظم فى صدره من هذا الغلام(٤). ومن شيوخ عمر بن عبد العزيز الذين تأثر بهم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فقد كان عمر يجله كثيرًا، ونهل من علمه وتأدب بأدبه، وتردد عليه حتى وهو أمير المدينة، ولقد عبّر عمر عن إعجابه بشيخه وكثرة التردد إلى مجلسه فقال: لمجلس من الأعمى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحب إلىّ من ألف دينار(٥)، وكان يقول فى أيام خلافته لمعرفته بما عند شيخه من علم غزير: لو كان عبيد الله حيًا ما صدرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لى بيوم واحد من عبيد الله كذا وكذا(٦)، وكان عبيد الله مفتى المدينة فى زمانه، وأحد الفقهاء السبعة(٧)، قال عنه الزهرى: كان عبيد الله بن عبد الله بحرًا من بحور العلم(٨)، وكان يقرض الشعر، فقد كتب إلى عمر بن عبد العزيز هذه الأبيات:

بسم الذى أنزلت من عنده السور ... والحمد لله أمّا بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتى وما تذر ... فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبر على القدر المحتوم وارض به ... وإن أتاك بما لا تشتهى القدر
فما صفا لامرئ عيش يُسرُّ به ... إلا سيتبع يومًا صفوه كدر(٩)

وقد توفى هذا العالم سنة ٩٨هـ، وقيل: ٩٩هـ(١٠).

(١) مرجلتى: مسرّحة شعرى.
(٢) المصدر نفسه (١٢/ ٦٨٢).
(٣) البداية والنهاية (١٢/ ٦٧٨).
(٤) المصدر نفسه (١٢/ ٦٧٨).
(٥) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ ٥٩، الطبقات (٥/ ٢٥٠)، تهذيب التهذيب (٧/ ٢٢).
(٦) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ ٥٩.
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٧٥).
(٨)، (٩) المصدر نفسه (٤/ ٤٧٧).
(١٠) المصدر نفسه (٤/ ٤٧٨، ٤٧٩).

ومن شيوخ عمر: سعيد بن المسيب، وقد تحدثت عن سيرته فى عهد عبد الملك بن مروان، وكان سعيد لا يأتى أحدًا من الأمراء غير عمر(١)، ومن شيوخه: سالم بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب الذى قال فيه سعيد بن المسيب: كان عبد الله بن عمر أشبه ولد عمر به، وكان سالم أشبه ولد عبد الله به(٢)، وكان ابن عمر يحب ابنه سالم، وكان يلام فى ذلك فكان يقول:

يلومونني فى سالم وألومهم وجلدة بين العين والأنف سالم(٣)

كانت أمه أم ولد، وقال فيه ابن أبى الزناد: كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم الغُرُّ السادة على بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبدالله، ففاقوا أهل المدينة علمًا وتقى وعبادة وورعًا، فرغب الناس حينئذ فى السرارى(٤)، وقال عنه الإمام مالك: لم يكن أحد فى زمان سالم أشبه بمن مضى من الصالحين فى الزهد والفضل والعيش منه، كان يلبس الثوب بدرهمين، ويشترى الشمال(٥) ليحملها. قال: فقال سليمان بن عبد الملك لسالم ورآه حسن السّحنة: أى شيء تأكل؟ قال: الخبز والزّيت، وإذا وجدت اللحم أكلته. فقال له عمر: أو تشتهيه؟ قال: إذ لم أشتهه تركته حتى أشتهيه(٦)، وذات يوم دخل سالم بن عبد الله على سليمان بن عبد الملك، وعلى سالم ثياب غليظة رثّة، فلم يزل سليمان يرحب به، ويرفعه حتى أقعده معه على سريره، وعمر ابن عبد العزيز فى المجلس، فقال له رجل من أُخريات الناس: ما استطاع خالك أن يلبس ثيابًا فاخرة أحسن من هذه، يدخل فيها على أمير المؤمنين؟ وعلى المتكلم ثياب سريّة، لها قيمة، فقال له عمر: ما رأيت هذه الثياب التى على خالى وضعته فى مكانك، ولا رأيت ثيابًا هذه رفعتك إلى مكان خالى ذاك(٧).

وتربى وتعلم عمر بن عبد العزيز على يدى كثير من العلماء والفقهاء وقد بلغ عدد شيوخ عمر بن عبد العزيز ثلاثة وثلاثين، وثمانية منهم من الصحابة، وخمسة وعشرون من التابعين(٨)، فقد نهل من علمهم، وتأدب بأدبهم، ولازم مجالسهم حتى ظهرت آثار هذه التربية المتينة فى أخلاقه وتصرفاته(٩)، فامتاز بصلابة الشخصية والجدية فى معالجة الأمور والحزم، وإمعان الفكر وإدامة النظر فى القرآن، والإرادة القوية والترفع عن الهزل

(١) الجوانب التربوية فى حياة الخليفة عمر صـ٢٥ .
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٩) .
(٣)، (٤) المصدر نفسه (٤/ ٤٦٠) .
(٥)، (٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦٠) .
(٧) المصدر نفسه (٤/ ٤٦١) .
(٨) مسند أمير المؤمنين عمر صـ٣٣ .
(٩) الجوانب التربوية فى حياة عمر بن عبد العزيز (١/ ٦٧) .

والمزاح[1]، هذه هى أهم العوامل التى أثرت فى تكوين شخصيته. ومن الدروس المستفادة هو أن العلماء الربانيين يقع على عاتقهم مسئولية كبيرة وهى الاهتمام بأولاد الأمراء والحكام وأهل الجاه والمال، ففى صلاحهم خير عظيم للأمة الإسلامية.

ثالثًا: مكانته العلمية:

اتفقت كلمة المترجمين له على أنه من أئمة زمانه، فقد أطلق عليه كل من الإمامين: مالك وسفيان بن عيينة وصف إمام[2]، وقال فيه مجاهد: أتيناه نعلمه فما برحنا حتى تعلمّنا منه[3]، وقال ميمون بن مهران: كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء[4]، قال فيه الذهبى: كان إمامًا فقيهًا مجتهدًا، عارفًا بالسنن، كبير الشأن، حافظًا، قانتًا لله، أوّاهًا منيبًا، يعد فى حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفى الزهد مع الحسن البصرى، وفى العلم مع الزهرى[5]، وقد احتج الفقهاء والعلماء بقوله وفعله، ومن ذلك رسالة الإمام الليث بن سعد إلى الإمام مالك بن أنس رضى الله عنهما وهى رسالة قصيرة، وفيها يحتج الليث - مرارًا - بصحة قوله؛ بقول عمر بن عبد العزيز على مالك فيما ذهب إليه فى بعض مسائله[6]، ويرد ذكر عمر بن عبد العزيز فى كتب الفقه للمذاهب الأربعة المتبوعة على سبيل الاحتجاج بمذهبه، فاستدل الحنفية بصنيعه فى كثير من المسائل، وجعلوا له وصفًا يتميّز به عن جدّه لأمه؛ عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال القرشى فى الجواهر المضيئة فائدة: يقول أصحابنا فى كتبهم فى مسائل الخلاف: وهو قول عمر الصغير. يريدون به عمر بن عبد العزيز الإمام الخليفة المشهور[7]، ويكثر الشافعية من ذكره فى كتبهم، ولذلك ترجم له الإمام النووى ترجمة حافلة فى تهذيب الأسماء واللغات، وقال فى أولها: تكرر فى المختصر والمهذب[8]. وأما المالكية فيكثرون من ذكره فى كتبهم أكثر من غيرهم، ومالك إمام المذهب ذكر فى «الموطأ» محتجًا بفتواه

---

(١) عمر بن عبد العزيز للرحيلى صـ٣٠ .

(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٦٧) .

(٣) تهذيب التهذيب (٧/ ٤٠٥)، الآثار الواردة (١/ ٦٧) .

(٤) تاريخ أبى زرعة صـ ٢٥٥، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٦٧) .

(٥) تذكرة الحفاظ صـ١١٨ - ١١٩ .

(٦) الآثار الواردة فى عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٧٠) .

(٧) الجواهر المضيئة (٤/ ٥٥٢)، الآثار الواردة (١/ ٧١) .

(٨) المختصر والمهذب من كتب الشافعية المشهورة .

وقوله فى مواضع عديدة فى موطئه[1]، وأما الحنابلة فكذلك، يذكرونه كثير، وعمر هو الذى قال فيه الإمام أحمد: لا أدرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز، وكفاه هذا[2]، وكفانا قول الإمام أحمد أيضًا: إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها، فاعلم أن من وراء ذلك خيرًا إن شاء الله[3]، ومن أراد أن يتبحر فى علم عمر بن عبد العزيز ويعرف مكانته العلمية، فليراجع الكتب الآتية: الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة للأستاذ حياة محمد جبر والكتاب فى مجلدين، وهى رسالة علمية، وكذلك فقه عمر بن عبد العزيز للدكتور محمد سعد شقير فى مجلدين، وهى رسالة علمية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه، وموسوعة فقه عمر بن عبد العزيز لمحمد رواس قلعجى، وسوف نرى فى بحثنا فقه عمر بن عبد العزيز -بإذن الله تعالى- فى العقائد والعبادات والسياسة الشرعية، وإدارة الدولة، والنظم المالية والقضائية والدعوية -تقيده بالكتاب والسنة والخلفاء الراشدين فى خطواته وسكناته.

رابعًا: عمر فى عهد الوليد بن عبد الملك:

يعد عمر بن عبد العزيز من العلماء الذين تميزوا بقربهم من الخلفاء، وكان لهم أثر كبير فى نصحهم وتوجيه سياستهم بالرأى والمشورة، ويحتل عمر بن عبد العزيز مكانة متميزة فى البيت الأموى، فقد كان عبد الملك يجله ويعجب بنباهته أثناء شبابه، مما جعله يقدمه على كثير من أبنائه، ويزوجه من ابنته، ولكن لم يكن له مشاركات فى عهد عبد الملك بسبب صغر سنه واشتغاله بطلب العلم فى المدينة، ومع ذلك فقد أورد ابن الجوزى أنه كتب إلى عبد الملك كتابًا يذكره فيه بالمسئولية الملقاة على عاتقه، وقد جاء فيها: أما بعد: فإنك راعٍ، وكل راعٍ مسئول عن رعيته، حدثنا أنس بن مالك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«كل راعٍ مسئول عن رعيته»**[4]. ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**﴾ [النساء: ٨٧].

ويقال إن عمر بن عبد العزيز ولاّه عمه عبد الملك خناصرة لكى يتدرب على الأعمال القيادية فى وقت مبكر[5]، وقد قيل: إن سليمان بن عبد الملك هو الذى ولاه على

(١) انظر: الموطأ الأرقام الآتية: ٣٠٥، ٥٩٢، ٥٩٤، ٦١٤ .
(٢) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (١/ ٧٢).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٦١.
(٤) أثر الحياة السياسية صـ ١٥٩ .
(٥) الآثار الواردة فى عمر بن عبد العزيز (١/ ٩٣) .

خناصرة، وهناك من رجح هذا القول. وقد تأثر عمر بن عبد العزيز لموت عمه وحزن عليه حزنًا عظيمًا، وقد خاطب عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك فقال له: يا مسلمة إنى حضرت اباك لما دفن، فحملتنى عينى عند قبره فرأيته قد أفضى إلى أمر من أمر الله، راعنى وهالنى، فعاهدت الله ألا أعمل بمثل عمله إن وليت، وقد اجتهدت فى ذلك[(١)].

١ ـ ولايته على المدينة:

فى ربيع الأول من عام ٨٧هـ ولاه الخليفة الوليد بن عبد الملك إمارة المدينة المنورة، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة ٩١هـ، وبذلك صار واليًا على الحجاز كلها، واشترط عمر لتوليه الإمارة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يعمل فى الناس بالحق والعدل، ولا يظلم أحدًا، ولا يجور على أحد فى أخذ ما على الناس من حقوق لبيت المال، ويترتب على ذلك أن يقل ما يرفع للخليفة من الأموال من المدينة.

الشرط الثانى: أن يسمح له بالحج فى أول سنة؛ لأن عمر كان فى ذلك الوقت لم يحج.

الشرط الثالث: أن يسمح له بالعطاء أن يخرجه للناس فى المدينة، فوافق الوليد على هذه الشروط، وباشر عمر بن عبد العزيز عمله بالمدينة وفرح الناس به فرحًا شديدًا[(٢)].

٢ ـ مجلس شورى عمر بن عبد العزيز.. مجلس فقهاء المدينة العشرة:

كان من أبرز الأعمال التى قام بها عمر بن عبد العزيز تكوينه لمجلس الشورى بالمدينة، فعند ما جاء الناس للسلام على الأمير الجديد بالمدينة، دعا عشرة من فقهاء المدينة، وهم عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأبو بكر بن سليمان بن أبى خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد بن ثابت، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: إنى دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعوانًا على الحق، إنى لا أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم، أو برأى من حضر منكم، فإن رأيتم أحدًا يتعدى، أو بلغكم عن عامل لى ظلامة، فأحرّج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغنى[(٣)]. لقد عرفت أن عمر بن

(١) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، بشير كمال عابدين صـ١٠.

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٦٣)، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٤١ ، ٤٢ .

(٣) الطبقات (٥/ ٢٥٧)، موسوعة فقه عمر، قلعجى صـ٥٤٨ .

الخطاب كان يجمع المجلس للأمر يطرأ، فيرى ضرورة الشورى فيه، أما عمر بن عبد العزيز، وهو سبط عمر بن الخطاب، فقد أحدث مجلسًا حدّد صلاحياته بأمرين:

أ- أنهم أصحاب الحق فى تقرير الرأى، وأنه لا يقطع أمرًا إلا برأيهم. وبذلك يكون الأمير قد تخلى عن اختصاصاته إلى هذا المجلس، الذى نسميه «مجلس العشرة».

ب- أنه جعلهم مفتشين على العمال، ورقباء على تصرفاتهم، فإذا ما اتصل بعلمهم أو بعلم أحدهم أن عاملاً ارتكب ظلامة، فعليهم أن يبلغوه وإلا فقد استعدى الله على كاتم الحق. ونلاحظ كذلك أن هذا التدبير قد تضمن أمرين:

أحدهما: أن الأمير عمر بن عبد العزيز لم يخصص تعويضًا لمجلس العشرة؛ لأنهم كانوا من أصحاب العطاء، وبما أنهم فقهاء فما ندبهم إليه داخل فى صلب اختصاصهم.

الثانى: إن عمر افترض غياب أحدهم عن الحضور لعذر من الأعذار، ولهذا لم يشترط فى تدبيره حضورهم كلهم، وإنما قال: «أو برأى من حضر منكم»[(١)]. إن هذا المجلس كان يستشار فى جميع الأمور دون استثناء[(٢)]، ونستنتج من هذه القصة أهمية العلماء الربانيين وعلو مكانتهم، وأنه يجب على صاحب القرار أن يدنيهم ويقربهم منه ويشاورهم فى أمور الرعية، كما أنه على العلماء أن يلتفوا حول الصالح من أصحاب القرار من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن للمصالح، وتقليل ما يمكن من المفاسد، كما أن عمر بن عبد العزيز لم يختصر فى شوراه على هؤلاء فحسب، بل كان يستشير غيرهم من علماء المدينة، كسعيد ابن المسيِّب، والزهرى، وغيرهم، وكان لا يقضى فى قضاء حتى يسأل سعيد، وفى المدينة أظهر عمر عبد العزيز إجلاله للعلماء وإكباره لهم، وقد حدث أن أرسل -رحمه الله تعالى- رسولاً إلى سعيد بن المسيِّب يسأله عن مسألة، وكان سعيد لا يأتى أميرًا ولا خليفة فأخطأ الرسول فقال له: الأمير يدعوك، فأخذ سعيد نعليه وقام إليه فى وقته، فلما رآه عمر قال له: عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا، فإنا لم نرسله ليدعوك، ولكنه أخطأ، إنما أرسلناه ليسألك[(٣)]. وفى إمارته على المدينة المنورة وسع مسجد رسول الله ﷺ بأمر من الوليد بن عبد الملك، حتى جعله مائتى ذراع فى مائتى ذراع، زخرفه بأمر الوليد أيضًا، مع أنه رحمه الله تعالى كان يكره زخرفة

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ٥٦١، ٥٦٢) .

(٢) نظام الحكم فى الإسلام بين النظرية والتطبيق صـ٣٩١ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه لابن عبد الحكم صـ٢٣ .

المساجد[1]، ويتضح من موقف عمر بن عبد العزيز هنا أنه قد يضطر الوالى للتجاوب مع قرارات ممن هو أعلى منه حتى وإن كان غير مقتنع بها، إذا قدر أن المصلحة فى ذلك أكبر من وجوه أخرى. وفى إمارته على المدينة فى سنة ٩١هـ حج الخليفة الوليد بن عبد الملك فاستقبله عمر بن عبد العزيز أحسن استقبال، وشاهد الوليد بأم عينيه الإصلاحات العظيمة التى حققها عمر بن عبد العزيز فى المدينة المنورة[2].

٣ ـ الحادث المؤسف فى ولاية عمر:

قال العلماء فى السير: كان خبيب بن عبد الله بن الزبير قد حدَّث عن النبى ﷺ أنه قال: إذا بلغ بنو أبى العاص[3] ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولاً[4]، وهو حديث ضعيف، فبعث الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز ـ واليه على المدينة ـ يأمره بجلده مائة سوط وبحبسه، فجلده عمر مائة سوط، وبرد له ماءً فى جرّة ثم صبه عليه فى غداة باردة فكزّ[5]، فمات فيها. وكان عمر قد أخرجه من السجن حين اشتد وجعه، وندم على ما صنع منه وحزن عمر على موت خبيب، فقد روى مصعب بن عبد الله عن مصعب بن عثمان أنهم نقلوا خبيبًا إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير ببقيع الزبير، واجتمعوا عنده حتى مات، فبينما هم جلوس، إذ جاءهم الماجشون يستأذن عليهم وخبيب مسجى بثوبه، وكان الماجشون مع عمر بن عبد العزيز فى ولايته على المدينة. فقال عبد الله ابن عروة: ائذنوا له. فلما دخل قال: كأن صاحبكم فى مرية من موته، اكشفوا له عنه، فكشفوا عنه، فلما رآه الماجشون انصرف. قال الماجشون: فانتهيت إلى دار مروان، فقرعت الباب ودخلت فوجدت عمر كالمرأة الماخض قائمًا وقاعدًا، فقال لى: ما وراءك؟ فقلت: مات الرجل. فسقط على الأرض فزعًا ثم رفع رأسه يسترجع، فلم يزل يُعرف فيه حتى مات. واستعفى من المدينة، وامتنع من الولاية. وكان كلما قيل له: إنك قد صنعت كذا فأبشر فيقول: كيف بخبيب؟[6]، ولم يزل يذكرها ويتصورها أمام عينه حتى مات[7]، ومن

(١) تفسير القرطبى (١٢/٢٦٧)، موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز صـ٢٠ .

(٢) موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز صـ٢٠ .

(٣) بنو أبى العاص: أى بنو العاص بنى أمية الجد الثالث لكل من الوليد وعمر بن عبد العزيز .

(٤) الحديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة (٦/٥٠٧)، عن أبى سعيد وأبى هريرة قال ابن كثير - رحمه الله - بعد ذكر طرق أخرى ورد بها هذا الحديث: وهذه الطرق كلها ضعيفة، انظر البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/٩٨) .

(٥) كزّ الرجل فهو مكزوز: أصابه داء الكزاز، وهو يبس وانقباض من البرد .

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٤٣، ٤٤ . (٧) المصدر نفسه صـ٤٢ .

الأدلة على صلاح عمر بن عبد العزيز وقت ولايته على المدينة غير ما ذكر: ما رواه أبو عمر مولى أسماء بنت أبى بكر قال: فأتيته فى مجلسه الذى يصلى فيه الفجر، والمصحف فى حجره، ودموعه تسيل على لحيته[1]، وحدّث ابن أبى الزناد عن أبيه، قال: كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير على المدينة إذا أراد أن يجود بالشىء قال: ابتغوا أهل بيت بهم حاجة[2].

٤ ـ عظة مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز له:

حبس عمر رجلاً بالمدينة، وجاوز عمر فى حبسه القدر الذى يستحقه، فكلمه مزاحم فى إطلاقه، فقال له عمر: ما أنا بمخرجه حتى أبلغ فى الحيطة عليه بما هو أكثر مما مرّ، فقال مزاحم مغضبًا: يا عمر بن عبد العزيز، إنى أحذرك ليلة تمخض بالقيامة، وفى صبيحتها تقوم الساعة، يا عمر، ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع، قال الأمير، قال الأمير، قال الأمير، قال عمر: إن أول من أيقظنى لهذا الشأن مزاحم، فوالله ما هو إلا أن قال ذلك، فكأنما كشف عن وجهى غطاء[3]. وهذه القصة تبين لنا أهمية الصديق الصالح المخلص الذى يذكرك بالله حين الغفلة.

٥ ـ بين عمر بن عبد العزيز والحجّاج فى خلافة الوليد:

ذكر ابن الجوزى أن عمر بن عبد العزيز قد استعفى من المدينة - كما مرّ ذكره - ولكن ذكر غيره أنه عزل عنها، ففى سنة ٩٢هـ عقد الخليفة الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف الثقفى ليكون أميرًا على الحج، ولما علم عمر بن عبد العزيز بذلك، كتب - رحمه الله تعالى - إلى الخليفة يستعفيه أن يمرَّ عليه الحجاج بالمدينة المنورة، لأن عمر بن عبد العزيز كان يكره الحجّاج ولا يطيق أن يراه، لما هو عليه من الظلم، فامتثل الوليد لرغبة عمر، وكتب إلى الحجّاج: إن عمر بن عبد العزيز كتب إلىَّ يستعفينى من ممرك عليه، فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك فتنحّ عن المدينة[4]، وقد كتب عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة إلى الوليد بن عبد الملك يخبره عما وصل إليه حال العراق من الظلم والضيم والضّيق بسبب ظلم الحجّاج وغشمه، مما جعل الحجّاج يحاول الانتقام من عمر، لاسيما وقد أصبح الحجاز ملاذًا للفارين من عسف الحجاج وظلمه، حيث كتب الحجّاج إلى الوليد: إن من قِبلى من مُرّاق أهل العراق وأهل الثقاف قد جلوا عن العراق، ولجأوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ٤٢ . (٢) المصدر نفسه صـ٤٢، الآثار الواردة (١/ ٦٦) .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ١٤٠ .

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه لابن الحكم، صـ ٢٤.

وهن. فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حيان، وخالد بن عبد الله القسرى، وعزل عمر عبد العزيز[1]. وقد كان ميول الوليد لسياسة الحجّاج واضحًا، وكان يظن بأنه سياسة الشدة والعسف هى السبيل الوحيد لتوطيد أركان الدولة، وهذا ما حال بينه وبين الأخذ بآراء عمر ابن عبد العزيز ونصائحه، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن ما كان يراه عمر أفضل مما كان يسير عليه الوليد، وذلك بعد تولى عمر الخلافة وتطبيقه لما كان يشير به[2].

٦ ـ عودة عمر بن عبد العزيز إلى دمشق:

خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة المنورة وهو يبكى ومعه خادمه مزاحم، فالتفت إلى مزاحم وقال: يا مزاحم، نخشى أن نكون ممن نفت المدينة[3]، يشير بذلك إلى قول رسول الله ﷺ: **«ألا وإن المدينة كالكير يخرج الخبث، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها، كما ينفى الكير خبث الحديد»**[4]. وقال مزاحم: ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة نظرت فإذا القمر فى الدبران[5] ـ كأنه تشاءم من ذلك ـ فقال: فكرهت أن أقول ذلك له فقلت: ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه فى هذه الليلة! فنظر عمر فإذا هو بالدبران فقال: كأنك أردت أن تعلمنى أن القمر بالدبران. يا مزاحم، إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر، ولكن نخرج بالله الواحد القهار[6]، وسار عمر حتى وصل السويداء، وكان له فيها بيت ومزرعة، فنزل فيها فأقام مدة يرقب الأوضاع عن بعد، ثم رأى أن مصلحة المسلمين تقتضى أن تكون إقامته فى دمشق، بجوار الخليفة، لعله بذلك يستطيع أن يمنع ظلمًا، أو يشارك فى إحقاق حق، فانتقل إلى دمشق فأقام بها[7].

ولم يكن عمر بن عبد العزيز على وفاق تام مع الخليفة الوليد بن عبد الملك، ولذلك فإن إقامته فى دمشق بجوار الوليد لم تخْلُ من مشاكل، فالوليد يعتمد فى تثبيت حكمه على ولاة أقوياء قساة، يهمهم إخضاع الناس بالقوة، وإن رافق ذلك كثير من الظلم، بينما يرى عمر إن إقامة العدل بين الناس كفيل باستقرار الملك وائتمارهم بأمر السلطان، فكان رحمه الله يقول: الوليد بالشام والحجّاج بالعراق، ومحمد بن يوسف ـ أخو الحجّاج ـ فى

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٨٣).
(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٦٥.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه لابن الحكم صـ٢٧.
(٤) مسلم، ك الحج، باب: المدينة تنفى شرارها.
(٥) الدبران: نجم بين الثريا والجوزاء، ويقال له: التابع والتويبع؛ وهو من منازل القمر؛ سمى دبراناً لأنه يدبر الثريا أى يتبعها.
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٢٧.
(٧) البداية والنهاية (١٢/ ٦٨٣)

اليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك فى مصر. امتلأت - والله - الأرض جوراً[1].

٧ ـ نصح عمر للوليد بالحد من صلاحيات عماله فى القتل:

سلك عمر بن عبد العزيز بعض الطرق والوسائل لإصلاح هذا الوضع، فمن ذلك نصحه للوليد بالحد من صلاحيات عماله فى القتل، وقد نجح فى بادى الأمر فى استصدار قرار يمنع أى والٍ من القتل إلا بعد علم الخليفة، وموافقته على ذلك، فيذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز دخل على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين إن عندى نصيحة، فإذا خلا لك عقلك، واجتمع فهمك فسلنى عنها، قال: ما يمنعك منها الآن؟ قال: أنت أعلم، إذا اجتمع لك ما أقول فإنك أحق أن تفهم، فمكث أيامًا ثم قال: يا غلام من بالباب؟ فقيل له: ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز، فقال: أدخله، فدخل عليه فقال: نصيحتك يا أبا حفص، فقال عمر: إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وأن عمالك يقتلون، ويكتبون إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا، وأنت المسئول عنه والمأخوذ به، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحدًا حتى يكتب بذنبه، ثم يشهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك. فقال: بارك الله فيك يا أبا حفص ومنع فقدك. علىّ بكتاب، فكتب إلى أمراء الأمصار كلهم فلم يحرج من ذلك إلا الحجّاج فإنه أمضه، وشق عليه وأقلقه. وظن أنه لم يكتب إلى أحد غيره، فبحث عن ذلك، فقال: من أين ذهبنا؟ أو من أشار على أمير المؤمنين بهذا؟ فأخبر أن عمر بن عبد العزيز هو الذى فعل ذلك، فقال: هيهات إن كان عمر فلا نقض لأمره. ثم أن الحجّاج أرسل إلى إعرابى حرورى ـ من الخوارج ـ جاف من بكر بن وائل، ثم قال له الحجّاج: ما تقول فى معاوية؟ فنال منه. قال: ما تقول فى يزيد؟ فسبه. قال: فما تقول فى عبد الملك؟ فظلمه. قال: فما تقول فى الوليد؟ فقال: أجورهم حين ولاك، وهو يعلم عداءك وظلمك. فسكت الحجّاج وافترصها منه[2]، ثم بعث به إلى الوليد وكتب إليه: أنا أحوط لدينى، وأرعى لما استرعيتنى، وأحفظ له من أن أقتل أحدًا لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأى، فشأنك وإياه. فدخل الحرورى على الوليد وعنده أشراف أهل الشام وعمر فيهم، فقال له الوليد: ما تقول فىّ؟ قال: ظالم جبار. قال: ما تقول فى عبد الملك؟ قال: جبار

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١٤٦، أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٦٢.

(٢) افترصها: انتهزها.

عات. قال: فما تقول فى معاوية؟ قال: ظالم. قال الوليد لابن الريان: اضرب عنقه فضرب عنقه، ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده، فقال: يا غلام اردد علىّ عمر، فرده عليه فقال: يا أبا حفص ما تقول بهذا؟ أصبنا أم أخطأنا؟ فقال عمر: ما أصبت بقتله، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب، كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل أو تدركه منيته، فقال الوليد: شتمنى وشتم عبد الملك وهو حرورى، أفتستحل ذلك؟ قال: لعمرى ما استحله، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه، فقام الوليد مغضبًا، فقال ابن الريان لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص، لقد راددت أمير المؤمنين حتى ظننت أنه سيأمرنى بضرب عنقك[(١)]، وهكذا احتال الحجّاج على الوليد ليصرفه على الأخذ برأى عمر فى الحد من سرف الحجّاج وأمثاله فى القتل[(٢)].

٨- رأى عمر بن عبد العزيز فى التعامل مع الخوارج:

فبالإضافة إلى الموقف الذى مرّ ذكره - آنفًا - فى شأن الحرورى الذى بعث به الحجّاج - وردت روايات توضح الموقف نفسه، فعن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخبره أن الوليد أرسل إليه بالظهيرة، فوجده قاطبًا بين عينيه، قال: فجلست وليس عنده إلا ابن الريان، قائم بسيفه، فقال: ما تقول فيمن يسب الخلفاء؟ أترى أن يقتل؟ فسكت، فانتهرنى، وقال: مالك؟ فسكت، فعاد لمثلها، فقلت: أقتل يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكنه سب الخلفاء! قلت: فإنى أرى أن ينكل، فرفع رأسه إلى ابن الريان، فقال الوليد: إنه فيهم لتائه.

٩- نصحه الوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه":

ومن آخر مواقفه التى ذكرت لعمر بن عبد العزيز فى عهد الوليد بن عبد الملك نصحه للوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه عبد العزيز من بعده، فوقف عمر من ذلك موقفًا حازمًا حيث لم يستجب لأمر الوليد فى ذلك، وقال حين أراده على ذلك: يا أمير المؤمنين إنما بايعنا لكما فى عقدة واحدة، فكيف نخلعه ونتركك؟ فغضب الوليد على عمر، وحاول استخدام الشدة معه لعله يوافقه على ما أراد، فيذكر أنه أغلق عليه الدار وطين عليه الباب حتى تدخلت أم البنين أخته وزوجة الوليد، ففتح عنه بعد ثلاث وقد ذبل ومالت عنقه[(٣)].

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ ١١٩ - ١٢١، أثر العلماء فى الحياة السياسية ١٦٤ .

(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٦٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٤٨/٥، ١٤٩)، أثر العلماء صـ١٦٧ .

خامسًا: عمر فى عهد سليمان بن عبد الملك:

فى عهد سليمان تهيأت الفرص لعمر بن عبد العزيز بقدر كبير، فظهرت آثاره فى مختلف الجوانب، فبمجرد تولى سليمان الخلافة قرَّب عمر بن عبد العزيز، وأفسح له المجال واسعًا حيث قال: يا أبا حفص إنا وُلينا ما قد ترى، ولم يكن بتدبيره علم، فما رأيت من مصلحة العامة فمُرْ به[1]، وجعله وزيرًا ومستشارًا ملازمًا له فى إقامته أو سفره، وكان سليمان يرى أنه محتاج له فى صغيره وكبيره، فكان يقول: ما هو إلا أن يغيب عنى هذا الرجل فما أجد أحدًا يفقه عنى[2]. وفى موضع آخر قال: يا أبا حفص ما اغتممت بأمر ولا أكربنى أمر إلا خطرت فيه على بالى[3].

١ ـ أسباب تقريب سليمان لعمر: والذى دفع سليمان إلى إفساح المجال أمام عمر بهذه الصورة يعود فى نظرى إلى عدة أسباب منها:

أ- شخصية سليمان بن عبد الملك: حيث لم يكن مثل أخيه الوليد معجبًا بنفسه معتدًا برأيه وواقعًا تحت تأثير بعض ولاته، بل كان سليمان على العكس من ذلك غير معتد برأيه، خاليًا من التأثيرات الأخرى عليه.

ب- اقتناع سليمان بما يتمتع به عمر من نظرات وآراء صائبة.

جـ- موقف عمر من محاولة الوليد لخلع سليمان، مما جعل سليمان يشكر ذلك لعمر، وقد أشار لهذا الذهبى حيث قال بعد عرضه لموقف عمر: فلذلك شكر سليمان عمر وأعطاه الخلافة بعده[4].

٢ ـ تأثير عمر على سليمان فى إصدار قرارات إصلاحية: فقد كان لعمر أثر كبير على سليمان فى إصدار عدد من القرارات النافعة ومن أهمها: عزل ولاة الحجّاج، وبعض الولاة الآخرين، كوالى مكة خالد القسرى، ووالى المدينة عثمان بن حيان[5]، ومنها الأمر بإقامة الصلاة فى وقتها، فأورد ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز: أن الوليد بن عبد الملك كان يؤخر الظهر والعصر، فلما ولى سليمان كتب إلى الناس ـ عن رأى عمر ـ: إن الصلاة

---

(١) سير أعلام النبلاء نقلاً عن أثر العلماء صـ١٦٨. (٢) المعرفة والتاريخ للفسوى (١/٥٩٨).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ ٢٨، أثر العلماء صـ١٦٨.
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/١٤٩). (٥) أثر العلماء على الحياة السياسية صـ ١٦٩.

كانت قد أميتت فأحيوها[(١)]، وهناك أمور أخرى أجملها الذهبي بقوله: مع أمور جليلة كان يسمع من عمر فيها[(٢)].

٣ ـ إنكاره على سليمان بن عبد الملك في تحكيمه كتاب أبيه: كلمّ عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في ميراث بعض بنات عبد العزيز من بني عبد الملك، فقال له سليمان: إن عبد الملك كتب في ذلك كتابًا منعهن ذلك، فتركه يسيرًا ثم راجعه، فظن سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأى عبد الملك في ذلك الأمر، فقال سليمان لغلامه: ائتني بكتاب عبد الملك، فقال له عمر: أبالمصحف دعوتَ يا أمير المؤمنين؟ فقال أيوب بن سليمان: ليوشكن أحدكم أن يتكلم الكلام تُضرب فيه عنقه، فقال له عمر: إذا أفضى الأمر إليك فالذي دخل على المسلمين أعظم مما تذكر، فزجر سليمان أيوب، فقال عمر: إن كان جهل فما حلمُنا عنه[(٣)]. فهذا موقف من مواقف الجرأة في قول الحق الذي يُحمد لعمر حيث اعتبر سليمان بن عبد الملك كتابة أبيه شرعًا لا يمكن تغييره، فنبهه عمر إلى أن الكتاب الذي لا ينقض ولا يغيّر هو كتاب الله تعالى وحده، وهكذا يصل الطغيان بضحاياه إلى تعظيم شأن الآباء والأجداد الذين ورّثوا ذلك المجد الزائل لأبنائهم إلى الحد الذي يعتبرون فيه قضاءهم شرعًا نافذًا من غير نظر في موافقته لحكم الإسلام أو مخالفته، وموقف يذكر لسليمان حيث وبخّ ولده الذي هدد عمر أن قال كلمة الحق، وهذا يدل على ما يتصف به سليمان من سرعة الرجوع إلى الحق إذا تبين له[(٤)].

٤ ـ إنكاره على سليمان بن عبد الملك في الإنفاق: قدم سليمان بن عبد الملك المدينة فأعطى بها مالاً عظيمًا، فقال لعمر بن عبد العزيز: كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟ قال: رأيتك زدت أهل الغنى غنى، وتركت أهل الفقر بفقرهم[(٥)]. فهذا تقويم جيد من عمر بن عبد العزيز لعمل سليمان بن عبد الملك، فقد كان سليمان لجهله بدقائق أحكام الشريعة – في مجال الإنفاق ـ يظن أنه بإنفاقه ذلك المال الكثير على الرعية قد عمل صالحًا، فأفاده عمر ابن عبد العزيز بأنه قد أخطأ حينما صرف ذلك المال لغير مستحقيه وحرم منه أهله[(٦)]، فقد بين عمر – رحمه الله – أهمية التفريق بين بذل الخير وصرفه لمستحقيه.

(١) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء على الحياة السياسية صـ١٧٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٥).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٣١ .

(٤) التاريخ الإسلامي (١٥/ ٣٠، ٣١) .

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم صـ١٣١ . (٦) التاريخ الإسلامي (١٥/ ٢٩).

٥ ـ حث عمر سليمان على رد المظالم: خرج سليمان ومعه عمر إلى البوادى، فأصابه سحاب فيه برق وصواعق، ففزع منه سليمان ومن معه، فقال عمر: إنما هذا صوت نعمة، فكيف لو سمعت صوت عذاب؟ فقال سليمان: خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها، فقال عمر: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما هو؟ قال: قوم صحبوك فى مظالم لم يصلوا إليك، فجلس سليمان فرد المظالم(١)، ويظهر عند عمر وضوح فقه ترتيب الأولويات، فرد المظالم مقدم على بذل الصدقات.

٦ ـ أرى دنيا يأكل بعضها بعضًا: أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين، ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال سليمان: ما تقول يا عمر فى هذا؟ قال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضًا، وأنت المسئول عن ذلك كله. فلما اقتربوا من المعسكر، إذا غراب قد أخذ لقمة فى فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبة(٢)، فقال له سليمان: ما تقول فى هذا يا عمر؟ فقال: لا أدرى. فقال: ما ظنك أنه يقول؟ قال: كأنه يقول: من أين جاءت؟ وأين يذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبك؟ فقال عمر: أعجب منى من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه(٣).

٧ ـ هم خصماؤك يوم القيامة: لما وقف سليمان وعمر بعرفة جعل سليمان يعجب من كثرة الناس، فقال له عمر: هؤلاء رعيَّتُك اليوم، وأنت مسئول عنهم غدًا، وفى رواية: وهم خصماؤك يوم القيامة، فبكى سليمان وقال: بالله أستعين(٤).

٨ ـ زيد بن الحسن بن على مع سليمان: كان زيد بن الحسن بن على قد أجاب الوليد بن عبد الملك فى مسألة خلع سليمان خوفًا من الوليد، وكتب بموافقته من المدينة إلى الوليد، فلما استخلف سليمان وجد الكتاب، فبعث إلى واليه على المدينة، أن يسأل زيدًا عن أمر الكتاب، فإن هو اعترف به فليبعث بذلك إليه، وإن أنكر فعليه اليمين أمام منبر رسول الله ﷺ، فلما بعث باعترافه إلى سليمان كتب سليمان إلى والى المدينة أن يضربه مائة سوط ويمشيه حافيًا. . فحبس عمر الرسول وقال: لا تخرج حتى أكلم أمير المؤمنين، فيما كتب فى زيد بن حسن لعلى أطيب نفسه فيترك هذا الكتاب. فجلس الرسول فمرض سليمان،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ٣٣، أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٧٠ .

(٢) نعب الغراب: صوَّت أو مد عنقه وحرك رأسه فى صياحه.

(٣)، (٤) البداية والنهاية (١٢/ ٦٨٥).

فقال للرسول: لا تخرج فإن أمير المؤمنين مريض، فلما توفى سليمان وأفضى الأمر إلى عمر دعا بالكتاب ومزقه[1]. وظل عمر بن عبد العزيز قريبًا من سليمان طيلة مدة خلافته يحوطه بنصحه ويشاركه مسئولياته[2]، ويرى الدكتور يوسف العشى أن سياسة عمر بن عبد العزيز ومنطلقاتها بدأت منذ بداية خلافة سليمان، نعم أن سليمان كان يشتط حينًا فى سياسته، فيتخذ تدابير لعل عمر لا يقرها، لكن عمر بن عبد العزيز كان بالرغم من ذلك راجح القوة فى خلافته، وسياسة عمر لم تتغير، فهو فى دمشق مثله فى المدينة، على أنه فى دمشق يستطيع أن يفعل أكثر من المدينة، والأمر المهم عنده هو منع الجور[3] والظلم والعسف، ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز تعامل مع سنة التدرج وفقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى رد المظالم ومنعها، وعندما وصل للخلافة ازداد فى إحقاق العدل ومحاربة الظلم، لأن الصلاحيات المتاحة كانت أكبر، فهو نصح عمه عبد الملك وذكره بالآخرة مع جبروته وظلمه، ولم يتقاعس فى عهد ابن عمه الوليد، وتقدم خطوات، ووفق حسب الإمكان فى عهد سليمان وأتيحت له الفرصة فى خلافته، وبالتالى لا نقول إن ما حدث لعمر على مستواه الشخصى انقلاب، وإنما الانقلاب فى توظيف الدولة لخدمة الشريعة فى كافة شئون الحياة، ولو كان على حساب العائلة الحاكمة، التى كانت لها مخصصاتها وصلاحياتها والتى اعتبرها عمر بن عبد العزيز حقوقًا للأمة يجب ردها إلى بيت المال أو إلى أصحابها الأصليين.

سادسًا: خلافة عمر بن عبد العزيز:

ومن حسنات سليمان عبد الملك قبوله نصيحة الفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندى الذى اقترح على سليمان فى مرض موته أن يولى عمر بن عبد العزيز، وكانت وصية لم يكن للشيطان فيها نصيب[4]، قال ابن سيرين: يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز، وكانت سنة وفاته سنة ٩٩هـ، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وكان منقوش فى خاتمه: (أؤمن بالله مخلصًا)[5]، وتعددت الروايات فى قصة استخلاف سليمان لعمر، وقد ذكرت بعضها فى حديثى عن عهد سليمان، ومن الروايات أيضًا ما ذكره ابن سعد فى طبقاته، عن سهيل بن أبى سهيل قال: سمعت رجاء

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١٠٤ .

(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٧٣ .

(٣) الدولة الأموية، يوسف العشى صـ٢٥٤ .

(٤) عصر الدولتين الأموية والعباسية فى الشمال الأفريقى صـ٣٧ للصلاَّبى .

(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١١، ١١٢) .

ابن حيوة يقول: لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثيابًا خضرًا من خز، ونظر فى المرآة فقال: أنا والله الملك الشاب، فخرج إلى الصلاة يصلى بالناس الجمعة فلم يرجع حتى وعك، فلما ثقل كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب، وهو غلام لم يبلغ، فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يحفظ به الخليفة فى قبره أن يستخلف الرجل الصالح، فقال سليمان: كتاب أستخير الله فيه، وأنظر، ولم أعزم عليه، فمكث يومًا أو يومين، ثم خرقه ثم دعانى، فقال: ما ترى فى داود بن سليمان؟ فقلت: هو غائب بقسطنطينية، وأنت لا تدرى أحى هو أم ميت. قال: يا رجاء فمن ترى؟ قال: فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين، وأنا أريد أن أنظر من يذكر. فقال: كيف ترى فى عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه والله فاضلاً خيرًا مسلمًا. فقال: هو على ذلك - والله - لئن وليته، ولو لم أول أحدًا من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ولا يتركونه أبدًا يلى عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده - ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم - قال: فيزيد بن عبد الملك اجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنهم ويرضون به، قلت: رأيك، قال: فكتب بيده بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إنى وليته الخلافة من بعدى، ومن بعده يزيد ابن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا، فيطمع فيكم. وختم الكتاب. فأرسل إلى كعب بن حامد صاحب الشرطة أن مر أهل بيتى فليجتمعوا، فأرسل إليهم كعب، فجمعهم، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهب بكتابى هذا إليهم، فأخبرهم أنه كتابى ومرهم فليبايعوا من وليت. قال: ففعل رجاء، فلما قال لهم ذلك رجاء قالوا: سمعنا وأطعنا لمن فيه، وقالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين، قال نعم: فدخلوا فقال لهم سليمان: هذا الكتاب - وهو يشير لهم وهم ينظرون إليه فى يد رجاء بن حيوة - هذا عهدى، فاسمعوا، وأطيعوا، وبايعوا لمن سميت فى هذا الكتاب. قال فبايعوا رجلاً رجلاً. قال: ثم خرج بالكتاب مختومًا فى يد رجاء. قال رجاء: فلما تفرقوا جاءنى عمر بن عبد العزيز فقال: يا أبا المقدام، إن سليمان كانت لى به حرمة ومودة، وكان بى برًا ملطفًا، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إلىَّ من هذا الأمر شيئًا، فأنشدك الله وحرمتى ومودتى، ألا أعلمتنى إن كان ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتى حال لا أقدر فيها على ما أقدر الساعة. فقال رجاء: لا - والله - لا أخبرك حرفًا واحدًا. قال: فذهب عمر غضبان. قال رجاء: ولقينى هشام بن عبد الملك، فقال: يا رجاء، إن لى بك حرمة ومودة قديمة وعندى شكر، فأعلمنى أهذا الأمر إلىّ؟ فإن كان إلىَّ علمت، وإن كان إلى غيرى تكلمت، فليس مثلى قصر به، ولا نحى عنه هذا الأمر، فأعلمنى فلك الله لا أذكر اسمك

أبدًا. قال رجـاء: فأبيت وقلت: لا والله لا أخـبرك حرفًـا واحدًا مما أسر إلىَّ، فـانصرف هشام. . ، وهو يضرب بإحدى يديه على الأخـرى، وهو يقول: فإلى من إذا نُحيت عنى؟ أتخـرج من بنى عبـد الملك؟ فوالله إنى لعـين بنى عبـد الملك، قال رجـاء: ودخلت على سليمان بن عبد الملك، فإذا هو يموت. قال: فجعلت إذا أخذته سكرة من سكرات الموت، حرفته إلى القـبلة، فجعل يقول وهو يفأق: لم يأت ذلك بعد يـا رجاء. حتى فعلت ذلك مرتين. فلما كانت الثالثة قال: مـن الآن يا رجاء، إن كنت تريد شيئًا، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. قال: فحرفته، ومات، فلما أغمضته سجيته بقطيفة خضراء، وأغلقت البـاب، وأرسلت إلىَّ زوجته تنظر إليه، كيف أصـبح، فقلت: نام وقد تغطى، فنظر الرسول إليه، مغطى بالقطيفة فرجع، فأخبرها، فقبلت ذلك وظنت أنه نائم. قال رجاء: وأجلست على الباب من أثق به وأوصيته أن لا يريم حتى آتيه، ولا يدخل على الخليفة أحدًا. قال: فخرجت، فأرسلت إلى كعب بن حامد العنسى، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجـتمعوا فى مـسجد دابق فقلت: بايعـوا، قالوا: قد بايعنا مرة ونبـايع أخرى! قلت: هذا أمـير المؤمنين، بايعـوا على ما أمـر به، ومن سمى فى هـذا الكتاب المخـتوم، فبـايعوا الثانيـة رجلاً رجـلاً. قال رجاء: فلمـا بايعوا بعد مـوت سليمـان، رأيت أنى قد أحكمت الأمر، قلت قـوموا إلى صاحـبكم فقد مـات. قالوا: إنا لله وإنا إليه راجـعون، وقرأت عليهم الكتـاب، فلما انتهيت إلى ذكر عـمر بن عبد العزيز نادى هشـام: لا نبايعه أبدًا. قال قلت: أضـرب والله عنقك، قم فبايع. فقـام يجر رجليه. قـال رجاء: وأخذت بضبعى عمر، فـأجلسته على المنبر وهو يسترجع، لما وقع فيـه، وهشام يسترجع لما أخطاه، فلما انتهى هشام إلى عمر، قال: إنا لـله وإنا إليه راجعون، أى حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملـك، قال: فقال عمـر: نعم، فإنا لله وأنا إليه راجعـون، حين صار إلىَّ لكراهتى له[1]. وقال أبو الحسن الندوى على موقف رجاء بن حـيوة: وكان لرجاء مأثرة لا ينساها الإسلام، ولا أعرف رجلاً من ندماء المـلوك ورجالهم انتفع بقربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه، وانتهز الفرصة مثل انتهازه، وأسدى للإسلام خدمة مثله[2]، فرحم الله رجاء بن حيـوة فقـد رسم منهجًا لمـن يجلس مع الملوك من العلماء كيف يعز الإسـلام، ويذكر الخلفاء بالله، وينتهز الفرص المناسبة لخدمة دين الله.

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٤٥)، الطبقات (٥/ ٣٣٥ ـ ٣٣٨).

(٢) رجال الفكر والدعوة للندوى (١/ ٤٠).

١ ـ منهج عمر فى إدارة الدولة من خلال خطبته الأولى:

صعد عمر المنبر وقال فى أول لقاء مع الأمة بعد استخلافه: أيها الناس إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فولّ أمرنا باليمن والبركة. وهنا شعر أنه لا مفر من تحمل مسئولية الخلافة، فأضاف قائلاً يحدد منهجه وطريقته فى سياسة الأمة المسلمة: أما بعد فإنه ليس بعد نبيكم نبى، ولا بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، ألا إنى لست بقاض، ولكنى منفذ، ألا وإنى لست بمبتدع ولكنى متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع فى معصية الله، ألا إنى لست بخيركم، ولكنى رجل منكم غير أن الله جعلنى أثقلكم حملاً. أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس، وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما نهتدى إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية، ولا يعترض فيما لا يعنيه. أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شىء وليس من تقوى الله عز وجل خلف، واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات... وإن هذه الأمة لم تختلف فى ربها عز وجل، ولا فى نبيها ﷺ، ولا فى كتابها، وإنما اختلفوا فى الدينار والدرهم، وإنى والله لا أعطى أحدًا باطلاً، ولا أمنع أحدًا حقًا. ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال: يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعونى ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم. وإن من حولكم من الأمصار والمدن فإن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا وليكم، وإن هم نقموا فلست لكم بوال[٢]، ثم نزل.

وهكذا عقدت الخلافة لعمر بن عبد العزيز فى ذلك اليوم، وهو يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين[٣]، ويظهر لنا من هذه الخطبة السياسية التى قرر عمر بن عبد العزيز اتباعها فى الحكم وهى:

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ماجدة فيصل صـ١٠٢ .

(٢) انظر مع بعض الاختلاف: الطبقات (٥/ ٣٤٠)، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم صـ٣٥، ٣٦.

(٣) البداية والنهاية (١٢/٦٥٧) .

أ- التزامه بالكتاب والسنة، وأنه غير مستعد للاستماع إلى أى جدل فى مسائل الشرع، والدين على أساس أنه حاكم منفذ، وأن الشرع بيِّن من حيث تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله، ورفضه للبدعة والآراء المحدثة.

ب- حدد لمن يريد أن يتصل به ويعمل معه من رعيته أن يكون اتصاله معه لخمسة أسباب:

- أن يرفع إليه حاجة من لا يستطيع أن يصل إلى الخليفة، أى أنه جعل المقربين منه همزة وصل بينه، وبين من لا يستطيعون الوصول إليه، فيعرف بذلك حوائج الناس، وينظر فيها.

- أن يعينه على الخير ما استطاع، أى أن علاقة هؤلاء به تقوم على أساس نزعة الخير، يعين الخليفة عليه، وبالتالى يحذره من أى شر.

- فرض على من يقترب إليه فريضة أن يرشده، ويهديه إلى ما فيه خير الأمة، وخير الدين.

- نهى من يريد أن يتقرب إليه، عن أن يغتاب إليه أحدًا.

- أن لا يتدخل أى متقرب منه فى شئون الحكم، وفيما لا يعنيه عامة.

لقد كان يدرك مدى تأثير البطانة والمقربين من الحاكم عليه وعلى الرعية، وعلى أسلوب الحكم، فآثر أن ينبه الناس حتى يتركوه يحكم بما ارتضى فى نطاق شرع الله، دون أن يبعدهم نهائيًا، لأنه أجاز لهؤلاء المقربين أن يدلوه على الخير، ويعينوه عليه، وأن ينقلوا إليه حاجة المحتاج[1].

ج- كما أنه حذر الناس من عواقب الدنيا لو أساءوا فيها، وطلب إليهم أن يصلحوا سرائرهم، ويحذروا الموت، ويتعظوا به.

د- قطع على نفسه عهدًا بأن لا يعطى أحدًا باطلاً، ولا يمنع أحدًا حقًا، وأنه أعطاهم حقًا عليه، وهو أن يطيعوه ما أطاع الله، وأنه لا طاعة له عليهم إذا عصاه سبحانه وتعالى.
هذه هى الخطوط العريضة لسياسة عمر، ذكرها فى أول لقاء له مع الرعية وأهل الحل والعقد فى المسجد، بعد بيعته، فدولته قد حدّدها بالسير على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وقد آثر أن لا يدع لأى عامل من عماله حجة عليه بعد ذلك، ففصل ما أجمل فى خطبته الأولى فى كتب أرسلها إلى عماله، وقد كانت هذه الكتب نوعين:

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ ١٠٥

ـ كتب إلى العمال يبصرهم بما يجب عليهم أن يلتزموا به فى مسلكهم الشخصى، والخاص، إزاء الرعية، وسوف نتحدث عن ذلك بإذن الله.

ـ وكتب إلى عماله كُتبًا حددت سياستهم، وطريقة تعاملهم مع أفراد الرعية من المسلمين، وغير المسلمين، ممن كانوا يسكنون دار الإسلام. وعمر فى هذه الكتب ـ كما سيظهر بإذن الله ـ تكلم عن موقفه كفقيه متبحر فى أصول الدين[1]، وسيأتى الحديث عن منهجه من خلال أعماله.

٢ ـ الحرص على العمل بالكتاب والسنة:

من أهم ما يميز منهج عمر فى سياسته، حرصه على العمل بالكتاب والسنة، ونشر العلم بين رعيته وتفقيههم في الدين وتعريفهم بالسنة، ومنطلق عمر فى ذلك فهمه لمهمة الخلافة، فهى حفظ الدين وسياسة الدنيا به[2]، فهو يرى أن من أهم واجباته تعريف رعيته بمبادئ دينهم وحملهم على العمل بها، فورد عنه أنه قال فى إحدى خطبه: إن للإسلام حدوداً وشرائع وسننًا، فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فلئن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص[3]. وقال أيضًا: فلو كانت كل بدعة يميتها الله على يدى وكل سنة يعيشها الله على يدى ببضعة من لحمى حتى يأتى آخر ذلك على نفسى كان فى الله يسيراً. وفى موضع آخر قال: والله لولا أن أنعش سنة أو أسير بحق ما أحببت أن أعيش فواقًا[4]، لهذا بادر عمر فى تنفيذ هذه المسئولية المهمة، فبعث العلماء فى تعليم الناس وتفقيههم إلى مختلف أقاليم الدولة، وفى حواضرها وبواديها، وأمر عماله على الأقاليم بحث العلماء على نشر العلم، فقد جاء فى كتابه الذى بعث إلى عماله: ومُرْ أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله من ذلك، وليتحدثوا به فى مجالسهم[5]، ومما كتب به إلى بعض عماله: أما بعد فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم فى مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت[6]، كما أمر

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ١٠٦ .

(٢) الأحكام السلطانية والولايات الدينية صـ٥ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٦٠ .

(٤) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت أو ما بين فتح اليد وقبضها على الضرع .

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٧٣ .

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ ٧٦ .

عماله أن يجروا الرواتب على العلماء ليتفرغوا لنشر العلم[١]، وانتدب العديد من العلماء لتفقيه الناس في الدين، فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري يفقهان الناس والبدو[٢]، وذكر الذهبي أن عمر ندب يزيد بن أبي مالك ليفقه بني نمير ويقرئهم، وبعث نافع مولى ابن عمر إلى أهل مصر ليعلمهم السنن[٣]، وكان قد بعث عشرة من الفقهاء إلى إفريقية يفقهون أهلها، وسيأتي الحديث عنهم بإذن الله.

ولم تنحصر مهمة هؤلاء العلماء في التعليم فحسب، بل منهم من أسند إليه بعض الولايات، ومنهم من تولى القضاء وأسهم أكثرهم بالإضافة إلى نشر العلم في مجال الدعوة والجهاد في سبيل الله، وهذا الاهتمام الذى تميز به منهج عمر لتعليم الناس وتفقيههم بأمور دينهم له أبعاد سياسية وآثار أمنية، ذلك أن نشر الوعي الديني الصحيح والفقه فيه بين أفراد الرعية له أثر في حماية عقول أبناء الأمة من عبث الأفكار التي ينعكس خطرها على الاستقرار السياسي والأمني، كأفكار الخوارج[٤] وغيرهم.

٣ ـ الشورى في دولة عمر بن عبد العزيز:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بتفعيل مبدأ الشورى في خلافته، ومن أقواله في الشورى: إن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة لا يضل معهما رأى، ولا يفقد معهما حزم[٥]، وكان أول قرار اتخذه عمر بعدما ولي أمر المدينة للوليد بن عبد الملك، يتعلق بتطبيق مبدأ الشورى، وجعله أساسًا في إمارته، حين دعا من فقهاء المدينة وكبار علمائها، وجعل منهم مجلسًا استشاريًا دائمًا[٦] ـ كما مر معنا ـ فحرى بمن جعل الشورى أحد مبادئ إمارته حين كانت مسئوليته جزئية، أن يطبقه وقت المسئولية الكاملة، والمهمة العظمى، ألا وهي ولاية أمر المسلمين كافة، وقد تبين مبدأ الشورى من أول يوم في خلافته، وقال للناس: أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر، من غير رأى كان مني فيه، ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين، وإني

(١) البداية والنهاية نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية صـ١٧٩.

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٦/ ١٧٥)، أثر العلماء صـ١٧٩.

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٣٨). (٤) أثر العلماء في الحياة السياسية صـ١٨٠.

(٥) أدب الدنيا والدين للماوردي صـ ١٨٩.

(٦) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز صـ٢٨٣.

قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم، فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك فول أمرنا باليمن والبركة[(١)]، وبذلك خرج عمر من مبدأ توريث الولاية الذى تبناه معظم خلفاء بنى أمية إلى مبدأ الشورى والانتخاب، ولم يكتف عمر باختياره ومبايعة الحاضرين، بل يهمه رأى المسلمين فى الأمصار الأخرى ومشورتهم، فقال فى خطبته الأولى ـ عقب توليه الخلافة ـ: . . وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم، وإن هم أبوا فلست لكم بوال، ثم نزل[(٢)]. وقد كتب إلى الأمصار الإسلامية فبايعت كلها، وممن كتب لهم يزيد بن المهلب يطلب إليه البيعة بعد أن أوضح له أنه فى الخلافة ليس براغب، فدعا يزيد الناس إلى البيعة فبايعوا[(٣)]. وبذلك يتضح أنه لم يكتف بمشورة من حوله، بل امتد الأمر إلى جميع أمصار المسلمين. ونستنتج من موقف عمر هذا ما يلى:

أ- أن عمر كشف النقاب عن عدم موافقة الأصول الشرعية فى تولى معظم الخلفاء الأمويين.

ب- حرص عمر على تطبيق الشورى فى أمر يخصه هو، ألا وهو توليه الخلافة.

جـ- أن من طبق مبدأ الشورى فى أمر مثل تولى الخلافة حرى بتطبيقه فيما سواه.

وكان عمر يستشير العلماء، ويطلب نصحهم فى كثير من الأمور أمثال سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظى، ورجاء بن حيوة وغيرهم، فقال: إنى قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا على[(٤)]. كما كان يستشير ذوى العقول الراجحة من الرجال[(٥)]، وقد حرص عمر على إصلاح بطانته لما تولى الخلافة، فقرب إلى مجلسه العلماء وأهل الصلاح، وأقصى عنه أهل المصالح الدنيوية والمنافع الخاصة، ولم يكتف ـ رحمه الله ـ بانتقاء بطانته، بل كان زيادة على ذلك يوصيهم ويحثهم على تقويمه، فقال لعمر بن مهاجر: إذا رأيتنى قد ملت عن الحق فضع يدك فى تلبابى ثم هزنى، ثم قل: يا عمر ما تصنع[(٦)]؟، وقد كان لهذا المسلك أثر فى تصحيح سياسته التجديدية ونجاحها، حيث كان لبطانته أثر فى شد

---

(١) سيرة مناقب عمر بن عبد العزيز صـ٦٥ . (٢) البداية والنهاية (١٢/٦٥٧) .

(٣) تاريخ الطبرى؛ نقلاً عن النموذج الإدارى المستخلص من عمر صـ٢٨٥ .

(٤) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز صـ١٦ .

(٥) النموذج الإدارى المستخلص من عمر بن عبد العزيز صـ٢٨٥ .

(٦) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٧٥- ١٧٧.

أزره، وسداد رأيه وصواب قراره(١)، فمن أسباب نجاح عمر بن عبد العزيز تقريبه لأهل العلم والصلاح وانشراح صدره لهم، ومشاركتهم معه لتحمل المسئولية، فنتج عن ذلك حصول الخير العميم للإسلام والمسلمين.

٤ ـ العدل فى دولة عمر بن عبد العزيز:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] أمر الله بفعل -كما هو معلوم- يقتضى وجوبه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]. وللعدل صورتان: صورة سلبية بمنع الظلم وإزالته عن المظلوم، أى بمنع انتهاك حقوق الناس المتعلقة بأنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وإزالة آثار التعدى الذى يقع عليهم، وإعادة حقوقهم إليهم ومعاقبة المعتدى عليها فيما يستوجب العقوبة(٣). وصورة إيجابية: وتتعلق أكثر ما تتعلق بالدولة، وقيامها بحق أفراد الشعب فى كفالة حرياتهم وحياتهم المعيشية، حتى لا يكون فيهم عاجز متروك، ولا ضعيف مهمل، ولا فقير بائس، ولا خائف مهدد، وهذه الأمور كلها من واجبات الحاكم فى الإسلام(٤).

وقد قام أمير المؤمنين عمر بهذا الركن العظيم والمبدأ الخطير على أتم وجه وكان يرى أن المسئولية والسلطة هى القيام بحقوق الناس والخضوع لشروط بيعتهم، وتحقيق مصلحتهم المشروعة، فالخليفة أجير عند الأمة وعليه أن ينفذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة(٤)، وقد أحب الاستزادة من فهم صفات الإمام العادل وما يجب أن يقوم به ليتصف بهذه الخصلة الفريدة الحميدة فكتب إلى الحسن البصرى يسأله فى ذلك، فأجابه الحسن: الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده يسعى لهم صغارًا، ويعلمهم كبارًا، يكتب لهم فى حياته، ويدخرهم بعد مماته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البّرة الرفيقة بولدها، حملته كرهًا، ووضعته كرهًا، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته، والإمام العدل يا أمير

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٧٨ .

(٢) عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، عبد الستار الشيخ صـ٢٢٢ .

(٣) المصدر نفسه صـ٢٢٢، نظام الإسلام، محمد المبارك صـ٤٥ ـ ٤٦ .

(٤) عمر بن عبد العزيز، خامس الخلفاء، عبد الستار صـ٢٢٣ .

المؤمنين وصيّ اليتامى، وخازن المساكين، يربى صغيرهم، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وعباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملَّكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدَّد، وشرَّد العيال، فأفقر أهله وفرَّق ماله[1].

أ ـ سياسته في رد المظالم:

– أمير المؤمنين يبدأ بنفسه: تنفيذًا لما أراده عمر من رد المظالم، مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، بدأ بنفسه، روى ابن سعد: أنه لما رد عمر بن عبد العزيز المظالم قال: إنه لينبغى أن لا أبدأ بأول من نفسى[2]. وهذا الفعل جعله قدوة للآخرين، فنظر إلى ما فى يديه من أرض، أو متاع، فخرج منه حتى نظر إلى فص خاتم. فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب فخرج منه[3]. وكان ذلك لإصراره على قطع كل شك بيقين، وحتى يطمئن إلى أن ما فى يده لا شبهة فيه لظلم أو مظلمة، حتى ولو كان ورثه، خصوصًا أن القصص والحكايات كانت كثيرة يتناقلها الناس عن مظالم ارتكبت على عهد خلفاء بنى أمية، وعمالهم، وقد بلغ به حرصه على التثبت أنه نزع حلى سيفه من الفضة، وحلاه بالحديد، قال عبد العزيز بن عمر: كان سيف أبى محلى بفضة فنزعها وحلاه حديدًا[4]، وكان خروجه مما بيده من أرض أو متاع بعدة طرق كالبيع، ذلك أنه حين استخلف نظر إلى ما كان له من عبد، وإلى لباسه وعطره وأشياء من الفضول، فباع كل ما كان به عنه غنى، فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار، فجعله فى السبيل[5]. أو عن طريق ردها إلى أصحابها الأصليين، وهذا ما فعله بالنسبة للقطائع التى أقطعه إياها قومه، يروى ابن الجوزى عن إسماعيل بن أبى حكيم أنه قال: كنا عند عمر بن عبد العزيز حتى تفرق الناس ودخل إلى أهله للقائلة، فإذا منادٍ ينادى: الصلاة جامعة. قال: ففزعنا فزعًا شديدًا مخافة أن يكون قد جاء فتق من وجه من الوجوه أو حدث. قال جويرية: وإنما كان أنه دعا مزاحمًا فقال: يا مزاحم، إن هؤلاء القوم قد أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها، وما كان لنا أن نقبلها، وإن ذلك قد صار إلىَّ ليس على فيه دون الله محاسب. فقال له مزاحم: يا أمير المؤمنين، هل تدرى كم ولدك؟ هم كذا وكذا، قال: فذرفت عيناه، فجعل يستدمع ويقول:

(١) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٢٢٤ . (٢) الطبقات (٥/ ٣٤١) .
(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٤١ ، ٣٤٢) .
(٤)، (٥) المصدر نفسه (٥/ ٣٥٥)، عمر وسياسته فى رد المظالم صـ٢٠٥ .

أكلهم إلى الله؟ قال: ثم انطلق مزاحم من وجهه ذلك حتى استأذن على عبد الملك، فأذن له ـ وقد اضطجع للقائلة ـ فقال له عبد الملك: ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة؟ هل حدث حدث؟ قال: نعم أشد الحدث عليك وعلى بنى أبيك. قال: وما ذاك؟ قال: دعانى أمير المؤمنين ـ فذكر له ما قاله عمر ـ فقال عبد الملك: فما قلت له؟ قال: قلت له يا أمير المؤمنين، تدرى كم ولدك؟ هم كذا وكذا، قال: فما قال لك؟ قال: جعل يستدمع ويقول أكلهم إلى الله تعالى. قال عبد الملك: بئس وزير الدين أنت يا مزاحم. ثم وثب فانطلق إلى باب أبيه عمر، فاستأذن عليه، فقال له الآذن: أما ترحمونه، ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة؟ قال عبد الملك: استأذن لى، لا أم لك. فسمع عمر الكلام، فقال: من هذا؟ قال: هذا عبد الملك. قال: ائذن له. فدخل عليه ـ وقد اضطجع عمر للقائلة ـ فقال: ما حاجتك يا بنى هذه الساعة؟ قال: حديث حدثنيه مزاحم. قال: فأين وقع رأيك من ذلك؟ قال: وقع رأيى على إنفاذه. قال: فرفع عمر يديه ثم قال: الحمد لله الذى جعل لى من ذريتى من يعيننى على أمر دينى. نعم يا بنى أصلى الظهر، ثم أصعد المنبر فأردها علانية على رءوس الناس. فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين، ومن لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر. قال عمر: قد تفرق الناس ورجعوا للقائلة، فقال عبد الملك: تأمر مناديك ينادى: الصلاة جامعة، فيجتمع الناس. فنادى المنادى: الصلاة جامعة. قال: فخرجت فأتيت المسجد فجاء عمر فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها، وما كان لنا أن نقبلها. وإن ذلك قد صار إلىَّ ليس على فيه دون الله محاسب، ألا وإنى قد رددتها، وبدأت بنفسى وأهل بيتى، اقرأ يا مزاحم ـ وقد جىء بسفط قبل ذلك، أو قال جرنة فيها تلك الكتب- قال: فقرأ مزاحم كتابًا منها، فلما فرغ من قراءته ناوله عمر ـ وهو قاعد على المنبر وفى يده جلم ـ قال: فجعل يقصه بالجلم. واستأنف مزاحم كتابًا آخر فجعل يقرؤه، فلما فرغ منه دفعه إلى عمر فقصه، ثم استأنف كتابًا آخر فما زال حتى نودى بصلاة الظهر[1] ومن بين ما رده عمر مما كان فى يده من القطائع جبل الورس باليمن وقطائع باليمامة[2]، إلى جانب فدك وخيبر[3]، والسويداء، فخرج منها جميعًا إلا السويداء، فقد قال عمر فيها: ما من شىء إلا وقد رددته فى مال المسلمين إلا العين التى بالسويداء فإنى عمدت إلى أرض براح ليس فيها لأحد من المسلمين ضربة سوط، فعملتها من صلب

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ١٠٧، ١٠٨ .

(٢) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ٢٠٧ . (٣) المصدر نفسه صـ٢٠٧ .

عطائى الذى يجمع لى مع جماعة المسلمين، وقد جاءت غلتها مائتا دينار[(١)]. وأما قرية فدك ـ التى تقع شمال المدينة ـ فقد كانت تغل فى السنة عشرة آلاف دينار تقريبًا، فلما ولى عمر الخلافة سأل عنها وفحصها، فأخبر بما كان من أمرها فى عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان. . . فكتب ـ بناء على ذلك ـ إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتابًا قال فيه: أما بعد فإنى نظرت فى أمر فدك وفحصت عنه، فإذا هو لا يصلح لى، ورأيت أن أردها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله وأبى بكر وعمر وعثمان، وأترك ما حدث بعدهم، فإذا جاءك كتابى هذا فاقبضها وولِّها رجلاً يقوم فيها بالحق، والسلام[(٢)].

وأما الكتيبة فهى حصن من حصون خيبر، وعندما تولى عمر بن عبد العزيز كتب على عامله على المدينة أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يقول: افحص لى عن الكتيبة، أكانت من خمس رسول الله ﷺ من خيبر أم كانت لرسول الله خاصة؟ قال أبو بكر: فسألت عمرة بنت عبد الرحمن فقالت: إن رسول الله لما صالح بنى أبى الحقيق جزأ النطاة والشق خمسة أجزاء، فكانت الكتيبة جزءًا منها، وأعادها عمر بن عبد العزيز إلى ما كانت إليه فى عهد رسول الله[(٣)]، كما أرجع عمر للرجل المصرى أرضه بحلوان بعد أن عرف أن والده عبد العزيز قد ظلم المصرى فيها، وحتى الدار التى كان والده عبد العزيز بن مروان قد اشتراها من الربيع بن خارجة الذى كان يتيمًا فى حجره، ردها عليه، لعلمه أنه لا يجوز اشتراء الولى ممن يلى أمره، ثم التفت إلى المال الذى كان يأتيه من جبل الورس باليمن، فرده إلى بيت مال المسلمين رغم شدة حاجة أهله إلى هذا المال، لكنه كان يؤثر الحياة الآخرة على الحياة الدنيا، كما أمر عمر بن عبد العزيز مولاه مزاحمًا برد المال الذى كان يأتيه من البحرين كل عام إلى مال الله[(٤)]. وهكذا بدأ عمر بنفسه يضرب المثل ويكون الأسوة أمام رعيته حين رد من أملاكه كل ما شابته شائبة الظلم، أو الشك فى خلاص حقه فيه، فرد كل ذلك إلى أصحابه، انطلاقًا من تمسكه بالزهد، وإيمانه برد المظالم إلى أصحابها، تقوى الله، ووضعًا للحق فى نصابه، وبعد أن انتهى من رد كل مال شك بأنه ليس له فيه حق اتجه إلى زوجته فاطمة بنت عبد الملك ـ وكان لها جوهر ـ فقال لها عمر: من أين صار هذا المال إليك؟ قالت: أعطانيه أمير المؤمنين، قال: إما أن ترديه إلى بيت المال وإما أن تأذنى لى فى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٤٠ .
(٢) الطبقات (٥/٣٨٩)، عمر وسياسته فى رد المظالم صـ٢٠٨ .
(٣) عمر بن عبد العزيز سياسته فى رد المظالم صـ٢٠٩ .
(٤) المصدر نفسه صـ٢١٢ .

فراقك، فإنى أكره أن أكون أنا وأنت وهو فى بيت[1]، وقد أوضح عمر لها سبب كرهه له بقوله: قد علمت حال هذا الجوهر وما صنع فيه أبوك، ومن أصابه، فهل لك أن أجعله فى تابوت ثم أطبع عليه وأجلعه فى أقصى بيت مال المسلمين وأنفق ما دونه، وإن خلصت إليه أنفقته، وإن مت قبل ذلك فلعمرى ليردنه إليك. قالت له: افعل ما شئت، وفعل ذلك فمات ـ رحمه الله ـ ولم يصل إليه، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك فامتنعت من أخذه، وقالت: ما كنت لأتركه ثم آخذه، وقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه[2].

- رد مظالم بنى أمية: وإذا كان عمر قد بدأ بنفسه فى رد المظالم، فقد ثنى فى ذلك بأهل بيته وبنى عمومته وبإخوته من أفراد البيت الأموى، وفور فراغه من دفن ابن عمه سليمان ابن عبد الملك، فقد رأى ما أذهله وهو أن أبناء عمه من الأمويين أدخلوا الكثير من مظاهر السلطان التى لم تكن موجودة على عهد النبى ﷺ، أو خلفائه الراشدين، فأنفقوا الكثير من المال من أجل الظهور بمظاهر العظمة والأبهة أمام رعيتهم. ومن تلك المظاهر المراكب الخلافية التى تتألف من براذين وخيول وبغال، ولكل دابة سائس، ومنها أيضًا تلك السرادقات والحجرات والفرش والوطاءات التى تعد من أجل الخليفة الجديد، وفوجىء بتلك الثياب الجديدة وقارورات العطر والدهن التى أصبحت له بحجة أن الخليفة الراحل لم يصبها، فهى من حقه بصفته الخليفة الجديد، وهذا كله إسراف وتبذير لا مبرر له يتحمله بيت مال المسلمين، وهو بأمس الحاجة لكل درهم فيه لينفق فى وجهه الصحيح الذى بينه الله ورسوله، وهنا أمر مولاه مزاحمًا فور تقديم هذه الزينة له ببيعها، وضم ثمنها إلى بيت مال المسلمين[3]. لقد كانت لعمر بن عبد العزيز سياسة محددة فى رد المظالم من أفراد البيت الأموى تكونت لديه خطوطها فور تسلمه زمام الخلافة، حين وفد عليه أفراد البيت الأموى عقب انصرافه من دفن سليمان يسألونه ما عودهم الخلفاء الأمويون من قبله، وحين أراد عبد الملك أن يرد أفراد البيت الأموى عن أبيه كشف له أبوه عن سياسته تلك حين قال له: وما تبلغهم؟ قال: أقول أبى يقرئكم السلام ويقول لكم: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١٣].

ثم أوضحها له مرة أخرى حين جاءه يطالبه بالإسراع باستخلاص ما بأيدى الأمويين من مظالم، فقال: يا بنى، إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى ما

(١) عمر بن عبدالعزيز وسياسته فى رد المظالم صـ٢١٢، الطبقات (٥/ ٢٩٣).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٥٢، ٥٣.

(٣) عمر بن العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ٢١٣.

أريد مكايدتهم على انتزاع ما فى أيديهم لم آمن أن يفتقوا علىّ فتقًا تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون علىّ من أن يهراق فى سببى محجمة من دم، أو ما ترضى أن لا يأتى على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيى فيه سنة حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين[(١)]؟ ثم زاد فى توضيح سياسته تلك حينما قال له ولده عبد الملك: ما يمنعك أن تمضى الذى تريد؟ فوالذى نفسى بيده ما أبالى لو غلت بك وبى القدور، قال: وحق هذا منك، قال: نعم والله قال عمر: الحمد لله الذى جعل من ذريتى من يعيننى على أمر دينى، إنى لو باهت الناس بالذى تقول لم آمن أن ينكروها، فإذا أنكروها لم أجد بدًا من السيف، ولا خير فى خير لا يجىء إلا بالسيف، يا بنى، إنى أروض الناس رياضة الصعبة، فإن بطأ بى عمر أرجو أن ينفذ الله مشيئتى، وأن تعدو منيتى فقد علم الله الذى أريده[(٢)].

وهكذا يتبع عمر أسلوب الحكمة والحسنى فى تنفيذ سياسته وتطبيقًا لهذه السياسة فإنه قد مهد لهذه الخطوة الحاسمة، والخطيرة بخطوات تسبقها خروجه هو أولاً مما بيده من مظالم وردها إلى أصحابها، أو بيت المال، ثم اتجه إلى أبناء البيت الأموى فجمعهم وطلب إليهم أن يخرجوا مما بأيديهم من أموال وإقطاعات أخذوها بغير حق[(٣)]. وشهدت الأيام الأولى من خلافة عمر تجريداً واسع النطاق لكثير من أموال وأملاك بنى أمية، ظلت تنمو فى الماضى وتتضخم لكونهم العائلة الحاكمة ليس إلا.. وها هى الآن ترد إلى بيت مال المسلمين لكى يأخذ العدل مجراه، وتعود أموال المسلمين إلى المسلمين، لا يستأثر بها أحد دون أحد، ولا حزب دون حزب.. أموال وأملاك من شتى الصنوف والأنواع، جمعت بمختلف الطرق وسائر الأساليب، جرد عمر بنى أمية منها ومزق مستنداتها واحدة واحدة، وردها إلى مكانها الصحيح: مظالم وجوائز وهدايا ومخصصات استثنائية وضياع وقطاع، جمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة، بلغت فى تقدير عمر شطراً كبيراً من أموال الأمة جاوزت النصف[(٤)]. ولا تمضى سوى أيام معدودات حتى يجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعى المشروع، فيضجون ضد سياسة عمر هذه ويعلنون معارضتهم الصارمة لها، فماذا يكون جواب عمر؟ انظروا: والله لوددت ألا تبقى فى الأرض مظلمة إلا ورددتها على شرط ألا أرد مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائى أجد

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٢٦٠ ـ ٢٦٣ .

(٢) المصدر السابق صـ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ٢١٥ .

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ١١٥ .

أمله ثم يعود كما كان حيًا، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سألت نفسى عندها[1]. ولكن بنى أمية لم ييأسوا من هذا الحزم والعزم إزاء حقوق الأمة، وهم الذين ما خطر ببالهم يومًا أن يجردوا هذا التجريد، فاجتمعوا وطلبوا من أحد أولاد الوليد -وكان كبيرهم ونصيحهم- أن يكتب إلى عمر، فكتب إليه: أما بعد، فإنك أنسيت ممن كان قبلك من الخلفاء وسرت بغير سيرتهم وسميتها المظالم نقصًا لهم ولأعمالهم، وشاتمًا لمن كان بعدهم من أولادهم، ولم يكن ذلك لك، فقطعت ما أمر الله أن يوصل، وعملت بغير الحق فى قرابتك، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتهم بيت مالك ظلمًا وجورًا وعدوانًا، فاتق الله يا ابن عبد العزيز وأرجعه، فإنك قد أوشكت لم تطمئن على منبرك إن خصصت ذوى قرابتك بالقطيعة والظلم، فوالله الذى خص محمدﷺ بما خصه من الكرامة لقد ازددت من الله بعدًا فى ولايتك هذه التى تزعم أنها بلاء عليك، وهى كذلك، فاقتصد فى بعض ميلك وتحاشيك[2]. وتظهر فى هذا الكتاب مآخذ الأمويين على سياسة عمر وهى أنه:

- خالف سيرة من قبله من الخلفاء وأزرى بهم وعاب أعمالهم.
- أساء إلى أولاد من قبله من الخلفاء.
- لم يكن عمله منسجمًا مع الحق.
- إن قطيعة أهل بيته تهدد مكانه من الخلافة.

ولا ريب أن سياسة عمر بن عبد العزيز تهدد مكانة الأسرة الأموية وتضعف مراكز قوتها، وقد تؤدى إلى دفعها لاتخاذ مواقف مهددة للخليفة القائم، وفى هذا خطر كبير عليه وعلى الخلافة[3]، وكان رد عمر حممًا من نار الحق تتفجر فى كل كلمة فيها: .. ويلك وويل أبيك، ما أكثر طلابكما وخصمائكما يوم القيامة... رويدك فإنه لو طالت بى حياة ورد الله الحق إلى أهله، تفرغت لك ولأهل بيتك، فأقمت على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وراءكم[4].

- بنو أمية يلجأون إلى أسلوب الحوار الهادى: وما أن يئس بنو أمية من صمود عمر إزاء معارضتهم الجماعية الشديدة هذه، لجأوا إلى أسلوب الحوار الهادئ، علهم يصلون عن

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١٤٧ ـ ١٥١ .

(2) المصدر نفسه صـ١٢٦، ١٢٧، عمر بن عبد العزيز، صالح العلى صـ١٩٤ .

(3) عمر بن عبد العزيز، صالح العلى صـ١٩٥ .

(4) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١٤٧ ـ ١٥١.

طريقه إلى ما يشتهون، فيتكلمون معه يومًا مستشيرين فيه نزعة القربى وعاطفة الرحم، فيجيبهم: أن يتسع مالى لكم، وأما هذا المال - أى المال العام - فحقكم فيه كحق أى رجل من المسلمين. والله أنى لا أرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله[1]، ودخل عليه هشام بن عبد الملك يومًا فقال: يا أمير المؤمنين إنى رسول قومك إليك، وإن فى أنفسهم ما جئت لأعلمك به، إنهم يقولون: استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك وخل بين من سبقك وبين ما ولوا بما عليهم ولهم، وببديهة يجيب عمر: أرأيت أن أتيت بسجلين أحدهما من معاوية والآخر من عبد الملك فبأى السجلين آخذ؟ قال هشام: بالأقدم. فأجاب عمر: فإنى وجدت كتاب الله الأقدم، فأنا حامل عليه من أتانى ممن تحت يدى وفيمن سبقنى[2].

- **بنو أمية يرسلون عمة عمر بن عبد العزيز:** فعندما عجز الرجال من بنى أمية عن جعل عمر يخاف أو يلين عن سياسته إزاءهم، لجأوا إلى عمته فاطمة بنت مروان، وكانت عمته هذه لا تحجب عن الخلفاء، ولا يرد لها طلب أو حاجة، وكانوا يكرمونها ويعظمونها، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل استخلافه، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها كعادته، وألقى لها وسادة لتجلس عليها. فقالت: إن قرابتك يشكونك ويذكرونك أنك أخذت منهم خير غيرك، قال: ما منعتهم حقًا أو شيئًا كان لهم، ولا أخذت منهم حقًا أو شيئًا كان لهم، فقالت: إنى رأيتهم يتكلمون، وإنى أخاف أن يهيجوا عليك يومًا عصيبًا. فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقانى الله شره. قال: فدعا بدينار، وجنب، ومجمرة، فألقى ذلك الدينار بالنار، وجعل ينفخ على الدينار إذا احمر تناوله بشىء، فألقاه على الجمر فنشى وقتر فقال: أى عمة أما ترثين لابن أخيك من هذا؟[3]، وتؤخذ العمة بهذا المشهد المؤثر، وتلتفت إلى عمر طالبة منه أن يستمر فى الكلام، واسمعوه يقول، وكأنه يرسم لوحة فنية رائعة للعدالة الاجتماعية التى جاء بها الإسلام لكى يجعلها تفجر الخير والنعيم على الجميع، قال: إن الله بعث محمدًا ﷺ رحمة ولم يبعثه عذابًا إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهرًا شربهم فيه سواء، ثم ولى أبو بكر وترك النهر على حاله، ثم ولى عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك وابنه الوليد وسليمان

(١) سيرة عمر لابن الجوزى صـ١١٤ - ١١٥ .

(٢) المصدر نفسه صـ ١١٨ - ١١٩، ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، د. عماد الدين خليل صـ١١٧، ١١٨ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ١١٧ .

أبناء عبد الملك حتى أفضى الأمر إليّ، وقد يبس النهر الأعظم فلم يرو أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه، فقالت: حسبك، قد أردت كلامك، فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئًا أبدًا. فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه[1]. وجاء في رواية: أنها قالت لهم: . . أنتم فعلتم هذا بأنفسكم، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده: فسكتوا[2].

- **تلاشي المعارضة الجماعية لبني أمية:** وسرعان ما تلاشت السمة الجماعية لمعارضة بني أمية بعد ما رأوا من جد عمر إزاء أموال الأمة وقالوا: ليس بعد هذا شيء[3]. ومن ثم أخذ كل منهم يسعى على انفراد ليسترد ما يستطيع استرداده من الأموال، ولكن عمر الذي وقف تجاه رغباتهم مجتمعين، أحرى به الآن أن يتصدى لكل واحد منهم على انفراد، ويعلمه أنّ حق الأمة لا يمكن أن يكون موضع مساومة في يوم من الأيام[4].

أ- رد الحقوق لأصحابها:

لم يقف عمر عند حد استرداد الأموال من بني أمية وردها إلى بيت المال، بل يخطو خطوة أخرى ويعلن لأبناء الأمة الإسلامية أن كل من له حق على أمير أو جماعة من بني أمية، أو لحقته منهم مظلمة، فليتقدم بالبينة لكي يرد عليه حقه. . وتقدم عدد من الناس بظلاماتهم وبيّناتهم، وراح عمر يردها واحدة بعد الأخرى؛ أراضٍ ومزارع وأموال وممتلكات[5]، ومرة بعث إليه واليه على البصرة برجل اغتُصبت أرضه فرد عمر هذه الأرض إليه، ثم قال له: كم أنفقت في مجيئك إليَّ؟ قال: يا أمير المؤمنين تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت عليَّ أرضي وهي خير من مائة ألف؟ فأجابه عمر: إنما رددت عليك حقك، ثم ما لبث أن أمر له بستين درهمًا كتعويض له عن نفقات سفره[6]، وقد قال ابن موسى: ما زال عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات[7]، وذات يوم قدم عليه نفر من المسلمين وخاصموا روح بن الوليد بن عبد الملك في حوانيت[8]، قد قامت لهم البينة عليه، فأمر عمر روحًا برد الحوانيت إليهم، ولم يلتفت لسجل الوليد، فقام روح فتوعدهم، فرُدع رجل منهم وأخبر عمر بذلك، فأمر عمر صاحب حرسه أن يتبع روحًا فإن

(١) الكامل في التاريخ (٣/ ٢٧٠) . (٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٧١) .
(٣) عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٥٨، ٥٩، ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز صـ ١١٩ .
(٤) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر صـ١١٩ . (٥) المصدر نفسه صـ ١٢٠ .
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١٤٦، ١٤٧ .
(٧) الطبقات لابن سعد (٥/ ٣٤١) . (٨) الحوانيت: جمع حانوت وهو محل التجارة.

لم يرد الحوانيت إلى اصحابها فليضرب عنقه، فخاف روح على نفسه وردّ إليهم حوانيتهم[1] ، وردّ عمر أرضًا كان قوم من الأعراب أحيوها، ثم انتزعها منهم الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله، فقال عمر: قال رسول الله ﷺ: «.. **من أحيا أرضًا ميتة فهى له**»[2]، ولقد أحبّ آل البيت وأعاد إليهم حقوقهم. وقال مرة لفاطمة بنت على بن أبى طالب رضى الله عنهما: يا بنت على، والله ما على، ظهر الأرض أهل بيت أحبّ إلىَّ منكم، ولأنتم أحب إلىَّ من أهل بيتى[3] .

ب ـ عزله جميع الولاة والحكام الظالمين:

لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة عمد إلى جميع الولاة والحكام المسئولين الظالمين فعزلهم عن مناصبهم، ومنهم خالد بن الريان، صاحب حرس سليمان بن عبد الملك الذى كان يضرب كل عنق أمره سليمان بضربها، وعين محله عمرو بن مهاجر الأنصارى، فقال عمر بن عبد العزيز: يا خالد ضع هذا السيف عنك، اللهم إنى قد وضعت لك خالد بن الريان، اللهم لا ترفعه أبدًا، ثم قال لعمرو بن مهاجر: والله! إنك لتعلم يا عمرو، إنه ما بينى وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام ولكنى سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلى فى موضع تظن ألا يراك أحد، فرأيتك حسن الصلاة، خذ هذا السيف قد وليتك حرسى[4] .

وهكذا يعزل عمر الظالمين، وهذا أسلوبه فى اختيار الولاة والقضاة والكتاب وغيرهم، إنه يبحث عن أصلح الناس دينًا وأمانة، ولما انتقد أحد ولاته الذين اختارهم نكت بين عينيه بالخيزرانة فى سجدته وقال: هذه غرتنى منك -يريد سجدته أى أثر السجود فى وجهه-. فهذه علامة من علامات صلاح الرجل وهى دليل على كثرة السجود، ومن أجل ذلك اختاره عمر بن عبد العزيز، وعمر لا يكتفى بمظهر الرجل ولكنه يختبره أيضًا، قد رأى رجلاً كثير الصلاة، وأراد أن يمتحنه ليوليه، فأرسل إليه رجلاً من خاصته فقال: يا فلان إنك تعلم مقامى عند أمير المؤمنين فما لى لو جعلته يوليك على أحد البلدان؟ فقال الرجل: لك عطاء سنة، فرجع الرجل إلى عمر وأخبره بما كان من هذا الرجل، فتركه لأنه سقط فى الاختبار[5].

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٦٠ .
(٢) صحيح الجامع للألبانى رقم ٢٧٦٦ .
(٣) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى صـ١٣١، السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز صـ٤٥ .
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٥٠ .
(٥) فقه عمر بن عبد العزيز د. محمد شقير (٩١/١) .

وكان من ضمن من عزلهم عمر بن عبد العزيز: أسامة بن زيد التنوخي وكان على خراج مصر، لأنه كان غاشمًا ظلومًا يعتدى فى العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل، يقطع الأيدى فى خلاف ـ دون تحقق شروط القطع ـ فأمر به عمر بن عبد العزيز أن يحبس فى كل جُنْد[1] سنة، ويقيد ويحل عنه القيد عند كل صلاة ثم يرد فى القيد، فحبس بمصر سنة، ثم فلسطين سنة، ثم مات عمر وولى يزيد بن عبد الملك الخلافة فردّ أسامة على مصر فى عمله[2]، وكتب عمر بن عبد العزيز بعزل يزيد بن أبى مسلم عن إفريقية وكان عامل سوء يظهر التأله والنفاذ لكل ما أمر به السلطان مما جل أو صغر من السيرة بالجور، والمخالفة للحق، وكان فى هذا يكثر التسبيح والذكر، ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعذبون وهو يقول: سبحان الله والحمد لله شد يا غلام موضع كذا وكذا، لبعض مواضع العذاب وهو يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، شد يا غلام شد موضع كذا وكذا، فكانت حالته تلك شر الحالات، فكتب عمر بعزله[3]، وهكذا استمر عمر فى عزل الولاة الظلمة وتعيين الصالحين وسيأتى الحديث عن فقه عمر فى تعامله مع الولاة فى محله بإذن الله تعالى.

ج ـ رفع المظالم عن الموالى:

تعرض الموالى قبل عمر بن عبد العزيز للمظالم فقد فرضت الجزية على من أسلم منهم، كما منعوا من الهجرة مثلما حدث للموالى فى العراق ومصر وخراسان. وفى عهد عبد الملك أوقع الحجّاج بالموالى ظلم عظيم، فقد عمل على إبقاء الجزية على من أسلم منهم، وحرمهم من الهجرة من قراهم، وهذا ما دفعهم للاشتراك فى ثورة ابن الأشعث ضد الحجّاج، كما وقع الظلم على الموالى فى مصر وخراسان، فلما تولى عمر بن عبد العزيز أزال تلك المظالم التى لحقت بهؤلاء الموالى وكتب إلى عماله يقول: «.. فمن أسلم من نصرانى أو يهودى أو مجوسى من أهل الجزيرة اليوم فخالط المسلمين فى دارهم، وفارق داره التى كان بها، فإن له للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه غير أرضه وداره، إنما هى من فىء الله على المسلمين عامة، ولو كانوا أسلموا عليها قبل أن يفتح الله للمسلمين كانت لهم، ولكنها فىء الله على المسلمين عامة[4]، وكتب إلى عامله على مصر حيان بن شريح ـ يقول: وأن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة، فإن الله تبارك وتعالى قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(١) الجند: المدينة وقيل: مدن الشام.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٣٢.
(٣) المصدر نفسه صـ٣٢ ـ ٣٣.
(٤) المصدر نفسه صـ٧٨ ـ ٧٩.

[التوبة: ٥] وقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. إلا إن هذا العامل أرسل إلى عمر يقول: أما بعد، فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفتُ من الحارث بن نباته عشرين ألف دينار أتممتها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل(١). وجاء رد عمر: أما بعد، فقد بلغنى كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطًا، فضع الجزية عمن أسلم ـ قبح الله رأيك ـ، فإن الله إنما بعث محمدًا ﷺ هاديًا ولم يبعثه جابيًا، ولعمرى ولَعَمَر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على دينه(٢). وفى رواية ابن سعد: أما بعد، فإن الله بعث محمدًا داعيًا ولم يبعثه جابيًا، فإذا أتاك كتابى هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا فى الإسلام وكسروا الجزية فاطو كتابك وأقبل(٣). ولم يكن عامل عمر على مصر هو الوحيد الذى طلب من عمر السماح له فى أخذ الجزية ممن أسلم، فها هو عامله على الكوفة ـ عبد الحميد بن عبد الرحمن ـ يسأله أخذ الجزية المتراكمة على اليهود والنصارى والمجوس الذين أسلموا، فجاءه رد عمر الواضح أيضًا يقول: كتبت إلىّ تسألنى عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة، وتستأذننى فى أخذ الجزية منهم، وإن الله جل ثناؤه بعث محمدًا ﷺ داعيًا إلى الإسلام ولم يبعثه جابيًا، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه فى ماله الصدقة ولا جزية عليه، وميراثه لذوى رحمه إذا كان منهم يتوارثون أهل الإسلام، وإن لم يكن له وارث فميراثه فى بيت مال المسلمين الذى يقسم بين المسلمين، وما أحدث من حدث ففى مال الله الذى يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه والسلام(٤). كما كتب إليه عامله على البصرة ـ عدى بن أرطأة ـ يقول: أما بعد، فإن الناس كثروا فى الإسلام وخفت أن يقل الخراج. فكتب إليه عمر: فهمت كتابك، والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا(٥). هذا إلى جانب إبطاله لمظلمة المنع من الهجرة التى أوقعها الحجّاج بالموالى فى العراق، وهكذا أبطل عمر تلك المظالم التى أصابت الموالى، فترتب على ذلك أن أعاد إليهم حقوقهم المسلوبة والهدوء والطمأنينة إلى نفوسهم، وباتوا ينعمون بالمساواة والعدل مع غيرهم من أبناء الأمة الإسلامية(٦).

(١)، (٢) الخطط للمقريزى (١/ ٧٨)، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ٢٣٣ .

(٣) الطبقات (٥/ ٣٨٤).

(٤) الخراج لأبى يوسف صـ١٤٢ عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ٢٣٤ .

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ٩٩ ـ ١٠٠ لابن الجوزى .

(٦) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ٢٣٤ .

د ـ رفع المظالم عن أهل الذمة:

زاد عبد الملك فى عهده الجزية على أهل قبرص، وكان معاوية بن أبى سفيان غزا قبرص بنفسه وصالحهم صلحًا دائمًا على سبعة آلاف دينار وعلى النصيحة للمسلمين، وإنذارهم عدوهم من الروم، ولم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولى عبد الملك بن مروان، فزاد عليهم ألف دينار، فجرى ذلك إلى عهد عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم(١)، كما أصابت الزيادة فيما يجبى من جزية أهل الذمة فى العراق وقد وضعها عنهم عمر بن عبد العزيز كسياسة عامة التزم بها فى أن يرفع المظالم عن أهل الذمة؛ حتى يدعهم ينعمون بحياتهم فى ظل الشرائع الإسلامية السمحة. ويؤيد ذلك ما جاء فى كتابه إلى عامله على البصرة ـ عدى بن أرطأة ـ: أما بعد، فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام واختار الكفر عتيًا(٢)، وخسرانًا مبينًا، فضع الجزية على من أطاق حملها، وخل بينهم وبين عمار الأرض، فإن فى ذلك صلاحًا لمعاش المسلمين، وقوة على عدوهم، وانظر من قبلك من أهل الذمة ممن قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فَأَجْرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه. فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب، كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق، وذلك أنه بلغنى أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال: ما أنصفناك، إن كنا أخذنا منك الجزية فى شبيبتك ثم ضيعناك فى كبرك. قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه(٣)، كما بلغت سياسة عمر بن عبد العزيز فى وضع المظالم عن الناس ومساعدتهم أيضًا حين كتب إلى عامله على الكوفة يقول: انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين(٤)، وقد أمر عمر ولاته بالأخذ بالرحمة والرأفة بالناس، فقد منع تعذيب أهل البصرة وغيرهم لاستخراج الخراج منهم، وعندما أرسل إليه عامله على البصرة عدى بن أرطأة يقول: إن أناسًا قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسهم شيء من العذاب، فكتب إليه عمر: أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب البشر، كأنى جُنة لك من عذاب الله، وكأن رضاى ينجيك من سخط الله، وإذا أتاك كتابى هذا فمن أعطاك فاقبله عفوًا وإلا فأحلفه، فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم

(١) فتوح البلدان صـ١٥٩، عمر وسياسته فى رد المظالم صـ٢٤٠ .

(٢) عتيا: العاتى المجاوز للحد فى الاستكبار . (٣) الأموال لأبى عبيد صـ٥٧.

(٤) المصدر نفسه صـ٣٢٠ عمر وسياسته فى رد المظالم صـ٢٤١ .

أحب إليَّ من أن ألقاه بعذابهم. والسلام[1]. ومما أصاب أهل الذمة من المظالم قبل عهد عمر بن عبد العزيز سبى بنات ونساء من لواتة بشمال إفريقية ولكن عمر رد هذه المظلمة، يذكر أبو عبيد أن عمر بن عبد العزيز كتب فى اللواتيات: من أرسل منهن شيئًا فليس من ثمنها شيء وهو ثمن فرجها الذى استحلها به ـ أو كلمة تشبه الثمن ـ قال: ومن كانت عنده امرأة منهن فليخطبها إلى أبيها، وإلا فليردها إلى أهلها. قال أبو عبيد: قوله: اللواتيات هن من لواتة؛ فرقة من البربر، يقال لهم لواتة، أراه قد كان لهن عهد، وهم الذين كان ابن شهاب يحدث: أن عثمان أخذ الجزية من البربر، ثم أحدثوا بعد ذلك فسبوا. فكتب عمر بن عبد العزيز بما كتب به[2]، كما أرجع عمر بن عبد العزيز إلى أهل الذمة كل أرض أو كنيسة أو بيت اغتصب منهم[3]، ومما رفعه عمر عن أهل الذمة من المظالم السخرة، على أساس أنه لا يحل للمسلمين أن يسخروا أهل الذمة لمصالحهم الشخصية طالما أن هذا غير موجود فى صلحهم[4]. فكتب إلى عماله يقول: . . . ونرى أن توضع السخرة عن أهل الأرض، فإن غايتها أمر يدخل فيه الظلم[5].

وهكذا رد عمر بن عبد العزيز ما أصاب أهل الذمة من مظالم، فترتب على ذلك أن أعاد السكينة، والطمأنينة، والهدوء إليهم، وأوضح لهم، أن بإمكانهم أن يعيشوا فى ظل الإسلام آمنين مطمئنين تشملهم سماحة الدين ويظلهم عدله، وتستقيم أمورهم وشئونهم فى كنفه، لا يضارون ولا يستضعفون ولا يستعبدون، لهم حقوقهم المعلومة وعليهم واجباتهم المحددة، ضمنها لهم الشارع الحكيم، وما تأسس من أحكام كتاب الله وسنة رسوله الكريم[6].

هـ- إقامة العدل لأهل سمرقند:

لما وصل خبر تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة إلى سكان ما وراء النهر، اجتمع أهل سمرقند وقالوا لسليمان بن أبى السرّى: إن قتيبة غدر بنا، وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف، فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين، يشكو ظلامتنا، فإن كان لنا حق أعطيناه، فإن بنا إلى ذلك حاجة. فأذن لهم سليمان، فوجهوا منهم قومًا فقدموا على عمر، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن السرى: إن أهل سمرقند، قد شكوا إليَّ ظلمًا

(١) الخراج لأبى يوسف صـ١٢٩ . (٢) فتوح البلدان صـ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ٢٤٥ .

(٤) المصدر نفسه صـ٢٤٥ . (٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٨٣ .

(٦) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ ٢٤٨ .

أصابهم، وتحاملاً من قتيبة عليهم؛ أخرجهم من أرضهم فإذا أتاك كتابى، فأجلس لهم القاضى فلينظر فى أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم[١] إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة. فأجلس سليمان جُمَيْعَ بن حاضر القاضى، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحًا جديداً أو ظفراً عنوة، فقال أهل الصُّغد[٢]: بل نرضى بما كان ولا نجدِّد حربًا، وتراضوا بذلك، فقال أهل الرأى: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم، وأمنونا وأمنّاهم، فإن حكم لنا عدْنا إلى الحرب ولا ندرى لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا اجتلبنا عداوة فى المنازعة، فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا[٣].

أية دولة فى القرن العشرين تحنى رأسها هكذا للعدل كى يأخذ مجراه، وللحق كى يعود إلى أصحابه؟ وأى حاكم فى تاريخ الشعوب استجاب، هكذا، لنداءات المظلومين الذين سلبت حقوقهم، كهذه الاستجابة السريعة الحاسمة من عمر بن عبد العزيز؟ ألا إنه المسئول الذى نذر نفسه للدفاع عن قيم الحق والعدل فى أقطار الأرض، فبدونهما تفقد شريعة الله مقوماتها وأهدافها العليا[٤]. فهذا مثل رفيع من عدل عمر، وإننا لنلاحظ فى هذا الخبر عدة أمور:

- إن الناس يقبلون على التظلم والشكوى والمطالبة بالحقوق حينما يكون الحكام عادلين، لأنهم يعلمون أن دعواهم ستؤخذ مأخذ الجد، وسينظر فيها بعدل، فهؤلاء المتظلمون قد سكتوا على ما هم فيه من الشعور بالظلم طيلة ولاية الوليد وسليمان، فلما رأوا عدل عمر ابن عبد العزيز رفعوا قضيتهم.

- أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لم يهمل قضيتهم وإنما أحالها إلى القضاء الشرعى، وهذا مثل من الخضوع للإسلام والتجرد من هوى النفس، وكان باستطاعته أن يعمل كما يعمل كثير من المسئولين، من إرسال خطابات الوعيد والتهديد والبحث عن رءوس القوم وإجراء العقوبات المناسبة عليهم، ولكنه قد نذر نفسه لرفع المظالم وإقرار العدالة، وذلك لا يكون إلا بحكم الشرع والتحاكم إليه.

- أن أولئك القوم قد أسقط فى أيديهم لما اطلعوا على كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، ورأى أهل الرأى منهم أنهم خاسرون فى كلا الحالين، سواء حكم لهم أو عليهم،

(١) يعنى المسلمين الغزاة .
(٢) الصُّغد: قوم يسكنون بعض بلاد ما وراء النهر .
(٣) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٧٢) .
(٤) ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز صـ٦٨ .

وأن مصلحتهم فى بقائهم على ما هم عليه، وبهذا زال تظلمهم وشعروا بعدالة الحكم الإسلامى[١].

و- الاكتفاء باليسير من البينات فى رد المظالم:

نظرًا لمعرفة عمر بن عبد العزيز بغشم الولاة قبله وظلمهم للناس حتى أصبحت المظالم كأنها شيء مألوف، فإنه لم يكلف المظلوم بتحقيق البينة القاطعة على مظلمته، وإنما يكتفى باليسير من البينة، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها إليه دون أن يكلفه تحقيق البينة، فقد روى ابن عبد الحكم: قال أبو الزناد: كان عمر بن عبد العزيز يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة، وكان يكتفى باليسير، إذ عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه، ولم يكلفه تحقيق البينة، لما يعرف من غشم الولاة قبله على الناس، ولقد أُنفذ بيت مال العراق فى رد المظالم حتى حُمل إليه من الشام[٢]. فما أحسن ما فعله عمر بن عبد العزيز وما أحسن التيسير على الناس قدر المستطاع، لأن فيه اختصارًا للوقت وتوفيرًا للجهود[٣]، كما أن هذا العمل نستنبط منه قاعدة هامة فى التفريق بين أصول التحقيق فى القضاء العادى وبين أصول التحقيق فى القضاء الإدارى، وضعها عمر بن عبد العزيز، فالبينة القاطعة قد تستحيل إقامتها، وجمع عناصرها، فإذا كان الظلم واضحًا، اكتفى قاضى المظالم بالبينة اليسيرة[٤].

ز- وضع المكس[٥]:

لما كان المكس من الظلم والبخس، لأنه جباية أو ضريبة تؤخذ من الناس بغير وجه شرعى، ولما كانت الزكاة على المسلم، والجزية والعشور والخراج على الذمى كافية عما سواها، فقد نهى عمر عن المكس وشدد فى ذلك ومنعه كما يأتى: عن محمد بن قيس قال: لما ولى عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل أرض ووضع الجزية عن كل مسلم[٦]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطأة: أن ضع عن الناس... والمكس -ولعمرى- ما هو بالمكس ولكنه البخس الذى قال الله فيه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ

(١) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/٦٢).
(٢) سيرة عمرة بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ ١٠٦، ١٠٧.
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٥٥٨).
(٤) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/٥٦٥).
(٥) المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق فى الجاهلية، أو هى الجباية.
(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/٣٤٥).

وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. فمن أدى زكاة ماله فاقبل منه ومن لم يأت فالله حسيبه[١]، وكتب إلى عامله عبد الله بن عوف على فلسطين: أن اركب إلى البيت الذى يقال له: المكس، فاهدمه ثم احمله إلى البحر فانسفه فى اليم نسفًا[٢]. نعلم مما سبق أن المكس دراهم تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق وأن ذلك يصدق على الجمارك التى تؤخذ على السلع عند استيرادها فى هذا الزمان، وأن عمر بن عبد العزيز يرى أن ذلك من الظلم فمنعه[٣]. والحجة فيما فعله عمر بن عبد العزيز قول الله تعالى: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣].

ح- رد المظالم وإخراج زكاتها:

قرر عمر بن عبد العزيز رد المظالم التى فى بيوت المال، وأخذ زكاتها لسنة واحدة[٤]، عن مالك بن أنس عن أيوب السختيانى أن عمر بن عبد العزيز رد مظالم فى بيوت الأموال، فرد ما كان فى بيت المال وأمر أن يزكى لما غاب عن أهله من السنين، ثم كتب بكتاب آخر: إنى نظرت فإذا هو ضمار[٥] لا يزكى إلا لسنة واحدة[٦]، وعن عمرو بن ميمون قال: أخذ الوالى فى زمن عبد الملك مال رجل من أهل الرقة -يقال له: أبو عائشة- عشرين ألفًا فأدخلت فى بيت المال، فلما ولى عمر بن عبد العزيز أتاه ولده فرفعوا مظلمتهم إليه، فكتب إلى ميمون: ادفعوا إليهم أموالهم، وخذوا زكاة عامه هذا، فلولا أنه كان مالاً ضمارًا أخذنا منه زكاة ما مضى[٧].

هذا هو عمر بن عبد العزيز فى دولته التى أقامها على العدل، وكان رحمه الله يعلم ولاته أنه بالعدل تستقيم الحياة بكل شئونها، فلما أرسل إليه بعض عماله يقول: أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن يرى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمّها به فعل. فكتب إليه عمر: أما بعد، فقد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابى هذا فحصِّنها بالعدل، ونَقِّ طرقها من الظلم، فإنَّه مرمَّتها والسلام[٨]، وكتب إلى بعض عماله: إن قدرت أن تكون فى العدل والإحسان والإصلاح كقدر من كان قبلكم فى الجور

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد(٥/ ٣٨٣) .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ١١٣ .
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز د.محمد شقير (٢/ ٥٦١) .
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٥٦٦) .
(٥) المال الضمار: أى الذى لا يرجى رجوعه .
(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٤٢) .
(٧) مصنف ابن أبى شيبة (٣/ ٢٠٢).
(٨) تاريخ الخلفاء للسيوطى صـ٢٣، عمر بن عبد العزيز، عبد الستار صـ٢٢٦ .

والعدوان والظلم، فافعل ولا حول ولا قوة إلا بالله[1]، وكتب إلى أبى بكر بن حزم: أن استبرئ الدواوين، فانظر إلى كل جور جاره من قبلى من حق مسلم أو معاهد فردَّه إليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم[2]. وكان رحمه الله يواجه فى تنفيذ ما يريده من العدل مصاعب ومشقات ومقاومة وعقبات، فكان ينفق بعض المال فى سبيل تهدئة بعض النفوس، لإنفاذ الحق ونشر العدل، ورفع الظلم، دخل عليه ابنه عبد الملك ذات يوم، فقال: يا أبتِ ما يمنعك أن تمضى لما تريد من العدل؟ فوالله ما كنت أبالى لو غلت بى وبك القدور فى ذلك؟ قال: يا بنى، إنما أروِّض الناس رياضة الصَّعْب، إنى لأريد أن أحيي الأمور من العدل، فأوفِّر ذلك حتى أُخرج معه طمعًا من طمع الدنيا، فينفروا لهذا ويسكنوا لهذه[3]. وقام برصد الجوائز لمن يدل على خير، أو ينبه على خطأ، أو يشير إلى وقوع مظلمة لم يستطع صاحبها إبلاغها؛ فكتب كتابًا أمر أن يُقرأ على الحجيج فى المواسم، وفى كل المحافل والمجامع جاء فيه: أما بعد، فأيما رجل قدم علينا فى رد مظلمة، أو أمر يصلح الله به خاصًا أو عامًا من أمر الدين، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، بقدر ما يرى من الحسبة، وبعد الشقة. رحم الله أمرأ لم يَتَكَأده بُعد سفر، لعل الله يحيى به حقًا، أو يميت به باطلاً أو يفتح من ورائه خيرًا[4]. ولاستعذابه حلاوة العدل ورحمته وتنعم الناس بتفيّؤ ظلاله كان يقول: والله لوددت لو عدلت يومًا واحدًا وأن الله تعالى قبضنى[5]، ومع أنه رأى ثمرات العدل التى قطف منها جميع الناس فى خلافته فإن نفسه التوّاقة لكل شامخ ورفيع كانت تطمح للمزيد، ولقد عبر عن ذلك بقوله: (لو أقمت فيكم خمسين عامًا ما استكملت العدل[6]).

وحتى الحيوانات نالهن عدله وإنصافه ورفع الظلم عنها وإليك هذه المشاهد:

- **النهى عن نخس الدابة بالحديدة وعن اللجم الثقال:** فقد أكد عمر بن عبد العزيز على الرفق بالحيوان وعدم ظلمه أو تعذيبه، قال أبو يوسف: حدثنا عبيد الله بن عمر: أن عمر بن عبد العزيز نهى أن يجعل البريد فى طرف السوط حديدة ينخس بها الدابة، ونهى عن اللجم الثقال[7]، وقد أصدر أوامره بمنع استخدام اللجم الثقيلة مع الخيول والبغال، كما منع استخدام المناخس ذات الرءوس الحديدية[8].

(1) الطبقات (5/383 ـ 384). (2) المصدر نفسه (5/342 ـ 343).

(3) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ226.

(4) المصدر نفسه صـ227 تكأده الأمر: شقّ عليه وصعب. (5) تهذيب الأسماء واللغات (2/23).

(6) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عمر بن عبد العزيز، لعبد الستار الشيخ صـ227.

(7) مصنف ابن أبى شيبة (12/332)، فقه عمر بن عبد العزيز (2/573).

(8) ملامح الانقلاب الإسلامى صـ71.

ـ في تحديد حمولة البعير بستمائة رطل:

وحين بلغه أن قومًا يحملون على الجمال ما لا تطيق، وذلك فى مصر كتب إلى واليها يحدد أقصى حمولة للبعير بستمائة رطل، وطلب منه إبلاغ قراره هذا الناس وأمره بتنفيذه(١).

ـ هذه بعض الملامح السريعة على إقامة العدل فى دولة عمر بن عبد العزيز، إن من أهداف التمكين إقامة المجتمع الذى تسود فيه قيم العدل ورفع الظلم، ومحاربته بجميع أشكاله وأنواعه، وهذا ما قام به عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

٥ ـ المساواة:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال رسول الله ﷺ: **«أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»**(٢)، وقد قام عمر بن عبد العزيز بتطبيق هذا المبدأ فى دولته، وكان أول مؤشر على رغبته فى تطبيق مبدأ المساواة، حين أقسم أنه يودُّ أن يساوى فى المعيشة بين نفسه ولحمته التى هو منها وبين الناس(٣)، فقال: أما والله لوددت أنه بُدئ بى، وبلحمتى، التى أنا منها، حتى يستوى عيشنا وعيشكم، أما والله لو أردت غير هذا من الكلام، لكان اللسان به منبسطًا ولكنت بأسبابه عارفًا(٤). وقال فى خطبة له: . . وما منكم من أحد تبلغنا حاجته إلا أحببت أن أسد من حاجته، ما قدرت عليه(٥). كما أن عمر اتخذ مبدأ المساواة بين الناس، فى الحقوق والواجبات فى كل مجالات الحياة، فلم يميز بين الناس فى حقهم فى تولى الوظائف والولايات، ولم يعط أحدًا كائنًا من كان شيئًا ليس له فيه حق، فقد ساوى بين أمراء وأشراف بنى أمية وبين الناس، فمنع عنهم العطايا والأرزاق الخاصة، وقال لهم حين كلموه فى ذلك: لن يتسع مالى لكم، وأما هذا المال ـ يقصد المال الذى فى بيت مال المسلمين ـ فإنما حقكم فيه كحق رجل، بأقصى برك الغماد(٦)، فكانت سياسته المالية تقوم على مبدأ المساواة، فبيت المال لجميع المسلمين ولكل

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٥٧٥) محمد شقير .
(٢) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز صـ٢٩٧ .
(٣) المصدر نفسه صـ٢٩٧ .
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١١٢ .
(٥) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى من إدارة عمر صـ٢٩٧ .
(٦) بلد باليمن وهو أقصى حجر باليمن، وقيل: موضع بمكة .

واحد منهم حق أن يأخذ منه أسوة بغيره، فلا يكون حكرًا على فئات معينة من الناس. ومن أعماله التى تدل على ترسيخه مبدأ المساواة بين الناس ما أعلنه عندما رأى أمراء بنى أمية قد استحوذوا على قطع واسعة من الأرض وجعلوها حمى، يحرم من الاستفادة منها عامة الناس، فقال: إن الحمى يباح للمسلين عامة.. وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، إنما الغيث ينزله الله لعباده، فهم فيه سواء[1]. كما ساوى بين من أسلم من أهل الأديان الأخرى من النصارى واليهود وبين المسلمين، وعمل على كسر حاجز التنافر بينهم، فقال: . . . فمن أسلم من نصرانى أو يهودى أو مجوسى، من أهل الجزية اليوم، فخالط عامة المسلمين فى دارهم، وفارق داره التى كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه[2]، ويروى ابن سعد: أن عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالى فى الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، غير أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين دينارًا[3]، وفى مجال المساواة بين الناس أمام القضاء، وأحكام الإسلام، نكتفى بهذا الدليل الذى كان عمر فيه أحد أطراف النزاع أمام القاضى، وتفصيل ذلك أنه أتى رجل من أهل مصر عمر بن عبد العزيز، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عبد العزيز ـ يقصد والد عمر ـ أخذ أرضى ظلمًا، قال: وأين أرضك يا عبد الله؟ قال: حلوان، قال عمر: أعرفها ولى شركاء ـ أى شركاء فى حلوان ـ وهذا الحاكم بيننا، فمشى عمر إلى الحاكم فقضى عليه، فقال عمر: قد أنفقنا عليها، قال القاضى: ذلك بما نلتم غلتها، فقد نلتم منها مثل نفقتكم، فقال عمر: لو حكمت بغير هذا ما وليت لى أمرًا أبدًا، وأمر بردها[4]. وكان عمر يقيم وزنًا لمبدأ المساواة بين المسلمين، حتى فى الأمور العامة، ومن ذلك أمره بألا يُختص أناس بدعاء المسلمين والصلاة عليهم، فكتب إلى أمير الجزيرة يقول: . . وقد بلغنى أن أناسًا من القصاص قد أحدثوا صلاة على أمرائهم، عدل ما يصول على النبى ﷺ، فإذا جاءك كتابى هذا، فمر القصاص، فليجعلوا صلاتهم على النبى ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليدعوا ما سوى ذلك[5]، ومن ذلك يتضح اهتمام عمر بالمساواة بين عامة الناس حتى فى الدعاء لهم، ولا يختص أحد بدعاء، فالمسلمون عامة فى حاجة لدعوة الله عز وجل لهم، والله سبحانه وتعالى جدير بالإجابة[6]،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ٨١ لابن عبد الحكم .

(٢) المصدر السابق صـ٧٩ .

(٣) الطبقات (٥/ ٣٧٥) .

(٤) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ٢٩٨ .

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٢٧٣ .

(٦) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ٢٩٩ .

وقد طبق مبدأ المساواة بينه وبين عامة الناس، فقد حصل أن شتمه رجل بالمدينة لسبب أو لآخر، فلم يكن ما أمر به سوى ما قد يأمر به كما لو كان المشتوم أحد أفراد الأمة، ذلك ما حدث حين حُكم رجل في مسجد رسول الله ﷺ -وأبو بكر بن محمد بن حزم والى عمر على المدينة في صلاته - فقطع عليهم الصلاة، وشهر السيف، فكتب أبو بكر إلى عمر، فأتى بكتاب عمر، فقرئ عليهم، فشتم عمر، والكتاب ومن جاء به، فهمَّ أبو بكر بضرب عنقه، ثم راجع عمر وأخبره أنه شتمه، وأنه همَّ بقتله، فكتب إليه عمر: لو قتلته لقلتك به، فإنه لا يقتل أحد، بشتم أحد ألا أن يُشتم النبيُّ ﷺ، فإذا أتاك كتابي فاحبس على المسلمين شره، وادعه إلى التوبة في كل هلال، فإذا تاب فخلِّ سبيله[1]، ولم يكتف عمر بالأخذ بمبدأ المساواة بنفسه فحسب، بل كان يأمر عماله وولاته بذلك، فقد كتب إلى عامله على المدينة يقول له: اخرج للناس فآسي بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحد الناس آثر عندك من أحد، ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم[4]. كانت تلك بعض مواقف عمر، وإن كانت متفاوتة، إلا أن فيها دلالة واضحة على أخذ عمر بمبدأ المساواة في دولته[3].

٦ - الحريات في دولة عمر بن عبد العزيز:

إن مبدأ الحرية من المبادئ الأساسية التي قام عليها الحكم في دولة عمر بن عبد العزيز، ويقضي هذا المبدأ بتأمين وكفالة الحريات العامة للناس كافة ضمن حدود الشريعة الإسلامية وبما لا يتناقض معها، فقد اهتم عمر بكل صور الحرية الإنسانية، فجاء مستعرضًا لأنواع وصور الحرية، فأقر ما كان فيها موافقًا، لتعاليم الإسلام، وأعاد ما لم يكن كذلك إلى دائرة التعاليم الإسلامية، وإليك بعض التفاصيل عن الحريات في دولة عمر بن عبد العزيز:

أ - الحرية الفكرية والعقدية: حرص عمر بن عبد العزيز على تنفيذ قاعدة حرية الاعتقاد في المجتمع، وكانت سياسته حيال النصارى واليهود تلتزم بالوفاء بالعهود والمواثيق وإقامة العدل معهم ورفع الظلم وعدم التضييق عليهم في معتقدهم ودينهم انطلاقًا من قوله تعالى:

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١٤٢ .

(٢) الطبقات (٥/٣٤٣)، النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ٣٠١ .

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ٣٠١ .

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة، : ٢٥٦] وكان عمر ينهج أسلوب الدعوة مع ملوك الهند، والقبائل الخارجة عن الإسلام، وسيأتى الحديث عن ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى، ولم يكره عمر أحدًا من النصارى أو غيرهم على الدخول فى الإسلام، وأما حرية الفكر من حيث الرأى والتعبير، فقد أخذت نطاقًا واسعًا فى إدارة الدولة، وقيادته لعماله ورعيته، فقد أتاح لكل متظلم أن يشكو من ظلمه، وأطلق للكلمة حريتها، وترك للناس حرية أن يقول كلٌ ما يريد. وقد عبر عن هذا القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق بقوله: اليوم ينطق كل من كان لا ينطق[١]، إذا لم يخالف الشرع.

ب - الحرية السياسية: كما أعلن عمر استئناف الحرّية السياسية التى منحها الإسلام للمسلمين إذ لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق، حتى وإن كان حاكما أو واليًا، فقد أعلن عمر فى أول يوم من أيام حكمه الحرية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، منكرًا على الناس واقعهم المظلم، وأن الإسلام لا يرضى السكوت عن الظلم، فقد خطب الناس يومًا فقال: . . . ألا لا سلامة لامرئ فى خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الله، ألا وإنكم تسمون الهارب من ظلم إمامه: العاصى، إلا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم[٢]، ومما يدل على إعطاء عمر للناس الحرية السياسية، أن أول إجراء اتخذه عقب إعلان العهد له بالخلافة تنازله عن الخلافة وطلب من الناس أن يختاروا خليفة، فإذا كانت الحرية السياسية تتجلى فى ممارستها فى موضعين: أولهما: المشاركة فى اختيار الحاكم، عن طريق أهل الحل والعقد، وبيعة المسلمين ورضاهم، وثانيهما: إبداء الرأى والنصح للحكام، ونقد أعمالهم بمقاييس الإسلام[٣]، فإن عمر قد مارس الحرية السياسية فى هذين الموضعين فجعل لهم الخيار فى توليه الخلافة قبل الوعظ والنصح[٤]، وسيأتى بيان ذلك فى محله بإذن الله.

ج- الحرية الشخصية: عمل عمر بن عبد العزيز على تحقيق وتدعيم الحرية الشخصية لأفراد الأمة الإسلامية، إذ بدا له بعض القيود على الهجرة، أو ما يسمى بحرية التنقل، أو الغدو والرواح، فاتخذ إجراء فتح فيه باب الهجرة لمن يريد، إذ قال: . . وأما الهجرة فإنا نفتحها لمن هاجر من إعرابى فباع ماشيته، وانتقل من دار إعرابيته إلى دار الهجرة وإلى قتال عدونا، فمن فعل ذلك فله أسوة المهاجرين فيما أفاء الله عليهم[٥]، كما قال فى كتابه

---

(١) الطبقات لابن سعد (٥/ ٣٤٤) .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ٢٤٠ لابن الجوزى .
(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ٢١٢.
(٤) المصدر نفسه صـ٢١٢ .
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٧٩ .

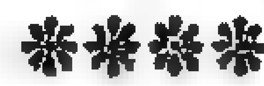
لعماله: . . وأن يفتح لأهل الإسلام باب الهجرة[١]، وإذا كان ذلك موقفه من حرية الناس فى الهجرة والتنقل، فقد تجلى حرصه على مبدأ حرية الإنسان فى أمر قل من يراعيه، أو يهتم به، أمر يخص من هم فى ملكه، ألا وهو تخييره لجواريه عقب تولى الخلافة بين العتق والإمساك على غير شيء، فقد علم أن لهنّ عليه حقوقًا لن يستطيع الإيفاء بها بعد توليه الخلافة، فترك لهنّ حرية الإقامة معه من غير شيء أو العتق، فتكون الواحدة منهنّ حرة حرية شخصية كاملة[٢]، فقد روى ابن عبد الحكم أن عمر خيّر جواريه، فقال: إنه قد نزل بى أمر شغلنى عنكنّ، فمن اختارت منكنّ العتق أعتقتها، ومن أمسكتها لم يكن لها منى شيء، فبكين بكاءً شديدًا يأسًا منه[٣].

د ـ حرية التجارة والكسب: أما فى حرية التجارة والكسب وابتغاء فضل الله فى البر والبحر، كجزء من الحرية الاقتصادية، فقد أكد فى كتاب له إلى عماله على ضرورة منح الناس حرية استثمار أموالهم، والاتجار بها فى البر والبحر على حد سواء، فقد كتب إلى عماله: . . وإن من طاعة الله التى أنزل فى كتابه أن يدعى الناس إلى الإسلام كافة، . . . وأن يبتغى الناس بأموالهم فى البر والبحر، ولا يمنعون ولا يحبسون[٤]. وكتب أيضًا: . . وأما البحر، فإنا نرى سبيله سبيل البر، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢]، فأذن أن يتجر فيه من شاء، وأرى أن لا نحول بين أحد من الناس وبينه، فإن البر والبحر لله جميعًا، سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله، فكيف نحول بين عباد الله وبين معايشهم[٥]. ويقول عمر فى موضع آخر: . . أطلق الجسور والمعابر للسابلة يسيرون عليها دون جعل[٦]، لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به[٧]. وأما عن الأسعار والتسعير زمن عمر، فقد قال أبى يوسف: حدثنا عبد الرحمن بن شوبان عن أبيه قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، ما بال الأسعار غالية فى زمانك وكانت فى زمان من قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلى كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم، ولم يكونوا يجدون بدًا من أن يبيعوا ويكسروا ما فى أيديهم، وأنا لا أكلف أحدًا إلا طاقته، فباع الرجل كيف شاء، قال:

(١) سيرة عمر لابن عبدالحكم صـ ٧٨.
(٢) النموذج الإدارى المستخلص صـ ٣١٠.
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ ١٢١.
(٤) المصدر نفسه، صـ ٩٤.
(٥) المصدر نفسه صـ ٩٨.
(٦) الجعل: من الجعالة، وهو ما يجعل للشخص على عمله.
(٧) الإدارة الإسلامية محمد كرد صـ ١٠٥.

فقلت: لو أنك سعَّرت، قال: ليس إلينا من ذلك شيء إنما السعر إلى الله[1]. وتشدد عمر في أمر السلع المحرمة، ومنع التعامل بها، فالخمر من الخبائث التى لا يجوز التعامل فيها بين المسلمين، لحرمتها ولضررها حيث يؤدى شربها إلى استحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام[2]، ويقول عمر: فإن من نجده يشرب منه شيئًا بعد تقدمنا إليه فيه نوجعه عقوبة فى ماله ونفسه ونجعله نكالاً لغيره[3].

ولقد أثمرت سياسة عمر فى رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة، حيث وفرت للناس الحوافز للعمل والإنتاج، وأزالت العوائق التى تحول دون ذلك، وهذا أدى إلى نمو التجارة، ونمو التجارة أدى إلى زيادة حصيلة الدخل الخاضع للزكاة، وهذا يؤدى بدوره إلى زيادة الزكاة، مما يؤدى إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة، وارتفاع قوتها الشرائية والتى ستتوجه إلى الاستهلاك، وبالتالى إلى زيادة الطلب على السلع والخدمات، وهذا كله يؤدى إلى انتعاش الاقتصاد، وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه[4]. لقد كانت الحرية فى دولة عمر بن عبد العزيز مصونة ومكفولة ولها حدودها وقيودها، ولذلك ازدهر المجتمع وتقدم فى مدار الرقى، فالحرية حق أساسى للفرد والمجتمع، ليتمتع بها فى تحقيق ذاته، وإبراز قدراته، وسلب الحرية من المجتمع سلب لأهم مقوماته فهو أشبه بالأموات، إن الحرية فى الإسلام إشعاع داخلى ملأ جنبات النفس الإنسانية بارتباطها بالله، فارتفع الإنسان بهذا الارتباط إلى درجة السمو والرفعة، فأصبحت النفس تواقة لفعل الصالحات، والمسارعة فى الخيرات ابتغاء رب الأرض والسماوات، فالحرية فى المجتمع الإسلامى دعامة، من دعائمه تحققت فى دولة عمر بن عبد العزيز فى أبهى صوره، انعكست أنوارها على صفحات الزمن[5].



(١) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز صـ ٤٨.

(٢) المصدر نفسه صـ ٤٨.

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٠٣.

(٤) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز صـ٤٨، سياسة الإنفاق العام فى الإسلام، عوف محمد الكفراوى صـ٣٧٢.

(٥) المجتمع الإسلامى، محمد أبو عجوة صـ٢٤٥ مع بعض التصرف.

المبحث الثاني

أهم صفاته ومعالم تجديده

أولا: أهم صفاته:

إن شخصية عمر بن عبد العزيز تعتبر شخصية قيادية جذابة، وقد اتصف رضى الله عنه بصفات القائد الربانى، ومن أهم هذه الصفات: إيمانه الراسخ بالله وعظمته، وإيمانه بالمصير والمآل، وخوفه من الله تعالى، والعلم الغزير، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة والشجاعة، والمروءة والزهد، وحب التضحية، والتواضع، وقبول النصيحة، والحلم والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإدارة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، وقدرته على التخطيط والتوجيه والتنظيم والمراقبة، وغير ذلك من الصفات، وبسبب ما أودع الله فيه من الصفات الربانية استطاع أن يقوم بمشروعه الإصلاحى ويجدد كثيراً من معالم الخلافة الراشدة التى اندثرت أمام زحف الملك العضوض، واستطاع أن يتغلب على العوائق فى الطريق، وتوجت جهوده الفذة بنتائج كبيرة على مستوى الفرد والمجتمع والدولة، وأصبح منهج عمر بن عبد العزيز الإصلاحى التجديدى مناراً للعاملين على مجد الإسلام، وقد ترسم نور الدين زنكى خطوات عمر بن عبد العزيز فى عهده، فحقق نجاحًا كبيراً للأمة فى صراعها مع الصليبيين، وكان الفضل لله ثم الشيخ أبى حفص عمر محمد الخضر المتوفى عام ٥٧٠هـ، والذى كان أحد شيوخ نور الدين زنكى حيث كتب لنور الدين كتابه الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز لكى يسير عليها فى خطواته وجهاده، وإن من أهم الصفات التى تجسدت فى شخصية عمر بن عبد العزيز هى:

١ـ شدة خوفه من الله تعالى:

كانت ميزته الكبرى والسمة التى اتسم بها، ودافعه إلى كل ذلك هو إيمانه القوى بالآخرة، وخشية الله، والشوق إلى الجنة، وليس لغير هذا الإيمان القوى، الذى امتاز به عمر بن عبد العزيز أن يحفظ إنسانًا فى مثل شباب عمر بن عبد العزيز، وقوته وحريته وسلطانه، من إغراءات مادية قاهرة ومن تسويلات الشيطان، والنفس المغرية، وتفرض عليه المحاسبة الدقيقة للنفس، والاستقامة على طريق الحق[1]، فقد كان مشتاقًا إلى الجنة مؤثراً

(١) النموذج الإدارى المستخلص صـ ١٤٠ نقلاً عن رجال الفكر للندوى.

الآخرة على الدنيا، مؤمنًا بقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[غافر: ٣٩]، فأدرك عمر بفطرته السليمة وعقيدته الصحيحة، أن آخرة المسلم أولى باهتمامه من دنياه، يقول عمر فى كتاب له إلى يزيد بن المهلب: .. لو كانت رغبتى فى اتخاذ أزواج، واعتقال أموال، كان فى الذى أعطانى من ذلك، ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه، ولكنِّى أخاف ـ فيما ابتليت به ـ حسابًا شديدًا، ومسألة عظيمة، إلا ما عافى الله ورحم[١]، كما كان عمر شديد الخوف من الله تعالى، تقول زوجته فاطمة بنت عبد الملك: والله ما كان بأكثر الناس صلاة، ولا أكثرهم صيامًا، ولكن والله ما رأيت أحدًا أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله فى فراشه، فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول: ليصبحَنَّ الناس ولا خليفة لهم[٢]، وقال مكحول: لو حلفت لصدقت، ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز[٣]، ولشدة خوفه من الله، كان غزير الدمع وسريعه، فقد دخل عليه رجل وبين يديه كانون فيه نار، فقل: عظنى. قال: يا أمير المؤمنين ما ينفعك من دخل الجنة، إذا دخلت أنت النار، وما يضرّك من دخل النار، إذا دخلت أنت الجنة، قال: فبكى عمر[٤] حتى طفئ الكانون الذى بين يديه من دموعه، وقد كان جلّ خوفه ـ رحمه الله ـ من يوم القيامة، فيدعو الله ويقول: اللهم إن كنت تعلم إنى أخاف شيئًا دون القيامة، فلا تؤمن خوفى[٥]، ذلك اليوم الذى أحدث تغيرًا جذريًا فى مجرى حياته، ذلك اليوم الذى يقول عنه عمر: «..لقد عُنيتم بأمر، لو عنيت به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى إحداهما[٦]. نعم إن الخوف من الله، والرؤية الواضحة للحياة، والفناء والخلود، والإحساس بيوم الحساب، والانفعال بمشاهد الجنة والنار، هى التى تضع المسئولين، وتجعلهم يرتعدون خوفًا إن هم انحرفوا قيد شعرة عما يريد الله[٧]، فالوعى والإحساس بيوم الحساب، وغيرها من الصفات الاعتقادية، تجعل القائد لا يخطو خطوة، ولا يقول قولاً، ولا يفعل فعلاً، إلا ربط ذلك بما يرضى الله عز وجل. وتلك الصفات والجوانب، لم تعط حقها من البحث والتحرى فى الدراسات القيادية الحديثة، وهى أساس النجاح فى القيادة، وأهم الصفات القيادية التى ينبغى للقائد أن يتحلى

(١) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى صـ١٤٠.
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٤٢.
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى صـ٢٢١.
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ٩٠.
(٥) تاريخ الخلفاء صـ٢٢٤.
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٢٣٢.
(٧) ملامح الانقلاب صـ٤٥ عماد الدين خليل.

بها، وإن من أهم صفات عمر بن عبد العزيز، الإيمان الراسخ بالله واليوم الآخر، وشدة خوفه من الله، والوجل من يوم القيامة[1].

٢ـ زهده:

فهم عمر بن عبد العزيز من خلال معايشته للقرآن الكريم ودراسته لهدى النبى الأمين ﷺ، ومن تفكره فى هذه الحياة بأن الدنيا دار ابتلاء واختبار، وإنها مزرعة للآخرة، ولذلك تحرّر من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها، وخضع وانقاد وأسلم لربه ظاهرًا وباطنًا، وكان وصل إلى حقائق استقرت فى قلبه ساعدته على الزهد فى هذه الدنيا، ومن هذه الحقائق:

أ- اليقين التام بأننا فى هذه الدنيا أشبه بالغرباء، أو عابرى سبيل، كما قال النبى ﷺ: «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[2].

ب ـ وأن هذه الدنيا لا وزن لها ولا قيمة عند رب العزة إلا ما كان منها طاعة لله ـ تبارك وتعالى ـ إذ يقول النبى ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»[3].

ج ـ وأن عمرها قد قارب على الانتهاء: إذ يقول النبى ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى»[4].

د ـ وأن الآخرة هى الباقية وهى دار القرار، فلهذه الأمور وغيرها زهد عمر بن عبد العزيز فى الدنيا، وأول الزهد الزهد فى الحرام، ثم الزهد فى المباح، وأعلى مراتب الزهد أن تزهد فى الفضول، وكل ما لك عنه غنى[5]، وكان زهد عمر بن عبد العزيز مبنى على الكتاب والسنة، ولذلك ترك كل أمر لا ينفعه فى آخرته، فلم يفرح بموجود وهى الخلافة، ولم يحزن على مفقود من أمور الدنيا، وقد ترك ما هو قادر على تحصيله من متاع الدنيا انشغالاً بما هو خير فى الآخرة ورغبة فيما عند الله عز وجل[6]، قال مالك بن دينار:

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ١٤٢.

(٢) الترمذى، ك الزهد رقم ٢٣٣٣ وهو حديث صحيح.

(٣) الترمذى، ك الزهد رقم ٢٣٢٠.

(٤) مسلم، ك الفتن وأشراط الساعة رقم ١٣٢ ـ١٣٥.

(٥) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ١٤٨.

(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ١٤٦).

الناس يقولون: مالك بن دينار زاهد، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذى أتته الدنيا فتركها[1]، قال ابن عبد الحكم: ولما ولى عمر بن عبد العزيز زهد فى الدنيا، ورفض ما كان فيه، وترك ألوان الطعام، فكان إذا صنع له طعام هيىء على شىء وغطى، حتى إذا دخل اجتذبه فأكل[2]، فكان لا يهمه من الأكل إلا ما يسد جوعه ويقيم صلبه، وكانت نفقته وعياله فى اليوم درهمين كما فى الأثر، عن سالم بن زياد: كان عمر ينفق على أهله فى غدائه وعشائه كل يوم درهمين[3]، وكان لا يلبس من الثياب إلا الخشن، وترك مظاهر البذخ والإسراف التى سادت قبله، وأمر ببيعها وأدخل أثمانها فى بيت مال المسلمين[4]، وهكذا فعل بالجوارى والعبيد؛ حيث رد الجوارى إلى أصحابهن إن كن من اللاتى أخذن بغير حق، ووزع العبيد على العميان وذوى العاهات، وحارب كل مظاهر الترف والبذخ، والإسراف[5]، وأما ما قيل عن زهده بالنسبة للنكاح، فقد روى ابن عبد الحكم فقال: وقالت فاطمة زوجته: ما اغتسل من جنابة منذ ولى حتى لقى الله غير ثلاث مرات، ويقال: ما اغتسل من جنابة حتى مات[6]، فهذا ينافى ما اشتهر به عمر بن عبد العزيز من حبه الشديد لهدى الرسول ﷺ، فيستبعد منه رحمه الله أن يترك السنة، وأن يقع فى ظلم زوجاته وحقوقهن، فإن ترك الزواج وتحريم ذلك لا علاقة له بالزهد الإسلامى الذى بينه رسولنا ﷺ، وهو دخيل على المجتمع المسلم، وهو ما تفتخر به بعض الفرق المنحرفة عن الإسلام، وتدعى أنه من الزهد الإسلامى، ولهم فى ذلك حكايات لا يشك من تأملها أنها لا تمت إلى الإسلام بصلة، ولهم فى ذلك وصايا عجيبة وتوجيهات غريبة، فمن أقوالهم:

- من ترك النساء والطعام فلابد له من ظهور كرامة.
- من تزوج فقد أدخل الدنيا بيته، فاحذروا من التزويج.
- لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوى إلى منازل الكلام.
- من تعود أفخاذ النساء لا يفلح.

---

(١) حلية الأولياء (٥/٢٥٧).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٤٣.
(٣) المصدر نفسه صـ ٣٨.
(٤) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ١٥٥).
(٥) المصدر نفسه (١/ ١٥٥).
(٦) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ ٥٠.

- من تزوج فقد ركن إلى الدنيا[1].

إلى غير ذلك من العجائب والغرائب، وهذا المفهوم يخالف الإسلام دين التوسط والاعتدال، فقد قال رسول الله ﷺ: «فمن رغب عن سنتى فليس منى»[2].

وجملة القول أن زهد عمر بن عبد العزيز كان مقيدًا بالكتاب والسنة، وأن كثيرًا مما نسب إليه فى هذا الباب لا يصح لمخالفته هدى النبى ﷺ. ومن زهد عمر بن عبد العزيز فى جمع المال، أنه كان على النقيض ممن يلى منصبًا فى وقتنا الحاضر، فقد كانت غلته حين استخلف أربعين ألف دينار، ثم أصبحت حين توفى أربعمائة دينار، ولو بقى لنقصت[3]، حيث لم يرتزق - رحمه الله - من بيت المسلمين شيئًا[4]، فقد كان رحمه الله من زهاد زمانه إن لم يك أزهدهم، فكان يقول: إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، تسر قليلاً وتحزن طويلاً[5]. وأخباره فى الزهد كثيرة ذكر منها الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر المعروف بالملاء حوالى ثمانية وعشرين أثرًا[6]، لقد وصل عمر بن عبد العزيز إلى مرحلة متقدمة فى الزهد والتحلى بصفات الزاهدين، وذلك ما لا يستطيع الوصول إليه أصحاب العيش فى الظروف المادية فى وقتنا الحاضر، الذى طغت فيه المادة على كل شىء فى الحياة، وأصبح الناس يقيسون بعضهم البعض بما يملك من الدنيا وحطامها، حسبنا من قادة وزعماء هذا العصر المادى إن لم يتصفوا بصفة الزهد، على أقل تقدير، أن يكفوا أنفسهم عن الطمع، والجشع، وأن يسعوا إلى الكسب الحلال، وأن يعملوا على قهر رغباتهم الدنيوية، لينالوا ماتاقت إليه نفس عمر بن عبد العزيز إلى ما هو أسمى من الدنيا.. إلى جنات النعيم[7]، ونختم حديثنا عن الزهد عند عمر بن عبد العزيز بهذا الأثر فقد قال لمولاه مزاحم: إنى قد اشتهيت الحج، فهل عندك شىء؟ قال: بضعة عشر دينارًا. قال: وما تقع منى؟ ثم مكث قليلاً، ثم قال له: يا أمير المؤمنين تجهّز، فقد جاءنا مال، سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بنى مروان، قال: اجعلها فى بيت المال، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفينا، وإن تكن حرامًا فكفانا ما أصابنا منها، قال مزاحم: فلما رأى عمر ثقل ذلك علىَّ قال: ويحك يا مزاحم لا يكثرن عليك شىء وضعته لله، فإن لى نفسًا توّاقة

---

(1) الطبقات للشعرانى (1/34).

(2) فتح البارى على صحيح البخارى (9/104).

(3) حلية الأولياء (5/257).

(4) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ186

(5) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ151.

(6) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (1/366 - 378).

(7) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ151.

لم تَتُق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هى أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلة التى ليس بعدها منزلة، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة(1).

٣ـ تواضعه:

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا...﴾ [الفرقان: ٦٣]. قال ابن القيم: أى يمشون بسكينة ووقار متواضعين(2). وقال ﷺ: «إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»(3). وهذه الصفة الحميدة كانت إحدى الصفات الأساسية التى تميز بها عمر بن عبد العزيز، فقد أدى زهد عمر إلى تواضعه، لأن شرط الزهد الحقيقى هو التواضع لله(4)، وقد كان تواضع عمر فى جميع أمور حياته ومعاملاته، فذلك ما يتطلبه الأمر من قائد خاف الله، ورجا ما عنده، وأراد الطاعة والولاء من رعيته(5)، ومما يذكر من تواضع عمر جوابه لرجل ناداه: يا خليفة الله فى الأرض، فقال له عمر: مه، إنى لما ولدت أختار لى أهلى اسمًا فسمونى عمر، فلو ناديتنى: يا عمر، أجبتك، فلما اخترت لنفسى الكُنى فكنيت بأبى حفص، فلو ناديتنى يا أبا حفص أجبتك، فلما وليتمونى أموركم سميتمونى: أمير المؤمنين، فلو ناديتنى يا أمير المؤمنين أجبتك، وأما خليفة الله فى الأرض، فلست كذلك، ولكن خلفاء الله فى الأرض داود والنبى ﷺ وشبههما(6)، مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]. ومن تواضعه أن نهى الناس عن القيام له، فقال: يا معشر الناس، إن تقوموا نقم، وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، وكان يقول للحرس: لا تبتدئونى بالسلام، إنما السلام علينا لكم(7)، وكان متواضعًا حتى فى إصلاح سراجه بنفسه، فقد كان عنده قوم ذات ليلة فى بعض ما يحتاج إليه، فغشى سراجه، فقام إليه فأصلحه، فقيل له: يا أمير المؤمنين ألا تكفيك؟ قال: وما ضرنى؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز(8)، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز، ومن تواضعه أيضًا أنه قال يومًا لجارية له: يا جارية روّحينى قال: فأخذت المروحة فأقبلت تروحه، فغلبتها عينها فنامت، فانتبه عمر، فإذا هو بالجارية قد

(1) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٦٢.
(2) مدارج السالكين (٢/ ٣٤٠).
(3) مسلم رقم ٢٨٦٥.
(4) عمر بن عبد العزيز للزحيلى صـ١٠٥.
(5) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ١٥٢.
(6) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٤٦.
(7) المصدر نفسه صـ٣٤، ٣٥.
(8) المصدر نفسه صـ٣٩.

احمر وجهها، وقد عرقت عرقًا شـديدًا ـ وهى نائمة ـ فأخذ المروحة وأقبل يروحها، قال: فانتبهت، فوضعت يدها على رأسها فصاحت، فقال لها عمر: إنما أنت بشر مثلى أصابك من الحر ما أصابنى، فأحببت أن أروحك مثل الذى روحتنى[1]، وكان يمتنع عن كثرة الكلام ـ وهو العالم الفصيح المفوّه ـ خشية على نفسه من المباهاة بما عنده، أو يظن الناس به ذلك، فكان يقول: إنه ليمنعنى من كثير من الكلام مخافة المباهاة[2]، ودخل عليه رجل فقال له: يا أمير المؤمنين، إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زينًا، وأنت زين الخلافة، وإنما مثلك كما قال الشاعر:

وإذا الدرّ زان حسن وجوه ... كان للدرّ حسن وجهك زينًا

فأعرض عنه[3]. وقال له رجل: جزاك الله عن الإسلام خيرًا. فقال: لا، بل جزى الله الإسلام عنى خيرًا[4]، ودخل عليه رجل، وهو فى ملأ من الناس فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: عُمّ سلامك[5]، وهكذا أمير المؤمنين عمر، يخفض الجناح للمؤمنين، ولا يتكبر على أحد من عباد الله، ولم تزده الخلافة إلا تواضعًا ورأفة ورحمة، ولم يحمله المنصب إلا على الإخبات والخضوع لسلطان الحق، يصلح سراجه بنفسه، ويجلس بين يدى الناس على الأرض، ويأبى أن يسير الحراس والشُّرط بين يديه، ويعنّف من يعظمه أو يخصه بسلام من بين الجالسين، ويتأبى أن يتميز على الناس بمركب، أو مأكل، أو ملبس، أو مشرب[6].

٤ـ ورعه:

من صفات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الورع، والورع هو الإمساك عما قد يضر، فدخل المحرمات والشبهات لأنها قد تضر، فإنه من اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يواقعه[7]، والورع فى الأصل الكف عن المحارم والتحرج منها، ثم استعير للكف عن الحلال المباح[8]. وللدلالة على ما كان يتصف به عمر من الورع، وتحرى السلامة من الشبهات، فقد روى أنه كان يعجبه أن يتأدم بالعسل، فطلب من أهله يومًا عسلاً، فلم يكن عنده، فأتوه بعد

(١) أخبار أبى حفص للآجرى ص٨٦.
(٢) المصدر السابق ص٨٤.
(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦)، الحلية (٥/ ٣٢٩).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٧)، الحلية (٥/ ٣٣١).
(٥) الطبقات (٥/ ٣٨٤).
(٦) عمر بن عبد العزيز، لعبد الستار الشيخ ص١٢٣.
(٧) الفتاوى (١٠/ ٦١٥).
(٨) لسان العرب (٨/ ٢٨٨).

ذلك بالعسل، فأكل منه، فأعجبه، فقال لأهله: من أين لكم هذا؟ قالت امرأته: بعثت مولاى بدينارين على بغل البريد، فاشتراه لى، فقال: أقسمت عليك لما أتيتنى به، فأتته بُعكَّة[1] فيها عسل، فباعها بثمن يزيد على الدينارين، ورد عليها مالها وألقى بقيته فى بيت مال المسلمين، وقال: أنصبت دواب المسلمين فى شهوة عمر[2]. ومن ورعه أنه كان له غلام يأتيه بقمقم[3] من ماء مسخن، يتوضأ منه، فقال للغلام يومًا: أتذهب بهذا القمقم إلى مطبخ المسلمين، فتجعله عنده، حتى يسخن، ثم تأتى به؟ قال: نعم أصلحك الله، قال: أفسدته علينا، قال: فأمر مزاحمًا أن يغلى ذلك القمقم، ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب ثم يحسب تلك الأيام، التى كان يغليه فيها، فيجعله حطبًا فى المطبخ[4].

ومن أمثلة ورعه كان لا يقبل أى هدية من عماله أو من أهل الذمة خوفًا من أن يكون ذلك من باب الرشوة، فعن عمرو بن مهاجر قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز تفاحًا فقال: لو كان لنا - أو عندنا - شىء من التفاح، فإنه طيب الريح طيب الطعم، فقام رجل من أهل بيته فأهدى إليه تفاحًا، فلما جاء به الرسول، قال عمر: ما أطيب ريحه وأحسنه، ارفعه يا غلام، فأقرئ فلانًا السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت منا بموقع بحيث تحب، فقلت: يا أمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك، وقد بلغك أن النبى ﷺ كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، قال: ويحك؟ إن الهدية كانت للنبى هدية وهى لنا اليوم رشوة[5]، ومن ورعه أنه كان لا يرى لنفسه أن تشم رائحة مسك أتته من أموال المسلمين، فعندما وضعت بين يديه مسكة عظيمة فأخذ بأنفه، فقيل: يا أمير المؤمنين إنما هو ريح، قال: وهل ينتفع منها إلا بريحها[6]، وكان يحترز من استعمال أموال المسلمين العامة، فكان يسرج السراج من بيت إذا كان فى حاجة المسلمين، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها، ثم أسرج عليه سراجه الخاص به من ماله الخاص[7]، وقد ذكر المؤرخون كثيرًا من الأمثلة التى تدل على ورعه، فقد اعتبر أن البعد عن أموال المسلمين حتى فى الأشياء اليسيرة القليلة هو

(١) العكة: وعاء من جلد ماعز يدبغ ويخصص للسمن والعسل.

(٢) أخبار أبى حفص للآجرى صـ٥٤.

(٣) القمقم: هو ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٤٠.

(٥) سيرة عمر لابن الجوزى صـ١٩٧.

(٦) سيرة عمر لابن الجوزى صـ٢٠٠، كتاب الورع لابن أبى الدنيا صـ٧٤.

(٧) الآثار الواردة فى عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ١٦٤).

من باب الابتعاد عن الشبهة، فكان بعيدًا عن الشبهات[1] احتياطًا لدينه، وذلك أن الأمور ثلاثة كما قال هو بنفسه:

١- أمر استبان رشده فاتبعه.

٢- وأمر تبين خطؤه فاجتنبه.

٣- وأمر أشكل عليك فتوقف عنه[2].

وكان رحمه الله ورعًا حتى في الكلام، فعندما قيل له: ما تقول فى أهل صفين؟ قال: تلك دماء طهر الله يدى منها، فلا أحب أن أخضب لسانى بها[3]، وهكذا يتضح أن ورع عمر كان فى شأنه كله، فى مأكله وحاجته وشهوته، ومال المسلمين وفى كل أمور حياته، ذلك الورع النابع مع الإيمان القوى، والشعور بالمسئولية واستحضار الآخرة، فقد كانت صفة الورع من صفاته الجلية، فقد بلغ به مبلغًا جعله يشترى مكان قبره الذى سيوارى فيه، فلا يكون له من الدنيا دون مقابل حتى موضع قبره[4].

٥- حلمه وصفحه وعفوه:

ومن الصفات التى تجسدت فى شخصية عمر بن عبد العزيز الحلم والصفح والعفو، فعن شيخ من الخناصريين قال: كان لعمر بن عبد العزيز ابن له من فاطمة، فخرج يلعب مع الغلمان فشجه غلام، فاحتملوا ابن عمر والذى شجه فأدخلوهما على فاطمة، فسمع عمر الجلبة وهو فى بيت آخر فخرج، وجاءت امرأة فقالت: هذا ابنى وهو يتيم، قال: أله عطاء؟ قالت: لا. قال: فاكتبوه فى الذرية، فقالت فاطمة: أتفعل هذا به وقد شج ابنك فعل الله به وفعل، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية. فقال عمر: إنكم أفزعتموه[5]. وعن إبراهيم بن أبى عبلة قال: غضب عمر بن عبد العزيز يومًا غضبًا شديدًا على رجل، فأمر به فأحضر وجرِّد وشُدَّ فى الحبال وجيء بالسياط فقال: خلُّوا سبيله ثم قال: أما أنى لولا أن أكون غضبان لسؤتك. وتلا ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وعن عبد الملك قال: قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته، وعرض له رجل بيده طومار[6]،

(١) الآثار الواردة فى عمر (١/ ١٦٥). (٢) العقد الفريد (٤/ ٣٩٧)، الآثار الواردة (١/ ١٦٥).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ١٩٥.

(٤) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ١٥٦.

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٢٠٧، الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٣).

(٦) الطومار: صحيفة مطوية.

فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يُحبس دونه فرماه بالطومار، فالتفت عمر فوقع في وجهه، فشجه. قال: فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو قائم في الشمس، فلم يبرح حتى قرأ الطومار وأمر له بحاجته وخلَّى سبيله[1]، وروى أن رجلاً نال من عمر فلم يجبه. فقيل له: ما يمنعك منه؟ قال: التُّقَى مُلجم[2]، وعن حاتم بن قدامة أن رجلاً قام إلى عمر بن عبد العزيز - وهو يخطب - فقال له: أشهد أنك من الفاسقين. فقال له عمر: وما يدريك؟ وأنت شاهد زور فلا نجيز شهادتك[3]، وروى أن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة خرج ليلة في السحر إلى المسجد ومعه حرسي فمرا برجل نائم على الطريق فعثر به عمر. فقال له: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا. فهمّ الحرسي به. فقال له عمر: مه، فإنه سألني أمجنون أنت؟ فقلت: لا[4]. وروى أن رجلاً قام إلى عمر بن عبد العزيز وهو على المنبر فنال منه وأغضبه، فقال له عمر: يا هذا أردت أن يستفزني الشيطان مع عزة السلطان أن أفعل بك اليوم ما تفعل بي غدًا مثله. اذهب غفر الله لي ولك[5]. وقيل: أتى ولد لعمر بن عبد العزيز وهو يبكي، فقال له: ما شأنك؟ فقال: ضربني فلان العبد. فجيء به. فقال له: ضربته؟ قال: نعم. فقال له: اذهب فلو أني معاقب أحدًا على الصدق لعاقبتك، اذهب ولم يكلمه[6]. والمواقف في حلمه وصفحه وعفوه كثيرة، وهذا غيض من فيض.

٦ـ صبره:

ومن صفاته - رحمه الله-: الصبر والشكر، روى أنه لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز حضر عند قبره فقال: لا تعمقه فإن ما علا من الأرض أفضل مما سفل منها[7]، وروى أنه حين مات عبد الملك ولده، وسهل بن عبد العزيز أخوه، ومزاحم مولاه، قال رجل من أهل الشام: والله لقد ابتلى أمير المؤمنين ببلاء عظيم: مات ولده عبد الملك، لا والله إن رأيت ولدًا كان أنفع لوالده منه، ثم أصيب أمير المؤمنين بأخ، لا والله ما رأيت أخًا أنفع لأخ منه. قال: وسكت عن مزاحم. فقال عمر بن عبد العزيز: لم سكت عن مزاحم؟ فوالله ما هو أدنى الثلاثة عندي، رحمك الله يا مزاحم مرتين أو ثلاثًا، والله لقد كنت كفيت كثير الدنيا، ونعم الوزير كنت في أمر الآخرة[8]، وعن حفص بن عمر قال: لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز جعل أبوه يثني عليه عند قبره، فقال مسلمة: أرأيت لو بقي أكنت توليه؟ قال: لا. قال: فأنت تثني عليه بهذا الثناء، قال: إني أخاف أن

(١) حلية الأولياء (٥/ ٣١١). (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي صـ٢٠٨.

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٤).

(٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه (٢/ ٤٢٥). (٧)، (٨) المصدر نفسه (٢/٤٢٧).

يكون زيّن لي من المحبة له ما يزين في عين الوالد من حبِّ ولده[١]. وخطب عمر في خطبته فقال: ما من أحد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. إلا كان الذى أعطاه الله من الأجر فيها أفضل مما أخذ منه، وقال: الرضا قليل والصبر معتمد المؤمن. وقال: من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، ومن لم يَعدَّ كلامه من عمله كثرت خطاياه، والرضا قليل، ومعول المؤمن على الصبر[٢]. وكان من أجلِّ ما صبر عليه عمر في حياته: أمر الخلافة، فقد قال: والله ما قعدت مقعدى هذا إلا خوفًا أن يثبت عليه من ليس بأهل، ولو أنى أطاع فيما أعمل لسلمتها إلى مستحقيها ـ يعنى الخلافة ـ، ولكننى أصبر حتى يأتى الله بأمر من عنده، أو يأتى بالفتح[٣].

٧- الحزم:

لقد اتسم عمر بن عبد العزيز بهذه الصفة، في وقت أكثر ما يكون فيه أمر الأمة والخلافة في حاجة إلى الحزم، وبخاصة فيما يتعلق بالولاة والأمراء والعمال. وللدلالة على تحلّي عمر بصفة الحزم وضبط الأمور، عدم التهاون فيما يراه ضروريًا لخدمة الصالح العام، وما يصلح به أمر المسلمين، ولقد أخذ حزم عمر صورًا مختلفة ومجالات عدة، كحزمه مع أمراء وأشراف بنى أمية ومع الذين يريدون شق عصا المسلمين والخروج على جادتهم، وإثارة الفتن وسفك الدماء وغير ذلك من الأمور، فقد كان أول مؤشر على حزمه موقفه من بنى مروان، إذ قال لهم: أدوا ما في أيديكم ولا تُلجئونى إلى ما أكره، فأحملكم على ما تكرهون، فلم يجبه أحد منهم. فقال: أجيبونى، فقال رجل منهم: والله لا نخرج عن أموالنا التى صارت إلينا من آبائنا، فنُفقِّر أبناءنا ونكفر آباءنا، حتى تتزايل رؤوسنا، فقال عمر: أما والله لولا أن تستعينوا عليَّ بمن أطلب هذا الحق له، لأضرعت خدودكم عاجلاً، ولكنى أخاف الفتنة، ولئن أبقانى الله لأردَّنَّ إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله[٤]، وكان إذا وقع في أمر مضى فيه، وجاءه يومًا كتاب من بعض بنى مروان فأغضبه فاشتاط[٥] ثم قال: إن لله من بنى مروان يومًا - وقيل: وذبحًا - وايم الله، لئن كان ذلك الذبح على يدى، فلما بلغهم ذلك، كفوا وكانوا يعلمون صرامته، وأنه إذا وقع في أمر مضى فيه[٦]، وأما فيما يتعلق بمن يريد شق عصا المسلمين والخروج عليهم، فقد اتبع معهم أسلوب الحوار

(١) ، (٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر (٢/ ٤٢٨).

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ١٤٤.

(٤) العقد الفريد (٥/ ١٧٣).

(٥) استشاط الرجل: أى احتدَّ واحتدم كأنه التهب في غضبه.

(٦) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ ١٥٨.

والمناظرة، وهم الخوارج الذين ثاروا ضد بنى أمية بقيادة شوذب الخارجى ١٠٠هـ، ليقف على ما دفعهم إلى ذلك، ويرى إن كان الحق معهم نظر فى أمره، وإلا فليدخلوا فيما دخل فيه الناس، إلا أنه فى الوقت نفسه قرن إجراءاته تلك بشىء من الحزم والصلابة، عندما وصل الأمر إلى مرحلة سفك دماء المسلمين أو الإفساد، إذ كتب إلى عامله على العراق يقول: ألا تحركهم إلا أن يسفكوا دمًا، أو يفسدوا فى الأرض، فإن فعلوا فخلِّ بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً طيبًا حازمًا فوجهه إليهم، ووجه معه جندًا، وأوصه بما أمرتك به[1]، وهكذا كان عمر فى حزمه، فقد أخذ الإجراءات والمواقف الحازمة والتى كانت على درجة كبيرة من الأهمية والحساسية، وكان لذلك الحزم مردود إيجابى كبير على سير الأمور وتنفيذ ما كان يسعى لتحقيقه من العدل والطمأنينة ومعالم الخلافة الراشدة[2].

٨- العدل:

إن صفة العدل من أبرز صفات عمر بن عبد العزيز القيادية على الإطلاق، وقد تحدثت عن العدل فى دولته وسياسته فى رد المظالم فيما مضى، ولقد أجمع العلماء قاطبة على أنه - أى عمر بن عبد العزيز - من أئمة العدل، وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين[3]، ولعل عدل عمر يرجع إلى إيمانه بأن العدل أحد نواميس الله فى كونه، ويقينه التام بأن العدل ثمرة من ثمرات الإيمان، وأنه من صفات المؤمنين المحبين لقواعد الحق، وإلى إحساس عمر بوطأة الظلم للناس فى خلافة من سبقه من الخلفاء والأمراء الأمويين، بالإضافة إلى السبب الأهم وهو: ما أمر الله به من العدل والإحسان، وأنهما الأسس العامة لأحكام الشرائع السماوية، وما نماه الإسلام فى نفس عمر، من حب للعدل وإحياء لقيمه[4]، وإليك هذه الصور من عدله والتى لم أذكرها فيما مضى، فنورد ما رواه الآجرى من أن رجلاً ذميًّا من أهل حمص قدم على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين: أسألك كتاب الله عز وجل، قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبنى أرضى - والعباس جالس - فقال له: يا عباس ما تقول؟ قال: أقطعنيها يا أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وكتب لى بها سجلاً، فقال عمر: ما تقول يا ذمى؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل. فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك،

(١) تاريخ الطبرى (٧/٤٥٩).

(٢) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ١٦٣.

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن النموذج الإدارى صـ١٦٣.

(٤) النموذج الإدارى صـ١٦٣، ١٦٤.

فاردد عليه يا عباس ضيعته فردّها عليه[1]. ومن مواقفه العادلة ما حدّث به الحكم بن عمر الرعيني، قال: شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة[2]، فقال عمر لمسلمة: لا تجلس على الوسائد، وخصماؤك بين يدى، ولكن وكّل بخصومتك من شئت، وإلا فجاثى القوم بين يدى، فوكل مولى له بخصومته - يعنى مسلمة - فقضى عليه بالناعورة[3]، وهذا قليل من كثير، مما أوردته كتب السير عن عدل عمر.

٩- تضرعه ودعاؤه واستجابة الله لدعائه:

كان عمر بن عبد العزيز كثير التضرع والدعاء، فقد كان يقول: يا رب خلقتنى ونهيتنى، ووعدتنى بثواب ما أمرتنى، ورهبتنى عقاب ما نهيتنى عنه. وسلطت علىّ عدواً أسكنته صدرى وأجريته مجرى دمى، إن أهمّ بفاحشة شجعنى، وإن أهم بصالحة ثبطنى، لا يغفل إن غفلت، ولا ينسى إن نسيت، ينصب لى فى الشهوات، ويتعرض لى فى الشبهات، وإلا تصرف عنى كيده يستذلنى، اللهم فاقهر سلطانه علىّ بسلطانك عليه حتى أحبسه بكثرة ذكرى لك، فأكون مع المعصومين بك، ولا حول ولا قوة إلا بالله[4]، وكان يقول: اللهم أصلح من كان فى صلاحه صلاح أمة محمد ﷺ، اللهم أهلك من كان فى هلاكه صلاح أمة محمد ﷺ[5]، وكان يدعو بهذا: اللهم ألبسنى العافية حتى تهنّينى المعيشة، واختم لى بالمغفرة حتى لا تضرنى الذنوب، واكفنى كل هول دون الجنة حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين[6]، وكان يقول: اللهم إنى أطعتك فى أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصك بأبغض الأشياء إليك وهو الشرك، فاغفر لى ما بينهما[7]. وكان يقول: اللهم أنى أعوذ بك أن أبدّل نعمتك كفراً، أو أن أكفرها بعد موتها، أو أن أنساها فلا أثنى بها[8]. وكان كثيراً ما يدعو بها: اللهم رضنى بقضائك، وبارك لى فى قدرك، حتى لا أحب تعجيل شىء أخرته، ولا تأخير شىء عجلته[9]. وكان رحمه الله مستجاب الدعوة،

(١) أخبار أبى حفص صـ٥٨.
(٢) الناعورة: موضع بين حلب وبالس يبعد عن حلب ثمانية أميال.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ٩١ لابن الجوزى.
(٤) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٤١).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٣٤٢).
(٦) المصدر نفسه (١/ ٣٤٣).
(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٢٣٠.
(٨) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٤٣).
(٩) المصدر نفسه (١/ ٣٤٤).

فروى ابن الحكم أن ابن الريان كان سياقًا للوليد بن عبد الملك، فلما ولى عمر الخلافة قال: إنى أذكر إباءه وتيهه، ثم قال: اللهم إنى قد وضعته لك فلا ترفعه، فما رُئى شريف قد خمد ذكره مثله حتى لا يذكر[1]، وقد دعا عمر - رحمه الله - حين حج وأخبر قبل دخوله إلى مكة بقلة الماء فيها، فدعا عند ذلك، فأجاب الله دعاءه، فسقوا، وهذا حين كان أميرًا على المدينة[2]، كما دعا على غيلان القدرى حين ناظره فقال: اللهم إن كان عبدك غيلان صادقًا وإلا فاصلبه، فصلب بعد فى خلافة هشام بن عبد الملك[3].

ثانيًا: معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز:

يرى المتتبع لأقوال العلماء والمؤرخين والمهتمين بدراسة الحركة التجديدية، إجماعًا تامًا على عدّ الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز المجدد الأول فى الإسلام[4]، وكان أول من أطلق عليه ذلك الإمام محمد بن شهاب الزهرى، ثم تبعه على ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال: يروى فى الحديث **«إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة أمر دينها»**، فنظرنا فى المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز[5]، وتتابع العلماء على عدّه أول المجددين، وذكر بعض أهل العلم أنه من المقصودين بحديث رسول الله ﷺ: **«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»**[6]. ولا شك أن عمر بن عبد العزيز خليق بأن يكون ممن يحمل عليه هذا الحديث، فقد كان عالمًا عاملاً، همه كله، وعزمه، وهمته، آناء الليل والنهار إحياء السنن وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها، وكسر أهلها باللسان، والسنن[7]، يقول ابن حجر العسقلانى: إن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر فى نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها فى شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك فى عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعى، وإن كان متصفًا بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل[8]. ومع أن بعض العلماء رأى أن مقام المجدد

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٣٠.
(٢) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (١/ ١٨٣).
(٣) الشريعة للآجرى (١/ ٤٣٨).
(٤) عون المعبود (١١/ ٣٩٣) للعظيم آبادى، جامع الأصول (١١/ ٣٢٢).
(٥) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٧٤.
(٦) المجددون فى الإسلام للصعيدى صـ٥٧، موجز تاريخ تجديد الدين للمودودى صـ٦٣.
(٧) الآثار الواردة عن عمر فى العقيدة (١/ ١٧٧).
(٨) فتح البارى (١٣/ ٢٩٥).

الكامل لا يستحقه إلا مهدى آخر الزمان، وأنه لم يولد فى الأمة المسلمة مجدد كامل حتى الآن، وإن كان عمر بن عبد العزيز أوشك أن يبلغ مرتبة المجددية الكاملة لو أنه استطاع إلغاء طريقة الحكم الوراثية، وإعادة انتخاب الخليفة عن طريق الشورى[1]. وسواء استحق عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكامل أم لا، فإن الأعمال التجديدية التى قام بها، والجهود الكبيرة التى بذلها لاستئناف الحياة الإسلامية، وإعادتها إلى نقائها وصفائها زمن الرسول ﷺ، وخلفائه الراشدين تجعله على رأس المجددين الذين جاد بهم الزمان حتى يومنا هذا، وقد ساعده على ذلك موقعه الذى تبوأه على رأس خلافة قوية، منيعة الجانب، مترامية الأطراف، ولكى ندرك حجم الأعمال التجديدية التى اضطلع بها هذا الخليفة، وقدر الإصلاح الذى أحدثه، ينبغى أن نقف على حجم الانحرافات التى طرأت على الحياة الإسلامية والتغيّر والانقلاب الذى حدث للخلافة الإسلامية، ولعلنا لا نجانب الحقيقة إذا حصرنا الانحراف فى ذلك الوقت بنظام الحكم، وما نتج عن ذلك من مظالم وفساد. وأما الحياة العامة فكانت أنوار النبوة لازالت ذات أثر بالغ فيها، وكان الدين صاحب السلطان الأول فى قلوب الناس[2].

١- من إصلاحات عمر وأعماله التجديدية:

أ- الشورى: قد مرّ معنا أن عمر بن عبد العزيز فى أول لقاء له مع الناس حمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أيها الناس إنى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم، فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك؛ فَلِ أمرنا باليُمن والبركة[3]. وبهذا يكون عمر قد قام بأول عمل تجديدى، حيث أعفى الناس من الملك العضوض، ولم يجبرهم على القبول بمن لم يختاروه، بل رد الأمر إليهم وجعله شورى بينهم[4].

ب- الأمانة فى الحكم وتوكيل الأمناء:

فقد تواترت النقول المفيدة أنه بلغ من حرصه على ذلك أقصى المراتب، فقد استشعر عظم المسئولية وضخامة الحمل منذ اللحظة الأولى لتسلمه الخلافة، فقال لمن سأله: ما لى

(١) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودى صـ٦٩.
(٢) عمر بن عبد العزيز للندوى صـ١٠.
(٣) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى صـ٦٥.
(٤) التجديد فى الفكر الإسلامى د.عدنان محمد صـ٧٩.

أراك مغتمًا؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليُغتم، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إلىّ فيه، ولا طالبه منى[1]. وقال: لست بخير من أحد منكم، ولكن أثقلكم حملاً[2]. وكان يطالب عمّاله باختيار أصحاب الكفاءة والدين فيمن يولونه شيئا من شئون المسلمين، فقد كتب إلى أحد عمّاله: لا تولين شيئًا من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استرعى[3]. ولم تكن سياسته فى التورع عن أموال المسلمين سياسة طبقها على خاصة نفسه فقط بل ألزم بها عمّاله وولاته، فقد كتب إلى عامله أبى بكر بن حزم: أن أدق قلمك، وقارب بين أسطرك، فإنى أكره أن أخرج من أموال المسلمين مالا ينتفعون به[4]، وقد ساس رعيته سياسة رحيمة، وأمن لهم عيشًا رغيدًا وكفاهم مذلة السؤال، فقسم فضول العطاء فى أهل الحاجات[5]، وقسم فى فقراء أهل البصرة ثلاثة دراهم لكل إنسان، وأعطى الزمنى خمسين خمسين[6]، وطلب من عماله أن يجهزوا من أراد أداء فريضة الحج[7]، وكتب إلى عماله: أن اعملوا خانات فى بلادكم، فمن مر بكم من المسلمين، فأقروهم يومًا وليلة، وتعهدوا دوابهم فمن كانت به علّة فأقروهم يومين وليلتين، فإن كان منقطعًا به فقوّوه بما يصل به إلى بلده[8]، وقد عزّ فى زمن عمر وجود من يقبل الزكاة، يقول عمر بن أسيد: والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح يرجع بماله كله، قد أغنى عمر الناس[9]، وكانت حرمة المسلمين فوق كل الأموال فقد كتب إلى عماله: أن فادوا بأسارى المسلمين، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[10]، ولاتزال خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية، على كل أولئك الذين يشككون فى إمكانية إقامة نظام اقتصادى إسلامى، وبرهانًا ساطعًا على أن الاحتكام للشريعة الربانية هو وحده الذى يكفل للناس السعادة فى الدنيا والآخرة[11].

ج ـ مبدأ العدل:

فقد كان فيه لعمر القدح المعلَّى، وكان بحق وارثًا فيه لجدّه لأمه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد ضرب فيه على النقود عبارة: أمر الله بالوفاء والعدل[12]، وطلب أن لا يقام

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٨٦). (٢) المصدر نفسه (٥/ ٥٨٦).
(٣)، (٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن التجديد فى الفكر الإسلامى صـ٨١.
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٩٥). (٦)، (٧) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٧٤).
(٨) المصدر نفسه (٧/ ٤٧٢). (٩) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٨٨).
(١٠) سيرة عمر لابن الجوزى صـ١٢٠.
(١١) خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز صـ٤١ ، ٤٢.
(١٢) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٩٨.

على أحد حد إلا بعد علمه[1]، وكتب لعامله الجراح بن عبد الله الحكمى أمير خراسان: يا ابن أم جراح، لا تضربن مؤمنًا ولا معاهدًا سوطا إلا فى حق، واحذر القصاص، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وتقرأ كتابًا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا إحصاها[2]. وأنصف أهل الذمة وأمر أن لا يعتدى عليهم أو على معابدهم، وكتب إلى عماله: لا تهدموا كنيسة ولا بيعة، ولا بيت نار صولحتم عليه[3] وقد رفع المكس وحطّ العشور والضرائب التى فرضتها الحكومات السابقة، وأطلق للناس حرية التجارة فى البر والبحر، وقد تبرأ من المظالم التى كان يرتكبها بنو أمية وتبرأ من الحجّاج وأفعاله وأنكر على عمّاله الاستنان بسنته[4].

د ـ إحياؤه مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

أخذت الخلافة تتراجع عن الغاية التى قامت من أجلها وهى حراسة الدين، فنهض عمر بهذا المبدأ، ورفع لواءه وأعلى شأنه، وجعله المهيمن والمقدّم على ما سواه، وما حقق عمر ما حققه من أعمال وإنجازات إلا انطلاقًا من خوفه الشديد من الله، وطلبه فيما فعله مرضاته، وقد ساعده على ذلك أنه كان من أجلة العلماء التابعين وأئمة الاجتهاد[5] حتى قال عنه عمر بن ميمون: كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة،[6] وقد كان لسلامة دينه وصدق عقيدته الأثر البالغ فى تجديده وإصلاحاته، فقد حارب الأهواء والبدع، وشدد النكير على أهلها[7]، وسيأتى بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى. وقد نقل عنه الإمام الأوزاعى قوله: إذا رأيت قومًا يتناجون فى دينهم بشىء دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة[8]. وكان يرى أنه لا قيمة لحياته لولا سنة يحييها، أو بدعة يميتها[9]، وقد اهتم اهتمامًا شديدًا بديانة الناس وأخلاقهم، فكتب إلى عمّاله: اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات، فمن أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشدّ تضييعًا[10].

---

(1) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٧٤).

(2) المصدر نفسه (٧/ ٤٦٤).

(3) المصدر نفسه (٧/ ٤٧٧).

(4) سيرة ومناقب عمر صـ١٠٧، ١٠٨.

(5) التجديد فى الفكر الإسلامى صـ٨٥.

(6) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥١٨).

(7) التجديد فى الفكر الإسلامى ٨٦.

(8) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٨٣.

(9) التجديد فى الفكر الإسلامى صـ٨٦.

(10) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٢٢١.

والناظر فى رسائل عمر وخطبه ومواعظة - وهى أكثر من أن تحصى - يرى إيمانًا قويًا، ومراقبة جلية وخوفًا من يوم يقف فيه الناس بين يدى رب العالمين، وقد أثرت شخصية عمر وسياسته العادلة تأثيرًا بالغًا فى حياة العامة وميولهم وأذواقهم ورغباتهم(١)، يدل على ذلك ما ذكره الطبرى فى تاريخه مقارنًا عهد عمر بعهود من سبقه من الحكام السابقين: كان الوليد صاحب بناء واتخذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون فى زمانه، فكان يسأل بعضهم بعضًا عن البناء والمصانع، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم عن التزويج والجوارى، فلمّا ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ ومتى ختمت؟ وما تصوم من الشهر؟(٢). ولم يكتف عمر بإقامة الدين داخل دولته، بل وجّه عنايته إلى غير المسلمين، ودعاهم إلى الدخول فى الإسلام، وراسل ملوك الهند وملوك ما وراء النهر، ووعدهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فأسلم الكثير منهم وتسموا بأسماء العرب(٣)، ولعل من أجّل الأعمال التى خدم بها هذا الدين أمره بتدوين العلوم الإسلامية وخاصة علم الحديث، وسيأتى بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى، كل هذه الأعمال العظيمة والإصلاحات الجليلة حققها عمر فى مدة خلافته الوجيزة، فغدا درة للأمة، ومنارة يستهدى بنورها الملتمسون دروب التجديد والإصلاح(٤).

٢ـ من شروط المجدد وصفاته:

نستطيع أن نحدد أهم شروط المجدد والصفات التى ينبغى أن تتوافر فيه، حتى يعد من المجددين من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

أ ـ أن يكون المجدد معروفًا بصفاء العقيدة وسلامة المنهج: وذلك لأن من أخص مهمات التجديد إعادة الإسلام صافيًا نقيًا من كل العناصر الدخيلة، وهذا لا يحصل إلا إذا كان المجدد من السائرين على منهج الرسول ﷺ، وصحابته الكرام، ومن الطائفة الناجية المنصورة التى جاء وصفها بأنها فرقة من ثلاث وسبعين فرقة، وأنها تلزم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه فى عقيدته، ومنهجه وتصوراته(٥). وهذا الشرط قد توافر فى عمر ابن عبد العزيز، وسوف نوضحه فى آثاره العقدية عند دراستها بإذن الله تعالى.

(١) التجديد فى الفكر الإسلامى ٨٦.

(٢) تاريخ الطبرى نقلا عن التجديد فى الفكر الإسلامى ٨٧.

(٣) خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز للندوى صـ٣٠.

(٤) التجديد فى الفكر الإسلامى ٨٧.

(٥) المصدر نفسه صـ٤٦.

ب ـ أن يكون عالمًا مجتهدًا: وهذا الشرط تحقق في عمر بن عبد العزيز، فقد واجه المشكلات التي تولدت في عصره واجتهد في وضع الحلول الشرعية لها، وفي الحقيقة أن رتبة الاجتهاد ليست عسيرة إلى الحد الذي تصوره بعض كتب أصول الفقه، وممن ذهب إلى وضع شروط يكاد يكون من المحال الإحاطة بها، حيث أوجبوا أن يحيط المجتهد بعلوم الآلة كلها من نحو ولغة وبلاغة، وبعلوم الشريعة من تفسير وحديث وأصول فقه وعلوم قرآن ومصطلح حديث وسيرة، وبعلم المنطق وعلم الكلام، وغير ذلك مما يصعب الإحاطة به[1]، والصواب أن الاجتهاد سهل ميسور، لمن كانت عنده أهلية النظر، والمهم أن نعلم أن المجدد يشترط فيه أن يكون محيطًا بمدارك الشرع، قادرًا على الفهم والاستنباط، مطَّلعًا على أحوال عصره، فقيهًا بواقعه[2]، يقول المناوى: إن على المجدد أن يكون قائمًا بالحجة، ناصرًا للسنة، له ملكة رد المشتبهات إلى المحكمات، وقوة استنباط الحقائق والنظريات، من نصوص الفرقان وإرشاداته ودلالاته واقتضاءاته من قلب حاضر وفؤاد يقظان[3]. ويقول العظيم آبادي: إن المجدد للدين لابد أن يكون عالمًا بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصرًا للسنة، قامعًا للبدعة[4]، ويقول المودودى: من الخصائص التى لابد أن يتصف بها المجدد هى: الذهن الصافى، والبصر النفاذ، والفكر المستقيم بلا عوج، والقدرة النادرة على تبيين سبيل القصد بين الإفراط والتفريط، ومراعاة الاعتدال بينهما، والقوة على التفكير المجرد عن تأثير الأوضاع الراهنة، والعصبيات الراسخة على طول القرون، والشجاعة والجرأة على مزاحمة سير الزمان المنحرف[5]، ويقول فى تعداده لعمل المجدد: الاجتهاد فى الدين، والمراد به أن يفهم المجدد كليات الدين، ويتبين اتجاه الأوضاع المدنية والرقى العمرانى فى عصره، ويرسم طريقًا لإدخال التغيير والتعديل على صورة التمدن القديمة المتوارثة، يضمن للشريعة سلامة روحها وتحقيق مقاصدها، ويمكّن الإسلام من الإمامة العالمية فى رقى المدنية الصحيح.

ج ـ أن يشمل تجديده ميدانى الفكر والسلوك فى المجتمع: وذلك لأن تصحيح الانحراف من أخص المهمات التى ينبغى أن يقوم بها المجدد، ومعلوم أن الانحراف يطرأ على السلوك كما يطرأ على الفكر، بل إن غالب الانحرافات السلوكية منشؤها الخرافات الفكرية، فيقوم المجدد بتصويب الأفهام والأفكار، وتخليصها مما داخلها من شكوك وشبهات، ويحيى العلم

(١) عون المعبود (١١/ ٣٩٢).
(٢) التجديد فى الفكر الإسلامى صـ٤٦.
(٣) فيض القدير للمناوى (١/ ١٤).
(٤) عون المعبود (١١/ ٣١٩).
(٥) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودى صـ٥٢.

النافع، والفهم الصحيح للإسلام، ويبثه بين الناس، وينشره بالتدريس، وتأليف الكتب، وغير ذلك من الوسائل المتاحة، ثم يعمد إلى إصلاح سلوك الناس وتقويم أخلاقهم، وتزكية نفوسهم، وإبطال التقاليد المخالفة للشريعة، وإعلان الحرب على البدع والخرافات، والمنكرات المتفشية فى حياة الناس، ومواجهة الفساد بمختلف أشكاله وصوره، وخاصة الفاسد فى الحكم والإمارة، بهذا يكون المجدد قد جمع بين القول والفعل، والعلم والعمل، وقد أشار السلف إلى هذا الشرط بقولهم عن المجدد: إنه ينصر السنة ويقمع البدعة(١).

د ـ أن يعم نفعه أهل زمانه: وذلك لأن المجدِّد رجل مرحلة زمنية، تمتد قرنًا من الزمن، فلابد إذن من أن يكون منارة يستضىء بها الناس ويسترشدون بهداها، حتى مبعث المجدد الجديد على الأقل، وهذا يقتضى أن يعم علم المجدد ونفعه أهل عصره، وأن تترك جهوده الإصلاحية أثرًا بينًا فى فكر الناس وسلوكهم، وغالبًا ما يتم تحقيق ذلك عبر من يربيهم من تلامذة، وأصحاب أوفياء، يقومون بمواصلة مسيرته الإصلاحية، وينشرون كتبه وأفكاره، ويؤسسون مدارس فكرية تترسم خطاه فى الإصلاح والتجديد(٢).

٣ ـ قول رسول الله ﷺ: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها(٣)، والدروس والعبر والفوائد المستنبطة منه:

يعد هذا الحديث إحدى البشائر بحفظ الله لهذا الدين مهما تقادم الزمان، وبكفالته سبحانه إعزاز هذه الأمة ببعثة المجددين الربانيين الذين يحيونها بعد موات، ويوقظونها من سبات، بما يحملونه من الهدى والنور، وأن هذا الحديث يمنح المسلم طاقة من الأمل الأكيد، بأن المستقبل للإسلام مهما تكاثرت قوى الشر، وتعاظم طغيان أهل الباطل، وبأن النور سيسطع مهما احلولك الليل، واشتد الظلام، ونحن فى الوقت الحاضر بحاجة ماسّة لتأكيد هذا المعنى، ونشره بين الناس، حتى نقاوم موجات اليأس والقنوط التى عمَّت النفوس، فجعلتها تستسلم للذل والخضوع والخنوع، بحجة أننا فى آخر الزمان وأنه لا فائدة ولا رجاء من كل جهود الإصلاح التى تبذل، لأن الإسلام فى إدبار والكفر فى إقبال، وها قد ظهرت علامات الساعة الصغرى، ونحن فى انتظار العلامات الكبرى التى سيعقبها قيام

(١) عون المعبود (١١/ ٣٩١)، التجديد فى الفكر الإسلامى صـ ٤٨.
(٢) التجديد فى الفكر الإسلامى صـ ٤٨.
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٥١).

الساعة، وقد يستدل أصحاب هذا الاتجاه ببعض الأحاديث، ويفهمونها على غير الوجه المراد منها[١]. من ذلك استدلالهم بحديث أنس رضى الله عنه عند البخارى: «**لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شرٌ منه حتى تلقوا ربكم**»[٢]، وحديث «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[٣]. وينسون أنه لا يجوز أن نفهم هذه الأحاديث بمعزل عن الأحاديث الأخرى التى تحمل البشرى والأمل للأمة، مثل حديث: «**مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أو آخره**»[٤]، وفى قوم دون غيرهم، وفى زمن دون زمن، كما ذكر ابن القيم[٥]. ولذلك شهد التاريخ الإسلامى حقبًا من الظهور والإشراق كعهد عمر بن عبد العزيز[٦]، ونور الدين، وصلاح الدين، ويوسف بن تاشفين، ومحمد الفاتح، وغيرهم، وتجب الإشارة هنا إلى أن حديث التجديد الذى نحن بصدد شرحه، وكذا الأحاديث التى تحمل البشرى بعودة الإسلام إلى واجهة الحياة، وإن كانت أخبارًا يقينية صدرت عن الصادق المعصوم، ولابد أن تتحقق كما أخبر، إلا أنها تحمل فى مضمونها تكليفًا واستنهاضًا لعزمات المسلمين بوجوب السعى الدؤوب لتحقيق نصر الله لهذا الدين وإعزاز أهله كما هى سنة الله فى ترتيب المسببات على الأسباب[٧].

أ- فى قوله ﷺ: إن الله يبعث لهذه الأمة[٨]: إن هذا المبعوث لم يعد همه نفسه فقط، بل تجاوز ذلك ليعيش لهذه الأمة، فهو صاحب عزيمة وهمة، يعيش هموم أمته ويبذل قصارى جهده مواصلاً عمل النهار بالليل، لينقذ هذه الأمة من وهدتها، ويعيد لها ثقتها بدينها، ويردها إلى المنهج الصحيح، مصابرًا على ما يعترض سبيله من عقبات، ومغالبًا كل المشقات والتحديات، ليصل إلى رفعة هذه الأمة وعودة مجدها[٩].

ب- قوله: على رأس كل مائة سنة[١٠]: الرأس فى اللغة يمكن أن يراد به أول الشىء، كما أن يمكن أن يراد به آخره[١١]، وقد اختلف العلماء فى المراد من الرأس فى هذا الحديث، فقال بعضهم: المراد: أول المائة، وقال آخرون: المراد آخرها[١٢]، وهذا ما اختاره

(١) التجديد فى الفكر الإسلامى صـ٥٥.
(٢) البخارى رقم ٦٥٤١، ك الفتن.
(٣) مسلم، ك الإيمان رقم ٢٠٨.
(٤) سنن الترمذى رقم ٢٧٩٥ صحيح.
(٥) مدارج السالكين (٣/١٩٦).
(٦) التجديد فى الفكر الإسلامى صـ٥٦.
(٧) الاجتهاد للتجديد، عمر عبيد حسنة صـ٧.
(٨) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/١٥١).
(٩) التجديد فى الفكر الإسلامى صـ٥٧.
(١٠) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/١٥١).
(١١) عون المعبود (١١/٣٨٦).
(١٢) المصدر نفسه (١١/٣٨٦).

ابن حجر[(١)]، والطيبى[(٢)]، والعظيم آبادى[(٣)]، وقد احتج العظيم آبادى لاختياره بكون الإمامين الزهرى وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة المتقدمين والمتأخرين، اتفقوا على أن من المجددين على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعى رحمه الله، وقد توفى عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومائة، وله أربعون سنة، ومدة خلافته سنتان ونصف، وتوفى الشافعى سنة أربع ومائتين[(٤)]، ولا يمكن عد عمر بن عبد العزيز مجدد المائة الأولى اعتباره أولها لأنه لم يكن مولودًا أولها فضلاً عن أن يكون مجددها، وكذا الإمام الشافعى لم تكن ولادته بداية المائة الثانية فضلاً عن أن يكون مجددها[(٥)].

ج ـ هل يشترط لعد المجدد أن تقع وفاته على رأس المائة؟ يشترط بعض العلماء لاستحقاق المجدد هذا الوصف أن تقع وفاته على رأس القرن، إلا أن هذا الرأى مرجوح لأن كلمة (البعث) فى الحديث تدل على الإرسال والإظهار والموت قبض وزوال، فالمقصود من الحديث: أن المجدد من تأتى عليه نهاية القرن وقد ظهرت أعماله التجديدية، واشتهر بالصلاح وعمّ نفعه، ولا يشترط أن تقع وفاته قبيل نهاية القرن أو أن يبقى حيًا حتى يدخل عليه القرن التالى[(٦)].

د ـ هل مجدد القرن واحد أو متعدد؟ أثار قوله ﷺ: «**من يجدد لها دينها**» سؤالاً فى الماضى والحاضر، هو: هل المقصود بلفظة (من) الواردة فى الحديث فرد واحد من أفراد الأمة وأفذاذها يحيى الله بها دينها، أم المراد بها ما هو أوسع من ذلك فيشمل الأفراد والجماعات، وذهب كثير من العلماء إلى أن المجدد فرد واحد، ونسب السيوطى هذا الرأى إلى الجمهور فقال فى أرجوزته عن المجددين:

وكونه فردًا هو المشهور ... قد نطق الحديث والجمهور[(٧)]

وذهب فريق آخر من العلماء إلى أن كلمة (من) فى الحديث للعموم فى أصل وضعها اللغوى[(٨)]، فتشمل الواحد والجماعة على حد سواء[(٩)]، ومن هؤلاء العلماء ابن حجر وابن الأثير والذهبى وابن كثير والمناوى والعظيم آبادى[(١٠)]، ويتبين من خلال البحث أن حمل

(١) فتح البارى (١٣/ ٢٩٥).

(٢) عون المعبود (١١/ ٣٨٩).

(٣)، (٤) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٧).

(٥) التجديد فى الفكر الإسلامى صـ ٥٨.

(٦) التجديد فى الفكر الإسلامى ص٦١.

(٧) عون المعبود (١١/ ٣٩٤).

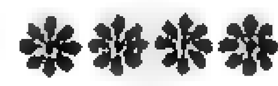
(٨)، (٩) التجديد فى الفكر الإسلامى صـ ٦١.

(١٠) المصدر نفسه صـ٦٢، ٦٣.

لفظة (من) فى الحديث العموم أولى، لأن التاريخ والواقع يثبت وجود أكثر من مجدد على رأس كل قرن من القرون الخوالى، ولأن مهمة التجديد مهمة ضخمة واسعة لكونها لا تقتصر على جانب من جوانب الدين، ولأن رقعة الأمة الإسلامية تمتد على مساحة شاسعة يصعب معها على فرد بل مجموعة أفراد أن يقوموا بعملية التجديد الشامل المطلق(١).

هـ ـ المجدد هو دين الأمة وليس الدين نفسه:

يلاحظ المتأمل فى قوله ﷺ: «**من يجدد لها دينها**» أنه أضاف الدين إلى الأمة ولم يقل يجدد لها الدين، وذلك لأن الدين بمعنى المنهج الإلهى الذى بعث الله به رسوله ﷺ وما اشتمل عليه من عقائد وعبادات وأخلاق وشرائع تنظم علاقة العبد بربه وعلاقته بغيره من بنى جنسه، ثابت كما أنزله الله لا يقبل التغيير ولا التجديد، وأما دين الأمة بمعنى علاقة الأمة بالدين ومدى تمسكها وتخلقها به وترجمتها له واقعًا ملموسًا على الأرض، فهو المعنى القابل للتجديد ليعيد الناس إلى المستوى الذى ينبغى أن يكونوا عليه بعلاقتهم مع الدين(٢).



(١) التجديد فى الفكر الإسلامى صـ٦٥.

(٢) من أجل صحوة إسلامية للقرضاوى صـ ٢٦ ـ ٢٧.

المبحث الثالث

اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة

اهتم عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة وحرص على تعلمها وتعليمها وبثها بين الناس، وتناثرت أقواله فى عقائد أهل السنة بين المراجع والمصادر الإسلامية من عقائد وتفسير وحديث وفقه وغيرها، وقام الأستاذ حياة بن محمد بن جبريل بجمع الكثير منها، ونال بهذا الجهد العلمى رسالة الماجستير، والكثير ممن كتب عن حياة عمر بن عبد العزيز لم يسلط الأضواء على هذا البعد المهم فى حياته، والمتعلق بحرصه على توعية الناس وتعليمه المعتقد الصحيح الذى جاء ذكره فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن أهم الجوانب العقائدية التى تحدث فيها عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

أولاً: توحيد الألوهية:

توحيد الألوهية أساس دين الإسلام، بل هو أساس كل دين سماوى، به أرسل جميع الرسل وأنزلت عليهم جميع الكتب، وهو الذى دعا إليه كل رسول من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ، بل هو الغاية من خلق الجن والإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وكان سلف هذا الأمة -رحمهم الله- يهتمون بهذا النوع من التوحيد، وممن كان له إسهام فى هذه المسألة عمر بن عبد العزيز[١]، وقبل بيان ما أثر عنه فمن الأهمية بمكان بيان المقصود من توحيد الألوهية عند إطلاقه، فعرف بأنه: استحقاق الله سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له[٢]. وعرفه بعض الباحثين بأنه: توحيد الله بأفعال العباد، وهو المعبر عنه بتوحيد الطلب والقصد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، ومحبته وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرهبة والرغبة منه وإليه وحده، والتقرب إليه بسائر العبادات البدنية والمالية دون إشراك أحد أو شيء من خلقه[٣]، وقد ورد عن عمر ابن عبد العزيز آثار فى الدعاء والتبرك والخوف والرجاء والتوكل والشكر:

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ١٩٩).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٩).

(٣) رسالة توحيد الألوهية أساس الإسلام للباحث حامد عبد القادر الأحمدى ص٧، مطبوع على الآلة الكاتبة نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر فى العقيدة (١/ ٢٠٠).

١ـ الدعاء:

أ ـ مر عمر بن عبد العزيز برجل في يده حصاة يلعب بها وهو يقول: اللهم زوجني من الحور العين، فقام إليه فقال: بئس الخاطب أنت، ألا ألقيت الحصاة، وأخلصت إلى الله الدعاء[١]. وفي هذا الأثر بيَّن عمر بن عبد العزيز أن من شروط الدعاء الإخلاص وحضور القلب، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] وقال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»[٢].

ب ـ قال عمر بن عبد العزيز: اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك وهو الكفر، فاغفر لي ما بينهما[٣]. فهنا توسل عمر بن عبد العزيز بالطاعة والتوحيد وطلب الغفران من الله تعالى، ولا شك أن التوسل بالأعمال الصالحة مشروع كحديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار[٤]، فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب الله دعاءهم ويفرج كربتهم، وقد توسل المؤمنون بأعمالهم الصالحة من الإيمان وقدموه قبل الدعاء قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فإنهم قدموا الإيمان قبل الدعاء وأمثال ذلك كثير[٥].

ج ـ حصلت زلزلة بالشام، فكتب عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن هذا الرجف شيء يعاتب الله به العباد، وقد كتب إلى أهل الأمصار أن يخرجوا يوم كذا من شهر كذا، فمن كان عنده شيء فليتصدق[٦]. قال الله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقولوا كما قال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقولوا كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقولوا كما قال يونس عليه السلام: ﴿لاَّ

(١) الحلية (٥/ ٢٨٧)، سيرة عمر لابن الجوزي صـ٨٤.
(٢) سنن الترمذي (٥/ ٤٨٣)، صحيح سنن الألباني رقم ٢٧٦٦.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن القيم الجوزية صـ٢٤٢ .
(٤) مسلم رقم ٢٧٤٣ .
(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٢١٩) .
(٦) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٦٤، الحلية (٥/ ٣٠٤، ٣٠٥) .

إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فقد أمر رحمه الله الرعية بالالتجاء إلى الله تعالى والتصدق والاستغفار والخروج إلى المصلى عندما حصلت الزلزلة بالشام[١].

د ـ قال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز، فكثر بكاؤه ومسألته ربه الموت، فقلت: لم تسأل الموت، وقد صنع الله على يديك خيراً كثيراً؟ أحيا بك سننًا، وأمات بك بدعًا، قال: أفلا أكون مثل العبد الصالح حين أقر الله عينه وجمع له أمره قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. وقد طلب الدعاء له بالموت على الإيمان ودعا به اقتداء بالصالحين، فهذا الدعاء من سنن المرسلين وهو من شعار الصالحين، وقد يكون أيضًا دعا به ـ رحمه الله ـ خوفًا من الفتنة في الدين لاسيما عند وفاة أعوانه ابنه عبد الملك ومولاه مزاحم وأخيه سهل، كما جاءت في بعض الروايات[٢].

٢ـ الشكر: عن يحيى بن سعيد قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قال: ذكر النعم شكرها[٣]، وقال عمر بن عبد العزيز: شيدوا نعم الله عز وجل بالشكر لله تعالى[٤]، وكتب إلى بعض عماله فقال: .. أوصيك بتقوى الله وأحثك على الشكر فيما عندك من نعمته وآتاك في كرامته، فإن نعمه يمدها شكره ويقطعها كفره[٥]. وحث عمر بن عبد العزيز على شكر الخالق تبارك وتعالى على نعمه الكثيرة وآلائه الجسيمة، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال عز وجل: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. والشكر يستلزم المزيد قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وما أثر عن عمر ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا الجانب يبين منهج السلف في التعامل مع النعم التي ينعمها الخالق على عباده[٦].

٣ـ التوكل: قال الحكم بن عمر: كان لعمر بن عبد العزيز ثلاثمائة حرسيّ وثلاثمائة شرطي، فشهدته يقول لحرسه: إن لي عندكم بالقَدَر حاجزًا، وبالأجل حارسًا، من أقام

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٢٢٠).
(٢) العقد الفريد (٤/ ٣٩٦)، الآثار الواردة (١/ ٢٢٤).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٨/ ٢٤٠).
(٤) كتاب الشكر لله تعالى لابن أبي الدنيا صـ ١٩.
(٥) ذم الدنيا، لابن أبي الدنيا صـ ٨١.
(٦) الآثار الواردة (١/ ٢٣٠).

منكم فله عشرة دنانير ومن شاء فليلحق بأهله[1]. ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة نظر مولاه مزاحم إلى القمر فإذا القمر فى الدبران[2]، قال: فكرهت أن أقول ذلك له فقلت: ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه فى هذه الليلة، فنظر عمر فإذا هو بالدبران فقال: كأنك أردت أن تعلمنى أن القمر بالدبران، يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا قمر، ولكننا نخرج بالله الواحد القهار[3]. يظهر حرص عمر على التوكل مع الأخذ بالأسباب المشروعة، والتوكل هو الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب، وهو أصل من أصول التوحيد، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقال عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. والتوكل من أعظم الأسباب التى يحصل بها المطلوب، ويدفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل، عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها[4].

٤ـ فى الخوف والرجاء: عن يزيد بن عياض بن جعدية، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سليمان بن أبى كريمة: إن أحق العباد بإجلال الله والخشية منه من ابتلاه بمثل ما ابتلانى به، ولا أحد أشد حسابًا ولا أهون على الله إن عصاه منى، فقد ضاق بما أنا فيه ذرعى، وخفت أن تكون منزلتى التى أنا بها هلاكًا إلا أن يتداركنى الله منه برحمة، وقد بلغنى أنك تريد الخروج فى سبيل الله، فأحب يا أخى إذا أخذت موقفك أن تدعو الله أن يرزقنى الشهادة، فإن حالى شديدة وخطرى عظيم، فأسأل الله الذى ابتلانى بما ابتلانى به أن يرحمنى ويعفو عنى[5]. وقال ربيع بن سبرة لعمر بن عبد العزيز ـ وقد هلك ابنه وأخوه ومولاه مزاحم فى أيام ـ: يا أمير المؤمنين ما رأيت رجلاً أصيب فى أيام متوالية بأعظم من مصيبتك، ما رأيت مثل ابنك ابنًا، ولا مثل أخيك أخًا، ولا مثل مولاك مولى، قال: فنكس ساعة ثم قال لى: كيف قلت يا ربيع؟ فأعدتها عليه. فقال: لا والذى قضى عليهم الموت ما أحب أن شيئًا من ذلك كان لم يكن من الذى أرجو من الله فيهم[6]، وعن قتادة أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ولى العهد من بعده: بسم الله الرحمن الرحيم.. من عبد

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٦).
(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٣٥).
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٣٢.
(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥).
(٥) الطبقات (٥/ ٣٩٤، ٣٩٥)، الآثار الواردة (١/ ٢٤٠).
(٦) المعرفة والتاريخ للفسوى (١/ ٦١٠)، الآثار الواردة (١/ ٢٤١).

الله عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك: السلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد، فإنى كتبت إليك وأنا دنف[1] من وجعى، وقد علمتنى أنى مسئول عما وليت يحاسبنى عليه مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفى عليه من عملى شيئًا يقول: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] فإن يرض عنى الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل، وإن سخط على فيا ويح نفسى إلى ما أصير، أسأل الله الذى لا إله إلا هو أن يجيرنى من النار برحمته، وأن يمن علىّ برضوانه والجنة[2]. ومن كلام عمر يتبين لنا جمعه بين الخوف والرجاء ولا شك أن الجمع بين الخوف والرجاء هو من عقيدة السلف الصالح، وهو توسط المؤمن بين الأمن من مكر الله واليأس من روح الله، فالسلف كانوا يخافون ربهم، ويرجون رحمته[3]؛ وهم سائرون على ما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الأسراء: ٥٧]. وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

ثانيًا: معتقد عمر بن عبد العزيز فى أسماء الله الحسنى:

أسماء الله الحسنى: هى كلماته الدالة على ذاته المتضمنة إثبات صفات الكمال له بلا مماثلة، وتنزيهه عن صفات النقص والعيب[4]. والأسماء الحسنى المعروفة هى التى يُدعى الله بها، وهى التى جاءت فى الكتاب والسنة، وهى تقتضى المدح والثناء بنفسها[5]، ولا شك أن كل قارئ للقرآن الكريم، وللأحاديث النبوية يجد أن الله تبارك وتعالى فى كتابه قد سمى نفسه بأسماء، وأن رسوله ﷺ قد سمى ربه بأسماء، ومن المعلوم أن السلف الصالح يثبتون لله تعالى من الأسماء ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسول الله ﷺ، لأنه لا أحد أعلم بالله من الله، ولا أحد أعلم بالله بعد الله من رسوله ﷺ. وأسماء الله تعالى كلها حسنى، وهى أعلام، وأوصاف، وهى أسماؤه حقيقة دالة على ذاته وصفاته وهى توقيفية، وغير محصورة بعدد معين، وغير مخلوقة، ولا يجوز الإلحاد فيها[6]، ومن خلال

---

(١) دنف الرجل من مرضه: براه المرض حتى أشفى على الهلاك .

(٢) سيرة عمر لابن الجوزى صـ٢٤٤ .

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٢٤٥).

(٤) منهج أهل السنة ومنهج الأشاعرة فى توحيد الله، خالد عبد اللطيف (٢/ ٣٩١) .

(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٧٦) .

(٦) المصدر نفسه (١/ ٢٨٧).

رسائل وخطب عمـر بن عبد العزيز نوضح بعض أسماء الله تعـالى التى ذكرها فى رسائله وخطبه، ومنهج عمر بن عبد العزيز هو منهج الحق الذى دل عليه الكتاب والسنة، وقد قعَّد أهل السنة قواعد فى أسمـاء الله تعالى يمكن استنتاج بعضها من كلام عـمر بن عبد العزيز رحمه الله، فمن هذه القواعد ما يلى:

- أن أسماء الله تعالى أزلـية، قال عمر بن عبد العـزيز: . . ولقد أعظم بالله الجهل من زعم أن العلم كان بعد الخلق[1]، بل لم يزل الله وحده بكل شىء عليمًا، وعلى كل شىء شهيدًا قبل أن يخلق شيئًا وبعد ما خلق. فبين عمر أن الله له الأسماء الحسنى وهى العليم، والشهيد أزلاً، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة[2].

- أن أسـماء الله تعـالى توقـيفـية، وهذا مـنهج أهل السنة والجمـاعـة، وهو ما تبـين بالاستـقراء من كـلامه حيـث لم يذكر حسب إطـلاعى إلا أسماء الله الواردة فـى الكتاب والسنة، وهو الحق، إذ لا يجـوز أن يسمى الله إلا بما سمى به نفـسه فى كـتابه الكريم أو على لسان نبيه ﷺ[3].

- أن أسماء اللـه تعالى أعلام وأوصاف، أعلام بـاعتبار دلالتهـا على الذات، وأوصاف باعتبـار ما دلت عليه من المعانى، وهى بالاعتـبار الأول - أى أعلام - مترادفة، وبالاعـتبار الثانى - أى أنها أوصاف - متباينة لدلالة كل واحـد منها على معناه الخاص، فالحى الرحمن الرحيم كلها أسماء لمسمى واحـد لكن معنى الحى غير معنى الرحمن هكذا[4]. وقد خالف معـتقد السـلف الصالح فى توحيـد الأسمـاء الحسنى بعض الفرق المنـتسبـة إلى الإسلام، فالجهـمية[5] أنكرت الأسمـاء الحسنى وذلك لظنهم أن التـوحيد نفى محض، وأن إثبات الأسماء الحـسنى إثبات لأعراض حـادثة ولم يثبتوا من الأسـماء الحسنى غيـر اسم (القادر والخالق) لأن الجهم لا يسـمى أحدًا من المخلوقين قادرًا لنفـيه استطاعة العـباد، ولا يسمى أحدًا خالـقًا غير الله تعـالى، لأن عنده أن كل صفة أو اسم يجوز أن يسـمى أو يتصف به غير الله فلا يجوز إطلاقه على الله تعالى[6]، وعلى هذا يجب على المسلم الوقوف عند ما ثبت، وترك الابتداع، والتـحريف والتأويل المفـضى إلى الإلحاد[7]، فإن الله تعـالى قال:

---

(1) الحلية (٥/٣٤٨)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٠٤).
(2) الآثار الواردة (١/ ٣٠٥).
(3) المصدر (١/ ٣٠٥).
(4) القواعد المثلى صـ ٨.
(5) الجهمية: سيأتى الحديث عنها فى محاورات عمر لأهل الفرق.
(6) منهاج السنة (٢/ ٥٢٦)، الآثار الواردة (١/ ٣٠٦).
(7) الآثار الواردة (١/ ٣٠٦).

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقد وردت فى رسائل عمر بن عبد العزيز وخطبه كثير من أسماء الله الحسنى، منها: الله عز وجل، والرب، والرحمن والرحيم، الملك والخبير، والكريم، والحى، والرقيب، والشهيد والواحد القهار، والعلى العظيم، والعفو الغفور، والعزيز الحكيم، والوارث، والخالق، والعليم(١)، ونتحدث عن بعض هذه الأسماء.

١- فى اسمه تعالى «الرب»: كان عمر يقول: يا رب انفعنى بعقلى(٢). والرب من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]. ومعنى الرب: المصلح للشىء. ورب الشىء: مالكه، فالله عز وجل مالك العباد ومصلحهم ومصلح شئونهم(٣). ومصدر الرب الربوبية، وكل من ملك شيئًا فهو ربه، يقال: هذا رب الدار، ورب الصنيعة ولا يقال: الرب معرفًا بالألف واللام مطلقًا إلا لله عز وجل لأنه مالك كل شىء(٤).

٢- فى اسمه تعالى «الحى»: كان لعمر بن عبد العزيز صديق، فأخبر أنه قد مات فجاء إلى أهله يعزيهم، فصرخوا فى وجهه، فقال لهم عمر: إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم، وإن الذى يرزقكم حى لا يموت(٥). فالحى اسم من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وحياته تعالى لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال، الحياة المستلزمة لكمال الصفات فى العلم والقدرة والسمع والبصر، وغيرها(٦).

٣- فى اسميه «الواحد القهار»: قال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم: يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا قمر، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار(٧). فمن أسماء الله الحسنى الواحد القهار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، والواحد القهار أى: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله

(١) الآثار الواردة (١/ ٢٧٩ - ٣٠٦).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٦٨، الآثار الواردة (١/ ٢٨١).
(٣) الآثار الواردة (١/ ٢٨١).
(٤) اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجى صـ٣٢، ٣٣، الآثار الواردة (١/ ٢٨١).
(٥) الحلية (٥/ ٣٣٠)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٨٨).
(٦) اشتقاق أسماء الله الحسنى صـ١٠٢.
(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٣٢.

العظيمـة وقهره لكل العوالم، فكلهـا تحت تصرفه وتدبيره، فـلا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه(١).

٤- في اسميه تعالى «العلي العظيم»: كتب عمـر بن عبد العزيز إلى أمـراء الأجناد رسالة واختتمهـا بقوله: . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم(٢)، فاسما العلي العظيم من الأسماء الحسنى، قال تعالى: ﴿**وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وهو العلي بذاته فوق عـرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمـال صفاته(٣)، والعظيم: الذي تتضاءل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة(٤). فهذه بعض أسماء الله الحسنى التي جاءت في الرسائل أو الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز وهي للمثال وليست للحصر.

ثالثًا: معتقد عمر بن عبد العزيز في صفات الله تعالى:

صفـات الله عز وجل هي نعـوت الكمال القـائمة بالذات الإلهـية، كالعلـم والحكمة، والسمع، والبـصر، واليدين والوجه، وغـيرها مما أخبر الله تعـالى بها عن نفسه في كـتابه وعلى لسانه نبيه ﷺ، وتوحيد الله عز وجل في صفاته هو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفـه به نبيه ﷺ نفيًا وإثباتًا، فـيثبت ما أثبته لنفســه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه(٥). فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفســه، وبما وصفته به رسله نفيًا وإثباتًا فـيثبت ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عــن نفسه، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبـات ما أثبته من الصفات من غير تكيـيف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه، مع إثبات مـا أثبته من الصفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته، فـإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته، كـما قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**﴾ [فصلت: ٤٠]. فطريقـتهم تتضـمن إثبات الأسماء والصـفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثبـاتًا بلا تشبيـه، وتنزيهًا بلا تعطيل، كمـا قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ رد للتشـبيه والتمثـيل، وفي قوله: ﴿**وَهُوَ**

---

(١) تفسير السعدي صـ ٤٢٨ . (٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٨١ .

(٣)، (٤) تفسير السعدي صـ١١٠ .

(٥) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (٣/ ٨٧٤) .

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد للإلحاد والتعطيل[1]. وقد جاءت الآثار عن عمر بن عبد العزيز فى باب الصفات، فأثبت ما أثبته الله لنفسه، وتحدث عن إثبات صفة النفس، والوجه، والعلم، والكبرياء، والقدرة، والعلو، والمعية والقرب، وصفة المشيئة والإرادة، وصفة الغضب، والرضا، وصفة الرحمة[2]، وإليك الحديث عن بعضها:

١ـ صفة النفس: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن رسالة فقال: أما بعد، فإن الله عز وجل جعل الإسلام الذي رضى به لنفسه، ومن كرم عليه من خلقه، لا يقبل دينًا غيره[3]. وهذا الأثر يبين إثبات صفة النفس وهو ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقال ﷺ فى ثنائه على ربه: «.. **لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»[4]، فنفسه تعالى هى ذاته المقدسة، كما تبين ذلك من الكتاب والسنة[5]. فنفسه تعالى هى ذاته المتصفة بصفاته، وليس المراد بها ذاتًا منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة الذات[6].

٢ـ صفة الوجه لله تعالى: كتب عمر إلى الخوارج رسالة وفيها:.. وإنى أقسم لكم بالله لو كنتم أبكارى من ولدى.. لدفقت دماءكم ألتمس بذلك وجه الله والدار الآخرة[7]. صفة الوجه من الصفات الخبرية الذاتية دل عليها الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢]. وكان رسول الله ﷺ يسأل ربه لذة النظر إلى وجهه يقول: «**وأسألك لذة النظر إلى وجهك**»[8].

٣ـ صفة القدرة لله تعالى: كتب عمر إلى بعض عماله: أما بعد، فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم، فاذكر قدرة الله عليك فى نفاذ ما يأتى إليهم وبقاء ما يأتى إليك[9]. وقال فى رسالته فى الرد على القدرية وفيها:.. فالله أعز فى قدرته وأمنع من أن يملك أحدًا إبطال علمه[10]. يتبين من خلال الأثرين السابقين إثبات عمر بن عبد العزيز صفة

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٨).

(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/٣١٣ - ٣٥٩).

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٨٦، الآثار الواردة (١/٣١٣).

(٤) مسلم رقم ٤٨٦.

(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/٣١٤).

(٦) الفتاوى نقلاً عن الآثار الواردة (١/٣١٤).

(٧) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٧٥.

(٨) صححه الألبانى فى صحيح سنن النسائى (١/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٩) سيرة عمر صـ١٢٥ لابن الجوزى.

(١٠) الحلية (٥/٣٤٧).

القدرة لله تبارك وتعالى، وهى من الصفات التى دل عليها السمع والعقل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]. ومن السنة حديث أبى مسعود البدرى لما ضرب غلامه قال له النبى ﷺ: «اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»(١).

هذه بعض الآثار التى تدل على إثبات عمر بن عبد العزيز لصفات الله تعالى على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

رابعًا: نهيه عن اتخاذ القبور مساجد:

عن إسماعيل بن أبى حكيم أنه سمع عمر بن عبد العزيز يقول: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقى -أو قال: لا يجتمع- دينان بأرض العرب»(٢)، حدثنا حصين أن عمر بن عبد العزيز نهى أن يبنى القبر بآجر وأوصى بذلك(٣). والحديث الذى أرسله عمر ـ رحمه الله ـ يبين تحذير رسول الله ﷺ لأمته من اتخاذ القبور مساجد، وبين أن ذلك فعل اليهود والنصارى، والمسلم منهى عن الاقتداء بهؤلاء الضلال المغضوب عليهم بنص القرآن، ولا شك أن اتخاذ القبور مساجد والبناء عليها وتجصيصها مما أجمع على منعه سلف هذه الأمة، كما مر عن عمر بن عبد العزيز حيث نهى أن يبنى القبر بآجر وأوصى أن لا يفعل ذلك بقبر(٤)، ولما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء المسجد النبوى حين كان عمر عاملاً له على المدينة وإدخال حجرات الرسول ﷺ ومنها حجرة عائشة -رضى الله عنها- التى فيها قبر الرسول ﷺ وصاحبيه كان عمر بن عبد العزيز هو الذى جعل مؤخر القبر محدداً بركن، لئلا يستقبل قبر النبى ﷺ فيصلى إليه، جعل ذلك حين انهدم جدار البيت فبناه على هذا، فصار للبيت خمسة أركان(٥)، والمقصود أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى قد سد منافذ الشرك بعلمه وحكمته كما تبين من نقل من شاهدوا بناء المسجد النبوى فى عهد ولايته على المدينة النبوية، ولا شك أن نهى النبى ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً كان خوفًا من المبالغة فى تعظيمه والافتتان به، بل ربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية(٦). وقد منع

(١) مسلم رقم ١٦٥٩.
(٢) البخارى رقم ١٣٣٠، مصنف عبد الرزاق (١٠/٣٥٩ ، ٣٦٠).
(٣) سيرة عمر لابن الجوزى صـ٣٤٦.
(٤) الآثار الواردة عن عمر فى العقيدة (١/ ٢٦٤).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٦٥).
(٦) صحيح مسلم بشرح النووى (٢/ ١٨٥).

عمر من اتخاذ البناء لقبره وأوصى بذلك مع أنه كان فى الزمن الذى فيه العقيدة صافية نقية إذا قورن ذلك الزمان بما بعده، ولكن لفهمه الصحيح لمقاصد السنة، ولاتباعه المنهج الصحيح منهج النبى ﷺ وأصحابه وفقه الله تعالى للوصية بأن لا يبنى على قبره خشية أن يتخذ مسجدًا، فحسم الموقف قبل أن يستفحل، ولا شك أن ما ذهب إليه عمر هو ما يدل عليه الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: نهى النبى ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه(١).

خامسًا: مفهوم الإيمان عند عمر بن عبد العزيز:

قال عدى بن عدى: كتب إلىّ عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص(٢)، وعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن عرى الدين وقوائم الإسلام الإيمان بالله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فصلوا الصلاة لوقتها(٣).

بيَّن عمر بن عبد العزيز أن للإيمان فرائض أى: أعمالاً مفروضة كالصلاة والحج والصوم، وشرائع أى: عقائد دينية كالإيمان بالله وملائكته، وحدودًا أى: منهيات ممنوعة كشرب الخمر والزنا، وسننًا أى مندوبات كإماطة الأذى عن الطريق، وغيرها من المندوبات، فهذه الأمور كلها من الإيمان(٤)، وهذا المأثور عن عمر هو الحق الذى يدل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، فالإيمان عند أهل الحق: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان(٥)، فمن الأدلة الدالة على أن الإيمان قول باللسان قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة:١٣٦]. وقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على الله»(٦). ومن الأدلة على أن أعمال القلوب من الإيمان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ....﴾ [الأنفال:٣]. والوجل من أعمال القلوب، وقد سمى فى الآية إيمانًا، ومن الأدلة على أن أعمال الجوارح من الإيمان قوله تعالى: ﴿...وَمَا كَانَ اللَّهُ

(١) مسلم رقم ٩٧٠ .
(٢) فتح البارى على صحيح البخارى (١/ ٤٥) .
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٧٢، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٥٤٣) .
(٤) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٥٤٥) .
(٥) المصدر نفسه (١/ ٥٤٤) .
(٦) مسلم رقم ٣٢ .

ليضيع إيمانكم....﴾ [البقرة:١٤٣]. يبين ذلك سبب نزول الآيـة حين سُئل عليه السلام: أرأيت الذين ماتوا وهـم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنـزل الله عز وجل ﴿ ...**وما كان الله ليضيع إيمانكم....﴾** . وفى هذا دلالة على أنه تعـالى سـمى صلاتهم إلى بيت المقـدس إيمانًا، فـإذا ثبت ذلك فى الصلاة ثبت ذلك فى سـائر الطاعات[1]، وكتب عمـر بن عبد العزيز رسـالة وفيها. أسـأل الله برحمته وسـعة فضله أن يزيد المهـتدى هدى، وأن يرجع بالمسىء التوبة فى عافـيته[2]، وفى قوله عند الحديث عن الإيمان «...**فمن استكملـهن فقد استكمل الإيمـان، ومن لم يستكملهن لم يسـتكمل الإيمان**» [3]. فهذه الآثار تبـين أن الإيمان يزيد وينقص، وهذا مـا دل عليه الكتاب والسـنة والآثار عن السلف الصالح. قـال تعالى: **﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾** [الأنفال:٢]. وقـال رسول اللهﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**» [4]، ومن أقوال سلف الأمة قول البخـارى: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدًا يختلف فى أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص[5].

سادسًا: الإيمان باليوم الآخر:

الحديث عن الإيمان باليوم الآخر يشتمل على أمور كثيرة، فكل ما أخبر به الله ورسوله مما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيـمه، وما يكون من البعث والنشور، وما يكون فى يوم القيامة من ثواب وعقاب وجنة ونار.. إلخ، وقـد تحدث عمر بن عبد العزيز عن هذه الأمور منها:

١ـ عذاب القبر ونعيمه: قال عمر بن عبد العزيز لرجل: يا فلان قرأت البارحة سورة فيها زيارة**﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾** [التكاثر: ١، ٢]. فكم عـسى يلبث عند المزور حتى ينكفى إمـا إلى جنة وإما إلى نار[6]. وخطب مـرة فقال: أيهـا الناس ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين وفى بيوت الميتين وفى دور الظاعنين، جيرانًا كانوا معكم بالأمس أصبـحوا فى دور خـامدين، بين آمن روحه إلى يـوم القيامـة وبين معـذب روحه إلى يوم القيامة[7]. وخطب مرة أخرى بخناصرة فقال: .. فى كل يوم تشيعون غاديًا إلى الله ورائحًا

---

(١) الاعتقاد للبيهقى صـ٩٥، ٩٦، الآثار الواردة (١/ ٥٤٥) .

(٢) الطبقات (٦/ ٣١٣)، الآثار الواردة (١/ ٥٥٠) . (٣) فتح البارى (١/ ٤٥) .

(٤) الإيمان لابن أبى شيبة صـ٥، وصححه الألبانى، الآثار الواردة عن عمر (١/ ٥٥٣) .

(٥) البخارى مع الفتح (١/ ٤٧).

(٦) الحلية (٥/ ٣١٧)، الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/ ٣٣٦). (٧) سيرة عمر صـ ٢٥٩ ، ٢٦٠ لابن الجوزى.

قد قضــى نحبه وانقضى أجله ثم تغـيبونه فى صدع من الأرض غـير موسد ولا ممـهد، قد فارق الأحباب وخلع الأسباب، وواجه الحساب وسكن التراب مرتهنًا بعمله، غنيًا عما ترك فقيرًا إلى ما قدم[1]، وما قاله عمر بن عبد العزيز يدل على إثبات عذاب القبر ونعيمه وهو معتقد أهل السنة والجماعـة، وبهذا دلت النصوص من الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فقـد ثبت فى الصحيح أنها نزلت فى عذاب القبر[2]. وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٥].

٢ـ الإيمان بالمعاد ونزول الرب لفصل القضاء: خطب عمر بن عبد العزيز بخناصرة فقال: أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معادًا ينزل الله تبارك وتعالى للحكم فيه والفصل بينكم[3]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله، أما بعد: فكأن العباد قد عادوا إلى الله؛ فينبئهم بما عملوا، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بـالحسنى[4]، وعن جريـر بن حازم قال: قـرأت كتـاب عمـر بن عبد العـزيز إلى عدى: . . . اعلم أن أحـدًا لا يستطع إنفاذ قضـايا ما بين الناس حتى لا يبـقى منها شيء، لابد أن تتأخر قضايا ليوم الحساب[5]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطأة، أما بعد: فإنى أذكرك ليلة تمخض بالسـاعة وصباحها القيامة، فيـالها من ليلة، ويا له من صباح كانا على الكافرين عـسيرين[6]. وكتب إلى بعض الأجناد: أما بعـد، أوصيكم بتقوى الله ولزوم طاعته. . فـمن كان راغبًا فى الجنة أو هاربًا من النار، فـالآن فى هذه الأيام الخالية، والتوبة مقبـولة، والذنب مغفور قبل نفاد الأجل وانقضـاء المدة وفراغ الله عز وجل للثقلين ليدينهم بأعـمالهم فى موطن لا تقبل فـيه فدية، ولا تنفع فيه الحـيلة، تبرز فيه الخـفيات، وتبطل فيـه الشفاعات، يرده الناس جمـيعًا بأعمـالهم، ويتفرقون منه أشـتاتًا إلى منازلهم، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله عز وجل، وويل يومئذ لمن عصى الله عز وجل[7]. إن الإيمان بالمعاد والبعث والنشور، وأن الله تبارك وتعـالى يجمع كل الخلائق وبيان الحكمة من ذلك، وبيان شدة هذا الـيوم على الكفار هو مدلول الآثار الواردة عن عـمر بن عبد العـزيز رحمه الله تعالـى هنا، ولا شك أن الإيمان بالمعاد مـن أهم العقائد التى تميـز بها الإسـلام، وقد

(١) سيرة عمر صـ٢٥٩، ٢٦٠ لابن الجوزى .
(٢) الروح لابن القيم صـ١٤٤ .
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٤٢ .
(٤) ذم الدنيا صـ ٨١ لابن أبى الدنيا .
(٥) فى الزهد، هناد السرى (١/ ٢٩٩، ٣٠٠)، الآثار الواردة (١/ ٤٤٨) .
(٦) سيرة عمر لابن الجوزى صـ١١٥، أبو حفص الملاء (١/ ٢٠٦) .
(٧) سيرة عمر لابن الجوزى صـ١١٥، ١١٦، أبو حفص الملاء (١/ ٢٦٦) .

تحدث القرآن الكريم عن الإيمان بالمعاد، إما تصريحًا وتأكيدًا، أو تلميحًا وإشارة، وقد بين الله تبارك فى كثير من آيات الكتاب وجوب الإيمان بالبعث وبين فى بعضها الرد على من ينكر حشر الأجساد بحجج عقلية لا يمكن للمنكرين إلا الإذعان لها أو المكابرة(1)، قال تعالى ﴿ **اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [الروم: ١١] وقال عز وجل: ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١٦] وقال فى منكرى البعث: ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩]. وقال تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ** ﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠]. كما ثبت فى الأحاديث الإيمان بالبعث منها ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**قال الله: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياى فقوله: لى ولد فسبحانى أن أتخذ صاحبة ولا ولدًا**»(2). ومضمون هذه النصوص هو المأثور عن عمر(3).

٣ـ الميزان: قال عمر بن عبد العزيز: أو ما رأيتم حالات الميت؟ وجهه مفقود، وذكره منسى، وبابه مهجور، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ ولم يعمر الديار. واتقوا يومًا لا يخفى فيه مثقال ذرة فى الموازين(4). قال: .. أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسى؛ فتخسر صفقتى وتظهر عولتى، وتبدو مسكنتى فى يوم يبدو فيه الغنى والفقر، والموازين منصوبة(5).

وعن بجدل الشامى عن أبيه وكان صاحبًا لعمر بن عبد العزيز قال: رأيت عمر بن عبد العزيز يتلو على هذه الآية ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ [الأنبياء: ٤٧] حتى ختمها فمال على أحد شقيه يريد أن يقع(6). فهذه الآثار تدل على أن بعد القيام من القبور والذهاب إلى المحشر، ونزول الرب تبارك وتعالى ـ يليق بجلاله ـ لفصل القضاء ينصب

(١) الآثار الواردة فى العقيدة (١/ ٤٥١).
(٢) البخارى رقم ٣٠٩٣.
(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥٢).
(٤) سيرة عمر صـ٢٥٥ لابن الجوزى.
(٥) الحلية (٥/ ٢٩١)، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٢٣٤ـ ٢٤٤.
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ ٢٤٨.

الميزان، وهو ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة[1]، قال ابن حجر: قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان. وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال. وأنكرت المعتزلة الميزان وغيرهم وقالوا: هو عبارة عن العدل فخالفوا الكتاب والسنة، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين[2]، وهذا الميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص، قال تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٤ـ الحوض: كتب عمر بن عبد العزيز إلى صاحب دمشق أن سل أبا سلام عما سمع من ثوبان مولى رسول الله ﷺ في الحوض، فإن كان يثبته فاحمله على مركبة من البريد[3]. وفي رواية: بعث عمر بن عبد العزيز إلى أبي سلام الحبشي يحمل على البريد، فلما قدم عليه قال: لقد شق عليَّ، قال عمر: ما أردنا ذلك، ولكنه بلغني عنك حديث ثوبان في الحوض، فأحببت أن أشافهك به، فقال: سمعت ثوبان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن حوضي من عدن إلى عمان البلقاء(٤)، ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، أول الناس ورودًا عليه فقراء المهاجرين**»[5]. ولا شك أن الإيمان بالحوض هو عقيدة أهل السنة والجماعة استنادًا إلى النصوص الصريحة بذلك وأدلة إثبات الحوض في السنة بلغت حد التواتر.

٥ـ الصراط: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أخ له: يا أخي إنك قد قطعت عظيم السفر وبقي أقله، فاذكر يا أخي المصادر والموارد، فقد أوحى إلى نبيك ﷺ في القرآن أنك من أهل الورود ولم يخبر أنك من أهل الصدور والخروج، وإياك أن تغرك الدنيا فإن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له[6]، وهذا الأثر الوارد عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يدل على الإيمان بالصراط، وذلك أنه بعد الخروج من عرصات القيامة في اليوم العصيب يمر الناس على الصراط، وهو جسر ممدود على متن جهنم، أدق من الشعرة، وأحد من السيف، يردوه الأولون والآخرون من أتباع الرسل، الموحدون وفيهم أهل الذنوب والمعاصي، وفيهم أهل النفاق، فتلقى عليهم الظلمة قبل الصراط وفي هذا الموضع يفترق

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥٧).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٥٣٨).
(٣) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (١/ ٤٦٢).
(٤) الآثار الواردة (١/ ٤٦٣).
(٥) سيرة عمر لابن الجوزي صـ٣٧.
(٦) المصدر نفسه، صـ٢٥٧.

المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم، ويسبقهم، المؤمنون ويُحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم، ويعطى كل مؤمن نوره بقدر عمله، يضيء له الطريق فيمرون على الصراط، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، وكالريح، ومنهم من يرمل رملاً حتى يمر الذى نوره على إبهام قدمه تَخِرّ يدٌ وتعلق يد، وتخر رجل وتصيب جوانبه النار[1]. وقد دل الكتاب والسنة على المرور على الصراط. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾. وقال ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة»، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال: ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]. أشار إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله. فالمؤمنون يمرون فوق النار على الصراط ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًا، فبين ﷺ أن الورود هو الورود على الصراط[2]، والحق أن الورود على النار ورودان: ورود الكفار أهل النار، فهذا ورود دخول لا شك فى ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]. أى بئس المدخل المدخول، والورود الثانى: ورود الموحدين وهو مرورهم[3] على الصراط، وهو ما عناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى الأثر الماضى.

٦ـ الجنة والنار: بكى عمر بن عبد العزيز، فبكت فاطمة، فبكى أهل الدار، لا يدرى هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم الصبر قالت فاطمة: بأبى أنت يا أمير المؤمنين، مم بكيت؟ قال: ذكرت يا فاطمة منصرف القوم من بين يدى الله؛ فريق فى الجنة وفريق فى السعير، ثم صرخ وغشى عليه[4]. وعن سفيان قال: كان عمر بن عبد العزيز يومًا ساكتًا وأصحابه يتحدثون فقالوا له: ما لك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت مفكرًا فى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وفى أهل النار كيف يصطرخون فيها ثم بكى[5]. وكتب إلى بعض الأجناد، واعلم أنه ليس يضر عبدًا صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه فى الدنيا من فقر وبلاء، وأنه لن ينفع عبدًا صار إلى سخط الله وإلى النار ما أصاب فى الدنيا من نعمة أو رخاء. وما يجد أهل الجنة من مكروه أصابهم فى دنياهم، وما يجد أهل النار

(١) شرح الطحاوية صـ٤٧٠، الآثار الواردة (٤٦٨/١).
(٢) شرح الطحاوية صـ٤٧١.
(٣) القيامة الكبرى للأشقر صـ ٢٧٨.
(٤) الرقة والبكاء صـ ٧٦.
(٥) سيرة عمر لابن الجوزى صـ١٥٤.

طعم لذة نعموا بهـا فى دنياهم، كل شىء من ذلك لم يكن[1] وعن الفضل بن ربيع قال: سمعت فضيل بن عـياض يقول: بلغنى أن عاملاً لعمر بن عبـد العزيز شكا إليه فكتب إليه عمر: يا أخى اذكر طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء، فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: مـا أقـدمك؟ قـال: خلعت قلبى بكـتابـك. لا أعود إلى ولايـة أبدًا حـتى ألقى الله تعالى[2]. ومعـتقد عمـر بن عبد العـزيز فى الجنة والنار هو ما جاء فى كـتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ [طه: ٧٥، ٧٦]. وقال ﷺ: «إن أحدكـم إذا مات عرض عليـه مقعده بالغـداة والعشى إن كان من أهل الجنة، فـمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: «هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[3].

٧ـ رؤية المؤمنين ربهم فى الجنة: كتب عمـر بن عبد العزيز إلى بعـض أمراء الأجناد: أما بعد، فـإنى أوصيك بتقـوى الله والتمسك بأمـره والمعاهدة على ما حـملك الله من دينه، واستحفظك من كتابه، فإن بتقوى الله نجا أولياؤه من سخطه، وبها تحقق لهم ولايته، وبها وافقوا[4] أنبياءه، وبها نضـرت وجوههم ونظروا إلى خالقهم[5]. وهذا المعتقد الذى كان يعتقده عـمر بن عبد العزيز فى رؤية الله تعالى فى الجنة من أعظم النعم بعد نعـمة التوفيق والهداية، قال تعـالى فى وصف المؤمنين فى ذلك اليوم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيـامة: ٢٢، ٢٣] وقـال جل شأنه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وعن صهيب قـال: قيل لرسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة، الجنة وأهل النار النار ينادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عنـد الله موعدًا يريد أن ينجزكـموه، فقـالوا: ألم تبيض وجـوهنا وتثقل موازيننـا وتجرنا من النار. قال: فيكشف الحجاب فينظروا إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»[6].

(١) سيرة عمر لابن الجوزى صـ٢٥٠، ٢٥١، الآثار الواردة (١/ ٤٧٣).
(٢) سيرة عمر صـ١٢٤ ـ ١٢٥ لابن الجوزى، الآثار الواردة (١/ ٤٧٤).
(٣) مسلم رقم ٢٨٦٦.
(٤) فى الحلية وابن الجوزى والملاء: رافقوا بدل وافقوا.
(٥) الرد على الجهمية للدارمى صـ١٠٣، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٤٧٩).
(٦) مسلم رقم ٢٩٧.

سابعًا: الاعتصام بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين:

١ـ اتباع الكتاب والسنة: لما ولى عمر بن عبد العزيز كتب: أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله ولزوم كتابه والاقتداء بسنة نبيه وهديه[١]، وليس لأحد فى كتاب الله ولا فى سنة نبيه ﷺ أمر ولا رأى إلا إنفاذه والمجاهدة عليه[٢]. . . فإن الذى فى نفسى وبقيتى فى أمر أمة محمد ﷺ أن تتبعوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأن تجتنبوا ما مالت إليه الأهواء والزيغ البعيد، من عمل بغيرهما فلا كرامة ولا رفعة له فى الدنيا والأخرى، وليعلم من عسى أن يذكر له ذلك، ولعمرى لأن تموت نفسى فى أول نفس أحب إلىّ من أن أحملهم على غير اتباع كتاب ربهم وسنة نبيهم التى عاش عليها من عاش، وتوفاه الله عليها حين توفاه ـ إلا أن يأتى على وأنا حريص على اتباعه ـ وإن أهون الناس على تلفًا وحزنًا لمن عسى أن يريد خلاف شيء من تلك السنة[٣]. وقال عمر بن عبد العزيز: إن الله فرض فرائض وسنّ سننًا، من أخذ بها لحق ومن تركها محق[٤]. وقال: يا ليتنى عملت فيكم بكتاب الله وعملت به، فكلما عملت فيكم بسنة وقع منى عضو، حتى يكون آخر شيء منها خروج نفسى[٥]. وكتب إلى الخوارج: . . . فإنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ[٦]. وقال: سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فى أمر خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً[٧].

فهذه الآثار توضح اتباع عمر للكتاب والسنة ولزومهما، وبذل الجهد، والطاقة فى تطبيقها، وإن أدى ذلك إلى قطع الأعضاء، وإزهاق النفس. وما ذهب إليه عمر هو أصل الدين وأساسه، قال تعالى: **﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [النساء: ٦٥] وقال ﷺ: **«يا أيها الناس، إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا؛ كتاب الله وسنتى»**[٨].

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٦٥، الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/ ٢٨٤).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٦٨، الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/ ٢٨٧).
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٧١، الآثار الواردة (٢/ ٦٠١).
(٤) محق: أهلكه وأباده، سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٣٩.
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٣٠، الآثار الواردة (٢/ ٦٠٢).
(٦) الآثار الواردة (٢/ ٦٠٢).
(٧) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٤٠
(٨) موطأ مالك (٣/ ٩٣)، والحاكم (١/ ٩٣).

٢ـ الاعتصام بسنة الخلفاء الراشدين: عن حاجب بن خليفة البرجمى قال: شهدت عمر ابن عبد العزيز يخطب الناس وهو خليفة فقال فى خطبته: ألا إن ما سنّ رسول الله ﷺ وصاحباه فهو دين نأخذ به وننتهى إليه، وما سن سواهم فإنا نرجئه[١]، وكتب إلى سالم ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب: من عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله أما بعد، فقد ابتليت بما ابتليت به من أمر هذه الأمة من غير مشاورة منى، ولا إرادة، يعلم الله ذلك، فإذا أتاك كتابى هذا، فاكتب به سيرة عمر بن الخطاب فى أهل القبلة وأهل العهد، فإنى سائر بسيرته إن أعاننى على ذلك، والسلام[٢]، وعن عون بن عبد الله، قال: قال لى عمر بن عبد العزيز: أعدلان عندك عمر وابن عمر؟ قال: قلت: نعم، قال: فإنهما لم يكونا يكبران هذا التكبير[٣]. وعن الأزهرى، قال: قال رجل لعمر بن عبد العزيز: طلقت امرأتى وأنا سكران، قال الزهرى: فكان رأى عمر بن عبد العزيز أن يجلده ويفرق بينه وبين امرأته حتى حدثه أبان بن عثمان (عن أبيه): ليس على المجنون ولا السكران طلاق، فقال عمر: تأمرونى وهذا يحدثنى عن عثمان بن عفان؟ فجلده وردّ إليه امرأته[٤]، وقال عمر بن عبد العزيز: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فى أمر خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله ما تولّى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا[٥].

إن عمر بن عبد العزيز تمسك بسنة رسول الله وخلفائه الراشدين، وأعاد للخلافة الراشدة معالمها وملامحها، وسار على هديها وعض على سننهم بالنواجذ ورجع إلى أقوالهم عند النزاع وأخذ بها فى الحكم على أهل القبلة وأهل العهد، كما أخذ بها فى العبادات والمعاملات، وقد أولى الخليفة الأول والثانى أبا بكر وعمر جل اهتمامه، وعدّ الأخذ بسنتهما أخذًا بسنة رسول الله ﷺ كما أخذ بسنة الخليفة الثالث فور سماعه وطبّق تلك السنة، واعتصم بسنة الخليفة الرابع فى معاملة الخوارج حيث ناظرهم وكتب إليهم، فلما تمادوا حاربهم، وحكم على أموالهم وذراريهم وأسراهم بقضاء الخليفة الرابع على بن أبى طالب رضى الله عنهم[٦]، بل يرى عمر بن عبد العزيز أن من خرج عن سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين رضى الله عنهم فهو خارج عن سبيل المؤمنين، وهو من

(١) الحلية (٥/ ٢٩٨) ،جامع العلوم والحكم صـ٢٨٨ .
(٢) سيرة عمر لابن الجوزى صـ١٠٨ .
(٣) مصنف عبد الرزاق (٢/ ٦٦)، الآثار الواردة (٢/ ٦٦) .
(٤) مصنف عبد الرزاق (٤/ ٣١)، الآثار الواردة (٢/ ٦٣٣) .
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٤٠
(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٣٧) .

الفرقة الهالكة، وكل ما سنه الخلفاء الراشدون فإنه من سنته ﷺ؛ لأنهم إنما سنوه بأمره ولا يكون فى الدين واجب إلا ما أوجبه ولا حرام إلا ما حرمه ولا مستحب إلا ما استحبه، ولا مكروه إلا ما اكرهه، ولا مباح إلا ما أباحه، واتباع سنة الخلفاء الراشدين فى العقائد والأحكام هو ما عليه السلف الصالح وهو الذى دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]. وقال ﷺ: «فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»(١). وعن حذيفة رضى الله عنه قال: كنا عند النبى ﷺ جلوسًا فقال: «إنى لا أدرى ما قدر بقائى فيكم فاقتدوا باللذين من بعدى، وأشار إلى أبى بكر وعمر»(٢).

٣ـ التمسك بما تدل عليه الفطرة: عن جعفر بن رقان، قال: جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فسأله عن شىء من الأهواء، فقال: الزم دين الصبى فى الكُتّاب والأعرابى، والْهَ عما سوى ذلك(٣). وعمر بن عبد العزيز هنا يرى أن العباد مخلوقون على الدين القويم، وأن الانحراف عنه طارىء وحادث، وهذا ما دل عليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء(٤)، هل تحسون فيها من جدعاء»(٥)، ثم يقول أبو هريرة -رضى الله عنهم-: فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم(٦). فالفطرة السليمة تقر بخالقها وتحبه، وتتذلل له وتخلص له الدين، وفيها قوة موجبة لذلك، وكذلك تقرّ بشرعه وتؤثر هذا الشرع على غيره، فهى تعرف هذا الشرع وتشعر به مجملاً ومفصلاً بعض التفصيل، فجاءت الرسل تذكرها بذلك وتنبهها عليه، وتفصله لها وتبينه، وتعرفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة، المانعة من اقتضائها أثرها(٧).

(١) سنن الترمذى (٥/ ٤٤) حديث حسن صحيح .
(٢) سنن الترمذى (٥/ ٦١٠)، صحيح سنن الترمذى للألبانى (٣/ ٢٠٠) .
(٣) الطبقات (٥/ ٣٧٤)، شرح اعتقاد أهل السنة رقم ٢٥٠ .
(٤) جمعاء: سليمة من العيوب الأعضاء، كاملتها فلا جدع ولا كى .
(٥) جدعاء: أى مقطوعة الأطراف أو واحدها . (٦) البخارى رقم ١٣٥٨ .
(٧) شفاء العليل صـ ٦٢٩ ، ٦٣٠

ثامنًا: موقفه من الصحابة والخلاف بينهم:

عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه أنه قال: لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنه لو كان قولاً واحدًا كان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، ولو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة(١). قال أبو عمر رحمه الله: هذا فيما كان طريقه الاجتهاد، وسئل عمر بن عبد العزيز عن علي وعثمان وصفين وما كان بينهم فقال: تلك دماء كف الله يدي عنها، وأنا أكره أن أغمس لساني فيها(٣). وعن محمد بن النضر قال: ذكروا اختلاف أصحاب محمد ﷺ عند عمر بن عبد العزيز فقال: أمر أخرج الله أيديكم منه لِمَ تعملون ألسنتكم فيه؟(٤). وعمر بن عبد العزيز كغيره من علماء السلف الصالح حريص على إبراز فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ولم لا يكون ذلك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] ومعتقد أهل السنة: بأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب(٥)، وقال ابن حجر: واتفق أهل السنة، على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجرًا واحدًا، وأن المصيب يؤجر أجرين(٦)، ومضمون الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز توضح معتقده في الصحابة وهو معتقد أهل السنة والجماعة.

تاسعًا: موقفه من أهل البيت:

قال ابن القيم: إن العلماء اختلفوا في تحديد المراد بأهل البيت على أربعة أقوال: فقيل هم الذين حرمت عليهم الصدقة وفيهم ثلاثة أقوال:

(١) جامع بيان العلم (٢/ ٩٠١ ـ ٩٠٢)، الآثار الواردة (١/ ٤١٠) .
(٢) الآثار الواردة (١/ ٤١٠) . (٣) الطبقات (٥/ ٣٩٤)، الآثار الواردة (١/ ٤١٢).
(٤) الطبقات (٥/ ٣٨٢)، الآثار الواردة (٥/ ٣٨٢) .
(٥) الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة أبي زيد صـ٢٣ .
(٦) فتح الباري (١٣/ ٣٤) .

١ ـ أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

٢ ـ أنهم بنو هاشم خاصة.

٣ ـ أنهم بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب.

والقول الثانى: أن آل النبى ﷺ هم ذريته وأزواجه خاصة.

والقول الثالث: أن آله أتباعه إلى يوم القيامة.

والقول الرابع: أن آله هم الأتقياء من أمته[١]. ثم رجح رحمه الله القول الأول وهو أن آله ﷺ هم الذين حرمت عليهم الصدقة[٢]. هذا ويرى الشيعة أن آل النبى ﷺ هم: على وفاطمة والحسن والحسين وذريتهما، وقولهم هذا مخالف للنصوص الصحيحة، ولا تؤيده اللغة ولا العرف، لأن لفظة أهل البيت وردت فى القرآن الكريم فى سياق الخطاب لأزواج النبى ﷺ، قال تعالى: **﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾** [الأحزاب: ٣٣]، وقد تحدثت عن هذه الآية ورددت على أفهام الشيعة الإمامية لها فى كتابى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب. هذا وقد عرف عمر بن عبد العزيز حقوق أهل البيت المادية والمعنوية، وأداها إليهم كافة مستوفاة كاملة بدون بخس ولا شطط[٣]، وأزال عنهم المظالم التى وقعت عليهم، وأحسن إليهم غاية الإحسان المعنوى والمادى، فعن جويرية بن أسماء قال: سمعت فاطمة بنت على بن أبى طالب ذكرت عمر بن عبد العزيز، فأكثرت الترحم عليه، وقالت: دخلت عليه وهو أمير المدينة يومئذ فأخرج عنى كل خصى وحرسى، حتى لم يبق فى البيت غيرى وغيره ثم قال: يا بنت على، والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إلىَّ منكم ولأنتم أحب إلىَّ من أهل بيتى[٤]، وعن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبى طالب قال: أول مال قسمه عمر بن عبد العزيز لمال بعث به إلينا أهل البيت، فأعطى المرأة منا مثل ما يعطى الرجل، وأعطى الصبى مثل ما تعطى المرأة، قال: فأصابنا أهل البيت ثلاثة آلاف دينار، وكتب لنا: إنى إن بقيت لكم أعطيتكم جميع حقوقكم[٥]، وعن حسين بن صالح قال: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال

(١) جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام صـ ١٠٩ .

(٢) المصدر نفسه صـ١١٠ ـ ١١٩، الآثار الواردة (١/ ٤٢٨)

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٢٩) .

(٤) الطبقات (٥/ ٣٨٨) .

(٥) المصدر نفسه (٥/ ٣٩٢) .

قائلون: فلان، وقال قائلون: فلان، فقال عمر بن عبد العزيز: أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب رضى الله عنه[1]، فعمر بن عبد العزيز كغيره من السلف الصالح كان قائمًا بأداء حقوق أهل بيت النبى ﷺ امتثالاً لما أمر به ﷺ: «... **وأهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى**»[2]، وقال ابن تيمية: وإن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون أهل بيت النبى ﷺ ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ وآل بيته ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها، فإن الله جعل لهم حقًا فى الخمس والفىء وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ[3]. والحقوق التى ذكرها ابن تيمية رحمه الله هى التى حرص عمر بن عبد العزيز رحمه الله على أدائها على الوجه المطلوب شرعًا، فرد على آل رسول الله ﷺ فدك، كما قام برد خمس الخمس عليهم كما أطعمهم فى الفىء[4]، وقام رحمه الله بالاهتمام بحقوق أهل بيت النبى ﷺ المادية والمعنوية، حرصًا منه على اتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه، وحبًا منه لاتباع السلف الصالح[5] رضوان الله عليهم. وأما ما تذكره كتب التاريخ أن ولاة بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون عليًا، وهذا الأثر الذى ذكره ابن سعد لا يصح، قال ابن سعد: أخبرنا على بن محمد، عن لوط بن يحيى قال: كان الولاة من بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون رجلاً رضى الله عنه، فلما ولى هو - عمر بن عبد العزيز - أمسك عن ذلك، فقال كثير عزة الخزاعى:

وليت فلم تشتم عليًا ولم تخف ... بريًا ولم تتبع مقالة مجرم

تكلمت بالحق المبين وإنما ... تبين آيات الهدى بالتكلم

فصدَّقت معروف الذى قلت ... بالذى فعلت فأضحى راضيًا كل مسلم[6]

فهذا الأثر واهٍ، فعلى بن محمد المدائنى فيه ضعف وشيخه لوط بن يحيى واهٍ، قال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال الدارقطنى: إخبارى ضعيف، ووصفه صاحب الميزان: إخبارى تالف لا يوثق به[7]. وعامة رواته عن الضعفاء والهلكى والمجاهيل[8]. وقد اتهم الشيعة معاوية رضى الله عنه بحمل الناس على سب

---

(١) سيرة عمر صـ٢٩٢ لابن الجوزى .
(٢) مسلم رقم ٢٤٠٨ .
(٣) الفتاوى (٣/ ٤٠٧).
(٤) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ٤٣٣).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٤٣٥) .
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٧) .
(٧) الميزان (٣/ ٤١٩) .
(٨) دفاعًا عن السلفية صـ ١٨٧ .

على رضى الله عنه ولعنه فوق منابر المساجد، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة، والذى يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل، حتى صارت عند المتأخرين من المسلَّمات التى لا مجال لمناقشتها، علمًا بأنها لم تثبت قط فى رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء فى كتب الدميرى، واليعقوبى، وأبى الفرج الأصفهانى، علمًا بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء[1]، ويؤكد احترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين على وأهل بيته الأطهار، فحكاية لعن علىٍّ على منابر بنى أمية لا تتفق مع منطق الحوادث ولا طبيعة المتخاصمين، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبنى أمية، فإننا لا نجد فيها ذكرًا لشىء من ذلك أبدًا، وإنما نجده فى كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم فى عصر بنى العباس بقصد أن يسيئوا إلى سمعة بنى أمية فى نظر الجمهور الإسلامى، وقد كتب ذلك المسعودى فى مروج الذهب وغيره من كتّاب الشيعة، وقد تسربت تلك الأكذوبة إلى كتب تاريخ أهل السنة، ولا يوجد فيها رواية صحيحة، فهذه دعوة مفتقرة إلى صحة النقل، وسلامة السند من الجرح، والمتن من الاعتراض، ومعلوم وزن هذه الدعوة عند المحققين والباحثين، ومعاوية رضى الله عنه بعيد عن مثل هذه التهم بما ثبت من فضله فى الدين، وكان محمود السيرة فى الأمة، أثنى عليه بعض الصحابة ومدحه خيار التابعين، وشهدوا له بالدين والعلم، والعدل والحلم، وسائر خصال الخير[2]. وقد ثبت هذا فى حق معاوية ـ رضى الله عنه ـ كما أنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته، أن يحمل الناس على لعن على رضى الله عنه على المنابر، وهو من هو فى الفضل، ومن علم سيرة معاوية ـ رضى الله عنه، فى الملك، وما اشتهر به من الحلم والصفح، وحسن السياسة للرعية ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه، فقد بلغ معاوية رضى الله عنه فى الحلم مضرب الأمثال، وقدوة الأجيال[3]. وقد تحدثت عن هذه الفرية بنوع من التوسع فى كتابى خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على بن أبى طالب. وقد بينت فيه علاقة معاوية بأولاد على رضى الله عنه بعد استقلاله بالخلافة، وما كان بينهم من الألفة والمودة والاحتفاء والتكريم، كما أن المجتمع فى عمومه مقيد بأحكام الشريعة، حريص على تنفيذها، ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش والبذىء. وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب الأموات المشركين، فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين، فعن عائشة رضى الله عنها ـ مرفوعًا ـ «لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[4].

---

(١) الحسن والحسين، محمد رضا صـ ١٨، كلام المحقق د. أحمد أبو الشباب.

(٢) الانتصار للصحب والآل صـ٣٦٧ للرحيلى.

(٣) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على بن أبى طالب صـ٣٠٣.

(٤) البخارى رقم ٦٥١٦.

المبحث الرابع
موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة والجهمية

أولاً: الخوارج:

برزت هذه الفرقة أثناء خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبالتحديد عام ٣٧هـ بعد معركة صفين وقبول علي رضي الله عنه تحكيم الحكمين، وقد تحدثت عن هذه الفرقة بشيء من التفصيل في كتابي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن أهم آرائهم الاعتقادية:

١ ـ تكفير علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعثمان بن عفان رضي الله عنه، والحكمين رضي الله عنهما أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص.

٢ ـ القول بالخروج على الإمام الجائر.

٣ ـ قولهم بتكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النار[١].

هذه المبادىء الثلاثة هي جوهر اعتقاد الخوارج، وليس بينهم في ذلك خلاف إلا خلافًا لبعضهم في تطبيق هذه المبادىء[٢]. يقول أبو الحسن الأشعري في حكاية ما أجمع عليه الخوارج من الآراء: أجمعت الخوارج على إكفار علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن حكَّم، وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا؟

وأجمعوا على أن كل كبيرة كفر إلا النجدات[٣]، فإنها لا تقول ذلك. وأجمعوا على أن الله سبحانه وتعالى يعذب أصحاب الكبائر عذابًا دائمًا إلا النجدات أصحاب نجدة[٤]، وقال المقدسي في ذلك: وأصل مذهبهم: إكفار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والتبرؤ من عثمان بن عفان، والتكفير بالذنب، والخروج على الإمام الجائر[٥].

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق صـ٢٩١ . (٢) المصدر نفسه صـ٢٩١ .

(٣) النجدات: أتباع نجدة بن عامر الحنفي المقتول ٦٩هـ، فرقة من فرق الخوارج .

(٤) المقالات (١/ ١٦٧ ـ ١٦٨) .

(٥) البدء والتاريخ (٥/ ١٣٥)، وسطية أهل السنة في الفرق صـ٢٩٢ .

استمر الخوارج فى حربهم للدولة الأموية، أحيانًا ينشطون، وفى الغالب تتغلب عليهم الدولة بالقوة وتكسر شوكتهم إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز فدخل معهم فى محاورات ونقاشات، واستخدم معهم القوة عند اللزوم، وكان عمر بن عبد العزيز يذم الجدال المذموم ويناظر ويجادل بالتى هى أحسن، فقد قال: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل[١]. وقال: احذروا المراء فإنه لا تؤمنه فتنة ولا تفهم حكمته[٢]، وقال: قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع[٣]، فقد كان رحمه الله ينهى عن المراء العقيم ويحث على الجدال بالتى هى أحسن. وقد كان لعمر بن عبد العزيز مواقف مشهورة وأقوال مأثورة فى التعامل مع الخوارج ومناظرتهم ودحض شبهاتهم بالحجة وآرائهم بالدليل وإيضاح الحق لهم ودليله؛ حبًا منه للسنة واتباعًا للسلف الصالح رحمة الله عليهم[٤].

١ - **موقفه من خروج الخوارج عليه:** عن هشام بن يحيى الغسانى، عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه فى الخوارج: إن كان من رأى القوم أن يسيحوا فى الأرض من غير فساد على الأئمة، ولا على أحد من أهل الذمة، ولا يتناولوا أحدًا، ولا قطع سبيل من سبل المسلمين، فليذهبوا حيث شاءوا، وإن كان رأيهم القتال فوالله لو أن أبكارى من ولدى خرجوا رغبة عن جماعة المسلمين لأرقت دماءهم ألتمس بذلك وجه الله والدار الآخرة[٥]. وجاء فى رواية: أقسم بالله لو كنتم أبكارى من أولادى ورغبتم عما فرشنا للعامة فيما ولينا لدفقت دماءكم، ابتغى بذلك وجه الله الدار الآخرة، فإنه يقول: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص: ٨٣]، فهذا النصح إن أحببتم، وإن تستغشونى فقديمًا ما استغش الناصحون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[٦].

يتبين من الآثار السابقة منهج عمر بن عبد العزيز فى التعامل مع الخوارج، فسمع خروجهم عليه وهو الخليفة الحق لم يحركهم، وإنما كتب إليهم وحذرهم من الخروج عن الجماعة الذين هم أهل الحق، لقد أمر الله تبارك بالاجتماع ونهى عن التفرق، وأمر بلزوم الجماعة ونهى عن الخروج عنها، وجعل إجماع هذه الأمة حجة، فإذا اجتمعوا على أمير

(١) ابن أبى الدنيا، ك الصمت وآداب اللسان صـ١١٦، الطبقات (٥/ ٣٧١) .
(٢) سيرة عمر لابن الجوزى صـ٢٩٣، الحلية (٥/ ٣٢٥) .
(٣) سيرة عمر لابن الجوزى صـ٢٩١، الآثار الواردة (٢/ ٦٧١) .
(٤) الآثار الواردة عن عمر فى العقيدة (٢/ ٦٩٣) .
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٧٥، سيرة عمر لابن الجوزى صـ ٩٩ - ١٠٠ .
(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٩٥).

وجب طاعته وحرم الخروج عليه، ما لم يأمر بمعصية ولم يظهر كفرًا بواحًا[1]، والآثار المروية عن عمر بن عبد العزيز هنا تبين منهج أهل السنة والجماعة فى التعامل مع الخوارج الذين هم أوائل الفرق ظهورًا فى الإسلام، فمع خروجهم عليه وهو الخليفة الحق لم يحركهم، ولم يرسل عليهم الحملة تلو الحملة، وإنما عاملهم معاملة أتاحت لهم الفرصة فى الرجوع إلى الحق مستنًا بسنن أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى معاملة الخوارج حين خرجوا عليه[2].

٢ ـ مناظرته للخوارج: تبين موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج عمومًا فيما سبق، وفى هذا المبحث يتضح موقفه من الذين كتبوا إليه وكتب إليهم طالبًا المناظرة معهم، إذا كانوا مستعدين لذلك، وقد وجد من بعضهم استجابة، قال ابن عبد الحكم: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الخوارج: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى هذه العصابة، أما بعد: أوصيكم بتقوى الله فإنه ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. أما بعد، فقد بلغنى كتابكم والذى كتبتم فيه إلى يحيى بن يحيى، وسليمان بن داود الذى أتى إليهما، وإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [الصف: ٧]، وقال تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿**فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٥]. وإنى أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله وأدعوكم أن تدعوا ما كانت تهراق عليه الدماء قبل يومكم هذا بغير قوة ولا تشنيع، وأذكركم بالله أن تشبهوا علينا كتاب الله وسنة نبيه، ونحن ندعوكم إليهما. هذه نصيحة منا نصحنا لكم، فإن تقبلوها فذلك بغيتنا، وإن تردوها على من جاء بها فقديمًا ما استغش الناصحون، ثم لم نر ذلك وضع شيئًا من حق الله، قال العبد الصالح لقومه: ﴿**وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**﴾ [هود: ٣]. وقال الله عز وجل: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٨][3]. وجاء فى رواية: وكتب عمر كتابًا إلى الخوارج فلما قرأوه قالوا: نوجه رجلين

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٩٥) . (٢) المصدر نفسه (٢/ ٦٩٦، ٦٩٧).

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ ٧٩، ٨٠، وسيرة عمر لابن الجوزى صـ ٩٩، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧٠١) .

يكلمانه فإن أجابنا فذاك، وإن أبى كان الله من ورائه، فأرسلوا مولى لبنى شيبان يقال له: عاصم ورجلاً من بنى يشكر من أنفسهم، فلما دخلا عليه قالا: السلام عليكم وجلسا، وقال لهما عمر: أخبرانى ما أخرجكما مخرجكما هذا؟ وأى شيء نقمتم علينا؟ قال عاصم -وكان حبشيًا-: ما نقمنا عليك فى سيرتك لتحرى العدل والإحسان، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضا من المسلمين ومشورة أم ابتززتهم إمرتهم؟، قال: ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم على مشيئتهم، وعهد إلىّ رجل عهداً لم أسأله قط لا فى سر ولا علانية، فقمت به ولم ينكره علىّ أحد ولم يكرهه غيركم، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس، فأنزلونى ذلك الرجل؛ فإن خالفت الحق وزغت عنه فلا طاعة لى عليكم، قالا: بيننا وبينك أمر إن أعطيتناه فأنت منا ونحن منك، وإن منعتنا فلست منا ولسنا منك. قال عمر: وما هو؟ قالا: رأيتك خالفت أعمال أهل بيتك وسلكت غير طريقهم وسميتها مظالم، فإن زعمت إنك على هدى وهم على ضلال فابرأ منهم والعنهم، فهو الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق، قال: فتكلما عمر عند ذلك، فقال: إنى قد عرفت أو ظننت أنكم لم تخرجوا لطلب الدنيا، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها. وأنا سائلكم عن أمر فبالله لتصدقانى عنه فيما بلغكما علمكما. قالا: نفعل. قال: أرأيتم أبا بكر وعمر أليسا من أسلافكم وممن تتولون وتشهدون لهما بالنجاة؟ قالا: بلى. فقال: هل تعلمون أن العرب ارتدت بعد رسول الله ﷺ فقاتلهم أبو بكر فسفك الدماء وسبى الذرارى وأخذ الأموال؟ قالا: قد كان ذاك. قال: فهل تعلمون أن عمر لما قام بعده رد تلك السبايا إلى عشائرهم؟ قالا: قد كان ذلك. قال: فهل برىء أبو بكر من عمر أو عمر من أبى بكر؟ قالا: لا. قال: فهل تبرأون من واحد منهما؟ قالا: لا.

قال: أخبرانى عن أهل النهروان؛ أليسوا من أسلافكم وممن تتولون وتشهدون لهم بالنجاة؟ قالا: بلى. قال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا إليهم كفوا أيديهم فلم يخيفوا أمنًا، ولم يسفكوا دمًا، ولم يأخذوا مالاً؟ قالا: قد كان ذلك. قال: فهل تعلمون أن أهل البصرة حين خرجوا إليهم مع عبد الله بن وهب الراسبى(١)، واستعرضوا الناس فقتلوهم وعرضوا لعبد الله بن خباب(٢)، صاحب رسول الله فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم صبحوا حيًا من العرب يقال لهم: بنو قطيعة فاستعرضوهم، فقتلوا الرجال والنساء والولدان حتى جعلوا يلقون الأطفال فى قدور الإقط وهى تفور بهم، قالا: قد كان ذلك. قال: فهل برىء أهل الكوفة من أهل البصرة؟ أو أهل البصرة من أهل الكوفة؟ قالا: لا. قال: فهل تبرأون من طائفة منهما. قالا: لا.

(١)، (٢) الآثار الواردة (٢/٣٠٧) .

قال عمر: أخبراني أرأيتم الدين واحدًا أم أثنين؟ قالا: بل واحد. قال: فهل يسعكم فيه شيء يعجز عني؟ قال: لا. قال: فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر، وتولى كل واحد منهما صاحبه وقد اختلفت سيرتهما؟ أم كيف وسع أهل الكوفة أن تولوا أهل البصرة واهل البصرة أهل الكوفة وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: في الدماء والفروج الأموال، ولا يسعني -بزعمكما- إلا لعن أهل بيتي والبراءة منهم، فإن كان لعن أهل الذنوب فريضة مفروضة لابد منها فأخبرني عنك أيها المتكلم متى عهدك بلعن فرعون؟ -ويقال: بلعن هامان؟- قال: ما أذكر متي لعنته. قال: ويحك فيسعك ترك لعن فرعون، ولا يسعني بزعمك إلا لعن أهل بيتي والبراءة منهم؟ ويحك إنكم قوم جهال؛ أردتم أمرًا فأخطأتموه، فأنتم تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله ﷺ، وتردون عليهم ما قبل منهم، ويأمن عندكم من خاف عنده، ويخاف عندكم من أمن عنده. قال: ما نحن كذلك. قال: بلى تقرون بذلك الآن. هل علمتم أن رسول الله ﷺ بعث إلى الناس وهم عبدة أوثان فدعاهم إلى أن يخلعوا الأوثان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فمن فعل ذلك حقن دمه وأمن عنده، وكان أسوة المسلمين، ومن أبى ذلك جاهده؟ قالا: نعم. قال: أفلستم أنتم اليوم تبرأون ممن يخلع الأوثان وممن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وتلعنونه وتقتلونه وتستحلون دمه، وتلقون من يأبى ذلك من سائر الأمم من اليهود والنصارى فتحرمون دمه ويأمن عندكم؟ فقال الحبشي: ما رأيت حجة أبين ولا أقرب مأخذًا من حجتك، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنني بريء ممن خالفك. وقال للشيباني: فأنت ما تقول؟ قال: ما أحسن ما قلت وأحسن ما وصفت، ولكن أكره أن أفتات على المسلمين بأمر لا أدري ما حجتهم فيه حتى أرجع إليهم، فلعل عندهم حجة لا أعرفها. قال: فأنت أعلم. قال: فأمر للحبشي بعطائه وأقام عنده خمس عشرة ليلة ثم مات، ولحق الشيباني بقومه فقتل معهم(١).

وجاء في رواية: ودخل رجلان من الخوارج على عمر بن عبد العزيز فقالا: السلام عليك يا إنسان، فقال: وعليكما السلام يا إنسانان، قالا: طاعة الله أحق ما اتبعت. قال: من جهل ذلك ضل. قالا: الأموال لا تكون دولة بين الأغنياء. قال: قد حرموها. قالا: مال الله يقسم على أهله. قال: الله بيَّن في كتابه تفصيل ذلك. قالا: تقام الصلاة لوقتها. قال: هو من حقها. قالا: إقامة الصفوف في الصلوات. قال: هو من تمام السنة. قالا: إنما بعثنا إليك. قال: بلغا ولا تهابا. قالا: ضع الحق بين الناس. قال: الله أمر به قبلكما.

(١) أنساب الأشراف (٨/ ٢١١ ـ ٢١٥)، الآثار الواردة (٢/ ٧٠٤) .

قالا: لا حكم إلا لله. قال: كلمة حق إن لم تبتغوا بها باطلاً. قالا: ائتمن الأمناء. قال: هم أعواني. قالا: احذر الخيانة. قال: السارق محذور. قالا: فالخمر ولحم الخنزير. قال: أهل الشرك أحق به. قالا: فمن دخل في الإسلام فقد أمن. قال: لولا الإسلام ما أمنا. قالا: أهل عهود رسول الله ﷺ. قال: لهم عهودهم. قالا: لا تكلفهم فوق طاقاتهم. قال: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قالا: ذكّرنا بالقرآن. قال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. قالا: تردنا على دواب البريد. قال: لا، هو من مال الله لا نطيبه لكما. قالا: فليس معنا نفقة. قال: أنتما إذن ابنا سبيل عليَّ نفقتكما(١).

وعن أرطأة بن المنذر قال: سمعت أبا عون يقول: دخل ناس من الحرورية على عمر بن عبد العزيز فذاكروه شيئًا، فأشار إليه بعض جلسائه أن يرعبهم، ويتغير عليهم، فلم يزل عمر بن عبد العزيز يرفق بهم حتى أخذ عليهم ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم ما بقي، فخرجوا على ذلك فلما خرجوا ضرب عمر ركبة رجل يليه من أصحابه، فقال: يا فلان إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكي فلا تكوينَّه أبدًا(٢). وجاء في رواية: عندما خرج شوذب واسمه بسطام من بني يشكر على عبد الحميد بن عبد الرحمن بالعراق في خلافة عمر بن عبد العزيز، وكان مخرجه بجوخي(٣) في ثمانين فارسًا أكثرهم من ربيعة، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد: ألا تحركهم إلا أن يسفكوا دمًا، أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فحُلْ بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً حازمًا فوجهه إليهم، ووجه معه جندًا، وأوصه بما أمرتك به، فعقد عبد الحميد لمحمد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين من أهل الكوفة، وأمره بما أمره به عمر، وكتب عمر إلى بسطام يدعوه ويسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه. وقد قدم عليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يحركه ولا يهيجه، فكان في كتاب عمر إليه: إنه بلغني أنك خرجت غضبًا لله ولنبيه، ولست بأولى بذلك مني. فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك، فلم يحرك بسطام شيئًا، وكتب إلى عمر: قد أنصفت، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: الرجلان اللذان بعثهما شوذب إلى عمر مخدوج مولى بني شيبان، والآخر من بني يشكر، قال: فيقال: أرسل نفرًا فيهما هذان، فأرسل إليهم عمر: أن اختاروا رجلين فاختاروهما، فدخلا عليه فناظراه،

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٤٧، الآثار الواردة (٢/ ٦٧٧).

(٢) سيرة عمرة لابن الجوزي صـ٨١، الآثار الواردة (٢/ ٧٠٥).

(٣) جُوخي: بضم والكسر وقد يفتح: نهر بالجانب الشرقي من بغداد.

فقالا له: أخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك؟ قال: صيره غيرى، قالا: أفرأيت لو وليت مالا لغيرك، ثـم وكلته إلى غير مأمون عليـه، أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمن[(١)]، وتذكر الروايات تخمـينًا أن بنى مروان خافوا أن يخرج عمـر ما عندهم وما فى أيديهم من الأموال، وأن يخلع يزيد بن عبد الملك، فدسوا عليه من سقاه سمًا، فلم يلبث أن مات فى اليوم الذى تقرر أن يعطى فيه جوابه للمتفاوضين[(٢)].

يتضح من الآثار السابقة أن عمر بن عبد العـزيز سلك معهم المسلك الصحيح الذى تبعه سلفنا الصالح كابن عباس وأمير المؤمنين على رضى الله عنهما، ويبدو أن عمر قد طمع فى رجوع هؤلاء الخوارج ولذلك لم يترك لهم شبهة إلا كسرها وبيّن زيفها وكشف عوارها[(٣)]، ولم يجادلهم فى الحق الذى معهم، ولكنه طلب مهلة إلا أنه مـات قبل انتهائهـا، وعندما استخدم خوارج العراق القوة ضد واليه عبد الحميد، وتمكن الخوارج من دحر جيش الوالى، أسرع عمر بن عـبد العزيز فأرسل إلى الخوارج مسلمة بن عـبد الملك على رأس جيش من أهل الشام، وكتب إلى عبـد الحميد: قد بلغنى ما فعله جيشك، جـيش السوء، وقد بعثت مسلمة فخل بينه وبينهم، وتقدم مسلمة على رأس قواته إلى حيث عسكر الخوارج، ودارت معركة بين الطرفين انتـهت بانتصار جيش الخلافة[(٤)]. إن اضطرار عمر إلى استخدام القوة إزاء فئة مـن الخوارج، لم يدفعه أبدًا إلى تطبـيق أسلوب الشدة تجاه كل الخـوارج، فما دام خصمه مستعدًا للحوار، فلا داعى أبدًا لإراقة الدماء[(٥)].

٣ ـ السبب المفضى لقتال الخوارج: لم يأمر عمر بن عبد العـزيز بقتال الخوارج لما اختلفوا معـه فى الرأى، ولا عندمـا عارضـوه وسبـوه، بل صبـر عليهم لعل الله أن يهـديهم إلى الصواب، ثم لما وصلوا إلى مرحلة خطـيرة وهى أخذ المال وإخافة السبـيل وسفك الدماء، عند ذلك أمر بقتالهم[(٦)].

٤ ـ رد متاع الخـوارج إلى أهليهم: لم يَسْبِ عمر بن عبـد العزيز نساء الخوارج وذراريهم، ولـم يستحل أموالهم، بل أمـر برد متاعهم إلى أهليهم، فقـد كتب إلى عامله فى الخوارج: فإن أظفرك الله بهم وأدالك عليهم، فرد مـا أصبت من متاعهم إلى أهليهم[(٧)]، وهذا رأى على بن أبى طالب فيهم فى عدم سبى ذرية ونساء الخوارج وعدم استحلال أموالهم[(٨)].

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٦٠).
(٢) المصدر نفسه (٧/ ٤٦٠)، ملامح الانقلاب الإسلامى صـ٩٧.
(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٢/ ٧١١).
(٤) الطبقات (٥/ ٣٥٨)، ملامح الانقلاب الإسلامى صـ٩٤
(٥) ملامح الانقلاب الإسلامى صـ٩٤.
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٦٩) د. محمد شقير.
(٧)، (٨) المصدر نفسه (٢/ ٤٧١).

٥ ـ حبس أسرى الخوارج حتى يحدثوا خيراً: فلما قاتلهم، فقتل منهم من قتل، وأسر منهم من أسر، أمر عمر بن عبد العزيز بسجنهم حتى يحدثوا خيراً، من الرجوع إلى الحق والتخلى عن أفكارهم الضالة[١]، وقد مات عمر بن عبد العزيز وفى حبسه منهم عدة[٢]. فهذا منهج وفقه عمر بن عبد العزيز فى التعامل مع المعارضين من الخوارج.

ثانيًا: الشيعة:

تذكر فى الإصطلاح كاسم لكل من فضل عليًا رضى الله عنه على الخلفاء الراشدين قبله رضى الله عنهم جميعًا، ورأى أهل بيته أحق بالخلافة[٣]، وقد تحدثت عن الشيعة بالتفصيل فى كتابى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه. والشيعة فرق عديدة منهم الغلاة الذين خرجوا عن الإسلام وهم يدعونه ويدعون التشيع، ومنهم دون ذلك ومن أهم فرقهم: الكيسانية، والسبئية والإمامية وغيرها. وكان لعمر بن عبد العزيز أقوال فى الشيعة الغلاة، فقد قال عمر بن عبد العزيز: إنى لأعرف صلاح بنى هاشم وفسادهم بحب كُثير[٤]، فمن أحبه منهم فهو فاسد، ومن أبغضه فهو صالح، لأنه كان خشبيًا يؤمن بالرجعة[٥]، وجاء عمر بن عبد العزيز كتاب من عامله على الكوفة يخبره بسوء طاعة أهلها، فرد عمر: لا تطلب طاعة من خذل عليًا رضى الله عنه وكان إمامًا مرضيًا[٦]، وعن إسحاق بن طلحة بن أشعث قال: بعثنى عمر بن عبد العزيز إلى العراق فقال: أقرئهم ولا تستقرئهم، وحدثهم ولا تسمع منهم، وعلّمهم ولا تتعلم منهم. فقد كان عمر بن عبد العزيز على معرفة بعقيدة كُثيرٍ الشاعر، ويؤيدها ما يروى أن كثيرٍ عزة له أبيات يثبت فيها عقيدته الفاسدة فى الغلو فى أهل البيت مثل قوله:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء[٧]

---

(١) فقه عمر (٢/ ٤٧٣).
(٢) الطبقات (٥/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٧٣).
(٣) مقالات الإسلاميين صـ٦٥، الآثار الواردة (٢/ ٧٢٧).
(٤) تاريخ الإسلام نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٢٨).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ٧٢٨).
(٦) تاريخ دمشق نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٢٩).
(٧) الفرق بين الفرق نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٣٤).

قال الذهبى: قال الزبير بن بكار عن كثير: كان شيعيًا يقول بتناسخ الأرواح ويقرأ ﴿في أيِّ صورةٍ مَّا شاء ركَّبك﴾ [الانفطار: ٨] قال: وكان خشبيًا يؤمن بالرجعة يعنى رجعة على رضى الله عنه إلى الدنيا(١). ولم يهتم عمر بالرد على ما كان يراه كثير وغيره من الشيعة الغلاة، كما اهتم بالرد على القدرية والخوارج، وحذر عمر بن عبد العزيز من مخالطة ومجالسة أصحاب البدع والأهواء(٢)، ومن أشهر آراء الشيعة الغلاة:

- القول بوجوب إمامة على رضى الله عنه، وتقديمه وتفضيله على سائر الصحابة وأن الرسول نص على إمامته.
- القول بعصمة الأنبياء والأئمة وجوبًا عن الكبائر والصغائر.
- القول بالتولى والتبرى قولاً وفعلاً، أى تولى على رضى الله عنه والتبرى من أصحاب رسول الله ﷺ، ولاسيما الخلفاء الثلاثة رضى الله عنهم(٣)، ومن أراد الرد على هذه المعتقدات فليراجع كتابى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه.

ثالثًا: القدرية فى عهد عمر بن عبد العزيز:

١- تعريف القدرية فى الاصطلاح: للقدرية إطلاقان، خاص وعام:

أ- فالقدرية بالمعنى الخاص: هم المنكرون للقدر: أى المكذبون بتقدير الله تعالى لأفعال العباد أو بعضها، أى الذين قالوا: لا قدر (من الله)، والأمر أنف، أى مستأنف ليس لله فيه تقدير سابق كما سيأتى بيانه بإذن الله.

ب- القدرية بالمعنى العام: هم الخائضون فى علم الله تعالى وكتابته ومشيئته وتقديره وخلقه بغير علم، وبخلاف مقتضى النصوص وفهم السلف(٤).

٢- نشأة القول بالقدر فى الإسلام:

عن جابر بن سمرة ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث أخاف على أمتى: الاستسقاء بالأنوار، وحيف السلطان، وتكذيب بالقدر»**(٥)، كما حذر النبى ﷺ من المراء والجدل

---

(١) تاريخ الإسلام نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٣٤)، والخشبية، فرقة من الشيعة سموا بذلك لقولهم: إنا لا نقاتل بالسيف إلا مع إمام معصوم فقاتلوا بالخشب، منهاج السنة (١/ ٣٦) .

(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٢/ ٧٣٣، ٧٣٤) .

(٣) وسطية أهل الشيعة بين الفرق صـ٢٩٣، ٢٩٤ .

(٤) القدرية والمرجئة د. ناصر العقل صـ ١٩ .

(٥) مسند أحمد (٥/ ٩٠)، صححه الألبانى فى سلسلة الصحيحة رقم ١١٢٧ .

فى الدين عـمومًـا، وفى القدر علـى جهـة الخصـوص، وعن ضرب آيات الله والأحـاديث الصحيحة بعـضها ببعض، وعن إثارة الشبهات والمعارضـات فى نصوص القدر، من ذلك ما رواه أحمد فى المسند عن عمرو بن شعـيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر قال: فكأنما تفقأ فى وجهه حبّ الرمان من الغضب قال: فقال لهم: **ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم**(١).

٣- تتابع الفرق ومقالاتها فى القرن الأول إلى ظهور القدرية:

بعد ظهور الفرق الأولى سنة (٣٧ ـ ٤٠هـ) الخوارج والشيعة بقى الحال على هذا إلى ما بعد سنة (٦٢هـ)، حـيث بزغ نجم القدرية النصـرانية والمجوسـية حين نبغ بهـا بعد معـبد الجهنى، ثم توالت المقـولات على منوالها تترى، أو كمـا قال ابن تيمية: فـالبدع تكون فى أولها شبرًا ثم تكثر فى الأتباع حتى تصير أذراعًا وأميالاً وفراسخ(٢).

أ- ظهور القدرية الأولى: وتتمثل فى مقولات معبد الجهنى (ت٨٠هـ) وأتباعه، ثم غيلان الدمشقى وأتبـاعه (١٠٥هـ) وتتلخص بأن الله تعالى (بزعـمهم) لم يقدِّر أفعـال العباد ولم يكتبـها، وأن الأمر أنف (أى مـستأنـف) لم يكن فى علم الله ولا تقديره السـابق، وكانت بدايات كـلامهم فى هذا بعـد سنة ٦٣هـ ،وهو تاريخ نشأة القـدرية الأولى، إذن فالقـدرية الأولى هم الذين أنكروا علم الله السابق، وزعموا أنه تعالى لم يقـدر أفعال العباد سلفًا ولم يعلمها، ولم يكتبها فى اللوح المحفوظ، وأن الأمر أنف (أى مستأنف) ليس بتقدير سابق من الله تعالى مما استـقل العباد بفعلها. وهذه مـقولة غالية فى القدر حـيث تنكر العلم والكتابة وتقدير عموم أفعال المكلفين؛ خيرها وشـرّها فيما يظهر، هذا أول أمرهم، فلما أنكر الأئمة هذا القول صار جمـهور القدرية يقرون بالعلم المتقدم والكتـاب السابق، لكن ينكرون عموم مشيئة الله وقدرته وخلقه لأفعال العباد، فأنكروا أن يكون الله خالقًا لأفعال العباد أو بعضها وقالوا: إن الله لا يخلق الشر، هذا ما استقرت عليه القدرية الثانية وعلى رأسهم المعتزلة(٣).

وكانت مقالات القدرية الأولى تتخلص فى قولين.

- إن الأمر أنف «أى مستأنف» ويعنون بذلك أفعال المكلفين(٤)، فيزعمون أن الله تعالى لم يقدرها ولم يعلمها إلا أثناء حدوثها من المكلف ويفسره الثانى.

(١) مسند أحمد (٢/١٧٨، ١٩٦)، قال صاحب الزوائد: هذا إسناد رجاله ثقات .

(٢) الفتاوى (٨/٤٢٥) .

(٣) القدرية والمرجئة، ناصر العقل صـ٢٥ .

(٤) الفتاوى (٧/٣٨٥).

– قولهم: إن الله تعالى لم يقدر الكتابة (أى فى اللوح المحفوظ) ولا الأعمال[١]، فى السابق.

ب– رءوس القدرية الأولى:

– **معبد الجهنى (ت٨٠هـ):** ساق ابن حجر فى تهذيب التهذيب أقوال بعض أهل الجرح والتعديل فيه فقال: وقال أبو حاتم: كان صدوقًا فى الحديث، وكان أول من تكلم فى القدر بالبصرة، وكان رأسًا فى القدر، قدم المدينة فأفسد بها ناسًا[٢].

وقال الدارقطنى: حديثه صالح ومذهبه ردى[٣]، وقال محمد بن شعيب بن شابور عن الأوزاعى: أول من نطق فى القدر رجل من أهل العراق يقال له سوسن، وكان نصرانيًا، فأسلم ثم تنصر، فأخذ عنه معبد الجهنى، وأخذ غيلان عن معبد[٤]. وكان مسلم بن يسار يقعد على هذه السارية فقال: إن معبدًا يقول بقول النصارى.

– **غيلان الدمشقى المقتول (١٠٥هـ):** غيلان الدمشقى هو الرجل الثانى بعد معبد الجهنى من رءوس بدعة القدرية، وقد ظهرت مقولته بالشام وافتتن بها خلق[٥]، ولم يقتصر غيلان على مقولات معبد، بل تكلم فى الصفات، فنفى بعض الصفات، كالاستواء[٦]، ونسب إليه كذلك: القول بأن الإيمان هو المعرفة، وأن الأعمال لا تدخل فى مسمى الإيمان والقول بخلق القران[٧]، وهى أصول الجعد بن درهم بعده، ثم أصول الجهمية والمعتزلة، حيث وضعوا بها القواعد والأصول وناظروا فيها وتوسعوا فى هذه البدع[٨]، ويقال: إن أول من أنكر استواء الله على عرشه وأوله بالاستيلاء غيلان الدمشقى (قتل ١٠٥هـ) أو الجعد بن درهم (قتل ١٢٤هـ)، وقيل: الجهم بن صفوان (قتل ١٢٨هـ). وإنكار الاستواء ينسجم مع قاعدة الجعد الخبيثة فى التعطيل التى أنكر بها الكلام والخلة، والأرجح أن أول من حفظ عنه أنه قال بأن الله ـ تعالى– ليس على العرش حقيقة: الجعد، ثم أخذها عنه الجهم وأظهرها[٩]، وإنكار الاستواء وتأويله هو الشرارة الأولى لأهل الأهواء والتى فيها خاضوا فى صفات الله ـ تعالى ـ نفيًا وتعطيلاً وتأويلاً، ذلك أن الاستواء مرتبط بالعلو

(١) القدرية والمرجئة صـ٣٠ .
(٢) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥) .
(٣)، (٤) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٦) .
(٥) القدرية والمرجئة، ناصر العقل صـ٣٢ .
(٦) دراسات فى الأهواء والفرق والبدع صـ٢٥١ .
(٧) المصدر نفسه صـ٢٥٠ .
(٨) المصدر نفسه صـ٢٥١ .
(٩) الفتاوى (٥/ ٢٠)، دراسات فى الأهواء والفرق صـ٢٥١ .

والفوقية، فالرؤية، ثم صفات الله الفعلية، ومنها تجرأوا على بقية الصفات الخبرية كاليد والعين والوجه وهلم جرا(١).

- موقف عمر بن عبد العزيز من غيلان الدمشقى:

عن عمرو بن مهاجر قال: بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان بن مسلم يقول فى القدر، فبعث إليه فحجبه أيامًا، ثم أدخله عليه فقال: غيلان ما هذا الذى بلغنى عنك؟ قال عمرو ابن مهاجر: فأشرت إليه أن لا يقول شيئًا، قال: فقال: نعم يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل قال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١ - ٣]. قال: اقرأ آخر السورة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠، ٣١] ثم قال: ما تقول يا غيلان؟ قال: أقول: قد كنت أعمى فبصرتنى، وأصم فأسمعتنى، وضالاً فهديتنى(٢). وفى رواية: دعا عمر بن عبد العزيز غيلان، فقال: يا غيلان، بلغنى أنك تتكلم فى القدر فقال: يا أمير المؤمنين إنهم يكذبون على؟ فقال يا غيلان، اقرأ أول «يس» فقرأ ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ حتى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١ - ١٠]. فقال غيلان: يا أمير المؤمنين، والله لكأنى لم أقرأها قط قبل اليوم، أشهدك يا أمير المؤمنين أنى تائب مما كنت أقول، فقال عمر: اللهم إن كان صادقًا فثبته، وإن كان كاذبًا فاجعله آية للمؤمنين(٣)، وجاءت روايات كثيرة فى محاورة عمر بن عبد العزيز لغيلان الثقفى وكان له حديث طويل فى معتقد أهل السنة فى مسألة الإيمان بالقدر، وقد ناقش عمر بن عبد العزيز القدرية وسألهم عن العلم، وذلك بسؤالهم عن علم الله، فإذا أقروا به خصموا وإن جحدوا كفروا، فقال لغيلان الدمشقى: ما تقول فى العلم؟ قال: قد نفد العلم. قال: فأنت مخصوم، اذهب الآن فقل ما شئت، ويحك يا غيلان إنك إن أقررت بالعلم خصمت وإن جحدته كفرت، إن تقر به فتخصم خير لك من أن تجحده فتكفر(٤). ولعل عمر بن عبد

(١) دراسات فى الأهواء والفرق والبدع صـ٢٥١ .
(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧٥٠).
(٣) الإبانة (٢/ ٢٣٥)، الآثار الواردة (٢/ ٧٤٩) .
(٤) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (٢/ ٤٢٩) .

العزيز أول من نهج هذا النهج في سؤال القدرية عن العلم، ثم صار هذا المنهج منهجًا لأهل السنة بعده، وقد استدل رحمه الله في ردوده على غيلان بآيات صريحة في الرد على المكذبين بالقدر -كما جاء في بعض الروايات ـ وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣]. قال ابن حجر رحمه الله في تفسير هذه الآيات: يقول تعالى: فإنكم أيها المشركون بالله وما تعبدون من الآلهة والأوثان ما أنتم عليه بفاتنين؛ أي بمضلين أحدًا إلا من سبق في علمي أنه صال الجحيم(١). وقد بين عمر في خطبه ورسائله أن الله تبارك وتعالى هو الهادي وهو المضل، وهذا ما جاء في الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، . وغيرها من الآيات. وقد كانت القدرية تنكر أن يكون الله تعالى هو الهادي وهو الفاتن، وإنما العبد هو الذي يهدي نفسه إذا شاء، ويضلها إذا شاء، فلعل رسائل عمر وخطبه في الجمع من الردود على هؤلاء المبتدعة، وسواء قصدهم عمر بخطبه أو ألقاها بدون قصد الرد عليهم تبقى ردودًا قوية على كل من انحرف في باب القدر عن منهج الكتاب والسنة، وقد بين عمر بن عبد العزيز أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى مقدرة له مكتوبة على عباده، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. وقال ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»(٢). وقد بين عمر بن عبد العزيز ـ كما جاء في خطبه ـ أن العبد إذا أذنب فعليه أن يتوب ويستغفر الله تعالى، ولا يحتج على الله بالقدر ولا يقول: أي ذنب لي وقد قدر عليَّ هذا الذنب، بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب، وإن كان ذلك كله بقضاء الله وقدره ومشيئته، إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته وخلقه، كما رد عمر على القدرية القائلين بأن العبد له مشيئة، مستقلة يستطيع بها رد علم الله، فبين أن العبد له قدرة ومشيئة، ولكنها تابعة لمشيئة الله تعالى(٣).

٤ ـ بيان مراتب القدر:

إن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- تدل بمجموعها على الإيمان بالقدر، كما تدل على الإيمان بمراتب القدر الأربعة التي اتفق السلف الصالح -رحمهم الله تعالى- ومن سار على نهجهم على أنه لا يتم الإيمان بالقدر إلا بالإيمان بها كلها. وهي: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، وكان القدرية الموجودون في زمن عمر بن عبد العزيز

(١) تفسير الطبري (٢٣/١٠٩) .
(٢) مسلم رقم ٢٦٥٥.
(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/٧٦٩، ٧٧٠).

ينكرون العلم والكتابة، وهؤلاء هم الذين تـبرأ منهم عبد الله بن عمـر بن الخطاب بقوله: إذا لقيت أولئك فأخـبرهم أنى برىء منهم، وأنهم براء منى[1]. ومن كلام عمـر بن عبد العزيز فى بيـان مراتب القدر رده على الرجل الذى كتب إليـه فجاء فى رسالتـه: . . كتبت تسأل عن الإقرار بالقدر فعلى الخبير بإذن الله وقعت، وما أعلم ما أحدث الناس من محدثة ولا ابتدعـوا من بدعة هى أبين أثرًا ولا أثبت أمـرًا من الإقرار بالقـدر، لقد كـان ذكره فى الجاهلية الجهلاء يتكلمون به فى كلامهم وفى شعرهم، يعزون به أنفسهم على ما فاتهم، ثم لم يزده الإسلام بعد إلا شدة، ولـقد ذكره رسول الله ﷺ فى غير حـديث ولا حديثين، وقد سمعه منه المسلمـون فتكلموا به فى حياته، وبعد وفاته يقينًا وتسليمًـا لربهم، وتضعيفًا لأنفسهم أن يكون شيء لم يحط به عـلمه ولم يحصه كتابه ولـم يمض فـيه قدره، وأنه مع ذلك لفى محكم كتابه؛ منه اقتبسوه ومنه تعلموه، ولئن قلتم: لِمَ أنزل الله آية كذا ولِمَ قال كذا، لقد قـرأوا منه ما قرأتم، وعلمـوا من تأويله ما جهلتم، وقالوا بعـد ذلك كله بكتاب وقدر، وكتب الشقاوة وما يقدر يكن ومـا شاء كان وما لـم يشأ لم يكن، ولا نملك لأنفسنا ضرًا ولا نفـعًا ثم رغبوا بعـد ذلك ورهبوا[2]. ومن خلال رسـائل وخطب عمر بن عـبد العزيز يتضح معتقد عمر بن عبد العزيز فى القدر وفى بيانه لمراتبه، والمراتب هى:

أ ـ العلم: والمقصود أن الله تبارك وتعالى قد علم ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون قبل أن يخلقهم بـعلمه القديم الذى هو صفة من صـفات ذاته، وأنه يعلم أهل الجنة وأهل النار، قال تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا**﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومن السنة قوله ﷺ لرجل سأله بقـوله: يا رسول الله، أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: ﷺ: **نعم**. قال: ففيم يعمل العاملون؟ قال: **كل ميسر لما خلق له**[3].

ب ـ الكتابة: خطب عمر بن عبد العزيز فقال: أيهـا الناس من عمل منكم خيرًا فليحمد الله تعالى، ومن أساء فليسـتغفر الله، ثم إن عاد فليستغفـر الله فإنه لابد لأقوام أن يعملوا أعمالاً وضعها الله فى رقـابهم وكتبها عليهم[4]. وخطب يومًا فقال: إن الدنيا ليست بدار قرار، دار كتب اللـه عليها الفناء، وكتب على أهلهـا منها الظعن[5]. فهذا هو المأثور عن

(١) مسلم، ك الإيمان، باب القدر (١/ ٣٦، ٣٧).

(٢) الإبانة لابن بطة (٢/ ٢٣١ - ٢٣٣)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٥١٠).

(٣) مسلم رقم ٢٦٤٩ .

(٤) الآثار الواردة (١/ ٥١٩) نقلا عن الشريعة للآجرى. (٥) سيرة عمر لابن الجوزى ص ٢٤٤.

عمر من كتابة الله مقادير الخلائق قبل خلقهم، وإحصائه كل ذلك، وعلمه جزئيات كل شيء[١]. قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢] وقال رسول الله ﷺ: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»**[٢].

جـ- المشيئة: والمقصود بها: أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون فى السماوات والأرض إلا بمشيئته سبحانه وتعالى، فلا يكون فى ملكه إلا ما يريد، وقد حرص عمر بن عبد العزيز على توضيح هذه المرتبة والرد على من أنكرها؛ ففى رسالته إلى عامله يقول: وما يقدر يكن وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وكان يقول: لو أراد الله أن لا يُعصى ما خلق إبليس[٣]، وناظر غيلان الدمشقى وأفحمه حين بين له خطأه فى الاحتجاج بأوائل الآيات من سورة الإنسان، فطلب منه أن يقرأ آخر السورة وقال له: ويحك أما تسمع الله يقول: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩] وقال رسول الله ﷺ: **«قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء . ثم قال: يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»**[٤].

د- الخلق: المقصود بها أن الله تعالى هو خالق الخلق وخالق كل شيء، فهو الذى خلق الكون وأوجده، فهو الخالق وما سواه مربوب مخلوق[٥]، ولعمر بن عبد العزيز فى تقرير هذه المرتبة أبلغ البيان، فقد كتب فى قوله تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. قال: الذين لا يختلفون خلقهم الله للرحمة[٦]. فهذه الآية تضمن خلق العباد وأعمالهم[٧]، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ...﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. وكتب إلى عدى بن أرطأة أما بعد: فإن استعمالك سعد بن مسعود على عمان من الخطايا التى قدر الله عليك وقدر أن تبتلى بها[٨]، وهذا الذى قرره عمر بن عبد العزيز دلّ عليه الكتا

(١) الآثار الواردة (١/ ٥١٩) .
(٢) مسلم رقم ٢٦٥٣ .
(٣) الآثار الواردة (١/ ٥٢٤) .
(٤) مسلم رقم ٢٦٥٤ .
(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٥٢٥).
(٦) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٧٤ .
(٧)، (٨) مصنف عبد الرزاق (١١/ ١٢٢) .

والسنة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ٦١] وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وقال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»[١].

٥ ـ الفرق بين القضاء والقدر في الاصطلاح:

قيل المراد بالقدر: التقدير، وبالقضاء: الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]. أي خلقهن. في القضاء والقدر أمرين متلازمين، لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه[٢]. وقيل: إن القضاء هو العلم السابق الذى حكم الله به في الأزل، والقدر هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضى السابق[٣]، وقال ابن حجر: وقالوا ـ أي العلماء ـ: القضاء هو الحكم الكلى الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله[٤]. وقيل: إذا اجتمعا افترقا؛ بحيث يصبح لكل واحد منهما مدلول بحسب ما مر في القولين السابقين، وإذا افترقا اجتمعا، بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر[٥]، قياسًا على ما جاء في التفريق بين الإيمان والإسلام، والفقير والمسكين ونحو ذلك. ولعل هذا التعريف توفيق بين من يرى التفرقة بين القضاء والقدر وبين من لا يرى ذلك. والذى يظهر أنه ليس هناك فرق واضح بين القضاء والقدر[٦]، ولا فائدة من هذا الخلاف، لأنه قد وقع الاتفاق على أن أحدهما يطلق على الآخر، وعند ذكرهما معًا، فلا مشاحة من تعريف أحدهما بما يدل على الآخر[٧].

٦ ـ الرضا بالقضاء والقدر:

قال عمر بن عبد العزيز ما أصبح لى اليوم في الأمور هوى إلا في مواقع قضاء الله فيها[٨]، وكان يدعو بهذا الدعاء: اللهم رضنى بقضائك، وبارك لى في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت. وكان عمر يقول: ما برح بى هذا الدعاء حتى لقد أصبحت وما لى في شيء من الأمور هوى إلا في موضع القضاء[٩]. وقال حين

(١) مسلم رقم ٢٦٥٥ .
(٢) النهاية لابن الأثير (٤/ ٧٨) .
(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٩٤) .
(٤) فتح البارى (١١/ ٤٨٦) .
(٥) القضاء والقدر لمحمد بن إبراهيم الحمد صـ ٢٩، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٩٤).
(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٩٤) .
(٧) القضاء والقدر عبد الرحمن المحمود صـ٤٤ .
(٨) الطبقات (٥/ ٣٧٢)، الآثار الواردة (١/ ٥٣٥) .
(٩) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٩٧ .

دفن ابنه عبد الملك: رضينا بقضاء الله وسلمنا لأمره، والحمد لله رب العالمين[1]. ولما عزى فى ابنه عبد الملك قال: وأنا أعوذ بالله أن يكون لى محبة فى شىء من الأمور تخالف محبة الله، فإن ذلك لا يصلح لى فى بلائه عندى وإحسانه إلى[2]. تحث الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى هذا المبحث على الرضا بالقضاء، والمقصود بالقضاء الذى قدره الله على عبده من المصائب التى ليست ذنوبًا، فإن الصبر على المصائب واجب، وأما الرضا بها فهو مشروع، لكن هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين لأصحاب أحمد وغيرهما؛ أصحها أنه مستحب ليس بواجب[3]. ولا شك أن الرضا بالقضاء من تمام الإيمان بالقضاء والقدر وهو دليل على الثقة بما عند الله تعالى، فلا يندم على ما فات، ولا يفرح بما هو آت مما قدره الله تعالى له، فهو يرضى به على وفق قضاء الله له[4].

رابعًا: المرجئة:

نسبة إلى الإرجاء، وهو تأخير العمل عن الإيمان[5].

والإرجاء على معنيين:

أحدهما: بمعنى التأخير فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] أى: أمهله وأخره. والثانى: إعطاء الرجاء[6].

والمرجئة فى الاصطلاح عرفهم الإمام أحمد بقوله: هم الذين يزعمون أن الإيمان مجرد النطق باللسان، وأن الناس لا يتفاضلون فى الإيمان، وأن إيمانهم وإيمان الملائكة والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم واحد، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأن الإيمان ليس فيه استثناء، وأن من آمن بلسانه ولم يعمل فهو مؤمن حقًا[7]. والمرجئة الخالصة: هم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ومن هؤلاء جهم وأصحابه[8]، وأول من تكلم فى الإرجاء الذى هو تأخير الأعمال عن الإيمان غيلان الدمشقى، كما يقول الشهرستانى[9]، وأما الإرجاء المنسوب إلى أبى محمد الحسن بن محمد المعروف بابن الحنفية فليس هو الإرجاء فى الإيمان، وإنما هو إرجاء أمر المقاتلين من

(١) الآثار الواردة (١/٥٣٦).
(٢) الحلية (٥/٣٥٧، ٣٥٨)، الآثار الواردة (١/٥٣٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/١٩١).
(٤) الآثار الواردة (١/٥٣٨).
(٥) الفرق بين الفرق للبغدادى صـ٢٠٢، وسطية أهل السنة صـ٢٩٤.
(٦) الملل والنحل للشهرستانى (١/١٣٩).
(٧) موقف أهل السنة من أهل الأهواء والبدع (١/١٥٢).
(٨) وسطية أهل السنة بين الفرق، صـ٢٩٤.
(٩) الملل والنحل (١/١٣٩).

الصحابة إلى الله عز وجل[1]، وقال ابن سعد في ترجمته وهو أول من تكلم في الإرجاء. ويذكر -كذلك- أن زاذان وميسرة دخلا عليه فلاماه على الكتاب الذى وضع فى الإرجاء فقال لزاذان: يا أبا عمر لوددت أني كنت مت ولم أكتبه[2]، فهذا الكتاب إنما فيه إرجاء أمر المشتركين فى الفتنة التى حدثت بعد خلافة أبى بكر وعمر إلى الله عز وجل[3]، وقد ذكر ابن حجر: أنه اطلع على هذا الكتاب الذى ألفه الحسن بن محمد وقال: المراد بالإرجاء الذى تكلم الحسن بن محمد هو غير الإرجاء الذى عيبه أهل السنة: المتعلق بالإيمان[4]، وأهم أقوالهم التى خالفوا فيها أهل السنة:

- قولهم بتأخير الأعمال عن مسمى الإيمان.
- وقول الخالصة منهم: أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة[5].

وقد جاءت عن عمر بن عبد العزيز آثار خاصة تدل على زيادة الإيمان وإدخال الأعمال فيه. وهذه الآثار رد على المرجئة ولاسيما أن أهل العلم قد ذكروا هذه الآثار فى معرض ردودهم على المرجئة. كما ورد عنه - رحمه الله تعالى - التحذير عن البدع كلها ولا بدعة أظهر من بدعة الإرجاء[6]، وهاهى الآثار الواردة عنه فى هذا المبحث، فقد مرّ معنا قوله: إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً، فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن متُّ فما أنا على صحبتكم بحريص[7]. وقال: لا عذر لأحد بعد السنة في ضلالة ركبها يحسب أنها هدى[8]. وقال: فلو كان كل بدعة يميتها الله على يدى وكل سنة ينعشها الله على يدى ببضعة من لحمى حتى يأتى آخر ذلك على نفسى كان فى الله يسيراً[9]. يتبين مما سبق أن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- كان حريصًا على رد البدع كلها. حتى ولو أدى ذلك إلى أن يضحى بأعضائه كلها، وقد بين فى تلك الآثار القول الصحيح فى الإيمان وأنه يشمل العبادات كلها، وأولى عناية خاصة بشُعبه، ووعد بأنه إن عاش فسيحمل رعيته عليها، ففى هذا

---

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق صـ٢٩٥.

(٢) الطبقات (٥/٣٢٨)، قضية الثواب والعقاب، د. السميرى صـ٣٠ .

(٣) قضية الثواب والعقاب للسميرى صـ٣٠ .

(٤) تهذيب التهذيب (٢/ ٣٢٠)، قضية الثواب والعقاب صـ٣٠ .

(٥) وسطية أهل السنة بين الفرق صـ٢٩٥ .

(٦) الآثار الواردة (٢/ ٨١٣) .

(٧) سيرة عمر لابن الحكم صـ٤٠، الآثار الواردة (٢/ ٨١٣) .

(٨) الآثار الواردة (٢/ ٨١٤) .

(٩) الطبقات (٥/ ٣٤٣) .

المأثور عنه بيان للقول الصحيح فى الإيمان، وقد وضحت مفهومه للإيمان عند الحديث عن اهتمامه بعقائد أهل السنة، كما أن فيه الرد على بدعة الإرجاء لأن إحقاق الحق إبطال للباطل، وهذا المأثور عنه هو الحق الثابت عنه فى مسألة الإيمان[١]. وأما ما رواه ابن سعد فى الطبقات أن عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة جاءه راحلاً إليه عون بن عبد الله وموسى بن أبى كثير وعمر بن حمزة وفى بعض المراجع عمر بن ذر فكلموه فى الإرجاء وناظروه فزعموا أنه وافقهم ولم يخالفهم فى شيء منه[٢]. فهذا لا يثبت عنه لما يلى:

- لأن ابن سعد رواه بدون سند فهو إذًا منقطع.
- ولأنه زعموا فيه صيغة التمريض (زعموا).
- وأيضًا إن مثل هذا الزعم والادعاء لا يعول عليه لأن رواته متهمون بالإرجاء[٣].

هذا وعلى فرض تسليم تلك الرواية فإن عون بن عبد الله قد تاب عن الإرجاء. وقد روى ذلك اللالكائى بسنده عن نوفل الهذلى عن أبيه قال: كان عون بن عبد الله بن مسعود من آدب أهل المدينة وأفقههم، وكان مرجئًا ثم رجع فأنشد يقول:

لأول ما نفارق غير شك ... نفارق ما يقول المرجئونا
وقالوا مؤمن من أهل جور ... وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا مؤمن دمه حلال ... وقد حرمت دماء المؤمنين[٤]

فثبت أن عون بن عبد الله -رحمه الله- قد رجع عن القول بالإرجاء، ولعل قوله بالإرجاء كان قبل اتصاله بعمر رحمه الله تعالى اتصالاً وثيقًا وكونه من المقربين عنده[٥].

خامسًا: الجهمية:

تنتسب الجهمية إلى الجهم بن صفوان من أهل خراسان ومولى لبنى راسب، تتلمذ على الجعد بن درهم، وكان كاتبًا للحارث بن سريح[٦]، الذى أثار الفتن ضد الدولة الأموية فى خراسان، وكان جهم يقرأ سيرته ويدعو إلى توليته[٧]، ويحرص الناس على الخروج معه،

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٨١٤) .
(٢) الطبقات (٦/ ٣٣٩)، سير أعلام النبلاء (٥/ ١٠٤) .
(٣) الآثار الواردة (٢/ ٨١٥) .
(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ١٠٧٧) .
(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٢/ ٨١٦) .
(٦) حقيقة البدعة وأحكامها (١/ ١١٥) .
(٧) الكامل فى التاريخ نقلاً عن حقيقة البدعة (١/ ١١٥).

وفى سنة ١٢٨هـ وقعت معركة بين جيش أمير خراسان ـ نصر بن سيار ـ وجيش الحارث ابن سريح، وكان جهم بن صفوان فى جيش الحارث، فطعنه رجل فى فمه فقتله، وقيل: بل أسر وأوقف بيت يدى سلم بن أحوز(١) فأمر بقتله(٢)، وأهم أصول الجهمية:

١- تبنى الجهم آراء الجعد بن درهم والتى هى نفى صفات الله عز وجل، والقول بخلق القرآن ثم زاد عليها بدعًا أخرى.

٢- القول بالجبر، حيث زعم أن الإنسان لا يقدر على شىء، ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبور على أفعاله.

٣- القول بأن الإيمان هو المعرفة حيث زعم أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط.

٤- القول بفناء الجنة والنار حيث زعم أنهما تفنيان بعد دخول أهلهما فيهما، إذ لا يتصور -على حسب زعمه- حركات لا تتناهى.

٥- القول بأن علم الله حادث، حيث زعم أنه لا يجوز أن يعلم الشىء قبل خلقه(٣). فنفى الصفات أخذها الجهم من الجعد؛ ومن الفلاسفة، والسمنية(٤)، وذلك أن الجهم كان فصيح اللسان ولم يكن له علم ولا مجالسة لأهل العلم فكلم السمنية فقالوا له: صف لنا ربك عز وجل الذى تعبده، فدخل البيت ولم يخرج، ثم خرج إليهم بعد أيام فقال: هو هذا الهواء مع كل شىء وفى كل شىء ولا يخلو منه شىء، وروى الإمام أحمد يرحمه الله مناظرة وقعت بين الجهم والسمنية فى إثبات الله عز وجل انتهى فيها الجهم إلى أن شبه الله فيها الروح التى لا ترى ولا تحس ولا تسمع(٥). ويقول ابن تيمية: إن الجعد بن درهم قيل إنه من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة. . .ومذهب النفاة من هؤلاء فى الرب: إنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية أو مركبة منها. . .فيكون الجعد قد أخذها من الصابئة والفلاسفة(٦)، وكان الجهم قد أخذ بمعتقدات الجعد(٧).

(١) البداية والنهاية نقلاً عن حقيقة البدعة وأحكامها (١/ ١١٥) .

(٢) المصدر نفسه (١/ ١١٦).

(٣) تناقض أهل الأهواء والبدع فى العقيدة (١/ ١٣١) .

(٤) السمنية: قوم من الزنادقة الهنود لهم فلسفة خاصة ومدرسة فكرية ضالة. ظاهرة الإرجاء فى الفكر الإسلامى (٢/ ٣٩٢) .

(٥) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد صـ٤٤، ٤٥ .

(٦) الفتاوى (٥/ ٢١، ٢٢)، تناقض أهل الأهواء والبدع (١/ ١٣١) .

(٧) تناقض أهل الأهواء والبدع (١/ ١٣١).

وأما القول بالجبر فقد قاله المشركون من العرب قبله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. فيخبر الله تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك محتجين بالقدر، فمضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهًا لما فعلناه لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه(١).

وأما القول بأن الإيمان هو المعرفة فقد قالت بهذا القول المرجئة قبله، وأما القول بفناء الجنة والنار، فمصدره الإسماعيلية(٢) والباطنية وأهل الكلام واليهود، يقول ابن أبى العز يرحمه الله عن الجهم بن صفوان: وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين ولا من أهل السنة. . .وهذا قاله لأصله الفاسد الذى اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث وهو عمدة أهل الكلام المذموم(٣). وأهل الكلام المذموم عامتهم لا يرون قطعية شيء من دلالة الكتاب والسنة، دلالتها كلها عندهم ظنية، فالمتكلمون قد أخذوا علومهم ومصطلحاتهم من الفلاسفة والمناطقة(٤)، الذين يرجعون فى أصولهم إلى المجوس والنصارى واليهود.

وأما القول بأن علم الله حادث فقد اقتبسه الجهم من معبد، ومعبد أخذه من سوسن النصرانى، فدل ذلك على مدى تأثر كبار الفرق وأخذه من الأمم الهالكة، فما بالك بمن جاء بعدهم(٥). وما جاء من الآثار عن عمر بن عبد العزيز تعتبر ردودًا عامة على الجهمية، وقد أوردها علماء السلف ضمن ردودهم عليهم كالإمام أحمد والدارمى، وغيرهما من علماء السلف. فعن جعفر بن برقان، قال: جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فسأله عن بعض الأهواء فقال: انظر دين الإعرابى والغلام فى الكُتَّاب فاتبعه وَالْهُ عما سوى ذلك(٦).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٦٢٦) .

(٢) الإسماعيلية: منسوبون إلى محمد بن إسماعيل وهو ابن جعفر الصادق، يقولون بالتفسير الباطنى، وإن الله عز وجل اختص بالعلم على بن أبى طالب، ويقولون بكفر من خالف عليًا. الفرق بين الفرق صـ٤٢، تناقض أهل الأهواء والبدع فى العقيدة (١/ ١٣٢) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية صـ ٤٢٠ .

(٤)، (٥) تناقض أهل الأهواء والبدع (١/ ١٣٣) .

(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٢/ ٨١٩).

وقال: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر فى أمر خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً(١). قال عبد الله بن عبد الحكم: سمعت مالكًا يقول: وأعجبنى عزم عمر فى ذلك(٢). وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل(٣). وهذه الآثار عن عمر بن عبد العزيز أوردها علماء السلف فى ردهم على الجهمية، ولا شك أنها تعتبر ردًا على جميع المبتدعة، وذلك فى أمره -رحمه الله- بالتمسك بما تدل عليه الفطرة من إثبات ما للخالق من صفات الكمال، ونعوت الجلال، كإثبات الفوقية والعلو، وغير ذلك مما تدل عليه الفطرة السليمة. وكذلك أمره بالنهى عن الخصومات فى الدين بغير علم، ولم يقع جهم فيما وقع فيه إلا بسبب الخصومات فيما لا علم له به، فضلَّ وأضل. وكان السلف الصالح يستدلون بما أثر عن عمر بن عبد العزيز فى الأخذ بسنن رسول الله ﷺ، وسنن الخلفاء الراشدين من بعده فى ردهم على الجهمية مثلما فعله ابن تيمية فى الفتوى الحموية حيث ذكر أن أبا القاسم الأزجى روى بإسناده عن طرف بن عبد الله، قال: سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول: قال عمر بن عبد العزيز، ويذكر الأثر، سن رسول الله وولاة الأمر من بعده.. وقال الشاطبى متحدثًا عن هذا الأثر: إنه كلام مختصر جمع أصولاً حسنة من السنة منها قطع مادة الابتداع جملة. ومنها المدح لمتبع السنة وذم لمن خالفها، ومنها أن سنة ولاة الأمر وعملهم تفسير لكتاب الله وسنة رسوله، فقد جمع كلام عمر أصولاً حسنة وفوائد مهمة(٤)، وقد أورد الإمام أحمد فى كتابه «الرد على الجهمية» أثر عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل(٥)، وقد أخذت المعتزلة من الجهمية نفى صفات الله والقول بخلق القرآن، وهذا الاتفاق بين الجهمية والمعتزلة على نفى صفات الله والقول بخلق القرآن جعل كثيراً من محققى علماء المسلمين يسمون المعتزلة جهمية، ولهذا لا بد من الحذر عند اطلاق أسماء الفرق بعضها على بعض، لأنه لا يكاد توجد فرقة إلا وتشترك مع أخرى فى جانب من الاعتقاد، فلو تجوزنا فى إطلاق اسم هذه الفرقة على

(١) الآثار الواردة (٢/ ٨٢٠).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ ٤٠.
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٤٢٥).
(٤) الاعتصام نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٨٢٢).
(٥) الرد على الجهمية الإمام أحمد صـ ٦٩.

من شاركها لحصل الإلتباس وما استقام المنهج أبداً، إذن لا بد من إطلاق اسم الفرقة على المسمى الصحيح بحيث لا يستعار لغيرها ألبتة، وهذا من الناحية العلمية أدق وأسلم[1].

سادسًا: المعتزلة:

اسم يطلق على تلك الفرقة التى ظهرت فى الإسلام فى أوائل القرن الثانى على يد واصل بن عطاء[2]، وسلكت منهجًا عقليًا صرفًا فى بحث العقائد، وقررت أن المعارف كلها عقلية حصولاً، ووجوبًا، قبل الشرع وبعده، وهم أرباب الكلام، وأصحاب الجدل[3].

١- نشأة المعتزلة وسبب التسمية: دخل رجل على الحسن البصرى فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون مصير أصحاب الكبائر لأمر الله تعالى، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادًا؟ ففكر الحسن فى ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا، ولا كافر مطلقًا، بل هو فى منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم قام لفوره، واعتزل حلقة شيخه إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فسمى هو وأصحابه معتزلة[4]، وهذا القول يكاد يجمع عليه مؤرخو الفرق[5]، ولا علاقة بتسمية المعتزلة بالصحابة الكرام لا من قريب ولا بعيد، فالصحابة الذين اعتزلوا الفتنة بين على ومعاوية وفى الجمل -رضى الله عنهم- لم يسموا معتزلة بالمعنى الاصطلاحى الذى يفهم من مدلول هذه الكلمة وإنما بالمعنى اللغوى، يؤيد ذلك أن المعتزلة الذين نحن بصدد الحديث عنهم إنما سموا بذلك لاعتزالهم مذهب أهل السنة والجماعة، وأصحاب رسول الله ﷺ هم أئمة أهل السنة والجماعة، فكيف يُجعلون سلفًا للمعتزلة الذين اقتفوا أثر العقل دون الشرع؟ وبذلك يعلم خطأ من جعل أصحاب رسول الله سلفًا لهؤلاء المعتزلة، فإن المعتزلة جعلوا الاعتزال دينًا لهم يتعبدون الله تعالى على

(١) قضية الثواب والعقاب بين مدارس الإسلاميين صـ٣٤ .

(٢) أبو حذيفة واصل بن عطاء البصرى، الغزّال المتكلم، كان من أجلاد المعتزلة، سمع الحسن البصرى، له من التصانيف كتاب: أصناف المرجئة، وكتاب: معانى القرآن، وهو من الطبقة الرابعة من طبقات المعتزلة ت ١٣١هـ .

(٣) التنبيه والرد للملطى صـ٥٠ .

(٤) الفرق بين الفرق صـ١١٨ .

(٥) آراء المعتزلة الأصولية، د.على الضويحى صـ٧١.

أساس تعاليمه، وأما أولئك الصحابة فاعتزلوا الفتنة طلبًا للسلامة من الإثم وصونًا للدماء[1]. وقد تميز المعتزلة عن أهل السنة والجماعة بمدرسة منهجية فكرية خاصة، الهيمنة فيها للعقل وحده بلا منازع، وتركوا التمسك بالنصوص الشرعية، التى فيها محض الهدى والعصمة من الانحراف والضلال[2].

٢- فرق المعتزلة: لمّا كانت القاعدة الرئيسية التى اعتمد عليها المعتزلة هى العقل، به يثبتون وبه ينفون، وبسبب انغماس المعتزلة فى الفلسفة اليونانية القائمة على الجدل والخصومة دبَّ الخلاف بين رجال هذه الفرقة، وتشعبت آراؤهم، وتفرقوا إلى اثنتين وعشرين فرقة منها: الواصلية والعمروية والهذلية والنظامية... الخ. ولكل فرقة من هذه الفرقة بدع خاصة بها، وكلهم يجتمعون على الأصول الخمسة فى الجملة، لكنهم يختلفون فى جزئيات داخل هذه الأصول، ولا عجب فى ذلك ما دام العقل هو المحكِّم عندهم ولكل اهتماماته المختلفة عن الآخر[3].

٣- دور المعتزلة فى إحياء عقائد الفرق التى سبقتها: أخذت المعتزلة عن ثلاث فرق سابقة عليها، وأحيت بدورها تلك العقائد، ولكن بشكل آخر، فأخذت عن الخوارج، وعن القدرية الغلاة، وعن الجهمية[4].

*** ما أخذته من الخوارج:**

أ- حكم مرتكب الكبيرة فى الآخرة: يقول البغدادى: ثم إن واصلاً وعمرًا، وافقا الخوارج فى تأييد عقاب صاحب الكبيرة فى النار مع قولهما بأنه موحِّد، وليس بمشرك ولا كافر[5]. من هذا النص يظهر لنا أن المعتزلة أحيت عقيدة الخوارج فى صاحب الكبيرة فى الآخرة، ولكن لم تحكم عليه بالكفر فى الدنيا[6].

ب- الخروج على أئمة الجور: إن مما أجمعت عليه الخوارج: وجوب الخروج على الإمام الجائر بالقوة والسلاح لإزالة الظلم والبغى، وإقامة العدل والحق كما يقولون[7]، وصرفوا نصوص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى منازعة الأئمة والخروج عليهم وقتال المخالفين[8]. وقد

(١) آراء المعتزلة الأصولية صـ٧٢.
(٢) المصدر نفسه صـ٧٦.
(٣) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة صـ١٨.
(٤) المصدر نفسه صـ١٩.
(٥) الفرق بين الفرق صـ١١٩، تأثير المعتزلة صـ٢٠.
(٦) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة صـ٢٠.
(٧) مقالات الإسلاميين (١/ ٢٠٤)، الملل والنحل (١/ ١١٥).
(٨) الخوارج أول الفرق فى تاريخ الإسلام، ناصر العقل صـ٣٧.

أخذت المعتزلة هذا المبدأ عن الخوارج وأحيوه نظريًا تحت أصل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، يقول أبو الحسن الأشعرى: أجمعت المعتزلة إلاّ الأصم على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الإمكان والقدرة باللسان، واليد، والسيف، كيف قدروا على ذلك[1]. وقال فى موطن آخر: وأوجبوا الخروج على السلطان على الإمكان والقدرة[2].

ج ـ **قضية التأويل**[3]: الخوارج هم أول من فتح باب التأويل الباطل فى تاريخ الأمة، فأعملوا التأويل فى نصوص الحكم بغير ما أنزل الله، ونصوص الوعيد، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ثم جاءت الفرق بعدها فورثت هذا المنهج وطبقته فى الاستدلال على بدعها التى أحدثتها، ومن تلك الفرق: المعتزلة التى أعملت التأويل فى نصوص الصفات لتقرر التعطيل، بينما لم يكن استعماله فى نصوص الصفات عند الخوارج[4]. وقال ابن تيمية: ولم يعرف فيهم ـ الخوارج ـ الكلام وتأويل الصفات إلا بعد ظهور المعتزلة[5]. واستخدم المعتزلة التأويل فى نصوص القدر، ولم يكن هذا عند الخوارج أيضًا وهكذا، فالخلاصة: أن المعتزلة ورثت منهج التأويل من الخوارج، وعضّت عليه بالنواجذ، وأصبح عندهما قاعدة للتعامل مع نصوص الكتاب والسنة.

* **القدرية**: وأما عن القدرية، فأخذ المعتزلة القول بنفى القدر وأحيته، ولكن ليس بشكله الغالى الذى يتضمن نفى علم الله تعالى، وهو الذى كان عليه القدرية الأوائل، فإن هذا القول قد تلاشى وسقط لسببين:

- قلة عدد القائلين بالقدر على هذا النحو.

- وقوف الصحابة الذين أدركوا هذه المقالة وعلماء التابعين ضد هذه المقولة بحزم، تارة بالبراءة من أهلها، كما فعل ابن عمر رضى الله عنه، فقد قال لمن جاء بخبرهم: فأخبرهم إنى برىء منهم، وإنهم برآء منى[6]، وتارة بإهانتهم واحتقارهم، كما فعل طاووس بن كيسان مع معبد الجهنى حين رآه فى المطاف حيث التفت إلى الناس وقال: هذا معبد فأهينوه[7]، وتارة بقتلهم وقطع دابر فتنتهم بعد تكفيرهم، كما فعل بغيلان الدمشقى حين

(١) مقالات الإسلاميين (١/٣٣٧)، تأثير المعتزلة صـ٢١ .

(٢) مقالات الإسلاميين (٢/١٥٧)، تأثير المعتزلة صـ٢١ .

(٣) التأويل البدعى: صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهره من غير قرينة.

(٤) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة صـ٢٢ .

(٥) المصدر نفسه صـ٢٢ .

(٦) مسلم، شرح النووى، ك الإيمان (١/١٥٦) .

(٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/٦٣٧).

أصر على هذه العقيدة الفاسدة[1]. لكن المعتزلة أحيت هذه العقيدة بطريقة خففت فيها من غلو السابقين فأثبتت لله تعالى العلم والكتابة، وأنكرت مرتبتى الإرادة والخلق، حيث قرروا أن العباد هم الخالقون بأفعالهم، وأنهم يفعلونها بمحض مشيئتهم دون مشيئة الله تعالى[2]. ولهذا لم يكفرهم العلماء كما كفروا القدرية الغلاة السابقين، قال ابن تيمية: وأما القدرية الذين ينفون الكتابة والعلم فكفروهم ولم يكفروا من أثبت العلم ولم يثبت خلق الأفعال[3].

* الجهمية: مهد التعاصر والتزامن بين الفرقتين والاتصالات الشخصية التى كانت بين جهم وبعض أصحاب واصل لأخذ المعتزلة من الجهمية عقيدتهم فى التوحيد والتى تضمنت:

أ- نفى الصفات: يقول ابن تيمية: ثم أن أصل هذه المقالة ـ مقالة التعطيل للصفات ـ إنما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين.. فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة فى الإسلام.. هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه[4]. ثم إن المعتزلة ورثت هذه البدعة من الجهمية وأحيتها، ولكن بشكل خففت فيه من غلو الجهمية، فإن الجهمية كانت تنفى عن الله الأسماء والصفات[5]، كما ذكر ابن تيمية أن الجهم زاد نفى الأسماء على نفى الصفات[6]، أما المعتزلة فإنهم يثبتون الأسماء وينفون الصفات[7].

ب- القول بخلق القرآن، ونفى رؤية الله تعالى مطلقًا: قال ابن تيمية فى المعتزلة: وتوحيدهم هو توحيد الجهمية الذى مضمونه نفى الصفات وغيَّر ذلك، قالوا: إن الله لا يُرى وأن القرآن مخلوق[8]. فهذه جملة ما أخذه المعتزلة عن الفرق السابقة عليها، وهم الخوارج والقدرية والجهمية، وقد ظهر دورهم فى إحيائها. وقد غيَّر المعتزلة فى كثير منها

(١) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة صـ٢٤ .

(٢) القضاء والقدر فى ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس صـ١١٧ .

(٣) الفتاوى نقلاً عن تأثير المعتزلة صـ٢٤ .

(٤) الفتوى الحموية الكبرى، تحقيق شريف هزاع صـ٤٧، ٤٨ .

(٥) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة صـ٢٥ .

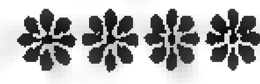
(٦) المصدر نفسه صـ٢٥ نقلاً عن الفتاوى .

(٧) المصدر نفسه صـ٢٥ .

(٨) المصدر نفسه صـ٢٦ نقلاً عن الفتاوى.

حتى تخف الوطأة عليها، كما أنها جمعت لتلك العقائد الأدلة العقلية الفلسفية، ثم جاءت الفرق فأخذت تلك العقائد بصورتها عن المعتزلة واستدلت بأدلة المعتزلة عليها[1].

٤ ـ أصول المعتزلة الخمسة: اتفق جميع المعتزلة فيما بينهم على أصول خمس عقدية، جعلوها أساسًا مهمًا لمذهبهم الاعتزالى، وهذه الأصول هى: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[2]. ومصطلح الأصول الخمسة لم يظهر عند واصل بن عطاء، وإنما أخذ عن تلاميذه واكتمل عند أبى الهذيل العلاف، والذى وصلت به الفرقة إلى ذروة الاعتزال، واكتملت على يديه موضوعاته، وقد كتب فى الأصول الخمسة بعض فصول كتبه، ثم تتالت الكتب التى تحمل هذا المصطلح على يد جعفر بن حرب، والقاضى عبد الجبار وغيرهما من رجال المعتزلة[3]، ومع بداية الدولة العباسية نشطت حركة المعتزلة، وبدأوا يرسلون الرسل فى الآفاق للدعوة إلى مذهبهم ومعتقدهم، وقد حظى مذهبهم بتأييد بعض الخلفاء العباسيين وخاصة فى عهد المأمون، ونترك مناقشة أصول الاعتزال وموقف أهل السنة منها عند حديثنا عن الدولة العباسية بإذن الله تعالى.



(١) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة صـ ٢٦ .

(٢) المصدر السابق صـ ٢٦، آراء المعتزلة الأصولية صـ ٧٩.

(٣) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، د. النشار (٤١٧/١)، تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة صـ٢٧ .

المبحث الخامس

حياته الاجتماعية والعلمية والدعوية

أولاً: الحياة الاجتماعية:

* اهتمامه بأولاده وأسرته:

أشرف عمر بن عبد العزيز على تربية وتعليم أولاده بنفسه، ولم تشغله مسئولياته عن تنشئتهم التنشئة الصالحة، المستمدة من تعاليم الدين الإسلامى، ونستشف ذلك من خلال رسائله لهم، ولمن أوكل إليه تأديبهم.

١ـ ربطهم بالقرآن الكريم: ربط عمر بن عبد العزيز أولاده بالقرآن الكريم وكان يأذن لهم يوم الجمعة بالدخول عليه قبل أن يأذن للناس ليتدارس معهم القرآن الكريم، فإذا قال: إيها[١] قرأ الأكبر منهم، ثم إذا قال: إيها، قرأ الذى يليه حتى يقرأ طائفة منهم[٢].

٢ـ تعهدهم بالنصيحة: فقد أرسل فى العام الذى استخلف فيه إلى ابنه عبد الملك، وهو إذذاك فى المدينة يقول فيما قال فيها: . . . فمن كان راغبًا فى الجنة وهاربًا من النار ـ يقصد عبد الملك وإخوته ـ فالآن التوبة مقبولة، والذنب مغفور، قبل نفاد الأجل، وانقضاء العمل، وفراغ من الله للمنقلبين ليدنيهم بأعمالهم فى موضع لا تقبل فيه الفدية، ولا تنفع فيه المعذرة، تبرز فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، يردُه الناس بأعمالهم، ويصدرون عنه أشتاتًا إلى منازلهم، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله، وويل يومئذ لمن عصى الله[٣]. وفى موضع آخر من هذه الوصية يحث ولده على ذكر الله وشكره عز وجل ومراقبته فى القول والعمل، فيقول: . . فاذكر فضل الله عليك وعلى أبيك، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميدًا، وتسبيحًا، وتهليلاً فافعل، فإن أحسن ما وصلت به حديثًا حسنًا حمد الله وشكره، وإن أحسن ما قطعت به حديثًا سيئًا حمد الله وذكره[٤].

٣ـ الحث على التسامح وحسن الظن: كان رحمه الله يحثهم على التسامح وحسن الظن فى الناس، فإن بعض الظن إثم، فقد قال مرة لابنه عبد العزيز: إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم، فلا تحملها على شىء من الشر.

(١) قوله: (إيها) إشارة البدء فى القراءة وكذلك الذى يليه.

(٢) سياسة عمر بن عبد العزيز فى رد المظالم صـ٥٢.

(٣) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٢٩٨.

(٤) المصدر نفسه صـ٢٩٨.

٤ـ الأسلوب اللين والمحاورة العاقلة: كان رحمه الله يتعامل معهم بالأسلوب اللين، دون أن ينصرف إلى التدليل الذى يفسد الأبناء، ويحاورهم محاورة العقلاء ويستخدم أسلوب الإقناع والمنطق فى التفاهم معهم، وتلبية طلباتهم[١]، فيروى أن أبنه عبد الله استكساه ذات مرة وهو خليفة، فأرسله إلى الخيار بن رباح البصرى وقال له: خذ مما عنده لى من ثياب. فلم تعجبه فعاد إلى أبيه وقال: يا أبتاه استكسيتك فأرسلتنى إلى الخيار بن رباح، فأخرج لى ثيابًا ليست من ثيابى ولا من ثياب قومى، فقال: ذاك ما لنا عند الرجل. فانصرف عبد الله، فما كان من عمر رضى الله عنه الأب المربى، إلا أن اتخذ موقفًا وسطًا مقنعًا، فجمع بين إجابة طلب ولده، وأنه لا يتوافر عنده كل مطلوب أو مرغوب دائمًا؛ فناداه قبل أن ينصرف وقال له مخيرًا إياه: هل لك أن أسلفك من عطائك مئة درهم؟ قال: نعم يا أبتاه فأسلفه مائة درهم فلما خرج عطاؤه حُوسب بها فأخذت منه[٢]، ومما يروى أيضًا فى حسن إجابته لأولاده وإقناعهم، أن ابنة له بعثت إليه بلؤلؤة وقالت له: إن رأيت أن تبعث لى بأخت لها، حتى أجعلها فى أذنى فلم يرد عليها بالإجابة ولا بالرفض، وإنما الأمر مرتبط بصبرها على الجمر، إذ أرسل لها بجمرتين وقال لها: إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنيك بعثت إليك بأخت لها[٣]، فكان جوابًا مقنعًا لها[٤].

٥ ـ حرصه على العدل بينهم: وما يذكر من حسن معاملته رحمه الله لأولاده، حرصه على العدل بينهم مع كثرتهم، حتى لا يحقد أحدهم على الآخر أو يبغضه، فقد تحرى رحمه الله العدل حتى إيثاره لابن الحارثية أن ينام معه، إذ تركه خشية أن يكون جورًا[٥]، وفى هذا الصدد يروى عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قوله: كان عمر بن عبد العزيز له ابن من امرأة من بلحارث بن كعب، وكان يحبه وينام فى بيته، قال: فتعرضت له ذات ليلة، فقال: أعبد العزيز؟ قلت: نعم. قال: شرٌ ما جاء بك؟ ادخل، فجلست عند شاذ كونته[٦]، وهو يصلى.. فأتانى فقال: ما لك؟ فقلت: ليس أحد أعلم بولد الرجل منه، وإنك تصنع بابن الحارثية ما لا تصنع بنا، فلست آمن أن يقال ما هذا إلا من شىء تراه عنده ولا تراه عندنا. فقال: أعلمك هذا أحد؟ فقلت: لا. قال: فأعد علىّ. فأعدت عليه. فقال: ارجع إلى بيتك. فرجعت، فكنت أنا وإبراهيم وعاصم وعبد الله ـ وهم من

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز صـ١٠١.
(٢) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى صـ٣١٢.
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٣٤.
(٤) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ١٠١.
(٥) المصدر نفسه صـ١٠٢.
(٦) الشاذكونة: هى ثياب غلاظ مضربة تعمل باليمن.

إخوانه ـ نبيت جميعًا فإذا نحن بفراش يحمل، وتبعه ابن الحارثية ـ وهو أخوهم ـ فقلنا: ما شأنك؟ قال: شأني ما صنعت بي، قال: كأنه خشي أن يكون جورًا[(١)].

٦ـ تنمية الأخلاق الفاضلة عندهم: كان يحرص على تنمية الأخلاق الفاضلة عند أولاده ويتحين الفرص لتحقيق ذلك ما استطاع، ففي سياق رسالته رحمه الله إلى ولده عبد الملك، وهو في المدينة ينهاه عن التفاخر والمباهاة في الكلام، والإعجاب بالنفس، والغرور والتعالي على الناس، فيقول له: . . وإياك أن تفخر بقولك، وأن تعجب بنفسك، أو يخيل إليك أن ما رُزقته لكرامة لك على ربك، وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك[(٢)].

٧ ـ تربية أولاده على الزهد والاقتصاد في المعيشة: تتجلى شخصية عمر رحمه الله التربوية بقدرته على جعل أولاده يتقبلون التحول من فترة النعيم إلى فترة الزهد والتقشف، وأن يقنعهم بالعيش كعامة الناس، بدلاً من حياة الترف والرفاهية، فمن أول إجراءاته في سياق رسالته التربوية لابنه عبد الملك وهو في المدينة والتي جاء فيها: . . فإن ابتلاك الله بغنى اقتصد في غناك، وضع لله نفسك، وأدِّ إلى الله فرائض حقه من مالك ـ يقصد الزكاة والصدقة وعدم الإسراف ـ وقل كما قال العبد الصالح: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. وكانت هذه الرسالة عقب توليه الخلافة مباشرة، في حين لا تزال فترة النعيم والرفاهية قائمة، إذ إتبع أسلوبًا تربويًا رائعًا في ذلك، حيث أخذ الأمر بالتدرج، فأشعره بأن الغنى وكثرة المال ابتلاء من الله، عز وجل، ثم أمره بالاقتصاد فيما هو فيه من الغنى، ثم قرن الأمر بالتواضع لله وأخيرًا أكد على ضرورة أداء حق الله، من زكاة الأموال والصدقات وامتثال أمر الله عز وجل[(٣)]. وفي موقف آخر، إذ بلغه رحمه الله إن ابنًا له اتخذ خاتمًا، واشترى لهذا الخاتم فصًا بألف درهم، فكتب إليه عمر: أما بعد: فقد بلغني أنك اشتريت فصًا بألف درهم، فبعه، وأشبع ألف جائع، واتخذ خاتمًا من حديد صيني، واكتب عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه[(٤)]. ونلاحظ أن عمر ربط أمره ببيع الفص بوجود جائعين وحاجتهم للإشباع، ليكون ذلك أجدى لإدراك مغزى الأمر، والتحري في إنفاق الأموال مستقبلاً، وليكن أمر

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم صـ٥٢، ٥٣.

(٢) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز صـ٣١٤.

(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز صـ١٠٦.

(٤) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي صـ٢٩٨.

الفقراء والمساكين نصب أعين أبنائه دائمًا[1]، وذات يوم طلب أحد أبناء عمر بن عبد العزيز إلى أبيه أن يزوجه، وأن يُصدق عنه من بيت المال ـ وقد كان لابنه ذلك امرأة ـ فغضب رضى الله عنه لذلك، وكتب يقول: لقد أتانى كتابك تسألنى أن أجمع لك بين الضرائر من بيت المال، وأبناء المسلمين لا يجد أحدهم امرأة يستعف بها، فلا أعرفن وما كتبت بمثل هذا.. ثم كتب إليه: أن انظر إلى ما قبلك من نحاسنا ومتاعنا فبعه، واستعن بثمنه على ما بدا لك[2]. ولم يقتصر الأمر على الذكور من أولاده، بل شمل الذكور والإناث، دل على ذلك أن ابنة لعمر بن عبد العزيز يقال لها «أمينة» مرت به يومًا، فدعاها عمر: يا أمينة، فلم تجبه فأمر بها، فقال: ما منعك أن تجيبى؟ فقالت: إنى عارية ـ أى ملابسها ليست حسنة ـ، فقال: يا مزاحم: انظر إلى تلك الفرش التى فتقناها، فاقطع لها منها قميصًا[3].

هذا عن كساء بنات عمر، أما عن طعامهن، فيروى ابن عبد الحكم أن عمر كان يصلى العتمة[4]، ثم يدخل على بناته فيسلم عليهن، فدخل عليهن ذات ليلة فلما أحسسنه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب، فقال للحاضنة: ما شأنهن؟ فقالت: إنه لم يكن عندهن شيء يتعشينه إلا عدس وبصل، فكرهن أن تشم ذلك من أفواههن، فبكى عمر. ثم قال لهن: يا بناتى ما ينفعكن أن تعشين الألوان، ويُمر بأبيكن على النار، فبكين حتى علت اصواتهن ثم انصرفن[5]. وكان عمر بدأ الانتقال بأهل بيته من فترة الرفاه والتنعيم إلى فترة القناعة والزهد فى الدنيا، بأن وضع حلى ومجوهرات زوجه فاطمة بنت عبد الملك فى بيت المال، إذ قال لها: اختارى، إما أن تردى حليَّك إلى بيت المال وإما أن تأذنى لى فى فراقك، فإنى أكره أن أكون أنا وأنت وهو فى بيت واحد. قالت: لا بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه إن كان لى[6].

* اهتمامه بتعليم أولاده: أولى عمر رحمه الله تعليم وتأديب أولاده جانبًا من الاهتمام، إذ اتبع إجراءات تعليمية جعل منها منهجًا جديرًا يلبى حاجات الناشئ المسلم،ليكون موحد الذات والأهداف، غير منقسم على نفسه بين القول والعمل، أو بين الواقع والمثال[7]، حيث تتضح معالم ذلك المنهج فى رسالته رضى الله عنه إلى معلمهم ومؤدبهم مولاه سهل

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ١٠٦.
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٠٦. (٣) حلية الأولياء (٥/ ٢٦١) النموذج الإدارى صـ١٠٨.
(٤) العتمة: هى الثلث الأول من الليل، والعتمة: وقت صلاة العشاء.
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٤٨، ٤٩. (٦) الطبقات (٥/ ٣٣٠)، النموذج الإدارى صـ١٠٩.
(٧) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ١١٠.

ابن صدقة، إذ قرر اختياره وتكليفه بمهام تعليم وتأديب أولاده، ثم حدد الطريقة المثلى للتأديب،(1) فقد قال: من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى سهل مولاه. أما بعد، فإنى اخترتك على علم منىّ بك لتأديب ولدى، فصرفتهم إليك من غيرك من موالىّ وذوى الخاصة بى، فحدثهم بالجفاء، فهو أمعن لإقدامهم، وترك الصحبة فإن عادتها تكسب الغفلة، وقلة الضحك، فإن كثرته يميت القلب، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهى التى بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن، فإنه بلغنى عن الثقات من أهل العلم، أن حضور المعازف(2)، واستماع الأغانى، واللهج(3) بها ينبت النفاق فى القلب، كما ينبت العشبَ الماء، ولعمرى لتوقى ذلك، بترك حضور تلك المواطن، أيسر على ذى الذهن من الثبوت على النفاق فى قلبه، وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء مما ينتفع به، وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يثبت فى قراءته، فإذا فرغ، تناول قوسه ونبله وخرج إلى الغرض(4) حافيًا، فرمى سبعة أرشاق(5)، ثم انصرف إلى القائلة(6)، فإن ابن مسعود رضى الله عنه كان يقول: يا بَنى قيلوا، فإن الشياطين لا تقيل(7). ونلاحظ من هذه التوجيهات الأمور الآتية:

١ـ اختيار المعلم والمؤدب الصالح: فالمعلم أو المربى يعد حجر الزاوية فى عملية التعليم، فقد اختار معلم أولاده من خاصته ومواليه، وعلى علم به وثقة فيه، ولم يكتف عمر بمولاه سهل لتأديبهم وتعليمهم بل عهد بتأديبهم أيضًا إلى أستاذه ومؤدبه الأول صالح بن كيسان(8). ولم يقف حرص عمر رحمه الله على تعليم أولاده وأدبهم عند هذا الحد، بل وجدناه يختار من كبار عصره من يختبر عقل أولاده وأدبهم، فقد كلف ميمون بن مهران أن يأتى ابنه عبد الملك فيستشيره وينظر إلى عقله. قال ميمون: فأتيناه ـ يعنى عبد الملك بن عمر ـ فاستأذنت عليه فقعدت عنده ساعة، فأعجبت به(9).

---

(1) النموذج الإدارى صـ١١٠.

(2) المعازف: هى الملاهى والآلات مما يضرب. العازف: اللاعب والمغنى.

(3) اللهج بالشيء: الولوع به والاعتماد عليه.

(4) الغرض: هو الهدف الذى ينصب فيرمى فيه، والجمع أغراض.

(5) الرشق: هو الرمى بالسهم والنبل، والرشق: هو الشوط من الرمى.

(6) القائلة: هى الظهيرة أو نصف النهار، والقيلولة: الاستراحة عند نصف النهار.

(7) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى صـ٢٩٦، ٢٩٧.

(8) تذكرة الحفاظ (١/ ١٤٨).

(9) سيرة ومناقب عمر بن العزيز لابن الجوزى صـ٣٠٢.

٢ـ تحديد المنهج التعليمي: حدد عمر بن عبد العزيز المنهج التعليمى والمقررات الدراسية التى يريد لأولاده أن يتعلموها، حيث يتكون من القرآن الكريم وعلومه وبقية العلم من العلوم الأخرى، والتدريب على الجهاد والقتال والصبر عليه، وكذلك التمرين على الرماية ودقة الإصابة، وممارسة الرياضة البدنية بالسير إلى الأهداف حفاة ليعتادوا على ذلك مع ما يحتويه المنهج من أوقات للراحة، أما حجم المقرر اليومى فجزء واحد من القرآن الكريم بتثبت ووعى بالإضافة إلى ما يتناسب مع ذلك الجزء من علوم الدين الأخرى، وكذلك الرمى بسبعة أرشاق مع ما يتطلبه ذلك من السير إلى الأغراض والسير بينها، فكان منهجًا ذا أهداف سامية، إذ يجمع بين الدين والدنيا، ويراوح بين البدن والروح، والقول والعمل[١]. تلك أهداف ارتدت عنها خائبة، جُلّ برامج التعليم والتربية الحديثة[٢].

٣ـ تحديد طريقة التأديب والتعليم: لم يقف عمر بن عبد العزيز عند اختيار معلم أولاده، وتحديد مواد المنهج التعليمى، بل امتد الأمر إلى رسم الطريقة التى ينبغى لمؤدب أولاده اتباعها، وكيفية التنفيذ ودقة الأداء وإتقان العمل، ففى سياق رسالته - رحمه الله - طلب إلى سهل أن يلتزم الجد فى قوله لهم، فذلك أمعن لإقدامهم وأحرز لانتباههم، وطلب إليه كمؤدب لهم أن يترك صحبتهم، فإن عادتها تكسب الغفلة، ولتبقى مكانته عندهم، فليس للمعلم أن يتخذ من تلاميذه أصدقاء وأصحاب له يودعهم أسراره، ويشاركهم وقته وحياته، فقد لا تعجبهم مواقفه، فيكون ذلك أدعى للاستهانة به، وعدم الاستجابة لما يطلب منهم[٣]. وربما يؤدى ذلك إلى عدم الاكتراث بالمعلم، والغفلة عما يقوله من العلم، كما طلب عمر إلى مؤدب أولاده أن يكون فى أدبه لهم ما يصرفهم عن الملاهى وحضور المعازف وسماع الغناء، لما لها من الأثر السيئ فى حياة المسلم، ويلاحظ أن عمر لا يصدر أمرًا، أو يحدد طريقة أو أسلوبًا حتى يوضح ما دفعه لذلك، وما فائدته وجدواه[٤].

٤ـ تحديد أوقات وأولويات التعليم: ومما اشتمل عليه المنهج الذى حدده عمر بن عبد العزيز فى رسالته لمؤدب أولاده ما يسمى بإدارة الوقت، إذ حدد برنامجًا يوميًا يبدأ الأولاد ومؤدبهم فى تنفيذه من الصباح الباكر بجزء من القرآن الكريم، فكان البدء بالقرآن فى الفترة الصباحية، لما فيها من صفاء ذهن التلميذ، بعد أن أخذ قسطًا من الراحة فى ليلته، فجعل أولوية القرآن الكريم فى وقت صفاء الذهن والاستعداد الجيد للمتعلم، كما ربط الانتقال

---

(١) النموذج الإدارى صـ١١٣.
(٢)، (٣) المصدر نفسه صـ١١٤.
(٤) المصدر نفسه صـ١١٧.

إلى المادة الأخرى من البرنامج اليومي بالتثبت والإتقان، ثم جاء توقيت الخروج بين الأغراض وممارسة متطلبات الرماية، ويكون الخروج للرمى بعد العلم، وهم فى شوق إليه، فيتحقق لهم بذلك أعلى درجات الكفاءة والإتقان، ويأتى فى ختام البرنامج اليومى فترة القيلولة، تلك الفترة الضرورية لراحة البدن والنفس والعقل(١).

٥- مراعاة المؤثرات التعليمية: راعى عمر بن عبد العزيز كل ما له ارتباط بالعلم، وما له تأثير على الفهم وحسن التلقى، وما يزيد من إدراك العقل من قريب أو بعيد، فكان أول أمر اهتم به وبتأثيره على علم أولاده وأخلاقهم وأدبهم هو: معلمهم وجدوى علمه، واقتداؤهم بأدبه وخلقه، والأمر الثانى: مراعاة ما قد يسببه اللين وعدم التزام الجد فى القول، وإكثار الضحك، والهزل واللعب أحيانًا، من التباطؤ فى أداء متطلبات التعليم، من إقدام وعلوِّ همه، وفهم وإدراك بالكفاءة المطلوبة، والثالث: ما ينجم عن تيار المجون والملاهى والغناء، وحضور المعازف، من ضياع وقت أولى أن يكون للعلم، وتبلد الإحساس العلمى، ورابعها: مراعاة النواحى النفسية للناشئين، وما قد يصيبهم من الملل، وتأثير ذلك على المستوى المطلوب من الفهم، وضرورة الترويح عن النفس ساعة بعد ساعة، وجعل وقتًا للراحة بين الحين والآخر، وأخيرًا الاهتمام بالمردود الإيجابى للرياضة وممارسة الرماية والسير بين الأغراض على الجسم وصحته والعقل وسلامته والذهن وصفائه(٢).

*** من نتائج منهج عمر بن عبد العزيز فى تربية أولاده: ابنه عبد الملك:**

من نتائج منهج عمر فى تربية أولاده ذلك النموذج الربانى المتمثل فى ابنه عبد الملك، ويُعد عبد الملك نموذجًا للشباب الذى عاش فى رغد العيش، وسعة الرزق، ورفاهية الحياة، فحياته مثال لكثير من أبناء المسلمين الذين كانوا على شاكلته، وإليك شيئًا من مواقفه:

١- عبادته وبكاؤه: عن عاصم بن أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان وهو ابن أخى عمر ابن عبد العزيز قال: وفدت إلى سليمان بن عبد الملك، ومعنا عمر بن عبد العزيز، فنزلت على ابنه عبد الملك وهو عزب، فكنت معه فى بيت فصلينا العشاء، وأوى كل رجل منا إلى فراشه، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه، ثم قام يصلِّى، حتى ذهب بى النوم، فاستيقظت فإذا هو فى هذه الآية: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ....﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]. فبكى، ثم يرجع

(١) (١) النموذج الإدارى صـ١١٨.

(٢) المصدر نفسه صـ ١١٩.

إليها، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك، حتى قلت: سيقتله البُكاءُ، فلما رأيت ذلك قلت: لا إله إلا الله والحمد لله كالمستيقظ من النوم لأقطع ذلك عليه، فلما سمعني سكت فلم أسمع له حِسًا[1]. رحمه الله.

٢ـ علمه وفقهه وفهمه: جمع عمر بن عبد العزيز الناس واستشارهم فى رد مظالم الحجّاج، فكان كلما استشار رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين، ذاك أمر كان فى غير سلطانك ولا ولايتك، فكان كلما قال له رجل ذلك أقامه، حتى خلص بابنه عبد الملك، فقال له ابنه عبد الملك: يا أَبَهْ ما من رجل استطاع أن يردَّ مظالم الحجَّاج إن لم يردها أن يشركه فيها. فقال عمر: لولا أنك ابنى، لقلت أنك أفقه الناس، وهذا الذى قاله عبد الملك، ومدحه عليه أبوه، هو الصواب، فإن الإمام إذا قدر على رد مظالم من قبله من الولاة وجب عليه وهو ذلك بحسب الاستطاعة[2].

وقد كان عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك من العلماء الذين جمعوا بين العلم بالله الذى يقتضى خشيته ومحبته والتبتل إليه، وبين العلم بالله الذى يقتضى معرفة الحلال والحرام والفتاوى والأحكام[3].

٣ـ تذكيره والده بالموت: مات ابن لعمر بن عبد العزيز، فجاء عمر فقعد عند رأسه، وكشف الثوب عن وجهه فجعل ينظر إليه ويستدمع، فجاء ابنه عبد الملك فقال: أشغلك يا أمير ما أقبل من الموت إليك؟ بل هو فى شغل عما حل لديك، فكأن قد لحقت به وساويته تحت التراب بوجهك. فبكى عمر ثم قال: رحمك الله يا بنى، فوالله، إنك لعظيم البركة ما علمتك على أبيك نافع الموعظة لمن وعظت، وأيم الله، إن كان الذى رأيت من جزعى على أخيك، ولكن لما علمت أن ملك الموت دخل دارى فراعنى دخوله، فكان الذى رأيت، ثم أمر بجهازه[4].

٤ـ صلابته فى الدين وقوته فى تنفيذ الحق: قال ميمون بن مهران قال: بعث إلىّ عمر بن عبد العزيز وإلى مكحول وإلى أبى قلابة فقال: ما ترون فى هذه الأموال التى أخذت من الناس ظلمًا؟ فقال مكحول يومئذ قولاً ضعيفًا، فكرهه فقال: أرى أن تستأنف فنظر إلىّ عمر كالمستغيث بى، فقلت: يا أمير المؤمنين، ابعث إلى عبد الملك، فأحضره. فإنه ليس بدون من رأيت. فلما دخل عليه قال: يا عبد الملك، ما ترى فى هذه الأموال التى أخذت

(١) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلى (٢/٤٧٩).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٨١).
(٤) المصدر نفسه (٢/٤٨٧).

من الناس ظلمًا، وقد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها؟ قال: أرى أن تردّها، فإن لم تفعل كنت شريكًا لمن أخذها(١).

٥ـ مرضه وموته رحمه الله: دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه في وجعه ـ من الطاعون ـ فقال: يا بني، كيف تجد؟ قال: أجدني في الحق. قال: يا بني، إن تكن في ميزاني أحبُّ إلي من أن أكون في ميزانك. فقال ابنه: وأنا يا أبه لئن أكون ما تحب أحب إليّ من أن يكون ما أُحب(٢). وحين دفن ابنه خطب على قبره فقال: رحمك الله يا بني، فلقد كنت برًا بأبيك، وما زلت منذ وهبك الله لي مسرورًا، ولا والله ما كنت أشدَّ سرورًا ولا أرجى لحظي من الله فيك، منذ وضعتك في الموضع الذي صيرك الله إليه، فرحمك الله وغفر ذنبك وجزاك الله بأحسن عملك وتجاوز عن مسيئه، ورحم كلَّ شافع يشفع لك بخير من شاهد وغائب، رضينا بقضاء الله وسلّمنا لأمره، والحمد لله رب العالمين. ثم انصرف(٣).

ثم كتب إلى نائبه على الكوفة كتابًا ينهى أن يناح على ابنه، كما كانت عادة الناس حينئذٍ في الناحية على الملوك وأولادهم، وذلك الكتاب كان فيه: أن عبد الملك ابن أمير المؤمنين كان عبدًا من عباد الله، أحسن الله إليه في نفسه، وأحسن إلى أبيه فيه، أعاشه الله ما أحبّ أن يعيشه، ثم قبضه إليه حين أحب أن يقبضه، وهو فيما علمت بالموت مرتبط، نرجو فيه من الله رجاء حسنًا، فأعوذ بالله أن تكون لي محبة في شيء من الأمور تخالف محبة الله، فإن خلاف ذلك لا يصح في بلائه عندي وإحسانه إليَّ ونعمته عليَّ ثم قال: أحببت أن أكتب إليك بذلك وأعلمكه من قضاء الله، فلا أعلم من ينوح عليه في شيء من قبلك، ولا اجتمع على ذلك أحد من الناس، ولا رخصت فيه لقريب ولا بعيد، واكفني في ذلك بكفاية الله ولا ألومنَّك فيه ـ إن شاء الله ـ والسلام عليك(٤). وجاء في رواية: لما هلك عبد الملك بن عمر قال أبوه: يا بني، لقد كنت كما قال الله عز وجل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وإني لأرجو أن تكون اليوم من الباقيات الصالحات التي هي خير ثوابًا وخير أملاً. والله ما يسرني أني دعوتك فأجبتني(٥). وقد توفي عبد الملك بن عمر وكان عمره تسع عشرة سنة(٦). وكان عمر بن عبد العزيز يثني على ولده فقال له ذات يوم: يا عبد الملك إني أخبرك خبرًا: لا والله ما رأيت فتى ماشيًا قط أنسك منك نسكًا، ولا أفقه فقهًا، ولا أقرأ منك، ولا أبعد في صبوة في صغير ولا

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (٢/ ٤٨٨).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٩٥).
(٤)، (٥) المصدر نفسه (٢/ ٤٩٦).
(٦) المصدر نفسه (٢/ ٤٩٨).

كبير(١). وقال عمر بن عبد العزيز، والله لولا أن يكون بى زينة من أمر عبد الملك ما يُزين فى عين الوالد من ولده لرأيت أنه أهل للخلافة(٢)، وجاء فى رواية: إن عبد الملك لما توفى جعل أبوه يثنى عليه عند قبره، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، لو بقى كنت تعهد إليه؟ قال: لا، قال: لم وأنت تثنى عليه؟ قال: أخاف أن يكون زُيِّن فى عينى منه ما يُزيِّن فى عين الوالد من ولده(٣)، وقال ميمون بن مهران: ما رأيت ثلاثة فى بيت خيراً من عمر بن العزيز، وابنه عبد الملك، ومولاهم مزاحم(٤). هذا من نتائج المنهج التربوى والعلمى الذى سار عليه عمر فى تربية أولاده.

* حياته مع الناس:

١ـ اهتمامه بإصلاح المجتمع:

كان اهتمامه بإصلاح المجتمع كبيراً وعمل على إزالة ما يتفشى فيه من المنكرات، وقد كتب فى ذلك إلى أحد ولاته كتابًا طويلاً بليغًا، نورد بعض فقراته للأهمية وعظيم الفائدة، وفيه يقول: أما بعد، فإنه لم يظهر المنكر فى قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده، أو بأيدى من يشاء من عباده، ولا يزال الناس معصومين من العقوبات والنِّقمات ما قمع فيهم أهل الباطل، واستخفى فيهم بالمحارم، فلا يظهر من أحد منهم محرَّم إلا انتقموا ممن فعله، فإذا ظهرت فيهم المحارم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصى والمداهنين لهم، ولعل أهل الإدهان أن يهلكوا معهم وإن كانوا مخالفين لهم، فإنى لم أسمع الله تبارك وتعالى فيما نزَّل من كتابه عند مَثُلَة أهلك بها أحداً نجَّى أحداً من أولئك، إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر، ويسلط الله على أهل تلك المحارم إن هو لم يُصبهم من عنده أو بأيدى من يشاء من عباده من الخوف والذل والنِّقم، فإنه ربما انتقم بالفاجر من الفاجر، وبالظالم من الظالم، ثم صار كلا الفريقين بأعمالهما إلى النار، فنعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين، أو أن يجعلنا مداهنين للظالمين، وإنه قد بلغنى أنه قد كثر الفجور فيكم، وأمن الفسَّاق فى مدائنكم، وجاهروا من المحارم بأمر لا يحب الله تعالى من فعله، ولا يرضى المداهنة فيه، كان لا يُظهر مثلَه علانية قوم يرجون لله وقارًا، ويخافون منه غيراً، وهم الأعزون الأكثرون من أهل الفجور، وليس بذلك مضى أمر سلفكم، ولا بذلك تمت نعمة الله تعالى عليهم، بل كانوا كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ١٩]. ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١)، (٢)، (٣)، (٤) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (٢/٤٩٩).

وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. ولعمرى إن من الجهاد فى سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله تعالى بالأيدى والألسن والمجاهدة لهم فيه، وإن كانوا الآباء، وإنما سبيل الله طاعته، ولقد بلغنى أنه بطأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اتقاء التلاوم أن يقال: فلان حسن الخلق قليل التكلفُ، مقبل على نفسه، وما يجعل الله أولئك أحاسنكم أخلاقًا، بل أولئك أسوأكم أخلاقًا، وما أقبل على نفسه من كان كذلك، بل أدبر عنها، ولا سلم من الكلفة لها بل وقع فيها، إذ رضى لنفسه من الحال غير ما أمر الله أن يكون عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(١).

ففى هذا الكتاب المهم يبين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى سنة الله جل وعلا التى لا تتخلف، وهى أن أىَّ مجتمع يجاهر فيه أهل الفساد بمعاصيهم، ثم لا ينهاهم أهل الصلاح ولا ينكرون عليهم، فلا بد أن يصيبهم الله تعالى بإحدى ثلاث: أن يصيبهم الله بعذاب من عنده، أو أن يصيبهم بعذاب على أيدى من يشاء من عباده، وقد يكون هؤلاء من الظلمة الجبارين فينتقم الله بهم من العصاة الفجار، أو يصيبهم الله بالخوف والجوع والذل وأنواع النِّقم والمصائب. ويبين عمر فى هذا الكتاب أن السكوت عن أهل المعاصى المجاهرين ليس من عمل الصحابة رضى الله عنهم، بل قد وصفهم الله تعالى بالشدة والغلظة على المخالفين المجاهرين بالمعاصى، ويذكر أن من الجهاد فى سبيل الله تعالى الغلظة على منتهكى محارم الله والإنكار عليهم بالأيدى والألسن، وإن كانوا من أقرب الأقارب، وهذا التوسع فى معنى الجهاد له أدلته الشرعية مثل قول الله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]، وإنما يكون جهاد المنافقين بالإنكار عليهم والشدة فى معاملتهم(٢). ويصحح عمر فى هذا الكتاب مفهومًا خاطئًا عند بعض الناس، وهو وصفهم القاعد عن إنكار المنكر بأنه حسن الخلق قليل التكلف مقبل على نفسه، حيث يبين أن هذا سيىء الخلق، حيث يتعامل مع المخالفين بالسلبية وعدم المبالاة مع أنهم بحاجة إلى الشفقة والرحمة، وإنما يظهر ذلك بمحاولة إصلاحهم، ويرد على قولهم بأنه قليل التكلف مقبل على نفسه بأنه لم يقبل على نفسه بمحاولة إنقاذها من النار ورفع درجتها فى الجنة، بل أقبل على هلكتها، حيث إن السكوت عن الإنكار معصية يحاسب عليها مرتكبها، وقد توردہ إلى النار، وإذا كان فى مفهوم

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٦٠.

(٢) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ١٣٠).

الناس أن الساكت قليل التكلف فإنه قد تكلف أمراً عظيمًا حيث خالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بما وجب عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[1]، وكانت كتب عمر بن عبد العزيز كلها فى إصلاح المجتمع، كما جاء فى خبر إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: ما كان يقدم على أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاب من عمر إلا فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قَسْم أو تقدير عطاء أو خير، حتى خرج من الدنيا[2].

٢- تذكيره الناس بالآخرة:

خطب عمر بن عبد العزيز ذات يوم فقال: إنى لم أجمعكم لأمر أحدثته، ولكنى نظرت فى أمر معادكم وما أنتم إليه صائرون، فوجدت المصدِّق به أحمق، والمكذب به هالكًا، ثم نزل[3]. وهذه خطبة بليغة على قصرها، فإنها تذكرة حية بمصير الإنسان بعد الموت، فالذى يؤمن بالبعث بعد الموت وما قبله من عذاب القبر ونعيمه وما بعد ذلك من الحساب والمصير إلى النعيم الدائم أو إلى الشقاء الدائم، ثم لا يعد العدة الكافية لذلك اليوم يعتبر حقًا أحمق، حيث لم يستعمل عقله فى الإعداد لمستقبله بعد الموت مع إيمانه بما سيكون فيه[4]. ومن خطبه فى تذكير الناس بالموت والآخرة، بين فى إحداها أن الإنسان خُلق للأبد ولكنه من دار إلى دار، قال عمر: إنما خلقتم للأبد، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون[5]. وقال فى إحدى خطبه: يا أيها الناس، لا تغرنكم الدنيا والمهلة فيها، فعن قليل عنها تنقلون وإلى غيرها ترحلون، فالله الله عباد الله فى أنفسكم، فبادروا بها الفوت قبل حلول الموت، ولا يطل بكم الأمد، فتقسو قلوبكم فتكونوا كقوم دعوا إلى حظهم فقصروا عنه بعد المهلة، فندموا على ما قصروا عند الآخرة[6]. وقد تحدث عمر بن عبد العزيز عن الموت والآخرة والاستعداد للقاء الله كثيراً فى خطبه ومواعظه رحمه الله.

٣- تصحيح المفاهيم الخاطئة:

قال عمر فى إحدى خطبه: أما بعد، أيها الناس فلا يطولن عليكم الأمد، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته، لا يستعتب من شىء ولا يزيد فى حسن، ألا لا سلامة لامرئ فى خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الله، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصيًا، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم، ألا

(١) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ١٣٠).
(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٤٢).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٤٢.
(٤) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ١١٨).
(٥) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٤٨).
(٦) المصدر نفسه (٢/ ٤٤٩).

وإنى أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا الله، قد فنى عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمى، وهاجر عليه الأعرابى، حتى حسبوه دينًا لا يرون الحق غيره. ثم قال: إنهُ لحبيب علىّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ولا قوة إلا بالله[1].

ففى هذه الخطبة يُذكر عمر بن عبد العزيز المسلمين بقرب يوم القيامة، فإن من وافته منيته قامت قيامته، فلينظر إلى الموت الذى قد يفاجئه فى أية لحظة، وحينها لا يستطيع أن يعتذر من أعماله السيئة التى سوّد بها صحيفته، ولا يستطيع أن يستزيد من عمل صالح يبضّ به صحيفته، ويندم حينما لا ينفع الندم على ما فاته فى حياته يوم أن كان قادرًا على التوبة النصوح والتزود بالعمل الصالح، ثم يبين أن السلامة كل السلامة فى اتباع سنة رسول الله ﷺ وهذا بيان لأحد عنصرى العمل الصالح وهما الإخلاص لله تعالى ومتابعة السنة، وهو بهذا يعالج واقعًا لا ينقص العمل فيه الإخلاص وإنما ينقصه اتباع السنة، حيث فشت البدع بعد انقراض عهد الصحابة رضى الله عنهم، وفساد بعض الولاة الذين يحاربون بعض السنن التى لا تتفق مع أهوائهم، ثم بين أحد العواصم التى تعصم من انتشار البدع وفساد أمور الأمة حيث قال: ولا طاعة لمخلوق فى معصية الله. فإذا كان بعض الولاة قد تسوّل لهم نفوسهم الأمارة بالسوء أو مجاملة الآخرين بأن يأمروا الناس بمعصية الله، أو يمهدوا السبل لذلك، فإنه لا طاعة لهم. وبهذا ينقطع سبب مهم من أسباب سريان تلك المخالفات وهو ما لولاة الأمر من طاعة على الأمة، فإذا تحددت هذه الطاعة بطاعة الله تعالى لم يكن لهوى النفوس تأثير على انتشار الفساد فى المجتمع، وتصبح الكلمة لأهل الإصلاح. ثم يبين أن ما جرى عليه العرف من اعتبار الهارب من إمامه الظالم عاصيًا ليس له اعتبار فى النظر الشرعى لأن تصرفه هذا هو أحد الأسباب التى يتخذها للخلاص من الظلم، وأولى من يوصف بالمعصية من وقع منه الظلم، وكون عمر يبين هذا وهو فى أعلى موقع من المسئولية ـ كخليفة ـ دليل على تجرده من حظ النفس، ومن العصبية للقرابة، وإخلاصه لله تعالى ثم يصف الواقع الاجتماعى الذى اختلطت فيه العادات بالدين والبدع بالسنن، ونشأ عليه أفراد المجتمع، وتربّى على توجيهه من أسلم من العجم، ومن هاجر من الأعراب حتى حسبوه هو الدين، وحينما يختلط العرف الاجتماعى فيتسرب إلى العرف الإسلامى بعض الأعراف الجاهلية فإن ذلك يؤثر على تربية أفراد المجتمع وتتشربه قلوبهم؛ لأن الأعراف الجاهلية تميل إلى تلبية أهواء النفوس، وإن كانت منحرفة جائرة، فيصعب بعد ذلك على المصلحين أن يخلّصوا العرف الاجتماعى الإسلامى

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٤٣.

من تلك الأخلاط المتسرّبة المتراكمة على مر الزمن، لأن كل انحراف له أنصاره ومؤيدوه، وليس كل أفراد المجتمع يفهمون الأمور على حقيقتها، وحينما يقوم المصلحون بمحاولة التنقية يقوم دعاة السوء بتشويه إصلاحهم ودعوة الناس إلى البقاء على الموروثات، لأن كونها موروثات يعطيها في نظر بعض الناس شيئًا من القداسة، ولكن حينما ينبع الإصلاح من أعلى قمة في المسئولية، كما هو الحال في عهد عمر بن عبد العزيز- فإن نتائج الإصلاح تكون كبيرة وسريعة المفعول، لأن معه ما خولّه الله تعالى من طاعة الرعية ما دام في طاعة الله تعالى إلى جانب قوة السلطان المعهودة[1].

٤ـ إنكاره العصبية القبلية:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن، وكان مما جاء في كتابه: إن ما هاجني على كتابي هذا أمر ذكر لي عن رجال من أهل البادية، ورجال أمروا حديثًا، ظاهر جفاؤهم، قليل علمهم بأمر الله، اغتروا فيه بالله غرة عظيمة، ونسوا فيه بلاءه نسيانًا عظيمًا، وغيروا فيه نعمه تغييرًا لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه. وذكر لي أن رجالاً من أولئك يتحاربون إلى مُضر وإلى اليمن، يزعمون أنهم ولاة على من سواهم، وسبحان الله وبحمده ما أبعدهم من شكر نعمة، وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصُغُر، قاتلهم الله أية منزلة نزلوا، ومن أى أمان خرجوا، أو بأى أمر لصقوا، ولكن قد عرفت أن الشقى بنيته يشقى، وأن النار لم تخلف باطلاً. أو لم يسمعوا إلى قول الله فى كتابه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]. وقد ذكر لى مع ذلك أن رجالاً يتداعون إلى الحلف، لا حلف فى الإسلام، قال: وما كان من حلف فى الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الآثم الذى فيه معصية الله ومعصية رسوله، وقد ترك الإسلام حين انخلع منه، وأنا أحذر كل من سمع كتابى هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حصنًا أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة، تحذيرًا بعد تحذير، وأذكرهم تذكيرًا بعد تذكير، وأشهد عليهم الذى آخذ بناصية كل دابَّة، والذى هو أقرب إلى كل عبد من حبل الوريد، وإنى لم آلُكم بالذى كتبت به إليكم نصحًا مع إنى لو أعلم أن أحدًا من الناس

(١) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ١٢١).

يحرّك شيئًا ليُخذله به أو ليدفع عنه أحرص - والله المستعان - على مذلته من كان: رجلاً أو عشيرة أو قبيلة أو أكثر من ذلك، فادع إلى نصيحتى وما تقدمت إليكم به، فإنه هو الرشد ليس له خفاء، ثم ليكن أهل البر وأهل الإيمان عونًا بألستهم، وإن كثيرًا من الناس لا يعلمون. نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة فى ديننا وأُلفتنا وذات بيننا والسلام(١).

فى هذا الكتاب يعالج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز انحرافًا خطيرًا طرأ على المجتمع الإسلامى آنذاك، وهو أن طائفة من المسلمين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ولم تعمر أفكارهم بالعلم الشرعى، فقد اتخذوا لأنفسهم علاقات من روابط الجاهلية التى تقوم على القبائل والعشائر، فيعطى الواحد منهم ولاءه لقبيلته سواء بالحق أو بالباطل، وسواء بالعدل أو بالظلم، ويجعل من قبيلته قضية يهتم لها ويدافع عنها ويدعو لها، حتى أصبحوا بها إخوة فى الله متحابين بعد أن كانوا أعداء متحاربين، وسادوا بجماعتهم العالم، وقد استفحلت هذه القضية حتى أصبح بعض المجاهدين يتحاربون بينهم بدعوى قبلية، مما سبب تأخرًا فى تقدم الجهاد، وجرَّأ أصحاب البلاد المفتوحة على الانتقاض على المسلمين مرة بعد مرة، ووصلت الحال فى بعض البلاد إلى أنه كلما تولى رجل له قبيلة فى تلك البلاد قرَّب أفراد قبيلته وقواهم وتقوى بهم، فتحدث الفتنة وتثور القبائل الأخرى، وما ذاك إلا بسبب طرح رابطة الإسلام التى هى نعمة كبرى على المسلمين، وإتخاذ الروابط الجاهلية بديلاً عنها(٢).

٥- رفضه للقيام بين يديه:

لما ولى عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه، فقال: يا معشر المسلمين إن تقوموا نقم، وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، وإن الله فرض فرائض، وسن سننًا، من أخذ بها لحق ومن تركها مُحِق(٣). أراد عمر أن يقضى على العادات الموروثة التى أشبه بها الولاة آنذاك الأكاسرة والقياصرة، وكان له عزم صارم على العودة بالأمة إلى منهج الخلفاء الراشدين، وعمر هنا يحجِّم دافعين قويين يدفعانه إلى مجاراة عشيرته فى مظاهرهم.. أولهما طموح النفس نحو الظهور وفرض السلطة والهيبة فى قلوب الناس، وثانيهما رغبة عشيرته الملحة فى الإبقاء على هذه المظاهر، وتشنيعهم عليه فى مخالفة ما كان عليه أسلافه، ولكنه تغلب على هذين الدافعين بحزم وإيمان قوى، وكان الدافع الذى

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص١٠٣ - ١٠٦.
(٢) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ١٢٤).
(٣) تاريخ دمشق نقلاً عن التاريخ الإسلامى (١٥/ ١١٤).

يدفعه إلى التواضع ورفض المظاهر الدنيوية هو خوفه من الله تعالى ورغبته فيما عنده، وطموح فكره نحو الآخرة وتجاوز المستقبل الدنيوى، وكان هذا الدافع أقوى بكثير من الجواذب الأرضية، فنجح فى إلجام نفسه عن هواها، وإسكات أصحاب المظاهر الخادعة، وتصحيح مفاهيم المجتمع فيما يجب أن تكون عليه الولاة والعلاقة بينهم وبين الرعية. وفى قوله: إن الله فرض فرائض، بيان لأسباب السعادة والشقاوة الحقيقية فى الدنيا والآخرة، فمن طبقها لحق بركب المتقين فى الدنيا، وأكرم به من رفقة صالحة، وسيق يوم القيامة إلى رضوان الله تعالى والجنة وأكرم به من مآل وعاقبة(١).

٦- تقديره أهل الفضل:

ذكر الحافظ ابن كثير أن ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر بن عبد العزيز فقال له: من أنت؟ فقال مرتجلاً:

أنا ابن الذى سالت على الخدِّ عينه ... فرُدَّت بكفِّ المصطفى أحسن الرَّدِّ

فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حُسْنَها عينًا ويا حُسْنَ ما رَدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبًا بماء فعادا بعد أبوالا

ثم وصله وأحسن جائزته رضى الله عنه(٢). ففى هذا الخبر موقف لأمير عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- تعالى فى إكرام ولد قتادة بن النعمان لما وفد عليه حينما عرف نفسه بما حدث لأبيه رضى الله عنه فى هذا الخبر على يد رسول الله ﷺ، وهذا يدل على تفوق عمر بن عبد العزيز فى المجال الأخلاقى، وذلك بتقدير أهل الفضل، والتقدم فى خدمة الإسلام والمسلمين، فإن ما حدث لقتادة رضى الله عنه من اقتلاع عينه بتلك الصورة شاهد على إيغاله فى القتال وتعرضه للمهالك، كما أنه شرف له أن تمثلت فيه تلك المعجزة النبوية(٣). ومن تقديره لأهل الفضل ما قام به لزياد مولى ابن عياش، فقد قدم عليه زياد مولى ابن عياش، وأصحاب له، فأتى الباب وبه جماعة من الناس فأذن له دونهم، فدخل عليه فنسى أن يسلم عليه بالخلافة، ثم ذكر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له

(١) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/١١٥).

(٢) سيرة عمر لابن الجوزى صـ٩٦، التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/ ٢٢).

(٣) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/٢٣).

عمر: والأُولى لم تضرني، ثم نزل عمر عن موضع كان عليه إلى الأرض وقال: إني أعظم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد، فلما قضى زياد ما يريد خرج، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومن معه يأخذون منه حاجتهم، فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمته عينه أن يكون يُفتح لمثله بيت المال ويسلَّطُ عليه ـ وهو به غير عارف ـ ففعل الخازن ما أمر به، فدخل زياد فأخذ لنفسه ولأصحابه بضعًا وثمانين درهمًا أو بضعًا وتسعين درهمًا، فلما رأى ذلك الخازن قال: أمير المؤمنين أعلم بمن يسلط على بيت المال[1].

ففى هذا الخبر صور من تواضع عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- وتقديره للعلماء الربانيين فهو أولاً لم يبال بلقب الخلافة وهو أعلى لقب عند المسلمين، والمناصب لها فتنة يقع فى حبائلها من اغتروا بالجاه والمنزلة الدنيوية، أما أقوياء الإيمان فإن شخصيتهم لا تتغير بعد المنصب، بل يظلون على ما هم عليه من التواضع، وربما زادوا تواضعًا فى مقابلة احترام الناس لهم. ثم هو ثانيًا نزل من مكانه حتى لا يعلو ذلك العالم الربانى زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة، وكون ذلك العالم من الموالى لا ينزل من قدره عند عمر، فإن العبرة بالعلم والتقوى لا بشرف النسب، وموقف كريم لهذا العالم الربانى حيث لم يأخذ من بيت المال إلا ذلك القدر الزهيد مع أنه قد مكن منه، وهذا مثال رفيع من أمثلة الزهد والورع، وحينما تكون النفوس كبيرة والعقول راجحة فإنها تعف عن متاع الدنيا الذى يتنافس عليه الصغار، وتطمح ببصرها نحو نعيم الآخرة الخالد الذى يتنافس فيه الكبار[2].

٧ـ المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه:

كان بين وفد المهنئين لعمر بالخلافة من أهل الحجاز غلام صغير، وكان الوفد قد اختار الغلام ليتكلم عنهم، وهو أصغرهم، فلما بدأ بالكلام قال له عمر: مهلاً يا غلام ليتكلم من هو أسن منك، فقال الغلام: مهلاً يا أمير المؤمنين، المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا، فقد استجاد له الحلية[3]. يا أمير المؤمنين لو كان التقدم بالسن لكان فى الأمة من هو أسن منك ـ أى أحق بمجلسك هذا ممن هو أكبر منك سنًا[4] ـ. فقال عمر: تحدث يا غلام، قال: نعم يا أمير المؤمنين، نحن وفود التهنئة لا

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٥٣، التاريخ الإسلامى (١٥/ ٢٤).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٥/ ٢٤).

(٣) استجاد له الحلية: استحق أن يتكلم.

(٤) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز صـ ٧٩.

وفود المرزئة[1]، قدمنا إليك من بلدنا، نحمد الله الذى منَّ بك علينا، لم يخرجنا إليك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد أتانا منك إلى بلدنا، وأما الرهبة فقد أمّننا الله بعدلك من جورك[2]. فأعجب عمر بفصاحة الغلام وعلمه، وسداد رأيه، فما كان من عمر إلا أن شجعه على ذلك، وزاده ثقة بنفسه وجراءة ليكون هذا الحادث موقفًا تربويًا يتعلم فيه الغلام فى حضرة خليفة المسلمين، فطلب منه الموعظة فقال: عظنا يا غلام وأوجز، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، إن أناسًا من الناس غرهم حلم الله عنهم، وطول أملهم، وحسن ثناء الناس عليهم، فلا يغرنك حلم الله عنك، وطول أملك، وحسن ثناء الناس عليك فتزل قدمك، ثم نظر عمر فى سن الغلام فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة، فأنشأ يقول:

تعلم فليس المرء يولد عالمًا ... وليس أخو علم كمن بات جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل[3]

٨ـ امرأة مصرية مسكينة تشتكى لعمر:

كان عمر يتابع أمور المسلمين ويفتح الأبواب على مصراعيها لسماع أخبارهم، فقد كان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحدًا من الناس إذا خرّج كتابًا إلا حمله، فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذى أصبح كتابًا تذكر فيه أن لها حائطًا قصيرًا، وأنه يقتحم عليها فيسرق دجاجها، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذى أصبح، بلغنى كتابك وما ذكرت من قصر حائطك، وأنه يدخل عليك فيسرق دجاجك، فقد كتبت كتابًا إلى أيوب بن شرحبيل ـ وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها ـ آمره بأن يبنى لك ذلك، يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله، وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل، أما بعد، فإن فرتونة مولاة ذى أصبح كتبت تذكر قصر حائطها، وأنه يسرق منه دجاجها وتسأل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابى هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها، فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، وإذا هى سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصّنه لها[4].

(١) الارتزاء: انتقاص الشيء، والمرزئة: الرزيئة وهى المصيبة.

(٢) مروج الذهب (٣/١٩٧).

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز صـ٩٨.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١٦٣ ـ ١٦٤، التاريخ الإسلامى (١٥/٧٧).

٩ـ اهتمامه بفداء الأسرى:

كتب إلى الأسارى بالقسطنطينية: أما بعد، فإنكم تعدون أنفسكم أسارى، معاذ الله بل أنتم الحبساء فى سبيل الله، واعلموا أننى لست أقسم شيئًا بين رعيتى إلا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه، وأنى قد بعثت إليكم خمسة دنانير ولولا أنى خشيت إن زدتكم أن يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يفادى صغيركم وكبيركم، ذكركم وأنثاكم، حركم ومملوككم بما سئل به، فأبشروا، ثم أبشروا والسلام عليكم.[١] وفى هذا الكتاب يتجلى سمو أخلاق عمر وعظم شعوره بالمسئولية كنموذج راق لحاكم مسلم الذى يخاف الله، ويتقيه فى حقوق رعيته بمنتهى الإخلاص والأمانة حيث واسى أسرى المسلمين لدى الروم، حيث شبههم بالمرابطين الذين حبسوا أنفسهم فى سبيل الله تعالى، فهم بهذا ينالون أجر المرابطين، وإلى جانب هذه المواساة المعنوية فإنه قد واساهم بالمال الذى أمدهم به، وأزاح الهمّ عنهم بما أخبرهم به من كفالة أسرهم فى حال غيبتهم، كما أنه وعدهم جميعًا بمفاداتهم لفك أسرهم، وهذه معاملة كريمة يستحقها هؤلاء الأسرى الذين خرجوا بأنفسهم لحماية الإسلام ونصره[٢].

١٠ـ قضاء ديون الغارمين:

كتب إلى عماله: أن اقضوا عن الغارمين، فكُتب إليه: إن نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس، وله الأثاث فى بيته، فكتب عمر: لابد للرجل من المسلمين من مسكن يؤوى رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث فى بيته، ومع ذلك فهو غارم، فاقضوا عنه ما عليه من الدين[٣]، ففى هذا الخبر يأمر أمير المؤمنين عمر بقضاء الديون عن الغارمين، وإن كانوا يملكون المسكن والأثاث والخادم والفرس، وهو مظهر عظيم من مظاهر الرحمة والمواساة، والاهتمام بشئون الرعية، وهكذا يتصرف الأئمة العادلون بأموال الأمة، حيث يغنون بها فقيرها، ويجبرون به كسيرها، ويفكون بها أسيرها، ويقضون به عن معسرها، ويسدون به خلة معوزها[٤].

١١ـ خبر الأسير الأعمى عند الروم:

أرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم رسولاً، فأتاه وخرج من عنده يدور، فمر بموضع، فسمع فيه رجلاً يقرأ القرآن ويطحن، فأتاه فسلم عليه فلم يرد عليه السلام ـ مرتين

(١)، (٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٦٣، ١٦٤.
(٢)، (٤) التاريخ الإسلامى (١٥/٧٧).

أو ثلاثًا ـ ثم سلم عليه فقال له: وأنىّ بالسلام فى هذا البلد، فأعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم، قال له: ما شأنك؟ فقال: إنى أسرت فى موضع كذا وكذا، فأتى بى إلى صاحب الروم، فعرض علىّ النصرانية فأبيت، وقال لى: إن لم تفعل سملت عينيك، فاخترت دينى على بصرى، فسمل عينى وصيرنى إلى هذا الموضع، يرسل إلى كل يوم بحنطة أطحنها وبخبزة آكلها، فسار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل، قال: فما فرغت من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بلّت ما بين يديه، ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم: أما بعد، فقد بلغنى خبر فلان بن فلان فوصف له صفته، وأنا أقسم بالله لئن لم ترسله إلىّ لأبعثنّ إليك من الجنود جنودًا يكون أولها عندك وآخرها عندى. ولما رجع إليه الرسول قال: ما أسرع ما رجعت! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا، بل نبعث إليه به، قال: فأقمت أنتظر متى يخرج به، فأتيته ذات يوم فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره أعرف فى وجهه الكآبة، فقال: تدرى لم فعلت هذا؟ فقلت: لا ـ وقد أنكرت ما رأيت ـ، فقال: إنه قد أتانى من بعض أطرافى أن الرجل الصالح قد مات، ولذلك فعلت ما فعلت، ثم قال: إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السوء لم يترك بينهم إلا قليلاً حتى يخرج من بين أظهرهم. فقلت له: أتأذن لى أن أنصرف –وأيست من بعثه الرجل معى– فقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر فى حياته ثم نرجع فيه بعد مماته، فأرسل معه الرجل[1].

١٢ـ المرأة العراقية التى فرض لبناتها من بيت المال:

قدمت امرأة من العراق على عمر بن عبد العزيز فلما صارت إلى بابه قالت: هل على أمير المؤمنين حاجب؟ فقالوا: لا فلجى إن أحببت، فدخلت المرأة على فاطمة وهى جالسة فى بيتها، وفى يدها قطن تعالجه، فسلمت فردت عليها السلام وقالت لها: ادخلى، فلما جلست المرأة رفعت بصرها ولم تر شيئًا له بال، فقالت: إنما جئت لأعمر بيتى من هذا البيت الخرب، فقالت لها فاطمة: إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك، قال: فأقبل عمر حتى دخل الدار، فمال إلى بئر فى ناحية الدار فانتزع منها دلاء فصبها على طين كان بحضرة البيت ـ وهو يكثر النظر إلى فاطمة ـ فقالت لها المرأة: استترى من هذا الطيّان فإنى أراه يديم النظر إليك، فقالت: ليس هو بطيان، هو أمير المؤمنين. قال: ثم أقبل عمر فسلم ودخل بيته، فمال إلى مصلى كان له فى البيت يصلى فيه، فسأل فاطمة عن المرأة، فقالت:

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٦٨.

هى هذه، فأخذ مكتلاً له فيه شىء من عنب فجعل يتخير لها خيره يناولها إياه ثم أقبل عليها وقال: ما حاجتك؟ فقالت: امرأة من أهل العراق لى خمس بنات كُسْلٌ كُسْدٌ، فجئتك أبتغى حسن نظرك لهنّ، فجعل يقول: كسل كُسُدَ، ويبكى، فأخذ الدواة والقرطاس فكتب إلى والى العراق، فقال: سمى كبراهنّ، فسمتها ففرض لها، فقالت المرأة: الحمد لله، ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة، والمرأة تحمد الله ففرض لها، فلما فرض للأربع استفزها الفرح فدعت له فجزته خيراً، فرفع يده وقال: كنا نفرض لهنّ حيث كنت تولين الحمد أهله، فمرى هؤلاء الأربع يفضنّ على هذه الخامسة. فخرجت بالكتاب حتى أتت به العراق، فدفعته إلى والى العراق، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاؤه، وقال: رحم الله صاحب هذا الكتاب، فقالت: أمات؟ قال: نعم، فصاحت وولولت، فقال: لا بأس عليك، ما كنت لأرد كتابه فى شىء، فقضى حاجتها وفرض لبناتها[1].

١٣ـ إحياؤه لسنة العطاء:

قال عمر بن عبد العزيز: إنه لا يحل لكم أن تأخذوا لموتاكم فارفعوهم إلينا، واكتبوا لنا كل منفوس[2] نفرض له[3]. وفى رواية أخرجها ابن سعد من خبر أبى بكر بن حزم قال: كنا نخرج ديوان أهل السجون فيخرجون إلى أعطياتهم بكتاب عمر بن عبد العزيز، وكتب إلىّ: من كان غائبًا قريب الغيبة فأعط أهل ديوانه، ومن كان منقطع الغيبة، فاعزل عطاءه إلى أن يقدم أو يأتى نعيه، أو يوكل عندك بوكالة ببينة على حياته فادفعه إلى وكيله[4]. وبهذا أحيا عمر بن عبد العزيز سنة العطاء الإسلامى التى كانت فى عهد الخلفاء الراشدين وعهد معاوية رضى الله عنهم، ثم اندثرت بعد ذلك واقتصر العطاء على بعض وجهاء الأمة، وكان بنو أمية يأخذون من ذلك الشىء الكثير على مراتبهم، فلما قسم عمر بن عبد العزيز ذلك على الأمة شمل جميع أفرادهم، وهذا من أبرز مواقفه[5] وإصلاحاته التجديدية.

١٤ـ إغناؤه المحتاجين عن المسألة:

قدم على عمر بن عبد العزيز بعض أهل المدينة فجعل يسأله عن أهل المدينة، فقال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون فى مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه يا أمير المؤمنين،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١٦٩.
(٢) أى مولود فى حال نفاس أمه.
(٣) طبقات ابن سعد (٥/٣٤٦).
(٤) المصدر نفسه (٥/٣٤٨).
(٥) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/١٣٨).

قال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه وأغناهم الله. قال: وكان من أولئك المساكين من يبيع الخبط للمسافرين[1]، فالتمس ذلك منهم بعد، فقالوا: قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر بن عبد العزيز[2]. وهذا من نتائج المنهج العادل الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في توزيع أموال المسلمين، حيث حُرِمَت القلة المتمكنة من الإسراف وأصبح ما يصرف لفرد من هذه الفئة يصرف لعشرات المسلمين، فوصل المال العام إلى فئات ممن لم يكن يصل إليها قبل، فاستغنوا به عن بعض الأعمال الشاقة التي كانت تُدِرُّ عليهم مبالغ زهيدة[3].

١٥ـ دفع المهور من بيت المال:

اهتمّ عمر بن عبد العزيز بأداء مهور الزواج من بيت المال لمن لم يستطع توفير ذلك، فقال أبو العلاء: قُرِئَ كتاب عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- في مسجد الكوفة وأنا أسمع: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة لا يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله[4]. وهذا قرار مهم في إصلاح المجتمع، لأن صلاحه يتوقف على تحصين أبنائه بالزواج وظفرهم بالسعادة الزوجية، وقد يكون المهر عائقًا لبعض الفقراء دون الزواج، خصوصًا في حال غلاء المهور، فإذا كانت الدولة توفر ذلك لمن لا يستطيع ذلك فإنها تسهم في تكوين المجتمع الصالح وحفظه من أسباب الفساد والاضطراب[5].

١٦- جهوده في التقريب بين طبقات المجتمع:

قال يونس بن أبي شبيب: شهدت عمر بن عبد العزيز في بعض الأعياد، وقد جاء أشراف الناس حتى حفُّوا بالمنبر، وبينهم وبين الناس فرجة، فلما جاء عمر صعد المنبر وسلم عليهم، فلما رأى الفرجة أومأ إلى الناس: أن تقدموا، فتقدموا حتى اختلطوا بهم[6]. لقد دأب الولاة من بعد عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه على رفع طبقات من الناس وتمييزهم على غيرهم بالعطاء والمجالس وغير ذلك، وسرى ذلك في الأمة حتى أصيب بعض أفرادها بالضعف، وأصبحوا يرون أنهم ليسوا أهلاً للجلوس مع أفراد الطبقات

(١) الخبط نوع من ورق الشجر تأكله الإبل.
(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ١٥١).
(٣) التاريخ الإسلامي (١٥/ ١٣٨).
(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٧٤).
(٥) التاريخ الإسلامي (١٥/ ١٣٩).
(٦) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٨٧).

المميزة الذين أصبح الناس يطلقون عليهم اسم «الأشراف» ولقد بلغ الضعف بعامة المجتمع إلى عدم التجاسر على الاقتراب من أفراد الطبقة الخاصة حتى فى المساجد، التى من المفترض فيها أن يتنافس المصلون على القرب من الإمام، لما فى ذلك من زيادة الثواب، فلما تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز كان من أجلِّ اهتماماته أن يقارب بين فئات المجتمع، بأن يضع من سمعة الطبقات العالية وأن يزيل كبرياءهم، وأن يرفع من شأن الطبقات المستضعفة، وأن يقوى معنوياتهم، ويزيل شعورهم بالضعف، فكان من جهوده فى ذلك المساواة بينهم فى العطاء، ولا شك أن المال له أهمية كبرى فى الرفع من شأن الناس وخفضهم، وفى هذا الخبر تبين لنا اهتمامه فى هذا المجال بالإشارة إلى عموم الناس ليقتربوا من الخاص، ويختلطوا بهم حتى تزول تلك الفجوة بين المسلمين التى خلفها ظلم الولاة وسوء إدارتهم[1].

١٧- شعوره الكبير بالمسئولية تجاه أفراد المجتمع:

قالت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر: .. إن عمر -رحمة الله- عليه كان قد فَرَّغ للمسلمين نفسه، ولأمورهم ذهنه، وكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليلته، إلى أن أمسى مساء وقد فرغ من حوائج يومه، فدعا بسراجه الذى كان من ماله، فصلى ركعتين ثم أقعى واضعًا رأسه على يديه، تسيل دموعه على خديه، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها، وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائمًا، فدنوت منه فقلت: يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان؟ قال: أجل فعليك بشأنك وخلِّينى وشأنى، قالت: فقلت إنى أرجو أن أتَّعظ، قال: إذًا أخبرك، إنى نظرت فوجدتُنى قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها، ثم ذكرت الفقير الجائع، والغريب الضائع، والأسير المقهور، وذا المال القليل والعيال الكثير، وأشباه ذلك فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن الله سائلى عنهم، وأن رسول الله ﷺ حجيجى فيهم، فخفت أن لا يقبل الله تعالى منى معذرة فيهم، ولا تقوم لى مع رسول الله ﷺ حجة، فرحمت -والله- يا فاطمة نفسى رحمة دمعت لها عينى، ووجع لها قلبى، فأنا كلما ازددت لها ذكرًا ازددت منها خوفًا، فاتَّعظى إن شئت أو ذَرِى[2]. وهذا تقدير بالغ من عمر رحمه الله للمسئولية التى تحملها؛ حيث تذكر ضعفاء المسلمين وأصحاب الحاجات، بالرغم مما يبذله من جهد متواصل فى التعرف على أحوال الأمة، ولكن لما كان هذا الأمر غير محصور خشى أن

(١) التاريخ الإسلامى (١٥/ ١٤٠).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٧٠، التاريخ الإسلامى (١٥/ ١٠٧).

يكون قد لقى من المسلمين من لم تُرفع إليه حاجته، فيكون مسئولاً عنه. وفى تذكره للحساب والجنة والنار دليل على عمق إيمانه بالغيب حتى أصبح أمامه كالمشاهد، فأصبح ذلك دافعًا له إلى العدل والرحمة، والمبالغة فى تفقد أحوال الأمة. وفى بكائه الشديد دلالة على عظمة خوفه من الله عز وجل، وقد عصمه الله تعالى بهذا الخوف، فارتفع بفكره وسلوكه عن المغريات، وقوى أمام جميع التحديات، فكلما عظم عليه خطب مجابهة الناس تذكر النار والحساب فهان عليه كل خطب عظيم، وصغر فى نظره كل أمر جسيم[(١)].

١٨ ـ فى الإنفاق على الذمى إذا كبر ولم يكن له مال:

الإسلام دين العدالة والسماحة والاهتمام بالضعيف، والإسلام يهتم بكل من يعيش على أرضه ولو كان على غير دين الإسلام، وعمر بن عبد العزيز يُجَسِّد هذه القيم الرفيعة بتطبيقه أحكام هذا الدين، فيقرر أن الذمى إذا كبر ولم يكن له مال، ولا حميم ينفق عليه فإن نفقته فى بيت مال المسلمين[(٢)]، فقد روى ابن سعد: قال عمر بن بهرام الصرّاف: قرئ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدى بن أرطأة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين، سلام عليكم، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فانظر أهل الذمة فارفق بهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه[(٣)].

١٩ـ أكله مع أهل الكتاب:

كان عمر بن عبد العزيز يجعل كل يوم من ماله درهمًا فى طعام المسلمين، ثم يأكل معهم، وكان ينزل بأهل الذمة فيقدمون له من الحلبة المنبوتة والبقول وأشباه ذلك مما كانوا يضعون من طعامهم فيعطيهم، أكثر من ذلك ويأكل معهم، فإن أبوا أن يقبلوا ذلك منه لم يأكل منه[(٤)].

٢٠- عمر والشعراء:

لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد الشعراء إليه، فأقاموا ببابه أيامًا لا يؤذن لهم، فبينما هم كذلك وقد أزمعوا على الرحيل مر بهم رجاء بن حيوة ـ وكان من خطباء أهل الشام – فلما رآه جرير داخلاً على عمر أنشأ يقول:

(١) التاريخ الإسلامى (١٥/١٠٨). (٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٣٥٣).
(٣) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٨٠).
(٤) حلية الأولياء (٥/٣١٥ ـ ٣١٦)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٣٥٦).

يا أيهـــا الرجل المرخى عـــمـــامـــتــه ... هذا زمـانك فـــاســتــأذن لنا عـــمـرا

قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئًا، ثم مرّ بهم عدى بن أرطأة، فقال له جرير:

يا أيهــــا الرجل المـرخى مطيـــتـــه ... هذا زمـــانك إنى قـــد مـضـى زمنى

أبلغ خـــليـــفـــتنا إن كـــنت لاقــيـــه ... أنّى لدى البـــاب كـــالمصفـــود فى قـــرن

لا تنس حـــاجـــتنا لقّـيت مــغـفــرة ... قــد طال مكثى عن أهــلى وعن وطنى

فدخل عـدى على عمر، فقـال: يا أمير المؤمنين، الشـعراء ببابك وسهـامهم مسمـومة وأقوالهم نافـذة، قال: ويحك يا عدى ما لى وللشـعراء، قال: أعز الله أمـير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ أسوة، قال: كيـف؟ قال: امتدحه العبـاس بن مرداس السلمى فأعطاه حلة قطع بها لسانه، قال: أو تروى من قوله شيئًا؟ قال: نعم، فأنشده يقول:

رأيتـك يا خــــيـر البـــريـــة كلهـــا ... نشـرت كـــتـــابًا جـــاء بالحق مـــعلمًـــا

شـرعت لنا دين الهـدى بعـد جـورنا ... عن الحق لمـــا أصـــبح الحق مظـلمًـــا

ونـورت بالـتـبـيـــان أمـرًا مـدلـسًـا ... وأطفـــأت بـالقـرآن نارًا تـضـــرمًـــا

قال: ويحك يا عدى، من بالباب منهم، فذكر له أسماء الشعراء، عمر بن عبد الله بن ربيعة، والفرزدق، والأخطـل، وجرير، فرد الجميع إلا جرير فسـمح له بالدخول، فدخل جرير وهو يقول:

إن الذى بعـث النبى مـــحـــمـــدًا ... جـــعل الخـــلافـة للإمــــام العــــادل

وسع الخـــلائـق عــــدله ووفـــاؤه ... حـــتـى ارعـوى فـــأقـام مـــيل المائل

إنى لأرجــــو منك خــيــرًا عـاجـــلاً ... والنفـس مـــولعـــة بحب الـعـــاجل

فلما مـثل بين يديه قال: ويحـك يا جرير، اتق الله ولا تقل إلا حـقًا[1]، فنشأ جرير يقول:

أأذكـــر الجـهـــد والبلوى الـتى نزلت ... أم قـد كـفانى بمـا بُلِّغْتَ من خيـرى

كم باليــمـامـة مـن شـعــثـاءَ أرملة ... ومـن يتـيم ضـعيـف الصـوت والنَّظَرِ

ممن يـعـــدُّكَ تكفـى فـــقـــد والدِه ... كالفَرخ فى العش لم ينهض ولم يطر

(١) المنتظم (٧/٣٧).

يدعــوك دعــوة ملهــوف كــأنّ به　　خبلاً مـن الجنّ أو مـسًّـا مـن البشـر
خليـــفــة الله مــاذا تأمــرون بـنـا　　لسـنا إليكم ولا فـي حـار منتظر
مــا زلـت بعــدك فـي هـم يؤرقـني　　قد طال في الحيّ إصـعادي ومنحدري
لا ينفـع الحـاضــر المجـهــود بادينا　　ولا يعـود لنـا بـادٍ علـى حـضـر
إنا لنـرجـو إذا مـا الغـيث أخلـفنا　　مـن الخليـفـة مـا نرجـو مـن المطر
نـال الخــلافـة إذ كــانت لـه قــدراً　　كــمـا أتـى ربّهُ مــوسـى علـى قـدر
هذي الأرامل قـد قـضّيت حـاجـتهـا　　فـمــن لحـاجـة هـذا الأرمـل الذكـر
الخـيـر مــا دمـت حـيًّا لا يـفـارقنا　　بوركت يا عـمـر الخـيـرات مـن عمـر

فقال: يا جـرير ما أرى لك فيما ها هنا حـقًّا، قال: بلى يا أمير المؤمـنين أنا ابن سبيل ومنقطع. فأعطاه من صـلب ماله مائة درهم... ثم خـرج، فقال له الشعـراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوؤكم، خرجت من عند أميـر المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، وإني عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

رأيت رُقَى الـشـيطان لا تستــفـزه　　وقـد كـان شيطاني من الجن راقـيا(١)

وهذا منهج جـديد في عهد الـدولة الأموية للتـعامل مع الشعـراء، فقـد كان الشـعراء يمدحون الملوك والأمـراء طلبًا لرفدهم، ويدخلون في قصائـدهم المبالغات والكذب إلى أن تولى الخلافة عمـر بن عبد العزيز، فقصدوه، فكـان موقفه من الشعراء كمـا تبين من الخبر المذكور، فقطع تلك العادة التي تفسد بنية المجتمع، وتشجع على سيادة الأخلاق السيئة من الكذب والتغرير والنفـاق، فقطع تلك العادة السيئة ولم تعد إلـى الظهور إلا بعد وفاته(٢). ولقد اعترف جرير بأن الشياطين كانوا من وراء الشعراء في استفزاز الأمراء الممدوحين، وأن عمر بن عبد العزيز قد تميز بحصانته من أولئك الشياطين(٣).

٢١- تأثره بشعر الزهد وعلاقته بسابق البربري:

قرّب عـمر بن عبد العـزيز من الشعراء من التـزم شعر الزهد وذكـر الموت والخوف من الآخرة، ويبدو أن أقرب الشعراء لقلب عمر هو سـابق البربري(٤)، فكان يعظ عمر وينشده

(١) المنتظم (٧/ ٩٩).　　(٢)، (٣) التاريخ الإسلامي (١٥/ ١٧٤).
(٤) شاعر من الزهاد له كلام في الحكمة والرقـائق، وهو من موالي بني أمية، والبربري لقب له، ولم يكن من =

الشعر فيتأثر عمر ويبكى، وذات يوم دخل سابق البربرى وهو ينشد شعراً فانتهى فى شعره إلى هذه الأبيات:

فكم من صحيح بات للموت آمنًا ... أتته المنايا بغتة بعدما هَجع

فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة ... فراراً ولا منه بقوَّتِهِ امتنع

فأصبح تبكيه النساء مُقَنَّعًا ... ولا يسمع الداعى وإن صوته رفع

وقُرِّبَ من لحدٍ فصارَ مقيله ... وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع

قال الرواى ميمون بن مهران: فلم يزل عمر يبكى ويضطرب حتى غشى عليه، فقمنا، فانصرفنا عنه[1].

وقد قال سابق البربرى قصيدة طويلة فيها مواعظ وحكم، تأثر بها عمر بن عبد العزيز تأثراً بالغًا، وهى:

بسم الذى أنزلت من عنده السُّوَرُ ... والحمد لله أما بعد يا عمر

إن كنت تعلم ما تأتى وما تذر ... فكن على حذر قد ينفع الحذر

واصبر على القدر المجلوب وارض به ... وإن أتاك بما لا تشتهى القدر

فما صفا لامرئٍ عيش يُسَرُّ به ... إلا سيتبع يومًا صفوه كدر

واستخبر الناس عما أنت جاهله ... إذا عميت فقد يجلو العمى الخبر

قد يرعوى المرء يومًا بعد هفوته ... وتحكم الجاهلَ الأيام والعبر

من يطلب الجور لا يظفر بحاجته ... وطالب الحق قد يُهدى له الظَّفَرُ

وفى الهدى عبرٌ تشفى القلوبُ بها ... كالغيث ينضر عن وسميِّه[2] الشجر

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ماله بَصرُ

والرُّشد نافلة تُهدى لصاحبها ... والغىُّ يكره منه الوِردُ والصَّدر[3]

= البربر، سكن الرقة، وكان يفد على عمر بن عبد العزيز، الأعلام (٣/ ٦٩).

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر (٢/ ٦١٢)، سيرة عمر بن عبد العزيز، عفت وصال حمزة صـ١٨٤ .

(٢) الوسمى: المطر فى أول الربيع.

(٣) الورد: الماء الذى يورد، والقوم يردون الماء، الصَّدر: الرجوع عن الماء.

وقد يوبق[1] المرءَ أمرٌ وهو يحقره ... والشيءُ يا نفسُ ينمى وهو يُحتَصرُ
لا يشبع النفس شيء حين تحرزه ... ولا يزال لها في غيره وطر
ولا تزال، وإن كانت لها سعة ... كما تُغيِّرُ لون اللمة الغِيَر[2]
وكل شيء له حال تغيره ... لها إلى الشيء لم تظفر به نظر
والذكرُ فيه حياة للقلوب كما ... يحيى البلاد إذا ما ماتت المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يُجلِّى سوادَ الظلمةِ القَمَرُ
لا ينفع الذكر قلبًا قاسيًا أبدًا ... وهل يلين لقول الواعظ الحجر؟
والموت جسرٌ لمن يمشى على قدم ... إلى الأمور التى تخشى وتُنتظَرُ
فهم يمرّون أفواجًا وتجمعُهم ... دار إليها يصير البدو والحَضَرُ
من كان فى معقل للحِرز[3] أسلمه ... أو كان فى خمر لم ينجه خَمَرُ
حتى متى أنا فى الدنيا أخو كَلَفٍ ... فى الخير منى لَذَّاتِها صَعَرُ[4]
ولا أرى أثرًا للذكرِ فى جسدى ... والماء فى الحجر القاسى له أثَرُ
لو كان يسهر عينى ذكر آخرتى ... كما يُؤرِقنى للعاجل السَّهَرُ
إذًا لداويت قلبًا قد أضرّ به ... طول السقام ووهن العظم ينجبرُ
ما يلبثُ الشيءُ أن يبلى إذا اختلفت ... يومًا على نقضه الروحات والبُكَرُ[5]
والمرءُ يصعد ريعان الشباب به ... وكل مصعدة يومًا ستنحدر[6]
وكل بيت خراب بعد جِدَّتِه ... ومن وراء الشباب الموت والكِبَرُ
بينا يُرى الغُصن لَدْنًا[7] فى أرومته ... ريان أضحى حُطامًا جوفه نَخِرُ
وكم من جميع أَشَتَّ الدهر شملَهُمُ ... وكل شمل جميع سوف ينتثِرُ
وربَّ أصيد سامى الطرف معتصب ... بالتاج نيرانه للحرب تستعر

(1) يوبق: يُهلك من وبق.
(2) الغِيَر: تغير الأحداث.
(3) الحِرز: المكان المنيع يُلجأ إليه.
(4) صَعَر: صعر خده: أماله كبرًا.
(5) الروحات والبكر: روحة من الرواح، ويقابله الصباح البكر: أول النهار.
(6) أى بعد كل صعود نزول: ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.
(7) لدنًا: طريًا لينًا.

يظل مفترشَ الديباج محتجبًا ... عليه تبنى قباب الملك والحَجَرُ
قد غادرته المنايا وهو مستلب ... مُجَدَّل ترب الخدين منعفر[1]
أبعد آدم ترجون البقاء وهل ... تبقى فروع لأصل حين ينعقر
لهم بيوت بمستن السيول وهل ... يبقى على الماء بيت أُسُّه مَدَرُ
إلى الفناءِ ـ وإن طالت سلامتهم ـ ... مصير كل بنى أنثى وإن كثروا
إنَّ الأمور إذا استقبلتَها اشتبهت[2] ... وفى تدبرها التبيان والعِبَرُ
والمرء ما عاش فى الدنيا له أملٌ ... إذا انقضى سفر منها أتى سفر
لها حلاوةُ عيشٍ غيرُ دائمة ... وفى العواقب منها المرُّ والصَّبُرُ
إذا انقضت زمر آجالها نزلت ... على منازلها من بعدها زُمَر[3]
وليس يزجركُم ما توعظون به ... والبُهْمُ يزجرها الراعى فتنزجر[4]
أصبحتم جَزَرًا للموت يقبضكم ... كما البهائم فى الدُّنيا لها جزر
لا تبطروا واهجروا الدُّنيا فإن لها ... غِبًا وخيمًا، وكفر النعمة البطر
ثم اقتدوا بالأُلى كانوا لكم غُرَرًا ... وليس من أمة إلا لها غُرَرُ[5]
حتى تكونوا على منهاج أولكم ... وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا
ما لى أرى الناس والدنيا مولية ... وكل حبل عليها سوف ينبتر[6]
لا يشعرون بما فى دينهم نَقَصوا ... جهلاً وإن نقصوا دنياهُمُ شعروا[7]

وكان عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يتمثل بالشعر كثيرًا، ومن تلك الأبيات التى ترنّم بها:

ولا خير فى عيش امرئ لم يكن له ... من الله فى دار القرار نصيب[8]

(١) مُجَدَّلٌ: جَدَّل: صرع، وفى حديث على رضى الله عنه: يعز علىَّ أبا محمد أن أراك مجدّلاً تحت النجوم.
(٢) اشتبهت: اشتبه: اختلط الأمر عليه. (٣) الزمر: مفردها زمرة، هى الفوج والجماعة.
(٤) انزجر: انقاد ـ أى أن الحيوانات تنقاد لراعيها إذا دعاها .
(٥) الغُرر: غُرَّة: وغرة القوم: شريفهم وسيدهم . (٦) ينبتر: انبتر: انقطع .
(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز، عفت وصال صـ١٨٧، الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/ ٨١) .
(٨) البداية والنهاية (١٢/ ٧٠٧) .

ومن ذلك أيضًا:

تُسَرُّ بما يَبْلى[1] وتفرح بالمنى ... كما اغتر باللذات فى النوم حالم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلُكُ نوم والرّدَى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غبَّه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم[2]

وذات يوم نظر عمر بن عبد العزيز، وهو فى جنازة إلى قوم قد تلثَّموا من الغبار والشمس، وانحازوا إلى الظلِّ، فبكى وأنشد:

من كان حين تصيب الشمسُ جبهته ... أو الغبارُ يخاف الشَّينَ والشعثا
ويألف الظلَّ كى تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يومًا راغمًا جدثا
فى قعر مُظلمةٍ غبراء موحشةٍ ... يطيل فى قعرها تحت الثَّرى لُبثا
تجهَّزى بجهاز تبلُغين به ... يا نفس قبل الرّدى لم تُخلقى عبثا[3]

٢٢- بين الشاعر دكين بن رجاء وعمر بن عبد العزيز:

قال دكين: امتدحت عمر بن عبد العزيز وهو والى المدينة، فأمر لى بخمس عشرة ناقة كرائم صعاب[4]، فكرهت أن أرمى بها الفجاج فتنتشر علىَّ، ولم تطب نفسى ببيعها، فقدمت علينا رفقة من مُضر، فسألتهم الصحبة، فقالوا: إن خرجت فى ليلتك، فقلت: إنّى لم أودِّع الأمير، ولا بدَّ من وداعه، قالوا: إنّه لا يحتجب عن طارق ليل، فأتيته، فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت وعنده شيخان أعرفهما، فودّعته. فقال لى: يا دكين، إنَّ لى نفسًا توّاقةُ فإن أنا صرت إلى أكثر ممّا أنا فيه، فبعَيْنٍ ما أرَيَنَّك، فقلت: أشهد لى عليك بذلك، فقال: أشهد الله به، قلت: ومن خلقه؟ قال: هذين الشخصين، فأقبلت على أحدهما فقلت: من أنت أعرفُك؟ قال: سالم بن عبد الله، قلت: لقد استسمنت الشاهد، وقلت للآخر: من أنت؟ قال: أبو يحيى مولى الأمير[5]، فخرجت بهنَّ إلى بلدى، فرمى الله فى أذنابهنَّ بالبركة حتى اعتقدت منهنَّ الإبل والغلمان، فإنى لبصحراء فلج[6]، إذ ناعٍ ينعى سليمان بن عبد الملك، قلت: فمن القائم بعده؟ قال: عمر بن عبد

(١) يبلى: يفنى .
(٢) البداية والنهاية (١٢/٧٠٧) .
(٣) البداية والنهاية (١٢/٧٠٦) .
(٤) الصعاب: جمع صعبة، وهى نقيض الذلول.
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/٦١١) .
(٦) فلج: موضع فى الصحراء.

العزيز، فتوجهت نحوه، فلقينى جرير بالطريق جائيًا من عنده، فقلت: يا أبا حزرة من أين؟ فقال: من عند من يعطى الفقراء ويمنع الشعراء، ولكن عُوِّل عليه فى مال ابن السبيل، فانطلقت فإذا هو فى عرصة داره(١) قد أحاط به الناس، فلم يمكنِّى الرِّجْل إليه، فناديت:

يا عمر الخيرات والمكارم ... وعُمر الدَّسائع العظائم(٢)
إنِّى امرؤٌ من قطن بن دارم ... أطلب دَيْنِ من أخ مكارم
إذ ننتجى والله غير نائم ... ظلمة الليل وليل عاتم(٣)

فقام أبو يحيى فقال: يا أمير المؤمنين، لهذا البدوى عندى شهادة عليك، قال: أعرفها، ادنُ منِّى يا دُكين، أنا كما ذكرت لك، إنَّ نفسى لم تنل أمرًا إلا تاقت إلى ما هو فوقه، وقد نلت غاية الدنيا، فنفسى تتوق إلى الآخرة، والله ما رزأت من أموال الناس شيئًا فأعطيك منه، وما عندى إلا ألفا درهم، أعطيك أحدهما، فأمر لى بألف، فوالله ما رأيت ألفًا كان أعظم بركة منه(٤). ودكين هو القائل:

إذا المرء لم يدنس من اللُّؤم عِرضُهُ ... فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يُضْرِع عن اللؤم نَفْسَهُ ... فليس إلى حسن الثَّناء سبيل(٥)

* من معالم عمر بن عبد العزيز فى التغيير الاجتماعى:

ومن خلال حياة عمر بن عبد العزيز الاجتماعية يمكننا معرفة معالم منهجه فى التغيير الاجتماعى والتى من أهمها:

١ - القدوة: حيث ضرب من نفسه مثالاً رائعًا فى الزهد والورع ومحاسبة النفس والأهل والعشيرة وإقامة الشرع على نفسه ومن حوله.

٢ - التدرج والمرحلية: حيث أخذ بسنة التدرج فى الإصلاح الاجتماعى، وإماتة البدع وإحياء السنن، كما مرّ معنا.

(١) عرصة الدار: وسطها.
(٢) الدسائع: العطايا والرغائب الواسعة.
(٣) ننتجى: نتناجى.
(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/٦١٢).
(٥) المصدر نفسه (٢/٦١٢).

٣ـ فهم النفوس البشرية: ولهذا كان يتبع مع الناس أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، ويرّغب ويرهب، ويعطى شيئًا من الدنيا لتهدئة النفوس، ثم أخذها للحق وإقامة العدل وإزالة الظلم.

٤ـ ترتيب الأولويات: فقد قدم رد المظالم على غيرها من الأعمال، ولهذا انتهج سياسة واضحة فى رد المظالم، بدأ بنفسه، ثم أهله وعشيرته، وعزل الولاة الظلمة، وعين الأخيار من أهل الكفاءة والأمانة والعلم، لإقامة العدل وتطبيق الشرع.. إلخ.

٥ـ وضوح الرؤية فى خطواته الإصلاحية: حيث جدّد مفهوم الشورى وبيعة الحاكم وحق الأمة فى الاختيار، وعمل على توكيل الأمناء على الولايات، ونشره للعدل فى الدولة كلها، وإحياؤه للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وحرصه على سلامة معتقد الأمة الصحيح ومحاربته للمعتقدات الفاسدة، واهتمامه بالعلماء وتوظيفه لخدمة الإسلام من خلال الدعوة والعلم والتعليم والتزكية،... إلخ من الأعمال فى مجال الاقتصاد، والسياسة والاجتماع حيث كان يملك رؤية إصلاحية تجديدية شاملة، كما سوف يتضح من خلال هذا الكتاب.

٦ـ التقيد بالقرآن الكريم والسنة النبوية: وهدى الخلفاء الراشدين فى رؤيته الإصلاحية، وبذلك يمكننا القول بأن وضوح الرؤية انبثق من خلال ثوابت راسخة متمثلة فى المرجعية الشرعية للرؤية الإصلاحية الشاملة، التى قام بها عمر بن عبد العزيز، والتى من جوانبها الحياة الإجتماعية.

ثانيًا: عمر بن عبد العزيز والعلماء:

كانت أيام سليمان بن عبد الملك بداية لمشاركة العلماء فى مسئوليات الدولة وقربهم من مصدر القرار السياسى وتأثيرهم فيه، فلما جاء عهد عمر بن عبد العزيز أصبحت مشاركة العلماء فى إدارة شئون الدولة قوية فعالة، وشاملة متنوعة، فعلى رأس الدولة عمر وهو يعد من أبرز العلماء وكبار الفقهاء، وساس الدولة كعالم وليس كملك، وتوسعت دائرة مشاركة العلماء فى عهده فبدأت فى مركز اتخاذ القرار فى العاصمة حيث أحاط عمر نفسه بجملة من العلماء للإشارة عليه ومعاونته، وأبعد من سواهم، فأصبحوا فرسان الحلبة وحدهم، فأسهموا فى صياغة سياسة الدولة صياغة شرعية خالصة، وامتدت مشاركتهم فى المسئولية إلى بقية مرافق الدولة، فأسندت إليهم مختلف المناصب والأعمال، ولا يعدو القول الحقيقة إذا قلنا إن الدولة فى عهد عمر بن عبد العزيز كانت دولة العلماء، فهى نموذج لما ينبغى أن

تكون عليه الدولة الإسلامية، اتحدت فيها السلطة التشريعية مع السلطة التنفيذية على أحسن حال[1]، وقد اتسعت مشاركة العلماء فى عهد عمر بن عبد العزيز بشكل لم يسبق له مثيل فى الدولة الأموية، ويرجع السبب فى ذلك إلى أمور، أهمها: حرص عمر على تقريب العلماء وجعلهم بطانته ووزراءه وأعوانه، ويتعلق السبب الآخر بالعلماء حيث لم ير أحد من العلماء لنفسه أى مبرر فى البعد عن عمر والمشاركة فى أعماله، فمن كان منهم يرى اعتزال الخلفاء والأمراء من منطلق أن على العلماء أن يصونوا العلم ولا يذهبوا للسلاطين ابتداء بل على السلاطين أن يقدروا العلم والعلماء ويسعوا إليهم، من كان يرى ذلك فقد تحقق له شرطه حيث كان عمر يقصد العلماء ويبعث إليهم، ومن كان يرى اعتزال الخلفاء والأمراء خوفًا على دينه من مخالطتهم، لم يعد لهذا المحذور وجود حيث إن مجالس عمر ومخالطته تعين المرء على دينه، لهذا أقبل العلماء على عمر ورأوا أن من الواجب عليهم تحمل عبء المسئولية الملقاة على عاتقه، ولم يعد لمعتذر عذر، بل أقبلوا عليه[2]، وقالوا كما ذكر ابن عساكر: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله[3]. فهذا ميمون بن مهران الذى يقول: لا تدخل على سلطان وإن قلت آمره بطاعة، والذى يقول: لا تعرف الأمير ولا تعرف من يعرفه، ومع هذا لا يجد لنفسه بدًا من العمل عند عمر بن عبد العزيز ومشاركته[4]. وتتجلى مشاركة العلماء فى عهد عمر فى عدة مظاهر أهمها:

١- قربهم من الخليفة وشد أزره للسير فى منهجه الإصلاحي:

أسهم العلماء فى مساعدة عمر بن عبد العزيز فى السير فى منهجه الإصلاحي حيث أيدوه فيما اتخذه من قرارات إصلاحية، كما كان لبعضهم أثر فى اتخاذ عمر لبعض تلك القرارات. فمن ذلك ما أثر على العالم العامل عراك بن مالك[5]، فقد ذكر ابن عمه أنه كان من أشد أصحاب عمر بن عبد العزيز على بنى مروان فى انتزاع ما حازوا من الفيء والمظالم من أيديهم، وقد تعرض بسبب هذا الموقف لغضب بنى أمية فيما بعد، فنفاه يزيد بن عبد الملك بعد توليه الخلافة إلى دهلك[6]. وكان عراك بن مالك الغفارى شيخًا كبيرًا ومحدثًا، وهو تابعى ثقة من خيار التابعين، وكان زاهدًا عابدًا، وقد انتفع به أهل تلك

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١١٤ .
(٢) المصدر نفسه صـ١٩٦ .
(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٩٧ .
(٤) البداية والنهاية نقلاً عن أثر العلماء صـ١٩٧ .
(٥) عراك بن مالك الغفارى المدنى، أحد العلماء العاملين.
(٦) جزيرة فى بحر اليمن ضيقة حرجة، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها، سير أعلام النبلاء (٦٤/٥).

الجزيرة التى نفى إليها[١]، وكان هذا التابعى الجليل يسرد الصوم قال فيه عمر بن عبد العزيز: ما أعلم أحدًا أكثر صلاة من عراك بن مالك، وقد مات فى منفاه رحمه الله فى إمرة يزيد بن عبد الملك عام ١٠٤هـ[٢]، وكان ميمون بن مهران من المقربين من عمر بن عبد العزيز فقد روى ابنه عمر بن ميمون بن مهران عن أبيه قال: ما زلت ألطف فى أمر الأمة وأنا وعمر بن عبد العزيز حتى قلت له: ما شأن هذه الطوامير التى تكتب فيها بالقلم الجليل وهى من بيت المال، فكتب إلى الآفاق لتركه فكانت كتبه نحو شبر[٣]. وميمون بن مهران قال عنه الذهبى: الإمام الحجة عالم الجزيرة ومفتيها[٤]، وقال عنه عمر بن عبد العزيز: إذا ذهب هذا وضرباؤه، صار الناس بعده رجراجة[٥]، وكان يكبر عمر بن عبد العزيز بعشرين سنة[٦]، وكان ميمون بن مهران من علماء السلف وله مواقف وأقوال فى نصرة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن أقواله: لا تجالسوا أهل القدر، ولا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، ولا تَعَلَّموا النجوم[٧]. وكتب ذات يوم إلى عمر بن عبد العزيز: إنى شيخ كبير رقيق، كلَّفتنى أن أقضى بين الناس، وكان على الخراج والقضاء بالجزيرة، فكتب إليه: إنى لم أُكَلِّفك ما يُعنِّيك، اجْبِ الطَّيِّبَ من الخراج، واقض بما استبان لك، فإذا لُبس عليك شىء، ارفعه إلىّ، فإن الناس لو كان إذا كبُر عليهم أمرٌ تركوه لم يقم دين ولا دنيا[٨]. ومن أقوال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه[٩]. وقال: ثلاثة تُؤدَّى إلى البرِّ والفاجر: الأمانة، والعهد، وصلة الرحم[١٠]. قال رجل لميمون بن مهران: يا أبا أيوب، ما يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم، قال: أقبل على شأنك، ما يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم[١١]، وقال: من أساء سرًا، فليتب سرًا، ومن أساء علانية، فليتب علانية، فإن الناس يعيّرون ولا يغفرون، والله يغفر ولا يعيّر[١٢]. وعن جعفر بن برقان: قال لى ميمون بن مهران: يا جعفر قل فى وجهى ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره[١٣]، وعن أبى المليح قال: قال ميمون: إذا أتى رجل باب سلطان،

---

(١) انتشار الإسلام فى القرن الإفريقى خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة صـ ٣٨، ٣٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٤) .

(٣) المصدر نفسه (٥/ ١٣٣) .

(٤) المصدر نفسه (٥/ ٧١) .

(٥) رجراجة: رعاع الناس وجهالهم.

(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٢).

(٧) المصدر نفسه (٥/ ٧٣) .

(٨)، (٩)، (١٠) المصدر نفسه (٥/ ٧٤) .

(١١)، (١٢)، (١٣) المصدر نفسه (٥/ ٧٥) .

فاحتجب عنه، فليأت بيوت الرحمن، فليصلي ركعتين، وليسأل حاجته[1]، وعن ميمون بن مهران قال: ثلاث لا تبلون نفسك بهنَّ: لا تدخل على السلطان، وإن قلت آمره بطاعة الله، ولا تصغين بسمعك إلى هوى، فإنك لا تدرى ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة ولو قلت أعلمها كتاب الله[2]. وقال: ما نال رجل من جسيم الخير - نبى ولا غيره - إلا بالصبر[3]. وتوفى ميمون رحمه سنة سبع عشرة ومائة[4]، وقيل: سنة ست عشرة ومائة[5].

٢ـ تعهدهم عمر بالنصح والتذكير بالمسئولية:

يعتبر عمر بن عبد العزيز أكثر خليفة وجهت إليه النصائح والتوجيهات فى عهد بنى أمية، فقد شهد أكبر عدد من الرسائل بين الخليفة والعلماء، ولو استعرضنا أولئك العلماء الذين وجهوا النصح والتذكير لعمر وما كتبوه من رسائل لطال بنا الحديث، ولكن نذكر منهم على سبيل المثال، سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ومحمد بن كعب القرظى، وأبا حازم سلمة بن دينار، والقاسم بن مخيمرة وحسن البصرى وغيرهم، وكانت نصائح العلماء تتضمن عدداً من التوجيهات التى لها صلة بمنهج عمر السياسى، مما يؤكد أن عمر بن عبد العزيز استقى منهجه من المنهل الذى نبعث منه هذه التوجيهات[6]، فمما جاء فى موعظة محمد بن كعب القرظى: . . يا أمير المؤمنين افتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم[7]، وبمثل هذا المعنى جاءت موعظة القاسم بن مخيمرة حيث قال لعمر: . . بلغنا أن من ولى على الناس فاحتجب عن فاقتهم وحاجتهم احتجب الله عن فاقته وحاجته يوم يلقاه. قال عمر: فما تقول؟ ثم أطرق طويلاً وبرز للناس[8]، وجاء فى إحدى رسائل الحسن البصرى لعمر: . . . أما بعد، يا أمير المؤمنين فكن للمثل أخًا وللكبير ابنًا وللصغير أبًا، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطًا واحداً فتدخل النار[9]، وقد كان عمر كما سلف يحرص على تطبيق مثل هذا التوجيه ويأمر عماله بذلك[10]، ومما جاء فى رسالة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - المليئة بالتوجيهات: . . فإنه قد كان قبلك رجال عملوا وأحيوا ما أحيوا، وأتوا ما أتوا حتى ولد فى ذلك رجال ونشأوا فيه، وظنوا أنها السنة فسدوا على الناس

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٥) .
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٧٧) .
(٣)،(٤)، (٥) المصدر نفسه (٥/ ٧٨).
(٦) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ١٩٩ .
(٧) المصدر نفسه صـ١٩٩
(٨) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ١١٣، لابن الجوزى
(٩) المصدر نفسه صـ٢٠٣ .
(١٠) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ١٩٩ .

أبواب الرخاء، فلم يسدوا منها بابًا إلا فتح الله عليهم باب بلاء، فإن استطعت ـ ولا قوة إلا بالله ـ أن تفتح على الناس أبواب الرخاء فافعل، فإنك لن تفتح بابًا إلا سد الله الكريم عنك باب بلاء يمنعك من نزع عامل أن تقول: لا أحد يكفيني عمله، فإنك إذا كنت تنزع لله وتستعمل لله أتاح الله لك أعوانًا فأتاك بهم. وجاء فيها أيضًا: .. فمن بعثت من عمالك إلى العراق فانهه نهيًا شديدًا بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها. المال، المال يا عمر، والدم فإنه لا نجاة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه ثم لم تغيره[1]. وهذه التوجيهات هي عين سياسة عمر في السعي لإغناء رعيته وانتقائه لعماله ومحاسبته لهم[2].

٣ـ مشاركتهم في تولي مختلف مناصب الدولة وأعمالها:

لم تقتصر مشاركة العلماء لعمر بن عبد العزيز على الإشارة عليه وتقديم النصح له، بل تعدت ذلك إلى تولي عدد من المناصب في مختلف الأقاليم، وأهم هذه المناصب وأكثرها أثرًا في سياسة الدولة: الإمارة على الأقاليم، وبيت المال[3]، وحين نتتبع ولاة عمر على الأقاليم نجد أن جلهم من العلماء، فمن ذلك: الإمام الثقة والأمير العادل عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على ولاية الكوفة[4]، والعالم القدير أبو بكر بن عمر بن حزم على المدينة[5]، والإمام الكبير إسماعيل بن أبي المهاجر على إفريقية[6]، والفقيه المحدث عدي بن عدي الكندي على الجزيرة الفراتية وأرمينية وأذربيجان[7]، والإمام القاضي عبادة بن نسي على الأردن[8]، والثقة الصالح عروة بن عطية السعدي على اليمن[9]، والقاضي الفاضل سالم بن وابصة العبدي على الرقة[10]، وأما بيت المال فقد تولى العمل فيه عدد من العلماء ومنهم: العالم الجليل ميمون بن مهران على خراج الجزيرة[11]، والثقة الصالح صالح بن جبير الصدائي على الخراج[12]، والعالم وهب بن منبه على بيت مال اليمن وأبو زناد وتولى عمر بن ميمون البريد[13]. ولا شك أنه كان لهذه المشاركة الواسعة من العلماء بتوليهم الإمارة، وبيوت الأموال في مختلف الأقاليم الأثر الكبير في ضبط

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ١٠٣ .
(٢) أثر العلماء في الحياة السياسية صـ١٩٩ .
(٣) المصدر نفسه صـ٢٠٠ .
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/١٤٩) .
(٥) المعرفة والتاريخ (١/٦٤٥) .
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/٢١٣)
(٧) مختصر تاريخ دمشق (١٦/٣٢) .
(٨) سير أعلام النبلاء (٥/٣٢٣) .
(٩) تهذيب التهذيب (٦/١٨٦) .
(١٠) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية صـ٢٠١ .
(١١) سيرة عمر لابن الجوزي صـ٧٨ .
(١٢)، (١٣) أثر العلماء في الحياة السياسية صـ٢٠٢ .

شئون الدولة الإدارية والمالية، وما ترتب على ذلك من آثار حسنة فى الحياة السياسية فى عهد عمر بن عبد العزيز(١).

ثالثًا: المدارس العلمية فى عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية:

تحدثت فى كتابى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن المدارس العلمية واتخاذه من عاصمة الدولة مدرسة يتخرج فيها العلماء والدعاة والولاة والقضاة؛ فنشطت المدارس العلمية فى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام ومصر وغيرها، وأشرف الصحابة الكرام على تعليم وتربية الناس فيها، واستطاعت تلك المدارس أن تخرج كوادر علمية وفقهية ودعوية متميزة ساندت المؤسسة العسكرية التى قامت بفتح العراق وإيران والشام ومصر وبلاد المغرب، واستطاع علماء الصحابة الذين تفرغوا لدعوة الناس وتربيتهم أن ينشئوا جيلاً من العارفين للدين الإسلامى من أبناء المناطق المفتوحة، وقد استطاعوا أن يتغلبوا على مشكلة إعاقة الحاجز اللغوى، بل تعلم الكثير من الأعاجم لغة الإسلام، وأصبح كثير من رواد حركة العلم بعد عصر الصحابة من العجم، لقد أثرت المدارس العلمية والفقهية فى المناطق المفتوحة، وشكلت جيلاً من التابعين نقلوا إلى الأمة علم الصحابة وأصبحوا من ضمن سلسلة السند التى نقلت للأمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويرجع الفضل - بعد الله - فى نقل ما تلقاه الصحابة من علم من الرسول بالدرجة الأولى بعد الله إلى مؤسسى المدارس العلمية بمكة والمدينة والبصرة والكوفة وغيرها من الأقطار(٢). وقد استمرت مدارس التابعين فى النشاط العلمى فى عهد الدولة الأموية وكثير من العلماء الذين تخرجوا من تلك المدارس أعانوا عمر بن عبد العزيز على مشروعه الإصلاحى التجديدى الراشدى المنضبط بمنهاج النبوة، ومن أهم تلك المدارس:

١- مدرسة الشام:

تأسست فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأشهر مؤسسيها من الصحابة: معاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وعباد بن الصامت رضى الله عنهم، وحمل التابعون الراية العلمية والتربوية والدعوية بعد الصحابة ومن أشهرهم:

أ- الإمام الفقيه أبو إدريس الخولانى، عائذ بن عبد الله: قاضى دمشق وعالمها، روى عن أبى الدرداء، وأبى هريرة وابن عباس وخلق غيرهم، كان أبو إدريس عالم الشام بعد أبى الدرداء قال: أدركت أبا الدرداء ووعيت عنه، وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس ووعيت

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٢٠٢ .

(٢) الدور السياسى للصفوة صـ٤٦٢، ٤٦٣ .

عنهما[١]. كان أبو إدريس ثقة من أهل الفقه في الدين وعلم الحلال والحرام، وكان من أحسن الناس تلاوة للقرآن، فعن يزيد بن عبيدة أنه رأى أبا إدريس في زمن عبد الملك بن مروان، وأن حلق المسجد بدمشق يقرؤون القرآن، يدرسون جميعًا، وأبو إدريس جالس إلى بعض العمد، فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا إليه يقرأ بها، وأنصتوا له وسجد بهم جميعًا. . . حتى إذا فرغوا من قراءتهم قام أبو إدريس يقص[٢]. وعن يزيد بن أبي مالك، قال: كنا نجلس إلى أبي إدريس الخولاني فيحدثنا، فحدث يومًا عن بعض مغازي رسول الله ﷺ حتى استوعب الغزاة، فقال له رجل من ناحية المجلس: أحضرت هذه الغزوة؟ فقال: لا، وقال الرجل: قد حضرتها مع رسول الله، ولأنت أحفظ لها مني[٣]، وقد عزل عبد الملك بن مروان بلال بن أبي الدرداء عن القضاء وولى أبا إدريس[٤]. ثم أن عبد الملك عزل أبا إدريس عن القصص، وأقره على القضاء، فقال أبو إدريس: عزلتموني عن رغبتي وتركتموني في رهبتي[٥]. توفي عام ٨٠هـ[٦].

ب ـ الفقيه قبيصة بن ذؤيب الدمشقي: روى عن عمر بن الخطاب، وأبي الدرداء وعبد الرحمن بن عوف وخلق غيرهم. كان قبيصة من علماء التابعين، ثقة مأمونًا كثير الحديث، قال الشعبي: كان أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت[٧]، قال عنه مكحول: ما رأيت أحدًا أعلم من قبيصة[٨]، وعن ابن شهاب، قال: كان قبيصة بن ذؤيب من علماء هذه الأمة[٩]، توفي سنة ٨٦هـ وقيل: ٨٧هـ، وقيل: ٨٨هـ[١٠]. وقد توسعت في ترجمته عند حديثي عن عبد الملك.

ج ـ رجاء بن حيوة الفلسطيني:

من أجلة التابعين وشيخ أهل الشام، حدث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وعباد بن الصامت وطائفة[١١]، كان شاميًا ثقة فاضلاً كثير العلم[١٢]، ويروى عن رجاء بن حيوة أنه قال: من لم يؤاخ إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقه، ومن لم يرض من صديقه بالإخلاص له دام سخطه، ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوُّه[١٣]. كان رجاء كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك وعند عمر بن عبد العزيز، وأجرى الله على يديه الخيرات، ثم إنَّه بعد ذلك أُخِّر، فأقبل على شأنه[١٤]، توفي سنة ١١٢هـ[١٥].

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٥).
(٢) المصدر نفسه النبلاء (٤/ ٢٧٤).
(٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٥).
(٦) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٦).
(٧، (٨)، (٩)، (١٠) المصدر نفسه (٤/ ٢٨٣).
(١١) المصدر نفسه (٤/ ٥٥٩).
(١٢) الفتوى: نشأتها وتطورها، د. حسين الملاح صـ٨٥.
(١٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٨).
(١٤) المصدر نفسه (٤/ ٥٦٠).
(١٥) المصدر نفسه (٤/ ٥٦١).

د ـ مكحول الشامي الدمشقي: عالم أهل الشام، عداده في أواسط التابعين من أقران الزهري، سمع من واثلة بن الأسقع، وواثلة آخر من مات من الصحابة بدمشق[(١)]، وتوفي عام ٨٥هـ وله ثمان وتسعون سنة[(٢)]، قال عنه الزهري: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام[(٣)]. وكان مكحول أفقه أهل الشام، ولم يكن في زمنه أبصر بالفتيا منه[(٤)]، توفي ١١٢هـ، وقيل: ١١٣هـ، وقيل غير ذلك[(٥)].

هـ ـ عمر بن عبد العزيز: وهو من علماء المدرسة الشامية والمدينة وذلك بعد انتقاله إلى الشام وقيامه بأعباء الخلافة، وكان معروفًا بالفقه، بصيرًا بالسنة، يرجع إليه القضاة في الأمور التي يختلفون فيها[(٦)]. وقد بدأت بالمدرسة الشامية لأنها ترعرعت في عاصمة الخلافة الأموية.

و ـ بلال بن سعد السكوني: الإمام الرباني الواعظ أبو عمرو الدمشقي، شيخ أهل دمشق كان لأبيه صحبة، كان بليغ الموعظة، حسن القصص نافعًا للعامة، وكان لأهل الشام كالحسن البصري بالعراق، وكان قارئ أهل الشام جهير الصوت[(٧)]. يقول الأوزاعي: لم أسمع واعظًا قط أبلغ من بلال بن سعد[(٨)]، ومن مواعظه العميقة: يا أهل التُقى إنكم لم تُخلقوا للفناء وإنما تُنقلون من دار إلى دار، كما نُقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود، في جنة أو نار[(٩)]. ومن أقواله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر من عصيت[(١٠)]. وقال الأوزاعي سمعته يقول: والله لكفى به ذنبًا أن الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها[(١١)]. وقد توفي سنة نيف وعشرة ومائة.

٢ـ المدرسة المدنية:

لما انتقل النبيﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية وموطن الخلافة، وفيها تفتق عقل الصحابة في استخراج أحكام إسلامية، تصلح لما جد من شئون في المجتمعات الإسلامية، بعد الفتوح التي كثرت، وفي عهد عمر بن الخطاب بلغ فقهاء

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٨٦) .
(٣) المصدر نفسه (٥/ ١٥٨) .
(٤) المصدر نفسه (٥/ ١٥٩) .
(٥) المصدر نفسه (٥/ ١٥٩، ١٦٠) .
(٦) الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (١/ ٥٤) .
(٧) سير أعلام النبلاء (٥/ ٩٠، ٩١) .
(٨)، (٩)، (١٠) المصدر نفسه (٥/ ٩١) .
(١١) المصدر نفسه (٥/ ٩٢).

الصحابة المفتين (١٣٠) مـائة وثلاثين صحابيًا، وكان المكثرون منهم سبـعة: عمر، وعلى، وعبـد الله بن مسعود، وعـائشة، وزيد بن ثابت، وعـبد الله بن عـباس، وعبـد الله بن عمر[١]، وورث علماء التابعين الفقه والعلم والتربيـة والدعوة، وأما أشهر علماء التابعين: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، وعمـرة بنت عبد الرحمن بن سعد الأنصارية، والقاسم ابن محمد بن أبى بكر الصديق، وسليمان بن يسار، ونافع مولى ابن عمر[٢]، وقد تحدثت عن دور فقهاء وعلماء التابعين بالمدينة فى نشأة عمر بن عبد العزيز.

٣ـ المدرسة المكية:

احتلت هذه المدرسـة المكانة فى قلوب المؤمنين، الساكنين والثائبـين إلى بلد الله الحرام، الحجـاج والعمار والزوار، بل أخـذت مكة بألباب كل مؤمن رآهـا أو تمنى أن يراها، ولقد كان العلم بمكة يسيرًا زمن الصحابة، ثم كثـر فى أواخر عصرهم وكذلك فى أيام التابعين، وزمن أصحابهم، كابن أبى نجيح، وابن جريج[٣]، إلا أن مكة اختصت زمن التابعين بحبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضى الله عنهما الذى صرف جل همه، وغاية وسعه إلى علم التفسير، وربى أصحابه على ذلك، فنبع مـنهم أئمة كان لهم قصب السبق بين تلاميذ المدارس فى التفسير، وقد ذكر العلماء مجـموعة من الأسباب أدت إلى تفوق المدرسة المكية فى هذا العلم، وأهم هذه الأسـباب والأسـاس فيـها إمامـة ابن عبـاس رضى الله عنهـما وأستاذيته لها[٤]، ومن أشهر علماء التابعين فى المدرسة المكية:

أـ مجاهد بن جـبر المكى: أخذ الفقـه والتفسير عن ابـن عباس وغيره من الصـحابة، كان فقيهًا عالمًا ثقة من أوعية العلم[٥]، وعن مجاهد قال: عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، أقِـفُه عند كل آية، اسأله فيم نزلـت، وكيف كانت[٦]، وقال قتادة: أعلم من بقى بالتفـسير مـجاهد[٧]، وقال مـجاهد: صـحبت ابن عـمر وأنا أريد أن أخـدمه فكان يخدمنى[٨]، وقدم مجاهد على سليمان بن عبد الملك ثم على عمر بن عبد العزيز، وشهد وفاته، وعن مجاهد قال: قال لى عمر بن عبد العزيز فى مرض وفاته: يا مجاهد، ما يقول

(١) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى (٢/ ٤٥).
(٢) الفتوى، د. حسين الملاح صـ٨١، ٨٢ .
(٣) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى (٢/ ٤٨).
(٤) تفسير التابعين (١/ ٣٧١) د. محمد الخضرى.
(٥) الفتوى، د. حسين الملاح صـ٨٠ .
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥١) .
(٧) المصدر نفسه (٤/ ٤٥١) .
(٨) المصدر نفسه (٤/ ٤٥٢).

الناس فيَّ؟ قلت: يقولون: مسحور، قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلامًا له فقال: ويحك، ما حملك على أن سقيتني السُّم؟ قال: ألف دينار أُعطيتها وأن أُعتق، قال: هاتها، فجاء بها، فألقاها في بيت المال وقال: اذهب حيث لا يراك أحد[1]، وقال مجاهد: ما أدرى أى النعمتين أعظم، أن هدانى للإسلام، أو عافانى من هذه الأهواء[2]. قال الذهبى معلقًا على قول مجاهد: مثل الرّفض والقدر والتجهّم[3]. وعن عبد الوهاب بن مجاهد، قال: كنت عند أبي فجاء ولده يعقوب فقال: يا أبتاه، إن لنا أصحابًا يزعمون أن إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحد. فقال: يا بنى ما هؤلاء بأصحابى، لا يجعل الله من هو منغمس فى الخطايا كمن لا ذنب له[4]، ومات مجاهد سنة اثنتين ومائة وهو ساجد[5]، وكان عمره ثلاثًا وثمانين سنة[6].

ب ـ عكرمة مولى ابن عباس: كان مكيًا تابعيًا ثقة من أعلم التابعين، روى عن ابن عباس، وعائشة، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عمرو، وعقبة بن عامر، وعلى بن أبى طالب[7]، قال: طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتى بالباب وابن عباس بالدار، وعن عكرمة أن ابن عباس رضى الله عنه قال له: انطلق فأفتِ الناس وأنا لك عون، قلت: لو أن هؤلاء الناس ومثلهم مرتين لأفتيتهم. قال ابن عباس: انطلق فأفتهم فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تُفته، فإنك تطرح عنك ثلثى مؤونة الناس[8]، وكان عكرمة كثير الأسفار ونزل على عبد الرحمن الحسّاس الغافقى، وصار إلى إفريقية[9]، وقد اتهم عكرمة بالصفرية فرقة من فرق الخوارج، ولم تثبت هذه التهمة بسند صحيح وإنما بصيغة يقال[10]، وقد دافع علماء الجرح والتعديل عن عكرمة، كأبى حاتم الرازى، وابن حبان، والعجلى، وابن منده وابن عبد البر، ونقل ذلك ابن حجر فى مقدمة الفتح وقال: لا تثبت عنه بدعة[11]. وقال البخارى: ليس أحد من أصحابنا إلا هو يحتج بعكرمة[12]، توفى سنة ١٠٥هـ[13].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٣) .
(٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه (٤/ ٤٥٥).
(٥) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٧)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٥) .
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٦) .
(٧) المصدر نفسه (٥/ ١٣) .
(٨)، (٩) المصدر نفسه (٥/ ١٥)
(١٠) براءة السلف مما نسب إليهم من انحراف فى الاعتقاد صـ ٣٩.
(١١) مقدمة الفتح صـ٤٢٨ .
(١٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣١) .
(١٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٤) .

ج ـ عطاء بن أبى رباح: مفتى الحرم وأحد الفقهاء الأئمة، روى عن ابن عباس وأبى هريرة وأم سلمة وعائشة ورافع بن خديج وزيد بن أرقم وابن الزبير، وابن عمرو وابن عمر وجابر ومعاوية وأبى سعيد وعدة من الصحابة[1]. وكان ثقة فقيهًا عالمًا كثير الحديث انتهت إليه فتوى أهل مكة. قال عنه ابن عباس: يا أهل مكة تجتمعون علىَّ وعندكم عطاء، ولسعة علمه وجلالة قدره كانوا فى عهد بنى أمية يأمرون فى الحج مناديًا يصيح: لا يفتى الناس إلا عطاء بن أبى رباح، توفى سنة ١١٥ هـ[2]. هؤلاء بعض علماء التابعين من المدرسة المكية الذين نهضوا بعبء الدعوة والتعليم وإتمام البناء العلمى[3].

٤ـ المدرسة البصرية:

وهى منافسة للكوفة فى كل الفنون، وقد نزلها من الصحابة جمع كثير، منهم أبو موسى الأشعرى، وعمران بن حصين، وأنس بن مالك وغيرهم، ويعد أنس بن مالك رضى الله عنه شيخ السادة من علماء التابعين أمثال الحسن البصرى، وسليمان التيمى، وثابت البنانى، وربيعة بن أبى عبد الرحمن، وإبراهيم بن أبى ميسرة، ومحمد بن سيرين، وقتادة وغيرهم[4]. ومن أشهر علماء المدرسة البصرية:

أ ـ محمد بن سيرين البصرى: كان مولى أنس بن مالك، سمع من ابن عباس، وابن عمر، وأبى هريرة وخلق سواهم[5]، وعن حبيب بن الشهيد قال: كنت عند عمرو بن دينار فقال: والله ما رأيت مثل طاووس، فقال أيوب السختيانى وكان جالسًا: والله لو رأى محمد بن سيرين لم يقله[6]، وقال عثمان البتى: لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء من ابن سيرين[7]. وكان الحسن البصرى يقدمه على غيره، فعن ثابت البُنانى، قال: كان الحسن متواريًا من الحجّاج فماتت بنت له، فبادرت إليه رجاء أن يقول لى صلِّ عليها، فبكى حتى ارتفع نحيبه، ثم قال لى: اذهب إلى محمد بن سيرين، فقل له ليُصل عليها، فعرف حين جاء الحقائق، أنه لا يعدل بابن سيرين أحدًا[8]. وكان محمد بن سيرين يصوم يومًا ويفطر

(١) سير أعلام النبلاء (٧٩/٥).
(٢) الفتوى د. حسين الملاح صـ٨١، سير أعلام النبلاء (٧٨/٥).
(٣) الدعوة إلى الله فى العصر العباسى الأول (٤١/١).
(٤) تفسير التابعين (٤٢٣٩/١)، عمر بن الخطاب للصَّلاَّبىِّ صـ٢٦٠.
(٥) سير أعلام النبلاء (٦٠٦/٤).
(٦) المصدر نفسه (٦٠٨/٤).
(٧) سير أعلام النبلاء (٦٠٨/٤).
(٨) المصدر نفسه (٦١٠/٤).

يومًا[١]، وكان قد أشتهر بتفسير الأحلام وهو أشهر من أن يعرف فى هذا الباب، قال عنه الذهبى: قد جاء عن ابن سيرين فى التعبير عجائب، وكان له فى ذلك تأييد إلهى[٢]. وكان يلبس الثياب الثمينة والطيالس والعمائم[٣]، وكان صاحب ضحك ومزاح[٤]، وكان بارًا بأمه، قالت حفصة بنت سيرين: كانت والدة محمد حجازية وكان يعجبها الصبغ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوبًا أشترى ألين ما يجد، فإذا كان عيد صبغ لها ثيابًا، وما رأيته رافعًا صوته عليها، كان إذا كلمها كالمصغى إليها[٥]، وعن ابن عون، أن محمدًا كان إذا كان عند أمه لو رآه رجل -لا يعرفه- ظن أن به مرضًا من خفض كلامه عندها[٦]. وقال ابن عون: كانوا إذا ذكروا عند محمد رجلاً بسيئة ذكره هو بأحسن ما يعلم. وجاءه ناس فقالوا: إنا نلنا منك فاجعلنا فى حلّ، قال: لا أُحلّ لكم شيئًا حرّمه الله[٧]. توفى ابن سيرين بعد الحسن البصرى بمئة يوم، سنة عشر ومائة[٨].

ب ـ **قتادة بن دعامة السدوسي**: كان من أوعية العلم، روى عن بعض الصحابة وكبار التابعين وكان ثقة حجة فى الحديث[٩]، قال عنه أحمد بن حنبل: كان قتادة عالمًا بالتفسير وباختلاف العلماء، ثم وصفه بالفقه والحفظ وقال: قلما تجد من يتقدمه[١٠]. وقال: كان قتادة أحفظ أهل البصرة لا يسمع شيئًا إلا حفظه، قرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها[١١]. قال سلام بن مطيع: كان قتادة يختم القرآن فى سبع، وإذا جاء رمضان ختم فى كل ثلاث[١٢]. قال عنه الذهبى: حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين[١٣]، كان رأسًا فى العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها[١٤]، وكان من تلاميذ الحسن البصرى، وجالسه اثنتى عشرة سنة، وصلى معه الصبح ثلاث سنين[١٥]، توفى سنة ثمانى عشرة ومائة[١٦].

٥ـ المدرسة الكوفية:

نزل الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر رضى الله عنهم أجمعين، وقد اهتم عمر بالكوفة ووجه عبد الله بن مسعود واجتهد ابن مسعود فى إيجاد

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٦١٥).
(٢) المصدر نفسه (٤/٦١٨).
(٣)، (٥) المصدر نفسه (٤/٦١٩).
(٤) المصدر نفسه (٤/٦١٣).
(٦)، (٧) المصدر نفسه (٤/ ٦٢٠).
(٨) المصدر نفسه (٤/ ٦٢١).
(٩) الفتوى د. حسين الملاح صـ٨٤.
(١٠) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٦).
(١١)، (١٤) المصدر نفسه (٤/٢٧٧).
(١٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٦).
(١٣) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٠).
(١٥)، (١٦) المصدر نفسه (٤/ ٢٨٣).

جيل يحمل دعوة الله فهمًا وعلمًا، وكان له الأثر البالغ فى نفوس الملازمين له، أو من جاء بعدهم، وقد اشتهر مجموعة من تلاميذ ابن مسعود بالفقه والعلم والزهد والتقوى منهم، علقمة بن قيس، مسروق بن الأجدع، عبيدة السلماني، الأسود بن يزيد، ومرة الجعفى[1] وغيرهم، ومن أشهر علماء التابعين فى المدرسة الكوفية:

أ ـ عامر بن شرحبيل الشعبي: كان علامة عصره ومن أفقههم، روى عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن عمر وجمهرة غيره، حتى قيل إنه أدرك خمسمائة من الصحابة[2]، لذلك كان صاحب آثار، كثير العلم والفقه. قال محمد بن سيرين: لقد رأيته يستفتى والصحابة متوافرون بالكوفة، ورغم هذا العلم الواسع فقد كان ينقبض عند الفتوى، وكثيرًا ما يقول: لا أدرى، لأنه كان يعتبرها نصف العلم[3]. وقد قال الشعبى: إنا لسنا بالفقهاء، ولكنّا سمعنا الحديث فرويناه ولكن الفقهاء من إذا علم عمل[4]، ومن نكاته اللاذعة، ما رواه الأعمش قال: أتى رجل الشعبىَّ، فقال: ما اسم امرأة إبليس؟ قال: ذاك عرس ما شهدته[5]، توفى سنة أربع ومائة وقيل: ست ومائة وقيل: خمس ومائة[6].

ب ـ حمّاد بن أبى سلمة: فقيه أهل العراق، روى عن أنس بن مالك وتتلمذ على يدى إبراهيم النخعى، وهو أنبل أصحابه وأفقههم وأقيسهم وأبصرهم بالمناظرة[7]. وكان أحد العلماء الأذكياء والكرام الأسخياء، له ثروة وحشمة وتجمُّل[8]، وكان أفقه أهل الكوفة عليًا وابن مسعود وأفقه أصحابهما علقمة، وكان أفقه أصحابه إبراهيم، وأفقه أصحاب إبراهيم حماد، وأفقه أصحاب حماد أبو حنيفة، وأفقه أصحابه أبو يوسف، وانتشر أصحاب أبى يوسف فى الآفاق، وأفقههم محمد، وأفقه أصحاب محمد أبو عبد الله الشافعى[9] رحمهم الله تعالى. وقد توفى حماد سنة عشرين ومائة[10].

٦ـ المدرسة اليمنية:

من أشهر علمائها من الصحابة الذين ساهموا فى دخول الإسلام فيها معاذ بن جبل، وعلى بن أبى طالب وأبو موسى الأشعرى وغيرهم، ومن أراد التوسع فليراجع الرسالة

---

(١) فصل الخطاب فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صـ٢٦٤ .
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٢٩٨) .
(٣)، (٧) الفتوى د. الملاح صـ٨٣ .
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/٣٠٣) .
(٥) المصدر نفسه (٤/٣١٢) .
(٦) المصدر نفسه (٤/٣١٨) .
(٨) المصدر نفسه (٤/٢٣١) .
(٩)، (١٠) المصدر نفسه (٤/٢٣٦) .

العلمية للدكتور عبد الله الحميرى، الحديث والمحدثون فى اليمن فى عصر الصحابة، ومن أشهر علماء التابعين فى المدرسة اليمنية:

أ ـ طاووس بن كيسان: فقيه أهل اليمن وقدوتهم، وأعلمهم بالحلال والحرام من سادات التابعين، روى عن ثلة من الصحابة الكرام، كزيد بن ثابت وأبى هريرة، وزيد بن أرقم، وابن عباس وهو معدود من كبراء أصحابه[1]. وروى عن معاذ مرسلاً[2]. كان من أبناء الفرس الذين جهزهم كسرى لأخذ اليمن له[3]، كان فقيهًا جليلاً بركة لأهل اليمن[4]. أدرك خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ[5]. قال له عمر بن عبد العزيز فى عهد سليمان: ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين. قال: ما لى إليه حاجة فكأن عمر عجب من ذلك[6]. ومن أقواله: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج[8]. وقال: البخل أن يبخل الرجل بما فى يديه، والشح أن يحب أن يكون له ما فى أيدى الناس. وقال عنه قيس بن سعد: الطاووس فينا مثل ابن سيرين فيكم. وقال ابن المدينى: كان سفيان لا يعدل من أصحاب ابن عباس بطاووس أحد[9]. وكان رحمه الله معتزلاً الأمراء والسلاطين إلا إذا أكره على عمل لهم، وإذا طلب أداء نصيحة فإنه لا يجامل أحدًا ويصدع بالحق، توفى بمكة سنة ست ومائة للهجرة[10].

ب ـ وهب بن منبه: أبو عبد الله وهب بن منبه من أبناء فارس كان ينزل ذمار[11]. وكان ممن قرأ الكتب ولزم العبادة، وواظب على العلم وتجرد للزهادة[12]. وقال عنه الذهبى: الإمام العلامة، الإخبارى القصصى. وقال العجلى: تابعى ثقة كان على قضاء صنعاء وذكره الشيرازى فى فقهاء التابعين باليمن[13]. وكان صاحب حكمة وفطنة، وكان له أثر فى محاربة الخوارج فى اليمن وتحذير الناس من آرائهم[14]، وإليك حواره مع أبى شمرٍ الخولانى لما دخل على وهب بن منبه برفقة داود بن قيس، وتكلم داود لوهب وقال عن

(١) ، (٢) سير أعلام النبلاء (٥/٣٩) .
(٣) المصدر نفسه (٥/٣٨) .
(٤) الفتوى نشأتها وتطورها ـ أصولها وتطبيقاتها صـ٨٥ .
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/٤٣) .
(٦) المصدر نفسه (٥/٤١) .
(٧) المصدر نفسه (٥/٤٢) .
(٨) المصدر نفسه (٥/٤٨) .
(٩) الطبقات (٥/٥٤١)، أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٦٦٦ .
(١٠) سير أعلام النبلاء (٥/٤٩) .
(١١) ذمار: مدينة باليمن على مرحلتين من صنعاء.
(١٢) علماء الأمصار للبستى صـ١٢٣ .
(١٣) طبقات الفقهاء صـ٦٦ .
(١٤) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ٦٦٧ .

صاحبه أبى شمّر الخولانى: إنه من أهل القرآن والصلاح، والله أعلم بسريرته، فأخبرنى أنه عرض له نفر من أهل حروراء - يعنى الخوارج - فقالوا له: زكاتك التى تؤديها إلى الأمراء لا تجزئ عنك، لأنهم لا يضعونها فى موضعها، فأدها إلينا، ورأيت يا أبا عبد الله أن كلامك أشفى له من كلامى، فقال: يا ذا خولان أتريد أن تكون بعد الكبر حروريًا تشهد على من هو خير منك بالضلالة؟ فماذا أنت قائل لله غدًا حين يقفك الله؟ ومن شهدت عليه، فالله يشهد له بالإيمان، وأنت تشهد عليه بالكفر، والله يشهد له بالهدى وأنت عليه بالضلالة، فأين تقع إذا خالف رأيك أمر الله وشهادتك شهادة الله؟ أخبرنى يا ذا خولان ماذا يقولون لك؟ فتكلم عن ذلك وقال لوهب: إنهم يأمروننى أن لا أتصدق إلا على من يرى رأيهم ولا أستغفر إلا له، فقال: صدقت، هذه محنتهم الكاذبة، فأما قولهم فى الصدقة، فإنه قد بلغنى أن رسول الله ﷺ ذكر أن امرأة من أهل اليمن دخلت النار فى هرة ربطتها[1]، أفإنسان مما يعبد الله يوحده ولا يشرك به أحب إلى الله أن يطعمه من جوع أو هرة؟ والله يقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. وأما قولهم: لا يستغفر إلا لمن يرى رأيهم أهم خير أم الملائكة، والله يقول: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] فوالله ما فعلت الملائكة ذلك حتى أمروا به ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. وجاء ميسرًا ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]، واستمر معه فى الحوار والنقاش إلى أن قال ذو خولان: فما تأمرنى؟ قال: انظر زكاتك فأدها إلى من ولاه الله أمر هذه الأمة، وجمعهم عليهم، فإن الملك من الله وحده وبيده يؤتيه من يشاء، فإذا أديتها إلى ولى الأمر برئت منها، وإن كان فضل فصل به أرحامك ومواليك وجيرانك والضيف، فقال: أشهد إنى نزلت عن رأى الحرورية[2]. توفى وهب رحمه الله سنة عشر ومائة فى خلافة هشام بن عبد الملك[3]، وقيل: إن يوسف بن عمر والى اليمن ضربه حتى قتله[4]، ولعل ذلك بسبب موقف وهب من جور يوسف بن عمر المشهور بعنفه وظلمه[5].

(١) مسلم رقم ٢٢٤٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٥٥٥)، الحرورية: الخوارج .

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/٥٥٦)، أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٦٦٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/٥٥٦) .

(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ٦٦٧ .

٧ـ المدرسة المصرية:

تكونت فى مصر مدرسة كان شيوخـهـا من الصحابة الذين رحلوا إليها أيام الفتح ونزلوا فى موضع الفسطاط والإسكـندرية، ومن هؤلاء عمرو بن العاص، عبـد الله بن عمرو بن العاص، الزبير بن العوام، وكان من أكثر الصحابـة تأثيراً فى مصر عقبة بن عامر رضى الله عنه[١]، وغيـر ذلك من الصحـابة يرجع إليهم الفـضل فى دعوة الناس وتوجـيهـهم نحو دينهم[٢]، وجاءت طبقة التابعين، وكان منهم أئمة ودعاة، ومن هؤلاء:

يزيد بن أبى حبيب: الإمام الحجة، مفتى الديار المصرية، أبو رجاء الأزدى، كان من جلة العلماء العاملين، ارتفع بالتقوى مع كونه مولى أسود[٣]. قال عنه الليث بن سعد: يزيد بن أبى حبيب سيدنا وعالمنا[٤]. توفى سنة ثمان وعشرين ومائة[٥].

٨ ـ مدرسة شمال إفريقية:

دخل القادة الفاتحون شمال إفريقية وكان على رأسهم عمرو بن العاص، ثم عبد الله بن سعد بن أبى السرح رضى الله عنهما ثم تابع معـاوية بن حديج فتح إفريقية، وولى معاوية بن أبى سفيان على مصر وإفريقية، وجاء بعده عقبة بن نافع الفهرى فاختط مدينة القيروان، وسار فى الناس سيرة حسنة، وكان من خيار الولاة والدعاة، الذين جاهدوا ودعوا بالسيف والكلمة، ثم قام على إفريقيـة ولاة صالحون ساروا على النهج نفسه[٦]. وفى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث إسماعيل بن أبى المهـاجر واليًا على إفريقية سنة مائة، فكان داعية إلى الإسلام بلسانه وأعماله وأخلاقه، فأحبه الناس، وأحبوا دينه، وحرص على دعوة البربر إلى الإسلام، فاستجابوا لدعوته، وأسلموا على يديه، واهتم إسماعيل بتعليم الناس أحكام الشريعة، وتفـقيههم فى الحـلال والحرام، وكان عمر بن عـبد العزيز بعث معـه عشرة من التابعين من أهل العلم والفضل، وأهل إفريقية يومئذ من الجهل بحيث لا يعرفون أن الخمر حرام حـتى وصل هؤلاء فعلموا الناس الحـلال والحرام[٧]، وسيـأتى الحديث عن الفقـهاء العشرة فى محله بإذن الله.

(١) عمر بن الخطاب للصلابى صـ٢٧٠ .

(٢) الدعوة إلى الله فى العصر العباسى الأول (١/ ٥٧) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣١) . (٤)، (٥) المصدر نفسه (٦/ ٣٢) .

(٦) البيان المغرب للمراكشى (١/ ١٩)، الدعوة إلى الله (١/ ٦١) .

(٧) البيان المغرب (١/ ٤٨)، الدعوة إلى الله فى العصر العباسى الأول (١/ ٦٢) .

ومن خلال ما سبق من الحديث عن المدارس العلمية يظهر أهمية توريث العلم والخبرات الدعوية عند السلف، وامتداد ذلك يشمل أقاليم الدولة الإسلامية. ونستفيد أيضًا أهمية تفريغ مجموعة من أذكياء الأمة للتعلم والتعليم والإفتاء والإرشاد والوعظ ونشره بين الناس.

رابعًا: منهج التابعين فى تفسير القرآن الكريم:

سلك التابعون منهاجًا واضحًا فى تفسير القرآن الكريم، فكانوا يفسرون القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، والقرآن بأقوال الصحابة، واللغة العربية، والاجتهاد وقوة الاستنباط.

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن: تعددت طرق التابعين فى تفسير القرآن بالقرآن ومن هذه الطرق:

أ ـ نظائر القرآن الكريم: كتفسير الآية بآية أخرى تحمل الموضوع نفسه، وإن اختلف اللفظ، وقد أكثر التابعون من ذلك، ومن ذلك ما ورد عن مجاهد فى تفسير الكلمات فى قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة:٣٧]. قال: قوله: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] حتى فرغ منها[1]. وجاء عن عكرمة، والحسن فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ١١٠]. قال: وكان رسول الله ﷺ إذا صلى يجهر بصلاته، فآذى ذلك المشركين بمكة حتى أخفى صلاته هو وأصحابه، فلذلك قال: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ . وقال فى الأعراف: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وفى تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]. قال قتادة: وذلك أنهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]. وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]. فقيل لهم: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [2] [البقرة: ٩٤].

ب ـ الأشباه: والمراد بالأشباه تفسير الآية بما يشبهها من الآيات كتفسير الآية بالآيات التى تحمل بعض معناها مع تقارب اللفظ[3]، فمن ذلك ما ورد عن مجاهد فى تفسير النفس بالغير، فإنه قال فى تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ

(١) تفسير الطبرى (١/ ٥٤٥)، زاد المسير (١/ ٦٩).

(٢) فتح القدير (١/ ١١٦)، تفسير التابعين (٢/ ٦١٤).

(٣) تفسير التابعين (٢/ ٦١٥).

خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]. قال لهم خيراً، ألا ترى أنه يقول: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. يقول: بعضكم بعضًا و﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١]. قال: يسلم بعضكم على بعض(١). ففسر مجاهد هنا النفس بالغير، واستدل بورود ذلك فى آيات متشابهة فى القرآن تدل على هذا الجزء من المعنى(٢).

ج ـ الدلالة على التفسير بالسياق: وفى هذا النوع يلحظ المفسّر منهم سياق الآية فيربطها بما قبلها، أو بما بعدها، سواء كان ذلك فى الآية نفسها، أو فى مجموعة من الآيات(٣)، مثل تفسير قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال مجاهد فى تفسيرها: هى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾(٤) [الأنعام: ٨٢].

د ـ بيان المجمل: وفى هذا الطريق يقوم المفسر بالنظر فى آيات القرآن التى فيها إجمال، وينظر فى الآيات الأخرى التى يمكن أن تكون بيانًا لهذا الإجمال، كحمل المجمل على المبين، ومن ذلك ما ورد عن مجاهد فى تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] قال: من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم ما ذكر حتى يتم خلقه(٥). فأشار بقوله إلى الآيات التى فيها ذكر ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤].

هـ ـ تفسير العام بالخاص: وفى هذا يعمد المفسر منهم إلى آية ظاهرها العموم فيحملها على معنى آخر ذكرت فردًا من أفراد العموم(٦)، كقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. قال الحسن البصرى: الكافر ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧] قال: من الكفار(٧). وفى رواية عنه قال: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ يعنى الكفار، لا يعنى بذلك أهل الصلاة(٨). فالآية الأولى جاء فيها العموم فى لفظة «من» ليعم المؤمن والكافر، فجاء الحسن فبين أنها خاصة بالكافر مستدلاً بأسلوب الحصر فى الآية الثانية(٩).

(١) تفسير الطبرى (١٨/٩٦)، تفسير التابعين (٢/ ٦١٥) .
(٢) تفسير التابعين (٢/ ٦١٦).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٦١٧) .
(٤) تفسير الطبرى (١١/ ٥٠٥) .
(٥) تفسير الطبرى (٢٩/ ٢٦)، الدر المنثور (٨/ ٢٩١) .
(٦) تفسير التابعين (٢/ ٦٢١) .
(٧) تفسير الطبرى (٩/ ٢٣٧)، زاد المسير (٢/ ٢١٠) .
(٨) تفسير الطبرى (٩/ ٢٣٨) .
(٩) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٣) .

وأصرح من ذلك ما جاء عنه فى تفسير الآية نفسها أنه قال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] إنما ذلك لمن أراد الله هوانه، فأما من أراد كرامته، فإنه من أهل الجنة ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾(١) [الأحقاف: ١٦].

و ـ التفسير باللازم: المراد بالتفسير باللازم أن المفسر لا يذكر صراحة تفسيرًا للآية التى هو بصددها، بل يذكر شيئًا من لوازم ذلك، ويربطه بآية أخرى، فمن ذلك ما جاء عن سعيد ابن جبير فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فقد قال: لو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب، ألم تسمع: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾(٢) [يوسف: ٨٤]. أنه لم يكن يعرف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وإلا لقالها بدلاً من تأسفه على ذهاب يوسف(٣).

ز ـ توضيح المبهم: ومن طرق التفسير التى اتبعها التابعون ـ أيضًا ـ إيضاح مبهم آية بآية أخرى لإزالة الإبهام(٤)، ومن ذلك ما قام به عكرمة من رفع الإبهام الواقع فى لفظة «الحين» استدل بالآية التى تبين أن المراد منه سنة، فعنه أنه قال: أرسل إلىّ عمر بن عبد العزيز فقال: يا مولى ابن عباس: إنى حلفت أن لا أفعل كذا وكذا حينًا، فما الحين الذى تعرف به؟ قلت: إن من الحين حينًا لا يدرك، ومن الحين حين يدرك، وأما الحين الذى لا يدرك فقول الله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. والله ما يدرى كم أتى له إلى أن خلق، وأما الذى يدرك فقوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]. فهو ما بين العام إلى العام المقبل، فقال: أصبت يا مولى ابن عباس، ما أحسن ما قلت(٥).

ح ـ بيان معنى (لفظ)، أو إيضاح مشكلة: وقد كثر هذا النوع فى تفسير التابعين فصاروا يتناولون آيات القرآن بالتفسير بآيات أخرى تبين هذا المعنى، وتلكم الألفاظ(٦)، ومثال ذلك كتفسير الحسن البصرى﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦]. قال: النفختان، أما الأولى فتميت الأحياء، وأما الثانية فتحيى الموتى ثم تلا الحسن: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (٧)

(١) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٣).
(٢) تفسير الطبرى (٣/ ٢٢٤).
(٣) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٣).
(٤) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٤).
(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٨١).
(٦) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٦).
(٧) تفسير الطبرى (٣٠/ ٣١)، تفسير التابعين (٢/ ٦٢٧).

[الزمر: ٦٨]. والأمثلة كثيرة على تفسير التابعين للقرآن بالقرآن، ومن أراد المزيد فليراجع تفسير التابعين[١].

٢- تفسير القرآن بالسنة: لا شك أن السنة مبينة للقرآن موضحة له، قال الشاطبى: وهى راجعة فى معناها إلى الكتاب، فهى تفصيل مجمله، وبيان مشكله، وبسط مختصره[٢]، وذلك لأن النبى ﷺ هو أعلم بكلام الله وأكثر قدرة على فهم نصوص الآيات من غيره مع ما أوحاه الله تعالى من المعانى، فهو ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقال ﷺ: «ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه»[٣]. يقول ابن تيمية: فإن قال قائل، فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب أن أصح الطرق فى ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن... إلى أن يقول: فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤][٤]. وقد اتفق العلماء على أن الأخذ بالسنة واجب والعمل بها حتم وتحكيمها فرض، بل جاء عن مكحول التابعى أنه قال: القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن[٥]. وقد كثر عن التابعين النقول التى تدل على شدة متابعتهم للسنة، قال ربيعة للزهرى: إذا سُئلت عن مسألة فكيف تصنع؟ قال: أحدث فيها بما جاء عن النبى ﷺ، فإن لم يكن عند النبى ﷺ فعن أصحابه، فإن لم يكن عن أصحابه اجتهدت رأيى[٦]، ومما يدل على عظيم احتفائهم وعنايتهم بالمروى عنه ﷺ أنه قل أن نجدهم يخالفون ما صح عنه ﷺ من تفسيره، وفيما يلى بعض الأمثلة الدالة على ذلك:

أ- فمن هذا ما جاء عنه ﷺ فى تفسير قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦]. قال ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال»[٧]. وبذلك فسرها: مجاهد[٨]،

(١) تفسير التابعين (٢/٦٠٨ - ٦٢٧).
(٢) المصدر نفسه (٢/٦٢٨)، الموافقات (٤/١٢).
(٣) سنن أبى داود رقم ٤٦٠٤.
(٤) الفتاوى (١٣/٣٦٣).
(٥) تفسير التابعين (٢/٦٢٩)، تفسير القرطبى (١/٣٠).
(٦) جامع بيان العلم وفضله (٢/٧٥)، تفسير التابعين (٢/٦٣٧).
(٧) موارد الظمآن فى زوائد ابن حبان رقم ٢٢٤.
(٨) تفسير الطبرى (١/١٨٨).

وسعيد بن جبير[1] وغيرهما. قال ابن حاتم: لا أعلم خلافًا بين المفسرين فى تفسير ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ باليهود، و﴿الضَّالِّينَ﴾ بالنصارى[2].

ب - ومنه أيضًا ما صح عنه ﷺ فى بيان قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. قال ﷺ: «هو سواد الليل وبياض النهار»[3]، ولم يخالف فى ذلك أحد من التابعين وبه قال الحسن[4]، وقتادة[5].

ج - من ذلك ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام فى تفسير معنى الظلم الذى ورد فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قال ﷺ حين شق ذلك على أصحابه فقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال: ليس بذلك، ألم تسمعوا قول لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[6]. وهذا هو المنقول عن التابعين قال به إبراهيم النخعى، وقتادة، ومجاهد، وسعيد بن جبير[7].

د - ومنه ما جاء عنه ﷺ فى تفسير للسبع المثانى فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. قال ﷺ لأبى سعيد بن المعلى: «ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟ فذهب النبى ﷺ ليخرج، فذكرته، فقال: الحمد لله رب العالمين، هى السبع المثانى، والقرآن العظيم الذى أوتيته»[8]. وهذا التفسير هو المروى عن سعيد بن جبير والحسن، ومجاهد، وقتادة[9].

هـ - ومن ذلك بيانه ﷺ لمعنى: الأمة الوسط، التى وردت فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ففى الحديث عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عُدُولاً»[10]، وبهذا التفسير قال مجاهد، وعطاء وقتادة[11]. هذه بعض الأمثلة التى اعتمدها التابعون فى تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية.

(١) الدر المنثور (١/ ٤١).
(٢) تفسير ابن أبى حاتم رقم٢٢، تفسير التابعين (٢/ ٦٣٨).
(٣) البخارى، ك التفسير، الفتح (٨/ ١٨٢).
(٤)، (٥) تفسير الطبرى (٣/ ٥١٠).
(٦) البخارى، ك التفسير، الفتح (٨/ ٢٩٤).
(٧) تفسير التابعين (٢/ ٦٣٩).
(٨) البخارى، ك التفسير، الفتح (٨/ ٣٨١).
(٩)، (١١) تفسير التابعين (٢/ ٦٤١).
(١٠) مجمع الزوائد (٦/ ٣١٦)، رواه أحمد (٣/ ٩) صحيح.

٣ ـ تفسير القرآن بأقوال الصحابة: إن التابعين ما علموا كيفية التلقى من الكتاب والسنة، وكذلك الاجتهاد، ونحو ذلك إلا بسبب تربيتهم على أيدى الصحابة وخبرتهم بمناهجهم الاستدلالية، وتعلمهم لطرق الاستنباط وتلقيهم الرواية النبوية، ورؤيتهم التطبيق العملى لذلك كله، ولقد استوعب التابعون رسالة الصحابة وعرفوا فضلهم، فها هو مجاهد يقول: العلماء أصحاب محمد ﷺ(١)، وكان التابعون يقدمون قول الصحابى على قولهم، يقول الشعبى: إذا اختلف الناس فى شىء فانظر كيف صنع عمر؟ فإن عمر لم يكن يصنع شيئًا حتى يشاور، فقال أشعث ـ راوى الأثر ـ فذكرت ذلك لابن سيرين فقال: إذا رأيت الرجل يخبرك أنه أعلم من عمر فاحذره(٢)، وكان منهج التابعين فى الأخذ عن الصحابة يدور حول:

أ ـ إذا كان تفسير الصحابى يرفعه للنبى ﷺ، فهذا هو المطلب الرئيس، والغاية القصوى، وليس بعده قول، وكذلك ما كان من تفسير الصحابى، وهو وارد فى سبب النزول بالصيغة الصريحة(٣)، وكذلك فيما لا مجال للرأى فيه، فهذا يقف عنده لا يجاوزونه، لأن الصحابى شاهد التنزيل، ومثال ذلك ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. فقد قال فيها ابن عباس رضى الله عنهما: إن لملك الموت أعوانًا من الملائكة، رواه عنه إبراهيم(٤). ولذا جاءت الرواية من تفسير إبراهيم نفسه بالاقتصار على قول ابن عباس ولم يزد عليه شيئًا، فقال: أعوان ملك الموت(٥)، وكذا جاء عن قتادة، ومجاهد والربيع(٦).

ب ـ وإذا كان التفسير الوارد عن الصحابى من باب الاجتهاد، وجارٍ على مقتضى اللغة، فإنهم فى الغالب لا يخالفونه، فإن الصحابة أهل اللسان والبيان والفهم، ولأجل ذلك اعتمد مجاهد تفسير ابن عباس دون غيره عندما تعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]. فقد قال ابن عباس: المستقر بالأرض، والمستودع عند الرحمن(٧). وجاءت رواية عن ابن عباس: أن المستقر فى الرحم، والمستودع فى الصلب(٨)، موافقة للرواية الثانية، وهكذا كان حال ابن جبير فى تفسير الآية(٩).

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٥)، تفسير التابعين (٢/ ٦٥١).
(٢) الحلية (٤/ ٣٢٠)، تفسير التابعين (٢/ ٦٥٣).
(٣) أى سبب نزول كذا هو كذا وكذا أو حدث كذا ونزل كذا.
(٤) تفسير الطبرى (١١/ ٤١٠)، زاد المسير (٣/ ٥٥).
(٥) تفسير الطبرى (١١/ ٤١٠).
(٦)، (٧) تفسير التابعين (٢/ ٦٥٨).
(٨) تفسير الطبرى (١١/ ٥٧٠)، زاد المسير (٣/ ٩٢).
(٩) تفسير الطبرى (١١/ ٥٧٠).

ج - إذا تعارضت الأقوال المنقولة فى الصحابة، فإن التابعين يسلكون مسلك الترجيح بينها، والترجيح قد يكون باللغة، أو بالحديث، أو بقول صحابى آخر يجمع بين الأقوال، فمن الأول ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]. جاء عن ابن عباس فى تفسيرها أن دلوكها غروبها[(١)]، وجاء عنه أن دلوكها: زيغها بعد نصف النهار[(٢)]، وجاء عن ابن مسعود أن دلوكها غروبها[(٣)]، وجاء عنه أيضًا أن دلوكها ميلها يعنى: الزوال[(٤)]. فاختار قتادة أن دلوكها زوالها، ففسرها به[(٥)]، مع أنه نقل القول بغروبها عن ابن مسعود[(٦)]، ولعل سبب هذا الاختيار هو أن اللغة تدل على أن الدلوك هو الميل، فيكون المراد صلاة الظهر، ورجحه ابن جرير، وناقش الأول[(٧)].

وقد يكون الترجيح لأثر مرفوع، ومنه ما جاء عن قتادة وهو يحدث عن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين فى الصلاة الوسطى، وشبك بين أصابعه[(٨)]، فرجح الحسن أنها صلاة العصر[(٩)]، متابعًا فى ذلك عددًا من الصحابة رضى الله عنهم، والمرجح هنا هو الأثر المرفوع الذى رواه الحسن عن سمرة أن النبى ﷺ قال: «الصلاة الوسطى صلاة العصر»[(١٠)]. وقد يكون الترجيح بقول صحابى آخر يقدِّم به عموم الآية على ما ورد فى خصوصها، ويجمع به بين الأقوال، فمن ذلك تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] فقد جاء تفسير الكوثر عن جمع من الصحابة: أنه نهر فى الجنة[(١١)]، وعن ابن عباس: أنه الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه[(١٢)]، وتابعه على ذلك سعيد بن جبير، فقال أبو بشر لسعيد: إنا كنا نسمع أنه نهر فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه[(١٣)]، فهنا رجح ابن جبير العموم فى الآية مستندًا لقول ابن عباس، ولم يذهب إلى خصوص الأثر الوارد فى ذلك، أما إذا لم يكن ثمة مروى عن الصحابة فى ذلك، فعندئذ يدخل منهم من يدخل فى باب الاجتهاد[(١٤)]. وقد أدت الرواية عن الصحابة والاعتماد عليها فى التفسير إلى ظهور نتائج وآثار ترتبت على ذلك منها، حفظ أخبار الصحابة ومعرفة دقيق أحوالهم والتمييز بينهم، والالتزام بمناهجهم، والإفادة منها، وتبنى أقوالهم[(١٥)].

(١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٤) .
(٢)، (٤) فتح القدير (٣/ ٢٥٤) .
(٣)، (٥)، (٦) زاد المسير (٥/ ٧٢) .
(٧) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٦، ١٣٧).
(٨) زاد المسير (١/ ٢٨٢) .
(٩)، (١٤) تفسير التابعين (٢/ ٦٦١) .
(١٠) تفسير الطبرى (٥/ ١٩٤) رقم ٥٤٣٨ .
(١١)، (١٣) زاد المسير (٩/ ٢٤٨).
(١٢) الدر المنثور (٨/ ٦٤٩) .
(١٥) تفسير التابعين (٢/ ٦٧٢ - ٦٧٧)

٤- اللغة العربية: لقد تنوعت مشارب التابعين فى اعتمادهم على اللغة وجعلها مصدراً من مصادر التفسير، وذلك لعدة أسباب منها معرفة لغة العرب ومعرفة عادات العرب وأخبارهم، والإلمام بأشعار العرب، ومعرفة فقه اللغة من الاشتقاق، والإيجاز والحذف، والتقديم والتأخير، وغير ذلك من الأسباب[١].

٥ ـ الاجتهاد: ظهرت اجتهادات التابعين فى التفسير، حتى إبان عهد الصحابة، وشملت اجتهاداتهم مواطن كثيرة، غالبها مما سكت عنه الصحابة ومن أهمها:

أ ـ بيان المراد من النص، وذلك إذا كان النص خفى الدلالة بسبب إجمال فى اللفظ أو التركيب.

ب ـ استنباط بعض الأحكام من النصوص القرآنية.

ج ـ بيان الفروق بين ما تشابه من الكلمات، والمعانى، والتفسير بين النظائر.

د ـ العناية الفائقة بدقائق من علم الكتاب العزيز، كمباحث عد الآيات، والكلمات فى القرآن الكريم[٢] وغيرها، وقد كان لاجتهاد التابعين فى تفسير الآيات مميزات منها:

- تنوع عبارات الاجتهاد وتعددها.
- الإيجاز غير المخل.
- عمق التأمل ودقة التفسير.
- قوة الاستنباط.

خامسًا: جهود عمر بن عبد العزيز والتابعين في خدمة السنة:

نهى رسول الله ﷺ عن كتابة غير القرآن فى أول الأمر، مخافة اختلاط غير القرآن به، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره، ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوى بالكتابة والإباحة المطلقة لتدوين الحديث الشريف؛ فنسخ الأمر، وصار الأمر إلى الجواز[٣]. وقد ثبت أن كثيراً من الصحابة قد أباحوا تدوين الحديث وكتبوه لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصون بكتابة الحديث وحفظه[٤]. وقام الجهابذة من أهل العلم، والغيورون من المسلمين بجهود جبارة لتدوين السنة المطهرة وجمع الحديث النبوى، وتنقيته من شوائب

(١) تفسير التابعين (٢/ ٦٨٩ - ٧٠٧) .
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٧١١) .
(٣) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٧٤ .
(٤) المصدر نفسه صـ٧٥ .

الوضع، وبذلوا فى ذلك مهجهم وأوقاتهم، فأسهروا ليلهم، وضربوا فى الأرض نهارهم، وأصَّلوا لذلك أصولاً، وقعّدوا قواعد، حتى أثمرت تلك الجهود المباركة هذه الدواوين العظيمة، التى يعكف المسلمون على قراءتها وحفظها والعمل بها، والفضل -كل الفضل- لله، ثم لأولئك البررة الذين كانوا السبب فى جمعها، وليس لهم مكافأة أعظم من أجر الله الجزيل لهم يوم القيامة إن شاء الله تعالى[1]، ولعل طلائع التدوين الرسمى للحديث النبوى، الذى قامت به جهة مسئولة فى الدولة الإسلامية، كان على يدى عبد العزيز بن مروان ـ والد عمر ـ عندما كان أميرًا على مصر، كما مرّ معنا، بيد أن التدوين الذى آتى ثماره هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد تجلى ذلك فى إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك، فمن إرشاداته قوله: أيها الناس قيدوا العلم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتابة[2]، لكن أمير المؤمنين عمر لم يكتف بهذا الإرشاد العام والحض على حفظ العلم بكتابته، بل سعى ـ بحكمه خليفة المسلمين ـ إلى إصدار أوامره إلى بعض الأئمة العلماء بجمع سنن وأحاديث رسول الله ﷺ، وقد حمله على ذلك ما رآه عند كثير من التابعين فى إباحة كتابة الحديث، وهم قد حملوا علمًا كثيرًا، فخشى عمر على ضياعه، خاصة أنه ليس دائمًا يتوافر الحفظة الواعون لنقله، دونما احتياج إلى كتابة الكتب والرجوع إليها للاستذكار، وثمة سبب آخر يضاهى سابقه فى الأهمية، وهو فشوّ الوضع ودسّ الأحاديث المكذوبة، وخلطها بالصحيح من كلام النبى ﷺ، بسبب الخلافات المذهبية والسياسية، وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهرى: لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبت حديثًا ولا أذنت فى كتابته[3]. ورأى الزهرى هذا كان رأى كثير من أئمة ذلك العصر، حيث خافوا على الحديث النبوى من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفز العلماء على حفظ السنة بتدوينها، وجاء رأى السلطة العليا ممثلاً بالخليفة الورع العالم المجتهد أمير المؤمنين عمر، فاتخذ خطوة حاسمة بتدوين سنن رسول الله ﷺ، وجعل من مسئوليات الدولة حفظ السنة المطهرة[4]. وإليك خطواته ومجهوداته فى هذا الشأن:

١ـ **كتب إلى الإمام الثبت أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء**، أبى بكر بن حزم، يأمره بذلك، ففى صحيح البخارى: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن حزم: انظر ما

(١) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٧٥ .
(٢) المصدر نفسه صـ ٧٦ .
(٣) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٧٧ .
(٤) أصول الحديث، محمد عجّاج الخطيب صـ١٧٦، ١٧٧، ١٨٦ .

كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبى ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم ما لم يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًا[1]، وروى ابن سعد عن عبد الله بن دينار قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنّة ماضية أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن، فاكتبه، فإنى خفت دروس العلم وذهاب أهله[2].

٢ـ كذلك وجه كتابًا بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهرى، فقد ذكر ابن عبد البر عن ابن شهاب قال: أمرنا عمر بن عبد العزيز، بجمع السنن، فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا[3]، وروى أبو عبيد أن عمر أمر ابن شهاب أن يكتب له السنّة فى مصارف الزكاة الثمانية، فلبى الزهرى أمره، وكتب له كتابًا مطولاً يوضح ذلك بالتفصيل[4]. ومن هنا قال ابن حجر: وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهرى على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فلله الحمد[5].

٣ـ بل إن عمر وجه أوامره إلى أهل المدينة جميعًا يأمرهم ويحثهم على جمع حديث رسول الله ﷺ، يشارك فى هذا كل من لديه علم، ولو كان بضعة أحاديث، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإنى قد خفت دروس العلم وذهاب أهله[6].

٤ ـ ولم يقف عمر عند ذلك، بل عمَّمَ أوامره إلى جميع الأمصار فى الدولة الإسلامية، ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من حديث رسول الله ﷺ، وما سمعه من أصحابه الكرام[7]، وروى: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه واحفظوه، فإنى أخاف دروس العلم وذهاب العلماء[8].

وقد اهتم عمر رضى الله عنه باللغة العربية؛ فشجع أهل البلاد المفتوحة على تعلمها

(١) فتح البارى (١/ ١٩٤ ـ ١٩٥).
(٢) الطبقات، أصول الدين صـ١٧٧ ـ ١٧٩.
(٣) جامع بيان العلم (١/ ٩١ ـ ٩٢).
(٤) الأموال صـ٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٥) فتح البارى (١/ ٢٠٨)، أصول الحديث صـ ١٧٨، ١٨٠.
(٦) سنن الدارمى (١/ ١٣٧).
(٧) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٧٩.
(٨) فتح البارى (١/ ١٩٥)، أصول الحديث صـ ١٧٨.

وإتقانها، وكان يغدق عليهم ـ لذلك ـ العطايا، كما أنه يعاقب من يلحن بالعربية وينقص من عطائه، لما يعلم من أهمية العربية فى فهم كتاب الله والسنة النبوية الشريفة[1].

* منهج عمر بن عبد العزيز وطريقته فى التدوين:

اتبع عمر فى جمع الحديث النبوى وتدوينه منهجًا سديدًا قويمًا، وسلك فيه شروطًا صارمة، ووضع له أبعادًا هادفة مفيدة. ويتجلى ذلك فى أربعة أمور:

١ـ حسن اختياره للقائمين بهذا الأمر: فأبو بكر بن حزم هو أحد أوعية العلم، ومن أعلام عصره، قال فيه الإمام مالك: ما رأيت مثل ابن حزم أعظم مروءة ولا أتمَّ حالاً، ولا رأيت من أوتى مثل ما أوتى: ولاية المدينة، والقضاء، والموسم. وقال: كان رجل صدق، كثير الحديث. وقال ابن سعد: كان ثقة عالمًا كبير الحديث، توفى ١٢٠هـ[2]. وأما الزهرى، فهو العالم العَلَم، حافظ زمانه، وشهرته ملأت الآفاق، قال فيه الليث بن سعد: ما رأيت عالمًا قط أجمع من ابن شهاب، يحدث فى الترغيب والترهيب، فتقول: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن العرب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا. وإن حدّث عن القرآن والسنة، كان حديثه. وقال عمر بن عبد العزيز: عليكم بابن شهاب، فإنه ما بقى أحد أعلم بسنة ماضية منه[3].

٢ـ أنه طلب ممن يدوّن له السنة جمع الأحاديث مطلقًا وتدوينها، وتتبع أناسًا مخصوصين لما امتازوا بتدوين أحاديث معينة لأهميتها: فقد أمر ابن حزم بتدوين حديث عَمْرَة بنت عبد الرحمن لأنها من أثبت الناس بأم المؤمنين عائشة، والسيدة عائشة هى أعلم الناس بأحوال سيدنا رسول الله ﷺ وشئونه الخاصة داخل بيته ومع أهله[4]، وعمرة هذه هى: عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زُرارة الأنصارية النّجارية المدنية الفقيهة، تربية عائشة وتلميذتها، وجدّها سعد من قدماء الصحابة، وهو أخو النقيب الكبير أسعد بن زرارة، ذكرها ابن المدينى فضخَّم أمرها وقال: عمرة إحدى الثقات العلماء بعائشة، الأثبات فيها[5]. وقال الزهرى: أتيتها فوجدتها بحراً لا يُنْزَف[6]. توفيت عام ٩٨هـ وقيل:

(١) عمر بن عبد العزيز للشرقاوى صـ ١٧٨

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣١٣، ٣١٤) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٢٨)، عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٨٠ .

(٤) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٨١ .

(٥) المصدر نفسه صـ ٨١ تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٦٦) .

(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٨)، نساء لها تاريخ صـ١٥٥ .

١٠٦هـ[١]. وذكرت إحدى الروايات أنه أمر ابن حزم بجمع وتدوين حديث عمر بن الخطاب. وذلك لما يقصده ابن عبد العزيز من تتبع سيرة الفاروق وأقضيته وسياسته فى الصدقات، وكتبه إلى عماله فيها، وقد طلب ذلك أيضًا من سالم بن عبد الله بن عمر. وكل ذلك واضح من النهج الذى سلكه عمر بن عبد العزيز فى الاقتداء بجده رضى الله عنهما[٢]. كذلك كتب إلى آل عمرو بن حزم أن ينسخوا له كتاب النبىﷺ لهم فى الصدقات، كى يسير عليه فى خلافته وفى تسيير أمور رعيته[٣].

٣ـ أنه ألزم من يدوّن السنة النبوية أن يميز الصحيح من السقيم، ويتحرى الثابت من الحديث، وذلك واضح فى رواية الدارمى حيث يقول عمر لابن حزم: اكتب إلىَّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول اللهﷺ وبحديث عمر[٤]. وعند الإمام أحمد فى العلل: اكتب إلىَّ من الحديث بما ثبت عندك من رسول اللهﷺ وحديث عَمْرَة. وهذه نقطة عظيمة الأهمية فى تأسيس منهج التدوين على أسس راسخة، ثابتة صحيحة، قويمة مستقيمة[٥].

٤ـ تثبته من صحة الحديث والتحديث: فعمر من كبار العلماء، وليس بأقل شأنًا فى العلم ممن أمرهم بالتدوين، لذلك قام بمشاركة العلماء فى مناقشة بعض ما جمعوه، زيادة فى التثبت[٦]، من ذلك ما رواه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان القرشى قال: رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء، فجمعوا له أشياء من السنن، فإذا جاء الشيء الذى ليس العمل عليه قال: هذه زيادة ليس العمل عليها[٧].

* **ثمرة هذا التدوين:** لقد آتت هذه الجهود الباكرة المباركة بعض أكلها، وتمثل ذلك بتلك الدفاتر التى جمعها الإمام الزهرى، فأمر عمر بن عبد العزيز بنسخها عدة نسخ، ثم أرسل إلى كل بلد فى دولته الكبيرة دفترًا منها، ويلاحظ أن كثيرًا من العلماء جمع لنفسه مسموعاته، ليعود إليها كلما وجد فى نفسه الحاجة إلى إتقان حفظها، أما التدوين الرسمى الذى تولّته الدولة، وعممت ثمرته على الأمصار، فكان بأمر عمر بن عبد العزيز، ومن الثمرات الطيبة ـ أيضًا ـ ذلك المنهج السديد الذى اتبعه أمير المؤمنين عمر، بوضع الأسس والنقاط الهامة أثناء التدوين، فكانت نواة لمنهج واسع متكامل جاء بعده، وهذا كله ناتج من

(١) سير أعلام النبلاء (٥/٤:٨).
(٢) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٨١.
(٣) المصدر نفسه صـ٨١.
(٤) نقلاً عن مقدمة المسند صـ٢٠، ٢٣.
(٥) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٨٢.
(٦) المصدر نفسه صـ٨٢.
(٧) أصول الحديث صـ٨٢.

دقة فهمه، وغزارة علمه، ونفاذ بصيرته، وقبل ذلك وبعده توفيق الله تعالى له، ولئن كان عمر بن الخطاب قد أشار على الصديق بجمع القرآن، ففعل، فكان لهما الفضل الكبير على الأمة. ثم جاء عثمان فجمع الناس على مصحف واحد، وحرف واحد، ولهجة واحدة هى لهجة قريش، فإن الله سبحانه قد ادّخر لعمر بن عبد العزيز ـ نحسب ذلك ولا نزكى على الله أحدًا ـ تلك المنقبة العظيمة، والمكرمة الجليلة، فى إصدار أوامر الخلافة بجمع السنة وتنقيحها وتدوينها، وجعل من مهام الدولة حماية السنة التى هى المصدر الثانى للتشريع. وهذا من توفيق الله للعظماء، وكبار المصلحين، عندما تخلص سرائرهم لله يوفقهم الله للحق ويدلهم على الخيرات، ويسدّد خطواتهم، ويهيئ لهم من أمرهم رشدًا(١).

قال الشاعر الليبى أحمد رفيق المهدوى:

فإذا أحب الله باطن عبده ... ظهرت عليه مواهب الفتّاح

وإذا صفت لله نية مصلح ... مال العباد عليه بالأرواح(٢)

ويعتبر «التدوين الرسمى» بحق أحد الأعمال العظيمة والإنجازات الكبيرة التى تحققت فى عهد عمر بن عبد العزيز(٣) رحمه الله.

* جهود التابعين فى خدمة السنة النبوية الشريفة:

تحمل التابعون الحديث النبوى عن الصحابة وضبطوا الإسناد مع الدقة والإتقان، وأصبح الحديث أمانة فى أعناقهم، عليهم أن يجتهدوا فى تبليغها وإيصالها إلى مَنْ وراءهم، لاسيما وقد ظهر فى عصرهم بسبب الخلافات السياسية والكلامية وبسبب الزندقة المتمثلة فى التظاهر بالإسلام مع كراهيته؛ دينًا، ودولة، وبسبب التعصب للجنس، واللغة والقبيلة، والبلد، وبسبب التكسب والارتزاق عن طريق القصاص والوعظ، وبسبب الجهل من بعض الزهاد والعباد وغير ذلك من الأسباب، ظهر الكذب والوضع فى الحديث، فانبرى هؤلاء يؤدون الأمانة ويقومون بواجبهم فى مواجهة الكذابين والوضاعين، وكانت لهم فى ذلك جهود ضخمة مشكورة(٤)، يمكن تلخيصها فى الآتى:

---

(١)، (٣) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٨٣ .

(٢) الثمار الزكية للحركة السنوسية صـ ١٩٨ .

(٤) التابعون وجهودهم فى خدمة الحديث النبوى للشايجى صـ ٥٤، هذه الرسالة مع صغر حجمها ولكنها قيمة .

١ـ الالتزام بالإسناد ومطالبة الغير به:

أ ـ قال ابن سيرين: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة، فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[١].

ب ـ جاء عن عتبة بن أبى الحكم: أنه كان عند إسحاق بن أبى فروة وعنده الزهرى، قال: فجعل ابن أبى فروة يقول: قال رسول الله ﷺ: . . . فقال له الزهرى: قاتلك الله يا ابن أبى فروة، ما أجرأك على الله لا تسند حديثك، تحدثنا بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة[٢].

٢ـ عقد الحلقات العلمية: يقول ابن سيرين: قدمت الكوفة، وللشعبى حلقة علمية عظيمة، والصحابة يومئذ كثير[٣]. وعن ابن شهاب قال: كان يقص لنا سعيد بن جبير كل يوم مرتين: بعد الفجر، وبعد العصر[٤].

٣ـ الحرص على أداء الحديث على وجهه: يعنى روايته بلفظه، فإن لم يتيسر ذلك رووه بالمعنى مراعين شروطه وضوابطه المعروفة[٥]. فعن ابن عون قال: كان إبراهيم، والشعبى، والحسن، يأتون بالحديث على المعانى، وكان القاسم، وابن سيرين، ورجاء يعيدون الحديث على حروفه[٦]. وقال ليث بن أبى سليم: كان طاووس يعد الحديث حرفًا حرفًا[٧]، وقال جرير بن حازم: سمعت الحسن يحدث بالحديث: الأصل واحد، والكلام مختلق[٨].

٤ ـ وضع معايير علمية لمعرفة حال الرواة تجريحًا وتعديلاً:

ـ مثل مقابلة روايات الضابطين ببعضها، كقول ابن شهاب الزهرى: إذا حدثتنى عَمْرَة ثم حدثنى عروة، صدَّق عندى حديث عمرة حديث عروة، فلما تبحرتهما إذا عروة بحر لا ينزف[٩].

ـ أو مقابلة حديث الراوى بحديث نفسه ولكن على فترات متباعدة: كما جاء أن هشام بن عبد الملك أراد التأكد من حفظ الزهرى، فاختبره بنفسه حيث سأله أن يملى على بعض

(١) مسلم فى مقدمته، باب بيان الإسناد من الدين (١/ ١٥) .
(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم صـ٦ .
(٣) تاريخ الإسلام صـ١٢٦، حوادث ١٠٤هـ .
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٣٦) .
(٥) التابعون وجهودهم فى خدمة الحديث النبوى صـ٥٨ .
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٩) .
(٧) المصدر نفسه (٥/ ٤٦٥) .
(٨) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (٢/ ٢١).
(٩) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٣٦) .

ولده فدعا بكتاب، فأملى عليه أربعمائة حديث، ثم إن هشامًا قال له بعد شهر أو نحوه، يا أبا بكر إن ذلك الكتاب ضاع، فدعا بكتاب فأملاها عليه، ثم قابله هشام بالكتاب الأول فما غادر حرفًا[1].

ـ أو بقلب الأسانيد والمتون: كما جاء عن حماد بن سلمة قال: كنت أسمع أن القصاص لا يحفظون الحديث، فكنت أقلب الأحاديث على ثابت: أجعل أنسًا لابن أبى ليلى وبالعكس أشوشها عليه فيجئ بها على الاستواء[2].

ـ ومن معرفة المبتدع بإعراضه عن السنة إلى القرآن: عن أبى قلابة: قال: إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا، وهات كتاب الله فاعلم أنه ضال[3].

ـ ومن ضرورة حفظ القرآن قبل الاشتغال بالحديث: عن حفص بن غياث قال: أتيت الأعمش فقلت: حدثنى، قال: أتحفظ القرآن؟ قلت: لا، قال: اذهب، فاحفظ القرآن، ثمّ هلمّ أحدثك، قال: فذهبت فحفظت القرآن، ثم جئته فاستقرأنى، فقرأته، فحدثنى.

٥ ـ إجابة المستفتين، والقضاء بين الناس:

كان من جهود التابعين فى خدمة السنة: إجابة المستفتين، والقضاء به بين الناس، فهذا علقمة بن قيس النخعى يتفقه به أئمة، كإبراهيم، والشعبى، ويتصدى للإمامة والفتيا بعد على وابن مسعود، وكان يشبه بابن مسعود فى هديه، وسمته وكان طلبته يسألونه ويفقهون به، والصحابة متوافرون[4]. وعن أبى الزناد قال: كان الفقهاء السبعة الذين يسألون بالمدينة، وينتهى إلى قولهم: سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعروة، والقاسم، وعبيد الله بن عبد الله، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار[5]. ولا شك أن إجابة المستفتين والقضاء بين الناس ما كان لهما أن يظهرا على أرض الواقع مع الدعة والراحة والنوم، وإنما يتطلبان جهدًا ووقتًا ونفقة للإعداد والتحضير، ثم الأداء[6].

٦- بيان حال الرواة لمعرفة من يحتج بحديثه ومن لا يحتج[7]: كان من جهود التابعين فى خدمة الحديث النبوى أداء بيان حال الرواة لمعرفة من يحتج بحديثه ومن لا يحتج.

(١) السنة ومكانتها فى التشريع صـ٢٠٩ . (٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٢٢) .
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٧٤٢) .
(٤) المحدث الفاصل: باب أوصاف الطالب وآدابه صـ٢٠٣ .
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٣٨)
(٦)، (٧) التابعون وجهودهم فى خدمة الحديث النبوى صـ٦٤ .

أ ـ عن محمد بن سيرين قال: أدركت أهل الكوفة وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث الأعور ثنى بعبيدة السلمانى، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث، ثم علقمة، ثم مسروق، ثم شريح[(١)].

ب ـ وعن قتادة قال: إذا اجتمع لى أربعة لم ألتفت إلى غيرهم، ولم أبال من خالفهم: الحسن، وابن المسيب، وإبراهيم، وعطاء، هؤلاء أئمة الأمصار[(٢)].

هذه هى أهم الجهود التى بذلوها فى خدمة الحديث النبوى، ومن أراد التوسع فليراجع السنة قبل التدوين[(٣)] للدكتور محمد عجاج الخطيب، والتابعون وجهودهم فى خدمة الحديث النبوى.

سادسًا: منهج التزكية والسلوك عند التابعين (مدرسة الحسن البصرى مثالاً):

*ـ الحسن البصرى فى عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية:

يعتبر الحسن البصرى من المعاصرين لعمر بن عبد العزيز، كما أنه كان له تأثير واضح فى الحياة الدينية والاجتماعية فى عهد الدولة الأموية. والحسن البصرى هو أبو سعيد الحسن بن يسار ـ مولى زيد بن ثابت رضى الله عنه- من كبار التابعين، وإمام أهل البصرة، وحبر الأمة وقتها، وأمه «خيرة» مولاة أم المؤمنين أم سلمة ـ رضى الله عنها- ولد عام ٢١هـ فى المدينة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، ويقال: الحسن أرضعته أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ حيث كانت أمه ـ خيرة ـ تخرج لشراء بعض الحاجيات، فيبكى الطفل فتأخذه أم سلمة بين يديها، وتضعه فى حجرها، وتلقمه ثديها، فيدر الثدى لبنًا، فيرضع الحسن، وبذلك تكون أمه من الرضاعة، وقد كانت فصاحته وعلمه من هذه البركة، ومن البديهى أن يتعرف الطفل الصغير على بيوت أمهات المؤمنين وينهل من معينهن، ويتأدب بأدبهن ويتخلق بأخلاقهن، ومن جهة أخرى يتتلمذ على كبار الصحابة فى مسجد رسول الله ﷺ، كأبى موسى الأشعرى، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله رضى الله عنهم أجمعين، وانتقل مع أبويه فيما بعد إلى «البصرة» وإليها ينسب فيقال: الحسن البصرى، وكان عمره وقتها أربع عشرة سنة، فلزم مسجد البصرة ينهل من معين علمائها وخاصة حلقة حبر الأمة وعالمها عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما، وما هو إلا قليل حتى التف الناس حوله، وقصدوه من كل

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٩١) .
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٨٣) .
(٣) السنة قبل التدوين صـ ١٤٤- ١٩٩ .

حدب وصوب، وكما قيل فيه: كان قوله كفعله، لا يقول ما لا يفعل، سريرته كعلانيته، إذا أمر بمعروف كان أعمل الناس به، وإذا نهى عن منكر كان أنزل الناس له، مستغنيًا عما فى أيدى الناس، زاهدًا به، والناس محتاجون إليه بما عنده[1].

١- أسباب تأثيره فى قلوب الناس: جمع الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به أن يؤثِّر فى قلوب الناس، ويرفع به قيمة الدين وأهله فى المجتمع، فقد كان واسع العلم غزير المادة فى التفسير والحديث، ولم يكن لأحد فى ذلك العصر أن ينشر دعوته ويقوم بالإصلاح، إلا إذا كان متوفرًا على هذين العلمين، وقد أدرك الصحابة وعاصر كثيراً منهم. ويظهر من حياته ومواعظه أنه درس هذا العصر دراسة عميقة، وأدرك روحه وعرف كيف تطور المجتمع الإسلامى، ومن أين انحرف، وكان واسع الإطلاع، دقيق الملاحظة للحياة ومختلف الطبقات؛ وعوائدها وأخلاقها وعِللها وأدوائها، كطبيب مارس العلاج مدة[2]، وكان مع ذلك غاية فى الفصاحة وحلاوة المنطق والتأثير فى مستمعيه، يقول أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصرى، والحجاج بن يوسف والحسن أفصح منه[3]، وكان آية فى اتساع المعلومات ووفور العلم، قال الربيع بن أنس: اختلفت إلى الحسن عشر سنين، وما من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبله. وقال محمد بن سعد: كان الحسن جامعًا عالمًا رفيعًا فقيهًا، ثقة مأمونًا، عابدًا ناسكًا، كثير العلم، فصيحًا، جميلاً وسيمًا، وقدم مكة فأجلس على سرير، واجتمع الناس إليه، وقالوا: لم نرَ مثل هذا قط، وقد وصفه ثابت بن قُرة - كما نقل عنه أبو حيان التوحيدى- فقال: كان من ذرارى النجوم علمًا وتقوى، وزهدًا وورعًا، وعفة ورقَّة، وفقهًا ومعرفة، يجمع مجلسه ضروبًا من الناس، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يَلقفُ منه التأويل[4]، وهذا يسمع منه الحلال والحرام، وهذا يحكى به الفتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء، وهذا يسمع الوعظ، وهو فى جميع ذلك كالبحر اللَّجاج تدفقًا، وكالسِّراج الوهاج تألقًا، ولا تُنسَى مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، عند الأمراء وأشباه الأمراء، بالكلام الفصل واللفظ الجزل[5]، وكان فوق ذلك كله- وهو سر تأثيره فى القلوب، وسحره فى النفوس،

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣ إلى ٥٨٨)، حياة الحسن البصرى د. روضة الحضرى، الحسن البصرى إمام عصره وعلامة زمانه، مرزوق على إبراهيم، الحسن البصرى، مصطفى سعيد الخن، الزهد للحسن البصرى، د. محمد عبد الرحيم محمد.

(٢) رجال الفكرة والدعوة (١/ ٦٧) .

(٣) نظرات فى التصوف الإسلامى د. محمد القهوجى صـ٢٢١ .

(٤) التأويل: التفسير .

(٥) رجال الفكر والدعوة (١/ ٦٨).

وخضوع الناس له ـ أنه كان صاحب عاطفة قوية، وروح ملتهبة، وكان من كبار المخلصين، وكان الذى يقول يخرج من القلب، فيدخل فى القلب وكان إذا ذكر الصحابة أو وصف الآخرة، أدمع العيون وحرك القلوب(١)، قال عنه مطر الوراق: لما ظهر الحسن جاء كأنما كان فى الآخرة فهو يخبر عمًّا عاين(٢). وقال عوف: ما رأيت رجلاً أعلم بطريق الجنة من الحسن(٣). فقد كان يتذوق الإيمان، ويتكلم عن عاطفة ووجدان، لذلك كانت حلقته فى البصرة أوسع الحلقات، وانجذب الناس إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس ـ وذلك شأن أهل القلوب والإخلاص فى كل زمان ـ وكان من أعظم ما امتاز به هو أنَّ كلامه كان أشبه ما سمع الناس بكلام النبوة. وقال الغزالى فى إحياء علوم الدين: ولقد كان الحسن البصرىُّ رحمه الله أشبه الناس كلامًا بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقربهم هديًا من الصحابة رضى الله عنهم، اتّفقت الكلمة فى حقه على ذلك(٤)، وكانت نتيجة المواهب العظيمة والفضائل الكثيرة، أنه كان صاحب شخصية قوية جذابة حبيبة إلى النفوس، وكان الناس مأخوذين بسحرها، خاضعين لعظمتها، حتى قال ثابت بن قرّة الحكيم الحرّانى: إن الحسن من أفراد الأمة المحمدية التى تتباهى بهم على الأمم الأخرى(٥).

وكان من أعظم أسباب تأثير الحسن البصرى فى المجتمع، ونفوذه فى القلوب والعقول، أنه ضرب على الوتر الحساس، ونزل أعماق المجتمع، ووصف أمراضه، وانتقده انتقاد الحكيم الرفيق، والناصح الشفيق، لقد كان عصره يغُصُّ بالدعاة والوعاظ، ولكنَّ المجتمع لم يتأثر لأحد كتأثره بالحسن، لأنه كان يَمسُّ قلبه وينزل فى صميم الحياة، ويعارض التيار، لأنه كان ينعى على الإخلاد إلى الحياة والانهماك فى الشهوات، وقد انتشر هذا المرض فى الحياة، إنه كان يذكر بالموت ويستحضر الآخرة، والمترفون يتناسون ذلك ويُعلِّلون نفوسهم بالأمانى الكذابة والأحلام اللذيذة، ويتضايقون بذكر ما يكدِّر عليهم الحياة، ويُعكرِّ صفو عيشهم، فكان دائمًا فى صراع مع الجاهلية، والجاهلية لا تخضع إلا لمن صارعها، ولا تعترف إلا بوجود الرجل الذى يحاربها، وكان الحسن البصرى هو ذاك الرجل، فعظم تأثيره وكثر التائبون والمُقْلعون عن المعاصى والحياة الجاهلية التى كانوا يعيشونها، وانطلقت موجة الإصلاح قوية مؤثرة، لأن الحسن لم يقتصر على مواعظ وخطب كان يُلقيها، بل كان يُعنى بتربية من يتصل به ويجالسه. فكان جامعًا بين الدعوة والإرشاد، وبين التربية العملية

(١) رجال الفكر والدعوة (١/ ٦٨).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٣).
(٣) المصدر نفسه (٤/ ٥٧٥).
(٤)، (٥) رجال الفكر والدعوة (١/ ٦٨).

والتزكيـة الخُلقية والروحية فاهتـدى به خلائق لا يحصيهم إلا الله، وذاقـوا حلاوة الإيمان وتحلوا بحقيقة الإسلام[1].

٢ـ ملامح التصوف السنى عند الحسن البصرى:

يعتبر الحسن البصرى من علماء السلوك النادرين، وممن اهتموا بأمراض النفوس وعلاجها، وإحياء القلوب وإمدادها بالإيمـان والمعانى الربانية السامية، وكان رحمـه الله سليم العقيدة، متـقيدًا بالـكتاب والسنة فى تعليـمه وتربيتـه، ولا شك أن الأساس فى التصـوف السنى هو الالتزام بالكتـاب والسنة وفق منهج السلف الصالح فى العـقيدة والعبـادة والسلوك والمعاملة، وسنرى ذلك من خلال سيرة الحسن، ومن الأمور التى اهتم بها الحسن رحمه الله:

أ ـ قسوة القلب ومواته وإحياؤه:

قال رجـل للحسن: يا أبا سـعيـد، أشكو إليك قسـوة قلبى! قال: أدنه من الـذكر[2]، وقال: إن الـقلوب تموت وتحيـا، فإذا مـاتت فاحـملوها على الفرائض، فـإذا هى أحيـيت فأتبعوها بالتطوع[3]، إن قسوة القلب ذمها المولى عز وجل قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ثم بين وجه كونها أشد قسوة، بقوله ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]. وقال رسول الله ﷺ: «ولا تكثروا الكلام بغير ذكـر الله، فإن كثرة الكلام بغى ذكـر الله قسـوة للقلب، وإن أبعـد الناس من الله القلب القـاسى»[4]. وأما أسـباب القسوة كثيرة منها: كـثرة الكلام بغير ذكر الله، نقض العهد مع الله ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، ومنها كثرة الضحك، ومنها كثرة الأكل لاسيما من الحرام، ومنهـا كثرة الذنوب[5]، وغيـرها، وقد ذكـر الكثير منهـا الحسن البـصرى فى كلامه. وأما مزيلات القسوة فمتعددة منها:

ـ كثـرة ذكر الله يتواطأ عليـه القلب واللسان: قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾

(١) رجال الفكر والدعوة (١/ ٧٥).
(٢) الزهد للحسن البصرى صـ١٢٣.
(٣) المصدر نفسه صـ١٢٤.
(٤) سنن الترمذى رقم ٢٤١١، حسن غريب.
(٥) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/ ٢٦١، ٢٦٢).

[الزمر: ٢٣] قال رسول الله؟ ﷺ: «إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد» قيل: فما جلاؤها يا رسول الله قال: تلاوة كتاب الله وكثرة ذكره[١].

وكان الحسن البصرى رحمه الله يقول: أيها الناس أنى أعظكم ولست بخيركم ولا أصلحكم وإنى لكثير الإسراف على نفسي، غير محكم لها، ولا حاملها على الواجب فى طاعة ربها، ولو كان المؤمن لا يعظ أخاه إلا بعد إحكام أمر نفسه لعدم الواعظون، وقل المذكرون، ولما وجد من يدعو إلى الله جل ثناؤه، ويرغب فى طاعته وينهى عن معصيته، ولكنْ في اجتماع أهل البصائر ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضًا حياة لقلوب المتقين وأذكار من الغفلة، وأمن من النسيان، فالزموا عافاكم الله مجلس الذكر، فرب كلمة مسموعة، ومحتقر نافع، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون[٢]. وكان يقول: سبحان من أذاق قلوب العارفين من حلاوة الانقطاع إليه، ولذة الخدمة له، علق هممهم بذكره وشغل قلوبهم عن غيره، فلا شيء ألذ عندهم من مناجاته، ولا أقر إلى أعينهم من خدمته، ولا أخف على ألسنتهم من ذكره سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا[٣]، وكان يقول: تفقد الحلاوة فى ثلاثة أشياء: فى الصلاة والقراءة والذكر، فإن وجدت ذلك فامض وأبشر، وإلا فاعلم أن بابك مغلق فعالج فتحه[٤]، ومن أفضل الذكر العمل بالقرآن وتلاوته. وكان الحسن البصرى يقول: من أحب أن يعلم ما هو فيه، فليعرض عمله على القرآن، ليتبين الخسران من الرجحان[٥]، وكان يقول رحم الله عبدًا عرض نفسه على كتاب الله، فإن وافق أمره حمد الله وسأله المزيد، وإن خالف استعتب ورجع من قريب[٦]، وكان يقول: أيها الناس، إن هذا القرآن شفاء للمؤمنين، وإمام للمتقين، فمن اهتدى به هُدى، ومن صرف عنه شقى وابتلى[٧]. وكان يقول: قراء القرآن ثلاثة نفر: قوم اتخذوه بضاعة يطلبون به ما عند الناس، وقوم أجادوا حروفه وضيعوا حدوده استدروا به أموال الولاة واستطالوا به على الناس ـ وقد كثر هذا الجنس من حملة القرآن ـ فلا كثر الله جمعهم ولا أبعد غيرهم، وقوم قرأوا القرآن فتدبروا آياته وتداوَوا به[٨]، وأما قيام الليل فكان يقول فيه: إذا لم تقدر على قيام الليل ولا صيام النهار فاعلم أنك محروم، قد كبلتك الخطايا والذنوب[٩]. وقال له رجل: يا أبا سعيد: أعيانى قيام الليل فما أطيقه؟ فقال: يا ابن أخى، استغفر الله وتب إليه، فإنها علامة سوء[١٠]، وقال: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل[١١].

(١) البيهقى فى الشعب رقم ١٤٢، العلل المتناهية لابن الجوزى (٢/ ٨٣٢) الحديث فيه ضعف.
(٢)، (٣)، (٤) الزهد للحسن البصرى صـ٧٩. (٥)، (٦) المصدر نفسه صـ١٤٢.
(٧) المصدر نفسه صـ١٤٧. (٨) المصدر نفسه صـ١٤٨.
(٩)، (١٠)، (١١) المصدر نفسه صـ١٤٦.

ـ كثرة ذكر الموت: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات»[(١)]. وقال الحسن البصرى: فضح الموت الدنيا، فلم يترك فيها لذى لب فرحًا[(٢)]. وعن صالح بن رسم قال: سمعت الحسن يقول: رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس؛ ابن آدم إنك تموت وحدك وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك وتحاسب وحدك، ابن آدم، أنت المعنّى وإياك يراد[(٣)]. وقال الحسن: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا رأى ذلك فى عمله، ولا طال أمل عبد قط إلا أساء العمل[(٤)]. وقيل: رأى الحسن شيخًا فى جنازة فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ، أسألك بربك: أتظن أن هذا الميت يود أن يرد إلى الدنيا فيتزيد من عمله الصالح، ويستغفر الله من ذنوبه السالفة، فقال الشيخ: اللهم نعم، فقال الحسن: فما بالنا لا نكون كهذا الميت، ثم انصرف وهو يقول: أى موعظة؟ ما أنفعها لو كان بالقلوب حياة؟ ولكن لا حياة لمن تنادى[(٥)]. وقال: حقيق على من عرف أن الموت مورده والقيامة موعده، والوقوف بين يدى الجبار مشهده أن تطول فى الدنيا حسرته؛ وفى العمل الصالح رغبته[(٦)]. وكان يقول: ما رأيت يقينًا لا شك فيه أصبح شكًا لا يقين فيه من يقيننا بالموت وعملنا لغيره[(٧)]. وكان يقول: عباد الله، إن الله سبحانه لم يجعل لأعمالكم أجلاً دون الموت، فعليكم بالمداومة، فإنه جل ثناؤه يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩]. وكان يقول: ابن آدم، إنك تموت وحدك، وتحاسب وحدك، ابن آدم، لو أن الناس كلهم أطاعوا الله وعصيت أنت لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت لم تضرك معصيتهم، ابن آدم، ذنبك ذنبك، فإنما هو لحمك ودمك، فإن سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فإنما هى نار لا تطفأ، وجسم لا يبلى، ونفس لا تموت[(٨)]. وكان يقول: لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه: الموت والمرض والفقر، وإنه بعد ذلك لوثاب[(٩)]. وكان الحسن إذا تلا هذه الآية: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] قال: من قال ذا؟ قال: من خلقها وهو أعلم بها[(١٠)]. وقال: إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب[(١١)].

---

(١) سنن الترمذى رقم ٢٣٠٧، سنن ابن ماجة رقم ٤٢٥٨ .
(٢) الزهد للحسن البصرى صـ٢٠ .
(٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه صـ٢١ .
(٦)، (٧) المصدر نفسه صـ٢٢ .
(٨) المصدر نفسه صـ٢٣ .
(٩) المصدر نفسه صـ٢٤ .
(١٠) المصدر نفسه صـ٢٥ .
(١١) المصدر نفسه صـ٢٦ .

ـ زيارة القبور بالتفكر في حال أهلها: قال رسول الله ﷺ: «زوروا القبور، فإنها تذكّر الموت»[1]، وفي رواية: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة»[2]، وكان الحسن البصرى كثير الزيارة للقبور، فلما ماتت النوار بنت أعين بن ضبعية المجاشعى امرأة الفرزدق، وكانت قد أوصت أن يصلى عليها الحسن البصرى، فشهدها أعيان أهل البصرة مع الحسن، والحسن على بغلته، والفرزدق على بعيره، فسار فقال الحسن للفرزدق، ماذا يقول الناس؟ قال: يقولون: شهد هذه الجنازة اليوم خير الناس يعنونك، وشر الناس يعنونى، فقال له: يا أبا فراس، لست بخير الناس، ولست أنت بشرّ الناس، ثم قال الحسن: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة، فلما أن صلى عليها الحسن مالوا إلى قبرها فأنشأ الفرزدق يقول:

أخاف وراء القبر إن لم يعافنى … أشد من القبر التهابًا وأضيقا
إذا جاءنى يوم القيامة قائد … عنيف وسوّاق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد دار من مشى … إلى النار مغلولا القلادة أزرقا
يساق إلى نار الجحيم مسربلا … سرابيل قطران لباسًا مخرقا
إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم … يذوبون من حرّ الصديد تمزقا

قال: فبكى الحسن حتى بلّ الثرى، ثم التزم الفرزدق وقال: لقد كنت من أبغض الناس إلىّ، وإنك اليوم من أحب الناس إلىّ[3]. وكان الحسن يتعظ بالمقابر ويتدبر فى أحوالها، فعن عوانة قال: قال الحسن: قدم علينا بشر بن مروان ـ أخو عبد الملك بن مروان الخليفة ـ أمير المصرين، وأشب الناس، وأقام عندنا أربعين يومًا، ثم طعن فى قدميه فمات، وأخرجناه إلى قبره، فلما صرنا إلى الجبان فإذا نحن بأربعة سودان يحملون صاحبًا لهم إلى قبره، فوضعنا السرير فصلينا عليه، ووضعوا صاحبهم فصلوا عليه، ثم حملنا بشرًا إلى قبره، وحملوا صاحبهم إلى قبره، ودفنا بشرًا ودفنوا صاحبهم ثم انصرفوا وانصرفنا، ثم التفت التفاتة فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشى، فلم أر شيئًا قط كان أعجب[4] منه. وقد ذكر العلماء أمورًا أخرى تزيل قسوة القلوب كالإحسان إلى اليتامى والمساكين، والنظر فى ديار الهالكين والاعتبار بمنازل الغابرين[5].

(١) مسلم رقم ٩٧٦ . (٢) مسلم (٢/ ٦٧٢)، سنن الترمذى ١٨٦٩ .

(٣) الحسن البصرى، د. مصطفى الحن صـ٣٤٥ نقلاً عن البداية والنهاية .

(٤) البيان والتبيين (٣/ ١٤٧)، الحسن البصرى د. مصطفى الحن صـ ٣٤٩ .

(٥) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/ ٢٦٤ - ٢٧٠) .

ب ـ حثه على الإخلاص وطاعة الله وإصلاح ذات البين والتفكر:

ـ الإخلاص: إن لإخلاص العمل تأثيرًا عظيمًا فى مكارم الأخلاق، فهو يمد قلب صاحبه بقوةً، تجعله ينهض للمكارم ابتغاء وجه الله، غير منتظر من أحد جزاءً ولا شكورًا، يشرح صدره للحلم والعفو ومعالى الأخلاق امتثالاً لأمر الله، وطلبًا لرضاه، والفوز بنعيم الآخرة، فهو إن أبغض فبغضه لله وهكذا فى شأنه كله[1]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. فكان الحسن يقول: من تزين للناس بما لا يعلمه الله منه شانه ذلك[2]. وكان يقول: روى عن بعض الصالحين أنه كان يقول: أفضل الزهد إخفاء الزهد[3]. وقيل: وعظ يومًا، فتنفس رجل الصعداء، فقال: يا ابن أخى ما عساك أردت بما صنعت؟ إن كنت صادقًا فقد شهرت نفسك، وإن كنت كاذبًا فقد أهلكتها، ولقد كان الناس يجتهدون فى الخفاء وما يسمع لأحدهم صوت، ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يستكمل القرآن فلا يشعر به جاره، ولقد كان الآخر يتفقه فى الدين ولا يطلع عليه صديقه، ولقد قيل لبعضهم: ما أقل التفاتك فى صلاتك وأحسن خشوعك؟ فقال: يا ابن أخى وما يدريك أين كان قلبى؟[4] وكان يقول: نظر رجاء بن حيوة إلى رجل يتناعس بعد الصبح، فقال: انتبه عافاك الله لا يظن ظان أن ذلك عن سهر وصلاة فيحبط عملك[5]. وقال الحسن: ولقد حُدثت أن رجلاً مر برجل يقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. فقال: والله لأعبدن الله عبادة أُذْكَر بها فى الدنيا، فلزم الصلاة واعتكف على الصيام حتى كان لا يفطر ولا يرى إلا مصليًا وذاكرًا، وكلما مر على قوم قالوا: ألا ترون هذا المرائى ما أكثر رياءه، فأقبل على نفسه وقال: ثكلتك أمك لا أراك تذكرين إلا بِشرٍّ ولا أراك أُصبت إلا بفساد نيتك وفساد معتقدك، وأنك لم تردى الله بعملك، ثم بقى على عمله لم يزد عليه شيئًا إلا إن نيته انقلبت[6]، فتغير الحال ووضع الله له القبول، ولا يمر بقوم إلا قالوا: يرحم الله هذا، ثم يقولون: الآن الآن. وكان الحسن يقول: أخلصوا لله أعمالكم[7]، وكان يقول:

(١) الأخلاق بين الطبع والتطبع صـ٢١ .

(٢) حياة الحسن البصرى، روضة الحصرى صـ١٧٠ .

(٣) المصدر نفسه صـ١٧٠ .

(٤) الزهد للحسن البصرى صـ ١٥٩ .

(٥) المصدر نفسه صـ ١٥٩ .

(٦) انقلبت: صارت على الضد مما كانت عليه أى حسنت .

(٧) الزهد للحسن البصرى ص١٦٠ .

ابن آدم تلبس لُبسة العابدين، وتفعل أفعال الفاسقين، وتخبت إخبات المريدين، وتنظر نظر المغترين، ويحك! ما هذا خصال المخلصين، إنك تقوم يوم القيامة بين يدى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور(١)، وكان يقول: روى أن سعيد بن جبير رأى رجلاً متماوتًا فى العبادة فقال: يا ابن أخى إن الإسلام حىّ فأحيه ولا تمته، أماتك الله ولا أحياك. وكان يقول: من ذم نفسه فى الملأ فقد مدحها وبئس ما صنع(٢).

- الحث على طاعة الله: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]. وكان الحسن يقول فى قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ [المؤمنون: ٦٠] قال: يعطون ما أعطوا ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قال: يعملون ما عملوا من أعمال البر وهم يخشون أن لا ينجيهم من عذاب ربهم عز وجل(٣). وعنه أنه قال: إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداومًا فى طاعة الله فبغاك وبغاك - أى طلبك مرة بعد مرة - فرآك مداومًا وملّكَ ورفضك، وإذا كنت مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك(٤)، وعن الحسن قال: هرم بن حيان: ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها(٥).

ومن القصص التى حدثت للحسن: لما ولى عمر بن هبيرة العراق أرسل إلى الحسن وإلى الشعبى فأمر لهما ببيت وكانا فيه شهراً - أو نحوه - ثم إن الخادم غدا ذات يوم فقال: إن الأمير دخل عليكما، فجاء عمر يتوكأ على عصا له، فسلم ثم جلس معظمًا لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ينفذ كتابًا أعرف أن فى إنفاذه الهلكة، فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله عز وجل، فهل تريان لى فى متابعتى إياه فرجًا؟ فتكلم الشعبى فانحط فى حبل ابن هبيرة، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أيها الأمير، قد قال الشعبى ما قد سمعت، قال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أقول يا عمر بن هبيرة يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصى الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، يا عمر بن هبيرة إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل، يا عمر بن هبيرة، لا

(١)، (٢) الزهد للحسن البصرى صـ١٦٠ .

(٣) المصدر نفسه صـ ٧٤.

(٤)، (٥) المصدر نفسه صـ٧٥ .

تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك نظر تمقت فيغلق بها باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة كانوا - والله- على الدنيا وهى مقبلة أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهى مدبرة، يا عمر بن هبيرة، إنى أخوفك مقاما خوفكه الله تعالى فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ يا عمر ابن هبيرة إن تك مع الله تعالى فى طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد ابن عبد الملك على معاصى الله وكلك الله إليه، قال فبكى عمر وقام بعبرته، فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وكثر منه ما للحسن وكان فى جائزته للشعبى بعض الإقتار، فخرج الشعبى إلى المسجد، فقال: يا أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه فليفعل، فوالذى نفسى بيده ما علم الحسن منه شيئًا فجهلته ولكن أردت وجه ابن هبيرة، فأقصانى الله منه[1]. وقال الحسن: لا تخالفوا الله عن أمره، فإن خلافًا عن أمره عمران دار قد قضى الله عليها بالخراب[2]. وقال الحسن فى قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ قال: المتوجه بقلبه وعمله إلى الله عز وجل[3]. وكان يقول: رحم الله امرأ كان قويًا فأعمل قوته فى طاعة الله، أو كان ضعيفًا فكف عن معاصى الله[4].

- الاعتبار والتفكر: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. فالتأمل والتفكر فى الكون والنفس وآيات الله المنظورة داع قوى للإيمان، لما فى هذه الموجودات من عظمة الله الخالق الدالة على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها من الحسن والانتظام والإحكام الذى يحير الألباب، الدال على علم سعة الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التى لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره[5]، وذلك يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره، وإخلاص الدين له، وهذا هو روح الإيمان وسره، فعبادة التفكر والاعتبار دعا إليهما الحسن البصرى وحث الناس عليها، فقال رحمه الله: إن من أفضل العمل الورع والتفكر[6]، وقال: من عرف ربه أحبه، ومن أبصر الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا فكر حزن[7]. وكان يقول: رحم الله امرأ نظر ففكر، وفكر فاعتبر، واعتبر

(١) الزهد، الحسن البصرى صـ٧٦ .
(٢) المصدر نفسه صـ٧٦.
(٣)، (٤) المصدر نفسه صـ٧٧ .
(٥) شجرة الإيمان للسعدى صـ ٤٩، الوسطية فى القرآن صـ ٢٣٩.
(٦) الزهد، الحسن البصرى صـ٨٢ .
(٧) المصدر نفسه صـ٨٣ .

فأبصر وأبصر فصبر، لقد أبصـر أقوام ثم لم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم، فلم يدركوا ما طلبوا ولا رجعـوا إلى ما فارقوا، فخـسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخـسران المبين[١]، وقال: تفكـر ساعة خـير من قيـام ليلة[٢]، وكان يقـول: الفكرة مرآة تريك حـسنتك من سيئتك، فمن اعتمد عليها أفلح ومن أغفلها افتضح[٣].

ـ العلم والعلماء: وكان يقـول: الفهم وعاء الـعلم، والعلم دليل العمل، والعـمل قائد الخيـر، والهوى مركب المعـاصى، والمال داء المتكبرين، والدنيا سـوق الآخرة، والويل كل الويل لمن قوى بنعم الله على معاصيه[٤]، وقال: قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك فى تخشعه وهديه، وفى لسانه وبصره وبره[٥].

ج ـ النهى عن طول الأمل وذم الكبر:

ـ النهى عن طول الأمل: قال الحسن: إن المؤمن فى الدنيا غريب لا يجزع ذلها ولا ينافس أهلها فى عزها، الناس منه فى راحة، ونفسه منه فى شغل، طوبى لعبدٍ كسب طيبًا، وقدم الفضل ليوم فـقره وفاقتـه، ووجهوا هذا الفضل حـيث وجهه الله، ولا تلقوها هاهنا فـيما يضركم[٦]. وكان يقول: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل[٧]، ومن درر كلامه قوله: يا ابن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك[٨].

ـ النهى عن الكبر: قال الحسن: يا ابن آدم، كيف تتكبر وأنت من سبيل البول مرتين[٩]، وقيل: رأى الحـسن نعيم بن رضوان يمـشى مشية المتكبـر فقال: انظروا إلى هذا ليس فـيه عضو إلا ولله تعالى فيه نعمة وللشيطان لعنة[١٠].

٣ ـ من تلاميذ الحسن البصرى الذين اشتهروا بعلم السلوك:

كان الحـسن البصرى من علمـاء أهل السنة، واهتم رحمه الله بـعلم السلوك، وكان له مجلس خـاص فى منزله لا يكاد يتكلم فـيه إلا فى معـانى الزهد والنسك[١١]، وقد تأثر بمدرسة الحسن البصرى مجموعة خيرة، وكوكبة نيرة، ونجوم ساطعة من علماء أهل السنة، منهم:

---

(١)، (٢)، (٣) الزهد للحسن البصرى صـ٨٣.
(٤)، (٥) المصدر نفسه صـ٩٢.
(٦)، (٨) المصدر نفسه صـ٨١.
(٧) المصدر نفسه صـ٨٢.
(٩)، (١٠) المصدر نفسه صـ٩٠.
(١١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٧٩)

أ ـ أيوب السختياني: هو الإمام الحافظ سيد العلماء، أبو بكر بن أبي تميمة كيسان[(١)]، كان ثقة ثبتًا في الحديث، جامعًا عدلاً، ورعًا، كثير العلم[(٢)]، وكان إذا سُئل عن شيء ليس عنده فيه شيء قال: أسأل أهل العلم، وكان كثيرًا ما يقول: لا أدري. حتى قال حماد ابن زيد: ما رأيت أحدًا أكثر من قول: لا أدري من أيوب ويونس، وكان يحب ستر زهده ويقول: لأن يستر الرجل زهده خير له من أن يظهره[(٣)]، وحج أيوب أربعين حجة، وكان عبيد الله بن عمر يرتاح قلبه في موسم الحج بلقاء أقوام نوَّر الله قلوبهم بالإيمان، منهم أيوب[(٤)]، وكان صديقًا ليزيد بن الوليد بن عبد الملك، فلما تولى يزيد الخلافة قال أيوب: اللهم أنسه ذكرى[(٥)]، وكان شديد التبسم في وجوه الناس[(٦)].

* من مواقف وكلمات أيوب:

ـ تعظيمه لأهل السنة: قال أيوب: انه ليبلغني موت الرجل من أهل السنة فكأنما يسقط عضو من أعضائي[(٧)].

ـ موقفه من أهل الأهواء والبدع: قال: ما ازداد صاحب بدعة اجتهادًا إلا ازداد من الله بعدًا[(٨)]. وعن أيوب قال: قال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإني لا آمن من أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون[(٩)]. قال أيوب: وكان والله من الفقهاء ذوي الألباب[(١٠)].

ـ محبته للقاء إخوانه في الله: قال: إنه يزيدني في حب الموسم وحضوره أن ألقى إخوانًا لي فيه لا ألقاهم في غير[(١١)].

ـ عبادته: كان من العباد المشهورين بحسن العبادة وكثرتها، وكان شديد الحرص على إخفائها عن الناس وتصفيتها وإخلاصها لرب الناس[(١٢)]، وكان من سادات أهل البصرة، وعبّاد أتباع التابعين وفقهائهم ممن اشتهر بالفضل والعلم والنسك[(١٣)]، وكان كثير الحج

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٥).
(٢) الطبقات (٧/ ٢٤٦).
(٣) تاريخ التصوف الإسلامي د. بدوي صـ ١٨٩.
(٤) الحلية (٣/ ٤).
(٥) المصدر نفسه (٣/ ٦).
(٦) تاريخ التصوف الإسلامي صـ ١٨٩.
(٧)، (٨) الحلية (٣/ ٩).
(٩) الإمام أيوب السختياني صـ٤٧، د. سليمان العربي.
(١٠) البدع والنهي عنها صـ ٤٨ لابن وضاح.
(١١) الإمام أيوب السختياني صـ ٤٨.
(١٢) المصدر نفسه صـ ٥٠.
(١٣) مشاهير علماء الأمصار صـ ١٥٠ رقم ١١٨٣.

والعمـرة رحمه اللـه لوصية رسـول الله بذلك: تابعوا بين الحج والعـمرة[١]، وحج أيوب أربعين[٢]، وكان يقـوم الليل يخفى ذاك، فإذا كان قـبل الصبح رفع صوته كـأنه قام تلك الساعة[٣].

ـ الزهد: قال أيوب: الزهد فى الدنيـا ثلاثة أشياء، أحبهـا إلى الله وأعلاها عند الله وأعظمـها عند اللـه تعالى، الزهد فى عـبادة مـن عبـد دون الله من كل ملك وصنم وحجر ووثن، ثم الزهد فيمـا حرم الله تعالى من الأخذ والإعطاء، ثم يقبل علينا فيقول: زهدكم هذا يا معشر القراء فهو أخسه عند الله، الزهد فى حلال الله عز وجل[٤].

ـ شهادة الحسن البصرى فيه: قال فيه الحسن: هذا سيد الفتيان[٥]، قال: أيوب سيد شباب أهل البصرة[٦]، وأما شهادة أيوب فى شيخه الحسن فقد قال: كان الحسن يتكلم بكلام كأنه الدر، فتكلم قومٌ من بعده بكلام يخرج من أفواههم كأنه القىء[٧]. وقال: جالست الحسن أربع سنين فما سألته هيبة له[٨].

ـ وفاته: بعد عمر قضاه فى عبادة الله تعلمًـا وتعليمًا وتربية وخشية لله، وتمسكًا بالسنة، وتعظيـمًا بأهلهـا، وقمـعًا لأهل البـدع والأهواء، وإخلاص العلم والعـمل لله. توفى فى مرض الطاعون بالبصرة عام ١٣١هـ[٩]، وروى أبو نعيم بسنده إلى حماد بن زيد قال: غدا على ميمـون أبو حمزة يوم الجمعـة قبل الصلاة، وقال: فقـال: إنى رأيت البارحة أبا بكر وعمر فى النوم فقلت لهما: ما جاء بكمـا؟ قالا: جئنا نصلى على أيوب السختيانى: قال: ولم يكن علم بموته، فقلت له: قد مات أيوب البارحة[١٠].

ب ـ مالك بن دينار: علم العلماء الأبرار، مـعدود من ثقات التابعـين، ومن أعيان كـتبة المصاحف، كان من ذلك بلغته[١١].

(١) مسند أحمد رقم ١٦٧ الحديث صحيح بشواهد.
(٢) حلية الأولياء (٣/ ٥).
(٣) المعرفة والتاريخ(٢/ ٢٤١)، الإمام أيوب السختيانى صـ٥٢.
(٤) حلية الأولياء (٣/ ٧).
(٥) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٤٧)، الإمام أيوب صـ٧٥.
(٦) حلية الأولياء (٣/ ٣)، الإمام أيوب صـ٧٥.
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٧).
(٨) حلية الأولياء (٣/ ١١)، الإمام أيوب صـ٧٥.
(٩) الوافى بالوفيات (١٠/ ٥٤، ٥٥)، الإمام أيوب صـ ٩٦.
(١٠) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٣).
(١١) المصدر السابق (٥/ ٣٦٢).

من مواقفه وأقواله:

ـ عدم تأثره بالمدح والذم: قال: مذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ولم أكره ذمهم، لأن حامدهم مفرط، وذامهم مفرط، إذا تعلم العالم العلم للعمل كسره، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فخراً[(١)].

ـ حزن القلب: قال: إذا لم يكن فى القلب حزن خرب. وقال: من تباعد من زهرة الدنيا، فذاك الغالب هواه[(٢)].

ـ جاء يسرق فسرقناه: قيل: دخل عليه لص، فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك: لم تجد شيئًا من الدنيا فترغب فى شيء من الآخرة؟ قال: نعم. قال: توضأ، وصل ركعتين، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد، فسُئل من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه[(٣)].

ـ أطيب شيء من الدنيا معرفة الله: قال: خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله.

ـ محبة أنس بن مالك له: قال مالك بن دينار: أتينا أنسًا أنا وثابت ويزيد الرقاشى، فنظر إلينا فقال: ما أشبهكم بأصحاب محمد ﷺ ، لأنتم أحب إلى من عدة ولدى إلا أن يكون فى الفضل مثلكم، إنى لأدعو لكم فى الأسحار[(٤)].

– مصدر كسبه: كان ينسخ المصحف فى أربعة أشهر، فيدع أجرته عند البقال فيأكله، وكان أدم مالك بن دينار فى كل سنة بفلسين ملح[(٥)].

ـ وفاته: توفى سنة ١٢٧هـ[(٦)]، وقيل: ١٣٠هـ. فمالك بن دينار من علماء أهل السنة ولا ينظر لمن ألصق به آثارًا واهية نسبها إليه، وزعم أنه خلط الروحية الإسلامية بعناصر غير إسلامية وكتابية على وجه التخصيص[(٧)]. بل الثابت من سيرته بأنه من أعلام السلوك ومن تلاميذ الحسن البصرى، وأنس بن مالك، والأحنف بن قيس، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، والقاسم بن محمد[(٨)] وغيرهم من علماء أهل السنة.

ج ـ محمد بن واسع: الإمام الربانى، القدوة[(٩)]، ترجمت له فى حديثى عن الفتوحات فى عهد عبد الملك، وكان من ضمن جيش قتيبة بن مسلم، وقد قام مدة فى خراسان[(١٠)].

(١) سير أعلام النبلاء(٥/ ٣٦٢) .
(٢)، (٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٦٣) .
(٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه (٥/ ٣٦٤) .
(٧) تاريخ التصوف الإسلامى صـ٢٠٧ .
(٨) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦٢) .
(٩) المصدر نفسه (٦/ ١١٩) .
(١٠) تاريخ التصوف الإسلامى صـ٢١٧، الحلية (٢/ ٣٥٣) .

قال عنه مالك بن دينار: القـراء ثلاثة: فقارىء للرحمن، وقـارئ للدنيا، وقارئ للملوك، ويا هؤلاء محمـد بن واسع عندى من قراء الرحمن[1]، وكان الحسن البصـرى يسميه زين القراء[2]، ومن أقواله: إذا أقبل العبد بقلبه على اللـه أقبل الله بقلوب العباد عليه. وقال: يكفى من الدعاء مع الورع يسير العمل[3].

هؤلاء هم أشهر تلاميـذ الحسن البصـرى فى علم السلوك والذين كان لهم تأثير كـبير فى حياة الناس، واليوم نحن فى أشد الحاجة لإحياء هذا العلم الذى أصبح نادرًا وتصدر له بعض المحسوبين على العلم من أصحـاب العقائد الفاسدة والتصورات السقـيمة والأفكار المنحرفة، فالأمة فى حاجة ماسة لمنهج تربوى سنى تستلهم أصوله وفروعه من كتاب الله، وسنة رسوله وهدى الصحابة الكرام، ومن سار على نهجهم من العلماء الراسخين لكى تقف أمام الهجمة المادية، والطغيان الشهوانى، الذى يبث فى وسائل الإعلام العـالمية والإقليمية والقُطرية، كما أن من عوامل نهـوض الأمة كبح شهـواتها، وتطهيـر نفوسهـا من أمراضها وإحـياء القلوب بالمعانى الرفيعة والأعمال القلبية، كالرجاء والخوف والإخلاص والإنابة لله رب العالمين.

٤ ـ براءة الحسن البصرى من الاعتزال:

يزعم المعتزلة أن الحسن البصرى قـال بالقدر على مذهبهم وأنه منهم، فيروون عن داود بن أبى هند أنه قـال: سـمعت الحـسن يقـول: كل شىء بقـضـاء وقدر إلا المعـاصى[4]. ويوردون رسائل أرسلها إلى عبـد الملك بن مروان وفيها قوله بالقـدر على مذهب المعتزلة، ويقولون: إن رسائله مـشهورة[5]. وقد تحـمس الشيخ محـمد أبو زهرة ليثـبت أن الحسن البصـرى كان يقول بالقـدر على مذهب المعـتزلة[6]، والرد على هذه الدعاوى الخـالية من الحجج والبراهين والأدلة كتالى:

أ ـ إن المعتزلة أنفسهم لا يقطعـون بنسبة الحسن إليهم، ولذا نرى ابن المرتضى لما ذكر الحسن وقوله فى القدر قال: «فإن قلت: فقـد روى أيوب، أتيت الحسن، فكلمته فى القدر فكف عن ذلك، قلت: فقـد روى أنه خوفه بالسلطان فكف عن الخـوض فيه[7]. وهل يخاف، الحسن السلطان وهو الرجل الذى يجهر بالحق دائمًا.

---

(١) الحلية (٢/٣٤٥)، تاريخ التصوف الإسلامى صـ٢١٤ .

(٢) تاريخ التصوف الإسلامى صـ٢١٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/١٢١) .

(٤) المنية والأمل لابن المرتضى صـ١٢، القضاء والقدر د. المحمود صـ١٨٥ .

(٥) القضاء والقدر فى ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس صـ١٨٦ .

(٦) تاريخ الجدل صـ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٧) المنية والأمل صـ١٥ .

ب ـ أما بالنسبة للرسالة المنسوبة إليه فيقول عنها الشهرستاني: ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصرى كتبها إلى عبد الملك بن مروان، وقد سأله بالقول بالقدر والجبر فأجابه فيها بما يوافق مذهب القدرية، واستدل فيها بآيات من القرآن الكريم ودلائل من العقل، ولعلها لواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف فى أن القدر خيره وشره من الله ـ تعالى ـ فإن هذه الكلمات المجمع عليها عندهم[١]. وهذه الرسالة لم تصح نسبتها إلى الحسن والمعتزلة ينسبون إلى الحسن أقوالاً بروايات منقطعة، فالمرتضى حين ذكر أهل العدل والتوحيد عد منهم الحسن البصرى وترجم له ترجمة طويلة، ولما أراد أن يثبت أنه من أهل العدل قال: فمن تصريحه بالعدل، ما رواه على بن الجعد قال: سمعت الحسن يقول: من زعم أن المعاصى من الله عز وجل جاء يوم القيامة مسوداً وجهه وقرأ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]. وعلى ابن الجعد -الذى يقول سمعت الحسن- لم يسمع منه ولم يلقه[٢]، فهذه رواية منقطعة[٣].

ج ـ وابن قتيبة يذكر عن الحسن البصرى أنه تكلم فى شيء من القدر، ثم رجع عنه، ولكنه يذكر بعد ذلك مباشرة أن عطاء بن يسار ومعبداً الجهنى كانا يأتيان الحسن، فيسألانه ويقولان: يا أبا سعيد، إن الملوك يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون الأموال، ويفعلون ويفعلون، ويقولون: إنما تجرى أعمالنا على قدر الله، فقال: كذب أعداء الله[٤]، قال ابن قتيبة: فتعلق عليه بمثل هذا وأشباهه[٥]. ويشبه هذا ما يروى عن الحسن أنه قال ـ وهو محق فى قوله: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله، ويقولون: إن الله سبحانه قد شاء ما نحن فيه وحملنا عليه وأمرنا به، فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨][٦]. فهل كلام الحسن ـ رحمه الله ـ فى الروايتين دل على أنه قدرى؟ إن الجواب على ذلك واضح بداهة لأنه يرد على الذين يحتجون بالقدر على كفرهم ومعاصيهم، ولا شك أن هذا الاحتجاج باطل وكلام الحسن حق[٧]. وقد أشار ابن تيمية إلى أنه قال: قد اتهم بمذهب القدر غير واحد، ولم يكونوا قدرية، بل كانوا لا يقبلون الاحتجاج على المعاصى بالقدر، كما قيل للإمام أحمد:

(١) القضاء والقدر فى ضوء الكتاب والسنة صـ١٨٦

(٢)، (٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه صـ١٨٧ .

(٦)، (٧) المصدر نفسه صـ ١٨٨ .

كان بن أبى ذؤيب قدريًا، فقال: الناس كل من شدد عليهم بالمعاصى قالوا: هذا قدرى. وقد قيل: لهذا السبب نسب إلى الحسن القدر[1].

د ـ وهناك روايات تنفي هذا الزعم، فعن عمر مولى غفرة قال: كان أهل القدر ينتحلون الحسن بن أبى الحسن، وكان قوله مخالفًا لهم، كان يقول: يا ابن آدم، لا ترض أحدًا بسخط الله ولا تطيعنّ أحدًا فى معصية الله، ولا تحمدن أحدًا على فضل الله، ولا تلومن أحدًا فيما لم يؤتك الله، إن الله خلق الخلق والخلائق، فمضوا على ما خلقهم عليه، فمن كان يظن أنه مزداد بحرصه فى رزقه فليزدد بحرصه فى عمره، أو يغير لونه، أو يزيد فى أركانه أو بنانه[2].

هـ - ومعلوم أن المعتزلة أجمعوا على أصولهم الخمسة، والحسن البصرى يعتبر القول بالمنزلة بين المنزلتين بدعة تخرج صاحبها عن عقيدة الجماعة، ولذلك اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن لما خالفه فى هذا الأصل، فكيف مع هذا يعتبر الحسن من علمائهم المنتسبين إليهم؟[3].

و ـ وقد اشتهر عن بعض المعتزلة القدرية أنهم يكذبون على الحسن البصرى، فقد ذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب السنة عدة روايات تدل على ذلك، فمن ذلك ما رواه عن حميد قال: قدم الحسن مكة فقال فقهاء مكة- الحسن بن مسلم وعبد الله بن عبيد-: لو كلمت الحسن فأخلانا يومًا. فكلمت الحسن فقلت: يا أبا سعيد، إخوانك يحبون أن تجلس لهم يومًا، قال: نعم ونعمة عين، فواعدهم يومًا فجاءوا فاجتمعوا، وتكلم الحسن وما رأيته قبل ذلك اليوم ولا بعده أبلغ منه ذلك اليوم، فسألوه عن صحيفة طويلة فلم يخطئ فيها شيئًا إلا فى مسألة، فقال له رجل: يا أبا سعيد، من خلق الشيطان؟ قال: سبحان الله، سبحان الله، وهل من خالق غير الله، ثم قال: إن الله خلق الشيطان وخلق الشر والخير فقال رجل منهم: قاتلهم الله يكذبون على الشيخ[4]. وقال حميد لمن نقل عن عمرو بن عبيد حديثًا رواه الحسن: لا تأخذ عن هذا فإنه يكذب على الحسن[5]. وروى عبد الله بن أحمد عن حماد بن زيد قال: قيل لأيوب: إن عمرًا «أى عمرو بن عبيد» روى عن الحسن أنه قال: لا يجلد السكران من النبيذ، قال: كذب، أنا سمعت الحسن يقول: يجلد السكران

(١) منهاج السنة (١/ ٣٦٢)، القضاء والقدر صـ ١٨٨ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٧/ ١٧٥) .
(٣) موقف المعتزلة من السنة النبوية صـ٢٧ .
(٤) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (٢/ ١٢٦) .
(٥) المصدر نفسه (٢/ ١٣١) .

من النبيذ[١]. فهذه الروايات وغيرها، تدل على أن دعوى أن الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ كان قدريًا أو كان يقول بقولهم ليست صحيحة[٢]. وإنما غرض المعتزلة هو التشرف بانتسابه إليهم، وإلا فكيف عدّوه منهم[٣]. والمعتزلة ذكروا مع الحسن غيره، بل وعدّوا من الطبقة الأولى من طبقاتهم الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة[٤]. وواضح إن إدراج هؤلاء ضمن المعتزلة إنما قصد به بيان أن المعتزلة هى أتقى الفرق وأبرها[٥]. ومعلوم لدى طلاب العلم وعموم المسلمين أن الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام براء من تهمة الاعتزال، وإنما هم سادة علماء أهل السنة والجماعة الذين ساروا على منهاج النبوّة.

٥ ـ الإمام العادل فى نظر الحسن البصرى:

عندما جاء عمر بن عبد العزيز للخلافة نجد الحسن البصرى قريبًا من الخليفة الجديد يتعهده بالوعظ والإرشاد، ويرسم له منهاجًا للإمام العادل، وهذا دور إيجابى من الحسن ـ رحمه الله ـ يبين العمل المطلوب من العالم الربانى الذى يسعى لمساعدة المصلحين من أصحاب القرار لنصرة الإسلام، وهذا يدلنا على تكامل شخصية الحسن الإسلامية فقد شارك فى الجهاد والتعليم والتربية، وكان رائدًا لمدرسة الإصلاح الاجتماعى بين الناس فى حياتهم، واهتم بأمراض القلوب، وعلاجها، وكانت له مواقفه السياسية من الثورات، ومن الحكام الظالمين، وهنا تتجلى شخصيته السياسية أكثر فى قربه من عمر بن عبد العزيز وشد أزره والوقوف بجانبه، والتنظير لمعالم الإصلاح والتجديد الراشدى الذى قاده عمر بن عبد العزيز، فقد جاء فى رسالته التى كتبها إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا أمير المؤمنين: أن الله جعل الإمام العادل قوّام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل مفسد، وقوة كل ضعيف ونصفة[٦] كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويزودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر[٧].

والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالأب الحانى على ولده، يسعى لهم صغيرًا، ويعلمهم كبارًا، يكتسب لهم فى حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها: حملته كرهًا ووضعته كرهًا، وربته طفلاً تسهر بسهره،

(١) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (٢/ ١٣٢).
(٢) القضاء والقدر فى ضوء الكتاب والسنة صـ١٩١.
(٣)، (٤) المصدر نفسه صـ١٨٩.
(٥) مذاهب الإسلاميين، عبد الرحمن بدوى (١/ ٤٠).
(٦) النصفة: اسم من الإنصاف.
(٧) القر: البرد.

وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العادل، يا أمير المؤمنين وصى اليتامى، وخازن المساكين؛ يربى صغيرهم، ويمون كبيرهم، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح: تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدل المال وشرد العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله. واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر، يا أمير المؤمنين، الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه؛ فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر. واعلم يا أمير المؤمنين، أن لك منزلاً غير منزلك الذى أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، ويُسلمونك فى قعره فريدًا وحيدًا، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه. واذكر، يا أمير المؤمنين، إذا بعثر ما فى القبور، وحُصل ما فى الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالآن، يا أمير المؤمنين، وأنت فى مهل -قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل - لا تحكم، يا أمير المؤمنين، فى عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلاً[1] ولا ذمة، فتبوء بأوزارك، وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك، وأثقالاً مع أثقالك، ولا يغُرنّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيّباتك فى آخرتك. لا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا وأنت مأسور فى حبائل الموت، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحى القيوم، إنى يا أمير، وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى، فلم آلك[2] شفقة ونصحك فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له من ذلك من العافية والصحة، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[3].

والمعانى الرئيسية فى هذه الرسالة:

أ- أن أهم صفة فى الإمام هى العدل ولكنه عدل ممزوج بالرحمة الأبوية.

---

(١) الإل: العهد.   (٢) أى لم أقصر.

(٣) الحسن البصرى لابن الجوزى صـ٥٦، العقد الفريد لابن عبد ربه (١/١٢)، تاريخ التصوف السنى صـ ١٧٩

ب- وأن أولى الناس باتباع حدود الله هو الإمام، لأنه إن لم يتبعها، فأجدر بالرعية ألا يتبعوها.

ج- وأن الإمام هو المنفذ للقصاص، فلا يحق له أن يقتل أحدًا بغير حق، إن فى القصاص حياة، فكيف يقضى على الحياة من وُكل إليه أمر توفير الحياة؟.

د- أن صلاح الرعية بصلاح الإمام وفسادها بفساده، فمسئوليته عن أفعاله هى فى الوقت نفسه مسئوليته عن أفعال كل رعيته، فما أعظم مسئوليته إذن.

هـ- وتظهر هذه المسئولية خصوصًا فى تعيين الولاة، فما يرتكبه ولاة الإمام وعُمّال الإمام هو أول مسئول عنها، ولهذا يجب على الإمام ألا يسلط المستكبرين على المستضعفين، لأن المتكبرين لا يرعون الحرمات، ولا يراقبون الله فى أعمالهم وأحكامهم، فإذا عيّن الإمام واحدًا من هؤلاء، فقد تحمّل مع أوزاره الخاصة أوزارهم(١).

٦ ـ الحسن البصرى يصف الدنيا لعمر بن عبد العزيز:

كتب الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز واصفًا له الدنيا: أما بعد، يا أمير المؤمنين فإن الدنيا دار ظعن وانتقال، وليست بدار إقامة على حال، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها، فإن الراغب فيها تارك، والغنى فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تذل من أعزها، وتفرق من جمعها، فهى كالسم يأكله من لا يعرفه ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى جراحه يحتمى قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، فالصبر على لأوائها، أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها، ولم يغتر بزينتها، فإنها غدارة ختالة خداعة، قد تعرضت بآمالها وتزينت لخطابها، فهى كالعروس؛ العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، وهى -والذى بعث محمداً بالحق- لأزواجها قاتلة، فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مؤدٍ إلى الهلكة والغناء. واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وتاركها موفق، والمتمسك بها هالك غرق، والفطن اللبيب من خاف ما خوفه الله، وحذر ما حذره، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء، فعند الموت يأتيه اليقين، الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة، لها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحازم اللبيب من كان فيها كالمداوى جراحه، يصبر على مرارة الدواء، لما يرجو من العافية، ويخاف من سوء

(١) تاريخ التصوف الإسلامى صـ١٨٠

عاقبة الدار، والدنيا، وايم الله، يا أمير المؤمنين حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد فى أضغاث أحلام، وإنى قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

فإن تنج من ذى عظيمة ... وإلا فإنى لا أخالك ناجيا

ولما وصل كتابه إلى عمر بن عبد العزيز بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده وقال: يرحم الله الحسن فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة، وينبهنا من الغفلة، ولله دره من مشفق ما أنصحه، وواعظ ما أصدقه وأفصحه. وكتب إليه عمر بن عبد العزيز: وصلت مواعظك النافعة فاستشفيت بها، ولقد وصفت الدنيا بصفتها، والعاقل من كان فيها على وجل، فكأن كل من كتب عليه الموت من أهلها قد مات، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، فلما وصل كتابه إلى الحسن قال: لله درّ أمير المؤمنين من قائل حق وقابل وعظًا، لقد أعظم الله جل ثناؤه بولايته المنة، ورحم بسلطانه الأمة، وجعله بركة ورحمة(١). وكتب إليه: أما بعد، فإن الهول الأعظم، والأمر المطلوب أمامك، ولا بد من مشاهدتك ذلك، إما بنجاة أو بعطب(٢).

٧ ـ موقفه من الثورات التى حدثت فى عهده:

كان يرى أن تغيير الفساد لا يكون بالسيف، وإنما يكون بالتوبة والرجوع إلى الله والنصح لأصحاب الأمور، وقد قال: وما أعجب أمر من يحاول أن يغير بالسيف، فإن التغيير لا يكون إلا بالتوبة(٣) وقد قال رسول الله ﷺ فى وجوب الصبر على ما تكرهه منهم: من رأى من أمير شيئًا يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرًا فيموت إلا مات ميتة جاهلية(٤). ويرى بعد فقهه لهذا الحديث وأمثاله أن تسلط الحكام عقوبة من الله تعالى تحتاج لصبر ويقول: لو أن الناس إذا ابتلوا من قِبل سلطانهم صبروا ما لبثوا أن يُفرج عنهم، ولكنهم يجزعون إلى السيف فيوكلون إليه، فوالله ما جاءوا بيوم خير قط(٥). وكان موقفه من ثورة ابن الأشعث كما مر معنا، وكان يرى أن ولاة الأمور طالما أنهم يقيمون الجمعة والجماعة والفيء، والثغور(٦) والحدود، فلا يجوز الخروج عليهم(٧)، وقد علق المودودى على منهج الحسن البصرى فى التعامل مع الثورات بأنه كان يشك بجدواها(٨)،

(١) الزهد للحسن البصرى صـ ١٦٩ .
(٢) المصدر نفسه صـ ١٦٩ .
(٣) الطبقات الكبرى (٧/ ١٢٥، ١٣١) .
(٤) البخارى رقم ٦٧٢٤، مسلم رقم ١٨٤٩ .
(٥) شذرات الذهب (١/ ١٣٧)، حياة الحسن البصرى د. روضة صـ١٩١ .
(٦) حياة الحسن البصرى صـ ١٩٤، روضة الحصرى.
(٧) المصدر نفسه صـ١٩٤ .
(٨) الخلافة والملك للمودودى صـ ١٤٩

وكان موقفه من ثورة يزيد بن المهلب ينظر إليها بقلق شديد خصوصًا أن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز كان قد حبس يزيد بن المهلب لفساده، ولأنه إن تولى أموال المسلمين[(١)] فسينفقها في ملذاته، ويرى الحسن أن غضبة ابن المهلب غضبة لنفسه ومطامعه، فيذهب الحسن إلى حيث اجتمع الناس في الجامع يتوكأ على عاتق معاذ بن سعد وهو يقول له: انظر هل ترى رجلاً نعرفه؟ وسر الحسن عندما لم ير في المجموع رجلاً من أصحابه[(٢)]. وتزداد جرأة الحسن وصدعه بالحق، ويتقدم من المنبر ويزيد يخطب. وقال بصوت مرتفع يخاطب ابن المهلب: والله لقد رأيناك واليًا ومولى عليك فما ينبغي لك ذلك. ويقف موقفًا أشد جرأة من سابقه فقد خرج على الناس وقد نصبوا الرايات، واصطفوا صفين، وهم ينتظرون خروج يزيد بن المهلب، ويقولون: يدعونا لسنة العمرين، فقال الحسن: إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون، ثم يسرح بهم إلى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء رضاهم، فلما غضب غضبة نصب قصبًا، ثم وضع عليها خرقًا ثم قال: إني قد خالفتهم فخالفوهم وقال: أدعوكم إلى سنة العمرين، وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله ثم يرد إلى السجن ويوضع في جبة[(٣)].

وتزداد مواعظ الحسن وكراهيته للثورة فيخطب الناس ويقول: أيها الناس، الزموا رحالكم وكفوا أيديكم، واتقوا الله مولاكم، ولا يقتل بعضكم بعضًا على دنيا زائلة وطمع فيها يسير، ليس لأهلها بباق، وليس عنهم فيما اكتسبوا براض، إنه لم يكن إلا كان أكثر أهلها الخطباء، والسفراء والسفهاء، وأهل التيه والخيلاء، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي، والمعروف التقي[(٤)]. وعلى أثر هذه الخطبة، يهدد مروان ابن المهلب خليفة يزيد في الثورة فيقول: لقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي يثبط الناس، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه، والله ليكفن عن ذكرنا وعن وجهه علينا سقاط الأبلة[(٥)]، وعلوج فرات البصرة، أو لأنخين عليه مبردًا خشنًا[(٦)]. ووقف الناس مع الحسن وقالوا له: لو أرادوك ثم شئت لمنعناك، فأجابهم بقوله: فقد خالفتكم إذًا إلى ما نهيتكم عنه، آمركم ألا يقتل بعضكم بعضًا مع غيري وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضًا دوني؟[(٧)]. هذا هو موقف الحسن من كل فتنة يسعى لجمع شمل المؤمنين وينهى عن كل فرقة بينهم[(٨)]، وعن سلم ابن أبي الذيّال قال: سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من

(١) حياة الحسن البصري صـ١٩٦ للحصري.

(٢) تاريخ الطبري (٧/ ٤٩١).

(٣) وفيات الأعيان (٣/ ٢٨٠)، حياة الحسن البصري صـ١٩٧.

(٤) تاريخ الطبري (٧/ ٤٩٨).

(٥) أُبلّته: بضمتين مشددة: أصحابه وقبيلته.

(٦) تاريخ الطبري (٧/ ٤٩٨).

(٧) تاريخ الطبري (٧/ ٤٩٩).

(٨) حياة الحسن البصري صـ١٩٨ للحصري.

أهل الشام فقال: يا أبا سعيد ما تقول فى الفتن مثل يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد؟ قال: نعم ولا مع أمير المؤمنين[1]. وقد سلك الحسن منهج السلم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولم يؤيد الثورة المسلحة لأسباب:

أ- أن الدعوة إلى الخروج عليهم يتبعها فوضى فى الأمور، واضطراب الأمن وفساد الأحوال، وفوضى ساعة ترتكب فيها المظالم ما لا يرتكب فى استبداد السنين.

ب- رأى أن كثرة الخروج على الولاة يضعف الدولة الإسلامية ويجعل بأس المسلمين بينهم شديدًا، فيكلب فيهم عدوهم، ويخرب عليهم حقوقهم.

ج- ولأنه رأى أن الدماء تراق فى الخروج بدون حق يقام، ومظلمة تدفع، والناس يخرجون من يد ظالم إلى أظلم.

د- وجد أن الطريق المعبّد لإصلاح هذا، إصلاح فساد المحكومين إذا تعذر عليه إصلاح فساد الحاكم، رأى أن الفساد عمّ الاثنين وتغلغل فى الفريقين، فاعتقد أن الحكام ما لم يتغير الشعب والملازمة ثابتة بينهما[2].

٨ - كيف يضل قوم هذا فيهم؟

قال خالد بن صفوان: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: يا خالد، أخبرنى عن حسن أهل البصرة؟ قلت: أصلحك الله، أُخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جانبه، وجليسه فى مجلسه، وأعلم من قبلى به: أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبهه قولاً بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أشرك الناس له، رأيته مستغنيًا عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك، كيف يضل قوم هذا فيهم[3]. ومن أقوال الحسن البصرى ما رواه هشام بن حسّان: سمعت الحسن يحلف بالله، ما أعز أحد الدرهم إلا أذلهُ الله[4]، وقال: بئس الرفيقات، الدينار والدرهم، لا ينفعانك حتى يُفارقاك[5].

٩- وفاة الحسن البصرى:

مرض الحسن البصرى مرض الموت وابنه إلى جانبه يمرضه ويعنى به وهو على سريره يسترجع، ويكثر من الاسترجاع فيقول له ابنه: أمثلك يسترجع على الدنيا؟ فيجيبه بقوله:

(١) الطبقات الكبرى (٧/ ١٢١)، حياة الحسن صـ١٩٨ .
(٢) تاريخ الجدل صـ٣٢٣ .
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٦) .
(٤)، (٥) المصدر نفسه (٤/ ٥٧٦).

يا بنى لا أسترجع إلا على نفسى التى لم أصب بمثلها[1]، وعن أبان بن محبر عن الحسن أنه لما حضره الموت دخل عليه رجال من أصحابه فقالوا له: يا أبا سعيد زودنا منك كلمات تنفعنا بهن. قال: إني مزودكم ثلاث كلمات، ثم قوموا عنى ودعونى لما توجهت له، ما نهيتهم عنه من أمر فكونوا من أترك الناس له، وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أن خطاكم خطوتان، خطوة لكم وخطوة عليكم، فانظروا أين تغدون وأين تروحون[2]. وقبل أن يسلم الحسن روحه أغمى عليه ثم أفاق إفاقة فقال: لقد نبهتمونى من جنان وعيون ومقام كريم[3]. وفى ليلة الجمعة وفى مستهل رجب سنة عشر ومائة[4]، أسلم الروح إلى بارئها، وعاش نحواً من ثمان وثمانين سنة، كما قال ابنه عبد الله[5]. وقبيل وفاته قال رجل لابن سيرين: رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة فى المسجد فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلاً حتى مات الحسن[6]. وقام بتغسيله تلميذاه: أيوب السختيانى، وحميد الطويل، وصلى عليه عقيب الجمعة النضر بن عمر المقرى[7]، قال حميد الطويل: توفى الحسن عشية الخميس وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره، وحملناه بعد صلاة الجمعة ودفناه، فتبع الناس كلهم جنازته، واشتغلوا به، فلم تقم صلاة العصر بالجامع، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ، لأنهم تبعوا كلهم الجنازة، حتى لم يبق بالمسجد من يصلى العصر[8]. رحم الله الحسن البصرى النموذج الرفيع لورثة الأنبياء والعلماء الربانيين، فقد كان من الرجال العظماء، قلما تجد له مثيلاً زهداً، وورعًا، وعلمًا، وحكمًا، وشجاعة، وأدبًا[9]، وكان من العلماء الذين نشطوا فى دولة الفقهاء التى قادها عمر بن عبد العزيز، ولم يبخل بوقت ولا نصيحة ولا موعظة ولا توجيه ولا إرشاد.

سابعًا: عمر والفتوح ورفع الحصار عن القسطنطينية:

عندما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كان من أول أعماله إيقاف التوسع فى المناطق النائية فى أطراف الدولة، ومحاولة سحب القوات الإسلامية من مناطق القتال، وأول أعماله فى هذا المضمار كان فى القوات التى عُنى الخليفة سليمان بحشدها وإنفاذها بقيادة

(١)، (٣)، (٥)، (٨) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٧) .

(٢) حلية الأولياء (٢/ ١٥٤).

(٤) تذكرة الحفاظ صـ٧٢، حياة الحسن البصرى صـ٢٠٢ .

(٦) وفيات الأعيان (٢/ ٧٢)، الطبقات الكبرى (٧/ ١٢٩).

(٧) تاريخ الذهبى، نقلاً عن حياة الحسن البصرى د. روضة صـ٢٠٢

(٩) حياة الحسن البصرى صـ٥٠٣ .

أخيه مسلمة لفتح القسطنطينية، وظلت تحاصرها مـدة سنتين لاقت فيها مصاعب كثيرة دون أن تفلح فى تحقيق هدفها، فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب بقفل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية، وقد كان سليمان أغزاه إياها برًا وبحرًا. فاشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع، حـتى يتنحى الرجل عن دابته فتقطع بالسوق.. ولجّ سليمان فى أمرهم، فكان ذلك يغم عمر، فلما ولى رأى أنه لا يسعه فيها بينه وبين الله عز وجل شيء من أمـور المسلمـين ثم يؤخر فـعله سـاعة، فـذلك الذى حمـله على تعجـيل الكتاب[١]، وقد وجه عمر بن عبد العزيـز إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين، فوجه إليهم خيلاً عتـاقًا وطعامًا كثيرًا، وحث الناس على معونتهم، فكان الذى وجه إليه الخيل العتاق فيـما قيل خمسمائة رأس[٢]. ويروى خليفة أنه فى سنة ٩٩هـ حمل عمر بن عبد العزيز الطعام والدواب إلى مسلمة بن عبد الملك إلى بلاد الروم، وأمر من كـان له هناك حمـيم أنه يبـعث إليه وبعث مـعه بعثًـا فأغـاث الناس، وأذن لهم بالقفول[٣]، وفى الأندلس ولى عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولانى، وعهد إليه: بإخلاء الأندلس من الإسلام إشفاقًا عليهم، إذ خشى تغلب العدو عليهم.. لانقطاعهم من وراء البحر من المسلمين[٤]. غير أن السمح لم ير الانسـحاب الكامل فى الأندلس، وكتب إلى الخليفة يقول: إن الناس قد كثروا، بها وانتشروا فى أقطارها، فاضرب عن ذلك، وأزال الأندلس عن عمالة إفريقية[٥]. وفى المشرق، كتب عمر بن عبـد العزيز إلى عبد الرحمن والى خراسـان يأمره بإقفال من وراء النهـر من المسلمين بذراريهم، فأبوا وقـالوا: لا يسعنا مرو (قاعدة خراسان). فكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: اللهم إنى قد قضيت الذى علىّ فلا تغزُ بالمسلمين، فحسبهم الذى فتح الله عليهم[٦]. ويقتصر خليفة بن خياط على القول بأن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الجراح بن عبد الله الحكمى: «لا تغزُ، وتمسكوا بما فى أيديكم»[٧]. وفى جبهة بلاد السند، كتب عمـر بن عبد العزيز إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم

(١) ابن عبد الحكم صـ٣٢. (٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن عمر بن عبد العزيز للعلى صـ١٤٠.
(٣) تاريخ خليفة صـ٣٢٦، تاريخ الإسلام للذهبى نقلاً عن العلى صـ١٤٠.
(٤) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية صـ١٢، ١٣.
(٥) فجر الأندلس لحسين مؤنس صـ١٣٦ ـ ١٣٧، عمر بن عبد العزيز، صالح العلى صـ١٤٠.
(٦) تاريخ الطبرى نقلا عن عمر بن عبد العزيز للعلى صـ١٤١.
(٧) تاريخ خليفة صـ٣٢٦، عمر بن عبد العزيز للعلى صـ١٤١.

سيرته ومذهبه، فأسلم جيشه والملوك، وتسموا بأسماء العرب، وكان عمرو بن مسلم الباهلى عامل عمر على ذلك الثغر(١).

إن إيقاف عمر بن عبد العزيز التوسع القائم على استخدام المُقاتلة فى الأطراف النائية للدولة، وعمله على إحلال الحوار السلمى فى إخماد الحركات المسلحة للمعارضة، لا يعنى أنه أراد إلغاء المؤسسة العسكرية التى تمتد جذورها إلى زمن الرسول ﷺ، وكان لها الدور الأكبر فى حماية الدولة وتوسيعها وتثبيت الأمن والاستقرار فيها، والواقع أن التنظيمات المتصلة بالمُقاتِلة كانت تمسُّ صميم الحياة المدنية، ولا غنى لأى دولة عن مؤسسة الجيش فى حفظ حدودها والمخاطر التى قد تتعرض لها، لذلك كان لابد من إبقاء الجند والمؤسسات المتصلة به، فظلت الأمصار، وهى مراكز إقامة المقاتلة العرب، قائمة دون أن يلغيها، أو يبدلها، أو يدخل تعديلات فى تنظيماتها السكانية والإدارية، وقضت الأحوال أن يتابع -خلال مدة خلافته القصيرة- استمرار الحركات العسكرية المحدودة النطاق فى عدد من الجبهات. ففى أذربيجان أغار الترك على المسلمين، فقتلوا من المسلمين جماعة ونالوا منهم، فَوَجَّه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلى، فقتل أولئك الترك، فلم يفلت منهم إلا اليسير، فقدم منهم على عمر بخناصرة خمسون أسيراً(٢). وفى سنة ١٠٠هـ أغارت الروم فى البحر على ساحل اللاذقية، فهدموا مدينتها وسَبَوْا أهلها، فأمر ببنائها وتحصينها(٣). وفى ١٠١ هـ أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطى، وعمرو بن قيس الكندى من أهل حمص، الصائفة(٤). وأمر بترحيل أهل طرندة(٥) وهم كارهون، وذلك لإشفاقه عليهم من العدو(٦). وأراد أن يهدم المصيصة لتعرضها لغارات الروم، ثم أمسك عن ذلك وبنى لأهلها مسجداً جامعًا من ناحية كفربيا واتخذ فيه صهريجًا وكان اسمه عليه مكتوبًا(٧). وجعلها مركزًا متقدمًا لدرء الخطر عن انطاكية من غزوات الروم المتكررة(٨). ورغم أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان قد حد من النشاط العسكرى مع الروم، وسحب الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية وبعض الحصون المتقدمة فى بلد الروم، إلا أنه كان حازمًا شديداً فى أخذ الحق والدفاع عنه، وهذا ما تشير إليه رواية ابن عبد الحكم، حيث يذكر أنه عندما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى ملك الروم، وقص عليه قصة رجل أسير فى بلد الروم ـ وقد مرت معنا ـ محاولة إجباره على

(١) فتوح البلدان صـ٤٢ .
(٢) تاريخ خليفة صـ٣٢٦، عمر بن عبد العزيز للعلى صـ١٤٢ .
(٣) فتوح البلدان صـ٢٠ .
(٤) تاريخ الطبرى نقلا عن عمر بن عبد العزيز للعلى صـ١٤٢ .
(٥) طرندة: من الأماكن القريبة من الدولة الرومانية.
(٦) فتوح البلدان صـ٢٢٠ .
(٧) المصدر نفسه صـ١٦٣ .
(٨) العلاقات العربية البيزنطية صـ١١٩.

ترك الإسلام واعتناق النصرانية، قائلين له: إن لم تفعل سملت عينك، فاختار دينه على بصره، فسملت عيناه، فأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ملك الروم وقال له: أقسم بالله، لأن لم ترسله إليَّ لأبعثن إليك من الجنود جنودًا يكون أولهم عندك وآخرهم عندي[1]، فاستجاب ملك الروم لطلبه، وبعث بالرجل إليه[2]. وكانت سياسة عمر بن عبد العزيز المرحلية تقوم على ضبط الثغور وحدود الدولة الإسلامية والاهتمام بفتح العقول، وإحياء القلوب وتطهير النفوس للشعوب الجديدة التى دخلت فى الإسلام، ولذلك بدأ يرسل سرايا الدعاة والعلماء للبدو القاطنين داخل الدولة الإسلامية وللشعوب التى كانت فى أشد حاجة لتعاليم الإسلام.

ثامنًا: الاهتمام بالدعوة الشاملة:

ركز عمر جهوده على البناء الداخلى للدولة لترسيخ وحدتها وأمنها ونشر العلم وتوصيله لكل أفراد الأمة ما أمكن لذلك سبيلاً، كما اهتم بنشر العدل بين الرعية وإزاحة الضغائن والأحقاد من بين المسلمين، وقد استهدف عمر بن العزيز قلوب الناس وعقولهم ونفوسهم بتعاليم الإسلام ووضع مشروعًا كبيرًا لتحقيق ذلك الهدف العظيم، ولم يكن عمر بالإنسان الذى تستهويه المشاريع الكبرى، فيقف عند حدود الخيال لا يتعداه، بل حوّل مشروعه إلى برنامج عملى قابل للتطبيق، بعد ما مهد الظروف، وأحاط برامجه بالضمانات العملية وهيأ له الأسباب مما جعله يحيله إلى واقع مشهود.

وقد ساعده على نجاح مشروعه الدعوى التربوى العلمى أمور منها:

١- وضع قانون التفرغ للدعاة: حيث ألزم الدولة بكفالة عدد من العلماء والدعاة والمفكرين، كى تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية التى يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة، فأجرى الأرزاق على العلماء ورتب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب[3]، فقارئ القرآن الذى حفظه وقام يقرئه للناس ويعلمهم أحكامه، والمحدث الذى يعقد مجالس الإملاء وينشر الحديث النبوى، والفقيه الذى ينظر فى الكتب ويستنبط منها ويعلم الناس أمور دينهم ليعبدوا الله على بصيرة، والطالب الذى يتفرغ للعلم أو البحث والدرس، كل أولئك قد يشغلهم أمر ذويهم وأبنائهم وسدّ حاجتهم وتدبير أمور معاشهم، فقام عمر بقطع هذا الهاجس عنهم، وكفل لهم ولمن

(١)، (٢) العلاقات العربية البيزنطية صـ١٣١ .

(٣) ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز صـ١٨٤ .

يعولون ما يعيشون به حياة كريمة، تتكفل به الدولة، ويؤخذ من بيت المال، ونعمّا فعل رضى الله عنه، فبذلك شجع كل من وجد فى نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين والأمة(١). وكان يمنح من بيت المال مبلغًا قدره مائة دينار لكل من انقطع إلى مسجد جامع فى أى بلد إسلامى، لغرض التفقه ونشر العلم، وتدريس القرآن وتلاوته(٢)، وعن أبى بكر ابن أبى مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والى حمص: مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يُغنيهم لئلا يشغلهم شىء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث(٣). وعن أبى مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والى حمص: انظروا إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه، وحبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة دينار، يستعينون بها على ما هم عليه، من بيت مال المسلمين، حين يأتيك كتابى هذا، وإن خير الخير أعجله. والسلام عليك(٤). وفرض الرزق لمن يحدث الناس بمغازى رسول الله ﷺ ومناقب أصحابه، وللقصّاص والواعظين كذلك، وذكر ابن شبة أن عمر بن عبد العزيز أمر رجلاً ـ وهو بالمدينة ـ أن يقص على الناس، وجعل له دينارين كل شهر، فلما قدم هشام بن عبد الملك جعل له ستة دنانير كل سنة(٥). ومما جاء فى كتبه بشأن إجراء الرزق على طلبة العلم لينقطعوا عن الشواغل، ما ذكره ابن عبد البر عن يحيى بن أبى كثير قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن أجْرُوا على طلبة العلم الرزق، وفرّغوهم للطلب(٦).

٢ـ حض العلماء على نشر العلم وإعلانه، واتخاذ المساجد مراكز لتعليم الناس أمور دينهم، وإقراء طلبة العلم وإسماعهم، وإملاء الحديث النبوى، وإحياء السنة(٧). قال عكرمة بن عمار ـ وهو من أهل اليمن ـ: سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز يقول: أما بعد، فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم فى مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت(٨)، وأسند ابن عبد البر عن جعفر بن برقان الرّقى ـ نسبة إلى الرقة شمال شرقى سورية ـ قال: كتب إلينا عمر بن

(١) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٧٢

(٢) ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر صـ١٨٤ .

(٣) أصول الحديث صـ ١٧٨، عمر بن عبد العزيز عبد الستار صـ٧٢ .

(٤) البداية والنهاية، نقلا عن عمر بن عبد العزيز عبد الستار صـ٧٢ .

(٥) أخبار المدينة نقلاً عن عمر بن عبد العزيز عبد الستار صـ٧٣ .

(٦) جامع بيان العلم (١/ ٢٢٨)، عمر بن عبد العزيز عبد الستار صـ٧٣ .

(٧) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٧٣.

(٨) أصول الحديث صـ ١٧٨، عمر بن عبد العزيز صـ٧٣ .

عبد العزيز: أما بعد فَمُرْ أهل الفقه والعلم من عندك، فلينشروا ما علمهم الله في مجالسهم، ومساجدهم[١].

٣- توجيه الأمة إلى أهمية العلم: وفي ذلك يقول: إن استطعت فكن عالمًا، فإن لم تستطع فكن متعلمًا، فإن لم تستطع فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم. ثم قال: لقد جعل الله له مخرجًا إن قبل[٢].

٤ - إرسال العلماء الربانيين في شمال إفريقية:

كان عمر بن عبد العزيز يرسل العلماء إلى الأمصار بل البوادي ليعلّموا أهلها شرع الله، ويفقهوهم فيه، فقد بعث يزيد بن أبي مالك والحارث بن محمد إلى البادية ليعلما الناس السنة، وأجرى عليهم الرزق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال: ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجرًا. فذكر ذلك لعمر فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأسًا، وأكثر الله فينا مثل الحارث[٣]. وقد عبر عمر بهذا الجواب عما يجب أن يتحلى به الحاكم المسلم من مرونة فكرية، وعدم جمود على الأشكال، حيث أعلن أن أخذ الأموال لقاء الخدمات العلمية أمر لا بأس به، وسأل الله - من جهة أخرى - أن يكثر أولئك الذين يقومون بهذه الخدمات دون أجر إلا أجر الله[٤]. وقد بعث عمر إلى مصر الإمام المفتي الثبت، عالم المدينة (نافعًا) مولى ابن عمر، وراويته، فعن عبد الله بن عمر: بعث عمر بن عبد العزيز نافعًا مولى ابن عمر إلى أهل مصر يعلمهم السنن[٥]، وأرسل عشرة من فقهاء المدرسة المصرية من رجال التابعين إلى إفريقية، ليفقهوا أهلها ويعلموهم، وينشروا بينهم حديث رسول الله ﷺ، لينالهم من الخير مثل الذي عمّ إخوانهم من أهل الحجاز والشام والعراق، وكانت معاقل العلم[٦]، وتطلع إلى شمال أفريقية، ليغزو القلوب والعقول والنفوس بدين الله، فأرسل العلماء الربانيين العشرة بعد أن وضع أهدافًا لخطته التعليمية في ذلك الإقليم منها:

أ- اختيار علماء ربانيين اشتهروا بالعلم والفقه والدعوة والتجرد للإشراف على التربية والتعليم.

(١) جامع بيان العلم (١٤٩/١).
(٢) ابن عبد الحكم نقلاً عن عمر للزحيلي صـ٧٤.
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٦٠، ملامح الانقلاب صـ١٨٤.
(٤) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر صـ١٨٤
(٥) سير أعلام النبلاء (٩٧٩/٥)، تذكرة الحفاظ (١٠٠/١).
(٦) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ ٦٩.

ب ـ وضع خطة بعيدة المدى لنشر تعليم اللغة العربية، ومحو الأمية فى أوساط القبائل البربرية، حتى يسهل عليها بعد ذلك فهم القرآن والسنة والتعامل معهما.

ج ـ الاهتمام بربط الناس بالقرآن المجيد الذى هو حبل الله المتين، ويكون ذلك بفتح الكتاتيب، وجمعيات تحفيظ القرآن وتجويده.

د ـ البلاغ الواضح البين لعقائد أهل السنة.

هـ ـ تعليم الناس الحلال والحرام[(١)].

ولقد بدأت بركات عهد عمر بن عبد العزيز على الشمال الإفريقى بتعيين أمير صالح عليه، وبإرسال الفقهاء والعلماء الربانيين، وإليك ترجمة الأمير والفقهاء:

ـ **إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر**: ولاه عمر بن عبد العزيز على إفريقية فى المحرم سنة ٩٩ ـ ١٠٠هـ فكان خير أمير، قال ابن خلدون: وأسلم جميع البربر فى أيامه، وأرسل معه عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم؛ يفقهون الناس فى أمور الدين، ويبينون لهم الحلال والحرام[(٢)]. وكان هذا الأمير فى غاية الزهد والتواضع حريصًا على نشر العلم، وسار فى أهل البلاد بسيرة العدل، وكان شديد الحفظ لحديث رسول الله ﷺ فقد روى عنه ابن عساكر أنه قال: ينبغى لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما نحفظ القرآن، وأخرج له البخارى، ومسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجة، وأحمد، وغيرهم. ومكث فى القيروان معلمًا للناس، ناشرًا للسنة، لمدة ثلاث وثلاثين سنة حيث توفى بها سنة ١٣١هـ[(٣)]، وقد جمعت شخصية إسماعيل -رحمه الله- الكفاءة، والعلم والورع، فأنتجت هذه الثمار التى أسهمت فى ترسيخ الإسلام فى شمال إفريقية وينبغى لنا أن نهتم بتحقيق هذه الصفات وغيرها فى نفوس القادة والولاة.

ـ **بكر بن سوادة الجذامى، أبو ثمامة (ت١٢٨ هـ بإفريقية)**: أقام فى الشمال الإفريقى أكثر من ثلاثين سنة محدثًا ومفتيًا، وفقيهًا، وقد انتفع به أهلها، ورووا عنه، أدخل على القيروان حديث عدد من الصحابة، منهم: عقبة بن عامر، وسهل بن سعد الساعدى، وسفيان بن وهب الخولانى، كما روى عن جماعة من التابعين منهم: سعيد بن المسيب وابن شهاب الزهرى، وقد قارب شيوخه الأربعين، وروى عنه كثير من أهل القيروان منهم عبد الرحمن

---

(١) الشرف والتسامى بحركة الفتح الإسلامى للصَّلاَّبى صـ ٣٠٦، ٣٠٧ .

(٢) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا صـ ١٤٨ .

(٣) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/ ١٤ إلى ٢٢).

ابن زياد، وأبو زرعة الإفريقى، وكان ثقة فى حديثه، أخرج له مسلم والأربعة، والبخارى تعليقًا، وأحمد، والطبرانى، وغيرهم، وعداده فى المصريين رغم طول مكثه بالقيروان ووفاته بها(١).

- **جُعثُلُ بن عاهان الرُّعينى القتبانى، أبو سعيد(ت حوالى ١١٥ هـ)** عده أبو العرب وابن حجر وغيرهما فى التابعين، ولم يذكروا عمن روى من الصحابة، وكان محدثًا، فقيهًا مقرئًا، تولى قضاء الجند بالقيروان، وبث فيها علمًا كثيرًا لمدة زادت عن خمسة عشر عامًا، وروى عنه من أهل القيروان عبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد، وبكر بن سوادة وهو زميله فى البعثة العلمية، وثقه أكثر النقاد، وأخرج له الأربعة وأحمد وغيرهم: توفى فى خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١١٥ هـ(٢).

- **حبان بن جبلة القرشى:** مولاهم، ودفع الوهم بأن عمر رضى الله عنه أرسله لتفقيه أهل مصر، ت ١٢٥ هـ، وقيل: ١٢٢ هـ بالقيروان، أدخل فى الشمال الإفريقى حديث جملة من الصحابة منهم: ابن عباس وابن عمر، وعبد الله بن عمرو، ووالده عمرو، وبقى يبث العلم فى عاصمة الشمال الإفريقى فى مدينة القيروان أكثر من خمس وعشرين سنة، انتفع به أهلها، وروى عنه كثير منهم، كعبد الرحمن بن زياد، وعبيد الله بن زحر، وموسى بن على بن رباح وغيرهم، وهو عند النقاد ثقة فى حديثه، أخرج له البخارى فى الأدب المفرد وابن سنجر فى مسنده والحاكم فى المستدرك وغيرهم(٣).

- **سعد بن مسعود التجيبى، أبو مسعود(تُوفى بالقيروان):** يروى عن جماعة من الصحابة، منهم: أبو الدرداء، ويروى عن النبىﷺ مرسلاً حتى وهم بعضهم فعده فى الصحابة، ولذلك نبهت معظم المصادر على أنه لا صحبة له، وقد سكن القيروان وبث فى الشمال الإفريقى علمًا كثيرًا، وكانت مجالسه مليئة بالحكم والمواعظ البليغة، وكان شديدًا على الأمراء، روى عنه من أهل القيروان: مسلم بن يسار الإفريقى، وعبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد، فى جامع ابن وهب وغيره، وذكر الدباغ أنه توفى بالقيروان بعد أن بث فيها علمًا كثيرًا، ولم يذكر تاريخ وفاته(٤).

- **طلق ابن جعبان الفارسى، وقيل:** جابان، والصواب الأول كما فى الإكمال، تابعى، لقى عمر وسأله، وأكثر روايته عن التابعين، كان فقيهًا عالمًا، وروى عنه من أهل القيروان: موسى بن على، وابن أنعم، ولم يذكروا مدة إقامته بها ولا تاريخ وفاته(٥).

(١)، (٢)، (٣)، (٤) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/ ١٤ إلى ٢٢) .

(٥) عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج صـ٤٥ .

ـ **عبد الرحمن بن رافع التنوخي، أبو الجهم (توفى بالقيروان سنة ١١٣ هـ)**: دخل القيروان فى وقت مبكر، سنة ٨٠هـ، وهو أجَلّ قضاتها، وذلك على عهد حسان بن النعمان، واستمر يبث فيها العلم ما يقارب ثلاثًا وثلاثين سنة، حتى انتفع به خلق كثير من أهلها، وقد أدخل إلى القيروان حديث جماعة من الصحابة عرفنا منهم: عبد الله بن عمرو بن العاص، وحدث عنه من القرويين: عبد الرحمن بن زياد الإفريقى، وعبد الله بن زحر الكنانى، وبكر بن سواد الجذامى وغيرهم... وهو أول من ولى قضاء القيروان وتوفى بها سنة ١١٣هـ[١].

ـ **عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني**: كان مقيمًا فى القيروان قبل زمن بعثة عمر بن عبد العزيز بمدة طويلة، معروفًا لدى أهلها مشهورًا بينهم بالعدالة والتقى، وقد ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء القيروان سنة ٩٩هـ، لما علمه من فضله ودينه وعلمه، فاستمر فى منصبه إلى أن استقال منه سنة ١٢٣هـ، وكان زاهدًا ورعًا عالمًا، سار فى أهل القيروان بالكتاب والسنة ونشر العلم بينهم لمدة طويلة، زادت عن خمس وعشرين سنة، ذكره ابن حبان فى الثقات، وأثنى عليه المصنفون بالفضل والعلم والدين[٢].

ـ **عبد الله بن يزيد المعافرى الحبلى، أبو عبد الرحمن (توفى بالقيروان ١٠٠هـ)**: دخل القيروان فى زمن مبكر، ولعل ذلك كان مع موسى بن نصير سنة ٨٦هـ؛ لأنه شهد فتح الأندلس، ثم عاد إلى القيروان وسكنها، وبنى بها دارًا ومسجدًا، ثم عين ضمن أفراد البعثة العلمية إلا أن وفاته كانت سنة ١٠٠هـ، أى بعد سنة واحدة من التكليف الرسمى، ومع ذلك فقد قال عنه المالكى: فانتفع به أهل إفريقية وبث فيها علمًا كثيرًا، وأدخل القيروان حديث جماعة من الصحابة ممن لم يدخلها، وزاد فى إفشاء حديث من دخلها منهم، حدث عن ابن عمر وعقبة بن عامر، وابن عمرو، وأبو ذر، وروى عنه من أهلها عبد الرحمن بن زياد، وأبو كريب جميل بن كريب القاضى (ت ١٣٩هـ) وغيرهما، كان رجلاً صالحًا ورعًا شديد الإقبال على نشر السنة، وكان تأثيره فى الحياة العلمية ـ خاصة الجانب الحديثى منها ـ بالقيروان كبيرًا، وقد بنى فيها مسجدًا لمجالسه العلمية، أجمع النقاد على توثيقه، وحديثه عند مسلم، والأربعة، وابن وهب فى جامعه وأحمد وغيرهم[٣].

ـ **وهب بن حى المعافرى**: وقد ذكر ابن أبى حاتم أن هناك من قلبه إلى: حى بن موهب، وأن أبا زرعة قد صحح ذلك، غزا إفريقية قديمًا، لأنه سأل ابن عباس المتوفى سنة ٦٨هـ عن آنية أهل المغرب كما فى الرياض والمعالم، وهو من أفراد بعثة عمر، وقد سكن

(١) عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج صـ ٤٥.

(٢)، (٣) المصدر نفسه صـ ٤٦.

القيروان، وبث فيها علمًا كثيرًا، وبها كانت وفاته، وقد أدخل إلى القيروان حديث ابن عباس وغيره، وروى عن النبي ﷺ مرسلاً، وروى عنه من أهل القيروان عبد الرحمن بن زياد الإفريقي ولم تظهر المصادر حاله من حيث التعديل والجرح(١).

هؤلاء الفقهاء العشرة من خيرة فقهاء التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى الشمال الإفريقي ليفقهوا ويعلموا الناس دينهم، فكانوا عند حسن ظنه بهم، وكانوا للناس قدوة صالحة، وقد سبق هؤلاء العشرة كثير من التابعين الذين قاموا بتعليم أهل البلاد أحكام الدين علمًا وعملاً(٢). وكان لهؤلاء العشرة آثار هامة في القرآن الكريم وتفسيره والحديث وفي نشر السنة العملية والاعتقادية الصحيحة، وساعدوا ولاة أمور المسلمين على مقاومة النحل الخارجية وتركيز أحكام الإسلام بين البربر، فقد روى المالكي أنه لما ثارت الخوارج على حنظلة ابن صفوان بطنجة سنة ١٢٢هـ جمع حنظلة علماء إفريقية وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقهوا أهلها، فكتبوا هذه الرسالة ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها: . . . فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسنه نبيه ﷺ يعلمون أنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات: آمرة، وزاجرة، ومبشرة، ومنذرة، ومخبرة، ومحكمة، ومتشابهة، وحلال، وحرام، وأمثال، فآمرة بالمعروف وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة، ومنذرة بالنار، ومخبرة بخبر الأولين، والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أمر أن يؤتى، وحرام أمر أن يجتنب، وأمثال واعظة فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة وأنذرته المنذرة، ومن يحل الحلال ويحرم الحرام، ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله، مع طاعة واضحة ونية صالحة فقد فاز وأفلح وأنجح وحيا حياة الدنيا والآخرة. والسلام(٣). إن هذه الرسالة تعتبر وثيقة عظيمة الأهمية إذ تدل على أصالة علم هذه البعثة العلمية، ووضوح أهدافهم الشرعية أمامها، حتى أنهم أوجزوا فحوى الرسالة ونظرًا لعظيم فائدتها عممت على أن تقرأ على منابر المساجد في جميع ضواحي إفريقية(٤).

٥ ـ رسائله الدعوية إلى الملوك في الهند وغيرها:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وقد كانت سيرته بلغتهم، فأسلم جيشبة بن

(١) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/ ١٤ – ٢٢).
(٢) عصر الدولتين الأموية والعباسية صـ٤٧.
(٣) رياض النفوس للمالكي (١/ ١٠٢، ١٠٣).
(٤) عصر الدولتين الأموية والعباسية صـ ٤٨.

داهر[1]، والملوك تسموا له بأسماء العرب... وبقى ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر ويزيد بن عبد الملك[2]. وقد أرسل عليهم عمر من يعلمهم دينهم[3]، كما أرسل عمر برسائل إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم فيها إلى الإسلام فأسلم بعضهم[4]، وأما أليون قيصر الروم فقد بعث إليه عمر وفدًا برئاسة عبد الأعلى بن أبى عمرة لدعوته إلى الإسلام[5].

٦ ـ تشجيع غير المسلمين على الدخول في الإسلام:

قام عمر بتشجيع غير المسلمين على الدخول فى الإسلام عن طريق إعطائهم الأموال لتألفة قلوبهم، وذلك اتباعًا لسنة رسول الله ﷺ، فيذكر ابن سعد عن عيسى، بن أبى عطاء -رجل من أهل الشام كان على ديوان أهل المدينة- عن عمر بن عبد العزيز أنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام[6]. كذلك ذكر عن عمر بن عبد العزيز أنه أعطى بطريقًا ألف دينار استألفه على الإسلام[7].

٧ ـ تصحيح الوضع الخاص لأهل الذمة:

لقد كان لإنصافه لأهل الذمة الذين أسلموا بوضع الجزية عنهم أثر واضح فى زيادة إقبال الذميين على الدخول فى الإسلام، برغم كل ما ترتب على ذلك بالنسبة لبيت المال مثل ما فعل مع واليه على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى حيث أرسل إليه يقول: انظر من صلى قبلك إلى القبلة، فضع عنه الجزية[8]، ثم أرسل بدعوة أهل الذمة إلى الدخول فى الإسلام، فأرسل إلى عامله الجراح بن عبد الله الحكمى يأمره بدعوة أهل الجزية إلى الدخول فى الإسلام فإن أسلموا قَبِلَ إسلامهم، وأن يضع الجزية عنهم، ثم كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين[9]. وقد ترتب على هذه الدعوة دخول عشرات الألوف من الناس فى الإسلام طائعين، ففى خراسان أسلم نحو من أربعة آلاف ذمى على يد واليه

(١) فتوح البلدان صـ ٤٢٨، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ١٧٣ .
(٢) الكامل فى التاريخ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ١٧٣ .
(٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ١٧٣ . (٤) فتوح البلدان صـ٤١٥ .
(٥) البداية والنهاية نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ١٧٣ .
(٦) الطبقات (٥/ ٣٥٠، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ ١٧٤.
(٧) الطبقات (٥/ ٣٥٠) .
(٨) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ١٧٤.
(٩) الطبقات (٥/ ٣٨٦)

الجراح بن عبد الله[1]، أما فى المغرب فقد أسلم عامة البربر على يد والى عمر على المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر[2]. وكان ذلك دليلاً على بعد نظر عمر فى الاهتمام بالدعوة إلى الإسلام عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة، إذ كانت نتائجها لا تقل عن نتائج غيرها إيجابية، بل تتعدى ذلك إلى أنه اكتسب مسلمين جدداً دون أن يتكلف شهيداً، أو نفقة لإعداد جيوش، وهم رعاياه، ويعيشون بين أظهر المسلمين، وبالتالى أولى من غيرهم بالدعوة إلى الإسلام. وبهذا يكون الإسلام قد انتشر فى عهد عمر بن عبد العزيز بالحكمة والموعظة الحسنة، والاستمرار فى أسلوب الجهاد الدعوى على أيدى علماء ربانيين تخرجوا فى المدارس العلمية التى نضجت فى عهد الدولة، الأموية وهؤلاء العلماء الدعاة هم الذين نفذوا مشروع عمر بن عبد العزيز الدعوى العلمى.

****

(١) الطبقات (٥/ ٣٨٦) .

(٢) فتوح البلدان صـ٢٣٢، ٢٣٣ للبلاذرى، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ١٧٤ .

المبحث السادس

الإصلاحات المالية فى عهد عمر بن عبد العزيز

لم تكن سياسة عمر المالية ارتجالية، فهو مسئول عن دولة وكان يحسب حسابًا لكل خطوة يخطوها، ويضع الضمانات لكل عمل يعتزم تنفيذه(١). ولقد سار فى سياسته على أمور منها:

- **العزم على الاعتصام بالكتاب والسنة**، والتضحية فى سبيل ذلك، وهذا ما يبدو واضحًا من كتبه للعمال وخطبه إلى رعيته، ومثال ذلك قوله: سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فى أمر خالفها(٢).

- **ترسيخ قيم الحق والعدل ودفع الظلم**: وهذا هو أساس سياسة عمر، فجميع الأهداف والوسائل التى اتبعها كانت تنسجم مع هذا الأساس، وإحقاق الحق ودفع الظلم هو أصل من أصول الشريعة، ومقصد رئيسى من مقاصدها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. يقول ابن القيم: فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد، وهى عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة(٣). ولقد كان عمر يرجع للحق إذا تبين له الخطأ، ويقول فى ذلك: ما من طينة أهون علىّ فتاً ولا كتاب أيسر علىّ رداً من كتاب قضيت به، ثم أبصرت أن الحق فى غيره ففتته(٤).

أولاً: أهداف السياسة الاقتصادية عند عمر:

١ ـ إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل:

لقد سعى عمر بن عبد العزيز لإعادة توزيع الدخل والثروة بالشكل العادل، الذى يرضى الله تعالى ويحقق قيم الحق والعدل والظلم، التى وضعها عمر نصب عينيه، فقد كان

(١) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز صـ٢٧ .
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٣٨.
(٣) أعلام الموقعين (٣/٣) .
(٤) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى صـ١١٣.

يراقب الانحرافات السابقة قبل خلافته ويلاحظ آثارها السلبية على نفوس الرعية، ولقد انتقد سياسة سليمان بن عبد الملك التوزيعية فقال له: لقد رأيتك زدت أهل الغنى وتركت أهل الفقر بفقرهم(١). فقد أدرك عمر بن عبد العزيز أن التفاوت الاجتماعي هو نتيجة لسوء توزيع الثروة، فرسم سياسته الجديدة لإنصاف الفقراء والمظلومين، ولقد استخدم عمر للوصول إلى هذا الهدف بعض الوسائل العملية منها:

- منع الأمراء والكبراء من الاستئثار بثروة الأمة، ومصادرة الأملاك المغصوبة ظلمًا، والتي استولى عليها الأمراء والكبراء، وإعادة هذه الأموال إلى أصحابها إذا عُرفوا، أو إلى بيت المال، إذا لم يعرف أصحابها، أو كانت من الأموال العامة.

- زيادة الإنفاق على الفئات الفقيرة والمحرومة ورعايتها وتأمين مستوى الكفاية لها عن طريق الزكاة وموارد بيت المال الأخرى(٢). وقد قام بتنفيذ هذه السياسة، كما مرّ معنا في سياسته في رد المظالم. ولقد كانت سياسة عمر التوزيعية تهدف إلى إيصال الناس إلى حد الكفاية، يلاحظ ذلك من خطبه، فقد خطب الناس يومًا فقال: وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوى نحن وهم وأكون أنا أولهم(٣). وفي خطبة أخرى: .. ما أحد منكم تبلغني حاجته إلا حرصت أن أسدّ من حاجته ما قدرت عليه، وما أحد لا يسعه ما عندي إلا وددت أنه بُدِئ بي وبلحمتي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم(٤). وقد طبق عمر هذا التطور علميًا عندما أمر بقضاء دين الغارمين فكتب إليه عامله: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس والأثاث في بيته، فأجاب عمر: لا بدّ للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، فهو غارم فاقضوا عنه(٥)، فسياسة عمر التوزيعية تهدف إلى كفاية الناس من حيث المسكن والمركب والأثاث، وهي عبارة عن حاجات أساسية، وضرورية للإنسان تصعب الحياة بدونها(٦).

٢ ـ تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاه الاجتماعي:

سعى عمر بن عبد العزيز عن طريق العديد من الوسائل لتحقيق هذا الهدف، فقد أوجد المناخ المناسب للتنمية عن طريق حفظ الأمن والقضاء على الفتن، ورد الحقوق لأصحابها،

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٣٥ .

(٢) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز صـ٣٥ .

(٣) الإدارة الإسلامية في عز العرب، محمد كرد علي صـ١٠٣ .

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٤٢ .

(٥) المصدر نفسه صـ١٧١ .

(٦) السياسية المالية والاقتصادية لعمر صـ ٣٨.

وبذلك باتت الرعية مطمئنة على حقوقهـا، آمنة في أوطانها كذلك أمر بناء المرافق العامة، والتي تسمى اليوم بمشاريع البنية التحتية، ولا تقوم التنمية إلا بهذه المرافق الضرورية من أنهار وترع ومواصلات وطرق، وقد أكد عمر على مبدأ الحرية الاقتصادية المقيدة بضوابط الشريعة، فانتشر الناس في تجارتهم وتثمير أموالهم، واهتم كذلك اهتمامًا بالغًا بالزراعة، حيث كان القطاع الزراعي من أكبر القطاعات على المستوى الفردي، وله مردود كبير على ميزانية الدولة، وقد جنى عمر والأمة كلها ثمرات هذه السياسة، فقد عمّ الرخاء البلاد والعباد[1]، قال رجل من ولد زيد بن الخطاب: إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفًا وذلك ثلاثون شهراً فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيهم فما يجده، فيرجع بماله، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس[2].

ثانيًا: وسائل عمر بن عبد العزيز لتحقيق الأهداف الاقتصادية لدولته:

سعى عمر بن عبد العزيز لتحقيق أهدافه الاقتصادية بوسائل منها:

١- توفير المناخ المناسب للتنمية: وقد عمل عمر على توفير المناخ المناسب للتنمية، فقام بالآتي:

أ- رد الحقوق لأصحابها: فتوافرت أجواء الأمن والطمأنينة، وترسخت قيم الحق والعدالة وردّ الحقوق المغتصبة إلى أبناء الأمة وسمّاها مظالم[3]، وقد تحدثت عن سياسته في رد المظالم والحقوق إلى أهلها، وذكرت الكثير من المواقف في هذا الشأن.

ب- فتح الحرية الاقتصادية بقيود: فقد أكد عمر على مفهوم الحرية الاقتصادية المقيدة، وكتب إلى العمال: . . وإن من طاعة الله التي أنزل في كتابه أن يدعى الناس إلى الإسلام كافة، وأن يبتغي الناس بأموالهم في البر والبحر ولا يمنعون، ولا يحبسون[4]. وقدم في موضوع آخر: . . . أطلق الجسور المعابر للسابلة يسيرون عليها دون جُعْل[5]، لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به[6]. ولم يتدخل عمر بن عبد العزيز في الأسعار، فعن عبد الرحمن بن شوبان قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين ما بال الأسعار غالية

(١) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر صـ٤١ . (٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ ١٢٨ .

(٣) السياسة الاقتصادية والمالية صـ٤٣ .

(٤) سيرة عمر لابن الحكم صـ٩٤، السياسة الاقتصادية والمالية لعمر صـ٤٧ .

(٥) الجعل: هو ما يجعل للشخص على عمله . (٦) الإدارة الإسلامية، محمد كرد صـ١٠٥ .

فى زمانك وكانت فى زمان من قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلى كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم، فلم يكونوا يجدون بُدًا من أن يبيعوا ويكسروا ما فى أيديهم، وأنا لا أكلف أحدًا إلا طاقته، فباع الرجل كيف شاء، قال: فقلت: لو أنك سعَّرت، قال: ليس إلينا من ذلك شىء إنما السعر إلى الله[1]. وتشدد عمر فى أمر السلع المحرمة ومنع التعامل بها، فالخمر من الخبائث التى لا يجوز التعامل فيها بين المسلمين لحرمتها ولضررها حيث يؤدى شربها إلى استحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام. ويقول عمر: فإن من نجده يشرب منه شيئًا بعد تقدمنا إليه فيه نوجعه عقوبة فى ماله ونفسه ونجعله نكالاً لغيره[2]. وقد أثمرت سياسة عمر فى رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة، حيث وفرت للناس الحوافز للعمل والانتاج، وأزالت العوائق التى تحول دون ذلك، وهذا أدى إلى نمو التجارة، وبالتالى إلى زيادة حصيلة الدخل الخاضع للزكاة، وهذا يؤدى بدوره إلى زيادة الزكاة مما يؤدى إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة وارتفاع قوتها الشرائية، والتى ستتوجه إلى الاستهلاك، وبالتالى إلى زيادة الطلب على السلعة، والخدمات، وهذا كله يؤدى إلى انتعاش الاقتصاد وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه[3].

٢- اتباع سياسة زراعية جديدة: فقد اتبع خطوات ترمى إلى زيادة الإنتاج الزراعى للأمة وإليك تفصيل هذه الخطوات:

أ- منع بيع الأرض الخراجية: سأل الناس عبد الملك بن مروان والوليد وسليمان أن يأذنوا فى شراء الأرض من أهل الذمة، فأذنوا لهم شريطة أن يضعوا أثمانها فى بيت المال، فلما ولى عمر بن عبد العزيز، ترك هذه الأشرية على حالها، وذلك لما وقع فيها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون ولم يقدر على تخليصه، وكتب كتابًا قرىء على الناس سنة المائة: أن من اشترى شيئًا بعد سنة مائة فإن بيعه مردود وسميت سنة مائة سنة المدة، فتناهى الناس بعدها عن الشراء[4]. ولقد طلب أهل الأرض أن يضع عليهم الصدقة بدل الخراج، فأجاب عمر: إنى لا أعلم شيئًا أثبت لمادة الإسلام من هذه الأرض التى جعلها الله لهم فيئًا. قال أبو عبيدة: فكان مذهب عمر بن عبد العزيز فى الأرض أنه كان يراها فيئًا، ولهذا كان يمنع أهلها من بيعها[5]. وكتب إلى ميمون بن مهران: أما بعد، فحُل بين أهل

(١) السياسة الاقتصادية والمالية لعمرصـ ٤٨ . (٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٠٣ .

(٣) سياسة الإنفاق العام فى الإسلام، عوف الكفراوى صـ٣٧٢.

(٤) الخراج للريس صـ٣٩٠، السياسة المالية والاقتصادية لعمر ص٤٩ .

(٥) الأموال لأبى عبيد صـ١٢١ رقم ٢٥٦.

الأرض وبين بيعها ما فى أيديهم، فإنهم إنما يبيعون فىء المسلمين[١]. كذلك رفض عمر تحويل الأرض التى دخل أهلها فى الإسلام من أرض خراج إلى أرض عشر[٢]، وأبقى الخراج عليهم والعشر وقال: الخراج على الأرض والعشر على الحب[٣]. وبذلك حافظ على المورد الرئيسى للإنتاج وجعله ملكًا عامًا للأمة بدلاً من تحويله إلى ملكيات صغيرة[٤].

ب- العناية بالمزارعين وتخفيف الضرائب عنهم:اعتاد بعض الخلفاء الأمويين قبل عمر بن عبد العزيز على إرهاق المزارعين بالضرائب، فكثرت الضرائب وتنوعت، واشتد الأمر على أهل الأرض فهجروها، فخربت، فأضرّ ذلك بمالية الدولة، ولقد لجأوا إلى أساليب العذاب فى الجباية فاضطر المزارعون إلى بيع دوابهم أو كسوتهم لشديد ما عليهم[٥]، وعندما تولى عمر سعى إلى إلغاء جميع الضرائب المخالفة للشريعة، وكتب بذلك إلى العمال كتابًا منها: فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام الله، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء.. ولا تأخذن فى الخراج إلا وزن سبعة[٦]، ليس لها آيين ولا أجور الضرابين[٧]، ولا هدية النيروز والمهرجان[٨]، ولا ثمن الصحف ولا أجور البيوت[٩]. وقد ألغى القبالة وكانت مألوفة فى البصرة، وألغى أسلوب الخرص[١٠]، حيث كان العمال يقدرون الثمار بسعر عالٍ ويقبضونه نقدًا، وبذلك يرهقون الزراع، فقرر عمر وضع الضريبة حسب الأسعار الفعلية، وكتب لعامله: بلغنى أن عمالك بفارس يخرصون الثمار ثم يقومونها على أهلها بسعر فوق سعر الناس الذين يتبايعون ثم يأخذون ذلك ورقًا على قيمتهم التى قوموها.. وقد بعثت بشر بن صفوان وعبد الله بن عجلان للنظر فى ذلك ورد الثمن الذى أخذ من الناس إلى ما باع أهل الأرض به غلاتهم[١١]. ولقد أمر عمر بالغاء

(١) الأموال لأبى عبيد رقم ٢٥٧ صـ١٢٢ .

(٢) السياسة المالية والاقتصادية لعمر صـ٥٠ .

(٣) الأموال لأبى عبيد رقم ٢٣٥ صـ١١٤ .

(٤) الخراج صـ٢٣٩ للريس، السياسة المالية والاقتصادية صـ٥٠ .

(٥) الضرائب فى السواد صـ٥٧ للدورى .

(٦) الدرهم الذى ضربه عبد الملك وجعل كل عشرة منها وزن سبعة مثاقيل من الذهب.

(٧) الآيين: أصول إدارية ساسانية وهى رسوم المسّاحين أرض الخراج، وأجور الضرابين: هى أجور المختصين بالنقد من الصرافين .

(٨) النيروز والمهرجان: عيدان عند الفرس كانوا يحضرون فيهما الهدايا .

(٩) الصحف: عبارة عن أوراق تعطى براءة بالدفع، وأجور البيوت هى أجور المخازن المحلية التى توضع فيها المواد العينية قبل نقلها للمركز .

(١٠) القبالة من التقبل والتقبيل: أى الشخص المتكفل بتحصيل الخراج مقابل قدر معلوم يأخذه لنفسه: الخرص: الحزر.

(١١) الضرائب فى السواد صـ٦٥.

ضريبة ثابتة على أهل اليمن، كالخراج، مع أن أرضها أرض عشرية، وكتب إلى عامله على اليمن: أما بعد، فإنك كتبت إليّ أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال، أخصبوا أو أجدبوا، أو حيوا أو ماتوا، فسبحان الله رب العالمين ثم سبحان الله رب العالمين.. إذا أتاك كتابى هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق، ثم ائتنف الحق فاعمل به بالغًا بى وبك وإن أحاط بمهج أنفسنا، وإن لم ترفع إليّ من جميع اليمن إلا حفنة من كتم[1]، فقد علم الله إنى بها مسرور إذا كانت موافقة للحق[2]، والسلام.

ويلاحظ من كتب عمر إلى عماله الانحرافات السابقة الظالمة وإنكار عمر لها، وقد كان لها أثر اقتصادى سيئ حيث جعلت أصحاب الأرض يضعفون عن أرضهم ويتركونها فضعف الإنتاج وترتب على ذلك خسارة للبلاد ولبيت المال، وأما عمر بن عبد العزيز فكان مصراً على تطبيق الحق وعدم اهتمامه بالكم بل بالكيف، فهو لا يريد إيرادًا كثيراً ظالمًا[3]، وقد أسهمت إصلاحات عمر فى إلغائه للضرائب الجائرة فى انتعاش اقتصاد الدولة.

ج - الإصلاحات والإعمار وإحياء أرض الموات: شجع عمر على إحياء الأرض الموات وعلى إصلاح الأراضى للزراعة، وكتب بذلك إلى عامله على الكوفة: لا تحمل خرابًا على عامر، ولا عامراً[4] على خراب، انظر إلى الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر، ولا تأخذ من العامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض[5]. وكتب عمر: من غلب الماء على شيء فهو له، وعن حكيم بن زريق قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبى: من أحيا أرضًا ميتة ببنيان أو حرث، ما لم تكن من أموال قوم ابتاعوها من أموالهم، أو أحيوا بعضًا وتركوا بعضًا، فأجز للقوم إحياءهم الذى أحيوا ببنيان أو حرث[6]، وحرص عمر على استغلال أرض الصوافى[7]، ورأى أن ملكيتها لبيت المال، ومنع الإقطاع منها، وأمر بإعطائها مزارعة على النصف، فإن لم تزرع فعلى الثلث، فإن لم تزرع فأمر بإعطائها حتى تبلغ العشر فإن لم يزرعها أحد فأمر بمنحها، فإن لم يزرعها أحد

(١) الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر.

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ ١٢٦، الخراج للريس صـ٢٢٩.

(٣) السياسة الاقتصادية المالية لعمر صـ٥٢.

(٤) المصدر نفسه صـ٥٣، العامر: الأرض المزروعة.

(٥) الأموال لأبى عبيدة رقم ١٢٠ صـ٥٧.

(٦) المصدر نفسه رقم ٧١٧ صـ ٣٦٩، البنيان هو البناء، والحرث هو الزرع.

(٧) الصوافى: ما يستخلصه السلطان لخاصته، وقيل: الأملاك والأراضى التى جلا عنها أهلها وماتوا ولا وارث لها، واحدها صافية.

فأمر بالإنفاق عليها من بيت المال[١]. وقد اهتم عمر بالمزارعين ورفع الضرر عنهم، ويروى فى ذلك أن جيشًا من أهل الشام مر بزرع رجل فأفسده، فأخبر الرجل عمر بذلك، فعوضه عشرة آلاف درهم[٢]، وكان يقدم القروض للمزارعين، فقد جاء فى رسالته لواليه على العراق: أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين[٣].

د- عمر والحمى: منع عمر الحمى الخاص، وأباح هذه الأراضى للمسلمين جميعًا، لا تختص بها طائفة على أخرى، وفى ذلك يقول: ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة، وكانت تحمى وتجعل فيها نعم الصدقات، فيكون فى ذلك قوة ونفع لأهل فرائض الصدقات، وأدخل فيها، وطعن فيها طاعن من الناس، فنرى فى ترك حماها والتنزه عنها خيرًا، إذا كان ذلك من أمرها، وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، وإنما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء[٤]، وعندما أباح الأحماء كلها استثنى النقيع[٥] الذى حماه الرسول عليه الصلاة والسلام لإبل الصدقة[٦]. فبالحمى تصبح الأرض لجماعة المسلمين، ونفعها مصروف لهم، فالحمى نقل الأرض من الإباحة إلى الملكية العامة، لتبقى موقوفة على جماعة المسلمين[٧].

هـ- توفير مشاريع البنية التحتية: سعى عمر بن عبد العزيز لتوفير هذه المشاريع منذ كان أميرًا على المدينة حتى أصبح خليفة للمسلمين، فاهتم بالمشاريع التى تخدم التجار والمزارعين والمسافرين، وعندما كان واليًا على المدينة كتب إليه الوليد بن عبد الملك كتابًا فى تسهيل الثنايا وحفر الآبار فى المدينة، فحفر منها بئر الحفير وكانت طيبة الماء[٨]. كذلك عمل عمر بأمر الوليد فوّارة ماء، وأجرى ماءها، ووسع المسجد النبوى ورفع منارته وجوّف

---

(١) الخراج صـ٩٩، يحيى بن آدم، السياسة المالية والاقتصادية صـ٥٤ .

(٢) سيرة ومناقب عمر صـ١١٧ لابن الجوزى.

(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ ٢٠٢.

(٤) سيرة ومناقب عمر صـ١١٧ لابن الجوزى .

(٥) النقيع: موضع لبلاد مزينة على ليلتين من المدينة، وهو نقيع الخضمات الذى حماه عمر بن الخطاب لنعم الفيء وخيل المجاهدين. انظر: السياسة الاقتصادية والمالية صـ ٥٤.

(٦) فتح البارى (٥/ ٣٤) .

(٧) الاتجاه الجماعى فى التشريع الاقتصادى صـ٢٤٢ .

(٨) الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى نجد والحجاز فى العصر الأموى صـ٥٦ .

محاربيه، وأنشأ الخانات والفنادق ودار الضيافة للحجاج والمسافرين[(١)]. كما استمر حفر خليج أمير المؤمنين بين النيل والبحر الأحمر لتسهيل نقل الطعام من مصر إلى مكة حتى أيام عمر بن عبد العزيز[(٢)]. وكتب إليه عامله على البصرة يعرض طلب أهلها بحفر نهر لهم، فأذن له عمر وحفر النهر، وسمى نهر عدى[(٣)].

ثالثًا: سياسة عمر بن عبد العزيز المالية فى الإيرادات:

إن السياسة المالية بإيراداتها ونفقاتها تعد أداة هامة لتحقيق الأهداف الاقتصادية[(٤)]، لذلك بدأ عمر سياسته المالية بزيادة الإنفاق على عامة الشعب، فأنفق فى رد المظالم حتى أنفد بيت مال العراق، وجلب إليه من الشام[(٥)]، وأنفق على المشاريع الزراعية، ومشاريع البنى الأساسية، كما أنفق على الرعاية الاجتماعية لجميع طبقات الشعب. وفى جانب الإيرادات، سعى إلى إلغاء الضرائب الظالمة، فرفع الجزية عمن أسلم، وألغى الضرائب الإضافية التى كانت تؤخذ من المزارعين، وألغى المكوس والقيود، كما حافظ على حقوق بيت المال المسلوبة، فأعاد إليه القطائع، والمظالم، وأوقف امتيازات الأمراء والموظفين، وبالغ فى الاقتصاد فى الإنفاق الإدارى والحربى[(٦)]، كل ذلك أدى إلى إطلاق الطاقات، فنمت الزراعة والتجارة، وجُنى ذلك بزيادة ونمو الإيرادات، فزادت إيرادات الزكاة والخراج والعشور، وفاضت ميزانية الدولة، فوجّه عمر الفائض لزيادة الإنفاق العام لتحقيق الأهداف الإقتصادية. ونلاحظ فى التاريخ كلما استقام أمر الدولة وسارت على نهج الشريعة الإسلامية الغرّاء فاض ميزانها المالى، ولم يشعر أفرادها بعسف ولا إرهاق، ولم تهمل مصلحة من مصالحها، وكلما أعوج أمر الدولة، وحادت عن سبيل الشريعة، اختل التوازن المالى، فميزانية الدولة مرآة عدلها وجورها ونظامها وفوضاها[(٧)].

هذا وقد تكونت إيرادات بيت المال زمن عمر بن عبد العزيز من الزكاة والجزية والخراج والعشور والخمس والفيء.

١- الزكاة:

اهتم عمر بالزكاة وحرص عليها لأنها حق فرضه الله للفقراء والمساكين والمنقطعين، والمستعبدين، ولا يجوز التهاون فيها، واهتمّ بتوزيعها على مستحقيها[(٨)]، فأمر ولاته

(١) خامس الخلفاء الراشدين للبدرى صـ١٧٠ .

(٢) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز صـ٥٥ . (٣)، (٤) المصدر نفسه صـ٥٧ .

(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٢٩ . (٦) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر صـ٥٨ .

(٧) المصدر نفسه صـ٥٨ . (٨) المصدر نفسه صـ٦٠ .

بالبحث عنهم وإعطائهم حقهم، وفى حالة عدم وجود فقراء أو مساكين أو محتاجين أمر عمر بشراء رقاب المستعبدين وإعتاقهم من مال الزكاة[1]. وعزم عمر على اتباع هدى النبى ﷺ فى الزكاة، وكان الولاة قبله قد تهاونوا فيها، فأخذوها من غير حقها، وصرفوها فى غير مصارفها[2]، ومن مظاهر اتباعه للسنة فيها طلبه لكتاب رسول اللهﷺ فى الصدقات، ولكتاب عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- وأمره بأن تنسخ هذه الكتب فنسخت له، وكانت تشتمل على صدقة الإبل والبقر والغنم، والذهب، والورق، والتمر، والحب، والزبيب، وبيّنت الأنصبة لكل هذه الأصناف[3]. واتبع عمر السنة فى مصارف الزكاة، فاستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠] ثم أمر أن توضع الصدقات كما أمر الله تعالى فى كتابه[4]، كما اتّبع عمر السنة فى جباية الزكاة فعين عمالاً ثقاة مؤتمنين وأمرهم بجبايتها دون ظلم أو تعدٍّ، وأمرهم بكتابة براءة إلى الحول لدافعها[5]. وأمر عمر بأخذ الزكاة من جميع الأموال التى تجب فيها، فأخذت من عطاء العمال ومن المظالم إذا رُدّت لأصحابها، ومن الأعطية إذا أخرجت لأهلها[6]. وأكد عمر على أحقية كل قوم بزكاتهم إذا لم يستغنوا[7]. وعندما أحضر العمال الزكاة إلى عمر أمرهم بردّها وتوزيعها فى البلاد التى جمعت منها[8].

وكانت لهذه الإصلاحات الاقتصادية فى جباية الزكاة أثر على زيادتها ولقد ساهمت سياسته الاقتصادية فى زيادة تحصيل الزكاة، فتوفيره لأجواء الأمن والطمأنينة، واهتمامه بإقامة المشاريع الأساسية للزراعة والتجارة واتّباعه لسياسة الحرية الاقتصادية المقيدة، وإلغاؤه للضرائب الظالمة، أدّت جميعًا إلى ازدهار التجارة والزراعة وإلى زيادة حصيلة الزكاة[9]، ولقد كان عمر من الموسعين لإيتاء الزكاة، برز هذا من خلال فقهه فى زكاة الثروة الزراعية، وزكاة الإبل العامة، وزكاة السمك، وزكاة العسل، وهذا الفقه من شأنه أن يزيد الأموال الخاضعة للزكاة، مما يؤثر على زيادة جبايتها.

وأما زيادة الدعوة زمن عمر، ودخول أهل الذمة فى الإسلام أفواجًا فالراجح أنه رفع من حصيلة الزكاة، لأن هؤلاء المسلمين الجدد فيهم الأغنياء وفيهم الفقراء، وسيدفع الأغنياء

(١) السياسة المالية الاقتصادية صـ ٦٠. (٢) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى صـ١٢٩ .
(٣) الأموال لأبى عبيد صـ٤٤٧ رقم ٩٣٤، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز صـ٦١ .
(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٩٤ . (٥) المصدر نفسه صـ٩٩ .
(٦) الأموال لأبى عبيد رقم ١٢٢٦ صـ٥٢٩ .
(٧) فتح البارى (٣/ ٣٢٢)، السياسة المالية والاقتصادية صـ٦١ .
(٨) الأموال رقم ١٩١٧ صـ٧١٢ . (٩) ملامح الانقلاب صـ١٣٥ .

حقًا مفروضًا عليهم وهو الزكاة، وأما سيرة عمر وتقواه فقد أثرت على دفع الزكاة للدولة مباشرة لزيادة الثقة بين الحاكم والمحكوم، وهذا واضح من تدافع الناس لأداء الزكاة عندما سمعوا بخلافة عمر، وهذا يؤدى إلى زيادة حصيلة أموال الزكاة، وزيادة آثارها الاقتصادية عند إنفاقها فى مصارفها(١). وتؤكد الروايات التاريخية أن الزكاة كانت فائضة عن حاجات الناس فى ذلك الزمن، فكان الرجل يأتى بزكاته، فلا يجد من يأخذها(٢)، ومن أسباب هذا الفائض اندفاع أفراد المجتمع للعمل والإنتاج، فكثر عدد المؤدِّين للزكاة، وانخفاض عدد القابضين لها(٣).

٢ - الجزية:

والجزية فى الاصطلاح: هى الوظيفة (الضريبة) المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام فى كل عام، والأصل فيها الكتاب والسنة والإجماع(٤)، وقد قام عمر بن عبد العزيز باتباع السنة فى إيراد الجزية، فقد أسقطها عمّن أسلم، لأن الجزية فرضت على الكافرين وتسقط بالإسلام(٥)، ومع ذلك فقد استمر بعض خلفاء بنى أمية فى أخذ الجزية ممن أسلم، فأخذها الحجّاج لظنِّه أنهم دخلوا الإسلام هربًا من الجزية، ولقد أدى ذلك إلى زيادة النقمة على الحجّاج وعلى الأمويين(٦)، وعندما تولى عمر الخلافة سارع إلى إلغاء الجزية عن المسلمين(٧)، وتشدّد فى ذلك، وكتب إلى العمال كتابًا جاء فيه: من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا واختتن فلا تأخذوا منه الجزية(٨). ولما سمع أهل الذمة عن عدالة عمر وسيرته سارعوا للدخول فى الإسلام، فشكا عامله ذلك، لأنه أدى إلى نقصان الجزية، فأجابه عمر: أما بعد، فإن الله قد بعث محمدًا داعيًا ولم يبعثه جابيًا(٩). ولأن عمر اعتمد فى سياسته على ترسيخ قيم الحق والعدل، ورفع الظلم عن أهل الذمة، ورفق بمزارعيهم وفرض الجزية عليهم حسب المقدرة المالية للفرد، فجعلها على ثلاث طبقات للغنى وللمتوسط وللفقير، وجعل صاحب الأرض يعطى جزيته من أرضه، والصانع يخرجها من كسبه، والتاجر من تجارته(١٠)، وفرض الجزية حسب طاقة البلاد المالية، فجعلها على أهل الشام أكثر منها على أهل اليمن بسبب غناهم ويسارهم(١١)، ورفع الجزية عن الفقراء الذين

---

(١) ملامح الانقلاب صـ١٣٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣١)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز صـ٦٩ .

(٣) السياسة المالية والاقتصادية لعمر صـ٦٩ .

(٤) المغنى لابن قدامة (١٠/ ٥٥٧).

(٥) السياسة المالية والاقتصادية صـ٧٠ .

(٦) الضرائب فى السواد صـ٥٨ .

(٧) الطبقات (٥/ ٣٤٥)، الخراج للريس صـ٢٣٠ .

(٨) الأموال رقم ١٢٧، صـ٦١ .

(٩) الطبقات (٥/ ٣٨٤) .

(١٠) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٩٩ .

(١١) الأموال لأبى عبيد رقم ١٠٧، صـ٥١ .

لا يستطيعون دفعها، وأجرى عليهم رزقًا من بيت المال، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه[١]، وخفَّضَ عمر الجزية عن أهل نجران حيث أمر بإحصائهم، فتبين له أن عددهم نقص إلى العشر، وجزيتهم بقيت كما هى، فأخذ منهم مائتى حلة بدلاً من ألفين، وأسقط جزية من مات أو أسلم[٢]، وقد كانت للإصلاحات فى جباية الجزية آثار مالية لصالح بيت المال، فإسقاط الجزية عمن أسلم أدّى إلى زيادة الشقة بين الحاكم والمحكوم والشعور بالعدل والإنصاف، وبالتالى أدّى إلى إيقاف القلاقل والفتن التى كلفت الدولة نفقات طائلة، كما إن إسلام كثير من أهل الذمة جعلهم يدفعون الزكاة بدل الجزية، والزكاة مقدارها أكبر، هذا مع استمرار دفع الخراج على الأرض، أما انتشار أجواء الأمن والعدل فقد زاد الإنتاج حيث اندفع الناس للإنتاج والتنمية[٣].

٣- الخراج:

هو ما تأخذه الدولة من ضرائب على الأرض المفتوحة عنوة، أو الأرض التى صالح أهلها عليها[٤]. لقد ارتفع إيراد الخراج فى زمن عمر بن عبد العزيز وبلغ مائة وأربعة وعشرين مليون درهم[٥]. وكانت هذه الزيادة فى إيراد الخراج نتيجة لسياسته الإصلاحية، فقد منع بيع الأرض الخراجية، فحافظ على المصدر الرئيسى للإنتاج، كما اعتنى بالمزارعين، ورفع عنهم الضرائب والمظالم التى كانت تعوق إنتاجهم، واتبع سياسة الإصلاح والإعمار وإحياء الأرض الموات، كما اهتم ببناء مشاريع البنية الأساسية للقطاع الزراعى فبنى الطرق والقنوات[٦]، فمشاريع الطرق سهلت على المزارعين تسويق إنتاجهم، ومشاريع القنوات والآبار سهلت عليهم سقى محاصيلهم بكلفة أقل، كل هذه الإصلاحات الخراجية أثمرت فى النهاية وأدت إلى ارتفاع الخراج زمن عمر، فقد بلغ خراج العراق فى عهده مائة وأربعة وعشرين مليون درهم، وهذا المقدار أكبر مما جُبى فى العهود السابقة، فقد بلغ خراج العراق زمن الحجاج أربعين مليون درهم[٧]، وفى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مائة مليون درهم. أما خراج خراسان زمن عمر بن عبد العزيز فقد كان فائضًا عن حاجات

(١) السياسة المالية والاقتصادية لعمر صـ٧١. (٢) الخراج صـ٢٣٢ للريس.
(٣) المصدر نفسه صـ٢٥٩، السياسة المالية والاقتصادية صـ٧٢ .
(٤) معجم لغة الفقهاء صـ١٩٤ . (٥) الخراج للريس صـ٢٣٨ .
(٦) السياسة المالية والاقتصادية لعمر صـ٧٤ .
(٧) الخراج للريس صـ٢٣٧، ٢٣٨، السياسة المالية والاقتصادية لعمر صـ٧٥ .

الدولة وبلغ الخراج زمن عمر أقصى قدر ممكن أن يبلغه فى الأحوال العادية(١). وهذا الارتفاع فى مقدار الخراج يشير إلى قوة الدولة المالية، لأن خراج العراق كان يشكل أكبر نصيب من إيراداتها(٢)، مما ساعد على تحقيق الأهداف الاقتصادية من دعم مشاريع البنية التحتية والمشاريع الإنتاجية والإنفاق على الطبقات الفقيرة والعاجزة، ذلك لأن إيراد الخراج يتسم بالمرونة من حيث مصارفه بعكس الزكاة فهى محددة المصارف(٣).

٤- العشور:

فى الاصطلاح: ما يؤخذ على تجار أهل الحرب وأهل الذمة عندما يجتازون بها حدود الدولة الإسلامية(٤)، فتؤخذ العشور من تجارة الحربى العُشر، ومن تجارة الذمى نصف العشر، ولا تؤخذ فى السنة لنفس المال إلا مرة واحدة ونصابها عشرون ديناراً للحربى، وعشرة للذمى(٥)، وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بإيراد العشور فوضح مبادئها للعمال، وأمر بكتابة كتاب لدافعها لإعفائه منها للحول القادم، كما منع قبض العشور، والتى كانت تفرض على الناس بغير حق(٦)، وقد نشطت التجارة فى عهده وتوافرت موارد جديدة للدولة، واستطاع أن يوظفها للإنفاق العام. وكانت الإجراءات التى اتخذها عمر لتنشيط الحركة التجارية كالآتى:

أ- إلغاء الضرائب الإضافية التى كانت مفروضة على القطاع الزراعى(٧)، وقد انعكس هذا إيجابًا على القطاع التجارى فى صورة انخفاض ملحوظ فى أسعار السلع الزراعية، فزاد الطلب عليها، وأحدث رواجًا فى تجارتها، وفى ظل اقتصاد قوامه الزراعة فإن زيادة عرض السلع الزراعية وانخفاض أثمانها، على النحو الذى واكب السياسة الرشيدة لعمر بن عبد العزيز، أحدث رواجًا لا فى التجارة فحسب، ولكن فى بقية قطاعات الاقتصاد الإسلامى(٨).

ب- إلغاء الضرائب على القطاع التجارى(٩)، والاقتصار على العشور، وكان لهذا تأثير ايجابى على قطاع التجارة، وقد أدى إلى تشجيع مزاولة التجارة، وزاد من أرباح التجارة فزاد معها حجم المبادلات التجارية(١٠).

(١) الخراج صـ٢٣٧، ٢٣٨ للريس. (٢) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز صـ٧٦.
(٣) المصدر نفسه صـ٧٦. (٤) معجم الفقهاء صـ٣١٢.
(٥) المغنى (١٠/٥٨٩)، السياسة المالية والاقتصادية صـ ٧٦.
(٦) السياسة المالية والاقتصادية صـ٧٧. (٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١٤١.
(٨)، (٩)، (١٠) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢١٨.

ج- إلغاء أسلوب العنف فى تحصيل مستحقات الدولة المالية[1] على التجار وغيرهم، وهذا أيضًا من عوامل تشجيع التجارة وتنميتها.

د- عمل استراحات[2] على طريق التجارات مع بلاد الشرق، ومطالبة الولاة على البلاد -التى توجد بها هذه الاستراحات- بأن يضيفوا من مر بهم من المسلمين المسافرين[3] يومًا وليلة، وأن يتعاهدوا دوابهم على حساب الدولة، ومضاعفة هذه المدة لمن يشكو منهم علة، وبالنسبة لمن مر بهذه الاستراحات وكان منقطعًا أو سرقت تجارته أو تلفت لأى سبب، فكان يعطى من المال ما يكفيه للوصول إلى بلده، ولا يخفى ما كان بهذه التسهيلات والضمانات من عوامل تشجيع للتجار وللتبادل التجارى[4].

هـ- منع العطاء عن التجار، حتى تكون التجارة مصدر رزقهم الوحيد فيهتموا بها أكثر وينشطوا فيها، لاسيما أن التجارة كانت فى ذلك الوقت متعبة من حيث السفر، والترحال، لعدم توافر وسائل المواصلات المريحة التى نشاهدها اليوم.

و- قضاء ديون كل من أدان فى غير سفه ولا سرف[5]، ويدخل ضمنهم التجار إن لم يكونوا جلهم، وقد أدى هذا القرار إلى إقالة عثرات التجار الذين أفلسوا، ومكنهم من العودة إلى مزاولة التجارة، وخاصة تلك الفئة من التجار الذين بدأوا تجارتهم عن طريق اقتراض رأس المال المطلوب.

ز- الحرص على ضبط ومعايرة وتوحيد المكاييل والموازين فى كل أنحاء الدولة، وجعل ذلك من مواد القانون الأساسى للدولة.

ح- منع الولاة والأمراء من الاشتغال بالتجارة، حتى لا يكون فى دخولهم السوق إفساد للمنافسة الشريفة بين التجار، أو تأثير على الأسعار لصالحهم، وهى محاولة من عمر بن عبد العزيز بالبعد بالأسواق عن أى مؤثرات غير طبيعية تؤثر فى تلقائية تحديد السعر[6].

ط- منع الاحتكار ومن ذلك إعادته دكاكين بحمص كانت فى يد مجموعة من أهل السوق، وكان ابن الوليد بن عبد الملك قد استولى عليها، وحولها إلى ملكية خاصة له،

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ ٢١٨ . (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٤٣٩.
(٣) كان معظم السفر لناحية المشرق لقصد التجارة .
(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢١٩ . (٥) الأموال لأبى عبيد صـ٢٣٤، ٢٣٥ .
(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٢١٩ .

فنزعها وأعادها إلى أصحابها[1]، إن وجود هذه الإجراءات الإصلاحية[2] ساهمت فى ازدهار الحركة التجارية فى عهد عمر بن عبد العزيز، وبذلك زادت حصيلة إيرادات العشور وتوافرت موارد جديدة للدولة، استطاع عمر أن ينفقها على الصالح العام.

٥ ـ خمس الغنائم والفيء:

فالغنيمة فى الاصطلاح: ما استولى عليه من أموال الكفار المحاربين عنوة وقهراً حين القتال[3]، والفيء فى الاصطلاح: كل مال وصل من المشركين من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب[4]، فعندما تولى عمر الخلافة توجه لإصلاح الأوضاع الداخلية للدولة، لذلك لم تكثر الفتوحات فى عهده حيث استعاض عنها بالدعوة والقدوة الحسنة، فقد بعث بكتب للملوك والشعوب، فدخل البربر فى الإسلام بدون قتال[5]، ولهذا لم تتحقق موارد كثيرة من خمس الغنائم زمن عمر، وما كان موجوداً فى بيت المال منه كان مصدره الفتوحات السابقة[6]. ومع ذلك فقد سعى لإصلاح موازنة خمس الغنائم، فقد جعل للخمس بيت مال مستقل عن الأموال الأخرى[7]،وأمر بوضعه فى مواضعه المذكورة فى سورة الأنفال، وآثر به أهل الحاجة منهم حيث كانوا[8]. وقد أمر بعشرة آلاف دينار من سهم ذوى القربى فقسمها فى بنى هاشم، وساوى بين الذكر والأنثى، والصغير والكبير، فكتبت إليه فاطمة بنت الحسين تشكر له ما صنع وتقول: يا أمير المؤمنين قد أخدمت من كان لا خادم له، واكتسى منهم من كان عاريًا، واستنفق من كان لا يجد ما يستنفق[9]، ولقد تمسك عمر فى حق الخمس، فلما فتحت الأندلس قبل خلافة عمر لم يخمسوها، فأمر عامله عليها أن يبين العنوة من أرضها ويأخذ منها الخمس[10]. وأما تصرفه فى الفيء، فقد كان متبعًا للقرآن والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين، فقد كتب كتابًا ذكر فيه الأموال والقرى التى أفاء الله بها على رسوله ﷺ مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، واستدل بآيات سورة الحشر التى نزلت فى ذلك، وبين أن ما من أحد من المسلمين إلا له حق فى الفيء، فقد ذكرت الآيات المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم من المسلمين

---

(١)، (٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ ٢٢٠ .
(٣) الأموال لأبى عبيد صـ٣٢٣ رقم ٦٢٦ .
(٤) الأحكام السلطانية للماوردى صـ ١٩٩ .
(٥) السياسة المالية والاقتصادية لعمر صـ٨١ .
(٦)، (٧) المصدر نفسه صـ٨١ .
(٨)الطبقات (٥/ ٣٥٠)، سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٧٢،السياسة المالية والاقتصادية لعمر صـ٨٢ .
(٩) الطبقات (٥/ ٣٩٠)، السياسة المالية والاقتصادية صـ٨٢ .
(١٠) تاريخ الإسلام،حسن إبراهيم (١/ ٣٢٠).

بعد الهجرة الأولى حتى تنقضي الدنيا(١). وهو بذلك كان موافقًا لاجتهاد عمر بن الخطاب فى جعل الفيء موقوفًا على أجيال المسلمين(٢). ونظر عمر فى مصارف الخمس فوجدها موافقة لمصارف الفيء، فرأى أن يضمه إليه كما فعل عمر بن الخطاب(٣)، ويصرف منها على جميع مصالح المسلمين، وكتب فى ذلك كتابًا: . .وأما الخمس فإن من مضى من الأئمة اختلفوا فى موضعه. . ووضع مواضع شتى، فنظرنا فإذا هو على سهام الفيء فى كتاب الله لم تخالف واحدة من الاثنتين الأخرى، فإذا عمر بن الخطاب رحمه الله قد قضى فى الفيء قضاءً قد رضى به المسلمون، فرض للناس أعطية وأرزاقًا جارية لهم، ورأى أنه لن يبلغ بتلك الأبواب ما جمع من ذلك، ورأى أن فيه لليتيم والمسكين، وابن السبيل، فرأى أن يُلحق الخمس بالفيء، وأن يوضع مواضعه التى سمى الله وفرض. . فاقتدوا بإمام عادل فإن الآيتين متفقتان؛ آية الفيء وآية الخمس. . . فنرى أن يُجمعا جميعًا فيُجعلا فيئًا للمسلمين ولا يستأثر عليهم(٤).

لقد ساعدت إصلاحات عمر فى إيرادات الخمس والفيء على تحقيق أهداف سياسته الاقتصادية، فتوزيعه للخمس على الأسهم المذكورة فى القرآن مع إيثاره لذوى الحاجة أينما وجدوا ساعد على تحقيق إعادة توزيع الدخل والثروة، وشعر الناس بالعدل وزوال الظلم، بسبب هذه السياسة الرشيدة السديدة.

رابعًا: سياسة الإنفاق العام لعمر بن عبد العزيز:

١ - إنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية:

لتحقيق هدف إعادة توزيع الدخل والثروة سعى عمر إلى زيادة الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، وتأمين الرعاية الصحية والاجتماعية لهم، وهذه مطالب شرعية جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية، ولقد اهتم منذ الأيام الأولى لخلافته باتباع الشرع والتزام الحق والعدل، فأرسل إلى العلماء يستفسر، وقد كتب ابن شهاب الزهرى لعمر كتابًا عن مواضع السنة فى الزكاة ليعمل بها فى خلافته فذكر فيها: إن فيها نصيبًا للزمنى والمقعدين(أصحاب العجز الأصلى)، ونصيبًا لكل مسكين به عاهة لا يستطيع عَيْلة وتقليبًا فى الأرض(أصحاب العجز الطارئ كالعامل الذى يصاب فى عمله والمجاهد الذى يصاب فى الحرب)، ونصيبًا

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٩٧ .

(٢) الخراج، أبو يوسف صـ٢٥، السياسة المالية والاقتصادية صـ٨٢ .

(٣) السياسة المالية والاقتصادية لعمر صـ٨٣ .

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٩٧، الأموال رقم ٨٣٨ .

للمساكين الذين يسـألون ويستطعمون الغنى حتى يأخذوا كفايتـهم ولا يحتاجون بعدها إلى سؤال. . ونصيبًـا لمن فى السجون من أهل الإسلام ممن ليس له أحد. . ونصيـبًا لمن يحضر المساجد الذين لا عطاء لهم ولا سهم «أى ليست لهم رواتب ومعاشات منتظمة» ولا يسألون الناس. . ونصيبًا لمن أصـابه فقر وعليه دين ولم يكن شىء منه فى معـصية الله، ولا يُتهم فى دينه. . ونصيبًا لكل مسافر ليس له مأوى، ولا أهل يأوى إليهم، فيؤوى ويُطعم وتُعلف دابته حتى يجد منزلاً أو تقضى حاجته[1].

أ- الإنفاق على الفقراء والمساكين: فقـد كان يفكر فى الفقـراء والمساكـين، ويسعى إلى إغنائهم، فقد مرت معنا قصته مع زوجته فاطمة وسألته عن سر بكائه فقال لها: تقلّدت أمر أمة محمد ﷺ، فتفكرت فى الفقير الجـائع، والمريض الضائع، والعارى المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير، وذى العيال فى أقطار الأرض فعلمت أن ربى سيسألنى عنهم، وأن خصمى دونهم محمد ﷺ، فخشيت ألا تثبت حجتـى عند خصومته، فرحمت نفس فبكيت[2]. هـذه الحـادثة تلخـص سياسـة عمـر فى الإنفـاق على الفئـات المحتاجـة، والحادثة مليئة بالمعانى، وتحتاج إلى وقفات: فقد شعر عمر بعظم المسئولية الملقاة على عاتقه قال رسول الله ﷺ: **«كلكم مسئـول عن رعيته، فـالإمام راع وهو مسئول عن رعـيته»**[3]. وقد عمل عمر على سد احتياجات الناس، جاء رجل لعمر فقام بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين اشتدت بى الحاجة، وانتهت بى الفاقة، والله سـائلك عن مقامى غدًا بين يديه، وكان عمر قد اتكأ على قضيب، فبكى حتى جرت دمـوعه على القضيب، ثم فرض له ولعياله، ودفع له خمسمـائة دينار حتى يخرج عطاؤه[4]، وكان -رحمه الـله- يهتم بشأن الأرامل وبناتهن كما حدث مع المرأة العراقيـة التى مرّ ذكرها، وقد قال ﷺ: **« الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو كالذى يصوم النهار ويقوم الليل»**[5]. وقد خصصّ عمر دارًا لإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل[6]، ولم يكتف عمر بالاعتناء بالفقـراء فحسب، بل امتدت رعايته إلى المرضى وذوى العاهات والأيتـام، فقد كتب كتابًا إلى أمصـار الشام: ادفعوا إلىّ كل أعمى فى الديوان، أو مقـعد، أو من به فالج، أو من به زمانة، تحـول بينه وبين القيام إلى الصلاة، فرفعوا إليه، فأمـر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمنى بخادم. . ثم

(١) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز صـ٨٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٢)، سيرة ومناقب عمر لابن عبد الحكم صـ٢٤٨ .

(٣) البخارى رقم ٨٩٣ . (٤) حلية الأولياء (٥/ ٢٨٩) .

(٥) البخارى رقم ٦٠٠٦ . (٦) الطبقات (٣/ ٣٧٨).

كتب: ارفعوا إليّ كل يتيم، ومن لا أحد له... فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعون بينهم بالسوية[1].

ب ـ الإنفاق على الغارمين: من الفئات التى اهتم بها عمر: الغارمون، فقد كتب ابن شهاب الزهرى لعمر عن سهم الغارمين: لمن يصاب فى سبيل الله فى ماله.. ولمن أصابه فقر، وعليه دين لم يكن شىء منه فى معصية الله، ولا يُتهم فى دينه[2]. ولذلك أمر عمر بقضاء الدين عن الغارمين، فكتبوا إليه، إنا نجد الرجل له المسكن، والخادم، وله الفرس والأثاث فى بيته، فكتب عمر: لابد للرجل من المسلمين من سكن يأوى إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوّه، وأثاث فى بيته، فهو غارم فاقضوا عنه[3]. وكتب إلى والى الكوفة وقد اجتمعت عنده أموال فسأل عمر عنها فأجاب: كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فأعط منهم من كان عليه دين فى غير فساد، أو تزوّج فلم يقدر على نقد، والسلام[4]. وكتب كتابًا قُرئ فى مسجد الكوفة: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله[5].

ج ـ الإنفاق على الأسرى: قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٨ - ١٠]. اهتم عمر بن عبد العزيز بالأسرى وبالإنفاق عليهم من بيت مال المسلمين، فقد كتب كتابًا إلى أسرى المسلمين فى القسطنطينية[6]، وقد تحدثت عن الكتاب فى كلامى عن الحياة الاجتماعية، واهتم بالسجناء فى سجون المسلمين بسبب جرم أو قصاص، فقد أمر عمر برعايتهم والإنفاق عليهم، وكتب عمر إلى العمال: لا تدعُنَّ فى سجونكم أحدًا من المسلمين فى وثاق لا يستطيع أن يصلى قائمًا، ولا يبيتنّ فى قيد إلا رجل مطلوب بدم، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم فى طعامهم وإدامهم[7]. وأمر لأهل السجون برزق وكسوة فى الصيف والشتاء[8].

(١) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى صـ٢٠٢ .
(٢) الأموال، أبو عبيدة رقم ١٨٥٠، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز صـ٩٢ .
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٧١، السياسة المالية والاقتصادية صـ٩٢ .
(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٦٧ .
(٥) الطبقات (٥/ ٣٧٤) .
(٦) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز صـ٩٣ .
(٧) الخراج، أبو يوسف صـ٣١٥ .
(٨) الطبقات (٥/ ٣٥٦).

د - الإنفاق على المسافرين وأبناء السبيل: اهتم عمر بالمسافرين وأبناء السبيل، فأمر عماله ببناء بيوت الضيافة على الطرق لرعاية المسافرين والاهتمام بهم، وكتب إلى أحد عمّاله: اعمل خانات في بلادك، فمن مرّ بك من المسلمين فأقروهم يومًا وليلة وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به علَّة فأقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعًا به فقوّوه بما يصل به إلى بلده[1]، وأمر عمر بالاهتمام بالحجّاج، والإنفاق عليهم ورعاية ضعيفهم وإغناء فقيرهم[2].

هـ- الإنفاق لفك الرقاب: بعد أن أنفق عمر على الفقراء والمساكين، والعاجزين، والغارمين وأبناء السبيل وجه الأموال لفك رقاب المستعبدين، وقال عامل صدقات إفريقية: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرًا.. فاشتريت بها رقابًا وولاؤهم للمسلمين[3].

وقد مرّ معنا إنفاق عمر على العلماء لكي يتفرغوا لدعوة الناس وتعليمهم، واتسعت رعايته الاجتماعية لتشمل جميع فئات الأمة حتى الأطفال الصغار، وحدّد لهم مبلغًا من المال ليستعين به ذووهم على تربيتهم، واهتم بمواطنيه من أهل الذمة، فكان ينفق على فقرائهم ومحتاجيهم من بيت المال[4]، كما أنه لا بد من الإشارة إلى أن سياسة عمر بن عبد العزيز الراشدة ساهمت في إغناء عدد كبير من المسلمين وزيادة ثرواتهم في المجال التجاري والزراعي وغيرهما، وساهمت في سريان روح التدين وحب الآخرة في نفوس الناس، ورغبوا في الإكثار من فعل الخيرات ابتغاء مرضاة الله تعالى والرغبة فيما عند الله، فكثر الإنفاق في سبيل الله لمساعدة الفقراء والمساكين والأرامل وبناء المرافق العامة، وحفر الآبار، وتشييد المساجد وغير ذلك، وهذا يخفف الأعباء المالية على بيت مال المسلمين في العاصمة وأقاليمها الواسعة.

٢ - ترشيد الإنفاق في مصالح الدولة:

كانت سياسة عمر بن عبد العزيز في ميدان الإنفاق تقوم على أساس مبدأ الرشد الاقتصادي، أو ما يعبر عنه بمبدأ القوامة في الإنفاق، ومقتضاه البعد عن الإسراف والتبذير والبعد عن الشح والتقتير[5]. ومن الخطوات التي اتخذها في مجال ترشيد الإنفاق في مصالح الدولة:

(١) تاريخ الطبري نقلاً عن السياسة المالية والاقتصادية صـ٩٤ .
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٦٥ .
(٣) السياسة المالية والاقتصادية صـ٩٤ .
(٤) المصدر نفسه صـ٩٥، ٩٦ .
(٥) المصدر نفسه صـ٩٦.

أ ـ قطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمراء الأمويين:

أعاد عمر القطائع والحقوق الخاصة إلى أصحابها، والحقوق العامة إلى بيت المال، وبدأ بنفسه وبآل بيته ـ كما مرّ معنا ـ وكان عمر لا يأخذ من بيت المال شيئًا فقالوا له: لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب، قال: كان عمر لا مال له، وأنا مالي يغنيني[1]. وعندما أُحضرت مراكب الخلافة لعمر بعد موت سليمان، طلب بغلته وأمر بوضع المراكب والفرش والزينة في بيت المال، وكانت عادة الخلفاء قبله أن يأخذ ورثة الخليفة الميت ما استعمل من ثيابه وعطوره، ويُردّ الباقي إلى الخليفة الجديد، فلما استخلف عمر قال: ما هذا لي ولا لسليمان، ولا لكم، ولكن يا مزاحم ضُمّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين[2]، وكان عمر لا يستعمل الأموال العامة لحاجته الخاصة مطلقًا. فمرة بعث أمير الأردن بسلتي رطب إلى عمر، وقد جيء على دواب البريد[3]، فلما وصلت عمر أمر ببيعها وجعل ثمنها في علف دواب البريد، ومرة طلب من عامله أن يشتري له عسلاً فحمل له على دواب البريد، فأمر ببيع العسل وجعل ثمنه في بيت المال، وقال له: أفسدت علينا عسلك[4].

ب ـ ترشيد الإنفاق الإداري: سعى عمر إلى تعويد أعوانه وولاته على الاقتصاد في أموال المسلمين، فعندما طلب والي المدينة أن يصرف له شمع، فأجابه عمر: لعمري لقد عهدتك يا ابن أم حزم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح، ولعمري لأنت يومئذ خير منك اليوم، ولقد كان في فتائل أهلك ما يغنيك، والسلام[5]. وكتب إليه أيضًا وقد طلب قراطيس للكتابة: . . . إذا جاءك كتابي هذا فأدق القلم واجمع الخطّ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضرّ بيت مالهم[6]. يلاحظ حرص عمر على المال العام ويرشد ولاته للاستغلال الأمثل لموارد الدولة، فعمر يريد من العامل أن يستغل الأوراق في الرسائل إلى أقصى درجة.

---

(١) العقد الفريد (٥/ ٢٢)، السياسة المالية والاقتصادية صـ٩٧ .

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٣٥، السياسة المالية صـ٩٧ .

(٣) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز صـ٩٨ .

(٤) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي صـ٢١٠ .

(٥) الوالي: هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٦٤ .

(٦) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي صـ١٢١ .

جـ - **ترشيد الإنفاق الحربى**: خاضت الدولة الأموية حروبًا خارجية وداخلية كلّفت ميزانية الدولة الشيء الكثير، منها حملة القسطنطينية زمن سليمان بن عبد الملك، حيث كلفت الكثير من الأموال والشهداء دون جدوى، فما كان من عمر بعد استخلافه إلا أن أرسل كتابًا يأمر فيه مسلمة بن عبد الملك قائد الحملة بالعودة بعد أن أصاب الجيش ضيق شديد.

وقد أدّت سيرة عمر وسياسته إلى استقرار الأوضاع الداخلية وتوقفت الحروب والفتن، ولما بلغت سيرته الخوارج، اجتمعوا وقالوا: ما ينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل[1]، ولقد أسهم إيقاف الحروب والفتن فى إيجاد مناخ عام من الراحة والطمأنينة والاستقرار ساعد على النمو الاقتصادى للدولة وتحسن أوضاع الطبقات الفقيرة والمحتاجة بفضل الله، ثم سياسة عمر الرشيدة.

****

(١) سيرة ومناقب عمر صـ٨٦، السياسة المالية والاقتصادية لعمر صـ١٠٠ .

المبحث السابع

المؤسسة القضائية فى عهد

عمر بن عبد العزيز وبعض اجتهاداته الفقهية

أولاً: فى الأقضية والشهادات:

١- فى صفات القاضى: كان عمر بن عبد العزيز يدقق فى اختيار القضاة حتى لا يُبتلى الناس بقاض يتخبط فيهم بغير حق، ولهذا فقط اشترط عمر بن عبد العزيز فى القاضى خمسة شروط، لا يجوز له أن يلى القضاء حتى تكتمل فيه هذه الشروط وهى: العلم، والحلم، والعفة، والاستشارة، والقوة فى الحق[(١)]، فعن مزاحم بن زفر قال: قدمت على عمر بن عبد العزيز فى وفد أهل الكوفة فسألنا عن بلدنا وأميرنا وقاضينا، ثم قال: خمس إن أخطأ القاضى منهن خصلة كانت فيه وصمة، أن يكون فهيمًا، وأن يكون حليمًا، وأن يكون عفيفًا، وأن يكون صليبًا، وأن يكون عالمًا يسأل عما لا يعلم[(٢)]، وفى رواية عن يحيى بن سعيد عن عمر بن عبد العزيز قال: لا ينبغى للقاضى أن يكون قاضيًا حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوى الرأى، لا يبالى ملامة الناس[(٣)]، وقد قال بهذا المعنى عمر بن الخطاب[(٤)]، وعلى بن أبى طالب[(٥)] رضى الله عنهما، وذهب الأئمة الأربعة إلى موافقة عمر بن عبد العزيز فى كل أو جل هذه الصفات[(٦)].

٢ ـ فى حكم القاضى فيما استبان له ويرفع ما التبس عليه: قد يكون هناك بعض القضايا المتشابكة والتى أمرها يحيّر القاضى، فهل يحكم القاضى فيها وإن لم يظهر له الحق أم يتركها لمن هو أعلم منه؟ لقد قرر عمر بن عبد العزيز قراراً هو درس فى القضاء يجب أن يعمل به إلى يوم القيامة، ذلك أنه يرى أن القاضى إن تبين له الحق حكم به، وإن لم يظهر

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٨٥) د. محمد شقير.

(٢) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦٩).

(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٤) المصنف لعبد الرزاق (٨/ ٢٩٩)، شذرات الذهب (١/ ١٢٠).

(٥) المغنى (٩/ ٣)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٨٥).

(٦) حاشية ابن عابدين (٤/ ٣٠٥)، روضة الطالبين (١١/ ٩٥ ـ٩٧)، جواهر الإكليل (٢/ ٢٢١)، المغنى (٩/ ٣٩ـ ٤٣، ٥٠).

له فلا يترك القضية وإنما يرفعها إلى من هو فوقه لينظرها[1]، عن ميمون بن مهران أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يشكو شدة الحكم والجباية ـ وكان قاضي الجزيرة وعلى خراجها ـ قال: فكتب إليه عمر: إنى لم أكلفك ما يُعنتك، أجب الطيب، واقض بما استبان لك من الحق، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إليّ، فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه، ما قام دين ولا دنيا[2]. وهذا الأثر يبين أن الله ـ سبحانه وتعالى- لم يجعل الناس فى العلم ولا فى الفهم سواء، بل هم درجات فى ذلك، والذى يولى القضاء عليه أن يحكم بين الناس الذين ولى أمرهم بما ظهر له من الحق، فإذا شق عليه أمر من هذه القضايا فعليه أن يستشير أهل العلم فى بلاده، فإن لم يجد عندهم معرفة لهذا الأمر رفعه إلى من هو أعلم منه أو إلى ولى الأمر ليحوِّل هذه القضية إلى غيره، أو ليحكم فيها إن كان من أهل العلم[3]، وكان عمر بن عبد العزيز له مجالس علمية يستشير فيها العلماء والفقهاء وأصحاب الرأى فى أمور الدين والدنيا، وكان يقتطع لها من أوقات راحته فى الليل، وقد أعرب عن إدراكه العميق لما يأتى عن التقاء الأفكار من نتائج فكرية إيجابية، عندما سأله رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين نهارك كله مشغول، وهذا جزء من الليل وأنت تسمر معنا؟ فقال عمر: يا رجاء، إن ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها، وإن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة، لا يضل معهما رأى ويفقد معهما حزم[4]،وقد وجدت ملاقاة الرجال تلقيحًا لألبابها[5]،

٣ ـ فى الرفق بالحمقى والنهى عن العقوبة فى الغضب: كتب عمر بن عبد العزيز: من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد. أما بعد، فإذا حضرك الخصم الجاهل الخرق ممن قدر الله أن يوليك أمره، وأن تبتلى به فرأيت منه سوء رِعة، وسوء سيرة فى الحق عليه، والحظ له، فسدده ما استطعت، وبصره وارفق به وعلمه، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلاً، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه، فإن رأيت أنه أتى ذنبًا استحل فيه عقوبة فلا تعاقبه بغضب من نفسك، ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق على قدر ذنبه، بالغًا ما بلغ، وإن لم يبلغ ذلك إلا قدر جلدة واحدة تجلده إياها، وإن ذنبه فوق ذلك، ورأيت عليه من العقوبة قتلاً فما دونه فأرجعه إلى

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٨٧).
(٢) الخراج لأبى يوسف صـ ٢٤٠، ٢٤١.
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٨٨).
(٤) ملامح الانقلاب الإسلامى صـ ١٨٦، عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١٢٤.
(٥) ملامح الانقلاب الإسلامى صـ١٨٦.

السجن، ولا يسرعن بك إلى عقوبته حضور من يحضرك[1]، وكان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلاً حبسه ثلاثة أيام، ثم عاقبه كراهة أن يعجل فى أول غضبه[2].

إن العقوبة أثناء الغضب يحتمل أن يتجاوز القاضى فيها الحق تحت تأثير الغضب فيظلم المذنب، وخوفًا من التعدى فى العقوبة فقد طلب عمر بن عبد العزيز من القاضى أن يحبس المذنب حتى يذهب غضب القاضى، ثم يحكم عليه وهو فى هدوء على قدر ذنبه[3].

٤- **خطأ الوالى فى العفو خير من تعديه فى العقوبة:** عن أبى عقبة أن عمر بن عبد العزيز قال: ادرؤوا الحدود ما استطعتم فى كل شبهة، فإن الوالى إذا أخطأ فى العفو خير من أن يتعدى فى العقوبة[4].

٥- **فى ترك العمل بالظن:** ولى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطى على جند قنسرين، والفرات بن مسلم على خراجها، فتباغيا.. ولم قدم قابلٌ، وقدم الوليد ومعه رؤوس أنباط قنسرين كتب عمر إلى الفرات أن أقدم فقدم، وإنه لقاعد خلف سرير عمر إذ دخل الأنباط فقال لهم عمر: ماذا أعددتم لأميركم فى نُزله لمسيره إلىّ. قالوا: وهل قدم يا أمير المؤمنين، قال: ما علمتم به. قالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، فأقبل عمر بوجهه على الوليد، فقال: يا وليد: إن رجلاً مَلَكَ قنسرين وأرضها خرج يسير فى سلطانه وأرضه حتى انتهى إلىَّ لا يعلم به أحد، ولا ينفر أحدًا ولا يروعه، لخليق أن يكون متواضعًا عفيفًا، قال الوليد: أجل والله يا أمير المؤمنين، إنه لعفيف وإنى له لظالم، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقال عمر: ما أحسن الاعتراف، وأبين فضله على الإصرار، وردهما عمر على عملهما، فكتب إليه الوليد ـ وكان مرائيًا ـ خديعة لعمر وتزينًا بما هو ليس عليه: إنى قدرت نفقتى لشهر فوجدتها كذا وكذا درهمًا، ورزقى يزيد على ما أحتاج إليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحط فضل ذلك، فقال عمر: أراد الوليد أن يتزين عندنا بما أظنه عليه، ولو كنت عازلاً أحدًا على ظن لعزلته، ثم أمر بحط رزقه الذى سأله، ثم أمر بالكتاب إلى يزيد بن عبد الملك وهو ولى عهده: إن الوليد بن هشام كتب إلى كتابًا ظنى أنه تزين بما ليس هو عليه، ولو أمضيت شيئًا على ظنى ما عمل لى أبدًا، ولكنى آخذ بالظاهر وعند الله علم الغيوب، فأنا أقسم عليك إن حدث بى حادث وأفضى هذا الأمر إليك فسألك أن ترد إليه رزقه وذكر

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٦٨، ٦٩.
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى صـ ٢٣٦.
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩٠).
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ١٢٣، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩١).

أنى نقصته فلا يظفر منك بهذا أبدًا، فإنما خادع بالله والله خادعه، فلما مات عمر واستخلف يزيد كتب الوليد: إن عمر نقصني وظلمني، فغضب يزيد وبعث إليه فعزله، وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها، فلم يلِ له عملاً حتى هلك[1].

٦ ـ في الهدية لولاة الأمر: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى اعتبار الهدية لولاة الأمر من خلفاء وولاة الأقاليم وقضاة وغيرهم رشوة، وقد رفض الهدية مع شدة حاجته إليها، وأمر الناس بعدم تقديم الهدايا لولاة الأمر، كما أمر الولاة بأن لا يقبلوا شيئًا من الهدايا[2]، عن فرات بن مسلم قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز التفاح فبعث فلم يجد شيئًا يشترون له به، فركب وركبنا معه فمر بدير فتلقاه غلمان للديرانيين معهم أطباق فيها تفاح، فوقف على طبق منها فتناول تفاحة فشمها ثم أعادها إلى الطبق، ثم قال: ادخلوا ديركم لا أعلمكم بعثتم إلى أحد من أصحابي بشيء، قال: فحركت بغلتي فلحقته فقلت: يا أمير المؤمنين، اشتهيت التفاح فلم يجدوه لك فأهدى لك فرددته، قال: لا حاجة لي فيه، فقلت: ألم يكن رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية. قال: إنها لأولئك هدية وهي للعمال بعدهم رشوة[3].

٧ ـ في نقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية: كتب عمر بن عبد العزيز برد أحكام من أحكام الحجاج مخالفة لأحكام الناس[4]، وقد وافق عمر بن عبد العزيز في رد الأحكام إذا خالفت كتاب الله أو سنة نبيه أو الإجماع،أو الشورى، وذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد أنه ينقضي الحكم إذا خالف الكتاب والسنة أو الإجماع[5].

٨ ـ فيمن ضيع أمانته، فعليه اليمين بعدم التفريط: كتب وهب بن منبه إلى عمر بن عبد العزيز: إني فقدت من بيت مال اليمن دنانير. فكتب إليه عمر: أما بعد، فإني لست أتهم دينك ولا أمانتك ولكن أتهم تضييعك وتفريطك، وإنما أنا حجيج المسلمين في مالهم، وإنما لأشحهم يمينك[6] فاحلف لهم، والسلام[7].

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ ١٢٩ ـ ١٣١.
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩٥).
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٧٧).
(٤) حلية الأولياء (٥/ ٢٧٠).
(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٩٩).
(٦) أي: لابد من حلف اليمين بأنه لم يفرط، فإن حلف فلا ضمان عليه لأنه مؤتمن.
(٧) سيرة عمر لابن الجوزي صـ١٠٤، ١٠٥.

٩- فى أثر البينة الغائبة على تأخير القضاء: كان عند عمر بن عبد العزيز نفر من قريش يختصمون إليه فقضى بينهم، فقال: المقضى عليه: أصلحك الله! إن لى بينة غائبة، فقال عمر: إنى لا أؤخر القضاء بعد أن رأيت الحق لصاحبه، ولكن انطلق أنت فإن أتيتنى بينة وحق هو أحق من حقهم فأنا أول من رد قضاءه على نفسه(١).

١٠- نفقة البعير الضال: عن الشعبى قال: أضل رجل بعيرًا فوجده عند رجل قد أنفق عليه، أعلفه وأسمنه، فاختصما إلى عمر بن عبد العزيز، وهو يومئذ أمير على المدينة فقضى لصاحب البعير ببعيره وقضى عليه بالنفقة(٢).

١١- فى حرية اللقيط: جاء كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أهل مكة أن اللقيط حر(٣).

١٢- شهادة الرجل لأخيه أو لأبيه: إن عمر بن عبد العزيز كتب: أن أجز شهادة الرجل لأخيه إذا كان عدلاً(٤).

ثانيًا: فى الدماء والقصاص:

١- تخيير الأولياء فى قتل العهد بين العفو والدية والقتل: كتب عمر بن عبد العزيز فى امرأة قتلت رجلاً: إن أحب الأولياء أن يعفو عفوًا، وإن أحبوا أن يقتلوا قتلوا، وإن أحبوا أن يأخذوا الدية أخذوها، وأعطوا امرأته ميراثها من الدية(٥).

٢- فى التأنى حتى يبلغ ولى المقتول: كتب عمر بن عبد العزيز فى رجل قُتل وله ولد صغير، فكتب أن يتأنى بالصغير حتى يبلغ(٦).

٣- فى عفو بعض الأولياء يسقط القود: عن الزهرى قال: . . . وكتب به عمر بن عبد العزيز أيضًا: إذا عفا أحدهم فالدية(٧).

٤- فى القتل بعد أخذ الدية: قال عمر بن عبد العزيز: والاعتداء الذى ذكر الله أن الرجل يأخذ العقل، أو يقتص، أو يقضى السلطان فيما بين الجارح والمجروح، أو يعدو بعضهم بعد أن يستوعب حقه، فمن فعل ذلك فقد اعتدى والحكم فيه إلى السلطان بالذى يرى فيه من العقوبة، ولو عفا عنه لم يكن لأحد من طلبة الحق أن يعفو عنه بعد اعتدائه إلا بإذن

(١) الطبقات الكبرى (٥/٣٨٦).
(٢) مصنف ابن أبى شيبة (٦/٣١٢).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٥٣١).
(٤) المصدر نفسه (٨/٣٤٢ ـ ٣٤٣).
(٥) المحلى (١٠/٣٦١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١١).
(٦) مصنف عبد الرزاق (١٠/ ١١).
(٧) المصدر نفسه (٩/ ٣١٨).

السلطان، وعلى تلك المنزلة كل شيء من هذا النحو، فإنه بلغنا أن هذا الأمر الذى أنزل الله فيه: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩] الآية، وما كان من جرح فوق الأدنى ودون الأقصى فهو يرى فيه بحساب الدية[١].

٥ ـ فى القتيل يوجد فى السوق: كتب عدى بن أرطأة قاضى البصرة إلى عمر بن عبد العزيز: إنى وجدت قتيلاً فى سوق الجزارين قال: أما القتيل فديته من بيت المال[٢].

٦ ـ فى القتل فى الزحام: إذا قتل الإنسان بسبب ازدحام الناس ولم يعلم من قتله، فهل يذهب دمه هدرًا؟ إن عمر بن عبد العزيز يرى أن مات بهذا السبب فديته من بيت المال[٣]، فعنه أنه كتب فى رجلين ماتا فى الزحام: أن يوديا من بيت المال فإنما قتلتهما يد أو رجل[٤].

ثالثًا: فى الديات:

١- مقدار الدية: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد أن الدية كانت على عهد رسول الله ﷺ مائة بعير[٥].

٢- فى دية اللسان: عن سليمان بن موسى قال: فى كتاب عمر بن عبد العزيز فى الأجناد: ما قطع فى اللسان فبلغ أن يمنع الكلام كله ففيه الدية كاملة، وما نقص دون ذلك فبحسابه[٦].

٣ ـ فى دية الصوت والحنجرة: حيث إن الصوت مصدره الحنجرة وأن إتلافها قد يذهب بالصوت، ومن ثم فلا كلام، فقد رأى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أن فيها الدية كاملة إذا انقطع الصوت من ضربة[٧]، فعنه أنه قال: فى الحنجرة إذا كسرت فانقطع الصوت الدية كاملة[٨].

٤ ـ فى دية الذكر: وأما الذكر فلأهميته للرجل ولأنه إذا ذهب انقطعت شهوته؛ وذهب نسله فقد رأى عمر بن عبد العزيز أنه إذا ذهب كله ففيه الدية كاملة، وما كان دون ذلك فبحسابه، فعنه أنه قال: فى الذكر الدية، فما كان دون ذلك فبحسابه[٩].

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٠/١٦، ١٧).
(٢) المصدر نفسه (٩/ ٤٥٩).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٣٦).
(٤) المحلى (١٠/ ٤١٨).
(٥) مصنف ابن شيبة (٩/ ١٢٨).
(٦) المصنف لعبد الرزاق (٩/ ٣٥٧)، فقه عمر (٢/ ٦٦).
(٧) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٩).
(٨) مصنف ابن أبى شيبة (٩/ ١٧٠)، فقه عمر (٢/ ٦٩).
(٩) مصنف عبد الرزاق (٩/ ٣٧٢).

٥- في دية إفضاء المرأة: إذا أصاب الرجل المرأة فأفضاها، فقد ينتج عن ذلك منع اللذة والجماع، وقد نتج عنه عدم حبس الحاجتين والولد، ونظرًا لخطورة هذا الأمر فقد جعل فيه عمر بن عبد العزيز الدية كاملة، وفي رواية عنه أنه جعل فيه ثلث الدية[١]، ويمكن الجمع بين الروايتين بأن عمر بن عبد العزيز يجعل في إفضاء المرأة الدية كاملة إذا لم يحبس الحاجتين والولد، وثلث الدية إذا حبس الحاجتين والولد[٢].

٦- في دية الأنف: نظرًا للمصالح المترتبة على وجود الأنف من التنفس عن طريقه، ومعرفة الروائح والتمييز بينها، إضافة إلى جمال الوجه بوجود الأنف، والتشويه الحاصل بقطعه، كما أن العرب ترى في جدع الأنف إهانة لا يعدلها إهانة، لذلك فقد جعل عمر ابن عبد العزيز فيه الدية كاملة إذا جدع من أصله، وأن ما كان دون ذلك فبحسابه[٣].

٧- في دية الأذن: حيث إن الأذن تؤدي نصف منفعة السمع، ولأنها مما يكون في الإنسان منها اثنتان، فإن عمر بن عبد العزيز يرى إذا استؤصلت أو ذهبت منفعتها ففيها نصف الدية حيث إن قوله: في الأذن نصف الدية يتناول ذهاب سمعها ويتناول استئصالها[٤].

٨- في دية الرِجل: لما كان الإنسان لا يستطيع المشي إلا بالرجلين وأنه بالرجل الواحدة يكون قعيدًا، ولأن الرِجل مما يكون في الإنسان منها اثنتان، فقد جعل عمر بن عبد العزيز في الرِجل نصف الدية[٥].

٩- في دية ما بين الحاجبين: هناك بعض الجزئيات في الديات لم يتعرض لها العلماء قبل عمر بن عبد العزيز، وهاهو عمر بن عبد العزيز يرى فيها رأيه، من هذه الأمور دية الكسر إذا وقع بين الحاجبين وشان الوجه ولم ينقل منها العظام[٦]، فقد قال: .. فإن كان بين الحاجبين كسر شان الوجه ولم ينقل منها العظام فربع الدية[٧].

١٠ ـ في دية الجبهة إذا هشمت: قال عمر بن عبد العزيز: في الجبهة إذا هشمت وفيها غوص من داخل مائة وخمسون دينارًا[٨].

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧١).
(٢) مصنف عبد الرزاق (٩/ ٣٧٧).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧٦).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٨٠).
(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٩/ ٢٠٩).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٨٨).
(٧) مصنف عبد الرزاق (٩/ ٣٢٠).
(٨) المصدر نفسه (٩/ ٢٩١).

١١- فى دية الذقن: وأما الذقن إذا كسرت فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن فيها ثلث الدية، فقد قال: فى الذقن ثلث الدية[١]، هكذا يقرر عمر بن عبد العزيز باجتهاده وبرأيه السديد أمورًا لم يسبق إليها، منها دية الذقن إذا كسرت فإنه جعل فيها ثلث الدية نظرًا لأهميتها، حيث يمتنع مع كسرها مضغ الطعام وفتح الفم. ويبدو أن هذا القول تفرد به[٢].

١٢- فى دية الأصابع: نظرًا لأهمية الأصابع وخاصة أصابع اليد، فقد رأى عمر بن عبد العزيز أن فى كل أصبع من أصابع اليد أو الرجل عشر الدية، وفى كل قصبة من قصب الأصابع ثلث دية الأصبع إلا الإبهام لأنه قصبتان ففى كل قصبة منه نصف دية الأصبع، فعن عمر بن عبد العزيز: فى كل أصبع عشر من الإبل أو عدل ذلك من ذهب أو ورق[٣].

١٣- فى دية الظفر: حتى الظفر لم يغفل عنه عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، فقد جعل فيه إذا اسود أو سقط عشر دية الأصبع عشرة دنانير، فعن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع له فى الظفر إذا نزع فعر[٤]، أو سقط أو اسود، العشر فى دية الأصبع، عشرة دنانير[٥].

رابعًا: فى الحدود:

١- أهمية إقامة الحدود: حيث إن إقامة الحدود سبب فى حفظ دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، واستتباب الأمن فى بلادهم، فقد أكد عمر بن عبد العزيز على إقامة الحدود حتى جعلها من حيث الأهمية كإقامة الصلاة والزكاة[٨]، فقد كتب عمر بن عبد العزيز: إن إقامة الحدود عندى كإقامة الصلاة والزكاة[٧].

٢ ـ فى منع الرجوع عن الحدود بعد بلوغها الإمام: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن مسائل الحدود إذا رفعت إلى الإمام أو القاضى فإنها تكون قد بلغت حدًا لا يمكن الرجوع فيه بل يجب تنفيذ ما ثبت من الحدود[٨].

٣ ـ فى اجتماع أكثر من حد على رجل واحد: قد يأتى الرجل بعدة جرائم قبل أن يقام عليه الحد، مثل أن يزنى ويسرق ويقتل، فهل قتله كاف عن الحدود الأخرى فيأتى عليها؟ أم أنها

(١) مصنف عبد الرزاق (٩/ ٣٦١)، مصنف ابن أبى شيبة (٩/ ١٧٩).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٩٦).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٠٠).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٠٢).
(٥) المصدر نفسه (٢/ ١٠٣).
(٦) المصدر نفسه (٢/ ١١١).
(٧) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٧٨).
(٨) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١١٣).

تقام عليه الحدود ثم يقتل؟ إن الرواية عن عمر بن عبد العزيز تدل على أنه يقيم الحدود أولاً ثم يُقتل[(١)].

٤- فى عدم القطع أو الصلب إلا بعد مراجعة الخليفة: رأى عمر بن عبد العزيز أن على الولاة مراجعة الخليفة فى قضايا القتل والصلب، وأن لا يُقتل أحد ولا يُصلب إلا بعد موافقة الخليفة على ذلك[(٢)].

٥- يشترط فى المقذوف أن يكون مسلمًا: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أنه لا حد فى قذف كافر، وذلك لأن الكفر أكبر من الزنا المقذوف به، فلا حاجة إلى إثبات براءته من هذا الذنب ما دام فيه أكبر منه وهو الكفر[(٣)]، فعن طارق بن عبد الرحمن ومطرف بن طريف قالا: كنا عند الشعبى فرفع إليه رجلان، مسلم ونصرانى، قذف كل واحد منهما صاحبه فضرب النصرانى للمسلم ثمانين، وقال للنصرانى: ما فيك أعظم من قذف هذا فتركه، فرفع ذلك إلى عبد الحميد بن زيد، فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز فذكر ما صنع الشعبى، فكتب عمر يحسّن ما صنع الشعبى[(٤)]، هكذا يرى عمر بن عبد العزيز أنه لا حد على قذف الكافر إذ ليس بعد الكفر ذنب، ولأن الكافر فيه الكفر وهو أكبر مما قذف به، إذ لو وجد فيه الزنا فهو أقل من الكفر، إذن فلا حد على من قذف الكافر[(٥)].

٦ ـ عدم سقوط الحد بقذف الرجل ابنه: إذ قذف الرجل ابنه، فهل يقام عليه الحد أم لا؟ وهل من حق الأب على ابنه أن يقذفه بما ليس فيه؟ وإذا كان عليه حد فهل يسقط عنه إذا عفا الابن؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن من قذف ابنه يقام عليه الحد، إلا إذا عفا الولد عن والده فلا يقام عليه حد[(٦)]، فعن ابن جريج قال: أخبرنى رزيق ـ صاحب أيلة ـ أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز فى رجل افترى على ابنه، فكتب بحد الأب إلا أن يعفو عنه ابنه[(٧)].

٧ ـ عقوبة قذف النصرانية تحت المسلم: إذا كانت النصرانية تحت مسلم وقُذفت، ونظرًا لأن قذفها يتعدى لزوجها المسلم أو ابنها المسلم فإن عمر بن عبد العزيز يجلد من قذفها دون الحد[(٨)]. فعن أبى إسحاق الشيبانى عن عمر بن عبد العزيز فى رجل قذف نصرانية لها ولد

(١) فقه عمر (٢/ ١١٧).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٢٠)، سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١١٤، ١١٥.

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٣٠).

(٤) المصنف لعبد الرزاق (٦/ ٦٤ ـ ٦٥) (٧/ ١٣٠ ـ ١٣١).

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٣٠).

(٦) المصدر السابق (٢/ ١٣٣).

(٧) مصنف ابن أبى شيبة (٩/ ٥٠٤).

(٨) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٣٦).

مسلم، فجلده عمر بضعة وثلاثين سوطًا[1]، وقد وافق عمر بن عبد العزيز فى رأيه هذا الزهرى، وقال قتادة: يجلد الحد[2]، وقد اتفق أصحاب المذاهب الأربعة على أنه لا يحد، وأما المالكية فقالوا: ينكل من أجل أولادها المسلمين[3].

٨ - قذف المرأة للرجل بنفسها: عن عمر بن عبد العزيز أنه أتته امرأة فقالت: إن فلانًا استكرهنى على نفسى، فقال: هل سمعك أحد أو رآك؟ قالت: لا، فجلدها بالرجل[4]. هذه مسألة لا تتناول عقوبة الزنا، وإنما هى خاصة بالقذف، فالمرأة التى تدعى على الرجل أنه استكرهها على الزنا، هى بكلامها هذا تعتبر قاذفة له بنفسها، وعليها حد القذف إلا أن تأتى ببينة تدرأ عنها هذا الحد، فسماع صياح المرأة هو عند عمر بن عبد العزيز يعفيها من حد القذف، أو أن يكون أحد رآها، وقد وافق عمر بن عبد العزيز فى جلدها، إن لم يكن لها بينة - الزهرى وقتادة وربيعة ويحيى بن سعيد الأنصارى[5].

٩- عدم قطع السارق قبل خروجه بسرقته: ذهب عمر بن عبد العزيز بأنه لا قطع على السارق حتى يخرج بسرقته، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لا يقطع حتى يخرج بالمتاع من البيت[6].

١٠ ـ النباش سارق يستحق القطع: إن من الناس من يأتى أمورًا تشمئز منها النفوس، حتى الميت فى قبره لم يسلم من بعض المنحرفين، فهناك سارق يحفر القبر، ويأخذ أكفان الميت، وهذا عمر بن عبد العزيز يرى أن النباش سارق يستحق القطع، لأن من سرق من الأموات كمن سرق من الأحياء[7]، فعن معمر قال: بلغنى أن عمر بن عبد العزيز قطع نباشًا[8].

١١ ـ عقوبة شرب الخمر للمرّة الثانية: عن عبادة بن نسى قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يضرب رجلاً حدًا فى خمر فخلع ثيابه ثم ضربه ثمانين رأيت منها ما بضع، ومنها ما لم يبضع، ثم قال: إنك إن عدت الثانية ضربتك ثم ألزمتك الحبس حتى تُحدث خيرًا. قال: يا أمير المؤمنين أتوب إلى الله أن أعود إلى هذا أبدًا، فتركه عمر[9].

(١) مصنف عبد الرزاق (٧/ ١٣٠).
(٢) المصدر نفسه (٧/١٢٩، ١٣٠).
(٣) المغنى (٨/٢١٦)، فقه عمر (٢/ ١٣٧).
(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٤٠).
(٥) المحلى (١١/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٤٦).
(٧) المصدر نفسه (٢/ ١٤٧).
(٨) مصنف بن أبى شيبة (١٠/ ٣٤).
(٩) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦٥)، فقه عمر (٢/ ١٥٧).

١٢- عقوبة ساقى الخمر: إن من يوفر الخمر أو يقدمها لمن يشربها ينبغى أن لا تقل عقوبته عن شاربها، لأنه تسبب فى إيصالها لمن يشربها، ولذلك فقد جلد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ساقى الشراب مع الذين يشربون(١)، فعن ابن التميمى أن عمر بن عبد العزيز وجد قومًا على شراب، ووجد معهم ساقيًا، فضربه معهم(٢).

١٣- إتلاف أوانى الخمر مع الخمر: عن هارون بن محمد عن أبيه قال: رأيت عمر بن عبد العزيز بخناصرة يأمر بزقاق الخمر أن تشقق. وبالقوارير أن تكسر(٣).

١٤- إدخال الكفار الخمر إلى بلاد المسلمين: إذا كان الكفار يعتقدون حل الخمر ويشربونها فى بلادهم، فإذا جاءوا إلى بلاد المسلمين ومعهم الخمر فهل يسمح لهم بدخولها معهم؟ أو يسمح بتوفيرها لهم ليشربوها فى بلاد المسلمين؟، إن على الكفار فى بلاد المسلمين أن يصبروا عن الخمر ما داموا يرغبون العيش فى بلاد المسلمين، وإذا كان لكل دولة نظمها والداخل إليها يجب أن يراعيها، ولأن هذا نظام دولة الإسلام وهو أيضًا نظام رب العالمين، فهو أحق بالرعاية والالتزام، وهذا المنطلق نجد عمر بن عبد العزيز يمنع أهل الذمة من إدخال الخمر معهم إلى بلاد المسلمين، فقد كتب عمر فى خلافته: أن لا يدخل أهل الذمة بالخمر أمصار المسلمين فكانوا لا يدخلونها(٤).

١٥- فى عقوبة الساحر: عن همام عن يحيى أن عامل عُمان كتب إلى عمر بن عبد العزيز فى ساحرة أخذها، فكتب إليه عمر: إن اعترفت أو قامت عليها البينة فاقتلها(٥)، وهذا مذهب الأئمة الثلاثة أبى حنيفة ومالك وأحمد(٦)، وقد كتب عمر بن الخطاب فى خلافته إلى الولاة أن اقتلوا كل ساحر وساحرة(٧).

١٦- استتابة المرتد: المسلمون لا يكرهون أحدًا على الإسلام ولكنهم أيضًا لا يقبلون التلاعب بالدين، فمن دخل فى دين الإسلام طائعًا مختارًا أو ولد فى الإسلام ثم كفر بعد إيمانه فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن يستتاب، ويدعى إلى الإسلام ثلاثة أيام، فإن تاب ورجع إلى الإسلام قُبل منه فإن أبى ضربت عنقه(٨).

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٥٩).

(٢) المصنف لعبد الرزاق (٩/ ٢٣٠).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٦٥).

(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٦٤).

(٥) مصنف ابن أبى شيبة (١٠/ ١٣٥).

(٦) حاشية ابن عابدين (١/ ٣١)، المغنى (٨/ ١٥٣)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٧٦).

(٧) مصنف ابن أبى شيبة (١٠/ ١٣٦).

(٨) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٥١)، مصنف عبد الرزاق (١٠/ ١٧١).

١٧- طريقة استتابة المرتد: عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه قال: كنت عاملاً لعمر بن عبد العزيز فكتبت إليه، أن رجلاً كان يهوديًا فأسلم ثم تهود فرجع عن الإسلام، فكتب إلى عمر: أن ادعه إلى الإسلام، فإن أسلم فخل سبيله، وإن أبى فادع بالخشبة فأضجعه عليها، ثم ادعه، فإن أبى فأوثقه ثم ضع الحربة على قلبه ثم ادعه، فإن رجع فخل سبيله وإن أبى فاقتله. قال: ففعل ذلك به حتى وضع الحربة على قلبه، فأسلم فخلى سبيله[١]، قال الدكتور محمد شقير: لم أر قولاً لغير عمر بن عبد العزيز بهذا التفصيل، وذهب الأئمة الأربعة إلى أن المرتد يقتل بعد استتابته إذا لم يرجع إلى الإسلام[٢].

١٨- عقوبة المرتدة: رأى عمر بن عبد العزيز أن تستتاب المرتدة، فإن تابت وإلا تسترق وتباع على غير أهل دينها[٣]، وهذا رأى قتادة قال: تُسبى وتباع، وكذلك فعل أبو بكر بنساء أهل الردة[٤]، وروى عن الحسن قال: لا تقتلوا النساء إذا هنّ ارتددن عن الإسلام، ولكن يدعين إلى الإسلام، فإن هن أبين سبين فيجعلن إماء للمسلمين ولا يقتلن[٥].

خامسًا: فى التعزيرات:

١- فى الحد الأقصى للضرب تعزيراً: العقوبة بالجلد تنقسم إلى قسمين: حد وتعزير، فالحد قد نص الشارع الحكيم عليه، فمقداره محدد، لا مجال لأحد أن يزيد عليه أو ينقص منه، وأما الجلد تعزيراً فهو عقوبة لإتيان أمر لا حد فيه، أو أى جناية لا حد فيها، فهو متروك للحاكم ليحدد مقداره حسب ما يرى، إلا أن عمر بن عبد العزيز جعل لذلك حدًا أقصى لا تجوز الزيادة عليه على قولين[٦]: الأول، لا تجوز الزيادة على ثلاثين جلدة، فعن محمد بن قيس أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بمصر: لا تبلغ العقوبة أكثر من ثلاثين سوطًا إلا فى حد من حدود الله[٧]، وفى القول الثانى: لا يبلغ بالجلد تعزيراً أقل الحدود، فعلى هذه الرواية لا يزاد للحر عن تسع وثلاثين جلدة ولا يزاد للعبد على تسع عشرة جلدة، لأن العشرين للعبد والأربعين للحر هى أقل الحدود[٨]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم، وإن بلغ ذلك سوطًا واحدًا، وإياكم أن تبلغوا بأحد حدًا من حدود الله[٩].

---

(١) مصنف ابن أبى شيبة (١٢/ ٢٧٤).

(٢) روضة الطالبين (١٠/ ٧٥)، حاشية ابن عابدين (٣/ ٢٨٩).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٨١).

(٤) مصنف عبد الرزاق (١٠/ ١٧٦).

(٥) مصنف ابن أبى شيبة (١٠/ ١٤٠).

(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٨٨).

(٧) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٦٥).

(٨) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٨٩).

(٩) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ(١١٧).

٢ ـ النهى عن أخذ الناس بالمظنة وضربهم على التهمة: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى عدم جواز الأخذ بالظن، أو الضرب على التهمة، فهو يقرر بهذا مبدأ العدالة وترجيح التحقيق العادل على التحقيق الحازم، وذلك خوفًا من أن يظلم برئ، فقد فضل عمر بن عبد العزيز أن يلقوا الله بخيانتهم على أن يلقى هو الله بدمائهم[١]، عن إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى قال: حدثنى أبى عن جدى، قال: لما ولانى عمر بن عبد العزيز الموصل، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقًا ونقبًا[٢]، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلد، وأسأله أخذ الناس بالمظنة، وأضربهم على التهمة، أو أخذهم بالبينة وما جرت عليه عادة الناس، فكتب إلىّ: أن أخذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله، قال يحيى: ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد، وأقله سرقًا ونقبًا[٣]، وكتب عدى بن أرطأة إلى عمر بن عبد العزيز: . . . أما بعد أصلح الله أمير المؤمنين، فإن قبلى أناسًا من العمال قد اقتطعوا من مال الله، عز وجل، مالاً عظيمًا لست أرجو استخراجه من أيديهم إلا أن أمسهم بشىء من العذاب، فإن رأى أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ أن يأذن لى فى ذلك أفعل. قال: فأجابه: أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب بشر كأنى لك جُنة من عذاب، وكأن رضائى عنك ينجيك من سخط الله عز وجل، فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذه بما قامت عليه البينة، ومن أقر لك بشىء فخذه بما أقر به، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم، وخل سبيله، وايم الله، لأن يلقوا الله عز وجل بخيانتهم أحب إلىّ من أن ألقى الله بدمائهم[٤]، وهكذا يقرر عمر بن عبد العزيز الأخذ بالتحقيق العادل لا بالتحقيق الحازم. وقد قال بعدم الأخذ بالمظنة والضرب على التهمة كل من عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعطاء[٥].

٣- النهى عن المثلة: حلق الرأس جعله الله نسكًا وسنة ـ فى الحج والعمرة ـ كما أن رسول الله ﷺ نهى عن حلق اللحية، ولكن بعض الناس خالفوا ذلك كله، وجعلوا حلق الرأس واللحية عقوبة، وهذا عمر بن عبد العزيز ينهى عن هذا العمل ويسميه المثلة[٦]، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له: إياك والمثلة؛ جز الرأس واللحية[٧] ومذهب الأئمة الأربعة أنه لا يجوز التعزير بحلق اللحية وعند مالك وأبى حنيفة ولا بحلق الرأس[٨].

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢١٢). (٢) النَّقب: الثقب فى أى شئ كان.

(٣) حلية الأولياء (٥/ ٢٧١)، سيرة عمر ين عبد العزيز لابن الجوزى ص (١١٧، ١١٨).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم صـ ٥٥.

(٥) مصنف عبدالرزاق (١٠/ ٢١٧، ٢١٩) فقه عمر (٢ / ٢١٣).

(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢١٥). (٧) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٨٠).

(٨) مغنى المحتاج (٤/ ١٩٢)، جواهر الإكليل (٢/ ٢٢٥).

سادسًا: في أحكام السجناء:

١- تعجيل النظر في أمر المتهمين: أمر عمر بن عبد العزيز بتعجيل النظر في أمور المتهمين، فمن كان عليه أدب فيؤدب ويطلق سراحه، ومن لم يثبت عليه قضية يخلى سبيله، ويرى أن إقامة الحدود سبب لقلة السجناء لأنها تكون زاجرًا لأهل الفسق والزعارة[1]، فعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز... فلو أمرت بإقامة الحدود لقلّ أهل الحبس، ولخاف أهل الفسق والدعارة، ولتناهوا عما هم عليه، إنما يكثر أهل الحبس لقلة النظر في أمورهم، إنما هو حبس وليس نظر، فمر ولاتك جميعًا بالنظر في أمر أهل الحبوس في كل الأيام، فمن كان عليه أدب أُدِّبَ وأطلق، ومن لم تكن له قضية خلى عنه[2].

٢- في الاهتمام بأمور المسجونين: قام عمر بن عبد العزيز رحمه الله بالإصلاح على كل طريق، وحقق العدل على كل صعيد، فقد اهتم بأمر المسجونين اهتمامًا شديدًا، وأصدر تعليماته بتعهدهم بكل ما يحتاجونه من طعام وأدم وكسوة وغير ذلك[3]، وعن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز:... وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم... فمر بالتقدير لهم مايقوتهم في طعامهم وأدمهم، وصير ذلك دراهم تجرى عليهم في كل شهر، يدفع ذلك إليهم، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة[4]، وولِّ ذلك رجلاً من أهل الخير والصلاح، ويدفع ذلك إليهم شهرًا بشهر، يقعد ويدعو باسم رجل رجل، ويدفع ذلك إليه في يده... وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء، وفي الصيف قميص وإزار، وتزاد المرأة مقنعة...ومن مات منهم ولم يكن له ولي ولا قرابة يغسل ويكفن من بيت المال ويصلى عليه ويدفن[5]. وكتب إلى أمراء الأجناد: وانظروا من في السجون ممن قام عليه الحق ..ولاتعد في العقوبة، ويعاد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال...وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشي، فإن من ارتشى صنع ما أمر به[6].

٣- سجن خاص بالنساء: يمضي عمر بن عبد العزيز قدمًا في تنظيم السجون والاهتمام بأمر المسجونين وتعاهدهم، فيأمر بأن يُجعل للنساء حبس خاص بعيدًا عن الاختلاط

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٢٥).

(٢) الخراج لأبي يوسف ص (١٠٣). فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٢٥).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٢٦).

(٤) الجلاوزة: جمع جلاوز وهو الشرطي.

(٥) الخراج لأبي يوسف ص (٣٠٠، ٣٠١).

(٦) الطبقات الكبرى لا بن سعد (٥ ـ ٣٥٦).

بالرجال مما يؤكد على اختيار أهل الدين والأمانة، ليتولوا أمور السجناء[1]، فقد كتب عمر ابن عبد العـزيز إلى أمراء الأجناد: وانظروا من في السجـون ممن قام عليه الحق فلا تحبسه حتى تقيم عليه، ومن أشكل أمره فاكتب إليَّ فيه، واستوثق من أهل الزعارات فإن الحبس لهم نكال، ولا تعد في العـقوبة، وتعاهد مـريضهم ممن لا أحد له ولا مال، وإذا حـبست قومًا في دين فلا تجمع بينهم وبين أهل الزعـارات في بيت واحد ولا حبس واحد، واجعل للنساء حبسًا على حدة، وانـظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشي، فإن من ارتشى صنع ما أمر به[2]، ومما سبق نلاحظ اهتمام عمر بن عـبد العزيز بالسجناء وحرصه على إقامة العدل فيهم وإصلاح ما أفسده من قبله في التعامل معهم.

سابعًا: في أحكام الجهاد:

١- سن من يشرع له الاشتراك في القتال: كان شباب الرعيل الأول من المسلمين يتسابقون ويتنافسـون على الاشتراك في القـتال، وإذا لم يسمح لأحدهـم بالاشتراك في القتـال فإنه يتحسر ويحاول إقناع ولي الأمر بأنه يستطيع القتـال، وقد حدد عمر بن عبد العزيز سن من يسمح له بالقتال، والفرض له مع المقاتلة، فـحدده بخمس عشرة سنة، ومن كان دون ذلك فيكون فرضه في الذرية ولا يسمح له بالاشتراك في القتال[3].

٢- كيفية بداية قـتال غير المسلمين: عن صفوان بن عمرو قال: جاءنا كتاب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة إلى عامله أن لا تقاتلن حصنًا من حصون الروم ولا جماعة من جماعتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فاكفف عنهم، وإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء[4].

٣- في مدة الرباط: الرباط في سبيل الله من أحب الأعمال إلى الله تعالى، ويترتب عليه الأجر الوفيـر من الله سبحانه وتعالى، وقـد ذهب عمر بن عبـد العزيز إلى أن مدة الرباط أربعون يومًا، فقد قال: تمام الرابط أربعون يومًا[5].

٤ ـ في حكم تصرف المقاتل في ماله: قال عمر بن عبد العزيز: إذا كان الرجل في الحرب على ظهر فرسه يقاتل فما صنع في ماله فهو جائز[6].

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٢٨).
(٢) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٥٦) فقه عمر (٢/ ٢٢٨).
(٣) فقه عمر (٢/ ٤١٥).
(٣) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٥٥).
(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٥٥)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٤).
(٦) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٥٢).

٥- **في بيع الخيل للعدو:** بيع السلاح ونقله، أو الخيل أو ما يقوى الأعداء، ويشد من أزرهم ويقويهم على حرب المسلمين، جريمة في حق من يفعله، وينبغي حجز هذه الأشياء وما في حكمها حتى لا تصل إلى العدو. ومن هذا المنطلق منع عمر بن عبد العزيز حمل الخيل إلى الهند باعتبارها بلداً من بلدان المشركين في زمن عمر بن عبد العزيز، والعداوة لا تخفى بين أهل الإسلام وأهل الشرك[١].

٦- **افتداء أسارى المسلمين ولو كثر الثمن:** أكد عمر بن عبد العزيز على وجوب فك أسارى المسلمين في رسائله إلى عماله، بأن يُفادوا مهما بلغ ذلك من المال، فقد كتب عمر ابن عبد العزيز إلى بعض عماله: أن فاد بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[٢]، وعن ربيعة بن عطاء عن عمر بن عبد العزيز أنه أعطى برجل من المسلمين عشرة من الروم وأخذ المسلم[٣]، وفي رواية: أن فادوا بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[٤].

٧- **افتداء الرجل والمرأة والعبد والذمي:** عن ربيعة بن عطاء قال: كتب عمر بن عبد العزيز معي وبعث بمال إلى ساحل عدن: أن أفتدى الرجل والمرأة والعبد والذمى[٥]. مما تقدم يظهر عدل عمر بن عبد العزيز جليًا حيث أمر بافتداء من يعيش على أرض المسلمين حتى ولو كان عبداً أو ذميًا؛ لأن الذمى له أن يحفظ ويدافع عنه ويفتدى لو وقع في الأسر، وهذا أكبر دليل على وفاء المسلمين بذمتهم إلى أبعد مما يتصوره أحد[٦].

٨- **كراهة قتل الأسرى:** عن معمر قال: أخبرني رجل من أهل الشام ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز: ما رأيت عمر بن عبد العزيز قتل أسيراً قط، إلا واحداً من الترك، قال: جئ بأسرى من الترك، قال: فأمر بهم أن يسترقوا، فقال رجل ممن جاء بهم: يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هذا ـ لأحدهم ـ وهو يقتل في المسلمين لكثر بكاؤك عليهم! قال: فدونك فاقتله، قال: فقام إليه فقتله[٧].

لقد كره عمر بن عبد العزيز قتل الأسرى، ومنع ذلك إلا واحداً قتل كثيراً من المسلمين، وأذن في أن يسترقوا[٨].

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٧).
(٢) حلية الأولياء (٥/ ٣١١، ٣١٢).
(٣) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٥٤).
(٤) سيرة عمر لابن الجوزى صـ(١٢٠).
(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٥٣).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٣٦).
(٧) مصنف عبدالرزاق (٥/ ٢٠٥، ٢٠٦).
(٨) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٣٨).

ثامنًا: فى النكاح والطلاق:

١- زواج المرأة بغير ولى: عن سفيان عن رجل من أهل الجزيرة عن عمر بن عبد العزيز أن رجلاً تزوج امرأة ولـها ولى هو أدنى منه بدروب الروم، فرد عمر النكاح وقال: الولى وإلا فالسلطان(١).

٢- تزويج الوليين للمرأة على رجلين: عن ثابت بن قيس الغفارى قال: كتبت إلى عمر ابن عبد العزيز فى جارية من جهينة زوجها وليها رجلاً من قيس، وزوجها آخر رجلاً من جهينة، فكتب عمر بن عبد العزيز أن أدخل عليها شهودا عدولاً وخيرها فأيهما اختارت فهو زوجها.

٣- زواج الرجل بالمرأة بعد الفجور بها: إذا زنى رجل بامرأة ثم بدا له أن يتزوجها، فهل يحل له ذلك ؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى جواز ذلك إذا رأى منها خيرًا، وهذا رأى رشيد لأنه يسد كثيرًا من أبواب الشر؛ لأنه لا فرق بين من فجر بها، ومن لم يفجر بها، فلو قلنا: لا يجوز ذلك، فغير هذا الرجل أولى بأن لا يقبلها، وفى هذا شرور ومفاسد عظيمة(٢)، عن يحيى بن سعيد قال: بلغنى أن عمر بن عبد العزيز سئل عن إمرأة أصابت خطيئة، ثم رأى منها خيرًا، أينكحها الرجل؟ فقال له: الظن كما بلغنى، أى أنها له(٣).

٤- نكاح امرأة الأسير: عن عمر بن عبد العزيز قال: لا تنكح امرأة الأسير أبدًا مادام أسيرًا(٤)، فالأسير المسلم إنما وقع فى الأسر نتيجة لإقدامه وبلائه فى قتال الأعداء، رفعًا لراية الإسلام، أو دفاعًا عن بلاد المسلمين، وتقديرًا لهذا الموقف النبيل حيث ضحى بنفسه فى سبيل دينه، فإن على امرأته أن تقدر له ذلك وأن تصبر حتى يفك الله أسره، ثم يعود إليها خاصة أن بقاءه فى الأسر وغيبته هذه ليست من اختياره، كما أن إطلاق سراحه محتمل فى كل وقت، ولذلك كله كان من العدل والإنصاف أن لا تتزوج امرأة الأسير مادام أسيرًا(٥).

٥- نكاح امرأة المفقود:

إذا فقد الرجل وانقطعت أخباره، فلا يدرى أحى هو أم ميت، فهل تبقى زوجته تنتظره؟ وما مدة الانتظار؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن امرأة المفقود تعتد أربع سنين وبعدها

(١) مصنف ابن أبى شيبة (٤/١٣٢)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤٠٥).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤١٢).
(٣) مصنف ابن أبى شيبة (٤/ ٢٥٠)، فقه عمر (١/٤١٢).
(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/٣٥١).
(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤١٧).

تتزوج[1]، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطأة: أن امرأة المفقود تعتد أربع سنين[2]، والظاهر أن عمر بن عبد العزيز يرى جواز زواج امرأة المفقود بعد مضى السنين الأربع، والعدة بعدها أربعة أشهر وعشر[3].

٦- صداق المطلقة قبل الدخول بها فى مرض زوجها: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن لها نصف المهر، فلا تأثير لتطليق زوجها فى حال المرض[4]، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لها نصف الصداق، ولاميراث لها، ولا عدة عليها[5].

٧ ـ اشتراط الرجل لنفسه شيئًا عند زواج ابنته: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن المهر للمرأة وإن اشترط والدها شيئًا لنفسه، فهو للمرأة دون الأب[6]، وعن الأوزاعى أن رجلاً زوج ابنته على ألف دينار وشرط لنفسه ألف دينار فقضى عمر بن عبد العزيز للمرأة بألفى دينار دون الأب[7].

٨ ـ اللعب بالطلاق جد: يرى عمر بن عبد العزيز، أن الرجل يحاسب على الطلاق سواء كان جادًا أو هازلاً، فعن سليمان بن حبيب المحاربى قال: كتب إلىّ عمر بن عبد العزيز: مهما أقلت السفهاء عن شىء فلا تقيلوهم الطلاق والعتاق[8].

٩ ـ فى طلاق المكره: قد يحصل للإنسان بعض مواقف يكره فيها على الطلاق كأن يستحلف بالطلاق على أن يفعل كذا أو يترك كذا، وقد يكره ويهدد إذا لم يطلق امرأته، فهل هذا النوع من الطلاق على هذه الصفة يقع؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن طلاق المكره لا يقع[9]، عن عمر بن عبد العزيز قال: لا طلاق ولاعتاق على مكره[10].

١٠ ـ فى تطليق الرجل نصف تطليقة: قيل لعمر بن عبد العزيز: الرجل يطلق امرأته نصف تطليقة قال: هو تطليقة[11].

١١ ـ تطليق المرأة نفسها إذا جعل أمرها بيدها: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن الطلاق يقع، وأن هذا الطلاق وإن كان ثلاثًا يعتبر واحدة، وهو أحق بها إن أراد مراجعتها، فقد

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤١٨).
(٢) المحلى (١٠/ ١٣٨).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤١٨).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٤٢٣).
(٥) مصنف ابن أبى شيبة (٤/ ٣٣١، ٣٣٢).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٢٥).
(٧) مصنف ابن أبى شيبة (٤/ ٢٠١).
(٨) المصدر نفسه (٥/ ١٠٦).
(٩) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٣٤).
(١٠) مصنف ابن أبى شيبة (٥/ ٤٩).
(١١) المصدر نفسه (٥/ ٥٣)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٤١).

كتب عمر بن عبد العزيز فى رجل من بنى تميم جعل أمر امرأته بيدها، قال: إن ردت الأمر عليه فلا شيء، وإن طلقت نفسها فهى واحدة وهو أحق بها[١].

١٢ ـ إسلام المرأة تحت الكافر: إذا أسلمت المرأة تحت الرجل الكافر فإنها تخرج منه، ويفرق بينهما، فعن معمر بن سليمان عن أبيه أن الحسن وعمر بن عبد العزيز قالا فى النصرانية تسلم تحت زوجها، قالا: الإسلام أخرجها منه[٢]. فمتى أسلمت المرأة وبقى الرجل على الكفر فلابد من التفريق بينهما، حتى لا تكون للكافر ولاية على مسلمة، لأن هذا غير مقبول فى شرع الله، فعن عمر بن عبد العزيز أنه يرى إذا أسلمت المرأة تحت الرجل الكافر فإنها تخرج منه ويفرق بينهما[٣]، وهذا التفريق لا يأتى إلا بعد عرض الإسلام عليه، فإن أسلم فهى امرأته وإن أبى فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن ذلك تطليقة بائنة[٦]، وأما إذا أسلم ولازالت امرأته فى العدة فهو أحق بها[٥].

١٣ ـ مدة انتظار الغائب: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن هناك حداً أقصى لمدة الغيبة وهو سنتان، وبعدها إما أن يقفل الغائب إلى زوجته، وإما أن يطلقها، فقد كتب: من غاب عن امرأته سنتين فليطلق أو ليقفل[٦] إليها[٧].

هذه بعض الاجتهادات الفقهية والفتاوى والأحكام القضائية التى مارسها عمر بن عبد العزيز والتى تدل على تبحره فى المسائل الشرعية، وقدرته على الإجتهاد، وإصدار الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله، ومن سبقه من الخلفاء الراشدين وعلماء الأمة، وقد قام الدكتور محمد شقير بجمع فقه عمر بن عبد العزيز فى مجلدين، فمن أراد التوسع فليرجع إلى هذه الرسالة العلمية التى نال بها صاحبها درجة الدكتوراة من المعهد العالى للقضاء بالرياض فى المملكة العربية السعودية.

****

(١) مصنف ابن أبى شيبة (٥/٥٧).
(٢) المصدر (٥/ ٩٠)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥٠).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥٠).
(٤) المصدر نفسه (١/٤٥١).
(٥) المصدر نفسه (١/٤٥٢).
(٦)، (٧) المصدر نفسه (١/ ٤٥٥).

المبحث الثامن

الفقه الإدارى عند عمر بن عبد العزيز وأيامه الأخيرة ووفاته رحمه الله

أولاً: أشهر ولاة عمر بن عبد العزيز:

اختار عمر لسياسة الرعية وإعمال الحق بين الناس الولاة الثقات الخيرين الأبرار ممن اشتهروا بالأمانة والعلم والقوة، والتواضع وعفة النفس، والعدالة، وحسن الخلق والرحمة، والقدوة الحسنة ومشاورة الآخرين والنصح، وعدم الأنانية والكفاءة، والذكاء والحكمة. وقد قال ابن كثير فى ولاة عمر بن عبد العزيز: وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة[١]، ومن هؤلاء:

١- الجراح بن عبد الله الحكمى (والى خراسان وسجستان): قال عنه الذهبى: مقدم الجيوش، فارس الكتائب، أبوعقبة الجراح بن عبد الله الحكمى، ولى البصرة من جهة الحجاج، ثم ولى خراسان وسجستان لعمر بن عبد العزيز، وكان بطلاً شجاعًا مهيبًا، عابدًا، قارئًا، كبير القدر[٢]. قال الجراح الحكمى: تركت الذنوب حياءً أربعين سنة، ثم أدركنى الورع[٣]. كان على خراسان كلها؛ حربها وصلاتها ومالها[٤]. قتل عام ١١٢هـ فى خلافة هشام، فعن سليم بن عامر: دخلت على الجراح فرفع يديه، فرفع الأمراء أيديهم، فمكث طويلاً، ثم قال لى: يا أبا يحيى، هل تدرى ما كنا فيه ؟ قلت: لا ،وجدتكم فى رغبة فرفعت يدى معكم، قال: سألنا الله الشهادة، فوالله ما بقى منهم أحد فى تلك الغزاة حتى استشهد[٥]. قال خليفة: زحف الجراح من برذعة[٦] سنة اثنتى عشرة إلى ابن خاقا، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل الجراح فى رمضان وغلبت الخزر على أذربيجان وبلغوا إلى قريب الموصل[٧]، وكان البلاء بمقتل الجراح على المسلمين عظيمًا، بكوا عليه فى كل جند[٨].

٢- عدى بن أرطأة الفزارى (والى البصرة): كان أمير البصرة لعمر بن عبد العزيز، حدث عن عمرو بن عبسة وأبى أمامة، قال عباد بن منصور: خطبنا عدى على منبر المدائن حتى

(١) البداية والنهاية نقلاً عن عمر بن عبد العزيز عبد الستار صـ٢٧٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/١٨٩).

(٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٥/ ١٩٠) .

(٦) برذعة: قصبة أذربيجان .

(٧)، (٨) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٩٠) .

بكى وأبكانا[(١)]، وكان عمر بن عبد العزيز يتفقده بالنصائح والمواعظ، قال معمر: كتب عمر إلى عدى بن أرطأة: إنك غررتنى بعمامتك السوداء، ومجالستك القراء، وقد أظهرنا الله على كثير مما تكتمون، أما تمشون بين القبور؟[(٢)]. قدم عدى على البصرة، فقيد يزيد بن المهلب، وأنفذه إلى عمر بن عبد العزيز فلما مات عمر، انفلت، ودعا إلى نفسه، وتسمى بالقحطانى، ونصب رايات سودًا، وقال: أدعو إلى سيرة عمر بن الخطاب، فحاربه مسلمة ابن عبد الملك، وقتله، ثم وثب ولده معاوية فقتل عديًا، وجماعة صبرًا، سنة اثنتين ومائة[(٣)]. قال الدارقطنى: يحتج بحديثه.

٣- عبدالحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب (والى الكوفة): الإمام الثقة الأمير العادل أبو عمر العدوى الخطابى المدنى، ولى إمرة الكوفة لعمر بن عبد العزيز، كان قليل الرواية، كبير القدر، توفى سنة ١١٥هـ[(٤)].

٤- عمر بن هبيرة (والى الجزيرة): كان من الدهاة الشجعان، وكان رجل أهل الشام، ولاه عمر الجزيرة (١٠٠هـ) فتوجه إليها، وغزا الروم من ناحية أرمينية، فهزمهم وأسر منهم خلقًا كثيرًا، واستمر على الجزيرة إلى خلافة يزيد بن عبد الملك فولاه إمارة العراق وخراسان، ثم عزله هشام بخالد القسرى، فقيده وألبسه عباءة وسجنه، فتحيل غلمانه ونقبوا سَرَبًا وأخرجوه منه فهرب، واستجار بالأمير مسلمة بن عبد الملك، فأجاره، ثم لم يلبث أن مات سنة سبع ومائة تقريبًا[(٥)].

٥- أبوبكر محمد بن عمرو بن حزم (والى المدينة): وهو أحد الأئمة الأثبات الثقات، أمير المدينة ثم قاضى المدينة، قيل: كان أعلم أهل زمانه بالقضاء، روى عن أبيه وعباد بن تميم وعن سلمان الأغر وخالته عمرة بنت عبد الرحمن، وطائفة، وعداده فى صغار التابعين[(٦)]، روى عطاف بن خالد عن أمه عن زوجة ابن حزم: أنه ما اضطجع على فراشه منذ أربعين سنة[(٧)]، وقيل: كان رزقه فى الشهر ثلاثة مائة دينار[(٨)].

٦- عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد الأموى (والى مكة): أقر عمر على مكة عبد العزيز بن عبد الله الأموى والى سليمان بن عبد الملك، وثقة النسائى وابن حبان، توفى فى خلافة هشام بن عبد الملك[(٩)].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/٥٣) .
(٢)، (٣) المصدر نفسه (٥/٥٣).
(٤) المصدر نفسه (٥/١٤٩) .
(٥) المصدر نفسه (٤/٥٦٢) .
(٦) المصدر نفسه (٥/٣١٤) .
(٧) المصدر نفسه (٥/٣١٤) .
(٨) المصدر نفسه (٥/٣١٤) .
(٩) تاريخ خليفة ص(٣٢٣)، عمر وسياسته فى رد المظالم صـ٢٧٣.

٧- رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمي (والى مصر): ذكر ابن تغرى بردى خبراً انفرد به وهو: أن عمر بن عبد العزيز أقر على مصر عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمي المصرى، الذى كان حسن السيرة، عفيفًا عن الأموال، ثقة فاضلاً عادلاً بين الرعية، روى عنه الليث بن سعد وغيره، ثم عزله فى شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين دون أن يذكر سبب عزله[(١)] وولى مكانه أيوب بن شرحبيل بن أكسوم بن أبرهة بن الصباح[(٢)].

٨- إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر المخزومى (والى المغرب):

كان صالحًا فاضلاً زاهدًا قدم إفريقية سنة (٩٩هـ) ويقال: سنة (١٠٠هـ)، كان حسن السيرة، سار فيهم بالحق فأسلم على يديه عامة البربر، وكان حريصًا على إسلامهم، وكان عمر يرسل إليه بالرسائل لدعوة أهل الذمة للدخول فى الإسلام، فيقرأها عليهم. توفى إسماعيل بن عبيد الله سنة (١٣٢هـ)[(٣)].

٩- السمح بن مالك (بالأندلس): الأمير الشهير، استعمله عمر على الأندلس وأمره أن يميز أرضها، ويخرج منها ماكان فتحه عنوة فيأخذ منه الخمس وأن يكتب إليه بصفة الأندلس، فقدمها سنة (١٠٠هـ) وفعل ما أمره به عمر، واستشهد غازيًا بأرض الفرنجة[(٤)].

هؤلاء من أشهر ولاة عمر بن عبد العزيز الذين عينهم على الأقاليم والولايات والذين كانوا عند حسن الظن.

ثانيًا: حرص عمر بن عبد العزيز على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح:

إن عمال الخليفة وأمراء البلدان بخاصة هم نواب الخليفة فى أقاليمهم، والواسطة بينه ورعيته، ومهما كان الخليفة على درجة من الدراية فى تصريف أمور السياسة فإنه لا يستطيع تحقيق النجاح إلا إذا اختار عماله بعناية تامة، لذا عنى عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ عناية فائقة باختيار عماله وولاته، وحين نتتبع أخباره فى هذا الصدد نجد أن له شروطًا لا بد من تحققها فيمن يختار العمل عنده، ومن أهم هذه الشروط: التقوى، الأمانة، وحسن التدين، فلما عزل خالد بن الريان -الذى كان رئيسًا للحرس فى عهد الوليد بن سليمان ـ نظر عمر فى وجوه الحرس فدعا عمرو بن المهاجر الأنصارى فقال: والله إنك لتعلم يا عمرو أنه ما بينى وبينك قرابة إلا الإسلام، ولكنى سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك

(١) عمر وسياسته فى رد المظالم صـ ٢٨٩ .
(٢) المصدر نفسه صـ ٢٨٩ .
(٣) المصدر نفسه صـ٢٩٣ .
(٤) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار صـ٢٧١ .

تصلى فى موضع تظن أنه لا يراك أحد، فرأيتك تحسن الصلاة، خذ هذا السيف قد وليتك حرسى[1]، وكان يكتب إلى عماله: إياكم أن تستعملوا على شىء من أعمالنا إلا أهل القرآن، فإنه لم يكن عند أهل القرآن خير فغيرهم أحرى بأن لا يكون عندهم خير[2]. وإذا شك فى أمر من ينوى توليته لم يقدم على توليته حتى يتبين له حاله، فحين ولى الخلافة وفد عليه بلال بن أبى بردة فهنأه وقال: من كانت الخلافة - يا أمير المؤمنين - شرفته فقد شرفتها، ومن كانت زانته فقد زنتها، واستشهد بأبيات من الشعر فى مدح عمر فجزاه عمر خيرًا، ولزم بلال المسجد يصلى، ويقرأ ليله ونهاره، فهم عمر أن يوليه العراق، ثم قال: هذا رجل له فضل، فدس إليه ثقة له فقال له: إن عملت لك فى ولاية العراق ما تعطينى؟ فضمن له مالاً جليلاً، فأخبر بذلك عمر، فنفاه وأخرجه[3]، وكان يكره أن يولى أحدًا ممن غمس نفسه فى الظلم، أو عمل مع الظلمة لاسيما الحجاج[4]، وإذا كان من قبل عمر يجعل للعصبية والقرابة من البيت الأموى وزنًا فى تولية العمل، فإنه لم يكن شىء من ذلك فى ميزان عمر، فحدث الأوزاعى أن عمر بن عبد العزيز جلس فى بيته وعنده أشراف بنى أمية، فقال: أتحبون أن أولى كل رجل منكم جندًا من هذه الأجناد ؟ فقال رجل منهم: تعرض علينا ما لا تفعله؟ قال: ترون بساطى هذا؟ إنى لأعلم أنه يصير إلى بلى، وإنى أكره أن تدنسوا علىَّ بأرجلكم، فكيف أوليكم دينى؟ وأوليكم أعراض المسلمين وأبشارهم تحكمون فيهم؟ هيهات هيهات[5]. وقد كان لهذا النهج الذى تميزت به سياسة عمر بن عبد العزيز فى اختيار الولاة والعمال أثر فى الاستقرار السياسى فى الأقاليم، حيث رضى الناس سير عماله وحمدوا فعالهم، إذ لم يكن فى عماله من هو على شاكلة الحجاج يتعامل مع الناس بالشدة ويأخذهم بالتهمة، كما لم يكن منهم صاحب عصبية يرفع أناسًا ويضع آخرين فيجدوا عليه فى أنفسهم[6].

ثالثًا: الإشراف المباشر على إدارة شئون الدولة:

أشرف عمر بن عبد العزيز بنفسه على ما يتم فى دولته من أعمال صغرت أو كبرت، وكان يتابع عماله فى أقاليمهم، وساعده على ذلك أجهزة الدولة التى طورها عبد الملك بن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٣١ .
(٢) المصدر نفسه صـ ٨، سراج الملوك للطرطوشى صـ ٢٥٥.
(٣) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٨٢ .
(٤) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٨٢ .
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٢) .
(٦) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ١٨٣.

مروان، كالبريد، وجهاز الاستخبارات الكبير الممتد فى أطراف الدولة، والذى كان الخلفاء يستخدمونه فى جمع المعلومات، وعلى الرغم من عناية عمر بن عبد العزيز فى اختيار الولاة، فإن هذا لم يمنعه من العمل على متابعة أمر الرعية وتصريف شئون الدولة، وقد اشتهر عنه الدأب والجد فى العمل حتى أصبح شعاره: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، فقد قيل له: يا أمير المؤمنين لو ركبت فتروحت، قال: فمن يجزى عنى عمل ذلك اليوم؟ قيل: تجزيه من الغد، قال: فدحنى عمل يوم واحد، فكيف إذ اجتمع علىَّ عمل يومين[١]. وقال ميمون بن مهران: كنت ليلة فى سمر عمر بن عبد العزيز فقلت: يا أمير المؤمنين ما بقاؤك على ما أرى؟ أنت بالنهار فى حوائج الناس وأمورهم، وأنت معنا الآن، ثم الله أعلم ما تخلو عليه[٢]. فقد كان ـ رحمه الله ـ يمضى الكثير من وقته لرسم سياسته الإصلاحية التى شملت مختلف نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والإدارية، وغيرها.. حتى خلف رحمه الله كمًا هائلاً من تلك السياسات التى تمثل مواد نظام حكمه الإصلاحى الشامل، وقد بعث بهذه السياسات إلى عماله لتنفيذها فى مختلف الأقاليم، وكثيرًا ما يردفها بتوجيهات تربوية يذكر فيها عماله بعظم الأمانة الملقاة على عواتقهم، ويخوفهم بالله ويأمرهم بمراقبته وتقواه فيما يعملون ويذرون[٣]. وقد كان لمواعظ عمر وتوجيهاته أثر فى نفوس عماله أشد من وقع السياط، وأبلغ من أوامر العزل والإعفاء، فكتب مرة إلى أحدهم: يا أخى أذكرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء. فلما قرأ عامله الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبى بكتابك لا أعود إلى ولاية أبدًا حتى ألقى الله تعالى[٤]. ولم يكتف عمر ببعث تلك السياسات والتوجيهات إلى عماله، بل كان يحرص على متابعة تنفيذها، وتحقق آثارها على رعيته. فلا يفتأ يسأل القادمين عن ذلك، فقال زياد بن أبى زياد المدنى حين قدم على عمر من المدينة: فسألنى عن صلحاء أهل المدينة ورجالهم ونسائهم... وسألنى عن أمور كان أمر بها بالمدينة فأخبرته[٥]. وخرج عمر بن عبد العزيز يومًا فركب هو ومزاحم، وكان كثيرًا ما يركب فيلقى الركبان ويتحسس الأخبار عن القرى، فلقيهما راكب من أهل المدينة وسألاه عن الناس وما وراءه، فقال لهما: إن شئتما جمعت لكما خبرى، وإن شئتما بعضته تبعيضًا، فقالا: بل اجمعه، فقال: إنى تركت المدينة والظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور، والغنى موفور، والعائل مجبور،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ٥٥ لابن عبد الحكم.
(٢) الطبقات (٥/ ٣٧١).
(٣)، (٤) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٨٦.
(٥) المصدر نفسه صـ١٨٧.

فسُر عمر بذلك وقال: والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إلى مما طلعت عليه الشمس[1]. وحين قدم عليه رجل من خراسان وأراد العودة إلى بلاده طلب من عمر أن يحمله على البريد، فقال له عمر وقد اطمأن لسيرته: هل لك أن تعمل لنا عملاً وأحملك؟ فقال الرجل: نعم. فقال عمر: لا تأت على عامل لنا إلا نظرت فى سيرته، فإن كانت حسنة لم تكتب بها ، وإن كانت قبيحة كتبت بها. قال مزاحم: فما زال كتاب منه يجيئنا فى عامل فنعزله حتى قدم خراسان[2]. ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز كان يهتم بمصادر متنوعة بجمع المعلومات، لعلمه أن المعرفة الدقيقة بأمور الرعية والولاة تحتاج لجمع المعلومات الصحيحة التى يبنى عليها التوجيهات والأوامر والنواهى النافعة للأمة والدولة. لقد آتت هذه المتابعة الدقيقة من عمر لعماله والتوجيهات التفصيلية لهم ثمارها فى استقرار أحوال الأقاليم، كما أن هذه التوجيهات والمتابعة من عمر جعلت العمال والولاة فى حالة تحفز دائمة للعمل، حيث كانت تلك التوجيهات تقع فى نفوسهم بمكان، فحدث إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: رأيت أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يعمل بالليل كله وبالنهار لاستحثاث عمر إياه[3].

وكان رحمه الله يرسل المفتشين فى الأقاليم ليأتوه بالأخبار: فقد بعث على خراسان ثلاثة مفتشين، يبحثون فى ظلامات الناس من نظام خراجها، الذى قرره عدى بن أرطأة على الأهالى، وأرسل مفتشًا إلى العراق، ليأتيه بأخبار الولاة والناس فيها[4]. ولقد أعلن عمر فى إطار متابعته لشئون الدولة ما يمكن تسميته بالرقابة العامة، إذ كتب لأهل الموسم فى يوم الحج الأكبر: . . .إنى برئ من ظُلْم مَنْ ظلمكم. . . ألا وإنه لا إذن على مظلوم دونى، وأنا معوِّل كل مظلوم، ألا وأى عامل من عمالى رغب عن الحق، ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم. . .ألا وأيما وارد فى أمر يصلح الله به ، خاصة أو عامة ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، على قدر ما نوى من الحسبة[5]. فقد أعلن هذا فى أكبر تجمع إسلامى، بل شجع ماديًا ومعنويًا على مراقبته، ومراقبة عماله، والإفصاح عن كل ما لا يوافق الكتاب والسنة، وبطبيعة الحال فالأمة الإسلامية لا تحتاج إلى غير تعاليم الكتاب والسنة، إذا كان الإلتزام بها هدفًا منشودًا[6].

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١١٥.
(٢) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ١٨٨.
(٣) الطبقات (٥/٣٤٧)، أثر العلماء صـ١٨٨.
(٤) عمر بن عبد العزيز للزحيلى صـ١٨٢.
(٥) عمر لابن الجوزى صـ٩٠.
(٦) النموذج الإدارى المستخلص من عمر بن عبد العزيز صـ٤١٣.

رابعًا: التخطيط فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

يعرف التـخطيط فى معناه العام بأنه: العـملية التى تتخـذ لتلبية احتـياجات المستـقبل، وتحديد وسائل تحقـيقها[1]، كما عرف التخطيط بأنه: الجسـر بين الحاضر والمستقبل، ومن هذا التعريف العـام يمكن أن نقول: إن التخطيط فى الإسلام هو الاستعـداد فى الحاضر لما يواجهه الإنسان فى عمله[3]، أو حياته فى المستقبل[2]. وعمر بن عبد العزيز لم يكن ليتخذ قرارًا دونما تخطيط، وتوخٍ لعواقب الأمور، وأخذها بعين الاعتبار، ولعل من أهم المؤشرات على إدراك عمر لأهميـة التخطيط والتفكير فى الأمور قوله لرجـاء: يا رجاء، إن لى عقلاً أخاف أن يعذبنى الله عليه ، وكان عمر بن عبد العـزيز يعتمد على الله ثم جمع المعلومات والقدرة على حسن قراءتها، واستشراف المستقبل وتحقيق الأهداف المطلوبة، ففى ذلك يقول عمر: من عمل على غير علـم كان يفسد أكثر مما يصلح[4]، وقد كان عمر بن عبد العزيز فى تخطيطه يضع الأهداف ويختار السياسات، ويحدد الإجراءات ويبلور العمل فى خطته. ففى إطار بلورة الأهداف كـان هناك هدف رئيسى يسعى عمـر لتحقيـقه ألا وهو الإصلاح والتجديد الراشدى على منهاج النبوة والخلافـة الراشدة، والقيام بكل مقومات هذا المشروع الإصلاحى من إقامة العدل والحق وإزالة الظلم، وإعـادة الانسجام بين الإنسان وبين الكون والحياة وخالقهما فى إطار الفهم الشمولى للإسلام. وأما اختيار السياسات كأحد مقومات التخطيط، فإنه قد تجلى ذلك فى تطبيقات عمر للتخطيط الإدارى، ولا أدل على ذلك من عزم عمر على الاكتفاء بالكتاب الكريم والسنة الشريفة[5]، وأنه غير مستعد للاستماع إلى أى جدل فى مـسائل الشرع، والدين، على أساس أنـه حاكم منفذ وأن الشرع من جـانبه على نفسه وعلى رعيته، كمـا ألزم الرعية بالتمسك بذلك الشرع القويم[6]، هذا فى إطار تحديد واختيار السيـاسة العامة، أما تحديد الإجراءات كأحد مقـومات التخطيط أيضًا، فإن ذلك يتضح من خـلال الإجراءات التى حددها لتنفـيذ هذه السياسـة من اللقاء الأول مع الأمة عندمـا وضع شروطًا لصحـبته -والتى قد بـينتها فيـما مضى-. وأمـا بلورة طريقة العمل، فإنه قـد وضح بأنه منفذ وليس مبتـدعًا ـ أى منفذًا لتعـاليم الدين وأن الطاعة لمن

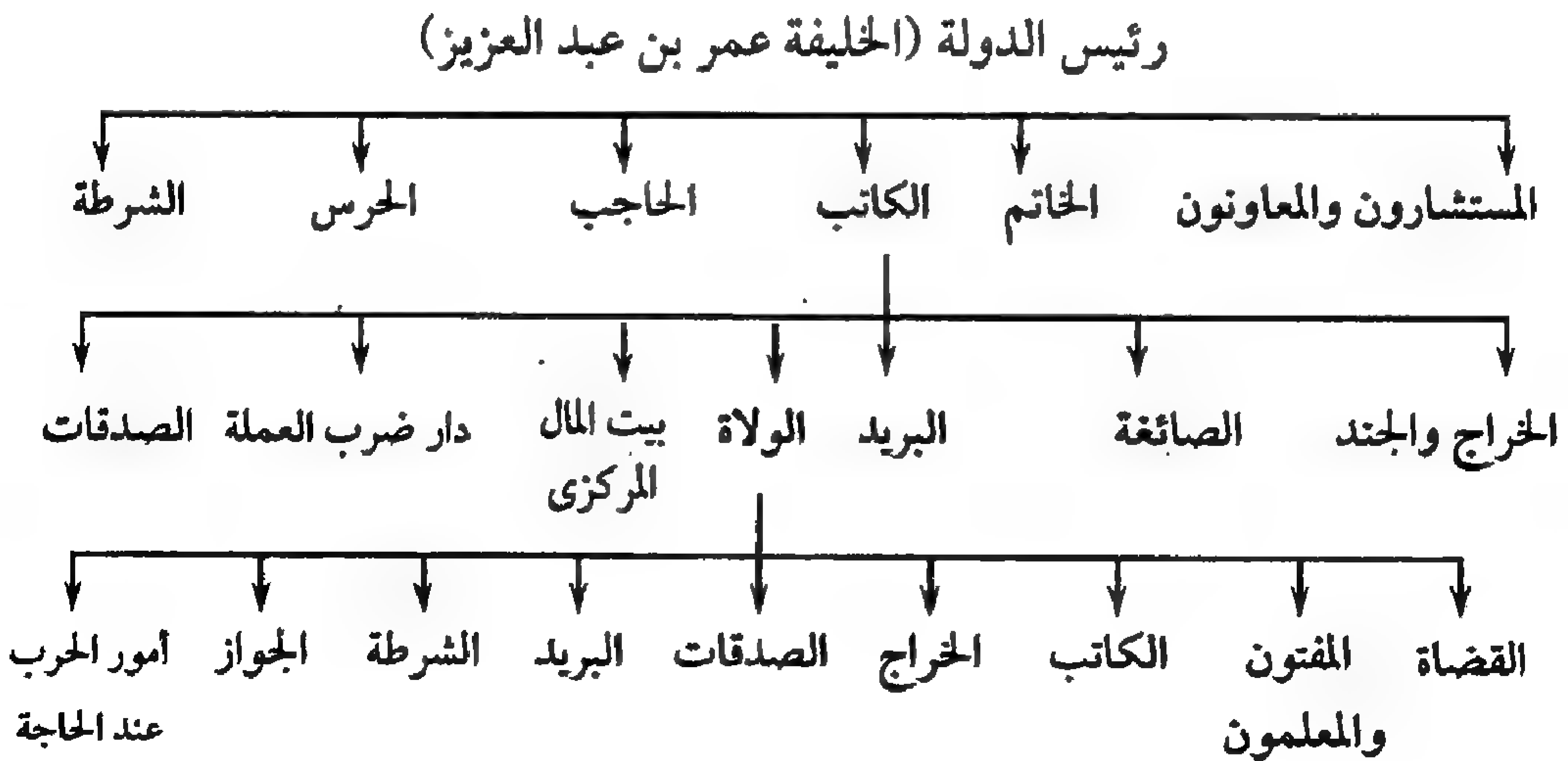
(1) الإدارة، المنيف صـ١٤٧.
(2) الإدارة فى الإسلام للضحيات صـ٧١.
(3) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٢٦٦ .
(4) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ ٢٥٠ لابن الجوزى.
(5) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ ٣٥.
(6) النموذج الإدارى المستخلص من عمر بن عبد العزيز صـ٣٩٧.

أطاع الله[١]ـ، وأن يكون أساس العمل إقامة العدل والإصلاح والإحسان بدلاً من الظلم والفجور والعدوان[٢]. وقد مارس عمر التخطيط من حيث الشمول وشمل تخطيطه كل المجالات، فلم يترك مجالاً إلا طرق بابه، فى أمور السياسة والحكم، والقضاء والاقتصاد والتربية والتعليم والنواحى الاجتماعية فضلاً عن التخطيط للأمور العامة، كما اهتم ببعض الأقاليم بشكل منفصل مثل خراسان والعراق واهتم بمؤسسات تنظيمية أخرى مثل القضاء، وبيت المال وولاة الخراج وغير ذلك[٣].

خامسًا: التنظيم فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

إن التنظيم يأتى مكملاً للتخطيط لبناء المتطلبات الإجرائية لتنفيذ الخطط، وقد جعل عمر ابن عبد العزيز التنظيم أهم أولويات العمل الإدارى، ورسخ مفهوم التنظيم فى سلوكه الإدارى.

فمن حيث التنظيم الهيكلى للعمل، نجده قد جزأ أعمال الدولة إلى أربعة أجزاء رئيسية، تأتى تحت مسئولية أربعة أركان هم: الوالى والقاضى وصاحب بيت المال والخليفة،[٤] بالإضافة إلى تنظيمات أخرى مثل: الخراج والجند والكتاب والشرطة والحرس وصاحب الخاتم والحاجب وغير ذلك، وفيما يلى اللائحة التنظيمية لمسئوليات العمل فى عهد عمر بن عبد العزيز[٥].



(١) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ٣٥، ٣٦. (٢) المصدر السابق صـ١٠٢ .

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من عمر بن عبد العزيز صـ٤٠٠.

(٤)، (٥) المصدر نفسه صـ٤٠١ .

وأما فيما يتعلق بالتنظيم من حيث الإجراءات والعلاقات بين الخليفة والولاة والعمال، وتحديد أوجه العمل وأساليب التنفيذ، فإنه يمكننا القول إن الكثير من كتب عمر لعماله تسعى لتحقيق هذا الغرض وإيضاح هذا الجانب التنظيمى من العملية الإدارية، فعلى سبيل المثال، فإنه أوضح أسلوب التعامل بينه وبين المظلومين وكيفية الاتصال بينه وبينهم، إذ أباح دخول المظلومين عليه من غير إذن. ومن صور التنظيم إعادة الكثير من الأمور والقضايا إلى ماكانت عليه فى عهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) والخلفاء الراشدين، ومثال ذلك أمره بإرجاع مزرعته فى خيبر إلى ما كانت عليه فى عهد رسول الله ﷺ، وتم الشيء نفسه بشأن (فدك)[١] إذ كتب إلى أبى بكر بن حزم واليه على المدينة يقول: إنى نظرت فى أمر فدك، فإذا هو لا يصلح، فرأيت أن أردها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله ﷺ، وأبى بكر وعمر وعثمان، فاقبضها ولها رجلاً يقوم فيها بالحق، وسلام عليك[٢]. كما كتب إلى عماله بكل ما يتعلق بتنظيم الأمور المالية والصدقات والضرائب والأخماس والزكاة فى الأموال والممتلكات وتنظيم الأعمال التجارية، ومن ليس له الحق فى ممارسة التجارة[٣]، وغير ذلك، كما اهتم عمر بتنظيم أمور القضاء باعتباره السبيل الرئيسى للفصل بين الناس فى منازعتهم وحماية حقوقهم، فكان لكل مصر أو ولاية قاض يقضى بما فى الكتاب والسنة وكان قضاته فى كل مصر أجلّ وأفقه وأصلح علماء ذلك المصر[٤]، كعامر بن شرحبيل الشعبى[٥] بالكوفة، والحارث بن يمجد الأشعرى[٦] بحمص، وعمر بن سليمان بن خبيب المحاربى بدمشق[٧] وغيرهم، كما كان عمر يمارس القضاء بنفسه[٨]، وكان الاعتبار الأساسى فى التنظيم القضائى فى نظر عمر هو مراجعة الحق، فالرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل[٩]، وعندما اشتكى أهل سمرقند من قتيبة بن مسلم، عين لهم قاضيًا ليحكم فى هذه القضية، وقد مرت معنا، وفى هذه الحادثة أدرك عمر بن عبد العزيز مبدأ الفصل بين السلطات على أتم وجه، ذلك أنه حينما عرف مظلمة أهل سمرقند لم

---

(١) فدك: هى قرية بالحجاز -بينها وبين المدينة يومان، وقيل: ثلاثة- أفاءها الله على رسوله لما نزل خيبر، وهى خالصة لرسول الله، لأنها مما لم يطأ عليه خيل ولا ركاب، فيها عين فوّارة ونخل كثير.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ١٣١ لابن الجوزى.

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ ٧٨-٨٣.

(٤) النموذج الإدارى المستخلص صـ٤٠٣.

(٥) عمر بن عبد العزيز وسياسة رد المظالم ص٢٧٧.

(٦) المصدر نفسه صـ٢٨٤.

(٧) المصدر نفسه صـ٢٨٥.

(٨) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ٤٠٣.

(٩) المصدر نفسه ص٤٠٣.

يبت هو فيها، مع أنه كـان يسعه ذلك، وهو خليفة المسلمين، ولم يـعهد بذلك إلى عامله على سـمرقند سليـمان بن أبى السـرى، مخـافة أن يجنح به الهـوى، أو أن تأخذه الـعزة بالإثم، ولأنه عامل باسم الخليفة الذى أبى هو نفسه أن يبت فى الخلاف، ولم يفوض ذلك إلى القائد الـعسكرى، بل أمر بأن يجلس لـهم القاضى لأن القاضى لا يتـأثر بالاعتـبارات العسكرية أو السـياسية، ولا يأبه إلا لحكم الـله، يطبق أوامر الشريعة كـما وردت، وهكذا تحقق ظن عمر بن عـبد العزيز، وحكم القاضى بأن يخرج عرب سـمرقند إلى معسكرهم، أى أنه أمرهم بالجلاء، لأن الفتح وقع بصورة غير مشروعة[١]. كما شملت تطبيقات عمر للتنظيم بيت الخلافة، فقد أعاد تنظيمه بما يتوافق مع نظرته فى أنه واحد من عامة المسلمين، وأنه ليس فى حاجـة إلى أبهة الملك، فانصـرف عن كل مظاهر الخلافة التى سـادت قبله، وألغى بعض الوظائف، كصاحب الشرطة الذى يسيـر بين يدى الخليفة بالحربة، كعادته مع الخلفاء السابقـين له، وقال له عمر: تنحَّ عنى مـالى ولك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين، ثم سار وسار معه الناس[٢].

سادسًا: الوقاية من الفساد الإدارى فى عهد عمر بن عبد العزيز:

سعى عمر بن عبد العزيز لتحقيق السلامة من الفساد الإدارى، بالحرص على سبل الوقاية منه، وسد المنافـذ على السموم الإدارية مثل الخيـانة، والكذب والرشوة والهدايا للمـسئولين والأمراء، والإسراف وممارسة الولاة والأمراء للتجارة، واحتجاب الولاة والأمراء عن الناس، ومعرفة أحوالهم، والظلم للناس والجور عليهم، وغير ذلك، وإليك شيئًا من التفصيل:

١ – التوسعة على العمـال فى الأرزاق: كان أول إجـراء إدارى رأى فيه عمـر الوقاية من الخيـانة أن وسع على العمـال فى العطاء، رغم تقتـيره على نفســه وأهله، وأراد بذلك أن يغنيهم عن الخيانة[٣]، فقد كان يوسع على عماله فى النفقة، يعطى الرجل منهم فى الشهر مائة دينار، ومائتى دينار، وكان يتأول أنهم إذا كانوا فى كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين فقيل له: لو أنفقـت على عـيالك، كما تنفـق على عـمالك؟ فقال: لا أمنعهـم حقًا لهـم، ولا أعطيهم حق غيرهم، وكان أهله قد بقوا فى جهد عظيم، فاعتذر بأن معهم سلفًا كثيرًا قبل ذلك[٤]، وبهذا الإجراء –ألا وهو التوسع على عماله– يحقق عمر أمرين مهمين:

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٤٠٧/١) .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ٦٥ لابن الجوزى.

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ٣١٤.

(٤) البداية والنهاية نقلاً عن النموذج الإدارى صـ٣١٥.

أ- سد منافذ الخيانة، وما يدفع العمال من حاجة إلى الخيانة وسرقة أموال المسلمين.

ب- ضمان فراغ الولاة والعمال والأمراء لأشغال المسلمين وحوائجهم(١).

٢- حرصه على الوقاية من الكذب: قال ميمون بن مهران: دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده عامله على الكوفة، فإذا هو متغيظ عليه، فقلت: ماله يا أمير المؤمنين؟ قال: أبلغنى أنه قال: لا أجد شاهد زور إلا قطعت لسانه، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين: إنه لم يكن يفاعل. قال: فقال: انظروا إلى هذا الشيخ ـ مستنكرًا ماقال ميمون ـ إن منزلتين أحسنهما الكذب لمنزلتا سوء(٢). والمقصود فإن الكذب أحد منازل السوء وبذلك يسعى عمر إلى قطع دابر الفساد الإدارى بالتحذير من الوقاية عما يجر إليه الكذب والتحايل فى اتخاذ القرارات(٣).

٣- الامتناع عن أخذ الهدايا والهبات: رد على من قال له: ألم يكن رسول الله ﷺ يقبل الهدية؟ قال: بلى، ولكنها لنا ولمن بعدنا رشوة(٤)، كما أبطل عمر أخذ الهدايا التى كان الولاة الأمويون يأخذونها وبخاصة هدايا النيروز والمهرجان، وهى هدايا تعطى فى مناسبات وأعياد الفرس، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله كتابًا يقرأ على الناس، يبطل فيه أخذ الهدايا، التى كانت تؤخذ منهم فى النيروز والمهرجان وغيرها من الأثمان والأجور(٥)، كما أنذر ولاته وعماله من أن يتخذ أحد منهم تلبية طلبات الخليفة أو أحد أهله شيئًا مسلمًا به، ومن ذلك ماحدث عندما أرسلت فاطمة بنت عبد الملك إلى ابن معدى كرب(٦) تطلب عسلاً من عسل سينين أو لبنان، فبعث إليها، فكتب إليه: وايم الله لئن عدت لمثلها، لا تعمل لى عملاً أبدًا، ولا أنظر إلى وجهك(٧).

٤- النهى عن الإسراف والتبذير: فقد اتخذ قرارات تنم على حرص شديد على أموال المسلمين، فكان أول إجراء له بعد توليه الخلافة هو انصرافه عن مظاهر الخلافة، إذ قربت إليه المراكب، فقال: ماهذه ؟ فقالوا: مراكب لم تركب قط، يركبها الخليفة أول ما يلى، فتركها وخرج يلتمس بغلته، وقال: يا مزاحم ـ يعنى مولاه ـ ضم هذه إلى بيت مال المسلمين،

(١) النموذج الإدارى صـ٣١٥ . (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز صـ١٣٤ لابن الجوزى .

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ٣١٦ .

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ١٨٩ .

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١٣٦ .

(٦) لم تمدنا المصادر ما إذا كان عامل لبنان، وسينين (سيناء) .

(٧) المعرفة والتاريخ للفسوى(١/ ٥٨٠) النموذج الإدارى صـ٣١٧ .

ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط، يجلس فيها الخليفة أول ما يلى، قال: يا مزاحم ضُم هذه إلى أموال المسلمين، ثم ركب بغلته، وانصرف إلى الفرش والوطاء الذى لم يجلس عليه أحد قط، يفرش للخلفاء أول ما يلون، فجعل يدفع ذلك برجله، حتى يفضى إلى الحصير، ثم قال: يا مزاحم ضم هذه لأموال المسلمين[1]. وأخذ إجراء آخر لمحاربة الإسراف فى الدولة، فحين قال له ميمون بن مهران وهما ينظران فى أمور الناس: ما بال هذه الطوامير[2] التى تكتب فيها بالقلم الجليل، وتمد فيها، وهى من بيت مال المسلمين ؟ فكتب إلى العمال أن لا يكتبوا فى طومار ولا يمد فيه، قال: فكانت كتبه شبراً أو نحو ذلك[3].

وقد مر معنا كتابه لأبى بكر بن محمد بن حزم الأنصارى والى المدينة فى قصة الشموع، وتوجيه عمر له فى ذلك، وكيف يكتب له عندما قال: إذا جاءك كتابى هذا فأرق القلم، واجمع الخط، واجمع الحوائج الكثيرة فى الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين فى فضل قول أضر ببيت مالهم، والسلام عليك[4]. ذلك هو شأن عمر فى كل أمر يخص مال المسلمين، صغر أو كبر، ومع كافة الولاة، فإنه من المسلم به أن عمر لن يكون كذلك مع والى المدينة فحسب، بل هو كذلك مع غيره من الولاة والعمال، فكان يسعى للتوفير والاقتصاد فى الإنفاق من بيت المال، ليحول بذلك دون الإسراف والبذخ[5].

٥- منع الولاة والعمال من ممارسة التجارة: قال فى كتاب له إلى عماله: نرى أن لا يتجر إمام، ولايحل لعامل تجارة فى سلطانه الذى هو عليه، فإن الأمير متى يتجر يستأثر ويصيب أموراً فيها عنت، وإن حرص أن لا يفعل[6]، وذلك إدراك منه أن ممارسة العمال والولاة للتجارة، لا تخلو من أحد أمرين، إن لم تكن الاثنين معًا: فإما أن ينشغل فى تجارته ومتابعتها عن أمور واحتياجات المسلمين، وإما أن تحدث محاباة له فى التجارة لموقعه، ويصيب أموراً ليست له من الحق فى شىء، وبهذا القرار سد عمر منفذًا خطيراً قد يؤدى إلى فساد إدارى قل ماتتوارى عواقبه[7]. وبعد ثمانية قرون جاء ابن خلدون وكتب فى مقدمته العظيمة بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة، ما يصدق عمر بن عبد العزيزفى نظرته الصادقة، وحكمته البالغة، قال: إن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا، معسرة للجباية[8].

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٣٣ .
(٢) طوامير: جمع طومار وهو الصحيفة، لسان العرب (١/٣٠٥) .
(٣) سيرة عمر لابن الجوزى صـ٨٨ .
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٥٥ .
(٥) النموذج الإدارى المستخلص صـ ١٩٤ .
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٨٣.
(٧) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ ٣٢٠ .
(٨) مقدمة ابن خلدوزن نقلاً عن رجال الفكر والدعوة للندوى (١/٤٦).

٦- فتح قنوات الاتصال بين الوالي والرعية: كانت الحاشية حول الخلفاء قبل عمر بن عبد العزيز قد حجبت الناس عن الوصول إلى الخليفة، وقد بنى الحاشية سياجًا من حديد لا ينفذ منه إليه إلا ما يشتهون، وما تسمح به مصالحهم، أما عمر بن عبد العزيز، فقد أعلن الجوائز والمكافأة المالية لمن يخبره بحقيقة الحال، أو يشير عليه بشيء فيه مصلحة المسلمين ومصلحة لدولتهم، وكتب إلى أهل المواسم: أما بعد فأيما رجل قدم إلينا فى رد مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصًا أو عامًا من أمر الدين، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة، بقدر ما يرى الحسبة وبعد السفر، لعل الله يحيى به حقًا أو يميت به باطلاً، أو يفتح به من ورائه خيرًا(١). كما أمر العمال والولاة، بأن يحرصوا على فتح قنوات الاتصال بينهم وبين الرعية ويسمعوا منهم ويتعرفوا على أحوالهم، فإن ذلك يمنع ممارسة الظلم والتعدى على حقوق الآخرين، ويتيح لكل فرد طلب ما يريد دون اللجوء إلى أساليب وطرق لا تمت للإسلام بصلة(٢).

٧- محاسبته لولاة من قبله عن أموال بيت المال: لما تولى عمر بن عبد العزيز أمر بالقبض على والى خراسان يزيد بن المهلب، ولما مثل بين يديه، سأله عمر عن الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك. فقال: كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذ بشئ سمعت، ولا بأمر أكرهه. فقال له: ما أجد فى أمرك إلا حبسك، فاتق الله وأدِّ ما قبلك، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها، فرده إلى محبسه، وبقى فيه حتى بلغه مرض عمر(٣). وقد كان عمر بن عبد العزيز يتحسس أخبار ولاته ويراقبهم ويحاسبهم على تقصيرهم، فقد كتب إلى أحدهم يقول: (لقد كثر شاكوك وقل شاكروك، فإما عدلت، وإما اعتزلت(٤) والسلام).

سابعًا: المركزية واللامركزية فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

أخذ عمر بن عبد العزيز بمبدأ الجمع والموازنة بين المركزية واللامركزية خلال إدارته للدولة، بتطبيق أحدهما بحسب الموقف تبعًا لمعايير محددة ، وها نحن نورد بعض المواقف والإجراءات التى توضح ذلك، فقد كان من الأوامر التى تدل على تطبيقه للمركزية ما ضمنه رسالته إلى عامله على الكوفة، إذ قال: ... فإنى قد وليتك من ذلك ماولانى الله، ولا تعجل دونى بقطع ولا صلب حتى تراجعنى فيه(٥). وهنا رجح عمر أن مصلحة الأمة فى

(١) رجال الفكر والدعوة (١/٤٧) .
(٢) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ٣٢٠ .
(٣) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢) .
(٤) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ صـ٢٧٥.
(٥) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى صـ٣٢٢ .

تطبيق المركزية فى هذه المسألة البالغة الأهمية، فقد يسبق السيف العزل، فلا مصلحة للأمة فى التعجيل فى أمور القتل والصلب، وكل سيلقى جزاءه طال الوقت أم قصر، فقد كان عمر يرجح التحقيق العادل على التحقيق الصارم[1]، فما بالك به فى أمر أهم، وهو إزهاق الأرواح[2]، وهناك أمور أخرى أعم وأشمل، أوضح عمر لعماله وولاته وقضاته أنه لا بد من الرجوع إليه فيها متخذًا أسلوب المركزية فيها، وهى كل ما تبتلى به الأمة، وليس لها سابقة فى قرآن أو سنة، إذ كتب إلى عماله يبين لهم سياسته، فقال: . . .وأما ما حدث من الأمور التى تبتلى الأمة بها، مما لم يحكمه القرآن ولا سنة النبى ﷺ، فإن ولى أمر المسلمين وإمام عامتهم، لا يقدم فيها بين يديه، ولا يقضى فيها دونه، وعلى من دونه رفع ذلك إليه، والتسليم لما قضى[3]. وفى مجال آخر رأى ضرورة أسلوب المركزية، حيث جعل للعراق أكثر من وال، وأصبحت خراسان وسجستان وعمان كل منها مرتبطة بالخليفة مباشرة، كما عين واليا على الأندلس من قبله رغبة منه فى الاعتناء بإقليم الأندلس دون الارتباط بوالى إفريقية[4]. هذا مما يدل على أن عمر بن عبد العزيز كان يأخذ بالمركزية وضرورة الرجوع إليه.

- وأما مايدل على ممارسته اللامركزية فنورد المواقف التالية:

روى أن عمر كتب إلى عروة بن محمد عامله على اليمن، يقول: أما بعد، فإنى أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعنى، ولا تعرف بعد مسافة ما بينى وبينك، ولا تعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة، لكتبت أرددها عفراء أو سوداء، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعنى[5]. ويبدو فى هذا القرار دقة متناهية فى تحديد الشىء المرغوب فيه من المركزية واللامركزية وما حداه هنا إلى تبنى اللامركزية من مصلحة للأمة[6]، وهذا موقف آخر فيه دلالة على رغبة عمر فى اتباع اللامركزية، فقد كتب إلى عدى بن أرطأة يقول: أما بعد، فإنك لن تزال تعنى إلى رجلاً ـ أى يتعبه بإرساله إليه ـ من المسلمين فى الحر والبرد، تسألنى عن السُّنة، كأنك إنما تعظمنى بذلك، وايم الله لحسبك بالحسن، يعنى ـ الحسن البصرى ـ فإذا أتاك كتابى هذا

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ٣٢٣. (٢) المصدر نفسه صـ٣٢٣ .
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٦٣ .
(٤) الإدارة فى العصر الأموى، نجدة الخماش صـ١٠٧ . (٥) الطبقات (٥/٣٨١) .
(٦) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ٣٢٤ .

فسل الحسن لى ولك وللمسلمين(1). فكان عمر يؤثر اللامركزية وعدم مراجعته فى المسائل الروتينية طالما هناك من يثق بعلمه، مثل الحسن البصرى رحمه الله، فالحسن أهل لأن يسأل لعمر، ولعدى الوالى وللمسلمين كافة(2)، وفى هذا الموقف لفتة عمرية فى تقدير وتبجيل واحترام العلماء الربانيين كالحسن البصرى وإنزاله مقامه اللائق به، فالأمم تنهض عندما تحترم علمائها الربانيين وتنزلهم المنازل التى يستحقونها.

لقد مارس عمر مبدأ الموازنة بين المركزية واللامركزية، وكانت له معايير وعوامل تدفعه إلى أى شيء منها يمكن تلخيصها فيما يلى:

١-ارتباط الموقف أو الإجراء بمصلحة عامة أو خاصة.

٢-أهمية الأمر الذى سيحدد فيه ممارسة المركزية أو اللامركزية، فالإجراء الذى يتعلق بالقتل والصلب مثلاً حرى أن تكون المركزية فيه أصلح.

٣-مستجدات الأمور مما لم يرد فى القرآن أو السنة فهى من الأهمية بمكان.

٤-مراعاة البعد الجغرافى بين الخليفة والولاة.

٥-مراعاة الوقت وما قد ينجم عن ذلك من ضرر قد يصل إلى الموت.

٦-وجود من يعتمد عليه ويطمئن له ولعلمه ويثق به.

٧-التأثير على سرعة وسلامة الإنجاز فى العمل.

٨-مراعاة منح الثقة للقضاة والولاة والعمال(3).

فى ظل هذه المعايير جمع عمر بن عبد العزيز فى ممارسته الإدارية بين المركزية واللامركزية، بالموازنة بينهما، وتحديد الدرجة الملائمة فى ممارسته لكل منهما، وبذلك يتوافق عمر مع منظرى وعلماء الإدارة فى إدراك أبعاد هذا المبدأ(4).

ثامنًا: مبدأ المرونة فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

مارس عمر بن عبد العزيز المرونة فى التفاهم والحوار والفكر وتنفيذ الأوامر والتقيد بها، ومن تلك الشواهد، ما روى ميمون بن مهران: أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال: يا أبت ما يمنعك أن تمضى لما تريد من العدل ؟ فوالله ما كنت أبالى لو غلت بى وبك

(1) النموذج الإدارى المستخلص صـ٣٢٤، حلية الأولياء (٣٠٧/٥) . (2) النموذج الإدارى صـ٣٢٤ .
(3) المصدر نفسه صـ٣٢٦ . (4) المصدر نفسه صـ٣٢٦ .

القـدور فى ذلك. قال: يا بـنى إنما أروض الناس رياضة الـصعب، وإنى لأريد أن أحـيى الأمور من العـدل، فأؤخـر ذلك حتى أخـرج معه طمـعًا من طمع الدنيـا، فينفـروا لهذه ويسكنوا لهذه[١]. وقال عمر: ما طاوعنى الناس على ما أردت من الحق، حتى بسطت لهم من الدنيا شيئًا[٢]، فقد أبدى بهـذا الإعلان منذ توليه الخلافة، أن تحـقيق الأهداف يتطلب شيئًـا من المرونة والتغاضى، فليس الأمر كمـا يرى ولده بأن لا مانع لديه من أن تغلى بهم القدور فى سبيل تحقيق العدل، بصرف النظر عن أى اعتبار أخر[٣].

وهذا موقف آخر مع ابنه عبد الملك، وإليك ما دار بينهم من حوار:

الابن: مايؤمنك أن تؤتى فى منامك، وقد رفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها ؟

الأب: يا بنى إن نفسى مطيتى، إن لم أرفق بها لم تـبلغنى، إنى لو أتعبت نفسى وأعوانى لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا، وإنى لأحـتسب فى نومتى من الأجر مثل الذى أحتسب فى يقظتى، إن الله جل ثناؤه لو أراد أن يـنزل القرآن جملة لأنزله، ولكنه أنزل الآية والآيتين حـتى أسكن الإيمان فى قلوبهـم. يا بنى. . ، أنا فيه من أمـر هو أهم إلىَّ من أهل بيتك (الأمويين)، هم أهل القدرة والعدد وقبلهـم ما قبلهم، فلو جمعت ذلك فى يوم واحد خشيت انتشاره علىَّ ولكنى أنصف الرجل والاثنين، فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجح له[٤].

فى الآثار السابقة، يقدم لنا عـمر فقهه الحاذق فى إدارة الحركات الإصلاحـية التجديدية وتسيير البرامج التى تستهدف إسقاط الظلم والاستغلال ونشر العدل والمساواة[٥]. ففى قوله إنى لو أتعبت نفسى وأعوانى لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا. فبين رحمه الله: إن طاقة الإنسان محدودة، وأن القابلية علـى تحمل الجد الصارم لها حدودها هى الأخرى، والإنسان فى تقبله لالتـزاماته فى حاجة ضرورية إلى وقت كاف لتمـثل هذه الالتزامات من الداخل، وتحويـلها إلى مبـادئ وقيم ممزوجـة بدم الإنسان وأعـصابه، ومـتشكلة فى بنيـته وخـلاياه، وبدون هذا لن تجتـاز هذه الالتزامـات حدود الإنـسان البـاطنية، وسـتظل هناك مكدسـة على أعتـاب الحس الخارجى وطالما ظل هذا التكديس يزداد ثـقلاً يومًا بـعد يوم، فـسـوف يأتى يوم لا مـحـالة يسقط فيـه الإنسـان تحت وطأة هذا الثـقل المتـزايد غـيـر المتمثل[٦]. . . ومما يلفت النظر عبارته: . . ولكنى أنـصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من

(١) سيرة عمر لابن الجوزى صـ٨٨ .
(٢) المصدر نفسه صـ٨٨ .
(٣) النموذج الإدارى المستخلص صـ٣٢٨ .
(٤) سيرة عمر لابن الجوزى صـ١٠٦ .
(٥)، (٦) ملامح الانقلاب صـ١٧٣ .

وراءه فيكون أنجح له. إن عمر هنا يؤكد على أهمية الإنجاز وعلى دوره فى تحقيق الإصلاح والتجديد، فكثيرون هم أولئك الذين طرحوا أقوالاً أعلنوا فيها عن عزمهم على إحداث ثورة حقيقية وانقلاب يجتث الجذور العفنة، ويبدأ الزرع من جديد، ولكن هؤلاء ما لبثوا أن سقطوا وسقطت مبادئهم لأنهم: طرحوا أقوالاً. . أما عمر هذا المصلح الكبير والفقيه الحاذق، فإنه يريد أن يطرح أفعالاً، ولا يطرحها بالعنف والإكراه ودونما تخطيط، وإنما لينصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءهما حتى يسرى الإصلاح فى نفوس الأمة أنى كانت، سريان الضياء فى الظلام. ثم إن عمر هذا الذكى المرن لم يشأ أن يخرج شيئًا إلا ومعه طرف من الدنيا يستلين به القلوب(١)، ولا يمكن لأحد أن يقول إن هذا يمثل تنازلاً من عمر بن عبد العزيز عن أهداف إصلاحاته الشاملة صوب إصلاح جزئى يقوم على الترقيع. . لأننا ما عرفنا عمر منذ حمل مسئولية أمته، يسعى إلى التنازل -ولو شبراً واحدًا- عن الأهداف التى طرحها القرآن الكريم والسنة، ولكنه هنا يقدم فقه الأسلوب الحيوى الذى تتأتى به تلك الأهداف كاملة. . . إن الضغط المستمر يولد الانفجار، ومهما كان سخف هذا الانفجار وعبثه فإنه لا بد وأن يحرق ويدمر، وإذا كان بإمكان القادة والمسئولين تجاوز هذا الحريق والدمار عن طريق التزام أسلوب حيوى ينسجم وبنية الإنسان النفسية، فلماذا لا يسلكونه؟(٢) فعندما قال له ابنه عبد الملك: يا أمير المؤمنين، أنفذ لأمر الله وإن جاشت بى وبك القدور، فماذا كان جواب الخليفة المرن: يا بنى، إن بادهت الناس بما تقول أحوجونى إلى السيف ولا خير فى خير لا يحيا إلا بالسيف(٣). إن خليفة بهذا المرونة وبهذا الذكاء لا يمكن أن يجزع عن أهدافه يومًا(٤) ومما مضى يتضح أدلة مرونة عمر فى إدارته فيما يتعلق بتنفيذ السياسة العامة، سياسة إقامة العدل ونشر الإسلام، وبناء دولة العقيدة(٥)، وإليك هذه الشواهد فى تنفيذ مبدأ المرونة:

١- فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة فى ميقاتها: خرج عمر على حرسه يومًا، فقال: أيكم يعرف هذا الرجل الذى بعثناه إلى مصر؟ قالوا: كلنا نعرفه ـ وكان قد كلف رجلاً بمهمة إلى مصر قبل وقت ليس ببعيد ـ قال: فليذهب إليه أحدثكم سنًا فليدعه، قال: وذلك فى يوم جمعة، فذهب إليه الرجل فظن الرسول أن عمر بن عبد العزيز استبطأه فقال له: لا تعجلنى حتى أشد علىّ ثيابى، فشد عليه ثيابه، فأتى عمر، فقال: لا روع عليك،

(١)، (٢) ملامح الانقلاب صـ١٧٤ .
(٣) الكامل فى التاريخ نقلاً عن ملامح الانقلاب صـ١٧٥ .
(٤) ملامح الانقلاب صـ١٧٥ . (٥) النموذج الإدارى صـ ٣٢٩.

إن اليوم يوم الجمعة، فلا تبرح حتى تصلي الجمعة، وقد بعثناك لأمر عجلة من أمر المسلمين فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة عن ميقاتها[1]، فأبدى عمر في هذا الموقف مرونة في التنفيذ، رغم أنه أرسل مندوبه لأمر يهم المسلمين إنجازه على عجل[2].

٢- هلا أقمت حتى تفطر ثم تخرج: استدعى عمر بن عبد العزيز عامله على خراسان، فما كان من العامل إلا أن أسرع بالمغادرة إلى الخليفة تنفيذًا لأمره، وعندما وصل إلى مقر الخلافة في دمشق ورأى الخليفة ملامح التعب والإجهاد على وجهه، سأله: متى خرجت ؟ فقال: في شهر رمضان، فقال له عمر: قد صدق من وصفك بالجفاء !! هلا أقمت حتى تفطر، ثم تخرج[3].

٣- لاتعنت الناس ولا تعسرهم ولا تشق عليهم: ذكر ابن سعد أن ميمون بن مهران -وكان على ديوان دمشق- قال: ففرضوا لرجل زمِن[4]، فقلت: الزمن ينبغي أن يحسن إليه، أما أن يأخذ فريضة رجل صحيح فلا. فشكوني إلى عمر بن عبد العزيز، فقالوا له: إنه يتعنتنا، ويشق علينا، ويعسرنا. قال: فكتب إليَّ: إذا أتاك هذا فلا تعنت الناس ولا تعسرهم، ولا تشق عليهم، فإني لا أحب ذلك[5]، فكتب إليه عمر انطلاقًا من مبدأ المرونة وتسهيل الأمور.

٤- المرونة في الحوار والتفاهم: فقد كان الحوار الهادئ ومقارعة الحجة بالحجة أسلوبه في حواره ومناظراته ـ كما مر معنا مع الخوارج ـ فقد حدث أن دخل على عمر أناس من الحرورية، فذاكروه شيئًا، فأشار إليه بعض جلسائه أن يرعبهم، ويتغير عليهم، فلم يزل عمر بن عبد العزيز يرفق بهم حتى أخذ عليهم، ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم مابقي، فخرجوا على ذلك، فلما خرجوا ضرب عمر ركبة رجل يليه من أصحابه، فقال: يا فلان إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكي فلا تكوينه أبدًا[6]، وأبدى مرونة في جميع أساليب التعامل معهم[7].

٥- المرونة الفكرية: كان عمر يتحلى بالمرونة الفكرية، متجنبًا الجمود والتشدد، فقد حدث ـ كما مر معنا ـ أن أرسل عمر يزيد بن أبي مالك، والحارث بن محمد، ليعلما الناس السنة

(١) سيرة عمر لابن الجوزي صـ١٠٦ .
(٢) النموذج الإداري صـ٣٣٠ .
(٣) تاريخ الطبري نقلاً عن النموذج الإداري صـ٣٣٠ .
(٤) الزَّمِن: هو المبتلى بالعاهة لسان العرب (١٣/١١٩) .
(٥) الطبقات (٥/ ٣٨٠) .
(٦) سيرة عمر لابن الجوزي صـ٧٦، ٧٨ .
(٧) النموذج الإداري صـ٣٣١ .

وأجرى عليهم الأرزاق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث، وقال: ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً، فذكر ذلك لعمر، فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأسًا، وأكثر الله فينا مثل الحارث[1]. فلم يتخذ موقفًا محدداً تجاه العالمين، رغم اختلاف موقفهما تجاه قبول الأجر على تعليم الناس، فأيد أخذ الأجر على التعليم، وأنه لا بأس فيه، ثم دعا الله أن يكثر من أمثال الحارث، فاتضحت مرونته فى تأييد الموقفين فى آن واحد، رغم اختلافهما ويأتى ذلك فى إطار ما عبر عنه عن اقتناعه التام أن مبدأ المرونة مطلوب وضرورى حتى قال: ما يسرنى لو أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا، لم تكن رخصة[2]. وقال: ما يسرنى باختلاف أصحاب النبى ﷺ حمر النعم[3]. فهذه أدلة على تطبيق عمر لمبدأ المرونة فى إدارته، ولم تكن المرونة عائقًا لتنفيذ القرارات، وتحقيق الأهداف المرسومة، والوصول إلى المرامى والتطلعات[4].

تاسعًا: أهمية الوقت فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

كان عمر بن عبد العزيز يقضى جل وقته، أن لم يكن كله، فى تسيير أمور الدولة أو فى عمل فيه مصلحة الأمة، أو فى أداء حق الله من العبادة، فكان يقضى ليلته فى الصلاة والمناجاة، وكان لا يكلم أحدًا بعد أن يوتر[5]، وفى إطار اغتنام الوقت نسب إلى عمر قوله: إن الليل والنهار يعملان فيك ـ أى فى الإنسان ـ فاعمل فيهما[6]، وكان يغتنم الوقت فى الأعمال الصالحة وفى سرعة التوجيه والبت السريع فى الأمور واتخاذ القرارات الإدارية، وتلافى كل ما من شأنه تأخير عمل أو مصلحة، فإن أهم الأدلة على ذلك ما كان منه من سرعة إجراء لإصدار ثلاثة قرارات، تحدث عنها ابن عبد الحكم ورواها قائلاً: فلما دفن سليمان ـ وكان دفنه عقب صلاة المغرب ـ دعا عمر بدواة وقرطاس، فكتب ثلاثة كتب، لم يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يؤخرها، فأمضاها من فوره، فأخذ الناس فى كتابته إياها هنالك فى همزه يقولون: ما هذه العجلة ؟ أما كان يصبر إلى أن يرجع إلى منزله ؟ هذا حب السلطان، هذا الذى يكره ما دخل فيه، ولم يكن بعمر عجلة ولا محبة لما صار إليه، ولكنه حاسب نفسه ورأى أن تأخير ذلك لا يسعه، وكان الكتاب الأول عن

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ١٣٧ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٢٧٥ .
(٣) الطبقات (٥/ ٣٨١) . (٤) النموذج الإدارى صـ٣٣٢ .
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٢١٠، ٢١١ .
(٦) الإدارة فى التراث الإسلامى (١/ ٢٧٩) البرعى وعابدين.

أمر لا يمسه هو شخصيًا في شيء، بقدر ما يمس المسلمين المجاهدين فى القسطنطينية بعد أن أصابهم من الجوع والضنك، واشتد بهم الأمر أمام عدوهم، فأمر برجوع مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية ورفع الحصار، فقد رأى عمر أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلى شيئًا من أمور المسلمين، ثم يؤخر قفلهم ساعة، فذلك الذى حمله على تعجيل الكتاب[1]. حقًا إن الحال الذى كان عليه مجاهدو القسطنطينية لا يحتمل التأخير فى قرار عودتهم على الإطلاق، فكان الإجراء المناسب فى الوقت المناسب[2]، وكتب بعزل أسامة بن زيد التنوخى وكان على خراج مصر، فعزله لظلمه وغشمه وتسلطه، كما كتب بعزل يزيد بن أبى مسلم عن إفريقية لظلمه[3]، وكان عمر يهتم بالوقت من حيث اختيار الوقت المناسب لإعلان التوجيهات أو القرارات الإدارية وسهولة إبلاغها، فكان حين يستخدم البلاغة لإبلاغ الناس يراعى الوقت الأكثر ملاءمة سواء من حيث كثرة المجتمعين أم من حيث قدسية المكان وحرمته، وبالتالى زيادة الاهتمام بما يكون فيه، ألا هو الموسم السنوى، موسم الحج ليخطب فى المسلمين أو يكتب إلى المسلمين فى يوم حجهم الأكبر بما يراه على قدر كبير من الأهمية من أمورهم، إذ يتحقق باختيار ذلك الوقت المناسب أمران، أحدهما: نشر التوجيه أو القرار أو الإجراء فى أكبر عدد من المسلمين، من كل بلد من بلدانهم، والثانى سرعة الانتشار التى يحققها إعلان القرار أو التوجيه فى هذا الجمع فى ذلك الوقت[4]. ومن ذلك كتابه إلى أهل الموسم الذى جاء فيه: أما بعد، فإنى أشهد الله وأبرأ إليه فى الشهر الحرام والبلد الحرام، ويوم الحج الأكبر، إنى برئ من ظلم من ظلمكم، وعدوان من اعتدى عليكم، أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته إلا أن يكون وهمًا منى، أو أمرًا خفى على لم أتعمده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعًا عنى مغفورًا لى إذا علم منى الحرص والاجتهاد، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دونى وأنا معول كل مظلوم، ألا وأى عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم، ألا وإنه لا دولة بين أغنيائكم، ولا أثرة على فقرائكم فى شيء من فيئكم، ألا وأيما وارد ورد فى أمر يصلح الله به خاصًا أو عامًا من هذا الدين فله مابين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار على قدر ما نوى من الحسنة، وتجشم من المشقة، رحم الله امرأً لم يتعاظمه سفر يحيىٔ الله به حقًا لمن وراءه، ولولا أن أشغلكم

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم صـ٣٢.

(٢) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر صـ٣٣٧.

(٣) المصدر نفسه صـ٣٣٧، ٣٣٨.

(٤) المصدر نفسه صـ٣٣٩.

عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري والسلام[(١)].

فهذا كتاب عظيم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في محاربة الظلم وإقرار العدل، فهو قد سعى جاهداً في رد المظالم التي عرفها، ولكنه يتوقع أن هناك مظالم لم تصل إليه، فكتب هذا الكتاب وأعلنه في موسم الحج الذي يضم وفوداً من أغلب بلاد المسلمين، لتبرأ ذمته من مظالم خفية لم تبلغه، وأعلن في هذا الكتاب براءته من الولاة الذين يقع منهم شيء من الظلم، وربط طاعتهم بطاعة الله تعالى، فهو بهذا يجعل كل فرد من أفراد الأمة رقيبًا على أمير بلده، يسعى في تثبيته إذا استقام وفي تقويمه إذا انحرف. . . ومن أروع ما جاء في هذا الكتاب تخصيص مبلغ من المال لمن يسعى في إصلاح أمور الأمة، وفي ذلك ضمان النفقة لمن أراد أن يسافر من أجل ذلك حتى لا يفقد به التفكر في تأمين تلك النفقة، ثم يختم كتابه بشكر الله جل وعلا على ما وفقه إليه من الإصلاح الذي تحقق على يديه. وهذا مثل من الإخلاص القوي لله تعالى بحيث يتلاشى حظ النفس ولا يكون إلا لطف الله جل وعلا وتوفيقه ومعونته[(٢)]. فهذا دليل على تطبيق عمر لمبدأ تحري ومراعاة أهمية الوقت، حيث لم يقتصر عمر في إدارته للوقت على اغتنام الوقت وإدراك أهميته، بل كانت إدارة كاملة لكل مقتضيات اغتنام الوقت وكل ما يتعلق به من ضرورة سرعة اتخاذ القرارات والتوجيه في الأوقات المناسبة والعمل على تلافي التأخير وأسبابه ودوافعه[(٣)].

عاشرًا: مبدأ تقسيم العمل في إدارة عمر بن عبد العزيز:

كان عمر بن عبد العزيز قد أشار صراحة إلى مبدأ تقسيم العمل ومهام المسئولية للدولة، فقد كتب إلى عقبة بن زرعة الطائي، بعد أن ولاه خراج خراسان: . . .إن للسلطان أركانًا لا يثبت إلا بها، فالوالي ركن، والقاضي ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا ـ يعني الخليفة ـ[(٤)]. هذا من حيث التقسيم الرئيسي العام، بالإضافة إلى الأركان الرئيسية لإدارته وهي: الولاية ويشملها الوالي للإقليم، والقضاء ويمثله القاضي، ومالية الدولة ويمثلها رجل أو صاحب بيت المال، والرابع السلطة العليا للدولة رجل الدولة أو

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣).

(٢) التاريخ الإسلامي (١٦/ ١٥١).

(٣) النموذج الإداري صـ ٣٤٠.

(٤) تاريخ الطبري نقلاً عن النموذج الإداري صـ٣٤٢.

الخليفة ويمثلها أمير المؤمنين، إلا أن هناك تقسيمات فرعية لمهام الدولة، منها ما يتعلق بإمارة الجهاد، فقد كان منصور بن غالب على ولاية الحرب(١)، وعلى الصائفة كل من الوليد بن هشام، وعمرو بن قيس السكونى(٢). وقسم آخر وهو ما يتعلق بالأمن الداخلى، إذ استعمل عمر بن يزيد بن بشر الكلبى على الشرطة(٣)، وولى الحرس عمر بن مهاجر بن أبى مسلم الأنصارى، وحاجبه حبيش مولاه، وأنشأ نقاط العبور وولى عليها، مثل جواز مصر وكان عليها عمر بن رزيق الأيلى، وهى ما يعرف الآن بنقاط الجمارك(٤)، وقسم ثالث يختص بالكتابة (الكتاب)، ومنهم ليث بن أبى رقية أم الحكم بنت أبى سفيان(٥) والخاتم وعليه نعيم بن سلامة(٦)، وقسم يتولى متابعة الشئون المالية، وله تفريعات منها الخراج ومن ولاته على الخراج عقبة بن زرعة الطائى(٧)، والصدقات إذ وليها لعمر عبد الله بن عبد الرحمن بن عتبة القرشى(٨)، وهى تمثل مؤسسة النقد فى الوقت الراهن وليها لعمر بن أبى حملة القرشى(٩)، وكذلك الخراج المركزى وكان عليه صالح بن جبير الغدانى(١٠)، وأما فى مجال التعليم والتثقيف فقد أنشأ عمر مجالس التعليم الدائمة فى المساجد، وكلف من يقوم بالتفقيه والتعليم المتنقل فى البداية، كما كلف أناسًا بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأقام دور الإفتاء إذ جعل الفتيا فى مصر إلى ثلاثة فقهاء(١١). بالإضافة إلى ما سبق فقد كانت هناك ولايات أخرى، مثل ولاية الصلاة وولاية الحج وتسيير أموره، والبريد وغير ذلك مما لم يسعفنا المقام بالإحاطة والتفصيل له. وهكذا كان عمر بن عبد العزيز يطبق مبدأ تقسيم العمل فى دولته(١٢)، فقد كان رحمه الله رجل دولة من الطراز الأول.

هذا وقد كان عمر بن عبد العزيز فى كثير من الأحيان يعطى الولاة الحق فى تعيين وزرائهم، وتشكيل مجالس شوراهم، ولهم حق الإشراف على جيش الولاية، والحفاظ على الأمن الداخلى فى الولاية، والنفقات اللازمة لكل ولاية مع الإشراف والمتابعة. . . إلخ، هذه بعض الملامح والمعالم من فقه عمر بن عبد العزيز فى إدارته للدولة.

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ٧١ .
(٢) تاريخ خليفة صـ٣٢٤ .
(٣) المصدر نفسه صـ٣٢٤ .
(٤) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ٣٤٤ .
(٥) تاريخ خليفة صـ٣٢٤ .
(٦) المصدر نفسه صـ٣٢٥ .
(٧) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى صـ٣٤٤ .
(٨) أمراء دمشق فى الإسلام صـ ٤٨ .
(٩) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم صـ٢٩٥ .
(١٠) تاريخ خليفة صـ٣٢٤ .
(١١) البداية والنهاية نقلاً عن النموذج الإدارى صـ٣٤٤ .
(١٢) النموذج الإدارى صـ٣٤٥.

- من أسباب نجاح مشروع عمر بن عبد العزيز الإصلاحي:

كانت هناك عوامل متعددة ساهمت في نجاح مشروعه الإصلاحي منها:

١- صفاته الشخصية من العلم، والورع والخشية، والزهد والتواضع، والحلم والصفح والعفو، والحزم والعدل مع قدرات إدارية كبيرة في فن التخطيط والتنظيم والقيادة والتوجيه ومعرفة الناس.

٢- امتلاكه لرؤية إصلاحية تجديدية واضحة المعالم، هدفها الرجوع بالدولة والأمة لمنهج الخلافة الراشدة على منهاج النبوة.

٣- التفاف الأمة حول هذا المشروع عندما لمست صدق المشرف عليه وإخلاصه.

٤- وجود كوكبة من العلماء الربانيين في عهده، كانوا مؤهلين لقيادة الدولة والأمة، فلما جاءت الفرصة بوصول عمر بن عبد العزيز للحكم وأتاح لهم المجال أبدعوا وأثبتوا جدارتهم فيما أسند لهم من مهام كبرى، وهذا درس مهم في أهمية تكامل العلم الشرعي، والأمانة والتقوى مع القدرات القيادية في شخصية العلماء الربانيين، فذلك يساعدهم على تحكيم شرع الله من خلال مناصب الدولة وقيادة الجماهير والتفاهم حول المشروع الإسلامي الكبير.

٥- الحرص على تحكيم الشرع في كل صغيرة وكبيرة، على مستوى الدولة والأمة، فيأتي بذلك التوفيق الرباني، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ٩٦].

* أثر الالتزام بأحكام القرآن والسنة الشريفة على دولة عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

إن التأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي حياة الأمم والشعوب يعطي العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفاق، وأوضح مكان لسنن الله وقوانينه كتاب الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ...﴾ [النساء: ٢٦].

وسنن الله تتضح بالدراسة فيما صح عن رسول الله ﷺ بالمطالعة في سنته ﷺ، فقد كان ﷺ يقتنص الفرص والأحداث ليدل أصحابه على شيء من السنن، ومن ذلك أن ناقته ﷺ (العضباء) كانت لا تسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له، فشق ذلك على

أصحاب النبى ﷺ، فقال لهم ﷺ كاشفًا عن سنة من سنن الله: «حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»(1) وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن فى الأمكنة بالسعى والسير وفى الأزمنة بمعرفة التاريخ والسير. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 137، 138] وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكر، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (101) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: 101، 102].

من خصائص السنن الإلهية:

1- أنها قدر سابق: قال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38] أى أن حكم الله تعالى وأمره الذى يقدره كائن لا محالة، وواقع لا محيد عنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

2- أنها لا تتحول ولا تتبدل: قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: 60- 62].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: 22، 23].

3- أنها ماضية لا تتوقف: قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38].

4- أنها لا تخالف ولاتنفع مخالفتها: قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: 82 - 85].

(1) البخارى، ك الجهاد والسير رقم 2872.

٥- لاينتفع بـها المعاندون ولكن يتـعظ بها المتـقون: قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾. [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

٦ ـ أنها تسرى على البـر والفاجر: فالمؤمنون ـ والأنبياء أعـلاهم قدرًا ـ تسرى عليهم سنن الله، ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل شرع الله أو أعرض عنه[1].

وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية، أمـا الآثار الدنيوية التى ظهرت فى دولة عمر بن عبد العزيز فهى:

١- الاستخلاف والتمكين: حيث نجد أن عمر بن عـبد العزيز ـ رحمه الله ـ مكن الله له فى الأرض تمكينًا عظيـمًا بسبب حـرصه على إقامة شـرع الله تعالى فى نفـسه وأهله ومن حوله وقومه وأمته وأخلص لله فى مشروعه الإصلاحى الراشدى، فأيده الله عز وجل وشد أزره، فقد أخـذ بشروط التمكين وعمل بهـا فتحقق له وعد الـله، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]. وهذه سنة ربانية نافذة لا تتبدل فى الشعوب والأمم التى تسعى جاهدة وجادة لإقامة شرع الله.

٢- الأمن والاستقرار: كانت الثورات فى العهد الأمـوى على أشدها ضد النظام السائد، وخصوصًا من الخـوارج إلا أن عمر بن عبد العزيز استطاع بالحـوار والنقاش أن يقنع الكثير منهم، ولقد تميز عهده بالأمن والاستقرار بسبب عدله فى الحكم ورفعه للمظالم، واحترامه الكبير لكل شرائح المجتمع، وحرصه على تطبيق الشريعة فى كل شئون الحياة. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٣- النصر والفتح: إن عمـر بن عبد العـزيز حرص على نصرة دين اللـه بكل ما يملك وتحققت فيه سنة الله فى نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ

(١) الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى (٢/ ٦٦٧، ٦٦٩).

الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. فقد وعد الله من ينصره بنصره، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ولا يتكلم بما لا يعلم(١). كما نرى فى حياتنا المعاصرة.

٤ ـ العز والشرف: إن الشرف الكبير والعز العظيم الذى سطر فى كتب التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بسبب تمسكه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإن من يعتز بالانتساب لكتاب الله الذى به تشرف الأمة ويعلو ذكرها وضع رجله على الطريق الصحيح، وأصاب سنة الله الجارية فى إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] قال ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ فى تفسيره هذه الآية: فيه شرفكم(٢). فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام.

٥- بركة العيش ورغد الحياة فى عهده: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

إن إقامة شرع الله تعالى وتطبيق أحكامه يجلب للأمة بركات مادية ومعنوية، فمن حقق الإيمان والتقوى يكرمه الله بهذا العطاء الربانى الكبير. والبركات التى يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون فى توكيد ويقين، ألوان شتى، لا يفصِّلها النص ولا يحددها، وإيماء النص القرآنى يصور الفيض الهابط من كل مكان، النابع من كل مكان، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان، فهى البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، وما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم فى واقع الخيال(٣). ولقد لامس الناس وشاهد هذه البركات فى عهد عمر بن عبد العزيز سواء كانت مادية أو معنوية، وفوجئ الناس أن بركة العيش ورغد الحياة قد عم جميع الناس، ومالية الدولة قويت، واطمأن الناس فى كل رقعة من رقعة خلافة الدولة الأموية الواسعة، حتى عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها، وأصبحت هذه مشكلة للأغنياء وأصحاب الأموال تطلب حلاً سريعًا، قال يحيى بن سعيد: بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً، ولم نجد من يأخذها منى، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقابًا، فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين(٤). وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب: «إنما ولى عمر بن

(١) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامى للصَّلاَّبىِّ (٢/٣٠٦) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٠).

(٣) فى ظلال القرآن (٣/ ١٣٣٩) .

(٤) رجال الفكر والدعوة (١/٥٨) .

عبد العزيز سنتين ونصفًا، فذلك ثلاثون شهراً، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقولوا: اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء، فما يبرح بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده فيرجع بماله، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس(١). فهذه الفوائد العامة من بركات الحكومة الإسلامية التى تطبق شرع الله تعالى.

٦- انتشار الفضائل وانزواء الرذائل: بين الشريعة وبين الخلق أوثق الرباط وأمتن العرى، كيف لا؟ والرسالة من غاياتها العظمى: تزكية الأخلاق وتربية الفضائل. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فمعنى يزكيهم: أى يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به حال شركهم وجاهليتهم(٢). ولقد اهتم عمر بن عبد العزيز بنشر الفضائل وحارب الرذائل، وتحركت معه مدرسة الوعظ والإرشاد والتزكية والتربية والتى كان من روادها الحسن البصرى، وأيوب السختيانى، ومالك بن دينار وغيرهم. وقد حققت هذه المدرسة نتائج باهرة فى نشر الفضائل وانزواء الرذائل، وقد حدث فى عهد عمر بن عبد العزيز تجديد كبير فى توجه الأمة والمجتمع الإسلامى والتطور فى الأذواق والأخلاق والميول والرغبات فى هذه المدة القصيرة. فقد ذكر الطبرى فى تاريخه: كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون فى زمانه يسأل بعضهم بعضًا عن البناء والمصانع، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم بعضًا عن التزويج والجوارى، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم، ومتى ختمت؟ وما تصوم من الشهر؟(٣)

٧- الهداية والتثبيت: جاء عن عمر بن عبد العزيز فى خطابه الذى أرسله ليقرأ على الحجاج فى موسم الحج: ... ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك، فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلنى إلى نفسى كنت كغيرى والسلام عليكم(٤). ولاشك أن عمر

---

(١) رجال الفكر والدعوة (١/ ٥٨) .

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٠١)، الحكم والتحاكم (٢/ ٦٩١).

(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن رجال الفكرة والدعوة (١/ ٥٩).

(٤) حلية الأولياء (٥/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣).

ابن عبد العزيز حرص على تحكيم شرع الله فى دولته، وبذلك منحه الله نعمة عظيمة، ألا وهى الهداية والتثبيت على الحق، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. ثم قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:٦٦ - ٦٨] والأمر الذى وعظوا به ووعدوا الخير لأجله: هو تحكيم الشريعة والانقياد للرسول ﷺ، فلو أنهم امتثلوا لما أمروا لثبت الله أقدامهم على الحق فلا يضطربون فى دينهم، ولآتاهم الهداية التى لا عوج فيها بحيث توصلهم إلى الأجر العظيم[(١)].

إن الهداية والثبات على الأمر، هبة يهبها الله لمن تمخض قلبه لأمره وانقادت جوارحه لحكمه[(٢)].

إن خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد ترديد الببغاء للكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التى تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والأزمات، وعرضة للانهيار فى كل ساعة، وأنها ليست إلا حلمًا من الأحلام، ولا يزال التاريخ يتحدى هؤلاء ويقول لهم[(٣)]: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ومما أدهشنى فى دراستى التاريخية تواصل الأجيال الإسلامية فيما بينها عبر حلقات متماسكة تؤثر بعضها فى بعض، فالسلطان نور الدين زنكى المتوفى (٥٦٨هـ) كتب له الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمد بن خضر الإربلى سيرة عمر بن عبد العزيز لكى يسير نور الدين على منهاجها، ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدى فى عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها فى الدولة الزنكية عندما وجدت العالم الكبير الذى رسم ملامح المشروع الإصلاحى، وهو الشيخ أبو حفص معين الدين، واقتنع القائد العسكرى والزعيم السياسى بسلامة المنهج وهو نور الدين زنكى، فقد قال: أبو حفص فى مقدمة كتابه -عن عمر بن عبد العزيز وتقديمه ذلك الكتاب لنور الدين-:.. علمًا منه أن الاقتداء عن سلف الفضلاء والعقلاء يكمل الأجر ويبقى الذكر، واتباع سنن المهديين الراشدين يصلح السريرة ويحسن السيرة، وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بالاقتداء بمن سلف من الأنبياء فقال عز من قائل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:

(١) فتح القدير (١/ ٤٨٥).

(٢) الحكم والتحاكم (٢/ ٦٩٠).

(٣) رجال الفكر والدعوة (١/ ٥٩).

٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].
فلذلك اشتد حرصه - أدام الله سعادته - على جمع السير الصالحة والآثار الواضحة، فحينئذ رأيت حقًا عليَّ بذل الوسع في مساعدته واستنفاذ القوة في معاضدته بحكم صدق الولاء وأكيد الإخاء، فصرفت وجه همتي إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - والتجأت إلى الله الكريم جل اسمه أن يحسن معونتي ويُيسِّر ما صرفت إليه عزيمتي، فحين شرح الله صدري لذلك ولاحت أمارات المعونة، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزانته المعمورة معاونة على البر والتقوى[1]. لقد قدم هذا الشيخ الجليل منهاجًا عمليًا لنور الدين زنكي من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز، فبنى دولة العقيدة، وحكم الشريعة، وأقام العدل ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة، وعمل على إحياء السنة وقمع البدعة، وعمق هوية الأمة وفجر روح الجهاد فيها ونشر العلم وساهم في تحقيق الازدهار والرخاء، وكان نسيجَ وحده في زهده وورعه وعبادته وصدقه وإخلاصه. ومن أراد التوسع فليراجع الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، عهد نور الدين وصلاح الدين لمحمد حامد الناصر.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة التي أصابت دولة عمر بن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكي ودولة يوسف بن تاشفين ودولة محمد الفاتح لهي سنن من سنن الله الجارية والماضية، والتي لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض، فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها. إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن الله وفقهه ومراعاة التدرج والمرحلية، والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار.

*** الأيام الأخيرة في حياة عمر بن عبد العزيز ووفاته رحمه الله:**

١ - **آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز:** كانت آخر خطبة خطبها بخناصرة، فقال فيها: أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثًا ولن تتركوا سدى، وإن لكم معادًا ينزل الله فيه للحكم

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٢).

فيكم، والفصل بينكم، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شىء، وحرم الجنة التى عرضها السماوات والأرض، ألا واعلموا أنما الأمان غدًا لمن حذر الله وخافه، وباع نافذًا بباق، وقليلاً بكثير، وخوفًا بأمان، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين، وسيخلفها بعدكم الباقون، كذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين ؟ وفى كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله قد قضى نحبه وانقضى أجله، فتغيبونه فى صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحبة، وخلع الأسباب فسكن التراب وواجه الحساب، فهو مرتهن بعمله، فقير إلى ما قدم، غنى عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه، وايم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندى، فأستغفر الله وأتوب إليه، وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه، وما منكم أحد يسعه ما عندنا إلا وودت أنه سداى ولحمتى، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء، وايم الله إنى لو أردت غير هذا من غضارة العيش، لكان اللسان منى به ذلولاً عالمًا بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة، يدل فيها على طاعته، وينهى عن معصيته، ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق، وأبكى الناس حوله، ثم نزل فكانت إياها لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله[1].

٢ ـ سقيه السم: اختلفت الروايات عن سبب مرض وموت عمر بن عبد العزيز، فعلى حين تذكر الروايات أن سبب مرضه وموته هو الخوف من الله تعالى والاهتمام بأمر الناس كما روى عن زوجته فاطمة بنت عبد الملك وكما ذكر ابن سعد فى الطبقات عن ابن لهيعة[2]، إلا أنه قد ذكر سببًا آخر لموته وهو أنه سقى السم، وذلك أن بنى أمية قد تبرموا وضاقوا ذرعًا من سياسة عمر بن عبد العزيز التى قامت على العدل وحرمتهم من ملذاتهم وتمتعهم بميزات لا ينالها غيرهم، بل جعل بنى أمية مثل أقصى الناس فى أطراف دولة الإسلام ورد المظالم التى كانت فى أيديهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون، فكاد له بعض بنى أمية بوضع السم فى شرابه[3]. وهذا ليس من المستبعد أو المستغرب أن يعمد أحد هؤلاء إلى سقيه السم ليتخلص منه، وليكن ذلك عن طريق خادمه الذى يقدم له الطعام والشراب، فقد روى أنهم وعدوا غلامه بألف دينار وأن يعتق إن هو نفذ الخطة، فكان الغلام يضطرب كلما هم بذلك، ثم إنهم هددوا الغلام بالقتل إن هو لم يفعل، فلما كان مدفوعًا بين الترغيب والترهيب حمل السم فوق ظفره، ثم لما أراد تقديم الشراب لعمر قذف

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٧٥) . (٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٣)، الحلية (٥/ ٣٤٢) .

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٣) .

السم فيه ثم قدمه إلى عمر فشربه ثم حس به منذ أن وقع فى بطنه[1]. وعن مجاهد قال: قال لى عمر بن عبد العزيز: ما يقول الناس فى؟ قلت: يقولون: إنك مسحور. قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلامًا له فقال له: ويحك ما حملك على أن تسقينى السم ؟ قال: ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق، قال: هات الألف فجاء بها فألقاها عمر فى بيت المال. وقال: اذهب حيث لا يراك أحد[2]. فالسبب المباشر لمرضه وموته -كما ذكرت الروايات- كان بسبب سقيه السم[3]. وفى عفوه عن غلامه الذى وضع له السم وتسبب فى قتله وهو قادر على أن يقتله شر قتلة، وفى عدم استفهامه من الغلام عمن أمره بوضع السم وقد كان يستطيع إرغام الغلام والاعتراف بذلك، ثم يأمر بالقصاص منهم جميعًا، مثل عجيب فى العفو، وسبب ذلك أنه كان يوقن أن ما عند الله خير وأنه إن عفا عنه حصل له الثواب من الله تعالى على عفوه، وإن انتصر منه فأقام عليه الحد لم يا ثم ولكنه لايحصل على أجر العفو، ونظرًا إلى أن أغلى شىء عنده فى هذه الحياة أن يرتفع رصيده من الحسنات فإنه قد فضل العفو على انتصاره للنفس[4].

٣- شراء عمر موضع قبره: بلغ من تواضع عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أنه عندما ذكروا له ذلك الموضع الرابع فى حجرة عائشة والتى فيها قبر النبى ﷺ وأبى بكر وعمر، فقالوا: لو دنوت من المدينة حتى تدفن معهم قال: والله لئن يعذبنى الله عذابًا ـ إلا النار فإنى لاصبر بى عليها ـ أحب إلىَّ من أن يعلم الله من قلبى أنى أرانى لذلك أهلاً[5]. ويأبى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ إلا أن يشترى موضع قبره من ماله الخاص وذلك بسبب ورعه ومحاسبته الشديدة لنفسه، فقد جاءت الروايات أنه قال لمن حوله ـ وهو فى مرض موته ـ: اشتروا من الراهب موضع قبرى، فقال له النصرانى: والله يا أمير المؤمنين إنى لأتبرك بقربك وجوارك، وإنها لخيرة أن يكون قبرك فى أرضى، قد أحللتك، ويأبى عمر قائلاً: إن بعتمونى موضع قبرى وإلا تحولت عنكم، ثم دعا بالثمن الذى اختلفت الروايات فى مقداره، فقيل: ديناران، وقيل: ستة، وقيل: ثلاثون، دعا بالثمن فوضعه فى يد النصرانى فقال أصحاب الأرض: لولا أنا نكره أن يتحول عنا ما قبلنا الثمن[5].

(١) سيرة عمر لابن الجوزى صـ ٣١٦، ٣١٧ .
(٢) تذكرة الحفاظ (١/ ١٢٠) .
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٤) .
(٤) التاريخ الإسلامى (١٦/ ٢٢٩) .
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٣٢١ ـ ٣٢٤، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥) .
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

٤ ـ وصيته لولي عهده يزيد بن عبد الملك: كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك ـ وهو في مرض الموت ـ قائلا: بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر ـ أمير المؤمنين ـ إلى يزيد بن عبد الملك، السلام عليك:

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإني كتبت إليك وأنا دنف[1] من وجعي، وقد علمت إني مسئول عما وليت يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفى عليه من عملي شيئًا، يقول تعالى فيما يقول: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾: [الأعراف: ٧] فإن يرض عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل، وإن سخط على فيا ويح نفسي إلى ما أصير، أسأل الله الذي لا إله إلا هو، أن يجيرني من النار برحمته، وأن يمن علي برضوانه والجنة. وعليك بتقوى الله، والرعية الرعية، فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير[2]. وجاء في رواية: . . . فإن سليمان ابن عبد الملك، كان عبدًا من عباد الله، قبضه الله واستخلفني وبايع لي من قبله، وليزيد ابن عبد الملك إن كان من بعدي، ولو كان الذي أنا فيه لاتخاذ أزواج، أو اعتقاد أموال كان الله قد بلغ بي أحسن ما بلغ بأحد من خلقه، ولكني أخاف حسابًا شديداً ومسألة لطيفة، إلا ما أعان الله عليه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. لقد نصح عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ لولي عهده يزيد بن عبد الملك ما وسعه النصح، وبذل ما يقدر عليه من التخويف والتهديد من عاقبة الأمر مع ضرب الأمثلة والاعتبار بالسابقين، فقد نصح وبلغ أتم البلاغ[3].

٥- وصيته لأولاده عند الموت: لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيت بهم إليَّ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم، فلما سمع مقالته: قال: أجلسوني، فأجلسوه فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة، أما قولك: إني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال فوالله ما ظلمتهم حقًا هو لهم، ولم أكن لأعطيهم شيئًا لغيرهم، وأما ما قلت في الوصية فإن وصيتي فيهم: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. وإنما ولد عمر بين أحد رجلين: إما صالح فسيغنيه الله، وإما غير ذلك فلن أكون

(١) دنف: اشتد عليه المرض حتى أشفى على الموت .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي صـ٣١٨ ـ ٣١٩، فقه عمر بن عبد العزيز (٤٧/١) .

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٤٧/١).

أول من أعانه بالمال على معصية الله،ادع لى بنى، فأتوه فلما رآهم ترقرقت عيناه، وقال: بنفسى فتية تركتهم عالة لا شىء لهم، وبكى، يا بنى إنى قد تركت لكم خيرًا كثيرًا، لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقًا، يا بنى إنى قد مثلت بين الأمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار، أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إلىَّ، قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله[1]. وجاء فى رواية: أن عمر وصى مسلمة أن يحضر موته وأن يلى غسله وتكفينه، وأن يمشى معه إلى قبره، وأن يكون مما يلى إدخاله فى لحده، ثم نظر إليه وقال: انظر يا مسلمة بأى منزل تركتنى، وعلى أى حال أسلمتنى إليه الدنيا. فقال له مسلمة: هذه مائة ألف دينار، فأوصى فيها بما أحببت، قال: أو خير من ذلك يا مسلمة؟ أن تردها من حيث أخذتها، قال مسلمة: جزاك الله عنا خيرًا يا أمير المؤمنين، والله لقد ألنت قلوبًا قاسية، وجعلت لنا ذكرًا فى الصالحين[2].

وفى الأثرين الماضيين دروس وعبر، ففى الخبر الأول مثل من ورع أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز رحمه الله تعالى حتى فى وصيته لأولاده بعد موته، حيث لم يرض لنفسه أن يفارق الدنيا وقد حمل ذمته شيئًا لا يدرى على أى وضع يكون تنفيذه، فربما تصور أنه لو أوصى بهم أحد أقاربه لأعطاهم من مصدر لا يحل، فيلحقه بذلك شىء من الإثم، فلجأ إلى الله تعالى وفوض أمرهم إليه، لقد تصور فى معاملة أولاده وقوعه بين أمرين: أن يغنيهم فى الحياة الدنيا، وذلك يمنحهم شيئًا من المال العام للمسلمين، فيتعرض بذلك للفحات النار، أو أن يكتفى بالإنفاق عليهم من المورد القليل الحلال الخالى من الشبهات فيتعرض بذلك لنفحات الجنة، فاختار الطريق الأخير مع ثقته أن لن يضيعهم، وقد أشار إلى أنه ترك لهم السمعة العالية، حيث سيكونون موضع احترام وعطف جميع المسلمين وأهل الذمة، وأكرم بذلك من تركة، إنها تركة عظيمة لا تقدر بها أموال الدنيا عند أصحاب الأفكار النيرة والعقول المبصرة، وفى قوله: (إنما ولد عمر بين رجلين: إما رجل صالح فسيغنيه الله وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله) لفتة جليلة إلى معية الله تعالى لأوليائه بالحفظ أخذًا من قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، وإشارة إلى أن الأمر المهم أن يبذل الوالد أقصى جهده فى تربية أولاده على الصلاح ليحفظهم الله

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١١٥، ١١٦، التاريخ الإسلامى (١٦/ ٢٢٠).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم صـ١٢٢، ١٢٣، التاريخ الإسلامى (١٦/ ٢٢٢).

تعالى، وليس المهم أن يسعى فى جمع المال لهم حتى يغتنوا من بعده، لأنهم إن لم يكونوا صالحين فسيكون ذلك المال عونًا لهم على معصية الله تعالى(١).

وأما فى الأثر الثانى فيوجه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ابن عمه مسلمة بن عبد الملك إلى التحرى فى اكتساب المال، ويبين له أن إنفاق المال بالصدقة أو الهدية لا يجعله حلالاً، بل لا بد من التحرى فى كسبه، فإذا لم يكن للإنسان حق فيه وجب عليه أن يرده إلى مستحقيه، ولا يبرئ ساحته أن يتصدق به أو يهديه(٢).

٦- وصيته إلى من يغسله ويكفنه: عن رافع بن حفص المدنى أن عمر قال لرجاء: إذا أنا مت وغسلتمونى وكفنتمونى وصليتم علىّ وأدخلتمونى لحدى، فاجذب اللبنة من عند رأسى، فإن رأيت وجهى إلى القبلة فاحمدوا الله وأثنوا عليه، وإن رأيت قد زويت عنها، فاخرج إلى المسلمين ماداموا عند لحدى حتى يستوهبونى من ربى، قال: فلما وضع فى لحده وأقبل باللبن على وجهه جذبت اللبنة من عند رأسه فإذا وجهه إلى القبلة فحمدنا الله وأثنينا عليه(٣).

٧- كراهته تهوين الموت عليه: قال عمر بن عبد العزيز: ما أحب أن يخفف عنى سكرات الموت لأنه آخر ما يرفع للمؤمن من الأجر(٤). وفى رواية: ما أحب أن يخفف عنى سكرات الموت لأنه آخر ما يكفر به عن المرء المؤمن(٥).

٨- حاله لما احتضر: لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال: اخرجوا عنى فلا يبقين عندى أحد. وكان عنده مسلمة بن عبد الملك، فخرجوا، وقعد مسلمة وفاطمة زوجه أخت مسلمة على الباب، فسمعوه يقول: مرحبًا بهذه الوجوه ليست وجوه إنس ولا بوجوه جان(٦)، وجاء فى رواية: . . .قالت فاطمة بنت عبد الملك: كنت أسمع عمر يقول فى أيام مرضه: اللهم أخفِ عنهم موتى ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجت من عنده، وجلست فى بيت بينى وبينه باب، فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. ثم هدأ فجعلت لا أسمع له صوتًا ولاحسًا ولا كلامًا. فقلت لوصيف كان يخدمه: لو دخلت على أمير المؤمنين فدخل وصاح، فقمت ودخلت عليه وقد أقبل بوجهه إلى القبلة وأغمض عينيه

(١) التاريخ الإسلامى (١٦/ ٢٢٢). (٢) المصدر نفسه (١٦/ ٢٢٢) .
(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٤٤، ٦٤٥) .
(٤)، (٥) المصدر نفسه (٢/ ٦٤٨) . (٦) المصدر نفسه (٢/ ٦٥٢) .

بإحدى يديه وأغمض فمه بالأخرى، ومات رحمه الله[1]. وجاء في رواية: أن عمر بن عبد العزيز لما كان مرضه الذى هلك فيه قال لهم: أجلسونى، فأجلسوه، ثم قال: أنا الذى أمرتنى فقصرت، ونهيتنى فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه وأحد النظر، فقالوا له: إنك لتنظر نظرًا شديدًا، فقال: إنى لأرى حضرة ليست بإنس ولا جن ثم قبض[2]. وكان نقش خاتمه: عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله.

٩- تاريخ وفاته: توفى الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رجب سنة (١٠١هـ) على أصح الروايات، واستمر معه المرض عشرين يومًا، وتوفى بدير سمعان من أرض المعرة بالشام بعد خلافة استمرت سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وتوفى وهو ابن تسع وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وعلى أصح الروايات كان عمره لما توفى أربعين سنة[3].

١٠- الأموال التى تركها عمر بن عبد العزيز: اختلفت الروايات على مقدار تركة عمر بن عبد العزيز حين توفى، ولكن الروايات متفقة على قلة التركة وانعدامها[4]، ومن هذه الروايات ما رواه عمر بن حفص المعيطى قال: حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ قال: قلت: كم ترك لكم من المال ؟ فتبسم وقال: حدثنى مولى لنا كان يتولى نفقته، قال: قال لى عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ حين أحتضر: كم عندك من المال ؟ قلت: أربعة عشر دينارًا، قال: فقال: تحتملون بها من منزل إلى منزل، فقلت: كم ترك من النحلة ؟ قال: ترك لنا نحلة ستمائة دينار ورثناها عنه عن اختيار عبد الملك، وتركنا اثنى عشر ذكرًا وست نسوة، فقسمناها على خمس عشرة[5]. والصحيح أن الذكور الذين ورثوه هم أحد عشر ذكرًا، لوفاة ابنه عبد الملك قبله[6]. وقال ابن الجوزى: أبلغنى أن المنصور قال لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه: عظنى. قال: مات عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وخلف أحد عشر ابنًا، وبلغت تركته سبعة عشر دينارًا كفن منها بخمسة دنانير، وثمن موضع قبره ديناران، وقسم الباقى على بنيه وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهمًا، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابنًا فقسمت تركته، وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف، ورأيت رجلاً من ولد

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر (٢/ ٦٥٣). (٢) المصدر نفسه (٢/ ٦٥٤).
(٣) تاريخ القضاعى صـ٣٦٣.
(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٥٠)، تذكرة الحفاظ (١/ ١١٨).
(٥) سيرة عمر لابن الجوزى صـ٣٣٧. (٦) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٥٥).

عمر بن عبد العزيز قد حمل فى يوم واحد على مائة فرس فى سبيل الله عز وجل، ورأيت رجلاً من ولد هشام يتُصدق عليه[1]. وما مضى يظهر لنا جليًا أن المال الذى ورثه عمر بن عبد العزيز من أبيه ـ وهو مال كثير ـ أخذ في التناقص حتى توفى رحمه الله ورضى الله عنه[2].

١١- ثناء الناس على عمر بن عبد العزيز بعد وفاته:

أ- مسلمة بن عبد الملك: حين توفى عمر ورآه مسجى قال: يرحمك الله لقد لينت لنا قلوبًا قاسية، وأبقيت لنا فى الصالحين ذكراً[3].

ب- فاطمة بنت عبد الملك: فعن وهيب بن الورد، قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز لما توفى جاء الفقهاء إلى زوجته يعزونها، فقالوا لها: جئناك لنعزيك بعمر، فقد عمت مصيبة الأمة، فأخبرينا يرحمك الله عن عمر، كيف كانت حاله في بيته ؟ فإن أعلم الناس بالرجل أهله. فقالت: والله ما كان عمر بأكثركم صلاة ولا صياماً، ولكنى والله ما رأيت عبداً لله قط أشد خوفًا لله من عمر، والله إن كان ليكون من المكان الذى ينتهى إليه سرور الرجل بأهله، بينى وبينه لحاف، فيخطر على قلبه الشيء من أمر الله، فينتفض كما ينتفض طائر وقع فى الماء، ثم يشجب، ثم يرتفع بكاؤه حتى أقول: والله لتخرجن نفسه، فأطرح اللحاف عني وعنه، رحمة له وأنا أقول: يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها[4].

ج- الحسن البصرى: لما أتى الحسن موت عمر بن عبد العزيز قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، يا صاحب كل خير[5].

د- مكحول: ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز.

هـ- يزيد بن حوشب: ما رأيت أخوف من الحسن البصرى وعمر بن عبد العزيز[6]، كأن النار لم تخلق إلا لهما[7].

و- بكاء الرهبان عليه: عن الأوزاعى قال: شهدت جنازة عمر بن عبد العزيز، ثم خرجت أريد مدينة قنسرين فمررت على راهب فقال: يا هذا أحسبك شهدت وفاة هذا

(١) سيرة عمر لابن الجوزى صـ٣٣٨ .

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٥٦/١) .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٣٢٩ .

(٤) البداية والنهاية نقلاً عن ملامح الانقلاب صـ٥٦ .

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٥٣/١) .

(٦) تاريخ الخلفاء للسيوطى نقلاً عن ملامح الانقلاب صـ٥٥.

(٧) صفة الصفوة (١٥٦/٣).

الرجل؟ قال: فقلت له: نعم، فأرخى عينيه فبكى سجامًا، فقلت له: ما يبكيك ولست من أهل دينه ؟ فقال: إنى لست أبكى عليه، ولكن أبكى على نور كان فى الأرض فطفئ[1].

ز- ملك الروم وبطارقته: بعث عمر بن عبد العزيز وفدًا إلى ملك الروم فى أمر من مصالح المسلمين، وحق يدعوه إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسر عليه وهو جالس على سرير ملكه، والتاج على رأسه، والبطارقة على يمينه وشماله والناس على مراتبهم بين يديه، فأدى إليه ما قصدوه له فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن الجواب، وانصرفوا عنه فى ذلك اليوم، فلما كان فى غداة غد أتاهم رسوله، فدخلوا عليه، فإذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه، وقد تغيرت صفاته التى شاهدوه عليها كأنه فى مصيبة، فقال: هل تدرون لماذا دعوتكم ؟ قالوا: لا، قال: إن صاحب مصلحتى التى تلى العرب جاء فى كتابه فى هذا الوقت: أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا، فقال: ألكم تبكون، أو لدينكم أو له ؟ قالوا: نبكى لأنفسنا ولديننا وله، قال: لا تبكوا له، وأبكوا لأنفسكم ما بدا لكم، فإنه خرج إلى خير مما خلف، وقد كان يخاف أن يدع طاعة الله فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافته، لقد بلغنى من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيى الموتى، ولقد كانت تأتينى أخباره باطنًا وظاهرًا، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحدًا بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذى ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته، ولكنى عجبت من هذا الذى صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها، حتى صار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً[2].

١٢- ما نسب إليه من كرامات: يحكى عن حسين القصار[3] قال: كنت أجلب الغنم فى خلافة عمر بن عبد العزيز، فمررت يومًا براع وفى غنمه نحو من ثلاثين ذئبًا حسبتها كلابًا، فقلت له: يا راعى ما ترجو بهذه الكلاب كلها ؟ فقال: يا بنى إنها ليست كلابًا إنما هى ذئاب. قلت: يا سبحان الله ذئب فى غنم لا يضرها، فقال: يا بنى إذا صلح الرأس فليس على الجسد من بأس[4]. ويبدو أن مثل هذه القصص من المبالغات وإلا لحدثت فى عهد النبوة وقيام الدولة فى المدينة وعهد الخلافة، ولم نسمع بأن الذئاب كانت ترعى مع

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صـ٣٣١ .

(٢) مروج الذهب (٣/ ١٩٥)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٥٤) .

(٣) لعله جسر القصاب: اختلف فيه، والأكثرون على تضعيفه .

(٤) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٧٠).

الغنم. وقد رئيت له منامات صالحة وتأسف عليه الخاصة والعامة، لاسيما العلماء والزهاد والعباد[١].

١٣- ما قيل فيه من رثاء:

أ- كثير عزّة قال فيه:

عمّت صنائعه فعم هلاكه ... فالناس فيه كلهم مأجور
والناس مأتمهم عليه واحد ... في كل دار رنة وزفير
يثني عليك لسانك من لم توله ... خيرًا لأنك بالثناء جدير
ردت صنائعه عليه حياته ... فكأنه من نشرها منشور[٢]

ب- وقال جرير:

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا ... يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمرًا عظيمًا فاضطلعت به ... وقمت فيه بأمر الله يا عمرا
الشمس كاسفة[٣] ليست بطالعة ... تبكي عليك نجوم الليل والقمرا[٤]

جـ- وقال محارب بن دثار:

لو أعظم الموت خلقًا أن يواقعه ... لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة عدل قد نعشت لهم ... كادت تموت وأخرى منك تنتظر
يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي ... على العدول التي تغتلها الحفر
وأنت تتبعهم لم تأل مجتهدًا ... سقيا لها سنن بالحق تفتقر
لو كنت أملك والأقدار غالبة ... تأتي رواحًا وتبيانًا وتبتكر[٥]

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وأعلى ذكره في المصلحين، فهذه معالم من سيرته الإصلاحية التجديدية الراشدية التي سار بها على منهاج النبوة، وقد حفظ الله لنا هذه السيرة ولم تهملها الليالي، ولم تفصلها عنا حواجز الزمن، ولا أسوار القرون، فلعلها تجد من يسير على نهجها من حكامنا وزعمائنا وقادتنا، وما ذلك على الله بعزيز في جيلنا أو في غيره.

---

(١) البداية والنهاية (٧١٨/١٢). (٢) البداية والنهاية (٧١٨/١٢).
(٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٧١٩/١٢).

الفصل العاشر

ابنا عبد الملك يزيد وهشام

المبحث الأول

يزيد بن عبد الملك

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو خالد القرشى الأموى، أمير المؤمنين، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية(١). ولد بدمشق سنة ٧١ هـ، وقيل: ٧٢ هـ، وقيل: ٦٦هـ، والأرجح ٧٢ هـ، وكان رجلاً طويلاً جسيماً أبيض مدور الوجه لم يتكهل(٢).

أولاً: حياته قبل الخلافة:

كان قبل الخلافة محبوباً فى قريش، بجميل مأخذه بنفس، وهديه وتواضعه وقصده، وكان الناس لا يشكون إذا صار إليه الأمر أن يسير بسيرة عمر لما ظهر منه(٣)، وقد تلقى تربيته على علماء من أهل الدين والفضل، فكان منهم الضحاك بن مزاحم وعامر بن شراحيل، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر، ومحمد بن مسلم الزهرى(٤)، وهؤلاء العلماء اختارهم عبد الملك لتربية أولاده، وقد تأدب يزيد على يد إسماعيل بن أبى المهاجر والزهرى(٥). وكان يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلى الخلافة، ويغشى مجالسهم، ويحضر حلقاتهم، ويتأدب بآدابهم، ويصغى لكلامهم، ويقبل توجيهاتهم، ويأخذ العلم عنهم، وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم: مكحول، والزهرى فى الشام، والمقبرى وابن أبى العتاب من علماء المدينة(٦)، وعلى ما يبدو أنه بلغ درجة رفيعة من العلم وبخاصة حفظ الحديث وروايته مما جعل بعضهم يعده من المحدثين(٧) وعن ابن جابر قال: أقبل يزيد بن عبد الملك إلى مجلس مكحول، فهممنا أن نُوسِّع له فقال: دعوه يتعلم التواضع(٨)، وقد كان رأى عمر بن عبد العزيز فيه حسناً(٩).

(١) البداية والنهاية (١٣/ ١٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٥٠).
(٣) الدولة الأموية فى عهد يزيد، عبد الله الشريف صـ ٤٦.
(٤)، (٥) المصدر نفسه صـ ٦٣.
(٦)، (٧) المصدر نفسه صـ ٦٥.
(٨) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٥٠).
(٩) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك صـ ٦٥.

ثانياً: توليه الخلافة:

بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فى رجب من سنة إحدى ومائة، بعهد من أخيه سليمان أن يكون هو الخليفة بعد عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يوم الجمعة من رجب[1]. وسار فى بداية حكمه بسيرة عمر بن عبد العزيز، إلا أنه لم يستطع المواصلة، وقال عنه الذهبى: وكان لا يصلح للإمامة، مصروف الهمة إلى اللهو والغوانى[2]. وقال عنه ابن كثير: فما كان به بأس[3]. يقول الدكتور عبد الله الشريف[4]: . . لكن الواضح أن قدراته السياسية وكفاءته الإدارية، لم تكن تؤهله لملء مكانة وقيادة الدولة باقتدار، أو تحقيق العظيم من المنجزات والفريد من السياسات التى تلفت إليه الأنظار، فكان يزيد حاكماً عادياً، ليس سياسياً مقتدراً كمعاوية، أو إدارياً ناجحاً كعبد الملك، أو مصلحاً كعمر، كما لم يكن سيئاً كابنه الوليد بن يزيد، ويمكن القول إن توليه الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز جعل المفارقة بينه وبين عمر واضحة وكبيرة وأدت إلى عتامة صورته لدى جمهرة المسلمين[5]. وكان بإمكان يزيد أن يسير على نهج تجربة عمر بن عبد العزيز ويعطى للعلماء دورهم القيادى المنُوط بهم كما كانوا فى عهد عمر، إلا أن العلماء تراجعوا إلى حد كبير، وحرمت الأمة من تجربة ناجحة تنفست الصعداء، وأطلت من خلالها على عهد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم، ولعل هذا التراجع الذى حدث لمشاركة العلماء فى عهد يزيد يرجع إلى عدة عوامل أهمها:

١- شخصية يزيد بن عبد الملك؛ حيث لم يكن بمكانة عمر وحماسته وحرصه على أن يسوس الناس بمنهج الله بلا محاباة ومساومة؛ كما لم يكن على منهج عمر فى نظرته للخلافة على أنها تكليف لا تشريف، وأنها عمل لإسعاد غيره على حساب نفسه وأهله؛ ويدل على ذلك أن يزيد لم يطق أن يسير على نهج عمر أكثر من أربعين يوماً، ثم عدل عنه إلى نهج الملوك[6].

٢- العامل الثانى مترتب على الأول ومرتبط به؛ إذ لما رأى العلماء عزم يزيد ترك العمل بسيرة عمر، ولم يجدوا عنده ما وجدوه عند عمر، تركوه وانصرفوا إلى مسئولياتهم

(١) البداية والنهاية (١٣/١٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٥٢).
(٣) البداية والنهاية (١٣/ ١٤).
(٤) أفضل من رأيت فيمن كتب عن يزيد بن عبد الملك، وقد تميز كتابه عن غيره من الكتب.
(٥) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك صـ ٧٣.
(٦) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ١١٤ .

الحلمية، فحين قال قائل لرجاء بن حيوة لما اعتزل يزيد: إنك كنت تأتى السلطان فتركتهم! قال: إن أولئك الذين تريد قد ذهبوا [(١)]. وأما ما ورد من أن يزيد تخلى عن السير على نهج عمر لأنه شهد له أربعون شيخاً بأن ليس على الملوك حساب ولا عذاب [(٢)]، فهذا ادعاء أوهى من أن يرد عليه، فهو يتضمن فى طياته الرد على مختلقه، فمن هم الشيوخ الذين شهدوا بذلك الزور؟ ثم إنه يتعلق بأمر من ضروريات الإيمان وبديهياته، فأى مسلم -مهما بلغ به الجهل مبلغه- يعلم أنه يسأل عن أعماله ويجازى عليها. والحديث الصحيح: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» [(٣)]، مشهور عند عامة المسلمين -فضلاً عن خاصتهم- فى هذه العصور المتأخرة، فكيف بعصر صدر الإسلام، ولكن حقيقة الأمر فيما ذكره ابن كثير قال: فلما ولى يزيد عزم أن يتأسى بعمر بن عبد العزيز، فما تركه قرناء السوء، وحسنوا له الظلم [(٤)].

*** تشويه صورته بالجوارى فى كتب التاريخ :**

صورت كتب التاريخ يزيد بن عبد الملك بصورة الخليفة اللاهى عن مصالح دولته لاهثاً خلف جاريته؛ ولما ماتت إحداهما رفض أن يدفنها وظل مقيماً بجوارها حتى جيَّفت، ولما دفنوها عاد ينبشها من جديد [(٥)]، وفى أسانيد هذه الروايات غير واحد من المجهولين [(٦)]. وقصة يزيد مع جاريتيه فى الأصل بسيطة كما يبدو، فهما جاريتان جميلتان ظريفتان مغنيتان اشتراهما يزيد بعد استخلافه، فملكتا عليه قلبه، خصوصاً حبابة التى كلف بحبها واشتد طربه لغنائها، فحظيت عنده، فلما ماتت، حزن لموتها وجزع عليها ولم يطل العمر به بعدها، حيث مات بعدها بأيام معدودة بالطاعون -أو كان مرض السل- وقد أغمض كثير من المؤرخين القول بموته مطعوناً أو مسلولاً، وجعلوه كمداً وأسفاً على فقد حبابة، مع أنه من غير المستبعد موته بسبب الطاعون أو السل، بل هو الأولى، فكثيراً ما انتشر وباء الطاعون وغيره من الأوبئة فى حواضر الشام كدمشق، فكان ذلك من الأسباب التى دعت الخلفاء الأمويين إلى بناء قصور لهم فى بوادى الشام وأريافه [(٧)]. إن قصة يزيد مع جاريتيه جاءت فى المرويات التى تناولتها مهولة مشوهة، اعتراها كثير من المبالغة والاضطراب

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٠).
(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٣).
(٣) مسلم (٣/ ١٤٥٩).
(٤) البداية والنهاية (١٣/ ١٣).
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها صـ ١٤، الأصفهانى (١٣/ ١٤٧ - ١٥٨).
(٦) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك صـ ٦٥.
(٧) المصدر نفسه صـ ٦٦.

والتناقض والزيادة بل والاختلاف، فمنها ما يُشير إلى تلك القصة باتزان، ومنها ما شابهه بما لا يقبل ولا يعقل، ومنها ما ظهرت فيه الإساءة والطعن بتحريف أو زيادة، أو اختلاف، فجاءت تلك المرويات تحمل العجب والمنكر، وذلك إما لهوى فى نفس راويها، وإما لغرض يقصده ناقلها، أو نقلها مسندة، فحمل المسئولية من رواها(١).

*** انتصار يزيد بن عبد الملك لفاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب:**

فى ربيع الأول عام ١٠٤هـ، عزل يزيد بن عبد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس، وكان سببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبول ذلك، فألح عليها وتوعدها، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه، فبعث إلى عبد الواحد بن عبد الله النضرى نائب الطائف فولاه المدينة، وأن يضرب عبد الرحمن الضحاك حتى يسمع صوته أمير المؤمنين وهو متكئ على فراشه بدمشق، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار، فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب إلى دمشق، واستجار بمسلمة بن عبد الملك، فدخل على أخيه فقال: إن لى حاجة، فقال: كل حاجة تقولها فهى لك إلا أن تكون ابن الضحاك، فقال: هو -والله- حاجتى فقال: والله لا أقبلها ولا أعفو عنه، فرده إلى المدينة فتسلمه عبد الواحد فضربه وأخذ ماله حتى تركه فى جبة صوف، فسأل الناسَ بالمدينة، وكان قد باشر ولاية المدينة ثلاث سنين وأشهراً، وكان الزهرى قد أشار على الضحاك برأى سديد، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر فلم يقبل ولم يفعل، فأبغضه الناس وذمه الشعراء، ثم كان هذا آخر أمره(٢).

*** يزيد وهشام ابنا عبد الملك:**

كتب يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام: أما بعد، فإن أمير المؤمنين قد بلغه أنك استبطأت حياته، وتمنَّيتَ وفاته، ورُمت الخلافة. وكتب فى آخره:

تمنَّى رجالٌ أن أموت وإن أمُت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحدِ
وقد علموا لو ينفع العلم عندهم ... متى مت ما الباغى علىَّ بمُخلد
مَنيَّتُه تجرى لوقت وحتفه ... يصادفه يوماً على غير موعد
فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى ... تهيَّأ لأُخرى مثلها فكأن قدِ

(١) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ٦٩.

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٩) .

فكتب إليه هشام: جعل الله يومى قبل يومك، وولدى قبل ولدك، فلا خير فى العيش بعدك[1]. وجاء فى رواية: أما بعد، فإن أمير المؤمنين متى فرغ سمعه لقول أهل الشنآن وأعداء النعم، يوشك أن يقدح ذلك فى فساد ذات البين، وتقطع الأرحام، وأمير المؤمنين -لفضله، وما جعله الله أهلاً له- أولى أن يتغمد ذنوب أهل الذنوب، فأما أنا فمعاذ الله أن أستثقل حياتك، أو أستبطئ وفاتك. فكتب إليه يزيد: نحن مغتفرون ما كان منك، ومكذبون ما بلغنا عنك، فاحفظ وصية عبد الملك إيانا، وقوله لنا فى ترك التباغى والتخاذل، وما أمر به وحض عليه من صلاح ذات البين واجتماع الأهواء، فهو خير لك، وأملك بك، وإنى لأكتب إليك، وأنا أعلم أنك كما قال القائل:

وإنى على أشياء منك تَريبنى ... قديماً لذو صفح على ذاك مُجْمِلُ
ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى ... يمينك فانظر أى كف تبدل
وإن أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران إن كان يعقل

فلما بلغ الكتاب هشاماً ارتحل إليه، فلم يزل فى جواره مخافة أهل البغى والسعاية، حتى مات يزيد[2].

ثالثاً: الثورات الداخلية فى عهده:

١- ثورة يزيد بن المهلب: ومنشأ ذلك أن خلافاً وقع بين المهلّب والحجّاج بن يوسف، فذهب يزيد إلى عبد الملك، فأمنه، ثم لما أفضت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ عين يزيد بن المهلب على خراسان فافتتح جرجان وداغستان، ثم رجع إلى العراق، فبلغه وفاة سليمان بن عبد الملك، وخلافة عمر بن عبد العزيز، حيث عزله عمر عن إمارة خراسان.

وقد ذكرت أسباب عزل عمر بن عبد العزيز ليزيد فى حديثى عن خلافة عمر، ولما هرب يزيد من سجن عمر فى مرضه قال عمر بن عبد العزيز: «اللهم إن كان يريد بهذه الأمّة شرّاً، فاكفهم شره، واردد كيده فى نحره»[3]. ولما تولى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة خرج يزيد بن المهلّب وخلع بيعته، واستولى على البصرة، فجهّز يزيد بن عبد الملك لقتاله جيشاً بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك[4]، فجمع يزيد بن المهلّب جموعاً كبيرة،

(١) البداية والنهاية (١٣/ ١٤).
(٢) مروج الذهب (٣/ ٢١٣).
(٣) وفيات الأعيان (٦/ ٣٠١).
(٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج صـ ٢٢٣.

والتقى الطرفان بالعقر من أرض بابل، ودارت بينهما معركة رهيبة دامت ثمانية أيّام، قتل فيها يزيد بن المهلب، وعدد من إخوته، وخلق كبير من جيشه، وتفرق سائر جيشه وأهل بيته فلوحقوا وقتلوا بكل مكان وكان ذلك سنة ١٠٢ هـ. والله المستعان[١]. وقد أورد الذّهبى، أن الحسن البصرى قال فى فتنة يزيد بن المهلب: هذا عدو الله يزيد بن المهلب، كلما نعق بهم ناعق اتّبعوه[٢]. وفى رواية أخرى أنّه دعا عليه بأن يصرعه الله، وذكر ما كان يفعل من انتهاك المحارم وقتل الأنفس، وأكل أموال الناس[٣]، وقد تحدث الدكتور عبد الله بن حسين الشريف عن أسباب ثورة يزيد بن المهلب وتفاعل فئات من المجتمع معها ونتائجها وآثارها بشىء من التفصيل، فمن أراد فليراجع كتابه «الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك».

٢- ثورات الخوارج:

أ- حركة شوذب والقضاء عليها: ما إن تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة حتى تجددت حركة شوذب الخارجى وتم القضاء عليه وعلى أصحابه على يد مسلمة بن عبد الملك أثناء مسيره للقضاء على حركة ابن المهلب، فإنه لما دخل الكوفة، شكا إليه أهلها ما لقوه من شوذب وخوفهم منه فجهز جيشاً من عشرة آلاف جعل قيادته لسعيد بن عمرو الحرشى ووجهه إليهم، فدارت سنة ١٠١ هـ الوقعة، واستبسل الخوارج وكشفوا جند الشام، فخشى الحرشى الفضيحة، واستحث جيشه، وحمل لهم على شوذب وأصحابه، فألحق الهزيمة بهم، حيث قتل شوذب، وكل أصحابه[٤].

ب- حركة مسعود العبدى فى البحرين واليمامة: وقد تمّ القضاء عليها على يد سفيان بن عمرو العقيلى، أمير اليمامة، وكان القضاء عليها فى آواخر عهد يزيد، على قول البعض، وهناك من يرى أن الحركة فى عهد يزيد كانت على يد أخ مسعود العبدى[٥].

ج- حركة مصعب الوالبى: خرج مصعب الوالبى بالكُوفة وتّم القضاء عليه فى عهد يزيد بن عبد الملك بواسطة عامله ابن هبيرة[٦].

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٥ ، ٥٠٦).

(٣) وفيات الأعيان (٦/ ٣٠٤) ، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٦) .

(٤) الكامل لابن الأثير، نقلا عن الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ١٧١ .

(٥) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ١٧٢، ١٧٤.

(٦) المصدر نفسه صـ ١٧٥.

د- حركة عقفان: خرج عقفان الحرورى على يزيد بن عبد الملك بناحية دمشق، وكان عدد أصحابه ثمانين رجلاً من الخوارج، وعندما أراد يزيد القضاء عليه عسكرياً، أشير عليه أن يبعث إلى كل رجل من أصحاب عقفان رجلاً من قومه يرده عن رأى الخوارج، على أن يؤمنهم الخليفة، فقد قالوا للخليفة: إن قتل بهذه البلاد اتخذها الخوارج دار هجرة، فوافقهم الخليفة على رأيهم وسار إليهم أهلوهم، وقالوا لهم: إنا نخاف أن نؤخذ بكم، وأمنوهم فرجعوا عن رأيهم وانفضوا من حول زعيمهم عقفان، فبقى وحده فأرسل إليه يزيد أخاه فاستعطفه وأمنه، فرده وقد ترك رأى الخوارج، بل إنه خدم الدولة فتولى زمن هشام أمر العصاة، ثم استعمل على الصدقة حتى توفى هشام[1].

٣- حركة شيريم اليهودى: وهو يهودى سورى أعلن أنه المسيح المنتظر والمنقذ لليهود، وسير حملة لانتزاع فلسطين من المسلمين، فغادر يهود بابل وإسبانيا مواطنهم ليشتركوا فى هذه المغامرة، إلا أن القائم بها أسر وعرضه الخليفة يزيد بن عبد الملك على الناس على أنه مهرج دجال[٢]، ثم أمر به فقتل[٣]، ويغلب على الظن أن هذه الحركة لم تصل إلى مرحلة التنفيذ، فيبدو أنه قد تم اكتشاف أمر شيريم وهو لا يزال يدعو إلى حركته، ويعد نفسه للقيام بحملته، واليهود أجدر الناس بإبرام المؤامرات وتدبير الدسائس فى سرية تامة وتنظيم دقيق. نقول هذا[٤] مع أن ديورانت[٥]، قد نص على تسييره الحملة لانتزاع فلسطين، ووقوع القائم بها فى الأسر، وهذا يعنى مواجهة الدولة فى عهد الخليفة يزيد لهذه الحركة، وإخمادها[٦].

٤- حركة بلاى بالأندلس: ظهر بلاى كمناوئ للسيادة الإسلامية على إسبانيا فى ولاية الحر بن عبد الرحمن على الأندلس، إذ يخبرنا المقرى: أن أول من جمع فلول النصارى بالأندلس بعد غلبة العرب لهم شخص يدعى بلاى من أهل أشتوريش من جليقية، كان رهينة عن طاعة أهل بلده، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن سنة ٩٨ هـ وخرج معه النصارى على نائب الحر فطردوه وملكوا البلاد[٧]، ولما تولى السمح الأندلس أعد جيشه لخوض غمار الحروب، وتوجه إلى المناطق الشمالية من الأندلس، فحارب عصاة

(١) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ١٧٦ .

(٢) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد صـ ١٨٠ .

(٣) المصدر نفسه صـ ١٨٠ .

(٤) المصدر نفسه صـ ١٨٠ .

(٥) قصة الحضارة (١٤/ ٧٦، ٧٧) .

(٦) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد صـ ١٨١ .

(٧) نفح الطيب (٤/ ٣٥٠)، الثغر الأعلى، خليل السامرائى صـ ١٠٣ .

المسيحيين، وهزمهم وأجبرهم على اللجوء إلى المعاقل الجبلية فى الاستريإس[١]، غير أن هزيمة المسلمين واستشهاد قائدهم السمح بن مالك فى معركة طولوشة فى بلاد الغال، قد أوجد الفرصة للمتمردين بقيادة بلاى لمعاودة نشاطهم ضد المسلمين، ولكن عبد الرحمن الغافقى -الذى ارتد بالجند بعد الانكسار فى معركة طولوشة إلى الأندلس فولاه أهلها أمرهم حتى قدوم الوالى الجديد- تمكن من إخماد بوادر الخروج التى ظهرت فى الولايات الجبلية الشمالية[٢]، وأخذت حركة بلاى فى ولاية عنبسة بن سحيم (١٠٣ - ١٠٧هـ) بعداً أكبر، ويعد بلاى منشئ حركة المقاومة النصرانية ومجدد دولة النصرانية فى الأندلس ونهوضه بها كان الحجر الأول فى بنائها الجديد[٣]، وإن زمن عنبسة كان بدايتها عندما استجاب أهل جليقية لبلاى وعملوا على حرب المسلمين ومدافعتهم عن أرضهم، وإن كان نجاحهم قد تحقق بعد ذلك[٤]، واستمر بلاى فى الكر والفر واستفاد من انكسار المسلمين فى بلاط الشهداء ١١٤هـ واضطرب أمر الأندلس بفتنة أبى الخطار وحركات البربر فى شمال إفريقية، فأخرج المسلمين من اشتريس، ويبدو أن أهل استورقة من المسلمين حاربوه، لكنه هزمهم، إذ تُشير المصادر إلى معركة تسمى لاكوفا دونجا[٥]، لقى المسلمون فيها الهزيمة، واستطاع بلاى على أثرها إخراج المسلمين من جليقية كلها وتنصر كل مذبذب فى دينه[٦] ، ويرجح حسين مؤنس أن هذه المعركة حدثت سنة ١٣٣هـ أو ما بعدها، وأن وفاة بلاى كانت بعد ذلك بقليل من نفس السنة[٧]. لقد كانت هذه الوقعة حاسمة، فقد مهدت لدولة اشتريس، فثبتت قواعدها على نحو لم يستطع المسلمون إزالتها بعد ذلك، وبذلك كانت حركة بلاى حادثاً فاصلاً فى التاريخ الإسبانى؛ إذ إنها كانت البداية الحقيقية لحركة المقاومة النصرانية ضد المسلمين[٨].

٥- حركة أخيلا: حاول أخيلا بن غيطشة أن يسترجع ملك أبيه فى الأندلس، وأعلن تمرده فى طركونة[٩]، فسار إليه السمح بن مالك الخولانى (١٠٠ - ١٠٢هـ) وأخضع البلد وأخمد التمرد، ومن المحتمل أن السمح قضى على هذه الحركة وهو فى طريقه إلى بلاد

(١) المسلمون فى الغرب والأندلس، محمد زيتون صـ ١٩٧ .

(٢) دولة الإسلام فى الأندلس، محمد عبد الله عنان صـ ٨١، ٨٢ .

(٣) الدولة الأموية عهد يزيد بن عبد الملك صـ ١٨٥ .

(٤) المصدر نفسه صـ ١٨٥.

(٥) الثغر الأعلى، خليل السامرائى صـ ١٠٥، ١٠٦ .

(٦)، (٧) الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك صـ ١٨٧ .

(٨) المصدر نفسه صـ ١٨٧ ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، السيد عبد العزيز سالم صـ ١٦٩ .

(٩) بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة.

الغال «فرنسا» غازياً (سنة ١٠١هـ) ومواصلاً فتوحات المسلمين[١] فيها ، ويبدو أن هذا ظهر فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، كما أن القضاء على هذه الحركة لم يكلف السمح كبير عناء، إذ كان يقود حملة أعدت لما هو أعظم من هذا التمرد، فلم يزد على إخمادها، بل ظهر تسامحه مع الخارجين، إذ عفا عن أخيلا، وتركه على حاله فيها، وبعد استشهاد السمح بن مالك فى معركة طولوشة سنة ١٠٢ هـ أعلن أخيلا التمرد من جديد، وانتقض أهالى طركونة على عنبسة بن سحيم الكلبى، لكن الأمير الجديد لم يكن أقل همة من سلفه، فقد سارع إلى إخماد حركتهم، حيث زحف إليهم، فدك حصونهم واقتص من زعمائهم، وقد استسلم أخيلا، وانتقل إلى طليطلة فأقام فيها، ولم يحاول الخروج على المسلمين بعد ذلك، واستقرت البلاد داخلياً واستتب الأمن فيها، وساد النظام والعدل فى ربوعها [٢].

إن تجاوز المسلمين جبال البرتات إلى بلاد الغال، وقد خلفوا وراءهم بعض الخصوم، أوجد مجالاً لهؤلاء المتربصين فى تنظيم حركاتهم والخروج على سلطان الفاتحين، فإن المسلمين وإن تمكنوا من القضاء على حركات بعض هؤلاء كتمرد أهل طركونة بقيادة أخيلا، إلا أن غيرها تمكن من الثبات فى ظل غياب قوة المسلمين واحتقار شأن المتمردين، وقد تمثل هذا فى حركة بلاى، التى استغلت كثيراً من العوامل لتصبح نواة المقاومة المسيحية للوجود الإسلامى[٣].

رابعاً: سياسة يزيد بن عبد الملك الإدارية والمالية:

تولى يزيد بن عبد الملك أمر المسلمين بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فسار بسيرته برهة من الزمن، ثم ترك نهجه واتخذ نهجاً آخر تابع فيه كثيراً من سياسات أسلافه من بنى أمية الإدارية والمالية، وخالف عمر بن عبد العزيز فى بعض تجديداته وإصلاحاته خاصة فى المجال المالى[٤] ويرى بعض المؤرخين -كابن الأثير- أن يزيد عمد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثماً عاجلاً[٥]، وعلق عماد الدين خليل على عهد يزيد بن عبد الملك فقال: سنجد يزيد لم يعمد إلى رد كل ما صنعه عمر، مما لم يوافق هواه، وإنما إلى بعضه فحسب، وبرر مقولة ابن الأثير وغيره ممن حذا حذوه، بأن قولهم جاء نتيجة خيبة الأمل التى أصيبوا بها من جراء ما آلت إليه التجربة الكبيرة التى نفذها عمر بن عبد العزيز من انتكاس، وواضح أن الذى قاد إلى الانتكاس حقاً

(١) الدولة الأموية فى عهد يزيد بن عبد الملك صـ ١٨٩ .

(٢)، (٣) المصدر نفسه صـ ١٩١.

(٤) المصدر نفسه صـ ٣١٩.

(٥) الكامل فى التاريخ (٣/ ٢٧٢، ٢٧٣) .

لم يكن هدم الخليفة يزيد لبعض جوانب سياسة عمر، بل فقدان الرؤية وضياع الإستراتيجية[1]. والصحيح أن يزيد راح ضحية قول ابن الأثير برده كل ما صنعه عمر، وما أورده اليعقوبي من عزله جميع عمال عمر[2]، كما أن مجيئه عقب خلافة عمر جعله متواريا فى ظلالها لا يرى، وإن رُئى كان فى صورة الخليفة اللاهى المنغمس فى الملذات قد شغله عشقه لجاريتيه حبابة وسلامة عن مباشرة أمور الدولة وشئون الحكم، وذلك كما صورته كثير من المصادر التى تناولت سيرته الذاتية، فى شيء من المبالغة والتهويل[3] وبتفحص الروايات عن شخصية يزيد وسياسته يتبين أن الاختلاف بين شخصيتى يزيد وسلفه عمر هو الذى كان وراء الاختلاف بين سياسة الرجلين، فقد غلب على عمر الوازع الدينى، فاتسمت سياسته بالروح الإسلامية، مما دفعه إلى تطبيق السياسة الإسلامية على نظم الحكم، كما فاقه عمر من حيث القدرة والكفاءة الإدارية، والحضور الدائم والانصراف إلى العمل وتحمل المسئولية[4]، والحق أن يزيد لم يدع الأمور تجرى بلا ضابط أو لغيره، فلم يكن بالبعيد عن إدارة دفة الحكم، فسنجده وراء الكثير من الأحداث يعالجها ويوجهها ويخطط لها، لكنه لم يعط كل جهده ووقته واهتمامه لشئون دولته كما كان يفعل سلفه عمر، ومع ذلك فقد حرص على بقاء دولته مهابة مصونة فى الداخل والخارج، ونجح فى ذلك بإخماد كل الحركات الداخلية التى حدثت فى زمنه وصد القوى الخارجية الطامعة فى حدود دولته، وإن كان قد اتخذ فى سبيل تحقيق ذلك سياسات تخالف نهج سلفه عمر[5]. قال ابن تغرى بردى: غير أنه لما ولى الخلافة يزيد بعد عمر بن عبد العزيز غيَّر غالب ما كان قرره عمر. وقال: ثم عزل جماعة من العمال.. فلم يقل: غيَّر كل ما قرره عمر أو عزل جميع عماله، ويبدو جلياً أن الخليفة يزيد لم يكن يملك الرؤية البعيدة، ولم يعمل وفق إستراتيجية مرسومة[6]، كما يظهر أنه لم يحط بظروف دولته بعد حركة الفتوح الكبرى التى تمت فى عهد أسلافه، وأهمية استيعاب الدولة للمتغيرات التى تعيشها من جراء دخول أجناس ومذاهب مختلفة متباينة، كان على الدولة صهرها فى جسم الأمة ونشر الدين الإسلامى بينها، وهذا ما لمسه عمر وسعى إليه، إلا أن الخليفة يزيد لم يدرك ذلك فعاد إلى سياسة من سبق عمر من خلفاء بنى أمية، وذلك عن طريق العودة إلى تنشيط

(١) دراسة مقارنة، عماد الدين خليل ص٢٩٠.
(٢) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٣١٩).
(٣) الدولة الأموية فى عهد يزيد صـ ٣٢٢.
(٤) المصدر نفسه صـ ٣٢٣.
(٥) دراسة مقارنة، عماد الدين خليل صـ ٣٠٤.
(٦) الدولة الأموية فى عهد يزيد بن عبد الملك صـ ٣٢٣.

حركة الفتوح، وضرب المعارضة بكل قوة، وإهمال الإصلاح الداخلى، وعدم الاهتمام بصهر القوى الجديدة فى أمة الإسلام، وتطبيق الأحكام الإسلامية عليهم، وللحق فإن سياسة يزيد لم تكمن وراء الوهن الذى أصاب دولة بنى أمية، لكنه بعدم إدراكه ما تحتاجه الدولة فى تلك المرحلة من إصلاح وما تعيشه من متغيرات، استمر فى سياسة أسلافه قبل عمر، وأدار ظهره للكثير مما صنعه عمر، فاستمر الوهن فى عهده، وجرت بعض سياساته بالدولة نحو هاوية الانهيار، وإن كان هذا الوهن والتدهور لم يظهر جلياً فى زمنه، بل استطاع الإبقاء على حدود دولته مصونة، وكيانها موحداً مهاباً، فظل ينخر فى جسم الدولة متوارياً، حتى ظهر ذلك متأخراً فيما بعد[(١)] .

١- أهم صفات يزيد الإدارية:

أ- الحزم: فقد تجلى حزمه فى تعامله مع بعض الحركات الداخلية ومواجهة الخطر الخارجى، كجديته وحزمه فى إخماد حركة ابن المهلب، ومواجهة خطر الترك والصغد فيما وراء النهر، والخزر فى أرمينية.

ب- المرونة: وأما المرونة واللين فلاحظناهما فى تعامله مع حركة عقفان الحرورى، عندما لجأ للطريق السلمى فى إخمادها، فكان موفقًا، كذلك ملاينته لأهل الكوفة إبان حركة ابن المهلب حتى يضمن لزومهم الحياد وعدم انضمامهم لخصمه.

ج- الواقعية: فلعلها تتجلى فى إقرار تصرف البربر عندما قتلوا أميرهم يزيد بن أبى مسلم وولوا عليهم غيره[(٢)] وقصة هذا الحديث: فى سنة اثنتين ومائة، قتل يزيد بن أبى مسلم بإفريقية وهو وال عليها، وكان سبب ذلك أنه عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج بن يوسف فى أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار، ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة، فاسلم بالعراق من ردهم إلى قراهم ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم، فلما عزم على ذلك تآمروا فى أمره، فأجمع رأيهم -فيما ذكر- على قتله فقتلوه، وولوا على أنفسهم الذى كان عليهم قبل يزيد بن أبى مسلم، وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار، وكان فى جيش يزيد بن أبى مسلم، وكتبوا إلى يزيد ابن عبد الملك: إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة، ولكن يزيد بن أبى مسلم، سامنا ما لا يرضَى الله والمسلمون، فقتلناه وأعدنا عاملك. فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك: إنى

(١) ، (٢) الدولة الأموية فى عهد يزيد بن عبد الملك.

لم أرض ما صنع يزيد بن أبى مسلم وأقر محمد بن يزيد على إفريقية[١]. وبهذا الفعل من يزيد جنب الدولة كثيراً من المشاكل، ووفر عليها كثيراً من الجهد والمال[٢].

٢- سياسته فى إدارة الولايات :

اتبع يزيد النهج الأموى فى إطلاق يد العامل، وجعل ولايته عامة[٣]، بل إنه عاد إلى ضم الولايات إلى بعضها، فجمع العراقين لمسلمة بن عبد الملك ثم لعمر بن هبيرة وفوض لهما أمر المشرق كله، كما جمع لعبد الواحد النصرى المدينة ومكة والطائف[٤]. وأعاد الأندلس إلى تبعية ولاية إفريقية[٥]، إلا إنه لم يطبق السياسة الأموية فى الفصل بين السلطة الإدارية والمالية إلا فى مصر والمدينة، فقد أعاد أسامه بن زيد على خراج مصر[٦]. أما بقية الأقاليم فقد جمع لولاتها السلطات الإدارية والمالية، فلم نعثر على نص يدل على ذلك، بل إننا نجد نصوصاً تدل على استعمال الأمراء والقضاة، وعمال الخراج والصدقات والدواوين بشكل عام، ونوابهم على المناطق التابعة لهم، من قبلهم[٧]، فأصبحت الولاية وكأنها نيابة عامة عن الخليفة، يستمد الأمير فيها سلطاته من سلطة الخليفة، ومع ذلك فقد كان يتدخل إذا ما لزم الأمر واقتضت الحاجة والمصلحة، من ذلك أمره ابن هبيرة عامله على المشرق استعمال الحرشى على خراسان[٨]، ومن سمات سياسته الإدارية إتاحة الفرصة للموالى فى إدارة الدولة وشغل بعض الأعمال الكبيرة[٩]، وقد سار يزيد على نهج عمر فى استعمال الموالى فى وظيفة القضاء، فقد أمر على قضاء مصر عبد الله بن يزيد بن خذامر الضعانى مولى سبأ[١٠]، كما يبدو أن يزيد بن عبد الملك تابع الخليفة عمر بن عبد العزيز فى منع أهل الذمة من العمل فى دواوين الدولة، إذ لم نلمس ما يُشير إلى عملهم فيها[١١].

٣- أشهر ولاة يزيد بن عبد الملك:

كان العامل على المدينة عبد الرحمن بن الضحاك، وعلى مكة عبد العزيز بن عبد الله ابن خالد بن أسيد، وعلى الكوفة محمد بن عمرو ذو الشامة، وعلى قضائها القاسم بن

---

(١) تاريخ الطبرى (٧ / ٥٢٢) .

(٢) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد، صـ ٣٢٤.

(٣) الإدارة الإسلامية، محمد كرد على صـ ٩٥ - ٩٦.

(٤) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد، صـ ٣٢٨.

(٥) أنساب الأشراف للبلاذرى (٥/ ١١١).

(٦) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد، صـ ٣٢٩.

(٧)، (٨) المصدر نفسه صـ ٣٢٩.

(٩)، (١٠) المصدر نفسه صـ ٣٣٢.

(١١) المصدر نفسه صـ ٣٣٣.

عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، وعلى البصرة عبد الملك بن بشر بن مروان، وعلى خراسان سعيد بن عبد العزيز المعروف باسم (خذينة)، وعلى مصر أسامة بن زيد[١].

٤- سياسة يزيد بن عبد الملك المالية:

جاءت سياسة الخليفة يزيد بن عبد الملك المالية بالذات بعد إصلاحات الخليفة عمر بن عبد العزيز المالية، التى سعى من ورائها العودة إلى النهج الإسلامى، وتطبيق أحكامه على المال والأعمال، وصحح بعض الإجراءات التى اتخذها بعض أسلافه، فما مدى خروج الخليفة يزيد عن نهج عمر؟ وما الذى صنعه؟.

مما لا شك فيه أن الخليفة يزيد لم يتبع نهج الخليفة عمر فى بعض سياسته المالية، فأحيا السياسات المالية لأسلافه من بنى أمية قبل عمر، وأعاد تطبيقها، بينما اتخذ أخرى وتابع عمر فى بعض ما اتخذه من سياسات فى هذا المجال، وبالأخص ما كان ذو عائد على خزانة الدولة، وطبق إجراءته تلك فى شىء من الدقة والضبط والتشديد[٣]، ومن الأمور التىساير فيها يزيد عمر، منع بيع الأراضى الخراجية، كما أبقى على بعض الإصلاحات المالية الأخرى[٣]، وقد عمل يزيد بن عبد الملك على ضبط الأمور المالية بما يكفل زيادة الواردات ونقص المصروفات فى شىء من الدقة والضبط والتشدد والجور، وربما ظروف الدولة فى زمنه، والمتمثلة فى خوض حروب خارجية فى كل الجبهات فى الشرق مع الصّغد والترك، وفى الشمال مع الأرمن والخزر والروم، وفى الغرب مع الفرنجة، إلى جانب الحركات الداخلية كثورة ابن المهلب وغيرها[٤]، وما يستدعيه ذلك من مصروفات كبيرة، قد دفعه إلى تجاوز الحدود فى جلب الأموال أحياناً، كما أن يزيد لم يسير على نهج عمر فى التقشف على نفسه ورجاله والعمل على ترشيد المصروفات، فنجده على سبيل المثال يأمر عامله على مكة أن يحمل أحد المغنين على البريد، ويقدم له ألف دينار نفقة الطريق ليستمع منه أبياتاً من الشعر، بينما نرى عمر بن عبد العزيز يؤنب ابن حزم -عامله على المدينة- على إسرافه فى الورق والشمع، ويؤنب عامله على اليمن على تضييعه دنانير من بيت المال[٥]. وقد عمل يزيد بن عبد الملك على اتخاذ إجراءات مالية متشددة؛ كان هدفها توفير أموال لخزانة الدولة ليتمكن من الإنفاق على جيوشه المحاربة فى الداخل وعلى الحدود[٦]. ومما يذكر هنا من باب حرصه على الأموال ما رواه ابن كثير، من أن عمر بن

---

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٥٢٢).
(٢) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد، ص٤١٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٤١٨.
(٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه، ص٤١٩.

الوليد بن عبد الملك بن مروان قد اتهم الخليفة عمر بن عبد العزيز بأنه اختان من أموال المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس ودر ثمين، وأنه خبأها في بيتين في داره مملوئين، فبعث يزيد إلى أخته فاطمة زوجة عمر يسألها عن ذلك، فقالت: ما ترك سبد ولا لبد[١]، فسار بنفسه إلى دار عمر ودخل البيتين اللذين أشار إليهما عمر بن الوليد ليفتشهما، وفي صحبته عمر بن الوليد، فلما دخلهما وجدهما خاليين من الأموال، وقد هُيِّئتا للعبادة، حيث اتخذ عمر من أحدهما خلوة يخلو فيها بنفسه ويتدبر أمر دينه ودنياه، والأخرى مسجداً يعبد الله فيه ليلاً، فبكى يزيد، وخرج عمر بن الوليد مخذولاً[٢] ومن الأمثلة على مخالفة يزيد لسياسة عمر بن عبد العزيز المالية:

أ- الخراج: عنى الخليفة يزيد بهذا المورد تنظيماً وضبطاً وتشدداً وعسفاً، وكان الخليفة عمر ابن عبد العزيز قد عمد إلى إصلاح كثير من الأمور، وأقر يزيد بعض ما صنعه وأصلحه[٣]، إلا أن من الحق الإشارة إلى أن سياسة يزيد في هذا الصدد قد شابها الحرص والرغبة في زيادة الموارد، فاشتد على الناس وأضر بأهل الخراج، ووضع الخراج على من لم يكن يؤديه[٤].

ب- الضرائب: لم يكن يزيد بن عبد الملك يزن الأمور بميزان شرع الإسلام في كل الأحوال، فقد عهد يزيد إلى كثير مما أبطله الخليفة عمر من الضرائب المستحدثة وغير الشرعية، فأمر بإعادة فرضه وجبايته، كما كان يُجْبَى قبل عمر، ووضع ضرائب جديدة، وليس لهذه السياسة من تفسير سوى الرغبة في زيادة واردات الدولة المالية، وتحصيل أكبر قدر ممكن من الأموال، بصرف النظر عن شرعية هذا العمل، وآثار ذلك على المدى البعيد[٥].

ج- العطاء: سخر يزيد بن عبد الملك العطاء في خدمة أهدافه السياسية العامة، متأثراً في ذلك بظروف الدولة في عهده، وتكوين شخصيته، فلم يلتزم بالقاعدة التي اتخذها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في توزيع العطاء[٦]، ولم يتبع نهج سلفه عمر بن عبد العزيز الذي عمل على تقديم العطاء لمستحقيه، وتوزيعه بين الناس على أساس من الحق والعدل، بعد أن خرج بنو أمية قبله عن سيرة الخلفاء الراشدين في ذلك، والخليفة يزيد بهذا الأسلوب يعود إلى سياسة أسلافه من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز، الذين لم يكن لهم سياسة ثابتة في توزيع العطاء، فقد عمدوا إلى تضييق دائرته تارة، وإلى إيقافه أخرى،

---

(١) أي ما ترك قليلاً ولا كثيراً.
(٢) الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد، صـ ٤٢٠ .
(٣)، (٤) المصدر نفسه، صـ ٤٣٧ .
(٥) المصدر نفسه، صـ ٤٤٨ .
(٦) المصدر نفسه، صـ ٤٥٤ .

وأسقطوا من الديوان من شاءوا وفرضوا لآخرين، وزادوا فيه ونقصوا، فكان ذلك مثار شكوى الكثير من المسلمين باعتبار أن العطاء حق للمسلم لا يجوز للإمام حجبه وأن أموال العطاء مما أفاء الله به على المسلمين[١].

د- **الإقطاع**: عاود يزيد بن عبد الملك سياسة أسلافه من بنى أمية باستغلال أراضى الصوافى لمصالحه الشخصية وخدمة أغراضه السياسية باتخاذها قطائع له، والإقطاع منها لبعض آله ورجال دولته. هذه بعض الإشارات العابرة فى السياسة المالية التى خالف فيها يزيد عمر بن عبد العزيز.

خامساً: الفتوحات فى عهد يزيد بن عبد الملك:

نشطت الفتوحات الإسلامية فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، بعد حالة الاستقرار التى عاشتها أيام سلفه الخليفة عمر بن عبد العزيز والذى لجأ لذلك فى شىء من التوازن من أجل التفرغ لحركة الإصلاح الكبرى الذى شهدها عهده[١]، وكانت حركة الفتوح على الجبهات كالتالى :

١- الفتوحات فى بلاد ما وراء النهر:

أوقف عمر بن عبد العزيز حركة الفتوحات فى بلاد ما وراء النهر، وأمر عبد الرحمن ابن نعيم عامله على خراسان، بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم، قال: فأبوا وقالوا: لا تسعنا مرو[٢]. فكتب إلى عمر بذلك فكتب إليه عمر: اللهم إنى قضيت الذى على، فلا تغز بالمسلمين فحسبهم الذى فتح الله عليهم[٣]، وكان مبعث هذه السياسة هو الخشية على المسلمين كراعٍ يرى مسئوليته عن رعيته، إلى جانب تغليب طريق نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة على الجهاد الحربى، وذلك عن طريق دعوة ملوك ما وراء النهر إلى الإسلام[٤]، والصبر على أهل الفتن ومعالجة الأمور بالعدل، ثقة فى ظاهر إسلامهم، وتألفًا لهم، وهذا ما دفعه إلى عزل الجراح الحكمى عامله على خراسان وتولية عبد الرحمن بن نعيم لما عرف عنه من لين وإيثار للعافية[٥]، ومع ما لهذه السياسة من إيجابيات كإسلام بعض ملوك وأهلى هذه المناطق، إلا أنها أطمعت آخرين فى المسلمين، وحفزتهم إلى التمرد وشق عصا الطاعة[٦]، فقد تمرّ الصّغد على سلطان المسلمين، وهاجم الترك البلاد

(١) الدولة الأموية فى عهد يزيد بن عبد الملك ٢٣٣.

(٢) مرو : أشهر مدن خراسان وعاصمتها، معجم البلدان (٥/ ١١٢، ١١٦).

(٣) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ٢٣٥.

(٤) المصدر نفسه صـ ٢٣٥.

(٥) تاريخ خليفة صـ ٣٢٠.

(٦) حركة الفتح الإسلامى، شكرى فيصل ٢١٨.

وعاونوا الصّغد مُنذ أيام عمر بن عبد العزيز خلال ولاية عبد الرحمن بن نعيم الغامدى (١٠٠- ١٠٢هـ) وظلت مستعرة الأوار حتى ولاية سعيد بن عبد العزيز (١٠٢ - ١٠٣هـ) الذى تولى خراسان بعده من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك الذى كان عليه إخماد ذلك التمرد، وظل الصّغد -بالتعاون مع الترك- على تمردهم ومخالفة المسلمين، رغم ما بذله الوالى الجديد من جهد فى استمالة دهاقنتها وتسكين أهلها واتباع سياسة المسالمة تجاههم، لدرجة وسم معها بالضعف وثقل على الناس[1]، لقد تمسك أهل المدن الكبرى فيما وراء النهر بموقفهم وهو عدم دفع الضرائب والامتناع عن تنفيذ أوامر الحكومة الإسلامية ومقاومة جيوشها، ويبدو أن من هذه الضرائب الجزية التى أعاد الخليفة يزيد فرضها على من أسلم بعد أن أسقطها عنهم عمر بن عبد العزيز، وعمل عماله على جبايتها بالعنف والقوة، فأدى ذلك إلى نقض أغلب ممالك ما وراء النهر -كالصّغد وفرغانة وكش ونسف- عهدها مع المسلمين، بل وارتد كثير من الأهالى عن الإسلام[2] وبدأ سعيد بن عبد العزيز حملاته وغزواته للصّغد والترك واستطاع أن يحقق انتصارات عليهم، واستطاع القضاء على متمردى الصّغد فى حصن أبغر[3]، وصالح أهالى كش، وغزا طخارستان، وصالح خزار[4]، واستطاع أن يقضى على حركات التمرد، ورجع سعيد بن عبد العزيز الحرشى إلى مرو وقد افتتح عامة حصون الصّغد[5]، وأعادهم إلى الطاعة صلحاً أو عنوة بعد سلسلة من المعارك خاضها إبان حملته على ما وراء النهر ما بين عامى (١٠٣ - ١٠٤هـ) وبذلك أعاد المسلمون سيطرتهم التامة على تلك المنطقة من جديد[6]، وقضى الحرشى على أعنف انتفاضة قامت بها شعوب ما وراء النهر، مكنه من ذلك سياسة الخليفة يزيد بن عبد الملك المساندة من ملاّك الأرض الكبار والعسكريين المسلمين والدهاقين[7]، فقد شارك الموالى فى جيش الحرشى بقيادة سليمان بى أبى السرى، كما نجد ذكراً للمجندين من أهل بخارى وخوارزم، وشومان[8]. إلى جانب تأييد غورك أمير سمرقند بصورة ظاهرة[9] ولم يدم للمسلمين ما حققه سعيد الحرشى من تمكن وسيادة فيما وراء النهر، فقد تحول المسلمون من دور الهجوم إلى الدفاع فى ولاية مسلم بن سعيد الكلابى على خراسان (١٠٤ - ١٠٦هـ) فقد غزا الأخير الترك فيما وراء النهر (سنة ١٠٥هـ) فلم يفتح شيئاً وعاد أدراجه، بل إن الترك تعقبوه، فلحقوا به، وهو يعبر نهر جيحون بجنده، فأتم ذلك فى

(١) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ٢٣٧ .

(٢) المصدر نفسه صـ ٢٣٧.
(٣) المصدر نفسه صـ ٢٥٠.

(٤) المصدر نفسه صـ٢٥٣.

(٥)، (٦)، (٧)، (٨)، (٩) المصدر نفسه صـ ٢٥٦.

حماية الساقة[1]، وقد كانت هذه الحملة آخر الغزو فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وهى فى ظاهرها حملة ناجحة، وإن لم تحقق مكتسبات جديدة، إلا أن لحاق الترك بمسلم وتعقبه كان فيه دلالة على طمع الترك بهم وبداية لضعف سيطرة المسلمين على ما وراء النهر، وعودة الاضطراب إليها[2].

٢- الفتوح فى أرمينية:

استؤنفت الحملات العسكرية المنظمة إلى الثغور فى عهد يزيد، وقد أشار الطبرى وغيره إلى إغارة قام بها الترك[3] سنة ١٠٣هـ على اللان[4] ومنها يتبين عودة الخزر إلى التحرش بالمسلمين ومهاجمة ممالكهم فى أرمينية، وهذا ما دفع أمير أرمينية -آنذاك- معلق بن صفار البهرانى[5]، إلى القيام بحملة على الخزر، فلقيهم بمرج الحجارة فى شهر رمضان فى نفس العام، وقد كلب الشتاء، فدارت المعركة وهزم المسلمون وقتل جماعة منهم، واستولى الخزر على عسكرهم وغنموا ما فيه[6]. وقد أطمعت الهزيمة التى تلقاها المسلمون سنة ١٠٣هـ على يد الخزر فى أرمينية الأقوام القوقازية والتركية فى المسلمين، فاندفعوا نحو الحدود الأرمينية، وشنوا غاراتهم وتوغلوا فى البلاد مما دعا الخليفة يزيد بن عبد الملك إلى استعمال الجراح بن عبد الله الحكمى على أرمينية وأذربيجان سنة ١٠٤هـ، وأسند إليه مهمة صد الخزر وأمر حربهم، وأمده بجيش كبير وأمره بحرب الأعداء وقصد بلادهم[7]، وفى ذلك دلالة على جدية الخليفة فى مواجهة الموقف بالجبهة الأرمينية، فقد اختار القيادة القديرة وزودها بالجيش الكافى لتحقيق الأهداف، ولم يكن همه تطهير البلاد الإسلامية من وجود الغُزاة، بل مهاجمتهم فى بلادهم ردعاً لهم وإحياء لهيبة المسلمين فى نفوسهم، حتى لا يعودوا لحربهم مرة أخرى، فسار الجراح بجيشه حتى وصل أرمينية فنزل برذعة[8]، ليعطى جنده قليلاً من الراحة بعد عناء السفر من دمشق الشامية حتى برذعة فى الديار الأرمينية، وليعد نفسه وينظم صفوفه، لمواجهة الخزر، الذين ما إن سمعوا بمقدم الجراح فى جيشه

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير، نقلاً عن الدولة الأموية صـ٢٥٧.
(٢) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ٢٥٣.
(٣) المصدر نفسه صـ٢٦.
(٤) اللان : بلاد واسعة فى طرف أرمينية قرب باب الأبواب، مجاورة للخزر.
(٥) تاريخ خليفة صـ ٣٣٣، الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ٢٦٢.
(٦) تاريخ خليفة صـ ٣٢٨، الدولة الأموية بعهد الخليفة يزيد صـ ٢٦٢.
(٧) الدولة الأموية عهد الخليفة يزيد صـ ٢٦٥.
(٨) برذعة : مركز إقليم الران.

ذاك[1]، حتى ارتدوا عن البلاد الإسلامية التى كانوا قد استولوا عليها، وانسحبوا عائدين حتى نزلوا مدينة باب الأبواب[2]، وبعد أن أخذ الجراح وجنده قسطاً من الراحة توجه نحو الخزر فى عامه ذاك (١٠٤ هـ) فعبر نهر الكر واجتاز إقليم شروان، حتى قطع نهر السمور متجهاً صوب مدينة باب الأبواب، وأخذ الجراح الاحتياطات اللازمة فى خط سيره وبث السرايا والطلائع أمامه، ولما وصل مدينة باب الأبواب، وجدها خالية وبث سراياه على ما يجاوره من البلاد فنصروا وغنموا، وكان الجراح قد ارتحل فى عشرين ألفاً من جنده بعد أن بعث سراياه فنزل على نهر الران على ستة فراسخ من مدينة باب الأبواب، واجتمع إليه جند السرايا بعد أن أدوا الهدف الذى وجهوا من أجله، فأصبح فى خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين[3]، ويظهر أن تلك الإغارات الإسلامية وما حققته من نصر ومغانم قد أثارت الخزر فتوجهوا إليه فى أربعين ألفاً بقيادة ابن ملكهم ويدعى نارستيك بن خاقان، ونزلوا معه على نهر الران فدارت بين الفريقين سنة ١٠٤هـ معركة عظيمة نصر الله فيها المسلمين وهزم الخزر وقتل الكثير منهم وأسر، وغنم المسلمون جميع ما معهم، وسهل النصر الذى حققه المسلمون فى معركة الران، مهمة الجراح فى إخضاع تلك المناطق لحكم المسلمين وسيادتهم وذلك أعقاب التخلص من القوة الرئيسية للخزر التى لم تعد قادرة على مواجهة المسلمين ذلك الحين على الأقل، فجرد الجراح جيشه لفتح مدن وحصون الخزر هناك[4]، فقد تم فتح رستاق يزعوا [5]، وفتح حصن بلنجر سنة ١٠٤هـ بعد قتال دار بين الفريقين فى معركة عظم فيها الأمر على الجميع حتى كان النصر حليف المسلمين على أعدائهم الخزر فاستولى المسلمون على حصنهم عنوة وغنموا ما فيه، وكانت غنائم عظيمة أصاب الفارس منها ثلاثمائة دينار، وأما صاحب بلنجر فقد تمكن من الفرار فى خمسين من قومه، فسرى الجراح زوجته وأولاده وخدمه وبعث إليه بالأمان، فرد إليه حصنه وأهله وأمواله، ليكون صنيعة للمسلمين وعيناً لهم على أعدائهم[6]، فكان فتح البلنجر، فتحاً مبيناً، كما كان موقف الجراح الحكمى من صاحبه بعد نظر، كانت له نتائج طيبة، فقد قدم للمسلمين أخباراً قيمة تتعلق باتفاق الخزر واجتماعهم على قطع الطريق على المسلمين، وواصل الجراح فتوحاته وتوجه إلى حصن الوبندر وصالح أهله، ثم رجع بجيشه إلى شكى بعد

(١) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ٢٦٥.

(٢) باب الأبواب : مدينة فى أقصى الشمال لبلاد ثروان، وهى أجمل موانئ بحر قزوين.

(٣) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ٢٦٧.

(٤) المصدر نفسه صـ١٦٨.

(٥) المصدر نفسه صـ٢٧٠.

(٦) تاريخ ابن خلدون (٣ / ٨٤).

سماع أخبار تتعلق باجتماع الخزر لحربه من صاحب بلنجر، وبعد نزوله شكى كتب الجراح إلى يزيد بن عبد الملك بما فتح الله على يديه، ذاكراً له اجتماع الخزر لحربه، كما سأله المدد، فوعده الخليفة بذلك، إلا أن الأجل قد أدركه قبل إنفاذ المدد إليه(١)، وبعد مجيء هشام بن عبد الملك للحكم حرص على إكمال ما بدأه سلفه، فأقر الجراح على ولاية أرمينية وأمده بما يمكنه من صيانة الثغور، ودفع الأعداء عن ديار الإسلام(٢).

٣- الفتوح فى أرض الروم:

تمثلت الجهود العسكرية التى تمت فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ضد الروم، فى تحصين الثغور وشحنها وصيانة الحدود والدفاع عنها، والفتح براً عن طريق الصوائف والشواتى، وما تم خلال ذلك من فتوحات فى آسيا الصغرى، والغزو بحراً لجزر الحوض الأوسط والغربى من البحر المتوسط عن طريق إفريقية(٣)، وقد كان عهد يزيد بن عبد الملك خالياً من الحملات العسكرية الكبرى ضد البيزنطيين، وفى معاودة التفكير فى فتح القسطنطينية، عاصمتهم العتيقة، وإن كانت الصوائف والشواتى التى وجهت لآسيا الصغرى، قد حفلت بكثير من الانتصارات وفتح كثير من المدن والمواقع الرومانية(٤).

٤- الجهاد فى البحر الأبيض المتوسط:

تابع ولاة إفريقية من قبل الخليفة يزيد بن عبد الملك جهود من سبقهم من أمراء الشمال الإفريقى، فقد قام يزيد بن أبى مسلم أمير إفريقية (١٠١ - ١٠٢هـ) بغزو جزيرة صقلية سنة ١٠١هـ، كما وجه من قبله سنة ١٠٢هـ محمد بن أوس الأنصارى فى غزوة بحرية إلى صقلية، فعادت الحملة سالمة غانمة(٥)، وكان سبب تركيز أمير إفريقية على صقلية لأهميتها بالنسبة للروم، وهى محاولة لضرب تلك القاعدة البيزنطية المهمة، وتهديداً للأعداء وإشغالهم عن مهاجمة الساحل الإفريقى(٦)، وأما ولاية بشير بن صفوان على إفريقية (١٠٢ - ١٠٩هـ) فقد كانت حافلة بالغزوات البحرية، على جزر سردانية وكورسيكا وصقلية(٧) وولايته هذه تعد علامة مميزة فى تاريخ البحرية الإسلامية الناشئة فى إفريقية، إذ وصلت تحت إمرته لها مطلع القرن الثانى الهجرى إلى مرحلة الفتوة، وذلك

(١) تاريخ ابن خلدون (٣/ ٨٤)، الدولة الأموية فى عهد يزيد صـ ١٧٣ .

(٢) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ٢٧٤ .

(٣)،(٤) المصدر نفسه صـ ٢٧٦ .

(٥) المصدر نفسه صـ ٢٨٧ .

(٦)، (٧) المصدر نفسه صـ٢٨٨ .

بعد استيلاء المسلمين على السواحل البحرية الشرقية فى إسبانيا، وكانت غزواته سنوية تقريبًا ألح بها على قواعد الروم القريبة، لإرهابهم وإشغالهم عن مهاجمة سواحل المغرب[1]. ومن غزواته فى خلافة يزيد بن عبد الملك الحملة التى وجهها بقيادة يزيد بن مسروق اليحصبى[2]، إلى جزيرة سردانية وذلك فى المحرم (سنة ١٠٣هـ) فكان نصيبها النجاح، حيث غنم المسلمون وسلموا[3].

٥- الفتوح فى بلاد الغال:

بلاد الغال: تعنى عند العرب الأرض الواقعة بين جبال البرتات (البرينة)، وجبال الألب والأوقيانوس، ونهر ألبا ومملكة الروم، وهذا المفهوم ينطبق على فرنسا أيام شارلمان، وأممها تتحدث بعدة لغات[4].

شهد عصر الخليفة يزيد بن عبد الملك، حمله من أهم الحملات التى قام بها المسلمون لفتح بلاد الغال عن طريق الأندلس، وهى الغزوة التى قادها السمح بن مالك الخولانى (١٠١ - ١٠٢هـ) إلى تلك الأصقاع[5].

أ- حملة السمح بن مالك الخولانى على بلاد الغال: بدأ السمح حملته فى بداية عهد يزيد ابن عبد الملك ومهد لغزو ما وراء البرتات بتوجيه البعوث والسرايا إلى بلاد الغال، خلال انشغاله بالتنظيمات التى قام بها بالأندلس، كان السمح رجلاً قوى الإيمان جم النشاط، من خيار أهل زمانه ثقة وعدالة، توافرت فيه الحكمة والخبرة والعقل فاجتمع عليه الناس ورضوا به، وكانت ولايته تجديداً للغزو واستئنافاً لفتح ما وراء البرتات، واتخذ من مدينة برشلونة قاعدة لتجمع الجيش الإسلامى المتوجه لفتح بلاد الغال، وزحف السمح فى جيش كبير من برشلونة مخترقاً جبال البرتات من الشرق ناحية روسيون وعبر باريبنيان حتى أشرف على سبتمانيا[6] من بلاد الغال، وظل يتقدم حتى وصل إلى مدينة أربونة وأصبحت قاعدة مسلحة للمسلمين، واستمر فى زحفه واستولى على قرقشونة[7]، وما صادفه من مدن وحصون ذلك الإقليم، واستطاع السمح اجتياح جنوب بلاد الغال والتغلب على كل القوى

---

(١)، (٢)، (٣) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ٢٨٩.

(٤) غزوات العرب، شكيب أرسلان صـ ٥٠ ، ٥١.

(٥) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ٢٩٠.

(٦) أقرب ولايات غالة ناحية الأندلس، تشتمل على سبع مدن .

(٧) مدينة فى غالة على نهر الأود.

التى قاومته وتصدت لزحفه حتى أتم فتح جميع نواحى سبتمانيا، وما إن فرغ من فتح إقليم سبتمانيا وتنظيم أموره حتى اتجه بجيشه غرباً نحو مجرى نهر الجارون قاصداً إقليم أكيتانيه «أكوتين» وبالذات عاصمتها مدينة طولوشة[(١)]، واتجاهه هذا يعنى أن غزوه موجه إلى مملكة الفرنج، وفى طريقه تصد عليهم، فقصد طولوشة، وفى طريقه إليها فتح مدينة طرسكونة[(٢)]، ثم استمر فى زحفه حتى نزل طولوشة فضرب عليها الحصار، وجد فى قتال أهلها، مستخدماً المنجنيق وسائر آلات الحصار حتى أوشك أهلها على التسليم، لكن الأمير أودو هب لإنقاذ المدينة ففك المسلمون عنها الحصار والتفتوا لقتال أودو وجيشه[(٣)].

ب- معركة طولوشة: روعت فتوحات السمح بن مالك فى سبتمانيا الأمير أودو دوق أكيتانيه، فهب لإنقاذ عاصمته، وسار بجيشه حتى اقترب من طولوشة والمسلمون محاصرون لها، فلما علموا بمقدمه اضطروا لفك الحصار عن المدينة والتفتوا إليه، وكان جيشه من الكثرة وقيل: إن عدده عشرة أضعاف الجيش الإسلامى[(٤)] فالتقى الجيشان بالقرب من طولوشة وقد أعد السمح جنده معنوياً وبث فيهم روح الجهاد الصادق، وقرأ عليهم بعض آيات النصر، ونشب القتال فى معركة عنيفة غير متكافئة، صدق فيها المسلمون القتال، وبلغت من الهول ما لا يتصوره العقل، حتى خيل عند تلاقى الجمعين، أن الجبال تلاطمت، وظل القتال سجالاً بين الفريقين، وقد أبدى المسلمون فيه ضروبًا من الشجاعة وهم يقتدون بقائدهم، الذى كان يشدهم بقوله وفعله، ويجدونه فى كل مكان يحمل على الأعداء فلا يقف فى وجهه شىء، غير أن القائد المسلم أصيب برمح فى رقبته خر على أثره صريعاً، ومات شهيداً، فلما رأى المسلمون ما أصاب أميرهم، فت فى أعضادهم وأثر فى نفوسهم، فاختل نظام الجيش، وحينها ولوا عليهم أحد كبار الجند وهو عبد الرحمن الغافقى[(٥)]، الذى نجح فى قيادة الجيش وتمكن من الانسحاب ببقية الجيش فى مهارة حرمت الفرنج من تعقب المسلمين وإصابتهم فى حالة التقهقر، حتى وصل أربونة، وكان حدوث هذه المعركة واستشهاد السمح بن مالك الخولانى فى ٩ من ذى الحجة سنة ١٠٢هـ[(٦)].

وتعد قيادة عبد الرحمن الغافقى لهذا الجيش الولاية الأولى له ولكن رغم قصرها -لم تدم

(١) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد ص٢٩٩.

(٢)، (٣) المصدر نفسه صـ ٣٠٠.

(٤) المسلمون فى المغرب والأندلس، محمد زيتون صـ ١٩٨، ١٩٩.

(٥) الأعلام (٣/ ٣١٢، ٣١٣)، الدولة الأموية فى عهد يزيد صـ ٣٠٢.

(٦) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ٣٠٢.

أكثر من ستة أشهر- إلا أن رجوع الغافقى بالجيش سيكسبه تجربة يعود بعدها إلى فتح تلك المناطق على نطاق أوسع(١).

ج- **فتوحات عنبسة بن سحيم الكلبى فى بلاد الغال:** استمر عبد الرحمن الغافقى أميراً للأندلس، بتقديم أهل الأندلس له مُنذ استشهاد أميرهم السمح بن مالك الخولانى تاسع ذى الحجة (سنة ١٠٢ هـ)، حتى قدوم عنبسة بن سحيم الكلبى أميراً للأندلس من قبل بشر ابن صفوان عامل الخليفة يزيد بن عبد الملك على إفريقية والمغرب، وذلك فى صفر سنة ١٠٣هـ(٢)، وكان عنبسة من طراز السمح بن مالك رجلاً تقياً وإدارياً بارعاً وعسكرياً فذاً، وكان حريصاً على الإسلام وأميناً على دولته(٣)، فكان خير خلف لخير سلف، لقد شغل الأمير الجديد صدر ولايته بضبط الأمور فى الأندلس، وإخماد الفتن فيها، ومن ذلك توجهه إلى المنطقة الشمالية فى الأندلس للقضاء على حركة بلاى، وإخماد التمرد الذى قام به أخيلا بن غيطشة فى مدينة طركونة، حتى استقام له أمرها، ثم أعد نفسه للجهاد، وباشر الفتح فيما وراء البرتات بنفسه، وكان بداية ذلك سنة ١٠٥هـ. وهو ما أخذ به أكثر المؤرخين، وبذلك يكون الإعداد والتجهيز لهذه الحملة قد تم فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وقد يكون خروجها قد تم أواخر زمنه أيضاً. أما ما تم على يد عنبسة من فتوحات فى بلاد الغال فإن ذلك قد حدث فى خلافة هشام بن عبد الملك(٤).

٦- وفاة يزيد بن عبد الملك:

قيل إن يزيد مرض بالسل ومات يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان من سنة ١٠٥هـ بالسّواد، سواد الأردن، وكانت خلافته أربع سنين وشهراً على المشهور، وقيل: أقل من ذلك، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وقيل: خمساً وقيل: ستاً وقيل: ثمانياً وقيل: تسعاً وثلاثين. وقيل: إنه بلغ الأربعين. فالله أعلم. وقيل: إنه مات بالجولان، وقيل: بحوران، وصلى عليه ابنه الوليد بن يزيد، وقيل: صلى عليه أخوه هشام بن عبد الملك وهو الخليفة من بعده، وحمل على أعناق الرجال حتى دُفن بين باب الجابية وباب الصَّغير بدمشق، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشام(٥) ومن بعده لولده، فبايع الناس من بعده هشاماً. وكان نقش خاتم يزيد: قنى السيئات يا عزيز(٦).

(١) جهاد المسلمين خلف جبال البرتات، وفاء المزروعى صـ ٦٦.
(٢) البيان المغرب (٢/٢٧) فتوح، مصر صـ ٨٢.
(٣) التاريخ الأندلسى، للحجى صـ ١٩٠.
(٤) الدولة الأموية فى عهد الخليفة يزيد صـ ٣٠٧، ٣٠٨.
(٥) البداية والنهاية (١٣/١٢).
(٦) تاريخ القضاعى صـ ٣٦٦.

المبحث الثانى

هشام بن عبد الملك

أولاً: اسمه ونسبه ونشأته:

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس، أبو الوليد القرشى الأموى الدِّمشقى، أمير المؤمنين، وأمه أمّ هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومى، وكانت داره بدمشق عند باب الخواصين[١]، ولد هشام بالمدينة، وفى رواية أخرى أنه ولد بدمشق[٢]، ولما كانت أمه مطلقه عند ولادته[٣]، فإن الرواية الأولى عن مولده بالمدينة هى الراجحة، لوجود أمه حينذاك عند عائلتها بالمدينة[٤]، وولد -هشام على القول الراجح- سنة اثنتين وسبعين[٥]، وسّماه عبد الملك منصوراً لانتصاره على مصعب فى تلك السنة، ولما بلغه أن أم هشام سمته على أبيها لم ينكر عبد الملك ذلك[٦]، وقضى هشام الشطر الأخير من طفولته فى منزل الخلافة الأموى بالشام فى أواخر حكم أبيه وإخوته من الخلفاء[٧] وكان هشام مغموراً فى البلاط الأموى زمن أخويه الوليد وسليمان[٨] وقد بقى بعيداً عن مسرح الأحداث نسبيًا حتى توليه الخلافة سنة ١٠٥هـ[٩]. وكان جميلاً أبيض أحول يخضب بالسواد، وهو الرابع من ولد عبد الملك لصلبه الذين وُلوا الخلافة، وقد كان عبد الملك رأى فى المنام كأنه بال فى المحراب أربع مّرات، فدسَّ إلى سعيد بن المسيب من سأله عنها، ففسرها له بأنه يلى الخلافة من ولده أربعة، فوقع ذلك، فكان هشام آخرهم، وكان فى خلافته حازم الرأى جمّاعًا للأموال، وكان ذكيًا مدبّرًا، له بعد بالأمور جليلها وحقيرها، وكان فيه حلم وأناة[١٠]. قال فيه الذهبى: كان عاقلاً حازمًا سائسا فيه ظلم وعدل[١١].

(١) البداية والنهاية (١٣/ ١٥١).

(٢) عصر هشام بن عبد الملك، عبد المجيد الكيبسى ص ٢٩.

(٣)، (٤) المصدر نفسه ص ٢٩.

(٥)، (٦) الكامل فى التاريخ (٣/ ٣٠٨).

(٧) عصر هشام بن عبد الملك ص ٣١.

(٨) المصدر نفسه ص ٣٣.

(٩) الكامل فى التاريخ (٣/ ٣٠٨).

(١٠) البداية والنهاية (١٣/ ١٥١).

(١١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٢).

ثانيًا: سعيه لنيل الخلافة وتوليته للعهد:

كان هشام تواقًا لنيل الخلافة، ففى أواخر أيام سليمان بن عبد الملك، أقنع رجاء بن حيوه الخليفة أن يبايع لعمر بن عبد العزيز، وخوفًا من الفتنة وتجنبًا لمعارضة بنى أمية يبايع بعده ليزيد بن عبد الملك، ويكون ذلك فى كتاب مختوم يفتح بعد موت سليمان، ولم يكن يعلم لمن عهد سليمان بالخلافة من بعده إلا رجاء، وقد حاول هشام أن يستدرج رجاء لمعرفة من استخلف سليمان من بعده، ولما رفض رجاء إخباره استغرب هشام ذلك، لاعتقاده بأنه أحق الجميع بالخلافة[١]. فقد قال رجاء: لقيني هشام بن عبد الملك فقال: يا رجاء، إن لى بك حرمة ومودة... فاعلمنى هذا الأمر، فأن كان إلى عملت وإن كان إلى غيرى تكلمت فليس مثلى قصّر به، قال رجاء، فأبيت... فانصرف هشام وقد يئس ويضرب بإحدى يديه على الأخرى وهو يقول: فإلى من نحيت عنى ؟ أتخرج من ولد عبد الملك[٢].

فسيرة هشام تدل على رغبته الملحة بالخلافة(٣)، وأما بالنسبة لبيعة هشام بولاية العهد، فقد كان للظروف السياسية دورها الفعال فى ذلك، فعندما أراد يزيد بن عبد الملك أن يُرسل جيشًا لقتال يزيد بن المهلب فى العراق، أشار العباس بن الوليد على يزيد أن يولى العهد لأخيه عبد العزيز بن الوليد، ومن بعده للوليد بن يزيد، وبين أن الوليد كان صغيرًا، كما علل العباس طلبه بالخوف من إرجاف أهل العراق بعد أن يشيع موت الخليفة، فأجاب يزيد بالموافقة ووعد بأن يبايع لعبد العزيز بن الوليد فى اليوم التالى، ويبدو أن الخبر وصل هشامًا فذهب وقابل أخاه مسلمة[٤] الذى قام بدوره بمقابلة يزيد وإقناعه بالبيعة لهشام بولاية العهد ومن بعده الوليد[٥] بن يزيد، وكان ذلك عام ١٠١هـ على الأرجح[٦]، وكانت العلاقة بين الخليفة يزيد بن عبد الملك وأخيه هشام، ولى عهده، حسنة نسبيًا رغم ندم الخليفة يزيد على إسناد ولاية العهد لهشام، فكان يقول كلما رأى ابنه يزيد :... الله بينى وبين من جعل هشامًا بينى وبينك[٧]، فقد كبر الوليد وأدرك حياة أبيه، ولربما كان مرد ذلك لخشية يزيد على ابنه الوليد من أخيه هشام بعد موته، وإن كان قد أخذ على هشام المواثيق بألا يحرم الوليد من ولاية عهده[٨].

---

(١) عصر هشام بن عبد الملك ص٣٤.

(٢) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك ص٤٣.

(٣) عصر هشام بن عبد الملك ص ٣٥.

(٤) الكامل فى التاريخ (٣/٢٨٨).

(٥) المصدر نفسه (٣/٢٨٨).

(٦) وابن الأثير يراها عام ١٠٢هـ، الكامل (٣/٢٨٨).

(٧) المصدر نفسه (٣/٢٨٨).

(٨) عصر هشام بن عبد الملك ص ٣٧.

ثالثًا: توليه الخلافة :

توفى يزيد بن عبد الملك يوم الجمعة لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥هـ، وجاء البريد لهشام بشارتى الخلافة والخاتم وهو بالزيتونة[١]، وما لبث هشام حتى ذهب إلى الرصافة[٢] ثم ركب من الرصافة حتى أتى دمشق[٣]. فبويع بها فى اليوم الأول من شهر رمضان عام ١٠٥هـ على الأرجح[٤]، وأما الطبرى[٥] وابن الأثير[٦] فيذكران أن استخلاف هشام كان لليال بقين من شعبان عام ١٠٥هـ وكان هشام يعرف كيف ينجح فى مشروعاته ويعد من ساسة بنى أمية المشهورين، ختمت به أبواب السياسة وحسن السيرة[٧] وكان شديد المراقبة لعمّاله ودواوينه، وقد شهد له بجدارته أحد خصومه فقال عبد الله بن على بن العباس: جمعت دواوين بنى مروان فلم أر ديوانًا أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام[٨].

رابعًا: نبذة عن حياته الخاصة:

١- **بخل هشام:** وصف هشام بالبخل وجمع المال، قال الجاحظ: كان هشام يقول: ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً[٩]. ويبدو أن السبب فى هذا الوصف شدة مراقبته للمال العام، فقد كان شديد المحاسبة للمشرفين على الديوان، وحريصًا على مال المسلمين، ولذلك وصفه الشعراء والكتاب بالبخل، لأن الشعراء اعتادوا الهبات الكبيرة من ملوك بنى أمية[١٠].

٢- **اتهامه بشرب الخمر:** جاءت روايات -لا يصح إسنادها- تُشير إلى أن هشام بن عبد الملك كان يشرب الخمر كل يوم جمعة بعد الصلاة، وكانت له مجالس يدار فيها الخمر، فإن تلك الروايات لا تصح من حيث السند، كما أن سيرة هشام منافية لهذا الاتهام الباطل، فقد زجر ولى عهده، لمعاقرته وإدمانه الخمر، كما زجر ابنه مسلمة المكنى أبا شاكر، وألزمه الأدب وحضور الجماعة[١١].

---

(١) الزيتونة : موقع فى بادية الشام.
(٢) لرصافة : تبعد عن دمشق ١٩٥٢ ميلاً.
(٣) الكامل فى التاريخ (٣٠٨/٣).
(٤) عصر هشام بن عبد الملك ص ٣٨.
(٥) تاريخ الطبرى (٥٤٦/٧).
(٦) الكامل (٣٠٨/٣).
(٧) عصر هشام بن عبد الملك ص ٤٠.
(٨)، (٩) المصدر نفسه ص ٥٩.
(١٠) الخلافة الأموية ، عبد المنعم الهاشمى ص ٣٧١.
(١١) عصر هشام بن عبد الملك ص ٦٣.

٣- شعره: لا تحدثنا المصادر عن قصائد أو أبيات شعرية قالها هشام، مع ما للشعر - آنذاك- من منزلة، ومع ذلك، فإن المصادر تذكر لنا بيتًا من الشعر كان هشام يردده دائمًا:

إذا أنت طاوعت الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال(١)

ولم تذكر المصادر قائل البيت السالف، ولعله لهشام، ومع ذلك فإن هشامًا لم يكن شاعرًا وإن كان يروى الشعر ويحب سماعه(٢).

٤- تقبله للهدايا: كان هشام يتقبل الهدايا من الولاة وغيرهم، ولم ير بذلك إضرارًا بمصلحة الدولة أو إجحافًا بحقوق الناس، ولا شك أن قبول هشام للهدايا من الولاة خاصة، وعدم إمعانه فى التحرى عن مصادر تلك الهدايا، أمر غير مقبول من حاكم مثله(٣). وهذا مخالف للنهج الذى سار عليه عمر بن عبد العزيز.

٥- من صفات هشام: كان هشام جميل الصورة ربعة سمينًا، يخضب بالسواد، وبعينه حول، موصوفًا بالحلم، ولا يستغضب بسهولة، إلا فى مسألة حول عينه، وإن كان قد لقب بأحول بنى أمية(٤)، وإذا أخطأ كان هشام سريع الندم وطلب العفو(٥). متقبلاً للوعظ(٦). وقد كسا الكعبة من الديباج الثمين(٧).

خامسًا: أولاده وعلاقته بأقربائه:

١- تربيته لأولاده: كان لهشام عشرة من الأولاد الذكور وبعض البنات، ويختلف المؤرخون فى عددهم فيذكر ابن حزم أن عددهم كان ستة عشر ولدًا وبعض البنات(٨)، وقد حاول هشام أن يحسن تربية أولاده فاختار لهم محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرى المحدث لتأديبهم(٩)، واختار هشام لأولاده أيضًا من يعلمهم اللغة والشعر، وكان يحضر أحيانًا مجالس مؤدبيهم(١٠)، وكان يعطى مؤدب ولده ألف درهم كل شهر، إلى جانب الكسوة والجوائز(١١) وكان يوصى مؤدب ابنه أن يعلمه القرآن، ويروّه الأشعار، وأيام

(١) البداية والنهاية (١٣/ ١٥٤).

(٢) عصر هشام بن عبد الملك صـ ٦٤ .

(٣) المصدر نفسه صـ ٦٥ .

(٤) المصدر نفسه صـ ٦٦ .

(٥) الكامل فى التاريخ (٣ / ٣٩٣) .

(٦) معجم الأدباء (٤/ ١٦١، ١٦٢).

(٧) عصر هشام بن عبد الملك صـ ٦٦ .

(٨) المصدر نفسه صـ ٧٣.

(٩) البداية والنهاية، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك صـ ٧٣ .

(١٠) عصر هشام بن عبد الملك صـ ٧٣.

(١١) مكانة المعلم فى التراث العربى الإسلامى صـ ١٥٤.

الناس، ويأخذه بعلم الفرائض والسنن، وقيل: أوصاه أن يأخذ ولده بكتاب الله ويُقريه في كل يوم عشر آيات ليحفظ القرآن، ويروّه من الشعر أحسنه، ويتخلل به مغازي رسول الله ﷺ وطرفًا من الحلال والحرام والخطب، ويصله بأهل الفقه والدين[١]. وبالرغم من ذلك، فقد أساء بعض أولاده السيرة، ولم يشتهر أحد منهم بعد سقوط الدولة الأموية عدا حفيده، عبد الرحمن بن معاوية بن هشام مؤسس الدولة الأموية في الأندلس[٢]، ويذكر أن هشامًا شتم ابنه محمدًا لقيام أحد عبيده بضرب طفل نصراني، كان قد اعتدى على أحد أولاد محمد[٣]، كما منع أحد أولاده من ركوب الدابة سنة، عقابًا له على عدم حضوره لصلاة الجمعة بحجة موت دابته، وأنه ليس باستطاعته أن يحضر إلى المسجد ماشيًا[٤]، وقد كان هشام يهتم بتصرفات أولاده ويرغب لهم أن تكون سمعتهم جيدة بين الناس، وتصلح أحوالهم مع ربهم ودينهم، ويتضح ذلك من اختياره لمؤدبهم، وتوليتهم المواسم، وإجبارهم على حضور الجمعة[٥].

٢- **اشتراكهم في حروب الدولة:** كان هشام يشرك أولاده بالحروب ويقلدهم قيادة جيوش الغزو، وقد اشتهر منهم معاوية بن هشام، قال عنه ابن حزم: قاد الصوائف عشر سنين[٦]. وقد شارك معاوية في قيادة الحملات الموجهة لغزو الروم، زمن أبيه، أكثر من عشر مرات[٧]، وقد شارك في قيادة حملات الغزو من أولاد هشام: سليمان، ومسلمة، وسعيد، ومحمد[٨].

٣- **علاقة هشام بالوليد بن يزيد ولي العهد:** كان هشام مكرمًا للوليد حتى ظهر منه مجون وفسق، وربما كان لمؤدب الوليد -عبد الصمد بن عبد الأعلى- يد في سوء سيرة الوليد، فأراد هشام إبعاد عبد الصمد عن الوليد، فكتب إليه بذلك فاستجاب الوليد إلى رغبة عمه هشام وأخرج عبد الصمد[٩] وقد حاول هشام أن يصلح من سيرة الوليد، فولاه الموسم عام ١١٦هـ، ويبدو أن الوليد لم يرتدع ويترك ما كان عليه من لهو وفسق، فطمع هشام في خلعه، وتقليد ولاية العهد لابنه مسلمة، لكن الوليد رفض خلع نفسه، فطلب منه هشام أن يجعل مسلمة بن هشام وليًا للعهد من بعده، فرفض ذلك أيضًا... فتنكر له هشام وأضرّ به وعمل سرًا في البيعة لابنه، فأجابه قوم، منهم محمد وإبراهيم ابنا هشام بن إسماعيل

(١) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ص ٣٢٢.
(٢) عصر هشام بن عبد الملك ص ٧٣.
(٣)، (٤) المصدر نفسه ص٧٣.
(٥) المصدر نفسه ص ٧٤.
(٦) جمهرة أنساب العرب (١/ ٩٢).
(٧) عصر هشام بن عبد الملك ص ٧٥.
(٨)، (٩) المصدر نفسه ص ٧٦.

المخزومى، وبنو القعقاع بن خليد العبسى، وغيرهم من خاصته[١]، وساءت العلاقة بين هشام والوليد، فكان هشام يعنفه أمام الناس، وكان الناس يتقربون إلى هشام بعيب الوليد[٢] ويبدو أن هشامًا كان جادًا فى خلع الوليد والبيعة لابنه مسلمة بولاية العهد، ومع ذلك لم يجرؤ هشام على تحدى الناس فى بيعتهم للوليد، فيذكر ابن كثير أن الزهرى المحدث كان يحث هشامًا على خلع الوليد من ولاية العهد، ولكن هشامًا كان يرفض ذلك خشية الفضيحة، وتغير قلوب الأجناد[٣]، وكان نتيجة محاولة هشام خلع الوليد والبيعة لابنه مسلمة، أن جلب نقمة الوليد على أولاده من بعده[٤]- كما سيأتى بيانه بإذن الله تعالى-.

٤- علاقته بآل مروان وسائر الأمويين: كان هشام يولى أهل بيته قيادة الحملات الموجهة ضد البيزنطيين، فقد ولى أخاه مسلمة قيادة تلك الحملات لسنوات عدة[٥]، كما ولاه ولاية أرمينية وأذربيجان مرتين، ولما عزل هشام مسلمة، فى المرة الثانية عام ١١٤هـ عن أرمينية وأذربيجان ولاها لابن عمه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم[٦]، كما ولى هشام أخاه سعيدًا قيادة إحدى الحملات ضد البيزنطيين أيضًا، . . وأما أبناء إخوته، فمع أن هشامًا لم يولهم قيادة حملات الصوائف ولكنه كان يشركهم فيها، وكان هشام يفرض المشاركة فى الحملات الحربية على من يأخذ العطاء من آل مروان، ولم يكن أحد من بنى مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بديلاً، وكانوا يصيرون أنفسهم فى أعوان الديوان، وفى بعض ما يجوز لهم المقام به، ويوضع به الغزو عنهم[٧]، ويبدو أن مقدار العطاء كان مائتى دينار[٨]. ويظهر أن هشامًا لم يهب لأهل بيته من الأموال، كما كان يوهب لهم فى العهود السالفة، ومع أن هشامًا لم يحاب آل مروان ويفضلهم على من سواهم، فإنه لم يخصهم، وقد قام هشام بتزويج جميع بناته من أبناء عمومتهن، كما كان بنو مروان يأخذون عطاء الشرف[٩]، وكان عدد من بنى مروان يحضرون مجلس هشام للسمر معه، وتذكر الروايات أن هشامًا وبخ أفضل ولاته خالد القسرى واليه على العراق لما أهان القسرى أحد الأمويين، وكتب الأموى إليه بذلك، وربما كانت إهانة الأموى من بين ما دعا هشامًا إلى عزل القسرى عن ولايته[١٠].

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٦٢٣).

(٢) عصر هشام بن عبد الملك ص ٧٨، العقد الفريد (٥/ ١٨٤).

(٣) البداية والنهاية، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك ص ٧٩.

(٤) عصر هشام بن عبد الملك ص ٧٩.

(٥)، (٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك ص ٨٠.

(٧) المصدر نفسه ص٨١.

(٨) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك ص ٨١.

(٩) عصر هشام بن عبد الملك ص ٨١.

(١٠) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عصر هشام بن عبدالملك ص ٨١.

٥- رعايته لأخواله من بنى مخزوم: مرّ معنا أن هشامًا ولد بالمدينة عند أخواله، لأن أمه كانت مطلقة عند أهلها، وقد قضى طفولته المبكرة فى المدينة عند أخواله، فلما تولى الخلافة ولى خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى، مكة والمدينة والطائف ١٠٦هـ[١]، وقد استمر إبراهيم بن هشام إلى عام ١١٤هـ، فعزله هشام عن ولاياته الثلاث وولى مكة والطائف لخاله الآخر محمد بن هشام المخزومى[٢] وأضاف إليه المدينة عام ١١٨هـ[٣]، وظهر ميل هشام لأخواله عندما أمر لوفد من قريش ببعض المال فضل فيه أخواله[٤].

سادسًا: حياته الاجتماعية:

١- علاقته بالرعية: كان هشام يضع الرقباء والعيون من خيار الناس على ولاته وعماله ليتأكد من سيرهم بالعدل، وقضائهم حوائج الخلق، ولا يكتفى بذلك، بل يتعرض للناس بنفسه يسأل عن أحوالهم ويحرضهم على المطالبة بحقوقهم، وكان له موضع بالرصافة أفيح من الأرض يبرز فيه، فتضرب له به السرادقات، فيكون فيه ستين ليلة بارزًا للناس، مباحًا للخلق، لا يفنى أيامه تلك إلا برد المظالم والأخذ على يد الظالم، من جميع الناس وأطراف البلاد، ويصل إلى مخاطبته فى ذلك الموضع راعى السوام والأمة السوداء فمن دونهما، وقد وكل رجالاً أدباء عقلاء بإدناء الضعفاء، والنساء واليتامى منه، ويستقبل وفود الأمصار فيلبى حاجاتهم، ويخرج مع مستشاريه يصنع لهم الطعام بنفسه، فيأكل منه، ويأكل معه الناس، وإن نشبت بينه وبين أحد من أشراف رعيته خصومة لم يجد سبيلاً لقضائها إلا أن يمثل بنفسه أمام القضاء مع خصمه ويلزم أهل بيته بذلك، حتى لو كان خصم أحدهم[٥] نصرانيًا، ولما استطال مرة على أحد رعيته لم يجد مفرًا من إرضائه بكل سبيل، فقد شتم هشام مرة رجلاً من الأشراف، فوبخه ذلك الرجل وقال: أما تستحى أن تشتمنى وأنت خليفة الله فى الأرض ؟ فاستحى منه، وقال: اقتص منى، فقال: إذن أنا سفيه مثلك، قال: فخذ عوضًا من المال، قال: ما كنت لأفعل، قال: فهبها لله، قال: هى لله، ثم لك، فنكس هشام رأسه واستحى وقال: والله لا أعود إلى مثلها أبدًا[٦].

---

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٥٥١) .
(٢) المصدر نفسه (٧/ ٦١٤) .
(٣) المصدر نفسه (٧/ ٦٣٨) .
(٤) عصر هشام بن عبد الملك ص ٨٢.
(٥) الكامل فى التاريخ (٣/ ٣٩٢) .
(٦) المصدر نفسه (٣/ ٣٩٣).

٢- **مع وفود الأعراب:** في أيام هشام قحطت البادية، فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة، وعليه شملتان. فوقعت عليه عين هشام فقال لحاجبه: من أراد أن يدخل عليّ فليدخل، فدخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقًا، فقال: يا أمير المؤمنين، إن للكلام طيًا ونشرًا، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه وقال: انشره لله درك[1]. فقال: يا أمير المؤمنين، إنه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أدقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله فـفرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فلا تحبسوها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين، فقال هشام: ما ترك لنا الغلام واحدة من الثلاث عذرًا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: أما لك حاجة ؟ قال: ما لي حاجة في نفسي دون عامة المسلمين.

وكان هشام لا يدخل بيت ماله مالاً حتى يشهد أربعون رجلاً أنه أخذ من حقه. ولقد أعطى لكل ذي حقه حقه، ويقال: إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله[2].

٣- **حظي منه عقله لا وجهه:** كان هشام يقرب منه الأذكياء أصحاب الحكمة والعقل الراجح، ذلك أنه لما أتته الخلافة سجد لله شكرًا، فلما رفع رأسه وجد الأبرش الكلبي واقفًا فقال: ما لك لم تسجد معي ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، رأيتك وقد رفعت إلى السماء، وأنا مخلد إلى الأرض. فقال: أرأيتك إن رفعتك معي أتسجد ؟ فقال: الآن طاب السجود، فسجد، فأمر له بالإحسان الكثير وأن يكون جليسه طول مدته، وعوتب في شأنه وقيل له: ما تجالس في هذا الأبرش ؟ فقال: حظي منه عقله لا وجهه[3].

٤- **هشام مع جاريته:** اشترى هشام بن عبد الملك جارية وخلا بها، فقالت له: يا أمير المؤمنين، ما من منزلة أطمع فيها فوق منزلتي إذ صرت للخليفة، ولكن النار ليس لها خطر، إن ابنك فلانًا اشتراني فكنت عنده؛ لا يحل لك مسي، قال: فحسن هذا القول منها عنده وحظيت عنده وتركها وولاها أمره[4].

٥- **إن نعم عدوك قلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي:** وجه أبو جعفر المنصور إلى شيخ من أهل الشام - كان بطانة هشام بن عبد الملك- فسأله عن تدبير هشام في بعض حروبه

(١) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ (٢/ ٤٩) .
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٩) .
(٣) فوات الوفيات (٤/ ٢٣٩).
(٤) المنتظم (٧/ ٩٧).

الخوارج، فوصف له الشيخ ما دبرَّ فقال: فعل -رحمه الله- كذا، وضع -رحمه الله- كذا وكذا، فقال له المنصور: قم عليك وعليه لعنة الله، تطأ بساطى وتترحم على عدوى، فقام الرجل وهو يقول وهو مولٍ: إن نعم عدوك لقلادة فى عنقى لا ينزعها إلا غاسلى، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فرجع، فقال: أشهد أنك نهيض حر وغراس شريف، عُد إلى حديثك، فعاد الشيخ إلى حديثه حتى إذا فرغ دعا له بمال فأخذه وقال: والله يا أمير المؤمنين مابى إليه من حاجة، ولقد مات عنى من كنت فى ذكره آنفًا، فما أحوجنى إلى وقوف بباب أحد، ولولا جلالة عز أمير المؤمنين وإيثار طاعته ما لبست لأحد بعده نعمة، فقال له المنصور: مت إذا شئت لله أبوك، فلو لم يكن لقومك غيرك كنت قد أبقيت لهم مجدًا مخلدًا(١).

٦- **لتلينَّ طائعًا أو لتلينَّ مكرهًا:** عن إبراهيم بن أبى عَبْلة قال: أراد هشام أن يولينى خراج مصر فأبيت، فغضب حتى اختلج وجهه، وكان فى عينيه حول، فنظر إلى نظر منكر، وقال: لتلينَّ طائعًا، أولتلينَّ مكرهًا، فأمسكت عن الكلام حتى سكن غضبه فقلت: يا أمير المؤمنين، أتكلم ؟ قال: نعم، قلت: إن الله قال فى كتابه العزيز ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا**﴾ (الأحزاب: ٧٢). فوالله يا أمير المؤمنين ما غضب عليهن إذ أبين، ولا أكرههن إذ كرهن، وما أنا بحقيق أن تغضب علىّ إذ أبيت، وتكرهنى إذ كرهت، فضحك وأعفانى(٢).

٧- **كراهية هشام تقبيل اليد:** كان هشام بن عبد الملك يكره تقبيل اليد، حكى العتبى، قال: دخل رجل على هشام بن عبد الملك فقبل يده، فقال: أف(٣) إن العرب ما قبلت الأيدى إلا هلوعًا، ولا فعلته العجم إلا خضوعًا(٤).

٨- **تشييعه لجنازة طاووس بن كيسان:**

لما مات طاووس بن كيسان لم يتهيأ إخراج جنازته لكثرة الناس حتى وجه إليهم أمير مكة بالحرس، وقد حرص هشام بن عبد الملك على تشييع جنازته بنفسه، وكان عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على يضع سرير طاووس على كاهله حتى سقطت قلنسوته عن رأسه ومزق رداؤه من خلفه(٥).

(١) المنتظم (٧/٩٩).
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٤٩، الدولة الأموية، للوكيل (١/٥٤٨).
(٣) أفّ : كلمة تضجر.
(٤) الشهب اللامعة ص ٣٢١ .
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها ص ٣٥٦ مرآة الجنان (١/ ٢٢٧، ٢٢٨) .

٩- محاربة المذاهب الضالة فى عهده: ظهر فى العراق فى فترة مبكرة معبد الجهنى الذى كان من أوائل القدرية فى الإسلام -وهم منكرو القدر- وقد جاء بهذه الأفكار - فيما يبدو- من مصادر نصرانية، ثم ما لبث أن ثار على الأمويين مع ابن الأشعث، فلما فشلت هذه الثورة ألقى الحجاج القبض عليه وقتله[١]، وقد أخذ الأفكار القدرية لمعبد رجل من الشام واسمه غيلان الدمشقى وكان مولى لآل عثمان بن عفان رضى الله عنه، وقد أدخل على هذه الأفكار مزيداً من التأصيل الجدلى، وكان -فيما يبدو- مطعونًا فى دينه قبل ذلك، فقد قال مكحول الفقيه: ويلك يا غيلان! ألم أجدك ترامى النساء بالتفاح فى رمضان ؟ ثم صرت حارثيًا تخدم امرأة الحارث الكذّاب - مدعى النبوة الذى قتله عبد الملك كما سبق بيانه - وتزعم أنها أم المؤمنين، ثم تحولت بعد ذلك قدريًا زنديقًا[٢]؟ وقد ناظره عمر بن عبد العزيز لما علم ببدعته، وأبان له ضلاله، فأظهر التراجع عن فكره أكثر من مرة، وأمر عمر بالكتاب إلى سائر الأعمال بخلاف ما يقول هؤلاء القدرية، وقد أمسك غيلان عن الكلام حتى مات عمر، فسال منه بعد ذلك السيل[٣]، فاستدعاه هشام بن عبد الملك بعد توليه الخلافة وقال له: ويحك! قل ما عندك، إن كان حقًا اتبعناه، وإن كان باطلاً رجعت عنه، فناظره ميمون بن مهران[٤]، والأوزاعى، فلما استبان خطؤه ومكره وإصراره على ضلالته، أمر هشام بقتله[٥] وأمر بنفى أتباعه، ويبدو أن بعض الناس أرجف بالخليفة بعد صنيعه ذاك حتى أشفق أن يكون أخطأ بقتله غيلان، فكتب إليه رجاء بن حيوة فقيه أهل الشام يقول: بلغنى يا أمير المؤمنين أنه دخلك شيء من قتل غيلان وصالح -أحد أصحاب غيلان- وأقسم لك يا أمير المؤمنين إن قتلهما أفضل من قتل ألفين من الروم أو الترك[٦]، ثم ظهر فى الشام الجعد بن درهم مولى بنى الحكم، وكان معلمًا لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وهو أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد ﷺ وقد قيل إنه أخذ ذلك من أصول يهودية، فلما أظهر ذلك القول طُلب بالشام، فهرب إلى الكوفة، حيث حبسه عاملها خالد القسرى، وأمره هشام بن عبد الملك بقتله فأخرجه فى وثاقه يوم عيد الأضحى، وخطب الناس فقال فى آخر خطبته: انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم، فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم فإنه يقول: ما كلم الله موسى، ولا اتخذ إبراهيم

---

(١) طبقات المعتزلة، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها ص ٢٣٤.

(٢) سرح العيون، لابن نباتة ص ١٦٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٦، ١٦٧.

(٤) البداية والنهاية (١٣/ ١٥٥)..

(٥) سرح العيون ص ١٦٧، البداية والنهاية (١٣/ ٢٣٥).

(٦) حلية الأولياء (٥/ ١٧٢)، الدولة الأموية المفترى عليها ص ٢٣٥.

خليلاً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل وذبحه[1]. ومن العقائد الباطلة التى ظهرت فى ذلك الوقت ما كان من المغيرة بن سعيد وبنان بن سمعان النهدى، وكانا من غلاة الشيعة، فكان المغيرة يقول بألوهية على بن أبى طالب، وتكفير الشيخين أبى بكر وعمر وسائر الصحابة إلا من ثبت مع على رضى الله عنه، وزعم أن الأنبياء لم يختلفوا فى شىء من الشرائع، وكان ساحراً يقول: لو أردت أن أحيى عاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً لفعلت، ويرى مذهب التجسيم لله عز وجل[2]... وكان بنان بن سمعان يشاركه فى هذه المعتقدات ويرى أن علياً حل فيه جزء إلهى، وأنه كان يعلم الغيب ويخبر به، وأنه سوف يأتى بعد ذلك من جديد، ثم ادعى أن ذلك الجزء الإلهى قد انتقل إليه هو بالتناسخ، ولذلك استحق أن يكون إماماً وخليفة[3]، وزعم أنه المراد بقوله تعالى ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، إلى غير ذلك من أضاليل عجيبة، ثم إنهما خرجا فى سبعة نفر على خالد القسرى فقتلهما حرقاً على نحو بشع سنة ١١١هـ ثم قتل أحد المتنبئين بالكوفة[4] وفى ولاية خالد القسرى ظهرت دعوة باطنية فى الإسلام على يد عمار بن يزيد بخراسان، وقد تسّمى بخدّاش، فدعا الناس إلى خلافة محمد بن على بن عبد الله بن عباس، فاستجاب له خلق كثير، فلمّا التفوا عليه دعاهم إلى مذهب الخُرَّمِيَّة الزَّنادقة[5]، وأباح لهم نساء بعضهم بعضاً، وزعم لهم أن محمد بن على بن عبد الله يقول ذلك، وقد كذب عليه، فأظهر الله عليه الدولة، فأخذ فجىء به إلى أمير خراسان، فأمر به فقطعت يده وُسلّ لسانه ثم صُلب بعد ذلك[6]. وفى ولاية يوسف بن عمر على العراق (١٢٠ - ١٢٦هـ) قتل أبو منصور العجلى أحد الشيعة الغلاة الذى زعم أن علياً والحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمداً الباقر كلهم أنبياء ومرسلون وأنه هو أيضاً نبى مرسل عرج به إلى السماء، وأن الله تعالى مسح على رأسه بيده، وقال: يا بنى، بلّغ عنى، ثم أنزله إلى الأرض، وكفر أصحابه بالجنة والنار، وتأولوا الجنة على أنها نعيم الدنيا، والنار على محق الناس فى الدنيا، واستحلوا خنق مخالفيهم، فلما اكتشف يوسف بن عمر خبر ذلك الدجال أخذه وصلبه[7].

١٠- عفوه عن الكُمَيْت الشاعر: الكميت شاعر فحل مشهور، من شعراء الدولة الأموية وأحد البلغاء الخطباء الفصحاء، وممن يضرب بهم المثل فى البلاغة والبيان، ذلكم هو

(١) الكامل فى التاريخ (٣/٣٩٣).

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٣٩، ٢٤٠ الدولة الأموية المفترى عليها ص ٢٣٥.

(٣) الملل والنحل للشهرستانى (١/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٤) الدولة الأموية المفترى عليها ص ٢٣٦.

(٥) الخرمية فرقة من المزدكية وسر مذهب الإسماعيلية.

(٦) البداية والنهاية (١٣/ ٨١).

(٧) الفرق بين الفرق، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها ص ٢٣٦.

الكميت بن زيد الأسدى[1] وكان الكميت قد مدح بنى هاشم وهجا بنى أمية وهشامًا فطلب، فهرب من هشام وأصبح لا يستقر به القرار من خوف هشام، ثم قصد مسلمة بن عبد الملك وطلب منه أن يشفع له عند أخيه هشام فاستجاب له[2] ودخل به على أمير المؤمنين هشام فخطب الكميت خطبة ما سمع بمثلها قط، وامتدح بنى أمية بقصيدته الرائية التى ارتجلها ارتجالا، وجاء فيها:

قف بالديار وقوف زائر ... وتأنَّ إنك غير صاغر

وفيها يقول:

ماذا عليك من الوقوف ... بها وأنك غير صاغر

وفيها يقول:

والآن صرت إلى أمية ... والأمور إلى المصائر

فجعل هشامًا يغمز مسلمة بقضيب فى يده ويقول: اسمع اسمع، وفيها يقول:

كم قال قائلكم لعلك ... عند عثرته لعاثر

وغفرتمو لذوى الذنوب ... من الأكابر والأصاغر

أبنى أمية إنكم ... أهل الوسائل والأوامر

ثقتى بكل ملمة ... وعشيرتى دون العشائر

أنتم معادن للخلافة ... كابرًا من بعد كابر

بالتسعة المتتابعين ... خلائفًا وبخير عاثر

وإلى القيامة لا تزال ... لشافع منكم وواتر[3]

ثم قطع الإنشاد وأعاد خطبته... فقال هشام: ويلك يا كميت! من زين لك الغواية ودلاك فى العماية؟ قال: الذى أخرَج أبانا من الجنة وأنساه العهد فلم يجد له عزمًا[4]، وذكرت الرواية أن هشامًا قال للكميت: أنت القائل:

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصرين الأموى والعباسى ص ١٩١.

(٢) مسلمة بن عبد الملك فاتح شطر الأناضول ص ١٥٦، العقد الفريد (٢/١٨٣ - ١٨٥).

(٣) الأدب العربى وتاريخه، د. خفاجى ص ٢٠٠. (٤) المصدر نفسه ص ٢٠٠.

فقل لبنى أمية حيث حلوا ... وإن خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركمو أجيعا[(١)]
بمرضى السياسة هاشمى ... يكون حيًا لأمته ربيعًا

قال الكميت: لا تثريب يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تمحو قول الكاذب، قال: بماذا ؟ قال: بقول الصادق:

أورثته الحصان أم هشام ... حسبًا ثاقبًا ووجها نضيرا
وتعاطى ابن عائشة البدر ... فأمسى له رقيبًا نظيرا
وكساه أبو الخلائف مروان ... سنا المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكن ... وجدتها له معانًا ودورا[(٢)]

وكان هشام متكئًا، فاستوى جالسًا، وقال: هكذا فليكن الشعر. ثم قال: لقد رضيت عنك يا كميت[(٣)].

ومن طرائف ما يذكر فى سيرة الكميت، أنه وقف وهو صبى على الفرزدق وهو يُنشِدُ، فقال: يا غلام، أيسرك أنى أبوك ؟ قال: أما أبى، فلا أبغى به بدلاً، ولكن يسرنى أن تكون أمى، فحصر الفرزدق، وقال: ما مَرَّ بى مثلها. وقد ولد سنة ستين، ومات سنة ست وعشرين ومائة وهو القائل:

والحُبُّ فيه حلاوة ومرارة ... سائِلْ بذلِكَ من تَطعَّم أو ذُقِ
ما ذاق بُؤْسَ مَعيشةٍ ونعيمها ... فيما مضى أحَدٌ إذا لم يَعْشَقِ[(٤)]

١١- **يوميات هشام ومجلسه:** كان هشام إذا صلى الغداة كان أول من يدخل عليه صاحب حرسه، فيخبره بما حدث فى الليل، ثم يدخل عليه موليان له مع كل واحد منهما مصحف، فيقعد أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره حتى يقرأ عليهما جزأه، ويدخل الحاجب فيقول: فلان بالباب، وفلان، وفلان، فيقول: ائذن، فلا يزال الناس يدخلون

---

(١) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى صـ ٤٦٣.
(٢) الأدب العربى وتاريخه صـ ٢٠١.
(٣) المصدر نفسه صـ ٢٠١.
(٤) سير أعلام النبلاء (٥٣٨٩).

عليه، فـإذا انتصف النهار وضع طعـامه ورفعت السـتور ودخل الناس وأصحـاب الحوائج وكاتبه قـاعد خلف ظهره، فيقـول: أصحاب الحوائج، فـيسألون حوائجهم، فـيقول: لا، ونعم، والكاتب خلفــه يوقع بما يقول، حتى إذا فـرغ من طعامه وانصـرف الناس صار إلى قائلته، فإذا صلى الظهر دعا بكتابه فناظرهم فـيما ورد من أمور الناس حتى يصلى العصر، فإذا صلى العشاء حضر سماره، الزهرى وغيره(١).

١٢- **اهتمامه بحلبات السباق:** كان هشام بن عبد الملك بن مروان يستجيد الخيل، وأقام الحلبة فاجتـمع له من خيله فيها وخيل غيره أربعـة آلاف فرس، ولم يكن ذلك فى جاهلية ولا إسلام لأحد من الناس(٢)، وكان هشام يقبل الهدايا من الخـيل، ويقيم حلبات السباق لها، ويصلح الطرق ويوسعـها لأجل ذلك، وكان يفرح كثيرًا إذا فـازت خيله فى السباق، ويطلب من الشعراء وصف الفرس أو الحصان الفائز(٣).

١٣- **اهتمامـه بالآثار الأدبية الخـاصة بالأمم الأخـرى:** كان الخليـفة هشام بن عـبد الملك مشغـوفًا بالاطلاع على الآثار الأدبية الخاصة بالأمم الأخـرى، فقد أمر بترجمـة كتاب عن تاريخ فارس، وتسرب هذا الشغف إلى المحيطين به، فترجم سالم مولاه بعض كتب أرسطو إلى العربية، كما ورث ابنـه جبلة بن سالم عن أبيه كثيرًا من معارفـه وعلومه فترجم بعض الآثار التاريخية إلى العربية(٤).

١٤- **معـاملته لأهل الكتاب:** سمح هشـام للنصارى الملكانيـين أن يعيدوا شـغل كرسى أنطاكية وعينـوا صديقه اصطفان بطريقًا عليهم، وكـان رفيقًا بجميع النصـارى، ففى عهده دخل البطرك ميخائيل مدينة الإسكندرية فى احتفال - مشهور - بين يديه الشموع والصلبان والأناجـيل والكهنة يصـيحـون: لقـد أرسل الرب إلينا الداعى المأمـون الذى هو مـرقس الجديد(٥).

سابعًا: العلماء فى عهد هشام بن عبد الملك:

عندما تولى هشـام بن عبد الملك حاول تقـريب بعض العلماء والاستـفادة منهم، ولكن إلى حد ما، ومن أشهر هؤلاء العالم الجليـل محمد بن مسلم الزهرى، والإمام الأوزاعى، وأبو الزناد وغيرهم، وكان تأثير هؤلاء العلماء فى اتخاذ القرار فى بعض الجوانب، وبطريق غير مباشر من خلال تأثير قربهم من الخليفة وأسرته - لاسيما الزهرى - على سلوك هشام

(١) المنتظم (٩٨).
(٢) الشهب اللامعة ص ٤٣٢.
(٣) عصر هشام بن عبد الملك ص ٥٥.
(٤) الدولة الأموية المفترى عليها ص ٤٦٠.
(٥) أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية ص ٤٣٤.

وسيرته، وسيأتى الحديث عن ذلك عند ترجمة الإمام الزهرى بإذن الله تعالى. ولعل الذى حد من تأثير العلماء فى توجيه القرار فى عهد هشام - مقارنة بتأثيرهم فى عهد عمر بن عبد العزيز - هو محاولة هشام أن يمسك العصا من الوسط، فحاول أن يسير وسطًا بين سياسة عمر بن عبد العزيز الإسلامية الخالصة وسياسة الملك، ووسطًا بين عصبية القبائل القيسية واليمانية[1]، وهذا ما دعا الذهبى حين وصف سياسته أن يقول فيه: . . . فيه ظلم مع عدل[2]. وكان العلماء ينصحون هشامًا ويتحدثون معه، وإليك بعض هذه المواقف. .

١- عطاء بن أبى رباح ينصح هشامًا:

دخل عطاء بن أبى رباح مجلس هشام بن عبد الملك وعنده أشراف الناس يتحدثون، فسكتوا، فقال له هشام: ما حاجتك يا أبا محمد ؟ قال: يا أمير المؤمنين، أهل الحرمين أهل الله، وجيران رسول الله ﷺ يقسم فيهم أعطياتهم وأرزاقهم. قال: نعم، يا غلام، اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاءين وأرزاقهم لسنة. ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب وقيادة الإسلام ترد فيهم فضول صدقاتهم. قال: نعم، اكتب يا غلام بأن ترد فيهم فضول صدقاتهم. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل الثغور يرمون من وراء بيضتكم، ويقاتلون عدوكم، قد أجريتم لهم أرزاقًا تدرها عليهم، فإنهم إن يهلكوا غزيتم، قال: نعم، اكتب أرزاقهم إليهم يا غلام. هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل ذمتكم لا تجبيب صغارهم وتتعتع[3] كبارهم، ولا يكلفون ما لا يطيقون، فإن ما تجبونه معونة لكم على عدوكم، قال: نعم اكتب يا غلام بألاّ يحملوا ما لا يطيقون: هل من حاجة غيرها ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتق الله فى نفسك[4]. وجاء فى رواية: اتق الله فى نفسك، فإنك خُلقت وحدك، وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، لا والله ما معك ممن ترى أحد[5].

٢- خالد بن صفوان مع هشام:

روى أن خالد بن صفوان بن الأهتم قدم على هشام بن عبد الملك وقد خرج متبديا بأهله وقرابته وحشمه وخدمه، وذلك فى وقت الربيع، حيث أخذت الأرض زخرفها، وازينت بألوان النبات، وتعطر الجو بروائح الزهور الزكية، وضرب له معسكر فرش بأفخر

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية ص ١١٦. (٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥٢).

(٣) تعتعه : تلّه وحركه بعنف أو أكرهه فى الأمر حتى قلق .

(٤) مختصر تاريخ ابن عساكر، نقلا عن أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية ص ٣٠٨

(٥) مختصر تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية ص ٢٩٧.

الفرش وأخذ الناس فيه مجالسهم، فأخذ خالد بن صفوان ينظر هنا وهناك فنظر إليه هشام نظر المستنطق له، فقال خالد: أتم الله عليك يا أمير المؤمنين نعمة سوغكها لشكره، وجعل ما قلدك من هذا الأمر رشدًا، وعاقبة ما تؤول إليه حمدًا أخلصه لك بالتقى، وكثره لديك بالنماء، لا كدر عليك منه ما صفى، ولا خالط سروره الردى، فقد أصبحت للمسلمين ثقةً وملجأ إليك يفزعون في مظالمهم، وإليك يلجأون في أمورهم، وما أجد يا أمير المؤمنين -جعلني الله فداك- شيئًا هو أبلغ في قضاء حقك وتوقير مجلسك، من أن أذكرك نعمة الله عندك، فأنبهك إلى شكرها، وما أجد لذلك شيئًا هو أبلغ من حديث من تقدم قبلك من الملوك، فإن أذن أمير المؤمنين أخبرته، وكان هشام متكئًا فاستوى قاعدًا فقال: هات يا ابن الأهتم، فذكر ابن الأهتم قصة أحد الملوك الذين خرجوا إلى البرية في عام يشبه عام خروج هشام حيث الربيع فقال لجلسائه: هل رأيتم مثلما أنا فيه ؟ وعنده رجل من بقايا حملة الحجة والمضي على أدب الحق ومناهجه، فقال له: أيها الملك، إنك سألت عن أمر أفتأذن في الجواب ؟ قال: نعم، قال: أرأيت ما أعجبت به ؟ أهو شيء لم تزل فيه أم هو شيء صار إليك ميراثًا من غيرك، وهو زائل عنك وصائر إلى غيرك كما صار إليك ؟ قال الملك: فكذلك هو، قال: أفلا أراك إنما أعجبت بشيء يسير تكون فيه قليلاً وتغيب عنه طويلاً، وتكون غدًا بحسابه مرتهنا ؟ قال: ويحك فأين المهرب ؟ وأين المطلب ؟ قال: إما أن تقيم في ملكك فتعمل بطاعة ربك على ما ساءك أو سرك، وإما أن تضع تاجك وتضع أطمارك وتلبس أمساحك وتعبد ربك حتى يأتيك أجلك. وتذكر القصة أن الملك اختار الطريق الثاني فترك الملك وانقطع مع هذا الناصح للعبادة بقية حياته، وقد تأثر هشام حتى إنه أمر بمعسكره فنقض وعاد ومن معه إلى قصره فاجتمع من كان مع هشام على خالد بن صفوان فقالوا له: ما أردت بأمير المؤمنين ؟ نغصت عليه لذاته وأفسدت عليه باديته، فقال لهم: إليكم عني فإني عاهدت الله عز وجل ألا أخلو بملك إلا ذكرته الله عز وجل(1).

٣- سالم بن عبد الله بن عمر مع هشام بن عبد الملك:

دخل هشام الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال: سلْني حاجة، قال: إني أستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلمّا خرجا قال: الآن فسلني حاجة. فقال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ فقال: من حوائج الدنيا، قال: والله ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها؟!(2).

(١) مختصر تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص ٢٨٤.

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦).

ثامنًا: الإمام محمد بن شهاب الزهرى فى عهد هشام والدولة الأموية:

هو الإمام محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله الأصغر بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى الزهرى القرشى المدنى[١]، يكنى بأبى بكر، ويعرف بالزهرى، كما يعرف بابن شهاب نسبة إلى جد جده شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة، وإذا أطلق العلماء لفظ: الزهرى أو لفظ: ابن شهاب فلا ينصرف هذان اللفظان إلا إليه لغلبتهما عليه دون غيره[٢]. ولد الإمام الزهرى فى مدينة رسول الله ﷺ ولم تكن سنة ولادته معلومة على وجه التحديد، وقد اختلف العلماء فى تحديدها، ورجح الدكتور حارث سليمان الضّارى بأن سنة ولادته كانت سنة إحدى وخمسين[٣] فى خلافة معاوية، نشأ الإمام الزهرى فى المدينة المنورة بعد ولادته فيها، وكانت المدينة محط أنظار طلاب العلم وعشاق المعرفة الذين وفدوا إليها من كل حدب وصوب[٤]، ويعتبر الزهرى من التابعين الأفذاذ، وقد بدأ طلبه للعلم مبكرًا، وكان أول شيء اتجه إليه هو القرآن الكريم، وقد حفظ القرآن فى ثمانين ليلة[٥]، وتعلم علم الأنساب ثم السنة المطهرة، ومعرفة الحلال والحرام، وكان إذا فرغ من تلقى العلم عن أساتذته يستعيد ما تلقاه منهم، ويتذكر ما رواه عنهم رغبة فى جمعه وحفظه، وخوفًا من ضياعه ونسيانه، وكان انصرافه إلى المذاكرة والحفظ، وانشغاله بهما كليًا مدعاة لإثارة حفيظة زوجته عليه، فقد روى عنها أنها قالت له يومًا: والله لهذه الكتب أشد علىّ من ثلاث ضرائر[٦]، فقد كان يتمتع برغبة صادقة فى طلب العلم، مع ذكاء فائق وعزم أكيد، وساعدته عوامل عدة فى تحصيله للعلم، منها: شجاعته الأدبية، وصبره وتحمله لملازمته لكثير من أفاضل شيوخه وطول مجالسته لهم، كسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ولازمهم طويلاً[٧] وكان شديد الاحترام لشيوخه، كما اهتم بالرحلة فى طلب العلم[٨] فى عصره من علوم ومعارف، وجمع ما لم يجمعه الكثير من أقرانه ومعاصريه حتى أصبح علمًا يُشار إليه بالبنان، وإمامًا يقتدى به فى كل فن وشأن، فوصف بأنه أعلم أهل زمانه، وأنه أجمعهم، ووصف بغير ذلك من الأوصاف الدالة على

(١) تذكرة الحفاظ (١/ ١٨٠)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٩٣).
(٢) الإمام الزهرى وأثره فى السنة للضّارى صـ ٢١.
(٣) المصدر نفسه صـ ٢٥.
(٤) المصدر نفسه صـ ٢٧.
(٥) البداية والنهاية، نقلاً عن الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ٧٥.
(٦) شذرات الذهب (١/ ١٩٦).
(٧) الإمام الزهرى وأثره فى السنة صـ ٨٧.
(٨) المصدر نفسه صـ ٨٨، ٨٩.

فضله وتقدمه وطول باعه فى نواحى المعرفة المختلفة[1]، فقد روى عن مكحول أنه قال: ما رأيت أحدًا أعلم بسنة ماضية من الزهرى[2]، وقد ضرب بكل علم من علوم عصره بسهم وافر؛ وكان لذلك يضرب به المثل، فقد قال الذهبى فى وصف عمر بن عبد العزيز: فصار فى حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر بن الخطاب، وفى الزهد مع الحسن، وفى العلم مع الزهرى[3].

١ - علومه ومعارفه:

أ- **الزهرى وعلوم القرآن:** كان الزهرى أحد أعلام التابعين الذين حفلت أمهات كتب الحديث والتفسير بالرواية عنهم فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم وسائر علومه، فقد رويت عنه روايات كثيرة فى التفسير والقراءات ونزول القرآن وأسباب نزوله، وجمعه، وناسخه ومنسوخه، ومكيّه ومدنيِّه وغير ذلك مما يتعلق به من مباحث وعلوم، وقد ذكر الدكتور حارث سليمان الضّارى أمثله على ذلك [4].

ب- **الزهرى والفقه:** يعد الإمام الزهرى من أعلام فقهاء التابعين، وممن أفتوا بعد أصحاب رسول الله ﷺ[5] روى عن الأوزاعى أنه قال: ما أدركت خلافة هشام أحدًا من التابعين أفقه منه[6]، وكان يستمد فقهه من كتاب الله وسنة رسوله ومما عن الصحابة من أقوالهم وأفعالهم، كما كان يجتهد فى الأمور التى لا نص فيها من كتاب أو سنة، ولم يؤثر فيها شىء عن الصحابة[7] رضى الله عنهم.

جـ- **الزهرى والتاريخ:** يعد الإمام الزهرى -بحق- من أبرز المؤرخين المسلمين الذين أرخوا لفترتى ما قبل البعثة النبوية وما بعدها، خاصة ما يتعلق بحياة النبى ﷺ: سيرته ومغازيه التى توسع فيها، وعنى بها عناية كبيرة، جعلت الكثير من الباحثين يقرون له بالفضل والتقدم فى هذا الشأن، حيث كان قد وضع هيكل المغازى، واتبع التسلسل الزمنى فى دراستها وتثبيت أحداثها على أسس منهجية لم يسبق إليها[8].

د- **الزهرى والأنساب:** كان الإمام الزهرى واحدًا ممن اهتموا بالأنساب واشتهروا بمعرفتها، حيث اتجه إلى دراستها فى صباه، وتتلمذ فيها على عبد الله بن ثعلبة بن صعير،

(١) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ٨٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٩٠، الطبقات لابن سعد، تهذيب التهذيب (٩/ ٤٤٩).
(٣) تذكرة الحفاظ (١/ ١١٩).
(٤) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ١٦٥.
(٥) تسمية فقهاء الأمصار، للنسائى صـ ٧.
(٦) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ١٧٢.
(٧) المصدر نفسه ص ١٧٣.
(٨) المصدر نفسه ص ١٧٦.

فقد جاء عنه فى حكاية انتقاله منه إلى سعيد بن المسيب أنه قال: نشأت وأنا غلام لا مال لى، ولا أنا فى ديوان، وكنت أتعلم نسب قومى من عبد الله بن ثعلبة بن صعير، وكان عالمًا بذلك(1). ولم يقتصر فى تعلم الأنساب على عبد الله بن ثعلبة، بل أخذها عن غيره أيضًا؛ كسعيد بن المسيب وغيره، حتى أصبح من أعلم الناس بها(2).

هـ- الزهرى والأدب: كان للزهرى ميول أدبية، وقد نقل إلينا من أخباره الأدبية، وكان يقول الشعر ويتمثل به، ومن الشعر الذى كان يتمثل به:

ذهب الشباب فلا يعود جمانا ... وكأن ما قد كان لم يك كانا

فطويت كفى يا جمان على العصا ... وكفى جمان بطيها حدثان(3)

وكان يدخل الشعر فى رواياته التاريخية؛ فى السير والمغازى والأنساب(4). وكان يشيد بالأدب ويحث عليه كثيرًا(5). قال عنه الرافعى: ويعتقد أنه كان من أوائل من كتبوا عن العرب الأشعار والأخبار وغيرها من الظواهر الأدبية التى كانت متوافرة لديهم حينذاك، بل يظن البعض أنه أول من كتب ذلك عن العرب(6).

و- الزهرى واللغة: كان الإمام الزهرى -بالإضافة إلى معرفته بما تقدم من علوم- عالمًا باللغة حاذقًا لها، عارفًا بمدلولات ألفاظها ومعانيها، كما كان فصيحًا يضرب به المثل بفصاحته(7)، روى عن أحمد بن صالح أنه قال: كان يقال: فصحاء زمانهم ثلاثة: الزهرى، وعمر بن عبد العزيز، وموسى بن طلحة بن عبيد الله(8).

٢- ذكاؤه وحفظه وأقواله:

أ- ذكاؤه: كان حاد الذكاء، قوى الذاكرة، واسع الفطنة والإدراك، روى عنه أنه قال: ما استعدت حديثًا قط، ولا شككت فى حديث إلا حديثًا واحدًا، فسألت صاحبى، فإذا هو كما حفظت(9).

ب- حفظه: كان الزهرى مثلاً فى الحفظ وقدوة فى الإتقان والضبط، وكان يمتاز بالسرعة الفائقة فى الأخذ والفورية النادرة فى الاستيعاب والحفظ، وقد لاحظ عبد الملك بن

(١)، (٢) الإمام الزهرى وأثره فى السنة صـ ١٨٣ . (٣) البداية والنهاية، نقلاً عن الإمام الزهرى صـ ١٨٤ .

(٤) الإمام الزهرى وأثره فى السنة صـ ١٨٦ .

(٥) تاريخ آداب العرب (١/ ٢٨٦) ، الإمام الزهرى وأثره فى السنة صـ ١٨٦ .

(٦) الإمام الزهرى وأثره فى السنة صـ ١٨٦ . (٧) المصدر نفسه صـ ١٨٧ .

(٨) البداية والنهاية، نقلا عن الإمام الزهرى وأثره فى السنة صـ ١٨٧ .

(٩) سير أعلام النبلاء (٥/ ٩٤) .

مروان ذلك حينما التقى به أول مرة وقال له: اطلب العلم فإنى أرى لك عينًا حافظة، وقلبًا ذكيًا[1]. وقد روى عن مالك بن أنس أنه قال: حدثنى ابن شهاب بحديث فيه طول - وأنا آخذ بلجام دابتـه - فقلت له: أعد عليّ، فقـال: لا، قلت له: أرأيت أما كنت تحب أن يعاد عليك؟ قال: لا، فـقلت له: كنت تكتب؟ قال: لا[2]. وعن الليث بن سعد: إن ابن شهاب كان يقول: ما استودعت قلبى شيئًا فنسيته[3].

جـ- من أقواله:

- عن معمـر قال: سمعت الزهرى يقول: من طلب العلم جـملة فاته جملة، وإنما يدرك العلم حديثًا وحديثين[4].
- قال الزهرى: إن هذا العلم إن أخذته بالمكابرة لـه غلبك، ولكن خذه مع الأيام والليالى أخذا رفيقًا تظفر به[5].
- وقال: العلم واد، فإذا هبطت واديًا فعليك بالتؤدة حتى تخرج منه[6].
- وقال: ما عُبد الله بشىء أفضل من العلم[7].
- وقال: لا يوثق للناس عمل عامل لا يعمل، ولا يرضى بقول عالم لا يعمل[8].
- وقال: آفة العلم النسيان وترك المذاكرة[9].
- وقال: إذا طال المجلس كان للشيطان فيه حظ ونصيب[10].
- وقال: ثلاث إذا كن فى القاضى فليس بقاض: إذا كـره اللوايم، وأحب المحامد، وكره العزل[11].

٣- سخاؤه:

كان الإمـام الزهرى، كريمًا لا يجـارى، وجوادًا لا يبارى، فكان يـعطى من لا يخشى الفقر، ويكرم كرم من لا يهاب القلة، يجود فى اليـسر والعسر، ويبذل فى القليل والكثير،

(١) البداية والنهاية، نقلاً عن الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ١٩٥.
(٢) المعرفة والتاريخ، نقلاً عن الإمام الزهرى ص ١٩٤.
(٣) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ١٩٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٤٠).
(٥)، (٦)، (٧) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ١٩٨.
(٨) المصدر نفسه ص ١٩٩.
(٩) السنن للدارمى (١/ ١٥٠)، الإمام الزهرى ص ١٩٩.
(١٠)، (١١) الإمام الزهرى ص ٢٠٠.

وكان يبالغ فى كرمه، ويتفنن فى سخائه، غير عابىء بمال، ولا خائف من نفاد، إذ لم يكن للمال عنده قيمة، كان كالعدو لماله، فلم تك تعدل الدراهم والدنانير عنده جناح بعوضة، أو تكاد[1]. وعن عمرو بن دينار أنه قال: ما رأيت أحدًا الدينار والدرهم أهون عليه من ابن شهاب، وما كانت الدنانير والدراهم عنده إلا بمنزلة البعر[2]. قال أبو نعيم: كان ذا عز وسناء، وفخر وسخاء[3].

٤- ثناء العلماء عليه:

- قال له سعيد بن المسيب: ما مات من ترك مثلك[4].
- قال عمر بن عبد العزيز لجلسائه: هل تأتون ابن شهاب؟ قالوا: إنا لنفعل، قال: فأتوه فإنه لم يبق أحد أعلم بسنة ماضية منه، قال معمر: وإن الحسن ونظراءه لأحياء يومئذ[5].
- روى عن جعفر بن ربيعة أنه قال: قلت لعراك بن مالك: من أفقه أهل المدينة؟ قال: أما أعلمهم بقضايا رسول الله، وقضايا أبى بكر وعمر وعثمان، وأفقههم فقهًا بما مضى عن أحوال الناس؛ فسعيد بن المسيب، وأما أغزرهم حديثًا، فعروة، ولا تشأ أن تفجر من عبيد الله بن عبد الله بحرًا إلا فجرته، وأعلمهم عندى جميعًا: ابن شهاب، فإنه جمع علمهم جميعًا إلى علمه[6].
- قال مالك بن أنس: بقى ابن شهاب وما له فى الناس نظير[7].
- قال الأوزاعى: ما أدهن ابن شهاب لملك قط دخل عليه، ولا أدرك أحد خلافة هشام من التابعين أفقه منه[8].
- قال الشافعى: لولا الزهرى لذهبت السنن من المدينة[9].
- وقال أحمد: الزهرى أحسن الناس حديثًا وأجود الناس إسنادًا[10].
- وقال على المدينى: أعلم الناس بقول الفقهاء السبعة الزهرى[11].

---

(١)، (٢)، (٣) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ٢١٧. (٤) المصدر نفسه ص ٢٢٩.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٣٠. (٦) المصدر نفسه ص ٢٣٤.
(٧) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم، نقلاً عن الأوزاعى وأثره فى السنة ص ٢٣٤.
(٨) المعرفة والتاريخ (١/٦٣٩)، الأوزاعى وأثره فى السنة ص ٢٣٥.
(٩) تهذيب الأسماء واللغات (١/٩١). (١٠) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ٢٣٦.
(١١) تذكرة الحفاظ (١/٣٣١).

٥- الزهري ونشره للسنة:

كان الإمام الزهري قد قام بجهود مشكورة في نشر السنة، وإذاعتها بين الناس، وإليك أهم أعماله التي قام بها لنشرها:

- تدريسها لكل من يطلبها.
- مذاكرته لها مع أقرانه.
- نشره لها بطريق الكتابة.
- إملاؤه وإيّاها على تلاميذه.
- وعظه وتفقيهه للأعراب: فقد كان ينزل بالأعراب يعلمهم[١].
- نهيه عن حبس كتب العلم؛ فعن يونس بن يزيد قال: سمعت الزهري يقول: إياك وغلول الكتب، فقلت: ما هو؟ قال: حبسها[٢].
- حثه على حفظ السنة وتعلمها: روى عن مالك بن أنس أنه قال: حدث الزهري بمائة حديث، ثم التفت إليّ، فقال: كم حفظت يا مالك؟ قلت: أربعين، فوضع يده على جبهته ثم قال: إنا لله! كيف نقص الحفظ؟![٣].
- حثه على التمسك بالسنة والتأدب بآدابها: قال الزهري: الاعتصام بالسنة نجاة[٤]، وعن الأوزاعي عن الزهري قال: كان من مضى من علمائنا يقول: الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض قبضًا سريعًا، فبعز العلم ثبات الدين والدنيا، وفي ذهاب العلم ذهاب ذلك كله[٥].
- ما أنفقه في نشرها من أموال: بالإضافة إلى ما أنفق الإمام الزهري من وقت وجهد في نشر السنة، فإنه قد أنفق كثيرًا مما كان متيسرًا لديه من مال، بل لا أغالي إذا قلت: إن ما كان ينفقه على نشرها أكثر بكثير مما كان ينفقه على نفسه وأهله وشئونه الخاصة، فقد كان يطعم طلاب العلم بكل معاني البذل والسخاء، فكان يقدم لهم أفضل ما لديه من طعام، وكان يتعهد بالإنفاق على من ليس عنده ما ينفقه على نفسه من طلابه، وكان لا يعلم طالبًا إلا إذا أكل عنده شيئًا، كما كان يخرج للأعراب في البوادي فيعلمهم ويطعمهم ويقدم لهم ما يملكه من لذيذ الطعام وشهيه هذا بالإضافة إلى ما كان ينفقه

(١) الإمام الزهري وأثره في السنة ص ٣٨٨.	(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٩٤)، الإمام الزهري ٣٨٨.
(٣)، (٤)، (٥) الإمام الزهري وأثره في السنة ص ٣٨٩.

على رحلاته لطلب العلم وجمعه[١]، وعن موسى بن عبد العزيز قال: كان ابن شهاب إذا أبى أحد من أصحاب الحديث أن يأكل طعامه حلف ألا يحدثه عشرة أيام[٢].

- ما روى عنه في نشره للسنة: روى عن الليث بن سعد أنه قال: سمعته -أي ابن شهاب- يبكي على العلم بلسانه ويقول: يذهب العلم وكثير ممن كان يعمل به. فقلت له: ووضعت من علمك عند من ترجو أن يكون خلفًا في الناس بعدك؟ قال: والله ما نشر أحد العلم نشري، ولا صبر عليه صبري[٣].

- ما يراه في كيفية طلبها: يرى الإمام الزهري لكي تكون مهمة تعلم السنة وتعليمها يسيرة ناجحة ما يلي:

أ- التدرج في أخذها شيئًا فشيئًا، وحديثًا بعد حديث، وألا يهجم عليها الطالب مرة واحدة، لئلا تزدحم عليه المعلومات فتثقله وتؤدي به إلى الملل، فيفوته بذلك شيء كثير.

ب- أن يسعى الطلاب إلى العلماء ولا يسعى العلماء إلى بيوت الطلاب والمتعلمين، لما يترتب على سعي العلماء إليهم من هوان العلم وذلته. روى عن مالك أنه قال: سمعت الزهري يقول: هوانٌ بالعلم وذلة أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم[٤].

جـ- كراهته لطول المجلس، فقد كان يحذر من طول مجلس العلم وغيره، لما قد يؤدي إليه طوله من السأم والملل، أو الخوض فيما لا فائدة فيه. فقد قال: إذا طال المجلس كان للشيطان فيه حظ ونصيب[٥].

د- توجيهه إلى ما قد يساعد استعماله أو تركه على الحفظ والتذكر من المطعومات: فقد قال الزهري: من سره أن يحفظ الحديث فليأكل الزبيب[٦]. وكان يشرب العسل ويقول: إنه يذكر[٧]. وعنه قال: ما أكلت تفاحًا، ولا أكلت خلاً منذ عالجت الحفظ[٨].

٦- الزهري والأمويون:

يعد الزهري من العلماء الذين خالطوا خلفاء بني أمية وصاحبوهم، وكانت له عندهم منزلة رفيعة، يقول عنه الذهبي: كان -رحمه الله - محتشمًا جليلاً بزي الأجناد له صورة

(١)، (٢)، (٣) الإمام الزهري وأثره في السنة ص ٣٩٠.

(٤) الجامع لأخلاق الراوي (٥/٨٦)، الإمام الزهري ص ٣٩٢.

(٥) علوم الحديث لابن الصلاح ص ٢٥٢، الإمام الزهري ص ٣٩٢.

(٦)، (٧)، (٨) الإمام الزهري وأثره في السنة ص ٣٩٢.

كبيرة في دولة بنى أمية. ويذكر أنه كان برتبة أمير[1]. وقد تحدثت عن بداية اتصال الزهرى بعبد الملك بن مروان وأثر قبيصة بن ذؤيب فى تقريبه عند عبد الملك[2]، وحيث إن المدة التى قضاها الزهرى عند عبد الملك لم تكن طويلة، لذا لم ترد له مشاركات ومواقف ذات أثر فى سياسة عبد الملك إلا الشيء اليسير، ومن ذلك طمأنته لعبد الملك فى أمر على بن الحسين، فقد كان عبد الملك قد أمر بعض رجاله بالقدوم إليه بعلى بن الحسين من المدينة، ولكنه أفلت منهم وقدم على عبد الملك، فلما قدم الزهرى الشام بعد ذلك قال له عبد الملك: إنه - أى على - قد جاءنى فى يوم فقدوه الأعوان، فدخل علىّ فقال: ما أنا وأنت؟ فقلت: أقم عندى، فقال: لا أحب، ثم خرج، فوالله لقد امتلأ ثوبى منه خيفة. قال الزهرى: فقلت: يا أمير المؤمنين ليس على بن الحسين حيث تظن، إنه مشغول بنفسه، فقال عبد الملك: حبذا شغل مثله، فنعم ما شغل به. ولا شك أن لمثل هذه النظرة من الزهرى تجاه على بن الحسين وإبدائها لعبد الملك أثر فى طمأنة عبد الملك وصرف نظره عن الاشتغال بأمره وما قد يترتب على ذلك من اتخاذ بعض القرارات التى تقضى بتتبع على بن الحسين والتضييق عليه[3]. وقد كان الزهرى يستغل الأوقات والفرص المناسبة لتقديم النصح لعبد الملك، فحين سأله عبد الملك عمن يسود الأقاليم ذكر أكثر الأقاليم ومن يسودها من الموالى بعلمهم وديانتهم، قال عبد الملك: والله ليسودن الموالى على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها، فقال الزهرى حينئذ: يا أمير المؤمنين، إنما هو أمر الله ودينه، من حفظه ساد ومن ضيعه سقط[4]. وفى هذا لفت انتباه عبد الملك إلى أهمية التمسك بالدين حيث فيه الرفعة والسيادة، وفى تضييعه الذل والهوان[5]. وبالرغم من أنه ورد ما يُشير إلى قدوم الزهرى على الوليد بن عبد الملك[6]، ومصاحبته لسليمان بن عبد الملك[7]، إلا أن مكانته عند هشام كانت أعظم، وأثره فى عهده أظهر وأكبر، يرجع ذلك إلى طول المدة التى قضاها الزهرى عند هشام، وتقريب هشام له حيث جعله مؤدبًا لأولاده، فعندما حج هشام فى بداية خلافته سنة ست ومائة للهجرة حج معه الزهرى وجعله مؤدبًا لأولاده، ويقى الزهرى فى بلاط هشام حتى توفى -أى قرابة عشرين سنة-[8]، ومن

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٣٧ - ٣٤١).
(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ٢٠٣.
(٣) المصدر نفسه صـ ٢٠٤.
(٤) تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ٢٠٤.
(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ٢٠٤.
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/ ٩).
(٧) صفة الصفوة (٢/ ٩٠).
(٨) البداية والنهاية نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ٢٠٥.

المؤكد أن يكون للمدة التى قضاها الزهرى فى بلاط هشام أثر علـى استقامة هشام وأسرته، فأمـا هشام فـقد اتصف بعدد من الصـفات الحـميدة كـالحلم والأناة وكراهة سـفك الدماء ومعاقبة أصحاب الخمور وأهل الغناء[1].

أ- أثر تربية الزهرى لأولاد هشام: وأما أولاد هشام فكان أثر تربية الزهرى عليـهم كبيرًا، حيث تولى تربيـتهم وتعليمـهم مُنذ الصغر على الأخـلاق الحسنة ومعالى الأمـور. ويقول مـحمـد شـراب: كان للزهرى تأثيـر فى تربيـة أولاد هشـام، فكانوا نعم الشـباب خلقًـا وسلوكًا... وكانوا قادة فتوح وجنود دعوة فتح الله على أيديهم بقاعًا كثيرة، ودخلت بلاد بغزواتهـم فى دين الإسلام[2]، وحين نتـتبع الغـزوات فى عهـد هشام فسنجـد أن لأبنائه النصيب الأوفر فى قـيادتها، فلا تكاد تمر سنة إلا وأحدهـم أو عدد منهم على رأس غازية تغزو. وقد كان لمعاوية بن هشام القدر الأكبر فى ذلك[3]، وبالإضافة إلى قيادتهم للغزوات كان هشام يسند إمرة الحج فى بعض السنوات إلى أحدهم، ففى سنة تسع عشرة ومائة حج بالناس مـسلمة بن هشام، ويـزيد بن هشام فى سنة ثلاث وعـشرين ومائـة، وكان الزهرى يرافقهم فى الحج ويرشدهم ويوجههم إلى ما فيه الخير لأنفسهم وأمتهم، فلما قدم مسلمة المدينة فى حجة أشار عليه الزهرى أن يصنع إلى أهل المدينة خيرًا، وحضه على ذلك، فأقام فى المدينة نصف شهر، وقسم الخمس على أهل الديوان وفعل أمورًا حسنة[4].

ب- موقف الزهرى من خلع الوليـد بن يزيد بن عبد الملك: من أهم أمور الزهرى السيـاسية فى عهد هشام بن عبد الملك، موقفه من خلع الوليد بن يزيد بن عبد الملك من ولاية العهد، فقد كان يزيد بن عبد الملك قد عهد بالخلافة لهشام ومن بعده لولده الوليد وأخذ العهد بذلك على هشام، فلما آلت الخلافة إلى هشام كان الزهرى يرى خلع الوليد بن يزيد ويحث هشامًا على ذلك، وعندما أبدى هشام تخوفه من عـدم قبول من فى الأجناد لذلك قال الزهرى له: فوجهـنى حتى أسير فى الأجناد جندًا جندًا فـأخلعه[5]. ولعل مما يؤيد صحة خـبر موقف الزهرى من خلع الوليد أن الأخـبار لم تقف عند حد ذكر الموقف فحـسب، بل وردت أخبار توضح ما ترتب على هذا الموقف من رد فعل عند الوليد تجـاه الزهرى، فأورد ابن عساكر أن الوليد كان يقـول للزهرى: إن أمكننى الله منك يومًا فستـعلم. وكان الزهرى يقول: إن الله

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية ص ٢٠٥.
(٢) عالم الحجاز والشام، لمحمد شرّاب ص ٣٢٢. (٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية ص ٢٠٦.
(٤) عالم الحجاز والشام، شرّاب ص ٣١٩، أثر العلماء ص ٢٠٧.
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٤١، ٣٤٢).

أعدل من أن يسلط عليّ سفيهًا[1]، بل لم ينتظر الوليد حتى يلي الخلافة، فقد أرسل إلى مال الزهرى ببدا وشغب[2] فعقر أشجاره. وصدق الله ظن الزهرى حيث توفى -رحمه الله- قبل أن يلى الوليد الخلافة[3]، وإذا قلنا بإمكان اتخاذ الزهرى لذلك الموقف من الوليد فيمكننا أن نتلمس السبب الدافع الذى جعله يقف هذا الموقف، وهو أن الزهرى لما رأى ميل الوليد للهو والمجون ووقوعه فى الفسق وعدم تركه لذلك رغم نهيه عنه خشى إن آل إليه أمر الخلافة أن يكون ذلك ضعفًا للأمة وانفتاح باب الفساد فى الدين والأخلاق حيث الناس على دين ملوكهم[4]. وعلى الرغم من أن كثيرًا مما نسب إلى الوليد بن يزيد مبالغ فيه وبعضه مكذوب إلا أن فسقه وميله للهو والمجون أمر مشهور عنه وثابت فى أغلب المصادر التى تحدثت عنه، وهذا ما جعل الزهرى وغيره يتخوفون من مغبة توليه الخلافة، فروى أن مكحولاً - رحمه الله - كان يقول: اللهم لا تبقنى بعد هشام[5]، ولعله قال ذلك بسبب توقعه الفتنة بتولى الوليد، وأما الزهرى فرأى أن تسليم الوليد قيادة الأمة أمر فيه خطر وضرر لابد من دفعه، وهذا منوط بالخليفة الذى تحمل أمانة ولاية أمر الأمة ووجب عليه النصح لها، ومن أعظم النصح أن يستخلف عليها من تبرأ الذمة بتوليته، لذا عندما تخوف هشام من خلع الوليد -لأن ذلك نقض للعهد- أخذه أخوه يزيد عليه، بتولية ابنه من بعده، قال له الزهرى: اخلع الوليد، فإن من الوفاء بعهد الله خلعك إياه[6]. ومما يخفف من خطورة خلع الوليد من ولاية العهد وجود الخليفة على رأس الأمر فيستطيع -وفى يده القوة- القضاء على ما قد يترتب على ذلك من مخاطر، أما إذا ترك الأمر حتى يتسلم الوليد الخلافة وتنتقل إليه القوة فإن من الصعب عزله، بل سيترتب على ذلك من الأضرار أضعاف ما يترتب على خلعه من ولاية العهد، وهذا ما حدث بالفعل، وهو ما دعا الحافظ ابن كثير حين تحدث عن حياة الوليد أن يقول: فعزم عمه على خلعه من الخلافة -وليته فعل - وقال بلفظ آخر: وليت ذلك تم[7]. ومما سبق يتضح أن حث الزهرى هشامًا على خلع الوليد بن يزيد كان حرصًا منه على مصلحة الأمة، وأداءً لنصيحة إمامه الذى وثق به وقربه،

(1) تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية ص ٢١٠.

(2) بدا : واد قرب أيلة من ساحل البحر وقيل: بوادي القرى. وشغب: ضيعة خلف وادى القرى كانت للزهرى وبها قبره.

(3) البداية والنهاية، نقلاً عن أثر العلماء ص ٢١١. (4) أثر العلماء فى الحياة السياسية ص ٢١١.

(5)، (6) تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية ص ٢١٢.

(7) البداية والنهاية، نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية ص ٢١٢.

ولم يبال بما قد يترتب على موقفه هذا من أذى متوقع من الوليد، إذ الخوف من الله مقدم على الخوف من غيره، ومصلحة الأمة مقدمة على مصلحة النفس[(1)].

جـ- انتقاد بعض الناس لقرب الزهرى من بنى أمية: تعرض الزهرى لانتقاد بسبب قربه من بنى أمية، فممن انتقده العالم الجليل مكحول الدمشقى، فقد قال عنه: أى رجل هو لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك[(2)]، ومنهم عمرو بن عبيد، فعن عمر بن رديح قال: كنت مع ابن شهاب الزهرى نمشى، فرآنى عمرو بن عبيد فلقينى بعد فقال: مالك ولمنديل الأمراء؟ يعنى ابن شهاب[(3)]، ويعد الإمام أبو حازم سليمان بن دينار من أشد من انتقد الزهرى حيث كتب إليه رسالة مطولة، ومما جاء فيها: .. وأعلم أن أدنى ما ارتكبت وأعظم ما احتقبت[(4)]، أن آنست الظالم وسهلت له طريق الغى بدنوك حين أدنيت، وإجابتك حين دعيت، فما أخلقك أن ينوه باسمك إذًا مع الجرمة، وأن تسأل عما أردت بإغضائك عن ظلم الظلمة، إنك أخذت ما ليس لمن أعطاك، ودنوت ممن لم يرد على أحد حقًا، ولا يرد باطلاً حين أدناك، وأجبت من أراد التدليس بدعائه إياك حين دعاك، جعلوك قطبًا تدور رحى باطلهم عليك، وجسرًا يعبرون بك إلى بلائهم، وسلمًا إلى ضلالتهم، وداعيًا إلى غيهم، سالكًا سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فلم يبلغ أخص وزرائهم، ولا أقوى أعوانهم لهم، إلا ما دون ما بلغت من إصلاح فسادهم، واختلاف الخاصة والعامة إليهم، فما أيسر ما عمروا لك، فى جنب ما خربوا عليك! وما أقل ما أعطوك فى قدر ما أخذوا منك! فانظر لنفسك فإنه لا ينظر لها غيرك[(5)]. ويجدر أن نقف وقفه قصيرة مع هذه الانتقادات الموجهة للزهرى، فأما عمرو بن عبيد فلا يقبل قدحه؛ لأنه صاحب بدعة اتهمه أهل الجرح والتعديل بالكذب وضعفوه لبدعته حيث يعد من أصحاب الاعتزال[(6)]، وحيث إن المعتزلة لا يرون شرعية خلافة بنى أمية، فتبعًا لذلك لن يرضوا عمن يصاحبهم[(7)]. وأما مكحول وأبو حازم فالأمر بينهما وبين الزهرى لا يعدو كونه خلافًا محصورًا فى أمر قابل للاجتهاد ولم يتعد الخلاف جوانب أخرى، فقد كان مكحول -رغم خلافه هذا مع الزهرى- يجل الزهر ويقدره،

(1) أثر العلماء فى الحياة السياسية ص ٢١٣.

(2) سير أعلام النبلاء (٥/٣٣٩)، أثر العلماء ص ٢١٣.

(3) تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء ص ٢١٣.

(4) أثر العلماء فى الحياة السياسية ص ٢١٤.

(5) صفة الصفوة (٢/٩١)، أثر العلماء فى الحياة السياسية ص ٢١٤.

(6) تهذيب التهذيب (٨/ ٧٠).

(7) أثر العلماء فى الحياة السياسية ص ٢١٥.

فقال أبو بكر بن أبى مريم: قلت لمكحول: من أعلم الناس؟ قال: ابن شهاب، قلت: ثم من؟ قال: ابن شهاب، قلت، ثم من؟ قال ابن شهاب[(1)]. وهذا شأن أهل الفقه فى التعامل مع مخالفيهم. وأما ما كان يخشاه أبو حازم وغيره على العلماء من مخالطتهم للخلفاء والأمراء من المجاراة والمداهنة التى تضر العالم فى دينه والسلطان فى دنياه وأخراه، فإنه كان للزهرى من قوة الشخصية، والشعور بالمسئولية وتقديره لفقه المصالح والمفاسد ما جعله بعيدًا عن الوقوع فى هذا المحذور، فقد كان للزهرى، مواقف تدل على ذلك، منها ما رواه البخارى أن الزهرى قال: قال لى الوليد بن عبد الملك: أبلغك أن عليًا كان فيمن قذف عائشة؟ قلت: لا، ولكن قد أخبرنى رجلان من قومك - أبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث - أن عائشة - رضى الله عنها - قالت لهما: كان على مسلمًا فى شأنها. وفى تعليق ابن حجر على الحديث نقل رواية عن ابن مردويه عن الزهرى قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك ليلة من الليالى وهو يقرأ سورة النور مستلقيًا، فلما بلغ هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾[النور: ١١] حتى بلغ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ جلس ثم قال: يا أبا بكر، من تولى كبره منهم؟ أليس على بن أبى طالب؟ قال: فقلت فى نفسى: ماذا أقول؟ لئن قلت: لا، خشيت أن ألقى منه شرًا، ولئن قلت: نعم، لقد جئت بأمر عظيم، قلت فى نفسى: لقد عودنى الله على الصدق خيرًا، قلت: لا، فضرب بقضيبه على السرير ثم قال: فمن؟ فمن؟ حتى ردد ذلك مرارًا، قلت: لكن عبد الله بن أبى[(2)]. وعلق ابن حجر قائلاً: وكأن بعض من لا خير فيه من الناصبة تقرب إلى بنى أمية بهذه الكذبة فحرفوا قول عائشة إلى غير وجهه، لعلمهم بانحرافهم عن على، فظنوا صحتها، حتى بين الزهرى للوليد أن الحق خلاف ذلك، فجزاه الله خيرًا[(3)]، كما رويت قصة مشابهة فى عهد هشام، تذكر أن سليمان بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك فقال: يا سليمان، من الذى تولى كبره منهم؟ قال: عبد الله بن أبى بن سلول، قال: كذبت، هو على، قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول، فدخل الزهرى، فقال: يا ابن شهاب من الذى تولى كبره؟ فقال: هو عبد الله بن أبى، قال هشام: كذبت، هو على، فقال: أنا أكذب؟! لا أبا لك، فوالله لو نادى مناد من السماء: إن الله أحل

(١) تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية ص ٢١٥، وأما الخبر الذى قال فيه مكحول: أى رجل هو لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك، فهذا الخبر ضعيف لا يعتمد عليه، فى إسناده مجهولون. انظر السنة قبل التدوين ص ٥١٠.

(٢) البخارى، كتاب المغازى (٥/ ٦٠).

(٣) فتح البارى (٧/ ٤٣٦، ٤٣٧).

الكذب، ما كذبت، حدثني سعيد وعروة وعبيد الله، وعلقمة بن وقاص، عن عائشة؛ أن الذى تولى كبره عبد الله بن أبى، فقال له هشام: ارحل، فوالله ما كان ينبغى لنا أن نحمل عن مثلك، فقال: ولم؟ أنا اغتصبتك على نفسى أو أنت اغتصبتنى على نفسى؟ فخل عنى، فقال هشام: لا، ولكنك استدنت ألفى ألف، فقال الزهرى: قد علمت وأبوك قبلك، أنى ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبيك، فقال هشام: نحن هيجنا الشيخ، فأمر هشام فقضى عنه ألف ألف، فأخبر بذلك، فقال: الحمد لله الذى هذا هو من عنده[1]. والمجال فى ذكر مواقف الزهرى التى توضح قوته فى الحق وعدم مداهنته يطول، وما أحسن ما قاله الذهبى حين قال: بعض من لا يعتد به لم يأخذ عن الزهرى، لكونه كان مداخلاً للخلفاء، ولئن فعل ذلك فهو الثبت الحجة، وأين مثل الزهرى[2] رحمه الله.

٧- مطاعن الشيعة والمستشرقين فى الإمام الزهرى:

إن نفراً ممن لم يستطيعوا التخلص من الهوى والتجرد من التعصب المذهبى، حملوا - علاقة الزهرى بالأمويين على محامل سيئة، وأولوها تأويلات باطلة، وكان فى مقدمة هؤلاء: اليعقوبىْ وابن أبى الحديد والممقانى وغيرهم ممن يرى رأيهم ويذهب مذهبهم، وقد تلقف تلك الأباطيل والأكاذيب والمفتريات بعض المستشرقين أمثال المستشرق اليهودى جولدتسيهر المعروف بحقده المرير وتحامله الشديد على الإسلام وأهله، وأضاف إليها من الشبهات ما ظن أن ينال بها من شخصية الإمام الزهرى التى نالت الاحترام والتبجيل لدى جمهور المسلمين لما لها من مآثر خالدة، ومواقف محمودة فى خدمة الإسلام والسنة النبوية الشريفة[3] وإليك أهم شبهاته مع مناقشتها وتفنيدها بالحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، والأدلة الراسخة:

أ- ما أثير حول صلته بالأمويين وذهابه للقصور:

كان من الشبه التى أثارها جولدتسيهر حول الإمام الزهرى قوله: إنه لم يتجنب الذهاب إلى القصر ويتحرك فى حاشية[4] السلطان، ويعنى جولدتسيهر بالقصر دار الخلافة، وهى -كما هو معلوم- بيت المسلمين العام، ومقر قيادتهم العليا المسئولة عن إدارة شئونهم الدينية والدنيوية وفق التعاليم الإسلامية المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ومن هنا كان لكل مسلم الحق -كل الحق- فى الذهاب إلى تلك الدار ودخولها متى شاء لرفع حاجة

---

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٥/٣٣٩).

(٣) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ٤٤٢.

(٤) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٢٢٢.

أو دفع ظلم، أو إسداء نصح، أو تبليغ علم، أو توضيح مسألة قد تكون خافية على أولى الأمر، ليصححوا بها ما قد يقع منهم من خطأ، أو يظهروا بها ما يترتب عليها من مصلحة للأمة، وكان السلف من الصحابة والتابعين لا يترددون فى الذهاب إلى دار الخلافة لأمر من تلك الأمور، وقد يرون ذلك واجبًا -أحيانًا- إذا كان سببًا لتصحيح خطأ أو رفع ظلم أو تحقيق حق وإزالة باطل، ولم يكن الإمام الزهرى إلا واحدًا ممن قاموا بواجبهم فى هذا الميدان حينما قدر الله تعالى له أن يتصل ببنى أمية، وقد رأينا ذلك عند اتصاله بعبد الملك وتصحيحه لخطأ وقع فيه الوليد، كما رأيناه يقدم النصح إلى هشام بن عبد الملك، فى مسألة من أهم المسائل العامة؛ وهى إشارته عليه بعزل ولى عهده الوليد بن يزيد لما عرف عنه من اللهو والمجون، وهكذا كانت صلته بالأمويين من بدايتها إلى نهايتها، لكن جولدتسيهر أبى إلا أن يعرِّض بها ويثير حولها الشبهات من غير أن يقدم لنا دليلاً واحدًا يمكن أن يستند إليه فى شبهته، بل كل الشواهد والأدلة التى مرت معنا فى سيرته تؤكد أن صلته بهم كانت صلة شريفة الغاية نزيهة المقصد لم يترتب عليها ما يخل بأمانته وعدالته وتوثيقه، وأنها كانت حركة مباركة ضمن حركة أفاضل عصره من أهل النصح والتبليغ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(1).

ب- قبوله منصب القضاء:

ومن شبه جولدتسيهر التى أثارها حول الإمام الزهرى هى قوله: وفى عهد يزيد الثانى قبل منصب القضاء، إلى أن قال: وإنهم كانوا يعدون مَن قبل منصب القضاء غير ثقة(2)، ويرد عليه بأن القضاء منصب رفيع وأن المسلمين أجمعوا على مشروعية نصب القضاء والحكم بين الناس، بل قد عدوه من فروض الكفايات؛ لأن الناس لا يستقيم أمرهم بدونه(3)، وكان أول من تولاه فى الإسلام هو النبى ﷺ بتكليف الله تعالى له بذلك فى أكثر من آية، قال تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥]. كما تولى القضاء من بعده الخلفاء الراشدون بأنفسهم، وولاه عمر بن الخطاب غيره؛ فولى أبا الدرداء قضاء المدينة، وولى شريحًا قضاء البصرة، وأبا موسى الأشعرى قضاء الكوفة، كما تولاه بعد الصحابة كثير من أعلام التابعين وأعيانهم، كأبى إدريس الخولانى، والحسن البصرى، وعبد الملك بن يعلى

(١) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤٦.
(٣) المغنى لابن قدامة (٩/ ٣٤).

الليثى، ومسروق، وعمر بن عبد العزيز، وأبى بكر بن حزم، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وسليمان بن حبيب المحاربى، والقاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، وغيرهم ممن اتفق الأئمة على تعديلهم وتوثيقهم مع توليهم القضاء وقيامهم به، وبهذا يتضح لنا أن القضاء لا يزيل الثقة عن صاحبه ولا يسقط العدالة عمن عرف به، بل روى الثناء عليه واعتبار القيام به من موجبات الأجر[(١)]. ولو أن جولدتسيهر: أنفق لمعرفة القضاء وأهميته فى الإسلام شيئًا من الوقت والجهد اللذين أنفقهما فى صياغة هذه الشبهة وغيرها من الشبه الباطلة التى استهدف بها الإسلام والسنة النبوية ورجالها، لعلم أن القضاء منصب مشروع وعال فى الإسلام، وأنه مما يوجب الأجر ويضاعف الثواب ويقوى الثقة بمن كان يتصف بها من القضاة، وأنه كان لمن تولاه -فى ذلك الوقت الذى كان يموج بالعلماء الأعلام- سمة تشريف ووسام تقدير وتكريم، ولأدرك أن كراهة من كرهه من السلف من التابعين ومن بعدهم كأبى قلابة، وأبى حنيفة، وسفيان الثورى وغيرهم، تعود إلى خوفهم مما جاء فيه من تحذير وتخويف عن رسول الله ﷺ، وهو تحذير موجه إلى من لم يكن أهلاً لتوليه، أو لم يؤد الحق فيه، لا إلى توليه مطلقًا؛ إذ هو مشروع كما رأينا، بل قد يجب القيام به أحيانًا على من تعين عليه، لما فيه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأداء الحقوق إلى مستحقيها والإصلاح بين الناس[(٢)]. قال ابن فرحون: واعلم أن كل ما جاء من الأحاديث التى فيها تخويف ووعيد فإنما هى فى حق قضاة الجور العلماء أو الجهال الذين يدخلون أنفسهم فى هذا المنصب بغير علم، ففى هذين الصنفين جاء الوعيد[(٣)].

ج- قبوله جوائز الخلفاء:

ومن الشبه التى تثار أحيانا أن الإمام الزهرى كان يقبل جوائز الخلفاء، أو: لماذا كان يقبلها؟ والجواب على هذه الشبهة، أو هذا التساؤل نقول: لقد كان الإمام الزهرى طالبًا وانتهى عالمًا، وكان متفرغًا فى الحالة الأولى لطلب العلم وجمعه، وفى الثانية لتعليمه ونشره، ولم يكن له من المال الموروث أو المكسوب ما يسد حاجته الضرورية، أو يضمن له الاستمرار فى الطلب، فكان لابد له -والحالة هذه- أن يقبل مساعدة الدولة ويأخذ منها ما يسد حاجاته ويعينه على الطلب، وكان أول من قدم له مثل تلك المساعدة عبد الملك بن مروان حين قرر العودة إلى المدينة بناء على نصيحته له بذلك،

(١) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص٤٤٧.   (٢) المصدر نفسه ص ٤٤٦ - ٤٤٨.

(٣) تبصرة الحكام (١/ ١٠)، الإمام الزهرى ص ٤٤٨.

لمواصلة طلب العلم وجمع ما كان منه عند الأنصار، وبعد أن جمع ما جمع من علمهم عاد إلى دمشق، وأخذ يتردد إليها بين الحين والآخر، إلى أن أقام فيها، وتفرغ كليًا لتدريس العلم ونشره، فأقبل إليه طلاب العلم من أهل الشام وغيرها، ورحل إليه وهو فيها كثير من أبناء الأمصار الإسلامية الأخرى كما مر، فأصبح بذلك يمثل مركزًا من أهم المراكز العلمية فى الشام -إن لم يكن أهمها على الإطلاق- فكان لا بد للدولة من تمد له يد العون والمساعدة، وتقدم له ما يمكنه من الاستمرار فى القيام بهذا العمل الجليل، والإنفاق على ضيوفه وتلاميذه وقاصديه الذين كان ينفق عليهم، بمنتهى البذل والسخاء، حتى كان يضيق ما فى يده أحيانا من الإنفاق عليهم، فيضطر إلى الاستدانة ليصرف عليهم ويقوم بسد حاجاتهم ما أمكن لذلك، فإن أغلب ما أهدى إليه من الخلفاء كان موجها لسد الديون التى لحقته بسبب إنفاقه على تلاميذه وضيفانه، ولم يكن الزهرى أول من قبل الجوائز والمعطيات، ولا آخر من قبلها، بل قبلها غيره من السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم[(١)]، فقبلها زيد بن ثابت من معاوية بن أبى سفيان[(٢)]، كما قبلها عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر الطيار وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبى بكر والحسين وغيرهم ممن كانوا يفدون عليه بدمشق، فيكرمهم ويقضى حوائجهم[(٣)]، وكان للحسن بن على بن أبى طالب على معاوية جائزة فى كل عام، وكان يفد إليه فربما أجازه بأربعمائة ألف درهم وراتبه كل سنة مائة ألف[(٤)]، كما قبلها الكثير من التابعين أيضًا، كالحسن البصرى والشعبى وإبراهيم ابن يزيد النخعى، وأبان بن عثمان، وأبى سلمة بن عبد الرحمن، وأبى الزناد[(٥)]، وعبد الله بن محمد بن على بن أبى طالب الذى وفد على سليمان فأجازه وقضى حوائجه وحوائج من معه[(٦)]، وقبلها من بعدهم مالك بن أنس وسفيان الثورى وأبو يوسف والشافعى وغيرهم[(٧)]. ومن كل ما تقدم يتضح لنا أن أخذ جوائز السلطان مشروع إذا لم يترتب عليه ما يخل بدينه ومروءته[(٨)].

(١) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ٤٥١ ، ٤٥٢. (٢) نفح الطيب (٣/ ٢٣٥).
(٣) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ٤٥٣.
(٤) البداية والنهاية، نقلاً عن الإمام الزهرى ص ٤٥٣ .
(٥) نفح الطيب (٣/ ٣٣٦)، الإمام الزهرى ص ٤٥٣ . (٦)، (٧) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ٤٥٣.
(٨) المصدر نفسه ص ٤٥٦.

د- قبة الصخرة وحديث «لا تشد الرحال..»

يزعم هذا المستشرق أن عبد الملك بنى قبة الصخرة ليحول بين أهل الشام والعراق وبين الحج إلى الكعبة، وأنه أراد أن يلبس عمله هذا ثوبًا دينيًا، فوضع له صديقه الزهرى حديث: «لا تشد الرحال..» إلخ. فهذا لعمرى عجب من أعاجيب الافتراء والتحريف والتلاعب بحقائق التاريخ[1] وقد فنّد هذا الزيف الدكتور مصطفى السباعى فى كتابه «السنة ومكانتها فى التشريع» فقال:

- إن المؤرخين الثقات لم يختلفوا فى أن الذى بنى القبة (قبة الصخرة) هو الوليد بن عبد الملك، هكذا ذكر ابن عساكر والطبرى وابن الأثير وابن خلدون وابن كثير وغيرهم، ولم نجدهم ذكروا رواية واحدة نسبت بناءها إلى عبد الملك، ولا شك أن بناءها - كما يزعم جولدتسيهر - لتكون بمثابة الكعبة يحج الناس إليها بدلاً من الكعبة، حادث من أكبر الحوادث وأهمها فى تاريخ الإسلام والمسلمين، فلا يعقل أن يمر عليه هؤلاء المؤرخون مرور الكرام، وقد جرت عاداتهم أن يدونوا ما هو أقل من ذلك خطرًا أو أهمية، كتدوينهم وفاة العلماء وتولى القضاء وغير ذلك، فلو كان عبد الملك هو الذى بناها لذكروها، ولكنا نراهم ذكروا بناءها فى تاريخ الوليد، وهؤلاء مؤرخون أثبات فى كتابة التاريخ، نعم جاء فى كتاب «الحيوان» للدميرى نقلاً عن ابن خلكان أن عبد الملك هو الذى بنى القبة، وعبارته هكذا: بناها عبد الملك وكان الناس يقفون عندها يوم عرفة[2]. وقد تحدثت عما قاله اليعقوبى عن هذا الموضوع فى حديثى عن عبد الملك بن مروان.

- إن نص الحادثة -كما ساقها جولدتسيهر- بيّن البطلان لأن بناء شىء ليحج الناس إليه كفر صريح، فكيف يقدم عبد الملك عليه، على أن خصومه طعنوا فيه بأشياء كثيرة ولم نجدهم اتهموه بالكفر، ولا شنعوا عليه ببناء القبة، ولو كان الأمر ثابتًا لجعلوها فى أول ما يشهرون به.

- إن الزهرى ولد - كما قدمنا - سنة إحدى وخمسين أو ثمان وخمسين ومقتل عبد الله بن الزبير كان سنة ثلاث وسبعين، فيكون عمر الزهرى حينذاك على الرواية الأولى اثنين وعشرين عامًا، وعلى الثانية خمسة عشر، فهل من المعقول أن يكون الزهرى فى تلك السن ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية بحيث تتلقى منه بالقبول حديثًا موضوعًا فيه الحج إلى القبة بدلاً عن الكعبة؟

(1) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٢١٧ .

(2) المصدر نفسه ص ٢١٧.

- إن نصوص التاريخ قاطعة بأن الزهرى فى عهد ابن الزبير لم يكن يعرف عبد الملك ولا رآه بعد، فالذهبى يذكر لنا أن الزهرى وفد لأول مرة على عبد الملك فى حدود ثمانين، وابن عساكر روى أن ذلك كان سنة اثنتين وثمانين، فمعرفة الزهرى لعبد الملك لأول مرة إنما كانت بعد قتل ابن الزبير، ثم نصحه أن يطلب العلم من دور الأنصار، انظر كيف يكذب هذا المستشرق ويزعم أن الزهرى أجاب رغبة صديقه عبد الملك فوضع له حديث بيت المقدس ليحج الناس إلى القبة فى عهد ابن الزبير؟

- إن حديث «لا تشد الرحال...» إلخ. روته كتب السنة كلها، وهو مروى من طرق مختلفة غير طريق الزهرى، فقد أخرجه البخارى عن أبى سعيد الخدرى من غير طريق الزهرى، ورواه مسلم من ثلاث طرق إحداها من طريق الزهرى، وثانيتها من طريق جرير عن ابن عمير عن قزعة عن أبى سعيد، وثالثتها من طريق ابن وهب عن عبد الحميد بن جعفر عن عمران بن أبى أنس عن سلمان الأغر عن أبى هريرة، فالزهرى لم ينفرد برواية هذا الحديث، كما يزعم جولدتسيهر، بل شاركه فيه غيره كما ذكرنا، وقد سئل ابن تيمية عن حكم زيارة بيت المقدس - وهو ممن ينكر السفر لأجل زيارة القبور -فقال: ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «لا تشد الرحال...» إلخ فى الصحيحين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة، وقد روى من طرق أخرى، وهو حديث مستفيض متلقى بالقبول، أجمع أهل العلم على صحته وتلقيه بالقبول والتصديق، واتفق علماء المسلمين على استحباب السفر إلى بيت المقدس للعبادة المشروعة فيه، وكان ابن عمر يأتى إليه فيصلى[(١)].

- إن هذا الحديث رواه الزهرى عن شيخه سعيد بن المسيب، ومن المعلوم أن سعيداً ما كان ليسكت عن الزهرى لو أنه وضع هذا الحديث على لسانه إرضاء لأهواء الأمويين، وهو الذى أوذى من قبلهم وضرب، وقد توفى سعيد سنة (٩٣هـ) أى بعد مقتل ابن الزبير، بعشرين سنة، فكيف سكت سعيد عن هذا كل هذه المدة، وقد كان جبلاً شامخًا من جبال القوة فى الحق لا يبالى فى الله لومة لائم[(٢)].

- إن جولدتسيهر المستشرق اليهودى استفاد من بعض الروايات الشيعية التى حاولت أن تشوه تاريخ الزهرى بالأباطيل والأكاذيب، ولم يكن بحث جولدتسيهر إلا حلقة مغرضة فى سلسلة الأبحاث التى ترمى إلى هدم الجانب التشريعى من الإسلام، فكما افترى أعداء الإسلام على الصحابى الجليل أبى هريرة، افتروا على التابعى المشهور الإمام الزهرى،

(١) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٢١٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٩.

قاصدين من وراء ذلك تشكيك المسلمين فى مروياتهم، وهما اللذان رويا كثيراً من الحديث النبوى، ونقلا إلى التابعين وأتباعهم جانبًا عظيمًا من السنة، فإذا ما شك المسلمون فى أوثق الرواة وأحفظهم شكوا فى جميعهم واستهانوا بمروياتهم، وحينئذ يتحقق لأعداء الإسلام بعض هدفهم وهو تخلى المسلمين وإعراضهم عن الحديث الشريف، الذى كان تطبيقًا عمليًا للشريعة الإسلامية، وشرحًا وافيًا وبيانًا واضحًا للقرآن الكريم، فإذا أعرض المسلمون - لا سمح الله - عن السنة، اتسعت الهوة بينهم وبين الكتاب الكريم، وسهل على المبشرين زعزعة العقيدة فى نفوس الناشئة، وبث الإلحاد الذى يجر وراءه العقائد الدخيلة، والنظريات التى تخدم أعداءنا، وفى هذا الطامة الكبرى والخسارة العظمى للمسلمين فى دينهم ودنياهم، ولولا خطورة هذه الشبهات وبعدها عن الحق ما تعرضنا لها، فكما رددنا ما أثير حول أبى هريرة من شبهات مصطنعة وعرفنا وجه الصواب، رددنا ما أثير حول الزهرى من شبهات أيضًا، ونحن فى هذا لا نتحيز لأحد، وإنما نتوخى الحق وسواء السبيل، خدمة للسنة المطهرة[1]. ومن أراد التوسع فى هذا الموضوع فليراجع: «السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى»، للدكتور مصطفى السباعى، و«السنة قبل التدوين»، للدكتور محمد عجاج الخطيب، و«الإمام الزهرى وأثره فى السنة» للدكتور حارث سليمان الضّارى.

٨- وفاة الزهرى ١٢٤هـ:

توفى الإمام الزهرى بعد حياة علمية رفيعة، عن نيف وسبعين سنة ليلة الثلاثاء، لتسع عشرة أو لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، سنة أربع وعشرين ومائة على أرجح الأقوال، فى قرية (أدامى)[2] وهى خلف (شغب) و(بَدَا)[3]، أول عمل فلسطين وآخر عمل الحجاز، وبها ضيعة الزهرى، وقد أوصى أن يدفن على قارعة الطريق، ليمر مارٌّ فيدعو له[4]. وقد مر الأوزاعى بقبره يومًا، فوقف عليه وقال: يا قبر كم فيك من علم ومن حكم! يا قبر، كم فيك من علم ومن كرم! وكم جمعت روايات وأحكامًا![5]. تغمده الله برحمته وجزاه عن الإسلام والسنة النبوية خير ما يجزى به العلماء العاملين[6].

(١) السنة قبل التدوين ص ٥٠١ ، ٥٠٢.

(٢) أدامى: اسم القرية أو الضيعة فى تلك المنطقة.

(٣) بدا : واد قريب من (أيلة) من ساحل البحر، وقيل بوادى القرى.

(٤) السنة قبل التدوين ص ٥٠٠ .

(٥) البداية والنهاية، نقلاً عن الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ٢٦٣ .

(٦) الإمام الزهرى وأثره فى السنة ص ٢٦٣ .

المبحث الثالث

النظام الإدارى والمالى فى عهد هشام

أولاً: النظام الإدارى:

كان النظام الإدارى للولايات امتداداً للعهود التى سبقته، وكانت الولايات أيام هشام بن عبد الملك -بصورة عامة- هادئة سوى بعض حركات الخوارج التى قامت فى العراق، وثورة زيد بن على بالكوفة، وثورة الخوارج فى الشمال الإفريقى، والدعوة العباسية التى كانت تنتشر بصمت فى خراسان، فإذا عرف بعض أتباعها قتلوا، كذلك قامت حركة يحيى ابن زيد بعد هشام، أما الأندلس وفرنسا فقد كانت فيها فتوحات، إذ لم تكن وصلت إليها الخلافات، وكان المجاهدون فيها لا يزالون بعيدين عن التناحر، ولكنه لم يلبث أن دخل إليهم، ثم انسحب المسلمون من وسط فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء، واستقروا فى جنوبى فرنسا[1].

١- الشام: لم يحدث فى الشام ما يلفت الانتباه، وكانت عاصمة الدولة الأموية دمشق، وكانت دواوين الدولة الرئيسية بيد الخليفة، وكان معه مجموعة من الكتّاب، فكان بعضهم يختص بديوان الخراج أو الرسائل، أو الصدقة وما إلى ذلك، وكان سعيد بن عمرو الأبرش الكلبى كاتب هشام ومن كبار أعوانه وكان له تأثير على هشام، فيحدثنا الطبرى، أن هشامًا رفض أن يوافق على شروط الصلح بين الصّغد والمسلمين التى عقدها نصر بن سيار، والى خراسان، فلما كلمه الأبرش بذلك وافق على تلك الشروط[2]، وكان سالم بن عبد الرحمن مولى سعيد بن عبد الملك، كاتبه على الرسائل ويعاونه بعمله المذكور بشر بن أبى دلجة، وقد استعمل هشام أهل الذمة أحيانًا فى تسيير شئون الدواوين، وكان جنادة بن أبى خالد يكتب لهشام على الطراز واسمه موجود على الثياب الهاشمية[3]، وكان الربيع بن سابور على الخاتم فولاه هشام الحرس[4] وأما بيوت الأموال فكان عليها عبد الله بن عمرو ابن الحارث، وعلى الخاتم الصغير والخاصة اصطخر أبو الزبير مولاه[5]، ولهشام حرس خاص يشرف أحد مواليه عليه واسمه نصير، فعزله بعد ثلاث سنين من خلافته ثم ولى

(١) التاريخ الإسلامى، محمود شاكر (٤/٢٦٧).

(٢) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك ص ٥١ .

(٣) عصر هشام بن عبد الملك ص ٥٢ . (٤)، (٥) المصدر نفسه ص٥٣.

الحرس للربيع بن سابور مولى بنى الحريش[1] وأما الشرط فولاها هشام لكعب بن حامد العبسى ثلاث عشرة سنة، ثم ولاه أرمينية وولاها بعده ليزيد بن يعلى بن ضخم العبسى[2]، وكان هشام يحب الأبهة، فكان يحرسه ثمانمائة فارس؛ أربعمائة من الشرط وأربعمائة من الحرس، وكان لا يسمح لأحد بأن يسير فى موكب إلا أخاه مسلمة[3]، وكان هشام يرسل الجيوش فى الشام للفتوحات.

٢- العراق: يشمل العراق -إداريًا- ولايتى البصرة والكوفة ويعين لهما أحيانا أمير واحد، وكانت واسط بعد تمصيرها مقرًا له، وكان يلى العراق وما يليه من عمل الشرق عمر بن هبيرة الفزارى قبيل مجىء هشام للحكم، فلما جاء هشام عزل ابن هبيرة عن ولاياته جميعها وعين بدله خالد بن عبد الله القسرى على العراقين، وولى قبل ذلك مكة للوليد بن عبد الملك، ثم لسليمان[4] ، وكان جوادًا ممدحا معظمًا عالى الرتبة، من نبلاء الرجال[5] ، ومن أقوال خالد فى خطبة: إن أكرم الناس من أعطى من لا يرجوه، وأعظم الناس عفوًا من عفا عن قدرة، وأوصل الناس من وصل عن قطيعة[6].

وقال عنه الذهبى: وكان خالد- على هناته- يرجع إلى إسلام[7]. وقد عزله هشام سنة عشرين ومائة بيوسف بن عمر الثقفى[8]، وقد كتب هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر: لئن شاكت خالدًا شوكة لأقتلنك، فأتى خالد الشام، فلم يزل بها يغزو الصوائف حتى مات هشام[9] وقيل: بل عذّبه يوسف بن عمر يومًا واحدًا، وسجنه بضعة عشر شهرًا ثم أطلق، فقدم الشام سنة اثنتين وعشرين ومائة[10]. ومن حسناته قتله الجعد بن درهم ومغيرة الكذاب[11]. ثم تولى بعده يوسف بن عمر الثقفى العراق وخراسان، وكان شهمًا كافيًا سائسًا مهيبًا جبارًا عسوفًا جوادًا معطاء. وأقرّه الوليد بن يزيد على العراق[12] ومن أشهر قضاة البصرة الذين ماتوا عام ١٢٢هـ أبو واثلة إياس بن معاوية بن قُرّة المزنى الليثى، أحد من يضرب بذكائه وفطنته المثل، روى عن أنس وجماعة، وكان صاحب فراسة.

(١) عصر هشام بن عبد الملك ص ٥٣.
(٢) المصدر نفسه ص٥٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٨.
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٢٦).
(٥)، (٦) المصدر نفسه (٥/ ٤٢٦).
(٧) المصدر نفسه (٥/ ٤٢٧).
(٨) المصدر نفسه (٥/ ٤٢٦).
(٩) المصدر نفسه (٥/ ٤٣١).
(١٠) المصدر نفسه (٥/ ٤٣٢)
(١١)، (١٢) المصدر نفسه (٥/ ٤٤٢).

قال الحريرى: فإذا ألمعيتى ألمعيَّة ابن عباس وفراستى فراسة إياس، وقال أبو تمَّام:

إقـدام عـمـرو فى شـجـاعـة حـاتم   فى حـلم أحـنف فى ذكـــاء إياس

قيل لأبيـه معاوية: كـيف ابنك لك ؟ قال: كفـانى أمر دنياى وفـرَّغنى لآخرتى، وعنه قال: رأيت فى المنام كأنى وأبى على فرسين معًا، فلم أسـبقه ولم يسبقنى، وعاش أبى ستًا وتسعين سنة، وها أنا فيها، فلما كان آخر لياليه قال: الليلة استكملت عمرى، ونام فأصبح ميتًا -رحمه الله- وقد توفى سنة اثنتين وعشرين ومائة[1].

٣- ولاة خراسان وبلاد ما وراء النهر: عين خالد بن عبد الله القسرى على خراسان أخاه أسد بن عبد الله عام ١٠٦ هـ[2] ثم تدخل هشام وعين أشـرس بن عبد الله السلمى[3] ثم عزله هشام وعين بدله الجنيـد بن عبد الرحمن[4] وتوفى الجنيد بمرو ودفن بها، قيل: أواخر عام ١١٥ هـ وقيل: ١١٦هـ[5] ، وقال أحد الشعراء يرثيه:

توفى الجـود والجنيـد جـمـيـعًـا   فـعـلى الجـود والجـنيـد الـسلام

أصـبـحـا ثـاويين فى أرض مـرو   مـا تغنـت على الغـصـون الحـمـام

كـنـتـمـا نزهة الـكرام فلـمـا   مت مـات الـندى ومـات الكرام[6]

ثم عين هشـام عاصم بن عـبد الله الهلالى على خـراسان، فـقد كانت خـراسان ثائرة واضطربت بها الأحوال، وأشتد الصراع بين القيسيـة واليمانية، ثم عين هشام أسد بن عبد الله القسرى واستمر على ولاية خراسان إلى أن توفى فى ربيع الأول عام ١٢٠ هـ ثم عين هشام نصر بن سـيار فى رجب عام ١٢٠هـ[7] وكان هشام مـوفقًا فى اختياره لنصـر فقد كان: .. أرجل القـوم وأحزمهم وأعلمهم بالسـياسة عفـيفًا مجـربًا عاقلا[8]، أنجز خلال ولايته أعمـالاً جديرة بالتقدير فى المجـالين المالى والحربى، وقد استـمرت ولاية نصر على خراسان إلى نهاية الدولة الأموية[9].

٤- ولاة أرمـينية وأذربيـجان: ولى هشام على أرمـينية وأذربيـجان الجراح بن عـبد الله الحكمى ثم عزله عام ١٠٧هـ وولاها أخاه مسلمة بن عـبد الملك واستمر إلى عام ١١١هـ

(١) شذرات الذهب (٢/ ٩٤ ، ٩٥).
(٢) عصر هشام بن عبد الملك ص ١١٢.
(٣)، (٤) المصدر نفسه ص١١٤.
(٥) المصدر نفسه ص ١١٥.
(٦) المصدر نفسه ص ١١٧ ، تاريخ الطبرى (٧/ ٦١٨).
(٧) عصر هشام بن عبد الملك ص ١٢٠.
(٨)، (٩) المصدر نفسه ص ١٢١.

ثم عزل هشام أخاه مسلمة وولى الجراح بن عبد الله الحكمى الولاية الثانية إلى أن استشهد عام ١١٢هـ ثم عين أخاه مسلمة وأرسل معه الجيوش لقتال الخزر، وظل فى ولايته إلى نهاية عام ١١٣هـ، حيث عزله هشام عن أرمينية وأذربيجان والجزيرة وولاها مروان بن محمد: ... لمستهل المحرم سنة أربع عشرة ومائة[1]، واستمر مروان على ولايته إلى ما بعد وفاة هشام، وكان جل نشاطه منصرفًا إلى حروب الأعداء مدة ولايته[2].

٥- الجزيرة والموصل: يبدو أن منطقة الموصل أصبحت ولاية منفصلة عن الجزيرة فى عهد هشام، ويعدد الأزدى أعمالها، واستنادًا إلى تقريره فهى تشمل جزءًا من شمال وشمال شرق الموصل -حاليًا- إلى تكريت جنوبيًا[3]، ويبدو أن الموصل كان يحكمها وال مستقل زمن هشام يخضع للخليفة مباشرة، وما يقع شمال الموصل إلى حدود أذربيجان أصبح تابعًا لوالى أذربيجان وأرمينية، لذا فإن أغلب المصادر لا تُشير إلى ولاة للجزيرة خلال عهد هشام، وعلى ما يظهر فإن الجزيرة وأذربيجان وأرمينية، كانت تخضع لوالٍ واحد فى عهد هشام[4]، وأما الموصل فكان يليها لهشام عام ١٠٥ هـ مروان بن محمد ثم ولاها الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم بن أبى العاص عام ١٠٨هـ على الأرجح بعد أن عزله عن ولاية مصر[5]، واستمر على ولاية الموصل حتى وفاته عام ١١٣هـ[6] ثم عين هشام الوليد بن تليد العبسى ثم عين هشام عام ١٢٢هـ أبا قحافة المزنى أحد أقارب الوليد على الموصل، وبقى هذا على ولايته إلى موت هشام[7].

٦- ولاية الحجاز: كانت إمارات الحجاز كلها؛ مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف، بيد عبد الواحد بن عبد الله النضرى، ثم إن هشام بن عبد الملك قد عزله عن الحجاز وأعطاها لخاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى عام ١٠٦ هـ، وفى عام ١١٤هـ عاد فعزل خاله إبراهيم بن هشام عن الحجاز وأمّر خاله محمد بن هشام بن إسماعيل على مكة المكرمة، بينما أعطى أمر المدينة إلى خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، ثم عاد فعزل خالدًا عن المدينة وضمها إلى محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومى عام ١١٨هـ .

٧- مصر: تولى أمر مصر فى بداية عهد هشام بن عبد الملك أخوه محمد بن عبد الملك ابن مروان، ولكنه لم يلبث أن استبدل به الحر بن يوسف الأموى الذى بقى فى منصبه

(١) عصر هشام بن عبد الملك ص١٢٢.
(٢)، (٣) المصدر نفسه ص ١٢٣.
(٤) تاريخ الموصل ص ٣٢ ، ٣٣.
(٥) عصر هشام بن عبد الملك ص ١٢٤.
(٦) النجوم الزاهرة (١/٢٥٩)، عصر هشام ص ١٢٥.
(٧) تاريخ الموصل ص ٥٢ ، ٥٣

عامين (١٠٦هـ - ١٠٨هـ) ثم خلفه حفص بن الوليد الحضرمى، إلا أن عبد الملك بن رفاعة قد عاد مرة ثانية إلى إمرة مصر، وقد تولاها قبل ذلك، ولكنه توفى بعد خمسة عشر يومًا من تسلمه الأمر، وذلك فى مطلع عام ١٠٩هـ فاستخلف أخاه مكانه وهو الوليد بن رفاعة فأقره هشام على ذلك، وبقى الوليد فى عمله حتى توفى عام ١١٧هـ، فاستعمل هشام بعده عبد الرحمن بن خالد، إلا أنه كان ليـنًا فشكاه أهل مصر إلى الخليفة فعزله، وأعاد إلى الإمرة حنظلة بن صفوان الكلبى للمرة الثانية وذلك عام ١١٩هـ، وبقى فيها حتى أرسله هشام إلى إفريقية عام ١٢٤هـ بعد مقتل كلثوم بن عياض القشيرى، وولى مكانة حفص بن الوليد الحضرمى، واستمر حتى بعد هشام بن عبد الملك أيامًا(١).

٨- **إفريقية**: كان والى إفريقية بشر بن صفوان عندما بدأت خلافة هشام بن عبد الملك، وعندما توفى استخلف قبل موته نفاش بن قرط الكلبى الذى أسرف فى إذلال القيسية ثم إن هشامًا عين على إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن القيسى فبطش بعمال سابقيه من اليمانية وبآل موسى بن نصير، وفى عام ١١٦هـ أرسل والى مصر عبيد الله بن الحباب فولى على طنجة عمر بن عبيد الله المرادى فأساء معاملة البربر، الأمر الذى دعاهم إلى الثورة وسيأتى الحديث عنها -بإذن الله- فى مبحث الثورات فى عهد هشام، ودخلت إفريقية فى اضطرابات وصراع وقتال إلى أن حسم لصالح الدولة الأموية(٢).

٩- **الأندلس**: بعد استشهاد عنبسة بن سحيم الكلبى فى غزوه داخل فرنسا عام ١٠٧هـ حدثت خلافات استمرت أربع سنوات، ثم تولى أمر الأندلس عبد الملك بن قطن الفهرى، ولكن عبيد الله بن الحبحاب الذى وصل إلى إفريقية عزل عبد الملك بأمر الخليفة وأرسل إلى الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى العبسى فسار إليها عقبة وملكها ودخل فرنسا، واستقر فى سبتمانيا، كما فتح بعض أراضى جيليقية فى شمال الأندلس، وقد أسلم على يديه أكثر من ألف رجل، ثم سار أهل الأندلس إليه عام ١٢٣هـ فخلعوه، وتوفى بعد قليل بقرطبة، ونادى أهل الأندلس بعبد الملك بن قطن الفهرى أميرًا عليهم، وتحرك البربر فى الأندلس، فأذن عبد الملك بن قطن الفهرى لبلج بن بشر بدخول الأندلس، وكان فى طنجة، فدخل ابن بشر وتمكن من الانتصار على البربر فى معركة شذونة، وبعدها طلب أمير الأندلس من بلج الخروج من الأندلس، فرفض وحدث خلاف بين الطرفين قتل نتيجته عبد الملك بن قطن، وغدا بلج بن بشر أمير الأندلس، ولم يلبث بلج بن بشر القشيرى أن

(١) التاريخ الإسلامى ، محمود شاكر (٤/ ٢٧٠) .
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٧١) .

توفى بعد عام تقريبًا متأثرًا بجراحه التى أصيب بها فى معاركه التى خاضها، وخلفه ثعلبة ابن سلامة الذى جاء وبلج مع كلثوم بن عياض إلى إفريقية، ولكن حنظلة بن صفوان أمير إفريقية بعث إلى الأندلس أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبى حسب أوامر الخليفة هشام بن عبد الملك[1].

١٠- اليمن: ولاها هشام ليوسف بن عمر الثقفى، وقد استمر على ولايتها إلى أن ولى العراق عام ١٢٠هـ على ما أسلفنا، فاستخلف عليها ابنه الصلت، ثم أخاه القاسم[2].

١١- اليمامة: تتبع الخلافة مباشرة، وقد ولاها هشام للمهاجر بن عبد الله، من بنى بكر ابن كلاب، فلما مات المهاجر وليها ابنه[3].

*** العلاقة بين هشام وولاته:**

كان الوالى مسئولاً عن ولايته، يختار موظفيها، كصاحب الشرطة والقاضى وولاة المدن التابعة له، ولم يتدخل هشام فى شئون الولاة الذين يعينهم، إلا فى حالات قليلة، فمثلاً عندما ولى خالد القسرى على شرطته شخصًا صغير السن، كتب هشام إلى خالد: إنك وليت شرطتك رجلاً حدثًا، فلو وليتها ذا حيلة ونقلت صاحبك إلى ما هو أجدى عليه.. فولاه فارس.. وولى شرطته للعريان بن الهيثم[4]. وقد أساء كتّاب قاضى مصر، يحيى بن ميمون، السيرة فقد كانوا:.. لا يكتبون قضية إلا برشوة، فكلم يحيى فى ذلك فلم ينكر، ثم كلمه مرة بعد مرة فلم يعزل منهم أحدًا عن كتابته، وشكا يتيم وصيه إلى يحيى، فلم ينصفه منه، وشهد له جماعة من قومه أنه مظلوم، فلم يستمع يحيى إليه فتمثل اليتيم بأبيات من الشعر منها:

حكمت بباطل لم تأت حقًا ولم يسمع بحكم مثل ذاكا

فلما بلغ الشعر يحيى:... سجن اليتيم، فرفع أمره إلى هشام، فعظم ذلك عليه وكتب بصرفه، وكان فى كتابه إلى الوليد بن رفاعة والى مصر: اصرف يحيى عما يتولاه من القضاء مذمومًا مدحورًا، وتخير لقضاء جندك رجلاً عفيفًا ورعًا تقيًا... فعزله[5] ومع ما للوالى من سلطات واسعة فى ولايته، فقد كان هشام لا يتردد عن عزل الوالى إذا شكا منه الناس وصدقت الشكوى، فقد عزل أسد بن عبد الله القسرى عن خراسان، وكان

(١) التاريخ الإسلامى (٤/ ٢٧٢).
(٢) عصر هشام بن عبد الملك ص١٤٧.
(٣) المصدر نفسه ص١٤٧.
(٤) أنساب الأشراف، نقلاً عن عصر هشام ص ١٤٨.
(٥) عصر هشام بن عبد الملك ص ١٤٨.

أسد حاد الطباع سريع الغضب، تعصب لقومه من اليمانية ضد القيسية(١). ولما اتهم سعيد ابن هشام بن عبد الملك بسوء السيرة -وكان يلي حمص- عزله هشام ووبخه(٢) وكان اختيار هشام يتم على الولاء للأسرة الأموية، وكان استمرارهم في مناصبهم يتوقف على رضا الخليفة والناس عنهم إلى حد كبير(٣).

١- **وقد حاول ولاة الأقاليم المحادة للأعداء المحافظة على حدود ولاياتهم من جهة،** واستهدفوا استمرار حركة الفتوحات من جهة ثانية، وقد نجحوا في مهمتهم إلى حد كبير، كما تمكن ولاة الأقاليم التي لها سواحل بحرية من حماية ولاياتهم في أغلب الأحيان، ورغم أن الروم هاجموا السواحل الإسلامية أكثر من مرة خلال عهد هشام، لكن المسلمين كانوا في مركز من القوة مكنهم من الرد على البيزنطيين في الحوض الشرقي لبحر الروم، ومكنهم من السيطرة على حوضه الغربي.

٢- **كانت الظروف السائدة في إقليمي خراسان والأندلس متشابهة إلى حد ما،** فقد كانتا محادتين لأعداء أقوياء كالترك والفرنجة، كما كان يسودهما أيضًا صراع بين العرب والموالين من فرس وبربر وغيرهم من جهة، وبين العرب أنفسهم من قيسيين ويمانيين من جهة ثانية، وكان ذلك من بين العوامل التي أدت إلى ضعف مركز المسلمين أمام الأعداء في الإقليمين المذكورين وإلى سرعة تبدل الولاة فيهما .

٣- **أما ولاة الأقاليم الداخلية** فكان جل نشاطهم منصرفًا إلى المحافظة على الأمن والاستقرار وجمع ما يمكن جمعه من الأموال، وقد أنفق ولاة الأقاليم الداخلية كثيرًا من جهودهم لمجابهة حركات المعارضة من ثورات وحركات سرية وغيرها داخل ولاياتهم، وقد نجح بعضهم في تخفيف حدة المعارضة إلى أدنى حد ممكن ولكن سياسة الشدة التي اتبعها بعضهم الآخر كانت من بين الأسباب التي أدت إلى قيام ثورات شملت مناطق واسعة من ولاياتهم وأدت -بالتضافر مع عوامل أخرى- إلى ضعف الدولة الأموية(٤).

ثانيًا: النظام المالي:

تعد السياسة المالية لهشام بن عبد الملك امتدادًا لملوك بني أمية ومخالفة للنهج الإصلاحي التجديدي الراشدي الذي قام به عمر بن عبد العزيز، وكانت مصادر بيت المال هي الجزية

(١) تاريخ الطبري، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك ص١٤٨.

(٢) العقد الفريد (٥/ ١٨٢)، عصر هشام ص ١٤٩.

(٣) عصر هشام بن عبد الملك ص ١٥٣.

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٤.

والخراج والغنائم، والزكاة وغيرها من المصادر، وأما نفقات الدولة فكانت على مرتبات الولاة والجنود والموظفين والإصلاحات كشق الأنهار، وإصلاح الأرض وغيرها من الأمور، ونشير إلى بعض الأمور المتعلقة بالنظام المالى:

١- عودة الملكية الزراعية إلى ما كانت عليه قبل عهد عمر بن عبد العزيز: عاد أمراء ووجهاء الدولة الأموية إلى تكوين الملكيات الزراعية الكبيرة، وبالأخص فى منطقة العراق، وقد ساعدهم فى ذلك سياسة يزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك فى هذا الباب، ومن نماذج تلك الملكيات:

أ- الملكيات الكبيرة لمسلمة بن عبد الملك، الناتجة عن استصلاحه لأراض واسعة فى منطقة السواد، وبلغ من كبرها أنه حفر لها نهرين واسعين[(١)].

ب- ملكيات خالد بن عبد الله القسرى، حيث بلغ دخله من غلاتها ثلاثة عشر مليون دينار -وقيل: درهم- وكذا بلغ دخل ابنه عشرة ملايين[(٢)].

ج- ملكيات الخليفة هشام بن عبد الملك الواسعة فى أنحاء مختلفة من الدولة، وبلغ من كبر حجم ملكياته أن منتجاتها الزراعية كانت تؤثر فى المستوى العام للأسعار.

٢- حدث تدهور فى المجال الزراعى فى عهد هشام بن عبد الملك إلا أن هذا التدهور حاولت الدولة علاجه بإقامة بعض المشاريع، مثل:

أ- توصية هشام بن عبد الملك والى الموصل بحفر نهر فى وسط المدينة، وقد استغرق حفر هذا النهر مدة ثلاث عشر سنة، وذكر أن تكلفة حفره بلغت ثلاثة ملايين درهم[(٣)]، وقد كان لهذا النهر أهمية كبرى فى تنمية الزراعة بالموصل، فمن المدة المستغرقة فى حفره، وتكلفة الحفر، يتضح أن النهر كان كبيرًا، ولكونه توسط المدينة، فقد استفاد منه عدد كبير من مزارع المدينة، فزاد إنتاجيتها، وقد ترتب على ذلك كله زيادة ملموسة فى إيرادات الدولة من قطاع الزراعة، حيث تضاعف إيراد الدولة من الأراضى الزكوية التى استمدت سقايتها من هذا النهر بمقدار الضعف، فبعد أن كانت تسقى بالساقية والآلات من المياه الجوفية، أصبحت تسقى من النهر مباشرة، وذلك استنادًا إلى قوله ﷺ: **«فيما سقت الأنهار والغيم العشور وفيما سقى بالسانية نصف العشر»**[(٤)].

(١) مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى صـ ٣٩.
(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى صـ٨٧.
(٣) المصدر نفسه صـ٢٠٢.
(٤) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الزكاة (٧/ ٥٤).

ب- أقام خالد القسرى السدود على نهر دجلة لمنعها من الفيضان، وبنى القناطر، وحفر العديد من الأنهار، إلا أنه كان يمتلك الأراضى الواقعة على ضفاف تلك الأنهار.

ج- أقام مسلمة بن عبد الملك فى الجزيرة الفراتية سدًا عظيمًا على نهر البليخ، وكانت لهذا السد آثار إيجابية ملموسة على التنمية الزراعية، فقد اختزن خلف هذا السد كمية كبيرة من المياه، فزادت الموارد المائية، وأمكن تنظيم استخدامها، فضلاً عن الجزء الذى تسرب داخل الأرض، فأدى إلى رفع مستوى المياه الجوفية للآبار، وعلى غرار ما سبق فقد ترتب على هذا السد زيادة فى إيرادات بيت المال من القطاع الزراعى(١).

٣- **إنشاء وتعبيد الطرق:** شمل اهتمام الدولة الأموية بتوفير البنية الأساسية خدمات الطرق، ولم يقتصر الأمر على الطرق بل شمل اهتمام الدولة بإقامة الجسور، ومثال ذلك الجسر الذى أنشئ عام ١٢٦هـ على النهر بمنطقة الموصل ليسهل الاتصال بين ضفتى النهر، والذى ترتب عليه ازدهار نشاط التجارة بين الجانبين وانسياب الحاصلات الزراعية فى الجانبين(٢)، كما أنه جرت محاولة فيما بين (١٠٥هـ - ١٢٠هـ) لإقامة جسر فوق نهر دجلة، ولكن نظرًا لضعف الخبرة الهندسية انهار ذلك الجسر خلال فترة وجيزة(٣).

٤- **بناء المدن والحصون والأسوار والأسواق:** قام بعض الولاة ببناء مدن وتجديد أسوار مدن قديمة لاتخاذها مقارًّ لهم، وحصونًا يلجأون إليها وقت الحاجة، فقد بنى والى السند مدينة المحفوظة ليتخذها قاعدة لجيشه(٤)، وقد جدد أسد القسرى والى خراسان، بناء مدينة بلخ فى ولايته الأولى(٥)، ونقل إليها الدواوين فى ولايته الثانية، وبنى الحر بن يوسف قيسارية هشام فى مصر، كما اتخذ هشام مدينة الرصافة قرب الرقة مصيفًا، وجدد بعض أبنيتها وسورها، كما جدد هشام سور مدينة ملطية بعد أن فكّ الحصار البيزنطى عنها، وأمر ببناء عدة حصون على حدود بلاد الشام مع البيزنطيين وشحنها بالمقاتلة(٦)، وقد اهتم والى مصر وشمال إفريقية عبيد الله بن الحبحاب بالغزوات البحرية فى بحر الروم (المتوسط)، فجدد ووسع قاعدة بناء السفن الحربية فى تونس(٧)، وقد نقل هشام قاعدة بناء السفن الحربية فى

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى ص ٢٠٣.

(٢)، (٣) المصدر نفسه صـ ٢٦٨.

(٤) عصر هشام بن عبد الملك ص ٣٠١.

(٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك صـ ٣٠١.

(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن فتوح البلدان للبلاذرى.

(٧) عصر هشام بن عبد الملك ص٣٠٢.

بلاد الشام من عكا إلى صور وبنى فيها فندقًا[(١)]، ويبدو أن حركة عمرانية رافقت استصلاح الأراضى فى العراق فى عهد خالد القسرى[(٢)]، قام هو ببعضها، كما بنى أخوه أسد بالكوفة سوقًا سمى باسمه[(٣)] وبنى يوسف بن عمر أثناء ولايته للعراق (١٢٠ - ١٢٦هـ) سوقًا بالحيرة سمى باسمه[(٤)] .

٥- **العطاء:** كانت الدولة الإسلامية قد بلغت أقصى اتساعها فى عهد هشام، كما قامت فى عهده ثورات قوية، لذا كانت الحاجة ماسة إلى جيش قوى كثير العدد، ومن الطبيعى أن ذلك الجيش يحتاج إلى سلاح ومال يطوف على أفراده، وكانت الدولة تقدم لجندها مبالغ سنوية كأعطيات تصرف لهم فى مطلع شهر المحرم من كل عام[(٥)]، وكان بيت المال فى دمشق أو فى مقر الولاية يجهز به الخليفة أو الولاة بما يحتاجونه من الأموال لصرفها بمثابة أعطيات للجند، وغير ذلك من النفقات، وكانت تلك الأموال يجمعها العمال المتخصصون، وتأتى من مصادر متعددة أهمها الخراج، ولم يكن مقدار العطاء واحدًا، فقد كان عطاء بنى مروان مائتى دينار[(٦)]، وكان العطاء يفرض لمؤيدى الدولة، فقد كتب هشام إلى والى المدينة عبد الواحد النضرى، أن يفرض لقوم نصيب الشاعر، وكان هشام يفرض لبعض الشعراء خشية ألسنتهم[(٧)] ، وقد يفرض للحاجة بأمر الخليفة[(٨)] وكان الغزو يفرض على من يأخذ العطاء، فلم يكن أحد من بنى مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بديلاً[(٩)]، وكانت الدولة تمنع العطاء لمن أيّد إحدى الحركات المعارضة للسلطة الأموية، وتشطب اسمه من ديوان العطاء، وكان الخليفة وحده يستطيع أن يفرض العطاء أو يمنعه[(١٠)]، وكان العطاء يعطى فى بداية شهر المحرم من كل عام، ويوزعه الولاة على عرفاء الجند[(١١)]، وهم فى العادة من المقدمين فى قبائلهم، فيوزعه هؤلاء على أتباعهم من الجند[(١٢)] .

٦- **ديوان الأوقاف:** كانت الدولة الأموية تتميز بكثرة الدواوين التى تساعد على تنظيم أمور الدولة، وكانت تتطور مع الزمن واكتساب الخبرات، ومن أشهر تلك الدواوين، ديوان

---

(١) معجم البلدان (٢٠٢/١)، عصر هشام بن عبد الملك صـ ٣٠٢.
(٢) عصر هشام بن عبد الملك صـ ٣٠٣.
(٣) المصدر نفسه صـ ٣٠٣.
(٤) المصدر نفسه ص ـ١٨١ .
(٥) المصدر نفسه صـ ٣٠٥ .
(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عصر هشام ص ٣٠٨.
(٧) عصر هشام بن عبد الملك صـ ٣٠٨.
(٨) المصدر نفسه صـ ٣٠٩.
(٩) المصدر نفسه صـ ٣١٠.
(١٠)، (١١)، (١٢) المصدر نفسه صـ ٣١١.

الجند، وديوان الخراج، وديـوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان البـريد، وديوان الطراز، وديوان المستغلات، وديوان الصدقات، وديوان النفقات، وفى عهد هشام بن عبد الملك أقيم ديوان جديد هــو ديوان الأحباس - الأوقـاف - فقـد كان أول قاض بمصـر وضع يده على الأحـباس توبة بن نمر فى زمــن هشام، وإنما كـانت الأحبـاس فى أيدى أهلهـا وفى أيدى أوصيائهم، فلـما كان توبة قال: ما أرى مـرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقـراء والمساكين، فأرى أن أضع يدى عليها حفظًا لها ... فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديوانًا عظيمًا، وكان ذلك سنة ١١٨ هـ[١] . وبعد هذا أخذ القـضاة ينظرون فى أمور الحجـر وغيره، ثم جمعوا النظر فى الحدود إلى النظر فى الحقوق[٢].

هذه بعض الأمور المتعلقة بالنظام المالى فى عهد هشـام، وقد اختصرتها -قدر الإمكان- خوفًا من الإطالة.

****

(١) الإدارة فى العصر الأموى، نجدة خماش ص ٢٨٩.

(٢) عبقرية الإسلام فى أصول الحكم ص ٣٤٤.

المبحث الرابع

الثورات فى عهد هشام بن عبد الملك

أولاً: ثورة زيد بن على بن الحسين:

١- اسمه ونسبه:

هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه[١]، وهو بذلك ينتسب من قِبل أبيه إلى على بن أبى طالب ابن عم الرسول ﷺ، وإلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ[٢]، وكان يكنى أبا الحسين[٣]، وهو من رجال الطبقة الثالثة من أهل المدينة من التابعين[٤]، ووالدته جارية سندية وكانت أم ولد، وتذكر بعض المصادر أن المختار بن أبى عبيد الثقفى اشتراها واستحسنها ووجدها لا تليق إلا بعلى بن الحسين، وليس هناك أحد أحق بها منه فأهداها إليه[٥]، وقيل إن على بن الحسين هو الذى اشتراها . وقد مدحها زيد بقوله: لقد صبرت بعد وفاة سيدها إذ لم يصبر غيرها، وقالت عنها فاطمة بنت الحسين: أما والله لنعم دخيلة القوم كانت[٦] ، ويروى ابن قتيبة أن اسمها حيدان[٧] وقيل: أم حيدان[٨]. وأما أبوه فهو على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، وهو من رجال الطبقة الثانية من التابعين[٩] ، ومن كبار ساداتهم دينًا وعلمًا[١٠]، ومن فقهاء أهل البيت وأفاضل بنى هاشم وعباد المدينة[١١]، وسيأتى الحديث عنه من ضمن شيوخ زيد بإذن الله.

أ- مولده: اختلفت الروايات فى سنة ولادة زيد، واختار الدكتور شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب أنه ولد عام ٧٨ هـ[١٢] ، وهذا يتفق مع قول صاحب فوات الوفيات من أن

(١) تهذيب التهذيب (٣/ ٤١٩)، الإمام زيد المفترى عليه، للخطيب صـ ٣٤. .
(٢) الإمام زيد المفترى عليه، للخطيب صـ ٣٤.
(٣) تهذيب التهذيب (١٩/ ٤١٩)، المعارف لابن قتيبة صـ٣٦٥.
(٤) الطبقات (٥/ ٢١١)، نسب قريش (٢/ ٦٠)، الحياة السياسية والفكرية للزيدية فى المشرق الإسلامى ص٢٦.
(٥) الحياة السياسية والفكرية للزيدية فى المشرق الإسلامى صـ٢٦.
(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الحياة السياسية والفكرية للزيدية صـ ٢٦.
(٧) الحياة السياسية والفكرية للزيدية صـ٢٦.
(٨) الإمام زيد المفترى عليه صـ ٣٤.
(٩) الطبقات (٥/ ٢١١)، الحياة السياسية والفكرية للزيدية صـ ٢٦.
(١٠) وفيات الأعيان (٢/ ٢٦٧).
(١١) مشاهير علماء الأمصار صـ ٦٣، الحياة السياسية والفكرية للزيدية صـ ٢٧.
(١٢) الإمام زيد المفترى عليه صـ ٣٥.

زيدًا مات عن أربع وأربعين سنة[1]، ويبدو أن الشيخ أبا زهرة قد ارتضى القول بوفاة زيد عن اثنتين وأربعين سنة، فجعل مولده عام ٨٠ هـ[2].

ب- زواجه، وأبناؤه: تزوج زيد ثلاث نسوة؛ تزوج أربطة بنت أبى هاشم بن عبد الله بن محمد بن الحنفية، وقد جاءت له بولد وهو يحيى[3]، وعندما كان فى الكوفة تزوج اثنتين[4]، وهما ابنة يعقوب بن عبد الله السلمى أحد بنى فرقد، وابنة عبد الله بن أبى العنبس الأسدى[5]، وتزوج بأم ولد فجاءت له بثلاثة أولاد، عيسى، وحسين، ومحمد[6].

ج- طلبه للعلم وبيئته التى ترعرع فيها: نشأ زيد -رحمه الله- بالمدينة، وكانت منارة العلم بما كان فيها من الصحابة والتابعين، وترعرع فى بيت من بيوت العلم عامر بميراث النبوة، فوالده كان من كبار التابعين وساداتهم دينًا وعلمًا[7]، وعاش مع والده ثمانى عشرة سنة من حياته، ورباه خلالها على الخلق الرفيع، وغذاه بالروح الدينية العالية، وبعد وفاة والده انتقلت كفالته إلى أخيه الأكبر محمد الباقر، وهو من هو فى زهده وورعه وتقواه، ولقد كان للباقر أثره كذلك فى نشأة أخيه زيد وهو لا يزال فى تلك السن التى آلت إليه رعايته فيها، ولقد طبعت هذه البيئة الخيِّرة فى قلب زيد تقوى الله عز وجل، والخوف منه، وحب تلاوة القرآن، والزهد فى هذه الدنيا[8]، ويقول زيد عن نفسه: والله ما كذبت كذبة مُنذ عرفت يمينى من شمالى، ولا انتهكت محرمًا لله عز وجل مُنذ أن عرفت أن الله يؤاخذنى[9]. ولقد كان تأثره بوالده وأخيه وبيئته التى نشأ فيها واضح المعالم، وفى هذه البيئة العلمية المتدينة، بدأ الإمام زيد طلبه للعلم، فحفظ القرآن الكريم جريًا على عادة الصحابة والتابعين فى تحفيظ أبنائهم القرآن الكريم منذ حداثة سنهم، ولقد كان للإمام زيد اشتغال دائم بالقرآن الكريم، فهو يقول عن نفسه: لقد خلوت بالقرآن الكريم ثلاث عشرة سنة أقرؤه وأتدبره[10] وقد توسع فى التفسير والسنة وعلومها والفقه والعقائد وأصول الدين، واللغة وآدابها، وغير ذلك من ألوان الثقافة التى كانت سائدة فى عصره، فكان بهذه

(١) فوات الوفيات (٢/٢٧).

(٢) زيد بن على، لأبى زهرة ص ٢٢.

(٣) الإمام زيد المفترى عليه ص٤٠.

(٤) الخطط، للمقريزى (٣/٣٣٩).

(٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه ص ٤١.

(٦) طبقات ابن سعد (٥/٣٢٥).

(٧)، (٨) الإمام زيد المفترى عليه ص ٣٩.

(٩) الروض النضير لأحمد الساغى (١/١٢٨).

(١٠) المصدر نفسه (١/٩٨)، الإمام زيد المفترى عليه ص ٤٠.

العلوم الواسعة من علماء الإسلام الذين يشهد لهم القريب والبعيد بالعلم والتفوق(١)، فهذا أخوه محمد الباقر يقول لمن سأله عنه: سألتني عن رجل ملئ علمًا من أطراف شعره إلى قدميه(٢). ويقول أبو إسحاق السبيعي: رأيت زيد بن علي فلم أر في أهله مثله، ولا أعلم منه ولا أفضل(٣). وقال أبو حنيفة: شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله، فما رأيت في زمانه أفقه ولا أعلم منه(٤) وقال عنه الشعبي: ما ولدت النساء أفضل من زيد بن علي، ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد(٥)، ومن كلام الذهبي عن زيد قوله: كان ذا علم وجلال وصلاح(٦) وقال في تاريخ الإسلام: كان أحد العلماء الصلحاء(٧)، وهذه تزكية معتبرة من علماء أهل السنة تدل على أنه أحد أعلام مدرسة أهل السنة والجماعة.

٢- شيوخ زيد بن علي:

أ- علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب: تتلمذ زيد على يد أبيه علي زين العابدين وروى عنه(٨)، وقد كان علي زين العابدين عالمًا بالحديث لكثرة من أخذ عنهم من الصحابة، والتابعين(٩)، بالإضافة إلى اشتغاله بالفقه، وكان هو الأستاذ الأول الذي أخذ عنه زيد بن علي(١٠) ولعلي زين العابدين مواقف مشهورة منها:

- **شدة احترام الناس له وقصيدة الفرزدق في مدحه:** كانت لعلي زين العابدين مكانة عظيمة في عيون الناس، وكانوا يحبونه ويقدرونه لقرابته من رسول الله ﷺ، وصلته لذكرى أبيه الشهيد الحسين رضي الله عنه الذي لم يبق من ولده سواه، وازداد هو إقبالا على العلم واشتغالاً بالعبادة حتى لُقِّب زين العابدين، وكان يكنى بأبي الحسين، وقيل: بأبي الحسن، وقيل: بأبي محمد. وكانت له جلالة عظيمة، وحُقَّ له -والله- ذلك، فقد كان أهلاً للإمامة العظمى لشرفه وسؤدده، وعلمه وكمال عقله(١١)، ومما يدل على مكانة زين العابدين في عصره أنه لما حج هشام بن عبد الملك في خلافة أخيه الوليد أراد أن يستلم

(١) الإمام زيد بن علي المفترى عليه ص ٧١.
(٢) الروض النضير (١/ ١٠٤).
(٣) الإمام زيد بن علي المفترى عليه ص ٧١.
(٤) الخطط (٢/ ٤٣٦)، الحياة السياسية والفكرية، ص٣٧.
(٥) الخطط للمقريزي، نقلاً عن الحياة السياسية والفكرية ص ٣٧.
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٣٦، ٢٣٧).
(٧) تاريخ الإسلام للذهبي، نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه ص ٧٢.
(٨) نسب قريش (٢/ ٦١)، الحياة السياسية والفكرية ص٣٩.
(٩) صفة الصفوة (٢/ ١٠٢)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٧).
(١٠) الحياة السياسية والفكرية للزيدية ص٣٩.
(١١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٦).

الركن فلم يستطع من الزحام، فنصب له منبر، فاستلمه: وقام أهل الشام حوله، فجاء زين العابدين ليستلم الحجر فأوسع له الناس إجلالاً له واحترامًا، وكان فى بزة حسنة وهيئة حسنة وشكل مليح، فقال أهل الشام لهشام: من هذا ؟ فقال: لا أعرفه. فقال: الفرزدق - وكان حاضرًا-: أنا أعرفه، وأنشد[1]:

هذا سَليلُ حسين وابن فاطمة ... بنت الرسول، انجابت به الظلم[2]
هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلُّ والحرمُ
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقىُّ النقىُّ الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها: ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
يُغْضى حياء ويُغضى من مهابته ... فما يكلَّمُ إلا حين يبتسم
مشقه من رسول الله نبعته ... طابت عناصرها والخيمُ والشيم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد خُتموا
كلتا يديه غياث عم نفعهما ... تستوكفان ولا يعروهما عدم
ما قال: لا قطُّ إلا فى تشهده ... لولا التشهد كانت لاءَه نَعَمُ
من معشر حبهم دين، وبغضهم ... كفر، وقربُهُمُ منجى ومعتصم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم ... فى كل حكم ومختوم به الكَلِمُ
إن عُدَّ أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل: من خير أهل الأرض؟ قيل: همُ
فليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم

فأمر هشام بحبس الفرزدق، فحبس بعُسْفان، وبعث إليه على بن الحسين باثنى عشر ألف درهم وقال: أعذر أبا فراس، فردَّها، وقال: ما قلت ذلك إلا غضبًا لله ولرسوله، فردّها إليه وقال: بحقى عليك لما قبلتها، فقد علم الله نيتك ورأى مكانك، فقبلها[3] وكانت أم زين العابدين أم ولد اسمها سلافة بنت ملك الفرس يزدجرد، وقيل: غزالة[4].

(١) علموا أولادكم محبة آل بيت النبى صـ ١٦٢.
(٢) شذرات الذهب (٢/ ٥٩).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٩).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ٣٨٦).

- تمسكه بالكتاب والسنة، ودفاعه عن الصحابة، وحب العلماء له: كان زين العابدين شديد التمسك بالكتاب والسنة وما كان عليه جده علي بن أبي طالب وأبوه الحسين الشهيد رضى الله عنهما، لا يحيد عنه قيد أنملة في عقيدة أو عبادة أو عمل، كثير التبتل والورع، وكان حسن الرأي بالشيخين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما، وبالخليفة الراشد عثمان رضى الله عنه، شديد الحب لهم، والتقدير لأعمالهم، شديد الحب للصحابة أجمعين، فلما أظهر بعض المتسترين بآل البيت الطعن بأبي بكر وعمر تصدى لهم زين العابدين، ففضح مكرهم، وأظهر البراءة منهم[1]، فعن أبي حازم المدني قال: ما رأيت هاشميًا أفقه من علي بن الحسين؛ سمعته وقد سئل: كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر عند رسول الله ﷺ ؟ فأشار بيده إلى القبر ثم قال: بمنزلتهما منه الساعة[2]. وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: جاء رجل إلى أبي فقال: أخبرني عن أبي بكر ؟ قال: عن الصدِّيق تسأل؟ قال: وتُسميه الصِّدِّيق ؟ قال: ثكلتك أمك، قد سمّاه صديقًا من هو خير منِّي، رسول الله ﷺ، والمهاجرون والأنصار، فمن لم يُسمِّه صديقًا، فلا صدق الله قوله، اذهب فأحبَّ أبا بكر وعمر، وتولهما، فما كان من أمر ففي عُنُقي[3]، وعن محمد بن علي عن أبيه، قال: قدم قوم من العراق فجلسوا إليَّ فذكروا أبا بكر وعمر فسبوهما، ثم ابتركوا في عثمان ابتراكًا فشتمتهم[4]. وقد قال علي بن الحسين: والله ما قُتل عثمان -رحمه الله- على وجه الحق[5]. وكان -رحمه الله- يبين للناس الحقائق والعقائد الصحيحة، قال علي بن الحسين: جاءني رجل فقال: جئتك في حاجة، وما جئت حاجاً ولا معتمراً، قلت: وما هي؟ قال: جئت لأسألك متى يبعث عليّ؟ فقلت: يبعث -والله - يوم القيامة، ثم تهمُّهُ نفسه[6]، وعن الزهري قال: سألت علي بن الحسين عن القرآن فقال: كتاب الله وكلامه[7]، فقد كان زين العابدين من أئمة أهل السنة والجماعة، وقد استنكر الغلو في حب أهل البيت، فقد قال: أيها الناس أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً[8]. لقد كان زين العابدين ثقة مأمونا رفيعًا ورعًا[9] وكان يأتي لعبيد الله بن عبد الله، وكان هذا العالم إذا دخل في صلاته فقعد إليه إنسان لم يقبل عليه حتى يفرغ، وإنَّ عليَّ بن الحسين كان من أهل الفضل وكان يأتيه، فيجلس إليه، فيطوِّل عبيد الله في صلاته ولا يلتفت إليه، فقيل

(١) علموا أولادكم محبة آل بيت رسول الله صـ ١٦٣.
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٩٥). (٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٤/ ٣٩٥).
(٦)، (٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٩٦) (٨) المصدر نفسه (٤/ ٣٨٩).
(٩) المصدر نفسه (٤/ ٣٨٧)

له: عليٌّ وهو ممَّن هـو منه، فـقال: لا بُدَّ لمـن طلب هذا الأمـر أن يُعنَّى به[1] وكان زين العابدين متواضعًا حريصًا على طلب العلم، فكان يدخل المسجد، فيشق الناس حتى يجلس في حلقة زيد بـن أسلم، فقال له نافع بن جـبير: غـفر الله لك! أنت سـيِّدُ الناس، تأتي تتخطى حتى تجلس مع هذا العبد، فقـال على بن الحسين: العلم يبتغى ويُؤتى ويطلب من حيث كان[2]. وكان لا يستنكف أن يسأل عـن العلم، وكان من شيوخه سعيـد بن جبير، فعن مسعـود بن مالك، قال: قال لى على بن الحسين: تستطيع أن تجمع بينى وبين سعيد ابن جبيـر؟ قلت: ما حاجتك إليـه؟ قال: أشياء أريد أن أسـأله عنها، إن الناس يأتوننا بما ليس عندنا[3]، وعن الزهرى قـال: كان على بن الحـسين من أفضـل أهل بيته وأحـسنهم طاعة، وأحبهم إلى مـروان وإلى عبد الملك[4] وكان يصلى خلف الأمويين من غـير تقية، فعن أبى جعفر، قال: إنا لنُصلى -خلفهم يعنى الأمويين - من غير تقيَّة، وأشهد على أبى أنه كان يُصلى خلفهم من غير تقيَّة[5]. وقد شهد سعيـد بن المسيب لعلى بن الحسين بشدة ورعه، وقـال: ما رأيت أورع منه[6]، وقال جـويرية بن أسماء: ما أكل على بن الحـسين بقرابته من رسول الله ﷺ درهمًا قطُّ[7].

- **زهده وعبـادته ودعاؤه وصـدقاته:** كان على بن الحـسين عابدًا زاهدًا وفـيًا جوادًا منيـبًا أجمع معاصـروه أنه كان أعبد الناس، وكان إذا مشى إلى الصلاة أخـذته رعدة، فقيل له، فقال: تدرون بين يدى من أقوم ومن أُناجى؟![8] وعنه أنه كان إذا توضأ اصفرَّ[9]، وقيل: إنه كـان يُصلى فى كل يوم وليلة ألف ركـعـة إلى أن مـات. وكان يسـمى زين العـابدين لعبادته[10]، وقال عنه ابن تيمية: على بن الحسـين زين العابدين وقرة عين الإسلام لكثرة ما اشتهر عنه من عبادة وزهد وورع وتسامح وعلو أخلاق[11] وكان كثير القيـام، كثير البر فى رمضان، وكـان كثير الصـدقة فى الحج، كثيـر الصدقة فى سائر أحوالـه، وكان يحمل الخبز بالليل على ظهره يتبع به المساكين فى الظلمة ويقول: إن الصدقة فى سواد الليل تطفئُ غضب الرب[12]، وكان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات على بن الحسين، فـقدوا ذلك الذى كان يؤتون بالليل[13]. ولمّا مات عليُّ بن الحسين وجـدوا بظهره أثرًا ممّا كـان ينقل الجُـرُب بالليل إلى منازل الأرامل[14]، ولما مـات وجدوه

(1) ، (2) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٨٨). .
(3)، (4) المصدر نفسه (٤/٣٨٩) .
(5) المصدر نفسه (٤/٣٩٧) .
(6)، (7)، (8) المصدر نفسه (٤/ ٣٩١)
(9)، (10) المصدر نفسه (٤/٣٩٢) .
(11)، (12)، (13)، (14) المصدر نفسه (٤/ ٣٩٣) .

يعول مائة أهل بيت[١]، وكان كثير الدعاء، فعن طاووس قال: سمعت على بن الحسين وهو ساجد فى الحجر يقول: عُبَيْدُكَ بِفنائك، مسكينُك بفنائك، سائلك بفنائك، فقيرك بفنائك. قال: فوالله ما دعوت بها فى كرب قط إلا كُشف عنى[٢]. وكان يقول: اللهم إنى أعوذ بك أن تُحسِّن فى لوائح[٣] العيون علانيتى، وتُقبِّحَ فى خفيات العيون سريرتى؛ اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إلىَّ، فإذا عُدت، فعد علَىَّ[٤].

- **وفاته:** مات سنة أربع وتسعين، وروى ذلك عن جعفر الصادق، وقيل: سنة اثنتين وتسعين، وقيل: سنة ثلاث. وقيل: سنة خمس وتسعين: والأول أصح[٥]. وقبره بالبقيع، ولا بقية للحسين بن على إلا من قبل ابنه زين العابدين[٦].

ب- **أبو جعفر الباقر محمد بن على بن الحسين:** ومن شيوخ زيد بن على أخوه محمد بن على المعروف بالباقر، وسمى بالباقر لأنه تبقر العلم وتوسع فيه، وقد أخذ الباقر العلم عن كثير من الصحابة والتابعين وروى عنهم، فقد روى عن أبيه على بن الحسين، وعن ابن عمر وجابر، وأبى سعيد وعبد الله بن جعفر وسعيد بن المسيب وأبيه زين العابدين ومحمد ابن الحنفية، وطائفة[٧].

ولد محمد الباقر سنة ست وخمسين فى حياة عائشة وأبى هريرة[٨]، وكان أحد من جمع بين العلم والعمل، والسؤدُد والشرف، والثقة والرَّزانة، وكان أهلاً للخلافة، وهو أحد الأئمة الاثنى عشر الذين تبجلهم الشيعة الإمامية وتقول بعصمتهم وبمعرفتهم بجميع الدين.. فلا عصمة إلا للملائكة والنبيين، وكل أحد يصيب ويخطئ ويؤخذ من قوله ويترك سوى النبى ﷺ فإنه معصوم، مؤيد بالوحى[٩]. ولقد كان أبو جعفر إمامًا، مجتهدًا، تاليًا لكتاب الله، كبير الشأن، ولكن لا يبلغ فى القرآن درجة ابن كثير ونحوه، ولا فى الفقه درجة أبى الزناد، وربيعة، ولا فى الحفظ ومعرفة السنن درجة قتادة وابن شهاب، فلا نحابيه، ولا نحيف عليه، ونحبه فى الله لما تجمع فيه من صفات الكمال[١٠]، وكان من المدافعين عن أبى بكر وعمر والصحابة، قال ابن فُضَيل عن سالم بن أبى حفصة: سألت أبا جعفر وابنه جعفر، عن أبى بكر وعُمرَ فقالا لى: يا سالم، تولّهما، وابرأ من عدوِّهما،

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٤/٣٩٣).
(٣) لوائح الشيء: ما يبدو منه وتظهر علامته عليه.
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/٣٩٦).
(٥)، (٦) المصدر نفسه (٤/٤٠٠).
(٧)، (٨) المصدر نفسه (٤/٤٠١).
(٩) المصدر نفسه (٤/٤٠٢).
(١٠) المصدر نفسه (٤/٤٠٢). ابن كثير هو عبد الله بن كثير، إمام المكيين فى القراءة، توفى عام ١٢٠هـ، انظر: علم القراءات ص ١٧٩.

فإنهما كانا إمامَيْ هدى[1]. علق الذهبي على هذا الأثر فقال: كانَ سالم فيه تشيع ظاهر، ومع هذا فَيُبثُّ هذا القول الحقّ، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذو الفضل، وكذلك ناقلها ابن فُضيل، شيعي ثقة، فعثَّر الله شيعة زماننا، ما أغرقهم في الجهل والكذب! فينالون من الشيخين وزيرى المصطفى ﷺ، ويحملون هذا القول من الباقر والصادق على التقية[2]. وعن بسَّام الصَّيرفيّ، قال: سألت أبا جعفر عن أبى بكر وعمر، فقال: والله إنى لأتولاهما وأستغفر لهما، وما أدركت أحدًا من أهل بيتى إلا وهو يتولاهما[3] وعن جابر الجعفى عن محمد بن على، قال: أجمع بنو فاطمة على أن يقولوا فى أبى بكر وعمر أحسن ما يكون من القول[4]، قال الذهبى: وأم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق هى صاحبة أبى جعفر الباقر وأم ولده جعفر الصادق[5]. وعن عروة بن عبد الله، قال: سألت أبا جعفر محمد بن على عن حلية السيوف فقال: لا بأس به، قد حلّى أبو بكر الصِّديق سيفه، قلت: وتقول الصديق ؟ فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال: نعم الصِّدِّيق، نعم الصِّدِّيق فمن لم يقل الصِّدِّيق فلا صدق الله له قولاً فى الدنيا والآخرة[6].

وقال جابر الجعفى: قال لى محمد بن على: يا جابر ؛ بلغنى أن قومًا بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا ويتناولون أبا بكر وعمر ويزعمون أنى أمرتهم بذلك، فأبلغهم عنى أنى إلى الله منهم برىء، والذى نفس محمد بيده - يعنى نفسه - لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم، لا نالتنى شفاعة محمد ﷺ إن لم أكن أستغفر لهما وأترحم عليهما، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما، فأبلغهم أنى برىء منهم وممن تبرأ من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما[7]. وعن عبد الملك بن أبى سليمان قال: قلت لمحمد بن على: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥]. قال: هم أصحاب النبى ﷺ. قلت: إنهم يقولون: هو على. قال: علىٌّ منهم[8]. فهذا كلام جليل من الإمام أبى جعفر محمد بن على بن الحسين فى الاعتراف بالفضل لأهل الفضل، والكلام فى الاعتراف بالفضل لأهل الفضل، والكلام فى إثبات عدالة الصحابة رضى الله عنهم وبيان فضلهم يعد من الأعمال الصالحة التى يثاب عليها فاعلها، خاصة إذا صدر ذلك من علماء آل البيت، حيث نسب إليهم المبطلون كلامًا فى التنقيص من قدر الصحابة هم منه براء[9].

(1) سير أعلام النبلاء (٤/٤٠٢).
(2)، (3) المصدر نفسه (٤/٤٠٣).
(4) الطبقات (٥/٣٢١)، سير أعلام النبلاء (٤/٤٠٣).
(5) سير أعلام النبلاء (٤/٤٠٦).
(6) الحلية (٣/ ١٨٤، ١٨٥)، سير أعلام النبلاء (٤/٤٠٨).
(7) البداية والنهاية، نقلاً عن التاريخ الإسلامى للحميدى (١٧/ ٢٨٤).
(8)، (9) سير أعلام النبلاء (٤/٤٠٦).

- **من أقواله:** له كلام نافع فى الحكم والمواعظ منه: أهل التقوى أيسر أهل الدُّنيا مؤونة، وأكثرهم معونة، إن نسيت ذكَّروك، وإن ذكرت أعانوك، قوَّالون بحق الله، قوَّامون بأمر الله[1] ومنه: أنزل الدنيا كمنزل نزلته وارتحلت عنه، أو كمال أصبته فى منامك فاستيقظت وليس معك منه شيء[2]. وقال: اذكروا من عظمة الله ما شئتم، ولا تذكرون منه شيئًا إلا وهى أعظم منه، واذكروا من النار ما شئتم، ولا تذكرون منها شيئًا إلا وهى أشدُّ منه، واذكروا من الجنة ما شئتم، ولا تذكرون منها شيئًا إلا وهى أفضل[3]. وقال فى الكِبْر: ما دخل قلب امرئ من الكِبْر شيء إلا نقص من عقله مقدار ذلك[4]. وقال: الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا تصيب الذاكر[5]. وقال: سلاح اللئام قبح الكلام[6].

- **وفاته:** مات أبو جعفر محمد الباقر سنة أربع ومائة بالمدينة، وقيل: توفى سنة سبع عشرة[7] وهو هاشمى من جهة أبيه وأمه، فأمه هى أم عبد الله بنت الحسن بن على[8].

ج- أبان بن عثمان بن عفان: من شيوخ زيد بن على الذين روى عنهم الحديث أبان بن عثمان بن عفان، الإمام الفقيه[9]، وحدّث عنه عمرو بن دينار والزهرى وأبو الزناد وجماعة قال يحيى بن قطان: فقهاء المدينة عشرة: أبان بن عثمان وسعيد بن المسيب... وذكر سائرهم، وعن ابن أبى الزناد، عن أبيه، عن أبان: سمعت عثمان يقول: من قال فى أوّل يومه وليلته: باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيءٌ فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم، لم يضره ذلك اليوم شيء، أو تلك الليلة، فلما أصاب أبان الفالج قال: إنى -والله- نسيت هذا الدعاء هذه الليلة ليمضى فىَّ أمر الله[10]. وقال خليفة: توفى أبان سنة خمس ومائة[11].

ومن خلال شيوخ زيد نلاحظ أنه تأثر بالمدرسة المدنية السنية ويعتبر فى علمه وفهمه امتدادًا لها، فوالده وأخوه وأبان بن عثمان وغيرهم كلهم من علماء المدرسة المدنية.

(١) شذرات الذهب (٢/ ٧٢) .
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٧٢ ، ٧٣) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٠٦) .
(٤) الحلية (٣/ ١٨٠)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٠٨) .
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٠٨) .
(٦)، (٧) المصدر نفسه (٤/ ٤٠٩)
(٨) المصدر نفسه (٤/ ٤٠٣) .
(٩) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٥١)، الحياة السياسية والفكرية صـ ٤٠ .
(١٠) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٥٢).
(١١) المصدر نفسه (٤/ ٣٥٢) .

د- نفي تتلمذ زيد بن عليّ على واصل بن عطاء المعتزلي: يرى فريق من العلماء أن زيدًا قد تتلمذ على يد واصل بن عطاء وأخذ عنه الاعتزال كابن خلدون[1]، والشهرستانى[2]، ومحمد شاكر الكتبى[3] وغيرهم، ولذا فإن مؤلفى طبقات المعتزلة يجعلون زيدًا من الطبقة الثالثة، كما يرى المرتضى صاحب المنية والأمل[4]، والقاضى عبد الجبار صاحب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة[5]، والواقع أن الدراسة الفاحصة تكشف لنا عن بطلان دعوى تلمذة زيد لواصل بن عطاء، وفى سبيل إبراز هذه الحقيقة نقدم الأدلة التالية:

ما قيل من إقامة زيد بالبصرة واختياره لها ليعلم أصول العقائد عن الفرق المختلفة، وهذا ما قاله الشيخ أبو زهرة رحمه الله[6] وذكر قريبًا من هذا الدكتور على سامى النشار[7]، ولم يذكره واحد من المؤرخين القدماء سواء فى ذلك الطبرى وابن كثير، واليعقوبى والمسعودى والمقدسى وابن الأثير وغيرهم، وكل ما ذكره الطبرى من إقامة زيد بالبصرة أنه أقام بها شهرين[8]، وأما ابن العماد صاحب شذرات الذهب فذكر أن زيدًا لم يمكث إلا شهرًا واحدًا[9] ، وأثناء إقامته بالكوفة، وهو يعد العدة ويجمع الرجال تأهبًا للخروج على بنى أمية[10]. أى أنه ذهب إليها بعد أن جاوز الأربعين من عمره ليقوم بكل ما يتطلبه الخروج من جهد وعمل، وفى مثل هذه السن الناضجة، وفى مثل هذه الظروف أيضًا لا يمكن أن يقال إن زيدًا تتلمذ فيها على واصل. وحتى مع القول بأنه التقى به هناك -وهوفرض لا ننفيه- فإننا نمنع أن يكون زيد فى نضجه العلمى، ومشاغله العملية حينذاك قد تتلمذ على واصل وأخذ عنه [11].

- ما قيل من ذهاب واصل بن عطاء إلى المدينة واجتماع آل البيت به، ومنهم الإمام زيد، ووقوع الخلاف بينه وبين ابن أخيه جعفر الصادق، وهذه القصة ذكرها اثنان من شيوخ المعتزلة وهما الحسين بن المرتضى فى المنية والأمل والقاضى عبد الجبار فى فضل طبقات المعتزلة،

(١) تاريخ ابن خلدون (٣/ ١٧٢)، الحياة السياسية والفكرية ص ٤٠ .
(٢) الملل والنحل (١/ ٢٠٧ ، ٢٠٨). (٣) فوات الوفيات، للكتبى (٣/ ٣٧) .
(٤) المنية والأمل، نقلاً عن الإمام زيد المفتى عليه ص ٥٥
(٥) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، نقلاً عن الإمام زيد ص ٥٥
(٦) زيد بن على لأبى زهرة ص ٣٩، ٤٠ .
(٧) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام (١/ ١٢١) .
(٨) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه ص ٥٧ .
(٩)، (١٠) شذرات الذهب (٢/ ٩٢). (١١) الإمام زيد المفترى عليه ص٥٧.

ومن المعروف أن المعتزلة فى سبيل نصرة مذهبهم وبيان أصالته فى نظرهم يرتفعون بطبقاتهم الأولى ليس لآل البيت، بل إلى الصحابة رضى الله عنهم[١]، فلا عجب أن يجعلوا زيداً من هذه الطبقات، فقد جعلوا غيره من أئمة أهل البيت كالصادق والباقر وزين العابدين وآبائهم وأجدادهم كذلك، ونسبوا إليهم من الأقوال ما يظهر اعتزالهم[٢]، بينما كان هؤلاء الأئمة من علماء الحديث، وكانوا على عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد أثنى عليهم علماء أهل السنة وعلى رأسهم ابن تيمية[٣]، فلو كان هناك مغمز فى عقيدتهم لذكره، والإمام زيد واحد من هؤلاء الأئمة الأعلام الذين استحقوا ثناء أهل السنة وتوثيقهم[٤] يقول ابن تيمية: فليس من أئمة أهل البيت -مثل على بن الحسين وأبى جعفر الباقر وابنه جعفر بن محمد- من كان ينكر الرؤية ولا يقول بخلق القرآن ولا ينكر القدر ولا يقول بالنص على علىّ ولا بعصمة الأئمة الاثنى عشر، ولا يسب أبا بكر وعمر. والمقولات الثابتة المتواترة عن هؤلاء معروفة موجودة وكانت مما يعتمد عليه أهل السنة[٥]. ويبين ابن تيمية أن أئمة أهل البيت كانوا على عقيدة أهل السنة فيقول: إن الأئمة المشهورين كلهم يثبتون الصفات لله تعالى ويقولون: إن القرآن كلام الله ليس بمخلوق ويقولون: إن الله يُرى فى الآخرة، وهذا هو مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أهل البيت وغيرهم[٦] . وقد نص علماء أهل السنة والجماعة على أن زيداً كان من أهل السنة، يقول ابن تيمية مبيناً أن زيداً كان من أهل السنة والجماعة رغم أن الرافضة يفسقونه ويكفرونه: فليست ذرية فاطمة كلهم محرّمين على النار، بل منهم البرّ والفاجر والرافضة تشهد على كثير منهم، وهم أهل السنة منهم الموالون لأبى بكر وعمر كزيد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وأمثاله من ذرية فاطمة رضى الله عنها، فإن الرافضة رفضوا زيد بن على ومن ولاه وشهدوا عليهم بالكفر والفسق[٧]. ويقول عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: فأئمة أهل البيت أمثال زين العابدين وابنه زيد بن على وأشباههم رضى الله عنهم شهد لهم أهل العلم بالصدق والأمانة والديانة[٨] وقد وثقه علماء الجرح والتعديل، ولم يرموه بأى بدعة من بدع الاعتزال[٩] أو غيرها.

(١) فرق وطبقات المعتزلة، نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه ص ٥٧.

(٢) فرق وطبقات المعتزلة، نقلاً عن الإمام زيد ص٥٨

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٢٣، ١٢٤).

(٤) الإمام زيد المفترى عليه ص ٥٨.

(٥) منهاج السنة (١/ ٢٢٢)، الإمام زيد المفترى عليه ص ١٤٨.

(٦) منهاج السنة (١/ ١٧٣)، الإمام زيد المفترى عليه ص ١٤٨.

(٧) منهاج الاعتدال ص ١٧٢، الإمام زيد ص ١٤٩.

(٨) جواب أهل السنة النبوية ص ١٥١.

(٩) الإمام زيد المفترى عليه ص ١٥٠.

- قال أبو حاتم البستى عن زيد: كان من أفاضل أهل البيت وعبادهم(1).

- وقال عنه الذهبى: كان أحد العلماء الصلحاء، بدت منه هفوة فكانت سببًا لرفع درجته فى الآخرة (2).

- وقال ابن حجر: ثقة من الطبقة الرابعة وهو الذى تنسب إليه الزيدية(3). وقد سأل شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله- عن زيد بن على فأجاب بأنه لم يسمع أحدًا من علماء السلف لا يثنى عليه، وأن الذين أصبحوا معتزلة هم أتباعه، أما هو فمن خيار التابعين(4).

- ثم إن الرواية التى أشارت إلى ذهاب واصل بن عطاء إلى المدينة واجتماعه بآل البيت ومنهم الإمام زيد، ووقوع الخلاف بسبب ذلك بينه وبين ابن أخيه جعفر الصادق والتى ذكرها المرتضى فى المنية والأمل، ليس لها سند تاريخى، وجاءت هذه الرواية بصيغة التضعيف حيث قال: روى أن واصلاً...(5) وكذلك نجد القاضى عبد الجبار يسوق هذه القصة بصيغة التضعيف(6).

- لقد كان زيد يرى أن جده عليًا رضى الله عنه من أفاضل الصحابة بعد رسول الله ﷺ، وأن منزلته من رسول الله ﷺ كمنزلة هارون من موسى، ومن ثم فلا يعقل أن يتتلمذ زيد على واصل، وهو يعلم أن واصلاً لم يكن يرى هذا الرأى فى جده رضى الله عنه، فلم يسو بينه وبين كثير من الصحابة فى الفضل وقبول الشهادة، ولم يكن كذلك قاطعًا بصحة موقفه فى حروبه مع الخارجين عليه، وإنما كان يجوز الخطأ على جده فى تلك الحروب، وهو الإمام الذى بايعه الصحابة رضوان الله عليهم، ولم يكن ليقبل شهادته ولو على بقل(7)، فكيف يقبل زيد أن يأخذ علمه من رجل مبتدع هذا شأنه، وإن الخلاف على هذه القضية خلاف جوهرى، وفى نفس الوقت خلاف حساس يتصل بالإمام زيد فى شخص جده، وليس خلافًا على أمر آخر، فلا يمكن أن يجتمع الرجلان على مذهب واحد ورابطة واحدة مع وقوع هذا الخلاف بينهما، ولا نظن أن زيدًا كان يقبل أن يتتلمذ على واصل وأن يأخذ عنه رغم قوله الباطل فى جده على رضى الله عنه حتى يحتاج إلى إنكار أخيه الباقر عليه، كما يروى

(1) الإمام زيد المفترى عليه ص ١٥٠، الثقات لابن حبان رقم ٢٥١١.
(2) تاريخ الإسلام للذهبى (٥/ ٧٥)، الإمام زيد ص ١٥٠.
(3) تهذيب التهذيب (٣/ ٤١٩).
(4) الإمام زيد بن على المفترى عليه ص ١٤٩.
(5)، (6) المصدر نفسه ص ٥٨.
(7) الملل والنحل للشهرستانى (١/ ٦١، ٦٢).

الشهرستاني أن محمد الباقر أنكر على أخيه زيد أخذه العلم عن واصل وهو يجوّز الخطأ على جده في قتاله للناكثين والقاسطين[1]. وكيف نقبل القول بمعرفة الباقر بعلاقة علمية تتصل بأمور العقيدة قائمة بين زيد وواصل ثم نجده يثني عليه هذا الثناء العاطر ويشهد له تلك الشهادة الكبيرة[2]، في قوله لجابر الجعفي، عندما سأله عن أخيه زيد: سألتني عن رجل مُلئ إيمانًا وعلمًا من أطراف شعره إلى قدمه، وهو سيد أهل بيته[3].

٣- العلاقة بين جعفر الصادق وزيد بن علي:

هو جعفر بن محمد بن علي بن الشهيد أبي عبد الله ريحانة رسول الله ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب، الإمام الصادق شيخ بني هاشم، أبو عبد الله القرشي، الهاشمي، العلوي المدني، أحد الأعلام[4] ولد سنة ثمانين، ورأى بعض الصحابة مثل أنس بن مالك وسهل بن سعد[5]. وكان جعفر يثني على عمه زيد ويقدره، وكانت العلاقة بينهما طيبة، فلقد قال جعفر عن عمه -كما يروي لنا عمر بن القاسم-: دخلت على جعفر الصادق وعنده ناس من الرافضة فقلت: إنهم يبرأون من عمك، فقال: برئ الله ممن تبرأ منه، كان -والله- أقرانًا لكتاب الله، وأفقهنا في دين الله، وأوصلنا للرحم، ما تركنا وفينا مثله[6].

وكان جعفر يجل عمه زيدًا، ومما يدل على ذلك أنه كان يمسك له بالركاب ويسوي ثيابه على السرج[7]. وكذلك كان مؤيدًا لعمه في خروجه واستأذنه في الخروج معه، فعندما أراد زيد الخروج إلى الكوفة من المدينة قال له جعفر: أنا معك يا عم، فقال زيد: أوما علمت أن قائمنا لقاعدنا وقاعدنا لقائمنا، فإذا خرجت أنا وأنت فمن يخلفنا في حرمنا ؟ فتخلف جعفر بأمر عمه زيد[8]، ولقد ذكر الطبري وابن الأثير أن جماعة من الشيعة قبل خروج زيد مروا على جعفر الصادق فقالوا له: إن زيد بن علي فينا يبايع، أفترى لنا أن نبايعه ؟ فقال لهم: نعم بايعوه، فهو -والله- أفضلنا وسيدنا وخيرنا. فجاءوا فكتموا ما أمرهم به[9].

وكان جعفر يدعو لعمه بالنصر والتأييد فعندما أراد يحيى اللحوق بأبيه زيد، قال له جعفر: أقرئه عني السلام وقل له: إني أسأل الله أن ينصرك ويبقيك ولا يرينا فيك مكروها. . وبعد أن مضى زيد شهيدًا إلى ربه وجاء الخبر إلى جعفر قال: ذهب -والله- زيد بن علي -كما

(١) الملل والنحل للشهرستاني نقلاً عن الإمام زيد المفترى عليه ص٦٢.
(٢) الإمام زيد المفترى عليه ص ٦٢.
(٣) الروض النضير (١/ ١٠٤).
(٤)، (٥) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٥٥).
(٦) المصدر نفسه (٥/ ٣٩٠).
(٧) مقاتل الطالبيين ص ١٢٩، الإمام زيد المفترى عليه ص ٦٠.
(٨) رسائل العدل والتوحيد ص ٨٠، ٨١.
(٩) تاريخ الطبري (٨/ ٥١).

ذهب على والحسن والحسين وأصحابهم - شهيدًا إلى الجنة[1]. فقد كان جعفر وزيد بن على على علاقة طيبة، وإن الذين فرقوا بينهما هم الشيعة الذين رفضوا زيدًا وقالوا بالوصية خوفًا من لوم الناس لهم وعتابهم إياهم على مفارقتهم زيدًا[2].

أ- دفاعه عن جده أبى بكر الصديق والصحابة: كانت حفيدة الصديق متزوجة من محمد الباقر الإمام الخامس عند الشيعة الإمامية، وكان جعفر بن محمد بن على بن الحسين الذى يلقب بالصادق يقول: ولدنى أبو بكر مرتين[3]، فأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، والقاسم بن محمد بن أبى بكر كان أحد فقهاء المدينة السبعة، تربى فى حجر أم المؤمنين عائشة، أما أمها فهى أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، وكان جعفر يغضب من الشيعة الإمامية ويمقتهم إذا علم أنهم يتعرضون لجده أبى بكر، فكيف يرضى من يدعى محبة جعفر وآل البيت أن يلعن جد جعفر الصادق؟![4] فعن سالم بن أبى حفصة قال: سألت أبا جعفر وابنه جعفر عن أبى بكر وعمر فقال: يا سالم تولهما وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامَىْ هدى. ثم قال جعفر: يا سالم، أيَسُبُّ الرجل جده ؟ أبو بكر جدِّى لا نالتنى شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما وأبرأ من عدوهما[5] وقال حفص ابن عياش: سمعت جعفر بن محمد يقول: ما أرجو من شفاعة على شيئًا إلا وأنا أرجو من شفاعة أبى بكر مثله. لقد ولدنى مرتين[6]. وقد كانت العلاقات بين بيت أبى بكر وآل البيت قوية ومتلاحمة ومتداخلة؛ فالقاسم بن محمد بن أبى بكر حفيد أبى بكر، وعلى بن الحسين ابن على بن أبى طالب حفيد على بن أبى طالب كانا ابنى خالة، فأم القاسم بن محمد، وأم على بن الحسين هما بنتا يزدجرد بن شهريار بن كسرى اللتان كانتا من سبايا الفرس فى عهد عمر رضى الله عنه، وقد توسع إحسان إلهى ظهير فى إثبات المصاهرات وعلاقات المودة والتراحم والاحترام المتبادل بين أهل البيت والصديق[7]. وسئل جعفر بن محمد عن أبى بكر وعمر فقال: إنك تسألنى عن رجلين قد أكلا من ثمار الجنة[8]. وحدثنا عمرو بن قيس المُلائى، قال: سمعت جعفر بن محمد يقول: برئَ الله ممن تبرأ من أبى بكر وعمر[9]. قال الذهبى: وهذا القول متواتر عن جعفر الصادق، وأشهد بالله إنه لبار فى قوله غير منافق لأحد[10].

---

(1) رسائل العدل والتوحيد ص ٨١، الإمام زيد المفترى عليه ص ٦١ .
(2) الإمام زيد المفترى عليه صـ٦١
(3) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٥٤) .
(4) على بن أبى طالب للصَّلاَّبى صـ ١٦٣ .
(5) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٥٩) إسناده صحيح .
(6) المصدر نفسه (٦/ ٢٥٩) .
(7) الشيعة وأهل البيت ص ٧٨ - ٨٣ .
(8) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٥٩) .
(9)، (10) المصدر نفسه (٦/ ٢٦٠) .

ب- من لفتاته فى مناسك الحج: قال سفيان الثورى: قدمت مكة فإذا أنا بأبى عبد الله جعفر بن محمد قد أناخ بالأبطح، فقلت، يا ابن رسول الله، لم جعل الموقف من وراء الحرم ولم يُصيَّر فى المشعر الحرام ؟ فقال: الكعبة بيت الله، والحرم حجابه، والموقف بابه، فلما قصده الوافدون، أوقفهم بالباب يتضرعون، فلما أذن لهم فى الدخول أدناهم من الباب الثانى وهو المزدلفة، فلما نظر إلى كثرة تضرعهم وطول اجتهادهم رحمهم، فلما رحمهم أمرهم بتقريب قربانهم، فلما قربوا قربانهم، وقضوا تفثهم وتطهروا من الذنوب التى كانت حجابًا بينه وبينهم، أمرهم بزيارة بيته على طهارة. قال: فلم كُرِه[1] الصوم -أى حرّم الصوم- أيام التشريق؟ قال: لأنهم فى ضيافة الله[2].

ج- من حكمه وأقواله: قال جعفر الصادق: لا زاد أفضل من التقوى، ولا شىء أحسن من الصمت، ولا عدوٌ أضرُّ من الجهل، ولا داء أدوأُ من الكذب، وقال: لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره[3] وقال: إياكم والخصومة فى الدين، فإنها تشغل القلب وتورث النفاق[4]. هذا وقد توفى سنة ١٤٨هـ .

ثانيًا: أسباب خروج زيد بن على:

كان زيد -رحمه الله- لا يقبل الذل والهوان، صاحب شخصية فذة، مما جعله شامخًا كالطود، فقد اتصف بالغيرة على الحق، ومحبة العدل، ومحاربة الظلم، وقد أسهمت أسباب عديدة فى خروجه على هشام، ومن هذه الأسباب:

١ـ تأثره بما حدث لأهل بيته من تقتيل وتشريد وقتل جده الحسين بن على رضى الله عنه، وتعرضه هو بالذات إلى الإهانات من ولاة هشام بن عبد الملك ومن هشام نفسه.

٢ـ تغير الحكم الشورى إلى حكم الملك العضوض مع مجىء الأمويين، وما حدث من سفك دماء من الأمويين واستخدام العنف والقوة على الثورات الخارجة عليهم.

٣ـ شعوره بالمظالم الواقعة على الناس والمنكرات التى تفشت فى زمانه جعله يخرج آمر بالمعروف ناهيًا عن المنكر رافعًا للظلم عن الناس، خاصة الموالى الذين كانت الجزية تبقى مفروضة عليهم حتى بعد إسلامهم[5]، وقد صرّح بظلم هشام له عندما راجعه

(١) كره الصوم : أى حرم لما ثبت عنه ﷺ من النهى عن صوم أيام التشريق، والسلف كانوا يستعملون الكراهة فى معناها الذى استعملت به فى كلام الله ورسوله، قال تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء : ٣٨].

(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٦٥)

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٦٣) .

(٤) المصدر نفسه (٦/ ٢٦٤) .

(٥) الإمام زيد المفترى عليه ص ١٢٠ .

محمد بن عمر بن أبى طالب فقال: خرج بنا هشام أسراء على غير ذنب، من الحجاز إلى الشام، ثم إلى الجزيرة، ثم إلى العراق، ثم إلى رئيس ثقيف يلعب بنا، وأنشد:

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى ... أصبحت فى عرض الحياة بمعزل

فأجبتها: إن المنية منزل ... لابد أن أسقى بكأس المنهل

فأثنى حبالك لا أبالك واعلمى ... انى امرؤ سأموت إن لم أقتل

أستودعك الله، إنى أعطى الله عهداً إن دخلت يدى فى طاعة هؤلاء ما عشت[1].

٤- البيئة المناسبة للثورة بالكوفة، وفيها أتباع أهل البيت المؤيدون لأحقية أهل البيت بالخلافة الكارهون لحكم بنى أمية.

هذه أهم الأسباب العامة التى حملت زيداً على الخروج على الحكم الأموى، أما الأسباب المباشرة التى ذكرها المؤرخون لخروج زيد على هشام فهى تتمثل فى عدة مواقف حدثت بينهما[2]، وانتهى كل منها بما أثر عن زيد من أقوال وأشعار يعتزم فيها الخروج على هشام، وكانت حادثة تعمق فى نفسية زيد شعوراً حاداً بالثورة نتيجة لما يتعرض له فى كل منها من الظلم وسوء المعاملة .

١- عدم قيام هشام بن عبد الملك بمعرفة حق زيد وتحمل ديونه وقضاء حوائجه، وبدلاً من ذلك أغلظ له القول وأساء معاملته، فقد روى ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر قال: قال لى سالم مولى هشام: دخل زيد على هشام فرفع دينا كثيراً وحوائج، فلم يقض له هشام حاجة وتجهم وأسمعه كلاماً شديداً، فخرج من عنده وهو يأخذ شاربه ويقبله ويقول: ما أحب الحياة أحد إلا ذل، ثم مضى فكانت وجهته الكوفة[3]..

٢- عدم استماع هشام لزيد فى إحدى خصوماته وعدم إنصافه إياه، فقد روى ابن الأثير وغيره أن زيداً كان يخاصم ابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسين بن على فى ولاية وقوف على، وكان زيد يخاصم عن بنى الحسين وجعفر يخاصم عن بنى الحسن، فكانا يتبالغان بين يدى الوالى إلى كل غاية، ويقومان فلا يعيدان مما بينهما حرفاً، فلما مات جعفر نازعه عبد الله بن الحسن بن الحسن فتنازعا يوماً بين يدى خالد بن عبد الملك بن الحارث، وأراد

(١) الخطط للمقريزى (٣/٣٣٨)، الإمام زيد المفترى عليه ص ١٢١.

(٢) الإمام زيد المفترى عليه ص ١٢٢.

(٣) تاريخ دمشق نقلا عن الإمام زيد المفترى عليه ص ١٢٦ .

والى هشام على المدينة أن يوقع بينهما، وأراد عبد الله بن الحسن أن يتكلم، فقال زيد: لا تعجل يا أبا محمد، أعتق زيد ما يملك إن خاصمك إلى خالد أبدًا، ثم أقبل على خالد فقال: جمعت ذرية رسول الله ﷺ لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر ولا عمر، فقال خالد: أما لهذا السفيه أحد . . . ثم ذهب زيد إلى هشام يشكو إليه مما فعله خالد، فجعل هشام لا يأذن له فيرفع القصص فكلما رفع إليه قصة كتب هشام فى أسفلها: ارجع إلى منزلك[١].

٣- اتهام هشام بن عبد الملك لزيد بالإعداد للخروج عليه وتحقيقه معه فى ذلك وإغلاظه القول له فى التحقيق، فقد قال له هشام ذات يوم: لقد بلغنى يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمنّاها ولست هنالك وأنت ابن أمة، قال زيد: إن لك جوابا. قال: فتكلّم، قال: إنه ليس أحد أولى بالله ولا أرفع درجة عنده من نبىّ ابتعثه، وقد كان إسماعيل ابن أمة وأخوه ابن صريحة - أى حرة - فاختاره الله عليه وأخرج منه خير البشر، وما على أحد من ذلك إذ كان جده رسول الله وأبوه على بن أبى طالب ما كانت أمّه قال له: هشام: اخرج، قال: أخرج ثم لا أكون إلا بحيث تكره.. فخرج من عنده وسار إلى الكوفة[٢].

ثالثًا: بيعته واستشهاده:

قدم زيد الكوفة وأقام بها مستخفيًا ينتقل فى المنازل، وأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعه، فبايعه جماعة منهم، وكانت بيعته: إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفىء بين أهله بالسواء، وردّ المظالم، ونصر أهل البيت، أتبايعون على ذلك ؟ فإذا قالوا: نعم، وضع يده على أيديهم ويقول: عليك عهد الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله، ﷺ، لتفين ببيعتى ولتقاتلن عدوى ولتصحنّ لى فى السر والعلانية؟ فإذا قال: نعم، مسح يده على يده ثم قال: اللهم اشهد: فبايعه خمسة عشر ألفًا، وقيل: أربعون ألفًا، فأمر أصحابه بالاستعداد، فأقبل من يريد أن يفى له ويخرج معه ويستعدّ ويتهيأ، فشاع أمره فى الناس[٣]. ومن خلال نصّ البيعة تظهر الأهداف التى دعا إليها زيد، فقد دعا إلى الكتاب، والسنة، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وردّ المظالم، ونصرة أهل البيت[٤]، هذه الأهداف الكبيرة هى التى نهض لمثلها زيد وأيدها الإمام جعفر الصادق والإمام أبو حنيفة[٥]. وقد اعترض بعض الناس على خروج زيد، منهم:

(١)، (٢) الكامل فى التاريخ (٣/ ٣٧٤) .

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٣٧٥) .

(٤)، (٥) تاريخ الإسلام الثقافى والسياسى ص ٥٦٦.

١- **عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب:** فقد كتب كتابًا إلى زيد جاء فيه: أما بعد، فإن أهل الكوفة نفخ في العلانية، خور في السريرة، هرج في الرخاء، جزع في اللقاء، تقدمهم ألسنتهم، ولا تشايعهم قلوبهم، ولقد تواترت إليّ كتبهم بدعوتهم، فصممت أذني عن ندائهم، وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم، يأسًا منهم، واطراحًا لهم، وما لهم مثل إلا ما قال علي بن أبي طالب: إن أهملتم خضتم، وإن حوربتم خرتم، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أجبتم إلى مشاقة نكصتم[١].

٢- **داود بن علي ينصح زيدًا:** وعندما بايع أهل الكوفة زيدًا قال داود بن علي: يا ابن عمّ، إن هؤلاء يغرّونك من نفسك، أليس قد خذلوا من كان أعز عليهم منك؛ جدّك علي بن أبي طالب حتى قتل؟ والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه فانتزعوا رداءه وجرحوه؟ أوليس قد أخرجوا جدك الحسين وحلفوا له وخذلوه وأسلموه ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه؟ فلا ترجع معهم[٢]، ... وقال له: إني خائف إن رجعت معهم ألا يكون أحد أشدّ عليك منهم وأنت أعلم. ومضى داود إلى المدينة[٣].

٣- **سلمة بن كُهَيْل:** جاء سلمة بن كُهَيْل فذكر لزيد قرابته من رسول الله ﷺ، وحقّه، فأحسن، ثم قال له: ننشدك الله كم بايعك؟ قال: أربعون ألفًا. قال: فكم بايع جَدَّك؟ قال: ثمانون ألفًا. قال: فكم حصل معه؟ قال: ثلاثمائة. قال: نشدتك الله أنت خير أم جَدّك؟ قال: جدّي. قال: فهذا القرن خير أم ذلك القرن؟ قال: ذلك القرن. قال: أفتطمع أن يَفِي لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك؟ قال: قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وأعناقهم. قال: أفتأذن لي أن أخرج من هذا البلد؟ فلا آمن أن يحدث حدثٌ فلا أملك بنفسي، فأذن له فخرج إلى اليمامة[٤].

استمر زيد في حشد الأنصار، وكانت الأجهزة الأمنية الأموية تتابع الأحداث ومجريات الأمور، وكان زيد يتنقل في الكوفة تارة في بني عبس، وتارة في بني هند، وتارة في بني تغلب وغيرهم إلى أن ظهر [٥]، ولما أمر أصحابه بالاستعداد للخروج وأخذ من كان يريد الوفاء له بالبيعة يتجهز وصل الأمر إلى والي العراق يوسف بن عمر، فاستنفر أجهزة الدولة للقضاء على زيد[٦].

٤- **انشقاق الشيعة الرافضة عن زيد بن علي وغدرهم به:** كان ذلك على وجه التحديد في سنة إحدى وعشرين ومائة عندما خرج زيد بن علي بن الحسين على هشام بن عبد

---

(١)، (٢)، (٣)، (٤) الكامل في التاريخ (٣/٣٧٦).

(٥) المصدر نفسه (٣/٣٧٧). (٦) المصدر نفسه (٣/ ٣٨٠).

الملك[1]، فأظهر بعض من كان في جيشه من الشيعة الطعن على أبي بكر وعمر فمنعهم من ذلك، وأنكر عليهم فرفضوه، فسموا بالرافضة، وسميت الطائفة الباقية معه بالزيدية[2]، يقول ابن تيمية: إن أول ما عرف لفظ الرافضة في الإسلام عند خروج زيد بن علي في أوائل المائة الثانية، فسئل عن أبي بكر وعمر فتولاهما فرفضه قوم فسموا رافضة[3]. وقال: ومن زمن خروج زيد افترقت الشيعة إلى رافضة وزيدية، فإنه لما سئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما رفضه قوم فقال لهم: رفضتموني، فسموا رافضة لرفضهم إياه، وسمى من لم يرفضه من الشيعة زيديًا لانتسابهم[4]. ومنُذ ذلك التاريخ تميزت الرافضة عن باقي فرق الشيعة، فأصبحت فرقة مستقلة باسمها ومعتقدها[5]. وجاء في رواية قول زيد في الشيخين: ... وقد ولّوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة، قالوا: فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتالهم ؟ فقال: إنّ هؤلاء ليسوا كأولئك؛ هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم، وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ، وإلى السنن أن تُحيا، وإلى البدع أن تطفأ، فإن أجبتمونا سعدتم، وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا: سبق الإمام، يعنون محمد الباقر، وكان قد مات، وقالوا: جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه، فسمّاهم زيد الرافضة[6]. هذه هي عقيدة زيد بن علي في الشيخين أبي بكر وعمر، وأعلنها بوضوح وجلاء، لأنه كان يتقي الله حق تُقاته ويخشاه أشد الخشية، مع أنه كان في وسع زيد بن علي -لو كان رجل دنيا- أن يُمالئ هؤلاء الرافضة الذين أرادوا أن يحملوه على اتباع أهوائهم بمشاركته لهم في القدح في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ولو على سبيل التَّقية وذلك ليستميلهم إلى صفِّه ليعينوه ويناصروه، حتى يتحقق له هدفه من خروجه على هشام بن عبد الملك، ولكنه أبى ورفض طلبهم، وآثر التمسك بالحق الذي يجب أن يُتبع، ولو أسخط في رضاء الله جميع البشر، ذلك لأنه لا يمكن أن يشذَّ عن النهج الذي كان عليه والده زين العابدين علي بن الحسين، ومن قبله والده ثم جدّه علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حبهم الصادق لأبي بكر وعمر وعثمان [7] والصحابة جميعًا.

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ١٦٠)، الانتصار للصحب والآل صـ ٤٧.
(٢) الانتصار للصحب والآل صـ٤٧.
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦) .
(٤) منهاج السنة (١/ ٣٥).
(٥) الانتصار للصحب والآل صـ ٤٨.
(٦) الكامل في التاريخ (٣/ ٣٨٠) .
(٧) الزيدية، نشأتها ومعتقداتها، القاضي إسماعيل بن الأكوع صـ ٢١.

٥- استشهاد زيد: ترك الرافضة زيداً وحده، وكان والي الأمويين ابن هبيرة يعمل على استفزاز زيد للخروج، وأظهر معرفته بشأنه ليستعجل خروجه، وقد كان له ذلك، فقد قرر سريعًا أن يخرج في يوم أربعاء، فدعا ابن هبيرة أهل الكوفة إلى المسجد يوم الاثنين، وأغلق الأبواب عليهم، ومنعهم من الخروج، وكان اليوم بردًا، فقضوا ليلتهم مرتجفين من البرد حتى إذا أسرع زيد بن علي إلى لمّ جماعته لم يجد إلا نحواً من مائتي رجل[١]، وأقبل زيد على المسجد بالمائتين من أتباعه، وفتح الأبواب لأهل الكوفة، فخرجوا معتذرين عن عدم اللحاق به للبرد الذي ألم بهم، وكان جيش أهل الشام متجهًا من الحيرة إلى الكوفة فخرج إليه زيد، وقاتل مع فئته قتالاً شديداً[٢] وهو يتمثل:

أذلَّ الحياة وعز الممات ... وكلا أراه طعامًا وبيلا

فإن كان لابد من واحد ... فسيري إلى الموت سيرًا جميلا[٣]

إلا أن السهام كانت أقوى منه فانهزمت جماعته، وحال المساء بين الفريقين، فراح زيد مثخنًا بالجراح، وقد أصابه سهم في جبهته فطلبوا من ينزع النصل، فأتوا بحجّام من بعض القرى، واستكتموه الخبر، فاستخرج النصل، فمات من ساعته، فدفنوه في ساقية ماء وجعلوا على قبره التراب والحشيش، وأجرى الماء على ذلك، وحضر الحجام دفن الإمام زيد، فعرف الموضع وقال ليوسف بن عمر بن هبيرة، فاستخرج يوسف جثته وبعث برأسه إلى هشام، وصلب جسد زيد[٤].

ولما وصل رأس زيد إلى هشام، استاء من قتله -وكان لا يحب القتل-[٥] وجاءت روايات لا تصح ولا تثبت بأن هشام أمر يوسف بن عمر أن يصلب زيداً عريانا[٦]. وبعد مقتل زيد توجه ابنه يحيى إلى خراسان، فأقام بها مدة إلى حين وفاة هشام بن عبد الملك، وولاية الوليد بن يزيد فخرج، وسرعان ما قتل[٧].

ويرى الذهبي أن يحيى قتل بخراسان في عهد هشام[٨]. وقال الليث بن سعد: قتل يحيى سنة خمس وعشرين ومائة -رحمه الله-. وقد تأثر هشام لمقتل زيد ويحيى ودخله من مقتلهما

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٥٤).

(٢) مروج الذهب (٣/ ٢١٧)، الخلافة الأموية للهاشمي صـ ٣٧٧.

(٣) أدب السياسة في العصر الأموي د. أحمد الحافي صـ ٤٣.

(٤) تاريخ الطبري (٨/ ٦٠).

(٥) الدولة الأموية، يوسف العش صـ ٢٩٠.

(٦) مروج الذهب (٣/ ٢١٧).

(٧) أحداث وأحاديث فتنة الهرج صـ ٢٢٦.

(٨) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٩١).

أمر شديد حتى قال: وددت لو كنت افتديتهما[1]. والمتتبع لسياسة هشام مع زيد يرى أن هشامًا لم يوفق فى استيعاب زيد، وكان يمكنه ذلك.

رابعًا: أسباب فشل ثورة زيد:

فشلت ثورة زيد لأسباب عديدة، منها:

١- **الجهاز الأمنى عند الأمويين:** استطاع جهاز أمن الدولة الأموية أن يخترق التنظيم الثورى الذى كان يقوده زيد بن على، فقد راقب رجال جهاز الأمن الأموى زيدًا وتحركاته، وعرفوا الأماكن التى كان يختفى فيها هو وكثير من أعوانه، وعلموا بساعة الصفر المحددة للثورة، وهذا ما حمل زيدًا على تقديم موعد الثورة والتعجيل بها قبل الموعد الذى جعله بينه وبين أهل الكوفة[2] وكان لهذا السبب أثر فى ضعف الوسائل التى أريد بها تحقيق الخطط الموضوعة للثورة[3].

٢- **خيانة الرافضة وخذلانهم لزيد:** تمّت البيعة لزيد والناس على علم من معتقدات زيد وأهداف ثورته، إلا أن الرافضة طلبوا منه البراءة من الشيخين أبى بكر وعمر، وعندما امتنع عن ذلك تركوه، وكان الإعداد قد قطع مراحل متقدمة لإعلان الثورة، وانفض الشيعة الرافضة من حوله وهو فى أشد الحاجة إليهم، وفى هذا درس كبير لمن يتحالف مع الشيعة الرافضة فى الرخاء.

٣- **خوف أهل الكوفة وجبنهم:** كان للتدابير المشددة التى اتبعها يوسف بن عمر أثر بليغ فى نفوس أهل الكوفة وتخاذلهم، فلما أراد يوسف بن عمر الحيلولة بين الناس وبين المشاركة فى الثورة وأمرهم بالدخول إلى المسجد اندفعوا إليه لا يبدون أى مقاومة لهذا الأمر، حتى يخيل للناظر أنهم رحبوا بالأمر لأنهم اعتبروه بمثابة عذر لهم عن التخلف، وعن المشاركة فى القتال، يدل على هذا أن زيدًا وأصحابه لما حرضوا الناس على الخروج من المسجد ومشوا لفك الحصار عنهم، لم يروا استجابة من الناس[4]، وكثير من الناس ممن بايعوا نكثوا بيعتهم، فكان ذلك من أسباب فشل ثورة زيد[5].

٤- **جند الشام:** كان جند الدولة النظامى من أهل الشام له وجوده بالعراق منذ عهد معاوية، وقد أسهم فى القضاء على كثير من الثورات بالعراق، فلما ثار زيد بن على

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٩١).
(٢) المصدر نفسه (٥/ ٣٥٢).
(٣)، (٤) ثورة زيد بن على، ناجى حسن صـ ١١٩.
(٥) المصدر نفسه صـ ١٢٢، ١٢٣.

بالكوفة هب الأمويون للقضاء على هذه الثورة بكل ما أوتوا من قوة، معتمدين بصورة رئيسية على الجند الشامى، بالإضافة إلى المرتزقة، وكان هشام يرسل نجدات عسكرية من الشام لتكون سندًا لجند أهل الشام(١)، وكان للجيش الشامى الأموى الدور الحاسم فى القضاء على تلك الثورة(٢).

٥- العجلة التى حدثت للثورة: يظهر للمتتبع لثورة زيد أنه تعجل فى إعلانها على الأمويين، وأدى هذا التعجل إلى قتله. ولما علم الزهرى بمقتل زيد بكى وقال: أهلك أهل هذا البيت العجلة(٣) فيفهم من ذلك أن الزهرى كان يرى أن هناك عجلة فى ثورة زيد، وأنه لم ينتظر حتى تنضج الحركة ولم يعط الوقت حقه.

٦- دعوة بنى العباس: لعبت دعوة بنى العباس دورًا مؤثرًا سلبيًا فى الجهود التى بذلها زيد بن على، فالمؤرخون يرون أن عام ١٠٠هـ كان بداية لتأليف الجماعات السرية التى تدعو إلى بنى العباس وتعمل للقضاء على دولة بنى أمية، فقد توجه دعاة العباسيين بأمر محمد بن على بن عبد الله بن العباس المتوفى عام ١٢٥هـ إلى مختلف الأقطار يبثون الدعوة وينشرونها بين الناس(٤). وقد لاقى الدعاة أقصى ضروب التعذيب والتنكيل على يد ولاة بنى أمية، ولكن الدعاة استمروا فى طريقهم واستطاعوا أن يجذبوا الكثير من المؤيدين بفضل براعتهم وخبرتهم بأحوال الناس(٥) فكانوا يدورون كورة كورة وبلدًا بلدًا فى زى التجار(٦)، وكانت الكوفة إحدى القواعد الرئيسية التى اعتمدوا عليها فى نشر دعوتهم والتبشير بها، فكانت مسرحًا لدعوتين تعملان فى وقت واحد، لكل منهما دعاتها وأنصارها، وهاتان الدعوتان وإن اختلفتا فى بعض أهدافهما إلا أنهما كانتا تهدفان إلى خلع بنى أمية وبيعة بنى هاشم، وقد أثارت سرعة نجاح زيد مخاوف العباسيين، وهذا ما حمل محمد بن على، على أن يطلب من بُكير بن ماهان -وكان يتولى الدعوة فى العراقيين-(٧) أن يخذل الناس عن زيد، حين قال له: أظلكم خروج رجل من أهل بيتى بالكوفة يغتر فى خروجه كما اغتر غيره، فيُقتل ضيعة ويصلب، فَحَذِّر الشيعة قبلكم أمره(٨) وهكذا انصاع

(١)، (٢) ثورة زيد بن على صـ ١١٨.

(٣) تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ٤٩٩.

(٤) تاريخ الطبرى، نقلا عن ثورة زيد بن على صـ ١٢٤.

(٥) الأخبار الطوال ص ٣٣٧، ثورة زيد بن على صـ ١٢٥.

(٦) الأخبار الطوال ص ٣٤٤، ثورة زيد بن على صـ ١٢٥.

(٧) الأخبار الطوال ص ٣٣٦، ثورة زيد بن على ١٢٦.

(٨) ثورة زيد بن على صـ ١٢٦.

بُكير بن ماهان لأمر محمد بن على، ورجع إلـى الكوفة وأمر أصحابه بالخروج من الكوفة إلى الحيرة كى يحـول بينهم وبين المساهمة فى القتال إلى جـانب زيد بن على، ولما قتل زيد بن على عادوا إلى الكوفة(١). وكان هذا أحد أسباب تخلى بعض أهل الكوفة عن زيد (٢).

٧- امتناع مجموعـة من الشيعـة الإماميـة عن مناصرة زيد: لا يخفى أن الشـيعة الإماميـة يعتـقدون أن الإمامة فى على بن أبى طالب ومن بـعده ابنه الحسن، ثم الحسـين، فعلى بن الحسين، فمحمد بن على، فجعفر بن مـحمد الصادق، فكان لهذا المعتقد أثره على الشيعة الإمامية بالكوفـة، فعامة الشيعة -وكمـا يبدو - يعتقدون أنه إنما خرج داعيًـا للإمامية على الرغم من وجود ابن أخيـه الصادق، مما أدى إلى عدم مشاركة غـالبية الشيعة الإمـامية فى الثورة(٣).

خامسًا: موقف العلماء من ثورة زيد:

يقول محمـد أبو زهرة: ولقد كان العلماء يعتبرون ثـورة زيد على الطغيان الأموى ثورة أهل العلم والزهادة والنسك عليهم، حتى إن بعض المؤرخـين يذكر أن الذين قاتلوا مع زيد كانوا من القراء والفقهاء. ويقول أيضًا: ولقد كان -رضى الله عنه- عظيم الثقة فى الفقهاء والمحدثين، لأنـه منهم، ولذلك لما اشتـدت الأمور، ورأى تخاذل الناس عنـه، كان يرسل إليهم يستنصر بهم، ولذلك كـان أكثر المجاهدين معه من شبابهم، وقد كـان سفيان الثورى محدث الكوفـة وواعظها إذا ذكر زيدًا بكى على ما فـقده من العلم بفقده، وعلى مـا فقده التقى والفـضل بإصابته، وقـد خرج معـه بعض القضاة.. ثـم قال أبو زهرة: وهكذا نرى ثورته كانت ثورة الفقهاء والقراء والمحدثين وأهل التقى(٤).. وهذا كلام غير دقيق لأن هناك من العلماء من عارض الخـروج على هشام بن عبد الملك فى ثورة يزيد، ومن خـلال التتبع لحركة زيد بن على واستقراء مـوقف العلماء منها اتضح أن هناك بعض العلماء الذين أيدوا حركة زيد وحرضوا عليهـا، وهم قلة نادرة، وهناك عدد آخر لم يؤيد خروج زيد ونصحوه بعدم الخروج وهؤلاء هم الأكثر(٥).

١- أما العلماء الذين اشتهر عنهم أنهم أيدوا زيـد بن على فى خروجه فمنهم أبو حنيفة النعمان، فقـد ورد أنه كان يصرح بتأييده لحركـة زيد ويحض عليها، ولكنه -مع هذا- لم

(١) ، (٢) ثورة زيد بن على صـ ١٢٦.
(٣) المصدر نفسه صـ ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨.
(٤) الإمام زيد ص ٧٢، ٧٣.
(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ ٤٩٦.

يشارك فى القتال، فذكر أن زيد بن على أرسل إليه يدعوه إلى البيعة فقال: لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا أباه لجاهدت معه لأنه إمام حق، ولكن أعينه بمالى. فبعث إليه بعشرة آلاف درهم وقال للرسول: ابسط عذرى عنده[1]. وممن ذكر أنه أيد زيد بن على العالم الجليل منصور بن المعتمر، فقد ورد أنه كان يحرض على الخروج مع زيد، فعن عقبة بن إسحاق قال: كان منصور بن المعتمر يأتى زبيد بن الحارث، فكان يذكر له أهل البيت ويعصر عينيه يريده على الخروج أيام زيد بن على [2].

٢-وأما العلماء الذين لم يؤيدوا حركة زيد ونصحوه بعدم الخروج فهم أكثر ممن أيده على ذلك، وممن لم ير خروجه من العلماء ابن عمه عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على، وسلمة بن كهيل، وقد بينت ذلك فيما مضى، وحين قيل للإمام العالم الأعمش أيام خروج زيد: لو خرجت؟ قال: ويلكم! والله ما أعرف أحدًا أجعل عرضى دونه، فكيف أجعل دينى؟![3] وأما الإمام الزهرى فإنه لما علم بمقتل الإمام زيد بكى وقال: أهلك أهل هذا البيت العجلة[4] وكما نصح هؤلاء العلماء زيدًا بعدم الخروج أو الثقة بأهل الكوفة، كذلك نصحه أهل الرأى من قرابته كمحمد بن عمر بن على بن أبى طالب، وداود بن على بن عبد الله بن عباس بذلك أيضًا [5].

وحين ترجم الإمام الذهبى للإمام زيد بن على - رحمه الله - قال: كان ذا علم، وصلاح، وهفا وخرج، فاستشهد. وقال فى موضع آخر: خرج متأولاً وقتل شهيدًا، وليته لم يخرج[6]. ومما سبق ندرك أن العلماء الذين لم يروا خروج زيد أكثر ممن أيده على خروجه، كما يتضح بعد هذا العرض خطأ من حكم بأن ثورة زيد ثورة العلماء والفقهاء؛ إذ لا دليل يصح يعتمد عليه فى ذلك. بل عكس ذلك أولى بالصحة[7].

سادسًا: أثر مقتل زيد على الدولة الأموية:

كان لثورة زيد بن على تأثير مهم فى سير الأحداث التى وقعت فى العصر الأموى، وتمخضت عن نتائج بعيدة المدى، وكان فشلها بمثابة الدافع لحركات أخرى حذت حذوها،

(١) مناقب أبى حنيفة ، حافظ الدين الكردى صـ ٢٦٧ .
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٩٤)
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٣٤) .
(٤) تاريخ دمشق، نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ٤٩٩
(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ٥٠٠.
(٦) المصدر نفسه ٥٠٠.
(٧) ثورة زيد بن على صـ ١٣٧ .

فقد هرب يحيى بن زيد إلى خراسان وأعلن الثورة على الأمويين هناك[(١)] إيفاء بوعده الذى قطعه لوالده حين قال له: أقاتلهم -والله- لو لم أجد إلا نفسى[(٢)]. ومع أن يحيى فشل فى القضاء على الحكم الأموى كما فشل أبوه من قبل إلا أن هاتين الثورتين مهدتا -بصورة غير مباشرة- الطريق للقضاء على الدولة الأموية[(٣)]، واستغل العباسيون العطف الذى لقيه يحيى بن زيد فى خراسان لكسب الأتباع والأنصار لهم، وحين قتل يحيى بن زيد ظل أهل خراسان يبكون صباحًا ومساء[(٤)] الواقع أن شعار السواد الذى اتخذه العباسيون، إنما يستمد جذوره من ثورة زيد وما حدث لابنه يحيى بعد ذلك، فقد اتخذ أهل خراسان السواد بسببهما[(٥)]، ويبدو أن دعاة الزيدية الذين ثاروا بخراسان ومهدوا للثورة العباسية لم يقوموا بهذا الدور بصفتهم من أتباع زيد، بل بوصفهم ثوارًا على الظلم يريدون دولة تعمل بالكتاب والسنة وتنفذ أحكام القرآن، ويقوم على رأسها الرضا من آل البيت[(٦)]، وقد استفاد العباسيون من هذه العواطف والمشاعر التى تفجرت فى نفوس الناس بسبب مقتل زيد وابنه، ووظفت من خلال التنظيم العباسى ضمن الوقود المحرك للناس ضد الأمويين.

سابعًا: ثورة البربر فى الشمال الإفريقى:

تكرر الظلم والتعسف أيام إمارة عبيد الله بن الحبحاب الذى تولى إمارة إفريقية ١١٦هـ واشتد استياء البربر المسلمين من هذه الأفعال القبيحة، ورأوا التناقض الصارخ بين تعاليم الإسلام وسلوك هؤلاء العمال، وأصبحت عندهم قابلية للتمرد فى الوقت الذى فشت فيه النزعة الخارجية فى إفريقية والمغرب، ونادى أصحابها بشعارات خارجية، ظاهرها فيه بعض الحق، وباطنها ينطوى على شر عظيم، كالمساواة بين المسلمين، ووجوب الخروج على الحكام الظلمة وغيرها، فصادف ذلك هوى فى نفوس البربر، وتحمس كثير منهم لما نادى به دعاة الخوارج، إلا أنهم لم يعلنوا التمرد والعصيان إلا بعد أن يئسوا من إمكانية تبليغ صوتهم بالشكوى إلى الخليفة، ذلك ما ذكره الطبرى حيث قال: فما زال بربر إفريقية من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمن هشام بن عبد الملك.. فلما دب إليهم دعاة العراق واستثاروهم شقوا عصاهم، وفرّقوا بينهم إلى اليوم[(٧)]. وكان من سبب تفريقهم أنهم ردوا على أهل الأهواء فقالوا: إنا لا نخالف الأئمة بما تجبى العمال، ولا نحمل ذلك عليهم. فقالوا لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك، فقالوا لهم: لا نقبل ذلك حتى نبورهم – أى

(١) تاريخ الطبرى، نقلاً عن ثورة زيد بن على صـ ١٣٧ .

(٢)، (٣) ثورة زيد بن على صـ ١٣٧ . (٤)، (٥) المصدر نفسه صـ ١٣٨

(٦) المصدر نفسه صـ ١٣٩. (٧) عصر الدولتين الأموية والعباسية للصلاَّبى صـ ٥١ .

نختبرهم - فخرج ميسرة المظفرى زعيم الصفرية فى بضعة عشر إنسانًا حتى قدم على هشام، فطلبوا الإذن فصعب عليهم، فأتوا الأبرش وزير هشام بن عبد الملك فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال: تقدموا، وأخّر جنده، فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد فى الأجر ومثلكم كفى إخوانه... ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين، فاحتملنا ذلك، ثم إنهم ساومونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا فى كتاب ولا سنة ونحن مسلمون.. فأحببنا أن نعلم عن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا؟[1] قال: نفعل . فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم... كان وجههم إلى إفريقية فخرجوا على والى هشام فقتلوه واستولوا على إفريقية. وهكذا اندلعت بإفريقية والمغرب ثورات لا نهاية لها، ابتدأت سنة ١٢٢هـ وهى أول ثورة فى إفريقية فى الإسلام، وتضافرت جهود الإباضية والصفرية للإطاحة بحكومة القيروان، وأصبح همّ الخليفة فى المشرق القضاء على هذه الثورات، فكان يرسل الجيش تلو الآخر، وقد ذكروا أن هذه الحروب منذ أن استعرت إلى أن تم القضاء عليها عام ١٥٦هـ بلغت ٣٧٥ موقعة ذهب ضحيتها آلاف القتلى، وقد شارك العلماء مقاتلين وواعظين، فقد استنجد حنظلة بن صفوان بمن تبقى من بعثة عمر بن عبد العزيز لما ثارت عليه الخوارج، وقد دامت هذه الحروب أكثر من ثلاثين سنة تمكن الخوارج خلالها من الاستيلاء على القيروان مرتين، حيث استولى عليها الصفرية سنة ١٤٠هـ لمدة سنة وشهرين، وقد ربطوا دوابهم فى المسجد الجامع وقتلوا كل من كان فيها من قريش وعذبوا أهلها... ثم وليها بعدهم الإباضية لمدة سنتين[2].

هذا، ولما بلغت أخبار الخوارج فى إفريقية هشام بن عبد الملك ولى عليها كلثوم بن عياض السقشيرى فى جمادى الآخرة سنة ١٢٣هـ وأرسله إليها فى جيش قوامه اثنا عشر ألفًا، وخرج معه أهل مصر، وأهل برقة، وأهل طرابلس، وزحف إلى الشمال الإفريقى متوغلاً سنة ١٢٣هـ فلقيه ميسرة من رؤساء الخوارج الصفرية -بقرب طنجة - فى جموع من البربر كثيرة، واستماتوا فى قتاله حتى قتلوه وهزموا جيشه، وقويت شوكة الخوارج واقتطعوا المغرب عن طاعة الخلفاء فى المشرق[3] واستمرت المعارك بين الدولة الأموية فى عهد هشام وخوارج الشمال الإفريقى، وكان من أشهر ولاة الأمويين فى تلك المرحلة كلثوم

(١) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك صـ ١٨١ .

(٢) مدرسة الحديث فى القيروان (١/٥٦ - ٦١) .

(٣) تاريخ الفتح العربى صـ ١٦١ .

ابن عيـاض وحنظلة بن صفوان الذى تولى ولاية إفـريقية والمغـرب سنة ١٢٤هـ وشرع فى الاستعداد للدفاع عن الـقيروان واشتبك فى قتال مع الخوارج الصفـرية الذين كان يستحلون أموال أهل السنة، ويستحيون نساءهم، وقتلهم فى معركة القرن فى عام ١٢٤هـ وقيل: قتل فيها ما يزيد على مـائة وسبعين ألفًا[١] وهذا رقم مبالغ فيـه. وكانت حربًا فى أبشع صور الحروب القـاسية، فـهبت ريح النصـر على أتباع الدولة الأمويـة وهزم الخوارج وقتل عـبد الواحد بن يزيد من برابرة هوارة، وجيء براسة وبعكاشة أسيرًا [٢]. وسمع الليث بن سعد -الفقيـه المصرى- بخبر هذه المعركة فـقال: ما غزوة كنت أحب أن أشهـدها بعد غزوة بدر أحب إلىَّ من غزوة القرن[٣] ووصل خبر هذه المعركـة إلى هشام مطلع ١٢٥هـ وكان هشام مريضًا[٤]. هذا، وقد قـامت ثورات متعددة للخـوارج فى عهد هشام، وقـام الحارث بن سريج بثورة فى بلاد خـراسان ولكنها لم تنجح فى الوصول إلى أهدافها، وقـام الصغد فى بلاد ما وراء النهر بثـورة، وقامت بمصر حركات وانتـفاضات صغيرة مـحدودة الأثر بسبب المعاملة السيئة لبعض الولاة. . ومن أراد التـوسع فى هذه الثورات والحركات فليراجع عصر هشام بن عـبد الملك[٥] وكل تلك الثورات بسـبب انحراف هشام بن عـبد الملك عن منهج عمر بن عبد العزيز الذى لزم العدل وأمـر به عماله، فلو سار هشام وغيره على هذا المنهج لوفر على الأمة خسائر هائلة فى الأموال والأرواح.

****

(١) تاريخ الفتح العربى صـ ١٦٦، ١٦٢، ١٦٣ .

(٢) المصدر نفسه صـ ١٦٦، عصر الدولتين الأموية والعباسية صـ ٥٨.

(٣) البيان المغرب (٥٩/١)، عصر هشام بن عبد الملك صـ ٢٠٥ .

(٤) عصر هشام بن عبد الملك صـ ٢٠٥ .

(٥) المصدر نفسه صـ ٢٠٨ - ٢٣٥ .

المبحث الخامس

الفتوحات فى عهد هشام بن عبد الملك

لم تعد هناك فتوحات واسعة كالتى حدثت أيام الوليد، وإنما كانت غزوات يحدث فيها تقدم قليل ثم يعود المسلمون على إثرها إلى ثغورهم أو تُفتح رقعة صغيرة من الأرض، أو بعض الحصون، أو يحدث قتال بسبب نقض العهد من قبل أعداء المسلمين، الأمر الذى يضطر معه المسلمون إلى معاودة قتالهم وإجبارهم على طلب الصلح ثانية ودفع الجزية[1].

أولاً: الجبهة الغربية:

١- فى بلاد الروم: استمرت الغزوات فى أرض الروم طيلة أيام هشام، فكانت تندفع الصوائف والشواتى مجاهدة فى البر والبحر، ولكن لم تحدث معها تغييرات فى الحدود، وإنما توغل فى أرض الروم ثم عودة إلى الحصون الكائنة على مرتفعات جبال طوروس، وكان أشهر قادة تلك الغزوات: مسلمة بن عبد الملك بن مروان، ومعاوية بن هشام بن عبد الملك، وسليمان بن هشام بن عبد الملك، وعبد الله البطال، وسعيد بن عبد الله، وإبراهيم ابن هشام، والوليد بن القعقاع العبسى، والنعمان بن يزيد بن عبد الملك، ومسلمة بن هشام ابن عبد الملك، وفى عام ١٠٧هـ غزا[2] معاوية بن هشام الصائفة، وكان على جيش الشام ميمون بن مهران فقطع البحر إلى قبرص، وفتح مسلمة بن عبد الملك عام ١٠٨هـ[3] مدينة قيصرية ثم رجع عنها إلى الثغور، ووصل سعيد بن هشام عام ١١١هـ[4] إلى مدينة قيصرية أثناء توغله فى أرض الروم، وهزم عبد الله البطال قسطنطين وجيشه وأسره، ووصل سليمان بن هشام إلى مدينة قيصرية ثانية[5]، ورابط معاوية بن هشام عام ١١٣هـ فى ناحية مرعش، وكان قد فتح حصن خرشنة قبل عام[6].

٢- البحر: كذلك فقد حدثت غزوات بحرية للجزر الواقعة فى البحر الأبيض المتوسط، ومن أشهر قادة البحر: عبد الله بن عقبة بن نافع، وعبد الله بن أبى مريم، وميمون بن مهران، وغزا أمير إفريقية جزيرة صقلية عام ١٢١هـ، وكان قائد الغزو حبيب بن أبى عبيدة

---

(١)، (٢) التاريخ الإسلامى (٤/ ٢٧٤).
(٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ٣١٨) .
(٤) المصدر نفسه (٣/ ٣٢٨) .
(٥) التاريخ الإسلامى (٤/ ٢٧٣)
(٦) الكامل فى التاريخ (٣/ ٣٤٠) .

ابن عقبة بن نافع الذى استطاع فتح مدينة سرقوسة، وكـذلك غزا أمير إفريقية عبيد الله بن الحبحاب جزيرة سردينيا عام ١١٧هـ.

٣- فى الأندلس، معركة بلاط الشهداء (١٤هـ): وصل عبد الرحـمن الغافقى إلى ولاية الأندلس للمرة الثانية، وكان من القادة الأفذاذ الذين عـرفهم التاريخ الإسلامى، وقد اشتهر عبد الرحمن الغافقى بورعه وتقواه وصلاحه وإيمانه القوى وكان يقول: لو كانت السماوات والأرض رتقًا لجعل الله للمتقـين منها مخرجًا[١] وعبر عبد الرحمن جبال البرينة فى أوائل عام ١١٤هـ مع حوالى سبـعين ألفًا من المسلمين بعد أن احتفل فى بـنبلونة بإعداد حملته، ففتح عبد الرحمن مدينة آرل ثم بوردو «بُرْدَال» حـيث سجل عبد الرحمن نصرًا رائعًا على الدوق أُودو، وأسرع أُودو إلى شارل مـارتل يستنجده[٢]، خاصـة بعد أن اجتاح الغـافقى نصف فرنسـا الجنوبى كله من الغرب إلى الشرق، ووصلت جـيوش المسلمين للمرة الثـانية إلى أبواب باريس فى غضـون سبع سنوات، واستولوا على بواتيـيه وتقدموا صـوب مدينة تور، وأدرك شارل مارتن أن دولة الفرنجـة ذاتها هى خطوة المسلمين التالية، فـقرر التحالف مؤقتًا مع دوق أوكيتانيا لمواجهة الخطر الإسلامى المشترك، فكانت المنازلة الكبرى بين الجيش الإسلامى والجـيش الفرنجـى فى ١١٤هـ / ٧٣٢م فى سهل يقع شـمال بواتيـيه، فـعرفت المعركة فى المصـادر الأجنبية باسم معركـة بواتييه، ولكنها عرفت فى المصـادر العربية باسم بلاط الشهداء لكثرة من قتل من المسلمين وعلى رأسهم الغافقى ذاته، فكانت الهزيمة[٣].

أ- أسباب الهزيمة: قال المؤرخون: إن السبب فى الهزيمة تلك المسـافات الشاسعة جدًا التى تفـصلهم عن مركـز الخلافـة فى دمشق، فـلا إمدادات من الجند أو العـتاد من مـركز الخلافة. وفى الحـقيقة هذا السبب لا قيـمة له بدليل انتصار المسلمـين فى بدء المعركة على أعدائهم الذين لمسوا نقطة ضعف المسلمين بعدها مباشرةً.

كما عَزَا آخـرون سبب الهزيمة إلى ما كان بين العـرب والبربر من صراع -آنذاك- وهذا عامل يحسب حسابه، ينبغى ألا يُهْمل[٤].

أمّا السبب المباشر للهزيمة فهو الـغنائم التى جمعها المسلمون أثناء زحفهم من المدن التى مروا بها قـبل المعركة الفاصلة، فالمراجع متفقة على أنّ الجيش الإسلامى كـان يجر قوافل

(١) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن الفتوح الإسلامية عبر العصور صـ ١٨٦.

(٢) عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامى صـ ١٠٧.

(٣) الدولة الأموية دولة الفتوحات صـ ٦٥. (٤) عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامى صـ ١٠٨.

محملة بالغنائم والأسلاب من كل صنف، ولعل تعلق الجند بهذه الغنائم كان كبيراً، لأنهّم حملوها معهم حتى نهر اللوار، ولو أحسنوا لبعثوا بها جنوبيًا إلى الأندلس، حتى يطمئنوا عليها، وتخلو أيديهم للعمل الجاد فى المعركة، إنَّهم حرصوا عليها فكان هذا الحرص العامل الرئيسى والأساسى لهزيمتهم، لأن عدوهم استشعر هذا الحرص منهم، فعرف كيف يستغله لصالحه(١).

كانت معركة بواتييه «بلاط الشهداء» فى أواسط تشرين الأوّل ٧٣٢م، أواخر شعبان ١١٤هـ، وتثبت المراجع تفوق المسلمين على أعدائهم فى بدء المعركة، ثم حدث أن اندفعت فرقة من الفرنجة إلى خلف صفوف المسلمين، حيث أودع المسلمون غنائمهم، فخشى الكثير منهم أن يستولى الفرنجة على غنائمهم، فالتفت بعضهم وعاد إلى الخلف ليبعد الأعداء عنها، وهنا اضطربت صفوف المسلمين، واتسعت الثغرة التى نفذ منها الفرنجة، ودار القتال بعنف وقوة فزلزل نظام المسلمين، وحاول عبد الرحمن جهده أن يثبت جنده، ويعيد النظام، أو يصرف الجند عن الهلع عن الغنائم فلم يوفق، وأصابه سهم أودى بحياته، وكان ذلك بداية الهزيمة، إذ انهال الفرنجة على المسلمين من كل جانب، وصبر المسلمون، حتّى أقبل الليل فانتهزوا فرصة حلول الظلام، وتسللوا متراجعين إلى الجنوب على عجل، وكان ذلك فى ٢٠ من تشرين الأول ٧٣٢م، أوائل شهر رمضان ١١٤هـ(٢).

ب- نتائج بلاط الشهداء: لقد ترتب على بلاط الشهداء تغيير مجرى التاريخ إلى حد كبير، ولم تحل هذه الصدمة دون إعادة الكرَّة على فرنسا، إذ إن الهزيمة وحدها لم تكن لتوقف المسلمين عند هذا الحد، بل كانت لهم بعد كرَّات أعقبها النصر والفتح، غير أن أهمية بلاط الشهداء ترجع إلى أن المسلمين ارتدوا عن فرنسا ولم يحاولوا إخضاعها تمامًا . . . ولو تحقق إخضاعها كاملة لزالت عصورها الوسطى المظلمة مبكراً، ولحقت بركب الحضارة والتقدم فى الأندلس خلال عيشها فى رحاب الإسلام، فلا غرابة إذن أن العديد من الكتَّاب الغربيين الذين رأوا روعة الإسلام وحضارته أينما حل، اعتبروا نتيجة بلاط الشهداء نكبة كبيرة أصابت أوربا، وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان(٣).

---

(١) فجر الأندلس، نقلاً عن عوامل النصر والهزيمة ص ١٠٨.

(٢) عوامل النصر والهزيمة ص ١٠٩

(٣) التاريخ الأندلسى ص ١٩٩ ، ٢٠٢ .

ثانيًا: الجبهة الشرقية:

١- أرمينيا: كثر الغزو فى أرمينيا وبلاد اللان أيام هشام بن عبد الملك، واشتهر من القادة: الحجاج بن عبد الملك، والجراح بن عبد الله الحكمى، ومسلمة بن عبد الملك، وأشرس بن عبد الله السلمى، والحارث بن عمرو الطائى، وإسحاق بن مسلم العقيلى، ومروان بن محمد، فقد غزا الحجاج بن عبد الملك بلاد اللان فصالح أهلها على أن يؤدوا الجزية، إلا أنهم نقضوا العهد، فغزاهم مسلمة بن عبد الملك من جهة باب الأبواب وهزمهم عام ١١٠هـ، وسار الترك إلى أذربيجان فلقيهم الحارث بن عمرو عام ١١٢هـ فردهم على أعقابهم مهزومين، وتحركوا من جهة بلاد اللان فلقيهم الجراح بن عبد الله الحكمى فيمن معه من أهل الشام وأذربيجان فى العام نفسه، واستشهد -رحمه الله- هو ومن معه من الجند بأردبيل وأخذ الترك مدينة أردبيل، فوجه هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة فى شتاء بارد غزير المطر والثلوج فسار فى أثرهم حتى تجاوز باب الأبواب فخلف عليها الحارث بن عمرو الطائى. وعاد إليهم مسلمة فى العام التالى ١١٣هـ ففرق جنده فى أرضهم فقتلوا وسبوا، وكان ممن قتلوا ابن خاقان الترك، فتأثر خاقان لما حلّ بابنه فتقدم إلى مسلمة إلا أنه هُزم سنة ١١٤هـ(١) ورجع مسلمة عن الباب، وعاد الترك إلى نقض العهد، فأرسل إليهم مروان بن محمد بعثين عام ١١٧هـ الأمر الذى جعلهم يقرون بالجزية، ولم يلبثوا أن نقضوا العهد فغزاهم عام ١٢٠هـ(٢) إسحاق بن مسلم العقيلى ومروان بن محمد الذى افتتح بلاد السرير فدانت له وأدت الجزية عام ١٢١هـ، وتوفى فى ذلك العام مسلمة بن عبد الملك الذى دوخ الروم والترك(٣).

٢- بلاد ما وراء النهر: ما انقطع القتال فى بلاد ما وراء النهر أيام هشام بن عبد الملك، واشتهر من القادة: أسد بن عبد الله القسرى، ومسلم بن سعيد، والجنيد بن عبد الرحمن، وسعيد بن عمرو الحرشى، ونصر بن سيار(٤).

٣- بلاد السند: حينما آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان نشطت حركة الجهاد فى السند بهدف تثبيت الأوضاع فيها وإخضاع بعض الولايات الهندية المجاورة التى كانت من عوامل عدم استقرار الأوضاع فى السند، وكان من أشهر قادة المسلمين فى بلاد السند، الجنيد بن عبد الرحمن المرى، فقد قام بإخضاع بلاد السند وإقليم كجرات من بلاد الهند بنجاح وسرعة، وعادت الحياة إلى بلاد السند بالطمأنينة والأمن وكان

---

(١)، (٢)، (٣) التاريخ الإسلامى (٤/٢٧٦).

(٤) المصدر نفسه (٤/٢٧٧).

ذلك عام ١٠٧هـ[١]. وبعد نقل الجنيد بن عبد الرحمن إلى خراسان تولى إمرة السند تميم ابن زيد العتبى، وكان ذلك سنة إحدى عشرة ومائة، ولم يكن فى كفاءة الجنيد فاضطربت أحوال البلاد وقامت الفتنة بين أهل السند والعرب، وبين العرب أنفسهم، ولما أوشكت البلاد على نشوب حرب داخلية قرر تميم مغادرة البلاد إلى العراق، وقد مات بالطريق، وعين خالد ابن عبد الله القسرى الحكم بن عوانة الكلبى سنة ١١٢هـ، فأحيا الجهاد وسار سيرة حسنة فى السند، وكان من عوامل نجاحه اختياره عمرو بن محمد بن القاسم الثقفى، وقد أسند إليه الحكم قيادة الجيش فتحرك عمرو بالجيش لإخماد الفتن فرجع من جولته منتصراً فاستقرت الأوضاع فى السند، ووصى أهلها بولاية الحكم، ولقد بقى الحكم فى إمارة السند حتى عام ١٢٢هـ حيث خرج على رأس جيش لإخماد الفتن التى ثارت فى بعض مناطق السند وفى صحبته عمرو بن محمد بن القاسم الثقفى، فاستشهد الحكم وانتصر جيشه على الأعداء[٢] ثم تولى ولاية السند عمرو بن محمد بن القاسم، فكان من أعماله بناء مدينة المنصورة لتكون حصنًا للمسلمين عند أى هجوم من الأعداء، وكانت لعمرو بن محمد أعمال مشكورة وتمتع بمحبة أهل السند لشهرة أبيه فاتح السند[٣] ومن الجدير بالملاحظة أن الفتوحات فى العصر الأموى كانت تنشط عندما تقل المشاكل داخل الدولة الإسلامية، فحينما ينشغل المسلمون بالجهاد والفتوح تقل المشاكل الداخلية، وحينما يتوقفون عن الجهاد تظهر الفتن والقلاقل. ويعُد عصر معاوية عصراً زاهراً بالفتوح، كما يُعد عصر الوليد بن عبد الملك العصر الذهبى للفتوح أيام الأمويين، حيث فتحت مناطق جديدة فى السند والأندلس وما وراء النهر. ومن خلال مقارنة العصر الأموى بما سبقه أو لحقه من العصور نجد أنه لا مثيل له فى سعة الفتوح سوى ما حدث فى عصر الراشدين قبله، أو فى العصر العثمانى فى أزمان لاحقة، فهذه العصور الثلاثة هى عصور الفتوح والمد الإسلامى الرئيسية[٤].

ثالثًا: دروس وعبر و فوائد من الفتوحات:

١- مشاركة النساء فى القتال: فى سنة ١٢٣هـ خرج عشرون ألفًا من الروم فنزلوا على المسلمين فى ملطية، فأغلق أهلها أبوابها، وظهر النساء على السور عليهن العمائم يقاتلن، وخرج رسولهم إلى هشام بن عبد الملك بالرصافة مستغيثًا، فندب هشام الناس إليها، ثم

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ٣١٥) .

(٢) التاريخ الإسلامى للحميدى (١٣/ ١٧٣)، تاريخ خليفة ص ٣٥٤ .

(٣) التاريخ الإسلامى للحميدى (١٣/ ١٧٣) .

(٤) الفتوح الإسلامية عبر العصور ص ١٨.

بلغه الخبر بجلاء الروم عنها، لكنه غزا بنفسه حتى نزلها وعسكر عليها حتى بنيت وحصنت[1].

٢- رغبة القادة والجند في الشهادة: في عهد هشام استشهد جماعة من أبرز قواد المسلمين مثل الجراح بن عبد الله الحكمي عامله على أرمينيا سنة ١١٢هـ، واستشهد سور بن الحر التميمي في خراسان في السنة نفسها، وعقبة بن سحيم الكلبي في جنوب خراسان سنة ١٠٧هـ، ثم عبد الرحمن الغافقي في الجبهة نفسها في تور بواتييه سنة ١١٤هـ، مما يدل على امتداد ساحات القتال والفداء التي يغشاها القادة بأنفسهم مع أجنادهم، وكلما قتل واحد منهم قام آخر ليواصل الطريق .. وكان هشام في كل ذلك يشفق على جنده ويتلقى أنباء استشهاد قادته فينخلع قلبه خشية أن يكون أحدهم قد انحاز عن العدو فخسر الجنة؛ فلما استشهد الجراح بن عبد الله دعا هشام سعيد بن عمرو الحرشي أحد كبار قادته فقال له: بلغني أن الجراح قد انحاز عن المشركين، فقال سعيد واثقًا: كلا يا أمير المؤمنين، الجراح أعرف بالله من أن ينحاز عن العدو، لكنه قتل[2]، وكما أعطى القادة هذه الأمثلة كان الجند لا يقلون حماسة وحمية ورغبة في الشهادة، فقد دخل أحدهم -ويدعى أبا ضمرة النضر بن راشد العبدي- على امرأته والناس يقتتلون في إحدى المعارك - في بلاد ما وراء النهر - فقال لها: كيف أنت إذا أتيت بأبي ضمرة مضرجًا بالدماء ؟ فشقت جيبها ودعت بالويل، فقال: حسبك، لو أعولت على كل أنثى لعصيتها شوقًا إلى الحور العين، ورجع فقاتل حتى استشهد -رحمه الله-[3].

٣- الشورى عند هشام في إدارته العسكرية: أخذ هشام بن عبد الملك بمبدأ الشورى في إدارته العسكرية، فعندما علم باستشهاد قائده الجراح بن عبد الله الحكمي ومن معه من قبل الخزر جعل الخليفة هشام يستشير وزراءه وخاصته، فيما نزل بالقائد الجراح وأصحابه، وأدخل عليه كل من ببابه من أجل مشورتهم وطلب رأيهم، حيث سمع منهم ما قالوا وأشاروا به في هذا المصاب، وفي تعيين من يخلفه في القيادة ضد الخزر، والتزم الخليفة هشام بالشورى في إدارته لشئون الدولة وبخاصة تعيين الولاة والقادة، وسار قادته على منواله بالالتزام بمبدأ الشورى في مرحلة الإعداد والإقرار وتنفيذ الخطط في إدارتهم للمعارك الحربية[4]. فكان صاحب رأي خراسان في الحرب المجشر بن مزاحم السلمي[5]، حيث

(١) الدولة والمجتمع في العصر الأموي ص ١٠٥.
(٢) الكامل في التاريخ (٣/ ٣٣٠).
(٣) المصدر نفسه(٣/ ٣٣٣).
(٤) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (١/ ٢٨٥).
(٥) تاريخ الطبري، نقلاً عن الإدارة العسكرية (١/ ٢٨٥).

ينزل الناس على راياتهم ويضع المسالح، ليس لأحد مثل رأيه فى ذلك، كما كان عبد الرحمن بن صبح الخرقى إذا نزل الأمر العظيم فى الحرب لم يكن لأحد مثل رأيه، وكان عبيد الله بن حبيب الهجرى صاحب الشورى على التعبئة فى القتال، ولم يقتصر الأمر على هؤلاء فى الرأى والمشورة، بل كان هنالك من الموالى مثلهم فى الرأى والمشورة والعلم بالحرب، وكان القادة يستعينون بهم فى الإدارة العسكرية(١).

٤- العيون فى عهد هشام بن عبد الملك: لما تولى هشام بن عبد الملك الخلافة ازدادت العناية فى إدارته العسكرية بأمر العيون والأخبار، سواء فى محاربة الأعداء والخارجين على الدولة أو فى الرقابة الإدارية على الولاة والعمال والقادة(٢)، وقد اهتم هشام بالبريد وطرقه، فبالإضافة إلى كونه حلقة اتصال بين القيادة العليا المركزية وقادة الثغور لنقل الأخبار استخدم كوسيلة من وسائل التنقل للقادة والعسكر، وبخاصة فى حالة الإمداد العسكرى؛ لما يتميز به من السرعة واختصار الوقت(٣)، فإنه لما استشهد القائد الجراح بن عبد الله الحكمى استدعى الخليفة هشام بن عبد الملك سعيد بن عمرو الحرشى وعينه للقيادة، ثم سأله الرأى فأشار عليه الحرشى بقوله: تبعثنى على أربعين دابة من دواب البريد، ثم تبعث إلىّ كل يوم أربعين دابة عليها أربعون رجلاً، ثم أكتب إلى أمراء الأجناد يوافوننى، ففعل ذلك الخليفة هشام(٤). كما كان قادة هشام بن عبد الملك يضعون العيون على عسكرهم لمعرفة أحوالهم وأخبارهم، فمن ذلك أن القائد الجنيد بن عبد الرحمن المرى والى خراسان أثناء محاربته لخاقان ملك الترك أحب أن يستطلع أخبار جنده، فكلف أحد رجاله بأن يسير فى المعسكر ليتعرف على روحهم المعنوية، فقال له: امش فى الصفوف والدراجة وتسمع ما يقول الناس وكيف حالهم(٥).

٥- الاهتمام بالحدود البرية: سلك هشام نهج من سبقه من خلفاء بنى أمية فى إدارته العسكرية، بالعناية بأمر الثغور، وحماية الحدود الإسلامية من هجمات العدو بإنشاء التحصينات اللازمة والتى كان منها بثغر المصيصة حصن الربض، وحصن المثقب على ساحل البحر قرب ثغر المصيصة، وحصن قطرغاش(٦) واهتم بغيرها من الحصون، وكانت

(١) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الإدارة العسكرية (١/ ٢٨٥) .

(٢) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الإدارة العسكرية (١/ ٤١٢) .

(٣) الأخبار الطوال صـ ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٤١٤) .

(٤) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الإدارة العسكرية (١/ ٤١٥) .

(٥) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٤١٤) .

(٦) حصن من أعمال الثغور قرب المصيصة، كان أول من عمره هشام .

هذه الحصون مشحونة بالجند المرابطين[١] وكان قادة الثغور على صلة بالخليفة هشام فيطلبون منه ما يريدون، فعلى سبيل المثال حين ولى ثغر أرمينية مروان بن محمد كان يقدم على الخليفة هشام فى كل سنتين مرة يرفع إليه أمر الثغر واحتياجاته ومصلحة من به من جنوده وما ينبغى أن يعمل من تحصينات لحمايته .. بالإضافة إلى ما بينهما من اتصال مستمر بواسطة البريد[٢].

٦- الاهتمام بالحدود البحرية: من التطورات التى حدثت فى إدارة الخليفة هشام بن عبد الملك البحرية أنه أمر بتجديد القواعد البحرية بالساحل الشامى، وبنقل دار صناعة السفن من عكا إلى صور، ورمم القاعدة البحرية بها، ومنها أصبح مخرج المراكب الحربية لغزو الروم[٣]، وقام واليه على إفريقية عبيد الله بن الحبحاب بتطوير دار صناعة السفن بتونس، فكان منها يخرج الأسطول الإسلامى للغزو والفتوحات هنالك[٤].

واستمر فى إدارة الخليفة هشام بن عبد الملك خروج الحملات البحرية للصائفة والشاتية كدوريات لحفظ السواحل البحرية وحمايتها، وللغزو وشن الهجمات البحرية على سواحل العدو، وولى قيادة هذه الحملات كبار القادة، كمعاوية بن هشام بن عبد الملك، وعبد الرحمن بن معاوية بن خديج، وعبد الله بن أبى مريم، وعبد الله بن عقبة بن نافع الفهرى، وغيرهم من القادة الذين فاقوا بمهارتهم البحرية مهارة أمراء الروم وتمكنوا من التغلب عليهم[٥].

٧- الأثر الحضارى للفتوحات على عهد هشام: كان قادة الخليفة فى فتوحاتهم يتخيرون رسلهم من أهل العلم والورع والفضل لدعوة أهل الكفر إلى الإسلام، هذا مع استعانتهم بالمترجمين الحاذقين بلغة العدو، وكان الجند يواظبون على تلاوة القرآن الكريم، ويتناشدون الأشعار فيما بينهم أثناء وجودهم فى جبهة القتال، فكان ذلك يؤثر فى حركتهم ونشاطهم، ويزيد من حماستهم وتضحياتهم[٦]. وكان الشعراء يتحدثون عن البطولات والانتصارات فى قصائد كالتى قالها ثابت بن قطنة فى انتصار المسلمين على الترك فى أحد القصور

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٤٩٥) .
(٢) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الإدارة العسكرية (٢/ ٤٩٥) .
(٣) فتوح البلدان للبلاذرى (١/ ١٤٠)، الإدارة العسكرية (٢/ ٥٥١) .
(٤) معجم البلدان (٢/ ٦٢)، الإدارة العسكرية (٢/ ٥٥١).
(٥) الإدارة العسكرية (٢/ ٥٥١) .
(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الإدارة العسكرية (٢/ ٧٣٠ ، ٧٣١).

القريبة من سمرقند، وكان قائد المسلمين المسيب بن بشر الرياحي، وكان الشاعر من ضمن الأبطال المقاتلين فقال:

فدت نفسي فوارس من تميم غداة الرَّوع في ضَنْك المقام
فدت نفسي فوارس أكنفوني على الأعداء في رهج القتام
بقصر الباهلي وقد رأوني أحامِي حيث ضَنَّ بي المحامي
بسيفي بعد حطم الرمح قُدْما أذودُهُم بذي شُطَب حسام
أكر عليهم اليحموم كرًا ككر الشرب آنية المُدام
أكر به لدى الغمرات حتى وضربي قونس الملك الهمام
إذا لسعت نساء بني دثار أمام الترك بادية الخِدام
فمن مثل المسيب في تميم أبي بشر كقادمة الحمام[1]

ومن الخدمات الاجتماعية والاقتصادية التي عملت في عهد هشام بن عبد الملك قيام واليه على الموصل بحفر النهر المكشوف الذي يجيء وسيط الموصل وشرب أهله منه، وكان السبب في ذلك أن الوالي كان جالسًا في داره المعروفة بالمنقوشة التي كانت قصر الإمارة ينظر في مناظر له، فرأى امرأة على عاتقها جرة وقد جاءت من دجلة وهي تحملها ساعة وتضعها ساعة أخرى تستريح، فسأل عنها فقيل: امرأة حامل جاءت بماء من بعد وقد أجهدها حمله، فاستعظم ذلك فكتب إلى الخليفة هشام بن عبد الملك يخبره الخبر وببعد الماء على أهل البلد، فكتب إليه يأمره أن يحفر نهرًا في وسط المدينة لتقديم وتوفير الخدمات لهم، فابتدأ بحفره، واستغرق حفره وقتًا طويلاً، وأنفق عليه أموالاً طائلة، وبعد الانتهاء من حفره أمر الخليفة هشام أن تبنى أرجاء على ضفافه، ثم أوقف هذه الأرجاء ومستغلاتها على نفقة هذا النهر وما يحدث فيه من تعمير وإصلاح في المستقبل[2]، كذلك قام والي مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك باستقدام حي من قيس من البادية مائة أهل بيت من بني نصر، ومائة أهل بيت من بني عامر، ومائة أهل بيت من أفناء هوازن، ومائة أهل بيت من بني سليم؛ فأوطنهم بتنيس وأمرهم بالاستزراع، وصرف لهم صدقة العشور كإعانة لهم[3] ومن الآثار

(١) تاريخ الطبري (٧/٥١٢ - ٥١٦) .
(٢) تاريخ الموصل صـ ٢٦ - ٢٨ الإدارة العسكرية (٢/ ٧٨٤).
(٣) الإدارة العسكرية (٢/ ٧٨٤).

الحضارية للآثار الاقتصادية والاجتماعية فى إدارة الخليفة هشام بن عبد الملك العسكرية قيام واليه على العراق ببناء الأسواق لأهل الكوفة وجعل لأهل كل بياعة دارًا وطاقًا، وجعل غلالها للجند، وكان ينزلها عشرة آلاف مقاتل(١).

رابعًا: وفاة هشام بن عبد الملك وبداية الانهيار:

توفى هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ، ويتفق أغلب المؤرخين على أن الوفاة كانت يوم الأربعاء من شهر ربيع الآخر وإن اختلفوا فى تاريخ اليوم، ومع ذلك لم يتجاوز الاختلاف سبعة أيام، فالطبرى يحدد الوفاة يوم الأربعاء لست ليال خلون من ربيع الآخر(٢)، ويتفق معه كل من ابن الأثير(٣) وغيره، أما ابن خياط فيذكر أن الوفاة كانت يوم الأربعاء لثلاث ليال خلون من ربيع الأول(٤). ولما كان هشام قد بويع بالخلافة فى شهر رمضان عام ٢٠٥هـ، وتوفى فى اليوم الخامس من ربيع الأول فإن مدة خلافته على الحساب الهجرى تكون تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة أيام(٥).

١- ماذا قال لولده فى سكرات الموت؟ نظر هشام فى أولاده وهم يبكون عليه حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا وجُدتُم عليه بالبُكاء، وترك لكم ما جمع وتركتم له ما كسب، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له!(٦).

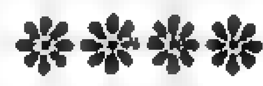
٢- العلة التى كانت بها وفاته: عن سالم أبى العلاء قال: خرج علينا هشام بن عبد الملك يومًا وهو كئيب -يعرف ذلك فيه- مسترخ عليه ثيابه، وقد أرخى عنان دابته، فسارع ثم انتبه، فجمع ثيابه وأخذ بعنان دابته، وقال للربيع: ادع الأبرش، فدُعى فسار بينى وبين الأبرش، فقال له الأبرش: يا أمير المؤمنين، لقد رأيت منك شيئًا غمنى، قال: وما هو؟ قال: رأيتك قد خرجت على حال غمنى، قال: ويحك يا أبرش! وكيف لا أغتم وقد زعم أهل العلم أنى ميت إلى ثلاث وثلاثين يومًا، قال سالم: فرجعت إلى منزلى فكتبت فى قرطاس: زعم أمير المؤمنين يوم كذا وكذا أنه يسافر إلى ثلاثة وثلاثين يومًا. فلما كان فى الليلة التى استكمل فيها ثلاثة وثلاثين يومًا إذا خادم يدق الباب يقول: أجب أمير المؤمنين، واحمل معك دواء الذبحة - وقد كان أخذه مرة فتعالج فأفاق - فخرجت ومعى الدواء

(١) الإدارة العسكرية (٢/ ٧٨٤).
(٢) تاريخ الطبرى (٨/ ٧٢).
(٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ٣٩١).
(٤) تاريخ خليفة، نقلاً عن عصر هشام بن عبد الملك ص ٦٩.
(٥) عصر هشام بن عبد الملك ص ٧٠.
(٦) البداية والنهاية (١٣/ ١٥٨).

فتغرغر به، فازداد الوجع شدة، ثم سكن فقال لي: يا سالم، قد سكن بعض ما كنت أجد، فانصرف إلى أهلك، وخلف الدواء عندى، فانصرفت، فما كان إلا ساعة حتى سمعت الصراخ عليه، فقالوا: مات أمير المؤمنين. فلما مات أغلق الخزان الأبواب، فطلبوا قمقمًا يسخن فيه الماء لغسله، فما وجدوه حتى استعاروا قمقمًا من بعض الجيران، فقال بعض من حضر ذلك: إن فى هذا لمعتبراً لمن اعتبر. وكانت وفاته بالذبحة، فلما مات صلى عليه ابنه مسلمة(١). وقال ابن كثير: وصلى عليه الوليد بن يزيد بن عبد الملك(٢).

٣- سنّه عند وفاته: قال ابن كثير: كانت وفاته بالرّصافة يوم الأربعاء لستٍّ بقين من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة وهو ابن بضع وخمسين سنة، وقيل: إنه جاوز الستين(٣). وكان نقش خاتمه: الحكم للحكم الحكيم(٤).

٤- بداية النهاية للدولة الأموية: لما مات هشام ولّى ملك بنى أمية واضطرب أمرهم جداً، وإن كان قد تأخّرت أيامهم بعده نحواً من سبع سنين، ولكن فى اختلاف وهَيْج، وما زالوا حتى خرجت عليهم بنو العباس، فاستلبوهم نعمتهم وملكهم، وقتلوا منهم خلْقًا وسلبوهم الخلافة، كما سيأتى -إن شاء الله- ذلك مبسوطًا مقرراً فى مواضعه.



(١) تاريخ الطبرى (٨/٣٧).
(٢) البداية والنهاية (١٣/١٥٩).
(٣) المصدر نفسه (١٣/١٥٨).
(٤) المصدر نفسه (١٣/١٥٩).

الفصل الحادي عشر

سقوط الدولة الأموية

المبحث الأول

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، أبو العباس الأموى الدمشقى، ولد سنة ٩٠هـ / ٧٠٩م ولم يتمكن أبوه من استخلافه لصغر سنه، فعقد لأخيه هشام، وجعل الوليد وليًا للعهد بعد هشام(١)، كانت له ألقاب عدة: فلقب بالبيطار، ولقب بخليع بنى مروان، والفاتك، وأمه أم الحجاج بنت محمد الثقفية(٢). وجاء وصفه فى الفوات للكتبى: أنه كان وسيمًا جسيمًا، أبيض مشربًا بالحمرة، ربعة قد وخَطَه الشيب(٣). وأما السيوطى فقال: عن مروان بن أبى حفصة: كان الوليد من أجمل الناس، وأشدهم وأشعرهم، ويقول السيوطى فى موضع آخر: كان فاسقًا شريبًا للخمر، منتهكًا حرمات الله(٤) ويقول العصامى: كان أكمل بنى أمية أدبًا وفصاحةً، وأعرفهم باللغة والحديث، وكان جّوادًا مفضالاً، ولم يكن فى بنى أمية أكثر منه إدمانًا للشرب والسماع، ولا أشد مجونًا وتهتكًا منه، واستخفافًا بالدين وأمر الأمة، وتبالغ بعض المصادر فى وصف سلوكه السيىء فى حين تنفى بعض المصادر الأخرى عنه ذلك وتصفه بالخليفة المجمع عليه(٥).

أولاً: خلافته:

كان الوليد مغاضبًا لهشام فى حياته حتى خرج وأقام فى البرية، ولم يزل مقيمًا بها حتى مات هشام، فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له، فكان أول ما فعل أن كتب إلى العباس بن عبد الملك بن مروان أن يأتى الرصافة؛ فيحمى ما فيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه، إلا مسلمة بن هشام؛ فإنه كلّم أباه فى الرفق بالوليد، فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد، وقد أثر عن الوليد شعر كثير فى الشماتة بهشام(٦).

---

(١) تاريخ الخلفاء صـ ٢٥٠، الخلافة الأموية للهاشمى صـ ٣٨٩.

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ١٦٨).

(٣) فوات الوفيات، نقلاً عن الخلافة الأموية صـ ٣٨٩.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن الخلافة الأموية صـ ٣٩٠.

(٦) البداية والنهاية (١٣/ ١٦٢).

ويقول الطبرى: إن هشامًا، كان مكرمًا للوليد، معظمًا، ولا يزال هشام على ذلك حتى ظهر من الوليد بن يزيد مجون وشرب الخمر، وقد حمله على ذلك عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيبانى، واتخذ الوليد ندماء. ومما ذكره المؤرخون عن سلوكه ما ذكره ابن كثير فقال: أراد هشام أن يقطع ندماء[1] الخمر عن الوليد، فولاه الحج سنة ١١٦هـ/ ٧٣٥م، فحمل معه كلابًا للصيد فى صناديق، فسقط منه صندوق فانهالوا على الحمال بالسياط حتى أوجعوه ضربًا، وأراد أن ينصب القبة على ظهر الكعبة ويجلس فيها ويشرب الخمر[2]، فخوفه أصحابه، وقالوا: لا تأمن الناس علينا وعليك، فلم يحركها، وظهر للناس منه تهاون بالدين واستخفاف به. وبلغ ذلك هشامًا فأراد أن يخلعه -وليته فعل- وأن يولى بعده مسلمة بن هشام، وأجابه إلى ذلك جماعة من الأمراء ومن أخواله، ومن أهل المدينة ومن غيرهم، وليت ذلك تمّ، ولكن لم ينتظم[3].

ثانيًا: عنايته بشئون الدولة:

استهل الوليد خلافته بالاهتمام بأحوال رعيته اهتمامًا شاملاً، إذ شرع فى إعداد الخطط وجدّ فى تنفيذها لتحسين أوضاع المواطنين المعاشية تحسينًا ملحوظًا، كسبًا لودهم وإظهارًا لفضله على هشام بن عبد الملك، ولبلوغ هذه الأهداف اتخذ الوليد ثلاثة قرارات:

١- رفع مستوى الخدمات التى تقدمها الدولة للمواطنين فى العاصمة، فواسى البؤساء والضعفاء والعجزة والقاعدين والمكفوفين من أهل الشام، ووزع المعونات والهدايا على أطفالهم[4].

٢- زيادة رواتب المواطنين المسجلين فى ديوان العطاء، فرفع رواتب أهل الأمصار جميعًا عشرة دراهم، ومنح أهل الشام عشرة دراهم أخرى، وضاعف الأعطيات والهبات لأقربائه الذين قدموا عليه، وأعلنوا مساندتهم له، وأكرم كل من قصدوه وسألوه[5]، وتألف أهل المدينة ومكة واسترضاهم، فأعاد إليهم أرزاقهم وحقوقهم المالية.. فأنفق الوليد فى هذه الوجوه والسبل الإصلاحية ما حاز من ثروة هشام، وما وجد فى خزائن الدولة من أموال، حتى أفلس، ووقع فى ضائقة خانقة[6]، ووضّح الوليد القرارين السابقين من خطته

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ٨٢).
(٢) البداية والنهاية (١٣/ ١٦٠).
(٣) المصدر نفسه (١٣/ ١٦١).
(٤) سيرة الوليد بن يزيد، د. حسين عطوان صـ ٢٥٥.
(٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٥.
(٦) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٦.

الإصلاحية فى قصيدة عينية طويلة له، ضاع أكثرها وسلم أقلُّها، قالها على المنبر بدمشق لما بويع بالخلافة، ثم أمر بكتابة نسخ منها لتُوزَّع على الأمصار المختلفة[1]، وأرسل نسخة منها إلى المدينة[2]، وهو يُحيِّى فيها أهل الأمصار ويعدهم بخير عميم، ويلتزم برواتبهم فى موعدها المحدد الثابت كل سنة دون تأخير أو مماطلة، ويتعهد بزيادة رواتبهم زيادة مجزية، ويُمنيهم بحياة رغيدة إن عاش وامتدت خلافته، فهو يقول:

ألا أيها الركب المُحيَّون أبلغوا ... سلامى سُكّان البلاد فأسمعوا

وقولوا أتاكم أشبه الناس سُنَّة ... بوالده فاستبشروا وتوقعوا

سيُوشك إلحاق بكم وزيادة ... وأعطية تأتى تباعًا فتشفع

مُحَـ ـم ديوانكم وعطاؤكم ... به يكتب الكتَّابُ والكتب تطبع

ضمنت لكم إن لم تصابوا بمهجتى ... بأن سماء الضُّرِّ عنكم سُتقلِعُ[3]

٣- القرار الثالث الذى اتخذه الوليد لتحسين أوضاع المواطنين بالشام يتمثل فى بناء بعض المنشآت المائية للنهوض بالزراعة وتوسيع رقعة الأراضى التى تُزرع فى الصيف وزيادة محاصيلها ورفع أجر العاملين بها. فأقام (جسر الوليد)[4] على طريق أذَنَةَ من المصيصة على تسعة أميال، وشيَّد مشروع أُسَيْس المائى[5] على بعد ثلاثة وثمانين ميلاً شرقى دمشق، وهو يشتمل على جهاز للرى يستخدم للانتفاع بمياه الأمطار[6].

*** اهتمامه بشئون الدولة العسكرية:** عُنى الوليد بشئون الدولة العسكرية ولم يفرط فيها، ولكن حركة الجهاد كانت قد ضعفت مُنذ نهاية العقد الأخير من القرن الأول، وتحوّل دور المسلمين فى حدودهم الشرقية مع الترك، وحدودهم الشمالية مع الروم من الهجوم والفتح إلى الدفاع والحفاظ على البلدان التى نشروا الإسلام فيها، وبسطوا سلطانهم عليها، ومع ذلك فإنه تمَّت فى عهد الوليد بعض الفتوح الجديدة، وأغار بعض إخوته على الروم غارات كثيرة ناجحة[7]، ففى خلافة الوليد فتحت قبرص؛ إذ أغزى الوليد بن يزيد أخاه الغمر بن يزيد بن عبد الملك، وأمّرَ على جيش البحر الأسود بن بلال المحاربى، وأمره أن يسير إلى

(١) أنساب الأشراف (٢/ ٣١٩)، سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣٥٧.

(٢) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٧.

(٣) أنساب الأشراف (٢/ ٣١٩)، نقلاً عن سيرة الوليد بين يزيد صـ ١٠١.

(٤) معجم البلدان (٢/ ٨٢).

(٥) المصدر نفسه (١/ ١٧٢).

(٦) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (٢/ ١٢٧).

(٧) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٧.

قبرص، فيخيرهم بين المسير إلى الشام إن شاءوا، وإن شاءوا إلى الروم، فاختارت طائفة منهم جوار المسلمين، فنقلهم الأسود إلى الشام، واختار آخرون أرض الروم، فانتقلوا إليها[١]. وولّى أخاه الغمر بن يزيد الصائفة غير مرة، فغنم ما لم يغنمه أحد قط، وكانت آخر صوائفه في سنة ست وعشرين ومائة[٢]، وعلى قصر خلافة الوليد فإن القرارات الثلاثة الإصلاحية التي ارتآها وطبقها وبعض الفتوحات والغزوات المظفرة التي قادها أخوه الغمر تدل على تفكيره في مشاكل رعيته المالية والاجتماعية والزراعية، تفكيرًا جادًا خلص منه إلى وضع الحلول السريعة للمشاكل العاجلة، وتدل على اجتهاده في بعض حركة الفتوح والجهاد وتقويتها، وحماية حدود الدولة[٣] وتنفي عنه ما اتهمه به اليعقوبي من أنه كان مهملاً لأمره، قليل العناية بأطرافه، متشاغلاً عن أمور الناس[٤].

ثالثًا: تغييراته الإدارية:

كشفت رسائل عمال هشام - التي عثر عليها الوليد - عن آرائهم في ولايته للعهد[٥]، فبنى عليها موقفه منهم، واتخذها أساسًا لما أحدث من تعديلات في الوظائف المختلفة، أما العمال الذين دلّت رسائلهم على تحزبهم لهشام، وتأييدهم له من تحويل ولاية العهد إلى ابنه مسلمة، فعزلهم الوليد وعاقبهم عقابًا صارمًا، وأما العمال الذين صمتوا عن الخوض في ولاية العهد، أو جهروا في رسائلهم بمعارضتهم لهشام فثبّتهم الوليد، وأبقاهم في مناصبهم، وأحسن إليهم[٦].

١- **أسماء عمال الوليد:** كان محمد بن هشام المخزومي - خال هشام بن عبد الملك - أوّل العمال الذين فصلهم الوليد، إذ نحّاه عن المدينة ومكة والطائف[٧]، وعين مكانه خاله يوسف بن محمد الثقفي[٨]. وأقصى الوليد بن القعقاع العبسي عن قنسرين، وأسندها إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري[٩]، وأعفى عبد الملك بن القعقاع العبسي من ولاية حمص، ووكلها الوليد إلى ابنه عثمان، وضم إليه ربيعة بن عبد الرحمن[١٠]، فقيه أهل المدينة،

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٢٠١).
(٢) تاريخ خليفة، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٨.
(٣) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٨.
(٤) تاريخ اليعقوبي (٢/ ٣٣٣)، سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٨.
(٥)، (٦) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥١.
(٧) تاريخ الطبري، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥١.
(٨) تاريخ خليفة، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥١.
(٩) تاريخ الطبري، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥١.
(١٠) أنساب الأشراف (٢/ ٣٢٠)، سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥١.

المعروف بربيعة الرأى[1] وأمّا سائر عُـمّال هشام فلم يعرض الوليـد لهم، ولم يعزلهم من ولاياتهم، فاحـتفظ يوسف بن عمر الـثقفى - خال الوليـد - بحكم العراق[2]، لأنه كان أشار علـى هشام ألا يخلع الوليـد من ولاية العهـد، وظل القاسم بن مـحمد بن الـقاسم الثقفى على البصرة[3]. وتعاقب على الكوفة غير عـامل خلال ولاية يوسف بن عمر على العراق لهشام، كان آخرهم زياد بن صخر اللخمى[4] فعزله يوسف عنها فى مستهل خلافة الوليد، واستعمل عليها عبيـد الله بن العباس الكندى، ثم عزله وولّى أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن أبى عقيل الثقفى، فأقام جمعة حتى هرب يوسف بن عمر بعد قتل الوليد[5]. وظل مروان بن محمد على أرمينية[6]. وحرب بن قطن بن قبيصة بن مخارق الهلالى على سجستان[7]، ونصر بن سيار على خراسان[8]، وعمرو بن محمـد بن القاسم الثقفى على السند[9].

وكان على اليمن فى نهاية خلافة هشام القاسم بن عمر الثقفى، أخو يوسف بن عمر، فلم يزل عليـها حتى مـات هشام[10]، ثم وليهـا الضحـاك بن زمل السكسكى حتـى قتل الوليد[11]. وبقى المهاجـر بن عبد الله الكلابى على اليـمامة فى أيام هشـام والوليد[12]، وكان على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبى فى عهدى هشام والوليد[13].

٢- موظفـو الدواوين والقصـر بالعاصـمة: استغنى الوليـد عن أغلب الموظفين الذين ولوا لهـشام الـشرط، والرسـائل، والخـراج، والجند، والخـاتم، والخزائن، وبـيوت الأمـوال، والحرس، والخاتم الصغـير، والخاصة[14]، وقد أقصاهم لأنهم مـن خاصة هشام، ولأنهم شاركوا فيـما أنزله هشام به من السوء، ولأن كل خليفة كان يفـصل أكثر موظفى الدواوين

(١) وفيات الأعيان (٢/٢٨٨)، سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥١.

(٢) تاريخ الطبرى، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٢.

(٣) تاريخ خليفة، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٢.

(٤)، (٥) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٢.

(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٢.

(٧) تاريخ خليفة، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٢.

(٨) مروج الذهب (٣/٢٢٥).

(٩) تاريخ خليفة (٢/٥٣٨ - ٥٥٣)، سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٢.

(١٠) تاريخ خليفة (٢/٥٣٤)، سيرة الوليد صـ ٢٥٢.

(١١) تاريخ خليفة (٢/٣٥٨ - ٥٥٣)، سيرة الوليد صـ ٢٥٢.

(١٢) تاريخ خليفة (٢/٥٣٩ - ٥٥٣).

(١٣) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٢.

(١٤)، المصدر نفسه صـ ٢٥٣.

والقصر السابقين ويستعيض عنهم بموظفين آخرين يثق بهم ويطمئن إليهم، وكان عمال الوليد وموظفوه من القيسية واليمنية ومن مواليه(١).

٣- قضاة الأمصار: لم يخلع الوليد من قضاة الأمصار زمن هشام إلاَّ يوسف بن سعد بن إبراهيم، عزله يوسف بن محمد الثقفي عن قضاء المدينة وولى يحيى بن سعيد الأنصاري(٢). وأما سائر القضاة فاستمروا في وظائفهم، فكان الحارث بن يَمْجُد الأشعري قاضي دمشق لهشام والوليد(٣)، وولي قضاءها للوليد الحارث بن محمد أبو حبيب الظهري الحمصي(٤)، وكان على قضاء البصرة يوم قدم يوسف بن عمر سنة عشرين ومائة عبد الله بن بريدة الأسلمي، فلم يلبث أن مات، فاستقضى عامر بن عبيدة الباهلي، فلم يزل قاضيًا حتى مات هشام والوليد(٥)، وكان محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قاضي الكوفة لهشام والوليد(٦).

٤- العلماء في عهد الوليد بن يزيد:

منذ تسلم الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخلافة لم يعد للعلماء أثر واضح في سياسة الدولة، التي أخذت في التدهور مسرعة نحو السقوط، فمن الطبيعي ألا يكون لهم مجال في سياسة الدولة مع الوليد بن يزيد الذي غمس نفسه في فتنة العصبية القبلية، كما غمس نفسه في اللهو والترف(٧).

رابعًا: بيعته لولديه الحكم ثم عثمان:

شعر الوليد بن يزيد عند توليه الخلافة (١٢٥هـ) بالآثار المدمرة التي تركتها حملة التشهير عليه وعلى خلافته، فبادر بمبايعة ابنيه الحكم وعثمان بولاية عهده بعد شهر واحد فقط من توليه الخلافة(٨)، منتهزًا هذه الفرصة لمخاطبة المسلمين في الأمصار كافةً عبر كتابته بالعهد لهما(٩). فأعاد الوليد فيه مرة أخرى التأكيد على الطروحات الأموية، تقوية لمركزه وإضعافًا لخصومه، فهو خليفة مستخلف من الله على منهاج نبوة محمد ﷺ، لإنفاذ حكمه وإقامة

(١) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٣.
(٢) تاريخ الطبري، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٣.
(٣) تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٣.
(٤) المصدر نفسه صـ ٢٥٣.
(٥) تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٣.
(٦) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٥٣.
(٧) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية صـ ٢١٧.
(٨) تاريخ الموصل(٢/ ٥١)، الخلافة الأموية للهاشمي صـ ٣٩٣.
(٩) تاريخ الطبري (٨/ ٩٢ – ٩٨).

سنته وحدوده، والأخذ بفرائضه وحقوقه. وأكد الوليد فيه على مكانة الخلفاء عند الله، وأنه سبحانه تكفل بهم وبنصرتهم على أعدائهم.

ومضى الوليد في كتابه فأكد على فكرة الطاعة التامة، وأن طاعة الأمة للخليفة من طاعتها لله تستوجب بها الجنة، وأن من شاقه وخالفه يستوجب عذاب النار، حاضًا على الطاعة والتزام الهدوء والسكينة، محاولاً بذلك قطع الطريق على مناوئيه[1].

خامسًا: أعمال الوليد الانتقامية:

يذكر التاريخ جنايات كثيرة للوليد على الدولة الأموية، وكان أعظمها إفساده بني عمَّيه هشام والوليد والوزراء والولاة اليمانية وهم الدولة، فقد قام بجلد ابن عمّه سليمان بن هشام وتغريبه إلى عمّان لأمور كان ينقمها من أبيه وهو وليُّ عهده، وكان سليمان ناشطًا محبوبًا معدودًا من أكابر الرجال علمًا وسياسة ودراية بالحروب ومعرفة بحيلها ومكائدها، واغتصب الوليد بن يزيد جارية لآل عمّه فكلمه فيها عمر بن الوليد فأبى ردّها فقال له عمر: إذن تكثر الصواهل[2] حول عسكرك[3].

وأراد البيعة لابنيه الحكم وعثمان، وكانا غلامين، وسجن الوزير سعيد بن صهيب لنهيه إيّاه عن البيعة لابنيه، فغضب عليه وتركه في السجن حتى مات. وعرض أمر البيعة لابنيه على خالد بن عبد الله القسري - وكان رأس ولاة الأمويين وشيخ وزرائهم وأعظم قائد لجند اليمانيّة - فقال: كيف أبايع من لا أصلّي خلفه ولا أقبل شهادته؟ فقال له قوم من أهله: كيف تقبل شهادة الوليد مع مجونه وفسقه؟ قال: أمره غائب عنّي ولا أعلمه يقينًا، وإنما هي أخبار الناس[4] فاضطغنها عليه الوليد حتى نكبه[5]، ويرون في نكبته أمورًا منها أن مناهضة خالد لسياسة الوليد كانت السبب المباشر في غضبه عليه، فقد رفض المبايعة لابني الوليد بولاية العهد[6]، ثم تكتم على اليمنية الذين كانوا يخططون لاغتيال الوليد، ولم يدله عليهم، لأنه لما أراد الوليد الحج في السنة التي بويع فيها، شاور خالدًا في الخروج، وكان لا يألوه نصحًا وهو مطلع على ما أجمع عليه زعماء مضر وقضاعة واليمانية من الفتك به، فقال: أخّر الحج العام. فقال: ولم؟ فأبى أن يكاشفه بما علم اتّقاء الفتنة، فأمر بحبسه وأن يستأدى من أموال العراق أيام كان عليه، ودفعه إلى خاله يوسف بن عمر-

(١) القدرية جدلية الدين والسياسة في الإسلام، مضر طلفاح صـ ٩٠.

(٢) الصواهل: جمع صاهل وهو الفرس.

(٣) تاريخ الطبري، نقلاً عن سقوط الدولة الأموية، للثعالبي صـ ٦٦.

(٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه صـ ٦٦.

وكان على العراق وقبض فيه خمسين مليون درهم، وسار به عمر إلى العراق، ومكث فى العذاب إلى أن مات قتيلاً سنة ١٢٦هـ(١)، وكان آل القعقاع يتولون أهم الولايات، فكان الوليد بن القعقاع على قنسرين وعبد الملك أخوه على حمص، فعزلهما وعين يزيد بن عمر بن هبيرة، ودفع إليه آل القعقاع فعذبهم ونكل بهم حتى مات الوليد بن القعقاع وأخوه عبد الملك فى العذاب ورجلان من آلهما(٢).

ونظرًا إلى هذه الأسباب فقد اضطغن على الوليد آل هشام والوليد ابنى عبد الملك وآل القعقاع واليمانية ومضر وألبوا عليه الأمة(٣). وقد قام الوليد بن يزيد بحملة انتقامية واسعة النطاق شملت كل من عاداه ودعم هشامًا ضده، فدلل ذلك على ضيق أفقه السياسى فلم يحاول طى صفحة الماضى، أو على الأقل تأجيلها لحين التمكن وإيجاد الموالين والأعوان داخل الدولة، وقد أدت خطواته الانتقامية إلى تكتل القوى المختلفة ضده، واشتراكها بالحركة التى أودت بحياته وخلافته(٤).

سادسًا: العناصر الأساسية المشاركة فى حركة يزيد بن الوليد الانقلابية:

١- بنو أمية:

كثر الأمراء الأمويون فى الفترة الأخيرة من دولتهم، وكان أغلبهم من ذرية عبد الملك وعبد العزيز ومحمد بن مروان بن الحكم، وأقلهم من حفدة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، ويستفاد من أخبارهم أنهم كانوا طائفتين، فمعظم الأمراء الصغار من أولاد الوليد وهشام والحجاج بن عبد الملك بن مروان، ومن أبناء عمر بن عبد العزيز كانوا عصبة واحدة على الوليد، جمع بينهم التَّذمر منه والمنافسة له والطمع فى عزله، وكان يزيد بن الوليد بن عبد الملك أدهى خصوم الوليد وأشدهم طعنًا فيه، وأكثرهم تحريضًا عليه، وأقواهم عزمًا على الإطاحة به، وآزر يزيد إخوته بِشْرًا، ومسروراً، وعمر، وروحًا، وإبراهيم. وكان عاصم وعبد الله ابنا عمر بن عبد العزيز يناوئان الوليد ويستخفان به، ويدل ما رواه ابن عساكر من شعر عاصم على أنه كان يلوم المتقاعسين القاعدين عن مناهضة الوليد، ويستفزهم للوثوب به، ويذكى حماستهم بتذكيره لهم بما يصبه الوليد عليهم من ألوان العذاب، إذ يقول:

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ١٠٨ - ١١٠).

(٢)، (٣) سقوط الدولة الأموية، للثعالبى صـ ٦٧ .

(٤) القدرية جدلية الدين والسياسة، يزيد بن الوليد صـ ٨٩.

يســـومكم الولـيـد الخـسف يعــدو ... عـليكـم مــــا لكـم منه إبـاء

فــإن كـنتم كـمــا قلتـم رجــالاً ... فــفى عــمل الرجــال يُرَى الـغَنَاء

وإلا فـاصـمـتــوا عن ذى وقـومـوا ... تَخـلـفُ عـن مكانـكم الـنسـاء[1]

وأما الأمـراء الأمويون الكبار من أبناء عـبد الملك ومن أبناء أخيـه محمـد بن مروان بن الحكم، ومن حفدة يزيد بن معاوية بى أبى سفـيان، فكانوا أرجح عقلاً من الأمراء الصغار والمتسرعـين، وأكثر اعتـدالا، وأوسع أفقًا، وأحسن وعـيًا لما ينفع ويضر، فسـالموا الوليد، وصانعوه وأيدوه، وحاولوا كبح جماح الأمراء الصغار[2].

وأشهر الأمـراء الأمويين الكبار هو العـباس بن الوليد بن عبـد الملك، وكانت له منزلة رفيعة فى قومه، وكان أخوه يزيد ومن انضموا إليـه من اليمنية يعرفون قدره وأهميته لنجاح الثورة على الوليد، فحاولوا اجتذابه إليـهم، إذ يقول عمر بن يزيد الحكمى ليزيد بن الوليد وقد انتـصحه فى الخروج على الوليـد: إن العباس بن الوليـد أخاك سيِّدُ أهل بيـتك، فإن بايعك لم يخـالفك الناس، وإن أبى فالناس لـه أطوع، وإن أبيت مشـاورته فأظهـر بيعـته لك[3]. فأفضى إليه يزيد بـأمره وخطته وغايته فزجره العـباس وخوفه[4]. فرجع يزيد إلى منزله بالبادية، ودبَّ فى الـناس فبايعوه سـرًا، ثم عاود أخاه العـباس ومعـه قطين مولاهم فشاوره وأعلمـه أن قومًا يأتونه يريدونه على البيـعة، فزبره العبـاس، وقال: إن عدت إلى مثلها لأشُدَّنك وثاقًا، ولأحملنك إلى أمير المؤمنين[5]، ولم يزل العباس يعارض أخاه يزيد ويهدده ولا يألو جهدًا فى إرشاده واستـصلاح سرائر إخوته، حتى يرأب الصدع بينهم وبين الوليد، ويمنعـه من التنكيل بهم إذا نُمِىَ إليه أنهم يأتمرون به، ويُدَبِّرون للانقضـاض عليه، حرصًـا على وحدة بنى أمية ومـصلحتهم وحـماية لسلطانهم ودولتهم، مما يدل عليـه قوله لقطن مولاهم، وقد استـدعاه العباس ليعرف منه نوايا يزيد وأهدافه التى أخذ يخـفيها عنه بعد أن كَفَّه وتوَعَّده: ويحك! أترى يزيد جـادًا ؟ قال: جعلت فداك، ما أظن ذلك، ولكنه دخله مما صنع الوليد وتـهاونه بالأمور، ما ضـاق به ذرعًا، قال: أمـا والله إنى لأظنه أشأم سخلـة من بنى مروان ولولا مـا أخاف من عـجلة الوليد، مع تحـامله علينا لشددتـه وثاقًا وحملته إليه. فازجره عن أمره، فإنه يسمع منك[6]، ومما يتضح له تَمثَّل بعد أن أتاه أخوه

(١)، (٢) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٨٥، ٢٨٦.

(٣) أنساب الأشراف (٢/٣٢٨)، سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٨٦.

(٤) المصدر نفسه (٨/ ١١٢، ١١٣). (٥)، (٦) المصدر نفسه (٨/ ١١٣).

بشر، وكلمه فى خلع الوليد، وبيعة يزيد، فنهاه وقال: يا بنى مروان، إنى أظن أن الله قد أذن فى هلاككم[1]. فهو يحذر فيها قومه من الفتنة ويسألهم أن يتوادعوا ويتضامنوا ويتأسوا بالأمويين الأوائل أهل الصرامة والبأس والتقوى، الذين صانوا دينهم ودنياهم، فانقادت الأمة لهم، ورسخوا أركان دولتهم بعزمهم الشديد، ونضالهم العنيد، وخلقهم النبيل، حتى يحافظوا على عزتهم وكرامتهم، ولا يطمعوا أعداءهم فى ملكهم، منذراً لهم بالدمار والانهيار إذا استمروا متدابرين متناحرين، فإنه لا تصلح رعية إلا إذا صلح القوامون عليها[2]؛ يقول:

يا قومنا لا تملوا نعمة لكم ... إنَّ الإله لكم فيما مضى صَنَع[3]
فأنتم اليوم أهل المُلك مذْ حِقبٍ ... وأهل دنيا ودينٍ ما به طمع[4]
فانفُوا عَدُوَّكم عن نحت أثْلتكم ... واستجمعوا إن أمر الدين مجتمع[5]
قوموا عليه كما قام الأولى نصروا ... حتى تولوا وما خافوا وما جزعوا
إنّ الكبير عليكم فى ولايتكم ... أن تصبحوا وعمود الدِّين منصدع
لا تُلْحَمُنَّ ذئابَ الناس أنفسكم ... إنَّ الذئاب إذا ما أُلحِمَت رتعوا[6]
لا تَبقُرنَّ بأيديكم بُطونَكُمُ ... فثم لا حسرةٌ تغنى ولا جزع
إنِّى أعيذكم بالله من فتن ... مثل الجبال تَسامى ثمَّ تندفع
لستم كمن كان قبل اليوم يسعرها ... بالمشرفية بيضًا حين تنتزعُ
والسمهريَّة مطرور أسِنَّتها ... وحومة الموت تغلى وردُها شرع[7]
إن البرية قد ملت وِلايتكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
فلن تزالوا رءوسَ الناس ما صلَحُوا ... وما شكرتم وأضحى العهد يُتَّبع[8]

وكان من الأمراء الكبار الذين مع الوليد بن يزيد، مروان بن محمد بن الحكم، وسعيد بن عبد الملك بن مروان، فقد كانوا ينكرون الوثوب بالوليد ويسعون إلى ردع الأمراء

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٨/ ١١٥).
(٣) يريد أن الله أكرمه بالماضى.
(٤) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٨٨.
(٥) نحت: نشر أو قطع. الأثلة من كل شيء: أصله.
(٦) اللحم: أطعم اللحم. رتع. نَعِمَ ولَها.
(٧) السمهرية: جمع سمهرى وهو الرمح الصليب العود، ينسب إلى رجل اسمه سمهر كان يبيع الرماح.
(٨) تاريخ ابن عساكر، نقلا عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٨٧.

الصغار المتذمرين المتسرعين، ورتق الفتن بينهم وبين الوليد، ولكنه كان بعيداً بأرمينية، ويظهر أن مروان وسعيداً لم يعرفا أن يزيد بن الوليد يدعو لنفسه، ويتربص بالوليد إلا فى وقت متأخر وبلغ مروان ذلك قبل سعيد، فاستفظعه وكتب إلى سعيد يحثه على تدارك الفتنة قبل وقوعها[1]، إذ يقول فى كتابه له: إن الله جعل لكل أهل بيت أركانا يعتمدون عليها. ويتّقون بها المخاوف، وأنت - بحمد ربك - ركن من أركان أهل بيتك... إلخ فى رسالة طويلة فلما وصلت سعيد أعظم ذلك، وبعث بكتابه إلى العباس بن الوليد فدعا يزيد، فعذله وتهدّده فحذره يزيد وقال: يا أخى، أخاف أن يكون بعض من حسدنا هذه النعمة من عدونا أراد أن يُغرى بيننا. وحلف له أنه لم يفعل، فصدقه[2].

وواضح أن يزيد بن الوليد كان أقوى أعداء الوليد بن يزيد من الأمراء الأمويين الصغار الذين لم تُحنّكهم التجارب، ولم يكونوا يستشرفون عواقب التباغض والتطاحن والتصارع على الملك، ولا كانوا يكترثون بتدهور الخلافة الأموية وسقوطها، فزيّن يزيد لأنداده من الأمراء الصغار الثورة على الوليد واستهواهم بآرائه وما كان يظهر من النُسك والورع والتواضع، فاندفعوا إليه وآمنوا بآرائه وأيدوا خطته ومطامعه، فعملوا للقرب من الوليد، إرضاء لغرورهم وكبريائهم، أو بحثًا على الوجاهة والنباهة، أو انتقامًا من الوليد، لأنه أهملهم وأبعدهم واستهان بهم، وأما الأمراء الأمويون الكبار، فإنهم لم ينجحوا فى إزالة أسباب الفرقة واستئصال جذور الفتنة، لعوامل مختلفة، منها ما يعود إلى بُعد بعضهم، وتستر العباس بن الوليد بن عبد الملك على أخيه يزيد، ومنها ما يُردُّ إلى خُبْث يزيد ودهائه، ومراوغته ومخادعته لأخيه العباس كلما نَهَرَهُ وردعه، ومُضيه فى العمل والتخطيط واستقطاب الأنصار[3] سراً، ومنها استبداد الوليد بن يزيد برأيه.

٢- اليمنية:

كما تَذمر اليمنية بالشام والعراق، وكانوا قد بدأوا يضجون بالشكوى من بنى أمية، ويتضجرون منهم فى نهاية القرن الأول بعد محق عبد الملك بن مروان لعبد الرحمن بن الأشعث الكندى، ومن التفوا حوله من اليمنية وغيرهم، ثم حنقهم على بنى أمية فى بداية القرن الثانى عندما نكب يزيد بن عبد الملك المهالبة وكاد يُفنيهم، وتنامى حقد اليمنية فى آخر أيام هشام حين أقصى خالداً عن العراق. وتصدّى الوليد بن يزيد لخالد بن عبد الله

(١) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٨٩.
(٢) تاريخ الطبرى (٨/ ١١٤).
(٣) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٩١.

القسرى، لأنه قاوم رغباته السياسية فسجنه وأذن فى ضربه. وكان قتل يوسف بن عمر الثقفى لخالد خاتمة النكبات التى حاقت باليمنية، وبعثتهم على التدبير المتْقَن لخلع الوليد واغتياله، ثأرًا لدماء زعمائهم المراقة، وكرامتهم المهدرة، وسلطتهم الضائعة، وقضاء على نفوذ المضرية من قيس وتميم، الذين أيدوا بنى أمية ومكّنُوهم من اليمنية، ولبلوغ ذلك لجأ اليمنية فى الشام إلى وسيلتين[1]:

أ- الأولى إعلامية دعائية تحريضية، قصدوا منها استفزاز أبناء عشائرهم، وإذكاء حميتهم وأنفتهم، بإثارة العصبية القبلية بينهم وبين القيسية، فوضعوا على لسان الوليد بن يزيد قصيدة طويلة فى تقريع اليمنية وذمهم، والتشفى باندحارهم، وتقلُّص سلطانهم، وفى تمجيد القيسية، والافتخار بجبروتهم وعظمتهم، وسحقهم لليمنية، وهى تتوالى على هذا النمط[2]:

ألم تَهْتجْ فَتذَّكِرَ الوِصَالا ... وحبلا كان مُتَّصلاً فزالا

بَلَى فالدمعُ منك له سجام ... كماء المُزن ينسجل انسجالاً

فدع عنك ادِّكار آلَ سعدى ... فنحن الأكثرون حَصىً ومالا

ونحن المالكون النّاس قَسْرًا ... نُسومُهُم المذلةَ والنكالا

وَطِئْنَا الأشْعَرى بِعز قيس ... فيالكِ وطأة لن تُستقالا

وهذا خالد فينا أسيرا ... ألا منعوه إن كانوا رجالا

عَظِيمُهُم وسيدُهُم قديما ... جعلنا المخزيات له ظلالا

فلو كانت قبائل ذات عِزٍّ ... لما ذهبت صنائعه ضَلالا

ولا تركوه مسلوبًا أسيرًا ... يُسامِرُ من سلاسلنا الثِّقالا

وكندةُ والسَّكُونُ فما استقالوا ... ولا برحت خُيولُهمُ الرِّجالا

بها سُمْنا البريَّة كلَّ خَسْفٍ ... وهدمنا السهولة والجبالا

ولكنَّ الوقائع ضعضعتهم ... وَجذَّتهم وردتهم شِلالا[3]

فما زالوا لنا أبدًا عبيدًا ... نَسُومُهمُ المذلة والسفَالا[4]

(١)، (٢) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣٠٧.

(٣) الشلال: القوم المتفرقون.

(٤) السفال: مصدر سفل يسفل إذا انحط.

فأصبحت الغداة علىَّ تاج بملك النَّاسِ ما يَبْغى انتقالا[1]

يختلف الإخباريون والمؤرخون فى صاحب القصيدة، أما رواة اليمنية فيقطعون بأنها للوليد، وفى ذلك يقول الطبرى مُتَحرِّزًا من روايتهم: قال الوليد بن يزيد - فيما يزعم الهيثم بن عدى - شعرًا يوبخ به أهل اليمن فى تركهم نصرة خالد بن عبد الله[2]. وعلى الرغم من أن الإخباريين كالمدائنى ومن أخذوا عنه كالبلاذرى والطبرى وابن خلدون يجمعون على أن القصيدة مفتعلة، لفقها أحد شعراء اليمنية ونحلها للوليد، فإن أسلوب القصيدة يرجح أنها ليست للوليد، فهو أسلوب جزل معقول سهل، لا التواء فيه ولا خشونة ولا غرابة، مما يخالف أسلوب الوليد فى شعره الفخرى، الذى يتصف بقلة التنقيح والتهذيب، وببعض العوص والقلق، وتنتشر فيه أوابد الألفاظ وشواردها ويشيع فيه وحشى الكلام ومهجورة[3]. وقد ساهم منصور بن جمهور الكلبى فى تحميس القبائل اليمانية وَحثِّها على تقويض حكم بنى أمية متهما لهم بالطغيان والعدوان، ودامغًا خلفاءهم المتأخرين بأنهم ولدان وغلمان، ومنددًا بسياستهم، وفتكهم برؤساء اليمنية وتقريبهم للمضرية[4]، وأنشد فى هذه المعانى أبياتًا من الشعر. وناصر اليمنية فى حملتهم الإعلامية التحريضية على الوليد وبنى أمية بعض شعراء ربيعة مثل حمزة بن بيض الحنفى الكوفى وذكر فى أشعاره الظلم والمجانة والانحراف، وارتكاب المعاصى والإلحاد.. فألهبت هذه القصائد التى تصايح بها شعراء اليمنية وأحلافهم من الربيعية عواطف اليمنية، وفجرت نقمتهم على الوليد والمضرية، إذ يقول أبو حنيفة الدينورى واصفًا أثر القصيدة الأولى فى اليمنية: ولما سمع من كان بأقطار الشام من اليمانية هذا الشعر أنِفوا أنفًا شديدًا، فاجتمعوا فى مدن الشام، وساروا نحو الوليد بن يزيد[5].

ب- وأما الوسيلة الثانية التى لجأ إليها اليمنية فى الشام فهى التخطيط السرى المنظم للثورة على الوليد، فجعلوا يبحثون عن زعيم يثقون به، ويشاركهم آلامهم وآمالهم، بعد أن استنكف خالد بن عبد الله القسرى عن قيادتهم، وخذلهم قبل هلاكه، فوجدوا فى يزيد بن الوليد بن عبد الملك الزعيم المنشود، إذ كان حانقًا على الوليد مثلهم، وكان يُفتش عن أنصار مخلصين، وزاد من اطمئنان اليمنية إليه وإقبالهم عليه أنه كان مُصهرًا إليهم، فقد

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ١١٠)، الأخبار الطوال صـ ٣٤٨.
(٢) تاريخ الطبرى (٨/ ١١٠).
(٣) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣٠٩.
(٤) أنساب الأشراف (٢/ ٣٠١)، سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣٠٩.
(٥) الأخبار الطوال صـ ٣٤٨.

كان متزوجًا امرأة منهم اسمها هند بنت زبان الكلبى[١]، وكان له منها ثلاثة أبناء هم أبو بكر، وعبد المؤمن، وعلى[٢]، فأتاه رؤساء اليمنية وفاوضوه فى خلع الوليد والمبايعة له بالخلافة[٣]، فوافقهم وتعاهدوا على أمرهم، ويحتفظ المؤرخون بأسماء كثيرين منهم ممن ترددوا على يزيد، وشجعوه على الثورة، منهم منصور بن جمهور الكلبى ومنهم طفيل بن حارثة الكلبى، وبشر بن هلباء الكلبى، وعبد الرحمن بن مصادر الكلبى، وثابت الخشنى وانضاف إلى يزيد بن الوليد سائر رؤساء اليمنية الذين كانوا قد اتصلوا بخالد بن عبد الله القسرى واستنفروه، وعرضوا عليه أن ينضم إليهم ويتزعمهم للإطاحة بالوليد، وقد اعتمد يزيد بن الوليد على رؤساء اليمنية فى مناصرته، وتأليب الناس على الوليد، وبايع له عامة أهل دمشق وأعيانهم من اليمنية[٤] وكان بعض اليمانية يتتبعون أخبار الناس ويرصدونها ويرسلونها إلى يزيد بن الوليد[٥]، إذ يقول عمرو بن مروان الكلبى: سمعت محمد بن سعيد بن حسان الأردنى قال: كنت عينًا ليزيد بن الوليد بالأردن، فلما اجتمع له ما يريد ولانى خراج الأردن[٦]. فكان للقبائل اليمنية الشامية دور كبير فى الحث على الثورة على الوليد؛ دفعها إليه انحطاط مكانتها السياسية وفتك بنى أمية بالمتمردين من زعمائها، وتعاظم سلطان القبائل القيسية فى دمشق والعراق وخراسان، وكان المتسرعون زعماء اليمنية بدمشق يُفَضّلون العمل فى سبيل خلافة يمنية خالصة، فلما صعب ذلك عليهم، لاذوا بيزيد بن الوليد، واحتشدوا عليه، وعبَّأوا أنفسهم لمؤازرته، وظلوا ينتظرون اليوم الموعود للخلاص من الوليد، واستعادة نفوذهم المفقود[٧].

٣- القدرية:

وممن انضم إلى حركة يزيد بن الوليد القدرية، وكان يزيد - فيما ذكر بعض المؤرخين - يدين بمذهب القدرية[٨]، ويعتبره المعتزلة أفضل من عمر بن عبد العزيز للمذهب[٩]. ورأيى أن يزيد بن عبد الملك طالب ملك، وصراعه مع ابن عمه الوليد سياسى، وإن كان

(١) أنساب الأشراف (٢/ ٢٣٨)، سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣١١.

(٢) أنساب الأشراف (٢/ ٣٣٧)، سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣١١.

(٣) تاريخ الطبرى، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣١١.

(٤) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣١٣.

(٥) المصدر نفسه صـ ٣١٣.

(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣١٣.

(٧) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣١٣.

(٨) الكامل فى التاريخ (٣/ ٤٢٥)، قال ابن الأثير: قيل إنه قدرى.

(٩) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٧٦).

يزيد نظم حملة إعلامية شرسة لتلطيخ سمعة الوليد وسحب بساط الخلافة من تحته. وقد ذكر بعض المؤرخين أن يزيد كان ابن أمة فارسية ولم يكن له من المنزلة فى الأسرة المروانية ما كان لغيره من أبناء الخلفاء من الحرائر العربيات، فحُرم هو وإخوته وسواهم من الأمراء الأمويين من أبناء الأعجميات من الخلافة، فمال إلى القول بالقدر - ويبدو لى فيما يتعلق بالخلافة هو أن تصبح حقًا لجميع المسلمين من العرب والموالى - وأظهر غير قليل من الزهد والتقوى والتأله، فاطمأن إلى القدرية واطمأنوا إليه[1] واستفاد منهم فى حث الناس على مبايعته وتأييده وحضهم على خلع الوليد وسفك دمه، ويبدو أن تأييد القدرية ليزيد بن الوليد سببه محاربة الوليد لهم وسيره على منهج هشام بن عبد الملك فى حربهم[2] وفى تقديرى أن وجود القدرية فى الحركة أضعفها بعد نجاحها، فهناك ملاحظات مهمة على العناصر التى شاركت فى حركة يزيد بن الوليد وهى:

أ- أكسبت مشاركة أمراء بنى أمية الحركة نوعًا من الشرعية الأموية، إذ أصبحت الحركة خلافًا بين أفراد البيت الأموى، لا ثورة ضد الخلافة الأموية تنوى الإطاحة بها، خاصة أنهم لعبوا دورًا كبيرًا فى الإعداد والتمكين لها، مما ساهم إلى حد كبير فى تسكين الناس، وإضفاء ثوب الشرعية على خلافة يزيد فى دمشق ونواحيها، على الأقل لكونه أحد أفراد البيت الأموى ويحظى بدعمهم، وليس معاندًا لهم[3].

ب- شارك اليمنية فى حروب الحركة وكانوا مادة جيوشها - كما سيأتى بيانه بإذن الله - وكانوا القوى الضاربة للحركة[4].

ج- كان لدور القدرية فى الحركة أن صب عليهم معارضوها نقمتهم وتعرضوا لاضطهادهم، وأصبحت القدرية تستحق القتل لدى معارضى الحركة، فمثلاً عندما أرسل يزيد بن الوليد عثمان بن داود الخولانى لأهل الأردن وفلسطين لاستمالة أهلها للحركة بعد مقتل الوليد، أخذ أهل الأردن بالصياح بمحمد بن عبد الملك قائلين: أصلح الله الأمير، اقتل هذا القدرى الخبيث[5].. وهكذا.

سابعًا: السيطرة على العاصمة وقتل الوليد بن يزيد:

كان يزيد بن الوليد فطنًا لبقًا يجيد تقدير الأمور، والتأنى لها، واختيار الوقت المناسب لتنفيذها، فاحتوى الجماعات الأموية واليمنية والقدرية المناهضة للوليد، ووعدها بحل

(١) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣١٩.
(٢) المصدر نفسه صـ ٣١٨.
(٣) القدرية جدلية الدين والسياسة فى الإسلام، حركة يزيد بن الوليد صـ ١١٨.
(٤) المصدر نفسه صـ ١٤٨.
(٥) المصدر نفسه صـ ١٤٩.

مشاكلها وتحقيق مطالبها، فشدت من عزمه وشدَّ من عزمها ونظمها وأحسن استغلالها، وأعدها حتى تسنح الفرصة للانقلاب على الوليد، وظلَّ يتحين الظرف حتى أمكنه[1].

١ – خطة إعلان الحركة وتنفيذها:

وضع يزيد بن الوليد خطة محكمة لإعلان الحركة، واستيلائها على مقاليد الأمور بدمشق، مستغلاً الظروف فى تلك الفترة، فقد انتشر الطاعون فى بلاد الشام، إضافة إلى انحباس المطر وانتشار الجفاف. وكانت العاصمة دمشق خالية فى تلك الأيام من الخليفة وكبار رجال دولته، فكان الخليفة الوليد بن يزيد معتزلاً فى البادية للعلاج من عارض صحى ألم به، ومبتدراً هربًا من الطاعون[2]. وكان عامله على دمشق عبد الملك بن محمد ابن الحجاج بن يوسف قد خاف الوباء فخرج عن دمشق واستخلف عليها ابنه[3]، وحددت ليلة الجمعة «٢١ من جمادى الآخرة ١٢٦هـ/ ٩ من نيسان ٧٤٤م» موعدًا لإعلان الحركة فى دمشق. واقتضت الخطة دخول يزيد بن الوليد سرًا إلى دمشق مع بعض أخلص أعوانه، والاختفاء فى دار ثابت بن سليمان الخشنى[4]، لحين صلاة العشاء حتى يبادر ومن معه بالاستيلاء على المسجد، والقصر والخزائن، وإلقاء القبض على أتباع وأنصار الوليد فى دمشق[5]. متفقًا وإياهم على شعار سرى للحركة بحيث لا تفتح أبواب المدينة إلا لمن نادى بشعاره[6]. وأن يقدم أنصار الحركة من الغوطة ليدخلوا دمشق فى مسيرة تظاهرية حاشدة، مخترقين شوارع العاصمة دمشق من أبوابها متجهين صوب المسجد حين يكون يزيد ومن معه من أتباعه بانتظارهم[7]. آملين من هذه التظاهرة إشعار الناس بقوة الحركة وكثرة أنصارها. وأن يكون لعنصر المفاجأة أكبر الأثر فى نجاح الحركة فى مقصدها ومراميها، ثم البدء بتجهيز الجيش الذى سيقاتل الوليد بن يزيد[8]، وقد تم تنفيذ الخطة بنجاح، وألقى القبض على رجالات الوليد وممثليه فى العاصمة دمشق، وطالت الحملة كل أعوانه وأنصاره ومؤيديه، وشرع يزيد وأنصاره فى إحكام السيطرة على مداخل دمشق وأبوابها، وأصدر أوامره لبوابى المدينة ألا تفتح الأبواب صبيحة يوم الجمعة إلا لمن نادى بشعار الحركة، وكلف يزيد أمراء البيت الأموى المشاركين فى الحركة بالعمل على ضمان استتباب الوضع للحركة فى دمشق من خلال قيامهم بدعوة الناس إلى النظام، والعمل على فرض الأمن فى

(١) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣٢١.
(٢) القدرية جدلية الدين والسياسة فى الإسلام صـ١٠٤.
(٣) تاريخ الطبرى (٨/ ١١٦).
(٤) المصدر نفسه (٨/ ١١٥).
(٥)، (٦) المصدر نفسه (٨/ ١١٦).
(٧)، (٨) القدرية جدلية الدين والسياسية فى الإسلام ١٠٤.

مناطق دمشق، فأمر عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بالمرابطة بباب الجابية، والوليد بن روح بن الوليد بالمرابطة بالراهب[1]،لضمان الأمن والنظام فيها، وأمر بنى الوليد بن عبد الملك بالانتشار بين الأهالى وحضهم على الطاعة والنظام ودعم الحركة[2]. فيما كان مناديه ينادى: من كان له عطاء فليأت إلى عطائه، ومن لم يكن له عطاء فله ألف درهم معونة[3]. جذبًا منه للأهالى للحركة، ودعوة أو حملاً لهم على النظام والطاعة[4].

٢- إرسال جيش للوليد بن يزيد:

بعد أن فرضت الحركة هيمنتها على دمشق وهدأت الأحوال فيها، بادر يزيد بن الوليد بتجهيز جيش الحركَة لتوجيهه للخليفة الوليد بن يزيد، فأخذ يندب الناس للمشاركة فيه، ويلاحظ من المصادر الإحجام عن الانخراط فيه، إذ ندب الناس أولاً مقابل ألف درهم لكل مشارك، فانتدب ألف، فلما رفع المبلغ إلى ألف وخمسمائة درهم انتدب له ألف وخمسمائة مشترك، فلما رفع المبلغ إلى ألفين انتدب ألفان، وعين عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، قائدًا له[5] وانطلق عبد العزيز، إلا أن أعدادًا كبيرة انسحبت فى الطريق، وعندما علم الوليد بزحف الجيش نحوه شرع فى اتخاذ الخطوات والإجراءات لملاقاة جيش الحركة الموجه لقتاله، فخرج من الأغدف - ماء من عمّان البلقاء - باتجاه البخراء، وهناك بدأ بتجنيد الأهالى فى جيشه، وعندما وصل جيش الوليد بالبخراء بدأ فى تهيئة الأمور لملاقاة جيش الحركة الذى ما لبث أن وصل إلى تلك المنطقة، ونشب القتال وكانت الدائرة فى بداية المعركة على جيش الحركة وأدى اشتداد القتال إلى انكشاف جيش الحركة وتراجع أفراده، الأمر الذى دفع عبد العزيز إلى الترجل وحث جنده على القتال، فعادوا إلى المعركة كارين مرة أخرى[6]، ولم تلبث كفة جيش الحركة أن رجحت فى المعركة. ويعود السبب فى ذلك إلى أن جيش الحركة تمكن من أسر العباس بن الوليد[7]. أثناء توجهه لنصرة الخليفة الوليد، واستغلوا الفرصة ورفعوا راية، ونادى المنادى: هذه راية العباس وقد بايع لأخيه يزيد أمير المؤمنين[8]، ونادى منادى عبد العزيز: من لحق بالعباس فهو آمن. وكانت نتيجة هذه الخطوة أن رجحت كفّة جيش الحركة وأخذ الوهن يتسرب إلى نفوس جند

(١) الراهب: محلة خارج باب الجابية قبلى دمشق.

(٢) تاريخ الطبرى (٨/١١٨).

(٣) المصدر نفسه (٨/١١٨).

(٤) القدرية جدلية الدين والسياسة فى الإسلام صـ ١٥٥.

(٥) تاريخ الطبرى (٨/١١٩).

(٦)، (٧)، (٨) تاريخ الطبرى (٨/١٢١).

الخليفة إذ أسقط فى أيدى أصحاب الوليد وانكسروا[١]. وتفرق الناس عن الوليد وأتوا العباس وعبد العزيز[٢]. وحاول الوليد بث العزيمة فى جنده، وقاتل معهم قتالاً شديدًا وعمل على إلهاب حماسهم وإغرائهم بالمال، وأعلن أن من جاء برأس من رءوس أفراد جيش الحركة فله خمسمائة درهم[٣]. وفى الوقت أخذ يعمل على استمالة عبد العزيز بن الحجاج قائد جيش الحركة، فبعث إليه الوليد بن خالد الكلبى، قائد الميسرة، ليبلغه وعد الخليفة الوليد بأن يعطيه خمسين ألف دينار، ويجعل له ولاية حمص ما بقى، ويؤمنه على كل حدث، على أن ينصرف ويكف، إلا أن عبد العزيز رفض العرض رغم معاودة الوليد له مرة أخرى[٤]. بدأ موقف الوليد يضعف أمام جيش الحركة، وأدرك أصحابه حرج موقفه، وتمت خيانات كبرى فى ميسرة الوليد وميمنته، وأمام العروض المغرية والأموال المجزية انضمت ميسرة وميمنة جيش الخليفة إلى جيش الحركة، وبذلك حسم مصير المعركة نهائيًا لصالح الحركة، فانهزم من بقى مع الوليد بن يزيد، وآثر الوليد الاحتماء بحصن البخراء، فأطبق جيش الحركة الحصار حوله[٥].

٣- الحوار بين الخليفة والثوار:

حاول الخليفة استعطاف جيش الحركة بتذكيرهم بمآثره عندهم، فدنا من باب الحصن وقال: ما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه، فقال له يزيد بن عنبسة السكسكى: كلمنى، قال: له من أنت ؟ قال: أنا يزيد بن عنبسة، قال: يا أخا السكاسك، ألم أزد فى أعطياتكم ؟ ألم أدفع المؤن عنكم ؟ ألم أعط فقراءكم ؟ ألم أخدم زمناكم ؟ فقال: إنا ما ننقم عليك فى أنفسنا ولكن ننقم عليك فى انتهاك ما حرّم الله وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله وإتيانك الذكور قال: حسبك يا أخا السكاسك، فلعمرى لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أحل الله لى لسعة عما ذكرت[٦]. وحاول الوليد فى دفاعه عن نفسه - والذى جاء متأخرًا - بيان النتائج المترتبة على قتله بقوله ليزيد بن عنبسة: أما والله لا يُرْتق فتقكم، ولا يلم شملكم، ولا تجتمع كلمتكم[٧]. إلا أن نصيحته هذه لم تجد آذانًا مصغية من أفراد جيش الحركة، فرجع عندها الوليد إلى داخل الحصن، ونشر مصحفًا يقرؤه بين يديه وقال: يوم كيوم عثمان[٨].

---

(١) القدرية جدلية الدين والسياسة فى الإسلام ص

(٢) أنساب الأشراف، نقلاً عن القدرية جدلية الدين صـ ١٦٠.

(٣) تاريخ الطبرى، نقلاً عن القدرية جدلية الدين صـ ١٦٠.

(٤)، (٥) تاريخ الطبرى (٨/ ١٢٦).

(٦) المصدر نفسه (٨/ ١٢٢).

(٧) المصدر نفسه (٨/ ١٢٣).

(٨) المصدر نفسه (٨/ ١٢٢).

إن الذى يفزع إلى المصحف عندما أحيط به وأيقن أنهم قاتلوه، لا يمكن أن يكون ماجنًا، يقترف ما رموه به، ويهين المصحف ويمزقه، كما تذهب بعض الروايات، وربما كان عُند الوليد ميل إلى اللهو والعبث، ولكن لم يصل به الحد إلى أن يهم بشرب الخمر فوق الكعبة، وهل ضاقت عليه الدنيا فلم يجد مكانًا يشرب فيه الخمر إلا فوق الكعبة؟! إن هذا لو حدث من حاكم مسلم فى عصرنا هذا لرماه الناس بالحجارة، فكيف بالوليد وهو خليفة المسلمين فى عصر قريب - إلى حد ما - من عصر النبوة والخلافة الراشدة، وملىء بالعلماء والصالحين والتابعين؟![1] والله أعلم.

٤- مقتل الخليفة الوليد بن يزيد (١٢٦هـ):

بدأ أفراد جيش الحركة باقتحام الحصن، وكان أول من نزل إليه يزيد بن عنبسة السكسكى؛ فأخذ بيد الوليد وهو يريد أن يحبسه ويؤامر يزيد بن الوليد فيه[٢]. إلا أن فرسانًا من أهل اليمن نزلوا إلى الدار، وتسابقوا إلى قتله واحتزاز رأسه، إذ كان يزيد بن الوليد قد جعل فيه مائة ألف درهم[٣]، وكان قتله فى يوم الخميس ٢٧ من جمادى الآخرة ١٢٦هـ / ١٦من نيسان ٧٤٤م[٤].

وألقى أفراد جيش الحركة القبض على ابنيه الحكم وعثمان حيث انتهى بهما القرار بالحبس فى دمشق[٥]، وبلغ يزيد بن الوليد الخبر بدمشق ليلة الجمعة ٢٨ من جمادى الآخرة ١٢٦هـ.

وقُدم برأس الوليد فى صبيحة الجمعة، حيث نصبه للناس، دلالة على انتصار جيشه بعد أن انتشرت الشائعات فى دمشق عن هزيمته أمام الوليد[٦]. وكان خاتم الوليد منقوشًا عليه: يا وليد أحذر الموت[٧]. ويقال إن الوليد حمل وصلى عليه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ودفن بباب الفراديس بدمشق[٨].

٥- نتائج قتل الوليد:

نجمت عن قتل الوليد بن يزيد عدة نتائج منها:

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ١٩٩.
(٢) تاريخ الطبرى (٨/ ١٢٢).
(٣) المصدر نفسه (٨/ ١٢٦).
(٤) القدرية جدلية الدين والسياسة صـ ١٦٣..
(٥) أنساب الأشراف، نقلاً عن القدرية جدلية الدين والسياسة صـ ١٦٣.
(٦) تاريخ الطبرى (٨/ ١٢٧).
(٧) تاريخ القضاعى صـ ٣٧٥.
(٨) المصدر نفسه صـ ٣٧٥.

أ- ضعف الخلافة الأموية، وذهاب هيبتها وضياع جلالها، وانهيار سلطانها على العامة والخاصة والجند في الأمصار المختلفة.

ب- اختلاف القبائل اليمنية الشامية، وتضارب أهوائها السياسية، وانقسامها، ومحاربة بعضها لبعض، وهي الأساس في جند بني أمية، فتفكك جيش الدولة في العاصمة، وتصدعت قوتها الضاربة وتمزقت.

ج- نشأ عن قتل الوليد تفسخ الأسرة الأموية بفرعيها السُّفياني والمرواني، وتناحرها وتفانيها في سبيل الفوز بالحكم والملك[1].

د- تتابع الفتن: اضطرب حبل بني مروان بعد مقتل الوليد، وهاجت الفتن وتتابعت الأحداث، ولم تنقطع إلا بزوال الملك، وإنّ في ذكرها لعبرة للمتبصرين. فقد وثب سليمان ابن هشام بن عبد الملك على يزيد بن الوليد بعمان - وكان منفيًا هناك - واستولى على ما بها من أموال الدولة، واستمر إلى أن استقدمه يزيد وعفا عنه، وثار أهل حمص وكاتبوا الأجناد ودعوهم إلى الطلب بدم الوليد فأجابوهم، وعقد هؤلاء الثّوار بينهم عقدًا تحالفوا عليه، خلاصته ألا يدخلوا في طاعة يزيد، وإن كان وليًّا عهد الوليد حيّين عقدوا البيعة لهما، وإلا جعلوها لخير من يعلمون، على أن يعطيهم العطاء من المحرم إلى المحرم، ويعطيهم للذريّة، وأمّروا معاوية بن يزيد بن حصين، فلما بلغ يزيد بن الوليد خبرهم وجّه لهم رسولاً وكتب إليهم أنه ليس يدعو إلى نفسه ولكنه يدعوهم إلى الشورى. فاجتمع رؤساء الثائرين للمناقشة في ردّ الجواب، فقال عمرو بن قيس السكوني: نحن راضون بوليي عهدنا - يعني ابني الوليد - فقام إليه يعقوب بن عمير وأخذ بلحيته فقال: أيها العشمة، إنك قد فيّلت وذهب عقلك؛ إن اللذين تعنيهما لو كانا يتيمين في حجرك لم يحل لك أن تدفع إليهما ما لهما، فكيف أمر الخلافة ؟ أما تتقي الله ؟ فحصل بينهما شجار، ثم عادوا واتّفقوا على عدم الجواب وطرد رسل يزيد، ولما اتصل ذلك بيزيد سير إليهم الجيوش وتجهز أهل حمص وصاروا إلى دمشق حتى وافوا عذراء وهي على أربعة عشر ميلاً من العاصمة الأموية[2]. فنهض إليهم عبد العزيز بن الحجّاج في ثلاثة آلاف وأمره أن يثبت على عقبة السلام، وحين التقى الجيشان بالثائرين حمل عبد العزيز بن الحجاج فانهزم الثّوار فتبعهم عبد العزيز فناداه يزيد بن خالد القسري: «الله الله في قومك!» فكفّ عنهم على أن يبايعوا ليزيد، وأرسل وجوههم إلى دمشق معتقلين، ولما

(١) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٣٣٠.

(٢) تاريخ الطبري (٨/ ١٤٢).

وصلوا بايعوا مع أهل دمشق ليزيد، فعفا عنهم وأعطاهم أموالاً واستعمل عليهم معاوية بن يزيد بن حصين برضاهم(١).

– ثورة أهل فلسطين: وثار أيضًا أهل فلسطين لما أتاهم نبأ مقتل الوليد، وكان رئيسهم يومئذ سعيد بن روح بن زنباع. فكتب إلى يزيد بن سليمان بن عبد الملك أن الخليفة قد قُتِل، فاقدم علينا نولك أمرنا. فجمع له سعيد قومه وكتب إلى عامل فلسطين سعيد بن عبد الملك وهو نازل بالسَّبع. ارتحل عنّا فإن الأمر قد اضطرب، وقد ولينا أمرنا رجلاً ارتضيناه(٢). فخرج ولحق بيزيد بن الوليد.

– أهل الأردن، وبلغ أهل الأردن ما فعل الفلسطينيون، فتابعوهم وولوا عليهم محمد بن عبد الملك، فبعث إليهم يزيد سليمان بن هشام في أجناد دمشق وحمص، فارتحل بالجنود إلى أن أشرف على طَبَريّة، فوافاه إليها الثّوار، فأوفد إليهم رسوله محمد بن راشد يكلم سعيداً وضبعان ابني روح، والحكم وراشد ابني جرو، فلقيهم فوعدهم ومنّاهم على الدخول في طاعة يزيد فبايعوه على الرضا وصرفوا الجنود ووقى الله منهم، ووفى لهم يزيد بما وعدهم محمد بن راشد من الولايات. ثم تحول سليمان بجنوده إلى الرملة وأخذ البيعة على أهلها(٣).

٦– سلامة الوليد من الزندقة والكفر:

كان العباسيون في أول عهدهم يهاجمون الأمويين ويتهمونهم بالضلال والإلحاد والانسلاخ من الدين اتهامًا قويًا، يظهر في خطب أبي العباس وأبي جعفر المنصور وداود بن علي وسليمان بن علي، وعيسى بن علي، ويظهر في خطب دعاة العباسيين وقادتهم كأبي مسلم الخراساني، وكان بعض الرواة يتزلفون إلى الأخبار التي تقدح في دين الوليد بن يزيد(٤) وقد زيف بعض الرواة حديثًا رموا فيه الوليد بالتجبر والكفر وجعلوا توليه الخلافة نذيراً بانهيار الدولة الأموية، وبشيراً بقرب قيام الدولة العباسية، وهو حديث رواه أحمد بن حنبل فقال: حدثنا ابن عباس قال: حدثني الأوزاعي وغيره عن الزهري، عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ولد لأخي أم سلمة زوج النبي ﷺ غلام فسمّوه الوليد، فقال النبي ﷺ: **«سميتموه بأسماء فراعنتكم ليكوننّ في هذه الأمة رجل يقال له: الوليد لهو شر على هذه الأمة من فرعون لقومه»**(٥) وإسناد الحديث ضعيف لانقطاعه،

(١) تاريخ الطبري (٨/ ١٤٥). (٢)، (٣) المصدر نفسه (٨/ ١٤٧).

(٤) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٣٦.

(٥) مسند أحمد (١/ ١٠٩) إسناد الحديث ضعيف لانقطاعه.

فسعيد بن المسَيب لم يدرك عمر بن الخطاب إلا صغيراً ولم يَرو عنه، وإنما روى عن غيره من الصحابة الذين ذكرهم ابن سعد[(١)]. والراجح أن الحديث موضوع[(٢)]. ونقل علماء اليمنية كالأزدى[(٣)]، وعلماء الشيعة كالشريف المرتضى[(٤)]، أن الأوزاعى سأل الزهرى: أىُّ الوليدين هو ؟ فقال: إن استخلف الوليد بن يزيد فهو هو، وإلا فهو الوليد بن عبد الملك[(٥)]، فلما استتبَّ الأمر للعباسيين وثبت سلطانهم، عزف خلفاؤهم وأمراؤهم وولاتهم عن قذف الأمويين بالخروج على الإسلام، فخلت خطبهم من تكفير الأمويين[(٦)]، وصَدَّ المهدى والرشيد الرواة الذين كانوا يُداهنونهما عن التعريض بالأمويين وتجريحهم، بل إنهما انتصرا للوليد، ونفيا عنه تهمة الزندقة ونزّهاه عنها، إذ إن المهدى كان إذ ذُكر الوليد فى مجلسه يقول: رحمه الله، ولا رحم قاتله، فإنه كان خليفة مجمعًا عليه. وقيل له: إن الوليد كان زنديقًا، فقال: إن خلافة الله أعز وأجلُّ من أن يوَلّيها من لا يؤمن[(٧)]. ويروى أن ابنًا للغَمر بن يزيد بن عبد الملك دخل على الرشيد فقال ممَّن أنت ؟ قال: من قريش. قال: من أيها ؟ فأمسك. قال: قل وأنت آمن، ولو أنك مروانىٌّ. قال: أنا ابن الغَمْر بن يزيد. قال: رحم الله عمّك، ولعن يزيد الناقص وقتلة عمِّك جميعًا، فإنهم قتلوا خليفه مجمعًا عليه[(٨)]. ارفع حوائجك، فرفعها فقضاها. وقد تَنبه كثير من المؤرخين إلى أن الأخبار التى تقدح فى دين الوليد وتتهمه بالزندقة مصنوعة، فتوقف فريق منهم عندها، وتحرَّجوا من روايتها ولم يستطيعوا القطع برأى فيها، منهم ابن شاكر فإنه يقول: اتَّهمه بعضهم بالزندقة والانحلال، والله أعلم[(٩)]. واليافعى يقول: ذكروا عنه أشياء قبيحة فى الدين والعرض أكره ذِكرها، والله أعلم بذلك[(١٠)]. ولكن فريقًا من المؤرخين رفضوها، وجزموا بوضعها، وأشار بعضهم إلى أنها أثر من آثار السياسة[(١١)]، منهم ابن الأثير فإنه يقول: وقد نزه قوم الوليد بن يزيد مما قيل فيه، وأنكروه ونفوه عنه وقالوا: إنه قيل عنه،

(١) الطبقات (٢/ ٣٨٠)، سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٣٧.

(٢) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٣٧. انظر تعليق أحمد شاكر، المسند (٣/ ٥٠، ٨٠).

(٣) تاريخ الموصل صـ ٥٦.

(٤) أمالى الشريف المرتضى (١/ ١٢٩).

(٥) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٥٦.

(٦) العقد الفريد (٤/ ١٠١ - ١٠٧)، جمهرة خطب العرب (٣/ ٥٠، ٨٠).

(٧) أنساب الأشراف، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٣٧.

(٨) الكامل فى التاريخ (٣/ ٤١٢).

(٩) عيون التواريخ، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٣٨.

(١٠) مرآة الزمان (١/ ٢٦٤).

(١١) سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٣٨.

وأُلصِقَ به، وليس بصحيح[1]، والذهبى يقول: لم يصح عن الوليد كفر ولا زندقة[2]، وابن خلدون يقول: لقد سارت القالة فيه كثيرًا، وكثير من الناس نفوا ذلك عنه وقالوا: إنها من شناعات الأعداء، ألصقوها به[3]، وابن تغرى بردى يقول: ذكر عنه بعض أهل التاريخ أمورًا أستبعد وقُوعها[4]، وكرر السيوطى[5]. رأى الذهبى واقتصر عليه. وهذا هو الصحيح، والله أعلم.

إن مقتل الوليد بن يزيد وقتال الأمويين بعضهم لبعض حطمت قواهم وعجلت بزوالهم

****

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ٤١٢).

(٢) تاريخ الإسلام، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٣٨.

(٣) تاريخ ابن خلدون، نقلاً عن سيرة الوليد بن يزيد صـ ٢٣٨.

(٤) النجوم الزاهرة (١/ ٢٩٨).

(٥) تاريخ الخلفاء.

المبحث الثاني

يزيد بن الوليد بن عبد الملك

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمه شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد، آخر ملوك الفرس(١)، وكان يجمع فى أصوله بين الدم العربى والفارسى والرومى والتركى، فجده لأبيه عبد الملك بن مروان، وهو عربى، وجده لأمه فيروز بن يزدجرد وهو فارسى، وجدة جده لأمه ابنة قيصر، وأم جدته لأمه ابنة خاقان الترك(٢)، فكان يفخر ويقول:

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدى وجدى خاقان(٣)

أولاً: منهجه فى الحكم:

لما وافت يزيد البشائر بخمود الفتن خرج إلى الجامع فى موكب مشهود، وألقى ما يسمّونه فى العصور الحديثة خطاب العرش، وقد ضمن فيه أصول سياسته(٤) فى الحكم. وتعتبر خطبته أوفى صياغة لمشروعه؛ فبعد أن حمد الله قال: أيها الناس، والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة فى الملك، وما بى إطراء نفسى، وإنى لظلوم لها، ولقد خسرت إن لم يرحمنى ربى. ولكنى خرجت غضبًا لله ودينه، وداعيًا إلى الله وسنة نبيه، لما هدمت معالم الهدى، وأطفئ نور التقوى، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة، والراكب لكل بدعة، مع أنه -والله- ما كان يؤمن بيوم الحساب، ولا يصدق بالثواب والعقاب، وإنه لابن عمى فى النسب وكفئى فى الحسب، فلما رأيت ذلك استخرت الله فى أمره وسألته ألا يكلنى إلى نفسى، ودعوت إلى ذلك من أجابنى من أهل بيتى، حتى أراح الله منه العباد وطهر منه البلاد، بحول الله وقوته لا بحولى وقوتى، أيها الناس، إن لكم علىّ ألا أضع حجراً على حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أكرى نهراً ولا أكنز مالاً، ولا أعطيه زوجًا ولا ولداً، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم، فإن فَضلَ فَضْلٌ نقلته إلى البلد الذى يليه ممن هو أحوج إليه منه، وألا أجمّركم فى ثغوركم فأفتنكم أهليكم، وأغلق بابى دونكم، فيأكل قويكم ضعيفكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم وأقطع نسلهم، ولكم

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٧٤)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٢٠٣ .

(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٢٠٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٧٥).

(٤) سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية صـ ٧٧ .

عندى أعطياتكم فى كل سنة، وأرزاقكم فى كل شهر، حتى تستدر المعيشة بين المسلمين فيكون أقصاهم كأدناهم، فإذا أنا وفيت لكم فعليكم بالسمع والطاعة وحسن المؤازرة والمكاتفة، وإن أنا لم أوف لكم فلكم أن تخلعونى، إلا أن تستتيبونى، فإن أنا تبت قبلتم منى، وإن عرفتم أحداً يقوم مقامى ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من بايعه ودخل فى طاعته. أيها الناس، لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم[1]. وقد تضمنت هذه الخطبة العديد من الأمور التى تستحق التوقف أمامها:

١- شرحه للتبريرات التى دفعته للقيام بهذه الخطوة، وفى المقدمة أن هذا الخروج كان غضباً لله ودينه ودعوة إلى سنة نبيه، نظراً لما فعله الوليد الجبار العنيد المستحل للحرمات، وما جاء به من بدع منكرة - حسب رأيه-.

٢- أنه يحدد برنامجه خطوة خطوة، إذ إنه يتعهد ألا يضع حجراً على حجر ولا لبنة على لبنة ولا يكرى نهراً ولا يكتنز مالاً ولا يعطيه زوجاً ولا ولداً.. إذ المعروف أن معظم الخلفاء الأمويين، أنفقوا أموالاً كثيرة فى بناء القصور خاصة فى دمشق والبادية على حد سواء[2]. كما أنهم عمروا الكثير من المساجد فى المدينة والقدس ودمشق وغيرها وفى الطريق إلى الحج.. ولا بد أن يضاف إلى ذلك كله أن الخلفاء والأمراء الأمويين قاموا بكرى الأنهر لإحياء الأراضى الموات التى استصلحوها، وأنفقوا فى سبيل ذلك الكثير من الأموال العامة، وفيما كانت سياستهم فى جانب منها تقوم على الإنفاق من بيت المال[3].

٣- يؤكد يزيد أن كل منطقة من أجزاء الدولة الإسلامية ستنفق دخلها على شئونها، وهذا بمثابة تطور مهم، كان له أوليات فى عهد عمر بن عبد العزيز إذ إن ما أشرنا إليه عن إرساله الأموال من الشام إلى العراق، كان انقلاباً نوعياً فى العلاقات المالية بين المركز والأطراف. هنا نلمح خطوة إلى الأمام فى إنفاق الواردات فى أماكن جبايتها الأصلية. علماً بأن الخلفاء الأمويين كانوا يضطرون إلى إرسال الأموال للإنفاق على الجنود والجيوش لقمع الانتفاضات والثورات. أما الآن فالأمر قد اختلف كلياً، إذ إنه فى حال

(١) تاريخ الطبرى (١٤٨/٨)، البيان والتبيين للجاحظ (٢//٦٩، ٧٠).

(٢) السلطة والمعارضة فى الإسلام ٤٨٢ .

(٣) المصدر نفسه صـ ٤٨٢ .

توافر فائض يمكن استعمـاله لسد حاجات المناطق المجاورة، وليس لملء خزائن السلطة المركزية[1].

٤- إنه يتعـهد بالامتناع على إطلاق حـملات عسكرية تؤدى إلى بقـاء الجيوش بعـيداً عن منازلها لمدد طويلة، وهو ما يسـمى بتجمير الجـيش، وهو ما مثل قضية خـلال خلافة عمـر ومن بعده من الخلفاء. ولا ننسى إن ثورة ابن الأشـعث كانت فى جانبـها الأبرز تعبيراً عن رفض بقاء الجنود بعيدين عن مواطنهم، حتى إن المهلب بن أبى صفرة نصح الحجاج بعدم الـتصدى لهم، لأنهم لدى عودتهم سيكونون مندفعـين كالسيل[2]. على أن هذه القضية كانت أشد تأثيراً لدى جند الشام من العراقيين، باعتبار أن الأولين باتوا قوة متفرغة للقتال سواء فى الصوائف أو لقمع الثورات التى تنشب هنا أو هناك، والتى شملت أجزاء الدولة فى مـراحل متلاحقة من دون استثناء. إذن نـحن إزاء قضية تملك حساسـية خاصة بالنسـبة للجند الشاميـين الذين باتوا قوة قمع كاملـة المواصفات. ولما كانت أعطيات هؤلاء تتأخر، فهو يعد بالأعطيات سنويًا والأرزاق شهريًا.

٥- يتوجه فى خطابه أيضًا لأهل الجزية، أو الشعوب المغلوبة فى المشرق والمغرب، ويعدهم بمعاملة منصـفة، وهذه المعاملة المنـصفة ستـدفعهم إلى البـقاء فى قراهم وعلى خـدمة أراضيهم من دون أن يضطروا إلى مغادرتهـا نحو المدن والمراكز، ومن شأن هذه العدالة أن تحافظ عليهم فى بلادهم وتحافظ على ذراريهم، إذ إن تعرضـهم للقهر عبر منوعات الضرائب، التى كانت سارية من شأنه تهجيرهم وإفناؤهم[3].

٦- إن هذه السياسات من شأنها أن تردم الهـوة بين المسلمين. والهوة المقصودة هنا هى هوة اجتمـاعية واقتصـادية بطبيعة الحال. واسـتعمال مصطلح المسلـمين -وليس العرب- له دلالته. إذ إنه يدخل عمليًا فى هذا الموالى المسلمين بما يزيل الدونية التى عانوا منها. مما يعنى أن هناك نقلة نحو المساواة التى كان عمر بن عبد العزيز قد خطا نحوها.

٧- إن هذا البرنامج الذى يلتزم به أمامهم هو العقد الذى يرتبـط به معهم، وكما أنه يتعهد بالإيفاء، فإن هذا يتطلب منهم السمع والطاعة وحسن المؤازرة والمكاتفة، أما إذا لم يف فإن لهم خلعـه. هذا العقد الذى تتـحدد فيه -بدقـة- الحقوق والواجبـات بين الحاكم

(١) السلطة والمعارضة فى الإسلام صـ ٤٨٢ .
(٢) المصدر نفسه صـ ٤٨٣ .
(٣) المصدر نفسه صـ ٤٩٣ .

والمحكوم، ينسف عملياً كل ادعاءات السلطة المطلقة. . . وهو فكر يجزم أن أمير المؤمنين وإن كان يتمتع بسلطة، إلا أنها ليست مطلقة، إذ إنها تخضع لموافقة المجتمع عليها، فإن أساء استعمال الصلاحيات التي يخولها له موقعه كان ذلك مبرراً لخلعه(1).

وأهمية هذه النقاط أنها في كل واحدة منها تقدم جوابًا على واحدة من إشكاليات الدولة الأموية، إلا أن الجانب النظرى شيء والتطبيق العملى قضية أخرى. فالخليفة الثائر لم يستطع أن يفى بوعوده للناس، واضطر أن يحابى اليمنيين الذين ساعدوه فى الوصول إلى الخلافة، وأن يغدق عليهم الأموال، فأدى ذلك إلى نضوب فى بيت المال، مما اضطره إلى إنقاص أعطيات الجند، فسموه الناقص، وهى تسمية لها دلالتها، كما أن القبائل المضرية نفرت منه لموالاته لليمنيين، فهبت فى وجهه ثورات المضرية التى قضى مدة خلافته القصيرة فى قمعها(2).

ثانيًا: توزيعه المناصب على مؤيديه وترغيب معارضيه:

كان الاتجاه العام عند يزيد بن الوليد مكافأة من أبلى معه فى الحركة بتوليته المناصب فى خلافته، منهم:

1- **عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك:** كان وجيهاً عند يزيد الناقص لقيامه معه فى محاربة الوليد، وهو الذى تولى قتال الوليد حتى قتل، وجعله يزيد ولى عهده بعد أخيه إبراهيم(3).

2- **منصور بن جمهور:** قال يزيد بن حجوة الغسانى ليزيد بن الوليد بعد توليته منصور العراق: يا أمير المؤمنين أوليت منصوراً العراق؟ قال: نعم لبلائه وحسن معونته. قال: يا أمير المؤمنين إنه ليس هناك فى أعرابيته وجفائه فى الدين، قال: فإذا لم أولِّ منصوراً فى حسن معونته فمن أولِّى؟!(4).

3- **يزيد بن العقار والوليد بن مصاد الكلبيان:** كانا فيمن سار إلى الوليد وولى قتله، كان أحدهما على حرس يزيد، والآخر على شرطه(5).

(1) السلطة والمعارضة فى الإسلام صـ ٤٨٣، ٤٨٤ .

(2) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٢٠٥ .

(3) تاريخ دمشق، نقلاً عن القدرية جدلية الدين والسياسة صـ ١٠٠، ١٠١ .

(4) تاريخ الطبرى (٨/ ١٥٠). (5) تاريخ الطبرى، نقلاً عن القدرية جدلية الدين ص١٠١ .

٤- **قطن مولى يزيد بن الوليد**: كان من ذوى الرأى من موالى بنى أمية[١] ومن أكبر أعوان يزيد فى مرحلة الدعوة والتبشير بأهدافها وترتيب أوضاعها[٢]، وولاه يزيد بعد توليه الخلافة خاتم الخلافة، والحجابة[٣].

٥- **يزيد بن عنبسة السكسكى**: كان داعيًا ومشرفًا على الدعاة[٤]، شارك فى الاستيلاء على دمشق ليلة إعلان الحركة[٥]، وبقتل الوليد بن يزيد[٦]، وكان له حضور قوى فى مبايعة يزيد بالخلافة[٧].

٦- **ثابت بن سليمان بن سعد الخشنى**: كان منزله فى دمشق مركز تجمع أنصار الحركة، وفيه احتمى يزيد ليلة إعلان الحركة، وتولى فى خلافة يزيد ديوان الرسائل[٨].

٧- **مروان بن محمد**: حرك مروان بن محمد جيوشه للمطالبة بدم الخليفة المقتول، وأسرع يزيد فكتب إلى مروان يدعوه إلى البيعة والطاعة ويوليه ما كان عبد الملك بن مروان أولى أباه محمد بن مروان من الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان، فسكنت نفس مروان لذلك، وأقلع عما كان عليه، وبايع يزيدًا، وأوفد إليه بالبيعة محمد بن عبد الله بن علاثة ونفرًا من وجوه الجزيرة، ولكن المنون عاجلت يزيد قبل وصول البيعة[٩]، ويقال إن يزيد بن الوليد بلغه عن مروان بن محمد أمر فكتب إليه: أما بعد فإنى رأيتك تُقَدِّم رِجْلاً وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيهما شئت. فقال مروان: أنا على لقاء العساكر أقوى منى على لقاء هذه الكلمات. ثم أذعن ودخل فيما دخل فيه الناس[١٠].

٨- **مكانة العلماء عند يزيد**: وفى عهده لم يكن لعلماء أهل السنة والجماعة مجال، حيث تبنى يزيد طائفة القدرية - أتباع غيلان الدمشقى - والتف حوله أقطابها، وأفسح لهم المجال إذ قاموا بنصرته فى خلعه للوليد وقتله[١١]. ومن منهجهم إذا كانت لهم السلطة

(١) تاريخ دمشق، نقلاً عن القدرية جدلية الدين صـ ١٠١ .

(٢) أنساب البلاذرى، نقلاً عن القدرية جدلية الدين صـ ١٠١ .

(٣) القدرية جدلية الدين والسياسة صـ ١٠١ .

(٤) تاريخ الطبرى، نقلاً عن القدرية جدلية الدين صـ ١٠١ .

(٥) تاريخ الطبرى (٨/ ١١٦).

(٦) المصدر نفسه (٨/ ١٢٢).

(٧) القدرية جدلية الدين والسياسة صـ ١٠١ .

(٨) تاريخ دمشق، نقلاً عن القدرية جدلية الدين والسياسة صـ ١٠٢ .

(٩) تاريخ الطبرى (٨/ ١٨١).

(١٠) فوات الوفيات (٤/ ٣٣٣).

(١١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ ١٩٧ .

وبيدهم مقاليد الأمور أن عليهم أن يحملوا الناس على مذهبهم واعتقاد مبادئهم، فلذا لن يقبلوا من العلماء المخالفين لهم مزاحمة، بل لعلهم كانوا يهيئون لإحداث محنة بهم، وقد بدت بوادر هذه المحنة حيث يذكر بعض المؤرخين أن يزيد بن الوليد لما تم له الأمر دعا الناس إلى القدر وحملهم عليه[1]. ولكن الله حال بينه هو وأصحابه وبين ما يشتهون، حيث لم تدم خلافته أكثر من ستة أشهر[2] وكما قال الذهبى: ولكنه لم يمتع وما بلعَ ريقه[3].

ثالثًا: من أقواله، ووفاته:

١- قال: يا بنى أمية إياكم والغِناء فإنه ينقُص الحياء، ويزيد فى الشهوة، ويهدم المروءة، وينوب عن الخمر، فإن كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء، فإن الغناء داعية الزنى[4].

٢- وفاته: مات يزيد الناقص فى سابع ذى الحجة سنة ست وعشرين ومائة، فكانت دولته ستة أشهر. وكان شابًا أسمر نحيفًا، حسن الوجه، وقيل: مات بالطاعون، وبويع من بعده أخوه إبراهيم بن الوليد، ودفن بباب الصغير، وكان آخر ما تكلم به: واحسرتاه وأسفاه![5]. وكان نقش خاتمه: يا يزيد قم بالحق[6].

****

(١)، (٢)، (٣)، (٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٧٦).

(٥) تاريخ القضاعى صـ ٣٧٧ .

(٦) تاريخ الطبرى (٨/ ١٨٢).

المبحث الثالث

إبراهيم بن الوليد

هو إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن الحكم، وأمه أمة بربرية، وبويع له بالخلافة بعد وفاة أخية يزيد بعهد منه، فى نهاية ذى الحجة سنة ١٢٦ هـ ولكنه لم يتم له أمر فكان الناس كما يقول الطبرى: جمعة يسلمون عليه بالخلافة، وجمعة بالإمارة، وجمعة لا يسلمون عليه بالخلافة ولا بالإمارة[١]، وكان أول من رفض بيعته أهل حمص، فأرسل إليهم ابن عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ليأخذ له البيعة منهم بالقوة فحاصرهم، وبينما هو على حصارهم وهم يرفضون البيعة، قدم مروان بن محمد، فلما علم عبد العزيز بن الحجاج بمقدمه ترك حمص، فدخلها مروان، وبايعه أهلها، وساروا معه قاصدين دمشق، فلقيهم جيش إبراهيم بن الوليد على رأسه سليمان بن هشام فى مائة وعشرين ألفًا، فالتقى بهم مروان فى ثمانين ألفًا، ودارت بينهما معركة فى مكان يسمى عين الحر -بين دمشق وبعلبك -فهزم سليمان وقتل من جنده حوالى سبعة عشر ألفًا وأسر مثلهم، فعاد منهزمًا إلى دمشق، والتقى بإبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج واتفقوا على قتل ولدى الوليد بن يزيد - الحكم وعثمان- قبل وصول مروان، وقالوا: إن بقى ولدا الوليد حتى يخرجهما مروان ويعيد الأمر إليهما لن يستبقيا أحدًا من قتلة أبيهما، والرأى قتلهما[٢]، فقتلوهما، ثم هرب إبراهيم بن الوليد وأنصاره ودخل مروان دمشق وأخرج يزيد بن خالد وأبا محمد السفيانى من السجن، وجاءوا إليه بابنى الوليد بن يزيد مقتولين، فشهد أبو محمد السفيانى لمروان بأنهما جعلا له الخلافة بعدهما وبايعه الناس، وكان ذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٧هـ فكانت مدة خلافة إبراهيم بن الوليد ما يقرب من أربعة أشهر. وتسلم مروان بن محمد الخلافة ليصارع أحداثًا أقوى منه، ويواجه دنيا مدبرة، ودولة ممزقة، قدر له أن يكتب الفصل الأخير من حياتها[٣] وقد توفى إبراهيم عام ١٣٢هـ يوم الزاب، وقيل: قتله مروان وصلبه. وكان نقش خاتمه: توكلت على الحى القيوم[٤].

****

(١) ، (٢) تاريخ الطبرى (٨/ ١٨٢).

(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى.

(٤) تاريخ القضاعى صـ ٣٧٩ .

المبحث الرابع

مروان بن محمد، آخر خليفة أموى (١٢٧هـ)

هو مروان بن محمد بن الحكم بن أبى العاص بن أمية، كنيته أبو عبد الملك، أمير المؤمنين، آخر الخلفاء الأمويين، ولقب الجعدى نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم(١)، ولقب بالحمار؛ لصبره على الحروب ومصابرته الشدائد فى الوقائع التى مرت على رأسه أيام إمارته وخلافته(٢). وتلقيبه بالحمار من ظلم المؤرخين؛ لأنها تسمية بعيدة عن العدل والإنصاف، إذ كان الأولى أن يسمى الشجاع أو الصبور أو الأسد، ولكن لما ساء حظه وسقطت الدولة الأموية فى عهده أصبح الأسد حماراً(٣). ومن صفاته أنه كان مشهوراً بالفروسية والإقدام، والرجولة والدهاء، وكان أشقر أزرق، أبيض مشربًا بحمرة، أزرق العينين كبير اللحية، ضخم الهامة ربعة، ولم يكن يخضب، وكان شجاعًا بطلاً مقدامًا حازم الرأى(٤) وقال العصامى: كان مروان بطلاً شجاعًا مهيبًا، وكانوا يعدونه فى مقابلة ألف مقاتل، أبيض، ربعة، أشهل العينين(٥). وقال عنه الذهبى: كان مروان بطلاً شجاعًا داهية، رزينًا، جباراً يصل السَّير بالسُّرى، ولا يجف له لِبدٌ، دوخ الخوارج بالجزيرة، ولد سنة اثنتين وسبعين بالجزيرة؛ إذ أبوه متوليها، وأمه أم ولد(٦).

أولاً: قدرات مروان بن محمد العسكرية:

رغم أن الدولة الأموية انتهت وانهارت فى عهده -أو بنهاية خلافته- فإنه يعتبر من فرسان بنى أمية وشجعانهم، ولم يكن مروان من القادة العاديين، فهو إلى جانب مهارته فى القيادة وحيله الحربية ومعرفته بنفوس المحاربين، فاجأ العدو بخطط حربية لم يألفها، فكان بعدد صغير من الجيش يقضى على عدد كبير من الأعداء، ويذكرنا مروان بن محمد فى حروبه بروميل بطل الألمان فى حربه للإنجليز بشمال إفريقية فى الحرب العالمية الأخيرة(٧)،

(١) تاريخ الخلفاء صـ ٢٥٤، البداية والنهاية (١٣/ ٢٦٢).

(٢) الحركات المناهضة لخلافة مروان بن محمد، مهند ماهر صـ ١٩ .

(٣) تاريخ العالم الإسلامى، الدولة الأموية فى المشرق صـ ٨٤ .

(٤) سمط النجوم (٣/ ٢٢٩)، الخلافة الأموية للهاشمى صـ ٤٠٩ .

(٥) الخلافة الأموية للهاشمى صـ ٤٠٩، سمط النجوم (٣/ ٢٢٩).

(٦) سير أعلام النبلاء (٦/ ٧٤).

(٧) الدولة الأموية، يوسف العش صـ ٤١٠، الخلافة الأموية صـ ٤١٠ .

وكان من عبقرية مروان أنه لم يعتمد على التنظيم القبلى، بل جعل جيشه مقسمًا أقسامًا متشابهة متكاملة فى أجزائها، تستطيع الفرقة أن تلعب فى ميدان القتال بمفردها ما تفعله عدة قبائل غير متجانسة، وكان مروان يلقى بكتيبة من كتائبه فى الحرب فرقة بعد فرقة، فإذا ظن العدو أنه تمكن من الكتيبة التى تحاربه، أتته كتيبة أخرى تذهله بقوتها الجديدة، وعلى كل كتيبة اسم تسمى به «كالذاكونية والوضاحية». وهذه الكتائب تتكون من الأفراد المدربين، كل منهم ذو عمل محدد يتقنه، والانسجام مطلوب منهم فى أعمالهم، وهم لا يعتمدون على الغنيمة التى تدرها الحرب عليهم، بل على أجور منتظمة يأخذونها وتكفيهم أودهم، وقد حققت خططه فى القتال انتصارات كثيرة على خصومه، حتى لندهش من المعارك العديدة التى قارع فيها مروان خصومه، فكان يقضى عليهم الواحد بعد الآخر، مع أن ظاهر أمله فى النجاح ضعيف[1]، وكان مروان شيخًا محنكًا حين توفى يزيد بن الوليد، فقد كان تجاوز الخامسة والخمسين من العمر، وكان يعد شيخ بنى أمية، وهو رجل ذو طموح عجيب، وقد وجد أن من بقى من بنى أمية لم يكونوا بمستواه من القدرة والقوة والكفاءة، فطمع إلى الخلافة، وتلك بادرة من بوادر انهيار الدولة الأموية، فبدلاً من أن تنتقل الخلافة بالعهد - كما هو السائد فى النظام الأموى - صار الطامحون يسعون إليها بالقوة، أو بالمؤامرات، كما فعل يزيد بن الوليد قبل مروان هذا، وتظهر رغبة مروان فى أن يلعب دوره فى الوصول إلى الخلافة حين امتنع عن مبايعة يزيد بن الوليد واعتبره مغتصبًا للخلافة، وأراد أن يعلن عصيانه عليه، لولا أن يزيد تلافى ذلك بتثبيته على الجزيرة وأرمينية[2] وأذربيجان والموصل، فرضى وبايع ليزيد، ولكن يزيد لم يلبث أن توفى سريعًا، فى نهاية ١٢٦هـ وكان قد عهد قبل وفاته لأخيه إبراهيم بن الوليد فبايعه بعض الناس بالخلافة[3].

ثانيًا: خلافته:

لم يستقر الأمر لخلافة إبراهيم بن الوليد، وأخذ مروان يزحف على دمشق، وقد هزم وهو فى طريقه إليها جيش إبراهيم بن الوليد الذى كان قد أرسله لإخماد ثورة أهل حمص، وفر قائد الجيش سليمان بن هشام إلى دمشق فاستولى هو وإبراهيم بن الوليد على ما فى بيت المال وفرا هاربين، تاركين دمشق مفتوحة الأبواب، فدخلها مروان، فوجد ابنى الوليد ابن يزيد - الحكم وعثمان - قد قتلا، ولما كانا -فى نظره- هما أصحاب الحق

(١) الخلافة الأموية للهاشمى صـ ٤١١ .
(٢) الدولة الأموية صـ ٣٠٦.
(٣) تاريخ الطبرى (٨/ ١٨٢).

الشرعى فى الخلافة، وأنه ما خرج إلا للمطالبة بدم أبيهما ويحقهما فيها، وبعد موتهما لم يعد هناك من يستحقها غيره، خصوصًا بعد أن شهد له أبو محمد السفيانى بأن ابنى الوليد عهدا له بها، وتقدم وبايعه وتبعه الناس فبايعوا مروان، وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٧هـ، وبهذا أصبح مروان آخر الخلفاء الأمويين[١]. وقد جاء فى بعض الروايات أن أبا محمد السفيانى الذى نجا من القتل بأعجوبة كان مع ابنى الوليد بن يزيد فى السجن، وقد أُتِى به فى قيوده، فسلَّم على مروان يؤمئذ بالإمرة[٢]، واستنكر مروان التسليم عليه بالخلافة، ولكن أبا محمد السفيانى قال: إنهما - يريد الغلامين؛ الحكم وعثمان- جعلاها لك بعدهما، وأنشده شعرًا قاله الحكم فى السجن، وكانا قد بلغا، وولد للحكم مولود، وهذا هو شعر الحكم الذى رواه السفيانى لمروان:

ألا من مُبلغٌ مروان عنى ... وعَمى الغَمْرَ طال بذا حَنِينا
بأنى قد ظُلمت وصار قومى ... على قتل الوليد متابعينا
أيذهب كلبهم بدمى ومالى ... فلا غثّاً أصبت ولا سمينا
ومروان بأرضِ بنى نزار ... كليث الغاب مفترش عرينا
ألم يحزنك قتل فتى قريش ... وشقهم عصىَّ المسلمينا
ألا فأقرَ السلام على قريش ... وقيس بالجزيرة أجمعينا
وساد الناقص القدرى فينا ... وألقى الحرب بين بنى أبينا
فلو شهد الفوارس من سليم ... وكعب لم أكن لهم رهينا
ولو شهدت ليوثُ بنى تميم ... لما بعنا تراث بنى أبينا
أتنكث بيعتى من أجل أمى ... فقد بايعتم قبلى هجينا
فليت خؤولتى من غير كلب ... وكانت فى ولادة آخرينا
فإن أهلِك ولىُّ عهدى ... فمروان أمير المؤمنينا[٣]

وكان أول من نهض لمبايعة مروان فى رواية الطبرى: معاوية بن يزيد بن الحصين بن نمير ورءوس أهل حمص، فبايعوه، فأمرهم أن يختاروا لولاية أجنادهم، فاختار أهل دمشق

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ١٩٥، ١٩٦).
(٢) المصدر نفسه (٨/ ١٩٥).
(٣) المصدر نفسه (٨/ ١٩٦).

زامل بن عمرو الجبرانى، وأهل حمص عبد الله بن شجرة الكندى، وأهل الأردن الوليد بن معاوية بن مروان، وأهل فلسطين ثابت بن نعيم الجذامى الذى كان استخرجه من سجن هشام وغدر به بأرمينية، فأخذ عليهم العهود المؤكدة والأيمان المغلظة على بيعته وانصرف إلى منزله فى حران[١]. ورغم ما كان يتمتع به مروان بن محمد من صفات مثل الشجاعة والإقدام وسداد الرأى وغيرها من الصفات التى تؤهله لمنصب الخلافة. فإن الله قدر أن تكتب على يديه نهاية الدولة الأموية، وأن يكون هو الفصل الأخير فى تاريخها، وقد لا يكون هو المسئول الأول عن ذلك، فإن العوامل التى أدت إلى زوال الدولة كانت تتفاعل منذ زمن بعيد، وقدر له وحده أن يصارع أحداثًا كانت كلها تعمل ضده، وأول خطر واجهه مروان هو انقسام الأمويين على أنفسهم، والذى كان من أسوأ نتائجه انقسام كتلتى العرب الرئيسيتين فى الشام وهما اليمنيون والقيسيون، فقد انقلب اليمنيون ضد مروان وانحاز القيسيون إليه، وتظهر خطورة هذا الانقسام فى أنه حدث فى مقر الخلافة الأموية وبين أكثر أنصار الأمويين قوة، ولهذا كان اضطراب الأمر فى الشام، إيذانا باضطراب أمر الدولة كلها، وقد حاول مروان منذ بيعته فى دمشق، أن يهدئ خواطر الناس، وأن يبعث الثقة فى النفوس، فلما بايعه الناس، عرض عليهم أن يختاروا بأنفسهم من يرضون من الولاة لولايات الشام الرئيسية وكانت تلك سياسة حكيمة من مروان، فهو لم يفرق بين عرب اليمن وقيس، فهؤلاء الولاة فيهم يمنيون وقيسيون، وقد أظهر مروان بذلك مرونة كبيرة، حتى إنه قبل اختيارهم لثابت بن نعيم الجذامى مع أنه قد سبق له الغدر بمروان فى أرمينية[٢]. وتزعم حركة عصيان قام بها جند الشام هناك ضد مروان[٣].

ولكن مروان عفا عنه وعينه واليًا على فلسطين، تسكينًا للفتنة وحسمًا للفرقة والخلاف، وبعد أن رتب أوضاع الشام غادر دمشق إلى حران - بالجزيرة - التى اتخذها مقرًا لحكمه، وتمشيًا مع خطته، فى إصلاح الأحوال، وكبح جماح الفتنة، فإنه حينما جاءه إبراهيم بن الوليد، الخليفة المخلوع، وسليمان بن هشام اللذان كانا قد هربا من دمشق قبل وصوله إليها، وطلبا منه الأمان أمنهما وعفا عنهما وبايعاه[٤].

كان مروان متعصبًا لأمويته، وحاول جاهدًا أن يتلافى الخلل والاحتفاظ ببقاء الحكم فى أسرته، فبايع لابنيه عبيد الله وعبد الله[٥]. وانتهز هذه المناسبة لتكون فرصة للمصالحة بين

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ١٩٦).　　(٢) المصدر نفسه، نقلاً عن العالم الإسلامى صـ ٢١٠ .

(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٢١٠ .

(٤) تاريخ الطبرى (٨/ ١٩٧).　　(٥) الخلافة الأموية للهاشمى صـ ٤١٤. تاريخ الطبرى (٨/ ١٩٩).

أبناء بيته، فزوج ابنيه من ابنتى هشام[١]. وهكذا بدأت الأمور وكأنها آخذة فى الاستقرار، ولكن ذلك الهدوء لم يكن إلا بمثابة السكون الذى يسبق العاصفة، فلم تلبث الأنباء أن وافت دار الخليفة بنشوب الاضطراب فى الشام مرة ثانية، وبسريان حمى الثورة من جديد[٢]. وسرعان ما قلب له أمراء بنى أمية ظهر المجن وواجهوه بالعصيان والتمرد[٣].

ثالثًا: ثورات الشام والعراق وأبى حمزة الخارجى بالحجاز:

١- خروج أهل حمص ١٢٧هـ: كان أهل حمص قد بايعوا مروان الثانى وساروا معه إلى دمشق، إلا أنهم خرجوا على حكمه بعد ذلك، وحاول مروان الثانى فى بادئ الأمر، إصلاح الأحوال بالطرق السلمية، إلا أن أهل حمص لم يرتدعوا، عندئذ اضطر الخليفة إلى أن يخرج بنفسه لوضع حد لحركتهم، وكانت له مع أهل حمص وقائع حاسمة انتصر فيها عليهم وهدم أسوار المدينة[٤].

٢- ثورة أهل الغوطة سنة ١٢٧هـ: بينما كان مروان مشغولاً بقمع ثورة حمص، نشبت ثورة أخرى فى الغوطة، فقد ثار أهلها وولوا زعيمًا يمنيًا، وهو يزيد بن خالد القسرى، وساروا إلى دمشق فحاصروها، ولكن مروان أرسل إليهم -وهو فى حمص- قائدين من قواده، هما أبو الورد بن الكوثر بن زفر بن الحارث، وعمر بن الوضاح فى عشرة آلاف، فلما دنوا من المدينة حملوا عليهم، وخرج عليهم من بالمدينة، فانهزموا واستباح أهل مروان عسكرهم، وأحرقوا المزة وقرى اليمانية، وأخذ يزيد بن خالد فقتل[٥]، وبعث زامل ابن عمرو والى دمشق برأسه إلى مروان بحمص[٦].

٣- ثورة فلسطين ١٢٧هـ: أعلن والى فلسطين ثابت بن نعيم الجذامى الثورة على مروان ابن محمد، ولكن الخليفة الأموى الجديد عاجله وكتب إلى أبى الورد الذى قمع ثورة الغوطة، وفك حصار دمشق، أن يسير إلى ثابت، فلما صار أبو الورد قريبًا منه خرج أهل طبرية على ثابت فهزموه واستباحوا عسكره، وتبعه أبو الورد، فالتقوا واقتتلوا، فهزمه أبو الورد ثانية، وتفرق أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده وبعث بهم إلى مروان، واستطاع الوالى الجديد الذى عينه مروان على فلسطين، وهو الرماحس بن عبد العزيز الكنانى، أن يقبض على ثابت بن نعيم وأن يرسله إلى مروان، فأمر بقتله هو وأولاده الثلاثة[٧].

---

(١) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٢١٢ .

(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٢١٠ .

(٣) المصدر نفسه صـ ٢١٢ .

(٤) تاريخ الطبرى (٨/ ١٩٧ وما بعدها)، الخلافة الأموية للهاشمى صـ ٤١٥ .

(٥) تاريخ الطبرى (٨/ ١٩٨).

(٦) المصدر نفسه (٨/ ١٩٨).

(٧) المصدر نفسه (٨/ ١٩٩).

٤- الخوارج فى العراق: الضحاك بن قيس الشيبانى: خرج الضحاك بن قيس الشيبانى وأتى الكوفة، واستولى عليها من يد أميرها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فهرب عبد الله إلى واسط فاتبعوه، ولما اشتدت المعركة، وسلم عبد الله الأمر إلى الضحاك، وبايعه، ودخل فى بيعة الضحاك سليمان بن هشام بن عبد الملك، ولما تم ذلك للضحاك عاد إلى الموصل فافتتحها واستولى على قراها، وكان خليفته على الجزيرة يأمره بأن يمنع الضحاك من الوصول إلى وسط الجزيرة، فسار إليه ابنه فى سبعة آلاف مقاتل، فسار إليه الضحاك وحصره فى نصيبين.

وكان مع الضحاك مائة ألف، وانتهى مروان من أمر حمص وسار لمقابلة الضحاك، فالتقى الفريقان فى كفرتوثا وحصلت بينهما موقعة قتل فيها الضحاك، وولى الخوارج عليهم سعيد بن بهدل الخيبرى، ثم قتل، ولما علم الخوارج بمقتل الخيبرى، ولوا مكانه شيبان بن عبد العزيز اليشكرى، واستطاع مروان بواسطة يزيد بن عمر بن هبيرة أن يطهر العراق من الخوارج، وظل مروان يقاتل الخوارج فى الموصل ستة أشهر، وأصبح شيبان بن عبد العزيز بين عدوين فرحل عن الموصل، وسير مروان وراءه جندًا، وأمر القائد أن يقيم حيث يقيم شيبان ولا يبدؤه بقتال، فإن بدأ شيبان بقتال قاتله، وظل يتابع شيبان حتى التقى به فى معركة فاصلة، وهزمه هزيمة منكرة، وخرج شيبان إلى سجستان ومات هناك، وذلك فى سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٧م.

٥- أبو حمزة الخارجى فى الحجاز ١٢٨هـ: فى أواخر سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٦م التقى أبو حمزة الخارجى بعبد الله بن يحيى، فقال له: يا رجل، اسمع منى كلامًا حسنًا، وأراك تدعو إلى الحق، فانطلق معى، فإنى رجل مطاع فى قومى، فخرج معه حتى أتى حضرموت وهناك بايعه أبو حمزة بالخلافة، ودعا إلى خلاف مروان الثانى[1] وآل مروان، وبينما الناس بعرفة سنة ١٢٩هـ إذ طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رءوس الرماح وهم سبعمائة، ففزع الناس حين رأوهم، وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلاف على مروان وآل مروان، فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة، وطلب منهم الهدنة. فقالوا: نحن بحجنا أضن وعليه أشح، فصالحهم على أنهم جميعًا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الأخير، فوقفوا بعرفة على حدة، ولما كان النفر الأول نفر عبد الواحد فيه وخلى مكة، فدخلها أبو حمزة بغير قتال، ثم مضى

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ٢٨٨)، الخلافة الأموية صـ ٤٢٠ .

عبد الواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم فى العطاء عشرة، واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان[1]، فمضوا حتى إذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبى حمزة فأوقعت بهم، وقتلت منهم مقتلة عظيمة، وذلك لسبع بقين من صفر سنة ١٣٠هـ ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقى فيها حربًا، ووقف خطيبًا مفوهًا فى أهل المدينة، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: تعلمون يا أهل المدينة أنَّا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرًا ولا بطرًا ولا عبثًا، ولا للدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نيل منا، ولكنا لما رأينا مصابيح الحق عطلت، وعنف القائل بالحق، وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعيًا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعى الله ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٣٢]، أقبلنا قبائل شتى، النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم، يتعاورون لحافًا واحدًا، قليلون مستضعفون فى الأرض، فقوَّانا وأيدنا بنصره فأصبحنا - والله - جميعًا بنعمته إخوانا، فلقينا رجالكم بقديد، فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان، فشتان -لعمر الله- بين الرشد والغى، ثم أقبلوا يهرعون يزفون، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه، وغلت بدمائه مراجله، وصدق عليهم ظنّه، وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب لكل مهند ذى رونق، فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون. وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا آل مروان ومروان يسحقكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدينا، ويشف صدور قوم مؤمنين. يا أهل المدينة أولكم خير أول، وآخركم شر آخر. يا أهل المدينة، الناس منا ونحن منهم، إلا مشركًا أو عابد وثن أو مشرك أهل الكتاب أو إمامًا جائرًا. يا أهل المدينة، من زعم أن الله عز وجل كلف نفسًا فوق طاقتها أو سألها ما لم يؤتها عز وجل فهو عدو لنا ولنا حرب. يا أهل المدينة، أخبرونى ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل فى كتابه على القوى والضعيف، فجاء تاسع ليس له منها ولاية ولا سهم واحد، فأخذها لنفسه مكابرًا محاربًا لربه. يا أهل المدينة، بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى، قلتم: شباب أحداث، وأعراب جفاة. ويلكم أهل المدينة! وهل كان أصحاب رسول الله إلا شبابًا أحداثًا؟ شباب -والله- مكتهلون فى شبابهم، غضية عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا الله عز وجل أنفسًا تموت بأنفس لا تموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيامهم نهارهم، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفًا

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ٢٨٨).

من النار، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقًا إلى الجنة، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت والرماح قد شرعت وإلى السهام قد وجهت وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، واستخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عز وجل، ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة، فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عين فى منقار طائر طالما فاضت فى جوف الليل من خوف الله عز وجل! وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها فى سجوده لله! وكم من خد عتيق وجبين رقيق فُلِقَ بعمد الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان وأدخل أرواحها الجنان، أقول قولى هذا وأستغفر الله من تقصيرنا وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب(١).

خرج أبو حمزة من المدينة وخلف بعض أصحابه، فسار حتى نزل الوادى، وكان مروان قد انتخب من عسكره أربعة آلاف، واستعمل عليهم ابن عطية، وأمره بالجد فى السير، وأعطى كل رجل منهم مائة دينار، وفرسًا عربية وبغلاً لثقله، وأمره أن يمضى ليقاتلهم، فإن ظفر بهم، مضى حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبد الله بن يحيى ومن معه، فخرج حتى نزل العلا، وكان أبو حمزة حين خرج ودع أهل المدينة للخروج إلى مروان يقاتله، قال: يا أهل المدينة إنا خارجون إلى مروان فإن نظفر نعدل فى أحكامكم، ونحملكم على سنة نبيكم محمد رسول الله ﷺ، ونقسم فيئكم بينكم، وإن يكن ما تمنون، فسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون. سار أبو حمزة وأصحابه إلى مروان، فتقابل فى وادى القرى مع خيل الشام، بقيادة ابن عطية السعدى، فأوقعوا بهم، فرجعوا منهزمين إلى المدينة، فلقيهم أهل المدينة فقتلوهم، وأقام ابن عطية فى المدينة شهرًا، واستخلف عليها الوليد بن عروة، ثم مضى إلى مكة وإلى اليمن، واستخلف على مكة ابن ماعز، رجلاً من أهل الشام، وقد قتل فى هذه المعركة أبو حمزة الخارجى، وسار ابن عطية متطلعًا إلى اليمن، فتقابل هو وعبد الله بن يحيى، وظل يمشى حتى دخل صنعاء، وبعث برأس عبد الله بن يحيى إلى مروان. ثم كتب مروان إلى ابن عطية يأمره أن يغذَّ السير، ويحج بالناس، فخرج فى نفر من أصحابه حتى نزل الجرف ففطن له بعض أهل القرية، فقالوا: منهزمين والله، فشدّوا عليهم فقال: ويحكم ! عامل الحج، والله كتب إلىَّ أمير المؤمنين(٢). ولكن الرجال الذين خرجوا عليهم لم يصدقوا دعواهم، وألحوا عليهم حتى قتلوهم جميعًا إلا رجلاً(٣).

٦- ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب: تزعم عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر آخر حركة قام بها الشيعة ضد الدولة الأموية وانضم إليها شيعة

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ٢٩١، ٢٩٢). (٢) المصدر نفسه (٨/ ٢٩٥).
(٣) المصدر نفسه (٨/ ٢٩٥) ،الخلافة الأموية للهاشمى صـ ٤٢٣ .

الكوفة وبايعوه بالخلافة، وخرج فى شهر المحرم من عام ١٢٧هـ / ٧٤٤م لقتال أهل الشام فى الحيرة[١]، ويبدو أن الشيعة خذلوه عندما نشب القتال، وفروا من أرض المعركة، ولم يثبت معه سوى ربيعة والزيدية، فاضطر إلى التراجع إلى الكوفة، وتبعه الأمويون، وشهدت شوارع المدينة مجابهات عنيفة بين الطرفين، وتمكن الجيش من السيطرة على الموقف[٢]. ومنحه الوالى الأموى عبد الله بن معاوية الأمان والإذن بالانسحاب، فارتحل إلى فارس حيث أعاد تنظيم صفوفه وقوى أمره بما انضم إليه من الموالى والعبيد والعباسيين الثائرين على الحكم الأموى، والأمويين الناقمين على مروان الثانى، وكل طامع فى عطيه أو وظيفة، وبقايا الخوارج الذين طردهم مروان الثانى فى الموصل[٣]. وكان الحشد الذى التف حوله غير متجانس، كل ما يجمعه هو العداء لمروان الثانى، لذلك لم يستطع المواجهة، ولم يتم له الصمود والاستمرار طويلاً، فانفرط عقده عند أول هزيمة منى بها أمام قوات مروان الثانى عند مدينة «مرو الشاذان» فى نهاية عام ١٢٩هـ / ٧٤٧م.

وقال ابن عساكر: وقد كان عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ظهر وبويع له بالخلافة بأصبهان فى سنة سبع وعشرين ومائة فى خلافة مروان بن محمد، وملك فارس وكرمان وكثر تبعه وجىء بالأموال، وملك تلك البلاد وقوى أمره، وكانت بينه وبين عمّال مروان وقائع وحروب كثيرة، ولم يزل هناك إلى أن جاءت الدولة العبّاسية، ثم حارب مالك بن الهيثم صاحب أبى مسلم، فظفر به وحمله إلى أبى مسلم فحبسه وقتله، ويقال: بل مات فى سجنه[٤]. ومن شعر عبد الله بن معاوية:

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكنّ عين السخط تبدى المساويا

كلانا غنى عن أخيه حياته ... ونحن إذا متنا أشد تغانيا[٥]

٧- **ثورة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز:** كان عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليًا على العراق ومركزه الكوفة، وكانت له رغبة استقلالية، إذ إنه بعد تغلبه على عبد الله بن معاوية أضحى له من السلطان والقوة ما بدا له أن باستطاعته الانتفاضة على حكم مروان الثانى، فنقض بيعته له، وقد اعتمد فى تحركه على القبائل اليمنية، من أهل الشام المقيمين فى الكوفة والحيرة الذين ساءهم خضوع الشام للنفوذ القيسى[٦]. اعتقد مروان أن عبد الله بن

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٢١٣)، الخلافة الأموية صـ ٤١٧.
(٢) الخلافة الأموية للهاشمى صـ٤١٧.
(٣) الكامل فى التاريخ (٣/ ٤٦٣)، الخلافة الأموية للهاشمى صـ ٤٦٣.
(٤) تاريخ ابن عساكر (٣٥/ ١٤٩).
(٥) المصدر نفسه (٣٥/ ١٥١).
(٦) الخلافة الأموية للهاشمى صـ ٤١٨.

عمر لا يشكل خطرًا كبيرًا على وضعه فلم يعر الأمر جدية فى البداية، لكنه لما شعر بخطورة ذلك، قام بمواجهة عبد الله ويعث إليه بجيش من الشام بقيادة النضر بن سعيد الحرشى، أحد أبطال القيسيين المشهورين، ودارت بينهما معركة خفيفة ومناوشات، لم تؤد إلى نتيجة حاسمة، وظل الفريقان على هذه الحال حتى ظهرت مشكلة أكثر خطورة تمثلت بالخوارج الذين برزوا مجددًا على مسرح الأحداث، وانهمك مروان الثانى فى التصدى لهم، وترك أمر عبد الله بن عمر(١).

٨- ثورة سليمان بن هشام بن عبد الملك ١٢٧هـ: توقع مروان أن مصاهرته لأبناء هشام بن عبد الملك كافية لرأب الصدع بين أبناء البيت الأموى كله، وأن الأمر فى الشام قد استقام له، ولهذا أخذ فى إعداد جيش قوامه عشرون ألفًا تحت قيادة يزيد بن عمر بن هبيرة لمواجهة ثورة الخوارج فى العراق، الذين خرجوا عليه بزعامة الضحاك بن قيس الشيبانى منتهزين فرصة انشغاله بثورات الشام، كما ضرب على أهل الشام بعثًا للحاق بيزيد ومعاونته فى حرب الخوارج، وكان سليمان بن هشام - شقيق زوجتى ولدى مروان - قد استأذنه فى الإقامة بالرصافة أيامًا للراحة فأذن له(٢)، وبينما يقوم مروان بالإشراف بنفسه على تجهيز جيش ابن هبيرة فى قرقيسياء، فاجأته ثورة عارمة قادها صهره سليمان، حيث انفلت عشرة آلاف من أهل الشام الذين استنفرهم مروان لقتال الخوارج وذهبوا إلى سليمان بالرصافة، ودعوه إلى خلع مروان، فأجابهم إلى ذلك دون أن يعبأ ببيعته وعهوده التى قطعها على نفسه للخليفة، ولا مراعاة لصلة الرحم والمصاهرة الجديدة، بل ودون أن يضع فى تقديره الظروف التى تمر بها الدولة الأموية كلها، استفحلت ثورة سليمان؛ فقد اجتمع حوله سبعون ألفا، وعسكر فى قرية تسمى خساف من أعمال قنسرين(٣). فاجأت هذه الأخبار مروان على غير توقع، فقرر أن يسير إلى سليمان بنفسه، فقصده فى خساف، حيث دارت بينهما معركة كبيرة هزم فيها سليمان، وقيل: قتل حوالى ثلاثين ألفًا من أتباعه(٤)، وهرب هو بمن بقى من جيشه إلى حمص، ولكن مروان لاحقه إليها، ففر منها هاربًا قبل وصول مروان، تاركًا فيها أخاه سعيد بن هشام، ثم وصلها مروان وضرب عليها الحصار لمدة عشرة أشهر، ثم استسلمت له(٥). فى هذا الجو العصيب، الذى انقسم فيه

(١) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن الخلافة الأموية صـ ٤١٨ .

(٢) تاريخ الطبرى (٨/ ٢٠٩). (٣) المصدر نفسه (٨/ ٢١١).

(٤) المصدر نفسه (٨/ ٢١٣)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٢١٣ .

الأمويون على أنفسهم وأخذوا يحاربون بعضهم البعض، وبينما مروان يحاول رأب الصدع وإعادة الأمور إلى نصابها فى الشام والحجاز والعراق واليمن، ويواجه هذا الموقف الصعب وينتقل من ميدان إلى ميدان، فاجأته الثورة العباسية من خراسان كالسيل المنهمر، فاكتسحت قواته فى خراسان والعراق، ثم كانت هزيمته الساحقة فى موقعة الزاب فى جمادى الآخرة ١٣٢هـ، وفراره إلى مصر ومقتله هناك فى ذى الحجة من نفس العام[1]، ولما كانت هذه الأحداث تقترن بالدعوة العباسية وإعلان ثورتهم، كان لازمًا على أن أتحدث عن الدعوة العباسية من جذورها حتى سقوط الدولة الأموية.

****

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٢١٤ .

المبحث الخامس

الدعوة العباسية ونهاية الدولة الأموية

أولاً: الجذور التاريخية للعباسيين:

١ - العباس بن عبد المطلب بن هشام:

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف القرشي[١] وهو عمّ رسول الله ﷺ، وكان أسنّ من الرسول بثلاث سنين[٢] وكان من أكبر رجال بني هاشم مكانة، وأكثرهم مالاً في الجاهلية[٣]، فقلدوه قيادتهم، فكان رئيسهم المُطاع فيهم - بعد وفاة أبي طالب - المتولي لأمورهم[٤]، وكانت إليه السِّقاية والرِّفادة وعمارة المسجد الحرام[٥]، فإنه كان لا يدع أحدًا يسبُّ في المسجد ولا يقول فيه هُجْرًا، يحملهم على عمارته في الخير، لا يستطيعون لذلك امتناعًا، لأنَّ ملأ قريش كانوا قد اجتمعوا وتعاقدوا على ذلك، فكانوا له أعوانًا عليه، وأسلموا ذلك إليه[٦]، وقد حضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم، وشهد بدرًا مع المشركين مكرهًا فأسر فافتدى نفسه ورجع إلى مكة، ثم أسلم وكتم إسلامه، ثم هاجر إلى المدينة قبل الفتح بقليل وشهد فتح مكة وثبت يوم حنين[٧] مع النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يجله ويقدره، وقد كانت وفاته بالمدينة في رجب سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة ودُفن بالبقيع[٨] رضي الله عنه.

الأحاديث التي وردت في فضله ومناقبه:

أ- ما رواه الترمذي وغيره عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**إن العباس مني وأنا منه**»[٩].

ب- ما رواه مسلم بإسناده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عم الرسول ﷺ، فقال رسول

(١) نسب قريش صـ ١٨ ، طبقات ابن سعد (٤/٥) ، شذرات الذهب (١/٣٨).

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٥)، الدعوة العباسية، د . حسين عطوان صـ ٨٧ .

(٣) تاريخ ابن عساكر، نقلاً عن الدعوة العباسية صـ ٨٧ .

(٤) طبقات ابن سعد (٤/٣٢)، الدعوة العباسية صـ ٨٧.

(٥) تهذيب التهذيب (٥/١٢٣)، الدعوة العباسية صـ ٨٧.

(٦) أسد الغابة (٣/١٠٩)، الدعوة العباسية صـ ٨٨.

(٧) العقيدة في أهل البيت صـ ١٥٤ .

(٨) الطبقات (٤/٤/٥)، الاستيعاب (٣/٤٩/١٠١)، العقيدة في أهل البيت صـ ١٥٥.

(٩) سنن الترمذي رقم ٣٧٥٩ ، المستدرك (٣/٣٢٥)، صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

الله ﷺ: «ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرًا فـأغناه الله، وأما خالد، فإنكم تظلمون خالدًا، فقد احتبس أدراعه وأعتـاده في سبيل الله، وأما العباس فهي عليّ ومـثلها معها» ثم قال: «يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه؟»[1].

ج- ومن مناقبه رضي الله عنه ثباته وشجاعتـه يوم حنين، فقد روى أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ، فلم نفارقـه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيـضاء، فلمّـا التقى المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض ببلغته قِبل الكفار، قال العباس: وأنا آخـذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكُفّها إرادة ألا تسـرع، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس؛ ناد أصحاب السَّمُرة». فقال العباس - وكان رجـلاً صيّتًا -: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُـرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعـوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبـيك يا لبيك! قال: فاقتتلوا هم والكفّـار والدعوةُ في الأنصار، يقولون: يا مـعشـر الأنصار يا معـشر الأنصار... فنـظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: «هذا حين حَميَ الوطيس»[2].

د- ومما يدل على فضله رضي الله عنه ومكانته من النبي ﷺ توسل عمر رضي الله عنه بدعائه؛ فقد جاء في صحيح البخاري عن أنس أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فـقال: اللهمّ إنّا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا[3]، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قـال: فيُسقون[4]. فالعباس بن عبد المطلب جـد الخلفاء العباسيين وله ينتسبون.

٢- عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

هو عبد الله بن عبـاس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ، وأمه لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، وكان يقال له الحبر، والبحـر، لاتساع علمه وكثرة فهمـه وكمال عقله وسعة فـضله، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ولازم رسول الله ﷺ ودعا له ﷺ بالفقه في الدين وعلم التـأويل، وكان عمر

---

(١) مسلم، كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، رقم ٩٨٣ .

(٢) مسلم رقم ١٧٧٥، مصنف عبد الرزاق (٥/ ٣٧٩ ، ٣٨٠)، ابن هشام (٤/ ٨٧) .

(٣) فتسقينا : أي بدعائه حياً ، ولو كان يتوسل به ميتاً لتوسل به عمر ولما احتاج لعمه العباس ليدعو له.

(٤) البخاري رقم ١٠١٠ .

رضى الله عنه يجله ويكرمه، وقد شهد رضى الله عنه مع علىّ الجمل وصفين، وكف بصره فى آخر عمره فسكن الطائف، وكانت وفاته سنة ثمان وستين، فرضى الله عنه[1]، وقد وردت فى بيان فضائله أحاديث كثيرة منها ما رواه البخارى بإسناده إلى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ دخل الخلاء فوضعت له وضوءًا قال: «من صنع هذا؟» فأخبر، فقال: «اللهم فقهه فى الدين»[2]. وقد ترجمت له فى كتابى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ترجمة مستفيضة. وقد استفاد العباسيون من انتسابهم إلى جدهم عبد الله بن عباس، فقد سار محمد بن على العباسى زعيم الدعوة العباسية على فقه جده الحركى، وتتلمذ على معالم مدرسته، كما سيأتى بيانه وتفصيله بإذن الله تعالى.

٣- على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الإمام القانت أبو محمد الهاشمى المدنى السجاد:

ولد عام قُتل الإمام على، فتسمى باسمه، حدث عن أبيه ابن عباس، وأبى هريرة وابن عمر، وأبى سعيد وجماعة، وأمه ابنة ملك كندة مشرح بن عدى، وكان جسيمًا وسيمًا كأبيه، طوالاً، مهيبًا، مليح اللحية يخضب بالوسمة. ورد عن الأوزاعى وغيره أنه كان يصلى فى اليوم ألف سجدة، وقال ابن سعد: هو ثقة قليل الحديث. قال عكرمة: قال لى ابن عباس ولابنه على: انطلقا إلى أبى سعيد الخُدرى، فاسمعا من حديثه، فأتيناه فى حائط له[3]. وقال ابن المبارك: كان له خمسمائة شجرة يصلى عند كل شجرة ركعتين وذلك كل يوم[4] وقال الذهبى: لقب بالسجاد لكثرة صلاته[5].

كان على بن عبد الله بن العباس أجلَّ إخوته قدرًا وأعظمهم خطرًا، وكان مثالاً للرجل الكامل فى تمام خلقته وحسنه وورعه ونبله[6]، قال ابن سعد: كان أصغر ولد أبيه سنًا، وكان أجمل قرشى على وجه الأرض وأوسمه، وأكثر صلاة، وكان يقال له السجاد لعبادته وفضله، وكان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة[7] وكان زاهدًا متقشفًا وأثَّرَ فى بنيه وحفدته، فنشأوا على هديه وسمته واقتدوا بمذهبه وسيرته، فكانوا أشهر الناس تلاوة وقيامًا وصيامًا وصلاحًا[8] حتى قيل فيهم: أفضت الخلافة إليهم وما فى الأرض أحد أكثر قارئًا

(١) حلية الأولياء (١/ ٣١٤)، العقيدة فى أهل البيت صـ ١٥٨.

(٢) البخارى رقم ١٤٣.

(٣)، (٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٨٤).

(٥) المصدر نفسه (٥/ ٢٨٥).

(٦) الدعوة العباسية، حسين عطوان صـ ١٤٦.

(٧) سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٤).

(٨) طبقات ابن سعد (٥/ ٣١٤).

للقرآن ولا أفضل عابدًا وناسكًا منهم بـالحُميمة[1] وكان عالمًا له معـرفة ورواية عن أبيه[2] وكان سيدًا شـريفًا بليغًا[3] وكان كبيـر المحلِّ عند أهل الحجار[4]. روى هشام بن سليمان المخزومى أن علىَّ بن عبد الله كان إذا قدم مكة حاجًا أو معتمرًا عطلت قريش مجالسها فى المسجد الحرام وهجرت مواضع حلقها، ولزمت مجلس على بن عبد الله إجلالاً له وإعظامًا وتبجيـلاً، فإن قعد قعـدوا وإن مشى مشوا جـميعًا، ولم يكن يُرى لقُـرَشىٍّ مجلس «ذِكْرٍ» يُجتمعُ إليـه فيه حتى يخرج على بن عـبد الله من الحرم[5]. فقد جمع على بن عبد الله العباسى صفات الزعامة من علم وعبادة، وهيبة ومكانة فى النفوس... إلخ.

* **ارتحاله إلى الشام:** أوصى عـبد الله بن العـباس ابنه عليًـا بإتيان الشـام والتنحى عن سلطان ابن الزبير إلى سلطان عـبد المملك، ولما توفى أبوه عمل بوصيـته ورحل إلى الشام واستقـبله عبد الملك واحتـفى به، وكان يجلسه على سريره إذا دخل، ويحـادثه ويسامره، وكان يرعاه ويهدى إليه الجوارى، ويقضى حوائجه ويقبل شفاعته[6].

* **سعـيه للخلافة وضـرب الوليد له:** علم الوليد بن عبد الملـك فى عهده أن عليًا يطلب الخلافة ويتنبأُ بانتـقالها إلى بنيه، فضيق عليـه ونال منه وشهر به، ثم جلده وطرده من بلاد الشام[7]، وقد انحطت منزلة على فى عهد الوليـد، وساءت حاله واضطربت، وقد التمس الوليد الأسـباب للانتقـام منه والإضرار به فـأذله واعتدى عليـه، وجاوز القصـد فى ردعه ومعاقبته، فجلده مرارًا ونفاه[8].

* **فى عهد سليـمان وعمر بن عبـد العزيز وهشام:** لما استخلف سليـمان بن عبد الملك ردّه إلى دمـشق، وأخلى سبـيله، وأزال عنه ما لحق به من ظلم وهوان، وربمـا اعتذر إليـه من تعذيب الوليـد له، وتنكيله به، وجوره عليه، وأنصفـه وتألفه فصلحت حاله واسـتقامت، ورجع إلى الحُميمة، فأقام بها حرًا عزيزًا، وعاود فيها نشاطه لا رقيب له ولا حسيب عليه. ولما جاء عهد عمر بن عبد العزيز أمر بالكف عن اضطهاد بنى هاشم، وقسم فيهم سهم ذى القربى، فانتعشوا وكتبوا إليه يتشكرون له ما فعله من صلة أرحامهم[9]. وأخذ على بن عبد

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن الدعوة العباسية صـ ١٤٦.
(2) تهذيب التهذيب (٧/ ٣٥٧)، الدعوة العباسية ص١٤٧.
(3)، (4) وفيات الأعيان (٣/ ٢٧٦)، الدعوة العباسية صـ ١٤٧.
(5) أخبار الدولة العباسية صـ ١٤٠، الدعوة العباسية صـ ١٤٧.
(6) الدعوة العباسية صـ ١٤٨ - ١٥٢.
(7) الدعوة العباسية ، حسين عطوان صـ ١٥٤.
(8) المصدر نفسه صـ١٥٧، أنساب الأشراف (٣/ ٧٩).
(9) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٩١).

الله بن العباس ومحمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب يدفعان عنه ويَزعان الناس فى اغتيابه[1]، ولما تولى هشام اعتنى بعلى بن عبد الله بن العباس، وأحسن إليه، فكان يتهلَّل له ويُدنيه ويحمل عنه دُيونه إذا وفد عليه، وصبر على نشاطه السياسى وتغافل عنه، وتغاضى عن أمله فى الخلافة، واستهان بعمله للفوز به، حتى أخطأ فى تقدير خطره وقصّر عن إدراك تهديده لملك بنى أمية؛ إذ كان يهزأ بما يبلغه من أخبار نزوعه إلى الخلافة ويستخف بِتوقعه لتحولها إلى بنيه، وكان ينسب ذلك إلى فساد عقله وضعف رأيه وأضغاث أحلامه فى شيخوخته[2]. ويرى بعض المؤرخين أن على بن عبد الله بن العباس كان أوّل من تمنَّى الخلافة من بنى العباس وشرع فى تأسيس الدعوة لهم على انتقال الخلافة إليهم، وأظهر ذلك وجهر به[3]، وقد توفى على بن عبد الله بن العباس عام ١١٨هـ[4].

٤- محمد بن على بن العباس:

كان محمد بن على بن عبد الله بن العباس المتوفَّى سنة خمس وعشرين ومائة[5]، أنبه إخوته وأفضلهم، وهو الذى رسَّخ قواعد الدعوة لبنى العباس، وشيَّد أركانها، ورفع بنيانها، فقد تشمَّر لتوطيدها وبثها، فوضع أنظمتها وشعاراتها، وأنشأ مجالسها واختار قادتها، ومكّن لها فى الكوفة وخراسان، وشحذ عزائم أنصارها وهيَّأهم ليوم إعلان الثورة وتفجيرها، وكان من أجل الناس وأعظمهم قدرًا، وكان بينه وبين أبيه أربع عشرة سنة، وكان على يخضب بالسَّواد ومحمد بالحُمرة، فيظن من لا يعرفهما أن محمدًا هو على[6]، وكان عابدًا زاهدًا، وكان له علم وفقه ورواية، وكان ثقة ثبتًا مشهورًا[7] وكان مجاهدًا يغزو الصائفة هو وعدة من إخوته ومواليه[8]، وكان سيد ولد أبيه[9]، وخيرهم دينًا، وأسخاهم كفًا، وكان سمح النفس شديد الصَّبر[10]، صليب الفؤاد، حصين الرأى، حسن التدبير، قوى الحُجَّة، سديد المنطق، بليغ القول[11].

٥- علاقته بأبى هشام ووصيته له:

بعد موت محمد بن على بن الحنفية بالمدينة عام (٨١هـ) افترقت شيعته إلى فرقتين:

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٩١).
(٢)، (٣) الدعوة العباسية صـ ١٥٩.
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٨٥).
(٥) الدعوة العباسية، د. حسين عطوان صـ ١٦٤.
(٦) أخبار الدولة العباسية صـ ١٦٤.
(٧) تهذيب التهذيب (٩/ ٣٥٥).
(٨) أخبار الدولة العباسية صـ ١٩٧.
(٩) العقد الفريد (٥/ ١٠٥)، الدعوة العباسية صـ ١٦٥.
(١٠) أنساب الأشراف (٣/ ٨٣).
(١١) المصدر نفسه (٣/ ٨٣)، الدعوة العباسية صـ ١٦٥.

* الأولى: دامت متمسكة بآرائها الكيسانية، فقد قالت: إنه غائب عنا، لكنه حي يرزق بجبله (جبل رضوى)، ولا بد من رجعته. فهم لا يوالون غيره، لأنهم ينتظرونه.

* والثانية: تحولت إلى القول بإمامة ابنه عبد الله - المكنى بأبي هاشم- من بعده، وسميت بالفرقة الهاشمية[1]. وتعتقد أن أمر الشيعة صار إلى أبي هاشم بوصية من أبيه، وهذه الفرقة تعتبر أكبر الفرق العلوية وأدقها تنظيمًا وأكثرها حماسًا، وقد عرف أبو هاشم هذا برجاحة عقله وسعة علمه، وحسن تدبيره، ومعرفته بأحوال الفرق، فزادت شيعته بعد وفاة والده، فأخذ يدير الأمور، ويبعث الدعاة مع السرية التامة، موضحًا - فى نظره - أحقيته بالخلافة، التى هى لهم دون الأمويين، ناشرًا فظائع ومظالم بعض خلفاء الدولة الأموية[2]، وكان أبو هاشم قدم على سليمان بن عبد الملك بدمشق، فأكرمه وأجازه، وسار أبو هاشم يريد فلسطين أو الحجاز، فمرض فى الطريق وأحسَّ بالموت، ولم يكن له ولد، فعدل إلى الحُميمة، ونزل على محمد بن على، فأوصى إليه بالإمامة وسلم إليه كُتُب الدُّعاة، وأوقفه على ما يعمل به، وصرف شيعته إليه وأمرهم بالسمع له، وأعلمه أن الخلافة فى ولده عبد الله بن الحارثية[3]، وسواء أكانت وصية أبى هاشم صحيحة أم موضوعة فإن بنى العباس وشيعتهم اعتمدوا عليها فى تقرير حقهم فى الخلافة، ولم يزالوا يذكرون أن الخلافة، أتتهم من جهتها إلى أيام أبى جعفر المنصور[4]. وليس من الثابت أن سليمان بن عبد الملك راعه ذكاء أبى هاشم فخافه وفزع منه، ولا أنه أنفذ له من سَمَّهُ بعد أن رحل عنه، وإنما مات حتف أنفه[5]. وقد أكد جماعة من المؤرخين وغيرهم تحول دعوة أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية إلى العباسيين، والتى عمل من أجلها حوالى سبع عشرة سنة، واستقطب فيها كبار الشيعة العلوية من أهل العراق وخراسان، وفرقهم على المدن والأقاليم، ونظم هذه الدعوة ورعاها، وأعدها لليوم المرتقب، وقد كانت وفاته عام ٩٨هـ بعد موت محمد بن على ابن الحنفية بالمدينة عام (٨١هـ).

٦- أسباب تنازل أبى هاشم لمحمد بن على العباسى:

وعلى ضوء ما جاء من النصوص التاريخية التى ذكرت تنازل أبى هاشم عن الدعوة لمحمد بن على العباسى عندما أحس بدنو الأجل، نستطيع أن نقول: ليس هناك ما يمنع

(١) الهاشمية : هى التى قالت بانتقال محمد بن الحنفية إلى رحمة الله وانتقال الدعوة إلى ابنه عبد الله. الملل للشهرستانى (١/ ١٥٠).

(٢) العلويون والعبّاسيون ودعوة آل البيت صـ ٥١.

(٣) نسب قريش صـ ٧٥ ، طبقات ابن سعد (٥/ ٣٢٨)، الدعوة العباسية صـ ١٦٧.

(٤) الدعوة العباسية صـ ١٦٩.

(٥) نسب قريش صـ ٧٥ ، طبقات ابن سعد (٥/ ٣٢٨).

من تنازل أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية لمحمد بن على عن دعوته السرية التى يطالب فيها بالحق العلوى فى الخلافة، لما نراه من أسباب نجملها فيما يلى:

أ- فالذى نراه أن دعوته كانت قابلة للنجاح والفشل، وقد تكون للفشل أقرب، ولاسيما وأنها توصف بالغلو[1] وهذا مما يقلل من أهمية هذا التنازل.

ب- عرف أبو هاشم أنه لا أمل له فى الوصول إلى الخلافة، بعد أن عرف قرب أجله، ولم يسعفه الوقت فى حرية اختيار شخص آخر، ووجد أفضل الخيارات فى تلك اللحظة هو محمد بن على.

ج- كما أن أبا هاشم لم يكن له ولد يخلفه[2] فيوصى له بالأمر من بعده.

د- كانت بين أبى هاشم ومحمد بن على العباسى علاقات ودية، ولقاءات علمية، وصداقة قوية، الأمر الذى ساعد على تنازل أبى هاشم لمحمد هذا.

هـ- كان أبو هاشم قد عرف كبار شيعته ودعاته من أهل العراق وخراسان بمحمد بن على العباسى أثناء ترددهم عليه، كما أخبرهم أن الأمر صائر إليه بعد وفاته[3]، كما تزعم بعض الروايات.

و- ولما عرف عن محمد بن على العباسى من رجاحة العقل والدهاء، وحسن التدبير والتصرف. . . . فقد كان أبو هاشم كثيراً ما يستعين بآرائه حول موضوع الدعوة والدعاة، كان محمد بن على قد عرف برجاحة العقل وسعة الذكاء، ومعرفته بأحوال الرجال والديار، وقد استفاد من الأحداث التى جرت فى عصره، وبالأخص ما وقع بين أبناء عمه العلويين والأمويين فى صراعهم الدامى من أجل الخلافة، فقد درس أسباب الفشل والنتائج لهذه الأحداث، واستغل ما حصل من القتل والتشريد على أثر ذلك. ولما علم كبار الشيعة العلوية فى العراق وخراسان بموت زعيمهم عبد الله بن محمد (أبو هاشم) وانتقال الدعوة إلى محمد العباسى، ساروا إلى الحميمة للتعزية، فى وفاة إمامهم عبد الله ولتهنئة إمامهم الجديد محمد بتولية قيادة الدعوة «دعوة آل البيت»، ومبايعته وتقديم العهد له، ببذل أموالهم وأنفسهم من أجل نجاح هذه الدعوة، وقد رأى محمد بن على العباسى صدق هؤلاء الأنصار وتحمسهم، ولمس حبهم لآل البيت، وكرههم لبنى أمية وتمنيهم لزوالهم[4].

(١) طبيعة الدعوة العباسية صـ ١٢٥.

(٢) نسب قريش للزبيدى صـ ٧٥، شذرات الذهب (١/ ١٦٦).

(٣) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٥٦.

(٤) المصدر نفسه صـ ٥٧، ٥٨.

ثانيًا: المشروع العباسى فى المرحلة السرية:

عندما نتأمل فى مفردات المشروع العباسى فى المرحلة السرية نلاحظ أنه يتكون من قيادة حكيمة، وهيكل تنظيمى واضح المعالم، ومرجعية شرعية وتاريخية، ومبادئ قام عليها المشروع، وقدرة فائقة على التخطيط، ولقاءات دورية بين القيادة والدعاة والنقباء، وكان المشروع العباسى قد استهدف شرائح من المجتمع عانت من ظلم الأمويين مع الأخذ بالجانب الأمنى والاهتمام بالبعد الاقتصادى والإعلامى.

١- القيادة:

تسلم محمد بن على العباسى التنظيم السرى من أبى هاشم، وبدأ مسار التنظيم الجديد يتغير عن القديم فى بنيته الفكرية والاجتماعية وغيرها، ولكن كان ذلك مع التدريج، وقد توافرت صفات الزعامة فى شخصية محمد بن على، من قيادة واعية، وقدرة على التخطيط الصحيح، وقد برهن على عبقرية فذة فى التنظيم والتخطيط للدعوة، مع قناعة الأتباع بزعامته الروحية والعلمية، فقد اشتهر بالعبادة والعلم، واستمر فى تشكيل الحركة على أصول العقائد السنية، واستفاد من مدرسة جده عبد الله بن عباس فى ذلك، كما سيأتى، وعمل على جذب الأنصار والأخذ بأسباب النصر على الأمويين، وقد استفاد من تشكيلات محمد بن على التنظيمية كثير ممن جاء بعده ممن سعى لقيام دولة مع التطوير، كالموحدين، والفرق الباطنية وغيرها، وقد استطاع محمد بن على العباسى أن يحكم قبضته على أمور الدعوة من خلال جهاز بالغ الدقة فى التنظيم والإدارة، وقد استمر فى عمله السرى حتى وفاته عام ١٢٥هـ، وهناك من العلماء من يرى أن تنظيم الدعوة العباسية قام على ثلاثة أفراد من البيت العباسى لم يقدّر أن ينالوا ثمرة غرسهم، وأولهم على بن عبد الله بن عباس وأنه رأس الدعوة أكثر من عشرين سنة وهو الذى نظم الدعاة والنقباء فى كل العراق وخراسان، وولى أمر الدعوة بعده ابنه محمد بن على ثم ابنه إبراهيم[١]. والذى أميل إليه من خلال البحث أن الزعيم القيادى الكبير للدعوة العباسية فى المرحلة السرية هو محمد بن على العباسى[٢]، وكان معه فريق عمل من إخوانه وأبنائه وغيرهم.

٢- الهيكل التنظيمى:

انتقل محمد بن على بعد دراسة وتفكير إلى تنظيم الدعوة تنظيمًا محكمًا، ورسم لكبار الدعاة الطريق الذى سوف يسيرون عليه للوصول بالدعوة إلى غايتها، وكان ذلك فى تمام

(١) العالم الإسلامى فى العصر العباسى، حسن أحمد صـ ١١٤.

(٢) الثورة العباسية، فاروق عمر صـ ١١٢.

المائة الأولى من الهجرة النبوية الشريفة[1]، وجعل محمد بن علي العباسي الدعوة تتحرك فى ثلاثة محاور، فقد جعل قرية الحميمة مكانًا للتخطيط والدراسة، فهى المركز الأول للدعوة، والكوفة للإشراف على الدعوة، ولنقل تعاليم الإمام الصادرة من الحميمة إلى الدعاة فى خراسان. وأما خراسان، فقد أصبحت مسرحًا للدعوة، كما أصبحت فيما بعد منطلقًا للعمل العسكرى، وقد أكد محمد بن على العباسى لقادة الدعوة، عدم ذكر اسمه، وأن تكون دعوتهم غاية فى السرية، فهو يقول لأبى عكرمة السراج عندما أرسله إلى خراسان: فلتكن دعوتكم إلى الرضا من آل محمد، فإذا وقعت بالرجل فى عقله وبصيرته فاشرح له أمركم... وليكن اسمى مستورًا عن كل أحد، إلا عن رجل عدلك فى نفسك... وتوثقت منه وأخذت بيعته[2]. كما حذر محمد بن على دعاته من أهل الكوفة قائلاً: ولا تستكثروا من أهل الكوفة، ولا تقبلوا منهم إلا أهل النيات الصحيحة[3]، واحتاط لنفسه أن يبعد الشكوك التى تحوم حول الحميمة، فقد جعل دعاة خراسان يتصلون بالكوفة بدل الحميمة، حتى لا يلفت أنظار الأمويين فينكشف أمره. ولضمان السرية التامة لدعوته، فقد أمر كبار دعاته بأن يسلكوا فى طريقهم إليه الطرق الرئيسية، وأن يحاولوا التستر بزى التجار، كما يقللون التردد على الحميمة ما أمكن، واختار أبو عكرمة السراج بعد ذلك اثنى عشر نقيبًا هم[4] :

١- سليمان بن كثير الخزاعى.

٢- مالك بن الهيثم الخزاعى أبو عيينة.

٣- طلحة بن رزيق الخزاعى.

٤- عيسى بن أعين الخزاعى مولى لخزاعة.

٥- عمرو بن أعين أبو الحكم، مولى لخزاعة.

٦- لاهز بن قريظ التميمى.

٧- موسى بن كعب التميمى أبو على.

٨- عيسى بن كعب التميمى.

---

(١) تاريخ الطبرى، نقلاً عن العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٦١.

(٢) طبيعة الدعوة العباسية ، فاروق عمر صـ ١٥٥.

(٣) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٦١.

(٤) المصدر نفسه صـ ٦٢.

٩- القاسم بن مجاشع التميمى أبو نصر.

١٠- خالد بن إبراهيم، أبو داود، من بنى عمرو بن شيبان بن ذهل.

١١- شبل بن طهمان الربعى أبو على الهروى الشيبانى.

١٢- قحطبة بن شبيب الطائى، أبو حمزة[١].

وهؤلاء هم رؤساء النقباء هم الذين يعرفون شخصية الإمام وأسرار الدعوة، ويلى هؤلاء نظراء النقباء، وعددهم عدد النقباء، ونظير النقيب يخلف النقيب فى حالة سفره، أو وفاته[٢]، ثم يأتى بعد ذلك الدعاة وعددهم سبعون داعيًا[٣]، ثم يليهم دعاة الدعاة وعددهم ما يقارب ٣٦ داعيًا[٤]، ونظم محمد بن على العباسى الدعاة تنظيمًا دقيقًا يوحى بأنها دعوة دينية كدعوة الأنبياء والرسل - عليهم السلام - يقول فى تنظيم ذلك ما نصه[٥]: بسم الله الرحمن الرحيم... إن السنة فى الأولين، والمثل فى الآخرين، وإن الله يقول: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥] ثم قال فى آية أخرى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] وإن رسول الله ﷺ وافاه ليلة العقبة سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فبايعوه، فجعل منهم اثنى عشر نقيبًا.. فإن سنتكم سنة بنى إسرائيل وسنة النبى عليه السلام. وبمقتضى هذا التنظيم الدقيق السرى توزع الدعاة فى العراق وخراسان، حيث وجه للكوفة ميسرة العبدى (١٠٢ - ١٠٥هـ[٦]) وخلفه بعد ذلك بكير بن ماهان (١٠٥ - ١٢٧هـ)[٧]. ثم أبو سلمة الخلال (١٢٧ - ١٣٢ هـ)[٨]. وأما دعاة خراسان فقد وجه ثلاثة دعاة دفعة واحدة هم: محمد بن خنيس، وحيان العطار، وأبو عكرمة زياد بن درهم - وهو أبو محمد الصادق[٩]- وهؤلاء هم رؤساء الدعوة العباسية فى الكوفة وخراسان ويسمون - أيضًا - رؤساء النقباء، وأراد أبو عكرمة السراج أن يعرِّف الإمام على مدى تقبل وفرح أهل خراسان بدعوتهم ودعوة آل البيت، فطلب من زعمائهم أن يكتبوا للإمام محمد بن على بما يؤكد له إيمانهم وإخلاصهم وحبهم لهذه الدعوة التى

(١) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٦٢.

(٢) أخبار الدولة العباسية صـ ٢١٦ ، تقويم جديد للدعوة العباسية صـ ٧٧.

(٣) أخبار الدولة العباسية صـ ٢٢١.

(٤) طبيعة الدعوة العباسية، فاروق عمر صـ ٢٣.

(٥) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٦٣.

(٦) الأخبار الطوال صـ ٣٣٢.

(٧) المصدر نفسه صـ ٣٣٤.

(٨) تاريخ الطبرى، نقلاً عن العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٦٣.

(٩) المصدر نفسه صـ ٦٣..

تهدف إلى خلاصهم من ظلم الأمويين - كما يرون ذلك - فأرسلها إلى الكوفة حيث ميسرة العبدى، الذى دفعها بدوره إلى محمد بن على فى الحميمة[1]، ففرح بها واستبشر، وسره أن ذلك أول مبادئ الدعوة[2]. وأوصى محمد بن على الدعاة أن يقضوا حوائجهم بالكتمان، وأن يكون ظاهر عملهم التجارة وغايتهم الدعوة إلى آل البيت، قائلاً: انطلقوا أيها النفر فادعوا الناس فى رفق وستر، فانى أرجو أن يتم الله أمركم، ويظهر دعوتكم، ولا قوة إلا بالله[3] ثم قال لهم: فإن سئلتم عن أسمى فقولوا: نحن فى تقية وقد أمرنا بكتمان اسم إمامنا[4]. وأرسل محمد بن على دعاته فى الآفاق، يدعون الناس سرًا، ظاهر أمرهم الاشتغال بالتجارة وباطنه الدعوة للرضا من آل البيت، واصفين إياه بالتقى والصلاح والزهد والورع، غايته تطبيق شرع الله، شعاره العدل والمساواة، ويحق الحق ويبطل الباطل، وسيملأ الدنيا صلاحًا وعدلاً، كما ملأها بنو أمية فسقًا وجورًا - كما يدعون-[5] واستخدم الدعاة مهنة التجارة يستخفون وراءها لنشر الدعوة التى أسندت إليهم، وأخذوا يجوبون البلاد طولاً وعرضًا لاستقطاب أكبر عدد من الناس، فكانت مهمتهم أسهل، ومراقبتهم أصعب، ثم إن هؤلاء الدعاة لم يكونوا من عامة الناس، بل تسلحوا بسلاح الثقافة والمعرفة والإخلاص للدعوة والتفانى فى سبيلها، فبذلوا الأموال ولاقوا السجن والقتل والتمثيل، وكانت لديهم الحنكة لاجتذاب الأنصار[6]. ولم يكن من دعاة بنى العباس المشهورين أحد ممن اشتهر بالعلم فى ذلك العصر، بل أغلب الدعاة كانوا رجال إدارة وأهل قيادة وحرب، كأبى مسلم الخراسانى وقحطبة بن شبيب، أو من أهل الشرف واليسار كبكير بن ماهان الذى أغدق على الدعوة بماله، فذكر أنه أنفق فى نصرة الدعوة أربع لبنات من فضة ولبنة من ذهب[7]، وورد أنه الذى اشترى أبا مسلم الخراسانى لما رأى صلاحه لأمر الدعوة[8]، وكأبى سلمة الخلال الذى ذكر أنه رجل شهم، سائس شجاع، متمول، أنفق أموالاً كثيرة فى إقامة الدولة[9]. كما أن بعض دعاة بنى العباس من الموالى

---

(١) الكامل فى التاريخ، نقلاً عن العلويون والعباسيون صـ ٦٤.

(٢) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٦٤.

(٣) الأخبار الطوال صـ ٣٣٢.

(٤)،(٥)، (٦) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٦٤.

(٧) تاريخ الطبرى، نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ٦٠٠.

(٨) البداية والنهاية، نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية صـ ٦٠٠.

(٩) سير أعلام النبلاء (٦/٧).

كان الذى يهمهم هو القضاء على بنى أمية ونجاح الدعوة العباسية التى يرفع قادتها شعار المساواة وإنفاق الموالى[١] ونلاحظ أن الأكثرية الساحقة من النقباء كانوا عربًا[٢]. وقد ذكر الباحثون أسماء وتشكيلات تنظيمية منها:

أ- كبير للدعاة بالكوفة:

فقد عين محمد بن على العباسى كبيراً للدعاة، وجعل الكوفة موقعًا له ومقامًا، إذ هى أقرب إلى خراسان من الحميمة، وبها شيعة أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذين انضموا إلى بنى العباس، وكان كبير الدُّعاة مسئولاً عن نشر الدعوة والإشراف عليها بخراسان، فكان يرسل إليها وفود الدعاة، وكان يكتب إلى محمد بن على بأنباء الدعوة ويعلمه بأحوالها، وكان يلقاه فى موسم الحج، وكان يزوره بالحميمة إذا طرأ طارئ واحتاج إلى أن يعرف رأيه فيه، حتى يأخذ به وينفذه. وكان الدعاة من أهل خراسان يمرون بالكوفة، ويعرجون على كبير الدعاة، فيطلعونه على ما بلغوا فى بث الدعوة ويشرحون له ظروفها، ثم يمضون إلى الحجاز، فيقابلون محمد بن على بالمدينة ومكة فى موسم الحج، فيؤدون إليه ما اجتمع لهم من أموال، ويُخبرونه بأخبار الدعوة ويعرضون عليه مسيرتها وملابساتها، ويتشاورون فى أمرها حتى يستدركوا النقص ويتلافوا الأخطاء ويُذلِّلوا الصعاب ويتجنبوا الأخطار، تقوية للدعوة ومدًا فى تيارها وحماية لها من الانهيار، فإذا انقضى موسم الحج زوّدهم بتوجيهاته وإرشاداته، ورجعوا إلى خراسان، فواصلوا القيام بأمر الدّعوة وجدُّوا فى نشرها[٣]، قال البلاذرى: كان محمد بن على يقدم المدينة فى كل سنة فيقيم بها الشهر والشهرين، ويُؤتى بالمال فيفرقه[٤] ومن أشهر من تولى هذا المنصب فى التنظيم العباسى بكير بن ماهان، فقد استعمله محمد بن على العباسى بعد وفاة أبى رباح ميسرة النَّبال، فقد جاء إلى محمد، بالحميمة وأخبره عن شيعته بالكوفة، وأوصاه محمد بن على أن يدعو إلى الرضا من آل محمد، ويذكر جور بنى أمية، وأن آل محمد أولى منهم بالأمر، وأوصاه أن يُحذر شيعة بنى العباس من التحرك فى شىء مما يتحرك فيه بنو عمهم من آل أبى طالب، فإنَّ خارجهم مقتول، وقائمهم مخذول، وليس لهم فى الأمر نصيب، وخوّفه جماعة أهل الكوفة وأمره ألا يقبل منهم أحدًا إلا ذوى البصائر، فإنهم لا يُعزُّ بهم من نصروه ولا يوهنون بخذلانهم من خذلوه[٥]. وكان بكير بن ماهان رجلاً مُفوَّهًا، فقام

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ ٦٠٠.

(٢) الثورة العباسية صـ ١١٧.

(٣) الدعوة العباسية صـ ١٧٢.

(٤) أنساب الأشراف (٣/٨٦)، تاريخ الموصل صـ ٤٩.

(٥) أخبار الدولة العباسية صـ ٢١٣، ٢١٥.

بالدُّعاء وتولى الدعوة بالعراقين. وكانت كتب الإمام تأتيه فيغسلها بالماء، ويعجن بغسالتها الدقيق، ويأمر فيُختبز منه قرص، فلا يبقى أحد من أهله وولده إلا أطعمه منه[1] وهذا يُشير إلى النفوذ الروحى لمحمد بن على العباسى على أتباعه، ولا شك أن هذا الأمر ساهم بشكل كبير فى نجاح الدعوة العباسية، وقد أنفق بكير بن ماهان أموالاً طائلة فى نصرة الدعوة[2].

ب- مجالس الدعوة العباسية:

زعم مصنف أخبار الدولة العباسية أن بكيراً كوّن مجالس الدعوة العباسية المختلفة سنة عشرين ومائة[3]، وفى حديثه عن بعضها تعميم ووهم، فإن مجالس النُّقباء، ومجلس السبعين أُلفت فى سنة مائة، روى ذلك أكثر المؤرخين، واتفقوا عليه، ويبدو أن بكيراً جمع رجال المجلسين[4]، وتبادل معهم الرأى فى شئون الدعوة العباسية، وأقرَّهم وأبقاهم فى مناصبهم ولم يعزل أحداً منهم، ولا سيما النقباء، فإن أسماءهم عند مُصنف أخبار الدولة العباسية[5]، وعند غيره من المؤرخين[6] متطابقة، وأما سائر رجال السبعين فإنه استَقَلَّ بسرد أسمائهم إذ لم يشاركه أحد من المؤرخين فى ذلك[7]، ويبدو أن بكيراً أنشأ بقية المجالس التى ذكرها مصنف أخبار الدولة العباسية لأنها لم تُعرف قبل هذا التاريخ، وهى: مجلس نظراء النقُّباء. وهو يتألف من اثنى عشر رجلاً، وقيل: من عشرين أو واحد وعشرين رجلاً وقد سمّاهم جميعًا[8] ومجلس الدعاة، وهو يتألف من سبعين رجلاً، وقد سمَّى منهم خمسة وستين رجلاً[9] ومجلس دعاة الُّدعاة ولم يُحدِّد عدد رجاله وقد سَمَّى منهم سبعة وثلاثين رجلاً[10]. وفى كل مجلس من هذه المجالس طائفة من رجال مجلس السبعين. ونصَّ على أن النُّقباء الاثنى عشر ليس بين أحد من أهل العلم فيهم اختلاف، فأما نُظراء النُّقباء والسبعون فقد اختلف فيهم[11]. ثم أخذ بكير البيعة على من حضره من شيعة بنى العباس على مناصحة إمامهم فى السر والعلانية، وألا يُطلعوا على أمرهم أحداً خافوا ناحيته ولم يثقوا به، وجمعوا مالاً كثيراً، وأتوه به، وخلف عليهم سليمان بن كثير الخزاعى، وأمرهم إذا حزبهم أمر أن يجتمعوا إليه فيناظروه فيه عنده، وأمرهم أن يأخذوا

(١) الأخبار الطوال صـ ٣٣٣.
(٢) الدعوة العباسية صـ ١٨٩.
(٣) أخبار الدولة العباسية صـ ٢١٣ ، ٢١٥.
(٤) المصدر نفسه صـ ٢١٣.
(٥) المصدر نفسه صـ ٢١٦.
(٦) أنساب الأشراف (٣/ ١١٥)، الدعوة العباسية صـ ٢١١.
(٧) الدعوة العباسية صـ ٢١١.
(٨) أخبار الدولة العباسية صـ ٢١٩ - ٢٢٢.
(٩) المصدر نفسه صـ ٢٢١ - ٢٢٣.
(١٠) المصدر نفسه صـ ٢٢٢- ٢٢٣.
(١١) المصدر نفسه صـ ٢٢٠.

رأى أبى صالح كامل بن مظفر فإنه ثقة فى رأيه وشفقته، وشخص إلى جرجان، فلما قدمها أقام بها شهرًا، وجمع له شيعتها مالاً وحُليًا ثم سار منها إلى الكوفة، فلما بلغها مكث بها يسيرًا، ثم توجَّه إلى محمد بن على، فدفع إليه ما قدم به[1]، ولبث فى الحُميمة زمنًا، ثم رجع إلى الكوفة أول سنة اثنتين وعشرين ومائة[2].

٣- البعد التخطيطى وقراءة الواقع عند محمد بن على العباسى:

إن التخطيط والتنظيم من الأسس المهمة فى نجاح الدعوات وقيام الدول، حيث كتب محمد بن على كتابًا لقادة التنظيم العباسى ليكون لهم مثالاً، وسيرة يسيرون عليها قائلاً: أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف، تقول: كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة، فحرورية مارقة، وأعراب كأعلاج، ومسلمون فى أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فلا يعرفون إلا معاوية، وطاعة بنى أمية، وعداوة راسخة، وجهل متراكم، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بأهل خراسان، فإن هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النحل، ولم يقدح فيها فساد، وهم جند لهم أبدان، وأجسام، ومناكب، وكواهل، وأصوات هائلة... وبعد، فإنى أتفاءل إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا، ومصباح الخلق[3].

لقد وصف محمد بن على للدعاة المكان الذى يمكن أن تنمو فيه الدعوة وتحقق أكبر النجاح للقضاء على الحكم الأموى:

أ- **فخراسان**: منطقة بعيدة عن عاصمة الدولة وفيها رجال أقوياء حاقدون على الحكم الأموى، والاستقرار فى هذه المنطقة شبه مفقود، وفيها شيعة متحمسون لنصرة آل البيت، وفى خراسان: جمجمة العرب وفرسانها[4]، فقد كانت خراسان موطن المقاتلة العرب الذين مرستهم الحرب الطويلة مع تركستان، والذين عبّروا مرارًا عن تذمرهم من السياسة الأموية العسكرية[5]، فقد تضايقوا من سياسة التجمير؛ وهى وإبقاء المقاتلة فى الثغور وعلى خطوط المواجهة شتاءً فى الوقت الذى يرغب المقاتلة فى قضاء الشتاء مع عوائلهم.

* كان الوالى الأموى يسلبهم حصتهم من الفىء والغنيمة أحيانًا أو يأخذ أكثر من حقه منها أحيانًا أخرى.

---

(١) أخبار الدولة العباسية صـ ٢٢٣ ، ٢٢٤.
(٢) المصدر نفسه صـ ٢٣٠.
(٣) عيون الأخبار (١/ ٢٠٤)، العلويون والعباسيون صـ ٥٨.
(٤) طبيعة الدعوة العباسية صـ ١٥٦.
(٥) الثورة العباسية صـ ١١٤.

* سئمت القبائل من النزاع المستمر بين الشيوخ والرؤساء الطموحين للوصول إلى السلطة، حيث خلق هذا بين قبائل خراسان نوعًا من القلق؛ ولذلك وجدت تلك القبائل فى الدعوة العباسية أملاً جديدًا لحياة أكثر استقرارًا ويسرًا(١).

ب- الحجاز: هو إقليم غلب عليه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، فأهله يميلون إلى الزهد والعبادة، ويركنون إلى السلم وترك الاشتغال بالسياسة، فهم لا يرون أن الخلافة حق من حقوق بنى هاشم - وإنما فى قريش عمومًا - ولهذا فشلت حركة المدينة التى قام بها بعض المعارضين للحكم الأموى، كموقعة الحرة عام ٦٣هـ. وفى مكة انتهت خلافة عبد الله بن الزبير عام ٧٣هـ دون أن تحقق الهدف المنشود - لأسباب كثيرة مر ذكرها - كما أن أهل الحجاز يعرفون أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم وصلوا إلى الخلافة بالشورى والاختيار والقبول من الأمة الإسلامية من غير تسلط أو سفك دماء.

جـ- الشام: وأما إقليم الشام «دمشق» فقد اتخذها الأمويون عاصمة لدولتهم الإسلامية المترامية الأطراف، وأهل الشام يرون أن عزهم ومجدهم قد جاء عن طريق الأسرة الأموية فهم لا يرون عنها بدلاً.

د- البصرة: هى فى نظر محمد بن على العباسى لا تصلح لهذه الدعوة، فسكانها خليط من البشر، وفيها عدد من الأجناس والأديان، والبصرة، مدينة اقتصادية لا شأن لها بالسياسة، ويقطنها قليل من الشيعة لا تفى بالغرض المطلوب، والكثير منهم منهجهم: كن عبد الله المقتول.

هـ- وأما الكوفة: ففيها شيعة على وولده، ولا تقبل غير الدعوة لأولاد على، فأهلها يرون أن الخلافة هى حق من حقوق العلويين دون غيرهم(٢).

إن هذا الرأى الذى أدلى به محمد العباسى ليصور بوضوح نزعات الأقاليم الإسلامية، ولم يشر هذا الكلام إلى مصر التى كانت قريبة من بلاد الشام، فلم يكن بالإمكان اتخاذها مركزًا لحركة معارضة أو لإعلان ثورة(٣) أما إفريقية فلقد كانت قريبة من مصر وبالتالى فى قبضة الجيوش الأموية لقربها من الحاميات المتقدمة.

و- دور الحميمة القيادى وأهمية العنصر العربى فى البناء التنظيمى: وقد أتيح للقيادة العباسية من موقعها فى «الحميمة» مراقبة الوضع السياسى عن كثب، والتنبه للثغرات

(١) الخلافة العباسية ، عصر القوة والازدهار صـ ١٥ ، ١٦
(٢) العلويون والعباسيون صـ ٥٨ - ٦٠ . (٣) الثورة العباسية صـ ١١٤.

المشكلات فيه دون أن يكون اختيار خراسان سوى نتيجة لذلك، وهى الولاية الأثيرة لدى الأمويين، ومركز الخلل فى دولتهم المترنحة، والصورة الأكثر تعبيراً عنها فى صراعاتها وانقساماتها. على أن ثمة مسألة مهمة هى أن اختيار خراسان لا يعنى انصراف العباسيين عن الشام، كما لا يعنى التوجه نحو الموالى واستغلال أحقادهم على الدولة الأموية، على نحو ما روّج له المستشرقون فى هذا المجال، ولكنه جاء محصلة للمعطيات السابقة، فضلاً عن المعطى الجغرافى، متمثلاً فى بُعد الولاية عن مركز الدولة، ذلك أن الدعوة -فى أساسها التنظيمى -قائمة على العرب، وتوجهها الخراسانى إنما كان للقبائل العربية اليمنية[1]، القاطنة بأعداد كبيرة فى هذه الولاية، هذا إذا لم نتوقف عند عروبة «النقباء» المتحدرين من كبريات القبائل العربية، إذ إن خمسة منهم إلى خزاعة وثلاثة إلى تميم واثنين إلى مزينة، فضلاً عن آخرين من طيئ وربيعة.. إلخ[2]. ولا يعنى هذا أيضًا، أن يكون لبروز شخصيات من أصل غير عربى فى الدعوة، من أمثال أبى مسلم الخراسانى وأبى سلمة الخلال، دلالات تخالف هذا الواقع، إذ إن قيادة الدعوة كانت تحكم قبضتها على كل الأمور، من خلال جهاز بالغ الدقة فى التنظيم والإدارة، وسرعان ما لجأت إلى التخلص من هذين الرجلين القويين، بعد إنهاء دوريهما المرسومين، ومحاولة كل منهما تجاوز خطوطه المحددة[3]، وهكذا فى قرية من أطراف الشام ثم للعباسيين إخراج مشروعهم إلى حيز التنفيذ، متحالفين مع الوقت، ومتقنين العمل السرى، وراصدين ثغرات الحكم الأموى، بما فيها مساوئ الخلفاء وضيق رؤيتهم السياسية، مما حاد بهؤلاء عن الموضوعية واتخاذ المواقف المسئولة، خصوصًا فى تلك المرحلة المتأخرة [4]، وقد كانت دراستهم العميقة لأسباب النجاح وعوامل إضعاف الأمويين تدرس بحكمة ووعى فائق وذكاء كبير فى مركز القيادة بالحميمة.

٤- أهم مبادئ المشروع العباسى والشرائح المستهدفة بالدعوة:

لكل دعوة أو مذهب منظومة فكرية وشعارات خاصة تنادى بها وتجعلها رمزًا يؤمن بضرورة تحقيقه، ومن أهم مبادئ وشعارات الدعوة العباسية التى رفعتها ونادت بها:

أ- الدعوة إلى الإصلاح: ومن شعارات الدعوة العباسية الإصلاح أو الدعوة إلى الكتاب والسنة، وهو شعار عام، وهو أشمل شعارات الدعوة العباسية، والواقع أن أحداثًا كثيرة

(١) تاريخ الطبرى ، نقلاً عن تاريخ بلاد الشام ، إبراهيم بيضون صـ ٢٢٨.

(٢) تاريخ بلاد الشام ، إبراهيم بيضون صـ ٢٢٨. (٣) الأخبار الطوال صـ ٣٥٩.

(٤) تاريخ بلاد الشام صـ ٢٢٨.

تركت فى النفوس آثاراً مريرة، مثل حصار الكعبة وانتهاك حرمة المدينة المنورة يوم الحرة، وسفك دماء أهل البيت، وسياسة القهر والجبر واضطهاد المعارضة، والابتعاد عن سيرة السلف الصالح، وحب الترف واللهو، وكثرة مظاهره، وكثرة المذاهب وتصارعها، وظهور أقوال كثيرة غير مألوفة من قبل، والاعتماد على العصبية فى الحكم، ويبدو أن جهود هؤلاء الدعاة والأئمة تضافرت لنشر هذه الدعوة، ومصداق ذلك دراسة ما رواه صاحب الأخبار الطوال[1] عن الذين انضووا تحت لواء أبى مسلم وبايعوه، وقد جاءت الوفود من مدن خراسان كلها، ومن القرى الصغرى، ومن أهل الثغور من كرمان وكابل وخوارزم وجرجان والديلم وأهل ما وراء النهر وأهل طخارستان، بل آمن العرب بهذه الدعوة، ودخلت فيها قبائل عربية مثل خزاعة وطيئ وبكر وتغلب وتميم، وبالطبع انتشرت الدعوة فى العالم الإسلامى كله، ولكنها تركزت فى إيران بعامة وفى خراسان بخاصة[2].

ب- المساواة: وهو شعار المساواة بين الشعوب، وقد ساهم فى إنجاح الثورة العباسية وأنصف الشعوب التى أسلمت واندمجت فى الحضارة الإسلامية وصارت تتطلع إلى المساواة، وهذا الشعار فى ذاته مبدأ إنسانى جليل لا تزال الأجيال تتعلق به منذ القدم وتتخذه مثلاً أعلى، وهو شعار له معنى خاص فى ديننا، وهو عدم التفرقة بين الناس بحسب ألوانهم أو دمائهم أو تاريخهم، وبيان أن أكرم الناس عند الله أتقاهم، وقد تستر خلف هذا المبدأ دعاة العباسيين وشنعوا به على بنى أمية، وزعموا أنهم انحرفو عن هذا المبدأ الإسلامى الأصيل[3].

جـ- الإمامة للرضا من آل محمد: وهذا الشعار رضى عنه مجموعة كبيرة من الناس سواء من الشيعة أو السنة، وهو أن المبايعة للرضا من آل محمد ﷺ بدون تعيين اسم ولا تعيين هل هو من البيت العباسى أم من الطالبيين، وانتبه الشيعة متأخرين إلى أن العباسيين كانوا يخططون لأنفسهم، ولكن بعد فوات الأوان[4]. فهذه هى أهم المبادئ، بالإضافة إلى العدل، ومحاربة الظلم، والانتصار لأهل بيت رسول الله ﷺ واعتمد محمد بن على أسلوبًا جديداً فى بث الدعوة فأوصى أتباعه بكتمان أمرهم وعدم كشف حقيقته لأحد إلا بعد أن يأخذوا عليه العهود والمواثيق المؤكدة[5]، وحتى لا تثير تحركاتهم شكوك السلطة

(١) العالم الإسلامى فى العصر العباسى، حسن أحمد محمود صـ ٣٣.

(٢) المصدر نفسه صـ ١٩ ، ٢٠.

(٣)، (٤) حركة النفس الزكية صـ ٤٦ .

(٥) الأخبار الطوال صـ ٣٥٥ ، الوصية السياسية فى العصر العباسى صـ ٨٩.

الأموية أوصى أتباعه أن يجوبوا المدن ويعملوا لدعوته بحجة التجارة وأن يستروا اسمه عن الجميع، فلم يكن محمد بن على طيلة المدة التى تولى بها رئاسة الدعوة يعرفه أحد بنسبه واسمه إلا الدعاة[1]، وحتى هؤلاء فإن لقاءه بهم كان قليلاً[2]، وإذا ما استوجب الأمر أن يلتقى بأحدهم فإن ذلك يتم تحت إجراءات أمنية مشددة، وغالبًا ما يكون فى وقت متأخر من الليل بعد أن يكون الجميع قد دخلوا منازلهم[3]، وقد بالغ محمد بن على فى كتمان أمر الدعوة فأوصى أتباعه أن تكون البيعة لشخص مجهول وهى «للرضا من آل محمد»[4]، ويبدو أن هذا الغموض فى المبادئ خدم السياسة العباسية فى مدة الدعوة السرية، وكان له أثر بالغ فى نجاحها؛ فشعار «الرضا من آل محمد» يضيق دائرة الخلاف فيحصرها فى أهل البيت من قريش، ويخرج الأمويين منها ويبطل حقهم فيها، وفى الوقت نفسه يجعل للعباسيين نصيبًا منها على أساس أنهم أحد فرعى أهل البيت، ويتيح لهم كسب أعداد كبيرة من أنصار أهل البيت ومؤيديهم، وهو من الناحية الأخرى يوقف النزاع بينهم وبين العلويين -ولو مؤقتًا- ويجمعهم تحت راية واحدة[5]، لذلك فقد تجنب العباسيون فى هذه المدة كل ما يبين أنهم قاموا لأخذ محل العلويين، فأظهروا أن غايتهم قلب الدولة الأموية، وأخفوا سعيهم لأخذ الخلافة، وحاولوا أن يبينوا للناس أن قضيتهم هى قضية جهاد الحق ضد الباطل[6].

إن الثورة العباسية -شأنها شأن الثورات الكبرى فى التاريخ- تظهر بأشكال متعددة وتندفع فى مجراها قوى متنوعة على الصعد الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولا شك أن الموالى كان لهم حضورهم، إلا أنهم كانوا فى صفوف الجنود والأتباع، ولم يكونوا قادة إلا فى استثناءات، كانت الثورة العباسية هى ثورة اليمانية الكبرى، كما كانت ثورة الشيعة العباسية والمرجئة والقدرية والخوارج، وكان لكل من هذه القوى نصيب فيها، وإن كانت العديد من هذه القوى قد تعرضت للتصفية على يد أبى مسلم نفسه فيما بعد[7]، ويقول أبو جعفر المنصور موجهًا كلامه لليمانية معترفًا لهم بدورهم المتميز فى نجاح الثورة: فيحق لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا وقيامهم بدعوتنا ونهوضهم بدولتنا[8]... وقد تكون هذه الصورة التى تجعل من الثورة العباسية ثورة يمانية مبالغًا بها إذ إن القيسيين والمتذمرين من سياسة نصر بن سيار ومروان بن محمد انضموا كذلك إلى صفوف الثوار

(١)، (٢)، (٣) الوصية السياسية فى العصر العباسى صـ ٨٩.

(٤)، (٥) أنساب الأشراف (٣/ ٨٢-١٣٦).

(٦) العصر العباسى الأول ص٢٥.

(٧) السلطة والمعارضة فى الإسلام صـ ٥٢٧.

(٨) نقد وتعريف بتاريخ الموصل، مجلة المكتبة، بغداد، ١٩٦٨م، صـ ١٩٤.

العباسيين، وعملوا بدورهم على إسقاط الدولة الأموية(١)، باختصار كانت الثورة العباسية هى ثمرة حسن استغلال تراكم معارضات عدة بدأت مُنذ لحظة هذه الثورة بواجهات متعددة، ورفعت شعارات مختلفة، حاولت فيها كسب كل المتذمرين ضد الحكم الأموى، فانضم إليها الغلاة والمعتدلون، المسلمون وغير المسلمين، العرب وغير العرب(٢).. إن هذا التعقيد فى الثورة العباسية هو سر نجاحها، فالشعارات التى رفعتها كانت عامة غامضة، لا تختلف -ربما- عن سواها، إلا أن هذه المرة اكتسبت مضمونًا مختلفًا عندما تبنتها قوى متعددة ورأت فيها مشروعها للخلاص، وإنما على قاعدة تلك البنية التنظيمية التى صنعها أناس أكفاء استطاعوا الصمود رغم ما أحاط بهم من منوعات القمع، حتى تحقق الانتصار الكبير(٣).

وقد استهدفت الدعوة العباسية فى رحلتها السرية أعداء الدولة الأموية الذين من أهمهم:

أ- المهالبة الذين حاربتهم الدولة الأموية وتتبعتهم بعد مقتل يزيد بن المهلب، والمهالبة يمنيون.

ب- الموالى، فقد كان هؤلاء يدفعون من الضرائب مقدارًا كبيرًا، ولا يعاملون بالتساوى مع العرب، وكان عليهم ضغط من كل جهة، فكانوا أعداء الدولة بطبيعة الأمر.

ج- وكان بجانب هؤلاء عدو قوى للأمويين، وهم الشيعة، فالشيعة العلوية كانت لا تزال تقوم بين حين وآخر بثورات، وكانت ثوراتها تخمد فى كل مرة، فتزداد الكراهة وتشتد العداوة(٤) فهذه من أهم الفئات التى استهدفتها الدعوة العباسية، فقد كانت تشكل تربة خصبة لحشد الأتباع والمناوئين للدولة الأموية، فأى حركة منظمة تريد أن تسقط نظامًا ما لا بد لها من معرفة أعداء ذلك النظام والعمل على حشد القوى ضده، مع ضرورة إمساكها بخيوط الثورة بيدها، فهذه بديهة من بديهات العمل السياسى المنظم. كان على رأس الدعوة العباسية رجال من بنى العباس، «دهاة أقوياء» منظمون عارفون بما يقومون به؛ أولهم محمد بن على وأقرباؤه وابنه إبراهيم، ثم تبعهم عدد من إخوة إبراهيم ومن أعمامه وأقاربه، وقد اشتركوا جميعًا فى تنظيم الثورة ووضعوا خططها وأشرفوا عليها، ووجّهوها كما يجب أن توجه. نعم إنهم تحالفوا مع أعداء بنى أمية جميعًا واستفادوا منهم كل الاستفادة، لكنهم هم الموجهون وهم أصحاب الأمر، أما الدعاة والقواد فإنهم يتلقون

(١) طبيعة الدعوة العباسية صـ ١٧٨. (٢)، (٣) السلطة والمعارضة فى الإسلام صـ ٥٢٨.

(٤) تاريخ عصر الخلافة العباسية، يوسف العش صـ ١٦.

أوامرهم منهم فيتبعونها بحذافيرها، نعم إنهم استفادوا من العناصر المعادية لبنى أمية، وكانت تلك العناصر يجمعها هدف واحد هو إزالة بنى أمية، و تجمعها فكرة واحدة، وهى أن بنى أمية أعداء الدين؛ لذا وجب القضاء عليهم[١].

٥- المرجعية الشرعية للدعوة العباسية:

تعتبر مدرسة عبد الله بن عباس الحركية والشرعية هى المرجعية للدعوة العباسية، فقد اهتم على بن عبد الله بن العباس بتراث أبيه وعلومه، يروى ابن سعد بسند أن موسى بن عقبة قال: وضع عندنا كريب حمل بعير -أو عدل بعير- من كتب ابن عباس، قال: فكان على بن عبد الله بن عباس إذا أراد الكتاب كتب إليه: ابعث إلىّ بصحيفة كذا وكذا، قال: فينسخها فيبعث إليه بأحدها[٢] وقد علق الدكتور صالح أحمد العلى على هذا الأثر فقال: غير أن موسى بن عقبة لم يحدد فيما إذا كانت كتب ابن عباس هى مما ألفه أو مما امتلكه، كما أنه لا يذكر مواضيعها، أى فيما إذا كانت فى التفسير أم فى علوم أخرى[٣]. وذكر صاحب «الوصية السياسية فى العصر العباسى» أن محمد بن على حين نشأ ألزمه أبوه أصحاب جده - ابن عباس - فكان كذلك حتى علم وفقه، فجلس يومًا يفتى فى المسجد الحرام بمثل فتيا جده[٤]، وقد أبهرت فتواه سعيد بن جبير رضى الله عنه حين سمعه فقال: الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى رجلاً من ولد ابن عباس يفتى بفتواه[٥] والمعلوم لدى الباحثين أن عبد الله بن عباس تقدم فى التفسير بسبب عوامل متعددة، منها: دعاء النبى ﷺ له بالفقه فى الدين والعلم بالتأويل، وقرب منزلته من عمر رضى الله عنه، والأخذ عن كبار الصحابة، وقوة الاجتهاد وقدرته على الاستنباط، وقدرات ابن عباس التعليمية والتربوية، ورحلاته وأسفاره، وتأخر وفاته[٦]. وكان ابن عباس من علماء المدرسة المكية، وقد تميزت هذه المدرسة، من بين سائر المدارس بكثرة تناولها للآيات وتفسيرها وأسهمت إسهامًا قيما فى الإبانة عن كثير من المعانى التى يحتاج إليها، ويرجع ذلك لأسباب عديدة منها؛ إمامة ابن عباس للمدرسة، والأثر المكانى على المدرسة - كونها بمكة - وكثرة رحلاتهم وأسفارهم، وحرصهم على نشر علمهم، والتصنيف والتدوين المبكر لآثار المدرسة[٧].. إلخ.

---

(١) تاريخ عصر الخلافة العباسية، يوسف العش ٢٦. (٢) طبقات ابن سعد (٥/ ٢١٦).

(٣) دراسات فى تطور الحركة الفكرية فى صدر الإسلام ص٩١.

(٤) الوصية السياسية فى العصر العباسى صـ ٧٦ ، أخبار الدولة العباسية صـ ١٧٣.

(٥) المصدر نفسه صـ ٧٦. (٦) تفسير التابعين (١/ ٣٧٤ -٣٩٥).

(٧) المصدر نفسه (١/ ٤٠٧ - ٤١٣).

* **الفقه الحركى عند ابن عباس:** استفاد العباسيون من فقه جدهم الحركى الذى ظهر عند نصحه للحسين بن على لما أراد الذهاب للكوفة، فقد قال له: أخبرنى إن كانوا دعوك بعد ما قتلوا أميرهم، ونفوا عدوّهم، وضبطوا بلادهم، فسر إليهم، وإن كان أميرهم حيّاً، وهو مقيم عليهم، قاهر لهم، وعماله تجبى بلادهم، فإنهم إنما دعوك للفتنة، والقتال[1]، وفى رواية أخرى أنّه قال له: إنّى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك، إنّ أهل العراق قوم غدر، فلا تغترنّ بهم، أقم فى هذا البلد حتى ينفى أهل العراق عدوّهم، ثم اقدم عليهم، وإلا فسرْ إلى اليمن، فإن بها حصونًا وشعابًا ولأبيك بها شيعة، وكن عن الناس بمعزل، واكتب إليهم وبث دعاتك فيهم، فإنى أرجو إذا فعلت ذلك أن يكون ما تحب[2]. ويظهر من فقه ابن عباس الحركى:

أ- أهمية سيطرة أهل العراق على إقليمهم وتحريره من سلطان بنى أمية؛ وهذا ما قام به العباسيون مع أهل خراسان حيث ضبطوه وحرّروه من سلطان بنى أمية فيما بعد.

ب- استفاد العباسيون من تقييم ابن عباس لأهل العراق، ولذلك لم يعتمدوا عليهم فى تشكيل القاعدة الصلبة التى قامت عليها دعوتهم.

ج- بيَّن ابن عباس أن اليمن بها حصون وشعاب «ولأبيك بها شيعة» وهذه عوامل مهمة فى نجاح الحركة لأن قبضة الدولة الأموية تكون ضعيفة للأسباب الجغرافية والبشرية، ولذلك وقع اختيار العباسيين على خراسان، لضعف قبضة الدولة عليها، كما كان بها أنصار لأهل البيت، خصوصًا من القبائل اليمنية المهاجرة هناك.

د- وبيَّن ابن عباس أن يكون صاحب الدعوة فى بداية أمرها عن الناس بمعزل، وأن يكتب إليهم ويبث دعاته فيهم، وهذا الذى فعله محمد بن على العباسى، فقد كان عن الناس بمعزل، وكان يكتب للناس ويبث دعاته من خلال تنظيم محكم انتشرت خلاياه الدعوية فى جسم الأمة الإسلامية.

٦- انحراف خطير عن منهج الدعوة وموقف محمد بن على العباسى منه:

فى سنة ١١٨هـ بعث بكير بن ماهان عمَّار بن يزداد داعية إلى خراسان، وكان نصرانيًا من أهل الحيرة ثم أسلم وصار معلمًا بالكوفة، فلمّا أتى خراسان تسمَّى بخداش بن يزيد،

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٧٢)، أحداث وأحاديث فتنة الهرج صـ ٢٠٨.

(٢) الكامل فى التاريخ (٢/٥٤٦).

ودعا الناس إلى بنى العباس فأجابوه، ثم انحرف عن الدعوة العباسية، وخرج عن مبادئها وقواعدها وشذَّ عن مراميها ومقاصدها، فثار عليه شيعة بنى العباس وفتكوا به، ويقال: إنَّ أسد بن عبد الله القسْرى هو الذى قبض عليه وأعدمه[1] وقال البلاذرى: وجه بكير عماراً هذا فغيّر سُنَنَ الإمام، ويدل ما كان فى سيرة من قبله، وحكم بأحكام منكرة مكروهة، فوثب به أصحاب محمد بن على فقتلوه، ويقال: بل قتله أسد بن عبد الله وصلبه[2]، وفيما روى ابن جرير الطبرى من خبر خداش أنه أعلن دين الخُرّمية وأحلَّ النساء وأباحهن وذكر لشيعة بنى العباس أن محمد بن علىٍّ أمره بذلك، فأخذه أسد بن عبد الله القسرى، ومثل به ثم قتله[3]، وروى ابن الأثير أن خداشًا أجاز لشيعة بنى العباس ترك الطاعات والفروض وسوّغ لهم ذلك واحتجَّ له احتجاجًا قبيحًا، يقول: قال لهم: إنه لا صوم ولا صلاة ولا حج، وإن تأويل الصوم أن يُصام عن ذكر الإمام فلا يباح باسمه، والصلاة والدعاء له، والحج القصد إليه، وكان يتأوّل من القرآن[4] قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[المائدة: ٩٣]. وكان مروق خداش من الدِّين وانسلاخه من الإسلام، ومزجه تعاليم الدَّعوة العباسية بتعاليم الخُرَّمية أكبر الأخطار التى صادفها محمد بن على، فقد نكب شيعتها وشق صُفُوفهم شقًا، وكان من انحازوا إليه منهم كُثرًا، وكان فيهم بعض النُّقباء والدُّعاة[5]، وروى البلاذرى أن محمد بن على صرف شيعة بنى العباس بخراسان عن مقالة خداش، إذ أرسل إليهم بكير بن ماهان، فرتق فتقهم، ورأب صدعهم، ولمَّ شعثهم، وأعادهم إلى منهاج محمد بن على ودعوته[6] وقد أرسل مع بكير من ماهان رسالة إلى دعاته فى خراسان يحذرهم من الدخول فى هذه المبادئ المنافية للإسلام،كما أرسل معه رسالة ثانية إلى رؤساء الدعاة[7].

قال فى رسالته الأولى: سلام عليكم، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو... وأشهد أن الله يبدئ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، فتبارك ذو الفضل العظيم. أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله الذى لا يزيد فى ملكه من أطاعه، ولا ينقص من ملكه من عصاه، بيده الملك ويبقى ملكه وهو عزيز ذو انتقام، وتمسكوا بصالح الذى عاهدتم الله عليه، وأدوا الأمانة فيما أمركم به،

(١) الدعوة العباسية، حسين عطوان صـ ٢٠٣.
(٢) أنساب الأشراف (٣/ ١١٧).
(٣) تاريخ الطبرى (٧/ ٦٣٥).
(٤)، (٥) الكامل فى التاريخ (٣/ ٣٥٢).
(٦) أنساب الأشراف (٣/ ١١٨)، الدعوة العباسية صـ ٢٠٧.
(٧) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٦٦.

واعتصموا بحبل الله جميعًا، وخذوا بحظكم منه، واشكروا لله الذى أصبح بكم من سوابغ نعمه، واعتبروا ما بقى بما سلف، وإنما ضرب الله لكم أمثال ما مضى من الأمم لتعقلوا عن الله أمره بأنكم قد رأيتم من الدنيا وتصرفها بأهلها إلى ما صار من مضى منهم، وخير ما يصيب الناس فيما بقى من الدنيا... ثم اعلموا علمًا يقينًا أن لأهل ولاية الله منازل معروفة كأنما ينظرون فيما أعطاهم الله من اليقين إلى عواقب الأمور ومستقرها.. لا تصدقوا كذبًا، ولا تجمعوا خبيثًا، ولا تخالفوا تقيًا، ولا تحتقروا يتيمًا صغيرًا، ولا تنتهكوا ذمة، ولا تفسدوا أرضًا، ولا تشتموا مؤمنًا، ولا تقطعوا رحمًا، ولا تعصوا إمامًا، وأحسنوا مؤازرتهم وصيانة أمرهم، أعينوهم إذا شهدتم، وانصحوا لهم إذا غبتم، اعلموا أن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق التقوى لزوم حقه، وخير الملل ملة إبراهيم، وأفضل السنن سنة محمد ﷺ، وأعظم الضلالة ضلالة بعد هدى... ونفس تناجيها بتقوى خير من نفس أمارة بالسوء، فاتقوا الله، ولا تكونوا أشباهًا للجناة الذين لم يتفقهوا فى الدين ولم يعطوا بالله اليقين، وإن الله أنزل عليكم كتابًا واضحًا ناطقًا محفوظًا قد فصل فيه آياته، وأحكم فيه تبيانه، وبين لكم حلاله وحرامه، وأمركم أن تتبعوا ما فيه، فاتخذوه إمامًا، وليكن لكم قائدًا ودليلاً، فعليكم به، ولا تؤثروا عليه غيره... فإن الله بين لكم ما تأتون وما تتقون، فقال لنبى الرحمة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ وقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أسأل الله أن يجعلنا وإياكم مهتدين غير مرتابين. والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين[(١)].

وقال فى رسالته الثانية التى وجهها إلى رؤساء الدعاة: «أما بعد، عهدنا الله وإياكم بطاعته، وهدانا وإياكم سبيل الراشدين. فقد كنت أعلمت إخوانكم رأيى فى خداش، وأمرتهم أن يبلغوكم قولى فيه، وإنى أشهد الله الذى يحفظ ما تلفظ به العباد، زكى القول وخبيثه، أنى برىء من خداش، وممن كان على رأيه، ودان بدينه، وآمركم ألا تقبلوا من أحد ممن أتاكم عنى قولاً ولا رسالة خالفت فيها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والسلام[(٢)].

ومن خلال الرسائل السابقة تتضح نزعة محمد بن على العباسى السنية وبطلان اتهام الدعوة بالعقائد الفاسدة، والباطنية، وعدم صحة ارتباط الدعوة العباسية بالزنادقة كما زعم بعض المستشرقين من أمثال فلهوزن[(٣)]، فهذا الأمر بعيد كل البعد عن الصحة[(٤)].

(١) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٦٦.
(٢) المصدر نفسه صـ ٦٧.
(٣) فتنة السلطة صـ ١٨٧ ، الدولة العربية صـ ٤٨٧.
(٤) فتنة السلطة صـ ١٨٨.

ثالثًا: إعلان الثورة العباسية:

تعمقت الدعوة العباسية فى نفوس الأتباع، وتطلع الناس لها، وانتشرت فكرتها، وعلقوا الآمال عليها، فهى دعوة آل البيت، وهى التى سوف تخلصهم من الدولة الأموية، وهى -بجانب هذا- ستعيد لهم عزهم وسلطانهم التليد، فتمسكوا بها وناصروها، فاتسعت خلايا الدعوة، وتعمقت جذورها فى السهول والجبال، فعمت المدن والقرى والأقاليم، وفى هذه الفترة الحرجة -فترة عز ونشاط الدعوة السرية- مات صاحب الدعوة ومنظمها محمد بن على بالحميمة فى ذى القعدة سنة ١٢٥هـ وأوصى بتولى أمر الدعوة إلى ابنه إبراهيم الذى تسمى فيما بعد بالإمام[1]، وكان رئيس دعاة الكوفة بكير بن ماهان موجودًا فى هذه الأثناء بالحميمة فحمل هذه الوصية إلى خراسان، وأبلغها إلى النقباء فصدقوه ودفعوا إليه ما اجتمع قبلهم من نفقات شيعته، ورجع إلى الحميمة، حيث طمأن الإمام على سير الدعوة فى خراسان، وأبلغه إخلاص هؤلاء الدعاة لإمامهم الجديد، وسلم إليه ما لديه من الأموال فعاد إلى الكوفة[2]، ومعه بعض الشيعة العباسيين بعد أن تعرفوا على إمامهم الجديد، وقد حثوه على تعجيل الثورة المسلحة قائلين: وحتى تأكل الطير لحوم أهل بيتك وتسفك دماؤكم، وتركنا زيدًا مصلوبًا بالكناسة وابنه «يحيى» مطرودًا فى البلاد، وقد شملكم الخوف، وطالت عليكم مدة أهل بيت السوء[3].

كان إبراهيم بن محمد، أرفع إخوته مكانًا وأعلاهم شأنًا، وكان عظيم القدر عند أهل المدينة ومكة، وكان تقيًا ورعًا[4]، وجوادًا معطاء[5]، وحكيمًا حليمًا، وحازمًا صارمًا، وكان له عناية بالحديث، ومعرفة بالبلاغة، ورواية للشعر[6]، ولما تولى قيادة الدعوة العباسية سعى فى بث الدّعوة ونشرها، وجدّ فى تقويتها وترسيخها، واجتهد فى تنظيمها وإحكامها[7].

ولما مرض بكير بن ماهان أرسل إلى إبراهيم الإمام يستأذنه بتولية زوج ابنته «أبو سلمة الخلال» رئاسة الدعوة بدلاً منه، فكتب إبراهيم إلى أبى سلمة يأمره بالقيام بعمل بكير بن ماهان، كما أرسل إلى خراسان يخبرهم بتولى أبى سلمة أمر الدعوة، فأجابوه بالطاعة

(١) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٨٣.
(٢) المصدر نفسه صـ ٨٣.
(٣) طبيعة الدعوة العباسية صـ ٨٣.
(٤) أنساب الأشراف (٣/ ١٢٥)، الدعوة العباسية صـ ٢٣٦.
(٥) أنساب الأشراف (٣/ ٢٦٠)، الدعوة العباسية صـ ٢٣٦.
(٦) مروج الذهب (٣/ ٢٦٠)، الدعوة العباسية صـ ٢٣٦.
(٧) الدعوة العباسية صـ ٢٣٦.

والتصـديق له، فمات بكير بـعد ذلك بقليل سنة ١٢٧هـ[١]، والحديث عن إعـلان الثورة يسوقنا إلى التعـرف على شخصية مـهمة كانت بجانب إبراهـيم الإمام، والتى قامت بأهم أدوار هذا العمل الحربى بعد ذلك فى تكويـن الدولة العباسية والقضاء على معـارضيها فى أول الأمر، تلك هى شخصية أبى مسلم الخراسانى[٢].

١ - أبو مسلم الخراسانى:

اسمه عـبد الرحمن بن مسلـم، ويقال: عبد الرحمـن بن عثمان بن يسـار الخراسانى، الأمير صاحب الدعوة، وهازم جيوش الدولة الأموية، والـقائم بإنشاء الدولة العباسية، كان من أكبر الملوك فى الإسـلام. كان ذا شأن عجيب ونبأ غـريب من رجل يذهب على حمار بإكاف من الشام حتى يدخل خـراسان، ثم يملك خراسان بعد تسعـة أعوام ويعود بكتائب أمثال الجبال، ويقلب دولة، ويُقيم دولة أخرى[٣]، كان قصيرًا، أسمر جميلاً، حلوًا، نقى البشرة، أحور العين، عريض الجبهـة، حسن اللحية، طويل الشعر، طويل الظهر، خافض الصوت، فصيحًا بالعربية والفارسـية، حلوَ المنطق، وكان راوية للشعر، عارفًا بالأمور، لم يُر ضـاحكًا ولا مازحًـا إلا فى وقـته، وكـان لا يكاد يُقطب فى شىء مـن أحواله، تأتيـه الفتوحات العظام، فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنزل به الفادحة الشديدة، فلا يرى مكتئبًا، وكان إذا غضب لم يستفزه الغضب[٤] قال عنه الذهبى: كان أبو مسلم سفاكًا للدماء، يزيد على الحجاج فى ذلك، وهو أوَّل من سن للدولة لبس السواد[٥].

أ- الوضع العام عند إعلان الثورة:

كانت الظروف مواتية لإعلان الثورة المسلحة فى خراسان:

* فقد قامت حركات تمرد فى أنحاء خراسـان ضد السلطة الأموية، حيث قام بها زعماء القبائل مثل جديع بن على الكرمانى، وهناك ثورة قد اشـتعلت بالكوفة قام بها عبد الله بن معاوية من ولد جعـفر بن أبى طالب، وانضم معه الكثير من الغاضـبين، مما فتّ من عضد الدولة وأريكها، وقد دخل فيها بعض أفراد الأسرة العـباسية ومن بينهم أبو جعفر والسفاح وعمهم عبد الله بن على، وربما قصدوا من ذلك إفشال هذه الثورة، وقد حدث ذلك حيث

(١) تاريخ الطبرى، نقلاً عن العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٨٤.

(٢) العلويون والعباسيون ودعوة أهل البيت صـ ٨٤. (٣)، (٤) سير أعلام النبلاء (٦/٤٨).

(٥) المصدر نفسه (٦/٤٩).

كانت نهايته على أيدى رجال الدعوة العباسية فى خراسان، ولأن خراسان لا تحتمل أكثر من دعوة وهى الدعوة العباسية[١].

* وفى الشام حروب طاحنة بين الأمراء الأمويين على السلطة.

* اشتداد العصبية القبلية فى خراسان والعراق والشام، فقد كانت تتخبط بالانقسامات والفوضى، وحتى الأندلس وصلت العصبية فيها إلى حروب طاحنة بين المضرية واليمنية[٢].

* خروج الضحاك بن قيس الشيبانى فى العراق والجزيرة[٣].

* ثورة الخوارج فى كل مكان فى العراق، أو الحجاز، واليمن[٤].

* عصيان كثير من المدن، فى سوريا وفلسطين والأردن حيث خرجت عن طاعة الخليفة[٥].

على ضوء هذه الأحداث وغيرها جد إبراهيم الإمام بعد ذلك فى نقل الدعوة العباسية السرية إلى طور العمل والنضال الحربى، فعرض القيادة العامة للجيش على «سليمان بن كثير» رئيس دعاة خراسان فرفض ذلك، ثم عرضها بعد ذلك على إبراهيم بن سلمة فرفض هو الآخر هذا الطلب[٦]، وكانا بالحميمة موفدين من قبل الشيعة العباسية لطلب الموافقة من إبراهيم الإمام لإعلان الثورة المسلحة، وأن الدعوة السرية لا تستحق أكثر من هذا[٧].

ب- تعيين أبى مسلم الخراسانى على القيادة العامة:

استقر رأى إبراهيم الإمام على تولية القيادة العامة لأبى مسلم الخراسانى، وكان ذلك عام ١٢٨هـ، ولم يتجاوز عمره - آنذاك - تسع عشرة سنة[٨]، وقد كتب معه كتابًا إلى شيعته فى الكوفة قائلاً: إن هذا أبو مسلم، فاسمعوا له وأطيعوا، وقد وليته على ما غلب عليه من أرض خراسان[٩] أخذ أبو مسلم هذا الكتاب ليعرضه على الدعاة، وكان أول ما عرضه على أبى سلمة الخلال بالكوفة، وهو بطريقه إلى خراسان، ولكنه لم يجد منه

---

(١) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٨٥.
(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس صـ ١٦٠ - ١٧٠.
(٣) تاريخ الطبرى (٨/ ٢٣٣ - ٢٣٦).
(٤) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٨٥.
(٥) تاريخ الطبرى (٨/ ١٩٨).
(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن العلويون والعباسيون صـ ٨٦.
(٧) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٨٦.
(٨)،(٩) الكامل فى التاريخ (٣/ ٤٥٣)، العلويون العباسيون صـ ٨٦.

قبولاً، فقد استصغره وحقره، وتوجه إلى خراسان بعد ذلك حيث عرض هذا الكتاب على كبار الدعاة فيها، فتخوفوا من عواقب ذلك وردوه، لأنه غلام عديم التجربة، فلا يمكن أن يكون لمثل هذه الأمور الخطرة، فأرسل وأرسلوا إلى إبراهيم الإمام بالحميمة حول هذا الموضوع، فأجابهم الإمام إلى وجوب الالتقاء به عند موسم الحج[1]، خرج هؤلاء والتقوا بإبراهيم الإمام فى مكة، فأخبر أبو مسلم أن هؤلاء رفضوا الطاعة والانقياد له. فقال لهم الإمام: لقد عرضت هذا الأمر على غير واحد لكنهم رفضوا ذلك فاستقر رأيى على أبى مسلم لتولى رئاسة الجيش، فأمرهم بالسمع والطاعة له[2].

ج- وصية الإمام إبراهيم لأبى مسلم:

وكتب إبراهيم الإمام وصية لأبى مسلم جاء فيها: يا عبد الرحمن، إنك رجل منا أهل البيت، فاحفظ وصيتى، وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم، وحل بين أظهرهم، فإن الله لا يسمى هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم، وانظر هذا الحى من مضر فإنهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككت فى أمره ومن كان فى أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شىء، وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانًا عربيًا فافعل، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ - يعنى سليمان بن كثير الخزاعى - ولا تعصه، وإن أشكل عليك أمر فاكتف به منى[3]. إن هذه الوصية غير متفق عليها من المؤرخين لذلك لا يمكن قبولها دون تمحيص، فالنقد الخارجى للنص يظهر أنه مذكور دون سلسلة رواة الطبرى، ولا ذكر للنص فى مصادر مهمة أخرى مثل أنساب البلاذرى، وأخبار الدولة العباسية، وليس هناك أهمية كبرى لذكرها فى كتب تاريخية متأخرة لأن هؤلاء المؤرخين المتأخرين أمثال ابن خلدون وابن كثير وابن الأثير نقلوها ممن ذكرها قبلهم، والمهم هنا أن نذكر أن رواية الدينورى[4]، وكتاب العيون والحدائق[5] لا تذكر النص الذى يأمر فيه إبراهيم أبا مسلم بقتل العرب دون تمييز، ولكن الوارد أن الأمر كان بقتل العرب الذين يرفضون الدخول فى الدعوة العباسية أو المشكوك فى ولائهم لها «واقتل من شككت فى أمره»[6]. أو كما يقول العوفى: لقتل كل المدّعين أو المطالبين بالإمامة[7]، ويؤيد ذلك ما ذكره صاحب أخبار العباس على لسان أبى مسلم: أمرنى

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ٢٤٣)، العلويون والعباسيون صـ ٨٧.

(٢) العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت صـ ٨٧.

(٣) تاريخ الطبرى، نقلاً عن العلويون والعباسيون صـ ٨٧.

(٤) الأخبار الطوال صـ ٣٥٢.

(٥) العيون والحدائق صـ ١٨٤.

(٦)، (٧) الثورة العباسية صـ ١٢٤.

الإمام أن أترك فى أهل اليمن وأتألف ربيعة ولا أدع نصيبى من صالحى مضر وأحذر أكثرهم من اتباع بنى أمية وأجمع إلىّ العجم[1]. ويمكن تلخيص النقد الداخلى للوصية بالنقاط التالية:

* الرواية مجزأة فى الطبرى إلى قسمين تذكر بينهما حوادث ذات علاقة بتطور الدعوة ولا علاقة لها بالوصية.

* تأتى الوصية تحت عنوان «سبب قتل مروان بن محمد لإبراهيم الإمام»، مما يدل على أنها -أو بعضها على الأقل- دعاية ضد العباسيين وضعت من جانب أعدائهم.

* يظهر نص الرواية تناقضات كثيرة، فكيف يصح أن يأمر إبراهيم الإمام بقتل كل العرب وهو يدرك أهميتهم ويوصيه فى بداية الرواية بتعهد اليمانيين وإلى درجة ما الربعيين.

* وأخيرًا -لا آخرًا- فإن سياسة أبى مسلم وسليمان الخزاعى فى خراسان لم تسر أبدًا حسب الوصية المزعومة، فإن الدعاة العباسيين تقربوا لليمانية والربعية حتى إن أبا مسلم قبل الكثير من المضريين فى صفوف الدعوة[2].

د- موقف سليمان الخزاعى من أبى مسلم:

وأما موقف سليمان الخزاعى من أبى مسلم فلم يكن وديًا أول الأمر، حيث طرده ولم يقبله بين صفوف الدعاة قائلاً: صلينا بمكروه هذا الأمر، واستشعرنا الخوف، واكتحلنا السهر حتى قطعت فيه الأيدى والأرجل وبريت فيه الألسن جزًا بالسعار، وسملت الأعين، وابتلينا بأنواع العذاب، وكان الضرب والحبس فى السجون من أيسر ما نالنا، فلما تنسمنا روح الحياة وانفسحت وأينعت ثمار غراسنا طرأ علينا هذا المجهول الذى لا ندرى أية بيضة تقلعت عن رأسه، ولا من أى عش درج. والله لقد عرفت الدعوة من قبل أن يخلق هذا فى بطن أمه[3]. ولكن نفور بعض الدعاة -أمثال أبى منصور طلحة بن رزيق وأبى داود خالد بن إبراهيم وغيره- من كبرياء سليمان هو الذى دعاهم إلى قبول الشخص الغريب أبى مسلم، فاضطر سليمان إلى الاعتراف بأبى مسلم خوفًا من تشقق الثورة وتصدعها[4]. ولعل رفض سليمان الخزاعى لأبى مسلم الخراسانى يعود أيضًا إلى حداثة سنه وقلة تجربته التى قد تعرّض الدعوة للخطر، هذا بالإضافة إلى أن سليمان طلب من إبراهيم الإمام ممثلاً له من أهل البيت[5] أى من الهاشميين خاصة العباسيين، ولم يكن يتخيل أنه سيرسل

(١) الثورة العباسية صـ ١٢٢.

(٢)، (٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه صـ ١٢٤.

مولى له يمثله فى خراسان[(١)]، وكان موقف أبى مسلم مرنًا ويدل على ذكاء، حيث تقرب من سليمان وأعلمه بأن الإمام أوصاه بألا يعصى له -أى لسليمان- أمرًا ويقدمه فى جميع ما يدبرون، وترجّاه كذلك ألاّ يشك فيه: «أحسن بى الظن فإنى أطوع لك من يمينك»[(٢)].

ولم يكن شيعة العباسيين فى قرى خراسان ومدنها يطيعون إلا سليمان الخزاعى، صاحبهم والمنظور إليه منهم، ولذلك كتب إليهم سليمان يخبرهم بأمر إبراهيم وإرساله أبا مسلم إلى خراسان[(٣)].

هـ- مجلس النقباء فى خراسان يرتب أمور الحرب:

عقد مجلس النقباء اجتماعًا لينظر فى أمر المكان الملائم لإعلان الثورة فيه، فكان هناك رأى بضرورة إعلانها بخوارزم: «فإنها بلاد منقطعة عن نصر بن سيار فإلى أن يرسل عسكره يكون قد تسامع بنا إخواننا فيأتونا ويكثر جمعنا فنقوى على من يأتينا» إلا أن عددًا من النقباء عارضوا ذلك وأكدوا على مرو الروذ لأنها: «متوسطة بين مرو وبلخ». ثم اقترح عدد آخر مرو الشاهجان؛ «لأن بها خلقًا كثيرًا من إخواننا وبها السلطان قد وهن أمره ومتى يقو بها أمرنا يقو فى غيرها». وأيد ذلك سليمان الخزاعى قائلاً: إن قوتنا بها أعظم وعددنا أكبر. ووافقه أبو منصور كامل بن المظفر حيث قال: إذا اجتث الأصل فلا بقاء للفرع، إذا ظهرتم بغير مرو تفرغ لكم سلطانكم وساعده عدده عليكم. وهكذا اتفق أمرهم على أن مرو الشاهجان أصلح مكان لإعلان الثورة، وأرسل الدعاة ليخبروا الشيعة بالالتقاء والتجمع فى مرو فى الوقت المحدد، وكان فى يوم عيد الفطر سنة ١٢٩هـ[(٤)] وكان نصر بن سيار منشغلاً بالاستعداد لجديع الكرمانى، فلما سمع بنبأ تجمع الشيعة فى مرو وضواحيها قرر أن يكمن لهم ويلتقطهم جماعة جماعة ويقضى عليهم، ولما علم سليمان الخزاعى وأبو منصور كامل بن المظفر بذلك أشارا على أبى مسلم بضرورة التجمع وإعلان الظهور قبل الموعد المحدد وإلا تشتت الشيعة وفشلت الحركة. فأعلنها أبو مسلم، ولمّا يبق فى رمضان إلا خمسة أيام، وعسكر فى حصين تابع لسليمان الخزاعى حيث أصبح نقطة تجمع أنصار الدعوة لآل البيت[(٥)]. وحين فشا خبر أبى مسلم أقبلت الشيعة من كل جانب إلى مرو فأتاهم عيسى بن شبل وأبو الوضاح وأبو مرة فى نحو من ألف رجل، «وقد كثر جمعهم وسودوا ثيابهم ونصبوا أعلامهم ونشروا راياتهم فصلى بهم سليمان بن كثير الخزاعى يوم

---

(١)، (٢)، (٣) الثورة العباسية ص ١٢٥.

(٤) تاريخ الطبرى (٨/ ٢٤٥) ، الثورة العباسية ص ١٢٥. (٥) الثورة العباسية ص ١٢٥.

العيد وهى أول جماعة كانت لأهل الدعوة»[1]. وقد قام النقباء بترتيب نوع من التنظيم السياسى للحركة حيث كُلف أبو صالح كامل بن المظفر بتدبير الأمور وكتابة الكتب وبجمع الأموال والغنائم وتقسيمها وإعطاء الجند، وهو صاحب السر كذلك، وعين مالك بن الهيثم: «يقوم بأمر العسكر. . . ويحكم بين أهله وينقى أهل الريب منه» فقبلوا ذلك منه واتفقوا عليه. ثم عين حرسًا خاصًا لأبى مسلم من عدة رجال ينتخبون أبا مسلم ويكونون رسلاً يرسلون لتدبير بعض الأمور، وكان يؤم الناس فى الصلوات سليمان بن كثير الخزاعى[2]. وفى ليلة الخميس لخمس بقين من شهر رمضان عقد أبو مسلم راية النصر التى بعثها إليه إبراهيم الإمام وهى اللواء - يدعى الظل - على رمح طوله أربع عشرة ذراعًا. والراية - تدعى السحاب - على رمح طوله ثلاث عشرة ذراعًا وهما سوداوان وهو يتلو[3] ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] ولبس السواد هو وسليمان بن كثير وإخوة سليمان وحميد بن رزين وأخوه عثمان بن رزين، أوقدوا النيران ليلتهم أجمع للشيعة من سكان حزفان: . . وتأويل اسمى الظل والسحاب، أن السحاب يطبق الأرض، وكذلك دعوة بنى العباس، وتأويل الظل أن الأرض لا تخلو من الظل أبدًا، وكذلك لا تخلو من خليفة عباسى أبد الدهر[4]. كانت دعوة شيعة بنى العباس فى خراسان قوية، فقد ظهر أمرهم وكثر من يأتيهم، وجعلت الدّعاية العباسية وحملتهم الإعلامية تستهدف أفعال بنى أمية وما نالوا من أمر رسول الله، حتى لم يبق بلد إلا فشا فيه هذا الخبر وظهر الدعاة ورئيت المنامات وتُدورست كتب الملاحم[5]، وكان اختيار اللون الأسود هو الخطوة الأولى، ثم كانت الخطوة الثانية هى إرسال الرايات إلى خراسان، فكان أن بعث بأبى سلمة إليها بعد أن دفع له ثلاث رايات سود، وأمره أن يدفع واحدة إلى من بمرو من الشيعة، ويدفع واحدة إلى من بجرجان من الشيعة، ويبعث بواحدة إلى ما وراء النهر، فشخص أبو سلمة إلى خراسان، فكان أول من قدمها بالرايات السود[6]. وكان وصول الرايات مترافقًا مع حال الفوضى المستشرية فى خراسان، وقد أفاد من ذلك أبو سلمة وسليمان بن كثير، وكانت الفتنة التى نشبت بين نصر وعلى الكرماني ثم ابنه جديع الكرمانى تتأجج بفعل تأثير السياسات المركزية[7]، ثم فتحت جبهة جديدة لوالى الأمويين

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ٢٤٧).
(٢) الثورة العباسية صـ ١٣١.
(٣) تاريخ الطبرى (٨/ ٢٤٦). .
(٤) المصدر نفسه (٨/ ٢٤٧) .
(٥) السلطة والمعارضة فى الإسلام صـ ٥٢٣ .
(٦) أخبار الدولة العباسية صـ ٢٤٥.
(٧) السلطة والمعارضة فى الإسلام صـ ٥٢٣.

بخراسان بقيادة شيبان الحرورى، فكانت الفرصة مواتية لأبى مسلم أكثر، فدخل هذا المعترك بعد أن ضعفت قوة نصر بن سيار وانضمت إلى أبى مسلم كل الفئات الغاضبة فى خراسان[1].

٢- جهود نصر بن سيار للقضاء على الدعوة العباسية:

فى عام ١٢٩هـ كانت أول صلاة عيد علانية للعباسيين، وقد أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلى بالناس، ونصب له منبرًا، وأن يخالف فى ذلك بنى أمية ويعمل بالسنة، فنودى للصلاة: الصلاة جامعة، ولم يؤذن ولم يقم، خلافًا لهم، وبدأ بالصلاة قبل الخطبة وكبّر سبعًا فى الأولى قبل القراءة لا أربعًا، وخمسًا فى الثانية لا ثلاثًا خلافًا لهم. وابتدأ الخطبة بالذكر والتكبير وختمها بالقراءة، وانصرف الناس من صلاة العيد وقد أعّد لهم أبو مسلم طعامًا، فوضعه بين أيدى الناس، وكتب إلى نصر بن سيّار كتابًا بدأ فيه بنفسه، ثم قال: إلى نصر بن سيّار، بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد، فإنَّ الله تباركت أسماؤه عيَّر أقوامًا فى كتابه فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣]. فعظم عليه أن قدم اسمه على اسمه، وأطال الفكرة، وقال: هذا كتاب له جواب[2]، ثم بعث نصر بن سيار خيلاً عظيمة لمحاربة أبى مسلم وذلك بعد ظهوره بثمانية عشر شهرًا، فأرسل أبو مسلم إليهم مالك بن الهيثم الخزاعى، فالتقوا هنالك فدعاهم مالك إلى الرّضا من آل رسول الله ﷺ، فأبوا ذلك فتصافُّوا من أول النهار إلى العصر، ثم جاءه مدد فقوى مالك عليهم، واستظهر وظفر بهم، وكان هذا أول موقف اقتتل فيه دعاة بنى العباس وجند بنى أمية[3].. ولما استفحل أمر أبى مسلم بخراسان تعاقدت طوائف من أحياء العرب الذين بها على حربه ومقاتلته، ولم يكره الكرمانى وشيبان، لأنهما خرجا على نصر، وهذا مخالف له، وهو مع ذلك يدعو إلى خلع مروان ابن محمد، وقد طلب نصر من شيبان أن يكون معه على حرب أبى مسلم أو يكف عنه حتى يتفرغ لحربه، فإذا قتله وتفرغ منه عادا إلى عداوتهما، فبلغ ذلك أبا مسلم فبعث إلى ابن الكرمانى يعلمه بذلك، فثنى الكرمانى شيبان عن ذلك الرأى، وبعث أبو مسلم إلى

(١) العلويون والعباسيون ص ٨٨.
(٢) البداية والنهاية (١٣/٢٢٦).
(٣) المصدر نفسه (١٣/٢٢٧).

هَرَاة النضر بن نُعيم، فافتتحها وطرد منها عاملها عيسى بن عقيل الليثى، واستحوذ على البلد وكتب إلى أبى مسلم بذلك، وجاء عاملها إلى نصر هاربًا. . ثم إن شيبان وادع نصرَ بن سيار سنة على ترك الحرب بينه وبينه وذلك عن كره من ابن الكرمانى فبعث ابن الكرمانى إلى أبى مسلم: إنى معك على قتال نصر. وركب أبو مسلم إلى خدمة ابن الكرمانى[1] فنزل عنده واجتمعا، فاتفقا على حربه ومخالفته، وتحول أبو مسلم إلى موضع فسيح وكثر جنده وعظم جيشه، واستعمل على الشرط والحرس والرّسائل والديوان وغير ذلك مما يحتاج الملك إليه، وجعل القاسم بن مُجاشع التَّميمىّ - وكان أحد النقباء - على القضاء، وكان يُصلى بأبى مسلم الصَّلوات، ويقص بعد العصر، فيذكر محاسن بنى هاشم ويذُمُّ بنى أمية. ثم تحول أبو مسلم فنزل بقرية يقال لها آلين[2] وكان فى مكان منخفض، فخشى أن يقطع عنه نصر بن سيار الماء، وذلك فى سادس ذى الحجّة من هذه السنة، وصلّى بهم يوم النَّحر القاضى ابن مجاشع، وصار نصر بن سيار فى جحافل قاصداً قتال أبى مسلم، واستخلف على البلاد تّوابًا[3].

أ- طلب نصر بن سيار المدد من مروان بن محمد:

نشبت الحرب بين نصر بن سيار وجديع بن على الكرمانى، فقتل بينهما من الفريقين خلق كثير، وجعل أبو مسلم يُكاتب كُلاً من الطائفتين ويستميلهم إليه، يكتب إلى نصر وإلى الكرمانى: إنّ الإمام قد أوصانى بكم خيراً، ولست أعدو رأيه فيكم. وكتب إلى الكور يدعو إلى بنى العباس، فاستجاب له خلق كثير وجمٌّ غفير، وأقبل أبو مسلم، فنزل بين خندق نصر بن سيار وخندق جديع الكرمانى، فهابه الفريقان جميعًا، وكتب نصرُ بن سيار إلى الخليفة مروان بن محمد -الملقب بالحمار- يعلمه بأمر أبى مسلم، وكثرة من معه، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد وكتب فى كتابه:

أرى بين الرّماد وميض جمرٍ ... فأحْرِ بأن يكون له ضرام

فإن النار بالعودين تُذْكى ... وإن الحرب مبْدؤها الكلام

فقلت من التعجب: ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام؟!

فكتب إليه مروان: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فقال نصر: إن صاحبكم قد أعلمكم أن لا نصرة عنده[4]. وبعضهم يرويها بلفظ آخر:

---

(١) الخدمة : حلقة القوم وجماعتهم.

(٢) آلين : من قرى مرو على أسفل نهر خارقان. معجم البلدان (١/ ٦٦).

(٣) البداية والنهاية (١٣/ ٢٢٩).

(٤) المصدر نفسه (١٣/ ٢٣٠).

أرى خَلَلَ الرمـاد وَميضَ نار ... فيوشك أن يكون لها ضِرام
فـإن النارَ بالزندين يورَى[1] ... وإن الحرب أولها الكلام
لئن لم يُطفِها عقلاء قوم ... يكون وَقودَها جثث وهام
أقول من التعجُّب: ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام؟!
فإن كانوا لحينهم نيامًا ... فقل: قوموا فقد حان القيام

وكتب إليه:

أبلغ يزيد وخير القول أصدَقُهُ ... وقد تبينت ألا خير فى الكذب
بأن خراسانَ أرض قد رأيت بها ... بَيضًا لو افْرَخَ قد حدَّثتَ بالعجب
فِراخ عامين إلا أنها كبرت ... لَمَّا يطرن وقد سُرْبِلْنَ بالزَّغَبِ
فإن يطرن ولم يُحْتَلْ لهنّ بهَا ... يُلهبن نيرانَ حرب أيَّما لَهَب[2]

فبعث ابن هبيرة بكتاب نصر إلى مروان[3].

ب- دعاية نصر بن سيار ضد دعوة أبى مسلم الخراسانى:

شنّ نصر بن سيار حملة دعاية قوية ضد شيعة بنى العباس، ووصفهم بأنهم أخلاط من الناس لا أصول لهم، ولا ذمم عندهم، فهم غرباء مجهولون ودُخلاء مغمورون، لا ينتمون إلى العرب المذكورين، ولا إلى الموالى المعروفين، واتهمهم بأنهم ليسوا من المسلمين ولا من الكتابيين؛ فهم يعتنقون نحلة مخالفة لكل الأديان، وزعم أنهم يبتغون إبادة العرب واستعبادهم، ويرومون سبى نسائهم وهتك أعراضهم وانتهاك حرماتهم[4] حيث قال:

أبلغ ربيعة فى مرو وإخوتهم ... فليغضبوا قبل ألاّ ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القومَ قد نصبوا ... حربا يُحَرق فى حافاتها الحطب
ما بالكم تَلْحِقون الحرب بينكم ... كأن أهل الحِجاَ عن فِعلكم غُيَّب[5]

---

(١) الزندان: هما خشبتان يُستقدح بهما، فالسفلى زندة والأعلى زند.

(٢)، (٣) البداية والنهاية (١٣/ ٢٣١).

(٤) الدعوة العباسية ص ٢٠٨.

(٥) الحجا: العقل والفطنة.

وتتركون عدوًا قد أحاط بكم — فيمن تأشّب[1] لا دين ولا حسب
لا عرب مثلكم فى الناس تعرفهم — ولا صريح موالٍ إن هم نُسِبُوا
من كان يسألنى عن أصل دينهم — فإن دينهم أن تهلك العرب
قوم يدينون دينًا ما سمعت به — عن النبى ولا جاءت به الكتب
ويقسم الخُمس من أموالكم أسَرًا — من العلوج ولا يبقى لكم نَشَبُ[2]
ونكحوا فيكم قسْرًا بناتكم — لو كان قومى أحرارًا لقد غضبوا
ذروا التفرق والأحقاد واجتمعوا — لِيُوصل الحبل والأصهار والنَّسَبُ[3]
إن تُبعدوا الأزد منّا لا نُقربها — أو تدن نحمدهم يومًا إذا اقتربوا
أتخذلُون إذا احتجنا وننصُرُهم — لبئس والله ما ظنُّوا وما حسبوا[4]

ولكن الرَّبعية لم يعبأوا بنداءِ نصر فى أول الأمر ولم يبالوا بدعوته، ولم يكترثوا لتحذيره، بل مضوا يتشبثون بمخالفتهم اليمانية، واستمروا يساندون ابن الكرمانى ويعينونه، ويقاتلون المضريَّة معه، فعاد نصر إلى رمى أبى مسلم وشيعة بنى العباس بالكفر، وألحّ على القدح فى عقيدته، وألحّ فى التشهير بغاياتهم، يريد أن يُبغضهم إلى الناس ويُكرههم إليهم ويحملهم إلى الطعن فيهم، ويدفعهم إلى مكافحتهم، ويحمسهم على محاربتهم، فجعل يقذفهم بأنهم وثنيُّون مشركون، وأنهم يؤمنون بالمانويّة والمجوسيَّة وغيرهما من الملل الفارسية القديمة، وراح يشيع فى أصحابه أنهم يقصدون إلى نسف قواعد الإسلام، وهدم دعائمه وتحطيم أركانه، وطمس معالمه واستئصال آثاره، وأنهم يستهدفون تقويض سلطان العرب وتمزيق قبائلهم، وقتل رجالهم واسترقاق أبنائهم وأسر بناتهم، ولم يزل يذيع ذلك فيهم ويزينه لهم[5]. وقد تأثر الناس بدعاية نصر بن سيار. وبعث نصر إلى القراء والفقهاء والأتقياء الذين اعتزلوا الحرب، فجمعهم وقال لهم: إنكم كرهتم مشاهدتنا فى حربنا هذه، وزعمتم أنها فتنة القاتل والمقتول فيها فى النار، فلم نردد عليكم رأيكم فى ذلك، وهذا

(١) تأشب : أى اجتمع إليه والتفّ عليه من أخلاط الناس.
(٢) العلوج : جمع عِلْج؛ وهو الرجل من كفار العجم، والأنثى: علجة.
(٣) أخبار الدولة العباسية ص ٣١٣، الدعوة العباسية ص ٢٨٠ ، ٢٨١.
(٤) الأخبار الطوال ص ٣٣٢ ، الدعوة العباسية ص ٢٨١.
(٥) الدعوة العباسية ص ٢٨١ ، أخبار الدولة العباسية ص ٢٨٢.

حدث قد ظهر بحضرتكم. هذه المُسوَّدَة، وهى تدعو إلى غير ملتنا، وقد أظهروا غير سُنَّتنا، وليسوا من أهل قبلتنا، يعبدون السَّنانير، ويعبدون الرءوس، علوج وأغتام[1]، وعبيد سُقّاط العرب والموالى، فهلُمُّوا فلنعاون على إطفاء نائرتهم[2]، وقمع ضلالتهم، ولكم أن نعمل بما فى كتاب الله وسنة نبيه وسنة العمرين بعده، فأجابوه إلى مظاهرته على حرب أبى مسلم والجِد معه فى ذلك[3].

جـ- الدعاية المضادة للأمويين:

لقد أقلقت هذه الدعاية الأموية الشيعة العباسية حيث إنهم خشوا تأثر العلماء والأتقياء وكذلك العامة من الناس بها، ولذلك قاموا بدعاية مضادة للأمويين حيث عقد اجتماع عام بايع فيه المجتمعون لسليمان الخزاعى، واتفقوا على أن يعلنوا مبادئهم وهى العمل بالكتاب والسنة وتحقيق العدل ورفع الظلم، والمساواة بين المسلمين وإنصاف المستضعفين، والبيعة للرضا من آل محمد، ثم أعلنوا مبادئهم فى معسكرهم وأخذوا البيعة عليها من شيعتهم. فنفوا أراجيف نصر عن دعوتهم، ونجوا من تدبيره بالإيقاع بهم، وأزالوا الشبهات عن أنفسهم... وأخذ الناس يقبلون عليهم وينضمون إليهم[4] كما أن أبا مسلم اتبع أسلوبًا آخر ليقابل به دعاية الأمويين، فقد كان يحرر الأسرى من الجيش الأموى بعد أن يريهم مدى تقوى الشيعة العباسية وتمسكهم بالإسلام، وبعد أن يعاملهم معاملة حسنة، وذلك من أجل أن يذهبوا إلى معسكر نصر فيرووا ما شاهدوا. وهذا ما فعله مع يزيد مولى نصر الذى أسر فى معركة مع العباسيين بقيادة مالك الخزاعى ثم أطلق سراحه فعاد وامتدح سيرة أبى مسلم وأتباعه وصدق إسلامهم[5].

د- أسر إبراهيم الإمام صاحب الدعوة العباسية وقتله:

استطاع الأمويون أن يلقوا القبض على إبراهيم الإمام، وتعددت أسباب القبض عليه، ومن هذه الأسباب قيل: إن إبراهيم الإمام شهد الموسم عام ١٣١هـ واشتهر أمره هنالك، لأنّه وقف فى أبهة عظيمة، ونجائب كثيرة، وخُرْمة وافرة، فأنهىَ أمره إلى مروان، وقيل له: إن أبا مسلم يدعو الناس إلى هذا ويُسمُّونه الخليفة. فبعث إليه فى المحرم من سنة ثنتين

(١) الأغتام: جمع أغتم، وهو الذى لا يفصح، أى العجمى.

(٢) النائرة: الفتنة والشر والشحناء والعداوة.

(٣) أخبار الدولة العباسية ص ٢٩٠، الدعوة العباسية ص ٢٨٢.

(٤) الدعوة العباسية ص ٣٨٣. (٥) الثورة العباسية ص ١٣٣.

وثلاثين وقتله فى صفر من هذه السنة[1]، وقيل: ألقى القبض عليه عام ١٢٩هـ بعدما اطلع على كتاب من إبراهيم الإمام إلى أبى مسلم الخُراسانى يأمره فيه بألا يُبقى أحدًا بأرض خراسان ممّن يتكلم بالعربية إلا أباده، فلمّا وقف مروان على ذلك سأل عن إبراهيم، فقيل له: هو بالبلقاء. فكتب إلى نائب دمشق أن يحضره، وبعث رسولاً فى ذلك ومعه صفته ونعته، فذهب الرسول، فوجد أخاه أبا العباس السفَّاحَ فاعتقد أنه هو، فأخذه، فقيل له: إنه ليس هو وإنما هو أخوه، فُدلَّ على إبراهيم، فأخذه وذهب معه بأم ولد له يُحبُّها، وأوصى إلى أهله أن يكون الخليفة من بعده أخاه أبا العباس السَّفاحُ وأمرهم بالمسير إلى الكوفة، فارتحلوا من فورهم إليها وكانوا جماعة، منهم أعمامه السِّتةُ، وهم عبد الله، وداود، وعيسى، وصالح، وإسماعيل، وعبد الصمد بنو علىٍّ، وأخواه أبو العباس عبد الله، ويحيى ابنا محمد بن على ومحمد وعبد الوهاب ابنا إبراهيم الإمام المسوك، وخلق سواهم، فلما دخلوا الكوفة أنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم فى بنى أوْدٍ وكتم أمرهم نحوا من أربعين ليلة من القواد والأمراء، ثم ارتحل بهم بعد ذلك إلى موضع آخر، حتى فتحت البلاد ثم بويع للسَّفاح[2]. كانت الدعوة العباسية قد ترسخت جذورها فى الأرض، وبات القضاء عليها فى منتهى الصعوبة، فلم يغير إلقاء القبض على إبراهيم بن محمد الإمام من الواقع شيئًا أو يُحدث خللاً فى مسار الدعوة، إذ جاء الأمر متأخرًا[3]، وقد كان إبراهيم هذا كريمًا مُمدَّحًا، له فضائل وفواضل، رَوَى الحديث عن أبيه وجده وأبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية، وعنه أخواه عبد الله أبو العباس وأبو هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية، وعنه أخواه عبد الله أبو العباس السَّفاح، وأبو جعفر المنصور، وأبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراسانى، ومالك بن الهيثم، ومن كلامه الحسن قوله: الكامل المروءة من أحرز دِينه، ووصل رحمه، واجتنب ما يُلام عليه[4]، وقد رثاه أحد الشعراء فقال:

قد كنت أحسبنى جلدًا فضعضعنى ... قبر بحرانَ فيه عصمةُ الدين

فيه الإمام وخير الناس كلهم ... بين الصفائح والأحجار والطين

فيه الإمام الذى عمت مصيبته ... وعَيَّلت كلَّ ذى مال ومسكين

فلا عفا الله عن مروان مظلمة ... لكن عفا الله عمّا قال: آمين

(١) البداية والنهاية (١٣/٢٤٨) .
(٢) المصدر نفسه (١٣/٢٤٧) .
(٣) تاريخ بلاد الشام، بيضون ص ٢٢٩ .
(٤) البداية والنهاية (١٣/٢٤٨).
(٥) تاريخ الطبرى (٨/٣٣٩).

٣- سيطرة أبي مسلم على خراسان:

سعى نصر بن سيار للوصول إلى هدنة مع ابن الكرماني وشيبان الصغير للقضاء على أبي مسلم، واستطاع الأخير أن يفسد تلك المساعي بدسائسه ومكره وخداعه، فقد أسرع أبو مسلم فاعترف بابن الكرماني أميراً على خراسان، وبدأ هو وأصحابه يصلي وراءه، وهكذا نجح أبو مسلم في إشباع رغبة ابن الكرماني المتعطشة للسلطة والإمارة، فلم يكن الوقت وقت منافسة على السلطة، بل كان الهدف هو ضمان كسب أتباع ابن الكرماني إلى جانب الثورة العباسية، وقد كانت هذه خطوة بارعة لضمان وحدة الجند الخراسانية في كتلة واحدة، ولما يئس نصر من أية مساعدة من العراق كتب إلى مروان رسائل لحثه على إمداده، ولكن دون جدوى، ولانشغال مروان بالحروب الداخلية في بلاد الشام والعراق والحجاز وبعد أن فشل نصر في محاولته الأولى لكسب ابن الكرماني، وفي محاولته الثانية لكسب شيبان الصغير حاول هذه المرة أن يتقرب نحو أبي مسلم في نفس الوقت الذي ينتظر فيه الإمدادات من الخليفة، لقد أمل نصر أن يفرق بين أبي مسلم وابن الكرماني فدبر أمر اجتماع حضرته وفود نصر المضرية ووفود ابن الكرماني ومندوبون عن أبي مسلم الذين امتدحوا وفد ابن الكرماني، وفضلوه على وفد نصر، حيث قرر سليمان الخزاعي وطلحة الخزاعي ومزيد السلمي التحالف مع ابن الكرماني ضد نصر، وبذلك كسبت الدعوة العباسية مصدر القوة في خراسان إلى جانبها ألا وهي القبائل العربية من أتباع ابن الكرماني(١).

أ- خطة أبي مسلم للاستيلاء على العاصمة مرو:

كانت خطة أبي مسلم وابن الكرماني الآتية هي الاستيلاء على العاصمة مرو. وتختلف الروايات التاريخية في كيفية فتح مرو، ولكن الظاهر أن أبا مسلم كان حذراً ومرناً في موقفه تجاه كتلة نصر وكتلة ابن الكرماني، فرغم اعترافه بابن الكرماني والياً على خراسان، فإنه كان يأمل أن يكسب نصراً وأتباعه إليه بطريقة أو بأخرى، فضمن الحماية لوفد نصر الذي حضر الاجتماع الآنف الذكر، كما سمح نصر للشيعة العباسية بالتسوق من أسواق مرو دون مهاجمتهم، ولكن حدث أن قام نزاع بين بكر بن وائل من ربيعة وبعض المضريين في سوق مرو، فساعد نصر المضرية بينما أنجد ابن الكرماني الربيعية ودعا ابن الكرماني أبا مسلم إلى مساعدته والانضمام إليه، إلا أن أبا مسلم تشاغل حتى تأكد من احتدام الصراع العنيف فتدخل إلى جانب ابن الكرماني، حيث دخلت قواتهما مرو سنة ١٣٠هـ وعلى المقدمة أسيد

(١) الثورة العباسية ص ١٣٤ - ١٣٦.

الخزاعي، وعلى الميمنة مالك الخزاعي، وعلى الميسرة القاسم التميمي وهو يتلو: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]. وأمر بالكف عن القتال[١]، وأرسل أبو مسلم وفداً إلى نصر يعده الأمان إذا سلم نفسه، ولكن نصراً شاغل الوفد وهرب إلى نيسابور. ويروى أن لاهز بن قريض حذر نصر من الاستسلام بتلاوة الآية: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] وقد قتل لاهز جزاء عمله[٢] وبدا الآن الوجه الحقيقي للدعوة بالظهور بصورة تدريجية ألا وهو الوجه العباسي، فحين جُمع الأنصار لتقديم الولاء أكد أبو مسلم على «الشيعة الهاشمية» مما يشير إلى أن هؤلاء الذين كانوا جند العقيدة العباسية المخلصين هم عماد الثورة وليس الجماعات الأخرى التي استغلت من قبل الثورة، وقد أصبحت مرو الشاهجان العاصمة وقراها ثم مرو الروذ وهيرات وابيورد تحت نفوذ الشيعة العباسية[٣].

ب- مقاومة بلخ للقوات العباسية التي وجدت صعوبة في احتلالها، وذلك لأسباب ثلاثة:

* أن المقاتلة العرب في بلخ كانوا متحدين لم تتنازعهم العصبية القبلية، ولذلك فإن أسد بن عبد الله القسري وطنّهم فيها ككتلة واحدة دون الأخذ بخطة الأخماس التي كانت مستعملة في البصرة، ولذلك كان العرب في بلخ موالين للأمير ومخلصين للأمويين.

* أن الجند السوري في بلخ وعدده ٢٥٠٠ كان مواليًا لنصر بن سيار.

* أن السكان الإيرانيين، المحليين في طخارستان وأقاليم أخرى في بلاد ما وراء النهر، أظهروا مساعدتهم للوالي الأموي، وعلى حدّ قول الطبري، فقد اتفقت مضر واليمن وربيعة والعجم في بلخ على قتال المسودة[٤].

إن مقاومة بلخ للدعوة العباسية ظاهرة مهمة، وذلك لأنها ربما كانت من أول الأحداث السياسية التي تميط اللثام عن بعض أساليب الدعوة العباسية، فنحن نلاحظ أولاً أن الدعوة استغلت العصبية القبلية فنجحت حيث وجدت العصبية، وفشلت في بلخ حيث كان العرب متحدين على اختلاف قبائلهم ومخلصين لواليهم الأموي، ثم إن هذه الحادثة تظهر -ثانيًا- أن الدعوة العباسية لم تكن فارسية موجهة ضد العرب، ذلك لأن السكان المحليين

---

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٢٧٢).
(٢) المصدر نفسه (٨/ ٢٧٩).
(٣) الثورة العباسية صـ ١٣٧.
(٤) تاريخ الطبري، نقلاً عن الثورة العباسية صـ ١٣٧.

الإيرانيين وأمراءهم فى بلخ وقفوا إلى جانب الأمويين ضد العباسيين. وقد قاتل الموالى مع العرب جنبًا إلى جنب لاسترداد بلخ من المسودة، كما أنها تكشف - ثالثًا - خطأ ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أنه كان هنالك فى إيران تذمر عميق ضد الحكم العربى الإسلامى الذى لم يعط الموالى حقهم. فلو كان الأمر كذلك لهبت خراسان وبلاد ما وراء النهر عن بكرة أبيها لتدعم حركة المسودة[1].

رابعًا: تعيين قحطبة الطائى قائدًا لجيش خراسان المتقدم نحو العراق:

صدرت أوامر إبراهيم الإمام قبل سجنه بتعيين قحطبة بن شبيب الطائى قائدًا عامًا للجيش الخراسانى المتقدم نحو العراق وبلاد الشام[2]، وكان ذلك بعد استقرار الأمور فى خراسان لصالح العباسيين، وكانت قيادة الدعوة تهدف من وراء هذا التعيين إلى أمور جد خطيرة، منها ألا يتجاوز أبو مسلم خراسان مهما كانت الأحوال، ومنها أن من المناسب أن يكون القائد العام لدخول العراق من أصول عربية، ونلاحظ بعد تولى أبى العباس الخلافة أنه سارع إلى انتزاع القيادة من العسكريين المظفرين إلى أبناء البيت العباسى من الإخوة والأعمام[3].

وبعد خروج نصر بن سيار من مرو أخذ يتنقل بين المدن يتخذها مقرًا له من سرخس، إلى قومس، إلى خوار الرى، وينتهز الفرصة للانقضاض على أبى مسلم فى مرو، ولما لم يتمكن من استرداد مرو كتب إلى ابن هبيرة مستنجدًا فلم يجبه، ثم كتب إلى الخليفة مروان ابن محمد، الذى كتب -بدوره- إلى ابن هبيرة، فأمده بثلاثة آلاف فارس، عليهم القائد ابن غطيف اليمانى، فأخذ هذا القائد يتباطأ فى سيره ويطيل فى الطريق[4]. وفى هذه الأثناء كان قحطبة بن شبيب الطائى يلحق الهزيمة تلو الأخرى بجيش ابن هبيرة، وكانت آخر معركة لنصر بن سيار فى خوار الرى حيث اقتتل مع جيش الحسن بن قحطبة، وكاد يقتل لولا أن بعض جند العرب فى جيش الحسن انضموا إلى صفوف نصر بن سيار، فهُزم جيش الحسن[5]، ولما لم يصل مدد ابن هبيرة ركب نصر بن سيار جواده وسلك المفازة بين الرى وهمذان فمات فى جبالها، فى شهر المحرم سنة ١٣١هـ.

١- تصفيات فى خراسان: وبعد موت نصر بن سيار زعيم المضرية قضى أبو مسلم على على بن جديع الكرمانى زعيم اليمانية، الذى كان له دور كبير فى انتصار الثورة، ودخل

(١) الثورة العباسية ص ١٣٨.
(٢) تاريخ الطبرى، نقلاً عن الثورة العباسية ص ١٤٤.
(٣) العالم الإسلامى فى العصر العباسى ص ٤٩.
(٤) الكامل فى التاريخ (٣/٤٧٩)، الجيش فى العصر العباسى الأول ص ٥٠.
(٥) الكامل فى التاريخ (٣/٤٧٩).

مرو فاتحًا ثم قـدمها لأبى مسلم، وقد قتل أبو مسلـم علىَّ بن جديع وأتباعه[1]، كما قتل النقيب لاهز بن قـريض التميمى بتـهمة السمـاح لنصر بن سيار بالخـروج من دار الإمارة، ولأنه كان يعارض تأمير أبى مسلم على الثورة، يوم مؤتمر مكة[2]، كما قتل أبو مسلم عبد الله بن معاوية الطالبى، الذى احـتمى بجيش أبى مسلم بعد أن هرب أمـام الجيش الأموى من أصبهان إلى خراسان، إما لأنه صـاحب ثورة يخشى جانبه، وإما لأنه من أصحاب أبى جعفـر خصم أبى مسلم[3]، ثم بدأ أبو مسلم بمحاربة شيـبان الحرورى الذى رفض المبايعة للإمام العباسى، فاستطاع أن يدحره ويشتت شمله[4].

٢- الاتصـالات المستـمرة بين المراكـز الثلاثة للثـورة: ولما سُجن إبراهيم الإمـام فى حران استمرت الاتصالات بين المراكز الثلاثة للثورة فى الحميـمة والكوفة وخراسان. ففى الحميمة كان أبو جعفر وأخوه عبد الله بن الحارثية وجماعة من أولاد على بن عبد الله بن العباس، وكان أنشطهم أبو جعفر الذى كان يتـصل إذا اقتضى الأمر بسجن حران[5]. أما فى الكوفة فقد كان النقيب أبا سلمة الخلال، وزير الدعوة، الذى ما إن سمع بمقتل إبراهيم الإمام حتى أخذ يبحث عن زعيم علوى يقلده أمـر الدعوة، إلا أنه فشل، ويأتى الحديث عن ذلك عند دراستنا للدولة العباسية بإذن الله تعالى. وشهدت الحميمة مشاورات سرية حول من يخلف إبراهيم الإمام، إذا طـرأ عليه طارئ فى سجنـه، ولا يُعرف مصـير هذه المشـاورات، فربما أوصى الإمام لأخيه عبد الله بن الحارثية، وقـد تداخل الشك أبا مسلم حول صحة الوصية وربما أن العباسيين فى الحميمة أجمعوا على عبد الله فعلاً، وربما لأنه الأكثر قبولاً عند أبى مسلم، أو لأن أخواله من العـرب اليمانية، ومنهم عـدد كبير من جيش الثـورة، بمن فيهم القائد الأعلى قحطبة بن شبـيب الطائى ومجموعة من نقباء الدعوة خاصة سلـيمان بن كثير ومالك بن الهيثم وغيرهما[6].

٣- جـيوش قـحطبة الطائى تدخل العـراق: ما إن جـاء عام ١٣٢هـ حتى كانت جـيوش قحطبة الطائى تحتل خـراسان بأجمعها مع البلاد التى حولهـا، بعد حروب شديدة، ثم اتجه قحطبة بجـيش الثورة غربًا يريد العراق، فتحـرك إليه الخليفة مروان بن محـمد بعد أن أمر بقتل إبراهيم الإمام فى سجنه، واتجه إلى الموصل فنزل على نـهر الزاب الكبير، وأمد عامله

(١) تاريخ الطبرى (٨/ ٢٨٠).

(٢) المصدر نفسه (٨/ ٢٧٩)، الجيش فى العصر العباسى صـ ٥١.

(٣) داهية العرب أبو جعفر المنصور صـ ٩٤.

(٤) البداية والنهاية (١٣/ ٢٣٥).

(٥) الجيش فى العصر العباسى الأول صـ ٥١.

(٦) المصدر نفسه صـ ٥٢.

يزيد بن هبيرة بثلاثين ألف فارس لقتال قحطبة المتقدم إلى الكوفة، حيث التقى جيش ابن هبيرة مع جيش قحطبة قرب الفلوجة، على نهر الفرات، وقتل فى المعركة القائد قحطبة الطائى، ولكن ابنه الحسن بن قحطبة تولى القيادة، فى حين اضطر ابن هبيرة للانسحاب نحو واسط[1]، ودخل الحسن بن قحطبة بجيشه الكوفة التى سيطر عليها محمد بن خالد القسرى، ودعا الناس إلى بيعة الرضا من آل محمد[2].

٤- أبو سلمة الخلال يتولى إدارة الأمور: أخرج محمد بن خالد القسرى أبا سلمة الخلال من مخبئه، وأجلسه مجلس الإمارة، وقدم له الطاعة، ووضع الجيش فى تصرفه، وأقام أبو سلمة معسكره فى حمام أعين فى ظاهر الكوفة، ووجه الحسن بن قحطبة إلى واسط ومعه ستة عشر قائدًا، لحصار ابن هبيرة ومنعه من الاتصال بالخليفة مروان، ووجه الفرق والكتائب لفتح المدن العراقية؛ إذ بعث حميد بن قحطبة للمدائن ومعه اثنان من القادة مع جنودهما، والمسيب بن زهير الضبى ومعه خالد بن برمك إلى دير قنىّ، وبسام بن إبراهيم إلى الأهواز، وشراحيل إلى عين التمر، وسفيان بن معاوية المهلبى إلى البصرة[3]، وأقر أبو سلمة محمد بن خالد القسرى على الكوفة[4]. ثم وزع أبو سلمة عماله؛ فقد ولّى عمر بن الزيات حجابته، والمغيرة بن الريان الخراج، ثم نقله إلى ديوان الرسائل، فيما ولّى يوسف بن ثابت ديوان الخراج، وعبد السلام بن عبد الرحمن الغامدى ولاه الصوافى والقطائع والخزائن، وولى أبا سلمى بيت المال، وأعطى الجند من ديوان بنى العباس، وبعث عمال الخراج إلى الكور[5]. كان أبو سلمة قد استقبل إخوة إبراهيم الإمام وأولاده وأعمامه خارج الكوفة وأدخلهم سرًا - بعد سجن إبراهيم - وأخفى أمر مجيئهم عن الشيعة العباسية وقادة الجيش، وطلب منهم كتم أمرهم إلى أن يستتب الأمر فى واسط لوجود جيش ابن هبيرة المحاصر، وفى البصرة لوجود جيش أموى بقيادة سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلى[6]. ولكن حقيقة الأمر بالنسبة لإخفاء أمر العباسيين فى الكوفة من قبل أبى سلمة الخلال، أنه انتظار لنتائج اتصالاته السرية لأحفاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب، والتى جاءت مخيبة للآمال، فقد رد جعفر الصادق على أبى سلمة: إن صاحبكم بأرض الشراة، أما عبد الله بن الحسن فقد فكّر أن

(١) داهية العرب أبو جعفر المنصور صـ ٩٧.

(٢) سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، للثعالبى صـ ١٩٣.

(٣) داهية العرب أبو جعفر المنصور ص ٩٨.

(٤) سقوط الدولة الأموية للثعالبى صـ ١٩٤.

(٥) تاريخ بلاد الشام ص ٢٥٩.

(٦) العصر العباسى الأول ، عبد العزيز الدورى صـ ٤٣.

يسند الأمر إلى ابنه محمد بن عبد الله «النفس الزكية» ولكن الإمام جعفر الصادق نهاه عن ذلك لما شاوره[1].

خامسًا: إعلان قيام الدولة العباسية:

بقى العباسيون فى معزلهم بالكوفة مدة أربعين يومًا إلى أن علم بأمرهم بعض قادة الجيش فى معسكر حمام أعين، وعلى رأسهم القائد أبو الجهم بن عطية ومعه من القادة موسى بن كعب التميمى وإبراهيم بن محمد الحميرى، وأبو غالب عبد الحميد بن ربعى، وسلمة بن محمد، وعبد الله الطائى، وإسحاق بن إبراهيم، وشراحيل، وعبد الله بن بسام وغيرهم، وجاءوا إلى العباسيين وبايعوا أبا العباس عبد الله بن الحارثية، وسلموا عليه بالخلافة فى ١٢من ربيع الأول ١٣٢هـ ثم أخرجوه إلى منبر المسجد لإعلان خلافته، وتسمى أبو العباس بأمير المؤمنين بينما اتخذ أبو سلمة الخلال لقب وزير آل محمد[2]، وجاء فى رواية: أن أبا سلمة الخلال عندما أراد إخراج الخليفة العباسى نزل إلى السِّرداب وصاح: يا عبد الله، مُدَّ يدك، فتبارى إليه الأخوان. فقال: أيُّكما الذى معه العلامة؟ قال المنصور: فعلمت أنى أخرت، لأنى لم يكن معى علامة، فتلا أخى العلامة وهى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً...﴾ [القصص: ٥] فبايعه أبو سلمة وخرجوا جميعًا إلى جامع الكوفة، فبُويع وخطب الناس[3] فكان أول ما نطق به: الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه فكرمه وشرّفه وعظمه واختاره لنا، وأيَّده بنا، وجعلنا أهله وكهفه والقُوَّام به والذَّابِّين عنه، والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصَّنا برحم رسول الله ﷺ وقرابته واشتقَّنا من نبعته، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابًا يتلى عليهم فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وقال: ﴿قل لا أسئلكم عليه أجرًا إلا المودة فى القربى﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وقال: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ﴾ [الحشر: ٧]. فأعلمهم الله عز وجل فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودَّتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا، تكرمة لنا، وفضلة علينا، والله ذو الفضل العظيم، وزعمت السَّبَئيَّة الضلاَّل أن غيرنا أحقُّ بالرِّياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم، بم ولم

(١) داهية العرب أبو جعفر المنصور ص ٩٨، ٩٩. (٢) الجيش فى العصر العباسى الأول صـ ٥٥.
(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٧٨).

أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصَّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدًا، ورفع بنا الخسيسة، وأتم النَّقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دنياهم، وإخوانًا على سُرر مستقابلين فى أُخراهم، فتح الله ذلك مِنَّةً ومنحة لمحمد ﷺ، فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم، فحَوَوْا مواريث الأمم، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها، وخرجوا خِماصًا منها، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها، فجاروا فيها، واستأثروا بها وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حينا حتى آسفوه[1]، فلمّا آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقَّنا، وتدارك بنا أمّتَنا، وولى نصرنا والقيام بأمرنا؛ ليَمُنَّ بنا على الذين استضعفوا فى الأرض وختم بنا كما افتتح بنا، وإنى لأرْجُو ألا يأتيكم الجَور من حيث جاءكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصَّلاحُ، وما توفيقنا -أهل البيت- إلا بالله، يا أهل الكوفة، أنتم محلُّ محبَّتنا، ومنزل مودَّتنا، وأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السَّفَّاح الهائج، والثائر المبير[2]. وكان به وعك فاشتد عليه حتى جلس على المنبر ونهض عمُّه داود فقال: الحمد لله شُكرًا شُكرًا شكرًا الذى أهلك عدوَّنا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا، أيها الناس، الآن انقشعت أرْضُها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها، وبزغ القمر من مبزغه، ورجع الحقُّ إلى نصابه فى أهل بيت نبيكم، أهل الرَّأفة والرَّحمة بكم والعطف عليكم، أيها الناس، إنا -والله- ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنُكثر لُجَينًا[3] ولا عقيانا[4]، ولا لنحفر نهرًا ولا لنبنى قصرًا، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقَّنا، والغضب لبنى عمِّنا، ولسُوءِ سيرة بنى أمية فيكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم، فلكم علينا ذمة الله وذمة رسوله وذمّة العباس، أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل بكتاب الله، ونسير فى العامّة منكم والخاصَّة بسيرة رسول الله ﷺ، تبًّا تبًّا لبنى أمية وبنى مروان؛ آثروا العاجلة على الآجلة، والدارَ الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام وظلموا الأنام، وارتكبوا المحارم، وغشوا الجرائم، وجاروا فى سيرتهم فى العباد وسنَّتِهم فى البلاد التى بها، استلذُّوا تسربل الأوزار، وتجلبُب الآصار، ومَرِحوا فى أعنَّة المعاصى، وركضوا فى ميادين الغى جهلا باستدراج الله، وأمنًا لمكر الله، فأتاهم بأس الله بياتًا وهم نائمون، فأصبحوا

(1) آسفوه : أغضبوه .

(2) البداية والنهاية (١٣/ ٢٥١) .

(3) اللجين : الفضة .

(4) والعقيان : ذهب خالص.

أحاديث، ومزَّقـوا كل مُمزق، فبُعـدًا للقوم الظالمين، وأدالنا[1] الله من مروان، وقد غرَّه بالله الغرور، وأرسل لعدوٍّ الله فى عنانه حتى عثر فى فضل خطامه، أظنَّ عدو الله أن لن نقدر عليـه؟ فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتـائبه، فوجد أمـامه ووراءه وعن يمينه وشماله من مكر الله وبأسـه ونقمته ما أمات باطله ومحق ضـلاله، وجعل دائرة السَّوءِ به، وأحيـا شرفنا وعزنا وردَّ إلينا حـقَّنا وإرثنا. . . فادعـوا الله لأمير المؤمنين بالعـافية، فـقد أبدلكم الله بمروان عدوَّ الرحمن وخـليفة الشيطان، المُتَّبع للسَّـفِلة الذين أفسدوا فى الأرض بعد صلاحهـا، الشابَّ المتكهِّل المقتدى بسلفه الأبرار الأخيـار، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهُدى ومناهج التُّقى. قـال: فعجّ الناس له بالدعاء ثم قال: واعلموا يا أهل الكوفة أنه لم يصـعد منبركم هذا خليفـة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علىٌّ بن أبى طالب وأمير المؤمنين عـبد الله بن محمد هذا - وأشار بيده إلى الـسَّفَّاح - واعلموا أن هذا الأمر فـينا ليس بخارج منا حتى نُسلمـه إلى عيسى بن مـريم عليه السلام والحـمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا. ثم نزل أبو العبـاس وداود حتى دخلا القصر ثم دخل الناس يُبايعـون إلى العصر ثم من بعد العـصر إلى الليل[2]. وخرج أبو العبـاس يوم السبت من الكوفة إلى معسكره فى «حمام أعين» مع الأميـر أبى سلمة. وجعل على حجابته عبد الله ابن بسام، وجعـل على الكوفة وأعمالها عـمه داود بن على[3]، وجهز أبو العبـاس جيشًا قوامه ثلاثون ألفًا لمواجهـة جيش الخليفة مروان بن محمد بقيـادة الخليفة نفسه فى الموصل، وقد أسند أبو العـباس قيادة هذا الجـيش لعمه عبـد الله بن على ومعه يزيد بن عـيسى بن موسى، فتحرك الجيشان للمواجهة فالتقيا على نهر الزاب الأكبر فى معركة حاسمة[4].

سادسًا: انتصار العباسيين على الأمويين فى معركة الزاب (١٣٢هـ):

قال تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. حان وقت زوال ملك بنى أمية وساق الله لذلك الأسباب؛ ومنها الانهزام الكبير لجيوشهم فى معركة الزاب، فقد تحركت جيوش العباسيين لملاقـاة جيوش الدولة الأموية التى كان يقودها الخليفة الأموى مروان بن محمد الذى تخندق بين دجلة والزاب الكبير، وكـان جيشه مؤلفًا من أهل الشام

(١) أدالنا : نصرنا .
(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٢٥٣).
(٣) سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية صـ ٥٥.
(٤) الجيش فى العصر العباسى الأول صـ ٥٥ ، ٥٦.

والجزيرة الفراتيـة على شكل كتائب منها الصحصحـية والراشدية والمحمرة والدوكـانية، كما انضم إليه البدو وبعض قـبائل الجزيرة. ولقد كانت القـوات الأموية والعباسية بالعـدد نفسه تقـريبًا إلى بيـن ٢٠ ألفًا و٢٤ ألف جندى، على أنـهم لم يكونوا بنفس الانسـجام والقـوة المعنوية التى تميز بهـا جند الدعوة العباسيـة، وقد عملت العصبـية القبلية عـملها فى جيش مروان الذى كان يتكون فى غالبيته من القبائل القيسية[١]، وكانت المعركة يوم السبت لإحدى عشـرة ليلة خلت من جمـادى الآخرة من سنة ١٣٢هـ فـقال مـروان لأهل الشام: قِـفوا لا تبدأوهم بقتال، فخالفه الوليد بن معاوية بن مروان - وهو ختن مروان على ابنته - فحمل، فغضب مروان وشتمه فـقاتل أهل الميمنة، ونودى فى الجيش العباسى: الأرض، فنزل الناس وأشرعوا الرِّماح وجثوا على الرُّكب وقاتلوهم، وجـعل أهل الشام يتأخَّرون، كأنما يُدفعون، وجعل عبد الله بن على يمشى قدمًا وهو يقول: يارب حتى متى نقتل فيك؟ ونادى: يا أهل خُراسان، يالثارات إبراهيم.. يا محمد، يا منصـور، واشتد القتال بين الناس جداً. فأرسل مروان إلى قضاعة يأمرهم بالنزول فقالوا: قل لبنى سليم فلينزلوا. وأرسل إلى السكاسِك أن احملوا. فـقالوا: قل لبنى عامـر فليحملوا، فـأرسل إلى السَّكون أن احمِلوا. فـقالوا: قل لغطفان فليحـملوا. فقال لصاحب شـرطته: انزل: فقال: لا والله لا أجعل نفـسى غرضًا. قال: أما والله لأسوءَنك، قال: وددت والله -أنك قدرت على ذلك[٢].

ثم انهزم أهل الشام واتَّبعهم أهل خُراسان فى أدبارهم يقتلون ويأسرون، وكان من غرق من أهل الشام أكثر ممن قُـتل، وقد أمر عبد الله بن على بعقد الجسـر واستخراج من هلك من الغرقى، وجعل يتلو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]. وأقام عـبد الله بن على فى موضع المعركة سبـعة أيام، وقد قال رجل من ولد سعيد بن العاص فى مروان وفراره يومئذ:

لج الـفـــرار بمروان فـــقلـت له ... عـاد الظلـوم ظَلِيـمًـا هَمُّــه الهَـرَبُ

أين الـفِـــرار وتـرك الملك إذ ذهـبت ... عنك الهُـوين فـلا دين ولا حـسب؟!

فـراشـة الحلم فـرعون العـقـاب وإن ... تـطـلب نـداه فـكـلـب دونه كـلـب

واحتاز عبـد الله ما كان فى معسكر مروان من الأموال والأمتـعة والحواصل، ولم يجد فيـه امرأة سوى جـارية كانت لعبـد الله بن مروان، وكتب إلـى أمير المؤمنين أبى العـباس

(١) الثورة العباسية ص ١٥٣ ، تاريخ خليفة ص ٢٩٧.

(٢) البداية والنهاية (١٣/٢٥٦) .

السفَّاح يخبره بما فتح الله عليه من النَّصر، وما حصل لهم من الأموال؛ فصلَّى السفَّاح ركعتين شكراً لله عز وجل، وأطلق لكل من حضر الوقعة خمسمائة خمسمائة، ورفع فى أرزاقهم وجعل يتلو[1] قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ...﴾[البقرة: ٢٤٩].

كانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة، فقد بدأت دولة جديدة هى دولة بنى العباس، وأنهت دولة قديمة هى دولة بنى أمية[2] لقد ارتكب مروان خطأً إستراتيجيًا كبيراً بعبوره إلى الساحل الأيسر من الزاب الكبير، فقدْ فقدَ سيطرته وموقعه الحصين، ولذلك خسر المعركة وانسحب باتجاه الموصل التى أغلقت أبوابها فاضطر إلى الانسحاب إلى الشام يتبعه عبد الله ابن على العباسى، وقد حاول مروان أن يستنجد بالقبائل الشامية فى قنسرين وحمص ولكنها لم تستجب له، بل على العكس هاجمته لغرض سلب مؤنه وأرزاقه، ولم يستطع مروان البقاء طويلاً فى دمشق، حيث انقسم الناس إلى قسمين بين مؤيد للأمويين ومعارض لهم، بل أقسمت بعض القبائل اليمانية يمين الولاء لبنى هاشم، فتركها متجهًا نحو فلسطين فمصر[3]، وسيأتى الحديث عن مقتله بإذن الله تعالى. وقد حصد مروان الثانى ثمار سياسته القبلية باعتماده على قيس وأخذه الناس بالشك والشبهة حتى تفرقوا عنه، وقال قولته المشهورة وهو يتراجع باتجاه مصر: انفرجت عنى قيس انفراج الرأس ما تبقى منهم أحد؛ وذلك أننا وضعنا الأمر فى غير موضعه[4]. وأما دمشق فلم تستسلم أول الأمر لعبد الله بن على واعتصم أهلها وراء أسوار المدينة، ولكن عبد الله دعا اليمانيين فى المدينة وأغراهم ووعدهم خيراً قائلاً: إنكم وإخوانكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا... فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر[5]. فانضموا إليه ودخل الجيش العباسى مدينة دمشق[6].

١- حصار واسط ومقتل ابن هبيرة:

أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر لقيادة الحصار المضروب على يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى الذى حصن نفسه فى واسط، ورفض الاقتراح بالهجوم على الكوفة، كما رفض الالتحاق بمروان الثانى، وكان الحسن بن قحطبة قائداً للجيش الخراسانى، ولكن الخليفة رأى من الأفضل إرسال عباسى لقيادة الجيش، وكتب رسالة إلى الحسن الطائى قائلاً: إن العسكر

(١) البداية والنهاية (١٣/٢٥٦).
(٢) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية ص ٤٦٨.
(٣) الثورة العباسية ص ١٥٤ البداية والنهاية (١٣/٢٥٧).
(٤) الثورة العباسية ص ١٥٤.
(٥) تاريخ الموصل ص ١٢٤.
(٦) الثورة العباسية ص ١٥٤.

عسكرك والقواد قوادك، ولكن أحببت أن يكون أخى حاضراً فاسمع له وأطع وأحسن مؤازرته[1] وكتب إلى أبى نصر مالك بن الهيثم بمثل ذلك، فكان الحسن المدبر لذلك العسكر بأمر أبى جعفر[2]. وكان جيش ابن هبيرة كبيراً يتكون من الجند السورى الموجود فى العراق ومن أهل خراسان الموالين لبنى أمية ومن أهل العراق اليمانيين والقيسيين. على أن ضعفه كان بارزًا يتمثل فى العصبية القبلية التى شقته فشلت حركته، ولذلك لم يصمد مع ابن هبيرة على القتال إلا الصعاليك والفتيان، وقد استطاع أبو جعفر أن يكسب اليمانية فى واسط بإغرائهم قائلاً: السلطان سلطانكم والدولة دولتكم. فانشق زياد الحارثى مع اليمانية عن ابن هبيرة وجذب معه شيوخًا آخرين، ويظهر أن هؤلاء الشيوخ كانوا قد سئموا الأمويين وأملوا الخير العميم من دولة (أهل البيت) الجديدة[3]. لقد دام الحصار حوالى ١١ شهرًا ولم يفكر ابن هبيرة بالاستسلام حتى سمع بنبأ نهاية مروان، فلم يبق مبرر للمقاومة، فجرت محادثات للصلح، وأعطى أبو جعفر أمانا لابن هبيرة شاور فيه ابن هبيرة الفقهاء والعلماء أربعين يومًا حتى يرى نقاط الضعف والقوة فيه، ثم وافق عليه، وأرسله إلى أبى جعفر لأخذ موافقة الخليفة عليه، وقد أورد ابن أعثم الكوفى نص الأمان. على أن السلطة العباسية لم تكن لتحتمل ذلك القائد والوالى ذا النفوذ القبلى الكبير والذى كان يعامل أبا جعفر وكأنه مساوٍ له من حيث المنزلة وكان يحف به فى ذهابه وإيابه ٨٠٠ مقاتل بين فارس وراجل[4].

والواقع أن أبا جعفر أراد أن يكسبه للدولة الجديدة فكان يقول: عجبًا لمن يأمرنى بقتل مثل هذا. كما أنه كان يستشيره فيشير إليه قائلاً: إن دولتكم هذه جديدة فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها لتسرع محبتكم إلى قلوبهم ويعذب ذكركم على ألسنتهم[5]، على أن الخليفة أمر أبا جعفر بقتله لأسباب سياسية، وتعددت الروايات التاريخية فى أسباب قتله، فمنهم من يذكر أنه كان بتحريض من أبى مسلم الذى كتب إلى الخليفة أنه ما من طريق سهل تلقى فيه حجارة إلا ضرّ ذلك بأهله، ولا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة[6]. وقد تردد أبو جعفر فى قتله وقال: لا أفعل وله فى عنقى بيعة وأمان. فأجابه أبو العباس: والله لتقتلنه أو لأبعثن إليك من يخرجه من عندك ويتولى ذلك عنك[7]. وواضح

(١) الأخبار الطوال ص ٣٤٠.
(٢) الثورة العباسية ص ١٥٥، الأخبار الطوال ص ٣٤٠.
(٣) الثورة العباسية ص ١٥٥.
(٤) الثورة العباسية ص ١٥٨، الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٠٩).
(٥) الثورة العباسية ص ١٥٨.
(٦) الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٠٩).
(٧) المصدر نفسه (٣/ ٥١٠).

أن الخليفة رأى فى ابن هبيرة خطرًا، على الدولة الجديدة، ووافقه فى ذلك أبو مسلم[1] قال الذهبى فى مقتل ابن هبيرة: . فحاصره المنصور مدة ثم خدعه المنصور وأمنه، ونكث فدخلوا عليه داره فقتلوه صبرًا وابنه داود ومماليكه وحاجبه، فسجد لله فنزلوا عليه فهبروه[2]، وكان بطلاً شجاعًا سائسًا جوادًا، فصيحًا خطيبًا[3]، وكان رزقه فى السنة ستمائة ألف، وكان يفرقها فى العلماء والوجوه[4]. وهكذا قضى العباسيون على جيب من الجيوب الأموية فى العراق وسقطت مدينة واسط[5].

٢- استسلام البصرة:

اعتصم مسلم بن قتيبة الباهلى بالبصرة ودافع عنها بصفته الوالى الأموى، وظل فيها حتى علم بمقتل ابن هبيرة، وحينئذ ترك البصرة إلى الحجاز وعين بدله أحد الهاشميين واليًا على البصرة حيث استبدله أبو العباس سفيان المهلبى، وبهذا سيطر العباسيون على البصرة، لقد استطاع العباسيون أن يقضوا على فلول الأمويين ومراكزهم الحصينة فى العراق وبلاد الشام، وقضوا على آخر خلفائهم مروان الثانى[6].

سابعًا: مقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ١٣٢هـ:

استولى عبد الله بن على العباسى على الجزيرة والشام وهرب مروان بن محمد إلى مصر، فاتبعته الجيوش العباسية، وعبر مروان النيل فلحقه صالح بن على عم السَّفَّاح، فأدركه بقرية من قرى الفَيُّوم من أرض مصر يقال لها بُوصير[7]، فوافاه صائمًا وقد قدّم له الفطور، فسمع الصائح، فخرج وسيفه مصلت، فجعل يضرب بسيفه ويتمثل بقول الحجّاج ابن حكيم:

متقلدين صفائحًا هندية ... يتركن من ضربوا كأن لم يولدِ
وإذا دعوتهمُ ليوم كريهة ... وافوك بين مكبر وموحِّدِ

فقصدته الخيول من كل جانب[8]، وبقى يقاتل حتى قتل، وكان من كلامه قبل أن يقتل: إن الجزع لا يزيد فى الأجل، وإن الصبر لا ينقص الأجل. وكان يتمثل بهذين البيتين كما جاء فى بعض الروايات:

(١) الثورة العباسية ص ١٥٨ ، الكامل فى التاريخ (٣/ ٥٠٩) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٠٨) .
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٠٧) .
(٤) المصدر نفسه (٦/ ٢٠٨) .
(٥) الثورة العباسية ص ١٥٨، الكامل (٣/ ٥١٠).
(٦) الثورة العباسية ص ١٥٩ .
(٧) شذرات الذهب (٢/ ١٣٨) .
(٨) المصدر نفسه (٢/ ١٣٩).

ذلُّ الحـــــيـــــاة وهـول الممـــات وكـــلاً آراه وخـيـــمًــا وبيـــلا
فــإن كـــان لا بد من مــيــتــة فسيرى إلى الموت سيراً جميلا[1]

وكان أهله وبناته في كنيسة هناك، فأقبل خادمه بالسيف مصلتًا يريد الدخول عليهم، فأُخذ وسئل عن مراده فقال: إن مروان أمرني إذا تيقنت موته أن أضرب رقاب نسائه وبناته، فأرادوا قتله، فقال: إن قتلتموني لتفقدن ميراث رسول الله ﷺ، قالوا: فدلنا على ذلك إن كنت صادقًا، فخرج بهم إلى رمل هناك، فكشفوه فإذا فيه القضيب والبُرد والقَعبُ... فأخذوه، وكان الذى تولى قتله عامر بن إسماعيل الخُراساني، وهو صاحب مقدمة صالح ،ولما قتله دخل بيته، وركب سريره، ودعا بعشائه، وجعل رأس مروان فى حجر ابنته، وأقبل يوبخها، فقالت له: يا عامر، إن دهراً أنزل مروان عن فراشه وأقعدك عليه حتَّى تعشيت عشاءه لقد أبلغ فى موعظتك، وعمل فى إيقاظك وتنبيهك إن عقلت وفكرت، ثم قالت: واأبتاه وأمير المؤمنيناه! فأخذ عامراً الرُّعب من كلامها، وبلغ ذلك أبا العباس السَّفَّاح، فكتب إلى عامر يوبخه ويقول: أما فى أدب الله ما يخرجك عن عشاء مروان والجلوس على مهاده؟![2]. وكان مروان بطلاً شجاعًا، ظالمًا، أبيض، ضخم الهامة، ربعة، أشهل العين، كث اللحية، أسرع إلى الشيب، ذكره المنصور مرَّةً فقال: لله درُّه! ما كان أحزمه وأسوسه، وأعفَّه عن الفيء[3]. وكان نقش خاتمه: اذكر الله يا غافل[4]. وقد قيل: إن مروان قتل يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجَّة سنة ثنتين وثلاثين ومائة، وقد جاوز الستين[5] وبموته زال ملك بنى أمية، وجميع خلفاء بنى أمية من لدن معاوية إلى مروان بن محمد أربعة عشر رجلاً، وكانت مدة خلافة بنى أمية منذ أن خلص الأمر لمعاوية، وإلى أن قتل مروان بن محمد إحدى وتسعين سنة وتسعة أشهر وخمسة أيام[6]، منها خلافة ابن الزبير تسع سنين وعشرون يومًا، ثم تفرقت بنو أمية فى البلاد هربًا بأنفسهم، وهرب عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس وبايعه أهل الأندلس عام ١٣٨هـ[7]... لقد انقضت تلك السنون وأهلها، فكأنهم على ميعاد[8] وهكذا انتهت دولة بنى أمية فى المشرق، التى عمرت فى الأرض عقوداً مديدة، وأعوامًا عديدة، وأقاموا فيها المدن المنيعة، والقصور الرفيعة، ولكن ذهبوا وتركوا كل ذلك، ولقد لحقتهم دول وشعوب

(١) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية صـ٨٢.
(٢)، (٣) شذرات الذهب (٢/١٣٩).
(٤) تاريخ القضاعى صـ ٣٨٤.
(٥) البداية والنهاية (١٣/٢٦٦)
(٦) تاريخ القضاعى ص ٣٨٧.
(٧) البداية والنهاية (١٣/ ٣٣٠).
(٨) المصدر نفسه (١٣/ ٣٣١).

وأمم، وإليك هذا التصوير عن تلك النهايات التى فيها الدروس والعبر لمن ألقى السمع وهو شهيد، قال الشاعر أبو العتاهية:

أين القـــرون الماضـــيـــة ... تركـــوا المنازل خـــاليـــة
فـــاســتـــبـــدلت بهمُ ديا ... رُهُمُ الرياحَ الهـــاويـة
وتشـــتـــتت عنهـــا الجـمــو ... عُ وفـارقـتـهـا الغـاشـيـة
فـــإذا مـــحـلٌّ للوحـــو ... شِ وللكلاب العـــاويـة
درجـــوا فـــمـــا أبقت صـــرو ... فُ الدهر منهم باقـــيـــة
لـم يـبق مـنـهـم بـعــدهـمْ ... إلا العظام البـــاليـــة[1]

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ..﴾ [يوسف: ١١١].

****

(١) قصائد الزهد لمحمد أحمد سيد ص ٥٥، صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامى، للصلاَّبىّ (١/ ١٧٠).

المبحث السادس

أسباب سقوط الدولة الأموية

إن أسباب سقوط الدولة الأموية كثيرة، جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله فى الأمور السياسية والمالية، وقد وقع الظلم على الأفراد، وتورط بعض الخلفاء فى الترف، وحدث بينهم نزاع عظيم أدى إلى زوالهم، فعندما يغيب شرع الله فى أمور الحكم، كما حدث فى السنوات الأخيرة من الدولة الأموية، يصيب الأفراد والدولة تعاسة وضنك فى الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة فى وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شئون حياتهم[1]، قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

لقد كان فى ابتعاد أواخر خلفاء الدولة الأموية عن تحكيم الشرع آثار على أفراد البيت الأموى والدولة، فقد أصيبوا بالقلق والجزع والخوف والشقاق والخلاف، ونزع منهم الأمن وأصبحوا فى ضنك من الحياة، إن هلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الحضارات لا يحدث عبثًا فى حركة التاريخ، بل نتيجة لممارسة هذا الأسرة الحاكمة أو الدولة أو الأمة، الظلم والانحراف، وبعد أن يعطوا الفرصة الكافية حتى تحق عليهم الكلمة، فيدفعوا ثمن انحرافهم وإجرامهم وطغيانهم وفسقهم، والآيات صريحة فى ذلك، فالله إذا أنعم على دولة نعمة -أيًا كانت- فهو لا يسلبها حتى يكفر بها أصحابها[2]، قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣]. والآيات فى هذا كثيرة، سواء ما يخص الفرد أو الأمة، بل إن القرآن الكريم ليذكر أن بعض ما يصيب الأمم والأفراد من استدراج حين يمهلهم الله تعالى، وتواتيهم الدنيا، وتفتح عليها خيراتها، فينسون مهمتهم وما خلقوا له، بل ينسون المنعم جل جلاله وينسبون ما عندهم لجهدهم، وذكائهم، وقد يفلسفون الأمر فيقولون: لو لم نكن نستحق هذه النعم لما منحت لنا، وفى هؤلاء يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا

(١) الدولة العثمانية للصلابى صـ ٥٢٠.

(٢) فى التفسير الإسلامى للتاريخ ، نعمان السامرائى صـ ٨٨.

فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (٤٤) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام: ٤٤]، لقد نسى هؤلاء أن الله يمنح خيرات الدنيا لمن يطلبها ويجد فيها، قال تعالى: ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾[آل عمران: ١٤٥]. ولكن هناك من يريد الآخرة بحق، ويسعى لذلك فهو الفائز ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا (١٨) ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا (١٩) كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾ [الإسراء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون (١١٢) ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون﴾ [النحل: ١١٢]. ولنستمع لهذه الدعوة الكريمة: ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين﴾ [هود: ٥٢]. وهناك آيات كثيرة تحاول قطع الطريق على بعض المتفلسفين من أهل الكتاب: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير...﴾ [المائدة: ١٩]. فكل إنسان، وكل مجتمع، وكل أمة مسئولة عما يصدر عنها، ولا يتحمل أحد جريرة غيره(١) ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾[البقرة: ١٣٤]. والمهم أن الله تعالى لا يحجب نعمه عن أحد، بل يوزعها على المؤمن والكافر، ثم يراقب تصرف الكل فيها، فمن طغى وظلم، ومن كفر بها، واستعملها استعمالاً سيئًا فإن العقاب العادل سينزل به فى الوقت المناسب، وقد يطول ذلك العهد، قبل نزول العقاب، ولكنه يكون فى الطريق، وبعد هذا وذلك فإنه: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها....﴾[البقرة: ٢٨٦]. ومثل هذا فى الأمم والمجتمعات وعلى مستوى الأفراد، فإن الله خلق النفوس ملهمًا أياها طريق الخير والشر(٢)، يقول تعالى: ﴿ونفس وما سواها (٧) فألهمها فجورها وتقواها (٨) قد أفلح من زكاها (٩) وقد خاب من دساها﴾[الشمس: ٧- ١٠] وقال: ﴿وهديناه النجدين﴾[البلد: ١٠]. ومن الملاحظ فى دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات أنها لا تسقط بسبب واحد، كما لا تقوم بسبب واحد، بل تتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها وسقوطها، بعضها يعمل

(١)، (٢) فى التأصيل الإسلامى للتاريخ، عماد الدين خليل صـ ٤٧.

بطء، بينما يعمل البعض بسرعة أكبر.. ولا تسقط الدولة - أو الحضارة - لضربة واحدة بل يتضافر جملة من العوامل[1]، وهذا ما حدث للدولة الأموية التى زالت من الوجود فى المشرق الإسلامى فى عام ١٣٢هـ، وأهم هذه الأسباب فى نظرى:

أولاً: الثورة المضادة على حركة عمر بن عبد العزيز الإصلاحية:

أخذت الخلافة الأموية تتراجع عن الغاية التى قامت من أجلها الدولة فى الإسلام، وهى حراسة الدين، فنهض عمر بهذا المبدأ ورفع لواءه وأعلى شأنه، وجعله المهيمن والمقّدم على ما سواه، وضبط أمور الدولة بالكتاب والسنة ومنهج الخلفاء الراشدين، فجدد فى نظام الحكم، وأصلح الانحرافات التى وقع فيها الخلفاء الأمويون الذين سبقوه، فجدّد معالم الشورى، وأقام العدل، ورد المظالم، وبدأ بنفسه وأهل بيته، ونزع المظالم من بنى أمية ورد الحقوق لأصحابها، وعزل جميع الولاة والحكام الظالمين، ورفع المظالم عن الموالى، وأهل الذمة، وطبق مبدأ المساواة بين الرعية، وفتح مجال الحريات الفكرية، والعقدية، والسياسية، والشخصية والتجارة والكسب، واستوعب قوى المعارضة المختلفة بالحوار والنقاش، وجدّد وظيفة الدولة الدعوية من خلال مشروعه الدعوى الحضارى للأمم، وحققت سياسته المنضبطة بالكتاب والسنة، وتحكيم الشرع فى صغائر الأمور وكبارها نتائج وثماراً كثيرة منها؛ التمكين للدولة وتجديد حيويتها، والأمن والاستقرار لها، والنصر والفتح على يديها والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة.

وضرب عمر بن عبد العزيز مثالاً واضحًا على قدرة الإسلام على العودة باستمرار لقيادة الحياة السياسية والتشريعية، والحضارية، وصياغتها بما ينسجم ومبادئه الأساسية، إلا أن الخلفاء الأمويين الذين جاءوا فى أعقاب عمر لم يواصلوا السير على الطريق ذاته، ونقضت مع الزمن إجراءات عمر بن عبد العزيز الإصلاحية، وقام فيما يُسمى اليوم بثورة مضادة أودت فى نهاية الأمر بمحاولة عمر الإصلاحية التى يمكن لو قيّض لها من يواصل السير على منهجها، أن تحمى الوجود الأموى نفسه من الدمار، فها هم خلفاء بنى أمية المتأخرون يعودون إلى ممارسة الأخطاء الكبيرة نفسها فى مجالات السياسة والإدارة والاجتماع، وبشكل أكثر حدة وعنف من ذى قبل، كما مر بنا، فكان أن تحققت الدعوة العباسية السرية الدقيقة لكى تعلن عن ثورتها، وتقضى على ذلك البناء الشامخ، الذى عاش ما يقارب قرنًا من الزمان[2] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[هود : ١١٧].

---

(١) فى التفسير الإسلامى للتاريخ للسامرائى صـ ١٢٨.

(٢) فى التأصيل الإسلامى للتاريخ صـ ٦٣.

ثانيًا: الظلم:

إن الظلم فى الدولة كالمرض فى الإنسان، يعجل فى موته بعد أن يقضى المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم فى الأمة والدولة، يعجل فى هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدى إلى هلاكها، واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هى الأجل المقدر له، أى الذى قدره الله بموجب سنته العامة التى وضعها لآجال الأمم، بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم، الذى يظهر أثره وهو هلاكها بعد مضى مدة محددة يعلمها الله[1]، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٤] قال الألوسى - رحمه الله - فى تفسير هذه الآية: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾، أى لكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أى وقت معين مضروب لاستئصالهم[2]، ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئًا مؤكدًا ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أى أننا نعلم يقينًا أن الأمة الظالمة تهلك حتمًا بسبب ظلمها، حسب سنة الله تعالى فى الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى[3]. إن سنة الله مطردة فى هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠ - ١٠٢]. إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى فى أخذ كل الظالمين سنة واحدة، فلا ينبغى أن يظن أحد أن هذا الهلاك مقصور على أولئك الظلمة السابقين؛ لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾. فيبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين فى أفعالهم التى أدت إلى هلاكهم، فلابد أن يشاركهم فى ذلك الأخذ الأليم الشديد، فالآية تحذر من خطورة الظلم. إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية، وتظالم الناس فيها بينهم[4]، قال تعالى:

---

(١) السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان صـ ١٢١.
(٢) تفسير الألوسى (٨/ ١١٢).
(٣)، (٤) السنن الإلهية صـ ١٢١.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧] قال الإمام الرازى - رحمه الله - فى تفسيره: إن المراد من الظلم فى هذه الآية الشرك، والمعنى: أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين فى المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم على الصلاح وعدم الفساد(١)، وفى تفسير القرطبى - رحمه الله - قوله تعالى: ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أى: بشرك وكفر﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ، أى: فيما بينهم فى تعاطى الحقوق، ومعنى الآية: أن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط(٢). قال ابن تيمية - رحمه الله - فى هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذى يكون فيه الاشتراك فى بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم فى الحقوق، وإن لم تشترك فى إثم، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم، بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به فى الآخرة(٣). ولقد حدثت مظالم عظيمة فى عهد الأمويين، فقد سفكوا الدماء بغير حق، وقتلوا بعض صالحى الأمة كالإمام الشهيد الحسين بن على رضى الله عنه، وهتكوا حرمة المدينة واستباحوها فى معركة الحّرة، وحاصروا الكعبة وقتلوا الخليفة الشرعى عبد الله بن الزبير، وسفكوا دم العالم الجليل سعيد بن جبير، وقضوا بعنف على ثورة زيد بن على فى ظروف وأوقات مختلفة، ولم يلتزم بعض زعمائهم بالعهود كعبد الملك فى قتله لعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق، والذى ترك قتله أثرًا كبيرًا على الدولة الأموية فى عهد عبد الملك(٤)، وغير ذلك من الشخصيات المهمة التى سفكت دماؤها بدون وجه حق.

هذه مظالم فى الأنفس، وأما الأموال، فقد فرضوا زيادات فى بعض الضرائب المقررة، وأنشأوا ضرائب جديدة لم تكن معروفة، ومالوا لأهل الشام فأكرموهم من أموال الأمة بزيادة الهبات المالية والرواتب الكبيرة جزاء تأييدهم المتواصل للحكم الأموى، واستخدموا أموال بيت المال لتأليف القلوب عليهم، ثم الدعاية لأنفسهم طول الوقت، وكانوا كرماء مع الشعراء، الذين تكسبوا بالشعر عن طريق الإسراف فى مدحهم، وخصوصًا فى عهد عبد

(١) تفسير الرازى (١٨/ ١٦) .
(٢) تفسير القرطبى (٩/ ١١٤).
(٣)رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابن تيمية صـ ٤٠ .
(٤) بنو أمية بين السقوط والانتحار صـ ٧٣ ، ٨٤.

الملك، واستولوا على حق الأمة فى اختيـار من تشاء فى الحكم، وجعلوه ملكًا وراثيًا قاتلوا عليه بحـد السيـوف، وقد استـغل أعداء الدولة الأمـوية هذه المظالم وأسرفـوا فى الدعاية ضدها، ووجدوا الكثير من نـقاط الضعف للهجوم[1] عليها، لقد ساهمت المظالم الأموية فى تقوية الدّعاية للحركات المضادة لهم، ثم تبلورت مع الزمن حتى جاءت الدعوة العباسية وأزالت الأمويين من الوجود بسبب مظالمـهم المالية والسياسية، والاجتمـاعية، ومضت سنة الله فيهم.

ثالثًا: الترف والانغماس فى الشهوات:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أراد بالذين ظلموا: تاركى النهى عن المنكرات، أى لم يهتـموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين؛ وهو الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكرات، وإنما اهتموا بالـتنعم والترف والانغماس فى الشهـوات، والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليـها، والسعى لها، وطلب أسـباب العيش الهنىء[2]، وقد مضت سنة الله فى المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله بالهلاك والعذاب، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ⑪ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ⑫ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٣].

ومن سنة الله تعالى هلاك الأمة بـفسق مترفيهـا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. وجاء فى تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكـها أمرنا بالطاعة مترفيـها، أى: متنعميها وجبـاريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليهـا القول فأهلكناها، وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعـة إلى الجميع، لأنهم أئمة الـفسق ورؤساء الضلال، ومـا وقع من سوئهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجـه الأمر إليهم آكد[3]. ويقال: إن أمر بنى أمـية ما زال مستـقيمًا حـتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المتـرفين، فآثروا الشهـوات، وأقبلوا على اللذات والدخول فى المعاصى، والتعرض لسخط الله، فسلبهم الله العز وسلبهم النعمة، ولما هرب أحد أمرائهم إلى أرض النوبة، سـمع به ملك النوبة فجاءه وقعـد على الأرض، ولم يقعد على فراشه، فـقال له: ألا تقعد على فـراشنا؟ فقال له النوبى. لا، فـقال له: ولم؟ قال:

(١) دولة الأمويين ، د. على حبيبة صـ ١٣٤ - ١٣٦ .

(٢) السنن الإلهية فى الأمم والجماعات والأفراد صـ ١٨٦ .

(٣) تفسير الألوسى (١٥/ ٤٢).

لأنى ملك، وحق على كل ملك أن يتواضع لأمر الله، سبحانه، إذ رفعه، ثم قال له: لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم ؟ ولم تطأون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم ؟ ولم تستعملون الذهب والفضة، وتلبسون الحرير والديباج، وهو محرم عليكم ؟ فقال له: انتصرنا بقوم من الأعاجم حين قل أنصارنا، ولنا عبيد وأتباع، فعملوا ذلك على كره منا، فأطرق النوبى مليًا، ثم قال: ليس كما ذكرت، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم، وظلمتم فيما ملكتم، فسليكم العز بذنوبكم، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها، وأخاف أن يصيبكم العذاب وأنتم ببلدى فيصيبنى معكم، وإنما الضيافة ثلاث فتزودوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدى[1].

ومن خلفاء بنى أمية الذين ظهر فيهم الترف والميل إلى الدعة والاهتمام بالغوانى يزيد بن عبد الملك، والوليد بن يزيد، وقد سئل أحد أمراء بنى أمية عن سبب زوال ملككم فقال: شُغلنا بلذّاتنا عن التفرغ لمهمّاتنا[2].

رابعًا: تعطيل الخيار الشورى:

عطّل الأمويون نظام الشورى فى الحكم، ذلك النظام القائم على حرية الانتخاب وحرية المعارضة، والذى كانت القيادة الراشدة نفذته التزامًا بمعطيات القرآن والسنة فى هذا المجال، ولقد ولّدت خطوة الأمويين هذه التى أقدم عليها معاوية فى أخريات خلافته الكثير من ردود الأفعال، وبالتالى فى حركات المعارضة، السلمية والمسلحة، والتى استنزفت فى جسد الأمة الإسلامية طيلة العقود التالية الكثير من العناء والدماء، بل إن بعضها تحول إلى تجمع مذهبى وصل حد الانغلاق فى عدائه مع خصومه، وأصبح على استعداد لتقبل أشياء غريبة شاذة، لم يقل بها الإسلام يومًا ولم يدعُ إليها.. إن الفعل الخاطئ يولد رد فعل خاطئًا يساويه فى القوة ويخالفه فى الاتجاه، وهذا الذى حدث فعلاً عبر عديد من حركات المعارضة الدموية، والتمزقات السياسية العنيفة التى شاهدها هذا العصر[3].

خامسًا: نظام ولاية العهد:

أوجد هذا النظام البغض والكراهية ليس لدى جماهير المسلمين فحسب، بل لدى أهل البيت الأموى نفسه، ففضلاً عن أن الفكرة شغلت معاوية، كما شغله تنفيذها، إلا أنها جلبت على الخلافة الأموية كلها المشاكل التى أسهمت فى كراهية الناس لها، وسعيهم فى القضاء عليها، وأسهمت فى خلق التفكك وإضعاف التضامن فى البيت الأموى[4].

(١) الشهب اللامعة صـ ٦٢٢.

(٢) المحاسن والمساوئ صـ ١٥٥، ولاية الشرطة فى الإسلام صـ ١١٨.

(٣) فى التأصيل الإسلامى للتاريخ صـ ٦٠.

(٤) رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية صـ ٢٦٤.

يقول الشيخ محمد خضرى بك: كانت ولاية العهد سببًا كبيرًا فى انشقاق البيت الأموى، وذلك أن بنى مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلى أحدهما الآخر. وأول من فعل ذلك مروان فإنه أزاح خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد ثم ولى عهده عبد الملك ثم عبد العزيز، وكذلك عبد الملك حيث كاد يشق هذا البيت حين أراد تحويل ولاية عهده إلى ابنه الوليد وعزل أخيه فساعده القضاء المحتوم بوفاة عبد العزيز، فلم تبدأ الأزمة، ولكنه هو الذى رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة، بل ولى الوليد وسليمان، وخطر ببال الوليد أن يعزل سليمان ويولى ابنه، فعاجله القضاء وأخر الأمر إلى حين، ولم يستفد سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك، ولم يكن عمر يميل إلى يزيد فخيف منه فعوجل حتى قيل: إنه سم، وأعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشامًا أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج فى ذلك، حتى تباعد ما بين هشام والوليد، وكان كثير من كبار القواد وذوى الكلمة المسموعة فى الدولة الأموية صرحوا بممالأة هشام على رأيه، ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأى، فجاء الوليد مشمرًا عن ساعد الجد فى الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول فى إشادة بيتهم، ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته، فكان ذلك نذير الخراب، فإن البيت انشق وتجزأت القوى التى كان يستند عليها، فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق، فأخمدت منهم الأنفس وجعلتهم أثرًا بعد عين(١). إن نظام ولاية العهد على النحو الذى أحدثه معاوية رضى الله عنه والطريقة التى طوّر بها الأمويون هذا النظام، جعلت ضرره أكثر من نفعه، ويكفى لبيان ذلك الإشارة للآتى:

١- شجع العصبية ودعمها، وقد نهى عنها الإسلام.

٢- إن هذا النظام قد سيطرت فيه عاطفة الأبوة والأقرب نسبًا، وقوة العصبية على عملية التولية بصفة عامة، وقد أدى ذلك إلى الآتى:

أ- تقييد حق الأمة فى اختيار الخليفة بحصره فى أسرة معينة.

ب- تقييد مبدأ الشورى بحصره فى أهل عصبية وشوكة الأسرة الحاكمة.

ج- دفع المفضول إلى تولى الخلافة مع وجود الأفضل، بل ومن افتقد بعض شروط الخلافة مع وجود المستجمعين لهذه الشروط، وفقًا لما سلف ذكره.

---

(١) رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية صـ ٢٦٤.

د- وضع الخلفاء موضع تهمة وشبهة، أثار الشك - عند بعض الناس - حول مشروعية البيعة بولاية العهد، والبيعة بالخلافة.

٣-أدى هذا النظام إلى ظهور العداوة والبغضاء بين الأسر القرشية، وأيضًا بين أفراد البيت الحاكم، وذلك مما أدى فى النهاية إلى ضمور قوتهم وزوال شوكتهم(١).

سادسًا: الثورات ضد النظام الأموى:

١- ثورة الحسين بن على رضى الله عنه: كانت ثورة الحسين بن على -رضى الله عنه- ضد يزيد بن معاوية من أخطر الثورات ضد الأمويين، لا لأنه كان يقود جيشًا كبيرًا يستطيع -مع الأمل والرجاء- أن يحطم كيان تلك الدولة، وإنما لأنه كان يمثل ضمير الأمة الراغبة فى الاستمساك بحقها فى منح السلطة لمن يستحقها من رجالها، ثم إن استشهاد الحسين رضى الله عنه كان عامل شحن عاطفى قوى ضد الأمويين، أدى إلى حدوث الثورات الأخرى التى واجهها الأمويون باسم حركة التوابين مرة. وباسم حركة المختار الثقفى مرة أخرى. وكانت فى النهاية إحدى المآسى التى حركت كوامن الغضب عند معارضى الدولة الأموية، وقد استغلتها الدعاية العباسية فى ضم الأنصار وترتيب صفوف الحركة. وإذا كان صحيحًا أن الدولة الأموية فقدت وجودها بعد أن فقدت مقومات حياتها، ومنها القوة والوحدة السياسية فإن لمعارضة القوية للأمويين - كان لها دورها الكبير فى تحطيم دولتهم، وتأتى ثورة الحسين لتقف من ضمن المعالم البارزة التى أسهمت فى القضاء على الأمويين ودولتهم(٢).

٢- ثورة زيد بن على بن الحسين: خلفت ثورة زيد وراءها أحداثًا ساهمت فى زوال الخلافة الأموية، فالدعوة العباسية نالت بموت زيد أكبر تعضيد، إذ زال من طريقها منافس قوى وخصم شجاع، كما أن الشيعة فقدوا بمقتل زيد قوتهم، فأتاح ذلك الفرصة لانتصار الدعوة العباسية(٣)، فقد استفادت الدعاية العباسية من توظيف مقتل زيد وابنه يحيى فى حشد الأنصار ضد الأمويين.

٣- الخوارج: لم يعترف الخوارج بخلافة معاوية وخلفاء بنى أمية، بحسب معتقدهم لا يثبتون إلا خلافة أبى بكر وعمر وشطرًا من خلافة عثمان وخلافة على قبل أن يحكم(٤)، لذا واصلوا حروبهم وهجماتهم لتغيير المنكر - حسب معتقدهم - بإزالة الحكم الأموى

(١) نظام الحكم فى الإسلام صـ ٣٠٧.
(٢) دولة الأمويين د. على حبيبة صـ ١٥٦.
(٣) تاريخ العراق تحت الحكم الأموى صـ ٢٢٠، ٢٢١.
(٤) الخوارج، ناصر العقل صـ ٣٤.

وإقامة الخلافة الشرعية من منظورهم، وقد اتسعت دائرة الخوارج فى الدولة الأموية مع مرور الوقت لا سيما فى خراسان والجزيرة الفراتية، كما كان لهم ظهور فى اليمن ومصر ونجد، وفى أواخر الدولة الأموية أصبح لهم شأن فى شمال إفريقية، ورغم الجهود وكثرة المعارك التى خاضها ولاة بنى أمية وقوادهم ضد الخوارج فإنهم لم يستطيعوا القضاء على حركتهم إذ استمرت حركات الخوارج بعد سقوط الدولة الأموية، كما لم يستطع الخوارج - على الرغم من استمرار ثورتهم ضد الدولة الأموية وتعدد فرقهم وميادينهم - أن يقضوا على الخلافة الأموية، ولكنهم استطاعوا أن يلحقوا بها خسائر كبيرة، ويصبحوا مصدر قلق لخلفائها وولاتها طول الحكم الأموى، لذا فهم من أبرز عوامل الضعف التى أسهمت بقدر كبير فى سقوط الدولة الأموية[(١)]، ولم يستفيدوا شيئًا رغم تضحياتهم الكبيرة، فقد لعبوا دورًا كبيرًا فى إضعاف مروان بن محمد وإشغاله بثوراتهم الكثيرة والعنيفة، وهذا ساعد العباسيين فى استغلال هذا العامل لتحقيق مشروعهم الكبير.

وقد كانت الثورات فى العهد الأموى كثيرة، قد مّر ذكرها، وكل الثورات السابقة ساهمت فى إضعاف الدولة الأموية وإنهاكها ثم زوالها، وكان عنف الولاة وقسوتهم فى القضاء على الثورات، والفتك بالأحزاب المناوئة للخلافة سببًا مباشرًا فى اشتداد الخوارج فى العنف والتطرف أكثر من ذى قبل، وفى تحول المعارضة للعمل السرى المنظم والاستفادة من الأخطاء السابقة، هذا فضلاً عن أن الاضطهاد الذى تعرض له الموالى، واستنكار حقوقهم أدى إلى الانضمام إلى أية ثورة مناهضة للحكم الأموى[(٢)]. وقد ساهمت سياسة الأمويين مع الخوارج باستمرارية حركتهم؛ لبعدهم عن منهج عمر بن عبد العزيز القائم على نشر العدل فى الرعية والحوار معهم.

سابعًا: العصبية:

مارس العديد من خلفاء بنى أمية الخطيئة القاتلة؛ حيث أشعلوا نار العصبية القبلية، وزادوا إضرامها بالتزام هذا الجانب القبلى أو ذاك، الأمر الذى فتت قاعدتهم فى بلاد الشام نفسها، وشطرها شطرين، أحدهما قيسى ينتمى إلى عرب الشمال، والآخر يمنى ينتمى إلى عرب الجنوب، وقد سعى معاوية المؤسس مُنذ البدء إلى تلافى هذه المعضلة، ونجح فى ذلك إلى حد كبير، ولكن أعقابه، وبخاصة السلالة المروانية التى تسلمت السلطة عام ٦٤ هـ،

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية صـ ٤٤٤.

(٢) رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية صـ ٢٦٥.

على يد مروان بن الحكم فى أعقاب تلك المعركة القبلية العنيفة بين اليمانيين والقيسيين، والتى عرفت باسم مرج راهط، هذه الأسرة مارس معظم خلفائها، سياسة قبلية واضحة أخذت تتصاعد يومًا بعد يوم، وامتدت تأثيراتها إلى جميع الأقاليم، وإلى سائر مساحات الحياة الإدارية والسياسية والاقتصادية، فكانت أحد العوامل الخطيرة فى تدمير الوجود الأموى فى نهاية الأمر. ومنذ وفاة هشام بن عبد الملك عام (١٢٥هـ) وحتى سقوط الدولة الأموية عام (١٣٢هـ) أخذت الأفعال وردود الأفعال القبلية تتصاعد وتزداد استشراء، وكانت من بين الثغرات العديدة التى نفذت منها الدعوة العباسية لتحقيق أهدافها، انحياز الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦هـ) إلى القيسية، وشدد الخناق على اليمانية فثاروا عليه، وحرضوا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك على البيعة لنفسه، وتمكنوا أخيرًا من قتله وتحقيق هدفهم بمبايعة يزيد بن الوليد، الذى ما لبث أن وجد نفسه مضطرًا لإخماد فتنة القيسية فى أماكن متعددة من الشام وفلسطين، كما اعتقل عددًا من قادتهم، فلما توفى فى هذا العام نفسه تولى الخلافة من بعده أخوه إبراهيم، إلا أن هذا لم يلبث فى الحكم سوى أشهر معدودات إذ تحرك ضده مروان بن محمد بأنصاره القيسيين وتمكن من هزيمة قواته من اليمانيين قريبًا من دمشق، الأمر الذى دفعهم إلى سلسلة من الأعمال الانتقامية ضد القيسيين فى دمشق، لكن مروان ما لبث أن دخل دمشق وأخمد فتنتها، لكنه لم يأمن على نفسه الإقامة فيها لكثرة اليمانية فانتقل إلى حران[1]، إلا أن انتصار مروان لم يحسم معضلة الصراع بين القيسية واليمانية، بل زادها اشتعالاً، وما لبثت نارها أن امتدت إلى جميع أنحاء الدولة، فثارت اليمانية فى حمص والغوطة وفلسطين، وتمكن مروان من إخماد هذه الثورات الواحدة تلو الأخرى، لكن بعد أن كلّفه ذلك غاليًا.

كما انتشرت الصراعات القبلية فى المغرب والأندلس، أما العراق فقد شهد الصراع نفسه بين الجماعتين لولا أن حدّ من استشرائه تفاقم أمر عدو مشترك هو الخوارج، وأما فى خراسان فقد استفحل الأمر بين الطرفين، وبلغ نقطة اللاعودة رغم بعض المحاولات التى سعت لوقف الانهيار، وقد استمر هذا الصراع سنين عديدة، خندق كل من الطرفين إزاء الآخر دون أن يتمكن أحدهما من أن يطوى الآخر، الأمر الذى مكّن للدعوة العباسية من أن تثبّت نفوذها هناك، وتتحفز للانقضاض على الخلافة الأموية، وقد بقى أبو مسلم الخراسانى شهورًا لا يجرؤ على الاستيلاء على مرو قاعدة خراسان، لكنّه أخذ يحتل المواقع المحيطة بها مستغلاً الصراع بين اليمانيين والقيسيين، وحاول نصر بن سيار مرة أخرى تحقيق

(١) فى التأصيل الإسلامى للتاريخ صـ ٦٠ ، ٦١.

الوفاق بين الطرفين دون جدوى، بينما كان أبو مسلم يذكى العداء بين نصر والكرمانى، ونزل فى خندق ثالث بين خندقيهما، واستطاع أبو مسلم تحقيق هدفه المرتجى ودخل مرو سنة ١٣٠هـ، وكان ذلك البداية الحقيقية لنجاح الدعوة العباسية وانهيار الأمويين(١).

إن الإسلام يحرم العصبية التى تؤدى إلى التناحر والصراع، وتتحكم فى الأفراد والجماعات والأمم، وتدفعهم إلى نحو القتال بدون وجه حق، فالعصبية مصادمة لنصوص القرآن الداعية إلى الوحدة والائتلاف(٢)، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»(٣). ودعوى الجاهلية ندب الميت، وتكون دعوى الجاهلية فى العصبية(٤).

إن قصة الدولة الأموية تملك دلالتها المعاصرة، فحين تكون الدولة حكرًا على فئة معينة من مجتمعها، فإنها تضع أساس عدم استقرارها السياسى، وتهديد هويتها الفكرية، وانقسام قاعدتها الاجتماعية والسياسية ثم زوالها(٥).

ثامنًا: الموالى:

إن القارئ للتاريخ الإسلامى سوف يلحظ أن الموالى كان لهم دورهم السياسى والعلمى فى الدولة الأموية، فقد قاموا بأعمال الفتوحات الواسعة كقادة الجيش، كما قاموا بأعمال التنظيم الإدارى؛ كالقيام على أمر الدواوين وتعريبها، ثم كعلماء بزوا العرب فى ذلك، ويمكن القول إن الموالى كانوا على ثلاث طبقات:

١- الطبقة الأولى: موالى العرب.. وهم الذين أعتقوا أو عقدوا حلفًا مع بعض القبائل العربية ذات النفوذ السياسى - أى تنتمى إلى قاعدة العصبية التى قامت عليها الدولة الأموية- وهؤلاء كانوا ردءًا للدولة فى القيام بكثير من الأعمال. ويحدثنا الجهشيارى فى كتابه الوزراء والكتاب أن «سرجون بن منصور» الرومى كان يكتب لمعاوية على ديوان

(١) فى التأصيل الإسلامى للتاريخ صـ ٦٢.
(٢) العصبية فى ضوء الإسلام صـ ٣١، البخارى رقم ١٢٩٤.
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم فى مخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٢٣٣).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٢٣٣).
(٥) الأقليات والسياسة فى الخبرة الإسلامية صـ ١٦١.

الخراج، ويكتب لزياد مولاه مرداس، وعلى الخراج زاذان فروخ، وكان ذلك فى أيام معاوية ابن يزيد بن معاوية، ويكتب على الديوان «سرجون بن منصور» النصرانى - أى غير المسلم. . ، ويكتب لعبد الملك على ديوان الرسائل «أبو الزعيزعة» مولاه وعلى ديوان الخاتم للوليد بن عبد الملك شعيب لصابى مولاه، ويكتب له على المستغلات بدمشق يفيع بن ذؤيب مولاه[1]. وكان كبار الفاتحين المسلمين «طارق بن زياد» مولى من البربر، وكان عامة جيشه الذى فتح الأندلس من الموالى[2].

ومن الموالى الذين وصلوا الإمارة: موسى بن نصير، وكان والده من سبى عين التمر[3]، وولى أبو المهاجر دينار مولى الأنصار إفريقية ٤٧ هـ، وتولى يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج ولاية إفريقية أيضًا، وكان من الموالى، ولما قتل ولوا محمد بن يزيد مولى الأنصار سنة ١٠٢هـ[4]، وغيرهم، ولم يكن الموالى مجرد موظفين ولكن كان لهم دور سياسى كبير فى توجيه الأمور، ولا تكاد تخلو صفحة من صفحات كتاب التاريخ من وجود دور للموالى فى الأعمال السياسية أو القتالية أو الإدارية، وبالتالى فإن هؤلاء الموالى كانوا جزءًا حقيقيًا من الطبقة الحاكمة بلا فرق بينهم وبين مواليهم، فكل طبقة حاكمة تنحى منحى عصبويًا، فإنها تكون بحاجة إلى توسيع قاعدة عصبيتها، ليقوموا على الأعمال الهائلة والممتدة المنوطة بالدولة، وكان الموالى هم الطبقة التى اصطنعتها الدولة الأموية لتواجه المهام التى ينبغى للدولة أن تؤديها، خاصة أن الموالى كانت لديهم قدرة كبيرة فى الأعمال الإدارية والسياسية، والقتالية، لكن الذين اصطفتهم الدولة من الموالى لتوسيع قاعدة النخبة الحاكمة كانوا جزءًا ضئيلاً من فيضان الموالى الذين دخلوا الإسلام، وبالتالى فهؤلاء الطبقة من الموالى كانوا قليلين لو قورنوا بالأعداد الهائلة للموالى التى دخلت الإسلام، والتى مثلت عبئًا على الدولة الأموية[5].

٢- الطبقة الثانية من الموالى: وهم العلماء الذين انخرطوا فى طلب العلم، واستطاعوا أن يحفظوا للأمة الإسلامية تراثها الفقهى والأدبى والحديثى وكل فروع العلم، ففى المدينة على سبيل المثال كان من سادة العلماء فيها: «سلمان بن بشار» مولى ميمونة بنت الحارث توفى سنة ١٠٣هـ، ونافع مولى عمر، وربيعة الرأى وهو من شيوخ الإمام مالك، وفى مكة: مجاهد بن جبر، مولى قيس المخزومى توفى سنة ١٠٢هـ، وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء

(١) الوزراء والكتاب نقلاً عن الأقليات والسياسة صـ ١٥١.
(٢) المصدر نفسه صـ ١٥٢.
(٣) أثر أهل الكتاب فى الحروب الأهلية صـ ٤٥٠.
(٤) المصدر نفسه صـ ٤٥٠.
(٥) الأقليات والسياسة صـ ١٥٣.

بن أبى رباح، وفى البصرة: الحسن البصرى، وأبوه مولى زيد بن ثابت، وفى الشام: مكحول توفى سنة ١١٨هـ، وفى مصر: يزيد بن حبيب «بربرى»، وهو شيخ الليث بن سعد وغيرهم كثير(١).

٣- الطبقة الثالثة من الموالى: وهؤلاء هم عامة الموالى، وهؤلاء تحولوا إلى الإسلام بدون أن يعقدوا مع إحدى القبائل العربية عقد موالاة، فبقى ولاؤهم للأمة كلها أى ينتسبون للأمة دون أن يكون هناك مؤسسة اجتماعية يمكن أن تحميهم أو تهيئ لهم الارتقاء فى المؤسسات السياسية، كما قد تكون هؤلاء موالى لبعض القوى الاجتماعية التى تتحيز الدولة ضدها، كأن يكونون موالى القيسية، بينما قاعدة الدولة العصبوية تعتمد على اليمانية، وهنا فإن الموالى يعاملون كما تعاملهم قبائلهم،... وبينما يُعامل العلماء بالاحترام فإن الطبقة الأولى من الموالى قد تعرضت لتقلبات السياسة بينما تعرضت الطبقة الأخيرة للمعاملة التمييزية التى تصل إلى حد الامتهان، وقد أدت العصبية العربية ضد الموالى إلى رد فعل لديهم يؤكد ذاتهم فى مواجهة تعصب العرب لبنى جنسهم(٢). وقد اتبع الموالى فى خراسان الدعوة العباسية للتخلص من التمييز الاجتماعى والسياسى الذى مارسته ضدهم الدولة الأموية(٣).

وفى الحقيقة لم تكن هناك سياسات عامة للدولة الأموية لاضطهادهم أو التعصب ضدهم، ولم يكن هناك مجال من مجالات العمل موصد أمامهم، فقد رأينا الأمراء وقادة الجيوش والعلماء من الموالى، والحق أن هذه النظرة المتعالية إلى الموالى، لم تكن نظرة كل العرب، بل كانت نظرة بعض البدو الذين لم يفهموا الإسلام فهمًا حقيقيًا، وربما كانت نظرة بعض الولاة، الذين كان يستفزهم عداء الموالى للدولة الأموية، فصدر منهم ظلم وجور للموالى وللعرب من أعداء الدولة، ومن الظلم أن يحمل ذلك على أنه السياسة العامة للدولة الأموية(٤)، وكما كان فى الموالى من ارتفع به إيمانه فوق العصبية، والعنجهية القومية، فقد كان الكثير من العرب من فهم الإسلام جيدًا، وآمن بأنه يسوى بين جميع المسلمين، من عرب وعجم، وأيقن أن الرجل يشرف بدينه وعمله وخلقه، وليس بجنسه وعرقه، فأكرم الناس عند الله أتقاهم، ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، فالحسن البصرى -وهو مولى- كانت له منزلة كبيرة عند العرب، وكلمة مسموعة حتى عند الدولة،

(١) الأقليات والسياسة صـ ١٥٣.
(٢) المصدر نفسه صـ ١٥٤.
(٣) المصدر نفسه صـ ١٥٤.
(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٤٣٢.

بل كان ينتقد علانية خلفاء بنى أمية وولاتهم، ويوم مات تبع الناس كلهم جنازته، حتى لم يبق فى المسجد من يصلى العصر[1]، وعلى كثرة من قتل الحجاج بن يوسف الثقفى من العرب والموالي فى الثورات والفتن العديدة التي شهدتها ولايته على العراق، لم يشتد استنكار الناس عليه فى قتل أحد، كما اشتد عليه فى قتله سعيد بن جبير، وهو مولى، وذلك لمكانة سعيد عند الناس، مع أنه خرج ثائراً على الدولة مع ابن الأشعث[2].

إن الفكرة الشائعة عن بنى أمية والتى أذاعها فون كريمر، وفان فلوتن، ويروان، وردها كما هى جرجى زيدان وفيليب حتى، ونقلها بعض المؤرخين المحدثين مثل حسن إبراهيم حسن، وعلى حسين الخربوطلى، وغيرهم، وهى أن بنى أمية كانوا متعصبين ضد الموالى، وأنهم استغلوهم واضطهدوهم واحتقروهم، وأنه كان من نتائج ذلك سخط الموالى الذى تولد عنه سقوط الدولة الأموية[3]، هذا ليس على إطلاقه، فقد تبين أن هناك مجموعات من الموالى مع الأمويين وأنه كانت أعداد كبيرة من الموالى مثلهم مثل بقية العرب المعارضين للحكم الأموى، استطاعت الدعوة العباسية أن توظف هذه الشريحة من المجتمع الإسلامى وتقنعها بمبادئها وأهدافها، فانضوت تحت لواء الدعوة العباسية، وساهمت فى القضاء على الدولة الأموية، فقد استغلت الدعوة العباسية كل الظروف واستفادت من جميع العناصر الناقمة على الدولة الأموية.

تاسعًا: فشل الأمويين فى إيجاد تيار حضارى:

كان عمر بن عبد العزيز قد حاول - بإيمان صادق، وذكاء متميز سبقه إليه جده عمر بن الخطاب - أن يوقف هذا الامتداد فى الأرض حتى يواكبه امتداد فى الدعوة، بحيث لا تطغى الأرض على الحضارة، ولا الدولة على الدعوة، ولا تصبح اعتبارات السياسة أهم مبادئ الدين، فقد عمل على إيجاد تيار حضارى عقدى يملأ أركان الحياة، ومهما يكن من أمر فإن الدولة الأموية -فى عمومها- لم تستوعب قانون الامتداد الحضارى، فبعد الامتداد (بالفتوحات) كان عليها أن تمتد «بالدعوة»، وإلا فقدت عوامل البقاء والتقدم[4]. وفى عصرى الانطلاق والازدهار أيام معاوية وعبد الملك والوليد وحتى هشام كان بريق الامتداد

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٧).
(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى صـ ٤٣٣ .
(٣) الإدارة فى العصر الأموى صـ ٣٤١ ، الشيعة والإسرائيليات، تاريخ العرب مطول ، فيليب حتى ، تاريخ الإسلام السياسى .
(٤) بنو أمية بين السقوط والانتحار صـ ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣.

يبهر الأبصار، ويوجه الطاقات، ويقدم تبريرات البقاء، فلما أوشك هذان العصران على الانتهاء كان لا بد للأمويين من تبريرات جديدة يعيشون عليها، وتندفع الجماهير خلفهم تحت رايتها، وافتقد أواخر العهد الأموى وجود أمثال عبد الملك والوليد من بناة الدول وصانعى الفتوحات العظيمة، ومن أمثال رجال الإصلاح والتجديد من رجال الدعوة والعدل الشامل، وتقديم نموذج الدولة الراشدة لبقية الإنسانية، فبدلاً من هذا، قدم الأمويون رجالاً من طراز الوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد[١] الذين لم يستطيعوا أن يقدموا مشروعًا حضاريًا يجدد حيوية الدولة ويرسم أهدافها ويدفعها بقوة نحوها، وإنما دخلوا فى أنفاق مظلمة انتهت بزوال دولتهم، لقد فشل خلفاء بنى أمية المتأخرون فى إيجاد تيار حضارى بعد أن اتسعت رقعة الأرض التى يقومون فوقها، ولم يستطيعوا تحويل المناوئين لهم إلى عاملين معهم، فى مجال الدعوة ونشر الإسلام، ودعوة الأمم، وتعليمها وتربيتها على الإسلام الصحيح، وتعليم الشعوب دين الله سواء باللغة العربية، أو بترجمة حقيقة الإسلام للغات الشعوب المسلمة. فقد كان المطلوب منهم تحقيق التوازن بين الدولة والدعوة والأرض والعقيدة والسياسة والفكر، وكانت هذه رسالة عظمى، لم يتقدم فيها الأمويون، كما تقتضى الظروف والتحديات، وكما تقتضى الملاءمة للتحدى، وهذا هو الخطأ الحضارى الكبير[٢]، فحقيقة الأمر أنهم لم ينبعثوا بتيار حضارى يتمم تيارات الفتوحات ويكمله، ويمتص كل حركات الخروج والفتن، فهكذا التاريخ الحضارى دائمًا إما أن يتقدم أو يموت ولا سكون فى تاريخ الإنسانية[٣].

عاشرًا: النزاع الداخلى بين الأسرة الحاكمة:

إن سنة الله تعالى ماضية فى الشعوب والأمم، لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل الله سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم، وزوال الدول الاختلاف، قال رسول الله ﷺ: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» وفى رواية: «فأهلكوا»[٤]. وعند ابن حبان عن ابن مسعود رضى الله عنه: «فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف»[٥]. إن من الدروس المهمة فى هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقى أسباب الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سببًا من الأسباب فى ضياع الدولة الأموية وهلاكها واندثارها، وكان لهذا الاختلاف الذى وقع فى البيت الأموى أسبابه، منها الوازع الدينى عند بعض أمراء الأمويين، والأنانية

(١) بنو أمية بين السقوط والانتحار صـ ٨٤.
(٢) المصدر نفسه صـ ٩٦ ، ٩٧.
(٣) المصدر نفسه صـ ٩٨.
(٤) صحيح البخارى بشرح العسقلانى (٩/ ١٠١ ، ١٠٢).
(٥) المصدر نفسه (٩/ ١٠٢).

وحب الذات، والتكالب على المصالح الدنيوية، والتناحر من أجلها، والحرص على السلطان والجاه والمناصب، وتحكيم بعض الخلفاء أهواءهم فى الأمور، فهذه الأسباب كانت وقودًا للمنازعات والخلافات التى وقعت بين أفراد البيت الأموى، فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة، وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون حيث ذكر أن من آثار الهدم فى الدولة: انقسامها، وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها، كما يؤدى إلى قسمتها ثم اضمحلالها[(١)]. لقد بدأ الخلاف المؤثر فى الأسرة الأموية مع تولى الوليد بن يزيد الخلافة، وخرجت بذلك من أبناء عبد الملك إلى أحفاده، فكان ذلك مما أثار الحسد بين أحفاد عبد الملك، وكان أكثرهم حسدًا أبناء الوليد بن عبد الملك، فكان للوليد بن عبد الملك تسعة عشر ولدًا ذكرًا، وكان عمر بن الوليد يركب ويركب معه سبعون رجلاً لصُلْبه، ولذلك كان آل الوليد يكاثرون بعددهم بنى مروان، وكانوا يدلون بأبيهم أكبر أولاد عبد الملك[(٢)]، فلما قام الوليد بن يزيد بالخلافة استعان بإخوانه وببعض بنى عبد الملك بن مروان وببعض بنى مروان فى أمور وولايات الدولة، ولم يستعمل أحدًا من آل الوليد بن عبد الملك وجفاهم، واشتد عليهم وعلى بعض بنى عمه، ثم جعل الخلافة من بعده فى ولديه الحكم وعثمان، فقام آل الوليد بن عبد الملك بالعمل ضده، وكان رأسهم فى هذا الوجه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ولما بلغ جمع يزيد عسكر الوليد دعوهم إلى الكتاب والسنة وجعل الأمر شورى، وأخذوا يستميلونهم بالمال والولايات، وضعف أمر الوليد وقتل، وكان قيام يزيد بقتل ابن عمه الوليد وجلوسه مجلسه فى الخلافة قد وضع سلطان بنى أمية فى قفص الاتهام، ورفع عنه أستار المهابة، ودفع به إلى السقوط، وهو ما كان بنو مروان يخشونه، فقد حذر العباس بن الوليد أخاه يزيد فقد كان مصيبًا فى تحذيره، وقال له: أخاف أن يكون بعض من حسدنا هذه النعمة من عدونا أراد أن يغرى بيننا، وتمثل مرة قائلاً:

لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم ... إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا

لا تبقرن بأيديكم بطونكم ... فثم لا حسرة تغنى ولا جزع[(٣)]

وصار لسان حالهم:

وساد الناقص القَدرى فينا ... وألقى الحرب بين بنى أبينا[(٤)]

(١) العبر (٥١٧/١)، الضعف المعنوى وأثره فى سقوط الأمم صـ ١١٨.

(٢) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ ٤٠٧.

(٣) تاريخ الطبرى، نقلاً عن دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ ٤٠٨.

(٤) دراسة فى تاريخ خلفاء الأمويين صـ ٤٠٩.

وبعد أن كانت الخلافة تؤخذ بعهد من الخليفة القائم، ولكن بيعة الأمة أخذت هذه المرة بالقوة، وتحركت فى مروان بن محمد أمير الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان وقائد جيوش ثغورها أحاسيس الملك والسلطان وصار يرنو بنظره إلى دمشق(١).

إن مقتل الوليد بن يزيد كان نقطة البدء فى تحدى فكرة الشرعية الأموية، ومسماراً ضخمًا فى نعش الخلافة كمنصب له قدسيته وهيبته، وقد تناولت هذه الفتنة الأسس المكينة التى اعتمد عليها الحكم الأموى بشكل عام، إذ كان القائمون عليها من أهل الشام أولاً، ومن الأمويين ثانيًا، وكلا العنصرين أساس فى تثبيت السلطان الأموى(٢). إن هذا التمزق الداخلى هو أخطر ما أصاب بنى أمية.. إن العصبية التى كانت تحفظ تماسك بنى أمية - فى وجه العصبيات الصغيرة والعواصف العامة - قد انشقت، وفقدت قوتها الذاتية(٣). وهكذا بدأت مسيرة الدم داخل البيت الأموى، وفقدت الأمة إجلالها لهذا البيت المتآكل المتداعى، وكان عهد مروان بن محمد، عهد اضطراب داخلى(٤). لقد أقدم الأمويون على عمل خطير. فهم قد انتحروا عندما تقاتلوا فيما بينهم، وتبادلوا مواقع الموت.. وفى سبع سنوات كانوا قد أجهزوا على أنفسهم.. وقضوا على أسرتهم التى حملوا رايتها(٥). ووافق هذا الخلاف والنزاع بين البيت الأموى تنظيم عباسى محكم يخطط للوصول إلى الحكم وينتظر الفرصة المناسبة لذلك، حتى إذا ما حصلت استغل هذا الخلاف مما ساهم فى الإطاحة ببنى أمية.

الحادى عشر: فشل الأمويين فى تكوين جيش نظامى مرتبط بالدولة، وموالٍ لها، ومدافع عن شرعيتها:

لم يحسن الخلفاء المتأخرون فى الدولة الأموية فى الموازنة بين القبائل الرئيسية فى الدولة؛ فقد مال الخليفة الوليد بن يزيد فى خلافته للقبائل القيسية، وأظهر تجاهلاً واضحًا فى علاقته مع القبائل اليمانية التى قام عليها كيان الجند الشامى، فكان لموقف الوليد من خالد بن عبد الله القسرى - وهو أحد إشراف اليمانية الذى أساء معاملته وسلمه إلى يوسف بن عمر بن هبيرة والى العراق والذى عذبه حتى مات - سبب كاف لأن تظهر القبائل اليمانية استياءها وهى أكثر جند الشام، لأن مغزى هذا الإجراء إغراء قبائل قيس

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين ص ٤٠٩.
(٢) بنو أمية بين السقوط والانتحار ص ٨٦، ٨٧.
(٣) المصدر نفسه ص ٨٧.
(٤) المصدر نفسه ص ٩٣.
(٥) المصدر نفسه ص ٩٧.

بقبائل اليمن، وأصبحت الحكومة حزبًا قيسيًا، وأصبحت قبائل اليمن مهيأة لأن تستخدم كأداة للتغيير، وهى عماد القوة العسكرية، وذلك بتغيير الحكومة خاصة أن الوليد بن يزيد لم يلق التأييد الكامل من آل بيته لموقفه السيىء منهم مما سهل على القوى العسكرية إيجاد المرشح البديل، فالتفت حول يزيد بن الوليد، واستطاع يزيد من تحقيق طموحه للوصول إلى الخلافة مستغلاً تذمر الفئة العسكرية الغاضبة على مكانتها وضياع امتيازاتها، ومغريًا فئات أخرى بالمال.

وكان لتورط الجيش بالثورة على الخلافة وتقرير سياستها، وفق ما تمليه عليه المصلحة والعصبية القبلية، أن فقدت الخلافة الأموية هيبتها وشرعيتها لدى مؤيديها من القبائل التى تمثل قوتها العسكرية، وبالمقابل كان لفشل الخلافة فى تحقيق التوازن بين القبائل- نتيجة لصراع البيت الأموى على السلطة - أن فقدت الأداة التى قامت عليها، واعتمدت عليها فى إقرار سياستها وبسط شرعيتها على أقاليم الدولة، فكان أن أصبحت القبائل أداة بين الطامحين إلى السلطة، ذلك أن القبائل التى اعتمدها الأمويون كقوة عسكرية لم تستطع إدراك الأهداف السياسية للحكم المركزى، ولم تكن لها تقاليد سياسية تحدد علاقتها مع الحكومة، فاقتصرت هذه العلاقة على المصالح القبلية الضيقة، فإذا ما تعرضت هذه المصالح لأى نقص، فليس لها - وهى التى تملك الأداة العسكرية - سوى أسلوب التغيير المسلح، ونتيجة لتعارض المصالح القبلية التى احتوتها القوة العسكرية ودخولها فى صراع على السلطة والامتيازات، فقد جرت عادة الخلافة أن تكون طرفًا فى هذا الصراع، خاصة بعد انقسام البيت الأموى وتنازع أفراده فى الوصول إلى السلطة، فكان لميل الخليفة إلى إحدى كتل هذه القوى لتحقيق طموحه من خلالها أن تحول الخلفاء الأمويون من خلفاء تتجسد فيهم وحدة الأمة إلى رؤساء لتكتلات قبلية[1]، وأدى صراع القوة العسكرية على السلطة وانقسامها إلى كتلتين متنازعتين إلى حدوث فوضى سياسية وعسكرية فى مركز الخلافة وزعزعة كيانها، فعجزت عن ملاحقة الأحداث فى أقاليمها، فكان ذلك إيذانًا بأفول الحكم الأموى[2]. وبهذا فقد الحكم الأموى مهابته وشرعيته بعد أن تفككت عرى الرابطة القبلية الذى قام عليها، ونتيجة للنظرة القبلية الضيقة لبعض خلفاء بنى أمية المتأخرين، لذا لم يستطع مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وهو الذى يمتلك القوة الوحيدة القادرة على إعادة الأمور إلى نصابها، أن يتجاوز هذه السياسة خاصةأنه قد وصل إلى السلطة بمساندة القبائل القيسية التى بايعته[3].

(١) الجيش وتأثيراته فى سياسة الدولة الأموية ص ١٣٠.

(٢)، (٣) المصدر نفسه ص ١٣١.

وكان لاعتماد مروان على القبائل التى ثارت بعد مقتل الوليد؛ لاسترجاع سلطتها وامتيازاتها، أن خلق حالة من العصيان والتمرد فى صفوف قبائل اليمن، أرغمت مروان بالدخول فى حروب متعددة معها - كما مرّ معنا -.

إن القارئ الكريم لا يحتاج إلى الكثير من التفكير ليتبين له مدى تأثير القوة العسكرية للأمويين فى سقوط حكمهم، فالقوة العسكرية - التى قام على أكتافها الحكم وعلى موالاتها - قد تفككت عراها، وانحلت روابطها بعد أن أظهر الخلفاء سياسة قبلية ضيقة اختصت فئة معينة. وقد حاول مروان بن محمد إنشاء جيش نظامى خارج القوات القبلية، وتأليف فرق نظامية تكون صلب الجيش، وتحل محل فرق القبائل، وإحلال القواد المحترفين محل رؤساء القبائل، إلا أن هذه المحاولة التى استهدفت الاستغناء عن النظام القبلى فى بناء القوة العسكرية قد جاءت متأخرة، وفى وقت اضطربت فيه الأوضاع فى أقاليم الدولة كافة، ولم يعد من الممكن تغيير شيء، فقد أصابت العصبية كيان الجند الأموى، وأدت إلى زعزعته وتخاذله حتى فى أحلك الظروف. وقد استغل العباسيون هذا الضعف للفت فى عضد الحكم الأموى، وتعطى وصية إبراهيم بن محمد العباسى لأبى مسلم الخراسانى صورة صادقة للأوضاع القبلية بين العرب فقد أوصاه بقوله: فانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم، فإن الله عز وجل لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فإنهم العدو[(١)].

وهكذا فعل أبو مسلم فى خراسان، ومالت اليمانية إلى بنى العباس بدافع العصبية ضد القيسية التى كانت بجانب مروان بن محمد[(٢)]، وتجلت العصبية فى معركة الزاب، وكيف كانت ذات أثر كبير فى هزيمة مروان بن محمد. وبعد هزيمته تخلى عنه جنده وكان لا يمر بجند من أجناد الشام إلا انتهبوه[(٣)]. وأدرك مروان نتيجة الاعتماد على القوة العسكرية للقبائل حيث قال: انفرجت عنى قيس انفراج الرأس، ما تبعنى منهم أحد، وذلك أنا وضعنا الأمر فى غير موضعه[(٤)]. لذا فإن عدم قدرة الخلافة على تكوين جيش نظامى دائم ومرتبط بالدولة، وموال لها، ومدافع عن شرعيتها، كان من أهم نقاط الضعف فى الخلافة؛ بحيث جعل السلطة المركزية عرضة لأهواء وميول شيوخ القبائل، والمتنفذين فى أقاليم الدولة الواسعة، فلما ضعف المقاتلة وضعف تماسكهم من جراء العصبية، أو المطامع الشخصية، وفقدت رابطة الهدف المشترك الذى يربطها بالحكم، تخلت عنه وأدت إلى انهياره[(٥)].

---

(١) تاريخ الموصل صـ ٦٥، الجيش وتأثيراته صـ ١٣٧.

(٢) الجيش وتأثيراته فى سياسة الدولة الإسلامية صـ ١٣٧.   (٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه صـ ١٣٩.

الثاني عشر: فشل مروان بن محمد في إنقاذ الخلافة الأموية:

لم يستطع مروان بن محمد أن ينقذ الخلافة الأموية من سقوطها الكبير، وذلك لأسباب كثيرة:

١- **عدم شرعية مروان بن محمد:** لم يكن لمروان بن محمد أى حق شرعى بالخلافة - بالعرف الأموى - فلم يذكر اسمه فى تفويض ولاية العهد، كما أنه كان ابن أمة، ولم يكن من عادة الأمويين تولية العهد لأولاد الإماء من الأمراء، فقد حرموا مسلمة بن عبد الملك من الخلافة بسبب ذلك، إلا أن مروان اغتصب الخلافة نتيجة الاضطرابات التى أعقبت مقتل الوليد الثانى، وقد رفض أهل الشام الاعتراف بخلافته أول الأمر، كما ثار ضده أمراء من البيت المروانى. إن هذا الانقسام فى الشام وفى البيت الحاكم أضعف البلاد، ودمر قوتها العسكرية[1].

٢- **نقل عاصمة الدولة إلى حرّان:** ارتكب مروان خطأ كبيراً عندما نقل عاصمة الدولة إلى حرّان بالعراق، حيث أخذت قلوب أهل الشام تنصرف عنه، وقد نقل كل الأعمال إلى العاصمة الجديدة مع بيت المال من دمشق، وآل به هذا إلى نتائج خطيرة، فقد شعرت الشام بأجمعها مع دمشق بأنها سُلبت الحكم، يستثنى من ذلك قسمها الشمالى، وعمقت الخلافات الحزبية هذا الشعور أكثر فأكثر، وتمنى الناس العودة إلى العهود السابقة[2]، وكان ذلك الفعل بداية النهاية لعاصمة الأمويين[3].

إن مروان عندما ابتعد عن دمشق فقد نصيراً قويًا، انتبه إلى أهميته معاوية بن أبى سفيان، فأوصى ابنه يزيد بأن يجعل أهل الشام بطانته، وأن ينتصر بهم[4]، وبالفعل لقد ألف أهل الشام بنى أمية، فأصبح هواهم فى بنى أمية، وحب بنى أمية قد رسخ فى قلوبهم[5]. والواقع أن معاوية منذ أيام ولايته أدرك طباع أهل الشام، وأخلاقهم، فماشاهم، وساسهم أحسن سياسة، فأخلصوا له أشد الإخلاص، وحفظوا له أطيب الذكرى، والتفوا حول بيته، حتى أصبح آل أمية وجه دمشق المشرق، إلا أنه لما فشت العصبية القبلية واشتدت، وأصبح الخليفة لفئة من الناس دون فئة، واضطره هذا فى بعض

(١) الثورة العباسية صـ ٧٠.
(٢) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية صـ ١٥٤.
(٣) الدولة العباسية فى العصر العباسى صـ ٤٦.
(٤) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية صـ ١٥٤.
(٥) المصدر نفسه صـ ١٥٤.

الأحيان أن يعرض عن اليمانية، وهم معظم أهل الشام، بدأ هؤلاء يتعدون عن الأسرة الأموية قليلاً، ولكن رغم كل ذلك بقى لبنى أمية فى قلوب أهل الشام محبة خاصة تجسدت فى ثورتهم بعد زوال البيت الأموى مباشرة، وربما كان عذر مروان فى نقل العاصمة إلى حرّان أنها كانت مركز القيسية، وهؤلاء هم دعامته الكبرى فى الوصول إلى الخلافة[1]، وبين ظهرانيهم عاش والده، ونشأ هو، وفى هذه المنطقة كان يشعر أنه بين ذويه، ثم إن هؤلاء هم الذين بايعوه قبل غيرهم، ولا يمكن أن يبقى عند سواهم[2]. وهو من جهة أخرى لا يثق بالجيش الشامى واليمانيون فيه أكثرية. إن هذا العذر غير مقبول لأن مروان بما وصف به من بعد نظر، وتفكير طويل، كان يستطيع أن يضم تحت جناحه اليمانية بأى أسلوب كان، دون أن يغضب أصدقاءه القدامى من قيس، وبهذا تعود للشعب وحدته، ولقد جنى مروان ثمرة نقل العاصمة بنفسه، إذ اضطره ذلك لخوض معارك متعددة على أرض الشام دامت فترة من الزمن، فى وقت كانت فيه خراسان ترتجف بنصر بن سيار، وقد بدت سحائب دخان كثيف تدل على ثورة بركان يمكن أن يجتث الحكم الأموى بكامله[3]، فقد كان انتقال الخلافة من دمشق إلى الجزيرة انقلابًا كبيرًا ذا شأن، وانتقال الخلافة كان من منطقة إلى منطقة، ومن جوار إلى جوار، ومن عصبة إلى عصبة أخرى، وأخيرًا من مجتمع إلى مجتمع، وكان للمجتمع القديم أن يدافع عن نفسه وعن حقه المغتصب، فحصلت تلك الهزة العنيفة فى تاريخ الأمويين، ولئن كان مروان بن محمد قد تغلب على تلك الهزة وأخضعها بالسنان، فإن التفكك حدث فى الدولة الأموية، والصدع الذى لم يُرْتَقَ، ولم يكن للجرح أن يلتئم فى عهد مروان إذ لم يُترك متسع من الوقت أمام الحكم الجديد ليوطد أركانه، فالدولة الأموية كانت قد نقضت بنيانها بغية أن تبنى بنيانًا جديدًا مكانه، وإذا بالبنيان الجديد الذى لم يستقر بعد يتعرض للعاصفة، فيتساقط كأوراق الخريف[4].

٣- فشل مروان بن محمد فى تنظيم حكومة مركزية قوية: لم يستطع مروان بن محمد أن يوجد حكومة مركزية، من خلال نظام إدارى سياسى يدعم الحكومة فى الأقاليم، وتساند الحكومة جيش نظامى قوى، مع مؤسسات أخرى كالشرطة والمخابرات والأمن، مما أدى إلى انتشار الإشاعات والدعايات والتنظيمات السرية، التى لم تكن نشاطاتها كلها تصل إلى سمع الخليفة، فأنتجت فى النهاية تلك الثورة العارمة، أين هذا العهد من عهد معاوية وعبد الملك وضبطهم لأمور الرعية،؟ وشدة تيقظهم ومتابعتهم للخصوم فى الداخل والخارج؟

(١) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية صـ ١٥٥. (٢)، (٣) المصدر نفسه صـ ١٥٥.
(٤) الدولة الأموية للعشى صـ ٣٣٧.

ولذلك لما أحيط بمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية قال: يا لهفتاه[1] على دولة ما نصرت، وكف ما ظفرت، ونعمة ما شكرت. فقال له أحد خدامه: من أغفل الصغير حتى يكبر، والقليل حتى يكثر، والخفى حتى يظهر، وأخرّ فعل اليوم لغد، حلَّ به أكثر من هذا. فقال مروان: هذا القول أشدُّ عليَّ من فقد الخلافة[2]. إن تنظيم الحكومة المركزية القوية يساعد على ضبط أمور الدولة، ومتابعة أخبار الأقاليم والأمراء والرعية من خلال أجهزتها ومؤسساتها ولجانها، وخصوصًا فيما يتعلق بالأمن وجمع المعلومات. ولذلك لما سئل أحد أمراء بنى أمية: ما سبب زوال ملككم؟ قال: قلة التيقّظ، وشُغلنا بلذاتنا عن التفرغ لمهماتنا، ووثقنا بكُفاتنا فآثروا مواقفهم علينا، وظلم عمالنا رعيّتنا، ففسدت نياتهم لنا، وحُمل على أهل خراجنا فقلّ دخلنا، وبطل عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعداؤنا فأعانوهم علينا، وقصدنا بُغاتنا فعجزنا عن دفعهم لقلّة نصّارنا، وكان أول زوال ملكنا استتار الأخبار عنا، فزال ملكنا عنا بنا[3]. والحقيقة أن هذه الرواية جمعت معظم العوامل التى أدت إلى سقوط الدولة الأموية، إلا أن راويها نصر بن مزاحم المنقرى شيعى رافضى متروك الحديث[4]، لذلك لابد من التعامل مع هذه الرواية بحذر شديد[5].

٤- احتقاره للخصوم فى خراسان: كان مروان قائدًا عسكريًا، قبل كل شيء، والطبيعة العسكرية تغلب عليه، وهى طبيعة خاصة من مميزاتها الاستهانة بالأخطار والاستهانة بالخصوم، وهذه النفسية هي التى كلفت مروان نهايته المحتومة، وبالتالى نهاية حكم أسرته فى المشرق. اطلع مروان على حال خراسان وكيف أن واليه عليها نصر بن سيار يتعرض لخطر شديد، ومع ذلك يكتب لنصر: الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم الثؤلول[6]. فكان جواب نصر: الثؤلول قد امتدت أغصانه وعظمت نكايته[7].

لقد بلغ به احتقار الثورة العباسية إلى حدود وصفها بالثؤلول[8]، إن الثقة بالنفس، إذا وصلت إلى حد احتقار العدو، فإنها تكون قاتلة[9]، كان قتيبة بن مسلم قد ألمت به أمور هامة، وأخذ يفكر فى فئة خرجت عليه، كيف يقضى عليها، فقيل له: ما يهمك منهم: وجِّه إليهم وكيع بن أبى مسعود، فإنه يكفيهم.. فأبى وقال: لا.. إن وكيعًا رجل به كبر،

(١) يا لهفتاه: كلمة تحسر وتحزن على ما فات.
(٢) البداية والنهاية (١٣/٢٦٦).
(٣) ولاية الشرطة فى الإسلام صـ ١١٨، المحاسن والمساوئ صـ ١٥٥.
(٤) ميزان الاعتدال (٤/٢٥٣، ٢٥٤).
(٥) المصدر نفسه (٦/١٥٧).
(٦) الكامل فى التاريخ (٣/٤٥٩).
(٧) العقد الفريد (٤/٢٠١).
(٨) الثؤلول: بَثْر صغير يظهر على الجلد.
(٩) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية صـ ١٥٢.

يحتقر أعداءه، ومن كان هكذا قلت مبالاته بعدوه، فلم يحترس منه، فيجد عدوه منه غرة[1]. وهكذا كان مروان[2].

٥- **الاستبداد بالرأي:** لما ضعفت المشورة فى نهاية عهد بنى أمية ضاعت الخلافة، فإنه عندما سئل آخر خلفائهم مروان بن محمد عن ذلك قال: الاستبداد برأيى، لما كثرت كتب نصر بن سيار أن أمده بالأموال والرجال قلت فى نفسى: هذا رجل يريد الاستكثار من الأموال بما يظهر فساد الدولة من قبله، وهيهات أن ينتقض علىّ خراسان، فانتقضت دولته من خراسان[3].

٦- **إبعاد الأولياء وتقريب الأعداء:** قال أبو مسلم الخراسانى: كان أقوى الأسباب فى خروج دولة بنى أمية عنهم: كونهم أبعدوا أولياءهم ثقة لهم، وأدنوا أعدائهم تألفًا لهم، فلم يصر العدو بالدنو صديقًا، وصار الصديق بالبعد عدوًا[4].

إن مروان بن محمد أضاع ثقة أهل الشام فى الأمويين، وذلك من الأخطاء التى قلبت دولتهم، فبنو أمية أقاموا حكمهم فى الشام وعلى أهل الشام، وأهل الشام هم الذين كانوا يمسكون بقواعد الحكم الأموى ويثبتوتها. ولقد ناصروا بنى أمية فى كل المواقع، وكانوا السبب فى كثير من انتصاراتهم ضد خصومهم، وكانوا وإياهم يدًا واحدة على نوائب الدهر، وأقوى أهل الشام قبائل بنى كلب التى كانت تقطن هذه المنطقة وتكثر فيها. والحق أن معاوية رضى الله عنه بنى حكمه على كلب وتزوج منها - مع استيعابه الكبير لفقه الموازنة بين القبائل - ومروان اعتمد عليها أيضًا، فكسب بها موقعة مرج راهط، واستمر خلفاؤه على صلات حسنة بكلب، وإن كانوا يشجعون قيسًا فى العراق وخراسان.

والخطأ الأكبر لبنى أمية فى عصر يزيد بن عبد الملك أنهم قضوا قضاء مبرمًا على المهالبة وهم من اليمن، وأساءوا لكلب، وهى من اليمن أيضًا، فأشعروها أنهم ضدها فى الشام أيضًا، وجاء مروان بن محمد فنقل العاصمة إلى حرّان بالجزيرة بين قيس، ففقد ثقة الشام بعد أن فقد كلب. وهذا هو الذى أودى به بالرغم من حسن قيادته وحيله الحربية، وقدرته فى تسيير الرجال، ولو بقى أهل الشام معه -قلبًا وقالبًا وعلى رأسهم كلب- لقوى بهم ودفع كل المصائب التى جابهته بيسر، ولتمكن من العباسيين الذين أقبلوا عليه من خراسان[5].

(١)، (٢) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية صـ ١٥٣.

(٣) سراج الملوك للطرطوشى صـ ٩٥، الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٢٨٦).

(٤) الشهب اللامعة صـ ٦٢٥. (٥) الدولة الأموية، للعش صـ ٣١٤.

وقد أدرك مـروان ذلك فقـال: انفرجت عنى قـيس انفراج الرأس، مـا تبعنى منـهم أحد، وذلك أنا وضعنا الأمر فى غير موضعه(١).

٧- **لم يلجأ إلى استخدام المال والسياسة فى تفتيت الخصوم:** لم يستفد مروان بن محمد من السياسة والمال فى تفتيت الخصوم، فقد أخطأ حين ولى ثابت بن نعيم فلسطين؛ لأنه يعرف خطره، ولكن هذا الخطأ يمكن أن يخـف كثيـراً لو ترك إلى جانب ثابـت رجلاً عينًا عـليه لمروان من جهـة، ومن جهة أخـرى كى يحد من قيـمة ثابت بين أصحـابه، أو يتولى هذا الرجل معظـم أعمال الوالى، بحـيث يكون الوالى مجـرد رمز فقـط، لأن مروان لم يكن يستطع عزله فى ذلك الوقت حتى لا يثور الناس عليه. وأخطأ أيضًا عندما ترك سليمان بن هشام فى الرصـافة، فلو استـبقاه لديه كمـستشار مـثلاً فتـرة أطول، ولم يدعه يذهب إلى الرصافـة حيث كان والده هشـام قد اتخذها مـقرًا له، لأمكن مروان أن يملك رأس الفـتة المناوئة له.. ولو فعل لتجنب فتنًا داخلية شغلته عن خطر داهم تدفق من خراسان(٢).

أخطأ كذلك عندما جنَّد جيشًا مؤلفًا من عشرة آلاف مقاتل، ووجهَّهم للعراق إلى قتال الخوارج، رغم معرفته بأن هذا الجيش قد تمرد عليه قبلاً فى دير أيوب.. حتى إذا تحرك هذا الجيش نحو العراق مر بالرصـافة فدعا سليمان بن هشام للتمرد، فـاستجاب، وخلع مروان سنة ١٢٧هـ، ويتجلى هذا الخطأ حين نعرف أن فترة قصيرة جدًا كانت تفصل بين تمرد هذا الجيش وتوجـيهه إلـى العراق، وأن هذا الجيش قـد أرسل إلى العراق دون قـيادة تميل إلى مروان، فهل يعـقل أن ينقلب متمردون مسلحـون من أعداء للخليفة إلى مـدافعين عنه بين ليلة وضـحاها ؟ بل مـاذا ينتظر من هذا الجـيش غيـر التـمرد مـجدداً كـما تمرد من قـبل وكان؟(٣)، ولقد سبق لعبد الملك بن مروان أن واجـه أخطاراً مما جابهت مروان بن محمد، فالروم من جهة، وعبد الله بن الزبير، والخوارج، وأهل قرقيسيا والقيسية من جهة أخرى، وحركة التـوابين، ورجل من البيت الأموى يحتـل دمشق، ويعلن عزل عبد المـلك ويتمرد عليه، وهو عـمرو بن سعـيد بن العـاص، فاستـخدم عبـد الملك المال والسياسـة حتى لا يتحركوا ضده فى وقت واحد، وقد مّر مـعنا تفصيل ذلك فى حديثنا عن عهد عبد الملك، وقد قام عبد الملك بالتالى: فالروم لهم الجزية يؤديها عبد الملك، وعمرو بن سعيد له العودة السريعة إلى دمـشق، والقتل بيد عبد الملك نفســه، وأمير قرقيسيـا له الصلح والمال الوفير، وأما الخوارج وابن الزبير فلهم الانتظار حتى ينتهى القتال الدائر بينهم، حتى إذا انتهى بظفر

(١) الجيش وتأثيراته فى سياسة الدولة الإسلامية صـ ١٣٩.

(٢)، (٣) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية صـ ١٥٦.

فريق بعد إنهاك قوته انقض عليه عبد الملك بجيش مستريح مستعد للقتال، كان عبد الملك يعرض الأمان لأعدائه، ويستميل قوادهم بشتى الوسائل. كل هذه المواقف تدل على مدى مرونة شخصية عبد الملك ودهائه، وحسن سياسته ومراعاته للظروف، إذ لكل داء دواء، أين سياسة عبد الملك المرنة فى مجابهة الأعداء من سياسة مروان ؟ لقد كان حريًا بمروان أن يحتذى خطوات عبد الملك، ولو فعل لفتت خصومه واحداً بعد الآخر، ولكنه لم يفعل، فاتحد هؤلاء، وتكاتفوا ووضعوا أمامهم هدفًا واحداً؛ هو إبادة مروان والدولة الأموية، وقد وُفقوا وحققوا الهدف، وعذر مروان- فيما نرى- يعود إلى طبيعته، كقائد عسكرى أكثر منه سياسيًا يرأس دولة تعج بالفتن والأعداء. من كل الأخطاء التى ذكرناها نلمح شخصية مروان المعتدة بذاتها، وبقدراتها المستهينة بكل عدو، المستهينة بكل خطر، وكأن مروان يقول فى نفسه: ماذا يصنع ثابت بن نعيم؟ وماذا يفعل سليمان بن هشام ؟.. أنا لهما بالمرصاد، وهما دونى بكثير، حركة واحدة منى تقضى عليهما، وماذا يصنع عشرة آلاف جندى -كانوا تمردوا قبلاً- إذا أرسلوا إلى حرب الخوارج ؟ تلك نفسية مستعلية عنيفة[(١)]. وعيب مروان أنه يبدأ عدوه بالسيف، فإذا خرج متمرد فى مكان جرد له جيشًا ربما قاده بنفسه، وكثيراً ما فعل، مع أن هذا المتمرد فى غالب الأحيان ليس بحاجة إلى السيف بل هو بحاجة إلى المال يقبضه، أو ولاية يتولاها، أو وظيفة يشغلها، وما أرخص هذه الأشياء مهما كثرت، وما أغلى السيف إذا جُرِّد ولو أعيد إلى غمده بعد قليل[(٢)]. وقد رأينا كيف فعل معاوية مع خصومه فى بذل الأموال وحسن السياسة لكسبهم أو تحييدهم أو دفع أخطارهم عن دولته[(٣)]، وكان شعاره: لا أضع لسانى حيث يكفينى مالى، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، فإذا لم أجد من السيف بدًا ركبته[(٤)]. عيب مروان كان فى طبيعته كقائد حربى من الطراز الأول، ولعل هنا يكمن عذره، رغم أن هذا العيب قد هدَّ أركان الدولة أخيراً، ولم تعدله العبقرية العسكرية الفذة[(٥)].

٨- **شؤم بدعة الجهمية على الدولة الأموية:** إن شؤم البدعة خطر على الأمة والشعوب والدول والأفراد والجماعات، ومن يدرس تاريخ هذه الأمة والاتجاهات البدعية التى ظهرت يجد أثرها السلبى على الدولة الإسلامية كلها. يقول ابن تيمية عن أسباب سقوط الدولة الأموية: إن دولة بنى أمية كان انقراضها بسبب هذا الجعد المعطل، وغيره من الأسباب، التى أوجبت

(١)، (٢) مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية صـ ١٥٨ .

(٣)، (٤) المصدر نفسه صـ ١٥٨. (٥) المصدر نفسه صـ ١٥٩.

إدبارها، وفى آخر دولتهم ظهر الجهم بن صفوان بخراسان[1]. وقال: وهذا الجعد إليه ينسب مروان بن محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمـية، وكان شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة، فإنه إذا ظهرت البدع التى تخالف دين الرسول ﷺ انتقم الله ممن خالف الرسل، وانتصر لهم[2].

وهذا التفسير الإسلامى لأحداث التاريخ الإسلامى يخالف ما درج عليه جملة من المؤرخين الذى لا يفسرون أحداث التاريخ إلا بأسباب مادية بحتة، وهو من العمل الذى لا يفقهه إلا أهل الإيمان[3]. وقد وصف الدكتور يوسف العش المجتمع، الجديد الذى نقل إليه مروان بن محمد العاصمة فقال: . . . ولم يقتصر التغير على إحداث هذا المجتمع، وعلى تكوينه تكوينًا جديدًا، بل اتخذ هذا المجتمع كيانًا خاصًا وأفكارًا جديدة، فأصبح يقول بمذهب الجعد بن درهم الذى نسب إليه مروان وتأدب على يديه[4].

٩- انحلال الضبط: انهار الضبط فى الجيش الأموى وفى الدولة، فلا الجنود ينفِّذون أوامر القائد، ولا الناس يخضعون للسلطة، ولعل من أسباب انحلال الضبط وانهياره حرب الاستنزاف بين جيش الدولة وبين أعداء الدولة التى طالت كثيرًا، فأصبحت الحرب هى القاعدة والسّلام هو الاستثناء، وكلما طالت الحرب زاد التذمر وضعف الضبط، ولعل من أسبابه الدعوة السّرية للعباسيين التى استمالت إلى جانبها كثيراً من الناس، وأصبح معتنقو هذه الدعوة رتَلاً خامسًا بين صفوف جيش الحكومة ومكاتبها، وبين أفراد الشعب، يثيرون الإشاعات، ويثبِّطون العزائم، وينشرون الفوضى والارتباك، ومن مظاهره ما حدث من اقتتال بين جيش الدولة والخارجين عليها فى الحجاز واليمن، مما أدى إلى ارتباك مواسم الحج ارتباكًا شديدًا، وأما فى خُراسان والمشرق الإسلامى، فقد كانت سلطة الدولة فى إجازة طويلة وكلّ هذا الانحلال، أدى إلى تردى معنويات جيش الدولة وإلى انهيار الضبط فيه. وتجلى هذا الانحلال فى الضبط، فيما ظهر فى معركة الزّاب الحاسمة، فما أصدر مروان أمرًا إلى قوّاته المحاربة إلا ولم ينُفّذ أمره باستهتار عجيب، وبلغ العصيان حدًا فى تلك المعركة الحاسمة لم يبلغه فى معركة أخرى، فالقبائل رفضت تنفيذ أوامر مروان دون استثناء، حتى الرجل الذى كان على شرطته، عصى أوامره عصيانا فاضحًا، والمفروض أنَّ مثل هذا الرجّل من أقرب المقربين إلى الخليفة، ومن أخلص المخلصين له، ولكنه آثر العافية على الخطر، كأنه كان واثقًا بأن الهزيمة النكراء ستحل بمروان وشيكًا، والجيش الذى يصاب بانحلال الضبط وانهيار المعنويات لا ينتصر أبدًا، والدولة التى تفقد هيبتها لا يمكن أن تبقى أبدًا[5].

---

(١) أصول مذهب الشيعة الإمامية (٣/ ١٤٣٢).

(٢) الفتاوى (١٣/ ٩٦).

(٣) الفتاوى (١٣/ ٩٩).

(٤) الدولة الأموية صـ ٣٣٥.

(٥) قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية صـ ٤٨٤.

١٠- تجاوز الاحتياط: حشد مروان بن محمد جيشه في الزاب لخوض معركته الحاسمة، وكان من حقِّه وواجبه أن يحشد كلّ القادرين على حمل السلاح من أنصاره لخوض تلك المعركة الحاسمة، ولكنه كان عليه أن يفكر في معارك أخرى، يقاوم بها بالعمق أنصار العباسيين، فإذا انهزم في معركة الزّاب، فينبغي أن يخوض معارك أخرى في حلب ودمشق وفلسطين ومصر، ويفكر بإعداد قوّات احتياطية، تدافع عن الدولة في معارك متعاقبة، وألاّ ينتهي في معركة واحدة كما حدث، ثم يصبح بعد هزيمته شريدًا طريدًا، ليست لديه قوات احتياطية تدافع عنه وعن الدولة، كما ينبغي. والظاهر أنّ مروان لم يفكر بإعداد قوّات احتياطية، تقاتل في حالة هزيمته في لقائه الأول والأخير، ولهذا كانت معركة الزاب هي معركته الأولى والأخيرة، ثم انتهى أمره وأمر الدولة بعد الهزيمة، وأصبح همّه الحفاظ على حياته كأي إنسان، يهرب من بلد إلى آخر، وقوّات العباسيين تطارده إلى أن استطاعت قتله في الصعيد من أرض مصر، فانتهى الخليفة وانتهت دولة الأمويين. إنّ إهمال إعداد قوات احتياطية خطأ فاحش لا يُغتفر لمروان، دفع ثمنه حياته ومصير دولته[١].

١١- ضعف الثقة بينه وبين رجاله وبغض الناس له: لم يكن مروان بن محمد يتبادل الثقة الكاملة بينه وبين رجاله، ولا المحبة المتبادلة، لأنه كان «ظالمًا»[٢] «صارمًا»[٣]، وكان يغري بين القبائل، ويُغضب العشائر، واصطفى قيسًا، وانحرف عن اليمن وبادأها العداوة، فصارت عليه إلبًا، وعليه حربًا[٤]، لهذا تخلى عنه رجاله في أحرج الأوقات والظروف في معركة الزّاب الحاسمة، ولم يقاتل ولاته على المدن والأمصار كما ينبغي، بل استسلموا دون مقاومة تذكر لجيش بني العباس[٥]. وربما كان هذا سبب الاختراق الكبير للدعوة العباسية للجيش الأموي من خلال خلايا التنظيم العباسي.

لقد كان الناس يهابون مروان ويخافونه خوفًا شديدًا حين كان في السلطة قويًا، لأنه كان ظالمًا لا يبالي بالقتل والصَّلْب، حتى لقد صَلَب الموتى والقتلى أيضًا، كما جرى في معركة حمص، عندما نكث أهلها، فقد صلب خمسمائة من القتلى حول المدينة، وهدم قسمًا من سور المدينة[٦]، انتقامًا من أهلها، وبالغ في القتل، مما جعل القلوب التي حوله تتغير عليه سرًا وتظهر له الولاء علنًا، أما الذين كانوا مع الأعداء فقد قاتلوه بعنف وشدة، لأنه صدع

(١) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية صـ ٤٨٤، ٤٨٥.
(٢) العبر (١/١٧٨).
(٣) البداية والنهاية نقلاً عن قادة الفتح الإسلامي صـ ٤٩٠.
(٤) التنبيه والإشراف صـ ٣٢٨، البداية والنهاية (١٣/ ٤٩٠).
(٥)، (٦) قادة الفتح الإسلامي صـ ٤٩١.

قلوبهم بالظلم والتعصّب والانتقام، ولكن حين أصبح ضعيفًا، وبدت بوادر انهيار سلطته، خلع الناس عنهم لباس الخوف، وكشفوا له ولأعوانه نياتهم، فهؤلاء الذين بقوا حول مروان مضطرين اضطرارًا، ولم يستطيعوا التخلى عنه نظرًا لظروفهم الخاصة أو لأسباب قاهرة، وهم أهل الشام، أقرب المقربين إلى بنى أمية وحماة دولتهم وقاعدتهم الأمينة، بذلوا قصارى جهدهم للتخلص من مروان، فقدم جنودهم إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وكان فى جيش مروان فاتصلوا به سرًا وحسنوا له خلع مروان وشجعوه عليه، وقالوا له: أنت أرضى عند الناس من مروان، وأولى بالخلافة. فأجابهم إلى ذلك، فسار بإخوانه ومواليه معهم فعسكر بقنسرين، وكاتب أهل الشام، فأتوه من كل وجه[١]. وبلغت درجة بغض مروان من أبناء شعبه، أنّ قسمًا من بنى أمية لجأوا إلى أعدائه وقاتلوه إلى جانبهم، حتى أن قسمًا منهم لم يتورّع إلى اللجوء للخوارج والصَّلاة خلفهم، والقتال إلى جانبهم، لا محبة فيهم بل كرهًا لمروان، والقائد الذى لا يحبّه رجاله ولا يثقون به لا يمكن أن ينتصر أبدًا، ولعلّ مروان وما حاق به يكون عبرة للمعتبرين[٢].

١٢- **خذلان أهل الشام لمروان فى معركة الزاب:** لو أن أهل الشام وقفوا كلهم متحدين متكاتفين إلى جانب مروان؛ لاستطاع الانتصار على العباسيين، بالرغم من المناداة بأبى العباس خليفة فى الكوفة، ذلك أن الوضع كان لا يزال حرجًا بالنسبة لهم، وكان خذلان أهل الشام ولا سيما القبائل اليمانية والقضاعية لمروان؛ فى معركة الزاب كان عاملاً مهمًا من العوامل التى أدّت إلى هزيمته، إن ما مرّ بنا من روايات فى معركة الزاب وغيرها، يُشير إلى أمر بالغ الأهمية، وهو دور الشعب فى دعم حكم أو خذلانه، فقد لعب أهل الشام الدور الأكبر فى دعم حكم بنى أمية وفى خذلانه، فهم الذين وقفوا إلى جانب معاوية بن أبى سفيان ويزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان، وهم الذين خذلوا مروان بن محمد، ويعود ذلك إلى فهم معاوية ومعظم خلفاء بنى أمية لنفسية أهل الشام، بينما كان مروان بعيدًا عنهم وأقرب إلى أهل الجزيرة.

إن السياسى الحقيقى الماهر يستطيع أن يقيد الناس بسلاسل أقوى من الحديد عن طريق أفكارهم هم أنفسهم[٣].

(١)، (٢) الكامل فى التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى صـ ٤٩١.

(٣) الشام فى صدر الإسلام صـ ١٩٤.

الثالث عشر: الدعوة العباسية:

أخذت الدعوة العباسية بأسباب النجاح المادية والمعنوية، من قيادة حكيمة، ووضوح المنهج، وإعداد الأفراد، ومحاربة أسباب الفرقة، والأخذ بأصول الاجتماع والاتحاد والوحدة، والتفرغ للمشروع العباسى، وتقسيم الأدوار، والتخطيط السليم، والإدارة الناجحة، والتنظيم المحكم، والدعم الاقتصادى، والدعاية الإعلامية، والحيطة والحذر من الأعداء، وغير ذلك من الأسباب التى تمّ بيانها وشرحها، وظهرت هذه الدعوة فى الوقت المناسب فى وقت كان يجرى فيه تفاعل فى الدولة الأموية، تفاعل شديد قلبها رأسًا على عقب، فأخذتها الثورة العباسية على حين غرّة، فلم تصمد أمام المفاجأة، فى ساعة كانت أحرج ساعة فى تاريخها، فسقطت سقوطها المريع(١)، وكان يمكن أن تستمر دولة بنى أمية لولا وجود الدعوة العباسية التى كانت تخطط للوصول إلى الحكم، واستغلت هذه الظروف للإطاحة ببنى أمية(٢).

هذه هى أهم أسباب سقوط الدولة الأموية، وهى متداخلة ومتشابكة يؤثر كل منها فى الآخر تأثيرًا عكسيًا، فالسب السياسى يؤثر فى العامل الاقتصادى، ويتأثر به، وهكذا. ودراسة أسباب سقوط الدول وعوامل بنائها من الأمور المهمة التى تحتاجها الأمة فى مشروعها الحضارى المنتظر لقيادة الإنسانية بالمنهج الربانى، وتحقيق أستاذية العالم لهذه الأمة المجيدة.

التحذير من بعض الكتب التى شوهت تاريخ صدر الإسلام:

١ - الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة: من أخطر الكتب التى شوهت تاريخ صدر الإسلام كتاب «الإمامة والسياسة» المنسوب لابن قتيبة، ولقد ساق الدكتور عبد الله عسيلان فى كتابه «الإمامة والسياسة فى ميزان التحقيق العلمى» مجموعة من الأدلة تبرهن على أن الكتاب المذكور منسوب إلى الإمام ابن قتيبة كذبًا وزورًا ومن هذه الأدلة:

* إن الذين ترجموا لابن قتيبة لم يذكر واحد منهم أنه ألف كتابًا فى التاريخ يدعى «الإمامة والسياسة» ولا نعرف من مؤلفاته التاريخية إلا كتاب «المعارف».

* إن المتصفح للكتاب يشعر أن ابن قتيبة أقام فى دمشق والمغرب فى حين أنه لم يخرج من بغداد إلاّ إلى الدينور.

---

(١) الدولة الأموية، يوسف العش صـ ٣٣٧.
(٢) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين صـ ٤١١.

* إن المنهج والأسلوب الذى سار عليه المؤلف «الإمامة والسياسة» يختلف تمامًا عن منهج وأسلوب ابن قتيبة فى كتبه التى بين أيدينا، فمنهج ابن قتيبة أن يقدم لمؤلفاته بمقدمات طويلة يبين فيها منهجه والغرض من مؤلفه، وعلى خلاف ذلك يسير صاحب «الإمامة والسياسة» فمقدمته قصيرة جدًا لا تزيد على ثلاثة أسطر، هذا إلى جانب الاختلاف فى الأسلوب، ومثل هذا النهج لم نعهده فى مؤلفات ابن قتيبة.

* يروى مؤلف الكتاب عن أبى ليلى بشكل يشعر بالتلقى عنه، وابن أبى ليلى هذا هو محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى الفقيه قاضى الكوفة، توفى سنة ١٤٨هـ، والمعروف أن ابن قتيبة لم يولد إلا سنة ٢١٣هـ أى بعد وفاة ابن أبى ليلى بخمسة وستين عامًا.

* إن الرواة والشيوخ الذين يروى عنهم ابن قتيبة عادة فى كتبه لم يرد لهم ذكر فى أى موضع من مواضع الكتاب.

* إن قسمًا كبيرًا من رواياته جاءت بصيغة التمريض، فكثيرًا ما يجئ فيه: ذكروا عن بعض المصريين، وذكروا عن محمد بن سليمان فى مشايخ أهل مصر، وحدثنا بعض مشايخ أهل المغرب، فذكروا عن بعض المشيخة، وحدثنا بعض المشيخة. ومثل هذه التراكيب بعيدة كل البعد عن أسلوب وعبارات ابن قتيبة، ولم ترد فى كتاب من كتبه. إن مؤلف «الإمامة والسياسة» يروى عن اثنين من كبار علماء مصر، وابن قتيبة لم يدخل مصر ولا أخذ عن هذين العالمين[1].

* ابن قتيبة يحتل منزلة عالية لدى العلماء، فهو عندهم من أهل السنة، وثقة فى علمه ودينه، يقول السِّلَفى: كان ابن قتيبة من الثقات وأهل السنَّة، ويقول ابن حزم: كان ثقة فى دينه وعلمه، وتبعه فى ذلك الخطيب البغدادى، ويقول عنه ابن تيمية: وإن ابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة[2]. ورجل هذه منزلته لدى رجال العلم المحققين، هل من المعقول أن يكون مؤلف كتاب «الإمامة والسياسة» الذى شوه التاريخ وألصق بالصحابة الكرام ما ليس فيهم[3]. يقول الدكتور على نفيع العليانى فى كتابه «عقيدة الإمام ابن قتيبة» عن كتاب الإمام والسياسة: بعد قراءتى لكتاب «الإمامة والسياسة» قراءة فاحصة ترجح عندى أن مؤلف الإمامة والسياسة رافضى خبيث أراد إدماج

(١) عقيدة الإمام ابن قتيبة ، على العليانى صـ٩٠.
(٢) لسان الميزان (٣/ ٣٥٧) ، تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٤٤).
(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٤٤) .

هذا الكتاب فى كتب ابن قتيبة نظرًا لكثرتها، ونظرًا لكونه معروفًا عند الناس انتصاره لأهل الحديث، وقد يكون من رافضة المغرب، فإن ابن قتيبة له سمعة حسنة فى المغرب[1]، ومما يرجِّح أن مؤلف الإمامة والسياسة من الروافض ما يلى:

* أن مؤلف الإمامة والسياسة ذكر على لسان على رضى الله عنه أنه قال للمهاجرين اللَّه اللّه يا معشر المهاجرين، لا تخرجوا سلطان محمد فى العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعر بيوتكم، ولا تدفعوا أهله فى مقامه فى الناس وحقه، فوالـلَّه يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأنا أهل البيت ونُحن أحق بهذا الأمر منكم... والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله[2]. ولا أحد يرى أن الخلافة وراثية لأهل البيت إلاَّ الشيعة.

* إن مؤلف الإمامة والسياسة قدح فى صحابة رسول الله ﷺ قدحًا عظيمًا؛ فصور ابن عمر رضى الله عنه جُبانًا، وسعد بن أبى وقاص حسودًا، وذكر أن محمد بن مسلمة غضب على على بن أبى طالب لأنه قتل مرحبًا اليهودى بخيبر، وأن عائشة رضى الله عنها أمرت بقتل عثمان[3]. والقدح فى الصحابة من أظهر خصائص الرافضة وإن شاركهم الخوارج إلاَّ أن الخوارج لا يقدحون فى عموم الصحابة[4].

* إن مؤلف الإمامة والسياسة يذكر أن المختار بن أبى عبيد قتل من قبل مصعب بن الزبير لكونه دعا إلى آل رسول الله ﷺ، ولم يذكر خرافاته وادعاءه للوحى[5]، والرافضة هم الذين يحبون المختار بن أبى عبيد لكونه انتقم من قتلة الحسين، مع العلم أن ابن قتيبة رحمه الله ذكر المختار من الخارجين على السلطات، وبيَّن أنه كان يدعى أن جبريل يأتيه[6].

* إن مؤلف الإمامة والسياسة كتب عن خلافة الخلفاء الثلاثة أبى بكر وعمر وعثمان خمسًا وعشرين صفحة فقط، وكتب عن الفتنة التى وقعت بين الصحابة مائتى صفحة، فقام المؤلف باختصار التاريخ الناصع المشرق وسوَّد الصحائف بتاريخ زائف لم يثبت منه إلا القليل، وهذه من أخلاق الروافض المعهودة، نعوذ بالله من الضلال والخذلان.

* يقول السيد محمود شكرى الألوسى فى مختصره للتحفة الاثنا عشرية: ومن مكايدهم - يعنى الرافضة - أنهم ينظرون فى أسماء الرجال المعتبرين عند أهل السنة فمن وجدوه

(1) الفتاوى لابن تيمية (17/391).
(2) الإمامة والسياسة (1/12).
(3) المصدر نفسه (1/54، 55)
(4) عقيدة الإمام ابن قتيبة صـ91..
(5) الإمامة والسياسة (2/20).
(6) المعارف ص 401.

موافقًا لأحد منهم فى الاسم واللقب أسندوا رواية حديث ذلك الشيعى إليه، فمن لا وقوف له من أهل السنة يعتقد أنه إمام من أئمتهم فيعتبر بقوله، ويعتد بروايته كالسدى، فإنهما رجلان أحدهما السدى الكبير والثانى السدى الصغير، فالكبير من ثقات أهل السنة والصغير من الوضاعين الكذابين وهو رافضى غال. وعبد الله بن قتيبة رافضى غال وعبد الله بن مسلم بن قتيبة من ثقات أهل السنة، وقد صنف كتابًا سماه بالمعارف، فصنف ذلك الرافضى كتابًا سماه بالمعارف أيضًا قصداً للإضلال[1] وهذا مما يرجح أن كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة الرافضى وليس لابن قتيبة السنى الثقة، وإنما خلط الناس بينهما لتشابه الأسماء[2]، والله أعلم، وللأسف فإنه اغتر بهذا الكتاب كثير من الباحثين وبنوا على رواياته المكذوبة كثيراً من الأحكام الباطلة.

٢- نهج البلاغة: ومن الكتب التى ساهمت فى تشويه تاريخ الصحابة بالباطل كتاب نهج البلاغة، فهذا الكتاب مطعون فى سنده ومتنه، فقد جُمع بعد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بثلاثة قرون ونصف بلا سند، وقد نسبت الشيعة تأليف نهج البلاغة إلى الشريف الرضى وهو غير مقبول عند المحدثين لو أسند، خصوصًا فيما يوافق بدعته، فكيف إذا لم يسند كما فعل فى النهج؟ وأما المتهم - عند المحدثين - بوضع النهج فهو أخوه على، فقد تحدث العلماء فيه فقالوا:

* قال ابن خلكان فى ترجمة الشريف المرتضى: وقد اختلف الناس فى كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه هل جمعه ؟ أم جمعه أخوه الرضى ؟. وقد قيل: إنه ليس من كلام علىّ، وإنما الذى جمعه ونسبه إليه هو الذى وضعه، والله أعلم[3].

* وقال الذهبى: من طالع نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه، ففيه السبّ الصُّراح، والحط على السيدين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، وفيه من التناقض والأشياء الركيكة، والعبارات التى يجزم من له معرفة بنفس القرشيين والصحابة وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين بأنّ أكثره باطل[4].

* وقال ابن تيمية: وأهل العلم يعلمون أن أكثر خطب هذا الكتاب مفتراة على على، ولهذا لا يوجد غالبها فى كتاب متقدم ولا لها إسناد معروف[5].

(١) مختصر التحفة الاثنا عشرية للألوسى ص ٣٢.
(٢) عقيدة الإمام ابن قتيبة ص ٩٣.
(٣) الوفيات (٣/ ٣١٣).
(٤) ميزان الاعتدال (٣/ ١٢٤).
(٥) منهاج السنة (٤/ ٢٤).

* وأما ابن حجر، فيتّهم الشريف المرتضى بوضعه، ويقول: ومن طالعه جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين عليّ... وأكثره باطل[(١)].

* واستنادًا إلى هذه الأخبار وغيرها تناول عدد من الباحثين هذا الموضوع، فقالوا بعدم صحة نسبة هذا الكتاب إلى الإمام على رضى الله عنه[(٢)].

ويمكن تلخيص أهم ما لاحظه القدامى والمحدثون على نهج البلاغة للتشكيك بصحة نسبته للإمام على بما يلى:

* خلوّه من الأسانيد التوثيقية التى تعزز نسبة الكلام إلى صاحبه؛ متنًا ورواية وسندًا.

* كثرة الخطب وطولها، لأن هذه الكثرة وهذا التطويل ممّا يتعذر حفظه وضبطه قبل عصر التدوين، مع أن خطب الرسول ﷺ لم تصل إلينا سالمة وكاملة مع ما أتيح لها من العناية الشديدة والاهتمام.

* رصد العديد من الأقوال والخطب فى مصادر وثيقة منسوبة لغير علىٍّ رضى الله عنه، وصاحب النهج يثبتها له.

* اشتمال هذا الكتاب على أقوال تتناول الخلفاء الراشدين قبله بما لا يليق به ولا بهم، وتنافى ما عُرف عنه من توقيره لهم، ومن أمثلة ذلك ما جاء بخطبته المعروفة بـ «الشقشقية» التى يظهر فيها حرصه الشديد على الخلافة، رغم ما شُهر عنه من التقشّف والزهد.

* شيوع السجع فيه، إذ رأى عدد من الأدباء أن هذه الكثرة لا تتّفق مع البعد عن التكلفّ الذى عُرِفَ فيه عصر الإمام علىّ رضى الله عنه، أن السجع العفوى الجميل لم يكن بعيدًا عن روحه ومبناه.

* الكلام المنمّق الذى تظهر فيه الصناعة الأدبية التى هى من وَشْى العصر العباسى وزخُرفه، كما نجد فى وصف الطاوس والخفاش، والنحل، والمقالات الكلامية التى وردت فى ثناياه، والتى لم تُعرف عند المسلمين إلا فى القرن الثالث الهجرى، حين تُرجمت الكتب اليونانية والفارسية والهندية، وهى أشبه ما تكون بكلام المناطقة والمتكلمين منه بكلام الصحابة والراشدين[(٣)].

(١) لسان الميزان (٤/ ٢٢٣).

(٢) الأدب والإسلام، نايف معروف ص ٥٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٤، ٥٥.

إن هذا الكتاب يجب الحذر منه فى الحديث عن الصحابة، وما وقع بينهم وبين أمير المؤمنين على، وتعرض نصوصه على الكتاب والسنة فما وافق الكتاب والسنة، فلا مانع من الاستئناس به، وما خالفهما فلا يلتفت إليه.

٣- كتاب الأغانى للأصفهانى: يعتبر كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى كتاب أدب وسمر وغناء، وليس كتاب علم وتاريخ وفقه وله طنين ورنين فى آذان أهل الأدب والتاريخ، ولكن ليس معنى ذلك أن يُسكت عما ورد فيه من الشعوبية والدس، والكذب الفاضح والطعن والمعايب، وقد قام الشاعر العراقى والأستاذ الكريم وليد الأعظمى بتأليف كتابه القيم الذى سمّاه السيف اليمانى فى نحر الأصفهانى صاحب الأغانى، فقد شمّر- جزاه الله خيرًا - عن ساعد الجد، ليميز الهزل من الجد، والسم من الشهد، ويكشف ما احتواه الكتاب من الأكاديب ونيران الشعوبية والحقد، وهى تغلى فى الصدور، كغلى القدور، وأخذ يرد على ترهات الأصفهانى فيما جمعه من أخبار وحكايات مكذوبة وغير موثقة تسىء إلى آل البيت النبوى الشريف، وتجرح سيرتهم، وتشوه سلوكهم، كما تناول مزاعم الأصفهانى تجاه معاوية بن أبى سفيان والخلفاء الأمويين بما هو مكذوب ومدسوس عليهم من الروايات، وتناول الأستاذ الكريم والشاعر الإسلامى القدير وليد الأعظمى -فى كتابه القيم- الحكايات المتفرقة التى تضمنها الكتاب، والتى تطعن فى العقيدة الإسلامية والدين الإسلامى، وتفضل الجاهلية على الإسلام وغيرها من الأباطيل[١].

* قال ابن الخطيب البغدادى: كان أبو الفرج الأصبهانى أكذب الناس، كان يشترى شيئًا كثيرًا من الصحف، ثم تكون كل رواياته منها[٢].

* قال ابن الجوزى: . . . ومثله لا يوثق بروايته، يصرح فى كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهون شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمّل كتاب الأغانى، رأى كل قبيح ومنكر[٣].

* قال الذهبى: رأيت شيخنا تقى الدين ابن تيميّة يضعّفه، ويتّهمه فى نقله، ويستهوِل ما يأتى به[٤].

(١) السيف اليمانى فى نحر الأصفهانى للأعظمى ص ٩ - ١٤.
(٢) تاريخ بغداد (١١/٣٩٨).
(٣) المنتظم (٧/ ٤٠ ، ٤١).
(٤) ميزان الاعتدال (٣/١٢٣).

٤- تاريخ اليعقوبي(توفي سنة ٢٩٠هـ): هو أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح العباسي، من أهل بغداد، مؤرخ شيعي إمامي، كان يعمل في كتابة الدواوين في الدولة العباسية حتى لقب بالكاتب العباسي. وقد عرض اليعقوبي تاريخ الدولة الإسلامية من وجهة نظر الشيعة الإمامية، فهو لا يعترف بالخلافة إلا لعلي بن أبي طالب وأبنائه، حسب تسلسل الأئمة عند الشيعة ويسمي علي بالوصي، وعندما أرخ لخلافة أبي بكر وعمر وعثمان لم يُضْفِ عليهم لقب الخلافة، وإنما قال تولى الأمر فلان. ثم لم يترك واحدًا منهم دون أن يطعن فيه، وكذلك كبار الصحابة فقد ذكر عن عائشة رضي الله عنها أخبارًا سيئة[١]، وكذلك عن خالد بن الوليد[٢]، وعمرو بن العاص[٣]، ومعاوية بن أبي سفيان[٤]. وعرض خبر السقيفة عرضًا مشينًا[٥]، ادعى فيه أنه قد حصلت مؤامرة على سلب الخلافة من علي بن أبي طالب الذي هو الوصي في نظره، وطريقته في سياق الاتهامات - الباطلة - هي طريقة قومه من أهل التشيع والرفض، وهي إما اختلاق الخبر بالكلية[٦]، أو التزيد في الخبر[٧]، والإضافة عليه، أو عرضه في غير سياقه ومحله حتى يتحرف معناه. ومن الملاحظ أنه عندما ذكر الخلفاء الأمويين وصفهم بالملوك وعندما ذكر خلفاء بني العباس وصفهم بالخلفاء، كما وصف دولتهم في كتابه «البلدان» باسم الدولة المباركة[٨]، مما يعكس نفاقه وتستره وراء شعار التقية، وهذا الكتاب يمثل الانحراف والتشويه الحاصل في كتابة التاريخ الإسلامي، وهو مرجع لكثير من المستشرقين والمستغربين الذين طعنوا في التاريخ الإسلامي وسيرة رجاله، مع أنه لا قيمة له من الناحية العلمية إذ يغلب على القسم الأول القصص والأساطير والخرافات، والقسم الثاني كُتب من زاوية نظر حزبية كما أنه يفتقد من الناحية المنهجية لأبسط قواعد التوثيق العلمي[٩].

٥- كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (ت:٣٤٥هـ): هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، من ولد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[١٠]، وقيل إنه كان رجلاً من أهل المغرب[١١]، ولكن يُرد عليه بأن المسعودي صرح بنفسه أنه من أهل العراق

(١) تاريخ اليعقوبي (٢/ ١٨٠ ، ١٨٣).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٣١) .
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٢) .
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٢٣٢ ، ٢٣٨)
(٥) المصدر نفسه (٢/ ١٢٣ ، ١٢٦).
(٦) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص ٤٣١.
(٧) المصدر نفسه صـ ٤٣١.
(٨) كتاب البلدان لليعقوبي ص ٤٣٢.
(٩) منهج كتابة التاريخ الإسلامي صـ ٤٣٢.
(١٠) الفهرست لابن النديم صـ ١٧١،
(١١) الفهرست صـ ١٩٧.

وأنه انتقل إلى ديار مصر للسكن فيها[1]، وإن قصد بلاد المغرب عكس المشرق فمصر من بلاد المغرب الإسلامى فلا إشكال[2]، والمسعودى رجل شيعى، فقد قال فيه ابن حجر: كتبه طافحة بأنه كان شيعيًا معتزليًا[3]. وقد ذكر أن الوصية جارية من عهد آدم تنقل من قرن إلى قرن حتى رسولنا ﷺ، ثم أشار إلى اختلاف الناس بعد ذلك فى النص والاختيار، فقدم رأى الشيعة الإمامية الذين يقولون بالنص[4]، وقد أولى الأحداث المتعلقة بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه فى كتابه مروج الذهب اهتمامًا كبيرًا أكثر من اهتمامه بحياة الرسول ﷺ فى الكتاب المذكور[5]. وركز اهتمامه بالبيت العلوى وتتبع أخبارهم بشكل واضح فى كتابه مروج الذهب[6]، وعمل بدون حياء ولا خجل على تشويه تاريخ صدر الإسلام.

* هذه بعض الكتب القديمة التى نحذر منها، والتى كان لها أثر فى كتابات بعض المعاصرين، كطه حسين فى الفتنة الكبرى (على وبنوه)، والعقاد فى عبقرياته، فقد تورطا فى الروايات الموضوعة والضعيفة، وقامت تحليلاتهما عليها، وبالتالى لم يحالفهما الصواب، ووقعا فى أخطاء شنيعة فى حق الصحابة رضى الله عنهم، وكذلك عبد الوهاب النجار فى كتابه «الخلفاء الراشدون» حيث نقل نصوصًا من روايات الرافضة من كتاب الإمامة والسياسة، وحسن إبراهيم حسن فى كتابه «عمرو بن العاص» حيث قرر من خلال الروايات الرافضية الموضوعة بأن عمرو بن العاص رجل مصالح ومطامع، ولا يدخل فى شىء من الأمور إلا إذا رأى أن فيه مصلحة ومنفعة له فى الدنيا [7]، وغير ذلك من الباحثين الذين ساروا على نفس المنوال، فدخلوا فى الأنفاق المظلمة بسبب بعدهم عن منهج أهل السنة والجماعة فى التعامل مع الركام الهائل من الروايات التاريخية.

الاستشراق والتاريخ الإسلامى:

إن من أعظم الفرق أثرًا فى تحريف التاريخ الإسلامى الشيعة الرافضة بمختلف طوائفها وفرقها، فهم من أقدم الفرق ظهوراً، ولهم تنظيم سياسى، وتصور عقائدى، ومنهج فكرى منحرف، وهم أكثر الطوائف كذبًا على خصومهم، كما أنهم من أشد الناس

(1) معجم الأدباء (13/ 91 ، 93) .
(2) منهج المسعودى فى كتابة التاريخ صـ 4 ، أثر التشيع صـ 143.
(3) لسان الميزان (4/ 225) ، أثر التشيع صـ 246.
(4) مروج الذهب ومعادن الجوهر (1/ 38) .
(5) أثر التشيع على الروايات التاريخية صـ 248.
(6) المصدر نفسه صـ 248.
(7) تاريخ عمرو بن العاص ، حسن إبراهيم صـ 206 ، 207.

خصومة للصحابة، فسب الصحابة وتكفيرهم من أساسيات معتقدهم وأركانه خاصة الشيخين أبى بكر وعمر ويسمونهما الجبت والطاغوت(١)، وقد كان للشيعة أكبر عدد من الرواة والإخباريين الذين تولوا نشر أكاذيبهم ومفترياتهم، وتدوينها فى كتب ورسائل عن أحداث التاريخ الإسلامى، خاصة الأحداث الداخلية، كما للشعوبية والعصبية أثر فى وضع الأخبار التاريخية والحكايات والقصص الرامية إلى تشويه التاريخ الإسلامى، وإلى إعلاء طائفة على طائفة، أو أهل بلد على آخر، أو جنس على جنس، وإبعاد الميزان الشرعى فى التفاصيل وهو ميزان التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

كما أن الفرق المنحرفة قد استغلت وضع القصاص وانتشارهم، وجهل معظمهم، وقلة علمهم بالسنة، وانحراف طائفة منهم تبتغى العيش والكسب، فنشروا بينهم أكاذيبهم وحكاياتهم وقصصهم الموضوعة، فتلقفها هؤلاء القصاص دون وعى وإدراك، ونشروها بين العامة، لقد انتشر عن طريقهم مئات الأحاديث المكذوبة على النبى ﷺ وعدد لا يحصى من الأخبار والأقوال المكذوبة على الصحابة والتابعين وعلماء الإسلام، مما يسىء لهم ويشوه تاريخهم وسيرتهم، وقد كان من فضل الله وتوفيقه أن قيض مجموعة من العلماء النقاد الذين قاموا بجهد فى نقد الرواة والمرويات، فبينوا الزائف من الصحيح، ودافعوا عن عقيدة الأمة وتاريخها، وجهد علماء السنة فى بيان الأحاديث المكذوبة بالنص عليها، وبيان الرواة الضعاف والمتهمين وأصحاب الأهواء، وفى رسم المنهج فى نقد الروايات وقبولها، إنه جهد كبير وموفق. ومن أبرز من تصدى لإيضاح المغالط التاريخية ورد زيوف الروايات المكذوبة القاضى ابن العربى فى كتاب العواصم من القواصم، والإمام ابن تيمية فى كثير من كتبه ورسائله، خاصة كتابه القيم «منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية»، وكذلك الحافظ الناقد الذهبى فى كثير من مؤلفاته التاريخية مثل كتاب: سير أعلام النبلاء، وتاريخ الإسلام، وميزان الاعتدال فى نقد الرجال، وكذلك الحافظ ابن كثير المفسر المؤرخ فى كتابه البداية والنهاية، وأيضًا الحافظ ابن حجر العسقلانى فى كتابه: فتح البارى شرح صحيح البخارى، ولسان الميزان، وتهذيب التهذيب، والإصابة فى معرفة الصحابة.

أما الوسائل التى استخدمت لغرض تحريف الوقائع التاريخية وتشويه سير رجال الصدر الأول من الصحابة والتابعين فهى كثيرة ونذكر منها:

* الاختلاق والكذب.

---

(١) الشيعة والسنة، صـ ٣٢ إحسان إلهى ظهير.

* الإتيان بخبر أو حادثة صحيحة فيزيدون فيها وينقصون منها حتى تتشوه وتخرج عن أصلها.

* وضع الخبر فى غير سياقه حتى ينحرف عن معناه ومقصده.

* التأويل والتفسير الباطل للأحداث.

* إبراز المثالب والأخطاء وإخفاء الحقائق والصور المضيئة.

* صناعة الأشعار وانتحالها لتأييد حوادث تاريخية مدعاة؛ لأن الشعر العربى ينظر له كوثيقة تاريخية، ومستند يساعد فى توثيق الخبر وتأييده.

* وضع الكتب والرسائل المكذوبة ونحلها لعلماء وشخصيات مشهورة، كما وضعت الرافضة كتاب الإمامة والسياسة الذى نسبته لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى لشهرته عند أهل السنة وثقتهم به -كما مرّ معنا-. وقد تلقف هذه الأكاذيب والتحريفات فى القرن الماضى علماء الغرب وكتابه من المستشرقين والمُنَصِّرين - إبان غزوهم واستعمارهم للبلدان الإسلامية- فوجدوا فيها ضالتهم، وأخذوا يعملون على إبرازها والتركيز عليها مع ما زادوه من عندهم - بدافع من عصبيتهم وكرههم للمسلمين - من الكذب مثل اختراع حوادث لا أصل لها، أو التفسير المغرض للحوادث التاريخية بقصد التشويه أو التفسير الخاطئ. تبعًا للتصور والاعتقاد الذى يدينون به، ثم شايع هؤلاء طائفة غير قليلة العدد من تلاميذ المستشرقين فى البلاد العربية والإسلامية، وأخذوا طرائقهم ومناهجهم فى البحث، وأفكارهم وتصوراتهم فى الفهم والتحليل، وتفسير التاريخ، وحملوا الراية بعد رحليهم عن بلاد المسلمين، وكان ضررهم أشد وأنكى من ضرر أساتذتهم المستشرقين، ومن ضرر أسلافهم السابقين من فرق البدع والضلال، وذلك أنهم ادعوا -كأساتذتهم- اتباع الروح العلمية المتجردة والمنهج العلمى فى البحث، والحقيقة أن غالبيتهم لم يتجرد إلا من عقيدته، أما التجرد بمعنى الإخلاص للحق وسلوك المنهج العلمى السليم فى إثبات الواقعات التاريخية، كالمقارنة بين الروايات، ومعرفة قيمة المصادر التى يرجعون إليها، ومدى أمانة الناقلين، وضبطهم لما نقلوا، وقياس الأخبار واعتبارهم بأحوال العمران البشرى وطبائعه(1)، فلا أثر له عند القوم، فلم يتقنوا من المنهج العلمى إلا الأمور

(1) منهج كتابة التاريخ الإسلامى ، محمد صامل صـ ٥٠٢.

الشكلية مثل الحواشى وترتيب المراجع وما شابهها، وربما كان هذا مفهوم المنهج العلمى عندهم[1]، يقول محب الدين الخطيب: إن الذين تثقفوا بثقافة أجنبية عنَّا قد غلب عليهم الوهم بأنهم غرباء عن هذا الماضى، وأن موقفهم من رجاله كموقف وكلاء نيابة من المتهمين، بل لقد أوغل بعضهم فى الحرص على الظهور أمام الأغيار بمظهر المتجرد عن كل آصرة بماضى العروبة والإسلام، جريًا وراء المستشرقين فى ارتيابهم حيث تحس بعدم الطمأنينة وميلهم مع الهوى عندما يدعوهم الحق إلى التثبت، وفى إنشائهم الحكم وارتياحهم إليه قبل أن تكون فى أيديهم أشباه الدلائل عليه[2].

ومن أهم الوسائل التى اتبعها المستشرقون وتلاميذهم فى تشويه وتحريف حقائق التاريخ الإسلامى.

* التدخل بالتفسير الخاطئ للأحداث التاريخية، على وفق مقتضيات أحوال عصرهم، الذى يعيشون هم فيه، وحسبما يجول بخواطرهم، دون أن يحققوا أولاً الواقعة التاريخية حتى تثبت، ودون أن يراعوا ظروف العصر الذى وقعت فيه الحادثة وأحوال الناس وتوجهاتهم فى ذلك الوقت، والعقيدة التى تحكمهم ويدينون بها، فإنه قبل تفسير الحادثة لا بد من ثبوت وقوعها، وليس وجودها فى كتاب من الكتب كافيًا لثبوتها[3]، لأن مرحلة الثبوت مرحلة سابقة على البحث فى تفسير الواقعة التاريخية، كما ينبغى أن يكون التفسير متمشيًا مع منطوق الخبر التاريخى موضوع البحث، ومع الطابع العام للمجتمع أو العصر والبيئة التى حدثت فيها الواقعة، كما يشترط أن لا يكون هذا التفسير متعارضًا مع واقعة أو جملة وقائع أخرى ثابتة، كما أنه لا ينبغى أن ينظر فى التفسير إلى عامل واحد - كما هو ديدن كثير من المدارس التاريخية المعاصرة - وإنما ينظر فيه إلى جملة العوامل المؤثرة فى الحدث، وخاصة العوامل العقدية والفكرية.. ثم إن التفسير التاريخى للحوادث بعد هذا كله لا يعدو كونه اجتهادًا بشريًا يحتمل الصواب والخطأ، ولقد أبرز البعض تاريخ الفرق الضالة وعمد إلى تضخيم أدوارها، وتصويرها بصورة المصلح المظلوم وأن المؤرخين المسلمين قد تحاملوا عليها، فالقرامطة والإسماعيلية، والرافضة الإمامية، والفاطمية، والزنج، وإخوان الصفا، والخوارج كلهم فى نظرهم واعتبارهم دعاة إصلاح وعدالة وحرية ومساواة، وثورتهم كانت ثورات إصلاح ضد الظلم والجور، فهذا الشغب والإرجاف على

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامى صـ ٥٠٢.

(٢) المصادر الأولى لتاريخنا، مجلة الأزهر سنة ١٣٧٢هـ.

(٣) منهج كتابة التاريخ الإسلامى صـ ٥٠٤.

التاريخ الإسلامى ومزاحمة سير رجاله ودعاته بسير قادة الفرق الضالة أمر لا يستغرب من قوم لا يدينون بالإسلام، فهم من واقع عقيدتهم يكيدون له بكل جهد مستطاع، ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا، ولا يتوقع من مطموسى الإيمان وملل الكفر إلا مناصرة إخوانهم فى الضلال، ولكن الأمر الذى قد يحدث استغرابًا عند البعض أن يحمل راية التشويه والتحريف بعد سقوط دولة الاستشراق كتَّاب يحملون أسماء إسلامية، ومن أبناء المسلمين، ويقومون بنشر مثل هذه السموم على بنى جلدتهم ليصرفوا بها الأغرار عن الصراط المستقيم، ولقد عمد هؤلاء إلى التشبث بالروايات المشبوهة والضعيفة والساقطة يلتقطونها من كتب الأدب وقصص السمر، والحكايات الشعبية والكتب المنحولة والضعيفة، فهذه الكتب هى مستنداتهم فى الغالب مع ما يجدونه من الروايات المكذوبة فى الطبرى والمسعودى؛ مع أنهم يعلمون أنها لا تعتبر مراجع علمية يعتمد عليها.

لقد وقع الاعتداء على التاريخ الإسلامى - خاصة تاريخ الصدر الأول - بالتشويه عن طريق اختيار مواقف مختارة والتركيز عليها كالمعارك والحروب مع تصويرها على غير حقيقتها حتى تزول عنها صفة الجهاد فى سبيل الله، أو التركيز على الأحداث والفتن الداخلية بقصد إظهار خلافات الصحابة رضى الله عنهم وعرضها وكأنها نموذج للصراعات والمكائد السياسية فى وقتنا الحاضر، وبالتجهيل، وهو إهمال كل ما هو مدعاة للاقتداء والأسوة الحسنة، وبالتشكيك وهو توجيه السهام إلى التاريخ ورجاله، وإلى المؤرخين المسلمين أنفسهم، والتشكيك فى معلوماتهم وصدقهم، وبالتجزئة وهى محاولة تجزئة التاريخ الإسلامى إلى أوصال وأشتات، وكأنها لا رابط بينها كالتوزيع الإقليمى والعرقى ونحوه. .

فكل هذه الوسائل والحملات تسعى إلى تدمير تاريخنا الإسلامى، ومحو معالمه النيرة، وإبعاده عن مجال القدوة الحسنة والتربية الصحيحة، لذا ينبغى على المؤرخ المسلم معرفة هذه الوسائل والتنبه لها، ومعرفة الذين تابعوا المستشرقين فى آرائهم ومناهجهم وعدم النقل منهم إلا بحذر شديد، فإذا كان علماؤنا رحمهم الله قد نقدوا كثيرًا من الرواة، وضَعَّفُوا رواياتهم بسبب أخذهم عن أهل الكتاب ورواياتهم الإسرائيليات، فإنه ينبغى لنا التوقف فى قبول أقوال وتفسيرات من يتلقى من المستشرقين، بل إسقاطها وعدم اعتبارها إلا بدليل وبرهان واضح(١).

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامى صـ ٥٠٧.

الخاتمة

وبعد، فهذا ما يسره الله لى من جمع وترتيب وتحليل تضمنته فصول هذا الكتاب الذى سميته، «الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار»، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ، فله الحمد حتى يرضى، وله الحمد عند الرضا، وله الحمد بعد الرضا، وما كان فيه من خطأ فأستغفر الله تعالى وأتوب إليه، والله ورسوله برىء منه، وحسبى أنى كنت حريصًا أن لا أقع فى الخطأ، وعسى أن لا أحرم من الأجر، وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخوانى المسلمين، وأن يذكرنى من يقرأه فى دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وأختم هذا الكتاب بقول الشاعر هاشم الرفاعى رحمه الله:

ملكنا هذه الدنيا القُرُونا ... وأخضعها جُدُودٌ خالدونا
وسطرنا صحائف من ضياء ... فما نسى الزمان ولا نسينا
بنينا حقبةً فى الأرض مُلْكًا ... يُدَعِّمُهُ شباب طامحونا
شبابٌ ذَلَّلُوا سُبُلَ المعالى ... وما عرفوا سوى الإسلام دينا
تَعَهَّدَهم فأنبتهم نباتًا ... كريمًا طاب فى الدنيا غصونا
إذا شهدوا الوغى كانوا كُمَاة ... يَدُكُّون المعاقل والحُصُونا
شباب لم تُحطِّمْهُ الليالى ... ولم يُسلِمْ إلى الخصم العَرينا
وإن جَنَّ المساء فلا تراهم ... من الإشفاق إلا ساجدينا
كذلك أخرج الإسلام قومى ... شبابًا مُخلصًا حُرًا أمينا
وعلَّمه الكرامة كيف تُبْنَى ... فيأبى أن يُقَيَّدَ أو يهونا
وما فَتِئ الزمان يدور حتى ... مضى بالمجد قومٌ آخرونا
وأصبح لا يُرى فى الركب قومى ... وقد عاشوا أئمَّتَهُ سِنينا

وآلمنى وآلم كُلَّ حُـــر ... ســـؤال الدهر أين المسلمـــونا

ترى هل يَرجع الماضى فـــإنى ... أذوب لـذلك المـاضى حنينـا

دعـــونى من أمـــان كـــاذبات ... فلم أجـــدِ المُنى إلاَّ ظنونا

وهاتوا لى من الإيمـــان نوراً ... وقَـــوُّوا بين جَنْبَىَّ اليقـــينا

أمـــد يدى فـــانتـــزع الرّواسى ... وأبنى المجَـــد مُـــؤتَلـفًا مكينا[1]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

****

(١) صلاح الأمة فى علوّ الهمة (٦/٧، ٧).

أهم المصادر والمراجع

١- إباحة المدينة وحريق الكعبة، حمد بن محمد العرينان، مكتبة ابن تيمية، الكويت، ١٩٨٣م.

٢- أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، إبراهيم شعوط، المكتب الإسلامى، بيروت.

٣- ابن خلدون إسلاميًا، عماد الدين خليل، المكتب الإسلامى، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

٤- أبو بكر الصديق، على الطنطاوى، دار المنارة، جدّة السعودية.

٥- اتعاظ الحنفا، للمقريزى، تحقيق محمد حلمى، لجنة إحياء التراث، الطبعة الأولى.

٦- اتهامات لا تثبت، سليمان بن صالح الخراشى، مكتبة الرشد، الرياض.

٧- أثر التشيع على الروايات التاريخية، د. عبد العزيز محمد نور ولى دار الخضيرى - المدينة النبوية.

٨- أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، د. عبد الله بن عبد الرحمن بن زيد الخرعان، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٩- أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية فى القرن الأول الهجرى، د. جميل عبد الله المصرى، مكتبة الدار بالمدينة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

١٠- إحداث أحاديث فتنة الهرج، د. عبد العزيز صغير دخان، دار الصحابة، الشارقة، ٢٠٠٣م.

١١- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى تحقيق محمد البيجاوى، دار المعرفة، بيروت.

١٢- أخبار أبى حفص الآجرى، تحقيق، عبد الله عبد الرحيم عسيلان، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

١٣- أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ، أحمد يوسف القرمانى، عالم الكتب، بيروت، لبنان.

١٤- أخبار الدولة العباسية، مجهول، من موالى العباسيين من رجال القرن الثالث، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدورى، والدكتور عبد الجبار المطلبى، طبع دار الطليعة، بيروت.

١٥- أخبار مدينة الرسول، محمد بن محمود النجار، تحقيق صالح محمد جمال، مكتبة الثقافة، مكة.

١٦- أخبار مكة للفاكهى، عبد الله بن محمد، تحقيق عبد الملك بن دهيش.

١٧- آداب الشيخ الحسن البصرى لابن الجوزى.

١٨- إدارة العراق فى صدر الإسلام، رمزية عبد الوهاب الخيرو، دار الحرية بغداد ١٣٩٨هـ.

١٩- إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، عبد اللطيف عبد الرزاق العانى، جامعة بغداد، رسالة ماجستير عام ١٩٦٨م.

٢٠- أدب الدنيا والدين للماوردى، لأبى الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى.

٢١- أدب السياسة فى العصر الأموى، أحمد الحافى، دار القلم، بيروت لبنان.

٢٢- آراء المعتزلة الأصولية، د. على بن سعد بن صالح الضويحى، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢١هـ.

٢٣- استشهاد عثمان ووقعة الجمل فى مرويات سيف بن عمر فى تاريخ الطبرى.. دراسة نقدية، د. خالد بن محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، جدّة.. الطبعة الأولى.

٢٤- أسد الغابة فى معرفة الصحابة، لأبى الحسن على بن محمد الجزرى، دار إحياء التراث العربى.

٢٥- إسلام بلا مذاهب، مصطفى الشكعة، مكتبة مصطفى البابى الحلبى وشركاه، القاهرة.

٢٦- أسماء الصحابة الرواة، وما لكل واحد منهم من العدد، تحقيق الأستاذ سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٢٧- أسماء بنت أبى بكر الصديق، محمد بن لطفى الصبّاغ، المكتب الإسلامى.

٢٨- أصول الحديث، محمد عجاج الخطيب.

٢٩- أصول الدين للبغدادى، لأبى منصور عبد القاهر التميمى البغدادى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٠- أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية، د. ناصر عبد الله على القفارى، دار الرضا بمصر.

٣١- أضواء على السنّة المحمدية، لمحمود أبو رية، طبع دار التأليف بمصر، ١٩٥٨م.

٣٢- اعتبار المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، د. عبد الرحمن بن معمر السنوسى، دار ابن الجوزى، الطبعة الأولى، رجب ١٤٢٤هـ، السعودية.

٣٣- إعلام الموقعين، لابن القيم، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر، دار الفكر بيروت.

٣٤- أقباس من مناقب أبى هريرة، عبد المنعم صالح العلى.

٣٥- اقتضاء الصراط المستقيم فى مخالفة أصحاب الجحيم، دار العاصمة السعودية، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل.

٣٦- أقوال التابعين فى مسائل التوحيد والإيمان، عبد العزيز عبد الله المبدل، دار التوحيد، الرياض.

٣٧- آل المهلب بن أبى صفرة ودورهم فى التاريخ، نافع توفيق العبود، جامعة بغداد ١٩٧٦م، رسالة دكتوراه.

٣٨- الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير، تحقيق عبد الرحمن الفريوائى، المطبعة السلفية، الهند.

٣٩- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لابن بطة العكبرى، تحقيق ودراسة رضا بن نعسان معطى، دار الراية، الرياض.

٤٠- الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة، حياة محمد جبريل، الجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

٤١- الآثار والمشاهد وأثر تعظيمها على الأمة الإسلامية، د. عبد العزيز عبد الله الجفير، دار الهدى النبوى، دار الفضيلة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٤٢- الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامى، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

٤٣- الآحاد والمثانى لابن عاصم، تحقيق د. باسم فيصل الجوابرة، دار الراية الرياض.

٤٤- الأحكام السلطانية لأبى يعلى.

٤٥- الأحكام السلطانية للماوردى.

٤٦- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، لأبى الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٧ - ١٩٧٨م.

٤٧- الأخبار الطوال لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى دار القلم، بيروت، لبنان.

٤٨- الأخلاق بين الطبع والتطبع، لأبى عبد الله فيصل بن عبدة قائد الحاشدى، دار الإيمان، الإسكندرية.

٤٩- الإدارة الإسلامية فى عز العرب، محمد على كرد، القاهرة، مطبعة مصر ١٩٣٤م.

٥٠- الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية، د. سليمان بن صالح آل كمال، جامعة أم القرى.

٥١- الإدارة فى الإسلام.. الفكر والتطبيق، د. عبد الرحمن إبراهيم الضحيان، دار الشروق ١٤٠٧هـ.

٥٢- الإدارة فى التراث الإسلامى، مع حكم وأمثال للمسئولين ورجال الأعمال، محمد عبد الله البرعى، د. عدنان عابدين، مكتبة الخدمات الحديثة، جدة.

٥٣- الإدارة فى العصر الأموى، نجده خمّاش، دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

٥٤- الأدب الإسلامى وتاريخه، عابد الهاشمى، مركز عبادى للدراسات والنشر، صنعاء عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٥٥- الأدب العربى وتاريخه فى العصرين الأموى والعباسى، د. محمد عبد المنعم خفاجى، دار الجيل بيروت.

٥٦- الأدب فى الإسلام، فى عهد النبوة، وخلافة الراشدين د. نايف معروف، دار النفائس ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٥٧- الأدلة الباهرة على نفى البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة، د. عمر عبد الله كامل، دار البيارق، المكتبة المكية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٥٨- الأساس فى السنة، وفقهها، والسِّيرة النبَّوية، سعيد حوى، دار السَّلام.

٥٩- الاستبصار فى نسب الصحابة من الأنصار للمقدسى، د. على نويهض، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

٦٠- الاستخراج لأحكام الخراج، ابن رجب الحنبلى، تحقيق السيد عبد الله صديق، دار المعرفة، بيروت.

٦١- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الشيخ أبو العباس بن خالد الناصرى، الدار البيضاء ١٩٥٤م.

٦٢- للاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر، تحقيق على محمد البجاوى، مكتبة نهضة مصر.

٦٣- الإسلام والتعريب فى الشمال الأفريقى، بوخالفة نور الهُدى، ماجستير، جامعة بغداد عام ١٩٨٦م.

٦٤- الإسلام والحضارة الإسلامية، كرد على.

٦٥- الإسلام والحضارة العربية، حسن أحمد محمود.

٦٦- الإسلام وأوضاعنا السياسية، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة ١٤٠٦هـ.

٦٧- الأسماء والمصاهرات بين أهل البيت والصحابة، أبى معاذ السيد بن أحمد الإسماعيلى.

٦٨- الأشباه والنظائر لابن نجيم.

٦٩- الإصلاحات المالية ديوان جرير، دار صادر بيروت عام ١٩٩١م.

٧٠- الإصلاحات المالية والتنظيمات الإدارية فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، د. لبيد إبراهيم أحمد ١٩٨٨م - ١٤٠٩هـ رسالة ماجستير.

٧١- الاعتصام للشاطبى، ضبطه وصححه أحمد عبد الشافى، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

٧٢- الإعلام، لخير الدين الزركلى، دار العلم، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ.

٧٣- الأعمال العربية الكاملة، أمين الريحانى، المؤسسة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

٧٤- الأعياد وأثرها على المسلمين، سليمان السحيمى الجامعة الإسلامية بالمدينة ١٤٢٤هـ.

٧٥- الأغانى أبو الفرج الأصفهانى، على بن الحسين بن محمد الأموى - طبع دار الكتب المصرية.

٧٦- الأقليات والسياسة فى الخبرة الإسلامية من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية، د. كمال السعدى حبيب، مكتبة مدبولى مصر، طبعة ٢٠٠٢م.

٧٧- الأقوال الكافية فى الفصول الشافية فى الخيل، على بن داود الرسولى، تحقيق د. يحيى الجبورى، دار الغرب الإسلامى، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٧٨- الاكتفاء للكلاعى لما تضمنه من مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبى الرّبيع سليمان الكلاعى الأندلسى، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٧٩- الإمام الزهرى وأثره فى السنة للضّارى، د. حارث سليمان الضارى، مكتبة بسام، الموصل بالعراق ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٨٠- الإمام أيوب السختيانى، د. سليمان عبد العزيز العرينى، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٩هـ.

٨١- الإمام زيد المفترى عليه، شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب،مكتبة الفيصلية.

٨٢- الإمامة العظمى عند أهل السنة، عبد الله بن عمر بن سليمان الرميحى، دار طيبة.

٨٣- الإمامة والسياسة، منسوب لابن قتيبة.

٨٤- الأموال لأبى عبيد، القاسم بن سلام، تحقيق وتعليق: محمد خليل هراس، بيروت دار الفكرللطباعة.

٨٥- الأمويون بين المشرق والمغرب، دار القلم، دمشق، الدار الشاًمية بيروت.

٨٦- الأمويون وآثارهم المعمارية فى الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر وإفريقية، د.عبد الله كامل عبده، دار الآفاق العربية، طبعة أولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٨٧- الأمويون والبيزنطيون، إبراهيم أحمد العدوى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٨٨- الأمويون والفىء، فهمى عبد الجليل.

٨٩- الأنباء في تاريخ الخلفاء، محمد علي بن محمد العمراني، تحقيق قاسم السامرائي، دار العلوم، الرياض.

٩٠- الانتصار للصحب والآل من افتراءات السَّماوي الضّال، د. إبراهيم الرحيلي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٩١- الأنصار في العصر الراشدي (سياسيًا، وعسكريًا، وفكريًا) د. حامد محمد خليفة، رسالة دكتوراه من كلية الآداب في جامعة بغداد.

٩٢- الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف، د. حامد محمد خليفة، مطابع الواحة - المدينة الرياضية عمّان - الأردن - الطبعة الأولى.

٩٣- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبي بكر أبي الطيب الباقلاني، تحقيق محمد زاهد الكوثري، مؤسسة الخانجي، الطبعة الثانية ١٣٨٢هـ.

٩٤- الأوائل للعسكري.

٩٥- البحرين في صدر الإسلام، عبد الرحمن نجم، دار الحرية، بغداد ١٩٧٣م.

٩٦- البداية والنهاية، الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريّان.

٩٧- البدع والنهي عنها لابن وضاح الأندلسي، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الأصفهاني جدة.

٩٨- البرهان في تبرئة أبي هريرة من البهتان، عبد الله عبد العزيز الناصر، دار الناصر، القاهرة.

٩٩- البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، أبو عبد الله محمد المرَّاكشي (ابن عِذَاري).

١٠٠- البيان والتبيين للجاحظ، أبو عمر عثمان بن عمرو بن بحر، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٣٩٥هـ.

١٠١- التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي، للشايجي، دار اليقين، المنصورة الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

١٠٢- التاريخ الإسلامي، للحميدي، عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، دار الدعوة الإسكندرية، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١٠٣- التاريخ الإسلامى، محمود شاكر، المكتب الإسلامى، الطبعة السابعة، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٠٤- التاريخ الإسلامى. آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، إبراهيم العدوى، القاهرة، ١٩٧٦م.

١٠٥- التاريخ الأندلسى، د. عبد الرحمن الحجى، دار القلم، دمشق.

١٠٦- التاريخ السياسى، عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، ١٩٧١م.

١٠٧- التاريخ الصغير للبخارى، محمد إسماعيل البخارى تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار المعرفة - بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١٠٨- التاريخ الكبير للبخارى، مؤسسة الثقافة - بيروت.

١٠٩- التاريخ والمؤرخون العرب، محمد السيد عبد العزيز، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١م.

١١٠- التبرك أنواعه وأحكامه، د. ناصر عبد الرحمن الجديع مكتبة الرشد، الرياض.

١١١- التبيين فى أنساب القرشيين، موفق الدين عبد الله بن أحمد المقدسى، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١١٢- التجديد فى الفكر الإسلامى، د. عدنان محمد أسامة، دار ابن الجوزى، الرياض.

١١٣- التذكرة فى أحوال الدنيا والآخرة، محمد أحمد القرطبى، تحقيق أحمد حجازى السقا، مكتبة الكليات الأزهرية.

١١٤- التراتيب الإدارية للكتانى، عبد الحى الكتانى.

١١٥- التطور الاقتصادى، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى.

١١٦- التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، د. عصام هشام عيدروس الجفرى، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى السعودية.

١١٧- التطور والتجديد فى الشعر الأموى، شوقى ضيف، دار المعارف، الطبعة السادسة.

١١٨- التعليم فى العصر الأموى، انتصار لطيف حسن البستى، جامعة بغداد، عام ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، رسالة ماجستير.

١١٩- التفسير الإسلامى للتاريخ، عماد الدين خليل، دار العلم للملايين.

١٢٠- التقريب.. تقريب التهذيب، لابن حجر، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، حلب.

١٢١- التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان، محمد بن يحيى بن أبى بكر المالقى الأندلسى، حققه د. محمد يوسف زايد، دار الثقافة، الدوحة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١٢٢- التنبيه والإشراف، على بن الحسين المسعودى، منشورات دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨١م.

١٢٣- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبى الحسين محمد بن أحمد الملطى، تحقيق يمان بن سعد الدين الميادينى، الطبعة الأولى عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٢٤- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، للشيخ عبد الرحمن السعدى.

١٢٥- الثقات لابن حبان، أو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد - الدكن - الهند ١٩٧٩م.

١٢٦- الثمار الزكية للحركة السنوسية، د. على محمد الصَّلاَّبى، دار التوزيع والنشر الإسلامية مصر، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠١م.

١٢٧- الثمر الدانى فى تقريب المعانى شرح رسالة أبى زيد.

١٢٨- الثورة العباسية، فاروق عمر فوزى، دار الشروق للنشر، عمان الأردن، طبعة ٢٠٠١م.

١٢٩- الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، طبعة ثالثة - عن طبعة دار الكتب المصرية.

١٣٠- الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع، للخطيب البغدادى، المكتبة البلدية بالإسكندرية.

١٣١- الجذور التاريخية للأسرة الأموية، د. إحسان صدقى العمد، المجلس العلمى لجامعة الكويت.

١٣٢- الجرح والتعديل لأبى أبى حاتم، طبعة أولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن الهند، سنة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م.

١٣٣- الجمان فى مختصر أخبار الزمان للتلمسانى.

١٣٤- الجندية فى عهد الدولة الأموية، وفيق الدقدوقى، مؤسسة الرسالة.

١٣٥- الجهاد والقتال فى السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

١٣٦- الجوانب التربوية في حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز، نىء عمر بن عبد العزيز جامعة اليرموك الأردن، رسالة ماجستير.

١٣٧- الجيش فى العصر العباسى الأول، محمد عبد الحفيظ المناصير، دار مجدلاوى عمان، ٢٠٠٠م.

١٣٨- الجيش والأسطول الإسلامى فى العصر الأموى، الدكتور محمود أحمد محمد عوّاد، ١٩٩٤م.

١٣٩- الجيش وتأثيراته فى سياسة الدولة الأموية، د. نزار محمد قادر النعيمى، دار الكتاب الثقافى، الأردن، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

١٤٠- الحجاج بن يوسف، هزاع الشمرى.

١٤١- الحجاج بن يوسف الثقفى، إحسان صدقى العمد، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

١٤٢- الحجاج بن يوسف المفترى عليه، محمود زيادة، دار السلام.

١٤٣- الحجاز والدولة الإسلامية، إبراهيم بيضون، المؤسسة الجامعية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١٤٤- الحجة فى بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة لقوام السنة إسماعيل التيمى الأصبهانى، تحقيق: محمد ربيع المدخلى ومحمد محمود أبو رحيم، دار الراية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١٤٥- الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى، فتحى عثمان الدار القومية للطباعة والنشر.

١٤٦- الحركات المناهضة لخلافة مروان بن محمد، مهند ماهر جاسم، جامعة بغداد قسم الآداب، عام ١٩٨٦م، رسالة ماجستير.

١٤٧- الحرية أو الطوفان د. حاكم المطيرى.

١٤٨- الحزب الزبيرى فى أدب العصر الأموى، د. ثريا عبد الفتاح ملحس، دار البشير الطبعة الأولى، عمّان ٢٠٠٢م.

١٤٩- الحسن البصرى، مصطفى سعيد الخن، دار القلم دمشق ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٥٠- الحسن البصرى إمام عصره وعلامة زمانه، مرزوق على إبراهيم، دار الفضيلة، القاهرة.

١٥١- الحسن والحسين، سيدا شباب أهل الجنة، محمد رضا، المكتبة العصرية، لبنان.

١٥٢- الحسين بن على بين الحقائق والأوهام، عبد الرحمن بن عبد الله جميعان.

١٥٣- الحسين سيد شباب أهل الجنة، حسين محمد يوسف، دار الشعب، القاهرة.

١٥٤- الحضارة الإسلامية، عبد المنعم ماجد.

١٥٥- الحضارة الإسلامية، محمد عادل عبد العزيز، دار غريب.

١٥٦- الحضارة الإسلامية العربية، محمد ضيف الله بطاينة، الفرقان.

١٥٧- الحكم والتحاكم فى خطاب الوحى، د. عبد العزيز مصطفى كامل، دار طيبة.

١٥٨- الحياة الاقتصادية فى العصور الإسلامية الأولى، د. محمد ضيف بطاينة، دار طارق، دار الكندى.

١٥٩- الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى نجد والحجاز فى العصر الأموى، عبد الله محمد السيف، مؤسسة الرسالة.

١٦٠- الحياة السياسية والإدارية فى الحجاز فى العصر الأموى، ماجستير، د. خالد العسلى.

١٦١- الحياة السياسية والفكرية للزيدية فى المشرق الإسلامى، أحمد شوقى إبراهيم العمرجى، مكتبة مدبولى، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

١٦٢- الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى الهجرى، خليل داود الزرو، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧١م

١٦٣- الحياة العلمية فى العراق فى العصر الأموى، انتصار لطيف حسين السبتى، جامعة بغداد، رسالة دكتوراه عام ١٩٩٨م.

١٦٤- الخراج لأبى يوسف، يعقوب بن إبراهيم، دار المعرفة، بيروت لبنان، ١٣٩٩هـ.

١٦٥- الخراج منُذ الفتح الإسلامى حتى أواسط القرن الثالث الهجرى، د. غيداء خزنة كاتبى، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٩٧م.

١٦٦- الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية محمد ضياء الدين، القاهرة، دار التراث.

١٦٧- الخراج يحيى ابن آدم القرشى، الطبعة الأولى، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، بيروت، دار الشروق ١٩٨٧م.

١٦٨- الخطط للمقريزى، تقى الدين أحمد بن على المقريزى، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة.

١٦٩- الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمى، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

١٧٠- الخلافة الأموية، د. عبد الأمير حسين دكسن،١٩٧٣م، دار النهضة العربية، بيروت.

١٧١- الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح البارى جمعًا وترتيبًا، إعداد د. يحيى بن إبراهيم اليحيى، دار الهجرة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، السعودية.

١٧٢- الخلافة العباسية، عصر القوة والازدهار، فاروق عمر فوزى، دار الشروق، عمان.

١٧٣- الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية، سالم البهنساوى، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت.

١٧٤- الخلافة والملك للمودودى، لأبى الأعلى المودودى، تعريب أحمد إدريس، دار القلم.

١٧٥- الخلفاء الراشدون، حسن أيوب، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٧٦- الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب النّجار، دار القلم، بيروت.

١٧٧- الخوارج، د. ناصر بن عبد الكريم العقل، دار القدس، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.

١٧٨- الخوارج، ناصر العقل، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

١٧٩- الخوارج.. دراسة ونقد لمذهبهم، ناصر السعوى، دار المعرفة الدولية، الرياض.

١٨٠- الخوارج في العصر الأموي، نايف معروف، دار الطليعة بيروت، الطبعة الرابعة.

١٨١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي، الناشر محمد أمين دمج، بيروت - لبنان.

١٨٢- الدعوة العباسية، تاريخ وتطوّر، الدكتور حسين عطوان، دار الجيل، بيروت.

١٨٣- الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول، د. علي أحمد مشاعل، دار العاصمة، السعودية.

١٨٤- الدواوين في العصر الأموي، نجم المسعودي، جامعة بغداد، رسالة ماجستير، عام ١٩٨٩م.

١٨٥- الدوحة النبوية، د. فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٨٦- الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، إسماعيل الجبوري، هاشم يحيى الملاح، جامعة الموصل، رسالة الماجستير، عام ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٨٧- الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، السيد عمر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

١٨٨- الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، د. حمدي شاهين، دار القاهرة.

١٨٩- الدولة الأموية، فرست مرعي الدهوكي، ألوان للطباعة، الجامعة الجديدة، صنعاء عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٩٠- الدولة الأموية، يوسف العش، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م.

١٩١- الدولة الأموية المفترى عليها، حمدي شاهين، دار القاهرة للكتاب، سنة ٢٠٠١م.

١٩٢- الدولة الأموية دولة الفتوحات، نادية محمود مصطفى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

١٩٣- الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء - ومعاول الهدم، محمد الطيب النجار.

١٩٤- الدولة الأموية في عهد يزيد بن عبد الملك، عبد الله بن حسين الشريف، دار القاهرة.

١٩٥- الدولة الأموية فى كتابات المسعودى، إبراهيم يوسف الأقصم، دار المجتمع.

١٩٦- الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط؛ د. على محمد الصَّلاَّبى، مؤسسة اقرأ.

١٩٧- الدولة والمجتمع فى العصر الأموى، د. حمدى شاهين، دار الوفاء، مصر عام ٢٠٠١م.

١٩٨- الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، دار اللواء، عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٩٩- الرد على المتعصب العنيد المانع من ذم يزيد، لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى.

٢٠٠- الرفق بالحيوان د. سلامة الهرفى، مكتبة الصحابة، الإمارات الشارقة.

٢٠١- الرقة والبكاء، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة، دار القلم، دمشق، الدار الشامية بيروت.

٢٠٢- الروح لابن القيم، دار الكتاب العربى،تحقيق ودراسة الدكتور السيد الجميلى بيروت لبنان.

٢٠٣- الروض المعطار، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجى، الحميرى، تحقيق ليفى بروفنسال، القاهرة ١٩٣٧م.

٢٠٤- الروض النضير. شرح مجموع الفقه الكبير، تأليف القاضى شرف الدين الحسين بن أحمد الساغى، مكتبة المؤيد بالطائف، ١٤٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٢٠٥- الرياض النَّضرة فى مناقب العشرة، لأبى جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبرى، المكتبة القيِّمة، القاهرة.

٢٠٦- الزهد للحسن البصرى، د. محمد عبد الرحيم، دار الحديث، مصر.

٢٠٧- الزيدية نشأتها ومعتقداتها، القاضى إسماعيل بن الأكوع، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

٢٠٨- السراج الوهاج فى كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج، صديق حسن خان، إصدار وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية قطر.

٢٠٩- السفارات في التاريخ الإسلامي، يونس السامرائي.

٢١٠- السلسلة الصحيحة للألباني، ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.

٢١١- السلطان لابن قتيبة، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المكتبة الأزهرية للتراث.

٢١٢- السلطة والمعارضة في الإسلام، زهير هوّاري، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، المؤسسة العربية للدراسات.

٢١٣- السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب، دار الكتب، بيروت، لبنان.

٢١٤- السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق ودراسة: د. أكرم محمد سعيد سالم القحطاني، رمادي للنشر، الدمام، الطبعة الثالثة عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢١٥- السنة للخلاّل، أبو بكر بن أحمد بن محمد الخلال، تحقيق: عطية الزهراني، دار الراية الرياض.

٢١٦- السنة ومكانتها في التشريع، للدكتور مصطفى السباعي، مطبعة المدني، بمصر.

٢١٧- السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة.

٢١٨- السنن للدرامي، لأبي محمد الدارمي، المتوفى ٢٥٥هـ، دار المحاسن، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

٢١٩- السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، بشير كمال بشير عابدين، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن

٢٢٠- السياسة الشرعية، تحقيق بشير عون، تقي الدين أحمد بن تيمية، دار البيان، دمشق ١٤٠٥هـ.

٢٢١- السيرة النبوية لابن هشام، دار إحياء التُّراث.

٢٢٢- السيرة النبوية، د. علي الصَّلاَّبي، دار المعرفة بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

٢٢٣- السيف اليماني في نحر الأصفهاني، وليد الأعظمي، دار الوفاء - مصر.

٢٢٤- الشام في صدر الإسلام، نجدت خمّاش، دار خلاسي، سوريا، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٢٢٥- الشامل فى تاريخ المدينة، د. عبد الباسط بدر، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

٢٢٦- الشرطة فى العصر الأموى، تأليف د. أرسن موسى رشيد، ترجمة د. أحمد مبارك البغدادى، مكتبة السندس، الكويت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٢٢٧- الشرف والتسامى بحركة الفتح الإسلامى، د. على الصَّلاَّبى، الصحابة، الشارقة.

٢٢٨- الشريعة، للإمام المحدث أبى بكر محمد بن الحسين الآجرى، وتحقيق عبد الله بن عمر بن سليمان الرميحى، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٢٢٩- الشعر والشعراء لابن قتيبة، دار الحديث القاهرة، تحقيق أحمد شاكر، ١٩٩٨م.

٢٣٠- الشهب اللامعة فى السياسية النافعة، لعبد الله بن يوسف بن رضوان، تحقيق د. سليمان الرّفاعى، دار المدار الإسلامية، الطبعة الأولى.

٢٣١- الشيعة العربية والزيدية، محمد إبراهيم الفيومى، دار الفكر العربى، ٢٠٠٢م.

٢٣٢- الشيعة والسنة، إحسان إلهى ظهير، القاهرة، دار الأنصار، ١٩٧٩م.

٢٣٣- الشيعة وأهل البيت، إحسان إلهى ظهير، القاهرة، دار الأنصار، ١٩٧٩م.

٢٣٤- الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى عند العرب والترك، د. حسين مجيد المصرى، الدار الثقافية للنشر الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٣٥- الصواعق المحرقة فى الردّ على أهل البدع والزندقة، شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن حجر الهيثمى، دار الكتب العلمية.

٢٣٦- الضرائب فى السواد فى العصر الأموى، عبد العزيز الدورى، فى بحوث ودراسات مهداة إلى عبد الكريم محمود غرايبة؛ بمناسبة بلوغه الخامسة والستين، عمان، ١٩٨٨م.

٢٣٧- العالم الإسلامى فى العصر الأموى، د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، دار الاتحاد التعاونى للطباعة بمصر.

٢٣٨- العالم الإسلامى فى العصر العباسى، د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربى، القاهرة.

٢٣٩- العبر فى خبر من غبر للذهبى، نشر مطبعة حكومة الكويت.

٢٤٠- العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، لابن خلدون.

٢٤١- العبرة مما جاء فى الغزو والشهادة، صديق حسن القنوجى، تحقيق: محمد زغلول، دار الكتب العلمية لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٢٤٢- العدالة الاجتماعية، سيد قطب.

٢٤٣- العراق فى العصر الأموى، ثابت الراوى، مكتبة الأندلس - بغداد، رسالة ماجستير.

٢٤٤- العراق فى عهد الحجاج، طه عبد الواحد.

٢٤٥- العصبية فى ضوء الإسلام، د. هاشم محمد على المشهدانى، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، دار الثقافة بالدوحة قطر.

٢٤٦- العصر العباسى الأول، عبد العزيز الدورى، دار الطليعة بيروت، ١٩٤٥م ١٩٨٨م.

٢٤٧- العصرانيون، محمد حامد النّاصر، مكتبة الكوثر الرياض، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٢٤٨- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين.

٢٤٩- العقيدة الواسطية لابن تيمية مع شرحها لمحمد خليل هراس.

٢٥٠- العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، د. سليمان بن سالم بن رجاء السُّحيمى، مكتبة الإمام البخارى، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢٥١- العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، د. سعيد عبد الله حارب المهيرى، مؤسسة الرسالة.

٢٥٢- العلاقات السياسية بين الهند والخلافة العباسية، محمد النجرامى.

٢٥٣- العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، صالح حسن عيد عيسى الشمرى، جامعة بغداد، رسالة ماجستير، عام ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٥٤- العلل المتناهية لابن الجوزى، تحقيق خليل الميسى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٥٥- العلويون والعباسيون ودعوة آل البيت، الدكتور عبد الله على المسند، دار المنار، القاهرة.

٢٥٦- العواصم من القواصم، القاضى أبو بكر بن العربى، تحقيق محب الدين الخطيب، إعداد محمد سعيد مبيض، دار الثقافة قطر - الدوحة، الطبعة الثانية ١٩٨٩م.

٢٥٧- العيون والحوائق، مؤلف مجهول، من رجال القرن الرابع، طبع ليدن ١٨٦٩م.

٢٥٨- الفتح الربانى، فى ترتيب الإمام أحمد، أحمد عبد الرحمن البنا الشهير «بالساعاتى».

٢٥٩- الفتن لأبى عمرو الدانى.

٢٦٠- الفتن لنعيم بن حماد.

٢٦١- الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز إبراهيم العمرى، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيليا، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢٦٢- الفتوح لابن أعثم.

٢٦٣- الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين، جميل عبد الله المصرى، دار القلم، دمشق، الدّار الشامية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٤م.

٢٦٤- الفتوى: نشأتها وتطورها، حسين الملاح، المكتبة العصرية، لبنان.

٢٦٥- الفتوى الحموية الكبرى لابن تيمية.

٢٦٦- الفخرى فى الآداب السلطانية ابن طباطبا، المكتبة التجارية، مصر ١٣٤٥هـ.

٢٦٧- الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى، د. محمد إبراهيم الفيومى، دار الشروق.

٢٦٨- الفرق بين الفرق، أبو منصور، عبد القاهر بن طاهر البغداى، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد - طبع مؤسسة الحلبى وشركاه بالقاهرة.

٢٦٩- الفقهاء والخلفاء، سلطان حثلين، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢٧٠- الفن العسكرى الإسلامى، د. ياسين سويد، الطبعة الأولى ١٩٨٨م - ١٤٠٩هـ.

٢٧١- الفهرست لابن النديم.

٢٧٢- القبورية فى اليمن، أحمد بن حسين المعلم، مركز الكلمة الطيبة للبحوث والدراسات العلمية.

٢٧٣- القدرية جدلية الدين والسياسية فى الإسلام، حركة يزيد بن الوليد، نموذجًا، مضر عدنان طلفاح، مؤسسة حمادة للنشر والتوزيع، الأردن ٢٠٠٤م.

٢٧٤- القدرية والمرجئة، د. ناصر العقل، دار الوطن الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٢٧٥- القرّاء ودورهم فى الحياة العامة فى صدر الإسلام والخلافة الأموية، هادى حسين حمود، د. خالد العسيلى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢٧٦- القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، دار الوطن الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ.

٢٧٧- القضاء والقدر لمحمد بن إبراهيم الحمد.

٢٧٨- القضاء ونظامه فى الكتاب والسنة، د. عبد الرحمن الحميضى، مكتبة التوبة، الرّياض.

٢٧٩- القواعد المثلى فى صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ محمد الصالح العثيمين.

٢٨٠- القيامة الكبرى، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس الأردن.

٢٨١- القيروان عبر العصور، ازدهار الحضارة الإسلامية فى المغرب العربى، د. الحبيب الجنحانى، الدار التونسية ١٩٦٨م.

٢٨٢- الكامل فى التاريخ، أبو الحسن على بن أبى المكارم الشّيبانى المعروف بابن الأثير، تحقيق: على شيرى، دار إحياء التّراث العربى، بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٩م.

٢٨٣- الكامل فى الرجال، أحمد بن عبد الله بن عدى، دار الفكر، بيروت الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٢٨٤- الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز، لأبى حفص عمر بن الخضر المعروف بالملاء، تحقيق د. محمد صدقى اليورنو، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٢٨٥- اللحظات الأخيرة فى حياة العظماء، محمد محمد الغزالى، تحقيق محمد عبد الرحيم، مؤسسة عز الدين، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٢٨٦- المبسوط للسرخسى، شمس الدين محمد بن أبى سهل السرخسى، دار المعرفة بيروت، ١٩٨٩م.

٢٨٧- المجتمع الإسلامى، دعائمه وآدابه، د. محمد أبو عجوة، الناشر، مكتبة مدبولى.

٢٨٨- المجددون فى الإسلام، عبد المتعال الصعيدى، دار الحامى للطباعة، مصر.

٢٨٩- المحاسن والمساوئ، إبراهيم بن محمد البيهقى، دار صادر، بيروت.

٢٩٠- المحدث الفاصل بين الراوى والواعى، للقاضى الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى، المتوفى سنة ٣٦٠هـ، تحقيق د. محمد عجاج الخطيب.

٢٩١- المحلى، تأليف على بن أحمد بن سعيد بن حزم، المتوفى سنة ٤٥٦هـ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة، وهو أحد منشوراتها، بيروت.

٢٩٢- المحن لأبى العرب، محمد بن أحمد التميمى، دار العلوم، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٢٩٣- المدخل، ناجى معروف.

٢٩٤- المدخل لابن الحاج، لأبى عبد الله محمد بن محمد العبدرى، الشهير بابن الحاج، دار الفكر ١٤٠٢هـ.

٢٩٥- المدينة النبوية، فجر الإسلام والعصر الراشدى، محمد محمد حسن شُرَّاب، دار القلم، دمشق، الدار الشامية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٢٩٦- المدينة فى العصر الأموى، محمد محمد حسن شّراب، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت.

٢٩٧- المراسيل لأبى حاتم، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.

٢٩٨- المستدرك على الصحيحين لأبى عبد الله محمد بن عبد الله النيسابورى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٢٩٩- المستشفيات الإسلامية من العصر النبوى إلى العصر العثمانى، الدكتور عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد، دار الضياء، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م، الأردن عمّان.

٣٠٠- المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة.

٣٠١- المسلمون فى المغرب والأندلس، محمد زيتون، دار الوفاء للطباعة - القاهرة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٣٠٢- المعارف لابن قتيبة، تحقيق ثروت عكاشة، الطبعة الثالثة، دار المعارف - مصر.

٣٠٣- المعجم الكبير للطبرانى، لأبى القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى، مكتبة العلوم والحكم.

٣٠٤- المعرفة والتاريخ للإمام يعقوب بن سفيان الفسوى، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمرى، مطبعة الإرشاد بغداد.

٣٠٥- المعمرون والوصايا لأبى حاتم السجستانى البصرى، المتوفى سنة ٢٥٠هـ تحقيق عبد المنعم عامر.

٣٠٦- المغنى لابن قدامة للإمام أبى محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسى، المتوفى سنة ٦٢٠هـ، نشر مكتبة الجمهورية العربية بالقاهرة.

٣٠٧- المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم، لأبى العباس أحمد بن عمر القرطبى، تحقيق: محيى الدين ديب مستو، يوسف بدوى، دار ابن كثير، بيروت دمشق، دار الكلم الطيب - بيروت.

٣٠٨- الملل والنحل للشهرستانى، محمد عبد الكريم، نشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٥٦م.

٣٠٩- المنار المنيف فى الصحيح والضعيف، تحقيق أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب.

٣١٠- المناهج الإسلامية لدراسة التاريخ وتفسيره، د. محمد رشاد خليل، دار الثقافة، الدار البيضاء.

٣١١- المنتخب والمختار فى النوادر والأشعار، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، تحقيق د. عبد الرزاق حسين، دار عمار، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٣١٢- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لأبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

٣١٣- المنتقى من منهاج الاعتدال فى نقص كلام أهل الرفض والاعتزال لأبى عبد الله محمد بن عثمان الذهبى، علق عليه محب الدين الخطيب.

٣١٤- المنهج المسلوك للشيرازى.

٣١٥- المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل، باب ذكر المعتزلة لأحمد بن يحيى بن المرتضى، دار صادر بيروت - مصورة عن طبعة ١٣١٦هـ.

٣١٦- الموالى فى العصر الأموى، محمد الطيب النجار، الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م.

٣١٧- الموسوعة الحديثة، مسند الإمام أحمد، توزيع وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣١٨- الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الأوقاف بالكويت.

٣١٩- الموضوعات لابن الجوزى، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت.

٣٢٠- الموطأ للإمام مالك.. رواية يحيى بن يحيى الليثى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٢١- الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، تأليف عبد العزيز أحمد بن حامد، غراس للنشر، الكويت.

٣٢٢- النجوم الزاهرة، جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى الأتابكى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٣٢٣- النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وهاشم، تقى الدين أحمد على المقريزى، تحقيق د. حسين مؤنس، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٨م.

٣٢٤- النسيج الإسلامى، سعاد ماهر.

٣٢٥- النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء الريس، الطبعة السابعة، دار التراث ١٩٧٩م.

٣٢٦- النظرية الإسلامية فى الدولة الإسلامية، حازم الصعيدى، دار النهضة - مصر.

٣٢٧- النظم الإسلامية، أنور الرفاعى، دار الفكر، عام ١٩٧٣م.

٣٢٨- النظم الإسلامية للعدوى.

٣٢٩- النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، محمد بن مشيب بن سلمان القحطانى، منشورات جامعة أم القرى، طبعة عام ١٤١٨هـ.

٣٣٠- النهاية فى الفتن والملاحم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٣٣١- النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير، تحقيق محمود محمد الطناحى، دار إحياء الكتب.

٣٣٢- الوافى بالوفيات للصفدى.

٣٣٣- الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى، محمد ماهر حماده، دار النفائس مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٣٤- الوزراء للجهشيارى.

٣٣٥- الوزراء والكتاب، أبو عبد الله محمد بن عبدوس الكوفى الجهشيارى، ١٩٣٨م.

٣٣٦- الوسطية فى القرآن الكريم، د. على محمد الصَّلابى، دار الصحابة الشارقة.

٣٣٧- الوصية السياسية فى العصر العباسى، الدكتور حقى إسماعيل إبراهيم، دار الفكر للطباعة، عمان الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م - ١٤٢٢هـ.

٣٣٨- الوفادات على الخلفاء الأمويين، د. جاسم محمد البدرانى، دار الكتاب، دار المتنبى.

٣٣٩- الولاة وكتاب القضاة للكندى، أبو عمر محمد بن يوسف الكندى، مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت - ١٩٠٨م.

٣٤٠- الولاية على البلدان فى عصر الخلفاء الراشدين، د. عبد العزيز إبراهيم العمرى، ١٤٠٩هـ.

٣٤١- الوليد بن عبد الملك للكاشف.

٣٤٢- الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك، محمود شاكر، المكتب الإسلامى، ١٤١٩هـ.

٣٤٣- اليهود فى السنة المطهرة، د. عبد الله الشقارى، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٣٤٤- أمالى المرتضى، للشريف المرتضى على بن الحسين الموسوى العلوى، طبع عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ١٩٥٤م.

٣٤٥- امتداد العرب فى صدر الإسلام، صالح العلى.

٣٤٦- أمراء دمشق فى الإسلام، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة الترقى دمشق ١٩٥٥م.

٣٤٧- أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز للإمام الحافظ أبى بكر محمد بن محمد بن سليمان الباغندى المتوفى سنة ٣١٢ هـ، خرج أحاديثه وعلق عليها محمد عوامة، نشر مؤسسة علوم القرآن.

٣٤٨- أمير المؤمنين معاوية لابن تيمية، محمد مال الله، مكتبة ابن تيمية.

٣٤٩- أنباء نجباء الأبناء، لأبى عبد الله محمد بن أبى محمد بن ظفر المكى العقلى، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠م.

٣٥٠- انتشار الإسلام فى القرن الإفريقى خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، محمود محمد هملان الجبارات، ماجستير، جامعة النيلين، ١٩٩٨م - ١٩٩٩م.

٣٥١- أنساب الإشراف، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى، طبع بيروت، عام ١٩٨٩م.

٣٥٢- أهل الحل والعقد، عبد الله الطريقى، دار الفضيلة، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م الرياض.

٣٥٣- أوليات الفاروق، د. غالب عبد الكافى القرشى، المكتب الإسلامى، بيروت، مكتبة الحرمين الرياض، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

٣٥٤- إيران فى ظل الإسلام، عبد المنعم حسنين، دار الوفاء، مصر، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٣٥٥- بدائع الزهور، محمد بن أحمد بن إياس، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣٥٦- بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع، لأبى بكر بن مسعود الكاسانى المتوفى سنة ٥٨٧هـ، دار الكتاب العربى بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٣٥٧- بر الوالدين، أم حفص عبير بنت محمد التويجى، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٥٨- براءة السلف مما نسب إليهم من انحراف فى الاعتقاد، عدنان عبد القادر، دار الإيمان، الإسكندرية.

٣٥٩- بغية الطالب فى تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر بيروت.

٣٦٠- بماذا انتصر المسلمون؟ أنور الجندى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٦١- بنو أمية بين السقوط والانتحار، عبد الحليم عويس، دار الصحوة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٦٢- بهجة المجالس، ابن عبد البر.

٣٦٣- بهجة المجالس للقرطبى.

٣٦٤- تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، عبد اللطيف بن عبد القادر الحفظى، دار الأندلس، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

٣٦٥- تاريخ أبى زرعة، تحقيق شكر الله، نعمة الله القوجانى، مطبوعات اللغة العربية بدمشق.

٣٦٦- تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية، تحقيق عبد الله أنيس الطبّاع، بيروت، ١٩٥٧م.

٣٦٧- تاريخ إفريقية والمغرب، لابن الرقيق.

٣٦٨- تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى.

٣٦٩- تاريخ الإسلام فى عهد معاوية، محمد أحمد الذهبى.

٣٧٠- تاريخ الإسلام، محمد أحمد الذهبى، دار الكتاب العربى، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.

٣٧١- تاريخ الإسلام الثقافى والسياسى، صائب عبد الحميد، دار الغدير، بيروت، لبنان.

٣٧٢- تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات مصر، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.

٣٧٣- تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

٣٧٤- تاريخ الخلفاء، لجلال الدين السُّيوطي، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٧٥- تاريخ الدعوة الإسلامية لمحمد جميل، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٧٦- تاريخ الدولة الأموية، د. محمد سهيل طقوس، دار النفائس، لبنان.

٣٧٧- تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت ١٩٦١م.

٣٧٨- تاريخ الطبري، المسمى بتاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر الطبري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٧٩- تاريخ العالم الإسلامي. . الدولة الأموية في الشرق، د. محمد الطيب النجار، مكتبة المعارف الرياض، طبعة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

٣٨٠- تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، د. علي حسن الخربوطلي، دار المعارف بمصر، طبعة ١٩٥٩م.

٣٨١- تاريخ العرب المطول، فيليب حتي، ترجمة الدكتور جبرائيل جبور، دار الكشاف، ١٩٥٢م.

٣٨٢- تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للطاهر أحمد الزاوي، دار التراث العربي، ليبيا، الطبعة الثالثة.

٣٨٣- تاريخ القدس للعارف.

٣٨٤- تاريخ القضاء في الإسلام، د. أحمد عبد المنعم البهي، مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة ١٩٦٥م.

٣٨٥- تاريخ القضاة في الإسلام، د. محمد الزحيلي، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣٨٦- تاريخ القضاعى، كتاب عيون المعارف، وفنون أخبار الخلائف للإمام القاضى محمد ابن سلام بن جعفر الشافعى، مطبوعات أم القرى.

٣٨٧- تاريخ المدينة، أبو زيد عمر بن شبّه النميرى البصرى، تحقيق د. محمود شلتوت، نشر السيد حبيب، المدينة ١٣٩٣هـ.

٣٨٨- تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، الدكتور السيد عبد العزيز سالم، بيروت، ١٩٦٢م.

٣٨٩- تاريخ المغرب الكبير، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١م.

٣٩٠- تاريخ الموصل، أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم، تحقيق: الدكتور على حبيبة - طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٦٧م.

٣٩١- تاريخ اليعقوبى، دار بيروت للطباعة والنشر، طبعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٣٩٢- تاريخ اليمن ابن عبد المجيد اليمانى.

٣٩٣- تاريخ بخارى للنرشخى، أبو بكر محمد بن جعفر عَرَّبه عن الفارسية، وحققه د. أمين بدوى نصر الله الطرازى، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.

٣٩٤- تاريخ بلاد الشام، أحمد إسماعيل على، دار دمشق، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م، سوريا.

٣٩٥- تاريخ بلاد الشام، إشكالية الموقع والدَّور فى العصور الإسلامية، إبراهيم بيضون، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، دار المنتخب العربى للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.

٣٩٦- تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، عاطف رحال بيسان، بيروت لبنان الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

٣٩٧- تاريخ خلافة بنى أمية، نبيه عاقل، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٥م.

٣٩٨- تاريخ خليفة بن خيّاط، أبو عمر خليفة بن خيّاط بن أبى هبيرة الليثى، تحقيق: أكرم ضياء العمرى، الطبعة الثانية، مؤسسة الرِّسالة، دار القلم، بيروت ١٣٩٧هـ.

٣٩٩- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، د. فيليب حتى، ترجمة كمال اليازجى، طبع دار الثقافة، بيروت ١٩٥٩م.

٤٠٠- تاريخ عصر الخلافة العباسية، يوسف العش، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق.

٤٠١- تاريخ فلسطين فى صدر الإسلام د. هانى أبو الرُب، منشورات بيت المقدس، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الأول ٢٠٠٢م.

٤٠٢- تاريخ قضاة الأندلس، أبو الحسن النباهى ٧٩٣هـ، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٤٠٣- تاريخ مكة، أحمد السباعى، طبعة عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٤٠٤- تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوى، تحت الطبع.

٤٠٥- تأويل مختلف الحديث، لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى، مطبعة كردستان العلمية بمصر، ١٣٢٦هـ.

٤٠٦- تجديد الدولة الأموية، شهادة الناطور، دار الكندى، أربد، الطبعة الأولى ١٩٩٦م - ١٤١٦ هـ.

٤٠٧- تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى أو إفادة الأخبار ببراءة الأبرار، محمد العربى التبانى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٠٨- تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة فى روايات الطبرى والمحدثين، تأليف د. محمد أمحزون، دار طيبة، مكتبة الكوثر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٤٠٩- تذكرة الحفاظ، للذهبى، دار إحياء التراث العربى - بيروت.

٤١٠- ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، خلافة عمر، د. محمد صامل السُّلمى، دار الوطن.

٤١١- تطور الفكر السياسى الشيعى من الشورى إلى ولاية الفقيه، أحمد الكاتب، عمان الأردن.

٤١٢- تطوير نظام ملكية الأراضى، محمد على نصر الله، الطبعة الأولى، منشورات دار الحداثة بيروت ١٩٨٢م.

٤١٣- تفسير ابن أبى حاتم.

٤١٤- تفسير الألوسى، المسمى روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، إدارة الطباعة بالهند، بدون ذكر سنة الطبع.

٤١٥- تفسير التابعين، د. محمد بن عبد الله بن على الخضرى، دار الوطن، الرياض.

٤١٦- تفسير الرازى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، الطبعة الثالثة.

٤١٧- تفسير السعدى، للشيخ عبد الرحمن السعدى، دار ابن الجوزى، السعودية.

٤١٨- تفسير الطبرى، المسمى جامع البيان فى تأويل القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، طبعة دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٤١٩- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير القرشى، دار الفكر، دار القلم، بيروت، لبنان.

٤٢٠- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

٤٢١- تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية، الدار السلفية الهند.

٤٢٢- تفسير مجاهد، لمجاهد بن جبر المكى، تحقيق عبد الرحمن الطاهر بن محمد السورتى.

٤٢٣- تلخيص الحبير فى أحاديث الرافعى الكبير، لأبى الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى، مراجعة: السيد عبد الله هاشم اليمانى المدنى - المدينة المنورة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٤٢٤- تناقض أهل الأهواء والبدع فى العقيدة، د. عفاف بنت حسن بن محمد مختار، مكتبة الرشد، الرياض عام ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى.

٤٢٥- تنزيه خال أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان من الظلم والفسق فى مطالبته بدم أمير المؤمنين عثمان، لأبى يعلى محمد الفرّاء، دار النبلاء - عمّان ٢٠٠١م.

٤٢٦- تنظيمات الجيش فى العصر الأموى، خالد جاسم الجنابى، بغداد ١٩٨٤م.

٤٢٧- تهذيب الأسماء واللغات، للإمام النووى.

٤٢٨- تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلانى، حيدر أباد الدكن، نشر دار صادر بيروت، سنة ١٣٢٢هـ.

٤٢٩- تهذيب الكمال فى أسماء الرجال لأبى الحجاج جمال الدين يوسف المزنى، بيروت.

٤٣٠- ثمار القلوب للثعالبى.

٤٣١- ثورة زيد بن على، ناجى حسن، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م - ١٤٢١هـ.

٤٣٢- جامع الأصول فى أحاديث الرسول، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزرى.

٤٣٣- جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم لابن رجب الحنبلى، د. يوسف البقاعى، طبعة المكتبة العصرية، صيدا بيروت، الطبعة الأولى عام ١٩٩٥م.

٤٣٤- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، تصوير دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ بيروت.

٤٣٥- جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام لابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤٣٦- جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد الحميد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ.

٤٣٧- جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة.

٤٣٨- جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهدة، لأحمد زكى صفوت، طبع مكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٩٣٣م.

٤٣٩- جهاد المسلمين خلف جبال البرتات، وفاء المزروعى، دار القاهرة، طبعة عام ٢٠٠٣م.

٤٤٠- جواب أهل السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والزيدية، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، صححه وعلق عليه محمد رشيد رضا.

٤٤١- جواهر الأدب، السيد أحمد الهاشمى، مؤسسة المعارف بيروت، لبنان.

٤٤٢- جواهر الإكليل شرح مختصر خليل فى مذهب الإمام مالك، للشيخ صالح عبد السميع الآبى الأزهرى، دار المعرفة، بيروت.

٤٤٣- جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، د. محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، ١٤١٦هـ .

٤٤٤- حاشية عابدين، مطابع مصطفى البابى وأولاده.

٤٤٥- حركة الخوارج نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموى، د. لطيفة البكاى، دار الطليعة، بيروت.

٤٤٦- حركة الفتح الإسلامى، شكرى فيصل، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة ١٩٨٢م.

٤٤٧- حركة النفس الزكية، محمد العبده، دار الأرقم، الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٤٤٨- حسن البيان، عما بلغته إفريقية فى الإسلام من التطور والعمران، محمد النيفر، المطبعة التونسية ١٣٥٣هـ.

٤٤٩- حسن المحاضرة للسيوطى، المطبعة الشرقية.

٤٥٠- حقبة من التاريخ، عثمان الخميس، دار الإيمان، الإسكندرية.

٤٥١- حقيقة البدعة وأحكامها، سعيد الغامدى، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

٤٥٢- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٥٣- حياة الحسن البصرى، د. روضة الحصرى، دار الكلمة الطيبة، دمشق، ٢٠٠٢.

٤٥٤- حياة الحيوان، كمال الدين محمد بن عيسى الدميرى، المطبعة الكستلية سنة ١٤١٩هـ.

٤٥٥- خاص الخاص للثعالبى.

٤٥٦- خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على بن أبى طالب، د. على محمد الصَّلاَّبى، دار ابن كثير، دمشق ٢٠٠٤م، الطبعة الأولى.

٤٥٧- خلافة سليمان بن عبد الملك، على إبراهيم عبابنة، مؤسسة حمادة للدراسة، عام ٢٠٠٤م.

٤٥٨- خلافة عثمان، محمد بن صامل السُّلمى، مكتبة سالم العزيزية، جامعة أم القرى.

٤٥٩- خلافة على بن أبى طالب، دراسة نقدية للروايات، رسالة ماجستير من الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية ١٤١٢هـ.

٤٦٠- خلافة على بن أبى طالب، محمد صامل السّلمى.

٤٦١- خلافة معاوية د. عمر العقيلى، الرياض، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٤هـ.

٤٦٢- دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنتناوى وإخوانه.

٤٦٣- داهية العرب أبو جعفر المنصور، مؤسس دولة بنى العباس، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٣م.

٤٦٤- در الغاوية عن الوقيعة فى خال المؤمنين معاوية، لأبى محمد زكريا على القحطانى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٤٦٥- دراسات فى الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها، د. ناصر عبد الكريم العقل، مركز الدراسات والإعلام دار أشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٤٦٦- دراسات فى تاريخ المدن العربية الإسلامية، د. عبد الجبار ناجى، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٥٤م.

٤٦٧- دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، مختار العبادى.

٤٦٨- دراسات فى تطور الحركة الفكرية فى صدر الإسلام، د. صالح أحمد العلى، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

٤٦٩- دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، عبد الرحمن الشجاع، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٤٧٠- دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، د. محمد بطاينة، دار الفرقان، الأردن.

٤٧١- دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، د. عبد الحليم عويس، دار الصحوة، دار الوفاء.

٤٧٢- دفاعًا عن السلفية، عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة الصحابة، الشارقة، الإمارات.

٤٧٣- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبى بكر محمد البيهقى، تحقيق عبد المعطى قلعجى، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٧٤- دموع القّراء، محمد شومان، دار النفائس الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٤٧٥- دور المرأة العربية فى الحركة الفكرية منُذ صدر الإسلام حتى نهاية الدولة الأموية، نوال عباس حسين، جامعة بغداد، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٤٧٦- دول الإسلام، لأبى عبد الله محمد الذهبى، دار صادر، بيروت، لبنان.

٤٧٧- دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجى.

٤٧٨- دولة الأمويين د. على حبيبة، الناشر، مكتبة الشباب بمصر.

٤٧٩- ديوان أبى الأسود الدؤلى، ظالم بن عمر بن سفيان بن جندى، تحقيق محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة ١٩٦٤م.

٤٨٠- ديوان الجند، عبد العزيز عبد الله السّلومى، جامعة أم القرى، رسالة ماجستير عام ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤٨١- ديوان الردة، د. على العتوم، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٤٨٢- ديوان ذى الرمة.

٤٨٣- ديوان عبيد الله بن قيس، تحقيق محمد يوسف.

٤٨٤- ذم الدنيا لابن أبى الدنيا.

٤٨٥- ذو النورين عثمان ين عفان، محمد مال الله، مكتبة ابن تيميَّة، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٤٨٦- رأس الحسين، لابن تيمية، مطبعة المدينى، القاهرة ١٣٩٧هـ.

٤٨٧- رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية، د. حسين محمد سليمان، دار الإصلاح السعودية.

٤٨٨- رجال الفكر، أبو الحسن الندوى، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، دار ابن كثير، دمشق

٤٨٩- رسائل العدل والتوحيد، للإمام يحيى بن الحسين، تحقيق محمد عمارة، دار الهلال.

٤٩٠- رسائل توحيد الألوهية أساس الإسلام للباحث حامد عبد القادر الأحمدى، مطبوع على الآلة الكاتبة.

٤٩١- رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابن تيمية.

٤٩٢- روضة الطالبين وعمدة المفتين، للإمام محيى الدين بن شرف النووى، نشر المكتب الإسلامى، بيروت الطبعة الثانية سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤٩٣- رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، الإمارات العربية المتحدة.

٤٩٤- رياض النفوس، أبو بكر عبد الله المالكى، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة.

٤٩٥- زاد المسير فى علم التَّفسير، لأبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على الجوزى القرشى البغدادى، المكتب الإسلامى، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.

٤٩٦- زاد المعاد فى هدى خير العباد، أبو عبد الله بن القيم، حققه: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.

٤٩٧- زهر الآداب للحصرى.

٤٩٨- زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة، صالح محمد الرواضية، مكتبة جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٤٩٩- زيد بن على، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى بمصر.

٥٠٠- سبل السلام شرح بلوغ المرام، محمد إسماعيل الصنعانى، تحقيق فواز مرلى، إبراهيم الجمل، دار الكتاب العربى.

٥٠١- سراج الملوك، أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد القرشى الفهرى الأندلسى الطرطوشى، طبعة الإسكندرية، المطبعة الوطنية، ١٢٨٩هـ - ١٨٧٢م.

٥٠٢- سرح العيون لابن نباته، شرح رسالة ابن زيدون، مطبعة مصطفى الحلبى، مصر.

٥٠٣- سعيد بن المسيب، سيد التابعين. د. وهبة الزحيلى، دار القلم، دمشق.

٥٠٤- سفراء النبى ﷺ، لمحمود شيت خطاب، مؤسسة الريان، دار الأندلس الخضراء.

٥٠٥- سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، عبد العزيز الثعالبى، دار الغرب الإسلامية، بيروت ١٩٩٥م.

٥٠٦- سكب العبرات للموت والقبر والسكرات، سيد حسين العفانى، مكتبة معاذ بن جبل، مصر.

٥٠٧- سمط النجوم العوالى فى أبناء الأوائل والتوالى، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامى، المطبعة السلفية، مصر ١٣٨٠هـ.

٥٠٨- سنن ابن ماجه، للحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، المكتبة العلمية، بيروت.

٥٠٩- سنن أبى داود، للحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى، مراجعة وتعليق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية.

٥١٠- سنن الترمذى، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى، دار الفكر، ١٣٩٨هـ.

٥١١- سنن سعيد بن منصور، دار الصميعى - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٥١٢- سياسة الإنفاق العام فى الإسلام، عوف محمود الكفراوى، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٥١٣- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، مؤسسة الرسالة بيروت.

٥١٤- سير الشهداء، دروس وعبر، عبد الحميد السحيبانى، دار الوطن، الرياض، ١٤١٩هـ.

٥١٥- سيرة أبى بكر الصديق للصلّابى، دار ابن كثير، دمشق، طبعة عام ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٥١٦- سيرة الحجاج بن يوسف الثقفى ماله وما عليه، لأبى عبد الرحمن جمال بن محمد بن محمود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م - ١٤٢٤هـ.

٥١٧- سيرة الوليد بن يزيد، د. حسين عطوان، دار المعارف، القاهرة.

٥١٨- سيرة على بن أبى طالب، د. على محمد الصَّلاَّبى، دار ابن كثير، دمشق، بيروت.

٥١٩- سيرة عمر بن عبد العزيز، عفت وصال حمزة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٥٢٠- سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، أبو محمد عبد الله، دار العلم للملايين، بيروت.

٥٢١- سيرة عمر لابن الجوزى، جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن، تحقيق: محب الدين الخطيب، مطبعة المؤيد مصر، ١٣٣١هـ.

٥٢٢- شاعرات العرب، عبد البديع صقر.

٥٢٣- شجرة الإيمان للسعدى.

٥٢٤- شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف، دار الكتاب العربى، بيروت، لبنان.

٥٢٥- شخصيات إسلامية للعقاد، ضمن موسوعة العقاد، دار الفكر العربى، بيروت.

٥٢٦- شذرات الذهب، فى أخبار من ذهب، لأبى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى.

٥٢٧- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق د. أحمد سعد حمدان الغامدى، دار طيبة الرياض، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤.

٥٢٨- شرح البلاغة لابن أبى الحديد، أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله ابن أبى الحديد، تحقيق الأستاذ حسين الأعلمى، مؤسسة الأعلمى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٥٢٩- شرح الصدور ببيان بدع الجنائز والقبور لأبى عمر عبد الله بن محمد الحمادى، مكتبة الصحابة.

٥٣٠- شرح العقيدة الطحاوية، محمد على الأذرعى، خرج أحاديثها، محمّد ناصر الدين الألبانى، المكتب الإسلامى، بيروت، لبنان.

٥٣١- شرح صحيح مسلم للإمام النووى، نشر وتوزيع رئاسة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية.

٥٣٢- شعب الإيمان للبيهقى، تحقيق محمد السعيد بسيونى زغلول، طبعة دار الكتب العلمية.

٥٣٣- شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم، دار التراث القاهرة.

٥٣٤- شهيد الدار، عثمان بن عفان، أحمد الخروف، دار البيارق، دار عمّار.

٥٣٥- صحيح الأدب المفرد، محمد ناصر الدين الألبانى، دار الصديق، الجبيل.

٥٣٦- صحيح البخارى، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، دار الفكر.

٥٣٧- صحيح الجامع الصغير للألبانى، المكتب الإسلامى.

٥٣٨- صحيح سنن ابن ماجه، للألبانى، مكتبة التربية العربى لدول الخليج، الرّياض.

٥٣٩- صحيح سنن الترمذى، للألبانى، المكتب الإسلامى.

٥٤٠- صحيح سنن النسائى، للألبانى، المكتب الإسلامى.

٥٤١- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى، بيروت - لبنان.

٥٤٢- صدر الإسلام والدولة الأموية، محمد عبد الحى شعبان، الأهلية، بيروت، ١٩٨٧م.

٥٤٣- صفة الصفوة، للعلامة ابن الجوزى، طبعة أولى، حيدر أباد الدكن - الهند.

٥٤٤- صفحات من التاريخ الإسلامى فى الشمال الإفريقى، د. على محمد الصّلاّبى، دار البيارق، عمان.

٥٤٥- صلاح الأمة فى علو الهمة، د. سيد بن حسين العفانى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

٥٤٦- صور من تسامح الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين، سلامة الهرفى، دار الصحابة، الشارقة.

٥٤٧- طبقات الفقهاء، إبراهيم على الشيرازى، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربى، بيروت ١٩٧٨م.

٥٤٨- طبقات ابن سعد، دار صادر، بيروت، لبنان.

٥٤٩- طبيعة الدعوة العباسية، د. فاروق عمر فوزى، الطبعة الأولى عام ١٣٨٩ هـ.

٥٥٠- عالم الحجاز والشام، الإمام الزهرى، محمد محمد شرّاب، دار القلم دمشق.

٥٥١- عبادة بن الصامت، صحابى كبير، وفاتح مجاهد، الدكتور وهبة الزُّحيلى، دار القلم، دمشق.

٥٥٢- عبد العزيز بن مروان وسيرته وأثره فى أحداث العصر الأموى، بديع محمد إبراهيم الدليمى، د. فاروق عباس وهيب، جامعة بغداد، ١٩٩٨م.

٥٥٣- عبد الله بن الزبير، ماجد لحام، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٥٥٤- عبد الله بن الزبير، د. شحادة الناطور، دار ابن رشد عمان.

٥٥٥- عبد الله بن الزبير فقيهًا، محمد عبد الرضا هادى، رسالة ماجستير، العراق.

٥٥٦- عبد الله بن الزبير للخراشى، عبد الله عثمان الخراشى، رسالة ماجستير جامعة الملك سعود، كلية الآداب، ١٤٠٨هـ.

٥٥٧- عبد الله بن الزبير محمود شاكر، المكتب الإسلامى، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٥٥٨- عبد الله بن سبأ وأثره فى أحداث الفتنة فى صدر الإسلام، سلمان بن حمد العودة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ.

٥٥٩- عبد الله بن عمر، محيى الدين مستو، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٥٦٠- عبد الملك بن مروان وأسرته، محمود شاكر، المكتب الإسلامى ١٤١٩هـ.

٥٦١- عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، الدكتور محمد ضياء الدين الريس، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.

٥٦٢- عبقرية الإسلام فى أصول الحكم، الدكتور منير العجلانى، دار النفائس، بيروت.

٥٦٣- عثمان بن عفان، الخليفة الشاكر الصابر، عبد السّتار الشيخ، ١٤١٢هـ.

٥٦٤- عثمان بن عفان للصَّلاَّبى، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

٥٦٥- عصر الدولتين الأموية والعباسية، للصَّلاَّبى، مكتبة الصحابة، الشارقة.

٥٦٦- عصر هشام بن عبد الملك، عبد المجيد الكبيسى، جامعة بغداد قسم الآداب، عام ١٩٧٤م.

٥٦٧- عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٥٦٨- عقيدة الإمام ابن قتيبة، على العليانى، مكتبة الصديق السعودية ، ١٤١٢هـ.

٥٦٩- عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة الكرام، د. ناصر بن على عائض حسن الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض.

٥٧٠- علموا أولادكم محبة آل بيت النبى، د. محمد عبده يمانى، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.

٥٧١- علوم الحديث لابن الصلاح بشرح العراقى، مطبعة العاصمة، الفلكى - القاهرة، سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م.

٥٧٢- عمر بن عبد العزيز، صالح العلى، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.

٥٧٣- عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، دار القلم دمشق.

٥٧٤- عمر بن عبد العزيز، وهبة الزحيلى، دار قتيبة، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.

٥٧٥- عمر بن عبد العزيز للشرقاوى، دار الكتاب العربى، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٥٧٦- عمر بن عبد العزيز وسياسة رد المظالم، ماجدة فيصل، مكتبة الطالب الجامعى، مكة ١٤٠٧هـ.

٥٧٧- عمر والحسين، علاء الدين المدرس، دار الأمل، أربد.

٥٧٨- عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبو رابية، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٥٧٩- عمرو بن العاص الأمير المجاهد، د. منير الغضبان أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٨٠- عمرو بن العاص، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.

٥٨١- عوامل ازدهار الحضارات الإنسانية وانهيارها، أسيد خليل صبحى القطو، رسالة دكتوراه، جامعة القرآن الكريم، السودان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٥٨٢- عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامى، د. شوقى أبو خليل، دار الفكر، دمشق.

٥٨٣- عون المعبود شرح سنن أبى داود، محمد شمس الحقّ العظيم آبادى، ضبط وتحقيق: د. عبد الرحمن محمد عثمان، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

٥٨٤- عيون الأخبار، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية.

٥٨٥- غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان ١٩٧٩م.

٥٨٦- فاتح الأندلس طارق بن زياد، شوقى أبو خليل، دار الفكر، سوريا.

٥٨٧- فتح البارى، لابن حجر العسقلانى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٥٨٨- فتح القدير الجامع بين فنى الرِّواية والدِّراية من علم التفسير، محمد بن على الشوكانى، دار الفكر.

٥٨٩- فتنة السلطة الصراع ودوره فى نشأة بعض غلاة الفرق الإسلامية من القرن الأوّل حتى القرن الرابع الهجرى، عواطف العربى، شنقارو، دار الكتاب الجديد.

٥٩٠- فتنة مقتل عثمان، د. محمد عبد الله الغبان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٥٩١- فتوح البلدان للبلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر، بيروت، دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٥٩٢- فتوح الشام للواقدى، محمد عمر الواقدى، دار ابن خلدون.

٥٩٣- فتوح مصر لابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، نسخة عن طبعة لندن (١٩٢٠م) نشر مكتبة المثنى، بغداد.

٥٩٤- فجر الإسلام، أحمد أمين، طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ١٩٢٩م.

٥٩٥- فجر الأندلس، د. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٩م.

٥٩٦- فرائد الكلام للخلفاء الكرام، قاسم عاشور، دار طويق - الرياض، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٥٩٧- فرسان من عصر النبوة، أحمد خليل جمعة، دار اليمامة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥٩٨- فصل الخطاب فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، د. على محمد الصَّلاَّبى، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م.

٥٩٩- فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، الشيخ محمد صالح أحمد الغرسى، دار السلام، مصر.

٦٠٠- فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل، دار ابن الجوزى، السُّعودية.

٦٠١- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضى عبد الجبار أحمد الهمذانى، الدار التونسية للنشر ١٩٧٤م، تونس.

٦٠٢- فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوى، دار الوفاء بالمنصورة،١٩٩٢م.

٦٠٣- فقه الفقهاء السبعة وأثره فى فقه الإمام مالك المهدى الوافى، أضواء السلف، مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة،الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٦٠٤- فقه عمر بن عبد العزيز، محمد شقير، دار الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٦٠٥- فن الحرب الإسلامى، بسام العسلى، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ.

٦٠٦- فوات الوفيات لابن شاكر.

٦٠٧- فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر.

٦٠٨- فى التاريخ الإسلامى، شوقى أبو خليل، دار الفكر المعاصر، سوريا.

٦٠٩- فى التاريخ العباسى والفاطمى، أحمد مختار العبادى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

٦١٠- فى التأصيل الإسلامى للتاريخ، د. عماد الدين خليل، دار الوفاء، مصر.

٦١١- في التفسير الإسلامي للتاريخ، نعمان السامرائى، مكتبة المنار، الأردن.

٦١٢- فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، محمد ضيف الله بطاينة، دار الفرقان.

٦١٣- فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة التاسعة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

٦١٤- فى قصور الأمويين، الدكتور محمد رجب البيومى، مطبعة السعادة، مصر.

٦١٥- فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٦١٦- قادة الفتح الإسلامى فى أرمينية، محمود شيت خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم.

٦١٧- قادة الفتح الإسلامى فى ما وراء النهر، محمود شيت خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٨ه - ١٩٩٨م.

٦١٨- قادة فتح السند وأفغانستان، محمود شيت خطاب، دار الأندلس الخضراء، دار ابن حزم.

٦١٩- قادة فتح الشام ومصر، محمود شيت خطاب، دار الفكر.

٦٢٠- قادة فتح المغرب، محمود شيت خطاب، دار الفكر.

٦٢١- قتيبة بن مسلم الباهلى، غانم السلطانى، جامعة بغداد، د. عبد الرحمن عبد الكريم العانى.

٦٢٢- قدوة الحكام والمصلحين عمر بن عبد العزيز مجدداً ومصلحًا، د. محمد صدقى أحمد البورنوا الغزى، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م الرياض.

٦٢٣- قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد قلعجى، دار النفائس، بيروت، لبنان.

٦٢٤- قصائد الزهد لمحمد أحمد السيد، مكتبة السوادى، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٦٢٥- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، مطابع الدجوى، القاهرة.

٦٢٦- قصص لا تثبت، سليمان بن صالح الخراشى، دار الصميعى - الرياض.

٦٢٧- قضاة دمشق لابن طولون، مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق - ١٩٦٥م.

٦٢٨- قضية الثواب والعقاب، د. جابر زايد عبد السميرى، الدار السودانية، الخرطوم.

٦٢٩- قيم المجتمع، أكرم ضياء العمرى، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف القطرية.

٦٣٠- كتاب الشكر لله لأبن أبى الدنيا.

٦٣١- كتاب المتوارين للأزدى.

٦٣٢- كتاب الورع لابن أبى الدنيا.

٦٣٣- كتب حذر منها العلماء، لأبى عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار الصميعى.

٦٣٤- كشف الأستار عن زوائد البزار، على بن أبى بكر الهيثمى، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٦٣٥- كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟ محمد قطب، دار الوطن، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٦٣٦- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت.

٦٣٧- لسان الميزان، أحمد بن على بن حجر، حيدر آباد الّدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٣١هـ - ١٩١٢م.

٦٣٨- لمع الأدلة فى عقائد أهل السنة والجماعة، للجوينى، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، تحقيق: فوقية حسين محمود، الناشر، الدار المصرية.

٦٣٩- مؤتمر الجابية، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٦٤٠- مآثر الإنافة فى معالم الخلافة، للقلقشندى، تحقيق عبد الستار أحمد الفرج، عالم الكتب، بيروت.

٦٤١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى، دار الريّان، القاهرة، دار الكتاب العربى، بيروت.

٦٤٢- مجموعة الفتاوى لتقى الدين أحمد بن تيمية الحرانى، دار الوفاء، مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ.

٦٤٣- مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلى، تحقيق أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلوانى، الفاروق للنشر القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

٦٤٤- مختصر التحفة الاثنا عشرية للألوسى، للسيد محمود شكرى الألوسى، مكتبة إيشيق - استانبول، تركيا، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٦٤٥- مدارج السالكين، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقى.

٦٤٦- مدرسة الحديث فى القيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامى.

٦٤٧- مذاهب الإسلاميين، د. عبد الرحمن بدوى، دار العلم للملايين.

٦٤٨- مرآة الزمان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، عفيف الدين اليافعى، تحقيق عبد الله الجبورى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م.

٦٤٩- مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية، سعيد أبو جيب، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.

٦٥٠- مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى، دار المعرفة بيروت، لبنان، طبعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٦٥١- مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، يحيى إبراهيم اليحيى، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٦٥٢- مرويات خلافة معاوية، د. خالد بن محمد الغيث، دار الأندلس الخضراء، جدة.

٦٥٣- مستدرك الحاكم على الصحيحين، لأبى عبد الله محمد بن عبد الله النَّيسابورى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٦٥٤- مسلمة بن عبد الملك فاتح شطر الأناضول ومحاصر القسطنطينية، محمود شيت خطاب، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

٦٥٥- مسند أحمد، المكتب الإسلامى، بيروت.

٦٥٦- مشاهير علماء الأمصار، تأليف محمد بن حبان، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٣٧٩هـ.

٦٥٧- مصر فى العصر الأموى، عدنان أحمد الجنابى، جامعة بغداد.

٦٥٨- مصنف ابن أبى شيبة، للإمام أبى بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة العبسى، دار القرآن والعلوم الإنسانية، كراتشى، باكستان، ١٤٠٦هـ.

٦٥٩- مصنف عبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى، طبع المكتب الإسلامى - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ.

٦٦٠- مع المسلمين الأوائل، د. مصطفى حلمى، دار العلوم، جامعة القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٦٦١- معاوية الرجل الذى أنشأ دولة، إبراهيم الإبيارى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٦٦٢- معاوية بن أبى سفيان، بسام العسلى، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

٦٦٣- معاوية بن أبى سفيان، منير الغضبان، دار القلم دمشق، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٦٦٤- معجزة الإسلام، عمر بن عبد العزيز، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٩.

٦٦٥- معجم الأدباء، لياقوت الحموى، دار صادر، بيروت.

٦٦٦- معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابورى.

٦٦٧- مغنى المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج، الخطيب الشربينى، دار الفكر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

٦٦٨- مفاتيح العلوم للخوارزمى، محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى، حققه إبراهيم الأبيارى، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٨٤م.

٦٦٩- مقاتل الطالبيين، لأبى الفرج الأصفهانى، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.

٦٧٠- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى، النهضة المصرية.

٦٧١- مقامات العلماء بين يدى الخلفاء والأمراء، أبو حامد الغزالى، تحقيق محمد جاسم الحديثى، الطبعة الأولى، الرياض.

٦٧٢- مقدمة ابن خلدون.

٦٧٣- مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى، عبد العزيز الدورى، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر ١٩٧٨م.

٦٧٤- مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام، عبد العزيز الدورى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

٦٧٥- مكانة المعلم فى التراث العربى الإسلامى، عبد الله خليف العمادى الزبيدى، معهد التاريخ العربى والتراث العلمى للدراسات العليا.

٦٧٦- ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة.

٦٧٧- ملامح التيارات السياسية، فى القرن الأول الهجرى، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

٦٧٨- من أجل صحوة إسلامية راشدة تجدد وتنهض بالدنيا، يوسف القرضاوى، المكتب الإسلامى، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٦٧٩- من تصلى عليهم الملائكة ومن تلعنهم، د. فضل إلهى، دار ابن حزم، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، بيروت لبنان.

٦٨٠- من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية.

٦٨١- من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية، محمد عبد الرحمن المغراوى، مكتبة التراث الإسلامى، القاهرة.

٦٨٢- من قتل الحسين؟ عبد الله بن عبد العزيز، الطبعة الثانية، دار الأمل، القاهرة.

٦٨٣- مناقب أبى إسحاق الجبنيانى، أبو القاسم اللبيدى، كلية الآداب، الجزائر.

٦٨٤- مناقب أبى حنيفة، حافظ البنى الكردى، دار الكتاب العربى، بيروت ١٤٠١هـ.

٦٨٥- مناقب الشافعى، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة ١٩٧٠م.

٦٨٦- منهاج السنة، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.

٦٨٧- منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، عثمان على حسن، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٦٨٨- منهج المسعودى فى كتابة التاريخ، سليمان بن عبد الله السويكت، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

٦٨٩- منهج أهل السنة ومنهج الأشاعرة فى توحيد الله، خالد عبد اللطيف بن محمد نور، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، الطبعة الأولى عام ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٦٩٠- منهج كتابة التاريخ الإسلامى، محمد صامل العليانى السُّلمى، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦٩١- موارد الظمآن لزوائد ابن حبان، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، المكتبة السلفية القاهرة.

٦٩٢- مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، محمد بن عبد الهادى بن رزّان الشيبانى، المكتبة المكية، دار البيارق، الطبعة الأولى.

٦٩٣- مواقف حاسمة، محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٢م.

٦٩٤- موجز تاريخ تجديد الدين، أبو الأعلى المودودى، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م.

٦٩٥- موسوعة الآداب الإسلامية المرتبة على الحروف الهجائية، دار طيبة للنشر والتوزيع.

٦٩٦- موسوعة التاريخ الإسلامى، د. أحمد شلبى، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة التاسعة ١٩٩٦م.

٦٩٧- موقف الشعر من الحركة الزبيرية، محمد على الهرفى، دار المعالم الثقافية، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ.

٦٩٨- موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية، الأمين الصادق الأمين، مكتبة الرشد، الرياض ١٩٩٨م.

٦٩٩- موقف أهل السنة من أهل الأهواء والبدع، د. إبراهيم عامر الرحيلى، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى لعام ١٤٢٢هـ.

٧٠٠- ميزان الاعتدال البيجاوى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ.

٧٠١- نسب قريش، لأبى عبد الله مصعب عبد الله الزبيرى، طبع دار المعارف مصر.

٧٠٢- نحو دستور إسلامى، محمد سيد أحمد.

٧٠٣- نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامى.. نظرات وتصويب، د.عبد العظيم الديب، دار الوفاء، مكتبة وهبة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٧٠٤- نساء لها تاريخ، أم أسماء بنت عرفة بيومى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٧٠٥- نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب، على إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية.

٧٠٦- نساء من عصر التابعين، أحمد خليل جمعه، دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٧٠٧- نشأة الحركات السياسية والدينية فى الإسلام، د. فاروق فوزى.

٧٠٨- نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، د. على سامى النشار، دار المعارف، الطبعة السابعة.

٧٠٩- نظام الإسلام، الحكم والدولة، محمد المبارك، بيروت، دار الفكر ١٤٠١هـ.

٧١٠- نظام الحكم فى الإسلام بين النظرية والتطبيق، د. أحمد عبد الله مفتاح، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٧١١- نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى، ظافر القاسمى، دار النَّفائس، بيروت.

٧١٢- نظرات فى التصوف الإسلامى، د. محمد القهوجى، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٧١٣- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب للمقّرى، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٧١٤- نهاية الأرب فى فنون الأدب، أحمد عبد الوهاب النويرى، الهيئة المصرية للكتاب.

٧١٥- نيل الأوطار فى شرح منتقى الأخبار، محمد على الشوكانى.

٧١٦- هجرة القبائل العربية على البلاد المفتوحة، صالح العلى.

٧١٧- واسط فى العصر الأموى، عبد القادر المعاضيدى.

٧١٨- وجوب التعاون بين المسلمين، عبد الرحمن السعدى، المعارف، الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ.

٧١٩- وسطية أهل السنة بين الفرق،د. محمد باكريم، دار الراية - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٧٢٠- وصايا وعظات قيلت فى آخر الحياة، زهير محمود الحموى، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

٧٢١- وفاء الوفاء، على أحمد السمهودى، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربى، الطبعة الرابعة ١٤٠٤هـ.

٧٢٢- وفيات الأعيان وأبناء الزمان، لابن خلكان أبى العباس شمس الدين أحمد، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٧٢٣- وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقرى، تحقيق: عبد السلام هارون - القاهرة.

٧٢٤- ولاية الشرطة، د. نمر محمد الحميدانى، دار عالم الكتب - الرياض.

٧٢٥- يزيد بن معاوية حياته وعصره، د. عمر سليمان العقيلى، الرياض ١٤٠٨هـ .

****

فهرس الكتاب

الموضوع الصفحة

الفصل الثامن

الفتوحات الإسلامية فى عهد عبد الملك والوليد وسليمان

الفصل التاسع

عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

الفصل العاشر

ابنا عبد الملك يزيد وهشام

الفصل الحادى عشر

سقوط الدولة الأموية

من إصداراتنا

الدولة العثمانية
عوامل النهوض وأسباب السقوط
الدكتور علي محمد الصلابي

فاتح القسطنطينية السلطان
محمد الفاتح
د. علي محمد الصلابي

سيرة أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب
شخصيته وعصره
الدكتور علي محمد الصلابي

الخليفة الراشد والمصلح الكبير
عمر بن عبد العزيز
الدكتور علي محمد الصلابي

فكر
الخوارج والشيعة
في ميزان أهل السنة والجماعة
د. علي محمد الصلابي

2
الموسوعة الميسرة في
التاريخ الإسلامي
تقديم د. راغب السرجاني
السيرة النبوية - الخلفاء الراشدون - الدولة الأموية - الدولة العباسية - الدولة الفاطمية - الدولة الأيوبية - دولة المماليك - المسلمون في الأندلس - الدولة العثمانية - الأقليات المسلمة

موسوعة
المسابقات
الثقافية
5000
سؤال وجواب
محمد سعيد مرسي
قاسم عبد الله

موسوعة
المسابقات
النسائية
2500
سؤال وجواب

عظماء
الإسلام
محمد سعيد مرسي

الصحة النفسية
للطفل
من الميلاد وحتى ١٢ سنة
د/ حاتم محمد آدم

الصحة النفسية
للمراهقين

كبرى المعارك
والفتوحات الإسلامية
محمد سعيد مرسي
لا إله إلا الله